مكتبة
Telegram
Network
2020
متاهة
الأرواح
رواية
كارلوس زافون

كارلوس زافون

متاهة الأرواح

رواية

ترجمة

معاوية عبد المجيد

مقبرة الكتب المنسيّة

يشكّل هذا الكتاب جزءًا من سلسلةٍ روائيّةٍ متشابكةٍ داخل العوالم الأدبيّة لـ«مقبرة الكتب المنسيّة». ترتبط هذه الروايات بعضها ببعض عبّر شخصيّاتٍ ومواضيع متّصلةٍ فيما بينها بالثيمات السردّية، حتى لو كانت كلّ روايةٍ منها تُقدّم حكايةً مستقلةً ومكتفيةً بذاتها.

لذا فإنّه بإمكان القارئ أن يقرأ حلقات سلسلة «مقبرة الكتب المنسيّة» بشكلٍ منفصل، أو بغض النظر عن تسلسلها؛ ما سيمنحه فرصةً لاستكشاف هذه المتاهة وولوج ألغازها من دروبٍ مختلفة وأبواب متعدّدة، والتي ما إن تُحبَكَ معّا حتّى تقوده إلى قلب الحكاية.

ونُشير إلى ان كل الروايات شي من صع الخيال، وأنّ الأجراء الأربعة من «مقبرة الكتب المنسيّة» ليست استثناءً، حتّى لو كانت مستلهَمةً من مدينة برشلونة في القرن العشرين. وفي حالاتٍ نادرة، تتكيَّف مظاهرُ بعض السيناريوهات وتسلسلُها الزمنّي، وبعضُ الظروف وبعضُ المنتجات، بما يتلاءم وضرورة المنطق السرديّ؛ بحيث إنّ فيرمين، على سبيل المثال، بوسعه أن يتذوّق سكاكر السوغوس المحبّبة إلى قلبه قُبَيل أعوام من انتشارها على نطاقٍ شعبيّ واسع؛ كما بإمكان بعض الشخصيّات أن تنزل تحت القبّة الكبرى لمحطة فرنسا.

كتاب دانيال

(1)

في تلك الليلة، حلمتُ أنّي عائدٌ إلى مقبرة الكتب المنسيّة. كان عمري في المنام عشرة أعوام، وكنت أستيقظ مرّةً أخرى في غرفتي القديمة، وأنا أهجس بأنّني لم أعد أذكرُ وجهَ أمّي. وبحسب الطريقة التي تُدرَكُ فيها الأشياء في الحلم، كنت أعرف أنّ الذنب ذنبي وحدي، لأنّني لم أكن أستحقّ أن أتذكّر وجهها ولأنّني لم أكن قادرًا على إنصافها.

يدخل والدي بعد قليل، متوجّسًا من صراخي ولوعتي. يعانقني لكي يسلو عنّي، والدي الذي كان في الحلم ما يزال شابًا ولديه إجابة عن كل سؤال في هذا العالم. ثم نخرج من البيت عندما ترسم أولى خيوط الضوء مدينة برشلونة الغارقةً في بخار. يوصلني والدي إلى بوّابة البناية ليس إلّا، لسببٍ لا أفهمه؛ ويتركني كأنه يلمّح إلى أن تلك رحله ينبغي لي أن أبادر إليها بمفردي.

أباشر المشي، لكنّي أذكر أنّ حذائي وثيابي تُثقِلُ عليّ، بل وحتّى جلدي ثقيلٌ علىّ. فكلّ خطوةٍ تتطلّب جهدًا يفوق جهدّ الخطوة السابقة.

وحين أصل إلى لاس رامبلاس، يُخيّل إلي أنّ المدينة معلّقةً في لحظةٍ أبديّة. الناسُ متوقّفون كأنّهم متجمّدون كالشخوص في صورةٍ فوتوغرافيّة. ثمّة حمامةٌ كانت تهمّ بالتحليق، فتسمّرتْ في محاولةٍ مرتبكةٍ لرفرفة جناحيها. وحبوبُ الطلع المنثور ثابتةُ في الهواء كنورٍ في غبار. وقطراتُ الماء في نافورة كاناليتاس تتلألأ في الفراغ لتبدو مثل طوقٍ من دموعٍ بلوريّة.

وكنت كمن يحاول المشي تحت الماء، أتمكن بمشقّةٍ من ولوج ذلك السحر الذي أطبق على برشلونة فتوقّف الزمنْ بها، إلى أن بلغتُ بوّابة مقبرة الكتب المنسيّة. أقف هناك على أعتابها منهكًا. لا أستطيع أن أفهم ماهيّة ذلك العبء اللامرئيّ الذي كنت أجرّه ورائي وكان بدوره يُصعَب على التقدّم. أمسكتُ بمِطرق الباب وحركتُه غير مرّة، وما من أحدٍ يأتي ليفتح لي. رحتُ أطرق بقبضتيّ على خشب تلك البوّابة الكبيرة، لكن الحارس تجاهل توسّلاتي. أوقعني اليأس على ركبتيّ.

حتى إذا تأملتُ اللعنة التي جررتُها خلفي، امتلأتُ يقينًا رهيبًا بأنّ المدينة ومصيري سيبقيان مجمّدّين إلى الأبد ضمن ذلك المشهد المسحور، وأنّني لن أتمكّن من تذكّر وجه أمّي إطلاقًا.

وحينذاك اكتشفتُ وجوده، وكنت على وشك فقدان الأمل. قطعةُ معدنيّةً مخبأةٌ في جيب السترة الداخليّ المطرّز بخيطٍ أزرقَ بحروف اسمي الأولى. مفتاح. منذ متى كان هناك ولا أعرف عنه شيئًا؟ - تساءلتُ. لقد هرأه الصدأ وبات أثقل من ضميري. حملتُ المفتاح بكلتا يدي بمشقة حتى وصلتُ به إلى القفل. عليّ أن أقاوم حتى الرمق الأخير كي أدوّره فيه. وعندما ظننتُ أنني لن أستطيع فعلها البتّة، تراخي المزلاج وانفتحت البوّابة شيئا فشيئًا نحو الداخل.

ممر ملتوٍ يتوغّل في قلب المبنى القديم، مرقَّطًا بسلسلةٍ من الشموع المشتعلة التي تشير إلى الطريق. كنت أغرق في الظلمات وأشعر بالباب ينغلق خلف ظهري. فتذكرتُ حينها ذلك الممرّ

زاخِرَ الجدران برسوم الملائكة والمخلوقات الخرافيّة تتحرّي من خلف ستار الظل لكأنّها تختلج عند مروري بجانبها. سرتُ في الممرّ حتى وصلتُ تحت قوسٍ ينفتح على طاقٍ كبيرٍ فتوقفتُ عند العتبة. كانت المتاهة تتبدّى أمام ناظريّ في سرابٍ سرمديّ. لولبٌ من سلالمَ وأنفاقٍ وجسورَ وأقواسٍ، تتشابك في مدينةٍ خالدة بُنُيت بكلّ كتبِ الارض، تتعالى نحو شاهقِ القُبّة الزجاجية الهائلة.

والدتي تنتظرني هناك، في أسفل. كانت مستلقية في تابوتٍ مفتوح، يداها معقودتان على صدرها، وبشرتها شاحبة كالكفن الأبيض الذي يلفّ جسدها. شفتاها مؤصدتان، وعيناها مغمضتان. ترقد بلا حراكٍ في سلام الغياب الذي تنعم به الأرواحُ الراحلة. كنت أقرّب يدي كي ألامس وجهها. فأحسستُ بأنه باردٌ كالرخام. لكنها حينذاك فتحت عينيها وحدّقتُ إلي بنظرةٍ مسحورةٍ بالذكريات. وإذ حرّكتْ شفتيها الغامقتين وتكلّمتْ، بدت نبرة صوتها مدوّيةً كقطار شحنٍ يدهسني ويقتلعني من على الأرض، ليقذفني إلى الهواء ويتركني متأرجحًا في سقطةٍ لا تنتهي بينما يميع العالمُ من صدى كلماتها:

عليك أن تروي الحقيقة يا دانيال.

أفقتُ جَفِلًا في ظلام غرفة النوم، أتصبّب عرقًا، فوجدتُ جسد بيا مستلقيًا بجانبي. فعانقتني وحنت على وجهي.

- مجدّدًا؟ - غمغمتْ.

أومأتُ والتقطتُ نفَسًا عميقًا.

- كنت تتحدّث. في نومك.

- ماذا كنتُ أقول؟

- كلام غير مفهوم. - كذبت بيا.

نظرتُ إليها فتوهمتُ بأنها تبتسم شفقةً عليّ، أم إنّه مجرد تعبير عن الصبر.

- نم الآن. ما زالت هناك ساعة ونصف قبل أن يرنّ المنبّه، واليوم هو الثلاثاء.

يوم الثلاثاء يعني أنّه دوري في اصطحاب خوليان إلى المدرسة.

أغمضتُ عينيّ وتظاهرتُ بأنّني أغفو. وعندما فتحتُهما، بعد مرور دقيقتين، وجدتُ وجه بيا يترّبص بي.

- ما بكِ؟ - سألتُها.

انحنت إليّ ورسمت قبلَة ناعمةً على شفتي. قبلةٌ بنكهة القِرفة.

- يجافيني النعاسُ أنا أيضًا. - ألمحتْ.

رحتُ أعرّيها برفق. وكنت سأنزع اللحاف وأرميه أرضا عندما سمعتُ خطواتٍ ناعمةً عند عتبة الغرفة. أوقفتْ بيا توغُّل يدي اليسرى بين فخذيها وارتفعتْ مستندةً إلى مرفقيها.

- ماذا وراءك يا عزيزي؟

كان خوليان الصغير يراقبنا عند الباب وقد استحال ظلاً من حياءٍ وارتباك.

- هناك أحدٌ ما في غرفتي.

- غمغم.

تنهدت بيا وبسطت ذراعيها إليه. فتعجَّل الصغيرُ ليلتجئ في أحضان أمّه، فما كان منّي إلا أن رفضتُ أيَّ أمل يُعقد في الخطيئة.

- الأمير القرمزيّ؟

- سألته بيا.

فأومأ خوليان بنعم، متأثرا.

- سيذهب بابا حالًا إلى غرفتك ليطرده ركلًا، حتى لا يعود أبدًا.

رماني ابنُنا بنظرةٍ يائسة. فما النفع من والدٍ لا يبادر إلى خوض مُهمّاتٍ بطولية من هذا النوع؟ ابتسمتُ له وغمزتُ بعين.

- ركلًا.

- ردّدتُ الكلمة بكلّ ما تيسّر لي من غضبٍ لا يضاهيه الغضب.

سمح خوليان لنفسه بشبه ابتسامة. وقفزتُ من على السرير وسرتُ في الممرّ نحو غرفته. تُذكَرُني غرفتُه بتلك التي كانت غرفتي، الموجودة تحت عدّة طوابق في أسفل، حتى إنّي تساءلتُ برهةً عمّا إذا كنتُ ما أزال سجين حلمي ذاك. جلستُ بجانبه على السرير وأضأتُ المصباح الذي على الدُّرج. كان خوليان يعيش محاطًا بالألعاب التي ورث بعضَها منّي، والكتب على وجه الخصوص. وسرعان ما وجدتُ المشتبه به مختبئًا تحت المخدّة. حملتُ ذلك الكتاب المجلد بالأسود وفتحتُه عند الصفحة الأولى.

El Laberinto de los Espíritus VII

Ariadna y el Príncipe Escarlata

Texto e ilustraciones de Víctor Mataix

متاهة الأرواح VII

أريادنا والأمير القرمزيّ

النصّ والرسوم لِ فكتور ماتايكس

احترتُ أين أخبّئ تلك الكتب. فمهما حاولتُ ترقية عبقريّتي في إيجاد مخابئ جديدة، توصّل ابني إليها بسهولةٍ كأنّه يتتّبع حاسّة الشمّ. تصفّحتُ الكتاب سريعًا فانقضّت عليّ الذكريات مجدّدًا.

وعندما عدت إلى غرفتي، بعد أن نفيتُ الكتاب مرّةً أخرى إلى أعلى خزانة المطبخ - حيث كنت متيقّنًا أنّ ابني سيستدلّ على مكانه عاجلًا أم آجلًا - وجدتُ خوليان بين ذراعَي والدته. استسلم كلاهما للنعاس. توقّفتُ أراقبهما عند العتبة، محميًا بالظلام. أصغيتُ إلى أنفاسهما العميقة وتساءلتُ عمّا فعله الرجلُ الأسعد حظّا في العالم لكي يستحق هذا البخت المبهر. نظرتُ إليهما نائمين متّحدّين، لا يأبهان لهذه الحياة، ولم أستطع ألّا أن أتذكّر الخوف الذي اعتراني حين رأيتهما متعانقين هكذا في المرة الأولى.

(2)

لم أروِ هذه القصة لأحدٍ من قبل، ففي الليلة التي ولد فيها ابني خوليان، ونظرتُ إليه للمرّة الأولى وهو في أحضان أمّه، غارقًا في راحة البال التي يتفرّد بها أولئك الذين ما زالوا يجهلون المكان الرهيب الذي وصلوا إليه، تملّكتني رغبةً في الركض وعدم التوقُّف حتى بلوغ آخر العالم. كنت ما أزال فتيًّا في تلك الآونة، وما تزال الحياة كبيرةً في عيني بلا شكّ، لكنّني - رغم كلّ الأعذار التي قد أستطيع تقديمها - ما زلت أتذوّق الخزي الذي خلفتْه أعراضُ الجبن حين استحوذ عليّ يومها، ولأنّني لم أمتلك الشجاعة للاعتراف بجبني لمن كان يُلزِمُني بذلك، رغم مرور كلّ تلك السنوات.

إنّ الذكرياتِ التي تدفنها في الكتمان هي الذكرياتُ نفسُها التي لا تكفّ عن مطاردتك أبدًا. والذكرى التي تؤرِّقني كثيرًا هي لغرفةٍ ذات سقوفٍ بلا نهاية، تهبّ فيها أنفاسُ ضوءٍ مغبرًّ يتقطّر من مصباحٍ يرسم أطرافَ سريرٍ ترقد عليه فتاةً أتمّت عامها السابع عشر توًّا ورضيعُها على صدرها. عندما استعادت بيا بعضًا من وعيها، ورفعتْ أنظارها وابتسمت لي، امتلأت عيناي بالدموع. جثمتُ على ركبتيّ بجانب ذلك المرقد وأغرقتُ وجهي في حضنها. أحسستُ بيدها تأخذ بيدي وتضغط عليها بما تبقّى لها من قوى.

- لا تخفْ! - همستْ.

لكنني كنت خائفًا. وفي لحظةٍ طغى فيها الخزي حتّى ما انفكّ يلاحقني منذئذ، وددتُ لو أنّني كنت في أي مكانٍ آخر عدا تلك الغرفة، ووددتُ لو كنتُ شخصًا آخر. كان فيرمين يتابع المشهد من عند الباب، وكعادته لا بدّ أنّه قرأ أفكاري قبل أن اقولها. فما كدتُ أفتح فمي حتّى أمسكني من ذراعي، وجرّني إلى الممرّ، تاركًا بيا والطفل بصحبة خطيبته الرائعة برناردا. وكان الممرّ ممشى طويلًا وباتر الحدّ تغوص نهاياتُه في الظلام.

- هل أنت حيّ يا دانيال؟

- سألني.

فأومأتُ بهزّةٍ متثاقلة بينما كنت أحاول تعويض الأنفاس التي سقطت منّي أثناء المشي في الممرّ. وحين تهيّأتُ للعودة إلى الغرفة، استبقاني فيرمين لديه.

- انظر، عندما تقرّر الدخول إلى هناك في المرّة القادمة، عليك أن تفعلها بمزيدٍ من الشجاعة. لحسن الحظّ أنّ السيّدة بيا لم تفقد كامل قواها، ولا بدّ أنّها لم تنتبه إلى شيء. والآن، إن سمحتَ لي بتقديم النصح، أعتقد أنّنا في أمسّ الحاجة إلى استنشاق هواءٍ منعشٍ يخلّصنا من هذا الفزع كي نبادر إلى الفرصة الثانية بتألقٍ أكبر.

وبدون أن ينتظر إجابة، جرّني فيرمين من ذراعي واقتادني عبر الممرّ إلى سلّم أفضى بنا عند سياج شرفةٍ معلقةٍ بين برشلونة والسماء.

ثمة نسمة باردةً تعضّ الأجواء عن طيب خاطر، حطّت على وجهي.

- أغمضْ عينيك واستنشق ثلاث مرّات. خذ وقتك، كما لو أنّ رئتيك في حذائك. - نصحني فيرمين
- إنّها حيلةٌ تعلّمتُها من راهبٍ تبتيّ وغد، عرفتُه عندما كنت أعمل بمكتب الاستقبال والمحاسبة في بيت دعارة صغير عند المرفأ. لم يكن يعلم شيئًا، عديم الحياء ذاك...

تنفّستُ بعمق في المرّات الثلاث الموصوفة، وثلاث مرّاتٍ إضافيّة، مسبّحًا بنِعَم الهواء النقيّ التي وعد بها فيرمين ومعلّمُه التبتيّ.

شعرتُ بأن رأسي يتعرّض لدوخةٍ بسيطة، فإذا بفيرمين يسندني.

- لن يصيبك الجامود الآن، أليس كذلك؟ اصح، فالوضع يتطلّب الهدوء لا البلادة.

فتحتُ عينيّ لأجِد شوارع خاوية ومدينة غافية تحت قدميّ. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحًا، فيما تغطّ مستشفى سان بابلو في سباتٍ من ظلام، بينما كانت قلعتها المكونة من قببٍ وأبراجَ وأقواس، ترسم لوحاتٍ فسيفسائيّة تحت الضباب المتناثر من قمّة جبل كارميلو. تأمّلتُ صامتًا حيادَ برشلونة الذي لا يُرَى إلا من شرفات المستشفيات، مدينة لا تلتفت إلى مخاوف وآمال الناظر إليها، وتركتُ البردَ يتغلغل في عظامي لعلّه يصفّي رؤيتي.

- أنت تفكّر في أنّي جبان.

- قلت.

واجه فيرمين نظرتي وشدّ كتفيه لامباليًا.

- لا تهوّلِ الأمر. أفكّر بالأحرى في أنّ ضغطك منخفض واضطرابك مرتفع. لا يغيّر هذا في شيء، لكنّه يغفيك من المسؤوليّات ويجنّبك المقالب. ولحسن الحظّ أنّ الحلّ عندي.

فكّ أزرار سترته المطريّة، التي كانت مثل بازارٍ سحيقٍ بما تحتويه من أعاجيبَ تجعلها أشبَه بدكّانِة عطّارٍ محمولة، أو متحفٍ لعرض الغرائب، أو مخزنًا لاستيداع النفائس الفنيّة واللّقى الأثريّة المستخرجة من أسواقَ رخيصة ومزاداتٍ علنيّة وضيعة.

- لن أفهم أبدًا كيف تستطيع حمل كلّ هذا القذْر من الخردة وسقط المتاع على كاهلك يا فيرمين.

- فيزياء متقدّمة. طالما أنّ علم التشريح يؤيّد أنّ جسدي النحيل مكوّنٌ في معظمه من غضاريفَ وأليافٍ عضليّة، فإنّ هذه الترسانة الصغيرة سترسّخ قدميَّ لمصلحة الجاذبيّة الأرضيّة بما يتيح لي إرساءً مكينًا يقاوم هوجاءَ الريح وعُتّيَ الأمواج. وإيّاك أن تتوهّم أنّك قادرٌ بسهولةٍ على دحري بتعليقاتٍ تتبوّلها خارج الإناء، لأنّنا لم نصعد حتّى هنا لتبادل البطاقات أو إضاعة الوقت.

بعد إدلائه بذلك التحذير، أخرَجَ فيرمين من أحد جيوبه المتعدّدة قنّينةُ من التَنك وأخذ يفكّ سدّادتها. تنشّقَ محتواها كانّه يُلفحُ بعطور الجنّة وابتسم مستحسنًا. ثمّ أعطاني القنّينة وهزّ رأسه وهو ينظر في عينيّ بوقار.

- اشرب الآن وإلا ندمتَ بقيّة عمرك.

وافقتُ على مضض.

- ما هذا؟ له نكهة الديناميت...

- هراء. إنّه مجرّد كوكتيل، الغاية منه إحياء الموتى والأولاد المتخوّفين من تحمُّل المسؤوليّات التي يكلّفهم بها القدر. هذا الكوكتيل عبارة عن خلطة عظيمة من اختراعي، على أسس بعض الخمور المقطّرة واليانسون البادلونّي ممزوجة بكميّةٍ من البراندي الشرس الذي أبتاعه من الغجريّ الأحول صاحب كشك العَرَق، وبلمسةٍ أخيرة من قطرات خمر الراتافيا وكحول مونتسيرات لِدمغه بطابع الكروم الكاتالانيّة الأصيلة.

- يا أمَّ الربّ!

- هيّا، فهذا المشروب يبيِّن مَن هو المقدام ومَن هو المتخاذل.

تجرَّعْ دفعةً واحدة، كما لو كنتَ قائد كتيبةٍ يقتحم مأدبة زفاف.

أطعتُه ورشفتُ من ذلك الخليط الجهنَّميّ الذي كان بمذاق البنزين المُطعَّم بالسُكّر. أشعل المشروبُ أحشائي، وقبل أن أتمكّن من استعادة وعيي أشار إليّ فيرمين بإعادة العمليّة. لم أستجب للاعتراضات والزلزال المعويّة، فتجرّعتُ دفقةً أخرى ممتنّا للتخدير والتجهُّم اللذين أمّنهما لي مشروبُ البهائم هذا.

- كيف الحال؟ - سأل فيرمين - أفضل، أليس كذلك؟ هذه حلوى الأبطال.

أومأتُ مقتنعًا، وأنا أنفث نارًا وأرخي باقة القميص. فاغتنم فيرمين الفرصة ليشرب جرعةً من مزيجه ثمّ أعاد القنينة إلى غور سترته.

- لا شيء يضاهي الكيمياء في فنون الإحياء. ولكنْ، لا تتعلّقْ بالطريقة، فالمشروب الروحّي متل سمّ الفئران، ومثل السخاء. كّلما زدت منه قلّ تأثيره.

- اطمئنّ!

أشار فيرمين إلى السيجارين اللذين ينتان من جيبٍ آخرَ في السترة، لكته هزّ رأسه وغمز بعين.

- لقد أخبأتّهما لهذا اليوم، سيجارّين من علامة كوييبا. نهبتُهما من نائب والد زوجتي مستقبلًا، الدون غوستابو برسلوه، وهو يوشك على الموت، لكنّي أرى أن نحفظهما لمناسبةٍ أخرى لأنك لا تبدو لي في أوج صحّتك، ولا يجوز أن نجعل المولود يتيمًا في يوم ولادته.

ربّت فيرمين على كتفي برفق، ومرّر بضع لحظات، مانحًا عطور منتجه وقتها لتستشري في دمائي، وغمائم الطمأنينة الإثيليّة تغطّي إحساس الفزع الأصمّ الذي كان يجتاحني. وما إن لاحظ طبقه زجاجيّةً تتشكل في نظراتي، وحدقتاي تتوسّعان إيذانًا بغيابٍ عام للوعي، حتّى انطلق بخطبة لا شكّ في أنه كان يُعدّها طوال الليل.

- صديقي دانيال، قضى ربُك، أو من ينوب عنه في حال غيابه، أن تكون الأبوّة وإنجاب الأولاد في هذه الحياة أسهل من الحصول على رخصة قيادة السيارة. وإنّ هذه الحالة المريرة جدًا تُترجم على أرض الواقع بأن عددًا هائلا من الحمقى والأفظاظ والبُلَهاء يعتبرون أنفسهم مخوَّلين للإنجاب، ولأنّهم لا همّ لهم سوى التباهي بميداليّة الأبوّة يدمّرون هؤلاء الأولاد المنحوسين إلى

الأبد والذين أنجبوهم بالعار. وبناءً عليه، وبما أني أستمدّ شرعيّة التحدُّث من كوني أنا أيضًا أتهيّأ لتحبيل برناردا حبيبتي، عندما تشاء الغدّة التناسليّة ويأذن بذلك الزواجُ المقدّسُ، التي تعتبره هي شرطًا لا حلَّ من دونه، كي أستطيع اللحاق بركبك يا عزيزي في هذه الرحلة نحو المسؤولية العظمى المسمَّاة بالأبوّة، فإني يجب أن أؤكّد، بل أؤكّد أنك يا دانيال سيمبيري خيسبرت، ايّها المبتدئ في مستهلّ سنّ الرشد، وعلى الرغم من انعدام ثقتك بنفسك الآن، وعدم اقتناعك بأنك أصبحتَ ربَّ أسرةٍ أو تكاد، أؤكد أنّك ستكون والدًا نموذجيًا، مع أنّك غرّ وشبهُ ساذجٍ بشكلٍ عامّ.

وإذ شارفت الخطبةُ المسهبة على منتصفها، كانت عيناي قد جحظتا، بسبب مفعول الخلطة الانفجاريّة أو بسبب المفرقعات النحويّة التي أطلقها صديقي الطيّب.

- فيرمين، لستُ متأكدًا من فهم ما قلته.

تنهَّد.

- كنت أقصد أنّني أعرف جيّدا أنّك في هذه اللحظات تكاد تفقد السيطرة على عضلتك العاصرة، وأنّ هذا الحِمّل كبيرٌ عليك يا دانيال، ولكن أردّد ما قالته لك زوجتك، تلك المرأة المعظمة: لا ينبغي لك أن تخاف. لأنّ الأطفال المدلّلين، ابنك على الأقلّ، لا يولدون إلاّ إذا كان قوت يومهم مضمونًا؛ ولأنّ المرء إذا كان لديه أدني حسَّ بالحشمة والأخلاق، وبعض النقود في جيبه أيضًا، يجد وسيلةً لئلا يدمّر حياة أولاده ولكي يكون أبًا لا يخجلون من نَسَبهم إليه أبدًا.

رمقتُ ذلك الرجل النحيل الذي كان ليضحّي بروحه من أجلي، والذي كانت لديه دومًا كلمة، أو عشرة آلاف كلمة، ينقذني بها من كلّ المآزق، بما فيها ميولي آنذاك إلى الخمول الوجوديّ.

- ليتها كانت سهلةً كما تصفها يا فيرمين.

- لا شيءَ يستحق العناء في هذه الحياة سهلٌ يا دانيال. كنت في شبابي أفكّر أنّني إذا أردتُ الإبحار في هذا العالم سيكون كافيًا أن أتعلّم ثلاثة أشياء جيّدًا. أوّلًا: ربط خيوط الحذاء. ثانيًا: تعرية امرأة بدقّة. وثالثا: القراءة للتمتُّع يوميًا ببعض الصفحات المكتوبة بذكاءٍ ومهارة. كنت أظنّ أن رجلًا راسخَ القدمين في الأرض، وقادرًا على المداعبة وتعلُّم موسيقى الكلمات والاستماع إليها، يعيش عمرًا أطول، بل يعيش حياته بشكلٍ أفضل. لكنّ السنوات علّمتني أنّ ذلك لا يكفي، وأنّ الحياة أحيانًا تعطينا فرصةً للتطلّع إلى أن نكون أكثر من مجرّد حيوانٍ يمشي على قدمين، يأكل ويتغوُّط ويشغل مساحةٌ آنيّةٌ على ظهر الكوكب. واليوم شاء القدرُ، في غفلته اللانهائيّة، أن يهبك هذه الفرصة.

أومأتُ غيرَ مقتنعٍ تمامًا.

- وماذا لو كنتُ دون المستوى؟

- دانيال، إن كنّا أنا وأنت نتشابه في شيء، فهو أنّ الحظّ أنعم على كلًّ منا بنساءٍ لا نستحقهنّ. من الواضح والجليّ أنّ قيمة هذه الرحلة والمؤونة اللازمة ستكون لزامًا عليهنّ، وأنّ دورنا سيقتصر على عدم إحباطهنّ. ما قولك؟

- قولي إني أتمنّى أن أصدّقك ببساطة، لكني أستصعب ذلك.

هز فيرمين رأسه، مقلّلا من شأن المسألة.

- لا عليك! هذه أعراض الخلطة الكحوليّة التي أبلعتُك إيّاها، فتشوّش موقفُك الضعيف من بلاغتي الرفيعة. لكنّك تعلم أنّني في هذا المجال قد قطعتُ أكثر منك أشواطًا وأنّني على صوابٍ كالعادة أكثر من عربةٍ مليئةٍ بالقدّيسين.

- لا أشكّ في هذا.

خيرٌ لك، وإلاّ خسرتَ عند أوّل هجمة. هل تثق بي؟

- بالتأكيد يا فيرمين. فأنت تعلم أنّني لأذهبنّ معك حتّى نهاية العالم.

- اسمعْ منّي إذن، وثق بنفسك أيضًا، مثلما أفعل أنا.

نظرتُ في عينيه وأومأتُ ببطء.

- هل استعدتَ الوعي؟

اعتقد ذلك.

- إذن، جَمِّع هذا الوجه الحزين، وتأكّدْ من أنّ كتلتك الخصويّة في موضعها المناسب، وعُدْ إلى الغرفة لمعانقة السيّدة بيا والولد باعتبارك الرجل الذي صنعه كلٌّ منهما توًّا. لأنّني لا أشكّ في أنّ الفتى الذي تشرّفتُ بمعرفته تحت قناطر الساحة الملكية ذات مساء قبل أعوام، والذي شغل بالي على سلامته منذئذٍ، لا أشكّ في أنه كفءٌ لبدء هذه المغامرة. فأمامنا الكثير من القصص لنعيشها يا دانيال. وما ينتظرنا لن يكون لعبةً للأطفال. هل أنت معي؟ حتى نهاية هذا العالم، والتي قد تكون خلف تلك الزاوية أيضًا؟

لم يخطر في ذهني إلّا أنّ ألفّه في عناق.

- ماذا عساي فاعلٌ من دونك يا فيرمين؟

- كنت ستخطئ كثيرًا. وطالما أنّنا بتنا نتّبع التدابير الوقائيّة ذاتها، ضع في الحسبان أن أحد التأثيرات الجانبية الأكثر اعتياديّةٌ جرّاء عسر هضم الخلطة التي تشرَّبتَها للتوّ هو ارتخاء الحياء، مقترنًا باهتياجٍ معيّنٍ للعضلة العاطفية. لذا، عندما ستراك السيّدة بيا الآن داخلًا غرفتها، ركّزْ أنظارك في عينيها بحيث تعرف أنّك تحبّها حقًّا.

- هي تعرف ذلك مسبقًا.

هز فيرمين رأسه نافد الصبر.

- اسمع منّي. - قال ضاغطًا - إن كنتَ تخجل، لا داعي لقوله، فنحن الرجال خُلِقنا هكذا وهرمون التستوستيرون لا يشجِّع على الشعر.

إلّا أنّ السيّدة بيا مضطرّة لسماعه. فهذه الأشياء، ينبغي أن تقولها بل وأن تبرهن على صحّتها أيضا. لا مرّةً واحدةً كلّما توفّي حبرٌ أعظم، بل كلّ يوم.

- سأحاول.

افعل ما هو أفضل من المحاولة يا دانيال.

وهكذا، إذ حُرِمتُ على يدي فيرمين وبفضله من ملجأ المراهقة الأبديّ والهشّ، اتجهتُ نحو الغرفة التي كان ينتظرني فيها مصيري.

وبعد أعوام طويلة، كانت ذكرى تلك الليلة ستعاود ذاكرتي عندما كنت ألتجئ ليلًا إلى مستودع المكتبة القديمة في شارع سانتا آنا، في محاولةٍ جديدةٍ لمواجهة تلك الصفحة البيضاء دون أن أعرف حتّى نقطة الصّفر التي سأبدأ منها كي أفسّر لنفسي أولًا الحكاية الحقيقية لعائلتي، وكنت قد كرّستُ لهذا الأمر شهورًا أو سنواتٍ، لكنّني لم أفلح يومًا في كتابة سطرٍ واحد يُعوّل عليه.

وقرّر فيرمين أن يقوم بزيارةٍ ليليّة، إذ اغتنم الأرق الذي أصابه إزاء عسر هضم لنصف كيلو من وجبة الشيشارونيس الدسمة. وعندما رآني أحتَضَر أو أكاد أمام صفحةٍ بيضاء، لا سلاح في يدي عدا قلم الحبر الذي كان يقطر مثل سيارةٍ مستعملة، جلس بجانبي وعاين ركام الأوراق المجمَّدة والمرميّة عند قدميّ.

- لا تغضبْ منّي يا دانيال، ولكنْ هل لديك أدنى فكرة عمّا تفعله؟

- لا.

- أقررتُ

- ربّما لو جرّبتُ استعمال آلةٍ كاتبة لَتَغيّرَ كلُّ شيء. تقول الدعاية إنّ الأندروود هي خيار المحترفين.

قيّم فيرمين ما تقترحه الدعاية، لكنّه هزّ رأسه نافيًا بشدّة.

- ثمّة بحرٌ واسع بين التنضيد على الآلة الكاتبة والكتابة بالقلم.

- شكرًا على التشجيع يا فيرمين. ولكن، ما الذي تفعله أنت في هذه الأرجاء في ساعة متأخّرة؟

جَسّ فيرمين بطنه.

- عسر هضم خنزيرٍ صغير بأكمله، مقليًا، زَلزلَ معدتي.

اتريد قليلا من البيكربونات؟

- لا أفضِّل ذلك، لأنها تصيبني بانتصابٍ ليليّ، عذرًا على الكلمة، وعندها لن أستطيع إغماض عينيّ جدّيًا.

تركتُ قلمي ومحاولتي المتكرّرة في كتابة سطرٍ واحدٍ صالحٍ للاستعمال، ورحتُ أبحث عن نظرات صديقي.

- هل الوضع هنا على ما يرام يا دانيال؟ أقصد، بصرف النظر عن حملتك العقيمة ضدّ فنّ السرد...

شددتُ كتفيّ لا مباليًا. لقد ظهر فيرمين في أوانه كالعادة، ليشرّف نفسه بوصفه مُنزَّلا من السماء.

- لا أعرف كيف أسألك عن شيء، ما انفكّ يطنّ في رأسي منذ أمد بعيد. - ارتجلتُ.

غطّي فمه بيدٍ، وأطلق جشأة مكبوتة لكنّها مسموعة.

- إن كان ذلك الشيء متعلّقًا بمسائل تخصّ المخدع، خذ راحتك واسأل بلا حياء. أذكرك بأنّني في هذا المجال طبيبٌ بشهادة.

- لا، لا تخصّ المخدع.

- هذا يؤسفني، فلديّ معلوماتٌ طازجةٌ عن حيلٍ جديدةٍ تجعلك...

- فيرمين - قاطعتُ كلامه - هل تعتقد أنّني عشتُ الحياة التي كان عليَّ أن أعيشها، وهل كنتُ كفؤا لها؟

فتح فيرمين شدقه متفاجئًا. أخفض عينيه وتنهَّد.

- لا تقل لي إنّ تساؤلاتك هذه متعلّقةٌ بما تقاسيه حاليًا من استعصاء تقمُّص روح بلزاك. بحوثٌ روحانية وباقي ما تبقّى و...

- أليس المرء يكتب لكي يفهم نفسه والعالم بشكل أفضل؟

- هذا إذا كان يعرف ماذا يفعل، وتلك ليست حالتك...

- انت أسوأ مَن يعترف المرء على يديه يا فيرمين. ساعدني قليلًا.

- ظننتُ أنك تحاول أن تصبح روائيًّا، لا دَعِيَّ تقوى.

- قل لي الحقيقة. وأنت الذي تعرفني مذ كنتُ صغيرًا. هل خيَّبتُ آمالك؟ هل كنتُ دانيال الذي توقعتَه دائمًا؟ دانيال الذي كانت أمّي ستفتخر به؟ قل لي الحقيقة.

رفع فيرمين عينيه إلى السماء.

- الحقيقة هي الترّهات التي يقولها الناسُ حينما يتوهّمون أنّهم على درايةٍ بشيٍ ما يا دانيال. فأنا أعرف الكثير من الحقائق، بقدر ما أعرف عن قياس حمّالة صدر تلك الأنثى الخارقة، ذات النهدين المدبَّبين والاسم اللاسع، التي شاهدناها أمس الأوّل في سينما كابيتول.

- كيم نوفاك.

- حدّدتُ.

- فليمجِّدها الربُّ وقوانينُ الجاذبيّة. لا، لم تخيِّب آمالي يا دانيال. على الإطلاق. فأنت رجلٌ شهمٌ وصديقٌ وفيّ. وإن أردتَ معرفة رأيي، أجل، أعتقد أنّ المرحومة إيزابيلا والدتَك كانت ستفتخر بك وستراك ابنًا صالحًا.

- ولكن ليس روائيًا ناجحًا.

- ابتسمتُ.

- انظر يا دانيال، أنت تمتلك من سمات الروائيّ بقدر ما أمتلك أنا من سمات الراهب الدومينيكانيّ. وأنت تعرف ذلك. فلا قلم الحبر ولا آلة الأندروود قادران على تغيير هذه الحقيقة

تحت ضوء الشمس.

تنهدتُ وغصتُ في صمت طويل. كان فيرمين يراقبني متحيّرًا.

- أتعلم ماذا يا دانيال؟ أفكّر حقًّا في أنّني، برغم كلّ الذي قاسيناه معًا، ما أزال ذاك المنحوس المسكين الذي وجدتَه ملقًى على قارعة الطريق وحملتَه إلى بيتك من باب الرأفة، كما أنّك ما تزال ذاك الفتى الأعزل الذي يهيم على وجهه في الأرض، يتعثّر في ألغاز لا حصر لها، ويظنّ أنّه إذا حلّها، بأعجوبة محض، سيستعيد وجه والدته وذكرى الحقيقة التي سرقتها منه الحياةُ.

قيّمتُ كلماته التي أصابت هدفها بدقّة.

- وهل الخطبُ جللٌ إذا كان على هذا النحو؟

- كان من الممكن أن يغدو أسوأ. ربما تصبح روائيًّا، مثل صديقك كاراكس.

- ربما ينبغي لي حقًّا أن أبحث عن كاراكس وأقنعه بكتابة هذه الحكاية بيده.

- ركّزتُ

- حكايتنا.

- هذا ما يقوله ابنك خوليان أحيانًا.

نظرتُ إليه شزرًا.

- ما الذي يقوله خوليان؟ ما الذي يعرفه خوليان عن كاراكس؟ هل رويتَ على مسامع ابني عن كاراكس؟

اتخذ فيرمين التعابير الرسميّة للخروف المذبوح التي لطالما التجأ إليها.

- أنا؟

- ماذا قلتَ له؟

تأفّف فيرمين، مهوّنًا من شأن الحدث.

- توافه. ما يشبه الملاحظات عديمة الجدوى أسفل الصفحة.

الحال أن للولد ذكاءً ثاقبًا وإمكاناتٍ استقصائيّةً لا يستهان بها، ومن الواضح أنّه يلتقط كلّ شيء بسهولة ويربط الخيوط بعضها ببعض. ليس ذنبي إن كان الولد لبيبًا إلى أبعد الحدود. ومن الجليّ أنه لم يرث النباهة منك.

- يا أمَّ الربّ... وهل بيا تعلم أنك تحدّثتَ عن كاراكس مع الصغير؟

-أنا لا اتدخّل في حياتك الزوجيّة. لكنّني اشكّ في وجود شيْ لا تعرفه السيّدة بيا، أو لا تدركه بحدسها على الأقلّ.

- إنّي أمنعك منعًا باتًّا من التحدّث مع ابني عن كاراكس يا فيرمين.

حمل يديه إلى صدره وأومأ موافقًا برباطة جأش

- ها قد خيَّطتُ فمي. حُقَتْ عليّ لعنةُ العار السوداءُ إن أنا أخللتُ بنذر الصمت المقدَّس في لحظة هوانٍ وتشويش.

- وبالمناسبة، لا تذكرْ أمامه حتّى كيم نوفاك، فأنا أعرفك جيّدًا.

- أمّا في هذه الحالة، فإنّي بريءٌ كالحَمَل الذي يمحو آثام العالم، لأنّ صغيرك هو الذي يفتح هذا الموضوع، فهو ليس غبيّا أبدًا.

- أنت مستحيلٌ يا فيرمين.

- أقبل سهامك الظالمة بكلِّ تفانٍ لأنّني أعلم أنّ ما يحرِّضها هو خيبتك من عبقريّتك البائسة. ضع كاراكس جانبًا، هل لدى سيادتكم أسماء أخرى تودّون إضافتها إلى القائمة السوداء لغير المرحَّب بذِكرهم؟

باكونين؟ إستريلا كاسترو؟

- لِمَ لا تذهب إلى النوم وتتركني في سلام يا فيرمين؟

- كيف لي أن أتركك بمفردك هنا في مواجهة المخاطر؟ انسَ الأمر، ثمّة ضرورةً على الأقل لراشدٍ واحدٍ سويًّ الذهن بين الجمهور.

تفحَصَ فيرمين القلم وكومة الأوراق البيضاء التي تنتظر هناك على المنضدة، وهو يقيِّم تلك الأدوات مسحورًا بها كما لو أنّها عُدّة أجهزة جراحيّة.

- هل لديك فكرة عن كيفيّة البدء بهذا المشروع؟

- لا. كنت أفكّر في الأمر عندما وصلتَ وأخذتَ تهذر بفارغ الكلام.

- هراء. من دوني، لن تستطيع حتّى كتابة قائمة التسوُّق.

اقتنع في النهاية وشمَّر عن ساعديه لأداء الوظيفة الشاقّة التي تنتظرنا. جلس على كرسيًّ بجانبي وراح يحدّق إليّ بأنظاره المكثّفة كأنّنا مثل أولئك الذين يتفاهمون بلا كلمات.

- بمناسبة الحديث عن القوائم: انظر، أنا في شؤون الروائّين أفقه أقلّ ممّا أفقهه في الحِرَف اليدويّة وطريقة استعمال حزام الناسك. لكنّي أعرف أنّه ينبغي للمرء أن يحضّر قائمةٌ بالأشياء التي يودّ روايتها قبل أن يبدأ بروايتها. فلنسمّها جَرْد.

- خارطة طريق؟ - اقترحتُ.

- خارطة الطريق هي التي تخطّطها عندما لا تكون متأكّدًا إلى أين تذهب، وهكذا تقنع نفسك وبعضًا من الأغبياء بأنكم تتوجّهون إلى مكانٍ معيّن.

- الفكرة ليست سيّئة. - ألححتُ - خداع الذات هو سرّ نجاح كلّ مشروع مستحيل.

- أرأيت؟ نحن نشكّل فريقًا تشاركيًا لا يُقهَر. أنت ستدوّن الملاحظات وأنا أفكّر.

- ففكّرْ بصوتٍ جهيرٍ إذن!

- هل ثمّة ما يكفي من الحبر في ذلك القلم التافه، للقيام برحلةٍ إلى الجحيم ذهابًا إيابًا؟

- ما يكفي للشروع بها.

- والآن لا يجب علينا إلا تقرير نقطة البداية لتحضير القائمة.

- ما رأيك لو بدأنا بحكاية تعرّفك عليها؟ - سألتُه.

- من؟

- ومن غيرها يا فيرمين؟ أليس في بلاد العجائب، آليس التي تخصّنا.

عَبَرَ ظلٌّ غامضٌ وجهَه.

- لا اعتقد انّني رويتُ هذه الحكاية لاحدٍ ابدًا يا دانيال. ولا حتّى لك.

- فما أفضل بابٍ لولوج المتاهة إذن؟

- لا بدّ للرجل أن يموت حاملًا معه بعض الأسرار. - اعترض فيرمين.

- كثرة الأسرار هي التي تفضي بالرجل إلى قبره قبل الأوان.

رفع فيرمين حاجبيه متفاجئًا.

- من القائل؟ سقراط؟ أنا؟

- لا. القائل هو، وللمرّة الأولى، دانيال سيمبيري خيسبرت، الرجل العبقريّ، منذ ثانيتين.

ابتسم فيرمين متأثرًا واستلّ إحدى سكاكر السوغوس بنكهة الليمون متهيّأ لحملها إلى فمه.

- لقد استغرقتَ وقتًا طويلًا، لكنّك تتعلّم من الأستاذ أيّها اللعين.

أتريد واحدة؟

قبلتُ حبّة السوغوس لأنّني كنت أعلم أنّها أثمن ما في ثروة صديقي فيرمين برمّتها، ولأنّه كان يمنحني شرفًا عظيمًا بمقاسمته كنزه.

- هل سمعتَ من قبل بتلك المقولة المفيدة إنّ كلّ شيءٍ مسموحٌ في الحبّ والحرب يا دانيال؟

- أحيانًا. وما سمعتُها بطبيعة الحال إلّا من أفواه أولئك المتعطّشين للحرب أكثر من ميولهم إلى الحبّ.

- حقًا، لأنّها في نهاية المطاف أكذوبةٌ فاسدة.

- إذن، أهي قصّة حبُ أم حرب؟

شدّ فيرمين كتفيه.

- ما الفرق؟

وهكذا، برعاية منتصف الليل، ومع حبّتين من السوغوس وشعوذة الذكريات التي كانت عرضةً للفَناء في ضباب الزمن، بادر فيرمين بتصميم الخطوط التي ستَحْبُكُ نهايةَ - وبداية - حكايتنا...

مقتطف من

متاهة الأرواح

(مقبرة الكتب المنسية، الكتاب الرابع)،

لِ خوليان كاراكس،

منشورات النور، باريس 1992

الطبعة بإشراف إميل دو روزه كاستيلين.

يوم الغضب[1]

برشلونة

مارس عام 1938

(1)

أيقظتْه رعدةُ البحر. فتح الهاربُ عينيه فتبدّت له ظلمةٌ تهيم في لا نهاية. وحين تنبّه إلى عفن النطرون، وحركة السفينة، ورجرجة البحر يضرب هيكلها، تذكَّر أنّه ليس على اليابسة. أبعَدَ عنه الأكياس التي استخدمها مرقدًا ونهض بحذر، يستبصر ذلك البنيان الهائل من الأعمدة والأقواس الذي يشكّل عنبر الشحن في السفينة.

بدت له تلك الرؤية حلمًا، لكأنَّه يرى كاتدرائيةً غارقةً ومسكونةً بما خُيّلَ إليه غنائم مسروقة من مئات الأبنية والمتاحف. ترتسم ملامحُ مرآب عرباتٍ فخمة مغطاةٍ بستائر شبه شفّافة ما بين سلسلةٍ من اللوحات والمنحوتات. وبجانب ساعةٍ بجرسٍ ضخمة، يبرز قفصٌ يحتوي على ببغاءٍ ذي ريش مبهرٍ يراقبه بحزم ويُقدّر وضعه مهاجرًا غير شرعيّ.

بعدها بأمتار، أبصَرَ نسخةً عن تمثال داوود لميكيل أنجلو، وكان أحد المشاكسين قد توّج التمثال بطاقيّة الحرس المدنيّ. وخلف داوود، ثمّة جيشٌ طيفيٌّ من هياكل دمى الأزياء الملبَّسة بثيابٍ من حقبةٍ منقضية، كأنّها قد جُمّدت في رقصة فالس نمساويّ أبديّة. على الجانب منها، هناك كومةٌ من ملصقاتٍ دعائيّةٍ قديمة ومؤطرة، مسنودة إلى عربة جنائزية مهيبة، زجاج أبوابها من الكريستال، والنعش متضمّن داخلها. كان أحد تلك الملصقات، من فترة ما قبل الحرب، يعلن عن الكوريدا/ مصارعة الثيران في حلبة البلازا دي لاس أريناس.

وكان اسم أحدهم، «فيرمين روميرو دي توريس» يظهر في قائمة المصارعين الخيّالة. تماهت عينا المسافر المختبئ بتلك الأحرف، وكال حينذاك يدعى باسمٍ اخر سيتخلّى عنه قريبًا في رماد تلك الحرب.

هجّى الكلمات بشفتين صامتين:

Fermin

Romero de Torres

فيرمين روميرو دي توريس

اسمٌ جميل، قال في نفسه. موسيقيٌ. أوبراليّ. يرتقي إلى مستوى سيرةٍ بطوليّةٍ وجريحةٍ لهاربٍ من أجل الحياة إلى الأبد. فيرمين روميرو دي توريس - أو بالأحرى الرجل النحيل الهزيل ذو الأنف الكبير الذي سيتّخذ هذا اللقب اسمًا في يومٍ قريب - كان قد أمضى اليومين الأخيرين في أحشاء تلك الباخرة التجاريّة التي غادرت مرفأ بلنسية مساء أمس الأوّل. تمكّن من التسلّل إلى متنها بأعجوبة، وحشر نفسه في حاويةٍ كبيرةٍ معبّأة بالبنادق القديمة، متخفّيا بين شتّى أنواع الصناديق والحمولات. وكان جزءٌ من تلك الأسلحة ملفوفًا بأكياسٍ معقودةٍ بالأربطة تقيها الرطوبة، لكنّ البقيّة كانت تسافر بلا وقاية، مكدّسٌ بعضَها فوق بعض، فبدت له مُعدّةً للانفجار في وجه جنديًّ منحوس، أو في وجهه هو إذا اتكأ حيث لا ينبغي، أكثر من كونها مُعدّةٌ لضرب العدوّ.

وكان فيرمين يصول ويجول كلَّ نصف ساعة في عقدة الحاويات وصناديق البضائع، لكي يمدّدَ ساقيه ويقارعَ الكَدَرَ الذي سبّبَه البرودة والرطوبة في تقيُحهما على جدران هيكل السفينة، ولكي

يبحث عن شيء يُؤكَل أو - إذا تعذَّر ذلك - عن شيءٍ يُزجّي به الوقت. وفي إحدى جولاته، عقَدَ صداقةً مع فأرٍ ضليعٍ بتلك الأوقات العصيبة؛ وما إن مرّت فترة التشكُك الأوّليّ حتّى دنا منه على استحياء، وراح يهنأ من دفء حضنه ويشاركه قطع الجبن القاسية التي وجدها فيرمين في إحدى خزائن الأغذية. وكان لذلك الجبن طعمُ الصابون؛ وبحسب مَقدِرات فيرمين على التمييز الغذائيّ فإنّه ما من دليلٍ دامغٍ على أن بقرةٌ أو أيَّ حيوانٍ مجترّ له شأنٌ بتحضير تلك المادّة المُرَيّبة والدبقة. إلّا أنّ الحكمةَ تستوجب الرجال على الاعتراف بأنْ لا وجود لقاعدةٍ مكتوبة للمسائل المتعلّقة بالذوق؛ وإن كان ثمّة واحدة فإنّ بؤس تلك الأيام يُفسِد القول ببساطة. وهذا ما جعل الصديقين يستمتعان بالمأدبة بحماسةٍ لم تكن لتولد لولا تراكم شهورٍ وشهور من الجوع.

- يا رفيقي القارض، إنّ أهمّ فضائل النزاعات الحربيّة هو أنّ القرف يبدو لك بين عشيّةٍ وضحاها منّا من السماء، بل وحتّى البراز المعشّق بدقّة على العصا يُشعِرك بأنّه مثل خبز الباغيت الخارج تؤا من أحد الأفران الباريسيّة. وإنّ هذه الحمية التي يتّبعها العساكر في مخيّماتهم، والمكوّنة من حساءٍ من ماءٍ قذرٍ ولباب الخبز، ممزوجًا بالنشارة، تُطمئِنُ الروحَ وتطوّر حساسيّة الجوف الفمويّ، فإذا جاء ذلك اليوم أدركنا أن حتّى فلّين الجدران، في الأوقات الحرجة، يصبح بنكهة جلد الخنزير الإيبيري.

كان الفأر ينصت صابرًا إلى فيرمين بينما يتقاسمان الطعام الذي استطاع الهارب اختلاسه. وفي بعض الأحيان يغفو عند قدميه وقد أنهكه الشبع. وكان فيرمين يراقبه، مدركًا بأنّهما أصبحا صديقين لأنهما في العمق يتشابهان.

- أنت وأنا توأمٌ يا رفيق. نستعين بالفلسفة على احتمال بلايا القرد المنتصب ونوفّر ما نقدر عليه من أجل البقاء. فلتكن مشيئة الربّ أن يأتي يومٌ ليس ببعيد تندثر فيه الرئيسيّات على حين غرّة، وتتفسّخ جثثها تحت الأرض مع ديناصور الدبلودوكوس والدودو والماموث، بحيث إنّ المخلوقات الشغيّلة والمسالمة مثلك، التي تكتفي بالطعام والزنا والنوم، ترث الأرض، ولا باس إذا تقاسمتموها مع الصرصار وبعض الخنافس.

وقد يكون للفأر رأيٌ مخالف، لكنه لا يُدلي به. لأنهما كانا يتعاشيان بودّ، لا يسعى أحدهما لاستعباد الآخر، كأنّهما شريفان يبرمان اتّفاقًا. وخلال النهار كان صدى خطوات الخدم وأصواتهم يتردّد في بؤرة تجمُّع الأوساخ فيتناهى إلى مسامعهما. وفي الحالات النادرة التي ينزل فيها أحد أفراد الطاقم إلى هناك، ليسرق شيئًا ما بحُكم العادة، كان فيرمين يعود إلى مخبئه في حاوية البنادق التي خرج منها، وهكذا يُسلّم نفسه لقيلولةٍ في مهد البحر ورائحة البارود. وفي اليوم الثاني، استكشف فيرمين بازار العجائب التي تسافر متستّرةً في بطن حوت اللوياثان ذاك، فعثر على صندوقٍ يغصّ بنسخٍ راقية التجليد من الكتاب المقدّس، كيف لا وهو النبيّ يونس الجديد والباحث في أسرار الكتابات المقدّسة بدوامٍ جزئيّ. لم يبدُ له الاكتشافُ بالقوّة والجماليّة المتوقّعتين، لكنّه استعار نسخةً لانعدام قوائم أدبيّة أخرى، وراح يقرأ منها على ضوء شمعةٍ سَحَبَها هي أيضًا من مكانٍ ما، بصوتٍ جهيرٍ لنفسه ولرفيق رحلته، مقتطفاتٍ مختارةً من العهد القديم، الذي لطالما بدا له بسحر تعابيره أجزلَ من العهد الحديث.

- أعزْني اهتمامك يا مُعلّم، فالآن سنقرأ حكايةً استثنائيّةً تعبّر عن عمق المدرسة الرمزيّة، وعليها ما يكفي من توابل الختان وسفاح ذوي القربى بحيث يسارع الأخوان غريم شخصيًا إلى تبديل سراويلهما.

ومرّت الساعاتُ والأيّامُ في حِمى البحر حتّى فتح فيرمين عينيه فجرَ السابع عشر من مارس 1938 واكتشف أنّ صديقه القارض قد اختفى.

لعلّ الفأر قد ارتعدت فرائصه فزعًا من الإصغاء إلى قراءات بعض المقاطع من رؤيا القيامة ليوحنّا الرسوليّ في الليلة السابقة؛ أو أنّ الحدسَ أوحى له بمشارفة الرحلة على نهايتها وينبغي أن ينجو بجِلده.

تكدَّر فيرمين من عذاباتِ بردٍ ينخر العظام ليلةً أُخرى، فزحف حتّى الإطلالة التي تعرضها كوّةٌ تنسلُّ منها أنفاسُ الفجر القرمزيُّ. كانت النافذة المدوَّرة على مستوى خطِّ العوم أو تكاد، واستطاع فيرمين أن يرى من خلالها كيف تنهضُ الشمس لتكسو البحر بلون الخمر. قَطَعَ العنبر إلى الجانب المقابل، مُنحِّيًا عن طريقهِ صناديق المؤن وكومة دّراجاتٍ صدئةٍ ومربوطةٍ بالحبال، وألقى نظرة. اكتسحت أبخرةُ شعاع منارة المرفأ عُرضَ السفينة لتومض بدفقاتٍ آنيّةٍ سهامَ الضوء على كلِّ نوافذ العنبر. وما وراء المنارة سرابٌ من ضباباتٍ تتلوّى بين الأبراج والقُبب والأجراس، تنبسط تحته مدينةُ برشلونة. ابتسم فيرمين في سرِّه، وتناسى لوهلةٍ كلَّ البرد والرضوض التي تغطّي جسده، ثمرةً للكوارث والمناوشات التي اُبتلي بها في آخر ميناءٍ عَبَرَ منه.

- لوثيا... - غمغم مستحضرًا ذلك الوجه الذي لولا ذكراه لما ظلَّ حيًّا في أسوأ اللحظات.

أَخرجَ الظرف الذي جاء به من بلنسية من جيب سترتهِ الداخليّ، وتنهَّد. فتبدّد الحُلم باللحظةِ ذاتها. كانت السفينة أقرب إلى المرفأ ممّا تخيَّل. وإنَّ أيَّ هاربٍ يستحقّ هذه التسمية يعرف جيّدًا أنّ الصعوبة ليست بالتسلّل إلى السفينة، بل بالفرار منها سالمًا غانمًا من دون أن تراه عين. وإذا كان يأمل في النزول إلى البرِّ بقدميه شرط أن تبقى عظامه في محلِّها، فمن الأجدر أن يبدأ بإعداد خطّة الهروب. وبينما كان يسمع خطوات طاقم السفينة بوتيرة حراكٍ متزايدٍ على ظهرها، أدرك أنّها تغيِّر مسارها، وأنّ محرِّكاتها تخفِّض سرعتها لتجتاز منفذ الميناء.

أعاد الرسالة إلى محلّها وسارع لطمس البصمات الدالّة على وجوده، فخبَّأ بقايا الشموع المستعملة، والأكياس التي استخدمها مرقدًا، والكتاب المقدّس الذي أسلاه بقراءاتٍ تأمليّة، وفضلات بديل الجبن والكعك الفاسد. ثمّ أغلق ما استطاع من الصناديق التي غامر بفتحها بحثًا عن أغذية، بدقّ المسامير عليها بالكعب البالي من جزمته المُحتَضرة. وإذ تمعَّن بحذائه المتقشّف، قال فيرمين لنفسه إنّه ما إن ينزل البرّ ويوفي بالعهد الذي قطعه، فإنَّ هدفه التالي سيكون تدبير حذاء لا يبدو مسروقًا من مشرحة. وفيما كان الهارب منهمكًا في العنبر، استطاع أن يرى من خلال الكِوى دخولَ السفينة في مياه ميناء برشلونة.

ألصق أنفه بزجاج الكوّة مرّة أخرى، فاقشعرّ بدنه إذ تراءى له جانبٌ من القلعة التي تضمّ السجن العسكريّ على قمّة جبل مونتويك، وهي تهيمن على المدينة مثل طائرٍ مفترسٍ.

- توخَّ الحذر وإلّا انتهيتَ هناك... - همس.

كان التمثال الهرميّ لكريستوفر كولومبس يتبدّى في البعيد، مصوِّبًا إصبعه إلى الوجهة الخاطئة كالعادة، متوهِّمًا بأنَّ القارَّة الأمريكيّة هي أرخبيل الباليار. وخلف المستكشف التائه، تنفتح منافذ لاس رامبلاس لتصعد نحو قلب المدينة القديمة، حيث كانت لوثيا بانتظاره. تصوَّرَها لوهلةٍ تعبق بالعطور تحت شراشف السرير. حتّى أبعَدَ العارُ والذنبُ تلك الرؤية من أفكاره. لقد خان العهد.

- ملعون. - نَعَتَ نفسه.

مرَّت ثلاثة عشر شهرًا وسبعة أيّام مذ رآها آخر مرّة؛ ثلاثة عشر شهرًا مرّت عليه كأنّها ثلاثة عشر عامًا. تمكَّن أن يختطف صورةً أخيرةً قبل أن يعود إلى مخبأه: جانبٌ من عذراء الرحمة، شفيعة المدينة، على قمّة قبّة كاتدرائيّتها قبالة الميناء، في محاولةٍ لا تنتهي للتحليق فوق سطوح برشلونة. لقد أوصاها بروحه وجسده القانط، فعلى الرغم من عدم دخوله كنيسة منذ أن كان في ربيعه التاسع، حيث دخل المصلّى في مسقط رأسه بالخطأ، ظنًّا منه أنّها المكتبة العامّة، أقسم فيرمين باسم مَن يستطيع سماعه ويرغب في ذلك، أنَّ العذراء - أو أحد نوّابها ذوي السُّلطات السماويّة - إذا تشفّعتْ له وساعدتْه في الوصول إلى غايته دون أَضرارٍ خطيرة أو جروحٍ قاتلة، فإنَّه سيَنذُرُ حياته تانيةً لرحاب التصوُّف الروحيّ وسيصبح زبونًا دؤوبًا لمصانع الكتيّبات الدينيّة. وحين انتهى من القَسَم، صلّى مرّتين بإشارة التثليث وسارع للتخفّي مجدّدًا في حاوية البنادق، مستلقيًا على سرير الأسلحة مثل المتوفَّى في نعش. وما كاد يغلق الغطاء، حتّى لمح صديقه الفأر يراقبه من أعلى كومةٍ من الصناديق التي تصل إلى سقف العنبر.

- حظًّا سعيدًا يا رفيقي! - غمغم له بالفرنسيّة.

وبعد لحظة واحدة، غاص في ظلماتٍ بنكهة البارود، فيما مزَّقتْ برودةُ معدن البنادقِ جِلده، وقد حُدِّدَ مصيرُه حتميًّا.

(2)

أحسَّ فيرمين بعد قليل بأنَّ دويَّ المحرِّكات يخبو، وأنَّ السفينة تتمايل على رِسْلِها في مياه المرفأ الهادئة. وبناءً على حساباته، ما زال هناك وقتٌ كي يصلوا إلى الرصيف. فبعد توقُّف السفينة عند محطّتين أو ثلاث خلال الرحلة، تعلَّمتْ أذنا فيرمين قراءة بروتوكول تنافر الأصوات المتصاعدة من مناورات الرسوِّ وإنزالِ الحبال وتتابُع طَرْقِ بَكَراتِ المرساة وأنين السفينة من شدّة الضغط على هيكلها لسحبها نحو الرصيف. وبصرف النظر عن خطواتٍ وأصواتٍ في ارتباكٍ غير معهود على ظهر السفينة، لم يتمكَّن فيرمين من تحديد أيٍّ من تلك الإشارات.

لقد قرّر القبطان، لسببٍ ما، أن يوقف السفينة قبل الأوان؛ وكان فيرمين قد تعلَّم أثناء الحرب في السنتين الماضيتين أنَّ الأمور المفاجِئة غالبًا ما تحدث بالتزامن مع تلك المؤسفة، فضغط على أسنانه وصلَّى بالتثليث مرَّة أخرى.

- أيّتها العذراء الحبيبة، لَأكْفُرَنَّ بمبدأ اللا أدريّة الضلاليّ، وبخبث إرشادات الفيزياء الحديثة - غمغم وهو في إقامته الجبريّة بذلك التابوت الذي تقاسمه مع بنادقٍ من أردأ النوعيّات.

لم تتأخّر مناجاته في الحصول على ردّ. شعر فيرمين بما بدا له مركبًا آخر، أصغر حجمًا، يدنو ويلامس عُرض السفينة. وبعد لحظات، دوّت أصداءُ خطىً ثقيلة - لكأنّها عسكريّة - على المتن لتختلط بصياح أفراد الطاقم. ابتلع فيرمين ريقًا. إنّهم يتعرّضون لمداهمة.

(3)

«ثلاثون عامًا في البحر، ولا تعترضك المخاطر إلّا عندما ترسو على اليابسة»، كان القبطان آرايث[2] يحدِّث نفسه وهو يراقب من سطح السفينة الأعلى مجموعةَ الرجال الذين صعدوا ميسرة السفينة توًّا. كانوا يُشْهِرون بنادقهم متوعِّدين، يُقصون أفراد الطاقم هنا وهناك ويُفسحِون المجال للرجل الذي بدا أنَّه زعيمهم. كان آرايث أحد أولئك البحّارة الذين شُويَ جلدهم وشعرهم من كثرة تعرُّضهم للشمس وأحماض النطرون، والذين كانت نظراتهم السائلة تبدو متشابكةً بحجابٍ من دموع. كان في شبابه يظنّ أنَّ الإبحارَ بحثٌ عن المغامرة، لكنَّ الدهر علَّمه أنَّ المغامرة في انتظاره دائمًا على أرصفة المرافئ، بنوايا مبيَّتة.

لم يكن هناك شيءٌ يخشاه في البحر، في حين أنَّ اليابسة تغزوه بالغثيان، وخصوصًا في تلك الأيام.

- برميخو، خُذ جهاز الإرسال وأرسلْ إشارةً إلى الميناء، أعلِمْهُم بأنَّهم أوقفونا مؤقتًا، لذا سنتأخّر في الوصول قليلًا.

اصفرَّ وجه برميخو، نائبه الأوّل، وكان بجانبه قد بدأ بإظهار ارتجافه الذي ما انفكَّ يراوده في الأشهر الأخيرة بسبب القصف والمناوشات. برميخو المسكين، الذي كان عريفًا سابقًا في الملاحة النهريّة بنهر الوادي الكبير، ليس شجاعًا بما يكفي لهذا العمل.

- مَن أقول إنَّه أوقفنا، أيَّها القبطان؟

حطَّت نظرات آرايث على الرجل الذي وصل إلى ظهر السفينة توًّا.

متدثّرًا بسترةٍ مطريّة سوداء، ومزوَّدًا بقُفّازاتٍ وقبّعةٍ عريضة الحوافّ، الوحيد الذي لا يبدو أنّه مسلَّح. راقبه آرايث كيف يسير ببطء على متن السفينة. كانت تصرُّفاته تشي بهدوءٍ ولامبالاةٍ محسوبَين. عيناه المختبئتان خلف النظّارة داكنة اللون تمسحان وجوه أفراد الطاقم، ووجهه يخلو من أيِّ تعبير. توقَّفَ أخيرًا وسط ظهر السفينة، ورفع نظراته نحو سطحها الأعلى، فنزع النظّارة وهو يلفظ تحيَّةً بابتسامةٍ كابتسامات الزواحف.

- فوميرو. - غمغم القبطان.

بدا أنَّ برميخو قد ضاق بعشرة سنتمترات منذ أن شرع ذلك الرجل في التجوّل هناك، فنظر إليه وقد ابيضّ وجهه كالجصّ.

- مَنْ؟ - تمكّن من لفظ هذه الكلمة.

- مباحث سياسيّة. انزلْ ونبِّه الرجال بعدم التصرُّف بحماقة. ثمّ أرسِلْ إشارةً إلى الميناء، مثلما قلتُ لك.

أومأ برميخو، لكنّه لم يبرح مكانه. فحدَّق إليه آرايث.

- انزل يا برميخو. وحاولْ ألّا تتبوَّل على نفسك، حبًّا بالله!

- بأمرك أيّها القبطان!

ظلّ آرايث بمفرده لحظاتٍ على السطح. كان النهار صافيًا، والسماوات تبدو من زجاجٍ رائقٍ تتخلّله لمساتٌ من غيومٍ هاربه كانت ستغري رسّام لوحاتٍ مائيّة. لكنّه فكّر برهةً في ما إذا كان عليه أن يحمل مسدس الريفولفر الذي يحفظه في خزانةٍ مقفلةٍ من قُمْرَتِه؛ إلّا أنَّ سذاجة الفكرة رسمتْ على شفتيه ابتسامة مريرة. التقط نفسًا عميقًا، وعقد أزرار سترته المنفرطة، ونزل من السطح الأعلى إلى حيث كان أحد معارفه القدامى في انتظاره وهو يداعب سيجارة بين أصابعه.

(4)

- قبطان آرايث، مرحبًا بك في برشلونة.

- شكرًا حضرة الملازم.

ابتسم فوميرو.

- لقد ترَّفعتُ إلى رتبة قائد.

أومأ آرايث مُركِّزًا أبصاره على تلك العدستين القاتمتين اللتين لا تسمحان بتكهُّن الجهة التي تروم إليها عينا فوميرو الثاقبتان.

- تهانينا.

قدَّم فوميرو إليه إحدى سجائره.

- لا، شكرًا.

- إنّها نوعيّةٌ فاخرة. - ألحَّ فوميرو - أمريكيّةٌ شقراء.

قَبِلَ آرايث السيجارة ووضعها في جيبه.

- هل تودّ التحقُّق من الوثائق والتراخيص، حضرةَ القائد؟ كلُّ شيءٍ هنا نظاميّ، مُصَدَّقًا بالتصاريح وأختام الحكومة...

أبدى فوميرو لامبالاته، ونفخ غيمةً من الدخان وهو يحدِّق إلى جمرة سيجارته، بابتسامةٍ طفيفة.

- إنّني متأكّدٌ مِنْ أنَّ وثائقك نظاميّة. ولكن، قل لي: ماذا لديك في عنبر الشحن؟

- مؤن. أدوية، أسلحة وذخائر. وعدّة قِطعٍ مختلفة من مِلكيّاتٍ مصادَرة لنقلها إلى المزاد العلنيّ. قائمة الجرد المصدَّقة بالختم الحكوميّ لمفوضيّة بلنسية تحت تصرُّفكم.

- لم أكن أتوقّع منك أقلّ من ذلك أيّها القبطان. لكنَّ هذا الأمر يعنيك أنت وسلطات الميناء والجمارك. أمّا أنا لستُ سوى خادمٍ بسيطٍ للشعب.

أومأ آرايث بهدوء، مذكِّرًا نفسه بأنَّه لا ينبغي أن يحيد نظراتهِ أبدًا عن تينك العدستين السوداوين والمنيعتين.

- هلّا أعلمتني يا حضرة القائد عمّا تودّون البحث عنه؟

أشار إليه فوميرو بأن يتبعه، ومشيا على ظهر السفينة على مرأى من جميع أفراد الطاقم مترقِّبين. توقَّف فوميرو بعد عدّة دقائق، سحب من سيجارته مجَّةً أخيرة، ورمى عقبَها إلى الماء. اتكّأ على السياج يرنو إلى برشلونة كما لو أنَّه لم يرها من قبل.

- هل شممتَها أيّها القبطان؟

تمهَّلَ آرايث قليلًا قبل أن يردّ.

- لم أفهم جيّدًا عمّا تلمّح يا حضرة القائد.

ربّت فوميرو على ذراع القبطان برقّةٍ.

- تنفَّسْ عميقًا. خذ وقتك كاملًا. سترى كيف تشمُّها.

تبادل آرايث نظرةً مع برميخو. ونظر أفراد الطاقم كلٌّ إلى زميله مشتَّتين. التفت فوميرو ودعاهم إلى الاستنشاق بإيماءةٍ منه.

- ها. ما رأيكم؟

حاول آرايث أن يجبر نفسه على ابتسامةٍ لم تصل إلى شفتيه.

- أمّا أنا أشمُّها جيّدًا. - قال فوميرو - لا تقل لي إنّك لم تلاحظها.

هزَّ آرايث رأسه غير مقتنعٍ كليًّا.

- لقد شممتَها بالتأكيد. – ألحَّ فوميرو - مثلي أنا ومثل جميع الحاضرين. إنَّها رائحة فأر. الفأر القذر الذي خبَّأتَه أنت في السفينة.

قطَّب آرايث جبينه مرتبكًا.

- أوكّد لك أنّني...

رفع فوميرو كفّه لكي يُخرِسه.

- عندما يتسلّل إليك فأر، فما من وسيلة للتخلُّص منه. تدسّ له السمّ فيأكله. تنصب له الفخاخ فيتغوّط عليها. الفأر هو المخلوق الذي يصعب هزمه. لأنّه جبان. لأنّه يختبئ. لأنّه يتوهّم أنّه أدهى منك.

تمهَّلَ فوميرو بضع لحظات ليتذوَّق كلماته.

- وهل تعلم ما أنجع طريقة لدحر الفأر أيّها القبطان؟ لتقضي عليه مرّةً واحدة وإلى الأبد؟

هزّ آرايث رأسه نافيًا.

- لا أعلم يا حضرة القائد.

ابتسم فوميرو مبرزًا أسنانه.

- بالتأكيد لا تعلم. لأنّك رجلٌ خُلِقَ للبحر ولا حاجة إليك بمعرفة هذه الأشياء. هذا عملي. وهذا هو السبب الذي دفع الثورة إلى اعتمادي. لاحظْ أيها القبطان. لاحظْ وتعلَّمْ.

وما كاد آرايث ينطق بكلمة حتّى ابتعد فوميرو نحو رأس السفينة متبوعًا بأزلامه. وحينذاك أدرك القبطان أنَّه أخطأ التقدير. فوميرو كان مسلَّحًا. إذ لوَّح بمسدّس الريفولفر اللامع، شبيه التحفة. واجتاز ظهر السفينة مُبعِدًا كلَّ أفراد الطاقم عن طريقه بلا احترام، وتجاهَلَ مدخل الكبائن. كان

يعرف إلى أين يتّجه. وبإشارةٍ منه، طوَّقَ رجاله باب عنبر الشحن المُغلق، وانتظروا أوامره. انحنى فوميرو على الصفيحة المعدنية وطرق عليها ببراجم يده بخفّة، كأنَّه يطرق باب صديقٍ قديم.

- مفاجأة. - نَغَّمَ قائلًا.

عندما انتهى رجاله من تحطيم ذلك الباب، وانكشف باطن السفينة على ضوء النهار، رجع آرايث إلى الخلف لكي يلتجئ في السطح الأعلى. لقد سَبَقَ له أن رأى وتعلَّم بما فيه الكفاية خلال الحرب التي امتدّت عامين. والمشهدُ الأخير الذي رآه هو أنّ فوميرو كان مثل القطّ يلحس شفتيه قبل أن يغطس في عنبر الشحن، والمسدَّسُ في قبضته.

(5)

بعد يومين من حَبسه في العنبر الذي لم يستنشق فيه إلّا الهواء الفاسد نفسه، أحسّ فيرمين بنسمةٍ منعشةٍ ونقيّة تدخل من الباب وتتسرّب بين وصلات حاوية الأسلحة التي كان مختبئًا فيها. ثنى رأسه على أحد الجانبين، واستطاع أن يلمح من المنفذ ما بين الغطاء والجانب مروحةً من حُزَمٍ ضوئيّةٍ مغبرّة تكتسح العنبر. مشاعل.

وكان النور الأبيض والبخاريّ يلامس أطراف البضائع المشحونة، فيُبرِز شفافيّة الستائر التي تغطّي السيّارات والأعمال الفنيّة. دنا وقْعُ الخُطى والأصداء المعدنيّة التي تتردّد في بؤرة الأوساخ شيئًا فشيئًا.

ضغط فيرمين على أسنانه وراح يكرّر في سرّه كلّ الخطوات التي اتّبعها حتّى العودة إلى ملاذه. الأكياس، الشموع، فضلات الطعام، والبصمات التي من الوارد أنّه خلّفها على امتداد الممرّ. كان يعتقد أنّه لم يغفل عن شيء. وقال لنفسه إنّهم لن يعثروا عليه هناك أبدًا. أبدًا.

فإذا به يسمع ذلك الصوت الحادّ والمألوف ينطق اسمه كما لو أنّه يشدو الألحان، فارتعشت ركبتاه مثل قالب الجلاتين.

فوميرو.

بات تردُّد الصوت والخطى أقرب فأقرب. أغمض فيرمين عينيه؛ مثلما يغمضهما طفلٌ أرهبه دويٌّ غامضٌ في قلب ظلام غرفته، لا لأنّه يظنّ أنَّ الإغماض سيحميه، بل لأنَّه لا يجرؤ على التعرُّف إلى ذلك الطيف الذي يظهر من أحد جوانب السرير ليُطبِقَ عليه. وفي تلك اللحظة أحسَّ الهارب بالخطى تدنو منه على مقربة سنتمترات، ببطء شديد. تلمَّس فوميرو بأصابعه المُغمَّدة بالقفّازات غطاءَ الحاوية، كما لو أنَّها ثعبانٌ يزحف على السطح. وكان يدمدم لحنًا ما؛ فحبس فيرمين أنفاسه وأبقى عينيه مغمضتين. تقَطَّرَ جبينه بالعرق ما اقتضى أن يشدّ قبضتيه كي لا ترتجفا. لم يجرؤ على تحريك أيّ عضلة، خشية أن يُصدِر جسمُه أدنى صوت إذا ما احتكّ بأكياس البنادق.

ربما كان قد أخطأ. ربما كانوا سيعثرون عليه. ربّما لا وجود لأيّ مكانٍ بالعالم يستطيع التستُّر فيه ليبقى على قيد الحياة مدّة يومٍ إضافيٍّ فيروي حكايته. ربّما، بعد كلّ هذا العذاب، كان ذلك اليومُ - ككلّ الأيّام الأخرى - مناسبًا للرحيل. وطالما أنَّ الأمر كذلك، لم يكن ليمنعه أحدٌ من رفس غطاء الحاوية ومواجهتهم بإحدى تلك البنادق التي كان مستلقيًا عليها. فأنْ يموتَ مُغربَلًا بالرصاص في غضون ثانيتين لَأهونُ عنده من الموت على يدي فوميرو وألعابه البهلوانيّة جرَّاءَ أسبوعين من الشَّبْحِ على السقف في إحدى زنازين قلعة مونتويك.

تحسَّس حوافّ أحد تلك الأسلحة بحثًا عن الزناد وأمسكه بقوّة.

وحتّى تلك اللحظة، لم يخطر في باله ترجيحُ أن يكون السلاح فارغًا.

لا يهمّ، قال في سرّه. فبالتصويب من هناك، كان قادرًا على سحق نصف ساق أحدهم أو أن يسدّد طلقة في عين تمثال كولومبوس. ابتسم للفكرة واحتضن البندقيّة على صدره، ليبحث عن القادح.

لم يجرِّب إطلاق النار من قبل، لكنّ الحظّ يحالف الأغرار دومًا، كما أنّ المسألة تستحقّ تصويتَ ثقةٍ واحدًا على الأقل. هيَّأ القادح واستعدّ لتفجير رأس الدون فرانشسكو خافيير فوميرو على طريق الفردوس أو الجحيم.

إلّا أنّ تلك الخطوات ابتعدت بعد قليل، لتحمل معها فرصة المجد، مُذكِّرةً إيّاه بأنّ العشّاق الكبار - سواءً بالخبرة أم بالموهبة - لا يولدون ليصبحوا أبطالًا في اللحظة الأخيرة. سمح لنفسه بالتقاط نَفَسٍ عميق ثمّ وضع يديه على صدره. كانت ثيابه ملتصقة بجسمه كما لو أنّها جِلدٌ إضافيّ. فوميرو وعسسُه يبتعدون. تخيَّلَ فيرمين أطيافهم تتوه في ظلمات العنبر وابتسم منتشيًا. ربّما لم تكن هناك إخباريّةٌ أو وشاية، ربما تعلَّقَ الأمر بمجرّد تفتيشٍ روتينيّ.

وها قد توقَّفت الخطوات حينئذٍ. ساد صمتُ المقابر على المكان ولم يتسنَّ لفيرمين أن يسمع شيئًا ما عدا نبضات قلبه. وحينها، أحسَّ بزفيرٍ أصمّ، ووخزةٍ خفيفةٍ وناعمة تطوف حول غطاء الحاوية، على بُعد سنتمترات من وجهه. فعرفه من خلال رائحته الواهنة، المتراوحة بين الحلو والحادّ. إنّه رفيق رحلته، الفأر، كان يشتمُّ بين فتحات العوارض متتبِّعًا رائحة صديقه أغلب الظنّ. تهيَّأ فيرمين ليهمس بخفَّةٍ كي يبعده فإذا الدويُّ الهائل يكتسح العنبر كلّه.

سحقت الطلقةُ، ذات العيار الثخين، جسدَ القارض باللحظة ذاتها، وثقبت غطاء الحاوية بسهولة مُحدِثةً شرخًا على بُعد خمسة سنتمترات من وجه فيرمين. تقطَّرت دماءُ الفأر من بين الفتحات وسالت على شفتيه. شعر بوخزةٍ عند ساقه اليمنى، فثنى رأسه ليكتشف أنّ الطلقة في مسارها كادت تصيبه إذ مزَّقت بنطلونه قبل أن تخترق الخشب بخروجها من الحاوية. ثمّة خطٌّ من ضوءٍ سرابيٍّ يجتاز ظلمة مخبأه على طول مسار الطلقة. سمع فيرمين خطواتهم تعود إلى الخلف وتتوقّف بالقرب منه. جلس فوميرو القرفصاء بجانب الحاوية. فاستشعر فيرمين لمعان عينيه من خلال الفتحة الصغيرة بين الغطاء والجانب.

- كعادتك، تعقد صداقاتٍ مع الحثالة، ها؟ كان عليك أن تسمع صرخات زميلك أمانثو عندما قال لنا أين سنجدك. لا يلزمنا إلّا شريطان كهربائيّان، نوصلهما بخصيتيكم أيّها الأبطال، حتّى تطربونا بالزقزقة كالحساسين.

حين واجه تلك النظرات، وتذكَّر كلَّ ما يعرفه عنها، أحسّ فيرمين بأنّه لو لم يتعرَّق تلك الشجاعة القليلة التي أبقته حبيسًا في ذلك الناووس المليء بالأسلحة، لكان قد تبوَّل على نفسه من هول الفزع.

- رائحتك مقرفة أكثر من رائحة زميلك الفأر. - همس فوميرو - أعتقد أنّك بحاجةٍ إلى الاستحمام.

سمع فيرمين رجالَ فوميرو يعربدون وهم يحرِّكون الصناديق ويرمون الأغراض في العنبر. لم يتحرّك قيد أنملة في خضّمِ كل ما كان يحدث حوله. ولم تكن عيناه تتفحّصان إلّا ظلام داخل الحاوية كعينَيِ أفعى تدخل وكرها بكامل الصبر. وبعد قليل، تعرَّضت الحاوية لضربةٍ مكثّفة، فظنّ فيرمين في البدء أنّهم ينوون تحطيمها. لكنّه رأى رؤوس المسامير تُدقُّ على سطح الغطاء فأدرك أنّهم كانوا يختمون محيط الحاوية بإحكام. فاختفت ثقوب الملمترات القليلة بلحظة واحدة. لقد دفنوه في مخبأه.

شعر بأنّ الحاوية تتحرّك على دفعات، وأنَّ عددًا من طاقم السفينة ينزلون إلى العنبر، تنفيذًا لأوامر فوميرو. فتخيَّلَ البقيّة بنفسه. كأنَّ نفرًا من الرجال يرفعون الحاوية من مقابضها وأحزمتها. سمع انزلاق السلاسل وخضّة الرافعة تشدّه بعنف إلى أعلى.

(6)

كان آرايث وفريقه يشاهدون الحاوية معلّقةً على ارتفاعِ ستّة أمتار فوق السطح الأعلى، تترنّح في ملعب الريح. ظهر فوميرو من عنبر الشحن وهو يرتّب النظّارة الغامقة على عينيه، ويبتسم متأثّرًا. رفع أنظاره نحو السطح وأدّى تحيّةً عسكريّة مستهزئًا.

- بالإذن أيّها القبطان، سنتابع عمليّة القضاء على الفأر بطريقةٍ مفيدة لا مثيل لها.

أوعز فوميرو إلى عامل الرافعة بخفض الحاوية بضعة أمتار حتّى وصلت إلى مستوى وجهه.

- ألديك طلبٌ أخير أو توبة؟

كان أفراد الطاقم يراقبون الحاوية بألسنٍ معقودة. بدا أنَّ الصوت الوحيد الذي صدر من الداخل يوحي بأنين حيوانٍ مرعوب.

- هيّا، لا تبكِ. فالأمر ليس خطيرًا إلى هذا الحدّ. - قال فوميرو- ثمّ إنّني لن أرضى بأن تبقى بمفردك. سترى أنّ هناك عددًا كبيرًا من أصدقائك ينتظرونك في الأسفل، بفارغِ الصبر...

ارتفعت الحاوية مرّة أخرى في الهواء وبدأت الرافعة تدور حول متن السفينة. وعندما صارت الحاوية معلّقةٌ فوق عشرة أمتار عن المياه، التفت فوميرو ثانيةً إلى أعلى. كان آرايث يحدِّق إليه بنظرةٍ زجاجيّة، وهو يغمغم ما بين نفسه: «ابن العاهرة»..

أومأ حينذاك، فهوت الحاوية، بما فيها من مئتي كيلو من البنادق وخمسين كيلوغرامًا من جسد فيرمين روميرو دي توريس، هوت في المياه الباردة والداكنة لميناء برشلونة.

(7)

منحته السقطةُ في الفراغ بعض الوقت للتشبُّث بأحد جوانب الحاوية. وعند ارتطامها بالماء، قفزت كومةُ البنادق واصطدمت بقوّةٍ بالسقف. وظلّت الحاوية بضع ثوانٍ تطفو على سطح الماء، تتمايل مثل العوّامة. جاهد فيرمين لينزع عنه عشرات البنادق التي كاد يُدفَن تحتها.

لفحتْهُ رائحةٌ حادّةٌ من الوقود والنطرون. وتناهت إلى مسامعه رجرجة المياه التي نَفَذَتْ عبْر الثقب الذي خلَّفته طلقة فوميرو. وما لبث يتحسّس برودة السائل الذي اكتسح القاعدة، حتّى اجتاحه الفزع، وحاول أن ينكمش على نفسه ليبلُغَ الطرف العلويّ. وحين فعلها، انتقل ثقل البنادق إلى أحد الجانبين فمالتِ الحاويةُ ليسقط فيرمين بوجهه على الأسلحة. وفي ذلك الظلام الدامس، أخذ يتحسّس بيديه، مُنحِّيًا عنه البنادق بحثًا عن الثقب الذي تتسرّب منه المياه. وكلّما استطاع إزاحة عشرة بنادق خلف ظهره، عادت لتسقط عليه مجدّدًا بما يدفعه إلى عمق الحاوية التي ما انفكّت تتمايل. وصلت المياه حدّ قدميه، وما زالت تتماوج بين أصابعه. وعندما وصل منسوبها إلى ركبتيه عثر على الثقب وسدَّه بكلا الكفّين قدر الإمكان. وحينذاك، جاءته ثلاث طلقات من ظهر السفينة لتخترق خشب الحاوية وتُحدِث ثلاثة ثقوب أخرى من خلفه، فتسلَّل منها ضوءٌ مخضوضرٌ، ما سمح لفيرمين برؤية المياه التي أخذت تتدفّق بقوّة حتى وصلت حدّ خصره بلحظاتٍ قصيرة. صاح رعبًا وغيظًا، وحاول أن يبلغ أحد تلك الثقوب بيده، لكنّ الحاوية تعرَّضت لخضّةٍ مفاجئة قلبتْها إلى الخلف. زلزله الدويُّ الذي اجتاح صندوقه، كأنّ وحشًا ضاريًا يوشك على افتراسه. صعدت المياه حدّ صدره، فيما كادت البرودة تخنق أنفاسه. عاوده الظلامُ فأدرك فيرمين أنّ الحاوية تغرق، لا مناص. استسلمت يده اليمنى للضغط. كنست المياهُ الباردة دموعَه في الظلام. وحاول فيرمين أن يحبس آخر شهقةٍ من الهواء. ابتلع التيّارُ هيكلَ الخشب وجذبه نحو العمق. ولم يبقَ من الهواء في داخله إلّا شبرٌ واحد في القسم العلويّ، فعانى فيرمين في الوثوب ليقتنص شهقة أكسجين أخرى. وسرعان ما لمست الحاوية قاعَ الميناء، ومالت على أحد جانبيها فغاص فيرمين في الطين. جَعَلَ يضرب الغطاء بيديه وقدميه، لكنّ الخشب لم يرتخِ خصوصًا بعد أن ثبَّتتْه المسامير جيّدًا. وكانت السنتمترات المتبقّية من الهواء تنسلُّ عبْر الثقوب. أغراه ذلك الظلام المطلق والبارد بالاستسلام، غير أنّ رئتيه كانتا تحترقان وظنّ أنّ رأسه انفجر من شدّة الضغط وانعدام الهواء. فاستسلم للفزع الأعمى من يقينه بالموت خلال ثوانٍ معدودة، ما دفعه للإمساك ببندقيّة ليضرب بأخمصها عُرض الحاوية ويرفس غطاءها في آنٍ معًا. وما إن سدد الضربة الرابعة حتّى تفكّك السلاح بين يديه. فراح يتحسّس بأصابعه كيس القربينة الذي يعوم بفضل فقاعة الهواء المحبوسة فيه.

فأمسكه بكلتا يديه واستأنف الضرب بآخر ما لديه من قِوَى، مستغيثًا بمعجزةٍ لا تتحقّق.

أصدرتِ الطلقةُ تردُّدًا مكبوتًا عندما انفجرت داخل الكيس. وبما أنّها كانت على مسافة قريبة جدًّا، استطاعت أن تخترق الخشب مُحدِثةً دائرة بقُطر قبضة يد. فهبَّ نورٌ خافِتٌ إلى الداخل، وتفاعلت يدا فيرمين قبل دماغه بما حدث. سدّد القربينة نحو النقطة نفسها وضغط على الزناد أكثر من مرّة. غير أنَّ المياه كانت قد ملأت الحاوية فلم تنفجر أيٌّ من تلك الطلقات. أمسك

ببندقيّة أخرى وضغط على زنادها من خلال كيس الوقاية. لم تُحدِث أوّلُ طلقتين أيَّ أثر، لكنّه أحسّ بارتداد الثالثة على ذراعيه ورأى الفتحة الدائريّة في الخشب تزداد اتّساعًا. ففرَّغ المخزن بأكمله حتّى صارت الفتحة أكبر بما يسمح لجسدٍ نحيلٍ سقيمٍ بالنفوذ عبْرها. ولئن تألَّمَ من حوافّ الخشب المشروخ التي خدشت جلده، فإنَّ وعد الضياء الطيفيّ - الذي يتبدّى كرقائق النور على سطح المياه - كان سيحفِّزه على اجتياز حقلِ سكاكين.

تحرَّق بؤبؤ عينيه بمياه المرفأ الكدرة، لكنّه لم يغمضهما. لقد رأى تحت الماء غابة من أضواء وظلالٍ تتأرجح في العتم المائل إلى الأخضر. شِباكٌ من الحُتات وهياكلُ سُفنٍ غارقةٍ وعصورٌ من الطين تنبسط عند قدميه. رفع أنظاره نحو أعمدة النور البخاريّ التي تتساقط من الأعلى. كان ظلّ السفينة يمتدّ طويلًا على السطح. قَدَّرَ أنَّ منطقة الميناء عميقةٌ بما لا يقلُّ عن خمسة عشر مترًا، وربّما أكثر. فإنْ استطاع أن يبلغ السطح من الجانب الآخر لهيكل السفينة، لن ينتبه أحدٌ إلى وجوده فيبقى على قيد الحياة. أسند ساقيه إلى الحاوية واندفع مُباشِرًا السباحة. وبينما كان يصعد ببطء نحو السطح، استطاعت عيناه أن تبصرا رؤيةً خياليّةً مدفونةً تحت الماء. أدرك أنَّ الأشياء التي ظنّها شِباكًا مُهمَلةً وحشائشَ بحريّة لم تكن إلّا أجسادًا تتماوج في تلك الظلمة. عشرات الجثث مقيَّدة الأيدي، مربوطة السيقان وعالقةٌ بين صخورٍ وقوالب إسمنتيّة، تُشكِّلُ في مجملها مقبرةً تَحْتَمَائيّة. وكانت أسراب الأنقليس تتلوّى ما بين أطراف الجثث وتنهش لحم الوجوه، بينما يتراقص الشَّعرُ كيفما اتّجه التيّار. استطاع فيرمين أن يحدِّد أجناسها، رجالًا ونساءً وأطفالًا. وتحت أقدامهم حقائبُ وصُررٌ شبه مدفونة في الطين. قَطَعتْ بعضُ الجثث شوطًا متقدِّمًا في التفسُّخ حتّى تبقّت عظامُها بالكاد ناتئةً من خِرَقِ الثياب. كانت تلك الأجساد تُشكِّلُ معرضًا غائصًا في الظلمات إلى ما لا نهاية. أغمض فيرمين عينيه عندئذٍ، وما انفكّ يصعد حتّى ظهر على سطحِ الحياة بعد لحظات. وهكذا تيقَّن أنّ عمليّة التنفُّس على بساطتها هي أروع تجربةٍ قام بها في حياته كلّها.

(8)

وبينما كان يعوِّض ما فاته من أنفاس، ظلّ فيرمين ملتصقًا بضع لحظاتٍ بجانب السفينة مثل المحارة. ثمّة إشارةٌ عوّامةٌ تتمايل على بُعد عشرين مترًا عنه. كانت تشبه منارةً صغيرة، أسطوانةٌ يعتليها قنديل، مسنودةً إلى قاعدةٍ مدوّرةٍ عليها كابينة. مخطّطةٌ بالأبيض والأحمر، تتماوج على رِسْلِها، كما لو أنَّها جزيرةٌ معدنيّةٌ تستجيب لتَجَاذُبات الموج والريح. قال فيرمين لنفسه إنْ استطاع الوصول إليها، سيكون في وسعه الاختباء داخلها وانتظار اللحظة الملائمة للمجازفة نحو البرّ دون أن يراه أحد. لا يبدو أنَّ أحدًا لاحظ وجوده، لكنّه لم يشأ تحدّي الغيب. عبّأ رئتيه المتعَبتين بأقصى ما تتّسعان من هواء وغَطَسَ من جديد، يشقّ دربه صوب العوّامة بتجديفٍ مشوَّش. وبينما كان يغوص، تجنَّبَ النظر إلى أسفل وآثر أن يُصدِّق أنَّ ذهنه وقع فريسةً لهذيانٍ رهيب، وأنَّ تلك الحديقة المأتميّة التي تترنّح في التيّار تحت قدميه ليست سوى شِباك صيدٍ عالقة بين الحُتات. ألقى نظرة خاطفة إلى ظهر السفينة وطمأن نفسه بأنّه في مأمن، فجميعهم، بمن فيهم فوميرو، ظنّوا أنّه قد مات. وعندما كان يتسلّق سطح العوّامة انتبه أنَّ أحدهم يراقبه مُتَسمِّرًا من هناك. فركَّزَ نظراتِه إليه برهةً، ولم يستطع تحديد هويّته، لكنّه افترض أنّ ملابسه لا يمكن أن تكون إلّا ملابس قبطان السفينة.

هَرَعَ للاختباء داخل الكابينة الصغيرة واستلقى فيها، يرتجف بردًا، ويتخيّل كيف سيأتون في غضون ثوانٍ لاعتقاله. أما كان من الأفضل أنْ يموت غريقًا داخل ذلك الصندوق! كان فوميرو والحال هذه سيقتاده إلى إحدى تلك الزنازين وسيخصِّص له كلّ الوقت الذي يراه مناسبًا.

انتظر لحظةً تدوم إلى الأبد، لكنّه عندما بات على يقينٍ من مشارفة مغامرته على النهاية، سمع صوت محرِّكات السفينة تتشغّل، والصافرة تدوّي. أطلّ برأسه خجلًا من كوّة الكابينة ورأى السفينة تبتعد نحو الرصيف. فاستلقى منهكًا لمعانقة الشمس الخجولة التي تندسّ من الكوّة. ربّما بسبب تلك المحنة، رَأَفَتْ عذراء الكَفَرَة بحاله.

(9)

ظلّ فيرمين على ظهر تلك الجزيرة الصغيرة حتّى أدمى الغروبُ السماءَ، وأشعلت أضواءُ المرفأ شبكةً من الضوء على سطح الماء. قرّر وهو يمسح الأرصفة بأنظاره أنّ الطريقة المُثلى هي السباحة إلى تجمُّع القوارب المحتشدة قبالة سوق الصيّادين، ومن ثَمّ التسلّق إلى اليابسة عبْر حبال الرسوّ أو دولاب الجرّ الموجود في مؤخّرة أحد القوارب الراسية.

لمح حينذاك طيفًا مرسومًا في الضباب الرابض على موقف المراكب. زورقٌ بمجدافين يحمل رجلين، يدنو منه. كان أحدهما يجدّف والآخر يبصر في الظلام بقنديلٍ يصبغ الضباب بلون الكهرمان.

ابتلع فيرمين ريقه. كان من الأفضل لو رمى نفسه بالماء وتوسَّل أن يغطّيه لحاف الغروب فيتسنّى له الفرار مرّة أخرى، لكنّه كان قد أنهى صلواته ولم يعد في جسده أيّ أثرٍ للرغبة في الاستبسال. خرج من مخبأه رافعًا يديه إلى أعلى يواجه الزورق الداني.

- أخفِضْ يديك. - قال صوتُ مَن يحمل القنديل.

أوسع فيرمين رؤيته. هو الرجل نفسه الذي رآه قبل ساعاتٍ يراقبه من سطح السفينة الأعلى. حدّق إليه وهزّ رأسه. صافح اليد التي امتدّت نحوه وقفز إلى الزورق. أعطاه الرجل الثاني غطاءً فتدثّر به الغريقُ ذو الحالِ الجديرةِ بالرثاء.

- أنا القبطان آرايث، وهذا نائبي برميخو.

تأتأ فيرمين بشيءٍ ما، لكنّ آرايث أوقفه.

- لا تقل لنا اسمك. هذا ليس شأننا.

أخرج القبطان الترمس وصبّ نبيذًا ساخنًا. فأمسك فيرمين كوب النحاس بكلتا يديه وازدرد حتّى القطرة الأخيرة. فمَلأ آرايث له الكوب مجدّدًا لثلاث مرّات. حتّى شعر فيرمين بالدفء يعود إلى أحشائه.

- هل أنت أفضل الآن؟ - سأله القبطان.

هزّ فيرمين رأسه بنعم.

- لن أسألك عمّا كنتَ تفعله في سفينتي، ولا حتّى عن المشاكل التي تورَّطتَ بها مع ذلك الحيوان فوميرو، لكنّي أنصحك بتوخّي الحذر جيّدًا.

- سأحاول، صدِّقْني. سوى أنَّ القدر لا يساعدني.

مرّر إليه آرايث حقيبة. فألقى فيرمين نظرةً على داخلها. ثيابٌ ناشفة، بمقاسٍ أكبر من مقاسه بستٍّ مرّات بطبيعة الحال، وبعضُ النقود.

- ما الذي يجبرك، يا سيّدي القبطان؟ لقد كنتُ هاربًا بطريقةٍ غير نظاميّة وسبّبتُ لك مشكلة عويصة...

- لأنّ هذا ما يروق لي الآن. - ردّ آرايث، وأيَّده في ذلك برميخو.

- لا أعرف كيف أردّ لك المعروف...

- يكفيني ألّا تتسلّل ثانيةً إلى سفينتي. هيّا، بدِّلْ ثيابك.

نظر آرايث وبرميخو إليه يتخلَّص من تلك الخِرَقِ المبلّلة وساعداه على ارتداء الثياب الجديدة البهيّة: بدلة بحَّارٍ قديمة. وقبل أن يتخلّى إلى الأبد عن سترته المهترئة، نبش فيرمين في الجيوب وأخرج الرسالة التي احتفظ بها مدّة أسابيع. لقد مسحت مياه البحر الحبرَ، واستحال الظرف إلى قطعة ورقٍ مبلّلة تتذرَّى بين اليدين. فأغمض فيرمين عينيه وانفجر باكيًا. نظر إليه الرجلان في حيرةٍ من أمرهما. حطّت يد القبطان على كتف فيرمين.

- هوِّنْ عليك، لقد انقضى الأسوأ.

هزّ فيرمين رأسه.

- لستُ لذلك أبكي... لستُ لذلك أبكي.

ارتدي الثياب ببطء وجمع ما تبقّى من الرسالة في جيب السترة الجديدة والفضفاضة.

- المعذرة.

- أنت في حالٍ يُرثى لها.

- بسبب غلطة الحرب الدائرة هذه. - اعتذر فيرمين - أمّا الآن وقد أوشك مصيري على التغيُّر، فإنّني أتنبأ بمستقبلٍ ذي موائد عامرة وحياةٍ ملؤها التفكُّر، سأحشو بطني بكرشة الخنزير وأعيد قراءة أجمل الأشعار التي كُتِبتْ في العصر الذهبيّ. يومان فقط، وأصير كالأصلة لكثرة ما سأبتلع من لحوم المورثيلا وحلوى القرفة. قد تروني على هذه الحال، لكنّني عندما تحين الفرصة، يتراكم وزني بسرعةٍ تعجز عنها مغنيّات السوبرانو.

- إن كنتَ أنت مَن يؤكّد ذلك، فهو كذلك. هل لديك وجهة محدّدة؟ - سأله آرايث.

أومأ فيرمين متحمِّسًا، وهو يتباهى ببدلة قبطانٍ بلا سفينة، وبطنه تختلج بالنبيذ الفاتر.

- ثمّة امرأةٌ تنتظرك؟ - سأله البحَّار.

ابتسم فيرمين بحزن.

تنتظر. لكنّها لا تنتظرني أنا. - أجاب.

- فهمت. وهل كانت تلك الرسالة إليها؟

هزّ فيرمين رأسه بنعم.

- وهل من أجل ذلك خاطرتَ بحياتك وعدتَ إلى برشلونة؟

لتسليم رسالة؟

أعرب فيرمين عن لامبالاته.

- هي تستحقّ. ولقد وَعَدْتُ صديقًا عزيزًا.

- ميّت؟

أخفض فيرمين عينيه.

- في بعض الأحيان هنالك أنباءٌ من الأفضل عدم إيصالها. - ارتجل آرايث.

- لكنّ الوعد يظلُّ وعدًا.

- منذ متى لم ترها؟

- منذ أكثر من سنة تقريبًا.

حدَّق إليه القبطان مطوَّلًا.

- إنَّ سنةً واحدةَ مدّةٌ كثيرةٌ بالنسبة إلى هذا الزمان الذي نعيش فيه.

فالناس في هذه الأيّام تنسى بسرعة. النسيان مثل الفيروس، لكنّه يساعد على إبقائنا أحياءً.

- ليتني أتعاطاه، فقد ينفعني كثيرًا. - قال فيرمين.

(10)

أطبق الظلام عندما تركه الزورق عند أعتاب درج الرصيف أتراثانس. تبخَّر فيرمين في ضباب المرفأ، واستحال طيفًا بين كثيرٍ من الشيَّالين والبحَّارة السائرين نحو شوارع الرافال، من خلال الحيّ الصينيّ. اختلط فيرمين في جموعهم، واستشفّ من محادثاتهم الهامسة أنَّ المدينة في اليوم السابق قد تعرَّضت لغارةٍ جويّة، إحدى تلك الغارات الكثيرة التي بدأت مطلع العام، وأنّهم كانوا في الليل يترقّبون عدوانًا جديدًا. كان يشمُّ رائحة الخوف في أصوات أولئك الرجال ونظراتهم، لكنّه بعدما نجا من ذلك النهار اللعين اقتنع بأنّ الليلة لن تجود عليه بأسوأ ممّا عاناه. وها قد شاءت العناية الإلهيّة أنْ يصادفَ في طريقه بائعًا جوّالًا عقب انتهائه من العمل يدفع عربته الملأى بالطيِّبات. أوعز إليه بالتوقُّف وراح يتقصّى تلك البضاعة باهتمامٍ شديد.

- لديّ من حلوى المكسّرات كتلك التي كانت تُباع قبل الحرب.

- اقترح عليه البائع - هل يريد السيّد منها؟

- أتنازل عن عرش مملكتي مقابل حبّة سوغوس. - حدّد فيرمين مراده.

- بقي عندي كيسٌ صغير من السوغوس بنكهة الفراولة.

جحظت عينا فيرمين حتّى صارت مثل طبقين، ولمجرّد سماعه ذِكر اللذائذ سال لعابه. وبفضل تمويل القبطان آرايث، تمكّن من شراء كيس كامل من السكاكر، ففتحه بشراهة المحكوم بالإعدام.

كانت أبخرة ضوء أعمدة الإنارة في لاس رامبلاس - كالمصّة الأولى لحبّة سوغوس - تبدو له أحد تلك الأشياء التي تستحقّ أن يعيش المرء يومًا أخيرًا لرؤيتها. ورغم هذا، لاحظ فيرمين في ذلك المساء، وهو يسلك الممشى الرئيس في لاس رامبلاس، أنَّ مجموعةً من الحرس الليليّ كانوا يتنقّلون حاملين سلَّمًا من عمود إنارةٍ إلى آخر ويطفئون الأضواء التي ما زالت تنعكس على البِلاط. اقترب من أحدهم وأخذ يتمعَّن في عمله. وعندما نزل الخفيرُ من على السلّم وانتبه لوجوده، توقَّف ونظر إليه شزرًا.

- مساء الخير يا سيّد. - نغّم بنبرة ودّيّة - هل يؤسفك إذا سألتُك عن سبب إغراقكم المدينة بالظلام؟

اكتفى الخفيرُ بإشارةٍ إلى السماء، وحمل سلَّمه متّجهًا إلى العمود التالي. ظلّ فيرمين هناك برهةً يتأمّل غرابة مشهد لاس رامبلاس تغوص في العتم شيئًا فشيئًا. وباشر أصحاب المحلات والمقاهي حوله بالإغلاق، وصار زجاج الواجهات يُصْبَغُ بأنفاسِ القمر الخافتة. استعاد طريقه متخوِّفًا وسرعان ما اصطدم بما بَدا له مسيرةً ليليّة. حشدٌ غفيرٌ من الأشخاص يحملون صُرَرًا وأغطية متّجهين نحو مدخل المترو. كان بعضهم يحمل شموعًا وفوانيس منيرة، وآخرون يتقدّمون تحت الظلام.

وبينما تجاوز الدرج النازل إلى المترو، حطّت أنظاره على طفلٍ لا يزيد عمره عن خمسة أعوام. كان متشبّثًا بيد أمّه، أو جدّته، ففي الافتقار إلى الضوء بدت تلك الأرواحُ كلُّها قد شاخت قبل الأوان. غمز له فيرمين بعين، لكنّ الطفل وجَّه نظره إلى السماء. كان يشاهد شبكة السُّحُب السوداء تتلبّد في الأفق كما لو أنَّه يبصر شيئًا مُخبّأ فيها. تبع فيرمين نظرات الطفل وأحسَّ بلمسة ريحٍ باردة تستهلُّ هبوبها على المدينة، ولها نكهة الفسفور والخشب المحروق. وقبل أن تجرّه أمّه نزولًا في السلالم نحو أنفاق المترو، سدّد الصغيرُ نظرةً كادت تجمِّد الدماء في عروق فيرمين. عينا طفلٍ في ربيعه الخامس، تشيان برهبةٍ عمياء ويأسٍ عجوز. أشاح فيرمين نظراته عنه واستعاد طريقه، ليصادف عامل دفاعٍ مدنيٍّ يراقب مدخل المترو ويوجِّه إليه سبّابته.

- إن ذهبتَ الآن من هنا، لن تجد مكانًا فيما بعد. الملاجئ مزدحمة.

أومأ فيرمين لكنّه عجَّل الخطي. وولج هكذا إلى برشلونة التي بدت له شبحيَّةً، تحت ظلامٍ سرمديّ لا تُدرَك حدودُه إلّا بضياءٍ واهنٍ ومرتعشٍ يفوح من القناديل والشموع المنصوبة على الشرفات وفي الردهات. وحالما سلك لارامبلا دي سانتا مونيكا أخيرًا، تراءى له في البعيد قوس قنطرةٍ ضيّقةٍ ومظلمة. تنهَّدَ مغمومًا واتّجه صوب لقائه لوثيا.

(11)

صعد السلالم الضيّقة ببطء، وهو يشعر عند كلّ عتبةٍ بتلاشي عزيمته وشجاعته على مواجهة لوثيا لإنبائها بأنّ الرجل الذي كانت تحبّه، والد ابنتها وصاحب الوجه الذي كانت ترجو رؤيته منذ أكثر من عام، مات في زنزانة أحد سجون بلنسية. وعندما وصل إلى مستراح الطابق الثالث، تجمَّدَ فيرمين عند الباب لا يجرؤ على طرقه. جلس على العتبات وأغرق رأسه بين يديه. كان يذكر جيّدًا تلك الكلمات التي لفظها هناك تمامًا قبل ثلاثة عشر شهرًا، عندما أخذت لوثيا يديه في يديها وقالت له وهي تنظر في عينيه: «إن كنتَ تحبُّني، لا تسمحْ بأن يحدث له مكروه وأعِدْه إليّ». أخرج من جيبه الظرف التالف وعاين أشلاءه تحت الظلام. ثمّ جمعها بقبضته وألقى بها في العتمة. نهض وكان يتهيَّأ للفرار بجِلده عبْر السلالم عندما سمع الباب ينفتح خلف ظهره فتوقَّف.

طفلةٌ ذات سبعة أو ثمانية أعوام كانت تراقبه من عتبة الباب.

تحمل في يدها كتابًا، وقد غرستْ إصبعًا بين صفحاته كي لا تضيِّع العلامة. ابتسم لها فيرمين ورفع يده بما يشبه التحيّة.

- مرحبًا يا أليثيا. - قال - هل تذكرينني؟

نظرت إليه الطفلة متردّدِةً، بما ينمّ عن التباس.

- ماذا تقرأين؟

- «أليس في بلاد العجائب»

- جميل! هلّا أريتني؟

أظهرتِ الطفلة الكتاب على مرآه دون أن تأذن له بمسّه.

- إنّه أحد كتبي المفضّلة. - قالت، لكنّها ما تزال متحفِّظةً وغيرَ واثقة.

- ومفضَّلٌ عندي أيضًا. - ردّ فيرمين - أيُّ شيءٍ يتعلّق بالسقوط إلى أسفل عبْر حفرة، ومصادفة أشخاصٍ معاتيه ومسائل رياضيّة، أعتبره جزءًا من سيرتي الذاتيّة.

عضّت الطفلة شفتها لتحبس ضحكتها من سماع كلام ذلك الزائر غريب الأطوار.

- نعم، لكنّ هذا الكتابَ أَلَّفوه من أجلي. - ارتجلت بلؤم.

- بالتأكيد. هل والدتك في البيت؟

لم تُجِبْ، لكنّها فتحت الباب قليلًا. فتقدَّمَ فيرمين خطوة.

استدارت الطفلة وابتعدت نحو الداخل من دون أن تفتح فمها. تجمَّد فيرمين عند العتبة. كان المسكن مظلمًا، يتراءى منه بالكاد رفيفُ ما بدا أنّه قنديلٌ في نهاية ممرٍّ ضيِّق.

- لوثيا؟ - نادي عليها.

تاه صوته في العتم. فطرق الباب ببراجم يده وانتظر.

- لوثيا؟ هذا أنا... - نادي مجدّدًا.

انتظر بضع ثوانٍ، وحين لم يصله جواب دخل إلى الشقّة. تقدَّم على امتداد الممرّ. كانت الأبواب على الجانبين مغلقة. وحين وصل إلى آخره، وجد نفسه في غرفةٍ تؤدّي مهام صالة الطعام. وكان القنديل على الطاولة يرسمُ هالةً صفراءَ خافتةً تداعب الظلال. رأى طيف امرأة عجوز، جالسة على الكرسي قبالة النافذة، تولي ظهرها إليه.

- السيّدة ليونور...

لم تكن المرأة التي بدت لناظريه عجوزًا، لم تكن قد تجاوزت الخامسة والأربعين عامًا. كانت بشرة وجهها متجعّدةً من الأسى، ودموعُها حبيسة عينيها المرهقتين من الحقد والبكاء في عزلة. نظرت إليه ليونور دون أن تنبس ببنت شفة. أمسك فيرمين بأحد الكراسي وجلس بجانبها. أخذ يدها بيده وابتسم لها بحُرقة.

- كان عليها أن تتزوّجك أنت. - قالت المرأة - إنّك قبيح، ولكنْ لديك دماغ على الأقلّ.

- أين لوثيا يا سيّدة ليونور؟

أشاحت نظراتِها عنه.

- لقد أخذوها بعيدًا. منذ شهرين تقريبًا.

- إلى أين؟

لم تُجِبْ.

- مَن فعلها؟

- ذلك الرجل...

- فوميرو؟

- لم يسألوا عن إرنستو. كانوا يريدونها هي.

عانقها فيرمين، لكنّ ليونور ظلّت جامدة.

- سأعثر عليها يا سيّدة ليونور. سأعثر عليها وسأعيدها إلى بيتها.

هزّت ليونور رأسها.

- وابني؟ هل مات حقًّا؟

التزم فيرمين الصمت.

- لا أدري يا سيّدة ليونور.

نظرت إليه ساخطةً وصفعتْه بكفّها.

- اغرب عن وجهي.

- سيّدة ليونور.

- اغرب عن وجهي. – انتحبت نهض فيرمين وتراجع إلى الخلف بضع خطوات. كانت الصغيرة أليثيا تراقبه من الممرّ. فابتسم لها إلى أن دنت منه ببطء. ثمّ أمسكت بيده وضغطت عليها بشدّة. فقرفص فيرمين قبالتها. كاد يقول لها إنّه صديق والدتها، أو أيَّ كلامٍ من شأنه أن يمحو ملامح الفقدان التي سحرت نظرتها. إلّا أنّه في تلك اللحظة تمامًا، بينما كانت ليونور تكبت دموعها بيديها، أحسّ فيرمين بطنينٍ ناشزٍ يقطر من السماء، فرفع عينيه نحو النافذة، ليرى أنّ الزجاجَ آخِذٌ بالارتجاج.

(12)

دنا فيرمين من النافذة ونحّى الستارة. رفع عينيه نحو المنور الذي يحبس السماء بين أطراف الزقاق الضيّق. صار الطنين أكثف وأقرب كثيرًا. ظنّ في البدء أنّ إعصارًا يوشك على الهبوب من جهة البحر، فتخيَّل سُحُبًا سوداء تكتسح أرصفة الميناء وتقتلع الأشرعة والسواري في طريقها. لكنّه لم يسبق له أن عَلِقَ في قلب إعصارٍ له أصداء معدنيّة وناريّة. انقشعت خِرَقُ الضباب الخفيف لتكشف عن قطعة صافية من السماء، فرأى. سربٌ من طائرات تبرز من العتم وتحلّق مثل حشرات فولاذيّة عملاقة. ابتلع ريقه ووجّه أنظاره إلى ليونور وأليثيا، التي كانت ترتجف؛ وما زالت الطفلة تحمل الكتاب بين يديها.

- أعتقد أنّه من الأفضل أن نغادر هذا المكان. - غمغم فيرمين.

هزّت ليونور رأسها.

- سيمرّون من بعيد. - قالت بصوتٍ ذاوٍ - مثل مساء أمس.

التفت فيرمين إلى السماء ثانيةً واستطاع أن يحدّد فرقةً مكوّنةً من ستّ أو سبع طائرات تنفصل عن السرب. فتح النافذة ومدَّ رأسه إلى الخارج: بدا له أنّ فرقعة المحرِّكات تلج لاس رامبلاس. فسمع حينذاك أزيزًا حادًّا، كأنّ مثقابًا يفتح طريقه في السماء. غطّت أليثيا أذنيها بكلتا يديها وهَرعَت لتختبئ تحت الطاولة. مدّت ليونور ذراعيها لتحتويها، لكنّ شيئًا أوقفها. فقبل بضع ثوانٍ من سقوط القذيفة على المبنى، احتدّ الأزيز حتّى بدا أنّه ناجمٌ عن الجدران نفسها، وظنّ فيرمين أنّ الصوت سيثقب طبلة أذنيه.

إلّا أنّ الصمت هبط في تلك اللحظة تمامًا.

سمع صوت ارتطامٍ مفاجئٍ يهزُّ البناية هزًّا، كأنّ قطارًا بأكمله يهوي من بين الغيوم ويخترق السطح وكلًّا من الطوابق على حدة، كما لو أنّها عُلَبُ سجائر. تشكّلت بعض الكلمات على شفاه ليونور، لكنّ فيرمين لم يتمكّن من سماعها. وخلال جزء من الثانية، مادت به الأرض بفعل دويٍّ منيعٍ وصلبٍ يجمِّد الزمن، فرأى الجدار خلف ليونور يتفسّخ بغمامةٍ بيضاء فيما يلتفّ لسانُ نارٍ بالكرسيّ التي تجلس عليه ويبتلعها. اقتلع الانفجار في تأثيره نصفَ الأثاث الذي ظلَّ معلّقًا في الفراغ حتّى اشتعل. لفحت فيرمينَ موجةُ هواءٍ حارقةٌ كالنفط الملتهب فارتطم بالنافذة بشدّةٍ هشَّمتِ الزجاجَ ثمّ اصطدم بالقضبان المعدنيّة للشرفة. وصار الدخان ينبعث من السترة العريضة - هديّة القبطان آرايث - والتي كادت تكوي جِلده. وعندما حاول النهوض لينزعها عنه، شعر بالأرض تتزلزل تحت قدميه. إنْ هي إلّا ثوانٍ معدودة وانهار الهيكل المركزيّ للمبنى في دوّامةٍ من جمرٍ وحطامٍ على مرأى ناظريه.

تمكّن فيرمين من النهوض ونزع عنه السترة المتفحّمة. أطلّ برأسه إلى الغرفة. فوجد كفنًا من دخانٍ حمضيٍّ وضاربٍ إلى السواد، يلعق الجدران التي ما تزال صامدة. لقد سحق القصفُ قلب المبنى، ولم يبق شيء على حاله سوى الواجهة والخطّ الأوّل من الغرف التي تطوّق تلك الفوهة

التي خلَّفتها القذيفة، وكانت بقايا السلالم متشبّثةً بشفيرها. وباستثناء ما كان الممرّ الذي مشى فيه، لم يعد هناك أيّ شيء.

- يا أبناء العاهرة! - انفجر غاضبًا.

لم يعد بإمكانه سماع صوته لشدّة الأزيز الذي ألهب طبلة أذنيه، لكنّ جلده اقشعرّ لموجة تفجيرٍ جديدة ليست بعيدة عن هناك. هبَّت على الطريق رياحٌ مشبَعةٌ برائحة حمضٍ وكبريتٍ وكهرباءَ ولحمٍ محترق، فرأى فيرمين حينها وهج ألسنة اللهب الساطع في سماء برشلونة.

(13)

كانت الآلام القاسية تنهش عضلاته. دخل إلى الغرفة مترنِّحًا. قذف الانفجارُ أليثيا إلى الحائط، فظلّ جسمها الصغير عالقًا بين أريكة مقلوبة وإحدى الزوايا. وقد تراكم عليها الغبار والرماد. جثم فيرمين على ركبتيه أمامها وأمسك بإبطيها. فاستفاقت أليثيا إذ أحسّت بذلك التواصل. كانت محمرّة العينين، والحدقتان متّسعتان. رأى فيرمين نفسَه المنهكةَ في انعكاس نظراتها.

- أين جدّتي؟ - غمغمت أليثيا.

- جدّتك اضطرّت إلى المغادرة. عليكِ أن تأتي معي. أنتِ وأنا سنخرج من هنا.

أومأت أليثيا. فحملها فيرمين بين ذراعيه وتحسّس ثيابها بحثًا عن جروحٍ أو كسور.

- هل تشعرين بالألم في طرفٍ ما؟

وضعت الطفلة يدها على رأسها.

- سيخمد الألم. - قال فيرمين - مستعدّة؟

- كتابي...

بحث فيرمين عن الكتاب بين الأنقاض. فوجد أنّ نصفَه قد احترق، لكنّه ما يزال كاملًا بشكل مقبول. أعطاه لأليثيا فأمسكته كما لو كان تميمة.

- لا تضيِّعيه، ها؟ ستروين عليّ كيف تنتهي القصّة فيما بعد...

نهض فيرمين بالفتاة بين ذراعيه. فإمّا أنّ أليثيا كانت أكثر وزنًا ممّا تصوَّر، أو أنّ قواه لم تعد تسمح له بحمل الصغيرة والخروج بها من هناك.

- تمسَّكي بي جيّدًا.

ثمّ استدار، ومشي على شفير الهاوية التي أحدثها الانفجار، حتّى وصل إلى نصف الأرضيّة المتبقّي من الممرّ، الذي بات مجرَّد حزام، فبَلَغَ السلالم. هناك حيث تبيّن أنّ القنبلة قد سقطت حتّى قبو البناية مخلِّفة نهرًا من لهيبٍ يفيض بالطابقين الأوّلَين. أبصر من هوّة السلالم اللولبيّة فلاحظ أنّ النيران تصعد ببطء، درجةً درجة. لذا أحكم قبضتيه على أليثيا وانطلق إلى أعلى السلالم، وهو يفكّر في أنّهما إذا استطاعا الوصول إلى مصطبة السطح، سيتمكّنان من القفز إلى مصطبة سطح البناية المتاخمة، وربّما ينجوان ليرويا ما حدث.

(14)

كان باب مصطبة السطح من لوح متين من خشب السنديان، لكنّ الانفجار اقتلعه من مفاصله، فنجح فيرمين في تحطيمه برفسةٍ واحدة. أنزل أليثيا على أرض المصطبة واستند إلى ظهر الواجهة ليلتقط أنفاسه. تنفَّسَ بعمق. كال الهواء مشحونًا برائحة الفوسفور المحترق. الترم كلٌّ من فيرمين وأليثيا الصمت عدّة لحظات، عاجزَين عن تصديق الرؤية المائلة أمام أعينهما.

استحالت برشلونة إلى معطفٍ من ظلامٍ ممزَّقٍ بأعمدة النار ورِيَشِ الدخان الأسود المتموِّج في السماء مثل المِجَسّات. وعلى بُعد بعض الشوارع من هناك، كانت لاس رامبلاس ترسم نهرَ لهيب وغيومَ دخان تزحف نحو قلب المدينة. أمسك فيرمين يد الطفلة وجرّها.

- بسرعة، لا ينبغي لنا البقاء هنا.

وما لبث يخطو بضع خطوات حتّى دوّى انفجارٌ آخر في السماء وهزّ المبنى تحت أقدامهما. نظر فيرمين خلفه فرأى لمعانًا باهرًا يتصاعد من ساحة كاتالونيا. ثمّ اجتاح البرقُ الأحمرُ سطوح المدينة. خمدت عاصفة الضوء برمادٍ ماطرٍ انبثق من خلاله زئير الطائرات مجدّدًا. كانت الفرقة تحلِّق على علوٍّ منخفض للغاية، وغالبًا ما قطعت دوّامةَ الدخان التي انبسطت فوق المدينة. وكان انعكاس اللهيب يومض على بطون تلك المقاتلات. اتّبع فيرمين مسارها بعينيه فرأى عناقيد القنابل تنهمر على سطوح حيّ الرافال. وعلى قرابة الخمسين مترًا عن مكان وجودهما، ثمّة سلسلةٌ من أبنية مدمَّرة تحت أعينهما كما لو أنّها موصولةٌ بفتيل مفرقعات مشتعل. وقد هشمَّت الموجة الانفجاريّة مئات النوافذ وأحالتها إلى مطرٍ من زجاج، واقتلعت ما كان موجودًا على الشرفات المحاذية كلَّه. انهار أحد أبراج الحمام على حزام المبنى المجاور وسقط إلى الجانب الآخر من الشارع، ليضرب خزّان المياه الذي هوى في الفراغ وانفجر مجلجلًا بفعل ارتطامه بالبلاط. سمع فيرمين صيحات الفزع تجتاح الشارع.

بقيا مشلولَين، عاجزَين عن الإقدام على أيّ خطوة. بقيا هكذا عدّة ثوانٍ، والأبصار شاخصةٌ على خليّة الطائرات التي ما زالت ترجم المدينة. أبصر فيرمين رصيف الميناء المكتظ بالقوارب شبه الغارقة.

انتشرت بقعٌ كبيرةٌ من الديزل المحترق على سطح المياه وأخذت تلتهم كلَّ الذين كانوا يرمون بأنفسهم في البحر ويسبحون في محاولةٍ للنجاة لا أمل فيها. واحترقت سقوف الأرصفة ومستودعات الميناء بنارٍ غاضبة. ووقعت سلسلة انفجارات في خزّانات وقود أدّت إلى ضرب صفٍّ من الرافعات العملاقة. فسقطت تلك الهياكل المعدنيّة الضخمة، واحدةً تلو أخرى، على سفن الشحن وقوارب الصيد الراسية على الرصيف، وأغرقتها في الماء. وكانت الطائرات في المدى، داخل ضباب الكبريت والديزل، تناور فوق البحر وتتهيَّأ لغارةٍ جديدة. أغمض فيرمين عينيه وسمح لتلك الرياح القذرة والملتهبة أن تزيل عرق جسمه.

«إنّي هنا يا أوغاد. سنرى إن كنتم ستنجحون هذه المرّة في إصابتي».

(15)

وعندما ظنّ أنّه لا يسمع إلا هدير الطائرات في اقترابها ثانيةً، انتبه إلى صوت الطفلة بجانبه. فتح عينيه فوجد أليثيا. كانت الصغيرة تحاول أن تجرّه بكلّ قواها، وتصيح بصوت أثقله الفزع. التفت فيرمين. كان ما تبقّى صامدًا من المبنى يتفسّخ بين ألسنة اللهب مثلما تغمر الموجة العالية قصرًا على الرمال. همّا بالركض نحو الطرف الآخر من السطح وقفزا من هناك خلف الجدار الذي يفصله عن البناية المجاورة. هبط فيرمين متدحرجًا وشعر بصعقة ألم مباغتة في ساقه اليسرى. وما زالت أليثيا تجرّه وتساعده على النهوض. تحسَّسَ فخذه فأحسّ بالدم الفاتر بين أصابعه. أنار وميضُ النارِ الجدارَ الذي اجتازاه فتبيَّن جرحًا مملوءًا بشظايا الزجاج الدامي. شوَّشَ الإعياءُ رؤيته لكنّه استنشق عميقًا ولم يتوقَّف، وما زالت أليثيا تجرّه. وما فتئ يسحل ساقه، ويخلِّف خطًّا قاتمًا ولامعًا على القرميد، وهو يتبع الطفلة عبْر السطح حتّى الجدار الذي يفصله عن المبنى المطلّ على شارع آرك دل تياترو/ قوس المسرح. تسلّقَ حسب استطاعته على كومة من الصناديق الخشبيّة المسنودة إلى الجدار وأطلّ إلى مصطبة السطح المجاورة. هناك حيث ينتصب هيكلٌ ذو مظهر مُقلِق، بناية عتيقة مسدودة النوافذ، وواجهتها أثريةٌ لكأنّها ظلّت مغمورة في الوحل عشرات السنين. قبّةٌ زجاجيّةٌ كبيرة على هيئة فانوس تتوِّج المبنى، مكلَّلةً بمانع الصواعق الذي يتأرجح شكلُ تنّينٍ على ذروته.

كان الجرح في ساقه ينبض بألمٍ مخنوق، ما اضطرّه إلى التعلُّق بحزام المبني كي لا يسقط على الأرض. أحسَّ بالدماء الفاترة تتسرّب إلى حذائه وعصفتْ به نوبةُ غثيانٍ جديدة. أدرك أنّه سيستعيد وعيه بين لحظةٍ وأخرى. وكانت أليثيا تنظر إليه، مذعورة. فابتسم لها بقدر ما استطاع.

- لا شيء. - قال - مجرَّد خدش.

كانت فرقة الطائرات في البعيد تنقلب فوق البحر وتجتاز كاسر الأمواج عند الميناء محلِّقةً بأقصى ما أوتيت من قوة نحو المدينة لشنّ هجمةٍ أخرى. مدّ فيرمين يده إلى اليثيا.

- تسلَّقي.

هزّت الطفلة رأسها بتثاقل.

- لسنا في مأمنٍ هنا. علينا أن ننتقل إلى السطح المحاذي لعلّنا نجد وسيلةً للنزول إلى الشارع عبْر ذلك المبنى، ثمّ الوصول إلى محطّة المترو. - قال ولم يكن مقتنعًا تمامًا.

- كلا. - قالت الطفلة.

- أعطني يدك يا أليثيا.

تردّدت الفتاة، لكنّها استجابت في النهاية. امسكها فيرمين وسحبها بشدّة ليرفعها إلى قمّة الصناديق. ثمّ وضعها على حافة الحزام.

- اقفزي. - أمرها.

ضمّت الكتاب إلى صدرها وهزّت رأسها. سمع فيرمين حينذاك أزيز الرشّاشات وهي ترجم السطوح من خلف ظهره فدفع الصغيرة. وحالما هبطت أليثيا إلى الجانب الآخر من الجدار، التفتت لتمدّ يدها نحوه، لكنّ صديقها لم يكن هناك. كان ما يزال معلّقًا على حزام المبنى من الطرف الآخر. كان شاحب الوجه مثل الشمع، هادل الجفنين، يحافظ على وعيه بمشقّة.

- اركضي. - قال لها بأنفاسه الأخيرة - اركضي.

وقع فيرمين على ركبتيه وهوى على ظهره. سمع هدير الطائرات تمرّ من فوقهما تحديدًا، وقبل أن يغمض عينيه رأى عنقودًا من القنابل يتساقط من السماء.

(16)

ركضت أليثيا يائسةً على السطح باتّجاه القبّة الزجاجيّة الكبيرة. لم تفهم أين انفجرت القنبلة، سواء أكانت قد ارتطمت بواجهة البناية أم بالهواء. لم تستطع أن تشعر إلّا بالانفجار المهول الذي ألَمَّ بحاجز الهواء المضغوط خلفها، زوبعةٌ مدوّيةٌ رفعتها إلى الأعلى ودفعتها إلى الأمام. وتطايرت شظايا المعدن الملتهب بجانبها وأصابتها. فشعرت حينذاك بقطعةٍ بحجم قبضة اليد تلسع خاصرتها بشدّة. تشقلبت في الهواء بفعل تلك الضربة التي أودت بها إلى القبّة الزجاجيّة. فاخترقت أليثيا ستارةً من زجاجٍ متكسّرٍ وسقطت في الفراغ وفَلِتَ الكتابُ من بين يديها.

هوت عموديًّا عبْر الظلمات داخل ما بدا لناظريها أبديّةً كاملة حتّى هبطت على ستائر منحدرة خفّفت أثر السقوط. انثني القماش تحت ثقل جسمها وجعلها تنقلب على ما يشبه القاعدة الخشبيّة. وفي الأعلى، على ارتفاع خمسة عشر مترًا من النقطة التي كانت فيها، رأت الفتحة التي أحدثتْها في زجاج القبّة. حاولت الاتّكاء على أحد جانبيها، لكنّها اكتشفت أنّها فقدت إحساسها بساقها اليسرى وأنّها تحرّك خاصرتها وما تحتها بمشقّة. التفتت فانتبهت إلى أنّ الكتاب التي حسِبتْه قد ضاع منها كان هناك على القاعدة.

جرجرت نفسها بالاعتماد على ذراعيها حتّى الكتاب، فلامست ضلعه بأصابعها. حدث انفجارٌ جديد، فاهتزّ المبنى اهتزازًا وَقعَ الكتابُ على إثره في الفراغ، وصفحاتُه ترفرف نحو الهاوية. وكان وميض النار الذي يضيء الغيوم يعكس شعاع نورٍ يتناثر في الظلمات. شحذت أليثيا بصرها، غير مصدقة ما ترى: إن لم تخدعها عيناها، كانت قد هبطت على قمّة لولبٍ هائل الحجم، برج مفصَّلٍ تطوّقه متاهةٌ من ممرّاتٍ ومسالكَ وأروقةٍ وأقواس بما يشبه كاتدرائيّة عملاقة. ولكن، خلافًا للكاتدرائيّات التي تعرفها، لم تكن تلك مبنيّةً من حجر.

بل كانت مبنيّةً من كتب.

كشفت لآلئ الضوء المنهمرة من القبّة على ناظريها عُقَدًا من السلالم والجسور مثقلَة الجوانب بآلاف وآلاف المجلّدات المتداخلة في ذلك البنيان. وفي قاع الهاوية، تراءت لها فقاعة نور تتحرّك ببطء. توقّف النور فجأة، فأمعنت اليثيا النظر جيّدًا لترى رجلًا شائبًا يحمل فانوسًا، مصوِّبًا عينيه نحو الأعلى. استبدّ بها ألمٌ حادٌّ في خاصرتها فشعرتْ بأنّ الرؤية تتكدَّر. وبعدها بقليل، أغمضت عينيها وانعدم مفهوم الزمن عندها.

أحسَّت أنّ أحدًا يحملها بين ذراعيه برقَّةٍ فاستفاقت. فتحت عينيها على وسعهما ففهمت أنّهما ينزلان على امتداد ممرٍّ لا نهاية له يتفرَّع إلى عشرات من الأروقة المفتوحة إلى كلّ اتّجاه، والمكوّنة من جدرانٍ وجدرانٍ زاخرةٍ بالكتب. كان الرجل الشائب، ذو ملامح الطير الجارح، الذي رأته في قاع المتاهة، هو الذي يحملها بين ذراعيه. وعندما وصلا إلى نهاية ذلك المبنى، اقتادها حارس المكان إلى ركنٍ باجتياز القبّة الكبيرة وجعلها تستلقي على سرير.

- ما اسمكِ؟ - سألها.

- أليثيا. - تلعثمت.

- أنا إسحاق.

تفحَّص الرجل بنظراتٍ جادّة ذلك الجرحَ النابض في خاصرتها. ألقى عليها غطاءً، ثمّ أسند رأسها بيديه وقرَّبَ من شفتيها كأس ماء بارد، فشربت أليثيا بنهم. أعانها الحارس بيديه لتضع رأسها على المخدّة. كان إسحاق يبتسم لها، لكنّ عينيه تشيان بانكسار نفسه. وكانت المتاهة، التي رأتها من أعلى، وظنّت أنّها كاتدرائيّة منحوتة بكلّ مكتبات العالم، كانت تنتصب ناهضةً خلف ظهره. جلس إسحاق بجانبها وأمسك يدها.

- استريحي الآن.

أطفأ الفانوس فطغى عليهما ظلامٌ لازورديّ، مرصَّعٌ بوميض النار المنهمر من السماء. وكانت متاهة الكتب، ذات الهندسية المستحيلة، تنفتح على الأفق فخُيِّلَ إلى أليثيا بأنّها تحلم، وأنّ القنبلة انفجرت في صالة الطعام عند جدّتها، وأنّها ورفيقها لم يخرجا إطلاقًا من تلك البناية المشتعلة.

كان إسحاق يراقبها بحزن. وما زال دويُّ القنابل، وصافرات الإنذار والموت، الذي يضرب برشلونة بالحديد والنار، ما زال يخترق الجدران. سُمِعَ انفجارٌ في الجوار، هزَّ الحيطان وزلزل الأرض تحت أقدامهما، وأَنهَض غيومًا غباريّة. جفلت أليثيا في سريرها، فأشعل الحارس شمعةً ووضعها على طاولة صغيرة قرب المرقد. فحدَّدَ لمعانُ لهيبها أطرافَ الهيكل المهيب الذي ينتأ في محور القبّة. لاحظ إسحاق أنّ تلك الرؤية تُذهِل نظرات الطفلة قبل لحظاتٍ وجيزةٍ من فقدانها الوعي. فتنهَّد، وقال لها في النهاية.

- أهلًا بكِ في مقبرة الكتب المنسيّة يا أليثيا.

(17)

فتح فيرمين عينيه على بياضٍ سماويٍّ باتّساع مهيب. ثمّة ملاكٌ يرتدي بدلة ممرِّض، يضمِّد فخذه؛ وعنبرٌ من نقّالاتٍ بلا حدود - هل نحن في المطهر؟ - سأل.

رفعت الممرّضة عينيها ونظرت إليه خلسة. لا يبدو أنّها تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها، وللوهلة الأولى خطر في بال فيرمين أنّها لم تكن لتصبح ملاكًا عضوًا في الهيئة الإلهيّة وهي أكثر جاذبيّةٌ من كلّ الملائكة التي تبرز في الصور الموزَّعة بقدَّاس المعموديّة والمناولة الأولى. وما كانت الأفكار الرذيلة لتخطر في باله إلّا الاحتمالٍ واحدٍ من اثنين: تحسّنٌ في المقوِّمات الجسديّة أو اقترابُ القَصاص الأبديّ.

- فليكن واضحًا أنّني أرتدُّ عن الكفر والفجور وأُذيِّل رسالتي بالعهدين، الجديد والقديم، وليكن بالترتيب الذي يناسب سموَّكِ الملائكيّ.

حين رأت الممرّضة أنّ مريضها يستعيد رشده ويجد كلماته، أشارت إلى طبيبٍ بدا أنّه لم ينم منذ أسبوع، بأن يقترب من النقّالة. رفع الطبيب جفنَي فيرمين بأصابعه وتفحَّصَ عينيه..

- هل أنا ميّت؟ - سأله فيرمين.

- لا تبالغْ. مرضوضٌ بعض الشيء، لكنّك ما تزال حيًّا بما فيه الكفاية.

- نحن لسنا في المطهر إذن؟

- هذا ما تتمنّاه. نحن في المستشفى الجامعيّ. ما يعني أنّنا في الجحيم.

وبينما راح الطبيب بفحص الإصابة، فكَّر فيرمين في المنعطف الذي سلكته الأحداث، وحاول أن يتذكّر كيف وصل إلى حيث هو.

- كيف تشعر؟ - سأله الطبيب.

- في الحقيقة، أنا قلِقٌ نوعًا ما. لقد حلمتُ أنّ يسوع المسيح جاء الزيارتي وجرت بينا محادثةٌ طويلة وعميقة.

- عمَّ تحادثتما؟

- عن كرة القدم بشكلٍ أساسيّ.

- هذا بسبب المهدِّئات التي أعطيناك إيّاها.

أومأ فيرمين بمعنوياتٍ مرتفعة.

- تبيَّنتُ ذلك عندما قال المسيح إنّه يشجِّع أتلتكو مدريد.

ابتسم الطبيب ابتسامةً طفيفة وهمس للممرّضة ببعض التعليمات.

- منذ متى وأنا هنا؟

- منذ ثماني ساعات تقريبًا.

- والطفلة؟

- هل تقصد يسوع الطفل؟

- لا. الطفلة التي كانت معي.

نظر كلٌّ من الطبيب والممرّضة إلى الآخر.

- يؤسفني؛ لم يكن هناك أيّ طفلة معك. فعلى حدّ علمي وجدوك بأعجوبةٍ فوق أحد سطوح الرافال في حالة نزيف.

- ألم يجيئوا بأيّ طفلةٍ معي؟

أخفض الطبيب عينيه.

- بصحّتك! لا.

حاول فيرمين النهوض، فأبقاه الطبيب والممرّضة مستلقيًا على النقّالة.

- عليّ أن أخرج من هنا أيّها الطبيب. ففي مكانٍ ما، هناك طفلةٌ بلا سند وفي أمسّ الحاجة إلى مساعدتي...

أومأ الطبيب للممرّضة، وسرعان ما أخذت قارورة من عربة الأدوية التي ترافقها في رحلتها القاريّة بين النقّالات، وشرعت تحضّر حقنة. هزّ فيرمين رأسه لكنّ الطبيب ثبّته.

- أخشى أنّني لا أستطيع إخراجك من هنا الآن. أطلب منك أن تتحلّى بقليلٍ من الصبر. لا أريد مفاجآتٍ بشعة.

- لا تقلق سيادتك، لديّ حيواتٌ أكثر من أيّ قطّ.

- وحياءٌ أقلّ من أيّ وزير، ولهذا أطلب منك أن تكفّ عن الطبطبة على مؤخّرات الممرضّات حين يغيّرن ضماداتك. مفهوم؟

أحسَّ فيرمين بوخزة الإبرة على كتفه اليمنى، واستشعر البرودة التي تتدفّق في شرايينه.

- هلّا سألتَ عنها أيّها الطبيب؟ اسمها أليثيا.

خفّف الطبيب قبضته وترك المريضَ يستريح على النقّالة. استرخت عضلات فيرمين كقالب الجيلاتين، واتّسعت حدقتاه، فبات يرى العالمَ لوحةً مائيةً تتحلّل تحت الماء. تلاشى الصوت البعيد للطبيب في أصداء انجرافه. شعر بالسقوط من بين غيومٍ قطنيّة. شعر بلون الممرّ الأبيض يتبدّد في غبارٍ منثورٍ كضوءٍ يتبخّر في البلسم السائل الذي تَعِدُ به جنّةُ الكيمياء.

(18)

أخرجوه في آخر الظهيرة، إذ غصَّت المستشفى بالجرحى، فكان كلُّ مَن لا يوشك على الموت يُعتَبر سليمًا معافى. تسلَّح فيرمين بعكّازٍ خشبيّ وثيابٍ جديدة تسلَّمها من أحد المتوفّين، واستقلّ الترام عند بوّابة المستشفى، فاقتاده إلى شوارع الرافال مجدّدًا. هناك حيث بدأ يطوف بين المقاهي والمطاعم والمحلّات التي ظلّت مفتوحة، ليسأل بأعلى صوته عمّا إذا رأى أحدهم طفلةٌ تحمل اسم أليثيا. وكان الناس، عندما يرون ذلك الرجل الهزيل السقيم، ينفون بهزّةٍ صامتة من رؤوسهم، ويظنّون أنّ المسكين يبحث عبثًا، مثل كثيرين غيره، عن طفلةٍ لقيتْ مصرعها، جثّةً واحدةً من تسعمئة - بينهم قرابة مئة طفل - ستُجمَع من شوارع برشلونة يوم الثامن عشر من مارس 1938.

عند الغروب، صال فيرمين وجال في شوارع لاس رامبلاس من أعلاها إلى أدناها. كانت القنابل قد أخرجت بعض عربات الترام عن سككها وما تزال ملقيّةً على الأرض، والدخان يتصاعد منها، وجثث الركاب فيها. وثمّة مقاهٍ كانت قبل ساعاتٍ تضجّ بالزبائن، أمست معارض شبحيّةً لأجسادٍ هامدة. والأرصفة تفيض بالدماء؛ ولا أحد ممّن نقل الجثث، أو غطّى الموتى أو فرّ إلى مكانٍ آخر ببساطة، لا أحد تذكَّرَ أنّه رأى طفلةً بالمواصفات التي كان فيرمين يستعرضها.

ورغم ذلك لم يفقد فيرمين الأمل في العثور عليها، حتّى عندما وجد صفًّا من الجثث الملقاة على الرصيف قبالة مسرح المعهد الكبير. لا جثة كانت تتجاوز عامها الثامن او التاسع. جلس فيرمين القرفصاء. وكانت إلى جانبه امرأةٌ تحنو على قدمَي طفلٍ شُقَّ صدرُه بفتحةٍ كبيرة كقبضة اليد.

- لقد مات. - قالت المرأة من دون أن يسألها فيرمين - جميعُهم أموات.

وخلال الليلة بأكملها، بينما كانت المدينة تزيح الأنقاض وقد انطفأ حريق أطلال عشرات الأبنية، ظلّ فيرمين يجوب شوارع الرافال من بابٍ إلى باب سائلًا عن أليثيا.

وفي نهاية المطاف، مع بزوغ الفجر، أدرك أنّه لن يستطيع الإقدام على خطوةٍ واحدة، فاسترخي على أعتاب مدخل كنيسة بيلين. وبعد قليل، جلس بجواره حارسٌ اتَّسخ وجهه برواسب الدخان وتلطَّخت بدلته بالدماء. وحين سأله عن سبب بكائه، عانقه فيرمين وقال له إنّه يريد أن يموت لأنّ القدر ائتمنه على حياة طفلةٍ فخان الأمانة ولم يفلح في حمايتها. لو أنّ الربّ أو الشيطان يتمتَّع بذرّة كرامة - تابع كلامه - لكان لزامًا عليه أن يسحق هذا العالم القذر في اليوم التالي أو الذي يليه، لأنّ عالمًا قذرًا كهذا لا يستحقّ الوجود.

أصغى إليه الحارس برحابة صدر، وهو الذي لم يسترح منذ ساعاتٍ كثيرة، قضاها في انتشال الجثث من تحت الأنقاض، بما فيها جثّة زوجته وجثّة ابنه ذي الستّة أعوام.

- يا صديقي. - قال في النهاية - لا تفقدِ الأمل. إن كنتُ قد تعلّمتُ شيئًا في هذه الحياة الحقيرة فهو أنّ القدر يقف دائمًا خلف إحدى الزوايا. كلصّ الحقائب، أو العاهرة أو بائع تذاكر اليانصيب، هذه هي تجليّاته الأكثر شيوعًا. فإن قرّرتَ يومًا ما أن تباشر البحث عنه، بما أنّه لا يقوم بزيارات إلى البيوت، فسترى كيف يمنحك فرصة ثانية.

حفلة تنكّريّة

مدريد

1959

فخامة السيّد

الدون ماوريسيو ڤايس ي إشڤاريا

وعقيلته

السيّدة إيلينا سارمينتو دي فونتالڤا

يتشرّفان بدعوتكم لحضور

حفلة تنكّريّة

والتي ستقام في

قصر مرثيديس

في منطقة سوموساغواس

٢٤ نوڤمبر ١٩٥٩

ابتداءً من الساعة ١٩,٠٠

يرجى تأكيد الحضور لدى مكتب المراسم

في وزارة التربية الوطنيّة

قبل الأوّل من نوفمبر

(1)

كانت الغرفة في ظلمةٍ أبديّة. لقد خُيِّطَتِ الستائرُ، المسدَلة منذ سنوات، بحيث تمنع أدنى بريق ضوءٍ من التسلّل إلى الداخل. وكان منبع النور الوحيد الذي يخدش العتم آتيًا من ضوءٍ مغطّى بالنحاس ومعلَّقٍ على الجدار. وكانت هالته المصفرّة الباهتة ترسم أطراف سريرٍ مركّبٍ بالسرادق الذي يظلّله حجابٌ شفّاف. وما وراءه يتراءى طيف امرأة، لا تقوى على الحركة. «يبدو نعشًا بالأحرى» فكّر ڤايس.

نظر ماوريسيو ڤايس إلى جانب زوجته إيلينا. كانت ترقد بلا حراك، منهارةً على السرير الذي أمسى سجنها في العقد الأخير، حين صار من المتعذَّر أن توضَع على الكرسيّ النقّال. ومع مرور الأعوام، التوى الهيكل العظميّ للسيّدة إيلينا بذاك الداء الذي استنزف جسمها، حتّى أحالها إلى ركامِ أعضاءٍ في حالة احتضار أبديّة، يصعب التعرُّف إلى صاحبه. ثمّة صليبٌ من خشب الموغنو يراقبها من مسند السرير، لكنّ السماء بقسوتها الواسعة، لم تهبها نعمة الموت. «الذنب ذنبي» فكّر ڤايس، «السماء تعاقبني بها».

سمع ڤايس أنفاس زوجته المعذَّبة ما بين أصداء ألحان الأوركسترا وأصوات قرابة المئة مدعوٍّ في الحديقة بالأسفل. نهضت ممرّضة المناوبة الليليّة عن كرسيّها بجانب السرير واقتربت من ڤايس باحتراس.

لا يتذكّر اسمها. فالممرّضات اللواتي يعتنين بزوجته لا يَدُمْنَ أكثر من شهرين أو ثلاثة أبدًا، مع أنّ الراتب المعروض مرتفعٌ للغاية. لكنّ ذلك ليس ذنبهنّ.

- نائمة! - سأل ڤايس نفت الممرّضة بهزّةٍ من رأسها.

- لا، يا سيادة الوزير، لكنّ الطبيب سبق أن أعطاها حقنة المساء. لقد أمضت أوقاتًا صعبة بعد الظهر. والآن تحسَّنتْ.

- دعينا وحدنا. - أمرها ڤايس.

أومأت الممرّضة وخرجت من الغرفة وهي تغلق الباب خلف ظهرها. فاقترب ڤايس من المرقد. أزاح حجاب الشاش وجلس على حرف السرير. أغمض عينيه برهةً وسمع أنفاس المرأة المختنقة، وتبلّلَ بالرائحة المرّة المنبعثة من جسده. سمع صوت أظفارها تخمش الشرشف. توجَّه إليها بابتسامته المركَّبة على شفتيه، والتعبير المملوء بالهدوء والصفاء والحنان مجمَّدًا على وجهه، فرأى أنّ زوجته تحملق به بنظرةٍ ناريّة. لقد شوَّه ذلك الداء - الذي عجز أمهر الأطبّاء في أوروبا عن إيجاد دواءٍ واسمٍ له - شوَّهَ يديها إلى أن حوَّلهما إلى عُقدتين من جلدٍ متيبِّس يذكِّره بأطراف الزواحف ومخالب الطيور الجارحة. حنا ڤايس على ما كانت في الماضي يمنى زوجته، وواجه تلك النظرة المستعرة بالغضب والألم. وربّما بالحقد أيضًا، تفاءَلَ ڤايس. فأن يكون في هذا المخلوق حدٌّ أدنى من المحبّة تجاهه وتجاه العالم، فإنّها فكرة ظالمة جدًا برأيه.

- ليلة سعيدة يا حبيبتي.

لقد فقدت إيلينا قدرتها على استخدام الحبال الصوتيّة إلى حدٍّ كبير منذ ما يزيد على العامين، وكان نطق كلمة واحدة يتطلّب منها مجهودًا عظيمًا. ورغم هذا، أجابت على تحيّته بنحيبٍ بلعوميٍّ بدا كأنّه انبثق من أعماق جسدها المشوَّه والمغطّى بالشراشف.

- قالوا لي إن نهاركِ كان سيّئًا. - أكمل قابس – سيؤدّي الدواء مفعوله بسرعة وستستريحين.

لم يتخلَّ عن ابتسامته ولم يترك تلك اليد التي توحي له بالتقزُّز والفزع. كان للمشهد أن يُجرَى باعتياديّة يوميّة. كان سيتكلّم إليها بصوتٍ خفيض بضع دقائق ممسكًا بيدها، بينما ستحدِّق إليه بتلك النظرة الحارقة إلى أن يخدِّر المورفين آلامها وغضبها، وسيكون في وسعه حينذاك أن يخرج من تلك الغرفة القائمة في آخر الممرّ من الطابق الثالث، ولن يعود إليها حتّى مساء اليوم التالي.

- لقد حضروا جميعًا. واستعرضت مرثيديس فستانها الطويل، وقيل لي إنّها رقصت مع ابن السفير البريطانيّ. جميعهم يسألون عنكِ ويوجّهون إليكِ أطيب التحيّات.

وبينما كان يتفوّه بذلك الهراء التقليديّ، حطَّت نظراتُه على إناء المعدَّات المعدنيّة والحُقَن فوق طاولةٍ معدنيّةٍ مغطّاةٍ بالمخمل الأحمر بجانب السرير. كانت قوارير المورفين تتلألأ تحت الضوء كأحجارٍ كريمة. وظلَّ صوتُه معلَّقًا، وكلماتُه الفارغة والضائعة في الهواء. تتبّعت إيلينا اتجاه أنظار زوجها، وآنذاك تبلّلَ وجهها بدموعها، وتثبَّتت عيناها عليه بتعبيرٍ ملؤه التوسُّل. نظر ڤايس إلى زوجته وتنهَّد. انحنى ليقبِّل جبينها.

- أحبُّكِ - غمغم قائلًا.

وعند سماعها تلك الكلمة، أقصت إيلينا وجهها وأغمضت عينيها. فداعب ڤايس خدّها ونهض. أغلق حجاب السرير، ثمّ قطع الغرفة وهو يربط أزرار سترته وينظِّف شفتيه بمنديلٍ ألقاه على الأرض قبل أن يخرج.

(2)

قبل عدّة أيّام، استدعي ماوريسيو ڤايس ابنته مرثيديس إلى مكتبه الكائن في قمّة البرج، ليسألها عن الهدية التي ترغب فيها في عيد ميلادها. وقد انقضى زمان الدمى الخزفيّة الراقية وكتب الحكايات الخياليّة. صرَّحت مرثيديس، التي لم تحتفظ من الطفولة إلّا بضحكتها وتعلقها بأبيها، صرَّحت بأنّ أقصى ما تتمنّاه ليس إلّا السماح لها بالمشاركة في الحفلة التنكُّريّة التي ستقام بعد أسبوعين تقريبًا في القصر الذي يحمل اسمها.

- عليَّ أن أستشير والدتكِ. - كذب ڤايس.

عانقته مرثيديس وقبّلته لتختم بذلك على الوعد السرّيّ الذي تعرف مسبقًا أنّه سيتحقّق. وكانت قد اختارت الفستان الذي ستتباهى به، قبل أن تكلِّم أباها بالخصوص، فستانًا مبهرًا خمريَّ اللون، أُعِدَّ من أجل أمّها في أهمّ ورشة خياطة الموضة في باريس، والذي لم تكن السيّدة إيلينا قادرةً على ارتدائه بأي حال. وكان الفستان، حاله كحال مئات المجوهرات والمقتنيات الفاخرة من حياةٍ مهدورةٍ لم تستطع أمّها أن تعيشها، منفيًّا منذ خمسة عشر عامًا في خزائن ركن الملابس البهيِّ والمعزول والملاصق للجناح الزوجيّ القديم، الخارج عن الاستخدام، في الطابق الثاني. وعلى مدى أعوام، في حين كان الجميع يظنون أن مرثيديس نائمة في غرفتها، كانت تتسلّل إلى غرفة نوم أمّها لتأخذ المفتاح الموجود في الدُّرج الرابع من الخزانة الصغيرة بجانب المدخل. أمّا الممرّضة الليليّة الوحيدة التي تجاسرت وأثبتت حضورها، طُرِدَتْ بلا حفل توديع أو إكراميّة نهاية الخدمة، عندما اتّهمتها مرثيديس بسرقة سوارٍ من زينة أمِّها، الذي دفنتْه بنفسها في الحديقة، خلف نافورة الملائكة فلم تتجرّأ الأخريات على فتح أفواههنّ بعدئذ، وكُنَّ يتظاهرن بعدم رؤيتها في العتمة المتواصلة والمهيمنة على الغرفة.

تمسك المفتاح بيدها، وتغطس بمنتصف الليل في ركن الملابس، وهو عبارة عن غرفة واسعة ومعزولة في الجناح الغربيّ للبيت، تعبق برائحة الغبار والنفتلين والهجران. تحمل مرثيديس شمعة بين يديها وتسير بها في الممرّات الجانبيّة للخزانات الزجاجيّة المليئة بالأحذية والمجوهرات والثياب والشَّعر المستعار. وكانت زوايا مدفن الأزياء والذكريات هذا مسكنًا لشباك العناكب، فها إنّ مرثيديس الصغيرة، التي نشأت في العزلة المترفة التي تتمتّع بها الأميرات الوارثات، تتصوَّر أنّ جميع تلك الأغراض العجيبة مُلك لدميةٍ محطّمة، ملعونة، محتجزةٍ في زنزانةٍ في آخر ممرّ الطابق الثالث، ولم تكن لتقدر على المباهاة يومًا بتلك الأقمشة والمجوهرات الخرافيّة.

وفي بعض الأحيان، كان منتصف الليل يسترها، لتترك الشمعة على الأرض وتجرِّب أحد تلك الفساتين، وترقص بمفردها في الظلمة على إيقاع ساعة جرسيّة قديمة شحنتْها يدويًّا لتبثّ أنغام حلم شهرزاد. كانت تتخيّل بمتعةٍ ناعمةٍ أنّ أباها يطوِّق خصرها بيديه اللتين تقتادانها إلى صالة رقص كبيرة فيما يركِّز الجميع أبصارهم عليها بحسدٍ وإعجاب. وعندما تتسرّب أضواء الفجر من

بين فتحات الستائر، تعيد مرثيديس المفتاح إلى الخزانة الصغيرة وتسارع للعودة إلى سريرها التتظاهر بالنوم الذي ستوقظه منها إحدى الخادمات قبل السابعة صباحًا بقليل.

وفي سهرة الحفلة التنكّريّة، لم يخطر في بال أيٍّ من المدعوين أن يكون ذلك الفستان الذي يفصِّل جذعها مصمّمًا لأحدٍ غيرها. وبينما كانت تتمايل على حلبة الرقص وأنغام الأوركسترا بين ذراعَي أحدٍ ما، شعرت مرثيديس بأنّ عيون المدعوّين المئة تلامسها بشهوةٍ وإغواء وكانت على يقين من أنّ اسمها صار على شفاه الجميع، فابتسمت في سرّها وهي تلتقط كالطير محادثاتٍ كانت فيها البطلة.

وإذ قاربت الساعةُ حدود التاسعة لتلك السهرة التي لطالما حلمت بها، غادرت مرثيديس صالة الرقص على مضض وسارت نحو سلالم البيت الرئيسيّ. كانت ترجو أن ترقص مرّةً واحدةً على الأقلّ مع أبيها، لكنّه لم يثبت حضوره في الصالة ولم يره أحد. لقد أخذ منها الدون ماوريسيو وعدًا بالعودة إلى غرفتها في الساعة التاسعة، شرطًا للسماح لها بالمشاركة في الحفلة، ولم يكن في نيّة مرثيديس أن تعارضه. «العام القادم، ربّما».

وفي أثناء مشيها، أصغت إلى محاورة بين زميلين من حكومة أبيها، نبيلين في سنٍّ متقدِّمة لم يكفّا عن النظر إليها بعيونٍ زجاجيّة طوال الأمسية. وكانا يغتابان الدون ماوريسيو الذي استطاع أن يشتري كلّ شيء في حياته بأموال زوجته المسكينة، بما فيها تلك السهرة الغريبة، لِما تبدو عليه بأنّها ربيعيّةٌ في منتصف الخريف المدريديّ، والتي أفسحت المجال لتَبَاهي ابنتِهِ، القحبة الصغيرة، على مرأى وجهاء المجتمع في هذه اللحظة الراهنة. أسكرتها الشمبانيا وجولات الفالس، فالتفتت لتردّ عليهما، فإذا بطيفٍ يجيء قبالتها ويأخذها برفقٍ من ذراعها.

إيرينه، المربيّة التي كانت لها كظلّها وعزائها في الأعوام العشرة الأخيرة، ابتسمت لها بدفء وقبّلت خدّها.

- لا تصغي إليهم. - قالت.

فابتسمت مرثيديس لامباليةً.

- أنتِ رائعة الجمال. دعيهم يروكِ جيّدًا.

أخفضت الفتاة أنظارها.

- هذا الفستان رائع، ويليق بكِ جدًّا.

- كان لوالدتي.

- بعد هذا المساء سيصبح إلى الأبد مُلككِ أنتِ لا أحد غيركِ.

أومأت مريديس وقد تضرَّجَ وجهها من الثناء، ومن مذاق الذنب المرير.

- هل رأيتِ أبي يا سيّدة إيرينه؟

هزّت المرأة رأسها.

- الجميع يسأل عنه...

- عليهم أن ينتظروا.

- لقد وعدتُه بالبقاء حتّى التاسعة. أقلّ من سندريلا بثلاث ساعات.

- من الأفضل أن نسرِّع الخطى قبل أن تتحولي إلى يقطينة... - مازحتْها المربّية على مضض.

مشيتا بالدرب الذي يقطع الحديقة تحت أكاليل الإنارة التي ترسم وجوه الغرباء وهم يبتسمون على مرورها كما لو أنّهم يعرفونها، حاملين كؤوس الشمبانيا اللامعة مثل خناجر مسمومة.

- هل سينزل أبي إلى الرقص يا سيّدة إيرينه؟ - سألت مرثيديس.

انتظرت المربّية حتّى أصبحتا بعيدًا عن متناول الآذان المتطفّلة والنظرات المتخفّية قبل أن تردّ.

- لا أدري. لم أره طوال اليوم...

أرادت مرثيديس أن تقول شيئًا فإذا بضجيجٍ يرتفع خلفهما. التفتتا فرأتا أنّ الأوركسترا توقّفت عن العزف في حين أنّ أحد ذينك السيّدين اللذين كانا يتهامسان بلؤمٍ عند مرورها، كان قد صعد إلى المنصّة وهيّأ نفسه للتوجّه إلى المستمعين. وقبل أن تسأل مرثيديس عمّن يكون، همست لها المربّية في أذنها:

- إنّه الدون خوسيه ماريّا ألتيا، وزير الداخليّة...

أعطى أحد المرؤوسين الميكروفون للسياسيّ، وخمدت همهمة المدعوّين برزانةٍ واحترام. واتّخذ الموسيقيّون تعبيرًا ساميًا، رافعين أعينهم نحو الوزير الذي كان يبتسم وهو ينظر إلى جمهورٍ من المنتظِرين بانضباط. سبر ألتيا بنظرته قرابة مئة وجهٍ تحدِّق إليه. وفي النهاية، حمل الميكروفون إلى فمه، على مهلٍ وطمأنينةٍ في ذاته، وبحسٍّ سلطويٍّ يتميّز به خطيبٌ ضليعٌ بقطيعه المطواع، وهكذا استهلّ خطبته.

(3)

- أصدقائي الأعزّاء، يسعدني ويشرّفني أن أصرّح بهذه الكلمات الموجزة أمام جمهورٍ رفيع إلى هذه الدرجة، محتشدًا هنا ليعبّر بصدقٍ عن إشادةٍ مستحقّة لواحدٍ هو من أعظم الرجال في إسبانيا الحديثة التي بُعِثَتْ من تحت الرماد. وما ملأني السرور إلّا لأنّني أفعل ذلك بعد مضيّ عشرين عامًا من النصر الممجَّد لحملة التحرير الوطنيّة التي جعلت بلدَنا في مصاف أسمى أمم هذه الأرض. إنّها إسبانيا بقيادة الجنرال الأعظم ورعاية الله، إسبانيا التي تكوّنت بهمّة رجالٍ أشدّاء كالذي يستضيفنا اليوم في بيته، والذي ندين له بالكثير. رجلٌ أساسيٌّ في تطوُّر هذه الأمّة العظيمة، التي نعتزُّ بها اليوم وقد صارت محطّ حسد الغرب كلّه، وأساسيٌّ في تطوُّر ثقافتها الخالدة. رجلٌ أعتزّ وأمتنّ بحسبانه أحد أفضل أصدقائي: الدون ماوريسيو ڤايس ي إشفاريا.

اجتاحت موجةُ التصفيق ذلك الحشد الغفير من أقصى الحديقة إلى أقصاها. لم يتغيَّبِ الخدم والحرّاس الشخصيّون والموسيقيّون عن الهتافات. هدّأ ألتيا حفاوة الجمهور وتهيُّجه بابتسامةٍ طيّبة، وأومأ بطريقةٍ أبويّة ليخفِّف من حماسة الحضور بحركاتٍ كاردِيناليّة.

- ما الذي يقال بحقّ الدون ماوريسيو ڤايس ولم يُقَلْ بعد. إنّه من الرعيل الأوّل للحركة، وقد خطى بمسيرةٍ نموذجيّة وقويمة، نُقِشَتْ في تاريخنا بحروف من ذهب. إلّا أنّ الدون ماوريسيو القدير والمحبوب، لو سمحتم لي، تميَّزَ بعطائه الاستثنائيّ في مجال الفنون والآداب تحديدًا، وأهدانا أعمالًا رفعت ثقافة هذا البلد إلى أعلى المستويات. لم يكتفِ بإسهاماته في تشييد الركائز المتينة للنظام الذي أمَّنَ السلام والعدالة والرخاء للشعب الإسبانيّ فحسب، بل وأدرك جيّدًا أنّه ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان، فسطع كالنجم المنير والمتألّق في سماء أدابنا. مؤلِّفٌ لروائع خالدة؛ قلمٌ متفرِّدٌ في أدبنا، مؤسِّسٌ لمعهد لوبي دي فيغا، الذي عرَّف العالم بأسره على آدابنا وعقيدتنا، وافتتح في هذا العام مفوَّضيّاتٍ في اثنتين وعشرين عاصمةٍ عالميّة؛ ناشرٌ فذٌّ لا يعرف الكلل، مكتشفٌ رفيعٌ للأدب العظيم ومدافعٌ صنديد لأكثر ثقافات عصرنا شموخًا؛ مهندسٌ لمنهجيّةٍ جديدة في إدراك الفنّ والفكر وتطبيقاتهما... تنقصني الكلمات للبدء بوصف الإسهام الجليل الذي قدَّمه مضيفنا السخيّ في مجال تأهيل وتربية المواطنين في إسبانيا الحاضر والمستقبل. لقد أعطت جهوده على رأس وزارة التربية الوطنيّة دفعةً للبنى الجوهريّة للمعرفة والإبداع عندنا. لذا من الإنصافِ التأكيدُ أنّه لولا الدون ماوريسيو ڤايس لما كانت الثقافة الإسبانيّة كما نعرفها. سترافقنا بصمته وعبقريّة رؤيته أجيالًا وأجيالا، وستبقى أعماله الخالدة تعتلي قمّة البارناسوس الإسبانيّ قرونًا وقرونا.

هيّجت الاستراحة المتأثّرة موجة هتاف جديدة كانت الأنظار خلالها تبحث بين الجمع عن الغائب الذي وُجِّهَ إليه ذلك الثناء، رجل اللحظة الذي لم يره أحد أثناء السهرة كلّها.

- لن أطيل عليكم، لأنّني أعلم أنّ أكثركم يودّ أن يعبِّر شخصيًّا للدون ماوريسيو عن امتنانه وإعجابه، وأضمُّ نفسي لذلك. سوى أنّني أردتُ أن أتقاسم وإيّاكم رسالة المحبّة القلبيّة، والشكر

الجزيل، والثناء الضروريّ لزميلي في الحكومة وصديقي الأغلى الدون ماوريسيو ڤايس إذ أُبْلِغتُ منذ قليل، من قصر الباردو، بأنّ قائد الدولة، الجنرال فرانكو، استبقتْه شؤونٌ حكوميّة طارئة...

تنهيدةُ إحباط، نظراتٌ بين الحاضرين، وصمتٌ رهيب. كان ذلك تمهيدًا لقراءة الرسالة التي أخرجها ألتيا من جيبه.

- «صديقي العزيز ماوريسيو، الإسبانيّ الشامل والمتعاون الذي لا غنى عنه، لقد قدَّمتَ الكثير لبلدنا وثقافتنا. السيّدة كارمن وأنا نودّ أن نحيطك بعناقٍ ودودٍ تعبيرًا عن امتناننا، باسم جميع الإسبانيّين، لقاءَ عشرين عامًا من خدمتك الفريدة...» رفع ألتيا نظره وصوته ليختم بـ«يحيا فرانكو» و«تحيا إسبانيا»، فردَّد الجمهورُ الهتافَ بشكلٍ جماعيٍّ وجيّاشٍ ودفعهم لأداء التحيّة بأذرعٍ ممدودة ودموعٍ مزهرة. وانضمّ ألتيا للتصفيق العارم الذي اجتاح الحديقة. وقبل أن ينزل عن المنصّة، أشار الوزير إلى قائد الأوركسترا الذي لم يترك الهتافات تغرق في الهمهمة فاستعاد ألقها بعزف فالس رنّانٍ بدا أنّه يحملها في الهواء حتّى بقيّة السهرة. وحينذاك، عندما تبيَّنَ أنّ الجنرال الأعظم لن يأتي، كثرت أعدادُ أولئك الذين أسقطوا الأقنعة أرضًا وانسلّوا واحدًا تلو الآخر نحو المخرج.

(4)

سمع ڤايس موسيقى الأوركسترا تغمر أصداء الهتاف الذي رافق ختام خطبة ألتيا، «الصديق العظيم والزميل المحترم» الذي حاول طوال أعوام أن يطعنه في الظَّهر، والذي لا بدّ أنّه انتشى برائحة المجد الفائح من رسالة الجنرال التي يعتذر فيها عن تغيُّبه. ضغط دايس على اسنانه غضبًا ولعن ألتيا وقطيع ضباعه، شلّة المأجورين الجدد الذين اعتبرهم كثيرون «أزهارًا مسمومة»، ولدوا في ظلّ النظام وبدأوا باحتكار مناصب قياديّة في الإدارة. وكان معظمهم يطوفون في الحديقة بتلك اللحظة، يشربون الشمبانيا ويقضمون المعجّنات. ويتشمَّمون رائحة دمه. حمل ڤايس إلى شفتيه السيجارة التي كانت بين أصابعه، فانتبه أنّها باتت رمادًا خافتًا. وكان بيثنتي، كبير حرّاسه الشخصيّين، ينظر إليه من الطرف الآخر لصالة الطعام. فاقترب منه ليعطيه إحدى سجائره.

- شكرا يا بيثنتي.

- تهانينا أيّها الدون ماوريسيو... - غمغم حارسه الوفيّ.

فأومأ ڤايس، وضحك بمرارة في سرّه. عاد بيثنتي، الأمين والمحترم دومًا، إلى مكانه في آخر الممرّ حيث كاد يمتزج بالجدران ليختفي بين أوراقها العازلة، ما لم يبذل أحدٌ الجهد لترصُّده.

مجّ ڤايس من السيجارة وأمعن النظر في الممرّ الذي ينفتح أمامه عبْر الغشاوة المزروقة التي ينفخها من فمه. كانت مرثيديس تسمِّي الممرّ «معرض البورتريهات». إذ يدور حول الطابق الثالث بأكمله، وكان مزيّنًا باللوحات والمنحوتات التي تضفي عليه هالة متحفٍ كبيرٍ يتيمِ الجمهور. وكان ليرما، القيِّم على متحف البرادو الذي يعتني بتلك المجموعة، قد ذكَّره مرارًا بوجوب عدم التدخين هناك، وأنّ ضوء الشمس يضرّ باللوحات. سحب ڤايس مجَّةً أخرى بصحَة ليرما. استنتج أنّ ما كان يودّ ليرما قوله، لأنّه ليس قويًّا بما يكفي للتلميح حتّى، إنّ تلك الأعمال لا تستحقّ أن يُحجَزَ عليها في بيتٍ خاصّ، على الرغم من عظمة المشهد وعلوِّ شأن صاحبها؛ وإنّ مكانها الطبيعيّ في متحفٍ يعرضها للجمهور الذي يقدِّرها ويستمتع بها، أي تلك الأرواح الصغيرة التي تصفِّق في الاحتفاليّات وتقف في طوابير الجنازات.

ڤايس يحبّ الجلوس أحيانًا على أحد مقاعده الأسقفيّة الموجودة في معرض البورتريهات، والتلذُّذ بكنوزه التي حصل على أكثرها استعارةً أو اقتطاعًا مباشَرًا من مجموعاتٍ خاصّة لمواطنين وجدوا أنفسهم في الجانب الخاطئ من النزاع. كنوزٌ أخرى كانت آتيةً من متاحف وقصور تحت تصرُّف وزارته، استعارةً إلى أجلٍ غير مسمًّى. يحبّ أن يتذكّر تلك الأماسي الصيفيّة عندما لم تكن مرثيديس قد تجاوزت أعوامها العشرة، فتجلس في حضنه وتصغي إلى الحكايات المتضمَّنة في كلٍّ من تلك الأعاجيب. كان ڤايس يلتجئ إلى تلك الذكريات، والنظرة المفتونة لابنته وهي تستمع إلى أحاديثه عن سورولا وثورباران وغويا وبيلاثكيز.

وقد أراد أكثر من مرّة أن يكون على يقينٍ من أنّ تلك الأيام التي تقاسمها مع مرثيديس، أيّام العزّ والمجد، لن تضيع من بين يديه أبدًا، ما دام باقيًا هناك، في ملاذ الضوء وسحر تلك اللوحات.

وكانت ابنته منذ زمن قد كفّت عن قضاء الأمسية بصحبته للاستماع إلى حكاياته العظيمة عن العصر الذهبيّ للرسم الإسبانيّ؛ إلّا أنّ فكرة التجائه إلى ذلك المعرض، على بساطتها، كانت تواسيه وتنسيه أنّ مرثيديس باتت امرأةً لم يتمكّن من تحديدها بفستان السهرة، وهي ترقص تحت أنظار الحسد والشهوة، والريبة والخبث. سيأتي يومٌ قريب، قريبٌ جدًّا، لن يكون قادرًا فيه على حمايتها من عالم الظلال المخيف الذي لا يستحقّها ويتربّص بها خلف أسوار ذلك البيت.

أنهى سيجارته بصمت ونهض. ترامت إليه أصوات الأوركسترا والحاضرين في الحديقة من خلف الستائر المواربة. سار نحو السلالم المؤدّية إلى البرج دون أن يلتفت إلى الخلف. فخرج بيثنتي من مكمنه وتبعه بخطواتٍ مكتومة.

(5)

وما إن أدخل المفتاح في قفل مكتبه حتّى أدرك أنّ الباب كان مفتوحًا. توقّف ڤايس، وأصابعه ما تزال مشدودة على المفتاح، والتفت. فقرأ بيثنتي نظرته. كان ينتظره أسفل السلَّم، فاقترب بحذر وهو يُخرِجُ مسدّس الريفولفر من سترته. تنحّى ڤايس بضع خطوات وأشار له بيثنتي بالاستناد إلى الجدار، بعيدًا عن عتبة الباب. حتّى إذا صار ڤايس في مأمن، هيّأ بيثنتي القادح ودوّر مقبض الباب ببطء شديد. فتحرّك لوح السنديان المنقوش على رِسْله، بالاعتماد على ثقله، نحو الداخل المظلم.

أبقى الحارس مسدّسه عاليًا، وتقصّى في الظلام برهةً. ثمّة هالة شبه زرقاء تتسلّل من النوافذ لترسم أطراف مكتب ڤايس. حدّدت عيناه المكتب الخشبيّ الكبير، والمقعد الذي يليق بكولونيل، والمكتبة البيضويّة والديوان الجلديّ على السجّادة العجميّة التي تغطّي الأرض. لا شيء يتحرّك في ذلك الظلّ. تلمَّسَ بيثنتي الجدار بحثًا عن القاطع فأشعل الضوء. لا أحد. أخفض سلاحه ودسّه في سترته، ليخطو ببطء في المكان. كان ڤايس من خلفه يراقب عند العتبة. التفت إليه بيثنتي وهزّ رأسه.

- لعليّ نسيتُ أن أغلق الباب عندما خرجتُ هذا العصر. - قال ڤايس عن غير اقتناع.

توقَّف بيثنتي وسط المكتب ونظر حوله بانتباه. فدخل ڤايس واقترب من المكتب الخشبيّ. كان حارسه يتحقّق من إغلاق النوافذ عندما انتبه الوزير إلى الشيء. سمع خطوات ڤايس تتوقّف فجأة فالتفت نحوه.

كانت نظرات الوزير تحدِّق إلى سطح المكتب. ظرفٌ رمليُّ اللون يرقد على الغطاء الجلديّ في الوسط. اقشعرّ جلد يديه واكتسحت أحشاءه هبَّةُ ريحٍ باردة.

- كلّ شيء على ما يرام، دون ماوريسيو؟ - سأله بيثنتي.

- دعني بمفردي.

تردّد الحارس بضع لحظات. وكانت نظرات ڤايس ما تزال ثابتةً على الظرف.

- إن احتجتَ إليّ سيادتكم، فأنا في الخارج.

أومأ ڤايس. وتراجع بيثنتي على مضض نحو الباب. وعندما أغلقه، كان الوزير ما يزال متسمّرًا قبالة المكتب يتمعّن الظرف المصنوع من الرقّ كأنّه يصادف أفعى تتهيّأ للانقضاض على عنقه.

دار حول المكتب وجلس على مقعده وقد جمع قبضتيه تحت ذقنه. انتظر حوالي الدقيقة قبل أن يضع يده على الظرف. تلمَّسَ محتواه وأحسَّ بتسارع النبض. أدخل إصبعًا تحت الدمغة وفتحها. ما يزال الإغلاق رطبًا، فتراخى بسهولة. أمسك بالظرف من جانبه ورفعه، فسقط المحتوى على سطح المكتب. أغمض ڤايس عينيه وتنهَّد.

كان كتابًا مجلّدًا بجلدٍ أسود، ولا عنوان على غلافه، باستثناء نقشةٍ توحي بعتبات سلّمٍ حلزونيٍّ مأخوذٍ من زاويةٍ سمتيّة.

ارتجفت يده فأحكم قبضتها، وشدّ بقوّة. رأى بطاقة تنتأ من صفحات الكتاب، فأخرجها. ورقةٌ مصفرةٌ، منتزعةٌ من دفتر حسابات ومظلّلةٌ بخطوطٍ أفقيّة حمراء على امتداد عمودين، في كلٍّ منهما لائحةُ أرقام. وفي أسفل الصفحة، كُتِبَتْ هذه الكلمات بحبرٍ أحمر:

زمانُكَ يوشكُ على النهاية.

لديك فرصةٌ أخيرة.

عند مدخل المتاهة.

أحسَّ ڤايس بالاختناق. وقبل أن يدرك ما الذي كان يفعله، نبش بيديه في الدُّرج الأكبر وأمسك بمسدَّسٍ يحتفظ به هناك. غرس القصبة بفمه وهيّأ القادح. كانت للسلاح نكهة الزيت والبارود. اجتاحه الغثيان، لكنّه أمسك المسدّس بكلتا يديه وأبقى عينيه مغمضتين لعلّهما تلجمان دموعًا انهمرت على وجهه. سمع حينذاك خطواتها على السلّم وصوتها. كانت مرثيديس تتكلّم مع بيثنتي عند باب المكتب. فأعاد المسدّس إلى الدُّرج ومسح دموعه بكمّ السترة. طرق بيثنتي الباب بخفّة. فسحب ڤايس أعمق أنفاسه وانتظر لحظة أخرى. فطرق الحارس من جديد.

- دون ماوريسيو؟ إنّها ابنتكم مرثيديس...

- دعها تدخل. - قال الوزير بصوتٍ مشروخ.

انفتح الباب ودخلت مرثيديس مسربلةً بفستانها الخمريّ، تتبختر بابتسامةٍ مسحورةٍ تلاشت حالما حطّت أنظارها على أبيها. كان بيثنتي يحدّق إليه من العتبة خلسةً غيرَ مطمئنّ. فأومأ ڤايس وأشار له بأن يتركهما على انفراد.

- هل أنت بخير يا بابا؟

استلَّ ڤايس أوسع ابتساماته ونهض ليعانق مرثيديس.

- أنا بخير طبعًا. وبتُّ أفضل حالًا برؤيتكِ الآن.

شعرت الفتاة بعناق أبيها العارم، وقد غمر وجهه في شعرها يتشمّم رائحتها مثلما حين كانت صغيرة، كأنّه واثقٌ من أنّ استنشاق عبير جلدها سيقيه من كلّ شرور العالم. وعندما حرّرها أخيرًا، حدّدت مرثيديس أنظارها عليه فانتبهت إلى احمرار عينيه.

- ماذا يحدث يا بابا؟

- لا شيء.

- تعرف أنّك لا تستطيع خداعي. بإمكانك خداع الآخرين، إلّا أنا...

ابتسم ڤايس. كانت الساعة على سطح المكتب تشير إلى التاسعة وخمس دقائق.

- أرأيت أنّني أصون وعودي؟ - قالت، وكأنّها تقرأ أفكاره.

- لم يكن لديّ أدنى شكّ في هذا.

نهضت مرثيديس على رؤوس أصابعها وألقت نظرة إلى سطح المكتب.

- ماذا تقرأ؟

- لا شيء. تفاهات.

- هلّا قرأتُها أنا أيضًا؟

- لا تناسب فتاة صغيرة.

- لم أعد فتاة صغيرة. - قالت مرثيديس متبسِّمةً بلومٍ طفوليّ وهي تدور حول نفسها لاستعراض فستانها ومظهرها.

- أرى ذلك. أنتِ امرأة.

وضعت مرثيديس يدها على خدّ أبيها.

- أهذا ما يحزنك؟

قبّل ڤايس يد ابنته وهزّ رأسه.

- لا بالتأكيد.

- ولا حتّى قليلًا؟

- حسنٌ، يحزنني قليلًا.

ضحكت الفتاة. فشاركها أبوها الضحكة، ونكهة البارود ما تزال تعربد على شفتيه.

- يسال الجميع عنك في الحفلة..

- اعترضتني بعض التعقيدات. تعرفين كيف تجري هذه الأمور.

أومأت مرثيديس بمكر.

- أجل. أعرف...

طافت في أرجاء المكتب، ذاك العالم السرّيّ المليء بالكتب والخزانات المغلقة، وداعبت بأناملها أضلاع مجلّدات المكتبة. لاحظت أنّ أباها يركّز إليها عينيه الضبابيّتين فتوقّفت.

- لن تخبرني بما يحدث، أليس كذلك؟

- مرثيديس، أنت تعلمين بأنّني أودّكِ أكثر من أيّ شيء آخر على وجه هذه الأرض، وأنّني فخورٌ بكِ للغاية، أليس صحيحًا؟

تردّدت. بدا له صوت أبيها يتأرجح على حبل، وقد اختفت لباقته وكبرياؤه كليًّا.

- بالتأكيد يا بابا... وأنا أودّك أيضًا.

- هذا هو الشيء الوحيد المهمّ. أيًّا كانت العاقبة.

كان أبوها يبتسم لها، لكنّها انتبهت أنّه يبكي. لم ترَ دموعًا له من قبل، فاعتراها الخوف، كما لو أنّ العالم يتداعى فوق رأسها. مسح أبوها دموعه موليًا إليها ظهره.

- قولي لبيثنتي أنْ يدخل.

اتّجهت مرثيديس نحو الباب، لكنّها توقّفت قبل أن تفتحه. ما زال ڤايس يوليها ظهره وينظر إلى الحديقة من النافذة - ما الذي سيحدث يا بابا؟

- لا شيء يا عزيزتي. لن يحدث شيء.

ففتحت الباب. وكان بيثنتي في الممرّ ينتظر بتعبيرٍ فولاذيٍّ منيعٍ على وجهه لطالما أفزعها.

- ليلة سعيدة، بابا. - غمغمت.

- ليلة سعيدة، مرثيديس.

حيّاها بيثنتي باحترام ودخل المكتب. التفتت مرثيديس لترى، فإذا الحارس يغلق الباب في وجهها برفق. فقرّبت الفتاة أذنها من الباب وتنصّتت.

- لقد كان هنا. - سمعت أباها يقول.

- غير معقول. - ردّ بيثنتي - كلّ المداخل مراقبة. ومسموحٌ لطاقم الخدم حصرًا بالصعود إلى الطوابق العليا. لقد زرعتُ رجالي عند كلّ السلالم.

- أؤكّد لك أنّه كان هنا. لديه لائحة أيضًا. لا أعرف كيف تدبَّرها، لكنّها لائحةُ... يا إلهي.

ابتلعت مرثيديس ريقها.

- لا بدّ من وجود خطأ ما يا سيّدي.

- انظر إليها بنفسك.

هبط صمت طويل. وحبست مرثيديس أنفاسها.

- الأرقام تبدو صحيحة يا سيّدي. لا أفهم...

- لقد حانت الساعة يا بيثنتي. ما عاد يمكنني أن أظلّ متستِّرًا. إما الآن وإلّا فلا. هل لي أن أعوِّل عليك؟

- بالطبع يا سيّدي. متى؟ - في الفجر.

عاد الصمت، ثمّ سمعت مرثيديس صوت خطوات تقترب من الباب. فهرعت نحو أسفل السلالم ولم تتوقّف إلّا حين وصلت إلى غرفتها. وحينها، استندت إلى الباب وتراخت إلى الأرض وهي تشعر بأنّ لعنةً تُحرِق الهواء، وأنّ تلك الليلة قد تكون الأخيرة في حكايةٍ هانئة تمّ بناؤها على امتداد أعوامٍ طويلة.

(6)

كانت ستذكر ذلك الفجر دومًا برماديّته وبرده، كأنّ الشتاء قرّر الهبوط على حين غرّة لإغراق قصر مرثيديس ببحيرةٍ من ضباب متحدِّرٍ من حدود الغاب. استيقظت ما إن مسحت أولى خيوط الضوء المعدنيّ نوافذ غرفتها. كانت قد غفت على السرير بفستانها. فتحت النافذة فلفح برد الصبح الرطب وجهها. وكان بساط الضباب الناعم يتماوج فوق الحديقة، مجرجرًا نفسه كأفعى تنساب ما بين مخلَّفات حفلة المساء الماضي. والسماء تحجبها الغيوم السوداء التي تتحرّك ببطء كأنّها تحتضن زوبعة.

خرجت مرثيديس من الغرفة حافية. البيت غارقٌ في صمتٍ عميق. مشت في الممرّ الدامس واتّخذت مدار الجناح الشرقيّ وصولًا إلى غرفة نوم أبيها. لم يكن بيثنتي أو أيٌّ من رجاله متمركزًا عند الباب، خلافًا للعادة التي درجت في الأعوام الأخيرة عندما بدأ والدها يعيش متستّرًا، ومحاطًا على الدوام بأكثر أزلامه وثوقًا، كأنّه يخشى أن يظهر شيءٌ ما من الجدران ليطعنه بخنجرٍ في الظَّهر. ولم تجرؤ على أن تسأله عن السبب إطلاقًا. كانت تكتفي بأن تجده غارقًا في الحزن أحيانًا، والقهر يسود نظراته.

فتحت باب غرفته دون أن تطرقه. كان السرير مرتّبًا. وفنجان البابونج الذي تتركه الخادمة كلّ مساء على الخزانة الصغيرة، كان ممتلئًا. وكم من مرّة تساءلت مرثيديس إن كان أبوها ما يزال يعرف النوم أم يقضي الليالي ساهرًا في مكتبه أعلى البرج. ارتابت من خفق أجنحة سربٍ من الطيور يهمّ بالتحليق في الحديقة. دنت من النافذة فتراءى لها طيفان يتّجهان نحو المرأب. ألصقت وجهها على الزجاج. توقف أحد الطيفين والتفت نحوها، كأنّه شعر بنظرتها تحطّ عليه ابتسمت مرثيديس لأبيها الذي كان ينظر إليها بلا أيّ إحساس، ساحب الوجه، ولم تره كبيرًا في السن مثلما رأته آنذاك.

أخفض ماوريسيو ڤايس أنظاره ودخل إلى المرأب صحبة بيثنتي الذي كان يحمل حقيبة صغيرة. اجتاحها حدسٌ بالفزع: لقد رأت تلك اللحظة في ألف حلم، من دون أن تفهم معناها. هرعت إلى السلالم، متعثرة بالأثاث والسجاد، في ظلمات الفجر المعدنية. وعندما وصلت إلى الحديقة، صفعتها هبّةُ البرد القارس. نزلت الدَّرَج الرخاميّ وركضت نحو المرأب باجتياز أرضٍ مقفرة تغصّ بالأقنعة الساقطة والكراسي المقلوبة وأكاليل النور التي ما زالت تضيء وتترنّح في الضباب. سمعت هدير محرّك السيّارة، وعجلاتها تقرقع على الحصى. وحين بلغت الدرب الرئيسيّ الذي يفضي إلى بوّابة القصر، كانت السيّارة قد ابتعدت بأسرع ما عندها. فركضت خلفها، غير آبهةٍ بالحصى الذي يخدش قدميها. وقبل أن يلتهم الضبابُ السيّارةَ إلى الأبد، استطاعت أن ترى أباها يلتفت للمرّة الأخيرة ويهديها نظرةً يائسة عبْر الزجاج الخلفيّ. فتابعت الركض إلى أن تلاشي صوت المحرّك في البعيد، وانسدّت بوّابة القصر في وجهها.

بعد ساعة، وجدتّها لويسا، الخادمة التي توقظها وتُلبِسَها الثياب كلّ صباح، وجدتْها على حافة المسبح. قدماها تتمايلان على سطح الماء المصبوغ بروافد الدماء، والمغطّى بعشرات الأقنعة التي

تطفو عليه كالزوارق الورقيّة الشراعيّة.

- آنسة مرثيديس، حبًّا بالله...

كانت مرثيديس ترتجف عندما دثّرتها لويسا بغطاء وحملتها إلى البيت. وحين وصلتا إلى الدَرَج الرخاميّ بدأت نُدَفُ الثلج بالتساقط. رياحٌ شديدةٌ تهتاج بين الأشجار، وتضرب أعمدة النور والطاولات والكراسي. لكنّ مرثيديس، التي رأت تلك اللحظة في الحلم أيضًا، عرفت أنّ البيت بدأ يموت.

ارحمْ[3]

مدريد

ديسمبر 1959

(1)

قبل العاشرة صباحًا بقليل، سلكت سيّارة باكارد سوداء شارع غران ڤيا تحت العاصفة وتوقّفت عند مدخل فندق هيسبانيا القديم. كانت سيول المطر تحجب نافذة غرفة أليثيا، لكنّها استطاعت أن تلمح المبعوثَين، الرماديَّين والبارِدَين على شاكلة ذلك النهار، ينزلان من السيّارة، مدثَّرَين بسترةٍ مطريّة وقبّعةٍ نمطيّة. نظرت إلى الساعة. لم ينتظر لياندرو الطيّب مرور خمس عشرة دقيقة قبل أن يسلِّط عليها كلابه. رنّ الهاتف بعد عشر ثوانٍ، فرفعت أليثيا السمَّاعة منذ الرنّة الأولى. كانت تعرف بالضبط مَن سيخاطبها من الطرف الآخر للخطّ.

- آنسة غريس، صباح الخير وباقي ما تبقّى - قال ماورا بصوته الأجشّ من مكتب الاستقبال - سأل عنكِ للتوّ بعبعان، تفوح رائحة الشرطة المقرفة منهما، بأسلوبٍ فظّ ثمّ دلفا إلى المصعد. أرسلتُهما إلى الطابق الرابع عشر كي أمنحكِ بضع دقائق لعلّه من الأنسب أن تفرّي بجِلدكِ.

- شكرًا لك على هذا المعروف يا خواكين. ماذا ستفعل اليوم؟ هل من أشياء جميلة؟

بعد سقوط مدريد بقليل، انتهى المطاف بخواكين ماورا إلى كارابانشل. وعندما خرج من السجن، بعد ستّة عشر عامًا، اكتشف أنّه أمسى عجوزًا، مُعطَّلَ الرئتين، وأنّ زوجته التي كانت حاملًا في شهرها السادس إبّان اعتقاله، حصلت على وثيقة إلغاء عقد الزواج وتزوّجت آنذاك بضابطٍ ملازم حاصلٍ على وسام شرف، فأنجبت منه ثلاثة أولاد ووهبها فيلا متواضعة في الضاحية. ولم يتبقَّ من زواجها الأوّل والقصير سوي ابنة اسمها راكيل، التي نشأت على وهم أنّ والدها قد مات قبل أن تضعها والدتها إلى الحياة. وفي اليوم الذي ذهب فيه ماورا لرؤيتها خلسة عند مخرج أحد المحلات في شارع غويا حيث كانت تبيع الأقمشة، اعتبرته راكيل متسوِّلًا وتصدَّقت عليه. ومنذ ذلك الحين، يمضي ماورا حياته في غرفة ضيّقة بجانب السخّانات في قبو فندق هيسبانيا. يعمل مناوبًا ليليًّا، ويناوب في أيّ فترةٍ يطلبونها منه، فيقضي الوقت بقراءة الروايات البوليسيّة الخفيفة وتدخين سجائر ثيلتاس القصيرة سيجارة إثر سيجارة، بانتظار أن يرتِّب الموتُ الأمور ليعود به إلى عام 1939، إلى حيث ما كان يجدر به الخروج.

- أقرأ رواية لا رأسَ لها ولا ذيل، بعنوان «الرداء القرمزيّ». لأحدهم، يدعى مارتين. - فسَّر ماورا - الرواية من أصل سلسلة قديمة، «مدينة الملاعين». مرّرها إليّ توذيلا، البدين نزيل الغرفة 426، الذي يعثر دومًا على أشياء غريبة في السوق الصغيرة. الرواية تتحدّث عن برشلونة. إن كان أمرها يهمّكِ.

- لن أمانع.

- سأرسلها إليكِ. وتوخّي الحذر من هذين الاثنين. أعرف أنّكِ قادرةٌ على تدبُّر أمرك بنفسكِ، لكنّ هذين يبدوان من صنفٍ يوصي تجنُّبه.

أغلقت أليثيا السمّاعة وانتظرت بكلّ هدوء ريثما يشمّ كلبا لياندرو آثارها فيجتازان عتبة غرفتها بخطميهما. حَسَبتْ أنّهما سيحتاجان إلى دقيقتين أو ثلاث حدًّا أقصى. تركت باب الغرفة مفتوحًا،

وأشعلت سيجارةً وجلست على المقعد الموجّه صوب المدخل. وكان قبالتها ممرٌّ طويلٌ ومظلم يفضي إلى المصاعد. غَزَتِ المكانَ رائحةُ الغبار والخشب البالي، والسجّاد المهترئ الذي يغطّي الأرض.

يُعتَبر فندق هيسبانيا حطامًا راقيًا يمرّ بطور انحطاطٍ لا ينتهي. بُنِيَ في مطلع العشرينيّات، وعاش أعوام مجده بين فنادق مدريد الفخمة ثمّ خرج عن الخدمة بعد الحرب الأهليّة وهوى في عقدين من الانهيار إلى أن تحوّل إلى سرداب يُؤوي المحرومين والملاعين، وكلَّ مَن ليس لهم شيءٌ أو أحدٌ في الحياة ليخمدوا في غرفٍ موحشة ومتردّية تُؤَجَّرُ بالأسبوع. وكان نصفُ غرفه المئةِ فارغة وبقيت كذلك أعوامًا. كما أنّ هنالك عدّة طوابق مغلقة، فشاعت بين النزلاء خرافاتٌ تقشعرّ لها الأبدان عمّا يحدث في تلك الممرّات الطويلة المظلمة حيث يتوقّف المصعد من دون أن يضغط أحدٌ على الزرّ، فيضيء من قُمرته بخطوط نور صفراء بضع ثوانٍ ليكشف عن أحشاء ما كان يبدو أنّه سفينة ركّابٍ غارقة. روى ماورا لأليثيا أنّ السنترال عنده كان غالبًا ما يرنّ في قلب الليل باتّصالاتٍ آتيةٍ من غرفٍ لم يشغلها أحد بعد الحرب. وكلّما رفع السمّاعة، لا يسمع شيئًا من الطرف الآخر، عدا مرّة واحدة سمع فيها امرأة تبكي، وحين سألها ما الذي بوسعه فعله من أجلها، تدخَّلَ صوتٌ آخر، غامضٌ وعميق، وقال له: «تعال معنا!».

- ومنذئذ، لم تعد تأتيني رغبةٌ في الردّ على أيّ مكالمة من أيّ غرفة بعد منتصف الليل. - اعترف لها ماورا - أفكّر أحيانًا في أنّ هذا المكان بمثابة رمز يختزل البلد بأكمله. البلد الذي حلّت عليه لعنة الدماء التي أريقت حتّى لطّخت أيدينا، لكثرة ما أمعنّا جميعًا في إلقاء اللائمة على جيراننا.

- أنت شاعرٌ يا ماورا. تعجز كلُّ هذه الروايات البوليسيّة عن إخماد قريحتك الشعريّة. إنّ ما تحتاج إليه إسبانيا ليس إلّا مفكّرون مثلك قادرون على إحياء المنتديات الأدبيّة وعراقة الفنّ الوطنيّ.

- هيّا، اسخري منيّ. فالنظام الحاكم، كما هو ملحوظ، يضعكِ على جدول الرواتب يا آنسة غريس. مع أنّ شخصًا بمقوّماتكِ، بالمقارنة مع الراتب الدي تتقاضينه، بوسعة الانتقال إلى أيّ مكان آخر كي لا يتعفّن في هذا الحبس. هذا المكان لا يناسب آنسةً راقية ومهذّبة مثلكِ. لا نأتي إلى هنا كي نعيش، بل كي نموت.

- سَبَقَ أنّ قلتُ إنّك شاعر.

- اذهبي إلى الجحيم.

إلّا أنّ ملاحظات ماورا الفلسفيّة لم تكن خاطئة بالمجمل. فمع مرور الوقت، بات فندق هيسبانيا في بعض الأوساط يُعرَف «بفندق المنتحرين». وبعد عدّة عقود، عندما كان مغلقًا منذ زمن طويل، تجوّل مهندسو التهديم طابقًا طابقًا لتثبيت العبوات المتفجّرة لإزالته إلى الأبد، وحينها انتشرت شائعةٌ بأنّهم عثروا في غرفٍ مختلفة على جثثٍ محنّطة كالمومياء منذ سنوات على الأسِرَّةِ وفي أحواض الاستحمام، وكان من بينهم الحارس الليليّ السابق.

(2)

رأتهما يظهران من بين ظلال الممرّ على حقيقتهما، زوجًا من العرائس المرسومة لإخافة مَن يحاول الانتحار حرفيًّا. كانت قد رأتهما في وقتٍ مضى، لكنّها لم تشعر بضرورة تذكُّرِ اسميهما. فكلُّ الإمّعات في الفرقة المدنيّة، أمن الدولة، يبدون لها متشابهين. توقّفا عند العتبة ووجَّها نظرة ملؤها احتقارٌ إلى داخل الغرفة قبل أن تحطّ عيناهما على أليثيا، بابتسامةِ ذئبٍ لا بدّ أنّ لياندرو علّمهما إيّاها في اليوم الأوّل من المدرسة.

- لا أفهم كيف تعيشين هنا.

أبدت أليثيا لامبالاة وأنهت سيجارتها، مشيرةً إلى النافذة.

- كي أنعم بالإطلالة.

ضحك أحدهما على مضض، وهزّ الآخر رأسه مستنكرًا. دخلا، ألقيا نظرةً على الحمّام وتَحَرَّيا في الغرفة من أوّلها إلى آخرها، كأنّهما يأملان العثور على شيء ما. وكان يبدو أنّ أصغرهما ما يزال مبتدئًا، فيعوِّض نقصه بوضعيّات استعراضيّة. توقّف للتحديق بمجموعة الكتب المصفوفة إلى الحائط، والتي كانت تشغل نصف الغرفة تقريبًا، مُزلِّقًا سبّابته على أضلاعها بتكشيره ازدراء.

- يجدر بكِ أن تعيريني إحدى رواياتكِ الغراميّة التافهة.

- لم أكن أعلم أنّك تجيد القراءة.

التفت المبتدئ وتقدّمَ خطوة إلى الأمام بهيئةٍ حادّة، لكنّ زميله، أو قائده أغلب الظنّ، أوقفه وتأفّف نافد الصبر.

- هيا، اذهبي وكحِّلي أنفكِ. إنّهم بانتظاركِ منذ العاشرة.

لم تلمّح أليثيا بأيّ دلالةٍ على رغبتها في النهوض عن الكرسيّ.

- إنّني في إجازةٍ قسريّة. أوامر لياندرو.

فإذا بالمبتدئ غاضبًا يضع كلّ وزنه الزائد عن التسعين كيلوغرامًا من العضلات والشحوم على بُعد شبرٍ عن أليثيا، ومن الجليّ أنّه قد أحس بأنّها مسّت كرامته. استلَّ ابتسامةً لا بدّ من أنّه جرَّبها في المنفردات والمداهمات الليليّة.

- لا تصدِّعي رأسي فليس لديّ وقت يا حلوة. لا تجبريني على جرّكِ من هنا بالقوّة.

سدّدت أليثيا نظراتها في عينيه.

- المسألة ليست إن كان لديك وقتٌ أم لا، إنّما إن كانت لديك شجاعة لفعلها.

حدّق إليها رجل لياندرو بدوره بضع لحظات، لكنّه عندما أمسك زميله بذراعه ونحّاه جانبًا، اختار أن يحلّ تلك النظرة بابتسامة لطيفة، ورفع يديه دلالةً على الهدنة. «إلى الحلقة القادمة»، فكّرت أليثيا.

نظر القائد إلى الساعة وهزّ رأسه.

- هيّا يا آنسة غريس. لا تلومينا. فأنتِ تعرفين كيف تجري هذه الأمور.

«أجل»، قالت أليثيا في نفسها، «أعرف جيّدًا».

أسندت يديها إلى عضد المقعد ونهضت. وكان العميلان يلاحظان كيف تترنّح حتّى الكرسيّ لتأخذ من فوقه ما يشبه المِشَدّ المصنوع من خيوطٍ ليفيّةٍ رقيقة أحزمةٍ جلديةّ.

- هل أساعدكِ؟ - سألها المبتدئ بنبرة لؤم.

فتجاهلته أليثيا. حملت اللباس ودلفت إلى الحمّام وتركت الباب مواربًا. أشاح الشرطيّ الخبير أنظاره، فيما لم يدّخر الغرُّ الفرصةَ للبحث بعينيه عن زاويةٍ يلمح من خلالها انعكاس أليثيا في المرآة. رآها تنزع التنوّرة وتركِّب المِشَدَّ حول وركها وساقها اليسرى، كما لو أنّه بصدد جزءٍ عجيبٍ من الألبسة الداخليّة النسائيّة. وإذ أحكمت ضمَّ المِشَدّ، لاق على جسدها كأنّه جِلدٌ ثانٍ ومنحها مظهر الدمية الآليّة. رفعت أليثيا عينيها حينذاك فالتقت نظراتها بنظرات التبيع في المرآة. تبسَّمَ بشهوانيّةٍ واستدار بعد قليل إلى داخل الغرفة وقد التقط رؤية عابرة لتلك البقعة السوداء على خاصرة أليثيا، تشبه دوّامةً من الندوب حتّى إنّها بدت مغمَّسةً بلحمها كأنّ مثقابًا كاويًا أعاد تشكيل وركها. انتبه العميل إلى أنّ قائده ينظر إليه بصرامة.

- أحمق. - قال له هامسًا.

خرجت أليثيا من الحمّام بعد لحظات.

- أليس لديكِ لباسٌ غير هذا؟ - سألها القائد.

- وممّ يشكو هذا اللباس؟

- لا ادري. لباسٌ آخر أكثر احتشامًا.

- ولماذا؟ مَن في الاجتماع غير لياندرو؟

فما كان من الرجل إلّا أنّ مدّ إليها عكّازًا كان مسنودًا إلى الحائط من قبل، وأشار إلى الباب.

- لم أضع مساحيق التجميل.

- إنّكِ بأجمل مظهر. تزيَّني في السيّارة إن أردتِ. فلقد تأخَّر الوقت.

رفضت ألبثيا العكّاز وسارت باتّجاه الممرّ دون أن تنتظرهما، وكانت تعرج نوعًا ما.

وبعد عدّة دقائق، كانوا على متن الباكارد السوداء، تسير بهم صامتين في شوارع مدريد الماطرة. تمعّنت اليثيا، من مقعدها الخلفيّ، جانب الأبراج والقبب والتماثيل المتموضعة كإفريزٍ على سطوح الغران ڤيا. مراكبُ للملائكة، وعسسٌ من حجرٍ مسوَّدٍ يراقبون من أعلى. ومن السماء الرماديّة والرصاصيّة ينسكب حاج مُتَنٍّ ومكوَّنٌ من أبنيةٍ عملاقةٍ وعابسةٍ، مرصوصٌ بعضُها ببعض، بدت لناظريها مخلوقاتٍ متحجِّرةً تبتلع مدنًا بأكملها. وتحت أقدامهم، تتلألأ الأسقُفُ المظلَّلة على مداخل المسارح الكبرى، وواجهاتُ المقاهي والمتاجر الفخمة تحت نسيج المطر.

أمّا الناس، تلك الخطوط الدقيقة برشفة بخار، فكانوا يمشون متتابعين على مستوى الأرض كأنّهم أسرابٌ من مظلّات. فكّرت أليثيا في أنّه خلال نهارٍ كهذا يضطرّ المرء للتفكير كالعجوز ماورا العزيز، ليتبيّنَ أنّ ظلمات فندق هيسبانيا تتمدّد من أقصى البلد إلى أقصاه من دون أن تعطي حيّزًا لذرّة نور واحدة.

(3)

- حدّثني عن العميل الجديد الذي اقترحتَه. غريس، قلتَ إنّ اسمه غريس؟

- أليثيا غريس.

- أليثيا؟ امرأة؟

- وهل هذه مشكلة؟

- لا أدري. أهي كذلك؟ سمعتُ عنها أكثر من مرّة، ولكنْ باسم الشهرة دائمًا، غريس. لم أستنتج قطّ أنّها امرأة. ربّما يضع أحدُهم هذا القرار موضعَ جدل.

- مدراؤك؟

- مدراؤنا، يا لياندرو. لا ينبغي ارتكاب خطأ آخر كخطأ لومانا. ففي قصر الباردو ثمّة انزعاجٌ شديد.

- مع كامل احترامي، أرى أنّ الخطأ الوحيد هو أنّكم لم توضّحوا لي منذ البدايةِ الغايةَ من احتياجكم إلى أحد عناصر وحدتي. لو أنكّم أعلمتموني بماهيّة الأمر، لرشَّحتُ اسمًا آخر. فهذه المهمّة لم تكن مناسِبة لريكاردو لومانا.

- في هذه القضيّة لست أنا مَن يفرض القواعد ويراقب البيانات.

- مفهوم.

- حدّثني عن غريس.

- الآنسة غريس في التاسعة والعشرين من عمرها، وتعمل عندي منذ اثنتي عشرة سنة. يتيمة حرب. فقدت والديها بعمر الثامنة. تتلمذت في مدرسة ريباس الخيريّة، مأوى للأيتام في برشلونة، إلى أن طردوها بسبب سوء السلوك عندما كانت في عامها الخامس عشر. تدبّرت أمرها مدّة عامين بالعيش في الطرقات وعملت لمصلحة مهرِّبٍ ومجرمٍ وضيع يدعى بالتاسار روانو الذي كان يتزعّم عصابة من اللصوص المراهقين، حتّى وقع في قبضة الحرس المدنيّ، وأُعدِمَ مثل كثيرين غيره في كامبو دي لا بوتا- - سمعتُ أنّها...

- ليست مشكلة. فهي تعتمد على ذاتها، وأؤكّد لك أنّها قادرة على الدفاع عن نفسها. سوى أنّها أصيبت خلال الحرب، إبّان القصف على برشلونة. لكنّ ذلك لم يسبِّب لها عائقًا في العمل إطلاقًا. أليثيا غريس هي أفضل العملاء الذين جنّدتُهم خلال عشرين عامًا من الخدمة.

- فلماذا لم تلتزِمِ الحضورَ على الموعد بالتمام؟

- أتفهَّمُ استياءك، وألتمس منك العذر مجدّدًا. أليثيا غريبة الأطوار أحيانًا، لكن معظم العملاء الاستثنائيّين في هذا النوع من العمل هم على هذه الشاكلة. في الشهر الماضي، وقع خلافٌ روتينيٌّ بيننا يتعلّق بقضيّة كانت تعمل عليها. ففصلتُها عن الوظيفة وقطعتُ عنها الراتب مؤقتًا. لذا فإنّ في تأخُّرها عن موعد اليوم أسلوبًا تعتمده لتلمّح لي بأنّها ما تزال غاضبةً منّي.

- أرى أنّ العلاقة بينكما شخصيةٌ أكثر من كونها مهنيّة، إن سمحتَ لي بهذا التقدير.

- في مجال عملي، لا غنًى للمهنيّ عن الشخصيّ.

- يقلقني هذا التسيُّب بما يخصّ الانضباط. ففي هذه القضيّة لا يمكن ارتكاب أخطاء أخرى.

- لن تكون هناك أخطاء أخرى.

- هذا أفضل. فنحن نقامر برقابنا. أنت وأنا.

- دع الأمر لي - هلّا رويتَ لي أشياء أخرى عن غريس: ما الذي يجعلها مميزّة إلى هذه الدرجة؟

- أليثيا غريس ترى ما لا يراه الآخرون. عقلها يعمل بطريقة مختلفة. فحيثما رأى الجميع بابًا موصدًا، وجدت أليثيا مفتاحًا. وحيثما فَقَدَ الآخرون الأثر، وجدت أليثيا دربًا. إنّها هبة، إن صحّ الوصف. وأفضل ما يميّزها أنّ أحدًا لا يستطيع توقُّع تحرّكاتها.

- أهكذا حلّت تلك القضيّة التي سمّوها «دمى برشلونة»؟

- تقصد قضيّة «حبيبات الشمع». كانت أوّلَ قضيّةٍ أسلِّمها لأليثيا.

- لطالما تساءلتُ عمّا إذا كانت حكاية الحاكم المدنيّ حقيقيّةً...

- حكايةٌ انقضى عليها وقتٌ طويل.

- لدينا وقت، أليس كذلك؟ ريثما تصل الوصيفة.

- بالتأكيد. وقع الأمر في عام 1947. كنت آنذاك أعمل في برشلونة. وصلنا بلاغٌ من الشرطة الوطنيّة أنّهم عثروا في السنوات الثلاث السابقة على سبع جثث على الأقلّ، لشابّاتٍ في مواقع مختلفة من المدينة، جالساتٍ إمّا على مقعدٍ في أحد المنتزهات، أو موقف للترام، أو في أحد مقاهي الباراليلو... حتّى إنّهم وجدوا إحداهنّ جاثمةً على ركبتيها داخل حجرة اعتراف في كنيسة بينو. كلّهنّ بزينة تجميل متكاملة، وثيابٍ بيضاء. لم تكن الدماء تقطر من جسد أيّ واحدةٍ منهنّ، فضلًا عن أنّهنّ يعبقن برائحة الكافور. كُنّ يبدون كالدمى المصنوعة من الشمع. ومن هنا جاءت التسمية.

- هل كنتم تعرفون مَن هنّ؟

- لم يبلِّغ أحدٌ عن اختفائهنّ، ما حدا بالشرطة إلى افتراض أنّهن عاهرات، وقد تبَيَّنَ صدقُ هذه المعطيات في وقتٍ لاحق. مضت شهورٌ دون ظهور جثث أخرى، فأغلقت شرطة برشلونة الملفّ.

- حتّى ظهرت جثّة جديدة.

- تمامًا. مارغاريتا مايوفريه. وجدوها جالسةً على أريكة في ردهة فندق الشرق.

- ألم تكن مارغاريتا مايوفريه محظيّةَ ال...

- مارغاريتا مايوفريه كانت تعمل في بيت دعارة من مستوى معيّن في شارع اليزابيث، المتخصّص بتلبية ميولٍ خاصّة بأسعار باهظة. أُشيعَ أنّ الحاكم المدنيّ وقتها كان يتردّد إلى ذلك المكان وأنّ

المتوفّاة هيَ المفضّلة عنده.

- وما السبب؟

- يبدو أنّ مارغاريتا مايوفريه كانت أقدَرَ من غيرها على التماسك وقتًا طويلًا إزاء الاهتمام المميّز الذي يبديه الحاكم، وهذا ما دفع النبيل إلى تفضيلها.

- تفضّلوا، سيادتكم...

- والحال أنّه بفضل تلك العلاقة، أُعيدَ فتح الملفّ. ونظرًا إلى خطورة المسألة وحساسيّتها، وقعتْ بين يديّ. وكانت أليثيا قد انخرطت للتوّ في العمل عندي، فسلّمتُها القضيّة.

- ألم تكن المسألة عسيرة بالنسبة إلى فتاةٍ صغيرة؟

- أليثيا كانت فتاة خارجة عن المألوف، ولا يمكن إلّا الاندهاش بها.

- وكيف انتهت الحكاية؟

- انتهت بسرعة بالأحرى. قضت أليثيا عدّة ليالٍ في الخارج تراقب مداخل ومخارج بيوت الدعارة الرئيسيّة في الرافال. اكتشفت أنّ الزبائن، عندما تدهمهم دوريّة شرطة، غالبًا ما يفرّون من بابٍ خفيّ، وأنّ بعض الفتيات - والفتية أيضًا - العاملات هناك يفعلن الشيء ذاته. فقرّرت أنّ تتبعهنّ. كنّ يختبئن عن أعين الشرطة في مداخل البنايات والمقاهي، بل وحتّى في مجاري الصرف. وكان البوليس يتمكّن من القبض على معظمهنّ ويزجّ بهنّ في السجن لقضاء الليلة هناك وفعلِ أشياء أخرى من غير المناسب التحدّث عنها الآن. إلّا أنّ الأخريات يخدعن الشرطة. ويفعلنها في المكان ذاته دائمًا، عند تقاطع شارع خواكين كوستا بشارع بو دو لا كرو.

- وماذا كان فيه؟

- لا شيء مهمًّا بالظاهر. مستودعان لحفظ القمح. دكّان لبيع منتجات المستعمرات. مرأب سيّارات. وورشة نسيج لصاحبها الذي يدعى روفات. بدا أنّ للأخير عدّة جُنَحٍ في سجلّه لدى الشرطة، بسبب نزوعه إلى الإفراط في تطبيق العقوبات الجسديّة على كثيرٍ من العاملات عنده، وقد فقدت إحداهنّ عينها. إضافة إلى أنّه كان زبونًا مألوفًا في البيت الذي تمارس فيه مارغاريتا مايوفريه مهنتها إلى حين رحيلها.

- الفتاة سريعة في العمل.

- وهذا ما جعلها تبادر إلى استبعاد روفات. صحيحٌ أنّه فظّ، ولكنْ لا شأن له بالقضيّة. وما كان تردُّده إلى مكانٍ يبعد عن ورشته مرمى حجرٍ إلّا محض صدفة.

- وبعد؟ هل عادت إلى نقطة الصفر ثانيةً؟

- أليثيا تقول دومًا إنّ الأشياء لا تتبع المنطق الظاهر، بل المنطق الباطن.

- وأيُّ منطقٍ قد يكون في قضيّة من هذا النوع بالنسبة إليها؟

- منطق الصورة الزائفة.

- لم أعد أركّز يا لياندرو.

- باختصار، كلّ شيء يحدث في المجتمع، برأي أليثيا، ما هو إلّا تمثيليّة، صورة زائفة عمّا نحاول إبرازه على أنّه واقع مع أنّه ليس كذلك.

- يبدو ماركسيًّا.

- لا تقلق، فأليثيا أكثر شخصٍ متشكِّكٍ عرفتُه. فهي ترى أنّ كلّ الأيديولوجيّات والمعتقدات، بلا استثناء، مفرزاتٌ عن التهابات الفكر. صور زائفة.

- هذا أسوأ. لا أعلم لماذا تبتسم يا لياندرو. فأنا لا أرى أيّ شيء مسلٍّ في الأمر. كلّما حدّثتني عن هذه الآنسة قلّ إعجابي بها. عسى أن تكون جميلة، على الأقلّ.

- أنا لا أدير وكالةً لتوظيف المضيّفات.

- لا تغضب منّي يا لياندرو، كنت أمازحك. كيف تنتهي الحكاية؟

- بعد أن أزالت روفات من قائمة المشتبه بهم، أخذت أليثيا تقشِّر ما تسمّيه قشور البصلة.

- نظريّة أخرى من نظريّاتها؟

- أليثيا تقول إنّ الجريمة تشبه البصلة: ينبغي نزع كثيرٍ من القشور لنعرف ماذا تخبِّئ تحتها، وأثناء ذلك لا بدّ من ذرف بعض الدموع.

- لياندرو، إنّك تذهلني أحيانًا بالثروة الحيوانيّة التي تعمل تحت إمرتك.

- إنّ عملي يقتضي إيجاد الأدوات المناسبة لكلّ وظيفة. وشحذها دومًا لتظلّ بتَّارة.

- حذار أن تقطع إصبعًا في أحد هذه الأيّام. أكملْ حكاية البصلة، لقد أعجبتني.

- في أثناء نزعها قشور كلّ محلٍّ وشركة موجودةٍ في ذلك التقاطع، حيث رأت النسوة المختفيات آخر مرّة، اكتشفت أليثيا مرأبًا كان تابعًا لمؤسّسة الإحسان.

- وهذه سكّةٌ ميّتةٌ أخرى.

- «ميّتة» هي الكلمة المفتاح في تلك القضيّة.

- لم أعد أركّز مجدّدًا.

- كان ذلك المرأب يحفظ عددًا كبيرًا من عربات خدمة التشييع والجنائز في المدينة، وفيه مستودع للتوابيت والمنحوتات. وكانت وكالة الجنائز البلديّة آنذاك تحت تصرُّف ما يسمّى مؤسسة الإحسان؛ وغالبًا ما كان الموظّفون المستَخدَمون، حفّارين ودفّانين، ينتمون إلى طبقةٍ أهملها الربُّ والبشرُ على حدٍّ سواء: يتامى، سجناء، متسوّلون، إلخ. بالمحصّلة، أرواحٌ معذّبة انتهى بها المطاف إلى هناك حيث ليس لهم أحدٌ في هذه الدنيا. استخدمت أليثيا مهاراتها - المتعدّدة - واستطاعت أن تتوظّف في الإدارة بقسم التنضيد. وبعد فترة اكتشفت أنّ بعض فتيات الهوى، في الليالي التي يتعرّضن فيها لدوريّة تفتيش، يختبئن في مرأب وكالة الجنائز. حيث كان من السهل إقناع أحد أولئك المساكين العاملين فيها بالسماح لهنّ بالاختباء في إحدى العربات مقابل إسداء

معروفٍ ما. وعندما يزول الخطر، وتُلبّى رغبات المنقذ، تعود الفتيان إلى أماكنهنّ قبل طلوع الضوء.

- ولكنْ...

- ولكنْ، لا تعود جميعهنّ. اكتشفت أليثيا أنّ بين العاملين شخصيّةً من طراز فريد. يتيمُ حربٍ، مثلها. يسمّونه كيميت، لأنّه ذو وجهٍ طفوليّ وسلوكٍ رقيق حتّى إنّ الأرامل أردْنَ أنّ يتبنَّينه ويأخذنه معهنّ. الحال أنّ كيميت هذا كان تلميذًا نجيبًا وضليعًا بالأعمال الجنائزيّة. وما كانت أليثيا لتشكّ في أمره إلّا لأنّه مولع بجمع المقتنيات، ويحتفظ في مكتبه بألبوم صورٍ لدمًى خزفيّة. كان يقول إنّه ينوي الزواج وبناء أسرة، لذا كان يبحث عن المرأة المناسِبة، الطاهرة والنقيّة جسدًا وروحًا.

- الصورة الزائفة.

- مرآة اصطياد القُبَّرة، بالأحرى. أخذت أليثيا تراقبه كلّ ليلة، وسرعان ما تحقّقت من شكوكها. فإذا جاءته إحدى الفتيات المنحرفات تطلب منه النجدة، وكانت تشتمل على المواصفات المطلوبة من حيث البنية والبشرة والمظهر والقوام، بغضّ النظر عن قابليّتها لدفع التعويض الجسديّ، كان كيميت يقرأ معها الأدعية ويؤكّد لها أنْ لا أحد سيكتشف مكانها بفضل تعاونه ورعاية العذراء. مبرهِنًا أنّ التابوت هو أفضل المخابئ على الإطلاق: فحتّى رجال الشرطة لن يجازفوا في فتح تابوتٍ ليروا ما يحتوي عليه. وهكذا، تُفتَنُ الفتيات بسماحة وجهه وحسن أخلاقه، فيستلقين في النعش، ويرسلن له ابتسامةً وهو يُغلِق عليهنّ الغطاء ويحبسهنّ في الداخل. ويتركهنّ لملاقاة حتفهنّ اختناقًا. ثمّ يعرّيهنّ، وينتف شعر عاناتهنّ، ويغسّلهنّ من الرأس حتّى أخمص القدمين، ويُفرّغ دماءهنّ ويحقن قلوبهنّ بسائلٍ مُحنِّطٍ ينتشر في كامل الجسد. وبعد أن يولدن ثانيةً على شكل دمى شمعيّة، كان يزيِّنهنّ بمساحيق التجميل ويُلبِّسُهنّ فساتين بيضاء. تحقّقت أليثيا أيضًا من أنّ جميع الملابس التي وُجِدَتْ على الأجساد آتيةٌ من نفس متجر ألبسة العروس في روندا سان بيدرو، على بُعد مئتي متر من هناك. وكان أحد الباعة في المتجر يذكر أنّه باع كيميت في أكثر من مناسَبة.

- ما أطيبه!

- كان كيميت يقضي مع جثث حبيباته ليلتين، وكأنّه يقلّد الحياة الزوجيّة، إلى أن تنبعث رائحة الأزهار الميّتة من أجسادهنّ. حينها، يُخرجهنّ قبل الفجر دائمًا، منتهزًا خلوّ الطرقات من المارّة، ويتّجه بهنّ إلى حياتهنّ الأبديّة الجديدة في إحدى عربات الجنائز ليمثّل لقاءه بهنّ.

- يا أمّ الربّ... أشياء من هذا القبيل لا تحدث إلّا في برشلونة.

- تمكّنت أليثيا من اكتشاف كلّ هذا وأكثر في الأوان، وأنقذت من أحد توابيت كيميت الفتاةَ التي كادت تصير ضحيّته الثامنة.

- وهل عُرِفَ السبب وراء أفعاله هذه؟

- اكتشفت أليثيا أنّ كيميت، في صغره، قضى أسبوعًا كاملًا محبوسًا مع جثّة أمّه في شقّةٍ من شارع لاكادينا، حتّى استشعر الجيران رائحةً غريبة. ويبدو أنّ والدته انتحرت متجرّعةً السمّ لأنّ زوجها قد هجرها. لم نستطع التأكّد من هذه الأمور لأنّ كيميت لسوء الحظّ انتحر في أوّل ليلةٍ قضاها في سجن كامبو دي لا بوتا، وقد سجّل وصيّته الأخيرة على حيطان الزنزانة. كان عليهم أن يحلقوا زغب جسمه كاملًا، ويغسّلوه، ويحنّطوه، ويُلبّسوه الأبيض، ثمّ يعرضوه على الملأ إلى الأبد، في ناووسٍ زجاجيّ بجانب إحدى حبيباته الشمعيّات في خزائن متجرٍ كبير. على ما يبدو أنّ والدته كانت قد عملت فيه بائعةً. ولكنْ، بالعودة إلى الشيطان، لا بدّ أنّ الآنسة غريس توشك على الوصول. ما رأيك بكأس براندي لإزالة مذاق الحكاية المرّ؟

- طلبٌ أخير يا لياندرو. أريد أن يعمل أحد رجالي مع عميلتك. لا أريد اختفاءٌ آخر بلا سابق إنذار كما فعل لومانا.

- أعتقد أنّ هذا خطأ. فنحن لدينا طريقتنا الخاصّة.

- هذا ليس شرطًا قابلًا للتفاوض. ألتيا يتّفق معي في ذلك.

- مع كامل احترامي ولكنْ...

- لياندرو، كان ألتيا يريد أن يوفد إندايا لحلّ هذه القضيّة.

- خطأ آخر.

- أوافقك في ذلك. لذا أقنعته أن يسمح لي بالمحاولة على طريقتي في هذه اللحظة الراهنة. شرط أن يُشرِف أحد رجالي على عميلتك. وإلّا، ليس أمامنا سوى إندايا.

- مفهوم. بمن تفكّر؟

- بارغاس.

- ظننتُ أنّه مسرَّحٌ من الخدمة.

- تقنيًّا فقط.

- أهي عقوبة؟

- بحقّ عميلتك؟

- بحقّ بارغاس.

- فرصةٌ ثانية، بالأحرى.

(4)

حاذت سيّارة الباكارد ساحة نبتونو المغمورة بالأمطار أكثر من أيّ وقت مضى، ودخلت جادّة سان خيرونيمو باتجاه طيف فندق غران بالاس الأبيض المبنيّ على الطراز الفرنسيّ. توقفوا أمام المدخل الرئيس، وعندما تقدَّمَ البوّاب لفتح الباب الخلفيّ مصحوبًا بمظلة كبيرة، التفت عميلا الأمن وسدّدا إليها نظرة تتراوح بين التهديد والتوسُّل.

- هل نتركك هنا دون أن تُثيري ضجّةً أم نجرّكِ إلى الداخل كي لا تفلتي منّا مجدّدًا؟

- لا تقلقا؛ سأبيّض وجهيكما.

- كلمة شرف؟

أومأت أليثيا. لم يكن من السهل عليها، في الأيّام السيّئة، أن تركب سيّارة وتنزل منها؛ لكنّها لم تشأ أن يراها هذان منهارةً أكثر من اللازم. فتحمَّلت وجع خاصرتها وهي تنهض بابتسامة. رافقها البوّاب يقيها المطر بالمظلّة حتّى المدخل، حيث هنالك فيلقٌ من الخدم والنُّدُل كأنّهم بانتظارها، مستعدّين لمرافقتها إلى موعدها عبْر الردهة. وعندما تراءت لها أوّل عتبتين من السلّم المؤدّي إلى صالة الطعام الكبرى، تندَّمت لأنّها لم تجلب العكّاز معها. أخرجت حافظة الأدوية من حقيبتها وابتلعت حبّةً منها. سحبت نفسًا عميقًا وانطلقت لصعود ذلك المرقى.

وبعد مضيّ دقيقتين وعشر عتبات، توقّفت نستجمع انفاسها عند باب الصالة. لاحظ الخادم الذي رافقها حتّى هناك حجابًا من العرق يغطّي جبينها. فاقتصرت أليثيا على الابتسام في وجهه على مضض.

- أعتقد أنّي قادرة على متابعة المشوار من هنا بمفردي، إن كان ذلك لا يؤسفك.

- بالتأكيد. كما تشاء الآنسة.

انسحب الخادم باحترام، لكنّها لم تكن بحاجة إلى الالتفات لكي تتأكّد من أنّه ما زال يراقبها، وأنّه لن يُحِدْ عنها نظراته إلّا إذا دخلت الصالة. مسحت جبينها بمنديل، ودرست المشهد.

همهمة أصوات خافتة وقرقعة ملاعق صغيرة تدور ببطء في فناجين خزفية. كانت صالة الطعام الكبرى تنفتح أمامها بسحر الانعكاسات الراقصة المنهمرة من القبّة الهائلة التي تجلدها الأمطارُ. ولطالما بدا لها ذلك الهيكلُ شجرةَ صفصافٍ زجاجيّةً ومعلّقةً كخيمةٍ من نوافذ كرويّةٍ مزخرفة ومنتَزعةٍ من ألف كاتدرائيّة باسم «الزمن الجميل». لا يمكن لأيّ أحد أن يتّهم لياندرو برداءة الذوق.

وتحت تلك الفقاعة الكريستاليّة المتقزّحة، ثمّة طاولة واحدة مشغولة وسط كثيرٍ من الطاولات الخاوية. هناك حيث يوجد رجلان في محطّ اهتمام فرقةٍ كاملة من النُّدُل المتمركزين على مسافات محسوبة، بحيث لا يتسنّى لهم سماع محادثتهما، إنّما لتلبية أوامر أيٍّ منهما إذا ما لوّح بيده. ثمّ إنّ البالاس، خلافًا لمكان إقامتها المؤقّت في هيسبانيا، مُجمَّعٌ من النخب الأوّل. متأثّرًا

بعاداته البرجوازيّة، كان السيّد لياندرو يعيش ويعمل فيه. حرفيًّا. يشغل الجناح رقم 814 منذ سنوات، ويروق له متابعة أعماله في تلك الصالة التي تساعده - بحسب أليثيا - على التوهُّم بأنّه يعيش في باريس بروست، لا في إسبانيا فرانكو.

أمعنت نظراتها إلى الجليسين. لياندرو مونتالبو، جالسًا بمواجهة المدخل كالعادة. متوسّط القامة، ذو بنيةٍ منكوّرةٍ وطريّة تليق بمحاسبٍ مترف. محتميًا بنظّارةٍ مصنوعة من السيلوليد، أوسع من اللزوم، تفيده بتورية عينين قاطعتين كالسكّين. يتصنّع هيئةً مسترخية وبشوشة تجعله أشبَه بمحرِّر عقود في المقاطعة مولعٍ برقصة الثرثويلا، أو بموظّفٍ مصرفيٍّ ناجحٍ يهوى ارتياد المتاحف بعد إنهاء واجباته. «العجوز لياندرو الطيّب»..

وإلى جانبه، ملتحفًا ببدلةٍ ذات قَطعٍ بريطانيٍّ لا تتناسب ومظهره الإيبيريّ الجلف، يجلس فردٌ مُلمَّعُ الشعر والشارب، ويحمل كأس براندي بين يديه. بدا لها الوجه مألوفًا. أحد تلك الوجوه التي غالبًا ما تظهر على صفحات الجرائد، له باعٌ طويلٌ باختيار الوضعيّة المناسبة لصوره الفوتوغرافيّة، والتي من المستحيل ألّا يكون فيها شعارُ نسر على العلم ولوحاتٌ تستعرض المشاهد الفروسيّة الخالدة. خيل دي كذا كذا، قالت في نفسها. الأمين العامّ للخبز المقليّ أو شيءٍ من هذا القبيل.

رفع لياندرو أبصاره وابتسم لها من بعيد. ودعاها للاقتراب بتلويحٍ يشبه ذلك الذي يتوجّه به المرء إلى طفل صغير أو جرو أليف. عبرت أليثيا الصالة الكبيرة، دون إبراز مشيتها العرجاء، متحمِّلةً قسوة الطعنات التي تتلقّاها على خاصرتها. وفي أثناء ذلك، حدّدت فردين من أزلام الوزارة في عمق الصالة متواريين بين الظلال. مسلَّحَين. ومتسمِّرَين كتماسيح متربِّصة.

- أليثيا، كم أنا سعيد لأنّكِ استطعتِ إيجاد فجوةٍ صغيرة في أجندتكِ كي تشاركينا فنجان قهوة. أخبريني، هل تناولتِ الفطور؟

وقبل أن تجيب، رفع لياندرو حاجبه وسرعان ما هبّ نادلان، كانا متمركزين بجانب الحائط، لإعداد مكانها على الطاولة. وبينما كانا يصفّيان كأسًا من عصير البرتقال الطازج، لاحظت أليثيا نظرات الرجل المنتفِّد وهو يطهوها على نار هادئة. لم تتكلّف لترى نفسها بعينيه. فمعظم الرجال، بمن فيهم أولئك الذين تقتضي عليهم مهنتهم مراقبة الآخرين، لا يميّزون بين الرؤية والنظر، وفي أغلب الأحيان تستوقفهم التفاصيلُ البديهيّة التي تحجب عنهم قراءة النقاط الجوهريّة. كان الياندرو يقول دائمًا إنّ التواري في نظرة الخصم فنٌّ قد يبذل المرءُ عمرَه بأكمله كي يتعلّمه.

ليس لوجه أليثيا سنٌّ معيّنة، كان باترًا وليّنًا في آن، وتتراوح في قسَمَاته بعضُ الظلال والألوان بالكاد. إذ كانت تضع مساحيق التجميل يوميًّا بما يتلاءم والدور الذي كُتِبَ عليها تأديتُه في الحكاية التي يختارها الياندرو لإخراج مكائده ودسائسه. قد يكون ظلامًا أو نورًا، منظرًا أو شكلًا، وفقا لما يرِد في الكتيّب. وفي أيّام الهدنة، كانت تنغلق على نفسها لتنسحب إلى ما يسمّيه لياندرو غموضها الشفّاف. شعرها أسود اللون، وبشرتها شاحبة تصلح للشموس الباردة والصالات المغلقة. عيناها الخضراوان تلمعان في العتمة وتنغرسان كالدبّوس لتنسياك هشاشة قامتها التي لا يستهان بها عمومًا، فتراها مطوِرةً عند الضرورة بثيابٍ فضفاضة لئلا تثير نظراتٍ خاطفة في

الطريق. إلّا أنّها، من على مسافة قريبة، تفرض حضورَها الناريّ وقوّتها المريبة، حسْب تقييمّ مرشدها لياندرو، حتّى إنّه علَّمها أن تبقيها مستترةٍ قدر الإمكان. «أنتِ كائنٌ ليليٌّ يا أليثيا، لكنّنا هنا نختبئ جميعًا تحت ضوء النهار»..

- اسمحي لي يا أليثيا أن أقدِّم لكِ الدون مانويل خيل دي بارتيرا القدير، المدير العامّ لجهاز الشرطة الوطنيّ.

- تشرّفتُ بمعرفة سيادتكم. - ردّت أليثيا وهي تمدّ يدها لكنّ سيادته لم يصافحها، كأنّه خشي أن تعضّه.

كان خيل دي بارتيرا يرمقها متسائلًا إن كانت تلميذة منحرفة نوعًا ما وتحرجه بوجودها، أم إنّها من فصيلةٍ لا يعرف كيف يصنِّفها.

- ينوي السيدّ المدير أن يطلب تعاوننا لحلّ مشكله حسّاسة إلى حدٍّ بعيد، وتقتضي درجة عالية من الفطنة والدقّة.

- بطبيعة الحال. - أجابت أليثيا بنبرة عذبة وملائكيّة تلقّت على إثرها نعرة تحذير من جانب لياندرو من تحت الطاولة - نحن مستعدّون للمساعدة بكلّ ما نقدر عليه.

ومازال خيل دي بارتيرا يرمقها بمزيج الارتياب والشبق الذي اعتاد حضورُها أن يؤلّبه في نفوس المتقدِّمين في السنّ، ومازال محتارًا على أي الشاطئين يرسو. والسمة التي كان لياندرو يسمّيها دومًا بعبير مظهرها، أو الأعراض الجانبيّة لوجهها، تُشكِّل برأي معلِّمها سلاحًا ذو حدّين لم تتعلّم بعد استخدامه بدّقة مطلقة. وفي هذه الحالة، وبسبب الانزعاج الواضح الذي تبدَّى على السيّد خيل دي بارتيرا بجانبها، ظنّت أليثيا أنّ الحدّ الباتر كان مسلَّطًا عليها. «سيهاجم الآن»، قالت في سرّها.

- ماذا تعرفين عن الصيد، يا آنسة غريس؟ - سألها.

تردّدت أليثيا برهةً، تبحث عن نظرات ملهمها.

- أليثيا في الجوهر حيوانٌ مدنيّ. - تدخَّلَ لياندرو.

- في الصيد، يتعلّم المرء أشياء كثيرة - وعظ المدير - لقد حصل الى الشرف للتحدّث مع سموّ الجنرال الأعظم، وكان هو الذي كشف لي عن القاعدة الأساسيّة التي ينبغي لكلّ صيّاد أن يجعلها مُلكه.

أومأت أليثيا مرارًا، متظاهرةً بالذهول من كلّ ذلك الكلام. وكان لياندرو في الأثناء يحضِّر لها قطعة من الخبز المحمّص بالمربّى ويمرّرها إليها. فأخذتها دون أن تنتبه إليها تقريبًا. إذ كان المدير مسترسلًا في تلقينها دروسه.

- على الصيّاد أن يستوعب أنّ اللحظة الحرجة في الصيد تقتضي أن يختلط دور الفريسة بدور الصيّاد. فالصيد، الصيد الحقيقيّ، ما هو إلّا نزالٌ بين ندَّين. فالمرء لا يعرف مَن يكون حقًّا حتّى تنزف الدماء.

توقَّف عن الكلام ليمرِّر بضع ثوانٍ من الصمت المسرحيّ المهيب الذي فرضته تلك الفكرةُ العميقة التي نطقها للتوّ. فاتّخذت أليثيا تعبيرًا يوحي بالوقار.

- أهذه أيضًا حكمةٌ من أقوال الجنرال؟

تلقّت نعرة تحذير قويّة من تحت الطاولة من جانب لياندرو.

- سأكون صريحًا معكِ يا فتاة. أنتِ لا تعجبينني. لا يعجبني ما سمعتُه عنكِ ولا تعجبني نبرتكِ ولا يعجبني أنّكِ تظنّين نفسكِ قادرةً على إبقائي هنا في انتظار وصولكِ نصف صباح، كما لو أنّ وقتك الخرائيّ أهمّ من وقتي. لا تعجبني نظراتكِ ولا حتّى حسّ الدعابة والسخرية الذي تتعاملين به مع مدرائك. لأنّني، إذا كان هناك شيءٌ في هذه الحياة يغضبني حتّى الجنون، فهو الشخص الذي ينسى مستواه. وما يخرجني عن طوري فعلًا، هو أنّني أُضطرّ لتذكيره بمستواه.

أخفضت أليثيا عينيها بإذعان. بدا لها أنّ درجة حرارة الصالة انخفضت عشر درجات على حين غرّة.

- أطلب المعذرة منكم، سيادة المدير على...

- لا تقاطعيني. إن كنتُ أتحدّث معكِ هنا فهذا لأنّني أثق بمديركِ الذي يعتبركِ، لسببٍ لا أذكره، الشخص الأنسب لتولّي المهمّة التي أوكلتها إليه. ولكنْ إيّاكِ ارتكاب خطأ معي. اعتبارًا من هذه اللحظة، ستجيبين عن أسئلتي مباشرة. واعلمي أنّني لا أمتلك الصبر ورحابة الصدر اللذين يتمتّع بهما السيّد مونتالبو.

وجّه إليها خيل دي بارتيرا نظرة متجهّمة. كانت عيناه سوداوان، تتخلّلهما شبكة من العصيبات الحمراء الصغيرة حتّى لقد بدت حدقتاه على وشك الانفجار. تصوَّرته أليثيا بقبّعة من الريش وجزمةِ ماريشال وهو يقبّل الدبر الملكيّ لزعيم الأمّة، في إحدى رحلات الصيد التي يتبارى فيها آباء الوطن على رشق الفرائس التي أعدّها لهم مسبقًا جيشٌ من الخدم، ثم يلوِّنون أعضاءهم التناسليّة برائحة البارود ودماء طيور البلاط، كي يشعروا بأنّهم ذكورٌ فحولٌ مظفَّرون، بأسمى أمجاد الربّ والوطن.

- إنّني واثق بأنّ أليثيا لم تكن تتقصد الإساءة إليك يا صديقي. - تدخَّلَ لياندرو الذي من الوارد أنّه استمتع بالمشهد كثيرًا.

أكّدت أليثيا كلام مديرها بإيماءةٍ إيجابٍ متثاقلة ونادمة.

- لا داعي للتذكير بأنّ محتوى ما سنتحدّث فيه سرّيٌ للغاية، وأنّ هذا الاجتماع لم يُعقَدْ أبدًا بأيّ شكلٍ من الأشكال. هل لديكِ شكوك حول هذه النقطة أو غيرها يا غريس؟

- على الإطلاق، يا سيّدي.

- جيّد. اسدي إليّ معروفًا بتناول هذه الخُبزة سريعًا كي ندخل في الموضوع.

(5)

- ماذا تعرفين عن الدون ماوريسيو ڤايس؟

- الوزير؟ - سألتْ أليثيا.

توقَّفت لحظةً تعاين فيها فيضَ الصور التي انهالت على رأسها من مسيرة الوزير الطويلة والحافلة بالاستعراض والترويج. وجهٌ بارزٌ وأنيق، يتمركز دومًا في أفضل نقطة في الصورة، مصحوبًا بخيرة الأسماء. يتلقّى التكريمات ويلقي حِكَمًا لا جدال فيها وسط حفاوةٍ عارمة وإعجابٍ من المصفِّقين المأجورين. أُضفيَتْ عليه القداسه وهو حيّ، وتَرَقَّى إلى أعلى المذابح بقدميه، تقتاده أيدي مَن نصَّبوا أنفسهم أنتلجنسيا هذا البلد. ماوريسيو ڤايس هو القامة الإسبانيّة النموذجيّة التي تجسِّد «رجل الآداب» بين البشر الفانين؛ هو فارس الفكر والفنون. حاز على عددٍ لا يحصى من الجوائز والتشريفات. وَصَفُوهُ - بلا سخرية - بأنّه صورةٌ رمزيّة للنخب الثقافيّة والسياسيّة في البلاد. هو الوزير الذي تسبق وصولَه صفحاتٌ عديدة من الجرائد وكلّ وجاهة النظام. كانت محاضراته، على أفخم المنصّات المدريديّة، تجمع عليَّة القوم دومًا. أمّا مقالاته الصحافيّة العظيمة، التي تتطرّق إلى موضوعات اللحظة الراهنة، فكانت تشكِّل عقيدة الإيمان. توسّعت فيالقُ الكَتَبة الفَشَلَة الذين يتعيَّشون من سخاء يديه. فيما القاعات تمتلئ عن بكرة أبيها أيّامَ قراءاته الشعريّة العارضة، والمونولوجات المقتطفة من أعماله المسرحيّة الشهيرة، التي تؤدّى بثنائيّاتٍ من كبار الممثّلين على المستوى الوطنيّ. كما اعتُبِرَتْ أعماله الأدبيّة على أنّها خلاصة الروائع، ودخل اسمُه لامعًا في كوكبة الكبار. ماوريسيو ڤايس، جهبذ السلتيبيريّين ونبراسهم، نورٌ يضيء العالم.

- نعرف ما نقرأه عنه في الجرائد. - تدخَّلَ لياندرو - والحقّ يقال، منذ فترةٍ لا بأس بها، بات يظهر أقلّ من المعتاد.

- لا شيء يُكتَبُ عنه تقريبًا. - أكّد خيل دي بارتيرا - أشكّ في أنّكِ تتذكّرين يا آنسة، أنّه من نوفمبر 1956، ما يعني أكثر من ثلاث سنوات مضت، الدون ماوريسيو ڤايس، وزير التربية الوطنيّة (أو الثقافة، كما يحلو له أن يصف نفسه)، و- إن سمحتم لي - نور عيون الصحافة الإسبانيّة، اختفى عمليًّا من تحت الأضواء، ولم يعد يراه أحدٌ في أيّ مناسبةٍ رسميّة.

- الآن وقد أكّدتَ ذلك حضرتك... - اعترفت أليثيا.

توجّه لياندرو إليها، بعد أن تبادَلَ وخيل دي بارتيرا نظرةً متواطئة، ليحيطها علمًا بالمجريات.

- الحقيقة يا أليثيا أنّه ليس من قبيل المصادفة، ولا بإرادته، أن يجد السيّد الوزير نفسه عاجزًا عن تشريفنا بذكائه الثاقب وألمعيّته التي لا تضاهى.

- كأنّك تعاملت معه في السابق يا لياندرو. - تدخَّل دي بارتيرا.

- لقد حصل لي الشرف بالتعامل معه منذ أمد بعيد، لوقتٍ قصير، خلال خدمتي في برشلونة. رجلٌ فذّ، استطاع أن يجسِّد قيم وجوهريّة الأنتلجنسيا الإسبانيّة الفضلى.

- أنا واثق من أنّ الوزير سيكون متفقًا معك.

خَطَّ لياندرو ابتسامة لطيفة وركّز أنظاره ثانيةً على أليثيا قبل أن يستأنف كلامه.

- ولسوء الحظّ، فإنّ المسألة التي نجتمع بسببها هنا لا تخصَ قيمة الوزير القدير المنزّهة عن النقد، ولا صحّة أناه التي يُحسّد على ضخامتها. وبالإذن من سيادتكم، لا أعتقد أنّني أفشي أيّ بندٍ ممّا سنخوض فيه إذا أنا قلتُ إنّ دوافعَ الغياب الطويل للدون ماوريسيو ڤايس عن المشهد العام في السنوات الأخيرة راجعةٌ إلى احتماليّة وجود مؤامرةٍ تستهدف حياته منذ أعوام.

رفعت أليثيا حاجبيها وتلاقت نظراتها بنظرات لياندرو.

- بغيةَ مؤازرة التحريّات التي شرع بها جهاز الشرطة الوطنيّ، وبناءً على طلبٍ من أصدقائنا في وزارة الداخليّة، تبرّعتْ وحدتُنا بعميلٍ للمشاركة في التحريّات، مع أننا لسنا منخرطين فيها رسميًّا، ولسنا على عِلمٍ بتفاصيلها فعلًا. - فسَّر لياندرو.

عضّت أليثيا شفتها. كانت عينا مديرها تبيِّنانّ أن وقت طرح الأسئلة لم يحن بعد.

- وإنّ عميلنا هذا، لأسبابٍ لم نتمكّن من التأكّد منها بعد، قطع خيوط التواصل وأصبح خارج نطاق السيطرة منذ أسبوعين. - أكمل لياندرو - فليكنِ الغرضُ من كلامي تأطيرَ المهمّة التي التمس سيادتُه من أجلها تعاوننا مشكورًا.

نظر لياندرو إلى كبير رجال الأمن الخبير وأومأ ليعطيه الكلمة. فبحّ خيل دي بارتيرا صوته وعبس وجهُه.

- ما سأطلعه عليكما سرّيٌّ للغاية، ولن يخرج عن حدود هذه الطاولة.

أومأ لياندرو وأليثيا في آنٍ واحد.

- تعقيبًا على ما قاله مديركِ، فإنّ الوزير ڤايس، في الثاني من نوفمبر 1956، إبّان احتفاليّةٍ على شرفه في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدريد، كانت حياته هدفًا لمحاولة اغتيال فاشلة، ويبدو أنّها ليست الأولى. لم يظهر النبأ إلى العلن، رغبةً من الحكومة والوزير المستهدف نفسه، إذ لم يشأ إقلاق عائلته والمتعاونين معه. افتُتِح تحقيقٌ في حينها وما زال مفتوحًا إلى هذه اللحظة: فبالرغم من جميع الجهود التي بذلها جهاز الشرطة الوطنيّ، ووحدةٌ خاصّةٌ من الحرس المدنيّ، ما زال الغموض يكتنف ظروف تلك الحادثة، وحوادث أخرى من المحتمل أنّها تحقّقت قبل أن تُبَلَّغَ الشرطةُ عنها. ومن الطبيعيّ أن تتكثّف التدابير الأمنيّة وتُشَدَّدُ الحراسة الشخصيّة المحيطة بالوزير منذئذ، ومن جهة أخرى سيُعلَّقُ ظهوره العامّ إلى أجلٍ آخر.

- وما الذي توصّلت إليه التحريّات في تلك المرحلة؟ - قاطعته أليثيا.

- تركّز الخطّ الاستقصائيّ الرئيس على مجموعة من الرسائل مجهولة المصدر تلقّاها الدون ماوريسيو على مدى وقتٍ طويل، ولم يعطها أهميّة. وبعد محاولة الاغتيال، أطلع الوزيرُ السلطاتِ على تلك الرسائل ذات الطبيعة التهديديّة التي تسلّمها طوال سنوات. كشفت التحقيقات الأولى أنّ الرسائل من الوارد جدًّا أن تكون مرسَلةً من رجلٍ يدعى سيباستيان سالغادو، اللصّ والمجرم الذي كان يقضي فترة إدانته في سجن مونتويك ببرشلونة حتّى خرج منذ عامين

فقط. فكما تعلمون، كان الوزير ڤايس مديرًا لذلك السجن الإصلاحيّ في بداية مسيرته في خدمة النظام، ما بين عامي 1939 و1944 للدقّة.

- لماذا لم يبلغ الوزيرُ الشرطةَ عن تلك الرسائل مجهولة المصدر من قبل؟ - سألت أليثيا.

- كما قلتُ سابقًا، برّر الوزير ذلك بأنّه في البدء لم يُعِرْ أيّ أهميّة لها، رغم إقراره بأنّه كان يجدر به إطلاع السلطات عليها. في تلك الآونة، قال لنا إنّ طبيعة الرسائل كانت تلغيزيّةً لدرجة أنّه لم يستطع تأويل معناها جيّدًا.

- وما طبيعة التهديدات المفترَضة؟

- أشياء مبهمة في معظمها. يقول المرسِل في الرسائل إنّ «الحقيقة» لا يمكن إخفاؤها، وإنّ «لحظة العدالة» تقترب إكرامًا لـ «أبناء الموت»، وإنّه «هو»، أي المُرسِل المفترَض، ينتظره «عند مدخل المتاهة».

- متاهة؟

- أكرّر: الرسائل تلغيزيّة. ومن المحتمل أنّها تحيل على شيءٍ لا يعرف بخصوصه إلّا ڤايس والشخص الذي كتب الرسائل، مع أنّ الوزير نفسه، باعترافٍ منه شخصيًّا، لم يقوَ على تفسيرها. لعلّها مِن صُنع رجل مجنون. لا يمكننا استبعاد هذا الاحتمال.

- هل كان سيباستيان سالغادو في القلعة عندما كان ڤايس مديرًا للسجن؟

- أجل. تحققنا من ملف سالغادر. دخل السجن عام 1939، بُعَيْدَ تنصيب الدول ماوريسيو ڤايس مديرًا. قال الوزير مرّةً إنّه لا يتذكّر الكثير عن ذلك السجين سوى كونه ذا نزعةٍ عدائيّة، الأمر الذي أعطى مصداقيّة لفرضيّتنا القائمة على أنّ سالغادو هو الذي كان يرسل الرسائل.

- ومتى أُفرِجَ عنه؟

- قبل أكثر من عامين بقليل. التواريخ بالطبع لا تتوافق مع محاولة الاغتيال في أكاديميّة الفنون الجميلة ولا مع سابقاتها. فإمّا أنّ سالغادو كان يعمل مع متعاونٍ من خارج السجن أو أنّه ببساطة كان يستخدمه مرآةً لاصطياد القُبّرة بغية التشويش. وكان هذا الاحتمالُ الأخير يكتسب صلابةً أكثر كلّما تقدَّمت التحقيقات. وكما ستلاحظان في الملفّ الذي سأتركه لكما، أُرسِلَت الرسائل من مكتب بريد بويبلو سيكو في برشلونة، المكتب الذي تُنقَلُ إليه كلُّ مراسلات المحتجَزين في سجن مونتويك.

- وكيف استطعتم التمييز بين الرسائل المختومة بختم مكتب البريد ذاك عن سواه؟

- لكلّ الرسائل التي تُبعَثُ من القلعة دمغةٌ على الظرف تختمها مكاتب السجن، على سبيل تحديد الهويّة، قبل أن تُودَع في الكيس.

- ألا تخضع رسائل السجناء للتفتيش؟ - سألت أليثيا.

- نظريًّا نعم. أمّا عمليًّا، فبناءً على ما أكّده المسؤولون أنفسُهم، لا تُفتَّش إلّا في مناسبات معيّنة. وبكل حال، لا أحد يذكر أنّه وجد رسائل ذات طابع تهديديّ موجّهة إلى الوزير. ومن الممكن أيضًا

أن الرقابة في السجن لم تجد فيها ما يثير الاهتمام، نظرًا إلى طبيعة لغتها الغامضة.

- إذا كان لسالغادو متواطئ أو أكثر خارج السجن، أليس من الممكن أن يكونوا هم مَن يعطونه الرسائل ليرسلها بنفسه من داخل السجن؟

- احتمالٌ وارد. كان لسالغادو الحقّ بزيارة شخصيّة كلّ شهر.

عمومًا، لن يكون لتلك الخطة أيُّ معنى. إذ كان أسهل عليهم أن يرسلوها بطريقة اعتياديّة كي لا يعرِّضوا أنفسهم للمجازفة مع رقباء السجن إذا اكتشفوا أمرهم. - قال خيل دي بارتيرا.

- لا. إلّا إذا كانوا لا يريدون إيهامهم بشكلٍ مفضوح بأنّ الرسائل مبعوثةٌ من داخل السجن حقًّا. - تدخلت أليثيا.

وافق خيل دي بارتيرا على كلامها بهزّةٍ من رأسه.

- ثمّة شيءٌ لا أفهمه. - تابعت أليثيا - إذا كان سالغادو موجودًا خلال كل تلك الفترة في مونتويك، ولم يُطلَق سراحُه إلّا قبل عامين من الآن؛ أتصوَّرُ أنّ هذا يعني أنَه كان محكومًا بالسجن المؤبَّد، أي ثلاثين عامًا. فما الذي يفعله في الخارج؟

- لا تفهمينه أنتِ ولا أيُّ أحدٍ آخر. في الواقع، يُفترض أنّ سالغادو كان ما يزال أمامه عشرة أعوام من الحبس عندما صدر بحقّه، من غافل عِلمه، عفوٌ استثنائيٌّ ممضيّ باسم قائد الدولة لتخفيف الحُكم. بل أكثر من ذلك. كان العفو بناءً على طلب الوزير ڤايس نفسه، وقد حصل على مبتغاه.

فلتت ضحكة اندهاش من أليثيا. فنظر إليها خيل دي بارتيرا بحزم.

- ما السبب الذي يدفع ڤايس لفعل شيء من هذا القبيل؟ - تدخَّلَ لياندرو في محاولة إنقاذ.

- كان ذلك ضدّ نصائحنا. ادّعى الوزير أنّ التحقيقات لم تؤتِ أُكُلها، فرأى أنّ الإفراج عن سالغادو قد يوصلنا إلى الكشف عن هويّة وموقع المتورّط، أو المتورّطين، بإرسال التهديدات، ومحاولات الاغتيال المزعومة.

- سيادتكم تشيرون إلى تلك الأحداث على أنّها مزعومه... - ألمحت أليثيا.

- لا شيء واضحًا في هذه المسألة. - قاطعها خيل دي بارتيرا - وهذا لا يعني أنّني أشكّك بكلام الوزير، ولا أدعوكما لفعل ذلك.

- لا شكّ في هذا. بالعودة إلى الإفراج عن سالغادو. هل أثمر عن النتائج التي كان الوزير يترقّبها؟ - سألت أليثيا.

- لا. راقبناه أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين منذ أن غادر السجن. أوّلُ خطوة أقدم عليها أنِ استأجر غرفة في نزلٍ رديء في باريو شينو، ودفع إيجار شهر سلفًا. عدا ذلك، لم يفعل أيّ شيء آخر سوى التردّد كل يوم إلى محطّة الشمال، حيث يقضي ساعات وهو ينظر أو يراقب خزانات الحقائب في البهو، وزيارة مكتبة قديمة لبيع الكتب المستعملة في شارع سانتا آنا.

- «سيمبيري وأبناؤه». - غمغمت أليثيا.

- بالضبط. هل تعرفينها؟

هزّت رأسها بنعم.

- لا يبدو أنّ شخصيّة صاحبنا سالغادو تتطابق مع شخصيّة القارئ النهم. - علّق لياندرو - هل لدينا معلومات عمّا كان يأمل في العثور عليه في خزانات المحطّة؟

- كنّا ندعي أنّه خبّأ فيها غنائمه التي سلبها أثناء جرائمه قبل اعتقاله عام 1939.

- وهل تبيّنتم صحّة الادعاءات؟

- في الأسبوع الثاني من إطلاق سراحه، عرَّجَ سالغادو ثانيةً إلى مكتبة سيمبيري وأبناؤه للمرّة الأخيرة، ثم اتّجه إلى محطّة الشمال، كما اعتاد كلّ يوم. لكنّه يومذاك، بدل أن يجلس في البهو يراقب الخزانات، اقترب من إحداها وادخل في فمها مفتاحًا. واخرج منها حقيبةً وفتحها.

- وعلامَ كانت تحتوي؟ سألت أليثيا.

- هواء. - أوجز خيل دي بارتيرا - لا شيء. الغنيمة، أو ما شابه، مفقودة. وكانت شرطة برشلونة مستعدّة لإيقافه وهو خارج من المحطة، غير أنّ سالغادو انهار تحت المطر. فطن العملاء إلى عاملين من المكتبة كانا يتبعانه ما إن خرج من عندهما. وبينما كان سالغادو مغميًّا عليه أرضًا، قرفص أحدهما بجانبه بضع ثوانٍ ثمّ لاذ بالفرار.

وعندما وصل إليه رجال الشرطة، كان سالغادو قد أسلم الروح. ربّما نحن بصدد نوع من العدالة الإلهيّة، اللص الذي يتعرّض للسرقة وباقي ما تبقّى، لكنّ الطبيب الشرعي كشف عن أمارات حقنة على ظهره وثيابه، وآثار عقّار الستركنين السامّ في دمائه.

- هل من الوارد أن يكون عاملا المكتبة مَن فعلها؟ فالمتورّطون يعمدون إلى التخلّص من مرآة اصطياد القُبَّرة حين تنتهي حاجتهم إليها، أو إذا أحسّوا أنّ الشرطة تراقبها، فيشعرون بأنّ أمنهم يتعرّض للخطر.

- هذه كانت إحدى الفرضيّات، لم تُستبعَد. وفي الواقع، كان أيُّ رجلٍ في المحطة بوسعه أن يقتله غيلةً. فالشرطة كانت تراقب عاملَي المكتبة بانتباه شديد، فضلًا عن أنّ عملاءنا لم يروا أيّ تواصل مباشر بين هذين وسالغادو حتى سقط أرضًا، وكان ميّتًا أغلب الظنّ.

- لعلّهما دسّا له السمّ في المكتبة، قبل أن يتّجه إلى المحطة؟ - سأل لياندرو.

فكانت أليثيا هذه المرّة مَن يجيب عن السؤال.

- لا. الستركنين يتفاعل بسرعة خارقة، خصوصًا إذا كانت الضحيّة في أرذل العمر وربّما تعاني أزماتٍ صحيّة بعد قضاء عشرين سنة في زنزانة. فبين الحقن والموت لا يمكن أن تمرَّ أكثر من دقيقة أو اثنتين.

نظر إليها خيل دي بارتيرا وهو يلجم إيماءة استحسانه.

- تمامًا. - أكّد - أغلب الظنّ أنّه في ذلك اليوم كان هناك شخصٌ آخر في المحطة، لم يستدعِ انتباه رجال الأمن، قرّر أنّ اللحظة سانحة للتخلّص من سالغادو.

- ما الذي نعرفه عن ذينك العاملَين؟

- أحدهما يدعي دانيال سيمبيري، ابن صاحب المكتبة. والآخر يجيب عن اسم فيرمين روميرو دي توريس، بياناتُه في الأرشيف مشوَّشة، وتؤشّر إلى تبديل وثائق. ربّما لانتحال هويّة زائفة.

- ما الذي يربطهما بالقضيّة، ولماذا كانا هناك؟

- لم يكن من الممكن تبيان ذلك.

- ألم يخضعا للاستجواب؟

هزّ خيل دي بارتيرا رأسه نافيًا.

- أكرِّر: كانت تلك توجيهات صارمة من معالي الوزير. مخالفة لمعاييرنا تمامًا.

- والطريق المؤدّي إلى المتواطئ أو المتواطئين مع سالغادو؟

- مسدود.

- لعلّ معالي الوزير سيغيِّر رأيه الآن وسيأذن لنا بـ...

كشف خيل دي بارتيرا عن ابتسامته الذئبية التي تُبرِز مدى خبرته في مجال الأمن.

- هذا ما كنتُ أريد الوصول إليه. فمنذ تسعة أيّام، فجر اليوم اللاحق للحفلة التنكّرية التي أقيمت في قصره في سوموساغواس، هجر الدون ماوريسيو ڤايس مكان إقامته، على متن سيّارةٍ صحبة كبير مرافقيه، بيثنتي كارمونا.

- هجر؟ - سألت أليثيا.

- منذ ذلك الوقت، لا أحد رآه او عرف عن أخباره شيئًا. اختفى من على وجه الأرض دون أن يترك أثرًا.

هبط صمتٌ طويلٌ على الصالة. بحثت أليثيا عن نظرات لياندرو.

- رجالي يعملون بلا هوادة، لكنّنا لم نمسك أيّ شيء بأيدينا حتّى هذه اللحظة. كما لو أنّ ماوريسيو ڤايس تبخَّر عندما ركب تلك السيّارة...

- هل ترك بطاقةً، أو أيّ إشارةٍ عن المكان الذي سيتّجه إليه، قبل أن يغادر البيت؟

- لا. إنّنا نقيِّم فرضيّةً مفادُها أنّ الوزير، لسببٍ لم يتسنَّ لنا بعد تحديده، اكتشف في النهاية مَن كان يرسل إليه تلك التهديدات، وقرّر مواجهته وحيدًا بمساعدة حارسه الموثوق.

- وربّما سيقع هكذا في الفخ. - أكمل لياندرو - «مدخل المتاهة».

أومأ خيل دي بارتيرا مرارًا.

- كيف لنا أن نتأكّد ما إذا كان الوزير لا يعرف منذ البداية هويّة مرسِل تلك الرسائل ولماذا؟ - تدخّلت أليثيا مجدّدًا.

فسدّد إليها كلٌّ من لياندرو وخيل دي بارتيرا نظرةً قامعة.

- الوزير هو الضحيّة، لا المشتبه به. - اختصر خيل دي بارتيرا - لا تخلطي الأمور.

- كيف بإمكاننا أن نساعدك يا صديقي؟ - سأله لياندرو.

سحب خيل دي بارتيرا نفسًا عميقًا ومرّر بضع ثوانٍ قبل أن يردّ.

- لدى إدارتي إجراءاتٌ محدودة. وقد أُخْفِيَتْ عنّا القضيّة إلى أن فات الأوان. أعترف أنّنا قد ارتكبنا أخطاء، هذا وارد، لكنّنا نبذل قصارى جهدنا لحلّ المسألة قبل أن تصبح قضيّة رأيٍ عامّ. يثق عددٌ من مدرائي بأنّ وحدتك، نظرًا إلى حساسيّة الحالة، قد تكون قادرةً على تقديم عنصرٍ إضافيٍّ يساعدنا في حل القضيّة بأسرع وقت.

- وهل تثق بذلك أنت أيضًا؟

- إن أردتَ منّي الصدق يا لياندرو، فأنا لم أعد أعرف بمن وبما أثق. لكنّ الأمر الذي لا أشكّ فيه هو أنّنا إذا لم نُعِدِ الوزيرَ سالمًا غانمًا بوقتٍ وجيز، فإنّ ألتيا سيفتح صندوق باندورا ليوكل المهمّة إلى صديقك القديم إندايا. لا أنا ولا أنت نريد ذلك.

وجّهت أليثيا نظرةً متحرّية إلى لياندرو الذي هزّ رأسه بخفّة. فأصدر خيل دي بارتيرا ضحكة مريرة خلسةً. كان الاحتقان في عينيه، من الدماء أم من القهوة السوداء، يوحي بأنّه لم ينم أكثر من ساعتين في الليل منذ أسبوع.

- إنّي أقصّ عليكم ما أعرفه، لكنّي لست متأكدًا إن رووا لي الحقيقة كاملةً. لا يمكنني أن أكون أوضح من ذلك. إنّنا نتخبّط في الظلام منذ تسعة أيام، وكلّ ساعة تنقضي هي ساعة ضائعة.

- هل تعتقد أنّ الوزير ما زال حيًّا؟ - سألت أليثيا.

أخفض خيل دي بارتيرا أنظاره ومرّر بعض الصمت.

- إنّ واجبي يملي عليّ بأن أعتقد أنّه ما زال حيًّا، وأنّنا سنعيده سالمًا غانمًا قبل أن يحدث له مكروه، وإلّا سحبوا الملفّ من بين أيدينا.

- ونحن معك - أفاد لياندرو - لا تشكّ بأنّنا سنفعل ما أمكننا المساعدتك في تحقيقاتك.

أومأ خيل دي بارتيرا، وهو يراقب أليثيا بنظرة ازدواجيّة.

- ستعملين مع بارغاس، أحد رجالي.

تردّدت أليثيا برهةً. بحثت بعينيها عن مؤازرة من جانب لياندرو، لكن مديرها آثر التهرُّب ناظرًا إلى فنجان قهوته.

- مع كامل احترامي، سيادكم، انا أعمل بمفردي دائمًا.

- ستعملين مع بارغاس. لا نقاش حول هذا.

- طبعًا. - أفاد لياندرو، غير مكترث لنظرات أليثيا المستعرة - متى بوسعنا أن نبدأ؟

- البارحة.

لوّح المدير بيد، فاقترب أحد عملائه وأعطاه ظرفًا كبيرًا. تركه خيل دي بارتيرا على الطاولة ونهض، من دون أن يخفي لهفته بالوجود في أيّ مكان آخر على أن يبقى في تلك الصالة.

- التفاصيل كلّها في الملفّ. أطلعوني على آخر المستجدّات.

صافح لياندرو، ولم يتكلّف حتى بتوجيه نظرة أخيرة إلى أليثيا، ومضى بخطًى مستعجلة.

رأوه يبتعد، متبوعًا برجاله، عبْر الصالة الكبرى، ثمّ عادا للجلوس. وظلّا في صمتٍ عدّة دقائق. كانت أليثيا تنظر في الفراغ فيما يشطر لياندرو الفطيرة بدقّة مفرطة ويدهنها بالزبدة ومربّى الفراولة، ثمّ يتذوّقها على مهل، بعينين مغمضتين.

- شكرًا على الدعم. - قالت أليثيا.

- لا عليكِ. أعرف أنّ بارغاس رجلٌ موهوب. سيعجبكِ. وربما تتعلّمين منه شيئًا ما.

- يا لسعدي. من هو؟

- ذو خبرة في سلك الشرطة. كان رجلًا مؤثّرًا. لكنّه مسرَّحٌ منذ زمن، بسبب خلاف آراء مع الإدارة العامّة على ما يبدو.

- منبوذ؟ هل قيمتي متدنّية إلى هذه الدرجة كي لا أستحقّ مرافقًا من مرتبة عليا؟

- مرتبته عالية، كوني على ثقة. الحال أنّ ولاءه للحركة وإخلاصه لها شُكِّكَ بهما أكثر من مرّة.

- لا ينتظرون منّي أن أهديه إلى درب الإيمان.

- الأمر الوحيد الذي ينتظرونه هو ألّا نرتكب حماقة، وأن نساعدهم في تشكيل انطباعٍ لائق.

- رائع.

- كان من الممكن أن يصبح أسوأ. - أوجز لياندرو.

- أسوأ يعني استدعاء «صديقك القديم»، إندايا؟

- من بين أحد الخيارات.

- من هو إندايا؟

أشاح لياندرو نظره.

- من الأفضل ألّا تضطرّي إلى اكتشافه.

ساد صمت طويل بين الاثنين، واغتنمه لياندرو في طلب فنجان قهوة آخر. كانت لديه عادة كريهة بشرب القهوة برشفات متتابعة، حاملًا بيده الصحن الصغير تحت ذقنه. وفي أيّامٍ كذاك اليوم، بدت كلّ عاداته، التي تعرفها أليثيا حقّ المعرفة، بدت لها كريهة. لاحظ لياندرو نظرتها فتوجّه إليها بابتسامة عطفٍ أبويّ.

- لو كانت النظرات تقتل... - قال.

- لماذا لم تخبر المدير أنّني استقلتُ منذ أسبوعين ولم أعد في الخدمة؟

ترك الفنجان على الطاولة ونظّف شفتيه بالمنديل.

- لم أشأ توبيخكِ يا أليثيا. اسمحي لي بأن أذكّركِ بأنّنا لسنا في نادٍ للعب القمار، ندخل ونخرج من الخدمة بتقديم طلبٍ بسيط. سبق أن تحادثنا بهذا الموضوع عدّة مرّات، وإن أردتِني صادقًا معكِ، فإنّ سلوككِ يؤسفني كثيرًا. لأنّني أعرفكِ أكثر ممّا تعرفين نفسكِ. ولأنّني أُعزّكِ سمحتُ لكِ بإجازةٍ من أسبوعين كي تستريحي وتفكّري بمستقبلكِ. أفهم أنّك متعَبة. أنا أيضًا متعب. أفهم أنّ ما نقوم به أحيانًا لا ينال استحسانكِ. ولا حتّى استحساني. لكنّ هذا هو عملنا وواجبنا. وكنتِ تعرفين ذلك جيّدًا عندما دخلتِ السلك.

- عندما دخلتُ السلك، كان عمري سبعة عشر عامًا. ولم أدخل لأنّ طبيعة العمل تعجبني.

ابتسم لياندرو كمعلّمٍ فخورٍ أمام أكثر تلاميذه تألُّقًا.

- إنّ روحكِ ميّتة يا أليثيا. فأنتِ لم يكن عمركِ سبعة عشر عامًا على الإطلاق.

- توصَّلنا إلى أنّني سأتوقف عن العمل. هذا كان اتّفاقنا. أسبوعان لا يغيّران شيئًا.

كانت ابتسامة لياندرو تفتر، مثل قهوته.

- أسدي إليّ هذا المعروف الأخير ثمّ افعلي ما تشائين.

- كلا.

- إنّني في حاجة إليكِ بخصوص هذه القضيّة يا أليثيا. لا تجعليني أتوسّل إليكِ. أو أغصبكِ.

- أوكلِ المهمّة إلى لومانا. فهو بالتأكيد يموت توقًا لكسب بعض النقاط.

- كنتُ متعجِّبًا من أنّكِ لم تطرحي اسمه بعد. لم أفهم المشكلة بينكِ وبين ريكاردو على الإطلاق.

- تنافر طباع. - اقترحت أليثيا.

- في الحقيقة، ريكاردو لومانا هو العميل الذي أعرتُه لجهاز الشرطة منذ بضعة أسابيع، ولم يعيدوه إليّ بعد. والآن يخبرونني أنّه اختفى.

- ليتنا نحصل على هذه النعمة. أين اختفى؟

- فعلُ الاختفاء يشترط عدم إبراز هذا التفصيل.

- لومانا ليس من النوع الذي يختفي. لا بدّ أنّ هنالك سببًا وجيهًا وراء انقطاع أخباره. لقد عثر على شيء.

- أعتقد هذا أنا أيضًا. ولكنْ ما دامت أخباره لا تردنا فليس أمامنا سوى التكهُّن. وليس من أجل هذا يدفعون مرتَّباتنا.

- ومن أجل ماذا يدفعون مرتَّباتنا؟

- من أجل حلّ المشكلات. وهذه التي نحن بصددها مشكلة خطيرة جدًّا.

- ألا يمكنني أن أختفي أنا أيضًا؟

هزّ رأسه ونظر إليها طويلًا وهو يتّخذ تعبيرًا متألّمًا.

- لماذا تكرهينني يا أليثيا؟ ألم أكن مثل أبٍ لكِ؟ ألست صديقًا طيّبًا؟

تأمّلت أليثيا في معلّمها. انكمشت معدتها وما عادت الكلمات تصل إلى شفتيها. لقد قضت أسبوعين وهي تحاول إبعاده عن ذهنها، وآنذاك إذ كان قبالتها، أدركت بأنّها في جلستها هناك، تحت قبّة البالاس الهائلة، كانت تعود تلك المراهقة التعيسة التي لم تكن لتصل إلى سن العشرين عامًا، رغم امتلاكها كلّ الأرقام، لو لم يُخرِجها لياندرو من باطن البئر.

- لا أكرهك.

- ربّما أنتِ تكرهين نفسكِ، وعملكِ، وأولئك الذين تعملين لمصلحتهم، وكلّ هذه القمامة التي تحيط بنا ونتفسّخ بها يومًا بعد يوم. أفهمكِ، لأنّني أنا أيضًا مررتُ بها.

ابتسم لياندرو مجدّدًا، تلك الابتسامة الودودة التي تغفر كلّ شيء، وتفهم كلّ شيء. حطّ يده على يدها وشدّ عليها.

- ساعديني في حلّ هذه المسألة الأخيرة، وأعدك بأنّني سأتركِكِ تمضين وشأنكِ بعدها. كي تختفي إلى الأبد.

- بهذه البساطة؟

- بهذه البساطة. لكِ منّي كلمة شرف.

- ما الخدعة؟

- لا خدعة.

- ثمّة خدعة دومًا.

- ليس في هذه المرّة. لا يمكنني إبقاؤكِ بجانبي ما دمتِ لا تريدين البقاء معي. رغم أن هذا يؤسفني.

مدّ يده نحوها.

- أصدقاء؟

تردّدت أليثيا قليلًا، لكنّها مدّت إليه يدها في النهاية. فحملها إلى شفتيه وقبّلها.

- سأشتاق إليكِ عندما تنتهي هذه الحكاية. - قال - وستشتاقين إليّ، حتّى لو كنتِ الآن لا ترينها كذلك. أنتِ وأنا نشكّل فريقًا رائعًا.

- الربّ يخلقهم والشيطان يؤالف بينهم.

- هل فكّرتِ بما ستفعلين فيما بعد؟

- متى؟

- عندما تصبحين حرّة. عندما تختفين، على حدّ تعبيركِ.

أبدت أليثيا عدم اكتراثها.

- لم أفكّر في الأمر.

- ظننتُ أنّني علَّمتك كيف تكذبين على نحوٍ أفضل يا أليثيا.

- بل ربّما لستُ ماهرةً إلّا في الكذب. - حدّدت.

- لطالما أردتِ الكتابة. - اقترح لياندرو - هل ستكونين كارمن لافوريه الجديدة؟

نظرت إليه بعدم اهتمام. فابتسم لياندرو.

- هل ستكتبين عنّا؟

- لا. قطعًا لا.

فهزّ رأسه.

- لن تكون فكرةً جيّدة. فكما تعلمين. نحن نعمل في الظلّ. من دون أن ترانا عين. هذا جزء من الخدمات التي نقدِّمها.

- أعرف. لا حاجة لتذكيري بذلك.

- خسارة، فلدينا كثيرٌ من القصص التي تستحقّ أن تُحكى، أليس صحيحًا.

- أرى العالم. - غمغمت أليثيا.

- عفوًا؟

- ما يروق لي فعله هو أن أسافر لأرى العالم. كي أجد مكاني. هذا إن كان له وجود.

- بمفردكِ؟

- وهل أنا في حاجةٍ إلى أحد؟

- لا أعتقد. قد تكون العزلةُ أفضلَ الأصحاب لمن هم على شاكلتنا.

- هذا يناسبني أساسًا.

- ستقعين في الحبّ يومًا ما.

- عنوانٌ لائقٌ بأغنية بوليرو.

- يجدر بكِ أن تستعجلي، قد أخطئ لكنّني أتصوَّر أنّ بارغاس ينتظر في الخارج منذ مدّة.

- هذا خطأ.

- هذا التطفُّل يضايقني أكثر ممّا يضايقكِ يا أليثيا. من الواضح أنّهم لا يثقون. لا بكِ، ولا بي. كوني دبلوماسيّة ولا ترعبيهم. افعليها من أجلي.

- إنّني كذلك دائمًا. ولا أرعب أحدًا.

- تفهمين ما أقصده. فضلًا عن أنّنا لن ندخل في منافسة مع جهاز الشرطة. ولا حتّى عن سبيل التجربة. لديهم تحقيقاتهم، ومنهجهم، وإجراءاتهم.

- فماذا أفعل أنا؟ أبتسم وأوزّع الحلوى؟

- أريدكِ أن تفعلي ما تجيدين فعله. أن تلاحظي ما لا تلاحظه الشرطة. أن تتّبعي فطرتكِ، لا الإجراءات. أن تفعلي ما لن تقوى الشرطة على فعله لأنّها الشرطة، وليست عزيزتي أليثيا غريس.

- أهذه مجاملة؟

- أجل. وأوامرُ أيضًا.

حملت أليثيا الظرف من على الطاولة ونهضت. فلاحظ لياندرو أنّها تضع يدًا على خاصرتها وتضغط شفتيها كي تخفي الألم.

- كم حقنةً أخذتِ؟ - سألها.

- لا واحدة في الأسبوعين الأخيرين. سوى حبّتين من المسكّنات من وقتٍ إلى آخر.

تأفّف لياندور.

- لقد تحدّثنا في هذا الأمر كثيرًا يا أليثيا. تعلمين أنّكِ لا تستطيعين فعل ذلك.

- إنّي أفعل ذلك.

هزّ المعلّم رأسه بخفّة.

- سأرسل لكِ أربعمئة غرامًا بعد ظهر اليوم إلى الفندق.

- كلّا.

- أليثيا...

استدارت وابتعدت عن الطاولة من دون أن تعرج، لكنّها كانت تعضّ لسانها وتبتلع الألم وتلجم دموع الغلّ.

(6)

عندما خرجت أليثيا من البالاس كان الطوفان قد توقّف، وارتفع حجابُ البخار من بلاط الشوارع. وكانت أشعّة الضوء تمزّق قبة الغيوم العابرة، لتمشِّط مركز مدينة مدريد مثلما تفعل المصابيح العملاقة إذا سُلِّطَتْ على باحة سجن. مَسَحَ شعاعٌ منها ساحة دي لاس كورتس، فكشف عن سيّارة فورد مركونة على بُعد أمتار عن مدخل الفندق. رجلٌ فضيّ الشعر، متدثّرٌ بمعطف أسود، كان متّكئًا على صندوقها الأماميّ؛ يدخِّن سيجارةً ويراقب المارّة برويّة. توصّلت أليثيا في حساباتها إلى أنّه في الخمسين عامًا من عمره، لكنّه ما يزال يتمتّع بمحيّا الشباب والعضلات المفتولة. كان ذا مظهر صارم كالناجحين في السلك العسكريّ الذين قلّما أدّوا مهمّاتٍ مكتبيّة. وكما لو أنّه شمّ رائحتها في الهواء، استدار الرجل نحو أليثيا متوجِّهًا إليها بابتسامةٍ تليق ببطلٍ سينمائيّ في الأفلام التي تُعرَض بعد الظهر.

- أيمكنني مساعدتكِ يا آنسة؟

- آمل ذلك. اسمي غريس.

- غريس؟ حضرتِك غريس؟

- أليثيا غريس. عنصر من وحدة لياندرو مونتالبو. أجل، غريس. أتوقّع أنّك السيّد بارغاس حضرتك.

أدلى الرجل بإيماءةٍ مبهمة.

- لم يخبروني بأنّكِ...

- مفاجآت اللحظة الأخيرة. - اختصرت أليثيا - هل تريد أن تستريح قليلًا لتستعيد نشاطك؟

مجّ رجل الأمن مجّةً أخيرةً من سيجارته ورمقها باهتمامٍ من خلال ستارة الدخان التي انبعثت من بين شفتيه.

- لا.

- ممتاز. من أين تريد أن نبدأ؟

- ينتظروننا في قصر سوموساغواس. إن كنتِ موافقة.

أومأتْ بنعم، فرمى بارغاس عقب السيجارة والتفّ عائدًا إلى السيّارة. جلست في المقعد بجانب السائق. وجلس هو إلى الدفّة، مُشَتّتَ الأنظار أمامه ومفاتيحُ السيّارة في حضنه.

- سمعتُ عنكِ أشياء كثيرة. - قال - لم أكن أظنّكِ شابَةً إلى هذا الحد...

رمقته أليثيا بنظرة جامدة.

- لن يسبّب هذا الأمر مشكلة، أليس كذلك؟ - سألها رجل الأمن.

- مشكلة؟

- حضرتكِ وأنا. - صرّح بارغاس.

- لا أرى سببًا لحدوث مشكلة.

كانت نظراته إليها فضوليّةً أكثر من كونها ارتيابيّة. عرضت عليه أليثيا إحدى ابتساماتها الرقيقة والماكرة التي كانت تغيظ بها لياندرو.

فطقطق بارغاس بلسانه وشغّل المحرّك، مطأطئ الرأس نافيًا.

- سيّارة جميلة. - علّقت أليثيا بعد قليل.

- مكرمةٌ من المباحث العامّة. بإمكانكِ اعتبارها علامةً على أنّهم يحملون القضيّة محمل الجدّ. هل تقودين السيّارة؟

- في هذا البلد، أتمكّن بالكاد من فتح حساب مصرفيّ من دون إذنٍ من زوجٍ أو والد. ردَّت أليثيا.

- أستوعب ذلك.

- اسمح لي أن أشكّ في أنّك تستوعب ذلك.

تابعا المسير بصمت عدّة دقائق. كان بارغاس يرسل إليها نظراته خلسةً وكانت تتظاهر بأنّها لا تلاحظه، وهي التي تخضع لمراقبته الممنهجة والمتقطّعة كأنّها تحت تصوير الأشعّة المتسلسلة، إذ يغتنم الوقوف على إشارة مرور أو التوقف للمارّة العابرين خطَّ المشاة.

وعندما علقا في أزمة السير وسط الغران ڤيا، أخرج بارغاس محفظة سجائر فضّية فاخرة وقدّمها إليها مفتوحةً. تبغٌ أشقر، مستورد. رفضت أليثيا العرض. فحمل رجل الأمن سيجارةً إلى شفتيه وأشعلها بولّاعةٍ ذهبيّة كانت أليثيا لَتُقسِمَنَّ أنّها من طراز دوبونت. إذ كان بارغاس مولعًا باقتناء الأغراض النفيسة باهظة الثمن. وبينما كان يُشعل السيجارة، لاحظت أليثيا أنه ينظر إلى يديها المعقودتين على حضنها، لعلّه يبحث عن خاتم زواج. إذ كان في يده خاتمٌ لافتٌ للانتباه.

- عائلة؟ - سألها.

هزّت رأسها نافية.

- وحضرتك؟

- متزوّجٌ إسبانيا - ردّ.

- نموذجٌ مثاليّ. وماذا عن الخاتم؟

- قصّة من سالف الزمان.

- ألا تسألني لماذا تعمل امرأةٌ مثلي لمصلحة لياندرو؟

- هل هذه شؤوني؟

- لا.

- تمامًا.

عاد الصمت المحرج يطغى عليهما بينما كانا يخلّفان أزمة السير في مركز المدينة وراءهما متّجهَين نحو لا كاسا دي كامبو. وما انفكّ بارغاس يتفحّصها بعينيه خلسةً. كانت نظراته جامدةً وحديديّة، والبؤبؤ فيهما رماديٌّ يتلألأ كعملةٍ سُكَّتْ توًّا. تساءلت أليثيا فيما إذا كان رفيقها - قبل أن تتردّى أحواله - مؤيِّدًا نصيرًا أم مجرّد مرتزِقٍ أجير. فبينما كان المؤيّدون يجتاحون طبقات النظام ويتكاثرون كالورم المتقيّح مستظلّين بالرايات والخطابات؛ كان الصمت يكتنف المرتزِقة حتّى يقتصر دورُهم على دفع العجلة. تساءلت كم سفك من أرواحٍ خلال مسيرته، وإن كان يتعايش مع حسرات الندم أم إنّه لم يعد يحصيها. أو ربّما، بشعره المبيَّض هذا، نما ضميرُه حتّى نسف كلّ مشاريعه.

- فيم تفكرين؟ - سألها.

- كنت أتساءل إن كنتَ تحبّ عملك.

ضحك بارغاس على مضض.

- ألا تسألني إن كنتُ أحبّ عملي؟ - ألحّت أليثيا.

- هل هذه شؤوني؟

- لا أعتقد.

- تمامًا.

وبما أنّ الأمل بنجاح المحادثة كان ضعيفًا، أخرجت أليثيا الملفّ من الظرف الذي أعطاه لها خيل دي بارتيرا وبدأت تتصفّحه. لم يقنعها العملُ في الانطباع الأوّل. مجرد ملاحظات سجّلها العملاء: إفادة السكرتيرة الشخصيّة للوزير؛ صفحتان مخصّصتان لمحاولة الاغتيال المزعومة؛ تقارير روتينيّة لمفتِّشَين أجريا تحقيقًا حول المسألة، وبعض المقتطفات عن إضبارة بيثنتي كارمونا مرافق ڤايس الشخصيّ. فإمّا أنّ ثقة خيل دي بارتيرا بعملائه كانت أقلّ ممّا وصفها لياندرو، وإمّا أنّ خيرة العاملين في مديريّته لم يتعاملوا بجدّيّة في الأسبوع الفائت.

- هل كنتِ تتوقّعين أفضل من هذه النتيجة؟ - سألها بارغاس، محاولًا أن يقرأ أفكارها.

ركّزت أليثيا أنظارها على غابة لا كاسا دي كامبو.

- لم أتوقّع الأسوأ. - همست - من سنابل الآن؟

- ماريانا سيدو، السكرتيرة الشخصيّة لمعاليه طوال العشرين عامًا الأخيرة. هي التي أخطرتْ عن اختفاء الوزير.

- إنّها أعوامٌ كثيرة على سكرتيرة. - لمّحت.

- الألسنة المغرضة تقول إنّها أكثر من مجرد سكرتيرة.

- عشيقة؟

هز بارغاس رأسه.

- يبدو لي أن أذواق السيّدة ماريانا ميّالةٌ أكثر إلى مثل جنسها. يقال إنّها هي التي تقود السفينة، وإنّ مكتب ڤايس لا يفعل ولا يقرّر شيئًا من دون موافقتها.

- وراء كلّ رجلٍ فظيع امرأة أفظع منه. هذه مقولة شائعة أيضًا.

ابتسم بارغاس.

- لم أسمع هذه المقولة من قبل. لقد حذّروني من أنّكِ وقحة نوعًا ما.

- وممّ حذّروك أيضًا؟

التفت إليها وغمز بعين.

- من هو إندايا؟ - سألته.

- ماذا قلتِ؟

- إندايا. من هو؟

- رودريغو إندايا؟

- يُفتَرض ذلك.

- ولماذا تريدين أن تعرفيه؟

- المعرفة لا تضرّ.

- هل ذكر مونتالبو اسم إندايا في ما يخصّ هذه القضيّة؟

- لقد ذُكِرَ الاسمُ أثناء الحوار، أجل. فمن هو؟

تنهّد رجل الأمن.

- إندايا سفّاح. خيرٌ لكِ أن تتجنّبي معرفته.

- هل تعرفه؟

تجاهل بارغاس السؤال. وأمضيا بقيّة الرحلة دونما كلمة يتبادلانها.

(7)

وبعد مرور قرابة خمس عشرة دقيقة من المسير في شوارعَ تمركَزَ على جوانبها فيلقٌ من عمّال الحدائق بزيٍّ موحّد، انفتحت أمام السيّارة جادّةٌ محفوفةٌ بالسرو تفضي إلى البوّابة الكبرى لقصر مرثيديس. كانت السماء متّشحة بلون الرصاص، وقطرات المطر الصغيرة تنقر زجاج السيّارة الأماميّ. ثمّة بوّابٌ مترقِّبٌ عند مدخل القصر، فتح الحاجز ليدخلا. وعلى أحد الجانبين، كشك مراقبة فيه حارسٌ مسلّح ببندقيّة ردّ على تحيّة بارغاس.

- هل أتيتَ إلى هنا مسبقًا؟ - سألته أليثيا.

- مرّتين منذ الاثنين الماضي. سيعجبكِ المكان كثيرًا.

دخلت السيّارةُ دربَ الحصى الناعمة الملتوي بين جنبات الزرع والبحيرات الصنعيّة. وكانت أليثيا تتأمّل الحدائق المليئة بالتماثيل وبرك المياه والنوافير وزوايا الورد الذابل الذي هتكتْه رياحُ الخريف. تتراءى سكّة قطار بين الأجمات والأزهار الميّتة. ويتبدّى جانب ما بدا أنّه محطّة مصغّرة عند حدود المكان. وهناك مقطورة بخاريّة وعربتان تنتظران على رصيف المحطّة تحت رذاذ المطر.

- لعبة من أجل الطفلة - فسّر بارغاس.

ثمّ برز أمام أعينهما طيف المسكن الكبير، بناية هائلة المطهر يبدو أنّها صُمِّمت لتقزيم الزائرين وبثّ الرهبة في قلوبهم. ثمّة مبنيان ضخمان على الجانبين ببُعد مئة متر تقريبًا. أوقف بارغاس السيّارة أمام العتبات الواسعة المؤدّية إلى المدخل الرئيس. وكان بانتظاره كبير الخدم، ببدلته الرسميّة، وبيده مظلّة، أشار لهما بالتوجّه نحو هيكلٍ على مسافة خمسين مترًا من البيت. دلف بارغاس بالدرب المؤدّي إلى مرأب السيّارات، واستطاعت أليثيا أن تشاهد أطراف المسكن الكبير.

- من يدفع ثمن كلّ هذا؟ - سألت.

أبدى بارغاس لامبالاته.

- أنتِ وأنا، حسب اعتقادي. وربما السيّدة ڤايس، التي ورثت كنوز أبيها، إنريكي سارمينتو.

- صاحب المصارف؟

- أحد أصحاب المصارف الموالين للحركة، كما تقول الصحف. - حدّد بارغاس.

تذكّرت أليثيا أنّها سمعت لياندرو يتحدّث ذات مرّة عن سارمينتو وشرذمة المصرفيّين الذين موّلوا الحركة القوميّة أثناء الحرب الأهليّة، متبرّعين لها بقسمٍ كبير من أموال المهزومين بموجب اتّفاقٍ يضمن امتيازات متبادلة.

- حسب علمي، زوجة الوزير مريضة - قالت أليثيا.

- مريضةٌ اختصارًا...

فتح حارس المرأب أحد الأبواب الضخمة وأشار للسيّارة بالدخول. أنزل بارغاس نافذته فعرفه الحارس.

- اتركها حيثما شئت يا سيّدي. دع المفتاح في مكانه أيضًا.

شكرًا.

أومأ بارغاس ودخل المرأب الذي كان عبارة عن هيكل ذي أقواسٍ مترابطة بأعمدة من حديدٍ مطروق، ممتدّة في ظلامٍ بلا قاع. وهناك عددٌ لا حصر له من السيّارات الفارهة المصطفّة، حيث يتوه بريق معدنها في لانهاية. عثر بارغاس على حيّز بين سيارة هسبانو-سويسا وأخرى كاديلاك. تبعهما العامل بالمرأب ولوّح بيده موافقًا.

- ما أجمل السيّارة التي تقودها اليوم يا سيّدي. - علّق عندما نزلا منها.

- بما أنّ الآنسة كانت آتية اليوم، سمح لي مدرائي بالمجيء بسيارة الفورد. - قال بارغاس.

أمّا ذاك العامل، كائنٌ وسطيٌّ ما بين القزم والفأر، إذ كان يبدو واقفًا على قدميه في بدلته الزرقاء بفضل حشد الخِرَقِ المتّسخة والمعلّقة على حزامه وغشاء الدهن الذي يقيه الأعراض. وبعد أن خصّص لأليثيا نظرة تدقيق من رأسها إلى قدميها، اهتدى وقارًا وغمز بعينٍ متواطئة إلى بارغاس، ظنًّا منه أنّها لم تره.

- لويس رجلٌ عظيم. - صرّح رجل الأمن بينما كانا متّجهين نحو المخرج - أعتقد أنّه يعيش هنا، في المرأب، تحت السقيفة في آخر الورشة.

اجتازا مقتنيات ڤايس المتحفيّة باتجاه المخرج، وكان لويس خلفهما يؤجّل تلميع الفورد بالخرقة واللعاب ريثما يتمتّع بمشيتها الرقيقة والمتماوجة وجوانب كاحليها.

هُرع كبير الخدم لاستقبالهما، وأفسح بارغاس لأليثيا المجال تحت المظلة.

- آمل أنّكما قمتما برحلة مريحة من مدريد إلى هنا. - قال بإجلال - السيّدة ماريانا بانتظاركما.

كانت له ابتسامة فاترة وطيّعة بشكلٍ مريب، يتفرّد بها كبار الخدم المخضرمين، الذين يتوهّمون مع مرور السنوات أنّ نَسَبَ أسيادهم طلى دماءهم باللون الازرق ومنحهم الأحقّيّة بالنظر إلى الآخرين من الأعلى إلى أسفل. وبينما كانوا يعبرون المسافة التي تفصلهم عن المسكن الكبير، لاحظت أليثيا أنه يسدّد إليها نظرات خاطفة، محاولًا أن يستشفّ دورها في التمثيليّة من خلال حركاتها وثيابها.

- هل الآنسة سكرتيرة عندكم يا سيّدي؟ - سأل دون أن ينزع أنظاره عنها.

- الآنسة مديرتي. - رد بارغاس.

استحالت خُيَلاء الخادم إلى تعبيرٍ ضامرٍ عن المذلّة يستحقّ أن يوضع في إطار لوحة. زمَّ شفتيه وألصق عينيه بحذائه حتّى النهاية. وكان الباب الرئيس ينفتح على بهوٍ كبير رخاميّ البلاط، تنطلق منه السلالم والممرّات. تبعا كبير الخدم إلى صالة كبيرة كانت تنتظرهما فيها امرأةٌ في أواسط عمرها، موليةً ظهرها إلى الباب ترنو إلى الحديقة المركزيّة تحت المطر، فالتفتت نحوهما ما إن

أحسّت بدخولهما، وتوجّهت إليهما بابتسامة متجمّدة. أغلق كبيرُ الخدمِ البابَ خلفهما وانصرف ليستمتع بحيرته الزائلة.

- أنا ماريانا سيدو، السكرتيرة الشخصيّة للدون ڤايس.

- بارغاس من المباحث العامّة. وزميلتي الآنسة غريس.

أخذت ماريانا وقتها في تصوير الفتاة شعاعيًّا بنظرةٍ صارمة. بدأت من وجهها، مرورًا بأحمر الشفاه. ثمّ نزلت إلى تصميم اللباس وانتهت بالحذاء، الذي خصّصت له ابتسامةً تتراوح بين الشفقة والتقزّز، وسرعان ما دفنت البسمة تحت واقع الشِدّة والحزم اللذين يقتضيهما الظرف الراهن. أشارت إليهما بالجلوس، فجلسا على أريكة جلديّة، واختارت ماريانا كرسيًّا وقرّبته إلى الطاولة الصغيرة التي كان عليها إناء شايّ ساخن وثلاثة فناجين، وجعلت تملأها. عانت أليثيا الابتسامة المركّبة التي تختبئ خلفها السيدة ماريانا، ففكرت في أن حارسة ڤايس الأبديّة يرشح منها ضياءٌ خبيثٌ يقع في منتصف المسافة ما بين العرّابة الجنّيّة والسرعوف النهم.

- كيف بإمكاني مساعدتكما؟ لقد تحدّثتُ مع زملائكما كثيرًا في الأيّام الأخيرة حتّى لم أعد أعرف إن بقي هناك ما أقوله.

- نشكركِ على صبركِ سيّدة ماريانا. نحن نتفهّم صعوبة هذه اللحظات بالنسبة إلى العائلة وحضرتكِ. - ارتجلت أليثيا.

هزّت ماريانا رأسها بما ينمّ عن صبرٍ جميل وابتسامةٍ جليديّة، وملمح خادمةٍ مخلصة مدروسٍ بإتقان. إلّا أنّ عينيها كانتا تشيان بحنقٍ لأنّها مضطرةٌ للتعامل مع مرؤوسين عديمي القيمة. فالطريقة التي كانت توجّه بها أنظارها إلى بارغاس أوّلًا، مُهْمِلَةً أليثيا، تعبّر عن جرعة احتقارٍ إضافيّة. قرّرت أليثيا أن تستمع، وأن تتيح شرف المبادرة لبارغاس الذي فطن إلى ذلك مباشرة.

- سيّدة ماريانا، يتّضح من محضر إفادتكِ التي تقدَّمتِ بها للشرطة أنكِ أنتِ التي أبلغتِ السلطات باختفاء الدون ماوريسيو ڤايس...

أومأت السكرتيرة بنعم.

- في يوم الحفلة، أعطى الدون ماوريسيو إجازة لكثيرٍ من الموظّفين الثابتين. فاغتنمتُ الفرصة للذهاب إلى مدريد لزيارة ابنتي بالمعموديّة وقضاء النهار معها. وفي اليوم التالي، عدتُ في ساعات الصباح الأولى، مع أن الدون ماوريسيو لم يخبرني أنّه في حاجة إليّ.

عدتُ حوالي الثامنة، وبدأتُ بتحضير مراسلاته وأجندة مواعيده مثلما أفعل كلّ يوم. صعدتُ إلى مكتبه في التاسعة ورأيتُ أنّ السيّد الوزير لم يكن موجودًا. بعد قليل، قالت لي إحدى الخادمات إنّ مرثيديس، ابنة الوزير، روت لها أنّ والدها انطلق بالسيّارة في باكر الصباح مع السيّد بيثنتي كارمونا، كبير مرافقيه. بدا لي الأمر غريبًا، لأنّني إذ راجعتُ الأجندة رأيتُ أنّ الدون ماوريسيو كان قد أضاف بخطّ يده لقاءً غير رسميّ في ذالك الصباح عند العاشرة، هنا، في فيلا مرثيديس، مع المدير التجاريّ لـ أريادنا، بابلو كاسكوس.

- أريادنا؟ - سألها بارغاس.

- أريادنا هو اسم دار النشر التي يمتلكها الدون ماوريسيو - أوضحت السكرتيرة.

- هذا التفصيل لا يوجد في إفادتكِ لدى الشرطة - قالت أليثيا.

- عفوًا؟

- اللقاء الذي رتّبه الدون ماوريسيو بنفسه في ذلك الصباح. لم تذكريه حضرتكِ في محضر الشرطة. هل لي أن أسألكِ عن السبب؟

ابتسمت لها السيّدة ماريانا بطريقة كريهة كما لو أنّ السؤال بدا لها سوقيًّا.

- بما أنّ اللقاء لم يُجرَ، لم يبدُ لي مهمًّا. هل كان يجدر بي أن أذكره؟

- لقد ذكرتِه للتوّ حضرتك، وهذا ما يهمّ. - لطّف بارغاس الأجواء بأسلوب مهذّب - من المستحيل أن يتذكّر المرء كلّ التفاصيل، وهذا ما يجعلنا نستغلّ لطفكِ ونلح كثيرًا. تفضّلي، تابعي أرجوكِ، سيّدة ماريانا.

تقبّلتْ سكرتيرة الوزير أعذار بارغاس وتابعت، على أنّها تجاهلت وجود أليثيا كليًّا، ناظرةً إلى الرجل فقط.

- كما قلتُ، بدا لي من الغريب أنّ الوزير بتغيّب من دون أن يحيطني علمًا. استعلمتُ من الخادمات فتبيّن لي أنّ السيّد الوزير على ما يبدو لم ينم في غرفته وأنّه قضى الليلة في مكتبه.

- حضرتكِ تقضين الليل هنا، في المسكن الكبير؟ - قاطعتها أليثيا.

شعرت السيّدة ماريانا بالإهانة، فهزّت رأسها نافيةً وزمّت شفتيها.

- كلا بالتأكيد.

- المعذرة. تابعي من فضلكِ.

تأفّفت سكرتيرة ڤايس نافدة الصبر.

- بعد قليل، حوالي التاسعة، أعلمني السيّد ريبويلتا، مسؤول الأمن في البيت، أنّه لم يُبلَغ مسبقًا بأنّ السيّد الوزير وبيثنتي كارمونا رتّبا للخروج إلى مكانٍ ما في ذلك الصباح، وبكلّ حال فإنّ مغادرتهما معًا بدون مرافقةٍ إضافيّة كانت خارجة عن المألوف كليًّا. وبناء على طلبٍ منّي، استعلم السيّد ريبويلتا من الموظّفين في مكتب الوزير أوّلًا ثمّ اتّصل بوزارة الداخليّة. لم يكن أحدٌ يعرف شيئًا عن الدون ماوريسيو، لكنّهم قالوا لنا إنّهم سيخبروننا حالما يحدّدون موقعه. مرّ نصف ساعة ولمّا نتلقَّ أي نبأ. فجاءت إليّ حينذاك مرثيديس، ابنة الوزير. كانت تبكي، وحين سألتها عن السبب، قالت لي إنّ والدها ذهب ولن يعود أبدًا...

- هل قالت مرثيديس ما الذي يجعلها تعتقد ذلك؟ - سأل بارغاس.

رفعت ماريانا كتفيها نافيةً.

- وماذا فعلتِ حينها؟

- اتّصلتُ بالإدارة العامّة لوزارة الداخليّة وتحدّثتُ مع الدون خيسوس مورينو أوّلًا ومع المدير العام لجهاز الشرطة بالتالي، السيد خيل دي بارتيرا. والبقيّة، تعرفونها.

- وأشرتِ في تلك اللحظة إلى الرسائل مجهولة المصدر التي كان الوزير يتلقّاها.

سكتت السيّدة ماريانا لحظة.

- أجل. ذُكِرَ الموضوعُ في أثناء المكالمة مع السيّد خيل دي بارتيرا ومرؤوسه، أحدهم يدعى غارثيا...

- غارثيا نوباليس. - أكملها بارغاس.

فأومأت السكرتيرة بنعم.

- الشرطة، بطبيعة الحال، كانت على علم مسبق بوجود تلك الرسائل ولديها نسخة منها منذ شهور. وشاءت الصدفة أنّني وجدتُ في مكتب الوزير الملفَّ الذي كان قد حفظ فيه الرسائل، بينما كنت أتحقّق من أجندته في ذلك الصباح.

- كنتِ تعلمين أنّه كان يحفظها؟ - سألتها أليثيا.

هزّت السيّدة ماريانا رأسها بلا.

- كنت أظنّ أنّه أتلفها بعد أن أطلع الشرطة عليها من أجل التحقيقات عقب حادثة أكاديميّة الفنون الجميلة، لكنّي اكتشفتُ أنّي مخطئة، وأنّ الدون ماوريسيو كان ما يزال يعود إليها. وقد أحطتُ مدراءكم علمًا بهذا.

- لأيّ سببٍ تعتقدين أنّ الدون ماوريسيو تأخّر كثيرًا في إبلاغ الشرطة أو أجهزة الأمن بوجود تلك الرسائل؟ - سألت أليثيا.

أزاحت ماريانا عينيها عن بارغاس وحطّتهما بكلّ ما أوتيت من قسوةٍ على أليثيا.

- يا آنسة، عليكِ أن تفهمي أنّ سجلّ المراسلات التي تتلقّاها شخصيّة مهمّة بمنزلة الدون ماوريسيو هائل جدّا. عدد لا يمكن حصره من الأشخاص والمؤسسات يتوجهون إلى الوزير، وما أكثرها تلك الرسائل الغريبة أو الشاذّة التي أرميها في السلة كل يوم ولا أطلِعُ الوزير عليها حتى.

- لكنكِ لم ترمِ تلك الرسائل.

- لا.

- هل كنتِ تعرفين شخصًا معيّنًا حدّدته الشرطة كمشتَبه أوّل في ضلوعه بإرسال تلك الرسائل، يدعى سيباستيان سالغادو؟

- لا، طبعًا لا. - اوجزت السكرتيرة.

- لكنّكِ تعرفين بوجوده. - ألحّت أليثيا.

- أجل. أذكره عندما طلب الوزير العفو من أجله قبل أشهر؛ وعندما أعلمتنا الشرطة بنتائج التحقيقات حول تلك الرسائل.

- بالتأكيد، ولكنْ قبل كلّ هذا، هل تذكرين أنّكِ سمعتِ الدون ماوريسيو يورد اسم سالغادر في مناسبة ما؟ منذ سنوات مثلًا؟

مرّرت السيّدة ماريانا فترة صمت طويلة.

- احتمالٌ وارد. لستُ متأكدة.

- هل من المحتمل أنّه أورد اسمه؟ - ضغطت أليثيا.

- لا أدري. ربّما نعم. أظنّ ذلك.

- وهذا إن حدث، فقد حدث في....؟

- مارس 1948.

قطّبت أليثيا جبينها، مظهرةً اندهاشها.

- تذكرين التاريخ بالضبط ولستِ متأكدة من أن الوزير ذكر اسم سالغادو؟ - تتبّعتْها.

احمرّ وجه ماريانا.

- في مارس عام 1948، طلب منّي الدون ماوريسيو ترتيب لقاء غير رسميّ مع خليفته في إدارة سجن مونتويك، لويس بوليا.

- ما الغاية من اللقاء؟

- فهمتُ حينها أنه لقاء ودّيّ.

- وكنتِ حاضرة في ذلك اللقاء، الودّيّ على حدّ وصفكِ؟

- في بعض لحظاته فقط. فالمحادثة كانت خاصّة.

- ولكنْ ربّما تسنّت لكِ الفرصة لسماع بعض ما دار بينهما. عن طريق الصدفة. بدخولكِ أو خروجكِ من الغرفة... وأنتِ تحملين لهما القهوة... ربّما من مكتبكِ إلى مدخل مكتب الدون ماوريسيو...

- لا يعجبني ابدًا ما تلمحين إليه يا آنسة.

- أيُّ شيءٍ تستطيعين أن تفيدينا به سيساعدنا في العثور على الوزير، سيّدة ماريانا. - قال بارغاس - أرجوكِ.

تردّدت السكرتيرة.

- أذكر أنّ الدون ماوريسيو سأل السيّد بوليا عن بعض المساجين الذي كانوا موجودين خلال فترة إدارته. كان يريد معرفة إذا ما زالوا في السجن، أم أُفرِجَ عنهم، أم نُقِلوا أم ماتوا. لم يوضِّح سبب اهتمامه.

- هل تذكرين أحد تلك الأسماء التي جاء الوزير على ذِكرها؟

- كانت كثيرة. وقد مرّ وقتٌ طويل.

- كان سالغادو من بينها؟

- أجل، أعتقد ذلك.

- هل تذكرين أي اسم آخر؟

- الوحيد الذي أذكره جيّدًا هو مارتين. دافيد مارتين.

تبادل بارغاس وأليثيا نظرةً، ثمّ سجل الرجُل الملاحظةَ في مفكّرته.

- اسمٌ آخر؟

- ربما كان بينهم كنيةٌ فرنسيّة أو أجنبيّة. لا أذكر. سبق أن قلتُ لكما إنّ أعوامًا كثيرة مرّت. ما أهميّة كل هذا الآن؟

- لا ندري يا سيّدة ماريانا. واجبنا يحتّم علينا أن نستكشف كلّ الاحتمالات. عودةً إلى الرسائل: عندما أطلعتِه على أوّل رسالة، هل تذكرين ردّة فعله؟ هل قال الوزير شيئا استدعى انتباهكِ؟

نفت السكرتيرة بهزة من رأسها.

- لم يُدلِ بأيّ تعليقٍ لافت. لم يبدُ أنّه رأى لها أهميّة. سوى أنّه أودعها في دُرجٍ وقال لي في حال وصلتْ رسائلُ أخرى كتلك فلأسلّمها إليه شخصيًّا.

- من دون تفتحيها!

أومأت ماريانا مؤكّدةً.

- هل طلب منكِ الدون ماوريسيو عدم إخبار أحدٍ عن وجود تلك الرسائل؟

- لا داعي لهذا. فليست من عادتي أن أتحدّث بشؤون الدون ماوريسيو مع أشخاصٍ غير ذي صلة.

- هل اعتاد الدون ماوريسيو أن يبوح لكِ بأسراره يا سيّدة ماريانا؟

زمّت سكرتيرة ڤايس شفتيها، لكنّها لم تردّ..

- هل لديك أسئلة أخرى أيّها النقيب؟ - انفجرت متوجّهة إلى بارغاس بصبرٍ نافد.

لم تكترث أليثيا لمحاولة السيّدة ماريانا الهرب. انثنت إلى الأمام لتضع نفسها على خطّ بصرها مباشرةً.

- هل كنتِ تعلمين أنّ الدون ماوريسيو كان يفكّر في التماس العفو لسالغادو من قائد الدولة؟ - سألتها.

نظرت السكرتيرة إليها من رأسها حتى قدميها، من دون جهدٍ تبذله لإخفاء النفور والبغض اللذين تثيرهما أليثيا فيها. بحثت عن نظرة مؤازرة من بارغاس لكنّه غرس عينيه في مفكرته.

- كنتُ أعلم طبعًا.

- ولم يفاجئكِ ذلك؟

- ولماذا كان عليّ أن أفاجأ؟

- هل أخبركِ السبب الذي قرّر على أساسه أن يُقدِم على تلك الخطوة؟

- لأسبابٍ إنسانيّة. كان قد عرف أنّ سيباستيان سالغادو مريضٌ في الرمق الأخير. لم يشأ له الموت بالحبس، لعلّه يزور أقاربه ويتوفّى بين أفراد أسرته.

-استنادًا إلى تقرير الشرطة، لم تعد لسيباستيان سالغادو أسرة أو أقارب بعد أن قضى عشرين عامًا في السجن. - ارتجلت أليثيا.

- الدون ماوريسيو مناصرٌ متحمّسٌ للمصالحة الوطنيّة سعيًا لرتق جراح الماضي. ربّما يصعب على أمثالكِ فهم هذه الأمور، إلّا أنّ هنالك أشخاصًا جُبِلتْ نفوسُهم على الشهامة والرحمة المسيحيّة.

- وبما أنّه كذلك، هل تذكرين، من خلال الأعوام الطويلة التي عملتِ فيها عند الدون ماوريسيو، أنّه التمس عفوًا مشابهًا؟ لواحدٍ من مئات أو آلاف السجناء السياسيّين الذين قضوا إداناتهم في السجن الذي أداره عدّة أعوام؟

استلّت السيّدة ماريانا ابتسامةً حادّةً تبتر كالسكّين المسمومة.

- كلا.

تبادل بارغاس وأليثيا نظرة خاطفة. فأفهمها أن تمرِّر هذا التفصيل.

كان من الواضح أنّهما لن يصلا إلى أيّ مبتغى باتّباع ذلك المسار.

قدّمت أليثيا جذعها مرّة أخرى نحو ماريانا واصطادت نظرتها المُحجِمَة من جديد.

- أوشكنا على النهاية يا سيّدة ماريانا. شكرًا على رحابة صدركِ.

بما يتعلّق بموعد الوزير الذي تحدّثتِ عنه قبل قليل، مع المدير التجاريّ لدار النشر أريادنا...

- السيّد كاسكوس.

- السيد كاسكوس، شكرًا. هل تعلمين بخصوص ماذا؟

حدّقت إليها السيّدة ماريانا كأنّها تريد معالجة العبث الناجم عن ذلك السؤال.

- بخصوص شؤون دار النشر، كما هو مُفتَرض.

- طبعًا. هل يقابل السيد الوزير موظّفين من مؤسّساته الخاصّة في هذا البيت بشكلٍ اعتياديّ؟

لا افهم ما الذي ترمين إليه.

- هل تذكرين متى كانت آخر مرّة جرى فيها لقاءٌ كهذا هنا؟

- حسنًا، في الحقيقة، لا.

- واللقاء بالسيّد كاسكوس، هل رتَّبتِه حضرتك؟

نفت السكرتيرة بإيماءة.

- كما قلت لكما سابقًا، لقد سجّل الموعد بنفسه، بخطّ يده، في الأجندة.

- هل تعرفين إذا كان الدون ماوريسيو يرتِّب لقاءات أو اجتماعات بشكلٍ اعتياديّ؟ «بخطّ يده».

نظرت إليها بفتور.

- كلا.

- ومع ذلك، ضمن إفادتكِ للشرطة، لم تشيري إلى هذا الحدث.

- سبق أن قلت إنّ الأمر لم يبدُ لي مهمًّا. فالسيّد كاسكوس موظّف وعميل لدى الدون ماوريسيو. لم أرَ شيئًا يخالف العادة في أن يرتّبا لقاءً بينهما. ليست المرّة الأولى.

- آه، ليست المرّة الأولى؟

- لا. لقد تلاقيا سابقًا في مناسبات عديدة.

- في هذا البيت؟

- على حدّ علمي، لا.

- هل كنتِ حضرتكِ من رتّب تلك اللقاءات أم الدون ماوريسيو بنفسه؟

- لا أذكر. عليَّ أن أراجع ملاحظاتي. ما الذي يهمّ إن كنت أنا من رتّبها أم هو؟

- المعذرة على الإلحاح، ولكنْ هل قال لكِ السيّد كاسكوس عمّا يريد أن يحدّث الوزير في ذلك الصباح عندما حضر إلى الاجتماع؟

فكّرت السيّدة ماريانا في السؤال قليلًا.

- لا. ففي تلك اللحظة، كان الهاجس الأكبر أن نجد الوزير. لم يخطر في بالي أنّ المسائل المستعجلة مع موظّف من مستوى متوسّط ستكون أولويّة.

- هل السيّد كاسكوس موظّفٌ من مستوى متوسّط؟ - سألت أليثيا.

- أجل.

- إذا أردنا أن نفهم الأمر ونعدّه نقطةً مرجعيّة، ما مستواكِ أنتِ يا سيدة ماريانا؟

نعر بارغاس أليثيا نعرة خفيفة بقدمه. نهضت السكرتيرة باستئذانٍ صارمٍ يوعز بنهاية اللقاء.

- اعذراني إن لم يعد هناك ما يمكنني مساعدتكما فيه... - قالت وهي تشير إلى الباب لمغادرة البيت بدعوة محترمة لكنّها حازمة - فحتّى في غيابه، تتطلّب أعمال الدون ماوريسيو كلّ اهتمامي..

نهض بارغاس عن الأريكة متفَهمًا ومستعدًا للمشي خلف السيّدة ماريانا نحو المخرج. فإذا هو ينتبه أنّ أليثيا ما تزال جالسة في مكانها تتذوّق فنجان الشاي الذي لم يستدعِ انتباهها طوال المحادثة. فاستدار بارغاس والسكرتيرة نحوها.

- في الواقع، هناك شيء أخير بإمكانكِ أن تساعدينا فيه يا سيّدة ماريانا. - قالت أليثيا.

تبعاها في كلّ أرجاء البيت على امتداد متاهة من الممرّات حتى وصلوا إلى سلّمٍ يفضي إلى البرج. كانت السكرتيرة تمشي في طريقها من دون أن تنظر إلى الخلف أو تفتح فمها، مخلّفةً في مرورها هالةً من الحقد يمكن تلمُّسُها في الهواء. فيما كانت أحجبة المطر التي تلامس واجهة المبنى تعرض أجواءً مشؤومة عبْر الستائر والنوافذ الضخمة، لتعزّز إحساسًا بأنّ قصر مرثيديس غارقٌ تحت مياه بحيرة. التقوا خلال ذلك المسير بجيشٍ من الخدم والموظّفين في إمبراطوريّة ڤايس، الذين ما إن رأوا السيّدة ماريانا حتى طأطأوا لها الرؤوس، وتوقّف بعضُهم وتنحّوا جانبًا وانحنوا إجلالًا. شاهد بارغاس وأليثيا هذا الطقس السلطويّ والمراسميّ الذي أدّاهُ خدم الوزير وتابعوه وتبادلا نظرة ذهول كلّما سنحت لهما الفرصة.

عند أسفل السلّم الحلزونيّ المؤدّي إلى مكتب البرج، أخذت السيّدة ماريانا مصباحًا زيتيًّا معلّقًا على الحائط وعدّلت كثافة الشعلة فيه. ثمّ صعدوا مغمورين في تلك الفقاعة الضوئيّة بلون الكهرمان التي كانت تجرّ ظلالهم على الجدران. وحين وصلوا إلى باب المكتب، التفتت السكرتيرة وسدّدت عينيها المسمومتين إلى اليثيا، متجاهلةً بارغاس. فابتسمت لها الفتاة بصفاء نفس ومدّت إليها يدًا. فسلَّمتها السيدة ماريانا المفتاح بفمٍ مزموم.

- لا تلمسا أيّ شيء. اتركا كلّ غرض مثلما وجدتماه. وعندما تنتهيان، أعطيا المفتاح إلى كبير الخدم قبل أن تنصرفا.

- شكرًا جزيلًا سيّدة... - نغَّمَ بارغاس.

لكنّ السيدة ماريانا استدارت من دون أن تردّ ونزلت السلالم حاملةً معها المصباح، لتتركهما في ظلمات المستراح.

- لم يكن للأمور أن تجري أسوأ من ذلك. - صرّح بارغاس - سنرى كم تستغرق السيّدة من الوقت كي تتّصل بغارثيا نوبيلاس ليسلخوا جلدنا، خصوصًا أنتِ.

- أقلّ من دقيقة. - أكّدت أليثيا.

- حدسٌ يقول لي إنّ العمل معكِ سيكون ممتعًا.

- ضوء؟

أخرج بارغاس ولاعته وقرب شعلتها من القفل بحيث يتسنّى لأليثيا إدخال المفتاح. وعندما دار المفتاح في القفل، أصدر مقبض الباب أنينًا معدنيًّا.

- يصيح مثل مصيدة فئران. - شبَّهَ بارغاس.

وعلى ضوء الشعلة، أهدته ألثيا ابتسامةً ماكرةً كان بارغاس سيفضّل ألّا يراها.

- دع كلّ أملٍ أيّها الداخل... - قالت.

نفخ بارغاس على الشعلة ودفع الباب.

(8)

كانت هالةٌ من الضياء الرماديّ تحوم في المكان. والسماواتُ الرصاصّيةُ ودموعُ المطرِ تدمغ النوافذ الضخمة. ولج بارغاس وأليثيا إلى ما بدا كابينةً في مؤخّرة يختٍ فاخر. كان المكتب بيضويّ الشكل. وثمّة مكتبٌ خشبيٌّ نفيسٌ يتسيّد وسط الغرفة؛ تحيط به من كلّ الجهات مكتبةٌ لولبيّةٌ تغطّي جزءًا كبيرًا من الجدران، تبدو متشابكةً في عقدةٍ تصعد نحو منورٍ بلّوريٍّ يسند هامةً البرج. باستثناء قسمٍ واحدٍ من الجدران خالٍ من الكتب، إذ يحتوي على رفوف مواجهة للمكتب الخشبيّ، مليئةٍ بأُطُرٍ صغيرة لعشراتٍ من الصور. يظهر الوجهُ نفسه في كلّ الصور التي صُمِّمتْ بحيث تعرض ما يشبه النشأة الفوتوغرافيّة من الطفولة إلى المراهقة وأوائل سنّ الشباب. فتاةٌ ذات بشرةٍ شاحبة وشعرٍ فاتح ينمو على مرأى الناظر إليها، مُخلِّفةً أثر حياةٍ معروضةٍ بمئة صورةٍ ضوئيّةٍ.

- يبدو أنّ الوزير يحب أحدًا آخر أكثر من حبه لنفسه. - قالت أليثيا.

- توقّف بارغاس لينظر إلى معرض الصور بينما كانت أليثيا تقترب من مكتب ڤايس. أزاحت مقعد الأميرال وجلست عليه. أسندت يديها إلى السطح الجلديّ الذي يغطّءي الخشب وراحت ترنو إلى أرجاء الغرفة.

- كيف يبدو العالم من هناك؟ - سألها بارغاس.

- صغير.

أشعلت أليثيا مصباح المكتب. فاجتاح المكان بريقٌ غباريّ.

فتحت الدُرج الأوّل فوجدت علبةً من خشبٍ مُطَعَّم. دنا بارغاس وجلس على زاوية المكتب.

- إن كان مُرطِّبَ سيجار، فسأحجز لنفسي في أول رحلة متجهة إلى مونتكريستو. - قال.

فتحت أليثيا الحافظة. فارغة. كانت من الداخل مبطَّنةً بمخملٍ كحليّ وفيها شكلٌ مغروفٌ لما بدا أنّه مسدّس ريفولفر. فانحنى بارغاس وتلمَّسَ أطرافها. شمَّ أصابعه وهزّ رأسه.

فتحت أليثيا الدرج الثاني. فوجدت مجموعة من الحافظات المصطفّة بدقّة، كأنّها في معرض عامّ.

- تبدو توابيت صغيرة - قالت.

- أرني الميّت لو سمحتِ - اقترح عليها بارغاس.

ففتحت إحدى تلك الحافظات. كان فيها مكبسًا مصبوغًا بالأسود ومكلّلًا بطربوشٍ متوّجٌ أعلاه بنجمة. سحبته أليثيا وقيَّمت وزنه. نزعت الطربوش ودوَّرت المكبس ببطء من أحد طرفيه. فتلألأ بين يديها قلمٌ من ذهبٍ وبلاتين، بدا أن طائفة من حكماء وصاغة ساهموا في طرقه.

- أهذا قلم فانتوما المسحور؟ - سأل بارغاس.

- تقريبًا. هذا أوّل قلم حبرٍ سائل أنجزت صنعَه شركة مونبلان. - فسّرت أليثيا - عام 1905. قطعَةٌ باهظة الثمن.

- وكيف عرفتِ ذلك - لدى لياندرو قلم مثله.

- لكنّه يليق بكِ أكثر.

أعادت أليثيا القلم إلى حافظته وأغلقت الدُرج - أعرف. وعدني لياندرو بأنّه سيهديه لي عندما أتسرَّح من العمل.

- ومتى سيحدث الأمر؟

- قريبًا جدًّا.

حاولت فتح الدُرج الثالث والأخير فإذا بها تجده مقفلًا. نظرت إلى بارغاس فهزّ رأسه متثاقلًا.

- إذا أردتِ مفتاحه، فانزلي واطلبيه من صديقتكِ السيّدة ماريانا.

- لا أودّ إزعاجها وهي تُصرِّف أعمال الدون ماوريسيو...

- فإذن؟

ظننتُ أنّهم في المباحث يعلّمونكم دروسًا في استعمال القوّة المفرطة.

تنهد بارغاس.

- تنحَّي- أمرها.

قرفص أمام الأدراج وأخرج من سترته مقبضًا عاجيًّا تَبَيَّنَ أنَّه سكّين ذو نصلين.

- لا تظني أنكِ الوحيدة التي تفهم في القِطَعِ النفائس. - قال بارغاس - أعطني قاطعة الورق.

مرّرتها إليه وبدأ رجل الأمن يفكّ القفل بالسكّين، ويستعمل القاطعة لتحريك اللُّسِّين السَّادِ ما بين الدُرج والمكتب.

- حدسي يخبرني بأنّك لا تفعل ذلك للمرّة الأولى. - لاحظت أليثيا.

- هناك مَن يتابع مباريات كرة القدم، وهناك مَن يفكّ الأقفال. لا بدّ للمرء من هواية واحدة على الاقلّ...

تطلَّبت العمليّة قرابة الدقيقتين. وعندما انفكّ القفل، غاص نصل القاطعة في الدرج مُصدِرًا طقطقة معدنيّة. أخرج بارغاس السكين من القفل، من دون أن يُحدِثَ فيه أيّ أثر.

- فولاذ صلب؟ - سالت أليثيا.

طوى بارغاس السكّين بيده الخبيرة إذ أسند رأس الشفرة إلى الأرض، وأعادها إلى جيب سترته الداخليّ.

- في أحد هذه الأيام، ستسمح لي باللعب بهذا الغرض - قالت أليثيا.

- إن تصرَّفتِ بتهذيب. - ردّ بارغاس وهو يفتح الدرج.

نظرا إلى الداخل بتطلّعات كبيرة. فإذا الدرج فارغ.

- لا تقولي لي إنّني خلعتُ مكتب وزير من أجل لا شيء.

لم ترد. قرفصت وتحسَّست الدرج من الداخل، وضربت ببراجم يدها على الجوانب التي تشكّله.

- من سنديان جبّار. - قال بارغاس - لم يعد يُصَنَّع أثاثٌ كهذا...

قطّبت أليثيا جبينها مرتبكة.

- لن نجد شيئًا هنا. - ارتجل بارغاس وهو ينهض - سنحسن صنعًا إن ذهبنا إلى المباحث لنحقِّق في رسائل سالغادو.

تجاهلت أليثيا كلامه. وظلّت تتحسّس داخل الدرج وقاعدة الدرج الذي فوقه. ثمّة فراغٌ يتّسع لإصبعين ما بين عمق الدرج الأعلى والطرف السفليّ للجانبين.

- هلاّ ساعدتني على إخراجه؟ - طلبت أليثيا.

- لم يسعدها خلع القفل، والآن تريد تفكيك المكتب بأكمله. - تمتم بارغاس.

أومأ لها بالتنحّي جانبًا وسحب الدرج كاملًا.

- أرأيتِ؟ لا شيء.

أمسكت أليثيا بالدرج وقلبته. فوجدت ما يشبه الكتاب، ملصوقًا بأسفل القاعدة ومثّبتًا بشريطين عازلين متقاطعين. اقتلعت الشريط بحذر وأخذت الكتاب. فجسّ بارغاس الجانب الصمغيّ من الشريط.

- مُلصَقٌ من فترةٍ قريبة. - قال.

وضعت أليثيا الكتاب على سطح المكتب. وجلست من جديد على المقعد وقرَّبَت الضوء منه. فقرفص بارغاس بجانبها ونظر إليها مستفهمًا.

كان الكتاب بما لا يزيد عن مئتي صفحة تقريبًا، مجلَّدٌ بجلدٍ أسود. لا عنوان على غلافه أو ضلعه. والرمز الوحيد الذي بالإمكان تمييزه هو صورةٌ على شكلٍ لولبيّ، مدقوقة بالذهب على الغلاف. كان النقش يخلق ما يشبه الإيهام البصريّ، بحيث إنّ القارئ إذا أخذ الكتاب بين يديه، تولَّد لديه انطباعٌ بأنّه يرى سلَّمًا حلزونيًّا يهبط إلى بواطن الكتاب.

وعند فتحه، تظهر في صفحاته الثلاث البيضاء الأولى رسومٌ بقلم الرصاص لقِطَع الشطرنج: فيل وبيدق وملكة. كان لتلك القطع ملامح بشريّة غامضة. للملكة عينان سوداوان وبؤبؤان عموديّان، مثل عيون الزواحف. قلبت أليثيا الصفحة فوجدت رسمًا يصرِّح بعنوان العمل:

El Laberinto de los Espíritus VII

Ariadna y el Príncipe Escarlata

Texto e ilustraciones de Víctor Mataix

متاهة الأرواح VII

أريادنا والأمير القرمزيّ

النصّ والرسوم لـ فيكتور ماتايكس

تحت العنوان رسمٌ أنيق على كلا الصفحتين، بالقلم الأسود.

كانت الصورة تعرض مدينةً طغى عليها المظهر الشبحيّ، ولأبنيتها وجوه، والسُّحُب تزحف كالأفاعي بين السطوح. نيران وأعمدة دخان تتصاعد من الطرقات، وصليبٌ كبيرٌ مشتعل يهيمن على المدينة من قمّة جبل محاذٍ. حدّدت أليثيا ملامح برشلونة. غير أنّها كانت برشلونة مختلفة، مدينةٌ استحالت إلى كابوسٍ متوعِّد، من وجهة نظر طفل.

تابعت تقليب الصفحات وتوقّفت عند رسمٍ تظهر فيه كاتدرائيّة ساغرادا فاميليا. كان المبنى في الرسم يبدو وكأنّه حصل على نبضٍ حيويّ، ما جعل الكاتدرائيّة غير المنجزة تجرّ خطواتها المتثاقلة مثل التنّين، بأبراجها الأربعة المترنّحة التي تكوّن واجهة الميلاد تحت سماواتٍ من كبريت تؤول إلى رؤوسٍ تبصق النيران.

- هل رأيتِ شيئًا مشابهًا من قبل؟ - سألها بارغاس.

هزّت رأسها نافيةً. غرقت قرابة الدقيقتين في الكون الغريب الذي تعرضه تلك الصفحات. صورٌ لسيرك متجوّل ومسكونٍ بمخلوقات تكره النور، ومقبرة شاسعة تنتصب بحشدٍ من أضرحةٍ وأرواحٍ تجتاز الغيوم في صعودها إلى السماء، وسفينةٍ راسيةٍ على ضفّة شاطئٍ يغصّ بحطام الغرق وموجةٍ عاتيةٍ مشحونةٍ بجثثٍ مدفونةٍ تحت سطح المياه. من يهيمن على برشلونة بصورتها الخرافيّة المرعبة تلك، يتمعّن الشوارع المحتشدة تحت قدميه من أعلى قبّة الكاتدرائيّة؟ طيفٌ مسربلٌ برداءٍ يتمايل مع الريح، وجهُ ملاكٍ عيناه كعيون الذئاب: الأمير القرمزيّ.

أعلقت أليثيا الكتاب، وقد ثملت من هول تلك الصور الساطعة بكلّ شرٍّ وغرابة. وحينذاك أدركت بأنّ ما تحمله بين يدها، كان مجرّد حكاية للأطفال.

(9)

وبينما كانا ينزلان سلالم البرج، أمسكها بارغاس من ذراعها برفق وأوقفها.

- ينبغي إعلام السيّدة ماريانا بأنّنا وجدنا هذا الكتاب وأنّنا سنأخذه معنا.

سدّدت أليثيا عينيها على يد بارغاس، فسحبها الأخير بإيماءة اعتذار.

- كنتُ قد فهمتُ بأنها لا تريد منّا مزيدًا من الإزعاج.

- نورد أمر الكتاب في المحضر على الأقلّ...

رمته أليثيا بنظرة حازمة. فظنّ بارغاس أنّ تينك العينين الزرقاوين، تحت الظلام، تلمعان كعملةٍ غائصة في قعر مستنقع، ما يضفي على صاحبتهما هيئةً شبحيّة ومريبة.

- أقصد، كدليل. - حدّد رجل الأمن.

- دليل ماذا؟ - جاء صوتُها حادًّا باترًا.

- الدليل الذي تعثر عليه الشرطة خلال التحقيق...

- لكنّ الشرطة عمليًّا لم تعثر على هذا الدليل. لقد وجدتُه أنا.

فيما اكتفيتَ أنت بأداء دور الحدّاد.

- اسمعي...

استأنفت اليثيا نزول السلّم لتتركه قبل أن يكمل كلامه. فتبعها بارغاس بخطًى عمياء.

- أليثيا...

وعندما وصلا إلى الحديقة، استقبلهما مطرٌ ناعم يعلق بالثياب كمسحوق الزجاج. أعارتهما إحدى الخادمات مظلّةً، لم يتسنَّ لبارغاس أن يفتحها فإذا بأليثيا تتابع سيرها نحو المرأب من دون أن تنتظره. فسارع إليها رجل الأمن واستطاع أن يغطيها بالمظلة.

- تفضلي. - قال.

انتبه أنها تعرج بخفّة وتعضّ على شفتيها.

- ما الذي يحدث لكِ؟

- لا شيء. جرحٌ قديم. الرطوبة لا تساعد. ليس له أهميّة.

- إن أردتِ، انتظريني هنا لآتي إليكِ بالسيّارة من المرأب - اقترح بارغاس.

فبدت أليثيا مرّة ثانية وكأنّها لا تسمع كلامه. أرسلت ناظريها إلى البعيد لتلمح سرابًا لمبنى يحجبه المطر بين الأشجار.

- والآن؟ - سألها.

مشت في ذلك الاتجاه تاركَةً إياه وحيدًا وبيده المظلة.

- يا أمَّ الربّ. - غمغم وهو يتبعها من جديد.

وعندما بلغها، اكتفت أليثيا بإشارةٍ في اتجاه ما بدا أنّه حاجز غارق في عمق الحديقة.

- أحدهم كان هناك. - قالت - وكان يراقبنا.

- من عساه يكون؟

توقّفت أليثيا برّهةً وتردَّدت.

- اذهب أنت إلى المرأب. سأعود خلال دقيقة.

- هل أنتِ واثقة؟

أومأت بنعم.

- خذي المظلة على الأقلّ...

وما لبث ينظر إليها وهي تمشي تحت المطر، بعرجٍ طفيف، إلى أن اختفت في الضباب، لتغدو أحد تلك الظلال الكثيرة في الحديقة.

(10)

انفتح دربٌ من صخور بيضاء عند قدميها. وقد نمت الطحالب بين شقوق الصخور. خُيِّل إلى أليثيا أنّها تمشي على شواهد مسروقة من إحدى المقابر. كانت تلج بين أشجار الصفصاف التي تقطر أغصانُها الندى وتلمسها مثل أذرعٍ تسعى إلى الإمساك بها. ومن الجهة الأخرى، تراءى لها هيكلٌ لما ظنّته في الوهلة الأولى حاجزًا، ثم تبيَّن لها عن قرب أنه بمثابة رواق من طراز نيو كلاسيكيّ. وكانت سكك الحديد المصغّرة التي تمرّ في أرجاء المكان تحاذي المبنى، وثمّة رصيف ما يشبه المحطة المبنيّة قبالة المدخل الرئيس تمامًا. اجتازت أليثيا السكة وصعدت العتبات المؤدية إلى الباب الموارب. فيما كان الألم يعتصر خاصرتها مولِّدًا حزازاتٍ جعلتها تتخيّل أنّ سلكًا شائكًا يطوِّق عظامها.

توقّفت بضع لحظات لاستعادة أنفاسها ودفعت الباب، الذي استجاب بأنين طفيف.

وكان أوّل ما خطر ببالها أنّها في صالة رقص كبيرة ومهجورة منذ أعوام. ثمّة خطٌّ من البصمات يتبدّى على حجاب الغبار الذي يكسو الأرضيّة الخشبية المصمّمة بأشكال المعيّنات الهندسيّة تحت نجفتين من الكريستال، متدليتين كأزهارٍ من جليد.

- مرحبا! - ندهت.

سافر صدى صوتها عبْر الصالة من دون أن يلقى جوابًا. وكان خطّ البصمات يضيع في الظلمات. وهناك قد لمحت خزانة زجاج خشبيّة قاتمة اللون مقسّمة على حُجُرات تشبه المحاريب الجنائزيّة التي تشغل الحائط بأكمله. تقدّمت أليثيا بضع خطوات، متتبِّعةً البصمات عند قدميها، لكنّها توقّفت حين أحسّت بأن شيئًا ما يراقبها. برزت نظرةٌ زجاجيّةٌ من الظلّ، مقتطعة من وجهٍ عاجيّ يبتسم بلؤمٍ ورغبةٍ في التحدّي. كانت الدمية شقراء وترتدي فستانًا من حرير أسود. تابعت أليثيا سيرها فاكتشفت أنّ الدمية لم تكن بمفردها. فكلّ محراب كان يحتوي على كائنٍ بهندامٍ راقٍ. بدا لها أنّها رأت أكثر من مئة دمية، وجميعها تبتسم وتنظر إليها من دون أن يرفَّ لها رمش. أحجامها بحجم طفلة صغيرة، وكان الرقيّ في تصميم تفاصيلها الدقيقة والممتازة واضحًا حتّى في الظلام، من لمعان الأظفار مرورًا بنصاعة الأسنان البارزة من بين شفاه مرسومة، إلى حدقات العيون.

- من تكونين حضرتك؟

أتى الصوت من آخر الصالة. شحذت أليثيا أبصارها لتميِّزَ طيفًا يجلس على كرسيّ في إحدى الزوايا.

- أنا أليثيا. أليثيا غريس. لم أشأ إخافتك.

نهض الطيف واقترب ببطء. وتقدّم من الظلام إلى خطوط الضوء الواهن المتسرّب من المدخل، فعرفت أليثيا وجه الفتاة التي تظهر في مجموعة الصور في مكتب ڤايس.

- لديكِ مجموعة دمًى رائعة.

- لا تعجب أحدًا. والدي يقول إنّها تبدو أشباحًا. ومعظم الناس تفزع منها.

- وهذا ما يجعلها تعجبني. - قالت أليثيا.

تمعّنت مرثيديس بذلك الحضور الغريب. وظنّت لوهلة أنّ المرأة تتقاسم سماتٍ كثيرةً مع الدمى الموجودة عندها، كما لو أنّ إحداها لم تتجمّد كليًّا في طفولةٍ عاجيّة وشبّتَ لتصبح امرأةً بلحمٍ وعظمٍ وظلّ.

ابتسمت لها أليثيا ومدّت إليها يدًا.

- مرثيديس، أليس كذلك؟

أومأت الفتاة وصافحتها. كان شيءٌ في نظرات أليثيا الثاقبة والباردة يُطمئِن قلب الفتاة ويغمرها بالثقة. حَسَبَت أنّها في أواخر العشرينات، ولكنّها شأنها شأن الدمى، كلّما نظرتْ إليها من مسافة قريبة بات من الصعب تحديد عمرها. خصرها نحيل، ولباسها قريب من النوع التي يروق لمرثيديس أن ترتديها في سرِّها، لو لم تكن متأكدة من أنّ أبيها أو المربّية إيرينه لن يسمحا لها بذلك أبدًا. يفوح منها عطرٌ عصيّ على التعريف، يسحر الرجال - على حدّ علم ابنة ڤايس - ويدفعهم للتصرّف كالأطفال، أو كالعُجَّز، فيُغمى عليهم إذا مرّت بقربهم. لقد رأتها رفقة ذلك الشرطيّ تدخل البيت. على أنّ الفكرة، التي أوحت لرجال المناصب العليا بأنّ هذا الكائن قادر على إيجاد أبيها، بدت لها مبهمةً بقدر ما هي مبعث أمل.

- جئتِ حضرتكِ من أجل والدي، صحيح؟

أومأت أليثيا بنعم.

- لا تخاطبيني برسميّة. فأنا لست أكبر منكِ سنًّا بأعوام كثيرة.

رفعت مرثيديس كتفيها.

- لقد تربَّيتُ على التصرُّف كابنة لعائلة مهذّبة، وها أنا ذا!

ضحكت مرثيديس بصوت خفيض، بما ينمّ عن حياء. ففكّرت أليثيا أنّ الفتاة ليست معتادة على الضحك وأنّها تضحك بالطريقة نفسها التي ترى العالم من خلالها، كطفلة متخفّية في جسد امرأة، أو كطفلةٍ عالقة طوال حياتها في حكاية للصغار حافلةٍ بالخدم والدمى المحشوّة بالبلور.

- هل حضرتك شرطيّة - شيءٌ كهذا.

- لا يبدو.

- لا أحد يبدو على حقيقته.

تمعّنت مرثيديس بكلماتها.

- لا أتصوّر ذلك.

- هل بوسعنا أن نجلس؟ - سألتها أليثيا.

- بالطبع...

سارعت مرثيديس لتَدَبُّر كرسيّين ووضعتهما تحت خطّ الضوء الآتي من المدخل. فجلست أليثيا بحذر. وسرعان ما اكتشفت الفتاةُ الألمَ على وجهها فساعدتها. ابتسمت لها أليثيا بما ينمّ عن هوان، وحبّاتُ العرق تحجب جبينها. تردّدت مرثيديس في البداية، ثمّ مسحت العرق عنها بمنديلٍ كان في جيبها. وبينما كانت تفعل ذلك، لاحظت أنّ لأليثيا بشرةً مصقولةً وشاحبة تثير الرغبةَ في تلمُّسِها بالأصابع. تجاهلت الفكرة وأحسّت أنها تتضرّج خجلًا من دون أن تعرف السبب.

- هل أنتِ بخير؟ - سألت.

أومأت بنعم - ما الذي يحدث لكِ؟

- إصابةٌ قديمة. منذ أن كنت طفلة. تؤلمني أحيانًا، إذا أمطرت أو ارتفعت نسبة الرطوبة.

- حادث؟

- شيءٌ كهذا.

- يؤسفني.

- أشياء اعتياديّة. هل يغضبكِ إن طرحتُ عليك بعض الأسئلة؟

امتلأت عينا الصغيرة بالاضطراب.

- عن والدي هزّت أليثيا رأسها تأكيدًا.

- هل ستعثرين عليه؟

- سأحاول.

نظرت إليها مرثيديس بقلق.

- لن تتمكّن الشرطة من إيجاده. حضرتكِ فقط ستجدينه.

- لماذا تقولين ذلك؟

طأطأت ابنة ڤايس رأسها.

- أعتقد أنّه لا يريد لأحدٍ أن يعثر عليه.

- وما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟

- لا أدري... - أجابت مطأطئة الرأس دومًا.

- قالت السيدة ماريانا إنّكِ في الصباح الذي غادر فيه والدكِ قلتِ بأنّه ذهب ولن يعود أبدًا...

- هذا صحيح.

- هل قال لكِ والدك شيئًا في المساء السابق جعلكِ تفكّرين في هذا؟

- لا أدري.

- هل تحدّثتِ إليه في سهرة الحفلة؟
- صعدتُ إليه في مكتبه. لأنّه لم ينزل إلى الحفلة، ولو لحظة واحدة. كان مع بيثنتي.
- بيثنتي كارمونا، مرافقه الشخصيّ؟
- أجل. كان حزينًا. غريب الأطوار.
- هل أوضح لكِ السبب؟
- لا. والدي لا يقول لي إلّا ما يظنّ أنّي أودّ سماعه.
ضحكت أليثيا.
- كل الاباء يفعلون الشيء ذاته.
- حتّى أبوكِ؟
اكتفت أليثيا بابتسامة، وتراجعت مرثيديس عن إلحاحها.
- أذكر أنّه كان ينظر في كتاب، عندما دخلتُ إلى مكتبه.
- هل تذكرين إن كان غلاف الكتاب أسود؟
فوجئت مرثيديس.
- أعتقد ذلك. سألته ما هو فقال إنّ قراءته لا تناسب الصغيرات.
بدا لي أنّه لم يشأ أن أراه. لعلّه كتابٌ محظور.
- هل لدى والدكِ كتبٌ محظورة؟
أومأت مرثيديس، مبرزةً حياءها من جديد.
- في إحدى خزانات مكتبه في الوزارة. لكنّه لا يعلم أنّني أعلم.
- حسنًا، ومن جهتي لن يعلم أبدًا. قولي لي، هل يصحبكِ والدكِ غالبًا إلى مكتبه في الوزارة؟
هزت البنت رأسها نفيا.
- ذهبتُ إلى هناك مرّتين فقط.
- وإلى المدينة؟
- مدريد؟
- أجل، مدريد.
- لدي هنا كلّ ما أحتاج إليه. - قالت عن غير اقتناع كامل.
- لعلّنا نستطيع الذهاب معًا إلى المدينة يومًا ما. نتنزّه. أو ندخل السينما. هل تحبّين السينما؟
عضّت مرثيدس شفتها.

- لم أدخلها إطلاقًا. لكنّي أودّ ذلك. أودّ دخولها معكِ، هذا ما أقصده.

ربّتت أليثيا على يدها برفق، ومنحتها أفضل ابتسامة لديها.

- سنذهب لنشاهد فيلمًا لكاري غرانت.

- لا أعرف من يكون.

- الرجل المثالي - لماذا؟

- لأنّه غير موجود.

ضحكت مرثيديس مجدّدًا بتلك الضحكة الحبيسة والكئيبة.

- ماذا قال لكِ والدكِ ذلك المساء؟ هل تذكرين شيئًا آخر؟

- ليس كثيرًا. قال إنّه يحبّني. وسيحبّني دائمًا «مهما حدث».

- وماذا بعد؟

- كان غاضبًا. تمنّى لي ليلة سعيدة ثمّ بقي هناك يتكلّم مع بيثنتي.

- هل سمعتِ شيئًا ممّا دار بينهما؟ - سألتها أليثيا.

- لا يجدر بنا التنصُّت من خلف الأبواب...

- لولا التنصُّت ما استطعنا سماع أفضل المحادثات. لطالما فكّرتُ في الأمر كذلك. - ارتجلت أليثيا.

ابتسمت البنت بهيئةٍ ماكرة.

- كان أبي متيقّنًا من أنّ أحدًا دخل المكتب. أثناء الحفلة.

- هل قال بمن يشكّ؟

- لا.

- وماذا بعد؟ شيءٌ آخر لفت انتباهكِ؟

- شيءٌ ما عن لائحة. قال إنّ الرجل لديه لائحة. لا أعرف من يكون.

- هل تعرفين أيّ لائحةٍ يقصد؟

- لا أعرف. أرقام، على ما أعتقد. أودّ أن أقدِّم لكِ المساعدة، لكنّ هذا كلّ ما استطعتُ سماعه.

- لكنّكِ ساعدتِني كثيرًا يا مرثيديس.

- حقًّا!

أومأت أليثيا وداعبت خدّها. لم يداعب أحُد مرثيديس هكذا منذ أن ألقي المرضُ أمَّها على السرير قبل عشرة أعوام وغدت عظام يديها معوجَّة كالصنّارة.

- إلامَ برأيكِ ألمح والدكِ بقوله «مهما حدث»؟

- لا أدري...

- هل سمعته يقولها من قبل؟

طغى الصمت على مرثيديس وما زالت تحدِّق إليها.

- مرثيديس؟

- لا يروقني التحدّث بالموضوع.

- أيّ موضوع.

- والدي قال لي ألّا أتحدث بالموضوع مع أحد.

انحنت أليثيا نحوها وأمسكت يدها. كانت الفتاة ترتجف.

- لكنّني لستُ أيَّ أحد. معي بإمكانكِ أن تتحدّثي...

- إن عرف والدي أنّني بحت لكِ...

- لن يعرف أبدًا.

- هلا أقسمتِ؟

- أقسِم لكِ. فلأمت إن أنا كذبتُ.

- لا تقولي هكذا.

- احكي يا مرثيديس. سيبقى الأمر سرًّا بيننا. وعدٌ منّي.

نظرت إليها مرثيديس بعينين تحترقان دمعًا. فشدّت أليثيا على يدها.

- كان عمري ثمانية أعوام أو تسعة. حدث الأمر في مدريد، في مدرسة دامس نيغراس. كان رجال مرافقة والدي يأتون لاصطحابي كلّ عصر، عندما ننتهي من الدروس. وكنّا نحن الصغيرات ننتظر في باحة السرو توافد آبائنا أو العاملين في بيوتنا. في الخامسة والنصف. كان هناك سيّدة تأتي غالبًا. تبقى دومًا خلف الجانب الآخر من البوابة تنظر إليّ. وتبتسم لي أحيانًا. لا أعرف من تكون. لكنّها كانت تتسمّر هناك كلّ عصر. تشير إليّ للاقتراب منها، لكنّي أخاف. وذات مرّة، تأخّرت المرافقة في المجيء. إذ حدث شيء ما في وسط مدريد. أذكر أنّ رفيقاتي كنّ يركبن في سيّارات أهلهنّ إلى أن بقيتُ بمفردي، أنتظر.

لا أعرف كيف وقع الأمر، ولكن بينما كانت إحدى السيّارات تخرج من البوّابة، تسلّلت السيّدة واقتربت منّي وجثت على ركبتيها أمامي. عانقتني وأجهشت باكيةً. تقبّلني. ذُعِرتُ منها كثيرًا وأخذتُ بالصراخ. فخرجت الراهبات. وفي تلك اللحظة، وصلت المرافقة. أذكر أنّ رجلين أمسكا بها من ذراعيها وسحلاها بعيدًا. والمرأة تصيح وتبكي. وأذكر أنّ أحد حرّاس والدي لكم وجهها بقبضته. فأخرجت شيئا كانت تخبئه في محفظتها. مسدس. تنحى الرجال فهُرِعتُ إلي. نازفة الوجه. عانقتني وقالت لي إنّها تحبّني راجيةً ألا أنساها..

- وماذا حدث بعد ذلك؟

مضغت مرثيديس ريقها.

- حدث أن بيثنتي اقترب منها وأطلق النار على رأسها. فهوت المرأة عند قدميَّ مضرّجَةً بدمائها. أذكر ذلك لأنّ إحدى الراهبات حملتني بين ذراعيها ونزعت عني حذائي الذي تلطّخ بدماء المرأة. ثمّ سلّمتني لأحد رجال والدي، فحملني إلى السيّارة مع بيثنتي. شغّل بيثنتي المحرّك وانطلقنا بعجالة، لكنّي استطعتُ أن أرى من النافذة أنّ رجلين من المرافقة كانا يسحلان جثّة السيّدة...

بحثت مرثيديس عن نظرات أليثيا، فعانقتها.

- في ذلك اليوم، قال لي والدي إنّها امرأة مجنونة. وإنّ الشرطة اعتقلتها غير مرّة بينما كانت تحاول اختطاف الأطفال من مدارس مدريد. قال لي إنّه لن يسمح أن يقع لي أيّ مكروه، وإنّه ما من داعٍ للقلق. قال لي ألا أخبر أحدًا بما جرى. مهما حدث. ومنذئذ لم أعد إلى المدرسة. وأصبحتْ المربّية إيرينه معلّمتي، وحصلتُ على ما تبقّى من تعليم هنا في هذا البيت...

تركتها أليثيا تبكي في حضنها وداعبت شعرها. وبينما كانت الفتاة غارقة في هدوء يائس، سُمِعَ مزمار سيّارة بارغاس في البعيد. فنهضت.

- عليَّ أن أذهب الآن يا مرثيديس. لكنّي سأعود. وسنقوم بتلك النزهة في مدريد، وسنذهب إلى السينما. ولكن، عديني بأنّك ستكونين على ما يرام حتّى ذلك الحين.

سحبت مرثيديس يديها وأومأت بنعم.

- هل ستعثرين على والدي؟

- أعدكِ بذلك.

قبّلت جبينها وابتعدت وهي تعرج نحو المخرج. فجلست مرثيديس على الأرض، وذراعاها تحوِّطان ركبتيها، غارقةً في ظلال عالمها عالم الدمى المحطَّم إلى الأبد.

(11)

صبغت الأمطارُ طريق العودة إلى مدريد وساد الصمت. كانت أليثيا تسافر مغمضة العينين، تسند رأسها إلى الزجاج المضبَّب، وذهنُها في مكانٍ يبعد عنها آلاف الأميال. فيما كان بارغاس ينظر إليها بطرف العين، ويرمي الصنّارة هنا وهناك محاولًا إدماجها في محادثةٍ تهدم الفراغ الذي رافقهما منذ أن غادرا فيلا مرثيديس.

- كم كان الحوار صعبًا مع سكرتيرة ڤايس. - ارتجل - كي لا نقول أكثر من ذلك.

- إنّها كالخطّاف. - غمغمت أليثيا بنبرةٍ لا تتّسم بالودّ.

- إن كنتِ تفضّلين، بوسعنا أن نتحدّث عن الطقس. - اقترح بارغاس.

- تمطر. - ردّت - هل من شيء آخر تريد التحدّث فيه؟

- بإمكانكِ أن تروي لي ما حدث هناك في الداخل، في بيت الدمى.

- لم يحدث شيء.

- كيف وقد بقيتِ فيه نصف ساعة؟ آمل ألّا تكوني قد وضعتِ أحدًا آخر تحت الضغط. فمن المستحسن ألّا نعادي الجميع من اليوم الأوّل. أقول.

لم تجب.

- اسمعي، هذه القصّة لن تنجح إلّا إذا عملنا معًا. - صرّح بارغاس - إذا تبادلنا المعلومات. فأنا لستُ سائقًا عندكِ.

- قد لا تنجح إذن. بوسعي أن أستقلّ سيّارة أجرة إن شئتَ.

فلطالما فعلتُ ذلك.

تنهّد رجل الأمن.

- لا تكترث لكلامي، موافق؟ – اقترحت عليه - فأنا لست على ما يرام.

نظر إليها بارغاس بتركيز. كانت عيناها ما تزالان مغمضتين، ويدها على خاصرتها، والألم بارزٌ على هيئتها.

- هل تريدين أن نتوقّف عند صيدليّة؟

- لماذا؟

- لا أدري. لستِ بمظهر لائق.

- شكرًا.

- هل آتي لكِ بشيءٍ يسكّن الألم؟

هزّت أليثيا رأسها. وكانت تتنفّس بمشقّة.

- هلّا توقّفنا قليلًا؟ - قالت أخيرًا.

لمح بارغاس على بُعد مئة متر مطعمًا في منطقة استراحة حيث تجمَّعت عشرات الشاحنات. فخرج عن الطريق وركن السيّارة عند مدخل المحلّ. ترجَّلَ ودار ليفتح لها الباب. ومدّ إليها يده.

- سأستطيع بمفردي.

وبعد محاولتين، حملها الرجل من إبطيها وأخرجها. أخذ حقيبة يدها التي تركتها على المقعد وعلّقها بذراعها.

- هل بوسعكِ أن تمشي؟

أومأت أليثيا بنعم، واتّجها نحو الباب. شدّ بارغاس على ذراعها برفق، فلم تمانع هذه المرّة. وعندما دخلا إلى الحانة، ألقى رجل الأمن نظرة عامّة، كعادته، لتحديد المداخل والمخارج والزبائن.

مجموعةٌ من سائقي الشاحنات يدردشون إلى طاولة مفروشة بالمناديل الورقيّة والنبيذ المنزليّ والصودا. التفت بعضهم لإلقاء نظرة، فما إن تلاقت نظراتهم بنظرات بارغاس حتّى حبسوا أنفاسهم ودفنوا أعينهم وأرواحهم بأطباق الكوثيدو. أمّا النادل، الذي كان شبيهًا بمدراء رقصة الثرثويلا، مرّ حاملًا إناءً مليئًا بفناجين القهوة، واقترح عليهما بإشارة منه إلى ما بدت أنّها طاولة الشرف، منعزلة عن الرعاع ومزوّدة بإطلالة على الشارع.

- سأعود إليكما خلال ثوانٍ. - قال.

اقتاد بارغاس أليثيا إلى الطاولة وساعدها في الجلوس على الكرسيّ بحيث تولي ظهرها إلى الزبائن الآخرين. وجلس قبالتها ونظر إليها مترقِّبًا.

- بدأتِ تثيرين قلقي. - قال.

- تتوهَّم.

عاد النادل مسرعًا، كلّه ابتساماتٌ متملّقة، لاستقبال الضيفين الراقيين اللذين لم يتوقّع مجيء مثلهما.

- مساء الخير. هل ترغبان حضرتكما في تناول الطعام؟ طبق اليوم كوثيدو لذيذة للغاية، تحضِّرها زوجتي، ولكن بوسعنا إعداد ما ترغبان فيه. شرائح اللحم مثلًا...

- قليلٌ من الماء لو سمحت. - قالت أليثيا.

- حالًا.

هُرِع النادل لجلب زجاجة من المياه المعدنيّة وعاد مسلّحًا أيضًا بقائمتين كرتونيّتين ومكتوبتين بخَطّ اليد. صبّ كأسين من الماء، وإذ فطن بحدسه ضرورة ألّا يطيل بقاءه، انصرف باحترام.

- سأترك القائمتين عندكما في حال أردتما إلقاء نظرة.

أومأ بارغاس شاكرًا إيّاه، وشاهد أليثيا تتجرّع كأسها كما لو أنّها اجتازت الصحراء توًّا.

- هل أنتِ جائعة؟

حملت الحقيبة ونهضت.

- سأذهب إلى الحمّام دقائق معدودة. اطلب أنت من أجلي.

مرّت بجانبه وحطّت يدها على كتفه وابتسمت له بالكاد.

- كن مطمئنًّا. سأكون بخير...

رآها تعرج إلى دورة المياه وتختفي خلف الباب. وكان النادل يراقبها من على مصطبته، وربّما تساءل عن طبيعة العلاقة بين ذلك الرجل وهذا المخلوق.

أغلقت أليثيا الباب وقفلته بالمزلاج. كان الحمّام يفوح برائحة المعقّمات ومحاطًا بقطع الرخام حائلة اللون، التي تعجّ برسوم مشينة وعبارات غير لائقة. ثمّة شبّاكٌ صغير قاتم يؤطّر مروحة تغلغلت شفرات الضوء الغباريّ من بين أسنانها. اقتربت اليثيا من المغسلة واستندت إليها. فتحت الصنبور ومرّرت المياه التي علق بها الصدأ. أخرجت من حقيبتها المحفظة المعدنيّة. فتحتها بيدين مرتجفتين. استلّت الحقنة والقارورة الزجاجيّة ذات السدّادة المطّاطيّة. غرست فيها الإبرة وملأت الحقنة إلى نصفها. هزّتها بإصبعين وضغطت على المكبس برفق حتّى تشكّلت قطرةٌ كثيفة ومتلألئة على رأس الإبرة. دنت من المرحاض، وأغلقت غطاءه، وجلست مستندة إلى الحائط، ورفعت بيدها ثوبها إلى خصرها. تلمّست الجانب الداخليّ لفخذها واستنشقت نفسًا عميقًا.

غزّت الإبرةَ بإصبعيها فوق الجورب وحقنت نفسها بالمحتوى. وبعد بضع ثوان، شعرت بالارتعاش. سقطت الحقنة من يدها، واجتاح الضبابُ ذهنَها بينما كان الإحساس بالبرودة يتغلغل في شرايينها.

استندت إلى الحائط وانتظرت دقيقتين، وربّما أكثر، من دون أن تفكّر في شيء باستثناء ثعبان الجليد الذي كان يتمدّد زاحفًا داخل جسمها.

شعرت بأنّها تفقد الوعي برهةً. ثمّ فتحت عينيها على غرفة صغيرة كئيبة وكريهة الرائحة لم تعرفها. استنفرت من ضجيجٍ بعيد؛ أحدهم يطرق الباب.

- أليثيا؟ هل أنتِ بخير؟

صوت بارغاس.

- نعم. - قالت جاهدةً - سأخرج حالًا.

تأخّرت خطوات الرجل بالابتعاد بضع ثوانٍ. نظّفت أليثيا جدول الدماء التي سالت على طول فخذها وأسدلت ثوبها. جمعت الحقنة وأعادتها إلى المحفظة. غسلت وجهها وجفّفته ببقايا المناديل التجاريّة المعلّقة على الحائط بمسمار. وقبل أن تخرج، واجهت انعكاسها في المرآة.

كانت تبدو إحدى دمى مرثيديس. وضعت قليلًا من أحمر الشفاه ورتّبت لباسها. سحبت نفسًا عميقًا وتهيَّأت للعودة إلى عالم الأحياء.

عادت إلى الطاولة، وجلست قبالة بارغاس متوجِّهةً إليه بأرقّ ابتسامةٍ لديها. كان يحمل كأس البيرة بيده ولا يبدو أنّه شرب منها شيئًا، ينظر إليها بقلق مفتوح.

- طلبتُ لكِ شرائح اللحم. - قال أخيرًا - بالدماء. بروتين.

أومأت أليثيا موحيةً بأنّ الخيار هو الأفضل على الإطلاق.

- احترتُ بما أطلب لكِ، إلى أن خطر في بالي أنّكِ لاحمة.

- اللحوم الدامية هي الشيء الوحيد الذي أستطيع هضمه. - أكّدت أليثيا - وحبّذا لو كانت لحوم أبرياء.

لم تضحكه النكتة. لمحت أليثيا في عينيه انعكاسها.

- بوسعك قوله.

- قول ماذا؟

- قول ما تفكّر فيه.

- وفيم أفكّر؟

- في أنّني أبدو خطيبة دراكولا.

قطّب بارغاس جبينه.

- هذا ما يقوله لياندرو دائمًا. - تابعت أليثيا بنبرةٍ ودّيّة - لا يزعجني الوصف. فقد اعتدت عليه.

- لم أكن أفكّر في ذلك.

- اعذرني عمّا بَدَرَ منّي سالفًا.

- لا شيء يستوجب اعتذاركِ.

عاد النادل بطبقين ونفسيّةٍ طيّعة.

- شرائح اللحم للآنسة... والكوثيدو، وجبة اليوم، للسيّد. هل ترغبان في شيء اخر؟ مزيدًا من الخبز؟ نبيذًا خفيفًا من المؤسسة الاستهلاكيّة؟

هزّ بارغاس رأسه. وألقت أليثيا نظرة إلى وجبتها المضاف إليها البطاطس وتنهّدت.

- إن أردتِ سيّدتي، بوسعي أن أرجعها إلى النار حتى تنضج - اقترح النادل.

- لا بأس، شكرًا.

وهمّا بتناول الطعام صامتين، يتبادلان نظرات عَرَضيّة وابتسامات متصالحة. لم يكن لأليثيا شهيّة، لكنّها أرغمت نفسها وتظاهرت باستمتاعها بشرائح اللحم.

- لذيذة. وماذا عن وجبتك؟ هل هي لذيذة لدرجة تستحقّ بها أن تطلب يد الطبّاخة؟

وضع بارغاس الملعقة في الصحن ومطّ جسمه على الكرسيّ.

وكانت أليثيا تعرف أنّه يحدّق إلى بؤبؤ عينيها المتّسعتين وهيئتها الناعسة.

- كم حقنةً تعاطيتِ؟

- هذا ليس شأنك.

- ما نوع هذا الجرح؟

- من النوع الذي لا تتحدّث بشأنه آنسةٌ مهذّبة.

- إن توجَّب علينا العمل معًا، فعليَّ أن أعرف ما الذي ينتظرني.

- نحن لسنا مخطوبين. ستدوم هذه القصة يومين. لا داعي أن تعرِّفني إلى أمّك.

لم يُبدِ بارغاس ظلّ ابتسامة.

- جرحٌ منذ أن كنت طفلة. أثناء الحرب، والقصف. كان الطبيب الذي أعاد تركيب وركي لم ينم منذ أربعة وعشرين ساعة، ففعل ما استطاع فعله. اعتقد انّي ما زلت احمل ذكرى الغارة الجويّة الإيطاليّة.

- في برشلونة.

- أجل.

- كان لديّ زميلٌ من تلك الأنحاء وقد عاش اثني عشر عامًا بشظيّة بحجم زيتونة محشوّة ومزروعة في شريانه الأبهر. - قال بارغاس.

- وهل مات في النهاية؟

- دهسته شاحنة الصحف أمام محطة أتوشا.

- لا يمكن الوثوق بالصحافة أبدًا. فما إن تقدر، تنحرك فورًا.

وأنت؟ أين أمضيت الحرب؟

- بين هنا وهناك. معظم الوقت في طليطلة.

- داخل سجن ألكاثار أم في الخارج؟

- ما الفرق؟

- ذكريات؟

فكّ أزرار قميصه وأظهر على مرآها ندبة دائرية على الجانب الأيمن من صدره.

- هل تأذن لي؟ - سألته.

فأومأ موافقًا. تقدّمت أليثيا بجذعها نحوه وراحت تتلمّس الندبة بأصابعها. فسقطت الكأس التي كان يمسحها النادل أرضًا خلف المصطبة.

- إنّها ندبة من النوع السيّئ. - قالت أليثيا - هل تؤلمك؟

عقد أزرار القميص.

- عندما أضحك فقط. أتكلّم جدّيًا.

- بمهنةٍ كهذه لن تدمِّر صحّتك بحبوب الأسبيرين.

ابتسم بارغاس أخيرًا. فرفعت أليثيا كأس الماء.

- فلنشرب نخب آلامنا.

امسك الرجل كأسه وشرب النخب. انهيا الطعام بصمت، ومسح بارغاس صحنه، ونتفت أليثيا اللحم من هنا وهناك. وعندما أبعدت عنها الطبق، سرق منه البطاطس المتبقّية والتي كانت كثيرة.

- إذن، ما خطّة اليوم؟ - سأل.

- فكّرتُ في أنّك قد تذهب إلى المباحث لتتدبَّر نسخة من رسائل سالغادو وتطَّلع على آخر مستجدّات تلك الجبهة. وإن تبقّى لديك وقت، قد تذهب لزيارة المدعو كاسكوس في دار النشر أريادنا. ثمّة شيء غير واضح في تلك المسألة.

- ألا تريدين أن نذهب لزيارته معًا.

- لديّ مشاريع أخرى. فكّرتُ في الذهاب لزيارة صديق قديم قد يستطيع مساعدتنا. من الأفضل أن ألتقيه بمفردي. فهو شخصيّة فريدة.

- ليكون صديقًا لكِ، لا بدّ أن يكون الشرط ملزمًا. هل الاستشارة تخصّ الكتاب؟

- أجل.

أشار بارغاس إلى النادل طلبًا للحساب.

- ألا ترغبين في تناول القهوة أو الحلوى أو شيء آخر؟

- في السيّارة بإمكانك أن تعرض عليّ إحدى سجائرك المستوردة.

- قالت أليثيا.

- هذه ليست حيلة للتخلّص منّي حالما يتسنّى لكِ ذلك، صحيح؟

هزت رأسها نافيةً.

- سنلتقي في السابعة في مقهى جيخون «لنتبادل المعلومات».

نظر إليها بحزم. فرفعت يدها بمهابة.

- أعدك.

- هذا خيرٌ لكِ. أين أتركَكِ؟

- في ريكوليتوس. على طريقك.

(12)

في العام الذي وصلت فيه أليثيا إلى مدريد، علّمها مرشدُها لياندرو مونتالبو، الذي يتحكّم بها كما لو أنّها دميةٌ متحرّكة، علّمها بأنّ المرء إذا تطلّعَ للمحافظة على رجاجة عقله، فلا بدّ له أن يختار مكانًا يرغب ويتمنّى أن يضيع فيه. وعلى ذلك الملاذ الأخير أن يكون بمثابة حُجْرة صغيرةٍ تلتجئ إليها الروح، عندما يغرق العالم في مهزلته العبثيّة، وتنغلق خلف بابه وتضيَّع المفتاح. من إحدى طبائع لياندرو المزعجة أنّه كان دومًا على حقّ. فمع مرور الوقت، رضخت أليثيا لمنطقه وقرّرت أنّ ساعة العثور على مخبأها الخاصّ قد حانت، حين لم تعد عبثيّةُ العالم تبدو لها مهزلة عَرَضيّة بل صارت مجرّد روتين. وشاء القدر، لمرّة واحدة، أن يحالفها بحسن الطالع. فوقع اللقاء عندما لم تكن تتوقّعه، ككلّ اللقاءات العظيمة.

في يوم بعيد من خريفها الأوّل في مدريد، فوجئت أليثيا بإعصارٍ ماطرٍ بينما كانت تمشي في شارع ريكوليتوس، فلمحت من بين الأشجار بنايةً على الطراز الكلاسيكيّ حسِبتْها للوهلة الأولى متحفًا، فقرّرت أن تلوذ فيه ريثما تمرّ العاصفة. صعدت مبلّلةً حتى النخاع على العتبات التي يزدهي جانباها بالتماثيل الفخمة، ولم تلحظ اسم المكان المنحوت على العارضة الأماميّة. كان هناك رجلٌ رابط الجأش، بعينين كعيون البومة، أطلَّ عند المدخل يتأمّل مشهد المطر، ورآها تصعد.

حطّت نظراته المفترسة عليها كما لو أنّها قارضٌ صغير.

- صباح الخير. ماذا تعرضون هنا؟ - ارتجلت أليثيا.

طحنها الرجل ببؤبؤ عينيه اللتين تشبهان عدسات التكبير، لكنّه لم يكن مذهولًا.

- نعرض الصبر يا آنسة، واحيانًا نعرض الدهشة من وقاحه الجهلاء. هذه المكتبة الوطنيّة.

وسواء بحُكم الشفقة أم الملل، أعلمها السيّد ذو نظرة البوم أنّها وطأت بقدميها إحدى أكبر المكتبات على وجه الأرض، وأنّ أكثر من خمسة وعشرين مليون كتاب في بواطن المبنى تنتظر قدومها، وأنّها إن كانت قد جاءت بغية استخدام دورات المياه أو تصفُّح مجلات الموضة في صالة القراءة الكبرى، فبوسعها أن تستدير وتنطلق في البحث عن الحمّى الرئويّة تحت وابل الأمطار ذاك.

- هل لي أن أسأل صاحب السموّ مَن يكون؟ - سألته.

- لا أرى أصحاب سموٍّ منذ زمن بعيد، ولكن إن كنت تقصدين شخصي المتواضع، فسأكتفي بالقول إنّني مدير هذا البيت، وإنّ إحدى هواياتي المحبّبة هي تصيُّد الأفظاظ والمتطفّلين.

- ولكنّي أودّ أن أكون عضوًا.

- وأنا كنت أودّ أن أؤلّف «دافيد كوبرفيلد»، إلّا أنّني ها أنا ذا، شائب الشعر بلا سيرةٍ معتَبرة. ما اسمكِ يا حلوة؟

- أليثيا غريس، بخدمتك وخدمة إسبانيا.

- صحيحٌ أنّني لم أمضِ على روائع خالدة تنهل منها الأجيالُ اللاحقة، لكنّ هذا لا يمنعني من تقدير الفكاهة أو السفاهة. لن أجيب نيابةً عن إسبانيا، فلقد صار عندها ما فيه الكفاية من المتحدّثين باسمها. أمّا عن نفسي، فلا أرى أيّ فائدة أجنيها من خدماتكِ سوى تذكيري بأنّي بتُّ في أرذل العمر. عمومًا، لستُ غولًا، وإن كانت رغبتكِ في العضويّة صادقةً، فلن أكون أنا الذي يبقيكِ على أمّيّتكِ الأبجديّة. أدعى برميو بوماريس.

- تشرّفتُ بك يا سيّدي. أضع نفسي مُلك يديك لأتلقّى التعليم الذي سينجيني من الجهل ويفتح لي ابواب هذه الأركاديا التي تديرونها حضرتكم.

قوسَّ برميو بوماريس حاجبيه، مقيِّمًا قدرات خصمه.

- ينتابني شعورٌ بأنكِ قادرة على النجاة بنفسكِ من دون حاجةٍ إلى أيّ مساعدة، وأنّ جهلَكِ أقلُّ عمقًا من وقاحتكِ يا آنسة غريس. إنّني على دراية بأنّ الشراهة الموسوعيّة أحالت خطابي إلى فَصْحَنَةٍ مقعّرة، ولكن لا ضرورة لازدراء بروفسور عجوز.

- ما كنتُ ليخطر في بالي شيءٌ كهذا.

- حقًّا. من كلامهم تعرفونهم. أليثيا، لقد نلتِ استلطافي مع أنّ ذلك لا يبدو جليًّا. ادخلي واتجهي إلى النافذة. قولي لبوري إنّ بوماريس سمح لكِ باستخراج البطاقة.

- كيف يمكنني أن أشكرك يا سيّدي؟

- بأن تأتي إلى هنا لتقرأي كتبًا جيّدة، تلك التي تريدين، لا تلك التي أنصحكِ أنا أو أيُّ أحدٍ آخر بقراءتها. فقد أكون دعيَّ علم، لكنّي لستُ متعجرفًا.

- ثق بأنّني سأفعل.

عصر ذلك اليوم، حصلت أليثيا على بطاقة القارئة في المكتبة الوطنيّة وأمضت ما سيكون يومها الأوّل، الذي تلته أيّام كثيرة، في صالة القراءة الكبرى، داعيةً إلى الرقص بعضَ الكنوز التي استطاع الذكاءُ المتراكمُ استحضارَها على مدى عصورٍ بشريّة. رفعت عينيها عن الصفحات في أكثر من مناسبة لتتقاطع بنظرات الدون برميو بوماريس البوميّة، الذي كان يهوى التجوّل في أرجاء الصالة أحيانًا ليطّلع عمّا يقرأه الجمهور، ولبطرد طرد السوء كلَّ من تسوُّل له نفسه القيلولة أو الدردشة، لأنّ العالم الخارجيّ بأسره حسب رأيه، مخصَّصٌ للأدمغة الغافية والمحادثات الغبيّة.

وذات يوم، عندما اثبتت له اليثيا جديّة اهتمامها كقارئة عميقة طوال عامٍ كامل، دعاها برميو بوماريس للحاق به إلى خلف المبنى وفتح لها أبواب قسمٍ مغلق بوجه العامّة. حيث أخبرها بأنّ أثمن كتب المكتبة راقدةٌ هناك، وأنّ القسم لا يرحِّب إلّا بمن كان متميّزًا بحصوله على بطاقة خاّصة، متاحة لبعض الأكاديميّين والدارسين لمساعدتهم في إجراء أبحاثهم.

- لم تخبريني يومًا بطبيعة نشاطاتكِ الدنيويّة، إلّا أنكِ تبدين لي شبيهةً بالباحثة. لا أتحدّث عن اختراع مشتقّات البنسلين أو نفض الغبار عن الأشعار المفقودة لكبير قساوسة هيتا.

- لستَ خارج الطريق أبدًا.

- لم أكن في حياتي كلّها خارج الطريق. المشكلة في وطننا المحبوب هي الطُرُق، لا مَن يسير فيها.

- في حالتي، فإنّ الطُرُق ليست طُرُق الربّ، بل ما قد تسمّيه سموُّك بجهاز أمن الدولة.

هزّ بوماريس رأسه ببطء.

- أنتِ علبةٌ مليئةٌ بالمفاجآت يا أليثيا. علبةٌ من تلك التي يُفضَّل عدم فتحها واكتشاف خباياها.

- قرارٌ صائب.

أعطاها بوماريس بطاقةً باسمها.

- بكلّ الأحوال، قبل أن أهجر هذا المكان، أردتُ أن أطمئنّ إلى أنّكِ قد حصلتِ على بطاقة الباحثة، بحيث إذا أردتِ يومًا، تستطيعين دخول هذا القسم بلا عراقيل.

- قبل أن تهجر المكان؟

فاتّخذ وجهه تعبيرًا يناسب الظرف.

- ارتأى مكتب الوزير الدول ماوريسيو ڤايس أن يحيطني علمًا بأنّني أُقِلتُ من منصبي بأثرٍ رجعيّ، وأنّ اليوم الأخير لإدارتي هذه المؤسسة كان أمس، الأربعاء. يبدو أنّ قرار السيّد الوزير متعلّقٌ بعدّة عوامل، من بينها الحماسة الباهتة التي أبداها شخصي الناقص تجاه مختلف العقائد المقدّسة للحركة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الاهتمام الذي أبداه صهر أحد آباء الوطن بتولّي إدارة المكتبة الوطنيّة.

يبدو أنّ لشرف هذا المنصب، في أوساط معيّنة، أثرًا يكاد يشبه الدعوة إلى المنصّة الفخريّة للريال مدريد..

- يؤسفني جدًّا، سيّد برميو. حقًّا.

- لا تأسفي. فمن النادر جدًّا في تاريخ هذا البلد أن تولّى إدارةَ المؤسسات الثقافية رجلٌ ذو كفاءة أو ذو عجزٍ يمكن معالجته على الأقلّ. يطبّقون إجراءات رقابيّة متعسّفة، وهناك عدد هائل من الموظفين المتخصصين في منع حدوث ذلك. فحكم الجدارة والمناخ المتوسطيّ لا ينسجمان بالضرورة. أتصوّر أنّها ضريبةٌ ندفعها على امتلاكنا أفضل زيت زيتون في العالم. فأن يصل أمينُ مكتبةٍ خبيرٌ لإدارة المكتبة الوطنيّة في مدريد، هو خطأ غير متعمَّد، وجدت له العقول السامية التي تتحكّم بمصائرنا حلًّا، ثمّ ما أكثر الأصدقاء والأقارب الذين تُوكَل إليهم المهمّة. لا يسعني أن أقول إلّا أنّني سأفتقدكِ يا أليثيا. أنتِ، وألغازكِ وسهامكِ.

- وأنا كذلك.

- سأعود إلى مدينتي الجميلة طليطلة، أو إلى ما أبقوا منها، على أمل أن يتسنّى لي السكن في بيت صغير مزوّد بمزرعة، على هضبة تطلّ على المدينة، حيث أقضي ما تبقّى من عمري الذابل أتبوّل على ضفاف نهر تاغو وأعيد قراءة ثربانتس وجميع أعدائه، الذين كان معظمهم يعيشون في مكان ليس ببعيد من هنا ولم يتمكّنوا حتّى من تغيير وجهة هذه السفينه قيد انملة، على الرغم من كلّ الذهب وكلّ الشِّعر في زمانهم.

- ألا يمكنني مساعدتك؟ لا أفقه بالشعر، لكنّك قد تُفاجأ من قدراتي الإنشائيّة على تحريك ما لا يتحرّك.

نظر إليها طويلًا.

- لا يفاجئني، بل يخيفني، وأنا لا أجرؤ إلا على الأغبياء. ثمّ إنّكِ قد ساعدتني بما فيه الكفاية، حتى لو لم تنتبهي إلى ذلك. حظًّا سعيدًا يا أليثيا.

- حظًّا سعيدًا، يا معلّم ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه. وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي تراه فيها يبتسم. صافح يدها بقوّة وأخفض صوته.

- أخبريني يا أليثيا. إذا وضعنا إيمانكِ بالبارناسوس والعلم وكلّ هذه الأشياء المثاليّة جانبًا، فما الذي يدفعكِ للمجيء إلى هنا حقًّا؟

رفعت كتفيها.

- ذكري. - قالت.

قوّس مدير المكتبة حاجبيه معربًا عن فضول.

- ذكرى من الطفولة. شيءٌ حلمتُ به ذات مرّةٍ كنت فيها على وشك الموت. منذ زمن بعيد. كاتدرائيّةٌ مبنيّةٌ من الكتب...

- وأين حدث ذلك؟

- في برشلونة. إبّان الحرب.

أومأ المدير ببطءٍ يبتسم في سرّه.

- وتقولين إنّكِ حلمتِ بها. هل أنتِ واثقة؟

- تقريبًا.

- اليقين مريح، لكنّنا لا نتعلّم إلّا بالشكّ. سيأتي يومٌ تحتاجين فيه إلى النقيب حيث لا ينبغي لكِ، ستحرّكين عمقَ مستنقعٍ راكد. اعرف ذلك لأنّكِ لست الأولى أو الأخيرة التي يسكن عينيها الظلُّ نفسُه وتأتي إلى هذا المكان. وعندما يحين ذلك اليوم، لأنّه سيحين حتمًا، اعلمي أنّ هذا البيت يُخفي أكثر ممّا يُظهِر، وأنّ أناسًا مثلي يجيئون ويذهبون، لكنّ هناك واحدًا يعيش هنا، قد يكون مفيدًا لكِ.

أشار بوماريس إلى باب أسود في آخر الممرّ الواسع ذي الأقواس والممتلئ برفوفٍ مكتظة بالكتب.

- خلف ذاك الباب سلّمٌ يهبط إلى دهاليز المكتبة الوطنيّة. طوابقُ وطوابقُ من الأروقة التي لا تنتهي، ملايين من الكتب، وأكثرها كتبٌ قديمة ومجلّدة. أُضيفَ إليها نصف مليون كتاب، خلال الحرب فقط، الإنقاذها من النار. لكنّ هناك شيئًا آخر في الأسفل. أتصوّر أنّكِ لم تسمعي من قبل بأسطورة مصّاص الدماء في بناية ريكوليتوس.

- لا.

- ولكنْ، اعترفي بأنّ الفكرة تغويكِ، العنوان الذي يصلح لقصة مسلسلة على الأقلّ.

- لا أنكر ذلك. ولكن، هل تتحدّث جدّيًّا؟

غمز بوماريس بعين.

- لقد سبق وقلت لكِ إنّني أقدِّر الدعابة، على الرغم من المظاهر.

سأتركك بهذه الفكرة حتّى تنضجيها. وآمل ألّا تكفّي عن المجيء إلى هنا، وإلى أيّ مكانٍ مشابه.

- سأفعل ذلك بصحتّك.

- بصحّة العالم، هذا أفضل، فصحّتي ليست على ما يرام. اعتني بنفسكِ يا أليثيا. آمل أن تجدي الطريق التي لم أستطع إيجادها.

وهكذا، من دون أن يضيف شيئًا آخر، تجوّل الدون برميو بوماريس للمرّة الأخيرة في ممرّ الباحثين ثمّ صالة القراءة الكبرى في المكتبة الوطنيّة، وتابع حتى تخطّى الأبواب من دون أن يلتفت إلى الخلف، ثمّ اجتاز عتبة شارع ريكوليتوس سائرًا نحو النسيان، ليغدو قطرةً بين آلاف القطرات في الموجة العملاقة التي حملت حيواتٍ غارقةً في قتامة إسبانيا آنذاك.

وكان هكذا أيضًا أن قرّرت أليثيا اجتياز ذلك الباب الأسود، بعد أشهرٍ إذ حان اليوم الذي تغلَّبَ فيه الفضولُ على الحذر، لتغطس في ظلمات الدهاليز الخفيّة تحت المكتبة الوطنيّة، لاستكشاف أسرارها.

(13)

الأسطورة هي أكذوبةٌ تهدف إلى تفسير حقيقةٍ شاملة. والأماكن التي تحتضن أرضُها الأكذوبةَ والوهمَ خصبةٌ لزراعتها إلى حدٍّ كبير. في المرّة الأولى التي تاهت فيها ألبثيا غريس عبْر الأروقة المظلمة تحت المكتبة الوطنيّة، بحثًا عن مصّاص الدماء المزعوم وأسطورته، لم تجد شيئًا سوى مدينة تحتانيّة مسكونة بمئات ألوف الكتب التي تنتظر بصمتٍ بين الأصداء وشباك العناكب.

من النادر جدًّا أن تسمح لنا الحياة بالتجوّل في أحلامنا وملامسة ذكرياتٍ مفقودة. فكم توقّفت أليثيا في الظلام، وهي تطوف تحت المكتبة، تترقّب سماع انفجار القذائف وزئير الطيّارات من جديد. وبعد ساعتين من تنقُّلها بين طابقٍ وآخر، لم تقابل أحدًا ما عدا ديدان الورق الصغيرة التي تبحث عن وجبةٍ خفيفة على ضلع ديوانٍ شيللر الموجز.

وفي الرحلة الثانية، تزوّدت أليثيا بمشعلٍ ابتاعته من أحد محلات الخردة في كاياو، فلم تصادف حينها حتّى زملاءها الديدان، إلى أن اكتشفت بعد ساعة ونصف بطاقةً معلّقة عند المخرج بدبّوسٍ ومكتوبٌ عليها:

ما أجمله من مشعل.

ألا تغيّرين سترتكِ أبدًا؟

أم أنّ هذا مخالفٌ للأعراف في هذا البلد.

صديقكِ الودود

فرجيل

وفي اليوم التالي، عادت من جديد إلى محلّ الخردة لتشتري مشعلًا آخر مطابقًا لمشعلها وعلبة صغيرة من البطّاريّات. ولجت إلى أعماق الطابق الأخير بسترتها الرصينة نفسها، وجلست بجانب مجموعة من روايات الأختين برونتي، أحَبِّ الروايات إلى قلبها منذ سنوات الابتدائيّة في مدرسة ريباس. حيث أخرجت شطيرة اللحم والبيرة اللتين اشترتهما من مقهى جيخون وتناولت طعامها. ثمّ أخذت قيلولة بعد أن ملأت بطنها.

أيقظتْها خطواتٌ في الظلّ، ناعمةٌ مثل الريش المجرور على الغبار. فتحت عينيها فتراءت لها إبرٌ من نورٍ ذهبيّ تنسلّ بين الكتب في الطرف الآخر من الممرّ. كانت فقاعة الضوء تتحرّك ببطء، مثل قنديل البحر. عدّلت أليثيا جلستها ونفضت فتات الخبز عن ياقتها. وبعد ثانية، انعطف الطيف عند زاوية الرواق وتابع تقدُّمه نحوها بخطوات متسارعة. الشيء الأوّل التي لفت انتباه أليثيا هي العينان، زرقاوان ومتناميتان في الظلمات. البشرة الشاحبة كصفحات كتابٍ لم يُقرَأ بعد، والشعر الناعم المسرَّح إلى الخلف.

- أحضرتُ لك مشعلًا. - قالت أليثيا - وبّطاريّات.

- هذا من لطفلكِ.

كان الصوت رخيمًا، وحادًّا بشكل غريب.

- اسمي أليثيا غريس. أتصوّر أنّك فرجيل.

- شخصيًّا.

- سؤالٌ شكليّ، لكنّي سأطرحه عليك: هل أنت مصّاص الدماء؟

ابتسم فرجيل شاردًا. ففكّرت أليثيا أنّه بذلك يشبه الأنقليس.

- لو كنتُ مصّاص دماء، لمتُّ من رائحة الثوم في شطيرتكِ التي التهمتِها توًّا.

- فإذن أنت لا تشرب دماء البشر.

- أفضِّل عنها عصير البرتقال ترينارانخوس. هل تبتكرين أسئلة كهذه في اللحظة نفسها أم تحضِّرينها مسبقًا؟

- أخشى أنّني وقعتُ ضحيّة مقلب. - قالت أليثيا.

- ومن منّا لم يقع ضحيّة مقلب؟ هذا هو جوهر الحياة. أخبريني، ماذا تريدين؟

- لقد حدّثني السيّد برميو بوماريس عنك.

- توقّعتُ ذلك. دعابةٌ مدرسيّة.

- قال لي إنّك قد تستطيع مساعدتي، عندما تحين اللحظة.

- وهل حانت؟

- لست متأكدة.

- هذا يعني أنّها لم تَحِن. هل لي أن أرى ذلك المشعل؟

- إنّه لك.

تقبَّلَ فرجيل الهديّة وتفحَّصها.

- منذ متى تعمل هنا؟ - سألته.

- منذ خمسة وثلاثين عامًا تقريبًا. بدأتُ مع والدي.

- حتّى والدك كان يعيش في هذه الهاوية السحيقة.

- أعتقد أنّك تخلطين بيننا وبين إحدى عائلة القشريّات.

- هل هكذا بدأت أسطورة أمين المكتبة الذي يمصّ الدماء؟

ضحك فرجيل من كلّ قلبه. كان رنين ضحكته يكشط مثل ورق الزجاج.

- لم يكن هناك أيّ أسطورة من هذا القبيل. - صرّح.

- هل اختلقها السيّد بوماريس ليسخر مني؟ - سألت أليثيا.

- لم يختلقها هو، تقنيًّا. لقد استمدّها من إحدى روايات خوليان كاراكس.

- لم أسمع باسمه من قبل.

- مثل الجميع تقريبًا. خسارة. فالرواية ممتعةٌ جدًّا. تتحدّث عن مجرمٍ شيطانيّ يعيش متخفّيًا في دهاليز المكتبة الوطنيّة في باريس ويستخدم دماء ضحاياه حبرًا لكتابة كتاب شيطانيٍّ يأمل من خلاله استحضار إبليس شخصيًّا. متعةٌ خالصة. إن استطعتُ العثور عليه أعرتكِ إيّاه. قولي لي، هل أنتِ شرطيّة أو شيء من هذا القبيل.

- شيء من هذا القبيل بالأحرى.

خلال تلك السنة، وبين الدسائس والمهمّات القذرة التي يكلّفها بها لياندرو، وجدت أليثيا الفرصة لزيارة فرجيل في مقرّه تحت الأرض كلّما استطاعت. ومع الوقت، أصبح أمين المكتبة ذاك صديقها الحقيقيّ الوحيد في المدينة. وكان لدى فرجيل دومًا كتب يعيرها لأليثيا، ويمازحها أحيانًا.

- اسمعي يا أليثيا، لا تسيئي فهمي، ولكن هل يروق لكِ أن تذهبي معي إلى السينما في مساء ما؟

- شرط ألّا يكون الفيلم عن قدّيسين أو حياة مثاليّة.

- فلتصعقني روح الدون ميغيل دي ثربانتس الخالدة في هذه اللحظة ذاتها إن خطر في بالي يومًا ما أن أقترح عليكِ الذهاب لمشاهدة ملحمة عن انتصار الروح الإنسانيّة.

- آمين. - علقت أليثيا وفي بعض الأحيان، عندما لا تكون مشغولة في أيّ مهمّة، كانا يذهبان معًا إلى العرض الأخير لإحدى صالات السينما في الغران ڤيا.

وكان فرجيل مولعًا إلى حدّ الجنون بتقنيّة التكنيكولور والقصص التوراتيّة والرومان، إذ يتسنّى له رؤية الشمس والتمتّع بعضلات المصارعين المفتولة من دون أن يغلبه الحياء. وذات مساء، بعد خروجهما من فيلم «الوضع الراهن»، كان فرجيل يرافقها إلى فندق هسبانيا، ظلّ يحملق بها حين توقّفت عند واجهة إحدى المكتبات.

- أليثيا، لو كنتِ فتًى لطلبتُ يدكِ بمعاشرةٍ غير شرعيّة.

مدّت يدها إليه فقبّلها.

- ما ألطف ما تقول يا فرجيل.

فابتسم، وعيناه تختزنان كلّ حزن الدنيا.

- هذا ما يحدث عندما نقرأ كثيرًا: نتعرّف على كلّ طرائق القدر وحيله.

وفي بعض العصريّات من يوم السبت، كانت أليثيا تشتري قليلًا من الترينارانخوس وتذهب إلى المكتبة لتستمع إلى حكايات فرجيل عن الكُتّاب الغامضين الذين لم يسمع أحدٌ بهم قطّ، الذين كانت سيرهم الملعونة مختبئة في المغارة الببليوغرافيّة من الطابق الأخير أسفل الأرض.

- أليثيا، أعرف أنّ الأمر لا يخصّني، ولكنْ... ما الذي حدث لخاصرتكِ؟

- الحرب.

- حدّثيني.

- لا يطيب لي الحديث عن الأمر.

- اتفّهمُ ذلك. ومن اجل هذا تحديدًا. حدّثيني. السرد يهدئِ الرَّوع.

لم تكن أليثيا قد كشفت لأحدٍ عن الحكاية التي أنقذ فيها حياتها رجلٌ مجهول في الليلة التي استجاب فيها طيران موسوليني لطلبٍ من الجيش الوطنيّ، وقصف مدينة برشلونة بلا رحمة. فوجئتُ وهي تسمع نفسها وتتحقّق من أنّها لم تنس شيئًا وأنّها ما تزال قادرة على تنشُّق رائحة الكبريت واللحم المحترق تغمر الأجواء.

- ولم تعرفي أبدًا من يكون ذلك الرجل؟

- صديقٌ لوالديَّ. كان يودّهما حقًّا.

لم تدرك أنّها كانت تذرف الدموع لو لم يناولها فرجيل منديلًا، ولم تستطع تمالُكَ نفسها رغم كلّ الحياء والغضب اللذين استبدّا بها.

- لم أركِ تبكين من قبل.

- لا أنت ولا أحد غيرك. وآمل ألّا يتكرّر ذلك.

عصر ذلك اليوم، بعد أن عادت من قصر مرثيديس وأرسلت بارغاس ليستطلع في المباحث، ذهبت أليثيا إلى المكتبة الوطنيّة ثانيةً.

وبما أنّ الجميع يعرفها، لم يكن من داعٍ لإبراز البطاقة. اجتازت صالة القراءة واتجهت نحو الجناح المخصّص للباحثين. ثمّة عدد كبير من الأكاديميّين الذين يحلمون بعيون مفتوحة على المناضد، اجتازتهم أليثيا برزانة وأكملت طريقها نحو الباب الأسود في آخر الممرّ. لقد تعلّمت مع الوقت كيف تفكّ شيفرة عادات فرجيل، فحسَبَتْ أنّه سيكون في المستوى الثالث، بما أنّ الوقت ما زال باكرًا من الظهيرة، يرتّب المجلّدات القديمة التي اطّلع عليها الباحثون في الصباح. فوجدته هناك، يحمل المشعل الذي أهدته له، ويدمدم لحنًا من الإذاعة ويهزّهيكله العظميّ السقيم بطريقة غريبة. بدت لها الصورة مكرّرة ومستحقّه من الرجل الأسطوريّ.

- يسحرني إيقاعك الاستوائيّ يا فرجيل.

- إيقاع الأورغ يصل إلى العمق. هل تركوكِ تنصرفين باكرًا اليوم أم أنّني أخطأتُ التوقيت.

- إنّني هنا في زيارة شبه رسميّة.

- لا تقولي إنّني رهن الاعتقال.

- لا، لكنّ حكمتك محتَجزة موقتًا لخدمة المصلحة الوطنيّة.

- إن كان كذلك، فقولي ما ترغبين.

- يسعدني أن تلقي نظرة على غرضٍ ما.

أخرجت أليثيا الكتاب الذي عثرت عليه في مكتب الوزير وأعطته الفرجيل. فأخذه بين يديه وأضاء المشعل. ولم يكد يرى نقش السلّم الحلزونيّ على الغلاف حتّى سدّد نظراته إلى أليثيا.

- هل لديكِ أدنى فكرة عن ماهيّة هذا الشيء؟

- كنت أطمح أن تدلنّي أنت.

نظر فرجيل ما وراءها، كأنّه يخشى أن يكون ثمة أحد آخر في الممر، وأشار لها برأسه.

- من الأفضل أن نذهب إلى مكتبي.

كان مكتب فرجيل عبارة عن حُجرة ضيّقة محشورة في عمق أحد الأروقة في أسفل طابق. تبدو وكأنّها نتأت من الجدران بسبب ضغط ملايين وملايين الكتب المتكدَّسة طابقًا فوق آخر. لتشكّل ما يشبه الكابية المليئة بالمجلّدات، والمحصدات وكلّ نوع من الأغراض الخصوصيّة، بدءًا بكؤوس تحوي أقلامًا وإبر خياطة وليس انتهاءً بالعدسات المكبِّرة وأوعية الألوان الصغيرة. تخيّلت أليثيا أنّ فرجيل يجري عمليّاته الجراحيّة الطارئة لإنقاذ وإصلاح الكتب المغمى عليها هناك تحديدًا. أمّا قطعة الأثاث الجوهريّة فهي مجمِّدةٌ صغيرة. فتحها فرجيل فرأت أليثيا أنّها تغصّ بقوارير عصير البرتقال ترينارانخوس.

أخرج منها قارورتين ثمّ تسلَّحَ بنظارته المكبِّرة، ووضع الكتاب على سطحٍ من مخمل أحمر وغلّ يديه في قفّازين حريريّين رقيقين.

- بناء على كلّ هذه الحفاوة، أستنتج أنّ الكتاب من النوادر...

- ششششش... - أسكتها فرجيل.

وبعد مرور دقيقتين، لاحظت أليثيا أنّ المكتبجيّ يعاين كتاب فكتور ماتايكس مذهولًا، منتشيًا بكلّ صفحة، يلامس كلّ رسمة ويتذوّق كلّ نقشة كأنّه بصدد طعامٍ شيطانيّ.

- إنّك تثير أعصابي يا فرجيل. قل شيئًا أرجوك.

التفت الرجل، ورمقها بعينيه الزرقاوين اللتين ضخّمتهما عدساتٌ يستعملها الساعاتيّون.

- أتصوّر أنكِ لن تخبريني من أين حصلتِ عليه. - بادر.

- تصوُّرك في محلّه.

- هذه تحفةٌ لتوّاقٍ بجمع التحف. إن أردتِ، أدلّكِ على مَن يستطيع تقييمه بسعرٍ مرتفع من أجلكِ، مع أنّ الحذَر واجبٌ أيضًا فهذا كتابٌ محظور. لا من جانب الحكومة فحسب، إنّما من جانب أمّنا الكنيسة أيضًا.

- هذا ومئات غيره. هل بإمكانك أن تخبرني عنه شيئًا يفوق تصوُّراتي؟

نزع فرجيل العدسات وتجرَّع نصف قارورة من عصير البرتقال جرعةً واحدة.

- اعذريني، فأنا متوتّر. - أعترف - منذ عشرين عامًا على الأقلّ لم أر جوهرةً كهذه...

تمدّد فرجيل على أريكته المهترئة. كانت عيناه تلمعان، فتيقّنت أليثيا من أنّ اليوم الذي تنبَّأ به برميو بوماريس قد حان.

(14)

- على حدّ علمي، صدرت ثمانية كتب من سلسلة «متاهة الأرواح» ما بين عام 1931 وعام 1938، في برشلونة. لا أعرف الكثير عن مؤلّفها فكتور ماتايكس. أعرف أنّه كان يعمل بشكلٍ عَرَضيّ مصمِّمًا لرسومات كتب الأطفال، وأنّه أصدر عدّة روايات تحت اسم مستعار عن دار نشر باريدو واسكوبياس الرديئة. وكثرت الشائعات عن كونه ابنًا غير شرعيّ لرجل أعمال برشلونيّ اغتنى في أمريكا وتبرّأ منه وممّن أنجبتْه، ممثّلة في مسارح الباراليلو ذائعة الصيت نسبيًّا في زمانها. وقد عمل ماتايكس سيناريست أيضًا، وصمّم قوائم مبيعات لمصنعٍ للعب الأطفال في إغوالادا. وفي عام 1931 نشر الحلقة الأولى من «متاهة الأرواح»، بعنوانٍ «أريادنا والكاتدرائيّة الغارقة»، الصادرة عن منشورات أوربي، إن لم أخطئ.

- ماذا يعني لك تعبير «مدخل المتاهة»؟

ثنى فرجيل رأسه جانبًا.

- حسنًا، المتاهة في هذه الحالة هي المدينة.

- برشلونة؟

- برشلونة الأخرى. برشلونة الكتب.

- ما يشبه الجحيم.

- فلنقل إنّها كذلك.

- وما المدخل إذن؟

شدّ فرجيل كتفيه سارحًا.

- للمدينة مداخل كثيرة. لا أدري. هل يمكنني أن أفكّر قليلًا؟

أومأت أليثيا موافقة.

- وأريادنا هذه؟ مَن تكون؟

- اقرأي الكتاب. يستحقّ القراءة.

- أعطني تقديمًا.

- أريادنا هي طفلة، بطلة جميع روايات السلسلة. أريادنا اسم ابنة ماتايكس الكبرى، التي ألّف من أجلها تلك الكتب. وما الشخصيّة إلّا انعكاسٌ لشخص ابنته. استلهم ماتايكس جزءًا كبيرًا من «آليس في بلاد العجائب»، التي كانت ابنتها تحبّها كثيرًا. ألا يبدو لكِ الأمر مشوّقًا؟

- ألا ترى أنّني أرتجف من شدّة التأثر؟

- أنتِ لا تُطاقين عندما تبدين هكذا.

- أنت تتحمّلني يا فرجيل، وهذا ما يجعلني أعزّك كثيرًا. تابع.

- يا لصليب آلامي ما أثقله! أعزب بلا آمال، باستثناء كاميلا دي لوفانو.

- الكتاب، يا فرجيل، الكتاب...

- بالمحصّلة؛ الحال أنّ أريادنا كانت آليس الخاصّة به. وبدلًا عن بلاد العجائب، ابتكر ماتاكس صورةً عن برشلونة تقشعرّ لها الأبدان، رهيبةً وجهنّميّةً وكابوسيّة. وفي كلّ كتاب، كان المكان يستحيل أشدَّ شؤمًا، المكان الذي يُعتَبر بطلًا روائيًّا قائمًا بحدّ ذاته، شأنه شأن أريادنا والشخصيّات غريبة الأطوار التي تصادفها على مدار مغامراتها.

وفي الكتاب الأخير المعروف، الذي صدر في ذروة الحرب الأهليّة، بعنوان «أريادنا وآلات الجحيم» أو شيء كهذا، تتحدّث الحكاية عن المدينة المحاصَرة وكيف اجتاحتها الجيوش المعادية في النهاية، والمدبحة التي نجمت عن الاجتياح، بحيث يبدو سقوط القسطنطينيّة فيلمًا كوميديًّا للوريل وهاردي.

- هل قلتَ الكتاب الأخير المعروف؟

- ثمّة من يعتقد أنّ ماتايكس، عندما اختفى بعد الحرب، كان يُنجز الحلقة التاسعة والأخيرة من السلسلة. وبالفعل، منذ أعوام طويلة، كان هواة جمع التحف يدفعون مبلغًا طائلًا لمن يستطيع تدبُّر تلك المخطوطة، ولكن على حدّ علمي لم يعثر عليها أحد.

- وكيف اختفى ماتايكس؟

رفع فرجيل كتفيه مستخفًّا.

- برشلونة في نهاية الحرب. أيُّ مكانٍ أفضل منها للاختفاء؟!

- وهل من الممكن العثورعلى كتب أخرى من السلسلة؟

أنهى فرجيل ما تبقّى من عصير البرتقال وهو يهزّ رأسه نافيًا بحركة بطيئة.

- أرى الأمر صعبًا للغاية. فمنذ عشرة أعوام، أو اثني عشر، سمعتُ مَن يقول إنّ أحدهم وجد نسختين أو ثلاثًا من «المتاهة» في قاع صندوقٍ في أقبية مكتبة ثربانتس في إشبيلية، وإنّ أسعارها كانت خياليّة.

أمّا في أيّامنا هذه، برأيي، فلا يمكن العثور على شيء من هذا القبيل إلّا في محلّ كوستا لبيع التحف القديمة، في ڤيك، أو برشلونة. ربّما غوستابو برسلوه على سبيل المثال، أو سيمبيري إذا كان الحظّ حليفًا، لكنّني أستبعد ذلك.

- مكتبة سيمبيري وأبناؤه؟

نظر إليها فرجيل متعجّبًا.

- أتعرفينها؟

- سمعتُ عنها. - ردّت أليثيا.

- أنصح بالمحاولة مع برسلوه أوّلًا، فهو مختصٌّ بالقطع النادرة ولديه صلاتٌ بأبرز هواة اقتناء التحف. فإن كان كتابٌ كهذا موجودًا عند كوستا، فلا بدّ أنّ لبرسلوه علمًا بذلك.

- وهل السيّد برسلوه هذا مستعدٌّ للحديث معي؟

- أعلم أنّه متقاعدٌ تقريبًا. لكنّه يجد الوقت دومًا لآنسةٍ تحظى بحضورٍ لائق. فهمتِ قصدي.

- سأتجمَّل بأبهى ما عندي.

- لسوء الحظّ أنّي لن أكون هناك لأراكِ. لن تخبريني عن سبب كلّ هذا أليس كذلك؟

- لستُ متأكدة بعد يا فرجيل.

- هل لي أن أطلب منكِ معروفًا؟

- بالتأكيد.

- عندما تنتهي هذه القصة التي بين يديكِ، هذا إذا انتهت وخرجتِ منها كاملة الأعضاء وما زال الكتاب لديكِ، هلّا أعرتِني إيّاه؟ يسعدني أن أقضي بعض الوقت بمفردي في صحبته.

- ولماذا لا أخرج من القصّة كاملة الأعضاء؟

- ومن يدري. إذا كان لكتب متاهة ماتايكس ميزة، فهي أنّ جميع الذين وقعتْ بين أيديهم انتهى بهم المآل إلى التهلكة.

- وهل هذه أسطورة أخرى من أساطيرك؟

- كلا. هذه حقيقة.

أواخر القرن التاسع عشر، انزاحت جزيرةٌ على شكل مقهى أدبيّ وصالون أشباح عن العالم. ومنذ ذلك الحين، وقد تجمَّد بها الزمن بعونٍ من التيّارات التاريخيّة، ما زالت تطوف وتجوب الشوارع الكبرى لمدريد الخياليّة، حيث عادةً ما يجدونها راسيةً عند اليابسة، وراية مقهى جيخون ترفرف أعلاها، على بُعد خطوات من مبنى المكتبة الوطنيّة.

وهناك تنتظر. مستعدّة لإيواء مَن يصل إليها عطشان الحلق ظمآن الروح وإنقاذه من الغرق، كما لو أنّها ساعة رمليّة كبيرة وعائمة، حيث يتسنى لأعقل العقلاء أن ينظر إلى نفسه في مرآة ذكرياته ليظنّ كلّ الظن، ولو للحظة عابرة، بأنّه سيعيش إلى الأبد. وذلك كلّه بثمن فنجان قهوة لا غير.

خيّم الغروب على المدينة حينما اجتازت أليثيا الشارع متّجهةً إلى أبواب جيخون. كان بارغاس بانتظارها متمركزًا على طاولة بجانب النافذة، يتذوّق إحدى سجائره المستوردة ويراقب المارّة بعيون رجل أمن. رفع يده وأشار لها عندما رآها داخلة. جلست أليثيا واصطادت نادلًا بتسديدة موفّقة من نظراتها وطلبت منه أن يأتيها بفنجان قهوة ممزوجة بالحليب لعلّها تطرد عنها البرد الذي اكتسح عظامها في أعماق دهاليز المكتبة.

- هل تنتظرني منذ وقت طويل؟ - سألته.

- طوال حياتي. - ردّ بارغاس - هل من نتائج مثمرة للظهيرة؟

- نوعًا ما. وأنت؟

- لا يمكنني أن أشتكي. فبعد أن تركتكِ، ذهبتُ إلى دار نشر ڤايس لملاقاة بابلو كاسكوس بوينديا ذاك. وكنتِ على حقّ. ثمة شيء غير واضح في المسألة.

- وهو؟

- تبيَّنَ أنّ كاسكوس بحدّ ذاته أقلّ من أن يُوصَف بالبسيط، رغم أنّه يتظاهر بالعظمة.

- كلّما كانوا أغبياء صاروا شجعانًا. - قالت أليثيا.

- في البدء عرض عليّ الصديق كاسكوس جولة فخريّة في مكاتب دار النشر ثمّ راح يلمِّع الصورة المثاليّة لحياة الدون ماوريسيو ڤايس كما لو أنّها حياته.

- من الوارد انّك لا تخطئ. فغالبًا ما كانت شخصيّاتٌ مثل ڤايس تجرّ خلفها حاشية لا حصر لها من العبيد ولا عقي الأحذية.

- وبطبيعة الحال، كان في ذلك المكان عبيد بقدر ما تشائين.

عمومًا، وجدتُ كاسكوس مضطربًا. في فمه ماء، ولم يكفّ عن طرح الأسئلة.

- هل قال لماذا استدعاه ڤايس إلى مكان إقامته؟

- اضطررتُ للضغط كثيرًا، لأنّه في البداية كان يتمنَّع.

- ثمّ تنتقدني على الضغط.

- إنّني أحسن صنعًا مع المتصابين والوصوليّين، لا يمكن نكران ذلك.

- حدّثني.

- دعيني أرجع إلى المفكِّرة لأنّ المادّة دسمة... ها نحن ذا.

اتّضح أنّ الدون بابليتو، في شبابه، كان قد خطب آيةً في الحسن تدعى بياتريز أغويلار. ثمّ هجرته بياتريز هذه عندما كان المسكين يؤدّي الخدمة العسكريّة، لتتزوّج وهي مقبلة على الأمومة، إن صحّ التعبير، بشخصٍ اسمه دانيال سيمبيري، نجل صاحب محل بيع الكتب المستعملة في برشلونة، «سيمبيري وأبناؤه»، المحبّبة إلى قلب سيباستيان سالغادو، والتي زارها في مناسبات متعددة ما إن أُفرِجَ عنه، وذلك ليجدّد معلوماته حول الإصدارات الأدبيّة في العقدين الأخيرين بالتأكيد. تذكرين أنّ التقرير يشير إلى عاملين من تلك المكتبة، أحدهما هو دانيال سيمبيري نفسه، لاحقا سيباستيان سالغادر بعد خروجه من عندهما حتى المحطة، في اليوم الذي مات فيه.

كانت نظرات أليثيا مشحونةً بأعاصير الكهرباء.

- تابع، أرجوك.

- عودةً إلى صاحبنا، كاسكوس. الواقع أنّ بطلنا المكسور، كاسكوس بوينديا، الملازم ذا القرنين، فَقَدَ صلاته بغرامه، بياتريز الشهيّة، التي يُقسِم أنّها كانت وما زالت جميلةً، بحيث إنّ هذا العالم

لو كان فيه إنصاف، لكانت بقيت معه لا مع ذلك المحتال دانيال سيمبيري.

- العسل لم يُصنَع للحمير. - قالت أليثيا.

- ابتهجتُ بالسيّدة بياتريز بعد نصف ساعة من الحديث مع كاسكوس، ومن دون حتّى أن أعرفها. هذه مقدِّمات حتّى الساعة.

فلنقفز الآن في الزمن إلى منتصف عام 1957، فبعد أن أرسل بابلو كاسكوس سيرته الذاتيّة مزوّدةً بالتوصيات العائليّة إلى نصف مؤسسات إسبانيا، تلقّى مكالمة هاتفيّة غير متوقّعة من دار النشر أريادنا، التي أسّسها الدون ماوريسيو ڤايس في العام 1947، والتي ما زال يرأسها، ويعود معظم أسهمها إليه حتى هذه اللحظة. يستدعونه للمقابلة ويعرضون عليه وظيفة في المكتب التجاريّ كممثّلٍ عنهم في كلٍّ من مقاطعة أراغون وكاتالونيا وبالياريس. راتبٌ جيّد، وإمكانيّةٌ لمسيرة واعدة. يوافق بابلو كاسكوس على العرض مسرورًا، ويباشر العمل.

تمرّ الأشهر، إلى أن يأتي يومٌ يظهر فيه الدون ماوريسيو ڤايس في مكتبه، بلا سبب، ويدعوه بكلّ سرور إلى العشاء في هورشر.

- اللعنة. عشاء على مستوى رفيع.

- بدا لكاسكوس غريبًا أن يُقدِم رئيس دار النشر وإحدى أشهر القامات الثقافيّة في إسبانيا، على دعوة موظّفٍ من مستوى متوسّط، على حدّ توصيف السيّدة ماريانا، وهو الذي لم يعرفه شخصيًّا على الإطلاق، ليدعوه إلى مطعمٍ بات رمزًا للفاشيّة الممجَّدة، ومن الوارد أنّ مومياء الدوتشي مدفونة في أحد سراديبه. وبين كأس وآخر، يروي ڤايس على مسمع الشابّ أنّه سمع مديحًا كثيرًا عنه وعن عمله في المكتب التجاريّ.

- وهل تنطلي على كاسكوس؟

- لا. إنّه مغفّل ولكن ليس إلى ذلك الحدّ. يشمّ رائحة شيء غريب في الموضوع، ويتساءل ما إذا كان عرض العمل الذي وافق عليه هو ما كان يتصوّره حقًّا. بينما يتابع ڤايس التمثيليّة إلى أن يحين موعد القهوة. عندئذ، أي بعدما بات الرجلان صديقين حميمين، وقد رسم الوزير مستقبلًا زاهرًا له في المؤسسة قائلًا إنّه يفكّر به مديرًا تجاريًّا لدار النشر، يسدّد ضربته.

- يطلب معروفًا صغيرًا.

- تمامًا. يطفو على السطح فجأة ولعُ ڤايس بالمكتبات المستقلّة، بوصفها أعمدة معجزة الأدب ومعابده، ولاسيّما مكتبة سيمبيري، التي يُكِنُّ لها شغفًا من نوع خاص.

- لا يفصح ڤايس كيف وُلِدَ هذا الشغف؟

- لا يتطرّق إلى تفاصيله. إلّا أنّ السبب الملموس متعلّق باهتمامه بعائلة سيمبيري، وتحديدًا بصديقٍ قديم للمرحومة زوجة صاحب المكتبة، والدة دانيال، إيزابيلا.

- هل عرف ڤايس السيّدة إيزابيلا سيمبيري؟

- بحسب كاسكوس، ليس إيزابيلا فقط، بل بصديقها العزيز أيضًا. احزري من هو... دافيد مارتين.

- يا للهول!

- غريب، أليس كذلك؟ هو الاسم الغامض الذي ذكرته السيّدة ماريانا في اللحظة الأخيرة، عندما تحدّثت عن اللقاء البعيد الذي جمع الوزير بخليفته في إدارة سجن مونتويك.

- تابع.

- الحال أنّ ڤايس يتقدَّم بطلبه هذا. مؤكّدًا أنّه سيظلّ ممتنًّا إن استطاع كاسكوس أن يستعيد تواصله مع بياتريز، مستعينًا بجاذبيّته ودهائه وإخلاصه القديم لها؛ لإعادة بناء الجسور المهدّمة.

- أن يغريها؟

- فلنقل ذلك.

- وما غايته؟

- للتحقّق ممّا إذا كان دافيد مارتين ما يزال على قيد الحياة وإذا أقام تواصلًا مع عائلة سيمبيري طوال تلك السنوات.

- ولِمَ لا يطلب الوزير هذا من آل سيمبيري مباشرةً؟

- مرّة أخرى، كاسكوس طرح السؤال نفسه على معاليه.

- وبم أجاب....؟

- أجاب بأنّ الموضوع كان في منتهى الحساسيّة، متعلّقٌ بميول شخصيّة. ولأسبابٍ لم تكن اللحظة سانحة لاستعراضها كان يفضِّل أن يجسّ النبض أوّلًا لمعرفة مدى صحّة شكوكه بتحرّكات مارتين من خلف الكواليس.

- وماذا حدث بعدها؟

- حسنًا، حدث أنّ كاسكوس، من دون أن يأخذ مهلة للتفكير بالأمر، سرعان ما بدأ بكتابة الرسائل بنثرٍ زاخرٍ بالعاطفة لمحبوبته القديمة.

- وهل حصل على جواب؟

- يا إلهي كم تحبّين الدسائس الغراميّة...

- بارغاس هات المفيد.

- المعذرة. كنتُ أقول... في البدء، لم يحصل على جواب.

تجاهلت بياتريز غزل الدون جوان المخبول، إذ أصبحت زوجةً وأمًّا.

إلّا أنّ كاسكوس لا يستسلم، بل يفكّر في امتلاكه فرصة أخرى لاسترداد ما سُلِبَ منه.

- غيومٌ سوداء على زواج دانيال وبياترير؟

- من يدري. ثنائيٌّ في مقتبل العمر، تزوّجا بعجالة، وفي أحشائها جنينٌ حتى قبل المرور على الكنيسة... حالةٌ هشّةٌ بشكلٍ مثاليّ. الواقع أنّ الأسابيع تمرّ وبياتريز لا ترّد على الرسائل. وڤايس

يواصل إلحاحه.

ما يثير توتّر كاسكوس. ڤايس يلمح إلى إنذار. كاسكوس يبعث رسالة نهائيّة يدعو فيها بياتريز إلى لقاءٍ مستتر في أحد أجنحة فندق ريتز في يناير من هذا العام.

- وبياتريز تحضر إلى اللقاء.

- لا. ولكن دانيال أجل.

- زوجها؟

- شخصيًّا.

- هل أطلعته بياتريز على تلك الرسائل؟

- أو أنّه اكتشفها بنفسه... لا فرق. المهمّ أنّ دانيال سيمبيري يسجّل حضوره في فندق ريتز، وحين يستقبله كاسكوس بكلّ ما أوتي من لباقة ولياقة، ملفوفًا بالرداء المعطّر، ومنتعلًا خفّين وحاملًا كأسين شمبانيا، ينهال عليه دانيال الغيور باللكمات ويصمّم له وجهًا جديدًا.

- نال استلطافي دانيال هذا.

- لا تتسرّعي. بالنسبة إلى كاسكوس، الذي ما زال يحمل آثار المشاجرة على وجهه، كاد دانيال يقتله، وكان سيفعلها، لولا أنّ العركة لم تتوقّف بسبب تدخُّل رجل أمن كان مارًّا من هناك.

- كيف؟

- هذه النقطة الأخيرة تستوجب الشكّ المطلق. أرى أنّ ذلل الرجل ما هو إلّا رفيقٌ لدانيال سيمبيري، وليس بشرطيّ.

- وبعد؟

- وبعد، يعود كاسكوس إلى مدريد، وقد صار وجهه كحبّة الأناناس، ذيله بين ساقية، والغضب يتأجج في جسده، يفكّر في ما سيقوله على مسامع الوزير.

- وماذا قال الوزير؟

- أصغى إليه بهدوء، ثمّ جعله يحلف على عدم إفشاء ما جرى، وما طلبه منه، لأيّ أحد.

- أهذا كلّ شيء؟

- هذا ما يبدو للوهلة الأولى. إلى أن اتّصل ڤايس به مجدّدًا، قُبَيلَ أيّام على اختفائه، وحدّد له موعدًا في بيته للتحدّث بموضوعٍ لم يعرب عن ماهيّته، لكنّه قد يكون منوطًا بشأن سيمبيري وإيزابيلا، والرجل اللغز دافيد مارتين.

- الموعد الذي تخلّف عنه ڤايس نفسه.

- وهذا كلّ ما توصّلنا إليه حتّى الآن.

- ما الذي نعرفه عن دافيد مارتين؟ هل كان لديك وقتٌ لاكتشاف شيءٍ ما عنه؟

- أشياء قليلة. إلّا أنّ ما تمّكنتُ من اكتشافه يَعِدُ بالكثير. كاتبٌ منسيّ، و- انتبهي - سجينٌ في قلعة مونتريك من عام 1939 وحتّى عام 1941.

- بالتزامن مع ڤايس وسالغادو. - أشارت أليثيا.

- رفاق الدُفعة، كما يُقال.

- وبعد أن يخرج من السجن، ما الذي يحدث لدافيد مارتين ابتداءً من عام 1941؟

- لا وجود لـ«بَعد». فالبطاقة الأمنيّة تعلن أنّه مفقود وميّت في محاولة فرار.

- وماذا يعني هذا إذا ترجمناه على أرض الواقع؟

- من المحتمل أنّه أُعدِمَ ودُفِنَ على حافة إحدى الطرقات او في حفرة جماعيّة.

- بأوامر من ڤايس؟

- احتمالٌ واردٌ جدًّا. ففي تلك الآونة لم يكن لأحدٍ غيره السلطة والتفويض لفعلها.

قيّمت أليثيا تلك المعطيات قليلًا.

- وما السبب الذي يدفع ڤايس للبحث عن ميتٍ أصدر حكم قتله بنفسه؟

- في بعض الأحيان هناك موتى لا يبقون أمواتًا إلى الأبد. تذكّري إل سيد.

- سنفترض إذن أنّ ڤايس يعتقد أنّ مارتين ما يزال حيًّا... - قالت أليثيا.

- هكذا تصبح الأمور منطقيّة.

- حيٌّ ومتعطِّشٌ للثأر. لعلّه يحرّك خيوط سالغادر من الظلّ، بانتظار اللحظة السانحة للانتقام.

- الأصدقاء القدامى الذين يوطّدون علاقتهم في السجن لا يُنسَون بسهولة. - أكّد بارغاس.

- الأمر الذي ما يزال مكتنفًا بالغموض هو طبيعة العلاقة بين مارتين وعائلة سيمبيري.

- لا بدّ من وجود شيء ما، حتّى إنّ ڤايس نفسه منع الشرطة من التوغّل في تلك الجهة، وآثر أن يجرِّب استخدام كاسكوس للتحقّق.

- وربّما يكون ذلك الشيء هو مفتاح كلّ ما نحن فيه. - قالت أليثيا.

- ألسنا نشكِّل فريقًا ممتازًا؟

لاحظت أليثيا تلك الابتسامة الماكرة التي تتبدّى علي شفاه بارغاس.

- أهناك شيء آخر؟

- وهل يبدو لكِ كلّ ذلك قليلًا؟

- هات ما عندك.

أشعل بارغاس سيجارة ومجّ منها، يتأمّل خيوط الدخان التي تتلوّى بين أصابعه.

- حسنًا، بعد ذلك، وبما أنّكِ كنتِ ما تزالين في زيارة أصدقائكِ، وبعد أن حللتُ القضيّة بمفردي عمليًّا بحيث تتسلّمين حضرتكِ أكاليل الغار، مررتُ بالمباحث لأحصل على رسائل السجين سالغادو، وسمحتُ لنفسي باستشارة صديقي ثيخيس، الخبير بالخطوط في بيتنا.

لا تقلقي، لم أطلعه على الشأن، ولا هو سألني. عرضتُ عليه أربع أوراق لا على التعيين، وبعد أن تفحصَّها جيّدًا، قال إنّها تتضمّن أدلّة متعدّدة، في التنقيط والوصل وكتابة أربعة عشر حرفًا على الأقلّ، تجعله يستبعد أنّ كاتبها يستعمل يده اليمنى. لا أدري إلى ما استند، زاوية الكتابة أو الحبر المتدفّق على الورقة أو الربط أو أشياء من هذا النوع.

- وإلامَ يوصلنا هذا؟

- إلى أنّ مَن كتب تلك الرسائل التهديديّة بحقّ ڤايس هو أعسر.

- يعني؟

- يعني أنّه إذا اعتمدنا على التقرير حول مراقبة سيباستيان سالغادو الذي أعدّه قسم الشرطة في برشلونة بعد الإفراج المفاجئ عنه في يناير من هذا العام، نستنتج أنّ صاحبنا فَقَدَ يده اليسرى عندما كان سجينًا وأنّه استعاض عنها بيدٍ خزفيّة اصطناعيّة. يبدو أنّه كان تحت رحمة محقّقٍ غليظ اليد أثناء الاستجواب، إن سُمِحَ لي بقول هذا.

رأى أنّ أليثيا كادت تقول شيئًا، لكنّها سكتت على حين غرّة، وشردت نظراتُها. وأخذ وجهُها يصفرّ بلحظة واحدة، ولا حظ بارغاس ستارةً من العرق تنسدل على جبينها.

- بكلّ حال، لم يكن لسالغادو الأبتر أن يكتب تلك الرسائل. هل تسمعينني يا أليثيا؟ هل أنتِ بخير؟

انتفضت واقفةً وارتدت سترتها.

- أليثيا؟

حملت الملفّ ورسائل سالغادو المفتَرضة من على الطاولة، ووجّهت إلى بارغاس نظرةً غائمة.

- أليثيا؟

وابتعدت نحو المخرج، تلاحقها نظرات بارغاس المضطربة.

(15)

اشتدّ الألم عندما خرجت إلى الطريق. لم تشأ أن يراها بارغاس على تلك الحال. لم تشأ أن يراها أيّ أحد على تلك الحال. فالنوبة التي أوشكت على اجتياحها كانت من النوع السيئ جدًّا. اللعنة على برد مدريد. لم تكسب شيئًا من جرعة منتصف النهار إلّا قليلًا من الوقت.

حاولت أن تبتلع الصعقات الأولى على الخاصرة بالتنفّس ببطء ومتابعة المشي، مترنّحةً عند كلّ خطوة. ولم تكد تصل إلى ساحة ثيبيليس حتّى اضطرت للتوقّف والتشبّث بأحد أعمدة الإنارة، أملًا بزوال التشنّج الذي استبدّ بها كما لو كان تيارًا كهربائيًّا يهشِّم عظامها. كانت تشعر أنّ الناس يمرّون بجانبها وينظرون إليها بطرف العين.

- هل أنتِ بخير يا آنسة؟

فتومئ بنعم لمارّةٍ لا تعرفهم. وعندما استعادت أنفاسها أوقفت سيّارة أجرة وطلبت من السابق أن يُقلّها إلى فندق هسبانيا. رمقها الرجل باضطراب لكنّه لم يقل شيئًا. خيّم الظلام وكانت أنوار الغران ڤيا تجرف الجميع بموجةٍ رماديّةٍ مؤلَّفةٍ من أولئك الخارجين من مكاتبهم للعودة إلى منازلهم، وأولئك الذين لا يعرفون إلى أين يذهبون. ألصقت أليثيا وجهها بزجاج النافذة وأغمضت عينيها.

وعندما وصلت إلى الفندق طلبت من السابق أن يساعدها في النزول. وتركت له إكراميّةً وفيرة وسارت باتجاه البهو تتلقّفها الجدران.

وما إن رآها موظف الاستقبال، ماورا، انتفض وهُرِع إلى جانبها منشغل البال عليها. أخذ بخصرها وساعدها على بلوغ المصعد.

- مجدَّدًا؟ - سألها.

- ستزول على الفور. إنّها بسبب هذا الطقس...

- وجهكِ مصفرٌّ كثيرًا. هل أستدعي لكِ طبيبًا؟

- لا ضرورة. ففي الأعلى، لديّ الأدوية اللازمة.

هزّ رأسه على غير اقتناع. فربّتت أليثيا على ذراعه.

- إنّك صديقٌ طيّب يا ماورا. سأفتقدك.

- هل ستسافرين إلى مكان ما؟

ابتسمت له أليثيا وركبت المصعد وأومأت إليه بما يعني ليلة سعيدة.

- بالمناسبة، أعتقد أنّ لديكِ ضيوفًا... - أخبرها ماورا بينما كانت أبواب المصعد تنغلق.

سارت في الممرّ الطويل المظلم حتى وصلت غرفتها وهي تعرج وتستند إلى الجدران. اجتازت عشرات الأبواب المغلقة التي توصد خلفها غرفًا خاوية. في أمسياتٍ كتلك، كانت أليثيا تشكّ في

أنّها النزيلة الوحيدة الحيّة في ذلك الطابق، فلطالما توجّست من أنّ أحدًا يراقبها. وفي بعض الأحيان، إذا توقّفت في قلب الظلام، تكاد تسمع أنفاس النزلاء الدائمين على رقبتها، او تشعر بملمس اصابعهم على وجهها. وعندما وصلت إلى باب غرفتها في آخر الممرّ توقّفت برهةً لاهثة الأنفاس.

فتحت الباب ولم تجد أيّ داع لإضاءة النور. إذ كانت لافتات النيون لصالات السينما والمسارح في الغران ڤيا تعرض هالةً متأرجحة لتنتشر في الغرفة سرابًا يتخلّله وميض الضوء. وكان الطيف الجالس على المقعد موليًا ظهره إلى الباب، السيجارة المشتعلة في يده ولولبُ الدخان يحيك لوحةً فسيفسائيّةً في الهواء.

- ظننتُ أنّكِ ستأتين إليّ في آخر النهار. - قال لياندرو.

ترنّحت أليثيا حتى السرير وهوت عليه بكلّ الإنهاك الذي أصابها.

التفت معلّمها وتنهّد وهو يهزّ رأسه.

- هل أحضِّرها؟

- لا أريد شيئًا.

- أهذه كفَّارةٌ عن ذنوبكِ أم إنّكِ تحبّين التألُّم بلا جدوى؟

نهض لياندرو واقترب منها.

- أرني.

انحنى إليها وجسّ خاصرتها ببرودة أعصاب الممرِّضين.

- متى تجرّعتِ آخر حقنة؟

- في منتصف النهار. عشرة ملليغرامات.

- لا تكفيكِ هذه الكميّة حتّى كبداية. تعرفين ذلك.

- ربّما كانت عشرين ملليغرامًا.

هزّ رأسه خائبًا. وذهب نحو الحمّام متّجهًا إلى الخزانة الصغيرة مباشرة. أخذ منها المحفظة المعدنيّة وعاد إلى اليثيا. جلس على حافة السرير، وفتح المحفظة وبدأ بإعداد الحقنة.

- لا تعجبينني عندما تفعلين هكذا. - قال - تعرفين ذلك.

- إنّها حياتي.

- عندما تؤذين نفسكِ هكذا، فإنّها حياتي أيضًا. استديري.

أغمضت عينيها واستدارت جانبًا. رفع لياندرو لباسها حتى خصرها. وفكّ مغاليق المِشَدّ ونزعه. فيما كانت أليثيا تتأوّه وجعًا، وتغمض عينيها بقوّة وتتنفّس بمشقّة.

- هذا يؤلمني أكثر ممّا يؤلمكِ. - قال.

أمسك فخذها وثبّتها على السرير. كانت الفتاة ترتجف عندما غزّ الإبرة في الإصابة عند الخاصرة. أطلقت عويلًا مخنوقًا وانشدَّ كاملُ جسمها كالوتر بضع ثوانٍ. أخرج لياندرو الإبرة ببطء وترك الحقنة على السرير. وخفّف من ضغط يديه عن ساق أليثيا شيئًا فشيئًا، ثمّ جلّس استلقاءها إلى وضعيّة النوم. أخفض لباسها وعدّل رأسها على الوسادة برفق. كان جبينها يضخّ عرقًا، فمسحه لياندرو بالمنديل. حدّقت إليه بعينين زجاجيّتين.

- كم الساعة؟ - غمغمت.

داعب لياندرو خدّها.

- ما زال الوقت باكرًا. استريحي.

(16)

أفاقت تحت ظلام الغرفة ولمحت طيف لياندرو على المقعد بجانب السرير. كان كتاب فكتور ماتايكس بين يديه يقرأ فيه. تصوّرت أليثيا أنّ لياندرو فتّش جيوبها وحقيبتها وهي نائمة، وربّما فتّش في أدراج الغرفة أيضًا.

- أفضل؟ - سألها دون أن يرفع عينيه عن النصّ.

- اجل. - قالت.

لطالما كانت الصحوة مصحوبةً بصفاء ذهن غريب من نوعه، وبإحساسٍ أنّ الشرايين يسكنها جيلاتين متجمّد. كان لياندرو قد وضع عليها الغطاء، فتحسّست جسمها وتحقّقت أنّها ما تزال في ثيابها.

عدّلت جلستها وأسندت ظهرها إلى صدر السرير. استحال الألم إلى نبضٍ طفيف ومكبوت متوارٍ تحت البرد. انحنى لياندرو بجذعه نحوها ومدّ إليها كأسًا. فشربت منه رشفتين. لم يكن ماءً من حيث الطَّعم.

- ما هذا؟

- اشربيه.

تجرّعت أليثيا السائل. أغلق لياندرو الكتاب وتركه على الطاولة.

- لم أتمكّن يومًا من فهم ذائقتكِ الأدبيّة يا أليثيا.

- لقد وجدته مخفيًّا في طاولة مكتب ڤايس.

- وهل تظنّين أنّ له شأنًا بمهمّتنا؟

- لا أستبعد أيّ احتمال في اللحظة الراهنة.

أومأ لياندرو مستحسنًا.

- بتِّ تتحدّثين مثل خيل دي بارتيرا. كيف هو زميلكِ الجديد؟

- بارغاس؟ يبدو ماهرًا.

- هل هو موثوق؟

شدّت أليثيا كتفيها.

- إن قال ذلك من لا يثق حتّى بخياله، لا أعرف إن كان عليَّ أن آخذ شكوككِ إشارةً على اعتناقكِ الإيمانَ بالنظام.

- خذها كما تشاء. - ردّت.

- هل نحن ما زال متحاربين؟

تنهّدت أليثيا، وهي تنفي برأسها.

- هذه لم تكن زيارةً وديّة يا أليثيا. لديّ التزامات كثيرة، وأشخاصٌ ينتظرونني على العشاء في البالاس منذ مدّة. ماذا لديكِ لتقصّيه عليّ؟

لخّصت الفتاة أحداث اليوم بإيجاز وتركته يهضم التقرير على مَهَل، كعادته. نهض الرجل واقترب من النافذة. فلاحظت أليثيا طيفه الثابت البارز من بين أضواء الغران ڤيا. كانت ذراعاه وساقاه النحيلتان على جذعه غير المتناسق تضفي عليه ملامح العنكبوت المعلّق على شبكته. لم تقطع عليه تأمّلاته. فكانت قد تعلّمت أنّ لياندرو يحبّ أن يأخذ وقته لحبك الدسائس والمكائد، متلذّذًا بكلّ معطى وآخذًا بالحسبان كيف التجنُّبُ أيَّ ضررٍ ممكنٍ مهما تفاقم.

- أتصوّر أنّكِ لم تخبري سكرتيرة الوزير بأنّك وجدتِ هذا الكتاب وأنّكِ أخذتِه. - أشار في النهاية.

- لا. بارغاس وحده يعرف أنّ الكتاب معي.

- سيكون من الأفضل أن يبقى أمره بيننا. هل تعتقدين أنّكِ قادرة على إقناعه بعدم إخبار مدرائه؟

- أجل. عدّة أيّام على الأقلّ.

تنهَّد لياندرو، مستاءً بعض الشيء. ابتعد عن النافذة وعاد إلى المقعد بهدوء. وارتاح عليه من جديد، ووضع ساقًا فوق ساق، مخصّصًا بضع ثوانٍ لتفحُّص أليثيا بعيون طبيبٍ شرعيّ.

- سأكون مسرورًا إن كشف عليكِ الطبيب بايخو.

- تحدّثنا في الأمر مسبقًا.

- إنّه أكبر الاختصاصيّين في البلد.

- كلا.

- دعيني أحدِّد لكِ موعدًا. معاينة لا تُلزِمكِ بشيء.

- كلا.

- إن كان عليكِ أن تجيبي بإيجاز كهذا، فنوِّعي قليلًا.

- موافقة. - ردّت أليثيا.

أخذ الكتاب عن الطاولة ثانية وتصفّحه، متبسِّمًا في سرّه.

- هل يضحكك؟

نفى برأسه ببطء.

- لا. بل إنّه في الحقيقة يوقِف شعر رأسي. كنت أفكّر فقط في أنّه كُتِبَ من أجلكِ خصّيصًا.

كان لياندرو يمرّ بعينيه على صفحات الكتاب، يستوقفه شيءٌ ما هنا أو هناك ويملأ عينيه تشكُّكًا. أعاده إليها أخيرًا وركّز فيها أنظاره. كانت عيناه تتميّزان بلمحةٍ يسوعيّة، كتلك العيون التي

تستبصر الخطايا قبل أن تتشكّل في الأذهان وتمنح التوبة برفيف الرموش.

- لعلّ العشاء المهم في البالاس يفتر الآن. - ارتجلت أليثيا.

منحها بركاته المسكونيّة ونهض عن المقعد.

- لا تنهضي. استريحي. تركتُ لكِ عشر قوارير من مئة ميللغرام في خزانة الحمّام.

زمّت أليثيا شفتيها حانقةً، لكنّها حافظت على هدوئها. هزّ لياندرو رأسه واتّجه نحو الباب. وقبل أن يغادر الغرفة، توقّف وصوّب إليها سبّابته.

- إيّاكِ وارتكاب حماقة. - حذّرها.

ضمَّت كفّها بكفّها الآخر كأنّها تصلّي، وابتسمتْ.

(17)

بعد أن تخلّصت من وجود لياندرو وهالته الإداريّة التي تتبعه في كلّ مكان، أقفلت أليثيا الباب بالمزلاج، وتسمّرت تحت الدوش وسلّمت أمرها للبخار وإبر الماء الساخن قرابة الاربعين دقيقة. لم تتكلّف حتى عناء إشعال الضوء فظلّت غارقة في الضياء الواهن المتغلغل من نافذة الحمّام، سامحةً للماء أن ينزع ثقل النهار عن كاهلها. لا بدّ أنّ سخّانات المياه في فندق هسبانيا كانت مدفونة في إحدى زوايا الجحيم، وكانت الأنابيب من خلف الجدران تتخبّط مصدرةً أنغامًا معدنيّة مخدِّرة. وقبل أن ينسلخ جلدها عن عظامها، أغلقت الماء وظلّت بضع دقائق هناك تصغي إلى قطرات المياه وهمهمة الزحام في الغِران ڤيا.

لاحقًا، تدثّرت بمنشفة واصطحبت معها كأسًا فائضة بالنبيذ الأبيض، واستلقت على السرير لتنظر في الملفّ الذي أعطاه لها خيل دي بارتيرا في الصباح، إضافةً إلى المجموعة التي تحتوي على الرسائل المفترضة من سيباستيان سالغادو، أو دافيد مارتين المشكوك في موته، إلى الوزير ڤايس.

بدأت من الملف، تقارن بين ما اكتشفته خلال النهار بالرواية الرسميّة لجهاز الشرطة. وكما الكثير من تقارير الشرطة، كان لا يقول إلّا أقلّ الأشياء أهميّة، أمّا الجوانب المهمّة فكانت مغيّبة. وإنّ محضرَ الاغتيال المزعوم الذي تعرّض له الوزير في أكاديميّة الفنون الجميلة خيرُ مثال على ذلك، لاحتوائه على تكهُّناتٍ مائعة وغير مقنعة تشوبها الغرابة. لا شيء أكثر من توصيف غير مقرون بأدلّة عن إفادة ڤايس، الذي ادّعى أنّه رأى بين الحاضرين أحدًا ينوي إنهاء حياته. والنقطة المتوقّدة يقدِّمها أحد الشهود المزعومين على المؤامرة المزعومة وصلاتها بالرجل المزعوم الذي زعموا أنّهم رأوه يتحرّك خلف الكواليس بما يشبه القناع أو شيءٍ يغطّي جزءًا من وجهه. أصدرت أليثيا تنهيدة انزعاج.

ما كان ينقصنا إلّا زورو. - تمتمت.

وبعد أن تعبت من تصفُّح الوثائق التي بدت انّها مُعدَّةٌ لتمنح الملفّ صبغة التقرير، تركت المحضر وتهيّأت لإلقاء نظرة على الرسائل.

أحصت اثنتي عشرة رسالة، مكتوبة كلّها على أوراقٍ مصفرّة ومرقّطة بخطٍّ عصابيّ. وأطولها كان لا يتعدّى مقطعين وجيزين. بدت أنّها مكتوبة بقلمٍ مستهلَك، يضخّ الحبر بطريقة غير منتظمة، ويخلّف خطوطًا عريضة بجانب أخرى لتسطير الصفحة كيفما اتّفق. وكانت يد الكاتب نادرًا ما توصل حرفًا بالحرف الذي يليه، لتعطي انطباعًا بأنّ النصّ مؤلَّفٌ حرفًا بعد حرف. أمّا الموضوع فكان مطروقًا ويلحّ على نقاطٍ بعينها رسالةً تلو رسالة. الكاتب يشير دائمًا إلى «الحقيقة» و«أبناء الموت» والموعد «عند مدخل المتاهة». لقد تلقّى ڤايس تلك الرسائل على مدى أعوام، لكنّ شيئًا ما في النهاية دفعه للقيام بإجراء حيالها.

- ما هو؟ - همست أليثيا.

الإجابة موجودة في الماضي دومًا. كان هذا أوّل دروس لياندرو.

ذات مرّة، لفظ معلّمها تلك العبارة بعد جنازة أحد المدراء الرئيسيّين في فريق التحقيق المدنيّ في برشلونة، إذ أرغمها على مرافقته كونها جزءًا من مجموعته. والحكمة من عبارته هي أنّه ابتداءً من نقطة معيّنة في حياة شخص ما، يصبح مستقبله في ماضيه بشكلٍ لا يمكن تغييره.

- أليس هذا بديهيًّا؟ - سألته أليثيا.

- ستفاجئين بكم نبحث دومًا في الحاضر أو المستقبل عن إجاباتٍ موجودة في الماضي.

كان لياندرو ميّالًا إلى حدٍّ ما للشذرات التعليميّة. لكنّ أليثيا ظنّت حينها أنّه يتحدّث عن المتوفّى، أو ربّما يقصد نفسه وموجة الظلّ التي خلّفها على ضفاف السلطة، مثل كلّ الرجال المتنفّذين الذين تسلّقوا هرم النظام العسير، وباتت تسمّيهم مع مرور الوقت ب«المنتخبين».

أولئك الذين يطفون على سطح المياه العكرة دومًا، كالحثالة. كوكبةٌ من الأبطال الذين لا يبدون انّهم ولدوا من رحم أمٍّ بقدر ما انّهم خرجوا من معطف القذارة الذي يجرّ أذياله في شوارع تلك الأرض الموحشة كنهرٍ من الدماء يتفجّر من فتحات المجاري. أدركت أليثيا أنّها استمدّت تلك الصورة من الكتاب الذي وجدته في مكتب ڤايس. دماءٌ تتدفّق من مجاري الصرف وتفيض بالشوارع شيئًا فشيئًا. «المتاهة».

تركت الرسائل تسقط أرضًا وأغمضت عينيها. فلطالما فتح السمُّ الدوائيُّ الباردُ مستودعاتِ دماغها على وسعها. هو الثمن الذي تدفعه لإخراس آلامها. وكان لياندرو يعلم ذلك جيّدًا. يعلم أنّ اليثيا، تحت طبقة الجليد تلك حيث لا وعيٌ ولا ألمُ، كانت قادرةً على الرؤية في الظلام الحالك، والإحساس بما لا يمكن للآخرين حتّى تخيُّله، واستخراج الأسرار التي ظنّ الآخرون أنّهم دفنوها. يعلم أنّها في كلّ مرة تغوص في تلك المياه القاتمة لتعود إليه محمَّلةً بالغنائم كانت تفقد جزءًا من جسمها وروحها. كان يعلم أنّها تكرهه لهذا السبب تحديدًا.

تكرهه بكلّ الغلِّ الذي لا يطفح إلّا من صدرِ مخلوقٍ يعرف خالقه وصانع عذاباته.

انتفضت على حين غرّة وذهبت إلى الحمّام. فتحت الخزانة الصغيرة التي خلف المرآة فوجدت القوارير التي تركها لياندرو، مصطفّةً بإتقان. المكافأة. أمسكت بها بكلتا اليدين وجعلتها تسقط في المغسلة.

فتلاشى السائل الشفّاف بين الزجاج المتكسّر.

- ابن العاهرة. - غمغمت.

رنّ هاتف الغرفة بعد قليل. تأمّلت أليثيا انعكاسَها في مرآة الحمّام عدّة لحظات والهاتف يرنّ. كانت تنتظر تلك المكالمة. عادت إلى الغرفة ببطء، ورفعت السمّاعة وأصغت من دون أن تقول شيئًا.

- عثروا على سيّارة ڤايس. - قال لياندرو من الطرف الآخر.

ظلّت أليثيا على صمتها.

- في برشلونة. - قالت اخيرًا.

- أجل. - أكّد لياندرو.

- من دون أيّ أثرٍ لڤايس.

- ولا لمرافقه.

جلست أليثيا على السرير، سارحة النظرات في الأضواء التي تُدمي الغرفة.

- أليثيا؟ هل أنتِ معي؟

- سأستقلّ أوّل قطارٍ في الصباح. أعتقد أنّ هناك قطارًا ينطلق من أتوشا في السابعة.

سمعته يتنهّد وتخيّلته مستلقيًا على السرير في جناحه في الفندق.

- لست متأكدًا من صواب الفكرة يا أليثيا.

- هل تفضِّل أن يُوكَل الأمرُ إلى جهاز الشرطة؟

- ما يقلقني هو أنّكِ ستكونين بمفردكِ في برشلونة يا أليثيا. هذا ليس لصالحكِ.

- لن يحدث شيء.

- أين ستنزلين؟

- في المكان المعتاد.

- الشقّة التي في شارع أفينيون... - تأفّف لياندرو - لماذا لا تنزلين في فندق محترم؟

- لأنّ ذاك منزلي.

- منزلكِ هنا.

ألقت أليثيا نظرة إلى الغرفة المحيطة بها، سجنِها في الأعوام الأخيرة. لا يخطر في بال أحدٍ أن يسمّي ذلك التابوت بيتًا إلّا لياندرو.

- هل بارغاس يعلم بهذه المستجدّات؟

- النبأ وردنا من المباحث. فإن كان لا يعلم، فسيعلم في الصباح الباكر.

- هل من شيء آخر؟

سمعته يسحب نفسًا عميقًا.

- أريد أن تتصلّي بي كلّ يوم بانتظام.

- حسنًا.

- بانتظام.

- قلتُ أجل. ليلة سعيدة.

كادت تنهي المكالمة فإذا هي تسمع صوت لياندرو. حملت السمّاعة إلى أذنها ثانيةً.

- أليثيا؟

- نعم.

- كوني حذرة.

(18)

لطالما كانت متيقّنة من أنّها ستعود إلى برشلونة. أمّا أن تفعل ذلك في أثناء مهمّتها الأخيرة لمصلحة لياندرو، فكانت هذه إحدى سخريات القدر التي لا بدّ أنّ المعلّم فطن لها. تخيّلتْه يطوف أرجاء الجناح، جيئة وذهابًا، تنهشه الهواجس وهو ينظر إلى الهاتف، وتلهج في رأسه رغبةٌ في رفع السمّاعة والاتصال بها مجدّدًا ليأمرها بالبقاء في مدريد.

لم يكن يروق للياندرو أن تحاول عرائسُه قطع الخيوط. لقد جرّب الفرارَ أكثرُ من عميلٍ لديه، ليكتشفوا أنّ تلك المهنة لا تصلح لعشّاق الهابي اند/ النهايات السعيدة. لكنّ أليثيا كانت مختلفة دومًا. إنّها المفضّلة لديه. رائعته الفنيّة.

صبّت كأسًا أخرى من النبيذ الأبيض واستلقت بانتظار المكالمة.

جال في ذهنها أن تقطع الخطّ. عندما فعلتْها آخر مرّة، ظهر إمّعتان من أزلام لياندرو فجأةً على باب غرفتها لاقتيادها إلى البهو حيث كان ينتظرها مثلما لم يكن من قبل، إذ امّحت هيئته السمحة ومزّقه القلق.

نظر إليها في تلك المناسبة بمزيجٍ من الريبة والشهوة، كأنّه متردّد بين معانقتها وبين أن يأمر رجاله بتهشيمها على الفور. «إيّاكِ أن تكرّري فعلتكِ هذه»، قال لها حينذاك. وقد انقضى على تلك الأمسية عامان.

انتظرت اتصال لياندرو حتى ما بعد منتصف الليل، لكنّه لم يتّصل.

لأنّه كان يريد وبشدّة أن يعثر على ڤايس لإرضاء القيادات العليا في الدولة، ومن ثَمّ يفتح لها أبواب القفص. وإذ كانت واثقة من أنّ أحدًا منهما لن يغمض عينًا تلك الليلة، قرّرت أليثيا أن تلتجئ إلى المكان الوحيد في الدنيا حيث لا يستطيع لياندرو أن يصل إليها: صفحات كتاب. استعادت المجلّد الأسود الذي وجدته في مكتب ڤايس وفتحته، مستعدّةً للولوج في عقل فكتور ماتايكس.

وما إن أنهت الفصل الأوّل حتّى نسيت أنّ ما تمسكه بين يديها كان دليلًا يخصّ التحقيقات. استلقت في مهد عبير الكلمات حتى ضاعت بعدئذٍ في تيه الصفحات، وقد جرفتها سيول الصور والإيقاع الذي بضبط حكاية مغامرات أريادنا وهي تهبط في أعماق برشلونة المسحورة. فبدا كلّ فصل، وكلّ جملة، كأنّها مؤلَّفة بناءً على مقياسٍ موسيقيٍّ. وكان السرد معشَّقًا بالكلمات بأسلوبٍ متينٍ لا يقدر عليه إلّا صائغ المعادن الثمينة؛ فتلهث العينان وراء الحكي بقراءةٍ موسومةٍ بالرموز والألوان التي ترسم في الذهن مسرحًا من ظلال. قرأت الساعتين متتاليتين بلا توقُّف، متلذّذةً بكلّ عبارة، حكايةً لا تريد لها أن تنتهي. وعندما قلبت الصفحة الأخيرة، رأت رسمةً لستارٍ يُسدَل على مسرحٍ تناثَرَ النصُّ فوقه كالغبار، فأغلقت أليثيا الكتاب على صدرها، وتمدّدت تحت الظلام، وما زالت سارحة النظرات في مغامرات أريادنا في متاهتها.

سحرتها فتنة تلك الحكاية، فأغمضت عينيها تحاول أن تصالح النعاس. تصوَّرت ڤايس جالسًا في مكتبه، يخفي ذلك الكتاب في أسفل الأدراج ويرمي المفتاح. لقد اختار ذلك الكتاب تحديدًا من بين كثيرٍ من الأشياء التي كان يستطيع أن يخبّئها قبل أن يختفي. بدأ الإرهاق يقطر على جسمها ببطء. نزعت عنها المنشفة وانزلقت تحت الشراشف عاريةً. اضطجعت على سفحها، منكمشةً على نفسها واليدان مغلولتان بين فخذيها. وفكّرت في أنّها ستكون الليلة الأخيرة التي ستقضيها في تلك الغرفة الزنزانة. ظلّت هناك تنتظر، وتصغي إلى همهمات المبنى ونحيبه إذ تألَّمَ على فراقها.

نهضت قبل الفجر بقليل، لا وقت لديها إلّا لتوضيب حقيبة صغيرة تجمع فيها اللوازم التي لا غنى عنها، أمّا بقيّة الأغراض فستتركها كهديّة وداع لنزلاء الفندق الخفيّين. تأمّلت مدينتها الكتبيّة المصفوفة على الجدران وابتسمت بمرارة. سيحسن ماورا التصرُّف مع أصدقائها.

وما لبث الضوء يبزغ حتى اجتازت البهو بلا نيّة في توديع أرواح هسبانيا المفقودة. وصلت عند الباب فإذا هي تسمع صوت ماورا من خلفها.

- هذا صحيحٌ إذن. - قال البوّاب – ستغادرين.

توقّفت أليثيا واستدارت. كان ماورا يرمقها متكئًا على ممسحةٍ تمثِّل عدّاد السرعة الخاصّ به. كان مبتسمًا كي لا يبكي، ونظراته هائمة في حزنٍ لانهاية له.

- سأعود إلى داري يا ماورا.

هزّ البوّاب رأسه مرارًا.

- تحسنين صنعًا.

- تركتُ كتبي في الأعلى. إنّها لك.

- سأعتني بها.

- والملابس أيضًا. قد يفيد منها أحد النزلاء.

- سأسلِّمها لبيت الإحسان، فهنا يوجد الكثير من سيّالة اللعاب، ولا أريد أن أجد بالنثويلا النذل يحشر أنفه فيما لا يخصّه.

اقتربت أليثيا من الرجل النحيل وعانقته.

- أشكرك على كلّ شيء يا ماورا. - همست في أذنه - سأفتقدك.

أسقط ماورا الممسحةَ أرضًا وطوّق الفتاة بذراعين ترتعشان.

- انسي أمرنا كليًّا ما إن تطأ قدمكِ البيت. - قال بصوتٍ مكسور.

وكانت ستعطيه قبلة الوداع لولا أنّ ماورا، النبيل ذا الوجه الحزين وتلميذ المدرسة القديمة، مدّ يده نحوها. فصافحتها أليثيا.

- ربّما يتّصل أحدهم، يدعى بارغاس، ليسأل عنّي...

- اطمئنّي. سأقطع عليه الطريق. هيّا، اذهبي الآن.

ركبت سيّارة الأجرة التي كانت تنتظرها على مدخل الفندق وطلبت من السائق أن يقلّها إلى محطة أتوشا. وكانت المدينة تلتفّ برداءٍ رصاصيّ اللون، وزجاج السيّارة محجوبٌ بالضباب الناعم. نظر إليها السائق بالمرآة العاكسة، وكان يبدو أنّه ظلّ على دفّة القيادة الليلة بأكملها، أو الأسبوع كلّه، لا يربطه بالعالم سوى عقب السيجارة التي تتدلّى من بين شفتيه.

- ذهابٌ فقط، أم ذهابٌ وعودة؟ - سألها.

- لا أدري. - أجابت أليثيا.

وعندما وصلت إلى المحطة رأت أنّ لياندرو قد سبقها إلى هناك.

كان بانتظارها جالسًا إلى طاولة في إحدى المقاهي بجانب شبّاك التذاكر، يقرأ جريدة ويلهو بملعقة القهوة. اثنان من ازلامه متمركزال على بُعد أمتار، يستند كلٌّ منهما إلى عمود. وما إن لمحها حتّى ثنى الجريدة وارتسمت على وجهه ابتسامة أبويّة.

- يكسب الوقت مَن يُحسن الانتظار. - قالت.

- الأمثال لا تناسبكِ يا أليثيا. اجلسي. هل تناولت الفطور؟

نفت برأسها وجلست إلى الطاولة. كان آخرُ ما يهمّها حينذاك أن تعارض لياندرو، في الحين الذي قرّرت أن تفصل بينهما مسافة ستمئة كيلومتر.

- ثمّة عادات مشتركة بين البشر الفانين، كتناول الفطور وامتلاك الأصدقاء، وهذا ما سيساعدكِ كثيرًا يا أليثيا.

- هل كان لديك أصدقاء يا لياندرو؟

لمحت أليثيا بريقًا فولاذيًا في عيني قائدها، علامةً على التحذير، فطأطأت رأسها. وتقبّلت الكرواسان وفنجان الكافيلاتي اللذين جاء بهما النادل بناء على طلب لياندرو. ارتشفت من الفنجان تحت وطأة نظراته المتيقّظة.

أخرج الرجل ظرفًا من معطفه وأعطاه لها.

- حجزتُ مقصورةً لكِ وحدكِ، في الطبقة الأولى. آمل أن تقبليها منّي. في الظرف بعض النقود أيضًا. واليوم سأحوّل بقيّة المبلغ إلى حسابكِ في مصرف إسبانيا. وإذا احتجتِ إلى المزيد فأخبريني.

- شكرًا.

قضمت أليثيا قطعة الكرواسان حادّةً وجافّةً في فمها. وعانت الأمرَّين كي تبلعها. لم يحد لياندرو أنظاره عنها. فنظرت بطرف العين إلى الساعة المعلّقة في أعلى.

- ما زال هناك عشر دقائق. - قال مرشدها - اطمئنّي.

أخذت مجاميع المسافرين تزحف نحو الرصيف. وأحاطت أليثيا الفنجان بكلتا يديها حين لم تعرف اين تضعهما. فكان الصمت بينهما مؤلمًا.

- شكرًا على مجيئك لتودِّعني.

- أهذا ما نحن بصدده؟ نتودَّع؟

هزت أليثيا رأسها. وبقيا جالسين هناك من دون أن يفتح أحدٌ منهما فمه عدّة دقائق. وفي النهاية، عندما ظنّت أنّها ستهرس الفنجان بأصابع يديها، نهض لياندرو، عقد أزرار معطفه وربط الشال على عنقه بهدوء. غلّ يديه بالقفّازين الجلديّين، وابتسم عن طيب خاطر، وهو ينحني لتقبيل جبينها. كانت شفتاه باردتين ورائحة فمه بنكهة النعناع.

ظلّت أليثيا متسمّرة، لا جرأة لديها حتّى على التنفّس.

- أريد أن تتصلي بي كلّ يوم. بانتظام. بدءًا من هذا المساء حالما تصلين، فهكذا أطمئنّ أن كلّ شيء جرى على ما يرام.

لم تقل شيئًا.

- أليثيا؟

- كلّ يوم، بانتظام. - ردّدت.

- لا داعي لاستخدام هذه النبرة.

- المعذرة.

- كيف الألم؟

- لا بأس. أفضل. أفضل بكثير.

أخرج لياندرو من جيبه علبة ومرّرها إليها.

- أعرف أنّكِ تفضّلين عدم تناول أيّ شيء، لكنّكِ ستشكرينني.

فهذا الدواء أقلّ تأثيرًا من الحقن. حبّة واحدة، لا أكثر. لا تتناوليها على معدة خاوية، أو مع الكحول أبدًا.

تقبّلت أليثيا العلبة ووضعتها في حقيبة اليد. لم تكن لتخوض في جدالٍ آنذاك.

- شكرًا.

أومأ لياندرو وابتعد ببطء نحو المخرج يتوسّط رَجُلَيه.

كان القطار ينتظر تحت قبّة المحطة. وهناك مراقب تذاكر عند أوّل الرصيف، لا يمكن أنّه تجاوز العشرين عامًا، طلب بطاقتها واقتادها إلى مقطورة الطبقة الأولى المقفرة في مقدّمة القطار. انتبه أنّها تعرج نوعًا ما، فساعدها على الصعود ورافقها إلى المقصورة، ورفع حقيبتها إلى رفّ الأمتعة وأزاح الستارة عن النافذة. كان الزجاج غبشًا فمسحه بكمّ سترته. وكان المسافرون في رقصةٍ من جيئةٍ وذهاب، تحوّلت إلى مرآة إنفاسُها رطوبةُ الفجر. ناولته الإكراميّة فانحنى إجلالًا قبل أن يغلق أبواب المقصورة.

استرخت أليثيا على المقعد وهي تتأمّل أضواء المحطة، بوعيٍ شبه غائب. وبعد قليل، بدأ القطار يجرجر نفسه فسلّمت أمرها لهدهدة المقطورة تتخيّل أولى خيوط الضوء تطلّ على مدريد التي ما تزال راسيةً تحت الضباب. فرأته حينذاك. كان بارغاس يركض على الرصيف محاولًا أن يبلغ القطار. دفعته ركضته العبثيّة إلى ملامسة المقطورة بأصابعه وملاقاة نظرات أليثيا المنيعة، كانت تنظر إليه من النافذة بلا أيّ تعبير يرتاد وجهها. حتى رضخ بارغاس في النهاية، يحتضن ركبتيه بيديه، مقطوع الأنفاس، وضحكةٌ مريرةٌ تذوي على شفتيه.

تلاشت المدينة في البعيد رويدًا رويدًا، ثمّ ولج القطار أرضًا سهليّة بلا آفاق، تتمدّد عبْر اللانهاية. وأحسّت أليثيا بأنّ برشلونة تستشعر قدومها من خلال الريح، من خلف جدار العتمة. تصوّرتها تنفتح مثل زهرة سوداء، فامتلأ صدر أليثيا لوهلةٍ بصفاء الحتميّة الذي يواسي الملاعين، أو لعلّها - قالت لنفسها - ليست سوى تبعات الإرهاق. لم يعد لذاك أهميّة. أغمضت عينيها واستسلمت للنعاس بينما تفسح الظلالُ المجالَ للقطار كي يتقدَّم زاحفًا نحو متاهة الأرواح.

مدينة المرايا

برشلونة

ديسمبر1959

(1)

برد. بردٌ ينهش الجلد، يمزِّق اللحم، يثقب العظام. بردٌ رطبٌ يطحن العضلات ويحرق الأحشاء. برد. في تلك الوهلة الأولى التي استعاد فيها وعيه، لم يستطع أن يفكِّر إلّا بالبرد.

الظلام مطبِقٌ أو يكاد. لا شيء سوى منفذٍ في الأعلى ينهمر منه الضوء. ضوءٌ شحيحٌ وخافتٌ يلتحم بالظلال كالغبار المتلألئ مبرزًا حدود المكان الذي يتواجد فيه. حدقتا عينيه تتسعان، فيتمكّن من رؤية غرفةٍ ذات أبعاد صغيرة. الجدران من الحجر العاري. ترشح منها رطوبةٌ لامعةٌ وسط الظلام، كأنّها دموعٌ قاتمةٌ تنزلق عليها. الأرض الحجريّة تطفو بشيءٍ لا يبدو أنّه ماء. ورائحة العفن التي تغمر الهواء كثيفة جدًّا. يلحظ قبالته صفًّا من القضبان الغليظة والصدئة، وما بعدها عتباتٌ تصعد في العتمة.

إنّه في زنزانة إذن.

يحاول ڤايس النهوض لكنّ ساقيه تتراخيان. وما لبث يتحرّك بخطوةٍ واحدة حتّى انثنت ركبتاه وهوى على خاصرته. يرتطم وجهه بالأرض ويجدِّف بالآلهة. يحاول استعادة أنفاسه. يبقى محطّمًا بضع دقائق، وجهه ممرّغ في الطبقة اللزجة التي تغطّي الأرض، وتنبعث منها رائحة معدنيّة ومقزِّزة. فمه جافّ، كما لو أنّه ابتلع ترابًا، وشفتاه متشقّقتان. يحاول أن يلمسهما بيده اليمنى، لكنّه ينتبه أنّه لا يشعر بها، كأنْ لا وجود لشيء بعد مرفقه.

يتمكّن من الجلوس مطوِّقًا نفسه بذراعه اليسرى. يرفع يمناه على مستوى وجهه ويمعن بها النظر تحت انعكاس الضوء الواهن الذي يصبغ الهواء بالأصفر. يده ترتعش. يراها ترتعش، لكنّه لا يشعر بوجودها. يحاول أن يضمّ قبضته ويفتحها، غير أنّ العضلات لا تستجيب. فينتبه حينذاك إلى أنّه قد فَقَدَ إصبعين، السبّابة والوسطى. وحلّت مكانهما بقعتان مسوّدتان تتدلّى منهما شروخ اللحم والجلد. يريد ڤايس أن يصرخ، لكنّ صوته متصدّع، بالكاد يقوى على لفظ ونّةٍ فارغة. يهوي على ظهره ويغمض عينيه. يباشر الشهيق من الفم لعلّه يتحاشى العفونة المكثّفة التي تسمِّم الأجواء. وبينما يفعل ذلك، يستحضر إحدى ذكريات الطفولة. طفولةٌ بعيدة للمنزل الذي كان لوالديه عند تخوم شقوبية، وكلبٍ عجوز التجئ إلى قبو المسكن الكبير لكي يموت. يتذكّر ڤايس كيف كانت تلك الرائحة الكريهة المسبّبة للغثيان تنتشر في البيت، ويدرك أنّها شبيهة بالرائحة التي تستعر في حلقه الآن. لكنّ الأخيرة أسوأ بألف مرّة، لا تسمح له بالتفكير حتّى. بعد قليل، دقائق أو ربّما ساعات، غلبه الإعياء فغطَّ في نومٍ مضطرب يتأرجح بين النعاس واليقظة.

يحلم أنّه مسافرٌ على متن قطار حيث لا ركّاب غيره. القطار يتخبّط في اجتيازه سُحُبًا من بخار أسود نحو مدينةٍ متاهيّةٍ من مصانع أشبه بالكاتدرائيّات، وأبراج مسنونة، وعقدة جسور، وسطوح متناثرة على عدّة زوايا مستحيلة تحت سماء نازفة. وقبل أن يلج القطار في نفقٍ لا نهاية له، يطلّ ڤايس برأسه من النافذة ليرى أن مدخل النفق مراقَبٌ من تمثالين لملاكين كبيرين بأجنحة مبسوطة وأنياب مدبّبة ناتئة من بين شفاههما. لافتةٌ مترنّحة على العارضة الفوقيّة تقول:

برشلونة

يدلف القطار بالنفق مُصدِرًا قرقعة جهنّميّة، وعند خروجه من الطرف الاحر، ينهض قبالته طيفُ جبل مونتويك، والقلعة بارزة على القمّة، محاطةً بهالة من ضوءٍ قرمزيّ. تتشنّج أمعاء ڤايس. ثمّة مراقِبُ تذاكر، مبرومٌ على نفسه كجذع شجرة قديمة هتكتها الزوابع، يقترب على امتداد الممرّ، ويتوقّف عند مقصورته. اسمه على شارة بدلته: سالغادو.

- محطّتك يا سيادة المدير...

يصعد القطار على الطريق الملتوي الذي يتذكّره جيدًا ويجتاز أسوار السجن. يتوقّف في ممرٍّ طويلٍ ينزل فيه ڤايس. يستأنف القطار مسيره ويضيع أثره في الظلمات. يلتفت ڤايس فيكتشف أنّه بات سجين إحدى زنزانات السجن. وهناك شبحٌ قاتم يراقبه من خلف القضبان. يودّ ڤايس أن يشرح له بأنّ هناك خطأ ما، وأنّه موجود في الجانب الخاطئ، وأنّه مدير السجن ذاته، لكن صوته لا يصل إلى شفتيه.

يظهر الألم لاحقًا وينتزعه من الحلم كأنّه يتعرّض لصعقة تيّار كهربائيّ.

ما تزال رائحة الجيف والظلام والبرد على حالها هناك، لكنّه الآن لم يعد ينتبه إليها. لم يعد قادرًا على التفكير إلا في الألم. ألمٌ لم يجرِّب مثله من قبل. ولم يكن ليستطيع حتّى أن يتخيَّله. يده اليمنى ملتهبة. كما لو أنّه أدخلها في أتون نارٍ موقَدة ولا يقدر على إخراجها.

يمسك ذراعه الأيمن بيده اليسرى. يتراءى له رغم الظلام أنّ البقعتين الداكنتين اللتين حلَّتا مكان إصبعيه تتقيّحان بما بدا أنّه سائلٌ لزج ودمويّ. فيصرخ بصمت.

تساعده الآلام على التذكُّر.

تتشكّل صور ما حدث في ذهنه. يتذكّر اللحظة التي تبدّى فيها منظر برشلونة في البعيد تحت الشفق. يري ڤايس المدينة تتبلور عبْر زجاج السيّارة الاماميّ، مثل سيناريو مشهد عظيم يستحقّ العرض، فيتذكّر مدي كرهه لذلك المكان. مرافقه الأمين بيثنتي يقود بصمت، مركزًا انتباهه على زحمة السير. ولئن كان خائفًا، فإنّه لا يُظهِر خوفه. يسيران في شوارع وطرقات حيث الناس المتدثّرة بالثياب تسرع الخطى تحت رذاذ الثلج الذي يحوم في الجوّ كضبابٍ من بلوّر. يدخلان شارعًا يتّجه بهما نحو الطرف الأعلى من المدينة وسرعان ما يدلفان في طريق صاعدةٍ تتخلّلها كثيرٌ من المنعطفات نحو كورنيش بايبذريرا. يتعرّف ڤايس على تلك البلدة الغريبة التي تشرف واجهاتُها على السماء. وتصبح برشلونة تحت أقدامهما شيئًا فشيئًا، مثل بساطٍ من العتمة يمتزج بالبحر. القطار الجبليّ يصعد السفح مخلِّفًا أثر ثعبانٍ من ضوء مذهَّب يقطع القصور الحداثيّة التي تنتأ من الجبل. هناك حيث يبرز طيف البيت القديم، متواريًا بين الشجر. يبتلع ڤايس ريقه. ينظر إليه بيثنتي فيهزّ رأسه. سينتهي كلّ شيء عمّا قريب. يهيّئ قادح الريفولفر الذي بين يديه. وعندما يصلان أمام البيت يهبط الليل. البوّابة مفتوحة. تدخل السيّارة في الحديقة التي غزتها الأعشاب الضارّة، وتدور حول النافورة الجافّة التي اعتلاها اللبلاب. يوقف بيثنتي السيّارة قبالة العتبات المؤدّية إلى المدخل. يطفئ المحرّك ويستلّ الريفولفر الخاصّ به. بيثنتي لا يستخدم من المسدّسات إلّا الريفولفر. فهو لا يتعطّل أبدًا، على حدّ زعمه.

- كم الساعة؟ - يسأله ڤايس بصوت خفيض.

لا يسعف الوقت بيثنتي كي يجيب. يحدث كلّ شيء في غضون ثانية واحدة. يسحب المرافق مفتاح السيّارة فإذا بڤايس يلاحظ شبحًا عند الطرف الآخر من النافذة. لم يره يقترب. ينحّيه بيثنتي جانبًا، دون أن يفتح فمه، ويطلق النار. فينفجر الزجاج على بُعد قلّة سنتمترات عن وجهه. يشعر ڤايس برياحٍ عاتيةٍ من شظايا البلّور تنهال على وجهه. يصمّ دويُّ الطلقة أذنيه اللتين تُصعَقان بأزيزٍ حادٍّ. وقبل أن تتلاشى غيمة البارود التي تحوم فوقهما، ينفتح باب السيّاره بشدّة. يلتفت بيثنتي، والريفولفر في يده، لكنّه يشعر بشيءٍ ما يخترق عنقه قبل أن يتمكّن من إطلاق النار ثانيةً. فيمسك عنقه بكلتا اليدين. وتتدفّق الدماء القاتمة من بين أصابعه. تلتقي نظراته بنظرات الوزير برهةً، فيرى أنّ بيثنتي مصدومٌ لا يُصدِّق ما يرى. إن هي إلّا ثانية ويهوي السائق بوجهه على الدفّة فينطلق صوت المزمار. يحاول ڤايس أن يسنده، لكنّ بيثنتي ينطوي جانبًا ليبقى نصفُ جسمه متأرجحًا خارج السيارة. يقبض ڤايس على الريفولفر خاصّته بجمع يديه ويصوِّب نحو السواد ما خلف باب السائق المفتوح. فيستشعر حينها أنفاس أحدهم خلفه، وإذّاك يلتفت ليطلق النار فلا يشعر إلّا بضربة حادّة وجامدة تهوي على يده. يحسّ بالمعدن يسفح عظامه، فتجتاحه زوبعةٌ من الغثيان تشوِّش رؤيته. يسقط الريفولفر في حضنه ويرى الدماء تسيل على طول ذراعه. يقترب الشبح حاملًا السكين ذات النصل النازف دمًا. يحاول أن يفتح باب السيّارة، لكنّ الطلقة الأولى لا بدّ أنّها أوصدت الأقفال. تنقضّ اليدان على عنقه وتخنقانه بغلٍّ متأجّج. يفهم ڤايس أنّهم يسحبونه خارج السيّارة عبْر الثقب المفتوح في النافذة ويجرّونه على امتداد درب الحصى فالعتبات الرخاميّة المتشقّقة. يسمع صوت خطوات خفيفة تدنو منه. فيرتسم ضوء القمر في هذيانه على أنّه ملاك، يظنّ أنّه ملاك الموت. يواجه ڤايس تلك النظرات، مُقدِّرًا غلطته.

- علامَ تضحك أيّها النذل؟ - يسأله الصوت.

ڤايس يبتسم.

- أنت تشبه... - يغمغم.

يغمض ڤايس عينيه وينتظر رصاصة الرحمة، التي لا تأتي. فالملاك يبصق في وجهه. وتبتعد خطاه. لا بدّ أنّ الربّ، أو الشيطان، أشفق عليه. فيفقد وعيه عندئذ.

لا يعرف ڤايس إل كان قد وقع ما وقع منذ ساعات، او أيام أو أسابيع. ففي تلك الزنزانة كفّ الوقت عن الوجود. لا شيء الآن إلّا برْد وألمٌ وظلام. تجتاحه رعشة غضب مباغتة. يجرجر نفسه إلى القضبان، يضرب على الحديد المتجمّد حتى تتثلّم يده. وما لبث متمسِّكًا بالقضبان عندما انفتح بصيص نورٍ من الأعلى يضيء السلّم الهابط نحو الزنزانة. يسمع ڤايس وقع الخطى فيرفع عينيه، متيمِّنًا خيرًا. يمدّ يده نحو الخارج متضرِّعًا. ينظر إليه سجّانه متسمِّرًا تحت الظلام. شيءٌ ما يغطّي وجهه فيشبِّهه ڤايس بهيكل دمية متجمّدة خلف واجهة أحد المحلّات في الغران ڤيا.

- مارتين؟ أهذا أنت؟ - يسأله.

لا يحصل على إجابة. يكتفي السجّان بالنظر إليه دون أن ينبس ببنت شفة. فيهزّ ڤايس رأسه في النهاية، كأنّه يوصل رسالةً تفيد باستيعابه قواعد اللعبة.

- ماء، أرجوك. - يئنّ.

السجان لا يتجاوب بعض الوقت. وعندما يظنّ ڤايس أنّه توهَّمَ كلَّ شيء، وأنّ ذلك الحضور لم يكن سوى فتات هذيان الألم والالتهاب الذي يلتهمه حيًّا، يتقدَّم السجّان بضع خطوات. فيبتسم ڤايس ذليلًا.

- ماء. - يتوسّل.

يطفر تدفُّقُ البول على وجهه، فتلتهب الخدوش التي تغطّي بشرته. يفلت عويلٌ من ڤايس فيتراجع. يجرجر ذيله حتى يصطدم ظهره بالحائط وينكمش على نفسه هناك. يعود السجّان من حيث أتي، ويتلاشى النور مجدّدًا بعد صفق الباب.

لا يدرك ڤايس إلا في تلك اللحظة أنّه ليس بمفرده في الزنزانة.

بيثنتي، مرافقه الوفيّ، جالسٌ في إحدى الزوايا وظهرهُ إلى الحائط. لا يتحرّك. ولا يُرَى منه سوي طرف ساقيه، ويديه. كفّاه وأصابعه منتفخة وتجنح إلى لونٍ بنفسجيّ.

- بيثنتي؟

يزحف ڤايس نحوه لكنّه يتوقّف حالما يشمّ رائحة الجيفة. فيلتجئ إلى الزاوية المعاكسة وينطوي على نفسه فيها، معانقًا ركبتيه ودافنًا وجهه بين ساقيه فرارًا من تلك الرائحة. يحاول استحضار صورة ابنته مرثيديس. يتخيلها تلعب في الحديقة، في بيت الدمي خاصّتها، مسافرةٌ على متن قطارها الخاصّ. يتصوّرها وهي صغيرة، بنظرته الهائمة في نظرتها التي تغفر كلّ شيء وتحمل النور حيث لا نور.

يستسلم للبرد والألم والإرهاق بعدئذ، ويشعر أنّه سيُغمى عليه مجدّدًا. لعلّه الموت - يقول لنفسه آملًا.

(2)

جَفِلَ فيرمين روميرو دي توريس من نومه فزعًا. كان قلبه ينبض على إيقاع رشّاشٍ هادر، وقد اجتاحه هاجسٌ بأنّ مغنيّة سوبرانو فاغنريّة جثمت على صدره. فتح عينيه في ظلام مخمليّ وحاول أن يلتقط أنفاسه. أثبتت له عقارب المنبّه مخاوفه. لم تكن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بعد. إذ كان قد تمكّن بمشقة أن يغفو قبل ساعة من عودة الأرق لدهسه مجدّدًا مثل ترامٍ خرج عن السيطرة. وكانت برناردا تشخر بجانبه مثل كلبٍ فحل، يبتسم مسرورًا بين يدي مورفيوس إله الأحلام.

- فيرمين، أعتقد أنّك ستصبح أبًا.

لقد جعلها الحمل شهيّة مثلما لم تكن من قبل، وجعل من جمالها الزاهي حفلة تثنيّاتٍ كان ليرمي نفسه في أحضانها ويعضعضها بكلّ سرور في تلك اللحظة الراهنة. وكاد يباشر العمليّة بعضوه «قطار منتصف الليل» المميّز، لكنّه لم يجرؤ على إيقاظها وتدمير السلام السماويّ الذي ينضح من وجهها. كان يعرف أنّه لو فعلها، لواجه واحدًا من احتمالين: إمّا أن تنفجر القنبلة الهيدروجينيّة للهرمونات التي تنبع من مساماته، لتتحوّل برناردا إلى لبوة وحشيّة مستعدّة لتمزيقه إربًا؛ وإمّا أن تفشل الشرارة في إشعال الرماد، فتصبح زوجته الطاهرة فريسةٌ للخوف بشتّى أنواعه، بما فيها خوفها من أنّ أيّ عملية إرساء في خليج أجزائها السفليّة كانت ستعرّض الجنين للخطر. ولم يكن فيرمين ليلومها البتّة. لأنّ برناردا أجهضت الطفل الأوّل الذي حبلت به منه قبل زواجهما بقليل. وكم حزنت المسكينة حينذاك حتّى إنّ فيرمين خشي أن يفقدها إلى الأبد. ومع مرور الوقت، وكما تنبّأ الطبيب، عادت برناردا إلى الحياة، وزراعة الآمال. إلّا أنّها كانت في تلك الآونة تعيش في تخوُّفٍ دائمٍ من فقدان الجنين مرّة أخرى، وقد وصلت بها الهواجس أحيانًا إلى التخوّف حتّى من التنفُّس.

- يا حبيبتي، إذا كان الطبيب بنفسه قال إنّه لن يحدث شيء...

- ذاك الطبيب أحمق. مثلك.

الحكيم هو الذي لا يوقظ البراكين أو الثورات أو ربّات البيوت الحوامل. نزل فيرمين خلسة عن سرير الزوجيّة ومشى على رؤوس أصابعه إلى صالة الطعام في الشقّة المتواضعة في شارع خواكين كوستا التي أقاما فيها بعد العودة من شهر العسل. كان قد فكّر في سحق العذاب والإغواء بحبّة سوغوس، لكنّه اكتشف بنظرة خاطفة أنّ احتياطيّه من السكاكر كان صِفرًا. فشعر بأنّ قلبه يسقط في سراويله. هذا خطير للغاية. تذكَّرَ أنّ في بهو محطة فرنسا، يوجد دائمًا بائع متجوّل للسكاكر والسجائر يعمل حتّى منتصف الليل، دييغو الأعمى، الذي كان مزوّدًا على الدوام بالسوغوس والنكات الرذيلة. فاض لعابُه في فمه من تصوُّر حبّة سوغوس بنكهة الليمون، فها إنّه تحرّر من ثياب النوم في غضون ثانية وارتدي ملابس كافية لمغازلة مرض الحصبة في ليلةٍ سيبيريّة. تدجَّج هكذا وخرج إرضاءً لغرائزه السفلى وإذلالًا للأرق.

الرافال هو الوطن المصغَّر للمؤرَّقين: لا يساعدك على النعاس، لكنّه يدعوك إلى النسيان. إضافةً إلى أنّه مهما كنتَ تعاني من عذابات، يكفيك أن تمشي في أحيائه بضع خطوات لتصطدم بمن أو بما يذكِّرك بأنّه ثمّة من ناصبه الحظُّ العِداءَ في مباراة الحياة أسوأ منك. وفي تلك الليلة من الأقدار المتشابكة، كانت العفونة الصفراء المبلّلة بالبول، وقناديل الغاز، والأصداء المتعتِّقة، تحوم في عقدة الأزقّة على شكل شعوذةٍ أو تحذير، كلٌّ بحسب ذوقه.

ساح فيرمين بين الصيحات والنتانة والأخلاط الأخرى للمهمَّشين الذين يحيون الدروب المظلمة والمنحرفة أكثر من مخيّلة أسقُف. وصل أخيرًا إلى أعتاب تمثال كولومبس. تآمرت ثلة من النوارس لتصبغ التمثال بالذرق الأبيض كتحيّةٍ عكرة إلى الحِمْيَةِ المتوسّطيّة. سلك فيرمين الشارع المؤدّي إلى محطة فرنسا، دون جرأةٍ منه على رمي أبصاره نحو الطيف المريب لقلعة مونتويك الذي يهيمن على قمّة الجبل متوعِّدًا.

شرذمة من البحّارة الأمريكيّين يتسكّعون في أنحاء الميناء بحثًا عن العربدة والتبادل الثقافيّ مع نسوةٍ يسهل مراسُهنَّ، يتطوّعن لتعليمهم المفردات الأساسيّة وبعض الحيل على الصرعة الساحليّة. فخطرت في باله روثيتو، بهجة ليالي شبابه الكئيب، والروح الصافية ذات الثديين السخيّين التي أنقذته مرارًا من جحيم عزلته. تخيَّلها برفقة صاحبها، ريوس التاجر المترف الذي جعلها تتسرّح في العام الماضي من الخدمة العمليّة، بغية السفر حول العالم مثل السيّدة التي لطالما تمنَّت أن تكون، وربّما أحسّت بذلك أنّ الحياة، ولو لمرة واحدة، تبتسم في وجهها.

وبينما يفكّر بروثيتو، وذلك النوع المعرَّض دومًا للانقراض - البشر أطياب القلوب - وصل فيرمين إلى المحطة. لمح دييغو الأعمى يطوي الأشرعة، فهُرِع راكضًا إليه.

- ها يا فيرمين، ظننتك في هذه الساعة منشغلًا في إيلاج زوجتك.

- قال دييغو الأعمى - هل اضمحلّ منسوب السوغوس في خزائنك؟

- بل لقد تدنَّى إلى مستويات تاريخيّة.

- لديّ بنكهة الليمون، والأناناس، والفراولة.

- بنكهة الليمون. خمس علب.

- وعلبة إضافية، تقدمة من الشركة.

دفع فيرمين الثمن وزاد عليه البقشيش. فوضع دييغو النقود، من دون أن يحصيها، في محفظة جلديّة يحملها على خصره مثل مراقب التذاكر في الترام. لم يفهم فيرمين يومًا كيف يعرف الرجل أنّ زبائنه لا يحتالون عليه، لكنّه كان يعرف. دييغو الأعمى يُبصِر النقود. لقد ولد بلا عيون، وبحظٍّ سيّئ يليق بتلميذٍ في سلاح المشاة. يعيش وحيدًا في غرفة بلا نوافذ في نزل في حيّ برنسيسا؛ أفضل صديق لديه هو جهاز راديو يُسمِعه مباريات كرة القدم ونشرة الأنباء التي تضحكه كثيرًا.

- أتيتَ لمشاهدة القطار، ها؟

- عادةٌ قديمة. - قال فيرمين.

توجّه ديغو الأعمى إلى نزله حيث حتّى البقّ لم يكن بانتظاره، وفكّر فيرمين ببرناردا، الغافية في السرير، معطَّرةٌ بماء الورد. وكاد يعود إلى البيت لولا قراره بدخول بهو المحطّة الكبير، كاتدرائيّة البخار والحديد التي رسا فيها عائدًا إلى برشلونة في ليلة بعيدة من عام 1941.

ولطالما فكّر أنّ القَدَر يحب أن يُعقد في محطات السكك الحديديّة خلال فترات الاستراحة من هوايته المفضّلة، ألا وهي دهس الأبرياء من الخلف، وحبّذا أن يكونوا بلا سراويل. في المحطّة بدايةٌ أو نهايةٌ للمآسي وحكايات الحبّ، والهرب والعودة، والخيانة والفقدان. وما الحياة إلا محطة حديديّة غالبًا ما يصعد فيها المرءُ المقطورةَ الخاطئة، أو يجبرونه على صعودها - قال لنفسه.

كانت تلك الأفكار، التي يُقدَّر عمقُها بعمق فنجان قهوة، عادةً ما تراوده عند الفجر، حيث يكون الجسد مجهَدًا من كثرة الدوران لكنّ الدماغ متنشّطٌ أكثر من الحوّامة. قرّر أن يستبدل تلك الفلسفة السوقيّة بمقعدٍ خشبيّ يريح المتقشّفين، فتقدّم تحت القبّة المحنيّة، التي أراد لها المهندس الماكر أن تكون برهانًا دامغًا على أنّ المستقبل في برشلونة يولد معوَّجًا.

جلس على المقعد، نزع غلاف حبّة سوغوس وحملها إلى فمه.

فانتشى بالسُّكَّرة التي أوصلته إلى أعالي النيرفانا، وراح يسبر بأنظاره مسارات السكك التي تتوه في ظلام الليل. وبعد قليل، شعر بالأرض ترتجّ تحت قدميه، فلمح ضوء قطار يقتحم منتصف الليل. مرّت دقيقتين فإذا القطار يصل إلى مدخل المحطة، تمتطيه غيمة البخار.

وكان الضباب المتصاعد من جهة البحر يحجب الأرصفة ويحيط غموضًا بالمسافرين النازلين من المقطورات بعد رحلة طويلة. الوجوه السعيدة تتناقص. كان فيرمين يراقبهم ويركّز على حركاتهم المتعبة وملابسهم الجميلة، متخيّلًا صروف حياتهم والظروف التي أتت بهم إلى المدينة. وما إن طاب له التمحيص في الوجوه ككاتب سيرة متعجّل يروي حياة مواطن مجهول الهويّة، حتّى رآها.

نزلت من المقطورة متشحة بأحجبة البخار الأبيض الذي اعتاد فيرمين أن يتوقّع بروز حبيبته مارلين ديتريش منه في إحدى محطات برلين أو باريس أو أيّ مكان موجود في القرن العشرين الممجّد، بالأبيض والأسود كأفلام العروض الصباحيّة في سينما كابيتول. كانت تلك المرأة - التي قدَّر فيرمين أنّها لم تبلغ الثلاثين بعد، فلم يخطر في ذهنه ان يصفها بالفتاة او الشابّة او أيّ مسمًّى آخر قيد الاستعمال - كانت تعرج بخفّة، الأمر الذي كان يضفي عليها هالةً كيديّة وحسّاسة.

كان لها وجهٌ بتّار وحضورٌ ساطعٌ بالنور والظلام في آنٍ معًا. ولو توجَّبَ عليه أن يصف مظهرها لصديقه دانيال، لقال إنّها تشبه أحد تلك الملائكة الشبحيّة الليليّة التي تثب غالبًا من صفحات روايات رفيقه الوفيّ في سجن قلعة مونتويك، دافيد مارتين، وبالأخصّ كلويه خارقة الأوصاف، بطلة كثيرٍ من الحكايات المشكوك بحشمتها في السلسلة المريبة «مدينة الملاعين»، التي سرقت منه النوم في جولات القراءة المحمومة والطويلة التي اكتسب في أثنائها معارف موسوعيّة عن فنون التسمُّم، وهوس العقول الإجراميّة المضطربة، والعلم وعادات تجهيز الألبسة الداخليّة

النسويّة ذات الرونق الرائع. ربّما - قال لنفسه - ربّما حانت الساعة لإعادة قراءة تلك الروايات القوطيّة المحمومة، قبل أن تتجعّد روحه وغدده التناسليّة دون أملٍ بالعلاج.

رآها فيرمين تقترب حتى تقاطعت نظراتهما. كانت لحظةً عابرة، حركةً عَرَضيّة تحاشاها وأخفض رأسه ليتركها تتابع سيرها. أغرق فيرمين وجهه في معطفه وأدار رأسه. كان المسافرون يبتعدون نحو المخرج، والمرأة معهم. ظلّ متسمِّرًا في مكانه، يرتجف أو يكاد، حتى اقترب منه مدير المحطة.

- اسمع يا سيّد، لم يعد هناك قطارات آتية، ولا يمكنك النوم هنا...

أومأ فيرمين وانصرف يجرجر قدميه. وعندما وصل إلى البهو، ألقى نظرة فلم يجد لها أثرًا. سارع للخروج إلى الشارع، حيث تهبّ نسمة باردة أعادته إلى واقع الشتاء.

- أليثيا؟ - سأل في مهبّ الريح - أهذه أنتِ؟

تنهّد واستأنف سيره في ظلال الشوارع، محدِّثًا نفسه بأنّ هذا غير معقول، لا يمكن لتينك العينين اللتين وقع فيهما أن تكونا للطفلة التي تركها بين نيران تلك الليلة خلال الحرب؛ لا بدّ أنّ الطفلة التي لم ينجح في إنقاذها، أليثيا، قد ماتت في الليلة نفسها شأنها شأن الكثيرين غيرها. لا يمكن لإله العدالة، القدر، أن يمتلك سخرية سوداء إلى هذا الحدّ.

«لعلّه طيفٌ قد عاد من عالم الموتى ليذكِّرك بأنّ الرجل الذي يترك طفلةً تموت، لا يستحقّ سلالةً في هذا العالم. يعجز المرء عن تكهُّن تلميحات العليِّ القدير، ولطالما قال القساوسة ذلك».

- يجب أن يكون لهذا الشيء تفسيرٌ علمي - قال لنفسه بصوتٍ مرتفع - مثل حالة الانتصاب الصباحيّ.

تشبَّث فيرمين بهذا المبدأ التجريبيّ، وغرس أسنانه بحبّتين من السوغوس في آنٍ واحد، واستأنف مشواره إلى السرير الدافئ الذي تنتظره فيه برناردا، مقتنعًا بأنْ لا شيء يحدث عن طريق الصدفة، وأنّه سيكشف ذلك اللغز عاجلًا أم آجلا، وإلّا لن يتركه اللغز يهنأ بالنوم.

(3)

بينما كانت أليثيا تمشي نحو المخرج، لاحظت أنّ ذلك الفرد الجالس على مقعدٍ في أوّل الرصيف يراقبها شزرًا. كان عبارة عن رجل نحيل هزيل، يتمحور وجهه حول أنف ضخم. وكانت ملامحه مرسومةً بريشة الرسّام غويا نوعًا ما. يرتدي معطفًا أكبر من مقاسه، ليوحي شكلُه بحلزونة تحمل قوقعتها معها. كانت أليثيا متيقّنة من أنّه يضع أوراق الجرائد المطويّة تحت ثيابه، بهدف الحماية ربّما، أو أنّها طريقةٌ لم تعد ترى مَن يطبّقها منذ السنوات الأولى ما بعد الحرب.

أسهل الخيارات هي أن تتناساه وتقول لنفسها إنّه ليس سوى واحدٍ من ألوف المحرومين الذين ما زالوا يعومون على وجه المناطق الموحشة من المدن الكبرى في العشرين عامًا الأخيرة بعد الحرب، بانتظار أن يتذكّر التاريخ إسبانيا وينجيها من النسيان. أسهل الخيارات هي أن تعتقد أنّ برشلونة ستسمح لها بهدنةٍ لبضع ساعات على الأقلّ قبل أن تضعها في مواجهة مصيرها. تابعت أليثيا سيرها إلى الأمام دون أن تلتفت إلى الخلف، متَّجهةٌ نحو المخرج، متوسِّلةً من الجحيم ألّا يتذكّرها. فقد مضت عشرون سنة على تلك الليلة، وكانت زمانها مجرّد طفلة.

خرجت من المحطة واستقلّت سيّارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلها إلى رقم 12 في شارع أفنيون. كان صوتها يرتعش وهي تلفظ تلك الكلمات. فسلك السائق شارع إيزابيل الثانية نحو شارع لايتانا، متجنِّبًا المرور في عقدة الترام التي تستعر تحت الضباب بصعقات كهربائيّة زرقاء تقذف شراراتها على الأسلاك. وكانت أليثيا تنظر من النافذة إلى طيف برشلونة الكئيب، أقواسها وأجراسها، ودروبها التي تتداخل في قلب المدينة القديمة، وفي الأعلى أضواءٌ بعيدةٌ للقلعة التي تتربّع على قمّة جبل مونتويك. الدار، الدار المعتمة - حدّثت نفسها.

ما من زحمة سير في تلك الساعة من الليل، فوصلت السيّارة إلى غايتها في غضون خمس دقائق. تركها السائق عند باب المبنى رقم 12 في شارع أفنيون، وبعد أن شكرها على الإكراميّة التي بلغت ضِعف أجرة الرحلة، غادر متّجهًا نحو الميناء. استوقفت أليثيا نسمةٌ باردة تحمل معها رائحة الحيّ ذاك، رائحة برشلونة القديمة، التي ليس بوسع المطر ذاتِه استئصالها. فوجئت بنفسها تبتسم. فمع مرور الوقت، حتّى الذكريات الأليمة ترتدي الألبسة البيضاء.

كان بيتها القديم يقع على مرمى حجر من التقاطع مع شارع فرناندو، قبالة مقهى غران كافيه العتيق. وفيما كانت تبحث عن المفاتيح في جيب معطفها، أحسّت بالبوابة تنفتح. رفعت عينيها فوجدت نفسها أمام وجه خيسوسا البشوش، الناطورة.

- سلامًا يسوع ويوسف ومريم. - نغَّمت المرأة، والتأثُّر بادٍ على محيّاها.

وقبل أن تتمكّن أليثيا من الردّ، غمرتها خيسوسا بمعانقةٍ قويّة تُضيِّق الخناق كأنّها الأصلة العاصرة. ورجمت خدّيها بالقُبَل التي تتضوّع منها نكهة اليانسون.

- دعيني أراكِ جيدًا. - قالت الناطورة وهي تحرّر الفتاة من قبضتها.

فابتسمت لها أليثيا.

- لا تقولي لي إنّني نحيفة زيادة عن اللزوم.

- هذا ما قد يقوله لكِ الرجال، وسيكونون على حقٍّ لمرّة واحدة في حياتهم.

- لا تعلمين مدى اشتياقي إليكِ يا خيسوسا.

- كاذبة... يا قليلة الحياء. لقد أمطرتكِ بقبلاتٍ لا تستحقّينها.

فكم وقتًا مضى وأنتِ لا تزورينني ولا تتصلين بي ولا تبعثين إليّ الرسائل، لا شيء من لا شيء...

كانت خيسوسا لابورذيتا إحدى أرامل الحرب، اللواتي لهنّ قلبٌ وروحٌ لتسع حيوات لا ولن تستطيع أيٌّ منها أن تعيش أبدًا. تعمل منذ عشرة أعوام ناطورةً في البناية، التي تقيم في إحدى شققها الصغيرة والضيّقة في آخر بهو الطابق الأرضيّ، ونتقاسمها مع مذياعٍ لا يرصد إلّا المسلسلات الرومنسيّة وكلبٍ في رمقه الأخير، كانت قد انتشلته من الطريق وسمّته نابليون، مع أنّه بالكاد يقوى على بلوغ الزاوية قبل الأوان لأداء واجباته البوليّة في الصباح الباكر، ومعظم الأحيان يُفرغ حمولته تحت صناديق البريد في المدخل. وكانت تضيف إلى راتبها الشحيح ما تكسبه من ترقيع وتخييط الثياب البالية لنصف سكّان الحيّ.

تقول الألسنة الحاقدة، الموجودة بكلّ فاه في تلك الأيّام، إنّ خيسوسا تحبّ اليانسون أكثر من البحّارة ذوي البنطلونات الغامقة، وإنّها إذا بالغت بالشرب أحيانًا، همّت بالبكاء والعويل منعزلةً في بيتها الصغير بينما ينبح نابليون المسكين مذعورًا.

- ادخلي، هيّا، فالبرد قارس.

تبعتها أليثيا إلى الداخل.

- اتّصل السيّد لياندرو هذا الصباح ليعلمنا بقدومكِ.

- مهتمٌّ دومًا، السيّد لياندرو.

- إنّه رجلٌ نبيل. - أكّدت خيسوسا وهي تقتاد الفتاة يدًا بيد - يا لأسلوبه الجميل في الكلام...

لم يكن في البناية مصعد، وبدا أنّ المعماريَّ قد أضاف السلَّم هناك بغرض الإيهام. صعدت خيسوسا وتبعتها أليثيا على قدر المستطاع، وهي تجرّ الحقيبة درجةً درجة.

- لقد هوّيتُ شقّتكِ ورتّبتها قليلًا، فكانت في حاجة إلى ذلك.

وقد ساعدني فرنانديتو الغالي، آمل ألّا يؤسفكِ الأمر. فما إن علم بقدومكِ حتّى أصرَّ أن يفعل شيئًا ما لأجلكِ...

فرنانديتو هو قريب السيّدة خيسوسا. وكانت روحه صافيةً لدرجة أنّ القدّيسين أنفسَهم كانوا ليستغلّوها. يعاني من مرض المراهقة المزمن: الوقوع في الحبّ بسهولة. فضلًا عن أنّ أمّنا الطبيعة كانت مفرطةً بسخائها تجاهه فمنحتْه مظهر المغفّل. يعيش مع والدته في البناية المجاورة، ويعمل محاسبًا في محلّ لبيع الموادّ الغذائيّة، علمًا بأنّ صفوة مشاغله ومواهبه مخصّصةٌ لتأليف القصائد ذات النزعة الغنائيّة والمهداة جميعها إلى أليثيا، التي كان يرى فيها اتّحادًا قاهرًا بين غادة الكاميليا والملكه الشرّيرة في حكايه نقاء الثلج، وأكثر من ذلك بكثير.

فقبل أن تغادر أليثيا برشلونة ثلاث سنوات مضت، صارحها فرنانديتو بحبّه الأبديّ، واستعداده لإنجاب سلالة لا تقلّ عن خمسة أطفال، بعون الله، ووعدها بأنّه سيكون كلّه ملكًا لها، جسدًا وروحًا وأعضاء أخرى، يقدِّم نفسه كلّها مقابل قبلة وداع.

- فرنانديتو، بيننا عشرة أعوام. لا يجوز لك التفكير بمثل هذه الأشياء. - قالت له أليثيا آنذاك، وهي تمسح دموعه.

- لماذا لا تحبّيني يا آنسة أليثيا؟ ألستُ رجلًا بما فيه الكفاية في رأيكِ؟؟

- فرنانديتو، أنت رجلٌ بما فيه الكفاية لإغراق الأساطيل المسلّحة التي لا تُقهَر، ولكن ينبغي لك أن تبحث عن حبيبة في عمرك. سترى بعد عامين أنّني على حقّ. لا يمكنني أن أعرض عليك إلّا الصداقة.

وكانت كبرياء فرناندينو أشبَه بملاكمٍ طَموح، عنيد أكثر من كونه بارعًا: لا يهمّه كم ضربةً يتلقّى، ويعاود الكَرَّة من جديد.

- لن يحبّكِ أحدٌ أبدًا كما أحبّك أنا يا أليثيا.

في اليوم الذي كانت أليثيا ستستقلّ القطار إلى مدريد، كان فرنانديتو - الذي أسرف في الاستماع إلى أغاني البوليرو من الراديو حتّى سرت الميلودراما في دمائه - ينتظرها في المحطة، متأنّقًا بملابس يوم الأحد وملِّمعًا حذاءه توًّا، ليبدو نسخةً مصغّرة طبق الأصل عن كارليتوس غاردل. كان يحمل باقة من الأزهار الحمراء التي من الوارد أنّها كلّفته راتب شهر كامل، مصمِّمًا على إعطائها رسالة حبٍّ وهوي كانت الليدي شترلي ستذوب حياءً منها، لكنّها لم تستطع إبكاء أحد ما عدا أليثيا، وليس بالطريقة التي تمنّاها فرنانديتو المسكين. قبل أن تصعد أليثيا إلى القطار وتنجو من براثن كازانوفا الطموح، تسلَّحَ فرنانديتو بكلّ ما أوتي من جسارة وشجاعة كان يختزنهما منذ هجمة سنّ البلوغ، وطبع على وجهها قبلةً عظيمة من النوع الذي لا يجوز فعله إلّا إذا كنتَ في الخامسة عشرة من العمر، والذي يجعلك تصدِّق، ولو للحظةٍ عابرة، أنّ الدنيا ما تزال بخير.

- إنّكِ تدمِّرين حياتي يا آنسة أليثيا. - أجهش بالبكاء - سأموت من كثرة البكاء. لقد قرأتُ أنّ هذا قد يحدث فعلًا. جفاف القنوات الدمعيّة قد يسبّب انفجارًا في الشريان الأبهر. وقد سمعتُ الخبر أمس الأوّل على الراديو. سيرسلون إليكِ نبأ وفاتي، بحيث يُثقِل على ذاكرتكِ.

- فرنانديتو، هناك حياةٌ في واحدةٍ من دموعك أكبر من الحياة التي سأعيشها أنا، حتّى لو عمَّرتُ مئة عام.

- يبدو لي أنّكِ اقتبستِ هذه العبارة من كتابٍ ما.

- لا وجود لكتابٍ يأتيك بالعدالة يا فرنانديتو، إلّا إذا كان أطروحة في البيولوجيا.

- اذهبي، اذهبي بلؤمكِ وقلبكِ الحجر. ستفتقديني يومًا ما، عندما تكونين وحيدة كالكلب.

أعطته أليشيا قبلةً على جبينه. كانت تودّ أن تقبّل على شفتيه، لكنّها قد تقتله.

- أفتقدك منذ الآن. اعتنِ بنفسك يا فرنانديتو. وحاولْ أن تنساني.

وصلتا أخيرًا إلى الطابق الأخير، فأفاقت أليثيا من النشوة عندما وجدت نفسها أمام مدخل بيتها القديم. فتحت خيسوسا الباب وأشعلت الضوء.

- لا تقلقي. - قالت كأنّها تقرأ أفكارها - الفتي تعرّف على فتاة جميلة جدًّا وارتبط بها، وقد صار نبيهًا. هيّا، ادخلي.

تركت أليثيا الحقيبة على الارض ودخلت البيت. أمّا خيسوسا فظلّت عند العتبة. كان هناك ورودٌ يانعة في مزهريّة عند المدخل، والبيت يتضوّع برائحة النظافة. تجوّلت بين الغرف والممرّات على مهلها، كما لو أنّها تزور الشقةّ للمرّة الأولى.

شعرت بأنّ خيسوسا تضع المفاتيح على الطاولة خلفها فعادت إلى صالة الطعام. كانت الناطورة تحدِّق إليها بابتسامة.

- كما لو لم تمرّ ثلاث سنوات، أليس كذلك؟

- بل كما لو مرّت ثلاثون سنة. - ردت أليثيا.

- كم ستبقين هنا؟

- لا أدري حتى الآن.

هزّت خيسوسا رأسها.

- حسنًا، لا بدّ أنّكِ متعبة. ستجدين في المطبخ شيئًا تأكلينه. لقد ملأ فرنانديتو الخوان بالأغراض. ستعرفين أين تجدين أيّ شيء تحتاجين إليه.

- شكرًا جزيلًا يا خيسوسا.

أحادت الناطورة عينيها.

- إنّني سعيدة لأنّكِ هنا من جديد.

- وأنا أيضًا.

أغلقت خيسوسا الباب وسمعت أليثيا خطواتها تنزل السلّم.

أزاحت الستائر وفتحت النوافذ لتطلّ برأسها إلى الشارع. كان محيط سطوح برشلونة القديمة يمتدّ تحت قدميها، وأبراج الكاتدرائيّة وكنيسة ماريّا دل مار تنتصب في البعيد. سبرت بعينيها أرجاء شارع أفنيون فلاحظت طيفًا ينسحب إلى ظلال بوّابة مانويل ألبارغاتيرا من الطرف الآخر للشارع. كان يدخِّن، والدخان يتصاعد بزخارف فضيّة ليلامس واجهة المبنى. ركّزت أليثيا أبصارها على تلك النقطة بعض الوقت، ثمّ أحادت عنها في النهاية. من الباكر التوجُّس وتخيُّل الأشباح المتربّصة. ما زال هناك مزيدٌ من الوقت للبدء.

أغلقت النوافذ وجلست إلى طاولة المطبخ، مع أنّها كانت فاقدة الشهيّة، فتناولت قليلًا من الخبز والجبن والفواكه المجفّفة. ثمّ فتحت قنيّنة نبيذ أبيض ملفوفة بشريط أحمر وجدتْها على

الطاولة. لا بد أن هذه اللفتة اللطيفة من صُنع فرنانديتو، الذي ما زال يتذكّر نقاط ضعفها. صبّت كأسًا ووتجرَّعته بعينين مغمضتين.

- آمل ألّا يكون مسمومًا. - قالت - بصحّتك يا فرنانديتو.

كان النبيذ، باناديس معتَّق، لذيذًا حتّى إنّها صبّت كأسًا أخرى والتجأت إلى أريكة الصالون. تحقّقت من أنّ المذياع ما يزال يعمل. تذوّقت النبيذ على مهل. وبعد أن سئمت من نشرة الأخبار التي تذكِّر المستمعين، إن كانوا قد نسوا، أنّ إسبانيا نور العالم ومحطّ حسد الأمم الأخرى، أطفأت المذياع وتهيّأت لتفريغ الحقيبة. جرتها إلى وسط صالة الطعام وفتحتها على الأرض. وإذ ألقت نظرة على المحتوى، تساءلت عمّا استعجلها لتحمل ثيابًا وبقايا من حياة أخرى لم تكن في الواقع تودّ استخدامها. فكّرت لوهلة أن تغلقها وتطلب من خيسوسا أن تهبها في الصباح لراهبات الإحسان. الشيء الوحيد الذي أخرجته هو مسدّس ريفولفر وعلبتان من الطلقات الناريّة. هديّةٌ من لياندرو بعد إتمامها عامين في الخدمة، ولطالما شكّت أليثيا بأنّ للمسدس قصّة سابقة آثر معلّمها عدم مصارحتها بها.

- وما هذا؟ مدفعيّة القبطان العظيم؟

- إن أردتِ، دبّرتُ لكِ مسدّسًا يليق بالآنسات، له مقبضٌ من عاج وسبطانتان مذهّبتان.

- وماذا أفعل به؟ ما عدا استخدامه مسدّسًا خلَّبيًّا.

- حاولي ألّا يجذبكِ أحد.

تقبَّلت اليبا ذلك الماموث في النهايه مثلما فعلت مع أشياء كثيرة من جانب لياندرو، بموافقة خرساء مبنيّة على الخضوع والتظاهر بأنّ ما لا يُسمَّى يُوصَد عليه بابتسامة احترام باهتة وحجاب صمت يسمح لها بالنظر إلى المرآة لتكذب على نفسها حول هدفها في الحياة يومًا آخر. أخذت السلاح بين يديها وقدَّرت وزنه. فتحت المخزن فوجدته فارغًا. أفرغت إحدى العلبتين على الأرض، وأدخلت الطلقات الناريّة بعناية واحدةً تلو أخرى. نهضت واتّجهت نحو الرفوف المكتظة بالكتب التي تغطّى جدارًا بأسره. لا بدّ أنّ خيسوسا مشطّت المكان بجيش المكانس التابع لها، إذ لم تعثر أليثيا على ذرّة غبار أو أيّ أثرٍ يشهد على غيابها ثلاثة أعوام. أخذت النسخة المجلّدة عن الكتاب المقدّس التي كانت راقدة بجوار ترجمة فرنسيّة لـ «الدكتور فاوست» وفتحتها. كانت الصفحات مُفرَّغةً بسكّين لتتيح محلّها حافظةً مثاليّة لمدفعيّتها الخاصّة. أخفت السلاح في الكتاب المقدّس وأعادته إلى الرفّ.

«آمين» - نغمَّت في سرّها.

أغلقت الحقيبة وذهبت إلى غرفة النوم. فاحتفت بعودتها الشراشفُ المعطّرة والمكويّة توًا، في حين تكفَّل تعب القطار ونشوة النبيذ بالباقي. أغمضت عينيها وأصغت إلى همهمة المدينة التي تهمس في أذنها.

في تلك الليلة، حلمت أليثيا ثانيةً بأنّ السماء تمطر نيرانًا. كانت تثب من سطح إلى آخر في حيّ الرافال هربًا من دويّ القذائف بينما تنهار الأبنية حولها بأعمدةٍ من نارٍ ودخان أسود. أسرابٌ من

الطائرات تحلّق بسرعةٍ رهيبة وتصطاد بالرشّاش أولئك الذين يحاولون الفرار بين الأزقّة نحو الملاجئ. وعندما أطلّت برأسها من تاج أحد المباني إلى شارع قوس المسرح، رأت امرأةً وأربعة صغار هاربين نحو لاس رامبلاس وكانوا ضحيّة فزع رهيب. فاكتسحت الشارعَ رشقةُ طلقات لتحيل أجسادهم أشلاءً دامية وهم يركضون. أغمضت أليثيا عينيها، وحينذاك وقع الانفجار. استشعرته قبل أن تسمع دويّه، كأنّه قطارٌ يدهسها في الظلام. فاستعرت خاصرتها بصعقة ألم حادّ بينما رفعتها ألسنة اللهب إلى الأعلى وقذفتها لتصطدم بمنورٍ يتهشّم على إثر الضربة ويهوي بها في دوّامةٍ من زجاجٍ يتشظّى نحو العدم.

بيد أنّ شيئًا ما يهدِّئ سقوطها. ارتطمت بقاعدة خشبيّة معلّقة في أعلى مبنى هائل. جرجرت نفسها إلى الطرف ونظرت إلى أسفل لتلمح ما بين الظلمات شكل دولابٍ لولبيّ. وسّعت حدقتيها لتنظر في ذاك السراب هالة ضياء أحمر آتٍ من بين السُّحُب. رأت تحت قدميها مدينة واسعة مبنيّة من كتب بهندسة مستحيلة. وبعد قليل، سمعت دُنُوَّ الخطي على أحد سلالم المتاهة فتراءى لها طيف رجلٍ خفيف الشعر، جلس بجانبها القرفصاء وتفحَّصَ الإصابات على جسمها. فأخذها بين ذراعيه واقتادها على امتداد نفق طويل، وسلالم وجسور، حتى وصل بها إلى قاعدة المبنى. فجعلها تستلقي على مرقد، واعتنى بجروحها، ليبقيها على حافة الموت، بينما لا تزال القذائف تتساقط بغلٍّ شديد. وكانت أضواء النار تتسرّب من القبّة العليا، ما يتيح لها رؤية ذلك المكان العجيب الذي لم ترَ مثله من قبل، من خلال صورٍ وامضة. كاتدرائيّة كتب مخفيّة في بناية ليس لها وجود، مكانٌ لن تتمكن من العودة إليه إلّا عبْر الحلم لأنّ شيئًا كهذا لا يمكن أن يكون إلّا في العالم الآخر، حيث تنتظرها والدتها لوثيا وحيث ظلّت روحها أسيرة.

وعند الفجر، يحملها الرجل ذو الشعر الخفيف بين ذراعيه ثانيةً، ويسير بها في طرقات برشلونة المكسوّة بالدماء والنيران حتّى يصلا إلى مأوى للأيتام حيث هناك طبيبٌ ملطّخٌ بالرماد ينظر إليهما ويهزّ رأسه خلسةً.

- لقد تحطّمت هذه الدمية. - يقول موليًا إليهما ظهره.

وهكذا تنظر أليثيا إلى جسدها، مثلما حلمت مرّات كثيرة، لتتعرّف فيه على الدمية الخشبيّة المحترقة التي ينبعث منها الدخان وتتدلّي خيوطُها الممزّقة. تنبثق من الجدران ممرِّضاتٌ بلا عيون، ينزعن الدمية من بين يدي السامرائيّ الطيّب ويجرجرنها إلى مستودعٍ لا نهاية له، هناك حيث ينهض جبلٌ عملاقٌ مؤلَّفٌ من مئات وآلاف بقايا الدمى التي على شاكلتها. يرمينها في ذلك الركام ويبتعدن ضاحكات.

(4)

أيقظتها شمس الشتاء الحديديّة التي كانت تزحف فوق السطوح. فتحت أليثيا عينيها وفكّرت أنّ ذاك هو اليوم الأوّل والأخير لحريّتها في برشلونة. من المحتمل أن يحشر بارغاس أنفه في تلك الأنحاء مساءَ اليوم نفسه. فقرّرت أن تكون مكتبة غوستابو برسلوه أولى محطّات ذلك اليوم، لأنّها قريبة جدًا من بيتها، في شارع فرناندو. وإذ تذكّرت نصائح فرجيل حول بائع الكتب ذاك، وميوله إلى الآنسات فاتنات الحضور، اختارت أليثيا أن ترتدي ملابس تلائم المناسبة. وقفت أمام خزانتها القديمة، وتحقّقت أنّ خيسوسا استَبَقَت وصولها وغسلت كلّ الثياب وكوتها، فعبقت برائحة الخزامى. تلمّست بأناملها ألوانها القديمة النابعة من الحرب، وراحت تفاضل بين الأزياء أنسبَها للمهمّة.

واغتنمت تركيب سخّانة جديدة في البناية مؤخّرًا، فتحمّمت حتّى فاضت الشقّة كلّها بالبخار.

لفّت نفسها بمنشفةٍ ما زالت تحمل الحروف الأولى من فندق وندسور، وذهبت إلى صالة الطعام لتشغّل المذياع وثبّتت الموجة على أوركسترا كاونت بيزي. إنّ أيَّ حضارةٍ قادرةٍ على إنتاج إنغامٍ من هذا النوع لا بدّ أنّ لها مستقبلًا مشرّقًا. ثمّ نزعت المنشفة في غرفة النوم وغلّت ساقيها بجوربٍ على الصرعة الحديثة اشترته من لا بيرلا غريس أثناء إحدى حملاتها للترميم الذاتيّ. انتعلت حذاء بكعب متوسط لن يكون لينال إعجاب لياندرو بلا شكّ، وارتدت لباسًا من الصوف الأسود يرسم حناياها بدقّة ولم تُتح لها الفرصة للاختيال به من قبل. تزيّنت بمساحيق التجميل بلا عجالة، وصبغت شفتيها بالأحمر الفاقع. أما حبّة الكرز على قالب الحلوى فكانت من نصيب المعطف الخمريّ.

وبعد ذلك، وكعادتها في كلّ صباح عندما كانت مقيمة في برشلونة، نزلت لتناول الفطور في مقهى غران كافيه.

عرفها ميغيل حالما تخطّت باب المحلّ، وهو النادل المحنَّك وصاحب الفراسة. حيّاها من على المصطبة كما لو أنّ ثلاث سنوات لم تمضِ على زيارتها الأخيرة. جلست أليثيا إلى إحدى الطاولات بجانب النافذة، ورمت أنظارها إلى المقهى القديم، خاليًا من روّاده في تلك الساعة من الصباح. لا حاجة إلى الطلب، فقد تقدَّم ميغيل حاملًا إناءً وقدَّم لها فطورها المعتاد: فنجان كافيلاتي، قطعتان من الخبز المحمّص والمدهون بالزبدة ومربّى الفراولة، ونسخة من جريدة الطليعة التي ما تزال تتضوّع برائحة الحبر الطازج.

- أرى أنّك لم تنس يا ميغيل.

- منذ زمنٍ لم نركِ في هذه الأرجاء، لكنّه ليس بالزمن الطويل يا آنسة أليثيا. مرحبًا بعودتكِ إلى الديار.

تناولت أليثيا فطورها على مهل وهي تتصفّح الجريدة. كانت قد نسيت كم تحبّ ابتداء النهار بمراقبة التغيّرات التي تطرأ على المشهد الحيّ للحياة العامة في برشلونة، من خلال جريدة

الطليعة، وهي تتمتّع بمربى الفراولة وتهدر نصف ساعة كما لو أنّ لديها من الوقت وفيرًا.

انتهى الطقس، دنت من المصطبة حيث كان ميغيل يلمّع كؤوس النبيذ على ضوء الصباح الدافئ.

- كم حسابك يا ميغيل؟

- سأسجّله في دفتر الحساب. نلقاكِ غدًا في الساعة نفسها؟

- إن شاء الله.

- أراكِ متأنّقة إلى حدودٍ قصوى. هل أنتِ ذاهبة إلى حفل؟

- أفضل من ذلك. سأقوم بزيارة للكتب.

(5)

استقبلها صباحٌ برشلونيٌّ شتويٌّ يذرّ أشعة الشمس كالغبار ويبعث في النفس رغبةً بالتنزّه. كانت مكتبة غوستابو برسلوه قبالة أقواس الساحة الملكيّة، على بعد دقيقتين من الغران كافيه. سارت أليثيا تجاهها تحت أبصار عمّال النظافة الذين ينظّفون الطريق على وقع المكانس والخراطيم. أرصفة شارع فرناندو مكتظة بالأنشطة التجاريّة التي تبدو معابد أكثر من كونها متاجر: أفرانٌ للمعجّنات أشبَه بدكاكين الصاغة، ورشات خياطة بسيناريوهات أوبراليّة. وفي حالة مكتبة برسلوه فنحن بصدد متحفٍ يغري بدخوله لإشباع الفضول، بل والبقاء فيه مدى الحياة. وقبل أن تتجاوز العتبة، توقّفت أليثيا برهةً تستطعم مشهد الواجهة وما وراءها من رفوف مرتّبة بعناية فائقة. وحين دخلت، رأت ظلّ بائعٍ شابّ بمئزر أزرق متسلّقًا على سلّمٍ لينفض الغبار عن الرفوف العليا. تظاهرت أليثيا بأنّها لم تلحظ وجوده وجالت في المحلّ.

- صباح الخير. - حيّاها البائع.

فالتفتت إليه وأهدته ابتسامةً قادرةً على فتح خزنة حديديّة. نزل الشابّ متعجِّلًا وتموضع خلف المصطبة، وقد لفّ الخرقة على كتفيه.

- بم أخدم السيّدة؟

- آنسة. - حدّدت أليثيا وهي تنزع قفّازيها بهدوء.

أومأ الشابّ بتعابير متصابية. لم تكفّ بساطة تلك المواقف عن إدهاشها. فليبارك الربّ غباوة الرجال ذوي الإرادة الطيّبة أينما كانوا على هذه الأرض.

- هل لي أن أتحدّث إلى السيّد غوستابو برسلوه لو سمحت؟

- السيّد برسلوه ليس موجودًا هنا في هذه اللحظة...

- ألا تعلم متى بإمكاني مقابلته؟

- سنرى... الحال أنّ حضور السيّد برسلوه بات نادرًا في المكتبة، إلا إذا كان لديه موعد مع زبون. وقد ذهب الدون فيليبي، المسؤول، إلى بيدرالبيس لتقييم مجموعة من الكتب، لكنّه سيعود في منتصف النهار.

- ما اسم حضرتك؟

- بينيتو، في خدمتكِ يا آنسة.

- اسمع يا بينيتو، يبدو من وجهك أنّك لبيب، وأنا متأكدة من أنّك ستساعدني.

- تفضّلي.

- المسألة حسّاسة. عليَّ أن أتحدّث مع السيّد برسلوه لحالة طارئة، إذ شاءت الظروف أنّ أحد أقاربي المقرّبين، المولع بجمع الكتب الثمينة، يرفض الكشف عن اسمه، حصل مؤخّرًا على قطعة

فريدة من نوعها، وهو مهتمٌّ ببيعها، ويودّ أن يكون الدون غوستابو وسيطًا وصاحب مشورة للحفاظ على سريّة العمليّة.

- مفهوم. - تلعثم الفتي.

- القطعة المقصودة هي نسخة بجودة عالية لأحد كتب «متاهة الأرواح» لكاتبٍ يدعي فكتور ماتايكس.

جحظت عينا الفتى كطبقين.

- هل قلتِ ماتيكس حضرتكِ؟

هزّت رأسها بنعم.

- هل يبدو لك الاسم مألوفًا؟

- هلّا تفضّلتِ يا آنسة بالانتظار دقيقة واحدة، كي أحدّد موقع السيّد برسلوه حالًا.

ابتسمت أليثيا برقّة. واختفى البائع في المستودع الخلفيّ، ثمّ سمعت صوت دوران قرص الهاتف لتأليف الرقم. تناهي صوت البائع إلى مسمعها متسارعًا ومدفونًا خلف الستار.

- الدون غوستابو، المعذرة على إزعا... نعم، أعرف كم هي الساعة... لا، لم أفقد رش... نعم يا سيّدي، نعم يا سيّدي...

المعذرة... لا، أرجوك... أحبّ عملي بالطبع... لا، من فضلك... ثانية، ثانية واحدة... شكرًا.

التقط الفتى أنفاسه وعاد إلى الحوار مع ربّ عمله.

- ثمّة آنسةٌ تقول إنّ لديها كتابًا لفكتور ماتايكس بأحسن حال وتودّ بيعه.

ساد الصمت.

- لا يا سيّدي، لا أتوهّم. كيف؟ لا. لا أعرف مَن تكون. لا، لم أرها من قبل. لا أدري. شابّة، وأنيقةٌ للغاية... حسنًا، بما فيه الكفاية... لا، ليست كلّ النساء يبدين لي ش... نعم يا سيّدي، حالًا يا سيّدي...

ظهر الفتي من على عتبة المستودع، كلّه ابتسامات.

- الدون غوستابو يسألني متي بإمكانكِ أن تقابليه.

- اليوم في أوّل الظهيرة؟ - اقترحت أليثيا.

أومأ الفتي واختفى ثانيةً.

- تقول اليوم أوّل الظهيرة. أجل. لا أدري. سأسألها... حسنًا لن أسألها... كما تشاء يا سيد غوستابو. نعم يا سيّدي. حالًا. كن على ثقة يا سيّدي. أجل يا سيّدي. نهارًا سعيدًا.

وعندما ظهر ثانيةً، بدا بمعنويّات عالية.

- كلّ شيء على ما يرام يا بينيتو؟

- جيّد جدًا. المعذرة على الأسلوب. الدون غوستابو قدّيس، لكنّه غريب الأطوار أحيانًا.

- أستوعب ذلك.

- قال لي إنّه سيسعده لقاؤكِ هذه الظهيرة في منتدي الفروسيّة، إن كان يناسبكِ. فاليوم سيتناول غداءه ويبقى هناك الظهيرة بأكملها. أتعلمين أين المكان؟ دار بيريز-سامانيو، عند التقاطع بين بالميس ودياغونال؟

- أعرفه. سأخبر الدون غوستابو بأنّك كنت لي عونًا كبيرًا.

- شكرًا آنستي.

وعندما كانت تنصرف، لفّ الشابّ خلف المصطبة ليرافقها إلى المخرج مسرورًا، ربّما أراد أن يطيل زيارتها لحظاتٍ إضافيّة.

- ما أغرب الأشياء. - ارتجل منفعلًا - لم ير أحدٌ أيَّ كتابٍ من سلسلة «المتاهة» أعوامًا طويلة، ثمّ يأتي اثنان إلى المكتبة ليسألا عن ماتايكس منذ بداية هذا الشهر فقط...

توقّفت أليثيا.

- آه، حقًّا؟ ومن هو الشخص الآخر؟

اتّخذ بينيتو تعبيرًا جديًّا، مدركًا أنّه تحدّث أكثر من اللازم.

فوضعت أليثيا يدها على ذراعه وضغطت عليها برفق.

- كن مطمئنًّا يا بينيتو، سيبقى الأمر بيننا. مجرّد فضول.

تردّد بينيتو، فدنت منه أليشيا قليلًا.

- إنّه رجلٌ من مدريد، يبدو رجل أمن. أظهر لي بطاقة عن شيء ما. - قال بينيتو.

- ألم يصرِّح لك عن اسمه؟

رفع بينيتو كتفيه.

- لا أدري... أذكره لأنّ وجهه مضروب.

ابتسمت أليثيا فتشتّت ذهن بينيتو أكثر ممّا كان مشتتًا.

- ندبة؟ على خدّه الأيمن؟

اصفرّ وجه الفتي.

- اسمه لومانا ربّما؟ - سألت أليثيا - ريكاردو لومانا؟

- ربّما... لكنّي لست متأكدًا.

- شكرًا يا بينيتو. فأنت المنقذ.

وبينما كانت تبتعد على طول الطريق، أطلّ البائع من عند الباب وناداها..

- يا آنسة؟ لم تخبريني ما اسمكِ...

التفتت أليثيا وأرسلت إليه ابتسامةً رافقتْه طوال النهار وجزءًا من الليل.

(6)

بعد زيارتها إلى مكتبة برسلوه، سلّمت أليثيا أمرها لمشاوير قديمة وتسكّعت بلا عجالة بين منعطفات الحيّ القوطيّ نحو المحطة الثانية من النهار. كانت تتمشّي ببطء، وفكرها منصبٌّ علي ريكاردو لومانا واختفائه الغامض. لم تكن متفاجئة من أنها وجدت نفسها تتعقبه. فالسنوات علّمتها بأنّها ولومانا غالبًا ما سلكت خطاهما الدرب نفسه.

وَكَانَتْ تصل قبله فِي تسع مرّات مِن أصل عشر. أمَّا اللافت للانتباه فِي هَذِهِ المرّة أنّ لومانا - الَّذِي بدأ تحريّاته فِي مسْألة الرسائل مجهولة المصدر إِلَى الوزير، بناءً عَلَى مَا قاله لَهَا خيل دي بارتيرا عِنْدَمَا أوكلها المهمّة - كانَ قَد استقصي عَن كتب فكتور ماتايكس قَبْل بضعة أسابيع فَقَطْ. قَد تنطبق عَلَى لومانا كلّ الأوصاف، باستثناء وصفه بالغبيّ. أمّا النبأ السار فِي كُلّ هَذَا هُوَ إذا كانَ لومانا قَد توصّل إِلَى كُتب «المتاهة» مِن تلقاء نفسه، فيحق لأليثيا اعْتِبَار الأَمْر بمثابة تأكيد أنّ حدسها لَا يُخطئها. والخبر السيّئ أَنَّهَا ستصطدم بِهِ عاجلًا أم آجلًا. ومِن النادر أن ينتهي اللقاء بيْنَهما عَلَى خير.

كانَ لومانا، وفق مَاُ يشاع عَنْه فِي الوحدة، تلميذًا قديمًا للمحقق فوميرو سيّئ السمعة فِي الفرقة المدنية فِي برشلونة، وأشدّ البلطجية الَّذِينَ جنّدهم لياندرو فظاظةً عَلَى مدى الأعوام، وَمَا أكثرهم. وَقَد وقعت عدّة خلافات بَيْنَها وَبيْنَهُ خلال خدمتها عِنْدَ لياندرو. آخِرها قَبْل سنتين، عِنْدَمَا ثمل مِن الخمر والغيظ لِأَنَّهَا حلت قضيّةً كانَ يشتغل علَيْهَا مُنْذُ أشهر بلا جَدْوَى، فتبعها ذَات مساء إِلَى غرفتها فِي فندق هسبانيا، ووعدها بِأَنَّهُ مَا إن يتخلى لياندرو عَن حمايتها، فإنَّهُ سيجد المكان والزمان المناسبين لكي يَتَبَعَها عَلَى السقف ويستمتع بتعذيبها بعُدّةٍ مُتكاملةٍ مِن الأدوات.

- لستِ أوّل وآخِر عاهرة راقية يجدها لياندروه، يا حلوة، وَعِنْدَمَا سيضيق ذرعًا بلِ سأكون بانتظارك، وأعد بِأَنَّهَا ستكون ليْلَة عظيمة، بالنسبة إليكِ تحدِيدًا، لأن لحمكِ خُلِق خِصِّيصًا ليتلقّى ضربات العصا الحديدية...

خرج لومانا مِن ذَلِك اللقاء بضربةٍ مِن ركبتها عَلَى مصدر اعتزازه أرغمته عَلَى إجازة مدتها أسبوعين، فضلًا عَن كسر مزدوج بالذراع وشرخ بالخدّ تطلب رتقه ثماني عشرة قطبة. ومِن جهة أليثيا، فكَانَ الثمن أسبوعين قضتهما فِي مراقبة باب الغرفة تحت الظلام والريفولفر عَلَى الدرج، وحدسًا غامضًا بأن الأسوأ ينتظرها فِي مباراة الإياب.

قرّرت أن تُزيح عنْهَا التفكير بلومانا فِي تِلْك اللَّحْظَة، لتتمتع بأول أصبوحة لَهَا فِي شوارع برشلونة. فواصلت نزهتها عَلَى مهل تَحْت الشمس، خطوة بخطوة، تتوقف عِنْدَ واجهة محل كُلّمَا أحسّت ببوادر ضغط عَلَى خاصرتها، وَإِن طفيفة. لَقَدْ تعلمت مَعَ الأَيَّام قراءة الإشارات وإيجاد الوسيلة لتحاشي المحتوم أَوْ لتأخير قدومه أضعف الإيمان. فَهِيَ والألم ندان قديمان، محتكان يعرف كلًا مِنْهُمَا الآخَر حَقّ المعرفة، يتناوبان عَلَى استكشاف بعضهما بَعْضًا، ويتقيّدان بشروط اللعبة. علمًا

بأن التنزه فِي ذَلِك الصَّبَاح، بِدُونِ المشد المربوط عَلَى خصرها، كانَ يسْتَحقّ الثمن الَّذِي تعرف بِأَنَّهَا ستدفعه لاحقًا. مَا زَالَ هُنَاك وقت للندم.

دلفت باب الملاك قَبْل العاشرة بقليل، وَعِنْدَ منعطف شارع سانتا آنا لمحت واجهة المكتبة القديمة «سيمبيري وأبناؤه». ثمّة مقهى صغير عَلَى الطرف الآخَر مِن الشارع. قررت أليثيا أَن تدخل وتجلس إِلَى طاولة بجوار النافذة. فالراحة مفيدة لَهَا كثيرًا.

- مَاذَا نجلب لكِ يا آنسة؟ - سألها نادلٌ بَدَا أنّه لَمْ يبرح المحل مُنْذُ عشرين عامًا عَلَى الأقل.

- قهوة سوداء. وكأس ماء.

- مِن الصنبور أَم مياهٌ معدنية مِن القنيّنة؟

- أيّهُمَا تنصحني؟

- هَذَا يعتمد عَلَى نسبة الكالسيوم بالدم.

- مِن القنيّنة إذن. وطبيعية، لَوْ سمحت.

- حالًا.

وَبَعْدَ فنجانين مِن القهوة ومرور نصف ساعة، تحقّقت أليثيا مِن عَدَم توقُّف أَيّ شَخْص للنظر إِلَى واجهة المكتبة. لَا بُدَّ أَن سجل الحسابات عِنْدَ سيمبيري وأبنائه كانَ مُزدحمًا بشباك العناكب عَلَى سُرْعَة النسيان. كَانَتْ فكرة اجتياز الطريق، ودخول ذَلِك البازار المسحور وإنفاق الأموال عَلَى الكتب، تنهشها مِن الداخل لَكِن أليثيا مُتَأَكِّدَة مِن عَدَم توافر اللَّحْظَة المناسبة. مَا يَنْبغِي فعله حينذاك هُوَ المراقبة. مرّت نصف ساعة أُخْرَى، ففكرت فِي رفع المرساة والمغادرة نظرًا إِلَى انعدام الأحْدَاث، فَإِذا بهَا تراه. كانَ يمشي سارح البال، رَأْسه بَيْنَ الغيوم، وابتسامة طفيفة عَلَى شفتيه، هانئ الوجه بتعبير سموح، يتفرّد بِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ ينعمون بغفلةٍ تعفيهم عَن فهم كَيْفَ يسير هَذَا العالم. لَمْ تر لَهُ صورة مِن قَبْل، لكِنَّهَا عرفت مَن يكون قَبْل أَن تراه يدنو مِن باب المكتبة.

دانيال.

ابتسمت أليثيا رغْمًا عنْهَا. وَعِنْدَمَا أوْشك دانيال عَلَى دخول المكتبة، انفتح الباب إِلَى الخارج، وأقبلت إِلَيْهِ امرأة شابة فِي العشرينات مِن عمرها عَلَى أَقَلّ تقدير. وَكانَ جمالها مِن الجمال النظيف الَّذِي قَد يصفه كُتَاب الدراما بِأَنَّهُ آتٍ مِن الداخل يجذب الأغبياء الَّذِينَ يقعون فِي الغرام بسهولة، المولعين بخرافات الملائكة الطيبين ذوي قلب مِن ذهب. كَانَتْ ملامحها تشي ببراءة، أَوْ رزانة، الفتيات بنات العائلات المرموقة، وزيُها يوحي بِأَنَّهَا تتوجس مِن طبقة الجسم الَّذِي تُخفيه تَحْت الملابس لكِنَّهَا لَا تُجازف للاعتراف بِذَلِك. بياتريز الشهيرة، قَالَتْ أليثيا لنفسها، نقاء الثلج المعطّرة بالبراءة فِي بلاد الأقزام.

أنهضت بياتريز نفسها عَلَى رؤوس أصابعها ولثمت ثغر زوجها. قبلةٌ عفيفة، بشفاهٍ مغلقة تتلامس بالكاد. لَمْ تغفل أليثيا عَن مُلَاحَظة أَن بياتريز مِن اللواتي يُغمضن عيونهنّ أثناء القبلة، حَتَّى لَوْ كانَ الطرف الآخَر زوجًا شرعيًا، ويُفسحن المجال لَهُ لتطويق خصورهن. وَكانَ دانيال

بدوره يُقبّل مِثْل أولاد المدارس، لَمْ يؤهّله الزواج المبكّر عَلَى كيفيّة تطويق الْمَرْأَة ووضعيّة اليَدَيْنِ وإذابتها بالشفتين. لَمْ يعلّمه أَحَد ذَلِك، هَذَا وَاضِح. شعرت أليثيا بالابتسامة تخبو مِن عَلَى وجْههَا، ولجّةٍ من الحزن تكتسح أحشاءها.

- هلّا أتيْت لِيَ بكأس نبيذ أبيض؟ - طلبت مِن النادل.

عَلَى الطرف الآخَر مِن الشارع، ودّع دانيال زوجته ودخل المكتبة، أمّا بياتريز، ذَات الثياب العصريّة وَلَكِن بإمكانات اقتصاديّة محدودة، فمشت بَيْنَ الزحام باتجاه باب الملاك. عاينت أليثيا جسمها والطريقة الَّتِي تحرّك بهَا خاصرتيها.

- آهٍ لَوْ تسنّى لِيَ أَن أُلبِسكِ عَلَى ذوقي يا أميرتي. - غمغمت.

- مَاذَا قلتِ يا آنسة؟

التفتت أليثيا لتجد النادل قُبالتها، يحمل كأس النبيذ الأبيض ويرميها بنظرةٍ تتراوح بَيْنَ الذهول والجزع.

- مَا اسمك؟ - سألته.

- أنا؟

مسحت أليثيا المقهى كُلّه بأنظارها، لتتأكد أَنَّهُمَا كانا وحيدين.

- هَلْ ترى أحدًا غَيْرك؟

- مارثيلينو - لَمْ لَا تجلس مَعِي يا مارثيلينو؟ لَا أُحبّ أَن أشرب بمفردي. حسنًا، ليْسَ صحيحًا. وَلَكِن لَا يروقني كثيرًا.

مضغ مارثيلينو ريقه.

- أعرض عَليْك شَيْئًا تشربه إن أردت. - اقترحت أليثيا - بيرة؟

كانَ مارثيلينو ينظر إِلَيْهَا مُتجمّدًا.

- اجلس يا مارثيلينو، فأنا لَا أعضّ أومأ مارسيلينو وَجَلسَ قُبالتها. فابتسمت لَهُ أليثيا برقّة.

- هَلْ لَدَيْك خطيبة يا مارثيلينو؟

هزّ النادل رَأْسه نافيًا.

- بَعْض النساء لَا يعرفن مَاذَا يفوتهنّ. أخبرني يا مارثيلينو. هَلْ لِهَذَا المقهى مخرجٌ آخَر غَيْرَ المدخل الرئيس؟

- عفوًا؟

- هَلْ هُنَاك مخرجٌ خلفيّ يُفضي إِلَى زقاق، أَوْ إِلَى أعتاب شَيْء مَا هُنَا فِي الجوار...

- يُوجد مخرج يؤدي إِلَى باحة ومِن ثمّ إِلَى شارع بيتريانس. لِمَاذَا؟

- ثمّة أحدٌ يُلاحقني.

ألقى مارثيلينو نظرة إِلَى الشارع مُتوجِّسًا.

- هَلْ تريدين أَن أتّصل بالشرطة؟

أسندت يدها إِلَى يده، وكاد يَسْتحِيل إِلَى تمثال مِن الملح.

- لَا داعي لِذَلِك. الأَمْر ليْسَ بِهَذِهِ الخطورة. لكني أُفضِّل مخرجًا أَكْثَر خفيةً، إِن كانَ الأَمْر لَا يُسبب لَك متاعب.

هز رَأْسه نافيًا.

- أنت المنقذ يا مارثيلينو. قل لِيَ، كَمْ حسابك؟

- عَلَى حسابنا.

- متأكد؟

هزّ رَأْسه مُؤَكّدًا.

- سَبّق أَن قلتُ. بَعْض النساء لَا يعرفن مَاذَا يفوتهنّ... قُل لِيَ، هَلْ لديكم هاتف؟

- خَلْف المصطبة.

- هَلْ يؤسفك أَن أجري مكالمة؟ مكالمة إقليميّة، لكنّي سأدفع أجرها، ها؟

- لكِ كُلّ مَا تشائين...

ذهبت أليثيا إِلَى المصطبة ووجدت هاتفًا قديمًا مُعلّقًا عَلَى الحائط. وَكَانَ مارثيلينو ينظر إِلَيْهَا مِن الطاولة الَّتِي ظَلّ مُتسمّرًا إِلَيْهَا. أرسلت إِلَيْهِ تحيّةً وَهِيَ تؤلّف الرقم.

- أودّ التحدث إِلَى بارغاس لَوْ سمحت..

- حضرتكِ غريس، أَلَيْسَ كذَلِك؟ - سألها صوت لَا يخلو مِن السخرية مِن عَلَى الطرف الآخَر مِن الخط - النقيب ينتظر مكالمتك.

سأمرّرها إِلَيْهِ حالًا.

سمعْت أنّه ترك السمّاعة عَلَى الطاولة ونادي رفيقه.

- بارغاس، إِنَّهَا السيّدة إينيس... - سمعْت أَحَد العناصر يقول بيْنمَا يدمدم الآخَر أغنية «تِلْك العيون الخضر»..

- أنا بارغاس. كَيْفَ الحال؟ هَلْ بدأتِ ترقصين الساردانا؟

- مَن هِيَ السيّدة إينيس؟

- حضرتكِ لَقَدْ سلّمونا الألقاب هُنَا. أنا الدون جوان...

- مَا أذكاهم، زملاؤك!

- ليْسَ لديكِ فكرة. هُنَا تُوجد مواهب كثيرة. هاتي حدّثيني!

- ظننتُ أنَّك اشتقتَ إلَيَّ.

- لَقَدْ هُزِمت فِي مباريات أفضل، وصمدتُ.

- يسعدني أنَّك تأخذها بمرونة. فَقَد ظننتُ أنَّك آتٍ إلَيَّ.

- لَوْ كانَ الأَمْر بيدي، لأبقيتكِ هُنَاك وحيدةً حَتَّى التقاعد.

- ومدراؤك، مَاذَا يَقُولُون؟

- يَقُولُون بأن أستقل السَّيَّارَة وأقودها طوال النَّهار وجزءًا مِن اللَّيْل حَتَّى أكون عِنْدَكِ صباح الغد.

- بمناسبة السيّارات، هَلْ مِن جَدِيد عَن سيّارة ڤايس؟

- لَا جَدِيد. وجدوها مهجورة فِي... دعيني أرى الملاحظات... فِي شارع دي لاس أغواس، فِي بايدريرا. أهي فِي برشلونة؟

- فلنقل فوقها.

- فوقها؟ كالسماء؟

- نوعا مَا. هَلْ مِن أثر لڤايس أَوْ سائقه بيثينتي؟

- قطرات دماء عَلَى مقعد الراكب. دلائل عَلَى وقوع عنف. لَا أثر لكليهما.

- وَمَاذَا بَعْدَ؟ - هَذَا كُلّ شَيْء. وأنتِ مَاذَا تُخبرِيني؟

- بأنني خلافًا عَنْك، اشتقتُ إِلَيْك. - ردّت أليثيا.

- العودة إِلَى برشلونة تجعلكِ تتغابين. أَيْنَ أنتِ الآنَ؟ تحجّين إِلَى عذراء مونتسيرات؟

- تقرِّيبًا. فَفِي هَذِهِ اللَّحْظَة أنظر إِلَى واجهة مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

- مُثمر لِلغَايَة. هَلْ تحدّثتِ مَعَ لياندرو؟

- لَا. لِمَاذَا؟

- لِأَنَّهُ يُطاردني مُنْذُ باكر الصَّبَاح ليسألني عَنكِ. هلّا أسديتِ إلَيَّ معروفًا واتّصلتِ بِهِ وأبلغته مُعايداتٍ سعيدة وَإِلَّا لَن يتركني أتنفّس.

تنهّدت أليثيا.

- سأفعل. بالمناسبة، أريد مِنْك أَن تفعل شَيْئًا مِن أجلي.

- هَذَا هُوَ هدفي الجديد فِي الحياة عَلَى مَا يَبْدُو.

- مسْأَلة حساسة. - حدّدت أليثيا.

- اختصاصي.

- أريد مِنْك أَن تحرّك معارفك فِي المباحث، لتكتشف بسريّة مَا الَّذِي كانَ بصدده العميل ريكاردو لومانا قَبْل أَن يفرّ بجلده.

- لومانا! المختفي! يا لَهُ مِن حيوان.

- هَلْ تعرفه؟

- حدثوني عَنْه. بالسوء جميعًا. سأرى مَا الَّذِي أستطيع فعله.

- لَا أطلب مِنْك أَيّ شَيْء آخَر.

تنهّد بارغاس مِن الطرف الآخَر للخطّ.

- وفْقًا لحساباتي، سأصل صباح الغد. فلنتناول الفطور معًا إِن أردتِ، وأروي لكِ مَا اكتشفته عَن صديقكِ لومانا، إِن استطعتُ اكتشاف شَيْء مَا. هَلْ ستبقين عاقلة لَا تتورّطين بمتاعب ريثما أصل؟

- أعدك بِذَلِك.

(7)

كانَ مارثيلينو مَا يَزَال ينظر إِلَيْهَا مِن بَعِيد، يقطع عَلَى نفسه ذهوله الوبائيّ بنظرات خاطفة إِلَى الشارع بحثًا عَن المُلاحق الغامض. غمزت لَهُ أليثيا بعين وأشارت بسبّابتها.

- مكالمة أُخْرَى وكفى...

ألّفت رقم الجناح المباشر وانتظرت. وَلَمْ يكد الهاتف يرنّ رنّة واحدة. لَا بدّ أَنَّهُ كانَ ينتظر بجانب الهاتف عَلَى أحرّ مِن الجمر، فكرت أليثيا.

- هَذِهِ أنا. - غمغمت.

- أليثيا، أليثيا، أليثيا... - نغّم صوت لياندرو برقّة - لَا تعجبينني عِنْدَمَا تختفين عنّي. تعلمين ذَلِك.

- كنتُ سأتصل بك. لَا داعي لتعيين رقيب علي.

- لَمْ أفهم.

- ألم تُعيّن أحدًا يُراقبني؟

- مَا كنتُ لأُعيَّن غبيًّا ينكشف أمره باكرًا هكَذَا. مَن هُوَ؟

- لَمْ أعرفه بَعْدَ. ظننت أَنَّهُ واحدٌ مِن رجالك.

- لَا طبعًا. إلَّا إذا عيّنه أصدقاؤنا فِي قسم الشرطة المركزيّ.

- وَعلَيْهِ فَإِن المسمكة المحليّة ينقصها مواهب فعيّنت هَذَا الأبله لِيُراقبني.

- ليْسَ مِن السهل إيجاد رجال أكفاء. اسمعي منّي. أتريدين أَن أجري اتصالًا لأزيله عَن طريقكِ؟

فكّرت أليثيا فِي الأَمْر قَلِيلًا.

- لَا عَليْك. خطرت لِيَ فكرة.

- لَا تكوني شرّيرة معَهُ. لَا أعلم من عيّنوا لمراقبته، لكِنَّهُ أغْلَب الظنّ غرّ الأغرار.

- هَلْ أنا سهلة إِلَى هَذَا الحدّ؟

- بَلْ عَلَى العكس. أَعْتقِد أَن أحدًا لَمْ يشأ الانخراط فِي المهمّة.

- هَلْ تلمّح أني لَمْ أترك ذكرى طيّبة؟

- لطالما قُلْت لكِ إِنَّهُ مِن الضروري احترام الإجْرَاءات. ثمّ ها أنتِ ترين مَاذَا يحْدثْ. هَلْ تحّدثتِ مَعَ بارغاس؟

- أجل.

- فأنتِ عَلَى دراية بقصّة السَّيَّارَة إذن. هَلْ وجدتِ الأمور عَلَى مَا يرام فِي البَيْت؟

- أجل. لَقَدْ نظفت السيّدة خيسوسا الشقة حَتَّى صارت تلمع كالمرآة، وَقَد كوت جَمِيع ملابسي بِمَا فيها فستان المناولة الأولى. شكرًا عَلَى اهتمامك.

- لَا أريد أَن ينقصكِ شَيْء.

- ألهذا أرسلت إِلَيَّ بارغاس؟

- قَد تكون مُبادرَة شخصية مِن جانبه. أَوْ مِن خيل دي بارتيرا. سَبّق وأخبرتكِ أنهم لَا يثقون بِنَا.

- وا عجبي!

- مَا برنامجكِ هَذَا اليَوْم؟

- قمت بجولة بَيْنَ المكتبات، ولدي موعد بَعْدَ الظهر مَعَ سيّدٍ مِن شأنه أَن يُقدّم لِيَ توضيحات حَوْلَ فكتور ماتايكس.

- فأنتِ تمضين قدمًا بمسألة ذَلِك الكِتَاب...

- لاستبعادها أَيْضًا.

- هَلْ أعرفه؟ السيّد الَّذِي ستلتقين؟

- لَا أدري. بائع كتب. يدعى غوستابو برسلوه.

هبط الصمت هُنَيْهَة سريعة، لَكِن أليثيا سجَّلتها.

- لَا يذكرني اسمه بشيء. اتصلي بِي إذا اكتشفتِ شَيْئًا مَا. وَإِلَّا... اتّصلي بِي بكُلِّ الأحوال.

كَانَتْ أليثيا تُحضِّر إجابةٌ لاذعة لَكِن لياندرو أغلق السمّاعة. تركت بَعْض النقود عَلَى المصطبة ثمنًا للمكالمتين وَمَا استهلكته عَلَى الطاولة وانصرفت مِن عِنْدَ مارثيلينو بقبلة طائرة فِي الهواء.

- كُلّ هَذَا يبقى بَيْننَا يا مارثيلينو، ها؟

أومأ النادل مُقتنعًا واقتادها إِلَى باب خلفي يؤدّي إِلَى باحة مفتوحة. هُنَاك حيْثُ تتشكّل عُقْدَة مِن الممرّات بَيْنَ أبنية الكتلة السكنيّة تُفضي إِلَى مخرج عبر أَحَد تِلْك الأزقة المعتمة الَّتِي لَا وجود لَهَا إِلَّا فِي برشلونة القديمة، أزقّةٍ أضيَق مِن أرداف طالب فِي معهد تخريج القساوسة.

كانَ الزقاق يصل إِلَى شارع كانودا بشارع سانتا آنا. دارت أليثيا حَوْلَ الكتلة، وَعِنْدَمَا انعطفت عِنْدَ الزاوية توقفت لتراقب المشهد: سيّدةٌ تدفع عربةً بيد وتحاول باليد الأُخْرَى أَن تجرّ طفلًا بَدَا أَن حذاءه التصق بالأرض؛ وشابٌّ بسترةٍ وشال يحوم أمام واجهة محلٍّ لبيع الأحذية وينظر خِلْسَة إِلَى فتاتين جميلتين وراقيتين يرتدين جوارب عَلَى الصرعة الحديثة وتمرّان ضاحكتين؛ وحارسٌ مدني يتمشّى وسط الشارع ويرمي نظراته المتشكّكة عَلَى الطَّرَفَيْن. وَهُنَاك، حدّدت أليثيا طيف رَجُل قصير القامة، ومظهره بلا معنى حَتَّى كاد يَبْدُو غَيْرَ مرئي، مُلتصقًا بجدار الممشى كَأَنَّهُ لافتة طرقيّة. كانَ الرجل يُدخن سيجارة ويُراقب باب المقهى متوترًا وينظر إِلَى ساعته. ففكرت فِي أنهم لَمْ يختاروه اعتباطًا. لِأَنَّهُ كانَ تافها لدرجةٍ قَد لَا يُعيره الضجرُ نفسُه أدنى اهتمام إذا مرّ بجانبه. اقْتَرَبَتْ أليثيا ببطء وتوقفت عَلَى بُعد سنتمترات مِن رقبته الشاحبة. كوَّرت شفتيها ونفخت.

فانتفض الرجل فزعًا وكاد يفقد توازنه. الْتَفَتَ ليرى أليثيا فبَهُتَ مَا تبقى مِن لون وَجْهه.

- مَا اسمك يا عزيزي؟ - سألته أليثيا.

ولئن كانَ للرجل صوتٌ، لَمْ يعد يجده حينذاك. تذبذبت نظراته ألْف مرّة قَبْل أَن تعود لتحطّ عَلَى أليثيا.

- حذار أَن تفرّ راكضًا، لئلا أغرس سكّينًا فِي أمعائك. مفهوم؟

- مفهوم. - قَالَ.

- كُنْت أمازحك. - ابتسمت أليثيا - أنا لَا أفعل مِثْل هَذِهِ الأَشْيَاء.

كانَ المسكين يرتدي معطفًا يَبْدُو أَنَّهُ قَد استعاره، وغدت ملامح وَجْهه كقارضٍ وقع فِي الفخ. أَيّ جاسوسي هَذَا الَّذِي عيّنوه لتعقب أثرها. أمْسكَت أليثيا بياقته، واقتادته إِلَى الزاوية بطريقة حازمة وَلَكِن مِن غَيْرَ إذلال.

- مَا اسمك؟

- روبيرا. - تعتع قائلًا.

- هَلْ كُنْت أَنْتَ الواقف عِنْدَ بوابه مانوال ألبارغاتيرا ليْلَة أمس؟

- كَيْفَ عرفتِ؟

- إيَّاك أَن تُدخِّن تَحْت ضوء عمود الإنارة!

أومأ روبيرا، وَهُوَ يجدِّف فِي سرّه.

- قُل لِيَ يا روبيرا، مُنْذُ متَى التحقتَ بالسلك؟

- غدًا سأتم شهري الثاني، لكنهم فِي قسم الشرطة إذا عرفوا بأنّكِ كشفتِ أمري...

- لَا حاجة لأن يعرفوا.

- لَا؟

- لَا. لأنّنا أنت وأنا يا روبيرا، سنتعاون. هَلْ تعرف كَيْفَ؟

- لَن ألاحقكِ يا آنسة.

- هَذَا جيّد، وَلَكِن نادني باسمي، أليثيا، فَنَحْنُ فِي الجانب نفسه.

فتشت أليثيا فِي جيوب معطف روبيرا ووجدت علبة مِن السجائر الَّتِي تُباع فِي المقاهي سيِّئَة السمعة وتنسجم مَعَ القهوة المعدلة بالكحول. أشعلت مِنهَا واحدة ووضعتها فِي فم روبيرا. تَركَته يمجّ مِنهَا مجّتين وابتسمت لَهُ بود.

- هَلْ اطمأنّ بالك؟

أومأ بنعم.

- قُل لِيَ يا رويبرا، أَيّ سبب هَذَا الَّذِي جعلهم يعينوك لمراقبتي دونًا عَن سواك؟

تردّد رويبرا.

- أرجو أَلَّا تغضبي، وَلَكِن لَا أَحَد أراد تولّي المهمّة.

- ولِمَاذَا؟

شدّ رويبرا كتفيه.

- لَا تَكُن خجولًا يا رويبرا. فرّج عمّا فِي نفسك، هيّا!

- يُقال إنّكِ تجلبين سوء الطالع وتقتصّين مِن الناس بطريقة رهيبة.

- مفهوم. يتّضح أنّ هَذَا لَمْ يُرهبك.

- صعبٌ أَن يحْدثْ لِيَ أَسْوَأ مِمَّا أعانيه أسَاسًا. وبالعموم، لَا أملك حريّة الخيار.

- وممّ تتألّف مهمّتك؟

- بأن أُلاحقكِ مِن مسافة بعِيدَة، وَأَن أنقل إِلَيْهِم أَيْنَ كنتِ وَمَاذَا فعلتِ، دُونَ أَن أُثير انتباه. وَقَد رأيتِ بأم العين كَيْفَ نجحتُ فِي ذَلِك. لَقَدْ قُلْت لَهُم إِنِّي لَسْت نافعًا فِي هَذِهِ الأمور.

- ولِمَاذَا التحقت بسلك الشرطة إذن؟

- كُنْت أدرس الفنون التصميميّة، لَكِن والد زوجتي نقيبٌ فِي قسم الشرطة المركزي.

- حقًا. وزوجتك يروق لَهَا أَن تراك ببدلة، أَلَيْسَ كذَلِك؟

حطّت أليثيا يدها عَلَى كتف رويبرا بلمسة أَمٍّ عطوف.

- رويبرا، يضطرّ الرجال فِي لحظَات مصيريّة إِلَى امتلاك الشجاعة ليثبتوا للعالم - اسمح لِيَ بِهَذِهِ العبارة - أنّهم ولدوا ليتبّولوا واقفين. ولكِي أُظهر لَك أنَّك شجاع أَكْثَر مِمَّا تظن، سأعطيك فرصة لإثبات ذَلِك لِيَ، ولقسم الشرطة المركزي، ولوالد زوجتك ولزوجتك نفسها، الَّتِي مَا إن ستُدرك أَيّ ذكرٍ فحل لَدَيْهَا فِي البَيْت حَتَّى تزْدَرَد قنينة مشروب مونتسيرات كي لَا تختنق.

كانَ رويبرا ينظر إِلَيْهَا عَلَى حافة السقوط.

- اعتبارًا مِن هَذِهِ اللَّحْظَة ستلاحقني كَمَا أمروك، لكنّك لَن تقترب أَكْثَر مِن مئة متر، بحيث لَا أراك. وَعِنْدَمَا يسألونك أَيْنَ كنتُ وَمَاذَا فعلتُ، ستقول لَهُم مَا أقوله لَك.

- وَلَكِن... هَلْ هَذَا شرعي؟

- رويبرا، أنت الشرطة. الشرعي مَا ستسمّيه أنتَ بالشرعي.

- لَا اعرف...

- بَلْ أنت تعرف بِالتَّأْكِيدِ. فأنتَ تعرف اللُّغَة اللاتينية أَيْضًا. كُلّ مَا ينقصك هُوَ الثقة بالنفس.

رفرف رويبرا جفنيه غَيْرَ مرّة مشتّت الذهن.

- وَمَاذَا لَوْ لَمْ أوافق؟

- هيّا، لَا تفعلها يا رويبرا الآنَ وَقَد أصبحنا صديقين. لأنك إِن لَمْ توافق سأضطر للذهاب إِلَى والد زوجتك، النقيب، لأخبره بأنني رأيتك عَلَى سور مدرسة الأخوات التيريزيّات تستمني أثناء ساعة الاستراحة.

- لستِ قادرة عَلَى فعلها.

حدّقت أليثيا فِي عينيه..

- هيه يا فتى، ليْسَ لَدَيْك أدنى فكرة عمّا أنا قادرة عَلَى فعله.

فلتت مِن رويبرا تنهيدة أسي.

- أنتِ شرّيرة.

زمّت أليثيا شفتيها بمحاولة عبوس.

- رويبرا، عِنْدَمَا أقرّر أَن أكون شرّيرة مَعَك، ستعرف ذَلِك مباشرة. سأنتظرك فِي صباح الغد الباكر أمام القران كافيه، وسأملي عَلَيْك برنامج النَّهار. اتفقنا؟

بَدَا أنّ رويبرا قَد نحف عدّة إنشات خلال المحادثة فتوجَّه إِلَيْهَا بنظرة توسّل.

- هَذِهِ كُلّهَا مُزحة، أَلَيْسَ كذَلِك؟ تسخرين مني لأنني غرّ...

قلّدت أليثيا تعابير وجه لياندرو بأفضل مَا لَدَيْهَا، واستلهمت مِنْهُ نظرته الجامدة والصارمة. هزت رَأْسهَا نافيةً.

- لَا، هَذِهِ ليْسَتْ مُزحة. إِنَّهَا أوامر. لَا تُخيِّب أملي. فأنا وإسبانيا نعوِّل عَلَيْك.

(8)

فِي مُستهلّ القرن العشرين، عِنْدَمَا كانَ للمال رائحة، وَكانَ الناس لَا يحصلون عَلَى الميراث العظيم فَحَسْب بَلْ ويستعرضونه أَيْضًا، تنزّل مَن سابع السماوات بناء حداثي جَاء نتيجة جِماعٍ عسير بَيْنَ أحلام كبار المهنيين وعبثيّة ثريٍّ ماجن. وظل البناء مُعشَّقًا هُنَاك فِي أشدّ مناطق الزمن البرشلونيّ الجميل استحالةً.

ومنذ نصف قرن، يشغل مَا يُسمىّ بدار بيريز-سامانيو الزاوية بَيْنَ شارع بالميس ودياغونال مِثْل أعجوبة، أَوْ مِثْل وعيد. ولئن شُيِّدت الدار فِي الأَسَاس لتكون مسكنًا عائليًّا فِي حقبة كَانَتْ فيها العوائل المرموقة تتخلص مِن أبنيتها، فَإن تِلْك القصيدة الدسمة حافظت عَلَى أُبهة مظهرها كصخرة باريسيّة تُنير الطرقات بأضوائها النحاسيّة مِن خلال نوافذها العملاقة، وتعرض - بلا أَيّ وازع - عَلَى مرأى البشر الفانين معارجها الهائلة وصالوناتها الفاخرة ومصابيحها الزجاجيّة. ولطالما بدت لأليثيا نوعًا مِن حوض الأسماك الَّذِي بوسعها أَن ترى عبْر صفائحه البلورية منظومات وأشكال حياة غرائبية تُثير الريبة.

وَقَد مرّت أعوام طويلةٌ لَمْ تستضف أثناءها هَذِهِ المستحاثة الموسرة أَيّ عائلة، وباتت فِي الآونة الأخيرة مقرًّا لمنتدى الفروسيّة فِي برشلونة، إحدى تِلْك المُؤسّسات الراقية والمنيعة الَّتِي تتهيّج فِي كُلّ المدن كِي تكون ملاذًا آمنًا لأبناء العائلات النبيلة يتقون فيها روائح عرق أحفاد مَن أسّسوا لَهُم الثروات عَلَى أكتافهم. لياندرو، الراصد الدقيق لِهَذِهِ الأَشْيَاء، اعتاد أَن يقول إن أُولى الضرورات المُلقاة عَلَى عاتق الكائن البشري، بَعْدَ تأمينه الغذاء والسكن، هِيَ البحث عَن الموارد والدوافع الَّتِي تجعله يشعر بِأَنَّهُ مُخْتلَف عَن أشباهه. وَكانَ مقر منتدى الفروسيّة يَبْدُو أَنَّهُ صُمّمَ لهذه الغاية تحدِيدًا. مَا حَذا بأليثيا أن تتخيّل مُرشدها يتّخذ مِن تِلْك الصالونات، ذَات الأخشاب الفاخرة والمظهر الراقِي، مسرحًا نموذجيًا للإقامة وتصريف أعماله الغامضة بقفّازٍ أبيض، لَوْ أَنَّهُ لَمْ ينتقل إِلَى مدريد قَبْل أعوام.

كانَ هُنَاك خادم غارق فِي بدلته إِلَى أذنيه يراقب المدخل، فتح لَهَا البوابة الحديدية المعتبرة. وَفِي داخل البهو منصّةٌ منيرة يتمترس خلفها رَجُلٌ دقيقٌ فِي ملابسه، جلف المحيّا، نظر إِلَيْهَا مِن رَأْسهَا حَتَّى قدميها مرّتين قَبْل أَن يدلي بتكشيره رقيقة.

- مساء الْخَيْر. - قَالَتْ أليثيا - لدي موعد مَعَ السيّد غوستابو برسلوه.

أخفض الموظف عينيه إِلَى الدفتر الموجود عَلَى المنصة وتظاهر أنّه يدقّق فيه بضع ثوانٍ، مانحًا الحالة جدّيّةً كُبْرَى.

- اسم حضرتك؟

- فيرونيكا لاراث.

- فلتتفضّل السيدة مَعِي...

اقتادها موظف الاستقبال عبر داخل المبنى البهي. وَكَانَ أعضاء المؤسسة يقطعون محادثاتهم ليسدّدوا إِلَيْهَا نظراتٍ مُتفاجئة، وَمُسْتَنْكِرَة فِي بَعْض الحالات. لَمْ يَكُن ذَلِك المكان مُعتادًا عَلَى استقبال زوار مِن الجنس اللطيف بطبيعة الحال، حَتَّى لَقَدْ بَدَا معظم الوجهاء يؤولون وجود أليثيا عَلَى أَنَّهُ تحدٍّ لذكوريّتهم العفنة. فِي حِيْن اكتفت بالتجاوب لانتباههم بابتسامةٍ محترمة. وصلا أخيرًا إِلَى صالة قراءةٍ تطلّ واجهتُها الزجاجيّة الهائلة عَلَى شارع دياغونال. هُنَاك حيْثُ يتربع سيّدٌ بملامح وشوارب ملكيّة عَلَى ديوانٍ إمبراطوري يتذوّق كأس براندي بحجم حوض سمك. كانَ يرتدي بدلة كاملة مَعَ سترة الجيليه، وحذاء عَلَى طراز الداندي كلمسةٍ نهائية. توقف موظف الاستقبال عَلَى بَعْدَ مترين عَنْه وذاب بابتسامةٍ خانعة.

- دُونَ غوستابو؟ الزيارة الَّتِي تنتظرها...

الدون غوستابو برسلوه، العميد الفخري لنقابة باعة الكتب فِي برشلونة، والباحث بكُلِّ مَا يتعلق بالأنوثة الخالدة وأرقى أدواتها، نهض لاستقبالها بدفء وإجلال وتقدير.

- الدون غوستابو برسلوه، عِنْدَ قدميكِ...

مدّت أليثيا يدها إِلَيْهِ، فقبّلها بائع الكتب كَمَا لَوْ كَانَتْ يد حَبرٍ أعظم، مُستغرقًا كُلّ الوَقْت ومنتهزًا الظرف لتفحُّصها تفحُّصًا عامًّا قَد يكشف مِن خلاله حَتَّى مقاس القفّازات الَّتِي تستخدمها.

- فيرونيكا لاراث. - قدّمت أليثيا نفسها - تشرّفتُ بك.

- وَهَلْ لاراث كنية قريبكِ جامع التحف أَيْضًا؟

تصوّرت أليثيا أن البائع، بينيتو، اتصل ببر سلوه حالما غادرت المكتبة وأطلعه عَلَى كُلّ صغيرة وكبيرة مِن لقائه بهَا.

- لَا. لاراث هِيَ كنية زوجي.

- مفهوم. التكتُّم قَبْل كُلّ شَيْء. أستوعب الأَمْر. تفضلي بالجلوس، أرجوكِ.

جلست أليثيا عَلَى الأريكة المقابلة لبرسلوه وشمَّت الهواء الأرستقراطي والحصري المتصاعد مِن الأثاث.

- أهلًا بكِ بَيْنَ السلالة المتعفّنة للأغنياء الجدد وَأُولَئِكَ البائدين، الَّذِينَ يزوّجون ذرّيتهم لمحدثي النعمة لتخليد العشيرة. - علق برسلوه مُحاولًا تأويل نظراتها.

- حضرتك لَسْت عُضْوًا فاعلًا فِي هَذِهِ الدار؟

- صمدتُ أعوامًا طويلة لأسباب تتعلق بالنظافة، لَكِن الظروف مَعَ مرور الوَقْت أرغمتني عَلَى الرضوخ لواقع المدينة والسباحة فِي جهة التيار.

- لَا بُدَّ أنَّك حصلت عَلَى امتيازات عديدة.

- بِالتَّأْكِيدِ. بتّ أعرف أشخاصا مضطرين لإنفاق ثروتهم الَّتِي ورثوها عَلَى أشياء لَا يفهمونها أَوْ لَا يحتاجون إِلَيْهَا. وتعافي مِن كُلّ الأوهام الرومنسيّة الرائجة عمّن عيّنوا أنفسهم نُخبةً لِهَذَا البلد، والبراندي أقصاها. ثمّ إنّ هَذَا المكان مُمتاز للقيام بأبحاث أثريّة فِي علم الاجتماع. فَفِي برشلونة

يعيش أَكْثَر مِن مليون نسمة، إلَّا أَنَّهُ فِي اللَّحْظَات المفصليّة تبقى مفاتيح كُلّ الأبواب تَحْت تصرُّف أربعمئة شَخْص تقرِّيبًا. وَهَذِهِ مدينة الأبواب المؤصدة حيْثُ يتعلّق كُلّ شَيْء بمَن يمتلك مفاتيحها، ومَن يُقرر فتحها، وَعَلَى أيّ جانبي العتبة يقف. لكني أشك فِي أنّكِ لستِ عَلَى علم مُسبق بِمَا أقول يا سيّدة لاراث. هَلْ لِيَ أَن أعرض عليكِ شَيْئًا، باستثناء أحاديث بائع كتب عجوز ومُتملّق؟

رفضت أليثيا.

- بطبيعة الحال. ندخل فِي لُبّ الْمَوْضوع، أَلَيْسَ كذَلِك؟

- إِن كانَ ذَلِك لَا يؤسف حضرتك.

- عَلَى العكس. هَلْ جئتِ بالكتاب؟

أخرجت أليثيا مِن حقيبة يدها نسخة «أريادنا والأمير القرمزي» الملفوفة فِي شال حريري وأعطتها لَهُ. فأمسكها برسلوه بكلتا اليَدَيْنِ، وَمَا إِن تحسّست أصابعه الغلاف حَتَّى لمَعَتْ عيناه واتسعت ابتسامةً تلذّذٍ عَلَى شفتيه.

- متاهة الأرواح... - غمغم - أتصوّر أنكِ لَن تخبريني مِن أَيْنَ لكِ هَذَا.

- صاحب الكِتَاب يُفضّل الحفاظ عَلَى السرّ بِهَذَا الخصوص.

- أعي ذَلِك. مِن بَعْدَ إذنكِ...

فتح غوستابو برسلوه الكِتَاب وقلَّب صفحاته ببطء، مستمتعًا باللقاء إِذْ لاحت عَلَى وَجْهه تعابير ذواقة يتلذذ بهبةٍ فريدة لَا تتكرر. أخذْت أليثيا تشكّ أَن بائع الكتب العجوز نسي وجودها، وتاه فِي صفحات الكِتَاب، فَإِذا برسلوه يؤجّل مُعاينته ويرميها بنظرةٍ استجوابيّة.

- اعذري وقاحتي سيّدة لاراث، لكني أعترف بأنني لَا أفهم مَا الَّذِي يدفع أحدًا، قريبكِ الَّذِي تنوبين عَنْه فِي هَذِهِ الحالة، لحرمان نفسه مِن تحفة نفيسة مِن هَذَا النوع...

- هَلْ ترى أَنَّهُ مِن الصعب العثور عَلَى مَن يشتريه؟

- عَلَى العكس إِطْلَاقًا. أعطني هاتفًا أُدبِّر لكِ مَا لَا يقل عَن خمسة عروض تصاعديّة، مُحافظًا عَلَى عمولتي بنسبة عشرة بالمئة. المشكلة لَيْسَتْ هُنَا.

- فَأَيْنَ المشكلة يا سيّد غوستابو، إِن كانَ يحق لِيَ السؤال؟

ارتشف برسلوه مِن كأس البراندي.

- المشكلة إِن كنتِ جادّة حقًّا فِي بيع الكِتَاب يا سيّدة «لاراث»... - رَدّ برسلوه، وَهُوَ ينطق الكنية المختلقة بسخرية.

اكتفت أليثيا بابتسامة خجولة. فهزّ برسلوه رَأْسه.

- ليْسَ مِن الضروري أَن تُجيبي، أَوْ أَن تقولي لِيَ اسمك الحقيقي.

- اسمي أليثيا.

- هَلْ تعلمين أَن البطلة المحورية فِي سلسلة «متاهة الأرواح»، أريادنا، هِيَ تكريمٌ لأليثيا أُخْرَى، آليس الَّتِي ابتكرها لويس كارول، وأنّ بلاد العجائب صارت فِي هَذِهِ الحالة برشلونة؟

تصنَّعت أليثيا المُفَاجأة، وهزت رَأْسهَا نافيةً.

- فِي الكِتَاب الأوَّل مِن السلسلة، تعثر أريادنا عَلَى كتاب أسحار فِي عليّة الفيلا فِي بايبذريرا حيْثُ تعيش مَعَ أبويها إِلَى أن يختفيا بشكلٍ غامض فِي ليْلَةٍ عَاصِفَة. تُفكر فِي استحضار روحٍ مِن الظلال قادرة عَلَى العثور عَليْهِمَا، فتفتح عَن غَيْرَ قصدٍ ممرًا بَيْنَ برشلونة الحقيقية ونقيضِها، انعكاس المدينة الملعون. مدينة المرايا... يتشقّق البلاط تَحْت قدميها فَتسْقط أريادنا فِي محور سلم حلزوني لَا ينتهي نَحْو الظُّلُمَات، إِلَى أَن تصل إِلَى برشلونة الأُخْرَى تِلْك، متاهة الأرواح، حيْثُ يُكتب علَيْهَا أَن تجوب دوائر الجحيم الَّذِي شيّده الأمير القرمزي، وَالَّذِي تلتقي فيه بأرواحٍ ملعونةٍ تحاول إنقاذها بيْنمَا تبحث عَن أبويها المختفيين...

- وَهَلْ تتمكن أريادنا من العثور عَلَى والديها وإنقاذ أيّ مِن تِلْك الأرواح؟

- لَا مَعَ الأسف. لكِنَّهَا تُكرّس نفسها لِذَلِك. إِنَّهَا بطلة، عَلَى طريقتها الخاصة، عَلَى الرغم مِن أنّ افتتانها بالأمير القرمزي يحوّلها هِيَ أَيْضًا شَيْئًا فشَيْئًا إِلَى انعكاسٍ غامضٍ وشرّير لذاتها، كَأَنَّهَا ملاكٌ ساقط، إن صح الوصف...

- تَبْدُو حكايةٌ مثالية.

- هِيَ كذَلِك. أخبريني يا «أليثيا»، أهذا مَا تنشغلين بِهِ؟ الهبوط إِلَى العالم السفلي بحثًا عَن المتاعب؟

- ولِمَاذَا أبحث لنفسي عَن المتاعب؟

- لأنني أتصور أَن بينيتو الغبي أخبركِ بأنّ شخصًا بملامح السفّاح فِي الفرقة المدنية، جَاء إِلَى المكتبة قَبْل وقت ليْسَ ببعيد، وطرح أسئلتكِ نفسها. وَإِن حدسي يخبرني بأنكما تعرفان بعضكما بَعْضًا...

- اسم الشخص الَّذِي تتحدث عَنْه هُوَ ريكاردو لومانا. لستَ فِي الطريق الخاطئ.

- لَا أخطئ الطريق أبدًا يا آنسة. المشكلة فِي الطرقات الَّتِي أجدني فيها أَحْيَانًا.

- وعمّ سألك لومانا تحدِيدًا؟

- كانَ يريد ان يعرف إن اشترى أَحَدٌ مَا مؤخرًا كتابًا لفكتور ماتايكس، وَأَنَّهُ بصدد مزادٍ علني، أَوْ اكتساب شخصي أَوْ فِي السوق العالمية.

- لَمْ يطرح أَيّ سؤال مُتعلق بفكتور ماتايكس؟

- لَمْ يَكُن السيّد لومانا مُقنعًا بأدائه دور المولع بالأدب، لكني شعرت بِأَنَّهُ يعرف عَن ماتايكس أَكْثَر مِمَّا كانَ يتطلع لمعرفته.

- وبم أجبت حضرتك؟

- أعطيته عنوان أَحَد هواة جمع النوادر المهتمّ بشراء كُلّ نسخ متاهة الأرواح، مُنْذُ سبع سنوات، النسخ الَّتِي لَمْ تُتلف فِي العام.1939 - كُلّ كتب ماتايكس الَّتِي كَانَتْ فِي السوق، اشتراها الشخص نفسه؟

هز رَأْسه مؤكدًا.

- كُلّهَا مَا عَدَا نسختكِ.

- ومَن هُوَ هَذَا الشخص؟

- لَا أعرف.

- لَقَدْ قُلْت للتو إِنَّك أعطيت عنوانه للومانا.

- أعطيته عنوان المحامي الَّذِي يُمثِّله ويُجري كُلّ التسويات عَلَى اسمه. بريانس. فرناندو بريانس.

- هَلْ سَبّق أَن تعاملت مَعَ المحامي بريانس، سيّد غوستابو؟

- تحدّثت إِلَيْهِ مرّةً أَوْ اثنتين حدّا أقصى. عبر الهاتف. إِنَّهُ رَجُلٌ جدّي.

- بخصوص مسائل مُتعلقة بكتب ماتا يكس؟

أدلي برسلوه بإشارة مؤكِّدة.

- ماذا بإمكانك أن تُخبرني عَن فكتور ماتايكس، يا دون غوستابو؟

- القليل. أعرف أَنَّهُ كانَ غَالبًا مَا يعمل مصمّم رسومات، وَأَنَّهُ أصدر عدّة روايات عَن دار نشر الوغدين باريدو وإسكوبياس قَبْل أَن يُباشر العمل عَلَى كتب «متاهة الأرواح»، وَأَنَّهُ عاش مُنكفئًا فِي بيته، فِي شارع دي لاس أغواس، بَيْنَ منطقة بايبذريرا ومرصد فابرا، لأنّ زوجته كَانَتْ مُصابة بمرض نادر، فَلَم يستطع أَوْ يشأ أَن يتركها وحيدة. وأعرف أَنَّهُ اختفى بَعْدَ الحرب أيضًا.

- وَأَيْنَ يمكنني إيجاد مزيد مِن المعلومات عَنْه؟

- صعب. الشخص الوحيد الَّذِي قَد يساعدكِ يُدعى بيلاخوانا، سرخيو بيلاخوانا، صُحافيٌّ وكاتب عرف ماتايكس. زبونٌ مُعتاد فِي المكتبة وَهُوَ أَكْثَر العارفين بِهَذِهِ الأَشْيَاء. أذكر أني سمعته يقول إِنَّهُ كانَ يعمل عَلَى أَحَد كتب ماتايكس وَعَن جيل الكُتّاب الملاعين فِي مدينة برشلونة، الجيل الَّذِي اختفى برمّته بَعْدَ الحرب...

- هَلْ هُنَاك غَيْرِه؟

- مَن الكُتّاب الملاعين؟ إِنَّهَا ميزة محليّة، مِثْل صلصة الآيولي.

- وَأَيْنَ يمكنني العثور عَلَى السيد بيلاخوانا؟

- حاولي أَن تذهبي إِلَى مقرّ جريدة الطليعة. وَلَكِن، إِن سمحتِ لِيَ بنصيحة، مِن الأفضل أَن تحضّري حكاية مُقنعة أَكْثَر مِن قريب جامع الأثريّات السري. فَهَذِهِ التُّرّهات لَا تنطلي عَلَى شَخْص مِثْل بيلاخوانا.

- بم تنصحني؟

- اغريه.

ابتسمت أليثيا بمكر.

- بالكتاب. مَا دام مُهتمًّا لأمر ماتايكس، لَا أَعْتقِد أَنَّهُ سيصمد إزاء نظرة يُلقيها عَلَى هَذِهِ النسخة. فَفِي هَذِهِ الأَيَّام، أن تعثري عَلَى كتاب لماتايكس أصعب مِن العثور عَلَى شَخْصٍ حسن الأخلاق ذي مكانة مرموقة.

- شكرًا يا سيّد غوستابو عَلَى مساعدتك الكبيرة لِيَ. هلا أبقيت هَذَا الحوار سرًّا بَيْننَا؟

- اطمئنّي. فالحفاظ عَلَى الأسرار يُحافظ عَلَى شباب العمر. فضلًا عَن البراندي باهظ الثمن.

لفّت أليثيا الكِتَاب بالشال ثانيةً وأعادته إِلَى حقيبتها. وانتهزت الفرصة لإخراج قلم رصاص للشفاه، فخطّطت ابتسامتها كَمَا لَوْ كَانَتْ بمفردها، المشهد الَّذِي راقبه برسلوه مفتونًا ومُرتابًا بَعْض الشَّيْء.

- كَيْفَ أبدو؟ - سألته.

- بأحسن مظهر.

نهضت أليثيا وَارتدتْ المعطف.

- مَن أنتِ يا أليثيا؟

- ملاكٌ ساقط. - أجابت وَهِيَ تمدّ إِلَيْهِ يدًا وتغمز بعين.

- فَلَقَدْ أتيتِ إِلَى المكان الصحيح إذن.

صافحها الدون غوستابو ونظر إِلَيْهَا وَهِيَ تبتعد نَحْو المخرج. وعاد يلتجئ بأريكته وهام فِي كأس البراندي شبه الفارغة، سارح الأفكار. ثمّ رآها بَعْدَ قليل خَلْف الواجهة الزجاجيّة الكبيرة. كانَ الغروب يُغطي برشلونة بمعطف مِن سُحبٍ حمراء، والشمس فِي جهة المغيب تُوقد أطياف الناس الَّذِينَ يمشون عَلَى أرصفة الدياغونال، والسيارات اللامعة مِثْل دموع معدنيّة مُتأججة. ظل برسلوه يرنو إِلَى ذَلِك المعطف الخمري كَيْفَ يذوي حَتَّى تلاشت أليثيا فِي ظلال المدينة.

(9)

عصر ذَلِك اليَوْم، وَبَعْدَ أَن تركت برسلوه ينكفئ إِلَى كأسه وهواجسه، اتجهت أليثيا إِلَى لاس رامبلاس دي كاتالونيا للعودة إِلَى البَيْت، بالمرور عَلَى صفّ المحلات الراقية الَّتِي كَانَتْ توقد أضواء واجهاتها. تذكرت تِلْك الأَيَّام الَّتِي تعلمت خلالها كيفيّة مراقبة المحلات التجارية والأشخاص المحترمين والمتأنقين الَّذِينَ يرتادونها بشراهةٍ وعَدَم ثقة.

تذكّرت تِلْك المتاجر الَّتِي دخلتها بهدف السرقة، والأغراض الَّتِي استطاعت حملها، وصياح البائع والزبائن خَلْف ظهرها، والنار الَّتِي استشرت فِي عروقها عِنْدَمَا عرفت أَنَّهَا مُلاحَقة، وحلاوة مذاق الانتقام والعدالة، إِذْ شعرت بِأَنَّهَا تنتزع مِن أيديهم مَا يتوهمون أَنَّهُ حَقٌّ وهبه الرَّبّ لَهُم. تذكّرت اليَوْم الَّذِي انتهت فيها مسيرتها كسارقة فِي غرفة رطبة ومُعتمة فِي أقبية قسم الشرطة المركزي فِي شارع لايتانا. كانَ القبو بلا نوافذ، ليْسَ فيه إِلَّا كُرسيّان وطاولة معدنية مثبتة بالأرض. وَفِي وسط الغرفة فتحة تقطير، والبلاط مَا يَزَال رطبًا. تطغى علَيْهَا رائحة البراز والدماء والمطهّرات. وَكَانَ الشرطيان اللَّذان ألقيا القبض علَيْهَا، قَد كبّلا يَدَيْهَا وقدميها بالكرسي وتركاها حبيسة هُنَاك لساعات، بحيث يتسنّى لَهَا تخيُّل مَا كانَ سيُفعَلُ بهَا.

- كَمْ سيُسرُّ فوميرو عِنْدَمَا يعلم بوجود عاهرةٍ صبيّة هُنَا. سيعيد تكوينكِ مِن جَدِيد..

سمعْت أليثيا عَن فوميرو الكثير. فَفِي الشارع كانوا يروون عَنْه الحكايات وعمّا يتعرّض لَهُ المنحوس إذا انتهى بِهِ المَطَاف فِي زنزانة كتلك تَحْت مخفر الشرطة. لَمْ تَكُن تعرف إذا مَا كَانَتْ ترتجف بردًا أَم خوفًا، وَحِيْن انفتح الباب الحديدي بَعْدَ ساعات، وتناهى إِلَى مسمعها صوت الخطى، أغمضت أليثيا عينيها وأحسّت بالبول يقطر بَيْنَ فخذيها ويتدفّق عَلَى ساقيها.

- افتحي عينيكِ. - قَالَ الصوت.

كانَ وجه الرجل متوسط القامة، الأشبه بمحرّر عقود فِي المقاطعة، يبتسم لَهَا متودِّدًا مَا بَيْنَ الدموع. لَا أَحَد غيرهما فِي الغرفة. الرجل فائق الأناقة، وعطره بنكهة الليمون، ينظر إِلَيْهَا صامتًا بضع لحْظَات، ثمّ يدور ببطء حَوْلَ الطاولة ويقف خلفها. زمّت أليثيا شفتيها كبتًا لأنين الرهبة الَّذِي أحرق حلقها، ثمّ شعرت بيديه تحطان عَلَى كتفيها وشفتيه تلامسان أذنها اليسرى أَوْ تكاد.

- لَا تخافي يا أليثيا.

ازداد ارتجافها شدّةً، حَتَّى اهْتَزّ بهَا الكرسي الَّذِي قُيِّدت بِهِ. شعرت بيديه تهبطان عَلَى طول ظهرها، وَعِنْدَمَا أحسّت بأنّ الضغط الَّذِي كانَ قابضًا عَلَى معصميها يخف، أدركت أخيرًا أنّ سجانها كانَ قَد نزع الأصفاد عنْهَا. اسْتَعادَت الدماء دورتها فِي اليَدَيْنِ، وَمَعَهَا الألم أَيْضًا. أمْسَك الرجل ذراعيها وأسندهما برفق إِلَى الطاولة. وَجَلسَ بجانبها وراح يُدَلّك معصميها.

- اسمي لياندرو. - قَالَ - أفضل؟

أومأت أليثيا. فابتسم لياندرو وترك يَدَيْهَا.

- سأنزع الأصفاد عَن الكاحلين الآنَ. ستتألمين هَذِهِ المرّة أَيْضًا. وَلَكِن قَبْل ذَلِك، أريد أَن أتأكد مِن أنّكِ لَن ترتكبين حماقة.

هزت رَأْسهَا نافيةً.

- لَن يؤذيكِ أحدٌ يا أليثيا. - قَالَ لياندرو وَهُوَ يفكّ الأصفاد.

وَعِنْدَمَا باتت طليقة، نهضت عَن الكرسي والتجأت إِلَى إحدى زوايا الغرفة. فَلَاحظ الرجل بعينيه بركة البول الَّتِي تشكلت تَحْت قدميها.

- أنا آسف يا أليثيا.

- مَاذَا تريد؟

- أريد أَن أتحدّث إليكِ. لَا شَيْء آخَر.

- عمّ؟

- عَن الرجل الَّذِي عملت لمصلحته فِي العامين الأخيرين، بالتاسار روانو.

. لستُ مُلزَمةً لَك بالحديث عَنْه.

- أعرف. أريدكِ أَن تعرفي بأن روانو قَد أُلقي القبض علَيْهِ، هُوَ ومعظم رفاقكِ.

نظرت إِلَيْهِ عَن غَيْرَ ثقة.

- مَاذَا ستفعلون بهم؟

شدّ لياندرو كتفيه.

- روانو انتهى. اعترف بَعْدَ استجواب طويل. وَالآنَ تنتظره المخنقة. مسْأَلة أيّام. وَهَذَا نبأ سار بالنسبة إليكِ.

بلعت ريقها.

- وَمَاذَا عَن الْآخَرِين؟

- الآخرون مُجرّد أطفال. إمَّا الحبس الإصلاحي وَإِمَّا السجن. المحظوظون عَلَى الأقل. أمّا أُولَئِكَ الَّذِينَ سيعودون إِلَى الشارع فأيّامهم معدودة.

- وأنا؟

- أمركِ متعلق.

- بم؟

- بكِ أنتِ.

- لم أفهم.

- يسعدني أَن تعملين لمصلحتي.

نظرت إِلَيْهِ أليثيا بصمت. جَلسَ لياندرو ونظر إِلَيْهَا مُتبسّمًا.

- إِنِّي أراقبكِ مُنْذُ مدّة طويلة يا أليثيا. أَعْتقِد أَن لديكِ إمكانيّات.

- إمكانيّات لفعل مَاذَا؟

- للتعلُّم.

- تعلُّم لفعل مَاذَا؟

- للبقاء عَلَى قيد الحياة. واستخدام الموهبة بشيء أَكْثَر نفعًا مِن ملء جيوب مُنحرفٍ رخيص مِثْل روانو.

- وحضرتك مَن تكون؟

- أنا لياندرو.

- تعمل فِي الشرطة؟

- نوعًا مَا. اتخذيني صديقًا لكِ.

- ليْسَ لدي أصدقاء.

- لدى جميعنا أصدقاء. يكفي أَن نعرف أَيْنَ نجدهم. مَا أقترحه عليكِ هُوَ العمل مَعِي طوال الاثني عشرًا شهرًا المقبلة. ستحصلين عَلَى إقامة كريمة وراتب جيّد. وستكونين حرّة بالانصراف متَى تشائين.

- وَمَاذَا لَوْ أردتُ الانصراف الآنَ؟

أشار لياندرو إِلَى الباب.

- إن كانَ هَذَا مَا تريدين، فبإمكانكِ الانصراف. والعودة إِلَى الشارع.

ثبَّتت أليثيا عينيها عَلَى الباب. نهض لياندرو وفتحه. ثمّ عاد إِلَى كرسيّه وأفسح لَهَا المجال.

- لَن يوقفكِ أَحَد إذا قررتِ الخروج مِن هَذَا الباب يا أليثيا. لَكِن الفرصة الَّتِي أعرضها عليكِ ستبقى هُنَا.

تقدَّمت بخطوة نَحْو المخرج. فَلَم يُحرِّك لياندرو إصبعًا لإيقافها.

- وإذا بقيتُ مَعَ حضرتك؟

- إذا قرّرتِ منحي تصويت ثقة، فأوَّل مَا سأعرضه عليكِ هُوَ الاستحمام بمياه ساخنة، وارتداء ثياب جديدة، وتناول العشاء فِي مطعم لاس سيتي بويرتاس. هَلْ دَخلَتِ إِلَى هُنَاك مِن قَبْل؟

- لَا.

- إنّهُم يحضِّرون الرز الأسود فِي مُنْتهَى الروعة.

سمعْت أليثيا أمعاءها تُقرقع من شدَّة الجوع.

- وَبَعْدَ؟

- وَبَعْدَ، ستذهبين إِلَى بيتكِ الجديد، حيْثُ لديكِ غرفة وحمّامٌ خاص بكِ وحدك. نستريحين وتنامين عَلَى سريرك بشراشف غَيْرَ مُستعملة أبدًا. وَفِي الغد، سآتي لاصطحابكِ بِدُونِ عُجالة، إِلَى مكتبي لأشرح لَك مَا أقوم بِهِ.

- ولِمَاذَا لَا تشرحه لِيَ الآنَ؟

- فلنقل إِن عملي يكمن فِي حل المشاكل، وإبعاد المجرمين مِثْل بالتاسار روانو وآخرين كثر، أَسْوَأ مِنْهُ، بعيدًا عَن المجتمع، بحيث لَا يؤذون أحدًا أبدًا. لَكِن أهم مَا أقوم بِهِ هُوَ إيجاد أشخاص استثنائيّين، مِثلكِ، يجهلون أنهم استثنائيّون، فأعلِّمهم كَيْفَ يطوّرون مواهبهم كي يتسنّى لَهُم فعل الخَيْر.

- فعل الْخَيْر. - رددت أليثيا ببرود.

- العالم ليْسَ بِذَلِك المكان مُنعدم الأخلاق الَّذِي عرفته يا أليثيا. العالم مَا هُوَ إِلَّا مرآة عنّا نَحْنُ الَّذِينَ نُشكله، لَا أَكْثَر وَلَا أقلّ ممّا نقوم بفعله جَمِيعًا. لذا، فإنّ الأشخاص الَّذِينَ يولدون بموهبة مِثلك ومثلي، يتحمّلون مسؤوليّة تسخير مواهبهم أيضًا للمصلحة العامة. عملي هُوَ تحديد المواهب في الآخرين وإرشادهم ومساعدتهم في اتخاذ القرار الذي يناسب الظرف.

- أنا لا أملك أيّ موهبة. ولا أيّ هبة...

- بل أنتِ موهوبة جدًّا. ثقي بي. وثقي بنفسكِ على وجه الخصوص يا أليثيا. فإذا أردتِ، سيكون اليوم هو اليوم الأوّل من الحياة التي سرقوها منكِ، وسأرجعها إليكِ إن فوَّضتِني.

ابتسم لياندرو عن طيب خاطر، فاجتاحت أليثيا رغبةٌ عارمة وأليمة لمعانقته. مدّ لياندرو يده. فاجتازت أليثيا الغرفة نحوه، ببطء، خطوة بخطوة. وضعت يدها في يد ذلك الرجل المجهول وهامت في نظراته.

- شكرًا يا أليثيا. أُقسِمُ لكِ بأنّكِ لن تندمي.

تلاشت أصداء تلك الكلمات البعيدة في الزمن شيئًا فشيئًا. وبدأ الألم يبرز براثنه، فقرّرت أليثيا أن تتمشي ببطء. كانت تعلم أنّ هناك أحدًا يراقبها منذ أن خرجت من منتدى الفروسيّة. بوسعها أن تشعر بوجوده المتربّص وعينيه اللتين تلامسان جانبها من بعيد. وحين وصلت إلى إشارة المرور في شارع روسيون، توقّفت والتفتت قليلًا تتحرّى الشارع خلف ظهرها بنظرات عَرَضيّة لتلمح عشرات المارّة الذين خرجوا للتنزّه والتباهي ببدلاتهم وبوضع أفخم ما لديهم محطَّ أنظار الجميع. أملت أنّ رويرا المسكين هو الذي يراقبها، لكنّها ما انفكّت تطرح التساؤلات إذا ما كان لومانا متخفّيًا بينهم، أو متواريًا خلف إحدى البوّابات على بُعد ثلاثين مترًا أو مستترًا بمجموعة من الناس.

لعلّه يراقبها، ويتعقّب أثرها وهو يتلمّس السكّين في جيب معطفه توّاقًا للإجهاز عليها منذ زمن. لمحت واجهة متجر الحلويات، ماوري، على بعد كتلتين من هناك. كان المتجر مملوءًا بالطيّبات

المُقدَّمَة ببراعة لتحلية التعاسة الخريفيّة التي تنتاب السيّدات النبيلات. التفتت إلى الخلف مجدَّدًا ثمّ قرّرت أن تلوذ بالمتجر بعض الوقت.

اقتادتها فتاة بدت أنّها زاهدة وبتول إلى طاولة بجوار النافذة.

ولطالما خُيِّلَ إليها متجر ماوري للحلويات بمثابة وكرٍ رغيدٍ لتعاطي السكَّر الفاخر تلتجئ إليه السيّدات ذوات المكانة والمتقدّمات في السنّ، للتآمر تحت مظلّة البابونج الدافئ والمعجّنات الشهيّة على شفير الخطيئة. وكان نوع الزبائن المجتمعين فيه، عصر ذلك اليوم، يُثبِت صحّة تشخصيها. فما كان من أليثيا، التي يروقها أن تشعر بأنّها واحدة من المنتخبات، إلاّ أن طلبت فنجان كافيلاتي وحلوى القشطة التي رأتها وهي داخلة تحمل اسمها. وبينما كانت تنتظر، تدّرعت بابتسامة واهية لتواجه السيّدات المتغطرسات المتبرِّجات بالجواهر والمصفَّحات بألبسةٍ مترفة من موضة سانتا يولاليا، يرمينها بالنظرات من على الطاولات المجاورة، تكاد تقرأ من حركة شفاههنّ وشوشةَ تعليقاتهنّ التي استلهمنا من حضورها. «لو كان بوسعهنّ سلخ جلدي ليصنعن به قناعًا لفعلنها»، قالت لنفسها.

وما إن وصلت الحلوى إلى الطاولة، حتى ابتلعت أليثيا نصفها بنهم، وشعرت في غضون ثوانٍ بالسكّر يسري في دمائها. أخرجت من الحقيبة العلبة التي أعطاها لياندرو في محطة أتوشا وفتحتها. أخذت منها حبّة وتفحَّصتها في كفّ يدها لحظاتٍ قبل أن تحملها إلى فمها.

وإذ انتابتها صعقة ألم جديدة على خاصرتها، اقتنعتْ وابتلعت الدواء برشفة طويلة من الكافيلاتي وأكلت بقيّة الحلوى، لا لشيء إنّما لتحمي معدتها. وظلت هناك نصف ساعة، تنظر إلى الناس وتنتظر أن تفعل الحبّة مفعولها. وحين شعرت بأنّ الألم يخمد بسرابِ نعاسٍ عكر يتفشّى في أنحاء جسمها، نهضت ودفعت الحساب عند الصندوق.

أوقفت سيّارة أجره عندما خرجت من المتجر، وأعطت العنوان للسائق. كان للرجل رغبة في الدردشة، فأمطرها بمونولوجٍ اكتفت أليثيا بهزّ رأسها عليه من حين إلى آخر. وكلما جمَّدَ المسكِّن دماءها، رأت أنّ أضواء المدينة تتبدّد في رداء مائع، كأنّها بقعٌ من ألوانٍ مائيّةٍ تنزلق على سطح لوحة. وبدا لها ضجيج الزحام بعيدًا بعيد.

- هل أنتِ بخير؟ - سألها السائق عندما توقّف أمام بوّابة البناية في شارع أفنيون.

أومأت أليثيا ودفعت الأجرة دون انتظار المرتجع. فانتظر السائق أن تُدخِل مفتاح البوّابة بالقفل، يشكُّك بسلامتها. أملت أليثيا ألّا تصادفها خيسوسا أو أيّ جارٍ مولع باللقاءات والدردشات عند عتبات البيوت. صعدت السلالم غير مبصرة أمامها، بخطًى خفيفة، فوصلت إلى باب شقّتها بين ارتقاءٍ لا ينتهي بين ظلٍّ ورعدة. واستطاعت بمعجزة أن تجد المفتاح وتدخل.

وهناك، أخرجت العلبة من جديد وسحبت منها حبّتين بأصابعها المرتجفة. أسقطت الحقيبة عند قدميها واتجهت إلى الطاولة في غرفة الطعام. ما زالت قنّينة النبيذ الأبيض هديّة فرناندو في مكانها. ملأت الكأس حتى فاضت، وابتلعت الحبّتين بيد، ممسكة بالطاولة لتستند إليها بيدٍ أخرى، وتجرّعت الكأس دفعة واحدة، ثمّ رفعتها فارغةً على شرف لياندرو وآخر عباراته «إياكِ أن تتناوليها مع الكحول أبدًا».

نزعت ثيابها وهي تترنّح في الممرّ إلى غرفة النوم. وسقطت على السرير دون أن تجد بُدًّا لإشعال الضوء. واستطاعت بالكاد أن تضع عليها الغطاء. رنَّت أجراس الكاتدرائيّة في البعيد، وسلَّمت أليثيا أمرها للنعاس وأغمضت عينيها.

(10)

كان الرجلُ المجهولُ في الحلم عديمَ الوجه. مجرّد طيفٍ أسود وانفصل عن الظلال السائلة التي تقطر من سقف الغرفة. ظنّت في البدء أنّها رأته عند أقدام السرير يحدِّق إليها متسمِّرًا، ثمّ أدركت أنّه جالسٌ على حافة السرير وكان ينزع الغطاء عنها. شعرت بالبرد. نزع المجهول قفّازه الأسود على مهل. وكانت أصابعه متجمِّدة عندما أحسّت بها أليثيا تلامس بطنها العارية وتبحث عن الندبة المنتشرة على خاصرتها اليمنى.

استكشف المجهول بيديه تجاعيد الجرح وحطّ شفتيه على جسمها.

وكاد يراودها الغثيان على إثر شعورها بحرارة لسانه الذي يمسح تضاريس الإصابة. ولم تدرك أنّها ليست بمفردها في البيت إلّا عندما ترامى إلى مسمعها صوت خطوات تبتعد على امتداد الممرّ.

تحسّست الجدار تحت الظلام حتى وصلت إلى قاطع النور فأضيء المصباح الذي على الدُّرج. أعشاها الضوء فأغمضت عينيها. سمعت صوت خطواتٍ تمشي في صالة الطعام وصوت بابٍ ينغلق. فتحت عينيها ثانيةً لتجد جسمها عاريًا فوق السرير. كان الغطاء مرميًّا على الأرض. نهضت ببطء، تضغط رأسها بيديها إذ استبدّ بها إحساسٌ بالدوار وظنت لوهلة أنّها توشك على الإغماء.

- خيسوسا؟ - نادت بصوت مشروخ.

حملت الغطاء من على الأرض وتدثّرت به. واستطاعت أن تسير في الممر وهي تبحث عن الحيطان بيديها، متلمِّسةً تحت الظلام.

اختفت ثيابها التي ألقتها في أرض الممرّ منذ بضع ساعات. وكانت صالة الطعام غارقةً في ظلامٍ حديديّ، لا يُرى منه إلا أطراف الأثاث والرفوف اللامع في حبكةٍ زرقاء تتسلّل من النافذة. وجدت القاطع أخيرًا فأشعلت النجفة المتدليّة من السقف. واعتادت عيناها على الضوء شيئًا فشيئًا. وعندما استوعبت ما ترى، أوضح الخوفُ أفكارَها، ليتبدّى لها المشهد جيّدًا بعد أن كان حتى ذلك الحين غبشًا كأنّها تراه من خلال عدسةٍ ضعيفة.

كانت ملابسها مجموعةً على الطاولة، ومعطفها الخمريّ مسنودًا على كرسيّ. الثياب مرتَّبة بعناية فائقة ومطويّة ببراعة خبير. الجوارب مستلقية برهافة وخيوطها جانبًا. الملابس الداخليّة ملقيّة على الطاولة، كأنّها مُعدَّةٌ للعرض على واجهة محلّ أزياء نسائيّة. راودها الإعياء مجدّدًا. اقتربت من الرفوف وأخذت الكتاب المقدّس. فتحته واستلّت السلاح المخبَّأ فيه. فسقط الكتاب، الفارغ، من بين يديها عند قدميها.

ولم تقم بأيّ حركة لحمله عن الأرض. لقَّمت القادح وأمسكت الريفولفر بكلتا القبضتين.

وحينذاك انتبهت إلى الحقيبة المعلّقة على مسند كرسيّ. تذكّرت أنّها تركتها تقع منها ما إن دخلت. اقتربت من الكرسي. الحقيبة مغلقة.

فتحها فاكتسحها شعورٌ عنيفٌ بالبرد. سقطت الحقيبة ثانية، فجنّ جنون أليثيا. كتاب ماتايكس لم يعد هناك.

أمضت بقيّة الليل تحت الظلام، متقوقعة على نفسها على الأريكة والسلاح بين يديها، وعيناها تحدِّقان إلى الباب، تتناهى إلى مسمعها أصوات هيكل المبنى القديم كأنّه سفينة في عرض البحر، فاجأها الفجر حينما تهدّل جفناها. فنهضت ونظرت إلى انعكاسها في النافذة. رأت معطفًا أرجوانيًّا ينتشر في السماء ويرسم صفًّا من الظلال بين سطوح المدينة القديمة وأجراسها. أطلّت برأسها فرأت أضواء الغران كافيه تتدفّق على بلاط الطريق. كانت برشلونة قد سمحت لها بيوم هدنة واحد بالكاد.

- أهلًا بعودتك. - قالت لنفسها.

(11)

كان بارغاس ينتظرها في الغران كافيه، يتلمّس فنجان قهوة ساخنة ويجرِّب ابتسامةً مهادنة يستقبلها بها. رأته أليثيا ما إن خرجت من البناية، يفرض جانبُه انعكاسًا مزدوجًا على زجاج واجهة المحلّ. كان رجل الأمن جالسا إلى الطاولة نفسها التي شغلتها صباح اليوم السابق، ومحاطًا بما تبقّى من فطورٍ وافرٍ وجريدتين. اجتازت أليثيا الشارع والتقطت نفسًا قبل أن تفتح الباب. وعندما رآها داخلة، نهض بارغاس وحيّاها ملوِّحًا بيده. فردّت عليه التحيّة واقتربت من الطاولة مشيرةً إلى ميغيل كي يأتيها بالفطور المعتاد. فهزّ النادل رأسه بنعم.

- كيف كانت الرحلة؟

- طويلة.

انتظرها لتجلس قبل أن يجلس هو أيضًا. تبادلا نظرات صامتة.

كان يرمقها مقطِّب الجبين مضطربًا.

- ما بك؟ - سألته.

- كنت أنتظر لعنةً، أو استقبالًا يليق بطبعكِ. - ارتجل بارغاس.

وإذ أعربت عن عدم اكتراثها، أضاف: لو كنتُ غبيًّا لقلت إنّكِ مسرورة لرؤيتي.

فابتسمت على مضض.

- لا تبالغ.

- إنّكِ تخيفيني يا أليثيا. هل حدث شيء ما؟

اقترب ميغيل من الطاولة متمهِّلًا، يحمل قطع الخبز المحمّص وفنجان الكافيلاتي الكبير. أومأت له بإشارة قبول فابتعد النادل بسرعة ليختفي خلف المصطبة بكلّ احترام، تناولت اليثيا قطعة الخبز وقضمتها بلا رغبة. وكان بارغاس ينظر إليها منشغل البال.

- وبعد؟ - سألها في النهاية، نافد الصبر.

لخّصت على مسامعه مصائب النهار والليلة الفائتين. وكلّما فصّلت في الحكاية، تجهَّم وجهه. وعندما أنهت أليثيا كلامها بالحديث عن الحالة التي قضت فيها ساعات الفجر والريفولفر بين يديها بانتظار أن ينفتح الباب، هزّ بارغاس رأسه ممتعضًا.

- ثمّة شيء لا أفهمه. تقولين إنّ رجلًا دخل البيت وأنتِ نائمة وسرق الكتاب.

- وما الذي لا تفهمه؟

- كيف عرفتِ أنّه رجل؟

- لأنّني أعرف.

- لم تكوني نائمة إذن.

- كنت تحت مفعول الدواء. ذكرتُ لك هذا التفصيل.

- ما الجزء الذي لم ترويه لي؟

- الجزء الذي لا يخصّك.

- هل فعل بكِ شيئًا ما؟

- لا.

نظر إليها غير مُصدِّق.

- عندما كنتُ في انتظاركِ، عرض عليَّ صديقك ميغيل النزول في عليّة يملكها في الأعلى، تشرف على بيتكِ عمليًا. سأطلب منه أن يحمل حقيبتي إلى هناك، وسأدفع له أجرة أسبوعين سلفًا.

- لا داعي لنزولك هنا يا بارغاس. احجز غرفة في فندق جيّد.

على نفقة لياندرو.

- إمّا هكذا وإمّا أُخيِّم على إحدى الأرائك في بيتك. اختاري.

تنهّدت اليثيا. لا طاقة لها لبدء معركة جديدة.

- لم تخبريني سابقًا أن لديك سلاحًا. - أضاف بارغاس.

- لم تسألني.

- وهل تجيدين استخدامه؟

رمته أليثيا بنظرة في عينيه.

- وأنا الذي كنت أظنّ أن القصّ والتخييط يناسبكِ أكثر. - قال - هلّا أسديتِ لي معروفًا بإبقاء السلاح معكِ على الدوام؟ داخل البيت وخارجه على حدٍّ سواء؟

- حاضر سيّدي. هل توصّلتَ إلى شيء عن لومانا؟

- في الوزارة لا يفتح أحدٌ فمه. انطباعي هو أنّهم لا يعرفون شيئا. وجهاز الشرطة يتبنّى الرواية التي لا بدّ وأنكِ سمعتِها. نقلوه من وحدتكم منذ عام تقريبًا، للمساعدة في قضيّة الرسائل مجهولة الهويّة الموجهة إلى ڤايس. وبدأ يستقصي على هواه. يُفتَرض أنّه كان يحضِّر تقريرًا لخيل دي بارتيرا. لكنّه كفّ عن ذلك في لحظةٍ ما. واختفى من على الخارطة الجغرافيّة. ما قصّتكِ معه؟

- لا قصّة.

قطّب بارغاس جبينه.

- ألستِ تفكِّرين في أنّه هو الذي دخل بيتكِ ليلا وسرق منكِ الكتاب وفعل ما لا تريدين إخباري به؟

- حضرتك تطرح التساؤلات وتجيب عنها.

نظر إليها شزرًا.

- والدواء. هل من أجل إصابتكِ؟

- لا. الدواء من أجل الترفيه. كم عمرك يا بارغاس؟

أنهض حاجبيه متعجّبًا.

- ضِعف عمرك اعلب الظنّ، مع انّي لا أفضِّل التفكير بالأمر لماذا؟

- لا تنوي أن تؤدّي دور والدي أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- لا تتوهّمي.

- خسارة. - قالت أليثيا.

- لا يرقِّنَّ قلبُكِ. لا يليق بكِ.

- لياندرو يقول ذلك أيضًا.

- معه حقّ. إن كنّا قد انتهينا من الفاصل العاطفيّ، لِمَ لا تخبرينني ببرنامجنا لليوم؟

شربت أليثيا ما تبقّى في الفنجان وأشارت لميغيل أن يأتيها بفنجان آخر.

- تعرفين أنّ الجسم يحتاج إلى الكربوهيدرات والبروتينات وأشياء أخرى، إضافةً إلى الكافيين والسجائر. أليس كذلك؟

- أعدك بأنّنا سنتغدّى اليوم في كاسا ليوبولدو، وستدفع أنتَ الحساب.

- يا للبهجة. وقبل ذلك؟

- قبل ذلك، سنلتقي بجاسوسي الخاصّ، روبيرا الطيّب.

- روبيرا؟

أطلعته أليثيا بإيجاز على لقائها بروبيرا في اليوم الماضي.

- لا بدّ أنّه في الخارج، يموت بردًا.

- دعكِ منه. - قال بارغاس - وبعد أن تملي الأوامر على تلميذكِ، ماذا نفعل؟

- فكّرتُ في أن نذهب لزيارة محامٍ. فرناندو بريانس.

أومأ بارغاس على مضض.

- من هو؟

- بريانس يمثِّل أحد هواة جمع النوادر الذي لا همّ له سوى اقتناء روايات فكتور ماتايكس.

- الكتاب مرّةً أخرى. لا تؤاخذيني يا أليثيا، ولكنْ ألا ترين أنّه من الأجدر أن نطّلع على ما توصّلوا إليه في المخفر بشأن السيّارة التي استقلّها ڤايس لمغادرة مدريد؟ لمجرّد اتخاذ مثالٍ عن شيء له صلة مباشرة بالقضيّة التي نعمل عليها.

- ما زال هناك وقت لرؤية السيّارة.

- المعذرة يا أليثيا، أما زلنا نحاول العثور على الوزير ڤايس حيًّا؟

- التحقيق بشأن السيّارة مضيعةٌ للوقت. - صرّحت أليثيا.

- وقتي أم وقتكِ؟

- وقت ڤايس. ولكن، إن كان الأمر يطمئنك، موافقة. أفحمتني. فلنذهب لرؤية السيّارة.

- شكرًا.

(12)

صدق وعده. كان روبيرا ينتظر في الطريق، يرتجف بردًا، ويلعن اليوم الذي ولد فيه وكلّ الأيّام التي تلته. بدا الجاسوس المتمرّن قد نحف عشرة إنشات عن اليوم السابق. كانت ملامحه تشي بفالجٍ حادّ يؤشّر إلى بداية قرحة شديدة. عرفه بارغاس من دون أن يسأل أليثيا عنه.

- أهذا هو محور الشبهات؟

- شخصيًّا.

رفع روبيرا عينيه عندما أحسّ بخطواتٍ تقترب. وحين رأى بارغاس، مضغ ريقًا وبحث عن علبة السجائر بيد مرتجفة. وقف كلٌّ من بارغاس وأليثيا على جانبيه.

- ظننتُ أنكِ ستأتين بمفردكِ. - تلعثم روبيرا.

- يا لك من رومنسيّ يا روبيرا.

بادر رجل الأمن بضحكة منفعلة. انتزعت أليثيا السيجارة من بين شفتيه ورمتها بعيدًا.

- اسمعي... - اعترض روبيرا.

فانحنى بارغاس إليه قليلًا، ما دعا روبيرا للانكماش أكثر.

- لا توجِّه الكلام إلى الآنسة إلا إذا كانت تستجوبك. واضح؟

هزّ رأسه بنعم.

- روبيرا، اليوم هو يوم السعد بالنسبة إليك. - قالت أليثيا - يكفيك عناء البرد. ستذهب إلى السينما. فالفترات الصباحيّة في صالة كابيتول تبدأ في العاشرة، وتعرض سلسلة أفلام عن القردة شيتا، التي ستنال إعجابك حتى الموت.

- تستحقّ جائزة أوسكار. - أكّد بارغاس.

- المعذرة سيّدة أليثيا ولكنْ، قبل أن يحطّم زميلكِ عنقي، أودّ أن أطلب منكِ المساعدة، إن لم يكن في الأمر إزعاج، وإنّي لأشكركِ سلفًا على كرمكِ. كان بودّي أن أذهب إلى السينما، لكنّ رجال المخفر إذا التقطوني، سيتساقط ما تبقّى من شعر رأسي. دعيني ألاحقكِ. من مسافة بعيدة جدًّا. وإن كان يناسبكِ أن تخبريني مُقدَّمًا أين ستذهبين، فهذا أفضل كي لا أزعجكِ. أؤكّد لكِ أنّكِ لن تريني حتّى. فأنا مُلزَمٌ في آخر النهار أن أُعِدَّ تقريرًا عن تحرّكاتكِ، وإلّا مزّقوني إربًا. فأنتِ لا تعرفينهم. اسألي عنهم زميلكِ...

نظر بارغاس إلى ذلك الشيطان المسكين باستلطافٍ إلى حدٍّ ما.

وفكّر أنّه لا بدّ من وجود منحوس مثله في كلّ مخفر، ممسحةٌ يستخدمها الجميع لتنظيف أحذيتهم ممّا يعلق بها من طين، بل وحتّى غاسلات الصحون يتطاولون عليه.

- قولي لي أيُّ الأماكن بوسعي أن أَعِدَّ تقريري عنها، وأيُّها لا. هذا يرضي الجميع. أتوسّل إليكِ على ركبتيّ...

وقبل أن تفتح أليثيا فمها، هزّ بارغاس سبّابته أمام أنف رويبرا وتكلّم - اسمع يا فتى، أنت تذكّرني بشارلو، وقد نلتَ استلطافي. سأقترح عليك ما يلي: ستلاحقنا من بعيد، من بعيد جدًا. كالمسافة من هنا إلى مدريد. فإذا لمحتك عيني، أو شممتُ رائحتك، أو تخيَّلتُك في أقلّ من مئتي متر، فسيكون بيننا حوارٌ جسدًا لجسد، ولا أعتقد أنّهم في المخفر سيرضون عنك إذا رأوك داخلًا عليهم بوجهٍ مهشّم من شدّة الصفعات.

انعدمت أنفاس رويبرا عدّة ثوان.

- هل هذا يناسبك أم تريد عربونا؟ - ألحَّ بارغاس.

- مئتا متر. كما تشاء. فلنجعلها مئتين وخمسين مترًا. خمسون مترًا على حسابي. شكرًا جزيلًا على كرمك وتفهُّمك يا سيّدي. لن تندم أبدًا. كلّ شيء يهون على أن يقولوا رويبرا لا يصون كلمته...

- اغرب عن وجهي، بدأتَ تثير أعصابي لمجرّد رؤيتك. - قال بارغاس بأتعس نبرة عنده.

تحلَّل رويبرا بكومةٍ من الإجلال، وانصرف بما أوتي من سرعة.

ورآه بارغاس ينسلّ كالسنجاب بين الجموع وابتسم.

- أنت عاطفيّ. - غمغمت أليثيا.

- وانتِ ملاك دعيني أجري اتصالًا إلى ليناريس لنرى إن كانوا يسمحون لنا بإلقاء نظرة على السيّارة هذا الصباح.

- من هو ليناريس؟

- أحد الأخيار. لقد بدأنا العمل معًا وما يزال صديقًا لي. أليس من المستحيل أن نصف أحدهم بالصديق بعد أن أمضى عشرين عامًا في عمله لمصلحة الشرطة...

عادا إلى المقهى وأعطاهما ميغيل الهاتف. فاتصل بارغاس إلى مخفر الشرطة المركزي في شارع لايتانا، وهام في رقصةٍ من دردشات رفقة السلاح الرجوليّة، ونكاتٍ سيئة الذوق، وتآمرٍ محسوب لأخذ الإذن بالتطفُّل وتفحُّص السيّارة التي يُزعَم أنّ ماوريسيو ڤايس استقلّها من مدريد إلى برشلونة صحبة سائقه، الرامي المغوار الذي يحسن صنع كلّ شيء. تابعت أليثيا المحادثة كما لو أنّها تشاهد مسرحيّة هزليّة، وتتعرّف على خبرة بارغاس وقدرته على انتقاء الألفاظ للتملُّق للزملاء وإجراء محادثات عظيمة ليس لها أيّ معنى على الإطلاق.

- حُلَّت المشكلة. - اختتم كلامه وهو يغلق السمّاعة.

- هل أنت واثق ممّا تقول؟ ألم تفكّر في أنّ ليناريس هذا يودّ أن يعرف بوجودي أيضًا.

- فكّرتُ طبعًا. وهذا ما جعلني لا أشير إلى وجودكِ.

- وماذا ستقول حين يرونا معًا.

- سأقول إنّنا مخطوبان. لا أدري. سيخطر شيء في بالي.

استقلا سيّارة أجرة من أمام البلديّة وانطلقا في الساعة التي تتعقّد فيها أزمة السير في شارع لايتانا صباحًا. كان بارغاس يتأمّل سارح الفكر صفوف الواجهات الأثريّة التي تبرز كالسفن من بين ضباب الصبح. وكان السائق ينظر إليهما بين الفينة والأخرى في المرآة خلسةً، لعلّه يراهن على طبيعة العلاقة بينهما. غير أنّ شكوكه ومخاوفه تبدّدت تمامًا مع بدء نقاش إذاعي حاد دي طبيعة رياضية يحتدم فيه الجدل عما إذا ضاعت الفرصة لإحراز بطولة الدوري أم ما زال هنالك أسباب وجيهة للبقاء على قيد الحياة.

(13)

كانوا يسمّونه «متحف الدموع». الجناح الشاسع المنصوب في أرضٍ لا يملكها أحد، تمتدّ ما بين حديقة الحيوانات والشاطئ. تحيط به مدينةٌ من مصانع ومستودعات منسوجةٌ على تخوم البحر، يرتفع في علاها برج المياه الكبير، الذي كان بمثابة قلعة دائريّة معلّقة في السماء.

متحف الدموع عبارة عن رفاة وحطام ناجية من عمليّات الهدم التامّ التي طاولت كلّ المنشآت المبنيّة للمعرض الدوليّ الكبير عام 1888. وبعد أعوام من الإهمال، سلّمت البلديّةُ إدارةَ الجناح لقيادة الشرطة العليا، التي أحالته إلى مخزن وسرداب. فأصبح المكان مجمّعًا قضائيًّا هائلًا، تتراكم فيه عشرات المحاضر والأدلّة والأسلاب والأغراض المصادَرة والأسلحة وسقط المتاع والإشعارات والكنوز المنحدرة ممّا ينيف على سبعين عامًا من الغبار والجرائم والعقوبات في مدينة برشلونة.

كانت للمبنى قبّةٌ تشبه قبّة محطّة فرنسا. تتسرّب أعمدة الضوء من سقفه المصفَّح، وتتغلغل في الظلمات، وتتوزّع على شبكةٍ من الممرّات من مئات الأمتار التي ترتفع فوق معظم أبنية الإينسانش. نظامٌ معقّدٌ من السلالم والمماشي المتدليّة من أعلى على شكل منصةٍ مسرحيّة خياليّة بحيث تسهِّل العبور إلى المناطق العليا، حيث توجد الوثائق والمتعلِّقات التي تُقدِّم كشف حساب لتاريخ برشلونة السرّي منذ نهاية القرن التاسع عشر. وخلال عقوده السبعة من الممارسة، ظلّت المواد المصنَّعة من كلّ نوع حبيسةً هناك في العدم. من المركبات والعربات السابقة لعهد الطوفان، والمستخدمة في جريمة ما، إلى ترسانة موسوعيّة من الأسلحة والسموم. كان في المبنى أعمالٌ فنيّة من حصيلة القضايا التي لم تُكشَف خباياها، كافية لافتتاح أكثر من متحف. وقد حظي بشهرة مميّزة عند الدارسين لاحتوائه على تشكيلة مرعبة من الجثث المشرَّحة التي عُثِرَ عليها في حيّ سان خرباسيو، في دهاليز القصر الكبير لأحد أقطاب التجارة العائد من الأمريكيّتين، والذي كان في أعوام ثرائه ومجده في كوبا قد تعلَّق باصطياد العبيد وقتلهم، وقد خلّف إثر عودته سلسلةً من حالات الاختفاء المبهمة بين المهمّشين الذين كانوا يرتادون محلات البارليلو ومقاهيها.

كان هناك رواقٌ مخصّصٌ بأكمله لتخزين القوارير الزجاجيّة التي تحوي ثروة حيوانيّة متنوّعة لنزلاء دائمين يعومون في مادّة الفورمالين المصفرّة. كما أنّ المبنى يعرض تشكيلة رائعة من الأسلحة، خناجر وأزاميل وأدوات حادّة يقشعرّ منها بدن أكثر السفّاحين خبرة في سفك الدماء. وأحد الأقسام الشهيرة كان جناحًا موصدًا لا يُسمح بدخوله إلّا بإذنٍ من القيادات العليا، مخصّصٌ لجمع الموادّ والوثائق الناجمة عن التحقيقات حول الجرائم والقضايا ذات الطبيعة الدينيّة والتنجيميّة. يقال إنّ ذلك الأرشيف يحتوي على ملفّات دسمة عن صلة أعضاء الطبقة العليا في برشلونة بالقضيّة المسمّاة «مصاصة الدماء في حي الرافال»، إضافةً إلى مراسلات وتفاصيل عن قضيّة محافل الشعوذة وعرّابها موسين ثنتو برذاغوير المُقامة في إحدى الشقق من أطراف شارع برنسيسا. قضايا لم ولن ترى النور على الإطلاق.

وعادة ما تكون الأماكن التي تحفظ أشياء كارثيّة من ذلك النوع مشبعةً بالظلام الذي يلهم الزائر رغبةً بمغادرتها على وجه السرعة، كي لا يبقى عالقًا داخلها ويصبح جزءًا من المجموعة الدائمة. ولم يكن متحف الدموع استثناءً، ومع أنّ لوائح الشرطة تحيل عليه باسمه الحقيقيّ، «الجناح 13»، فإنّه استحقّ ذلك اللقب، الذي يعرفه به الجميع، بسبب شهرته ركامًا شبحيًا للمصائب المخزونة في الداخل.

حين تركهما سائق الأجرة عند مدخل «الجناح 13»، كان الذي يُفتَرض أنّه الحارس الصارم للمكان ينتظرهما على العتبة. باقة المفاتيح معلقة على حزامه، ووجهه قادرٌ على احتكار كلّ الجوائز في مسابقة أفضل حفّار قبور.

- لا بدّ أنه فلورينثيو. - علّق بارغاس بصوت خفيض قبل أن يفتح باب السيّارة - دعيني أتكلّم معه.

- كلّه لك. - قالت أليثيا.

نزلا من السيّارة ومدّ بارغاس يده نحو الحارس.

- صباح الخير. خوان مانويل بارغاس، من القيادة المركزيّة.

تحدّثت مع ليناريس منذ دقائق. قال لي إنّه سيتّصل بك ليخبرك بقدومنا.

أومأ فلورينثيو.

- لكنّ النقيب ليناريس لم يخبرني بأنّ حضرتك ستأتي مع أحدهم.

- الآنسة المحترمة هي مارغاريتا، ابنة أخي، مساعدتي وسكرتيرتي خلال الفترة التي سأقضيها في برشلونة. ألم يخبروك بهذا؟

هزّ فلورينثيو رأسه ببطء نافيًا، وباحثًا عن أليثيا بعينيه.

- مارغاريتا، سلّمي على الدون فلورينثيو، اسمك فلورينثيو أليس كذلك؟، سلّمي عليه فهو السلطة المطلقة على الجناح 13.

تقدّمت أليثيا بضع خطوات ومدّت يدها بهيئة خجولة. قطّب فلورينثيو جبينه لكنّه قرّر ألّا يقول شيئًا.

- تفضّلا.

اقتادهما الحارس نحو البوّابة الرئيسة ودعاهما للدخول.

- هل تعمل هنا منذ أمد طويل يا فلورينثيو - سأله بارغاس.

- منذ سنتين. قبل ذلك، خدمتُ عشرة أعوام في مستودع.

نظر إليه بارغاس مشوّشًا.

- الجثث. - أوضح فلورينثيو - اتبعاني لو سمحتما، فما تبحثون عنه هو في الجناح 9. لقد حضّرته لكما.

بدا المبنى من الخارج محطة حديديّة كبيرة ومهملة، ثمّ اتّضح من الداخل أنّه بمنزلة كاتدرائيّة عملاقة لا نهاية لها. ثمّة نظام إضاءة كهربائيّة يحمل أكاليل من الأضواء المعلّقة التي تضفي على العتمة تدرُّجاتٍ ذهبيّة. اقتادهما فلورينثيو عبْر ممرّات لا حصر لها، مشبعة بشتّى أنواع الأشياء والصناديق والحاويات. لمحت أليثيا بنظرة خاطفة مجموعة ِ حيواناتٍ محنّطة وكتيبةَ دمى. أثاث، درّاجات هوائيّة، أسلحة، لوحات، تماثيل ذات طابع دينيّ، وهناك حيّزٌ غامض مخصصٌ لما بدا أنّهم روبوتات حصرًا.

لا بدّ أنّ الحارس انتبه للنظرات المتفاجئة التي كانت تتشرّب بها أليثيا أجواءَ المكان شيئًا فشيئًا. فاقترب منها وأشار إلى ما بدا أنّه خيمة معرض كبيرة.

- لا تصدِّقا ما تريانه هنا. ففي بعض الأحيان، أنا نفسي لا أصدّق.

وكلّما توغّلا في متاهة الممرّات، لاحظا نواحًا غريبًا يتردّد في المكان، كأنّه لأصوات حيوانات. ففكّرت أليثيا للوهلة الأولى أنّها تخوض مغامرة في أدغالٍ تسكنها الطيور الاستوائيّة والسنوريّات المفترسة. تأثّر فلورينثيو بالاضطراب الذي غمر وجهيهما، وأطلق ضحكة صبيانيّة.

- لا، لم يمسسكما الجنون، مع أنّ هذا المكان قادر على خضّ العقول دون أن تنتبه أصحابها. - فسّر قائلًا - هذه الأصوات آتية من حديقة الحيوانات، الواقعة في الخلف تمامًا. هنا نسمع كلّ شيء.

فيلة، أسُود، وببغاوات الكوكاتو. الفهود يبدؤون غطيطهم المرعب في الليل. إلّا أنّ صوت القردة أسوأ. فهي مثل البشر، لكنّها لا تمثِّل.

تفضُّلا من هذه الجهة. لقد وصلنا تقريبًا...

كانت السيّارة مغطّاة بقطعة قماش كبيرة ورقيقة تُبرز أطرافها.

نزعها فلورينثيو بيده الخبيرة وطواها. كان قد أعدَّ مصباحين صغيرين محمولين على ثلاثة أرجل، على جانبي السيّارة. وما إن وصلهما بخطّ كهربائيّ مطوَّل، حتى انبثق منهما ضوءٌ مبهر مائل إلى الصفرة، حوّل السيّارة إلى منحوتة معدنيّة برّاقة. استحسن فلورينثيو نتيجة المشهد، وفتح الأبواب الأربعة وتراجع خطوتين بإجلال.

- ها هي. - نغّمَ قائلًا.

- هل لديك تقرير الخبراء هنا؟

- إنه في مكتبي. سآتيك به فورًا.

غادر الحارس بحثًا عن التقرير وكاد يحلّق شبرًا فوق الأرض.

- استلمي جانب الراكب. - قال بارغاس.

- حاضر يا عمّاه!

كانت الرائحة أوّلَ ما لفت انتباه أليثيا. رفعت عينيها نحو بارغاس فأومأ.

- بارود. - قال.

أشار إلى البقع المتخثّرة من الدماء الغامقة النافرة من مقعد الراكب.

- إنّها دماء قليلة بالنسبة إلى إصابة بسلاحٍ ناريّ. - قدَّرت أليثيا - من الوارد أنّه خدش.

هزّ بارغاس رأسه ببطء.

- الطلق الناريّ إلى داخل السيّارة يخلِّف فتحةً، ولا بدّ أن تعلق الطلقة في الهيكل المعدنيّ أو في المقاعد. أمّا هذه الدماء القليلة، فقد تكون ناجمة عن إصابة أخرى، بسلاح أبيض ربّما. أو بخبطة.

تلمَّس بارغاس هالات الثقوب الصغيرة إلى مسند المقعد.

- محروقة. - غمغم - حصل إطلاق النار من الداخل نحو الخارج.

ابتعدت أليثيا عن المقعد وبحثت عن مغيّر السرعة. وعندما حرّكته، نتأت من جانبه شظايا زجاجيّة. وتحت النافذة ثمّة أجزاء من زجاجٍ مسحوق.

- أرأيتِ؟

قاما بتفتيش السيّارة من أقصاها إلى أقصاها خلال دقائق، يسودهما الصمت. وكانت الشرطة المحليّة قد قامت بعملها على أتمّ وجه، ولم تترك لهما أيّ شيء يثير الاهتمام، ما عدا ربطة خرائط طرقيّة في الدُّرج ومفكِّرة بتجليد لولبيّ بلا غلاف. تصفّحتها أليثيا.

- هل تحتوي على شيء؟ - سألها بارغاس.

- بيضاء.

كان فلورينثيو، وقد عاد بتقرير الخبراء بهدوء، يراقبهما تحت الظلام.

- نظيفة كالمرآة، أليس كذلك؟ - قال.

- هل كان في داخلها شيء عندما جاؤوا بها إلى هنا؟

أعطاهما التقرير.

- كانت على هذا الشكل عندما وصلت.

أخذ بارغاس التقرير ومرَّ على حصيلة الأغراض المسجَّلة.

- هل هذا طبيعي؟ - سألت أليثيا.

- عفوًا؟ - سألها فلورينثيو باهتمام.

- كنت أسأل إن كان من الطبيعيّ أن تكون السيّارة محجوزة هنا.

- ليس دائمًا. ففي العادة تخضع لتفتيش سريع في عين المكان، ثم لتفتيش أعمق هنا.

- وهل حصل؟

- على حدّ علمي، لم يحصل.

- التقرير يقول إنّ السيارة عُثِر عليها في شارع دي لاس أغواس/ شارع المياه. هل هو شارع مزدحم؟ - سأل بارغاس.

- لا. إنّه بالأحرى دربٌ بطول عدّة كيلومترات وليس ممهَّدًا، يحاذي سفح الجبل. - أجاب فلورينثيو - ليس بشارع ولا ماء فيه.

كان الشرح موجّهًا إلى بارغاس، لكنّ فلورينثيو غمز بعينه إلى أليثيا بينما كان يتحدّث. فابتسمت له.

- يعتقد المحقّقون أنّ السيارة تُرِكَت هناك لاحقًا، أمّا الحادث فقد وقع في مكان آخر. - أضاف الحارس.

- هل من فكرة؟

- عثروا على آثار حصى بين شروخ الإطارات. حجارة كلسيّة.

ليست من النوع الموجود في شارع دي لاس أغواس.

- وبناءً عليه؟

- إذا سألتَ المحقّقين، أخبروك أنّ هذه الحصى موجودة في أكثر من عشرة أماكن مختلفة.

- وإذا سألناك أنت يا فلورينثيو؟ - سألته أليثيا.

- حديقةٌ مسوَّرة. ربّما منتزه. وربّما باحة بيتٍ ذي ملْكيّةٍ خاصّة.

أشار بارغاس إلى التقرير.

- أرى أنّكما توصّلتما إلى حلّ القضيّة. - قطع حديثهما - هل لي بنسخة عن التقرير، لو سمحت؟

- هذه نسخة عنه. بإمكانك أن تحتفظ بها. هل ثمّة شيء أفعله لأجلكما؟

- أن تطلب لنا سيّارة أجرة من فضلك...

(14)

لم يفتح بارغاس فمه في السيّارة، وظلّت عيناه ممعنتين بالنافذة بينما كان مزاجه الكدر يتمدّد ويسمّم الهواء. نعرته أليثيا بركبتها نعرةً خفيفة.

- غيِّر هذا الوجه، هيّا، فنحن ذاهبان إلى كاسا ليوبولدو.

- إنّهم يضيِّعون وقتنا. - غمغم بارغاس.

- وهل هذا يفاجئك؟

نظر إليها حانقًا. فأشرقت عليه بابتسامة.

- مرحبًا بك في برشلونة.

- لا أعرف ما الذي يجعلكِ سعيدةً هكذا.

فتحت أليثيا حقيبة يدها وأخرجت المفكِّرة التي وجدتها في سيّارة ڤايس. فتنهّد بارغاس.

- قولي لي إنّ هذا ليس ما أراه.

- هل استعدتَ شهيّتك؟

- بصرف النظر عن أنّ انتزاع الأدلّة من التحقيق يُعتَبر أمرًا خطيرًا بحدّ ذاته، لا أرى هنا إلّا مفكِّرةً صفحاتُها بيضاء.

دسّت أليثيا ظفرها بين الخواتم اللولبيّة المعدنيّة التي تثبّت ضلع المفكِّرة، وأخرجت منها شريطين ورقيّين كانا عالقين في الداخل.

- والآن؟

- أوراقٌ ممزّقة. - قالت أليثيا.

- ياه، أيُّ اكتشاف مفيد هذا! بلا شكّ.

بسطت أليثيا الصفحة الأولى من المفكّرة على نافذة السيّارة. فبدا في انعكاس الضوء أثرٌ لإشارات على الورقة. مدّ بارغاس جذعه وركَّز بصره.

- أرقام؟

أومأت أليثيا مؤكِّدة.

- هناك جدولان. الأوّل مكونٌ من سلسلة أرقام وأحرف.

والثاني، من أرقام فقط. تسلسلٌ بين خمس وسبع إشارات. انظر جيّدًا.

- نظرت. وماذا بعد؟

- الأرقام متتالية. تبدأ بالرقم أربعين ألفًا وثلاثمئة وشيء ما، وتنتهي بأربعين ألفًا وأربعمئة وسبعة أو ثمانية.

لمعت عينا بارغاس، مع أن الشكّ ما زال يلقي ظلاله على وجهه.

- قد يكون هذا أيّ شيء. - قال.

- مرثيديس، ابنة ڤايس، تذكر أنّ أباها، في المساء السابق على اختفائه، كان يحدِّث مرافقه عن شيء له صلة بلائحة. لائحة أرقام...

- لا أدري يا أليثيا. الاحتمال الأكبر أنّ هذا لا يعني أيّ شيء.

- ربّما. - سايرته - كيف شهيّتك؟

ابتسم بارغاس في النهاية، مهزومًا.

- إن دفعتِ حساب الغداء، فسنفعل شيئًا ما.

توقّدت حماسة أليثيا جرّاء زيارة متحف الدموع، والأمل - الذي ظلّ مجرّد رغبة - في أنّ الدليل غير المتوقّع الذي وجدته بانعكاس الضوء على ورقة بيضاء قد يقودهما إلى جهةٍ ما. لطالما كانت متعتها السريّة كامنةً في استشفاف أثرٍ جديد: عطر المستقبل، كما يروق للياندرو أن يسميّه، اختلط صفاء المزاج بالشهيّة المفتوحة، فواجهت أليثيا قائمة الطعام في كاسا ليوبولدو بروحٍ قوقازيّة، وطلبت لأربعة أشخاص. تركها بارغاس تفعل ما يطيب لها، وعندما بدأت صفوفُ الأطعمة اللذيذة تتقدّم بلا هوادة، وهاجمتها أليثيا بضراوة، اكتفى الرجل العجوز بهزّ رأسه وهو يتناول وجبته وشيئًا آخر.

- حتى على المائدة نشكِّل فريقًا رائعًا. - علَّق وهو ينهش ذيل ثور ذا نكهة زكيّة - أنتِ تطلبين، وأنا ألتهم.

كانت أليثيا تنتف من صحنها كالطير، وتبتسم.

- لا أريد إفساد الأجواء اللطيفة، ولكنْ لا تتوهَّمي. - قال بارغاس - من الوارد أنّ تلك الأرقام ليست سوى مرجع لقطع التبديل لدى السائق. وما أدرانا!

- إنّها كثيرةٌ جدًّا لقطع تبديل. كيف الذيل؟

- عالميّ. كمثل الذيل الذي تناولته في قرطبة ربيع عام 1949 والذي ما زلت إلى اليوم أحلم به.

- بمفردك أم بصحبة أحد؟

- هل تجرين تحقيقًا عني يا أليثيا؟

- مجرّد فضول. هل لديك عائلة؟

- الكلّ لديهم عائلة.

- أنا لا. - قالت بنبرة حادّة.

- اعذريني، لم...

- لا داعي للاعتذار. ماذا أخبرك لياندرو عني؟

بدا باراغاس متفاجئًا من السؤال.

- لا بدّ أنّه أخبرك بشيء ما على الأقلّ. أو لا بدّ أنّك سألته.

- لم أسأله. كما أنّه لم يروِ لي كثيرًا.

ابتسمت أليثيا بفتور.

- سيبقى بيننا، هيّا... ماذا أخبرك عني؟

- أنظري يا أليثيا، لا شأن لي بالعلاقة التي تربطكما.

- تبًّا. هذا يعني أنّه روي لك أكثر ممّا تقرّ.

واجهها بارغاس غاضبًا.

- قال لي إنّك يتيمة. وإنّك فقدتِ والديكِ في الحرب.

- وماذا غير ذلك؟

- إن لديكِ إصابة تسبّب لكِ ألمًا مزمنًا. وإنّ هذا يؤثّر على شخصيّتكِ.

- شخصيّتي.

- دعينا من هذا.

- وماذا بعد؟

- إنّكِ وحدانيّة، تعانين من مشاكل في توطيد العلاقات العاطفيّة.

ضحكت على مضض.

- هل قال ذلك؟ بهذه الكلمات؟

- لا أذكر جيّدًا. هل بوسعنا أن نغيّر الموضوع؟

- موافقة. فلنتحدّث عن علاقاتي العاطفيّة.

رفع بارغاس عينيه نحو السماء.

- هل تعتقد أنت أنّ لديّ مشاكلَ في توطيد العلاقات العاطفيّة؟

- لا أدري ولا يخصّني.

- ليس من طبع لياندرو أن يتفوّه بجملة كهذه، كلاشيه. كأنها مقتبسة من الرسائل الغراميّة من إحدى مجلات الموضة.

- لا بدّ أنّني أنا الذي نطقها، لديّ اشتراكٌ بعدّة مجلات من هذا النوع.

- ما الذي قاله بالضبط؟

- لماذا تفعلين ذلك بنفسكِ يا أليثيا؟

- ماذا أفعل بنفسي بالضبط؟

- تعذّبينها.

- هل تراني كذلك؟ امرأة معذَّبة؟

نظر إليها بصمت ثمّ نفى برأسه أخيرًا.

- ماذا قال لياندرو؟ أعدك بأنّي لن أسألك عن شيء آخر إذا قلت لي الحقيقة.

قيَّمَ بارغاس الخيارين.

- قال إنَّكِ تعتقدين أنّ لا أحد بإمكانه أن يحبّكِ لأنّكِ لا تحبين نفسكِ، وتظنّين أن لا أحد أحَبَّكِ يومًا. وإنّكِ لن تغفري للحياة على ذلك.

أخفضت أليثيا أبصارها، وتصنَّعت ضحكةً ببالغ الجهد. لاحظ بارغاس أنّ مقلتيها تغرقان بدمعها، فبادر إلى الكلام.

- ظننتُ أنّكِ تريدين أن أحكي لكِ عن عائلتي.

رفعت أليثيا كتفيها.

- كان والداي من قرية صغيرة في...

- أقصد إن كان لديك زوجة وأولاد. - قطعت كلامه.

نظر بارغاس في عينيها الخاليين من أيّ تعبير.

- لا. - قال بعد صمت.

- لم أتعمّد المضايقة. اعذرني.

ابتسم بارغاس عن غير رغبة.

- لم تضايقيني. وأنتِ؟

- إن كان لدي زوجة وأولاد؟ - سألته أليثيا.

- أيّا يكن - لا أعتقد. - ردّت.

رفع بارغاس كأس النبيذ نخبًا.

- بصحّة الأرواح الوحدانيّة.

أمسكت أليثيا كأسها ولمست به كأسه، متجنّبةً نظراته.

- لياندرو غبيّ. - قال بارغاس بعد قليل.

هزّت رأسها نافية.

- لا. إنّه قاسٍ فقط.

وساد الصمت على ما تبقّى من ساعة الغداء.

(15)

ڤايس يستيقظ في الظلام. جثة بيثني لم تعد هناك. لا بدّ أنّ مارتين حملها بعيدًا بينما كان نائمًا. وحدَه الوغدُ مارتين يخطر في باله أن يحبسه بصحبة جثّة. ثمّة بقعة لزجة ترسمِ الجانب الذي كان جسمه يشغله على الأرض. حلّت مكانه كومة ثياب قديمة لكنّها جافّة، إضافةً إلى دلوٍ مملوء بالماء. يفوح بنكهة حديديّة وتنبعث منه رائحة قذارة.

لكنّه عندما يرطِّب شفتيه بالماء، ويرتشف منه بقدر المستطاع، يبدو له ألذّ مشروب تذوّقه في حياته كلّها. يشرب ليروي ظمأ ظنّ أنّه لا يرتوي، حتى شعر بالألم في بطنه وحلقه. ثمّ ينزع عنه ما تبقّى من ملابسه الممزّقة والملطّخة بالدماء ويرتدي أحد الثياب التي وجدها هناك، تتضوّع برائحة الغبار والمعقّمات. هدأ الألم في يده اليمنى، وبات يشعر بنبضٍ أصمّ فيها. لا يتجرّأ في البداية أن ينظر إلى يده، لكنّه يفعلها ويلاحظ أنّ البقعة السوداء تمدّدت ووصلت إلى معصمه، كما لو أنّه أغرقها في دلوٍ من القطران. صار يشمّ رائحة الالتهاب ويشعر بأنّ جسمه يتعفّن حيًّا.

- إنّها الغنغرينا. - يقول الصوت تحت الظلام.

ينتفض قلب ڤايس ويلتفت ليرى سجّانه، يراقبه جالسًا على اعتاب السلالم. فيتساءل منذ متى كان هناك.

- ستفقد يدك، أو حياتك. الأمر يعتمد عليك.

- ساعدني أرجوك. سأعطيك ما تشاء.

نظراتُ السجَّان إليه جامدةٌ لا تلين.

- منذ متى وأنا هنا؟

- منذ فترة قصيرة.

- هل تعمل لمصلحة مارتين؟ أين هو؟ لماذا لا يأتي؟

ينهض السجّان. فيلامس هباءُ الضوء المتسرّب من أعلى السلالم وجهَه. يرى ڤَايس القناع بوضوح الآن، قطعةً خزفيّة تغطّي نصف وجهه. مصبوغة بلون البشرة. عينه ما تزال مفتوحة لا يرفّ لها رمش.

يقترب السجّان من القضبان ليراه السجين جيّدًا.

- لا تذكرني، أليس كذلك؟

يهزّ ڤايس رأسه نافيًا.

- ستتذكّر. ما زال لدينا وقت.

يستدير ويتهيّأ لصعود السلالم عندما يمدّ ڤايس يده اليسرى من بين القضبان بمعنى التوسُّل.

- أرجوك. أنا في حاجة إلى طبيب.

يُخرِج السجّان طردًا صغيرًا من جيب معطفه ويرميه إلى الزنزانة.

- قرِّرْ بنفسك إن أردتَ الحياة أو التعفّن ببطء مثلما نكّلت بكثيرٍ من الأبرياء.

وقبل أن ينصرف، يشعل شمعة ويتركها في جوفٍ على شكل محراب صغير محفور في الحائط.

- أرجوك. لا تذهب...

يسمع ڤايس الخطوات تتلاشى والباب يُطبَق. فيجثم على ركبتيه ليحمل الغرض الملفوف بورق الطرد، يفتحه باليد اليسرى، ولا يفهم ماهيّته للوهلة الأولى. إلى أن يُخرِجه ويراه على ضوء الشمعة.

منشار نجّار.

(16)

برشلونة، أمّ المتاهات، تحتضن في أشدّ أجزائها غموضًا شبكةً من الأزقّة تعقد في شعابٍ مرجانيّة من أطلالٍ حاضرة ومستقبليّةٍ يعلق في مجاهلها المسافرون البواسل والأرواح الهائمة من شتّى الظروف إلى الأبد، محاصَرين في ناحيةٍ عمَّدّها أحد الخرائطيّين المباركين - لانعدام تحذيرات أدقّ - باسم الرافال. عند خروجهما من كاسا ليوبولدو، تلقَّفتهما عقدة من الشوارع الصغيرة بكلّ ما أوتيت من إبهارٍ سرابيّ، واكتظاظٍ للجحور وبيوت الدعارة والسوق الضخمة التي تشمل كل أنواع الباعة وما يعرضون من بضاعة لا يلتقطها رادار الشرعيّة.

أورث الغداء العامرُ لبارغاس شهقةً طفيفةً يحاول إخمادها بالزفير أو ضرب الصدر ببراجم اليدين.

- هذا ما تفعله بك الشراهة.

- اللعنة! في البدء ترغمنني على الطعام ثمّ تتهكّمين بي.

وكان هناك عاهرة مكوّرة المفاتن، حادّة الطبع، تنظر إليهما باهتمام تجاري لا لبس فيه، من ردهة مدخلٍ فيه مذياع قديم يولّد أنغام الرومبا الكاتالانيّة بكلّ أمجادها المهجّنة.

- ألا يطيب لك القيام بقيلولة ثلاثيّة، مع فتاتك وامرأة حقيقيّة، يا عزيزي؟ - اقترحت سيّدة المساء.

نفي بارغاس برأسه وأسرع خطاه، باديًا عليه الحياء. فابتسمت أليثيا وتبعته، وتبادلت النظرات مع المرأة البدينة في ردهتها، التي إذ رأت فريستها تبتعد، أعربت عن لامبالاتها، وهي تتمعّن بالرجل من رأسه إلى قدميه كأنّها تتساءل إن كان الرجال الحقيقيّون صاروا على هذه الشاكلة حقًّا.

- هذا الحيّ كارثة اجتماعيّة. - قال بارغاس.

- أتريدني أن أتركك بمفردك كي تحاول وضع حدٍّ للكارثة؟ - سألته أليثيا - أعتقد أنّك كسبت صديقة للتوّ، قد تخلّصك من الجشأة بغمضة عين.

- لا تقرصيني، أكاد أنفجر.

- ترغب في الحلوى؟

- أرغب في عدسة مكبّرة. بمقاييس صناعيّة إن أمكن.

- ظننت أنك لا تؤمن بالأرقام.

- المرء يؤمن بما يستطيع، لا بما يريد. إلّا إذا كان غبيًّا، وفي هذه الحالة تنقلب الآية.

- لم أكن أعلم أنّ الإمساك يجعلك فيلسوفًا.

- ثمّة كثير من الأمور لا تعلمين عنها يا أليثيا.

- لكنّي أتعلّم شيئًا جديدًا كلّ يوم.

أمسكت بذراعه.

- لا تتوهَّمي. - حذّرها.

- سبق أن قلت لي ذلك.

- إنّها أفضل نصيحة تُقَدَّمُ لأحد في هذه الحياة.

- يا له من خاطرٍ كئيب، يا بارغاس.

نظر إليها رجل الأمن فرأت أليثيا في عينيه أنّه كان يتكلّم جدّيًّا.

فتبدّدت الابتسامة من على وجهها، ووقفت على رؤوس أصابعها، دون أن تفكِّر في الأمر، ورسمت قبلة على خدّه. قبلةٌ عفيفة، ملؤها ودٌّ وصداقة، لا تأمل شيئًا ولا تطلب أيّ شيء.

- لا تفعليها. - قال واستأنف المشي.

انتبهت أليثيا أنّ العاهرة ما زالت تنظر إليها وتراقب المشهد.

تبادلتا نظرة خاطفة، فهزّت بائعة الهوى رأسها وابتسمت بمرارة.

(17)

تغمَّدَ العصرُ بغيوم منخفضة تتسرّب من خلالها هالة نور مخضوضر، لتضفي على الرافال مظهر قرية غارقة في أعماق مستنقع.

دخلا شارع أوسبيتال باتجاه لاس رامبلاس، وهناك اقتادت أليثيا بارغاس بين زحام الناس السائرين نحو الساحة الملكيّة.

- إلى أين نحن ذاهبان؟ - سألها.

- بحثًا عن العدسة التي كنتَ تتحدّث عنها.

اجتازا الساحة ومشيا تحت القناطر المحيطة بها. توقّفت أليثيا أمام واجهات محلٍّ تتراءى من داخله أدغالٌ مسكونةٌ بحيوانات بريّة متجمّدة في لحظة غضب لتتأمّل الأبديّةَ بعيونٍ بلوّريّة. رفع بارغاس عينيه إلى اللافتة، وقرأ الحروف المنقوشة تحتها، على الباب الزجاجيّ.

متحف

أرملة سولير بويول

هاتف 404451

- وما هذا؟

- العامّة تسمّيه متحف البهائم، لكنّه في الحقيقة مختبرٌ لتحنيط الحيوانات.

وعند دخولهما، تسنّي لبارغاس أن يقيِّم تلك المجموعات النفيسة من الحيوانات المحنّطة. نمور، طيور، ذئاب، قردة، ومملكةٌ كاملة من الأنواع البريّة مقيمة في متحف العلوم الطبيعيّة المرتجل هذا، الذي كان سيثير إعجاب أو مخاوف الكثير من الدارسين في شؤون الحيوانات التي تسكن القارّات الخمس جميعها. تجوَّلَ بارغاس بين الخزانات، تجذبه ألمعيّة مَن قام بأعمال التحنيط تلك.

- تخلَّصتَ من الجشأة بسهولة، أليس كذلك؟ - قالت أليثيا.

سمعا خطواتٍ تدنو خلفهما فالتفتا ليجدا أمامهما آنسة نحيفة كقلم الرصاص ترمقهما مكتوفة اليدين. ففكّر بارغاس في أنّ نظراتها تشبه نظرات السرعوف.

- أسعدتما أوقاتًا. كيف بوسعنا أن نخدمكما؟

- أسعدتِ أوقاتًا. أودّ التحدّث إلى ماتيس، إن كان ذلك ممكنًا.

- قالت أليثيا.

ضاعفت السرعوفةُ جرعة ارتيابها المحتقن في عينيها.

- بخصوص؟

- استشارة تقنيّة.

- هل لي أن أسأل مِن طرف مَن؟

- أليثيا غريس.

أجرت لها السرعوفةُ تحريًّا عينيًّا مفصّلًا. وبعد أن كشّرت بأمارة امتعاض، اتجهت نحو المستودع بخطوة متثاقلة.

- إنّكِ تجعلينني أكتشف برشلونة المضيافة. - غمغم بارغاس - ممّا يشجّعني على الانتقال إلى هنا!

- أليس لديك أمجادٌ محنّطة في العاصمة بما فيه الكفاية؟

- حبّذا. فهناك يوجد أحياءٌ يتصنّعون الدهاء، وأعدادهم تفيض عن الحاجة. ولكن، من هذا ماتياس؟ هل هو حبيبكِ السابق؟

- متطلّعٌ بالأحرى.

- من الوزن الثقيل؟

- وزن الريشة، برأيي. ماتياس أحد التقنيّين في المؤسسة. لديهم هنا أفضل العدسات في المدينة، ولدي ماتياس أفضل العيون.

- والساحرة؟

- أعتقد أنّ اسمها سيرافينا. كانت في الماضي خطيبته. ولا بدّ أنّها الآن زوجته.

- لعلّه يحنّطها في أحد هذه الأيّام، ويضعها على ذلك الرفّ، بجوار الأسُود، كي يتسنّى لها التمعّن بمتحف الرعب...

- أليثيا! - وصلهما صوت ماتياس مضخَّمًا.

استقبلهما المحنِّط بابتسامة دافئة. كان ماتياس رجلًا هزيلًا، عصابيّ الملامح، يرتدي مئزرًا أبيض، وعدسات دائريّة تخِّضم عينيه وتمنحه مظهرًا هزليًّا بشكلٍ عامّ.

- كم مرّ من الوقت. - قال وبدا أنّه متأثّرٌ حقيقةً باللقاء - ظننتُ أنكِ هجرتِ برشلونة. متى عدتِ؟

كانت سيرافينا، شبهَ متخفيّة بستارة المستودع، تراقب بعينين سوداوين كالقطران، وتعابيرها لا تبشِّر بالودّ - ماتياس، أعرِّفك على زميلي، الدون خوان مانويل بارغاس.

صافح ماتياس يده بينما كان يتفحّصه.

- لديك مجموعةٌ مذهلة يا دون ماتياس.

- آه، معظم هذه القطع هي للسيّد سولير، مشيّد المؤسسة.

معلِّمي.

- ماتياس متواضعٌ جدًّا. - تدخَّلت أليثيا - اروِ عليه قصّة الثور.

أنكر متواضعًا.

- لا تقل لي إنّك تحنّط الثيران البريّة أيضًا. - سأله بارغاس.

- لا توجد مهمّة مستحيلة عليه. - تدخَّلت أليثيا - منذ بضع سنوات، جاء إلى هنا مصارع ثيران شهير وكلَّفه بتحنيط حيوانٍ يزن أكثر من خمسمئة كيلوغرام، كان قد قتله في ذلك اليوم في المونمنتال، ليُقدِّمه هديةً لإحدى نجوم السينما الذي هام بها عشقًا... ألم تكن آڤا غاردنر، يا ماتياس؟

- بعض الأشياء التي نفعلها نحن الرجال للنساء... - أضاف ماتياس، الذي كان من الواضح أنّه لا يفضِّل فتح الموضوع.

سعلت سيرافينا من نقطة المراقبة سعلةً تهديديّة، فعاد ماتياس إلى خطّ الحذر متخلّيًا عن ابتسامته.

- ما الذي بوسعي فعله لكما؟ هل لديكما حيوان منزليّ تودّون تخليده؟ حيوان مرافقة أو فريسة صيد خالدة؟

- في الحقيقة، لدينا طلبٌ غير مألوف بعض الشيء. - بادرت أليثيا.

- غير المألوف لدينا مألوف. منذ شهر، دخل الدون سالفادور دالي شخصيًّا من هذا الباب، ليطلب أن نحنِّط له مئتي دودة. ليست نكتة. عندما أخبرته بعدم إمكانيّة تحقيق الأمر، تطوَّع لرسم بورتريه لزوجتي سيرافينا على لوحٍ مكوّنٍ من حشرات وكردينالات. أشياء لا تخطر في بال إلّا عبقريٍّ مثله. فكما ترون، لا يراودنا الملل هنا...

أخرجت أليثيا من حقيبتها الورقة التي وجدتها في المفكّرة وبسطتها.

- ما نطلبه منك هو أن تساعدنا بعدساتك على فكّ شيفرة النصّ النافر على هذه الورقة.

أخذ ماتياس الورقة بعناية وتفحَّصها في انعكاس الضوء.

- أليثيا وألغازها المعتادة، ها؟ تعالا معي إلى المختبر. سنرى ما الذي بوسعنا فعله.

كان المحلّ ومختبره عباره عن كهف صغير من الخيميائيّات والأعاجيب. نظامٌ معقّدٌ من المجاهر والمصابيح المتدليّة من السقف، موصولة بأسلاك معدنيّة. أمّا الجدران فكانت تغصّ بالخزائن الزجاجيّة التي تحتوي على عدد لا حدّ له من القوارير والمحاليل الكيميائيّة.

مطبوعاتٌ ضخمة من الأطالس التشريحيّة المغبرّة، وهياكل عظميّة وعضليّة لمخلوقات من كلّ ضرب. ثمّة طاولتان رخاميّتان تهيمنان على وسط المختبر الذي يبدو غرفة عمليّات مصنوعة لنماذج من عالم آخر، إضافةً إلى طاولات حديديّة صغيرة مكسوّة بغطاء قرمزيّ يحتوي على أغرب مجموعة من الأدوات الجراحيّة التي لم ير بارغاس مثلها من قبل.

- لا تعيرا اهتمامًا للرائحة. - حذّرهما المحنِّط - ستعتادان عليها بعد مرور دقيقتين، ولن تلاحظانها حتّى.

تشكّكت أليثيا، لكنّها لم تجرؤ على مناهضة ماتياس، فأخذت منه الكرسيّ إلى جانب إحدى الطاولات، وابتسمت له بدفء، على دراية بالتوق النافذ من نظرات الرجل الراغب فيها سابقًا.

- سيرافينا لا تدخل إلى هنا أبدًا. تقول إنّ الرائحة مقيتة إلى حدّ الموت. لكنّي أجد المكان مريحًا. فهنا نرى الأشياء على حقيقتها، بلا إيهام أو خُدَع.

أخذ ماتياس الورقة وبسطها على صفيحة زجاجيّة. أحال ضوء المكان إلى نسمة نور، عن طريق المنظِّم الموجود بجانب الطاولة الرخاميّة الكبيرة؛ وأشعل مصباحين صغيرين متدلّيين من السقف. أخرج عارضةً مسنودة إلى البكرات وقرّب إلى الطاولة عُدّةَ عدسات ممفصلة بأذرع معدنيّة.

- لم تأتِ لزيارتي أبدًا. - قال، دون أن يرفع عينيه عمّا بين يديه - حتّى عرفتُ من الناطورة، خيسوسا.

- لقد حدث كلّ شيء بين عشيّة وضحاها.

- أستوعب ذلك.

وضع ماتياس الصفيحة الشعاعيّة بين أحد المصباحين والعدسة المكبّرة. فأظهر عمود النور أطراف الأشكال المسجّلة على الورقة.

- أرقام. - علّق.

عدّل المحنِّطُ زاوية العدسة وتفحّص الورقة بعناية.

- بإمكاني أن أصبغ الورقة بمحلولٍ تبايني، لكنّه سيتلفها بلا شكّ، وقد يضيع جزء كبير من الأرقام... - فسّر.

اقترب بارغاس من مكتبٍ في زاوية المختبر وأخذ ورقتين وقلم رصاص - هل تسمح لي؟ - سأل.

- بالتأكيد. تصرَّفْ كأنّك في بيتك.

اقترب رجل الأمن من الطاولة، وركّز أنظاره في العدسة، ثمّ راح ينسخ سلاسل الأرقام بهدوء.

- تبدو أرقامًا متسلسلة. - علّق ماتياس.

- لماذا تقول ذلك؟ - سألته أليثيا.

- لأنّها مترابطة. إذا لاحظتِ الأرقام الأولى في الجدول الأيسر، أدركتِ أنّك تسلسلينها. وبقيّة الأرقام متتالية أيضًا. الرقمان الأخيران لا يتغيّران إلا كل ثلاثة أو أربعة أرقام.

نظر إليهما ماتياس متهكّمًا.

- أتصوّر أنّه لا داعي لأسألكما عن طبيعة عملكما، صحيح؟

- أنا أنفِّذ الأوامر. - قال بارغاس وما زال ينسخ الأرقام.

هزّ ماتياس رأسه ونظر إلى أليثيا.

- كان سيسعدني لو أرسلتُ إليكِ الدعوة إلى حفل الزفاف، لكنّي احترتُ إلى أين أرسلها.

- يؤسفني يا ماتياس..

- لا يهمّ. فالوقت يصلِّح كلّ شيء، أليس كذلك؟

- هكذا يقولون.

- وماذا عنكِ، هل أنتِ بخير؟ سعيدة؟

- أيَّما سعادة!

ضحك ماتياس.

- أليثيا كما عهدناها.

- مع الأسف. آمل أنّ سيرافينا لا يؤسفها مجيئي إلى هنا.

تنهَّد ماتياس.

- حسنًا، أتصوَّر أنّ لديها فكرة عمَّن تكونين. سيكلّفني الأمر مناوشة صغيرة على العشاء، لا أكثر. سيرافينا تبدو لك جلفةً في البداية، لكنّها طيّبة القلب إذا عرفتها جيّدًا.

- يسرّني أنّك التقيتَ بواحدةٍ تستحقّك.

نظر ماتياس في عينيها دون أن يقول شيئًا. وقد حاول بارغاس أن ينأى بنفسه عن تلك المحادثة الهامسة، مؤدّيًا دور المدعو المتحجّر الذي ينسخ أرقامًا على ورقة دون أن يجرؤ على التنفّس. التفت المحنِّط نحوه وربّت على كتفه.

- هل انتهيت؟ - سأله.

- تقريبًا.

- بإمكاننا أن نركّب الصفحة على صفيحة شعاعيّة ونضيئها بالمسلاط.

- أعتقد أنّه لا داعي. - قال بارغاس.

نهضت أليثيا عن الكرسيّ وتجوّلت في أنحاء الغرفة، تعاين الأدوات كأنّها تطوف في قاعات متحف. وكان ماتياس يرمقها من بعيد، مطأطئ الرأس.

- هل تعارفتما منذ مدّة؟ - سأل.

- منذ عدّة أيّام فقط. نحن نعمل معًا على قضيّة إداريّة، ليس بيننا أكثر من ذلك. - قال له بارغاس.

- شخصيّةٌ عظيمة، أليس كذلك؟

- عفوًا؟

- أليثيا.

- لديها مميّزاتٌ فريدة، أجل.

- أما زالت تستخدم المشدّ؟

- المشدّ؟

- لقد صنعتُه بنفسي من أجلها، هل تعلم؟ على مقاس خصرها تمامًا. تحفةٌ فنيّة، مع أنّه لا ينبغي أن أتحدّث عنه. لقد استعملتُ به عظام حوت وأشرطة التنجستن. ما يسمّى بالهيكل الخارجيّ المدعوم.

رقيقٌ وخفيف وممفصل حتى ليبدو بمثابة قشرة جلديّة ثانية. لم تضعه اليوم. أعرف ذلك من مشيتها. ذكِّرْها بضرورة استخدامه. من أجل صحّتها.

هزّ بارغاس رأسه موافقًا، كما لو أنّه فهم عمّا يتحدّث المحنِّط، وأنهى نسخ الأرقام الأخيرة.

- شكرًا ماتياس على تعاونك الكبير.

- نحن هنا في الخدمة.

نهض رجل الأمن وهو يفحُّ حلقه. فالتفتت أليثيا وتبادلا النظرات.

فأومأ بارغاس. اقتربت من ماتياس ورسمت له ابتسامةً رآها بارغاس أنّها مؤذية كطعنة خنجر.

- حسنًا. - قال ماتياس متوتّرًا - آمل ألّا تمرّ سنواتٌ بحالها على لقاء جديد.

- آمل ذلك.

عانقته أليثيا وهمست شيئًا ما في أذنه. قاوما ماتياس، لكنّه أبقي ذراعيه على جانبيه ولم يعانق خصرها. وبعد قليل، ابتعدت نحو المخرج دون أن تضيف شيئًا آخر. فانتظر ماتياس خروجها والتفت إلى بارغاس. وتصافحا.

- اعتنِ بها يا سيّد بارغاس، فهي لن تعتني بنفسها.

- سأحاول.

ابتسم ماتياس بفتور وهزّ رأسه. بدا الرجل شابًّا حتّى نظر بارغاس في عينيه ليرى ظلّ روحٍ هرمة من شدّة الحزن والحسرة.

كان يعبر الصالة والحيوانات على جانبيه معروضة تحت الظلام، فإذا سيرافينا تعترض طريقه. كانت عيناها مستعرتين بالغضب وشفتاها ترتعشان.

- لا تأتِ بها ثانيةً إلى هنا. - نبّهته.

خرج بارغاس إلى الطريق فرأى أليثيا متكئة على حافة نافورة الساحة، تُدلِّك خاصرتها اليمنى، وتكشيرة الألم تلوح على وجهها.

فاقترب منها وجلس بجانبها.

- لم لا تعودين إلى البيت وتستريحين؟ غدًا يومٌ جديد.

اكتفي منها بنظرة ليعرض عليها سيجارة تقاسماها معًا.

- هل تعتقد أنّني شرّيرة؟ - سألته في النهاية.

فنهض بارغاس ومدّ إليها ذراعه.

- هيّا، اتكئي عليّ تمسَّكت به، وأخذت تعرج وتتوقّف كلّ عشرة أمتار أو خمسة عشر لتخمد أوجاعها، حتى وصلا إلى بوّابة بنايتها. وعندما حاولت إخراج المفتاح من الحقيبة، سقط منها أرضًا. فحمله بارغاس وفتح الباب وساعدها على الدخول. استندت أليثيا إلى الجدار وهي تئنّ. ألقى رجل الأمن من نظرة على السلالم، وحملها بين ذراعيه دون أن يفتح فمه، وصعد بها إلى أعلى.

وحين وصلا إلى الطابق الأخير، كان وجهها مغمورًا بدموع الألم والغضب. فحملها بارغاس إلى غرفة النوم وألقاها على السرير برفق.

نزع عنها حذاءها ووضع عليها الغطاء. كانت علبة الدواء على الدُّرج.

- حبّة أو اثنتان؟ - سألها.

- اثنتان.

- متأكدة؟

أعطاها حبّتين وسكب لها كأس ماء من الإبريق الذي على الدُّرج.

ابتلعت أليثيا الدواء وتنفّست بمشقّة. فأمسك بيدها وانتظر أن تهدأ.

نظرت إليه بعينين محمرّتين ووجه تسطِّره الدموع.

- لا تتركني وحيدة، أرجوك.

- لن أذهب إلى أيّ مكان.

حاولت أن تبتسم. أطفأ بارغاس الضوء.

- استريحي.

أبقى يده في يدها تحت الظلام، وكان يسمعها تلجم دموعها وترتجف ألمًا، إلى أن أحسّ بأنّها تذوب بعد نصف ساعة وتتأرجح ما بين النوم والهذيان. سمعها تهلوس بكلماتٍ لم يفهمها حتى غطّت بنومٍ عميق أو أغمي عليها. وكان سراب الغروب يتسلّل من النافذة، ليرسم وجه أليثيا على الوسادة. ففكّر بارغاس لوهلة في أنّها ماتت، وجسّ نبض معصمها. وتساءل إن كانت تلك الدموع تنهمر من جرح خاصرتها أم إنّ عذاباتها آتية ممّا هو أعمق بكثير.

بدأ التعب يحوم حوله أيضًا، فانصرف إلى صالة الطعام وتمدّد على الأريكة. أغمض عينيه واستنشق عطر أليثيا في الهواء.

- لا أعتقد أنّها شرّيرة. - فوجئ بنفسه يغمغم بصوت منخفض - لكنّها تخيفني في بعض الأحيان.

(18)

انتصف الليل منذ مدّة عندما فتح بارغاس عينيه ليجد أليثيا ملفوفة بغطاء وجالسة بجواره تحدّق إليه في الظلمة.

- تبدين مصّاص دماء. - استطاع أن يقول - منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ قليل.

- كان عليَّ أن أخبركِ بأنّني أشخر.

- لا عليك. فحين أتجرّع الحبوب لا أفيق على زلزال.

عدّل بارغاس جلسته وفرك وجهه.

- اسمحي لي أن أقول بأنّ هذه الأريكة سيّئة للغاية.

- لا أفقه في الأثاث كثيرًا. سأشتري مخدّات جديدة. هل تفضِّل لونًا بعينه؟

- بما أنّ الأمر يخصّكِ، فعليكِ باللون الأسود، مع رسومات لعناكب أو جماجم.

- هل أكلت شيئًا ما؟

- لقد تغدّيت وتعشيتُ وتناولتُ وجبة العصريّة لأسبوع بأكمله.

كيف تشعرين؟

شدّت أليثيا كتفيها.

- أشعر بالخزي كثيرًا.

- لا أفهم السبب. وماذا عن الألم؟

- أفضل. أفضل بكثير.

- لِمَ لا تعودين إلى الفراش وتنامين قليلًا؟

- عليَّ أن أتّصل بلياندرو.

- في هذه الساعة؟

- لياندرو لا ينام.

- بما أنّنا نتحدّث عن مصّاصي الدماء...

- إن لم أتّصل به يزداد الوضع سوءًا.

- أتريدين مني أن أخرج إلى المستراح؟

- لا. - جاء جوابها متأخرًا بعض الشيء.

فهزّ بارغاس رأسه.

- اسمعي، سأذهب إلى إقامتي الفاخرة، في الجهة الأخرى من الشارع، لأتحمّم وأغير ثيابي ثمّ أعود.

- لا داعي يا بارغاس. لقد فعلتَ لأجلي ما فيه الكفاية هذا المساء. اذهب واسترح قليلًا، فيوم الغد سيكون طويلًا. نلتقي في الصباح لتناول الفطور.

كان يرمقها عن غير اقتناع. فابتسمت له أليثيا.

- سأكون بخير. أعدك.

- هل الريفولفر بمتناول يدكِ؟

- سأنام معه كما لو أنّه دمية الدبّ.

- لم يكن لديكِ دمية دبّ إطلاقًا. بل شيطان صغير أغلب الظنّ...

أهدته أليثيا إحدى ابتساماتها التي تفتح كلّ الأبواب على مصراعيها وتهرس الإرادة. فأخفض بارغاس أنظاره.

- حسنًا. هيّا، اتّصلي بأمير الظلام وتحاكيا في أسراركما. - قال متّجها إلى الباب - واقفلي الباب بأربعة أقفال.

- بارغاس؟

توقّف عند العتبة.

- شكرًا.

- كفّي عن شكري على ترّهات.

سمعت خطاه تهبط السلالم، فأمسكت بالهاتف. وقبل أن تؤلّف الرقم، سحبت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها. الخطّ المباشر إلى الجناح لا يجيب. كانت أليثيا تعلم أنّ لدى لياندرو غرفًا أخرى في فندق بالاس تحت تصرُّفه، حتى لو أنّها لم تسأله يومًا عن غايته بتلك الغرف. اتصلت بمكتب الاستقبال. فعرفتها الموظفة المناوبة في الليل من صوتها، فما من ضرورة لتصرّح بمن تتصل.

- لحظة واحدة آنسة غريس. سأوصلكِ بالسيد مونتالبو. - قالت من دون أن تفقد الدندنة الموسيقيّة على الرغم من تأخّر الساعة.

سمعت أليثيا رنينًا واحدًا ثم رُفِعت السمّاعة. تخيّلته جالسًا في ظلام مكانٍ ما من الفندق، يتأمّل ساحة نبتونو واقفًا على قدميه، وسماءُ مدريد مكفَّنةٌ بسُحُبٍ سوداء تترقّبُ قيام الفجر.

- أليثيا. - قال بنبرة متباطئة دون أن يُليِّنَ صوته - ظننتُ أنّكِ لن تتصلي بي أبدًا.

- اعذرني. تعرّضتُ لنوبة.

- يؤسفني ذلك. هل أنتِ أفضل حالًا؟

- بخير تمامًا.

- هل بارغاس معكِ؟

- أنا بمفردي.

- هل الأمور تجري معه على قدمٍ وساق؟

- أجل. لا مشكلة.

- إن أردتِ أن أزيحه عنكِ، فبإمكاني أن...

- لا حاجة إلى ذلك. بل أكاد أفضِّل أن يبقي على مقربة منّي. من يدري ما الذي قد يحدث.

صمت. لا أنفاس في صمت لياندرو. صمتٌ أصمّ.

- أكاد لا أعرفكِ. سامحيني على الملاحظة. عمومًا، يسرّني أنّكما على وفاق. ظننتُ أنّكما قد لا تنسجمان، نظرًا إلى قصّته الشخصيّة...

- أيّ قصّة؟

- لا شيء. ليس للأمر أهميّة.

- عندما تجيب هكذا ينتابني القلق حقًّا.

- ألم يروِ عليكِ قصّة عائلته؟

- نحن لا نتحادث بالأمور الشخصيّة.

- إذن، لا أريد أن أكون أنا مَن...

- ما الذي حدث لعائلته؟

صمتٌ آخر من جانب لياندرو. كانت تتخيّله يتبسَّم ويلعق شفتيه بلسانه.

- بارغاس فقد زوجته وابنته في حادث مروريّ منذ ثلاثة أعوام تقريبا. كان يقود سكران. وكانت ابنته في عمركِ. لقد حلّت عليه ظروفٌ عصيبة. وكادوا يقيلونه من جهاز الشرطة.

لم تنبس أليثيا ببنت شفة. سمعت أنفاس لياندرو تهمهم على الخطّ.

- ألم يروِ القصّة عليكِ؟

- لا.

- أعتقد أنّه لا يفضِّل الإبحار في الماضي. بكلّ حال، آمل ألّا تكون هناك مشكلة.

- ولماذا قد تكون مشكلة؟

- أليثيا، أنتِ تعلمين أنّني لا أحشر أنفي في حياتكِ العاطفيّة، مع أنّ الربّ يعلم كم أعاني أحيانًا لكي أفهم أذواقكِ وميولكِ الشخصيّة.

- لا أفهم عمّا تلمِّح.

- تعلمين عمّا ألمِّح تمامًا يا أليثيا.

عضّت على شفتيها وابتلعت الكلمات التي كانت تحترق على لسانها.

- لن تكون هناك أيّ مشكلة. - قالت في النهاية.

- ممتاز. والآن، أخبريني، ماذا لديكِ؟

التقطت أليثيا نفسًا عميقًا وشدّت قبضتها حتّى كادت تهرس أظفارها. وعندما شرعت في الحكاية، عاد صوتها إلى نبرته الرقيقة والنغميّة التي تعلّمت استخدامها في تقاريرها للياندرو.

طوال دقائق، لخّصت على مسامعه ما وقع منذ آخر اتصال. لم تكن الحكاية مفعمة بالحيويّة ولا غنية بالتفاصيل. اقتصرت على تعداد الخطوات المتّخذة دون أن تشرح الأسباب أو النوايا التي دفعتها لاتّخاذها. وكان الحدث الأهمّ في فصل المهملات هو عن سرقة كتاب فكتور ماتايكس من بيتها في الليلة السابقة. أصغى لياندرو صبورًا كعادته، دون أن يقاطعها. وعندما انتهت الحكاية، ظلّت أليثيا صامتةً تتذوّق صمت لياندرو الطويل الذي يعني أنّه كان يهضم كلماتها.

- لماذا يخامرني الشكّ في أنّكِ لا تروين عليَّ كلّ شيء؟

- لا أدري. لم أغفل عن أيّ تفصيل مهمّ، على ما أعتقد.

- بالمحصّلة، تفتيش السيّارة التي استُخدِمت... للهرب، فلنسمِّه كذلك، لا يقطع الشكَّ باليقين، بصرف النظر عن دلائل العنف غير المميت ووجود لائحة أرقام مزعومة لا صلة لها بأيّ شيء، ومن المرجَّح أنَّها لا تفضي إلى نتيجة متعلّقة بالقضيّة. ومن جهة أخرى، ما زلنا نتابع إلحاحكِ على قصة كتاب ماتايكس هذا، وهو خيطٌ أخشى أن ينعطف بنا إلى سلسلة ألغاز ببليوغرافيّة على درجة بالغة من الأهميّة، لكنها لا تعود بالنفع على وظيفتنا المنحصرة بالعثور على ماوريسيو ڤايس.

- هل من أنباء من جانب التحقيقات الرسميّة للشرطة؟ - سألته أليثيا آملةً أن تنقل محور الحديث.

- لا أنباء جديرة بالاهتمام، ولا نتوقّعها أساسًا. يكفي أنّ هنالك مَن ليس راضيًا عن دعوتنا إلى الحفلة، مع أنّنا دُعِينا من الباب الخلفيّ.

- ألهذا السبب يراقبونني؟

- لهذا السبب، فضلًا عن كونهم لا يصدِّقون - وهذا طبيعيّ - أنّنا سنكون سعداء بأنّ أصدقاءنا في الشرطة سيحصلون على كافّة الاستحقاقات والمكافآت عندما سنعثر نحن على معالي الوزير سالمًا غانمًا ونسلِّمه إليهم ملفوفا بشريطٍ ملوّن.

- هذا إن عثرنا عليه.

- هل ضعف الإيمان هذا ناجمٌ عن موقف شخصيّ أم إنّكِ أغفلتِ عنّي شيئًا ما؟

- أردتُ فقط أن أقول بأنّه من الصعب العثور على شخصٍ لا يريد أن يعثر عليه أحد.

- فلننعم بهبة الشكّ ولننسَ الرغبات المحتملة لسيّادة الوزير. أو رغبات زملائنا في جهاز الشرطة. لذا أوصيكِ بالتعامل مع بارغاس بحذر. فالولاء عادةٌ لا تتغيّر بيومٍ واحد.

- بارغاس موثوق.

- وكذا قالت المرأة التي لا تثق حتّى بنفسها. لستُ أقول لكِ أيّ شيء لا تعرفينه مسبقًا.

- كن مطمئنًا. سأبقي عينيَّ متيقِّظتين. هل تريد شيئًا آخر؟

- اتصلي بي.

ولم تكد تتمنّى له ليلةً سعيدة، عندما انتبهت أنّ لياندرو، للمرّة الثانية، يغلق السمّاعة.

(19)

ينطفئ لهيب الشمعة في بركةٍ شمعيّة تعوم عليها شعلة صغيرة بلون الأزرق الباهت. يقرّب ڤايس يده التي لم يعد يشعر بوجودها إلى هالة الضياء. للجلد لونٌ بنفسجيّ، ضاربٌ إلى السواد. الأصابع منتفخة والأظفار بدأت تنفصل عن مغاليقها التي يسيل منها سائلٌ جيلاتينيٌّ وتفوح منها رائحةٌ يصعب تعريفها. يحاول ڤايس أن يحرّك أصابعه، لكنّ يده لا تتجاوب. باتت مجرّد قطعة من لحم ميّت موصولة بجسمه، وقد تفشّت الزخارف السوداء حتى صعدت على طول الذراع. يشعر بدمٍ فاسد يسري في عروقه يكدِّر فكره ويجرّه إلى نوم قلقٍ يقتات على الحمّى. يعرف أنّه سيفقد الوعي كليًّا إذا انتظر ساعةً أخرى. سيموت في النوم المُخدِّر الذي تسبّبه الغنغرينا، وقد استحال جسمُه إلى عجينة من الجيف لن ترى ضوء الشمس أبدًا.

ما زال المنشار الذي تركه السجّان هناك في الزنزانة. قدَّر وزنه عدّة مرّات. وحاول أن يضغطه على أصابعه التي لم تعد تنتمي إليه.

أحسَّ بقليل من الألم بادئ الأمر. أمّا الآن لم يعد يشعر بشيء، ما عدا الغثيان. حلقه مشروخ من كثرة الصراخ والتوجُّع وتوسُّل الرحمة. يعرف أنَّ أحدًا ما يأتي بين حين وآخر لزيارته. أثناء نومه. أثناء هذيانه.

الرجل المقنّع عادةً، سجّانه. وأحيانًا أخرى ملاكٌ يذكر أنّه رآه بجانب باب السيّارة قبل أن تنغرس سكّينٌ في يده ويفقد الوعي على إثرها.

ثمّة شيء غير منطقيّ. لقد أخطأ الحساب والافتراض في نقطة معيّنة. مارتين ليس هنا، أو لا يريد أن يأتي إلى هنا. ڤايس يعرف، ومضطرٌ للاعتقاد بأنّ كلّ هذا الذي يحدث له ما هو إلّا صنيعة دافيد مارتين، إذ لا يمكن لغير عقله المريض أن يفكّر في فعل شيء كهذا بحقّ أحد.

- قل لمارتين إنّي متأسّف، وإنّي أطلب منه المغفرة... - توسَّل ألف مرّة بحضور سجّانه.

لا يلقى جوابًا. سيتركه مارتين يموت هناك، ويتعفّن سنتمترًا بعد سنتمتر مترفِّعًا عن الهبوط إلى الزنزانة ولو لمرّة واحدة ليبصق في وجهه.

يفقد الوعي مجدّدًا في لحظة ما.

يستيقظ مبلّلًا من بوله، مقتنعًا أنّه في عام 1942 داخل قلعة مونتويك. أفقده الدمُ المسموم ما تبقّى من عقله. يضحك. كنت أتفقّد الزنازين فغفوتُ في إحداها - يقول لنفسه. وحينذاك ينتبه إلى يدٍ ليست بيده متّحدةٍ في ذراعه. يجتاحه الهلع. لقد رأى من الجثث كثيرًا، في الحرب وخلال السنوات التي أمضاها مديرًا للسجن، فهو ليس بحاجة إلى أحد يقول له إن تلك اليدَ يدُ ميّت. يزحف على أرض الزنزانة، ظنًّا منه أن تلك اليد ستنفصل عنه، لكنّها تبقى في مكانه. يضربها بعرض الحائط، لكنّ اليد لا تزعزع. لا يدرك أنّه يصرخ عندما يمسك بذلك المنشار ويباشر التقطيع عند المعصم. اللحم يسقط كما لو كان صلصالًا مبتّلًا، وما إن تصل الشفرة حدّ العظم حتى تعصف به زوبعة الغثيان. لا يتوقّف. يستمرّ بكلّ ما أوتي من قوّة. صرخاته تخفِّف صوت

العظم وهو ينشطر بالمنشار. تتّسع بركةٌ من دماء سوداء عند قدميه. يتمكن ڤايس من رؤية الشيء الوحيد الذي يصل يده بجسده:

خرقةٌ من جلد. ثمّ يأتي الألم، مثل موجة عاتية. يذكّره بما تعرّض له في طفولته، حين لمس سلكًا مكشوفًا يتدلّى من مصباح في قبو بيت والديه. ينهار إلى الخلف ويشعر بأنّ شيئًا ما يتصاعد في حلقه. لا يقدر على التنفّس. يختنق بقيئه. مسألة دقائق - يقول لنفسه. يفكّر بمرثيديس، ويوظّف كلّ قواه المتبقّية بغية تثبيت صورة وجهها في ذهنه.

لا ينتبه إلى انفتاح باب الزنزانة ودخول السجّان ليجلس القرفصاء بجانبه. حاملًا معه دلوًا مملوءًا بالزفت الملتهب. يمسك بذراعه ويغطّسها في الدلو. فيشعر ڤايس بالنار. يحدّق إليه السجّان، في عينيه.

- هل تتذكّر الآن؟ - يسأله.

فيومئ ڤايس بنعم.

يغرس السجّان إبرة بذراعه. السائل الذي يتغلغل في عروقه بارد ويوحي لڤايس بلون اللازورد النقيّ. أمّا الحقنة الثانية، فهي التي تحمل إليه السلام والنوم بلا وعيٍ أو عمق.

(20)

أيقظتها الريح التي تفحّ من بين ثغرات النوافذ وترجُّ الزجاج.

كانت الساعة التي على الدُّرج تشير إلى الخامسة إلّا دقيقتين. أطلقت أليثيا تنهيدة. وحينذاك لاحظته: الظلام.

كانت تذكر أنّها تركت النور مضاءً في صالة الطعام بعد اتّصالها بلياندرو وقبل أن تنعم بغفوة من بضع ساعات، لكنّ البيت آنذاك كان غارقة في عتمة مزرقّة. بحثت عن زرّ مصباح الليل وضغطت عليه. لم يضئ. ترامي إلى مسامعها صوت خطواتٍ في الصالة وبابٍ يدور ببطء.

اكتسحها شعورٌ عارم بالبرد. امسكت الريفولفر الذي امضي الليلة معها تحت الغطاء وفتحت صمّام الأمان.

- بارغاس؟ - نادت بصوت مشروخ - أهذا أنت؟

جال صدى صوتها في البيت دون أن يلقى ردًّا. أزاحت الغطاء ونهضت. خرجت إلى الممرّ، والأرض متجمّدة تحت قدميها الحافيتين. كان الدهليز يرسم إطارًا من الظلّ يحيط بهالة نور على عتبة صالة الطعام. مشت فيه ببطء وسلاحها مرفوع. يداها ترتجفان. وعندما وصلت إلى الصالة، تحسّست الحائط بحثًا عن قاطع الضوء وكبسته. لا شيء. التيّار الكهربائي مقطوع عن البيت. تحرَّت الظلال، جوانب الأثاث والزوايا المظلمة. رائحة غريبة تفوح في الهواء. بنكهة التبغ - فكرت. أو لعلّ الورود، التي تركتها لها خيسوسا في المزهريّة على الطاولة، تساقطت بتلاتُها اليابسة. وعندما لم تتبيّن لها أيّ حركة، ذهبت نحو الدُّرج الكبير وبحثت في صفّه الأوّل. فوجدت علبة شموع وكيس فتائل كان هناك من قبل أن يرسلها لياندرو إلى مدريد. أشعلت شمعةً ورفعتها إلى أعلى. وتجوّلت في أرجاء الشقّة برويّة، الشمعة في يد والريفولفر في الأخرى. اقتربت إلى الباب وتحققت من أقفاله.

حاولت أن تمسح من أفكارها صورة لومانا، متبسِّمًا وثابتًا مثل تمثال من الشمع، حاملًا سكّين السفّاح بين يديه يتربّص بها داخل خزانة أو خلف باب.

وبعد أن مشّطت كلّ زوايا البيت وانحناءاته، وتأكدت من عدم وجود أحد، جلبت كرسيًا من صالة الطعام ووضعته حاجزًا خلف باب المدخل. تركت الشمعة على الطاولة واقتربت من النافذة المطلّة إلى الشارع. كان الحيّ برمّته غارقًا في ظلام دامس. وأسوار السطوح وأبراج الحمام نافرةٌ من ذلك اللون الأزرق الكدر الذي يوحي بصحوة الفجر. ألصقت وجهها على الزجاج وتحرَّت الظلال في الشارع. هنالك وميضٌ تحت أقواس قنطرة مانوال البارغاتيرا. جمرة سيجارة مشتعلة.

تمنّت أليثيا أن يكون المسكين روبيرا لا غيره قد جاء إلى وظيفته في مراقبتها في تلك الساعة المبكّرة. تراجعت إلى الداخل وأخذت شمعتين من الدُّرج الكبير. ما زال هناك وقت كثير قبل أن تنزل إلى المقهى لملاقاة بارغاس، وكانت تعرف أنّها لن تستطيع العودة إلى النوم.

دنت من الرفوف التي كانت تحتفظ ببعض كتبها الأحَبّ إلى قلبها، وقد قرأت معظمها وأعادت قراءتها أكثر من مرّة. وقد مرّت أربعة أعوامٍ لم تعاود أليثيا زيارة كتابها المفضّل، «جين آير». أخذته وتلمَّست غلافه. فتحته وابتسمت لرؤية دمغة الشيطان الصغير على رأس كومة من الكتب، وسام قديم حصلت عليه هديّةً من زميلين لها في الوحدة في عامها الأول تحت إمرة لياندرو، عندما كانوا يرونها فتاة صغيرة وغامضة لكنّها مسالمة، إحدى نزوات القائد، ولم تكن بعد قد أثارت الغيرة والحسد والنقمة في قلوب جنوده القدامى.

لقد مرّت عليها أيّامٌ من خمرٍ وأزهار مسمومة، عندما قرّر ريكاردو لومانا، بمبادرة منه، أن يعتبرها المتمرّنة الخاصّة به، فكان يهديها الورود كلّ يوم جمعة قبل أن يدعوها إلى السينما أو الرقص، وكانت أليثيا في كلّ مرة تجد عذرًا لترفض الدعوة. أيّامٌ كان فيها لومانا ينظر إليها خلسة، ظنًّا منه أنّها لا تنتبه إليه، ثمّ يرميها بسهامه ومجاملاته التي يحمرّ منها حياءً أكثرُ الناس خبرة. «من يبدأ بداية سيّئة، ينتهِ نهاية أسوأ» فكّرت حينذاك. وكانت متفائلة جدًّا.

حاولت أن تمسح وجه لومانا من ذهنها، وحملت الكتاب إلى الحمّام. عقدت شعرها وملأت الحوض بالمياه الساخنة. أشعلت شمعتين وغطست في السائل النافث بخارًا. وجعلت دفء المياه يذيب البرد الذي عشّش في عظامها، وأغمضت عينيها. وبعد قليل، خُيِّلَ لها أنّها تسمع صوت خطوات تصعد السلالم. فتساءلت إن كان بارغاس قد جاء ليتأكّد من أنّها ما تزال حيّة، أم إنّها تتوهّم الأشياء مجدّدًا. كانت الحبوب المضادّة للألم تفضي بها إلى سباتٍ مظلمٍ يؤجّج عند صحوتها عدّة توهُّمات صغيرة، كما لو أنّ الأحلام التي لم تستطع أن تراها تبحث لنفسه عن مخرجٍ من بين مغاليق الوعي. فتحت عينيها وجلست، أسندت ذقنها على حافة الحوض. يحوم حولها عدد من الأصوات.

ليس من بينها صوت بارغاس. مدّت يدها حتى لامست الريفولفر التي تركته على الكرسيّ الصغير بجوارها، وأصخت السمع لصدى قطرات الماء المتساقطة من الصنبور المغلق. انتظرت بضع ثوان. سكنت الأصوات. أو لعلّها لم تكن موجودة في الأساس. بعد قليل، ابتعدت الخطى إلى أسفل السلالم. من المحتمل أن يكون أحد الجيران خارجًا من بيته إلى عمله - برّرت.

تركت الريفولفر ثانيةً على الكرسيّ وأشعلت سيجارة. لاحظت الدخان يرسم لوحة فسيفسائيّة بين أصابعها. استلقت في الحوض من جديد وتأمّلت من النافذة رداء اللازورد كيف يكسو السُّحُب الزاحفة فوق المدينة. أخذت الكتاب وعادت إلى المقطع الأوّل. وكلّما قلّبت صفحاته، خاب القلق الذي كان قد استوطنها. ثمّ فقدت أليثيا مفهوم الزمن. حتّى لياندرو لن يستطيع اللحاق بها والعثور عليها في غابة الكلمات التي يفتح أبوابَها الكتابُ أمام عينيها صفحة بصفحة. ابتسمت أليثيا وشبَّهت العودة إلى قراءة الرواية بالعودة إلى الديار. بوسعها أن تبقى هناك طوال النهار، أو طوال الحياة.

بعد أن خرجت من الحوض، نظرت إلى نفسها في المرآة ولاحظت خيوط البخار تتصاعد من جسمها. البقعة السوداء لجرحها القديم على خاصرتها اليمنى أشبَه بوردة مسمومة تضرب أطنابها تحت الجلد. تلمّستها بالأنامل وشعرت بوخزة تحذير طفيفة. نثرت شعرها ودهنت ذراعيها وفخذيها وبطنها بدهون ماء الورد المهداة من فرنانديتو في أيّامة جرّاء نوبة غيرة صبيانيّة، والتي

كان اسمها فريدا من نوعه «Péché Originel الخطيئة الأصلية». وعند دخولها غرفة النوم، عاد التيّار الكهربائيّ فجأة، فأوقِدت جميع الأضواء التي حاولت إنارتها في الآن ذاته. حملت يديها إلى صدرها، فشعرت بقلبها يخفق بقوّة من شدّة الفزع. أطفأت الأضواء واحدًا تلو الآخر، وهي تكيل اللعنات.

وقفت أمام الخزانة عاريةً، تأخذ كامل وقتها في الاختيار. برشلونة تغضّ طرفها عن أغلاطٍ كثيرة، لكنّها لا تغفر الذوق السيّئ أبدًا.

أولجت الملابس الداخليّة التي غسلتها السيّدة خيسوسا وعطرتها، وابتسمت وهي تتخيّل الناطورة تطوي تلك القطع بينما تصلّي بالتثليث وتتساءل إن كان هذا ما ترتديه الفتيات المراهقات في العاصمة. ثمّ غلّت ساقيها بالجوارب الشفّافة التي طلبت من لياندرو أن يشتريها كي تؤدّي دور الأنسة الراقية في شارع برنسيسا دي برغارا أو لتهيّئ نفسها لإحدى المكائد التي خطّط لها قائدها في صالونات الريتز.

- ألا يكفيكِ طرازٌ عاديّ؟ - اعترض لياندرو عندما رأى السعر.

- إن أردتَها عاديّة، فأوكلِ المهمّة لشخص آخر.

إرغام لياندرو على إنفاق مبالغ طائلة ليشتري لها الثياب الفاخرة والكتب كان إحدى المتع التي تكسبها من هذه الوظيفة. قرّرت أليثيا يومذاك ألا تتحدّى القدر مجدّدًا، فركّبت المشدّ. وشدّت مغاليقه درجةً أكثر من المعتاد ولفتّه على خصرها أمام المرآة، لترى كيف تبدو عليها تلك الأداة التي تجعلها برأيها أشبَه بدميةٍ فاسقة، إحدى العرائس ذات الجمال المبهم الذي لم تعتد عليه إطلاقًا لأنّه كان يوحي بأنّ لياندرو على حقّ في المحصّلة وأنّ المرأة تخبرها الحقيقة.

- لا ينقصكِ إلّا حبال الماريونيت. - قالت لنفسها.

أمّا بدلة اليوم، فاختارتها فستانًا بنفسجيًّا رسميًّا، وحذاء إيطاليًّا كان ثمنه في تلك الآونة ما يعادل راتب شهر، اشترته من أحد المحلات الراقية في لاس رامبلاس دي كاتالونيا، حيث نادتها البائعة ب«يا صبيّة». وضعت مساحيق التجميل بعناية، لترسم بها تفاصيل الشخصيّة، وانتهت بتخطيط شفتيها بالأحمر العنّابي الغامق واللامع الذي ما كان ليحظى باستحسان لياندرو طبعًا. لم تشأ أن ينتبه بارغاس إلى أيّ أثر للضعف في مظهرها عندما يراها آتية. سنواتٌ من المهنة علّمتها أنّ التواضع يدعو إلى الاقتراع. قبل أن تخرج، ألقت نظرة أخيرة على مرآة المدخل، ومنحت نفسها القبول. «ستحطّمين قلبك بنفسكِ - قالت في سرِّها - لو كان لديكِ قلب!».

كان النهار يطلع عندما اجتازت أليثيا الشارع متجهة إلى الغران كافيه. لمحت روبيرا قبل أن تدخل، متمركزًا عند الزاوية. كان يرتدي شالًا يغطي أنفه أيضًا، ويفرك يديه. فكّرت أن تذهب إليه وتفسد عليه نهاره، لكنّها تجاهلت الأمر. حيّاها روبيرا من بعيد وسارع إلى الاختفاء. دخلت المقهى، وتحقّقت من أنّ بارغاس كان بانتظارها، جالسًا إلى ما بات يبدو طاولته الرسميّة. كان رجل الأمن يلتهم شطيرة وافرة بشريحة اللحم والطماطم، أرفقها بفنجان كبير من القهوة بينما يراجع اللائحة التي تمكّنا من فكّ شيفرة أرقامها استعانةً بالمحنِّط. وإذ أحسّ بقدومها، رفع عينيه ونظر إليها بالتفصيل من رأسها إلى قدميها.

جلست أليثيا إلى الطاولة دون أن تفتح فمها.

- عطركِ شذيٌّ للغاية. - قال بارغاس - مثل الحلوى.

ثمّ عاد إلى لذائذ الفطور واللائحة.

- كيف تستطيع تناول هذا الطعام في هذه الساعة؟ - سألته أليثيا.

شدّ كتفيه لامباليًا واكتفى بتقديم الشطيرة الرائعة إليها لتجرِّبها.

فأشاحت أليثيا وجهها، وعاود بارغاس هجومه بعضّةٍ موفّقة.

- هل تعلمين أنّ الشطائر هنا يسمونها «entrepanes»؟ - سألها - ألا يبدو لكِ مضحكًا؟

- حتّى التمزّق إربًا من الضحك.

- والقنّينة، لاحظي، يسمّونها «ampollas». كتلك الفقاقيع التي تنمو أسفل القدمين.

- يومان في برشلونة وأصبحتَ ضليعًا بعدّة لغات.

عرض عليها بارغاس ابتسامة قرش.

- يسرّني ألّا أرى أثرًا للطف الذي منيتِ به الليلة. دليلٌ على أنّكِ بحالٍ أفضل. هل رأيتِ الجدجد الناطق الذي يكاد يتغوّط في سراويله من شدّة البرد في الخارج؟

- اسمه روبيرا.

- كدت أنسى كم تقدِّرينه.

اقترب منهما ميغيل على استحياء، حاملا معه إناءً بالخبز المحمّص والزبدة والكافيلاتي الساخن. كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا، وليس في المحل سواهما. انصرف ميغيل ملك اللباقة إلى أبعد نقطة على المصطبة كالعادة، ليتظاهر بأنّه يعمل. صبّت أليثيا فنجان قهوة وعاد بارغاس إلى لائحته، يتفحَّص الأرقام واحدًا واحدًا من جديد، آملًا أن ينكشف معناها من تلقاء نفسه. ومرّت الدقائق في صمت ثقيل.

- ارتديتِ ملابس في منتهى الأناقة. - قال بارغاس أخيرًا - هل سنذهب إلى مكانٍ رفيع المستوى؟

مضغت أليشيا ريقها وغرغرت حلقها. فرفع عينيه تجاهها.

- بخصوص الليلة الفائتة. - بادرت أليثيا.

- نعم؟

- أردتُ أن أعتذر منك. وأشكرك.

- لا داعي لأيّ اعتذار أو شكر البتّة. - ردّ بارغاس.

انحجبت هيئته الصارمة بظلّ حياء. فتوجّهت إليه أليثيا بابتسامة واهنة.

- أنت رجلٌ طيّب.

أخفض أنظاره.

- لا تقولي ذلك.

قضمت أليثيا إحدى قطع الخبز المحمّص دونما رغبة. وكان بارغاس يراقبها.

- ما بك؟

- لا شيء. يطيب لي أن أراكِ تأكلين.

قضمت أليثيا ثانيةً وابتسمت.

- ما برنامجنا لليوم؟

- لقد خصّصنا نهار أمس لقضيّة السيارة. دعنا اليوم نقوم بزيارة إلى المحامي بريانس.

- كما تشائين. ما خطّتكِ لمواجهته؟

- كنت أفكّر في أن أؤدّي دور وريثة شابّة وساذجة، وجدت بين يديها نسخة من كتاب فكتور ماتايكس، وأبدت اهتمامًا لبيعه. قال لي الدون غوستابو برسلوه إنّ بريانس يمثّل رجلًا مولعًا باقتناء التحف وقد صمّم أن يشتري كلّ مؤلّفات الكاتب الموجودة في السوق، إلخ إلخ.

- أنتِ تؤدّين دور الساذجة. مبشّر. وأنا ماذا أؤدّي؟ دور حامل الدرع؟

- فكّرتُ في أنّك قد تكون زوجي الوفيّ الناضج العزيز.

- خياليّ. المرأة القطّة والقبطان العجوز. ثنائيُّ العام بلا منازع.

لا أعتقد أنّها ستنطلي على المحامي، حتى لو كان الأخير على دفعته.

- لا يهمّني إن انطلت عليه أم لا. الفكرة، بالأحرى، هي أن يشمّ رائحة احتراق فيُقدِمَ على خطوة خاطئة.

- مفهوم. وبعد؟ نتبعه؟

- تتقن فنّ التخاطر يا بارغاس.

تمكّنت الشمس من السطوع لتمشّط سطوح المدينة بينما كانا يمشيان؛ شمسٌ بهيّةٌ تستحقّ أن توضَع في دعاية تجاريّة. كان بارغاس يتأمّل الواجهات والتواءات المباني في شارع أفنيون، بعينين صافيتين كأنّه تلميذ في معهد إعداد القساوسة جاء من القرية في نزهة نهاية الأسبوع. انتبه بعد قليل أنّ أليثيا تلتفت لتنظر إلى الوراء كلّما تقدّما بضعة أمتار. أراد أن يسألها عمّا يحدث فإذا هو يتبع خطّ بصرها ليراه.

روبيرا يحاول أن يخفي وجوده عبثًا في مدخل أحد المباني على بعد خمسين مترًا.

- والآن سأذهب إليه لأضع النقاط على الحروف. - غمغم بارغاس.

فأمسكته أليثيا من ذراعه.

- لا، من الأفضل أن ندعه وشأنه.

حيَّته بيدها من بعيد، باسمةً، فنظر رويرا حوله وتردّد لحظةً، ثمّ اكتشف أنّها كشفت أمرها، فبادلها تحيَّةً خجولة.

- يا له من فاشل! - فرَّج بارغاس عمّا يدور في خلده.

- هذا أفضل من غيره. لقد أتينا به إلى صفّنا على الأقلّ، وذلك لمصلحته أيضًا.

- قد تكونين مخطئة.

أشار له بارغاس بيده أن يبتعد أكثر حفاظًا على المسافة المتفق عليها. فأومأ رويرا ورفع قبضته والإبهام عاليًا إشارةً إلى أنّه فهم المقصد.

- انظري إليه. لا بدّ أنّني رأيتُ هذا النموذج في السينما. - قال بارغاس.

- أوليس الناس يتعلّمون الحياة من السينما في هذه الأيّام؟

- هكذا تسير الأمور في العالم.

تركا رويرا خلفهما واستأنفا المشي.

- لا يروقني أن يكون هذا المغفّل ورائي كالذيل. - ألحَّ بارغاس - ولا أفهم لماذا تثقين به. فنحن لا ندري ماذا يقصّ عليهم في المخفر.

- الحقيقة هي أنّني أشفق عليه قليلًا.

- أعتقد أنه لا بأس بلكمتين جيّدتين. لا داعي أن تشاهدي إن أردتِ. ألتقطه بمفردي وأغمّسه بالسطل.

- أنت تتناول البروتينات أكثر من اللازم يا بارغاس. وهذا يفسد طباعك.

(21)

إن كانت الثياب تصنع الراهب، فإنّ المكتب وعنوانه الرفيع يصنعان، أو يهدمان، سمعة المحامي. ففي مدينة مكتظة بأشباه المحامين المزوّدين بمكاتب فاخرة في أبنية ملكيّة وسياديّة من شارع دي غراثيا وشوارع نبيلة أخرى، اختار الدون فرناندو عنوانًا متواضعًا جدًا، يكاد يُعَدّ غير معتاد في بروتوكولات هذه المهنة.

تراءت البناية لأليثيا وبارغاس من البعيد، بنايةٌ عمرها حوالي المئة عام، ومعزولة بشكل غامض عن مجرف التيّار، عند تقاطع شارع ميرثي بشارع أفنيون. تشغل الطابق الأرضي منها حانةٌ للمأكولات والمقبّلات المتنوّعة، لكأنّها ملاذٌ لمصارعي الثيران المنسيّين والصيّادين المولعين بلعب الورق. وكان صاحب المحلّ ذا شاربين، شبيهًا بخليّةٍ حيّة على شكل بلبل دوّار، قد خرج مسلّحًا بممسحة ودلو مياه دافئة تنبعث منها رائحة المعقّمات. يدمدم لحن أغنية ويقوم بتمارين بهلوانيّة بعود الأسنان الذي بين شفتيه بينما ينظّف الرصيف، ويخلّصه برويّةٍ لا مثيل لها من بقع البول والقيء الأثيليّ، والثيمات الفنيّة الأخرى التي تزدهر بكثافة في الأزقّة المطلّة على الميناء.

أكوامٌ من العلب الضخمة والأثاث المغبرّ بمحاذاة بوّابة البناية.

وهناك ثلاثة حمّالون متعرّقون يلتقطون أنفاسهم ويصفّون حساباتهم مع شطائر الخبز الفرنسيّ المحشوّة بقطع المرتديلا.

- هل مكتب المحامي بريانس هنا؟ - سأل بارغاس صاحبَ الحانة الذي أوقف عمليّات التنظيف الصباحيّ ليعاين الشخصين جيّدًا.

- في الطابق الأخير. - قال مشيرًا إلى أعلى - لكنهم ينتقلون.

وعندما مرّت أليثيا بجانبه، ابتسم لها الرجل مبرزًا أسنانه المصفّرة.

- هل ترغب الجميلة في فنجان قهوة أو كرواسان؟ تقدمة من المحلّ.

- في يوم آخر. عندما تحلق هذه اللحية الكثّة. - ردت أليثيا دون أن تتوقّف.

صفّق الحمّالون على الردّ اللاذع، وتقبّله صاحب الحانة بروح رياضيّة. لحق بها بارغاس إلى السلالم الشبيهة بلولبٍ على شكل الأمعاء أكثر من كونها تصميمًا معماريًّا.

- هل يوجد مصعد؟ - سأل أحدّ الحمّالين.

- إن كان موجودًا، لم نعثر عليه.

فتوجَّب عليهما صعود الطوابق الخمسة حتى وصلا إلى مستراح مغمور بالعلب الضخمة والفهارس والمشاجب والكراسي واللوحات ذات المشاهد الرعويّة، أغراضٌ بدت أنّهم اشتروها من سوق الأعاجيب ببضعة فلوس. أطلت أليثيا على مكتبٍ يعدّ العدة لخوض حرب، حيث لا وجود لشيء في مكانه الصحيح، بل كأنّ المكتب قد انتقل إلى مكانٍ ما بعد الحشر في العلب المتكدّسة والمملوءة. جرّب بارغاس أن يقرع الجرس لكنه معطَّل، فطرق الباب ببراجم بده.

- صباح الخير.

ظهر شعر كثيفٌ مصبوغٌ بالأشقر من الممرّ. كانت الآنسة، التي تعتمر تلك المعجزة على رأسها كقبّعة، ترتدي فستانًا ملوّنًا بالأزاهير.

- صباح الخير. - قالت أليثيا - هل هنا مكتب المحامي بريانس.

اقتربت الآنسة عدّة خطوات ورمتها بنظرة متفاجئة.

- هنا. أو كان هنا. فنحن ننتقل. كيف بإمكاني مساعدتكما؟

- نودّ التحدث إلى المحامي - هل لديكما موعد معه؟

- لا وهذا ما أخشاه. هل المحامي موجود؟

- يصل متأخرًا بالعادة. إنه كذلك، فتى على هواه. إن أردتما انتظاره في الحانة أسفل البناية...

- نفضِّل انتظاره هنا، إن كان ذلك لا يسبّب إحراجًا. فالطوابق كثيرة.

تنهدت السكرتيرة وهزت رأسها متفهِّمة.

- كما تشاءان. لكنّكما رأيتما الحال هنا مقلوبًا رأسًا على عقب.

- نستوعب الأمر. - تدخَّلَ بارغاس - سنحاول قدر المستطاع ألّا نسبِّب إزعاجًا.

بدا أنّ ابتسامة أليثيا الرقيقة وحضور بارغاس على وجه الخصوص قلَّصا من ارتياب الآنسة.

- تفضّلا. اتبعاني.

اقتادتهما السكرتيرة على امتداد ممرّ طويل يجتاز الشقّة كلّها.

وعلى جانبيه غرفٌ تغصّ بالعلب التي تنتظر الانتقال. وقد ارتفع الغبار بفعل الجيئة والذهاب حتى خلّف ضبابًا من جزيئات متلألئة تحرِّض حساسيّة الأنف. اختتمت الرحلة القاريّة بين حطام الغرق بغرفةٍ تقبع في زاوية الشقّة، بدت أنها آخر الحصون الصامدة في البناية بأكملها.

- تفضلا... - أشارت السكرتيرة.

كانت الغرفة بحدّ ذاتها آخرَ ما تبقّى من مكتب بريانس، عبارةٌ عن خلطة من الرفوف والأضابير المتكوّمة بما يخالف قوانين التوازن على الجدران. أمّا القطع الثقيلة فهي المكتب الخشبي الفاخر الذي بدا ناجيًا من حريق، وخلفه قطعة أثاث زجاجيّ ترقد في داخلها السلسلة القضائيّة الكاملة أرانثادي، مرتّبةً كيفما اتّفق.

جلس بارغاس وأليثيا على كرسيّين طارئين بجانب نافذة واسعة تفضي إلى شرفة يمكن من خلالها رؤية تمثال عذراء الرحمة على قبّة الكاتدرائيّة في الجانب الآخر من الشارع.

- هلّا سألتُما العذراء أن ترأف بحالنا، فهي لا تستجيب لدعائي.

- قالت السكرتيرة - هل لي باسمكما فضلًا؟

- خايمي بالكارثيل وعقيلته. - قالت أليثيا قبل أن ترفّ رموش بارغاس.

أومأت السكرتيرة باحترام، مع أنّ نظراتها لامست بارغاس بشيء من المكر، كأنّها تهنّئه على فارق العمر، وتلمّح إلى أن رجلًا بهذه الوسامة يُغفَر له ذلك الذنب الصغير.

- أنا أدعى بوري، في خدمتكما. لا أعتقد أنّ المحامي سيتأخّر كثيرًا. هل أقدّم لكما شيئا ريثما يأتي؟ ماريانو، صاحب الحانة، يجلب إلي المعجّنات وترموس الكافيلاتي كلّ صباح، إن أردتما...

- لا أرفض مكرمةً من يا آنسة. - فضَّ بارغاس ما في قلبه.

ابتسمت بوري مسرورة.

- حالًا.

لم يغفل بارغاس عن رؤيتها تخرج بخاصرتين تتماوجان بانسجام.

طوبى لماريانو ومعجّناته. - قالت الينيا بصوت مخفض.

- كل امرئ يكسب بما لديه.

- وأنت، هل من المعقول أنّك ما زلت جائعًا بعد أن التهمتَ خنزيرًا بأكمله منذ قليل؟

- ما زال هناك رجالٌ تسري الدماء في عروقهم يا أليثيا.

- وربّما تكون الآنسة بوري هي التي أيقظت غرائزك.

لم يكد بارغاس يفتح فمه ليردّ عليها حتى عادت السكرتيرة بطبق مليء بالمعجّنات وفنجان كافيلاتي ساخن تقبّله رجل الأمن مستحسنًا.

- المعذرة على هذه الخدمة، فقد وضعنا كل شيء في العلب...

- لا عليكِ. شكرًا جزيلًا.

- ولماذا تنتقلون من هنا؟ - سألتها أليشيا.

- صاحب البناية، الذي يريد أن يرفع الأجرة... نصّاب. آمل أن تفرغ البناية من ساكنيها وتنهشها الفئران.

- آمين. - قال بارغاس - وإلى أين ستذهبون؟

- ليتني أعرف. لقد تقرّر أن تنتقل إلى المكاتب المجاورة، خلف البريد، لكنّ أعمال الترميم لم تنتهِ بعد، وعلينا أن ننتظر شهرًا آخر على الأقلّ. حتّى هذه اللحظة، سننقل جميع الأغراض إلى مستودع في بويبلو نويفو تملكه أسرة المحامي.

- وفي أثناء ذلك، أين ستزاولون عملكم؟

تنهّدت بوري.

- عمّة المحامي التي توفّيت منذ فترة قصيرة، كان لديها شقّة في جادّة مايوفري، في ساريا. يبدو أنّنا سنذهب إلى هناك مبدئيًّا. فكما ترون، نعيش يومًا بيوم...

طافت نظرات بارغاس وأليثيا في أرجاء المكتب الفقيد ثانيةً، وتشرَّبت بأجواء الإفلاس التي تحوم فيه. توقّفت عينا أليثيا على إطارٍ يحوي ما بدت انّها صورة هزليّه للتخرّج، يظهر فيها وجه المحامي بريانس أغلب الظنّ، في سنوات شبابه، محاطًا بمعدمين وجوعى وسجناء مقيّدين حتى أعناقهم. وتحت الصورة، العبارة التوضيحيّة التالية:

المحامي فرناندو بريانس

نصير القضايا الخاسرة

نهضت أليثيا واقتربت لتتمعّن بالصورة، فانضمّت إليها بوري، متبسّمة تهزّ رأسها خلسة.

- ها هو ذا، قدّيس المحاكم في برشلونة... هذا مقلبٌ قام بها رفاقه في الدفعة منذ أعوام طويلة، عندما كان شابًّا. وما زال كذلك.

تخيّلي أن الصورة تضحكه لدرجة أنّه علّقها على مرأى زبائنه...

- أليس لدى المحامي زبائن...

- مترفون؟

- قادرون على دفع الأتعاب.

- بعضهم. لكنّ الدون فرناندو إذا صادف أحد الفقراء في الشارع مهملاً من الربّ، جاء به إلى المكتب مباشرة... المسكين، قلبه من ذهب. هو كذلك.

- لا تقلقي، فنحن من الزبائن الذين يُعوّل عليهم. - تدخَّل بارغاس.

- فليباركما الربّ. كيف وجدتَ المعجّنات؟

- تستحقّ أن توضع في أنطولوجيا.

وبينما كان بارغاس يثبت لبوري فرحتها بأنّه ذوّاقةٌ محترم، تناهي إلى مسامعهم صوت عرقلة عند مدخل المكتب، متبوعًا بانزلاق مدروس لينتهي بلعنات رنّانة. رفعت بوري عينيها إلى السماء.

- سيستقبلكما المحامي فورًا.

كان لفرناندو برباس مظهر أستاذ في مدرسة عموميّة، يرتدي ثيابا مستعملة. ويختال بربطة عنق كالحة الألوان، من الوارد أنه لا يعقدها منذ أسابيع، بينما كان أسفل حذائه أملس مثل حصى الأنهار. رشيق القامة، عصابيّ الهيئة، وما زال شعره الرماديّ كثيفا رغم تقدّمه في السنّ، وتخندقت عيناه الثاقبتان خلف نظارة من السيلوليد الأسود، كتلك التي راجت قبل الحرب. كان يظهر على أنّه محامٍ برشلونيّ بقدر ما كانت سكرتيرته تبدو مستجدّة في دير رهبنة لا يُسمَح بالخروج منه.

فكّرت أليثيا في أنّ فرناندو بريانس، رغم تواضع المشهد المحيط بحياته المهنيّة، قد حافظ على عنفوان شبابه المستهتر كمثل أولئك الذين لا يشبخون لأنّ أحدًا لم يخبرهم بأن أعمارهم انقضت وينبغي لهم التصّرف بسلوكٍ محترم ومنضبط.

- أخبراني بما عندكما. - دعاهما بريانس.

جلس على زاوية طاولة المكتب ونظر إليهما بمزيج من الفضول والشكّ. قد يكون بريانس ميّالًا لنصرة القضايا الخاسرة، لكنّه لا يبدو غبيًّا على الإطلاق. سبق بارغاس زميلته وأشار إليها.

- سأترك زوجتي تستعرض عليك قضيّتنا، من بعد إذنك، لأنّها هي التي تحكم في البيت.

- كما تفضّل.

- أتريد أن أسجّل الملاحظات، سيّد فرناندو؟ - سألته بوري التي كانت تراقب المشهد من عتبة الباب.

- لا ضرورة لذلك. أولى أن تذهبي لمراقبة الحمّالين الذين أغلقوا الطريق بالعلب فما عاد بقدرة الشاحنة أن تدخل.

أومأت بوري وقد خاب رجاؤها، وغادرت لاستكمال مهمّتها.

- كنتَ تقول؟ - استأنف بريانس - أو زوجتك، التي تحكم البيت...

أثارت تبره المحامي الباردة في نفس أليثيا تساؤلًا عمّا إذا كان غوستابو برسلوه، بائع الكتب الذي التقته في منتدى الفروسيّة، قد نوّه له على زيارةٍ محتملة من جانبها.

- سيدّ بريانس. - بادرت أليثيا - توفّيت عمّة زوجي خايمي منذ فترة وجيزة، وتركت لنا ورثة من مجموعة أعمال فنيّة إضافة إلى مكتبة تحتوي على مجلّدات قيّمة.

- عزائي الشديد. هل تحتاجان إلى إشراف على تنفيذ الوصيّة أو...

- السبب الذي أتي بنا إليك هو أنّنا وجدنا بين المجلدات كتابًا المؤلّف يدعي فكتور ماتايكس. نحن بصدد إحدى حلقات سلسلته الروائيّة الصادرة في برشلونة خلال الثلاثينيّات.

«متاهة الأرواح «. - أكمل بريانس.

- بالضبط. علمنا أنّ حضرتك تمثّل جامعًا للتحف ومهتمًّا بالحصول على أعمال هذا الكاتب، لذا ارتأينا أنّه من الأجدى أن...

- مفهوم. - قال بريانس، مبتعدًا عن زاوية المكتب الخشبيّ ليلتجئ إلى المقعد.

- لعلّكم توصلونا بزبونكم هذا، من بعد إذنكم، أو أن تزوّدونا بعنوانه بحيث يمكننا أن...

نفي بريانس بهزّ رأسه، لنفسه أكثر من تأثّره بكلام أليثيا.

- للأسف، لا أستطيع.

- عفوًا؟

- لا أستطيع تزويدكما بهذه المعلومات، كما لا أستطيع وصلكما بزبوني.

ابتسمت أليثيا ابتسامة استرضاء - وهل لي أن أسألك عن السبب؟

- لأنّني لا أعرفه.

- المعّذرة، لم أفهم.

تمطّط بريانس على مسند المقعد وشبك يديه على صدره ليفرك إبهاميه بعضهما ببعض.

- علاقتي بالزبون تطوّرت عبْر المراسلات حصرًا، من خلال سكرتيرته. لم أره شخصيًّا ولا أعرف اسمه. كما يحدث عادةً مع بعض المولعين بجمع المقتنيات، يفضّلون الحفاظ على هويّتهم مجهولةً.

- حتّى مع محاميهم؟

ابتسم بريانس بفتور ورفع كتفيه.

- إلى أن يحين موعد دفع الفواتير، أليس كذلك؟... - ارتجل بارغاس.

- حسنًا، إن كنتَ تتواصل عبر البريد مع سكرتيرته، فلديك اسم وعنوان تتجّه إليهما على الأقلّ. - افترضت أليثيا.

- إنّه صندوق بريد. لا يمكنني أن أدلّكما عليه، لأسبابٍ تتعلّق بالخصوصيّة، هذا واضح. ولا يمكنني حتى أن أعطيكم اسم السكرتيرة، طالما أنّي لستُ مخوّلًا لتعميم معلوماتٍ عن زبائني لا يريدون هم أنفسُهم أن يجعلوها في متناول الجميع. رسميّات بكلّ بساطة، لكنكما تتفهَّمان واجبي بالتزامها.

- بالتأكيد. ولكن، كيف تستطيع حضرتك الحصول على الكتب أو تدبيرها لزبونك إن كان لا وجود لطريقة تتواصل بها معه مباشرة، التعرض عليه إمكانية شرائها؟

- صدِّقيني يا سيّدة... بالكارثيل؟ إن كان زبوني مهتمًا بالحصول على الكتاب الذي تمتلكينه، سيبادر هو بإخباري عنه. أنا مجرّد وسيط.

تبادل بارغاس وأليثيا النظرات.

- اللعنة. - ارتجل بارغاس - من الواضح انّنا اخطأنا يا عزيزتي. نهض بريانس والتفّ حول المكتب، باسطًا يده بابتسامة وديّة، من الجليّ أنها تعلن عن انتهاء الزيارة.

- يؤسفني أنّني لم أستطع مساعدتكما، وعليَّ أن أعتذر منكما على فداحة الوضع في المكتب. نحن ننتقل إلى مكان آخر، ولم أكن أنتظر مجيء زبائن خلال النهار...

صافحاه فاقتادهما نحو المخرج، بريانس يتقدّم واثبًا بين العراقيل ليفسح لهما المجال.

- اسمحا لي بتقديم نصيحة لا منفعة لي فيها. لو كنت مكانكما الاستعنتُ ببائع كتب قدير يشيع الخبر. فأنا واثق أنّكما ستجدان كثيرًا من المشترين المهتمّين باقتناء كتاب لماتايكس.

- هل من اقتراحات؟

- برسلوه، بقرب الساحة الملكيّة، أو سيمبيري وأبناؤه في شارع سانتا آنا. أو كوستا، في بيك. هذه أفضل الخيارات.

- سنفعل ذلك. شكرًا جزيلًا.

- لا شكر على واجب.

لم تفتح أليثيا فمها حتى وصلا إلى بهو البناية. كان بارغاس يتبعها على مسافة أمان. وعندما بلغا البوّابة، توقّفت أليثيا لتنظر إلى أكوام العلب التي كدّسها الحمَّالون.

- والآن؟ - سألها.

- والآن، سننتظر. - ردّت.

- نتظر ماذا؟

- النقلة التي سيُقدِم عليها بريانس.

قرفصت بجوار إحدى العلب المغلقة، رمت نظرة إلى البهو، وإذ تاكدت من عدم وجود مخاطر، انتزعت إحدى العلامات من على العلبه ووضعتها في جيبها.

- هل يمكن معرفة ما الذي تفعلينه؟ - سألها بارغاس.

خرجت أليثيا إلى الشارع دون أن تردّ. وما إن تبعها بارغاس، فوجئ برؤيتها تدخل إلى الحانة عند الزاوية. وكان ماريانو، الساقي والمطرب صاحب المعجّنات الصباحيّة المدجّج بالممسحة، قد بدا متفاجئًا أكثر من بارغاس عندما وطئت قدم الفتاة في محلّه، وسرعان ما ترك الممسحة إلى الجدار، ولحق بها منتشيًا يفرك يديه بالخرقة المتدليّة من حزامه. تبعهما بارغاس وهو يتأفّف.

- كافيلاتي وكرواسان للآنسة؟ - اقترح ماريانو.

- كأس نبيذ أبيض.

- في هذه الساعة؟

- اعتبارًا من أيّ ساعة تُقدّمون النبيذ الأبيض؟

- لكِ نقدِّمه أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. باناديس من النخب الممتاز؟

أومأت أليثيا. جلس بارغاس على المقعد الطويل المجاور.

- هل تعتقدين حقًّا أن خطتكِ ستنجح؟ - سألها.

- نجرِّب، لن نخسر شيئًا.

عاد مارانو بكأس نبيذ وطبق صغير من الزيتون، تقدمة منه.

- السيّد يرغب في كأس بيرة؟

رفض بارغاس. وراح يتأمّل أليثيا وهي تتذوق النبيذ باستمتاع. ثمّة شيء يضيء النهار في هندسة شفتيها اللتين تلامسان الكأس، وفي جانب عنقها النقيّ الذي ينبض كلّما ارتشفت من السائل. انتبهت إلى تعبير وجهه المفتون فقوَّست حاجبًا.

- ما بك؟

- لا شيء.

رفعت أليثيا الكأس.

- هل تمانع؟

- خلّصني يا ربّ!

وبينما كانت تنتهي من آخر رشفة، مرّ طيف المحامي بريانس مسرعًا أمام الحانة. نظرت أليثيا إلى بارغاس فنظر إليها. تركا بعض النقود على المصطبة، وخرجا من المحلّ دون أن ينبسا ببنت شفة.

(22)

كان معروفًا لدى جهاز الشرطة أنّ بارغاس لا يضاهيه أحدٌ في فنون ملاحقة المواطنين، ومطاردتهم أحيانًا، سواء أكانوا من المشتبه بهم أم لا. وكلّما سألوه عن السرّ قال إنّ الاحتراس ليس أهمّ من علم البصريّات وتطبيق مبادئه. فالمسألة لا تكمن فيما يراه المطارِدُ أو يتكهَّن وقوعه، إنّما في المجال البصريّ المتوفّر لدى الشخص الملاحَق. هذا إضافةً إلى ساقين رشيقتين. فما إن شرعا بملاحقة المحامي بريانس، تحقَّقَ بارغاس أنّ أليثيا ليست متمكّنة من أصول اللعبة فحسب، بل ارتقت بها إلى مستويات عليا لا يستطيع إلاّ أن يبدي تقديره بها. فضلًا عن أنّ معرفتها التآمة بكل زاوية في شبكة الدروب والأزّقة والطرق الفرعيّة التي تشكّل هيكل المدينة القديمة تسمح لها باتّباع مسالك متوازية واللحاق بخطوات بريانس دون أن تلفت انتباهه إلى أنّه بات طريدة.

كانت أليثيا تمشي برشاقة أكبر من اليوم السابق، ما جعل بارغاس يفترض أنّها في الصباح ارتدت المشدّ الذي تحدث بخصوصه المحنِّط.

وكانت حركه خاصرتها مختلفة وبدت قامتها منتصبة أكثر. اقتادته أليثيا داخل تلك الشبكة، واقترحت وقفات معيّنة، وبحثت عن ملاذ في زوايا عمياء، وذلك بالتزامن مع تعقُّب الوجهة التي سيسلكها بريانس قبل أن يفكّر باتخاذها. لاحقاه على مدار ما يقرب من عشرين دقيقة داخل الحبكة المعقّدة من تلك الأروقة والدروب التي تصعد من الميناء إلى وسط المدينة. ولمحاه في أكثر من مرّة يتوقف عند أحد المنعطفات ويلتفت إلى الخلف كي يتأكد من أنّ أحدًا لا يتبعه. خطأه الوحيد أنّه كان ينظر إلى الجهة الخاطئة. شاهداه في النهاية ينعطف إلى شارع كانودا باتجاه لاس رامبلاس ليضيع في الزحام المتماوج في الشارع. وحينذاك توقفت أليثيا بضع لحظات واتكأت إلى ذراع بارغاس - إنه ذاهب إلى المترو. - غمغمت.

اختلطا في موجة الناس التي تشقّ لاس رامبلاس، تفصلهما عنه عشرات الأمتار، حتى وصل المحامي إلى مدخل المترو بجانب نافورة كاناليتاس. هبط السلالم وولج عقدة الأنفاق التي تصبّ في ما يسمّى بـ آبيندا دي لا لوث، جادّة النور.

بل هو طريق الظلمات والبؤساء أكثر من كونه جادّة النور: ذلك الطريق الخارج عن المألوف ذو الطبيعة الشبحيّة، كان قد صمّمه أحد الواهمين الذي تخيَّل برشلونة ما تحت الأرض تضاء بمنظومة مصابيح الغاز، بتكلفة شحيحة. غير أنّ المشروع لم يلامس عتبة المجد المشتهاة. فتحوَّلت جادّة النور إلى دهليز معشوشب تخنقه النسمات العبقة بالكربون والكهرباء اللذين تنفثهما أنفاق المترو، وبات مأوى ومخبأ لأولئك الفارّين من السطح ومن الشمس. عاين بارغاس ذلك المنظر المتجهّم المبنيّ من أعمدةٍ برخام مغشوش، محاذية للبازار الرخيص والمقاهي التي تبدو بأضوائها حُجرة موتى، والتفت نحو أليثيا.

- أهده مدينة مصّاصي الدماء! - سألها.

- شيءٌ من هذا القبيل.

سار بريانس في الممشى الأوسط. وتبعه بارغاس وأليثيا متوارين خلف الأعمدة المتسلسلة المصفوفة على المماشي الجانبيّة. وصل المحامي إلى آخر الجادّة دون إبداء أي اهتمام بأحد من المحلات الواقعة على جانبيه.

- لعلّه يعاني من حساسيّة تجاه الشمس. - افترض بارغاس.

اجتاز شبّاك تذاكر المحطة الحديدية الكاتالانيّة وأكمل سيره نحو منتهى الدهليز الكبير. وهناك اتّضحت وجهته.

كانت سينما جادّة النور سرابًا كئيبا غائصًا في جوف برشلونة الباطنيّة والأجنبيّة. وما زالت أضواؤها العملاقة ودعاياتها القديمة تجذب إلى العروض الصباحيّة كلَّ مخلوقات الأنفاق، والموظفين الذين ألقوا من النوافذ، والطلبة المتغيّبين عن المدرسة، وأردأ القوّادين، حتى ما بعد الحرب بقليل. اقترب بريانس من الشبّاك واشترى تذكرة.

- لا تقولي لي إنّ السيّد المحامي يذهب إلى السينما وقتَ الضحى. - قال بارغاس.

فتح له البوّاب الذي يراقب المدخل، فاجتاز بريانس العتبة تحت السقف الذي يعلن عن برنامج ذلك الأسبوع: عرضان لفيلم «الرجل الثالث» و«الأجنبيّ». ثمّة لافتة مؤطّرة بالأضواء الصغيرة الوامضة تعرض وجه أورسون ويليز الشيطانيّ وابتسامته الملغزة.

- لديه ذوق رفيع على الأقلّ. - ردت أليثيا.

اجتازا الستائر المخمليّة التي توصد المدخل، فاستقبلهما عطر صالة سينمائيّة قديمة ومصائب يصعب الاعتراف بها. كان ضوء المسلاط يقطع غيمة كثيفة فوق القاعة، بدت عالقةً هناك منذ عقود.

وصفوف المقاعد الفارعة تهبط نحو الشاشة، حيث كان هيري لايم المكّار يهرب عبْر شبكة الأنفاق الغرائبيّة للصرف الصحيّ لمدينة فيينا.

وكان من شأن النبرة الشبحيّة التي تتميّز بها تلك الصور أن تذكّر أليثيا بالمشهد الذي قرأته في كتاب فكتور ماتايكس.

- أين هو؟ - سألها بارغاس هامسًا في أذنها.

أشارت أليثيا إلى عمق الصالة. كان بريانس يشغل مقعدًا في الصف الرابع. لم يكن هناك أكثر من ثلاثة أو أربعة مشاهدين في الصالة كلّها. نزلا من الممرّ الجانبيّ المحاذي لسلسلة من المقاعد المتموضعة على الحائط كأنّها في مقطورة المترو. وصلا إلى منتصف الصالة، دخلت أليثيا أحد تلك الصفوف وجلست في الوسط وجلس بارغاس بجانبها.

- هل رأيتِ هذا الفيلم من قبل؟

أومأت بنعم. لقد رأته ست مرات على الأقل، حتى حفظته عن ظهر قلب.

- عمّ يتحدّث؟

- عن البنسلين. اسكت.

اتّضح أن الانتظار كان أقصر ممّا توقّعا. إذ لم ينتهِ الفيلم بعد حتى المحت أليثيا من الخلف طيفًا داكنًا يتقدّم عبْر الممرّ الجانبيّ. وقد بدا بارغاس مسحورًا بالشريط السينمائيّ فنكزته أليثيا بمرفقها. كان المجهول يرتدي بدلة غامقة اللون ويحمل قبّعة بيده. شدّت أليثيا قبضتيها. توقّف الرجل عند الصفّ الذي كان المحامي جالسًا فيه. نظر إلى الشاشة بهدوء وسرعان ما دلف إلى الصفّ الخلفيّ ليجلس على مقعد بزاوية مائلة بالنسبة إلى مقعد بريانس.

- وثبة الحصان. - غمغم بارغاس.

مرتّ دقيقتان ولم يظهر المحامي ايّ دلالة على معرفته بحضور الرجل المجهول، ولا حاول الأخير أن يتواصل معه بأيّ شكل. نظرا بارغاس إلى أليثيا متشكّكًا، ما جعلها تفكّر في أنّ كلّ ما يحدث محض مصادفة. غريبان يدخلان إلى السينما، لا صلة بينهما سوى احتماليّة حسرٍ بالبصر يجعلهما يفضّلان الجلوس في الصفوف الأماميّة. وفجأةً، يندلع دويّ الرصاص الذي سيقضي على حياة الشرير هيري لايم، ليجتاح السينما بأسرها، وفي تلك اللحظة تمامًا انحنى المجهول إلى المقعد الأماميّ، والتفت إليه بريانس قليلًا. حجبت الموسيقى التصويريّة كلامهما، ولم تتمكن أليثيا من فهم شيء سوى أنّ بريانس لفظ جملتين ومرّر قطعة ورقية إلى الرجل المجهول. ثمّ تجاهل بعضهما بعضًا، واستعاد كلٌّ منهما وضعيّته وتابع مشاهدة الفيلم.

- في زماني، كان بوسعنا اعتقالهما باعتبارهما لوطيّين. - قال بارغاس.

- زمانك هو الحقبة الذهبيّة العظمى للعصر الحجريّ الإسبانيّ. - ردّت أليثيا.

وعندما أفاض المسلاطُ الشاشةَ بالمشهد النهائيّ العظيم للفيلم، نهض المجهول. تراجع ببطء حتى الممرّ الجانبيّ، وبينما كانت البطلة الواعية تسير في الدرب الموحش في مقبرة فيينا القديمة، اعتمر الرجلُ القبّعةَ وانساب نحو المخرج. لم يُدلِ أيٌّ من بارغاس وأليثيا بأدنى إشارة للالتفات لرؤيته، لكنّ نظراتهما كانت متركّزةً على ذلك الطيف المنقّط بهالة المسلاط البخاريّة. كانت حواف قبعته تظلّل وجهه، ولكنّها لا تخفي هيكله الغريب، العاجيّ واللامع، الذي يخاله الناظر أشبَه بدمية أزياء. اقشعرّ بدن أليثيا. وانتظر بارغاس حتى يتوارى المجهول خلف الستائر، فانحني نحوها.

- هل رأيتُه أنا فقط، أم إن الرجل يضع قناعًا على وجهه؟

- شيءٌ من هذا النوع. - أكّدت أليثيا - هيّا، قبل أن يهرب...

وفي تلك اللحظة تحديدًا، أضيئت الأنوار في الصالة قبل أن ينهضا، وتلاشت شارة النهاية على الشاشة. نهض بريانس واتجه نحو الممرّ الجانبيّ. كان سيلمحهما ويرى أنّهما جالسان هناك في غضون ثوان.

- والآن؟ - غمغم بارغاس مطأطئ الرأس.

أمسكت أليثيا برقبته وقرّبت وجهه إلى وجهها.

- عانقني. – همست غمرها بارغاس بذراعيه، بقناعة تلميذ في تجربته الأولى. شدّته أليثيا إليها فتواجدا متشابكين في قبلة تجريبيّة مستترة، كتلك التي لا يمكن رؤيتها إلا في الصفوف الخلفيّة

من صالات السينما وفي الردهات المظلمة بعد منتصف الليل، حيث المسافة بين الشفاه تعادل سنتمترًا أو أقلّ. أغمض بارغاس عينيه. وعندما خرج بريانس، دفعته أليثيا برفق.

- إلى العمل!

لمحا ظلّ بريانس، خارج السينما، يبتعد في وسط الممشى نحو الجهة التي جاء منها. لا أثر للرجل المجهول صاحب الوجه شبيه الدمية. لاحظت أليثيا السلالم الصاعدة على بعد عشرين مترًا نحو تقاطع شارع بالميس بشارع بيلايو. سارعا إلى تلك الجهة. وإذّاك دهمتها وخزة ألم في ساقها اليمني فحبست أنفاسها. فأسندها بارغاس بذراعه.

- لم أعد أستطيع أن أمشي بسرعة. - قالت أليثيا - أذهب أنت، هيّا.

انطلق بارغاس صاعدًا بكل سرعته بينما ظلّت متكئة إلى الجدار تستعيد أنفاسها. وعندما طلع إلى ضوء النهار، أطّل على المنظر الواسع الشارع بالميس. نظر حوله حائرًا. لم يكن يعرف المدينة جيّدًا فتشّتت ذهنه. كما انّ زحمة السير في تلك الساعة تتكثّف، وبرشلونة تعرف في موجة من سيّارات وحافلات وترامات. وكان المارّة يتناثرون على الأرصفة تحت ضوء غباريّ يتساقط من الأعلى. وضع بارغاس يده على جبينه احتماءً من وهج الشمس، وتحرَّى التقاطع بعينيه، غير مكترث بدفعات الناس. ظنّ لوهلةٍ أن ألف بدلة سوداء بقبّعةٍ تنتشر في كلّ اتجاه، ولم يعد بوسعة العثور عليه.

خانه هيكل وجهه الفريد. كان المجهول يقطع الشارع ويمشي باتجاه سيارة مركونة عند منعطف شارع برغارا. فحاول بارغاس عبور الزحمة، لولا أنّ جملةً من العربات ومزامير هائجة أجبرته على التراجع إلى الرصيف، في حين كان المجهول يركب السيّارة في الطرف الآخر.

حدّدها بارغاس على أنها مرسيدس بينز، طرازها يعود لخمسة عشر أو عشرين عامًا على الأقلّ. وعندما أضاءت إشارة المرور بالأخضر، بدأت السيارة تبتعد. فركض بارغاس خلفها ليلقي عليها نظرة قبل أن تختفي في نهر زحمة السير. وإذ عاد نحو مدخل المترو، صادف شرطيًّا مدنيًّا ينظر إليه باستياء. فتصوّر بارغاس أنه رآه يعبر الشارعَ والإشارةُ حمراء ثمّ ينطلق للركض بين السيّارات. فأومأ إليه مستسمحًا ورفع يده بإشارة تأسُّف. كانت أليثيا تنتظره على الرصيف والقلق بادٍ على وجهها.

- كيف أنتِ؟ - سألها.

تجاهلت السؤال وهزّت رأسها نافدة الصبر.

- تمكّنتُ من رؤيته يستقلّ سيّارة مرسيدس سوداء. - قال.

- ورقم اللوحة؟

فهزّ رأسه بنعم.

(23)

دخلا للاستراحة في مقهى نوريا، وجلسا إلى طاولة بجانب النافذة. طلبت أليشيا كأس نبيذ أبيض، الكأس الثانية في هذا النهار.

أشعلت سيجارة وهامت بأنظارها إلى الزحام المتجه نزولًا نحو لاس رامبلاس كما لو أنّها تشاهد أكبر حوض أسماك في العالم كلّه. لاحظ بارغاس أنها ترفع الكأس بأصابع مرتجفة وتحملها إلى شفتيها..

- ألديك خطاب تأنيب؟ - سألته أليثيا دون أن تحيد بأبصارها عن النافذة.

- بصحّتكِ.

- لم تقل شيئًا عن الرجل ذي القناع. هل تفكّر بما أفكر فيه؟

رفع كتفيه متشكّكًا.

- التقرير حول عمليّة الاغتيال المزعومة التي تعرَّض لها ڤايس في أكاديميّة الفنون الجميلة، يفيد بوجود رجلٍ محجوب الوجه... - قالت أليثيا.

- قد يكون. - وافق بارغاس - سأجري بعض الاتصالات.

وعندما بقيت وحيدة، فلتت من بين شفتيها تنهيدة ألم، فحملت يدها إلى خاصرتها. درست إمكانيّة تناول نصف حبّة، ثمّ عدلت عن ذلك. لكنّها انتهزت وجود بارغاس على الهاتف في آخر المقهى، فأشارت للنادل بأن يأتيها بكأس نبيذ ثانية ويأخذ معه الأولى التي شربتها برشفة واحدة. وبعد ربع ساعة، عاد بارغاس حاملًا مفكِّرته الصغيرة وعيناه تلمعان، ما يدفع للتكهُّن بوجود مستجدّات.

- حالفنا الحظّ. السيّارة تابعة لشركة متروبارنا ش. ع. م. م. شركة عقاريّة، أو هذا ما يؤكده الفهرس على الأقلّ. مقرّها الرئيس هنا في برشلونة. شارع دي غراثيا، رقم ستة.

- إنّها في الخلف من هنا. أعطني دقيقتين لأستعيد قواي ثم نذهب.

- لِمَ لا تتركين أمرها لي وتذهبين إلى البيت لتستريحي يا أليثيا؟ ثمّ أعود إليكِ وأخبركِ بما اكتشفت.

- هل أنت متأكد؟

- متأكد جدًّا. هيّا.

عندما خرجا إلى لاس رامبلاس، كانت السماء قد صفت وتألّقت باللون الأزرق المشعّ الذي يسحر شتاء برشلونة من حين إلى آخر ليقنع المتهوّرين بأنّ الأمور كلّها على ما يرام.

- إلى البيت مباشرة، ها؟ بلا وقفات تقنيّة، فأنا أعرفكِ جيّدًا. - حذّرها بارغاس.

- تحت أمرك. لا تحلّ القضية بدوني. - قالت أليثيا.

- اطمئنّي.

رأته يتجه نحو ساحة كاتالونيا، وترَيّثت دقيقتين. كانت قد أدركت منذ أعوام بأنّ أعراض الألم والوهن - الشبيهة بما يصيب غادة الكاميليا - كانت تسمح لها بالتلاعب بالسلوك الطيِّع والصبياني لأيّ ذكرٍ يفكر بأنّها تحتاج حمايته وقيادته، ما يعني عمليًّا كل الرجال المسَّجلين بالنفوس. باستثناء ليااندرو مونتالبو الذي علَّمها معظم الحيل من منهاجه الخاصّ، فضلًا عن أنه كان يشمّ أيَ خدعة جديدة تعلَّمتها بمفردها. ما إن تأكدت أنّها تخلصتّ من بارغاس، حتى غيَّرت وجهتها. فالراحة بوسعها أن تنتظر. كانت تحتاج إلى مزيد من الوقت كي تفكّر وتراقب في الخفاء، لاسيّما أنّه كان عليها أن تفعل شيئًا معّينًا بمفردها وعلى طريقتها.

كان مقّر شركه متر وبارتا بقع في الطابق الأخير من كتله سكنّيه حداثيّة فخمة مثل قلعةِ في حلم. مبنيّة من الصخور البنيّة ومكللة بالتيجان والأبراج الشاهقة. كانت معروفة باسم «دار روكامورا»، وتعتبر أنموذجًا خالدًا في فنون صياغة الذهب الحسابيّ، وعملًا ميلودراميًّا آسرًا لا نظير له إلا في شوارع برشلونة. توقّف بارغاس برهةً عند المنعطف يتأمّل مشهد الشرفات والأروقة التي ترقى إلى العمارة البيزنطيّة. ثمّة رسّامٌ على الطريق، كان قد نصب مسند اللوح وألوانه المائيّة هناك. كان ينجز بورتريه للمبنى بأسلوب المدرسة التعبيريّة.

لاحظ وجود بارغاس بالقرب، فتوجه إليه بابتسامة ودودة.

- لوحة جميلة. - قال بارغاس.

- نفعل ما نقدر عليه. مخابرات؟

- هل أنا مكشوفٌ إلى هذه الدرجة؟

استبدل الرسّام ابتسامته بابتسامة مريرة. فأشار بارغاس إلى اللوحة.

- هل هي للبيع؟

- سنكون كذلك بعد أقل من نصف ساعة. هل لديك اهتمام بالمبنى؟

- اهتمامٌ متزايد. هل علينا أن ندفع لندخله؟ - سأله بارغاس.

- لا تجعلهم يقتنعون بهذه الفكرة.

حمله مصعدٌ هاربٌ من أحلام جول فيرن، إلى باب المكتب الذي كان عليه لافتة مذهّبة بمخطوط لافت يقول:

متروبارنا

شركة عقارات محدودة المسؤوليّة

قرع بارغاس الجرس. فانتشرت أصداء الرنين في الهواء، وفُتِح الباب بعد قليل، ليكشف عن وجه سكرتيرة راقية المظهر ترتدي ملابس أكثر من رسميّة، وخلفها مدخلٌ فاخر. بعض المؤسسات تشيع ثراءها مسبقًا على نحو غير متوقّع.

- صباح الخير. - قال بارغاس بنبرة رسميّة بينما كان يبرز وثائقه - بارغاس. القيادة العليا لجهاز الشرطة العامّ. أودّ التحدّث مع المسؤول، من فضلكِ.

تفحصت السكرتيرة مظهره مذهولة. من المحتمل أن نوع الزوار التي اعتادت على استقبالهم في المكتب كان أرفع مكانة.

- هل تقصد السيد سانشيس؟

اكتفى بارغاس بالإيماء وتقدَّم خطوةً إلى البهو الذي كان بمثابة صالةٍ جدرانُها مكسوّة بالمخمل الأزرق، تملؤها اللوحات المائيّة الأشهر أبنية برشلونة وواجهاتها. لجم رجل الأمن ابتسامته عندما حدّد اسلوب الرسّام الذي التقاه عند المنعطف.

- هل لي أن أعرف سبب الزيارة أيّها الضابط؟ - سألت السكرتيرة خلف ظهره.

- نقيب. - صحّح بارغاس دون أن يلتفت.

غرغرت المرأة صوتها، وتنّهدت حين لم تلقَ جوابًا.

- السيّد سانشيس هذه الساعة في اجتماع. إن كنت تريد...

التفت إليها وافترسها بنظرته.

- سأخبره بقدومك حالًا، حضرة النقيب.

أومأ بحماسة ذاوية، في حين انطلقت السكرتيرة بعجالة بحثًا عن دعم معنويّ. عَقِب ذلك تسلسلٌ سريع لهمهمات منخفضة وصفق أبواب تنفتح وتنغلق، وخطوات مستعجلة عبر ممرات المقرّ. ثم عادت في غضون دقيقة واحدة، بابتسامة وديعة هذه المرة، تدعوه ليتبعها.

من فضلكم حضرة النقيب، السيّد المدير سيستقبلكم في قاعه الاجتماعات.

قطع بارغاس ممرًا طويلا على جانبيه مكاتبُ مبهرجةٌ فيها كتائبٌ من المحامين المتأنّقين بالسترة والجيليه وربطة العنق يصرّفون أعمالهم بمهابةٍ يحسدهم عليها كبار الموظفّين. تماثيل، لوحات، سجّادات فاخرة، على امتداد الممّر المفضي إلى قاعة رحبة ومعلّقة عند شرفة زجاجيّة تسمح برؤية كامل شارع دي غراثيا بلمحة عين. طاولة اجتماعات عظيمة تتوسّط عقدة من المقاعد والبلّوريات والقوالب المزركشة من خشب قيِّم.

- سيأتي السيّد سانشيس إليكم خلال ثوانٍ. هل ترغبون في شرب شيء ما في غضون ذلك؟ قهوة؟

رفض بارغاس. فاختفت المرأة ما إن استطاعت وتركته بمفرده.

عاين رجل الأمن المشهد. كانت مكاتب متروبارنا تعبق أو تنبعث منها رائحة المال. وقد يفوق سعرُ السجادة التي تحت قدميه، السجّادة وحدَها، راتبَه على مدى أعوام. دار بارغاس حول

طاولة الاجتماعات يلامس بأصابعه خشب البلّوط المطليّ بالدهن الملمّع، ويتنشَّق عطر الأبّهة والفخفخة. كان السيناريو ولحن المنظر يشيان بنوايا الاضطهاد والاحتكار التي تتبّعها المؤسسات المنشغلة بالخيمياء النقديّة، حيث تُذكَر الزائر بأنّه حتى لو صدّق نفسه بوجوده في الداخل فإنّه في الحقيقة يبقى دومًا في الخارج، على الطرف الآخر من الشُبَّاك الشهير.

كانت القاعة مزيّنة بعدد كبير من لوحات البورتريه من مختلف الأحجام. ومعظمها صورٌ فوتوغرافيّة، إلى جانب بورتريهات زيتيّة وأخرى مرسومة بالفحم، بإمضاء صفوة رسّامي البورتريه المعتبرين والقديرين في العقود الأخيرة. قام بارغاس بجولة سريعة على المجموعة. كان الشخص ذاته يظهر في كلّ اللوحات: رجلُ ذو حسبٍ نسب، فضيّ الشعر محاطٌ بهالة من النبل، ينظر إلى عدسة الكاميرا، أو مسند اللوح، بابتسامة صافية وعينين جامدتين. وكان من الجليّ أنّ بطل تلك الصور أستاذٌ في اختيار الوضعيّة المناسبة وصحبة الأصدقاء.

انحنى بارغاس ليتفحَّص عن قرب إحدى الصور التي يظهر فيها النبيل ذو النظرة الباردة برفقة عدد من الرجال المهمّين في هندام الصيد يبتسمون كأنّهم أصدقاء العمر يتوسطهم الجنرالُ فرانكو وهو في سنّ الشباب. جالت أنظار بارغاس على الوجوه الحاضرة في المشهد وتوقف عند أحد المشاركين في حفلة الصيد. كان واقفًا في الصفّ الثاني ويبتسم متحمَسًا، كأنه يعمل جاهدًا لإثبات وجوده.

- ڤايس -غمغم انفتح باب القاعة خلف ظهره. فالتفت ليجد نفسه أمام رجل في أواسط عمره، هزيل الجسد إلى حدّ الهشاشة، يتخلّل الصلعُ بعضَ شعره الأبيض الناعم حتّى لتحسَبه شعر رضيع. كان يرتدي بدلة من فرو الألباكا لا جدال في مقاسها، وعيناه تختالان بلونٍ رماديٍّ لائقٍ مع لون البدلة، عينان معتدلتان وثاقبتان. ابتسم له المدير ابتسامة ودّية ومد يده بنيّة المصافحة.

- صباح الخير. اسمي إغناثيو سانشيس، المدير العام لهذه الشركة. وفقًا لما أبلغتني به ماريا لويسا، فإنّ حضرتك تودّ التحدث إليّ. المعذرة إن تركتك تنتظر، فنحن مشغولون بتحضير المؤتمر السنويّ لأصحاب الأسهم وغارقون في العمل. كيف يمكنني مساعدتك يا حضرة النقيب؟

كان سانشيس ينضح بمودّةٍ مكتسبة ومهنيّة لا يُعلى عليهما. يرشح الدفء وعلوّ المنزلة من نظراته التي تصنّف هدفها بدقّة فائقة. ولم يكن لدى بارغاس أيُّ شكٍّ في أن سانشيس قبل أن يختتم عبارة الترحيب كان يعرف جيّدًا نوع حذائه وعمر لباسه الرخيص.

- هذا الوجه يبدو لي مألوفًا. قال النقيب مشيرًا إلى إحدى اللوحات الزيتّية التي تزدهي بها القاعة.

- إنه الدون ميغيل أنخل يوباش. - قال سانشيس وابتسم مجاملة الجهل مخاطبه وسذاجته - مؤسّس الشركة.

- صاحب مصرف يوباش؟ - سأله بارغاس - مصرفيُّ البارود؟

توجه سانشيس إليه بابتسامة طفيفة ودبلوماسيّة، لكنّ نظراته فترت.

- لم يرق يوما للدون ميغيل أنخل أن يُنادي بهذا اللقب، لأنّه إن سمحتَ لي - لا ينصف الرجل.

- سمعت من يقول إنّ الجنرال الأكبر بذاته هو الذي أمدَّه بهذا اللقب شخصيًا، لقاء خدماته التي قدَّمها. - ارتجل بارغاس.

- أخشى أن تكون مخطئًا يا سيّدي. - صحّح له سانشيس - فهذا اللقب تلفيقةٌ من الصحافة الحمراء إبّان الحرب. إذ ساهم مصرف يوباش، يدًا بيد مؤسسات أخرى، بتمويل حملة التحرير القوميّ. رجلٌ عظيم، وإسبانيا تدين له بالكثير.

- وقد حصل على مكاسب بلا شكّ... - غمغم بارغاس.

تجاهل سانشيس تلك الكلمات الأخيرة دون أن يفقد أي ذرّة من ودّيّته.

- وما علاقة الدون ميغيل بهذه الشركة؟ - سأل بارغاس.

غرغر سانشيس صوته واتخذ تعبيرًا صبورًا وتعليميًا.

- بوفاة الدون ميغيل أنخل، عام 1948، تقسّم المصرف إلى ثلاث شركات. كان إحداها «مصرف التسليف العقاريّ في كاتالونيا»، الذي استحوذ عليه مصرف هسبانو - أمريكانا للإقراض. فأسَّست شركة متروبارنا آنذاك لإدارة شؤون المصرف العقاريّة.

لفظ سانشيس تلك الكلمات بطريقةٍ توحي بأنّه تفوَّه بها مرات كثيرة، بخبرة وسأم المرشد السياحّي الذي يسرد كنور المتحف على مجموعة من السيّاح وهو ينظر إلى ساعة يده بين الفينة والأخرى.

- لكنّي متأكد من أنّ تاريخ الشركة ليس موضوعًا على درجةٍ من الأهميّة بالنسبة إليك. - اختتم كلامه - كيف يمكنني مساعدتك حضرة النقيب؟

- هناك شأنُ ثانويّ، وقد يكون بلا أهميّة يا سيّد سانشيس، لكنّك تعلم التسيير الروتينّي في هذه المسائل. علينا أن نتحقّق من كلّ شيء.

- بطبيعة الحال. تفضّل.

أخرج بارغاس مفكِّرته وتظاهر بمعاينته بعض السطور.

- هل تؤكِّدون حضرتكم أنّ السيارة ذات الرقم B74325 تابعة الشركة مترو بارنا؟

نظر إليه سانشيس مرتابًا.

- لا أدري بصراحة... عليَّ أن أسأل...

- أتصوّر أن للشركة أسطولًا من السيّارات. أم إنّي مخطئ؟

- لا. هو كذلك حقًا. لدينا أربع أو خمس سيّارات، إذا...

- إحداها مرسيدس - بينز؟ سوداء؟ طرازها يعود إلى خمسة عشر أو عشرين عامًا مضت؟

عبر ظل اضطراب وجهَ سانشيس.

- أجل... إنّها السيّارة التي يقودها فالنتين. هل حدث شيء؟

- اسمه فالنتين، قلتَ حضرتك؟

- فالنتين مورغاذو، سائقٌ يعمل لمصلحة هذه الشركة.

- سائقك الشخصيّ؟

- أجل. منذ عدّة أعوام... هل يمكنني أن أسألك عن...؟

- هل السيّد مورغانو موجود هذه الساعة في المكتب؟

- لا اعتقد. كان عليه إيصال فكتوريا إلى الطبيب في الباكر من صباح اليوم...

- فكتوريا؟

- زوجتي.

- وكنية السيّدة زوجتك...؟

- يوباش. فكتوريا بوباش.

قوَّسَ بارغاس حاجبيه متعجِّبًا. فأومأ سانشيس مغتاظًا بعض الشيء.

- ابنة الدون ميغيل أنخل، نعم.

غمز النقيب له بعين، ملمِّحًا لإعجابه بهذه الضربة الموفّقة التي حملته إلى قمّة المؤسسة.

- حضرة النقيب، هلّا أخبرتني ما الموضوع...

ابتسم بارغاس بودّ واسترخاء.

- كما قلت لك، لا شيء على درجة من الأهميّة. نحن نحقّق بتفاصيل حادثة دهس وقعت هذا الصباح في شارع بالميس. وقد فرّ سائق العربة المشتبه بها. اطمئن، ليست سيّارتكم. ولكن، كان هناك شاهدان أفادا برؤيتهما لسيّارةٍ تنطبق عليها مواصفات المرسيدس بينز ورقم لوحتها، مركونة عند التقاطع بالضبط. السيّارة التي يقودها...

- فالنتين.

- تمامًا. في الواقع، أعرب كلا الشاهدين أنّه في اللحظة التي وقعت فيها الحادثة كان سائق المرسيدس داخل السيّارة. ومن هنا جاء اهتمامنا به، لنفهم إن كان قد استطاع رؤية شيء يساعدنا في تحديد هويّة السائق الذي لاذ بالفرار...

أعرب سانشيس عن تأسُّفه إزاء هذه الحكاية، على الرغم من أنه تنفَّسَ الصعداء بِشكل واضح من انّ سيّارته وسائقه ليسا متورّطين في الحادثة.

- فظيع. هل وقع ضحايا؟

- ضحيّة واحدة، مع الأسف. سيّدةٌ عجوز، نُقِلَتُ إلى مستشفى كلينيكو، لكنها فارقت الحياة قبل وصولها.

- يؤسفني جدًّا. بطبيعة الحال، أنا على استعداد لتقديم أيّ مساعدة...

- يكفيني أن تتواصل مع موظّفكم فالنتين.

- بالتأكيد، طبعًا.

- هل لديك علم إذا كان السيد مورغاذو قد أوصل زوجتك إلى مكان آخر بعد الزيارة إلى الطبيب هذا الصباح؟

- لست متأكدًا. لا أعتقد. قالت لي فكتوريا البارحة إنها ستستقبل ضيوفًا في البيت عند منتصف نهار اليوم... من الممكن أنّ فالنتين كان خارجًا في مهمّة ما. أحيانًا يُسلّم وثائق أو مراسلات المكتب إن كانت زوجتي أو أنا لا نحتاج إليه.

أخرج بارغاس بطاقة وأعطاها للمدير.

- من فضلك، هلّا أخبرتَ السيّد مورغاذر أن يتواصل معي حالما يتمكّن من ذلك؟

- اطمئنّ. سأعطي الأوامر حالًا بتحديد موقعه وإبلاغه بذلك.

- من المحتمل أنّه لن يستطيع مساعدتنا، ولكن علينا أن نستكمل الإجراءات.

- بالتأكيد.

- شيء آخر. هل للسيّد مورغاذو علامات جسدية فارقة؟

أكّد سانشيس بهزّ رأسه.

- نعم، لقد أصيب فالنتين خلال الحرب. وتشوّه جزءٌ من وجهه جرّاء قذيفة هاون.

- هل يعمل لمصلحتكم منذ سنوات طويلة؟

- عشر سنوات. كان في الأساس يعمل عند عائلة زوجتي، وهو رجلنا الموثوق. أستطيع أن أضمنه.

- أحد الشاهدين أفاد عن شيء ما بخصوص قناعٍ يغطّي جزءًا من وجهه، هل هذا صحيح؟ أردتُ فقط أن أتأكد من أنّنا بصدد الشخص ذاته.

- هو كذلك. فالنتين يضع ترقيعة تغطّي فكّه السفليّ وعينه اليسرى.

- لن أهدر مزيدًا من وقتكم يا سيّد سانشيس. شكرًا جزيلًا على مساعدتك. ومتأسفٌ لأنّي قطعتُ عليكم اجتماعكم.

- لا يهمّ. على الرحب. واجبٌ مشرِّفٌ لكلّ إسبانيٍّ أن يتعاون مع قوى أمن الدولة.

رافقه سانشيس إلى المخرج عبر الممرّ، فتوقّفَ بارغاس عند بابٍ خشبيّ مُطعَّمٍ مفتوح على مكتبة فخمة تشرف على شارع دي غراثيا.

أطلّ برأسه إلى الداخل. كانت المكتبة تشغل مساحةً كبيرة كأنّها في قصر الفرساي، تمتدّ على جزء البناية الجانبيّ بأكمله. وكانت أرضها وسقفها مرصّعين بالخشب المصقول والبرّاق حتّى تخالهما مرآتين متواجهتين تتضاعف ما بينهما أعمدة الكتب إلى ما لانهاية.

- مذهل. - هتف بارغاس - هل حضرتك جامعٌ للكتب؟

- متواضع. - أجاب سانشيس - معظم هذه الكتب آتية من مؤسسة يوباش. لكنّي أقرّ بضعفي أمام الكتب، فهي ملاذي الوحيد من عالم الأموال.

- أفهمك جيّدًا. أنا، في حدودي الضيّقة، أفعل الشيء ذاته. - ارتجل بارغاس - اهتمّ بالبحث عن الكتب النادرة واقتنائها. زوجتي تقول إنّ هذا تشوُّهٌ مهنيّ.

أومأ سانشيس محافظًا على تعبيره الودود والصبور، مع أنّ عينيه كانتا تشيان بنفاد طاقته، ورغبته في التخلّص العاجل من النقيب.

- هل لدى حضرتك اهتمامٌ بالكتب النادرة يا سيّد سانشيس؟

- قسمٌ كبير من هذه المجموعة مكوّنٌ من كتب تنحدر من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كتب إسبانيّة، فرنسيّة، إيطاليّة، ولدينا مختارات ممتازة من الأدب والفلسفة الألمانيّة والشعر الإنكليزيّ. - فسّر قائلًا - أعتقد أنّ هذا يُعدُّ نادرًا في أوساط معيّنة.

أمسك ساشيس بذراعه بطريقة رهيفة لكنّها حازمة، واقتاده من جديد إلى الممرّ باتجاه المخرج.

- أحسدك يا سيّد سانشيس. فإذا كنتَ ميسور الحال... أمّا أنا فإمكاناتي محدودة وعليَّ أن أرتضي بالقطع المتواضعة.

- لا توجد كتبٌ متواضعة، حضرة النقيب، إنّما جهلاء متغطرسون.

- بطبيعة الحال. لقد قلت الشيء نفسه لبائع كتب قديمة كان يبحث لي عن سلسلة روايات لكاتبٍ منسيّ. لعلّ اسمه يذكّرك بشيء.

ماتايكس. فكتور ماتايكس.

حافظ سانشيس على نظرته المنيعة وهزّ رأسه نافيًا.

- يؤسفني، لم أسمع باسمه من قبل.

- هذا ما يقوله الجميع. يكرّس المرء حياته كلّها للكتابة ثمّ لا يذكر أحدٌ أيًّا من كلماته...

- الأدب عاشقة ظالمة تَنْسى بسهولة. - قال سانشيس وهو يفتح الباب إلى المستراح.

- مثل العدالة. لحسن الحظّ ما زال هناك من هو مثلك ومثلي مستعدٌّ لإنعاش ذاكرة كلينا...

- هذه هي الحياة، تنسانا جميعًا قبل الأوان. والآن، إن لم يعد هناك ما أفعله لأجلكم...

- لا. شكرًا جزيلًا على المساعدة مرّةً أخرى يا سيّد سانشيس.

(24)

عندما خرج من المبنى، رأى بارغاس رسّام اللوحات المائيّة. كان يجمع عدّته ويشعل غليونًا كأنّه لبحّارٍ عجوز.

- هاء، المحقّق ميغريه. - حيّاه الفنّان.

- اسمي بارغاس.

- دالماو. - عرَّفَ عن نفسه.

- ها يا معلّم دالماو؟ هل أنهيت العمل الفنيّ؟

- الأعمال الفنيّة لا تنتهي أبدًا. إنّما الحيلة تكمن في معرفة النقطة التي ينبغي أن نترك العمل الفنيّ عندها معلَّقًا.

رفع الفنّان الغطاء عن اللوح وأراه اللوحة.

- تبدو اللوحة خارجة من حلم. - قال بارغاس.

- الحلم لك مقابل خمسين بيسيتا، إضافة إلى الإرادة.

أخرج النقيب محفظته. فلمعت عينا الفنّان مثل الجمرة في غليونه. أعطاه ورقة نقديّة بقيمة مئة بيسيتا.

- هذا كثير.

هزّ بارغاس رأسه.

- اعتبرني نصير الفنّانين، نصيرك لهذا اليوم.

لفّ الرسّام لوحته بالورق الغليظ وربطها بحبل.

- هل يعينك هذا العمل على العيش؟ - سأله بارغاس.

- لقد كبّدتنا البطاقات البريديّة خسائر كبرى، ولكن ما زال لبعض الناس ذوقٌ رفيع.

- مثل السيّد سانشيس؟

قوَّس الفنّان حاجبه ونظر إليه بارتياب.

- كنت متيقّنًا من أنّ هذه القصّة تخفي ما وراءها. ستورّطني في مشاكل كبيرة الآن.

- هل سانشيس زبونك منذ مدّة طويلة؟

- منذ أعوام.

- هل بعتَ له لوحات كثيرة؟

- بما فيه الكفاية.
- هل يروق له أسلوبك إلى هذا الحدّ؟
- يشتريها مني تعاطفًا، على ما أعتقد. إنّه رجلٌ كريم جدًّا، بالنسبة إلى كونه مصرفيًّا على الأقلّ.
- لعلّ ضميره يعذِّبه.
- ليس الوحيد. ففي هذا البلد، لدينا فائضٌ من هؤلاء لدرجة أنّنا نستطيع بيعهم.
- لا تذكِّرني، أرجوك.
هزّ دالماو رأسه قليلًا وطوي مسند اللوح.
- هل ستنصرف بهذه السرعة؟ ظننت أنّك ستروي لي شيئًا عن السيّد سانشيس.
- اسمع، إن أردتَ أرجعتُ إليك نقودك. واحتفظ باللوحة أيضًا.
ضعها في مكان ما من المخفر.
- النقود لك، لقد كسبتَها.
تردّد الرسّام.
- ما الذي تريده من سانشيس؟ - سأل.
- لا شيء. مجرّد فضول.
- لقد قال العبارة ذاتها رجل مباحث آخر. جميعكم متشابهون.
- رجل مباحث آخر؟
- حقًّا. تظاهرْ بأنّك لا تعرف أيّ شيء.
- هل بإمكانك أن تصف لي زميلي؟ فربّما أعطيتك نقودًا أخرى إن ساعدتني.
- لا يوجد الكثير لوصفه. ثور، مثل حضرتك. علمًا بأنّ وجه ذلك الثور كان مشقوقًا.
- هل أخبرك عن اسمه؟
- لم نصبح على هذه الدرجة من الصداقة.
- متى حدث ذلك؟
- منذ أسبوعين أو ثلاثة.
- هنا؟
- أجل، هنا. في مكتبي. هل يمكنني الانصراف الآن؟
- لا داعي للتخوُّف منّي يا معلّم.

- لست خائفًا منك. فأنا أعرفكم عن ظهر قلب. لكنّي أفضّل أن أستنشق هواء آخر، إن لم يكن لديك مانع.

- هل كنتَ هناك؟

ضحك الرسّام بصوت خافت متهكّم.

- سجن موديلو؟

- مونتويك. من عام 1939 ولغاية 1943. لا يمكنكم أن تفعلوا بي أكثر ممّا فعلتموه.

أخرج بارغاس محفظته ثانيةً، مستعدًّا لدفعة أخرى، لكنّ الرسّام رفض. أمسك بالنقود التي أخذها منه قبل قليل وتركها تسقط على الأرض. ثمّ رفع مسنده المطويّ وحمل حقيبة الألوان الصغيرة، وابتعد وهو يعرج. نظر إليه النقيب يغيب على امتداد شارع دي غراثيا. فانحنى ليجمع النقود من الأرض واستأنف سيره بالاتجاه المعاكس متأبّطًا اللوحة.

دنا إغناثيو سانشيس من نافذة قاعة الاجتماعات، ولاحظ أنّ النقيب يتحدّث مع الرسّام في الأسفل عند الزاوية. وبعد دقيقتين، ابتعد بارغاس باتجاه ساحة كاتالونيا حاملًا ما يبدو أنّها لوحة اشتراها. انتظر سانشيس أن يغيب الرجل بين الزحام، ثمّ خرج إلى الممرّ ومنه إلى مكتب الاستقبال.

- سأخرج عدّة دقائق يا ماريا لويسا. إذا اتّصل لوركا من مكتب مدريد، حوّليه إلى خوانخو.

- حاضر، سيّد سانشيس.

لم ينتظر المصعد. هبط السلالم على قدميه، وعندما خرج إلى الشارع لفحته نسمةٌ جعلته يشعر بأنّ جبينه يتعرّق. دخل إلى المقهى المجاور لإذاعة برشلونة، في شارع كاسبي، وطلب فنجان قهوة بالحليب. وبينما كانوا يعدّونها له، اقترب من الهاتف العموميّ في آخر الصالة وألّف رقمًا يحفظه عن ظهر قلب.

- بريانس. - أجاب الصوت من الطرف الآخر للخطّ.

- لقد جاء إليّ نقيبٌ في الأمن يدعى بارغاس منذ قليل.

ساد صمت طويل.

- هل تتصل بي من هاتف المكتب؟ - سأله بريانس.

- طبعًا لا. - أجاب سانشيس.

- لقد جاءوا إلى مكتبي هذا الصباح أيضًا. هو ومعه شابّة. قالا إنّ لديهما كتابًا لماتايكس ويودّان بيعه.

- هل تعلم من هما؟

- هو يعمل في الأمن بكلّ وضوح. أمّا هي، فلم تعجبني البتّة. ما إن غادرا فعلتُ ما أخبرتني بفعله. اتصلتُ بالرقم الذي أعطيته لي وأغلقتُ السمّاعة مباشرة لإبلاغ مورغاذو بأن نلتقي في المكان

المعتاد. وقد تلاقينا منذ أقلّ من ساعة. ظننت أنّه أخبرك.

- لقد حدث عائق ما. توجَّبَ على مورغاذو أن يعود إلى البيت.

- قال سانشيس.

- عمّ سألك النقيب؟

- كان يسأل عن مورغاذو. لا أدري، بخصوص حادث مرور سخيفة. لا بدّ أنّهما لحقا بك.

سمع سانشيس المحاميَ يتنهّد.

- هل تعتقد أنّ لديهما اللائحة؟

- لا أدري. ولكن لا ينبغي أن نعرِّض أنفسنا للخطر.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ - سأله بريانس.

- لا لقاء مع مورغاذو ولا اتّصال حتّى إشعار آخر. وإن كان ثمّة ضرورة، سأتواصل معك بنفسي. عد إلى المكتب وتصرَّفْ كأنّ شيئًا لم يحدث. - أمره سانشيس - وأنصحك بالابتعاد عن المدينة قليلًا.

أغلق المصرفيُّ السمّاعةَ. واتجه إلى الباب مباشرة، شاحب الوجه.

- يا سيّد. فنجان قهوتك. - قال له النادل.

فنظر إليه سانشيس كأنّه لا يعرف ما الذي يفعله هناك، وخرج.

(25)

لقد رأى ماوريسيو ڤايس كثيرًا من الناس يموتون إيمانًا بوجود عالم آخر. يُبعَثُ من مطهر المضادات الحيويّة والمسكّنات والكوابيس بلا أمل. يفتح عينيه على بؤس زنزانته ويشعر أنّ الثياب التي يرتديها قد اختفت. إنّه عارٍ وملفوفٌ بغطاء. يحمل إلى وجهه اليد التي كانت، ويكتشف أنّها مبتورة ومكويّةً بالزفت. يحدّق إليها طويلًا، كما لو أنّه يودّ معرفة صاحب هذا الجسد الذي أفاق فيه. تعود إليه الذاكرة شيئًا فشيئًا، تقطر صورًا وأصواتًا. فيتذكّر كلّ شيء ما عدا الألم. في النهاية، ربّما يكون هناك إلهٌ رحيم - يقول لنفسه.

- ما الذي يضحكك؟ - يسأله الصوت.

المرأة، التي ظنّها في هذيانه ملاكًا، تراقبه من خلف القضبان.

ليس في نظراتها أيّ شفقة أو عاطفة.

- لماذا لم تتركوني أموت؟

- لأنّ الموت يصبّ في مصلحتك.

يهزّ رأسه. لا يعلم جيّدًا مع من يتحدّث، حتى لو أنّ في تلك المرأة شيئًا يوحي إليه بأنّه مألوف إلى حدٍّ كبير.

- أين مارتين؟ لِمَ لا يأتي؟

تنظر إليه المرأة بما يشبه الاحتقار المعرَّق بالحزن.

- دافيد مارتين ينتظرك.

- أين؟

- في الجحيم.

- لا أؤمن بالجحيم.

- صبرًا. ستؤمن بالجحيم.

تنسحب المرأة إلى الظلّ وتهمّ بصعود السلّم.

- انتظري. لا تذهبي. أرجوكِ.

تتوقّف.

- لا تذهبي. لا تتركيني وحيدًا هنا من جديد.

- لديك ثيابٌ نظيفة هناك. ارتدها. - تقول له قبل أن تغيب صاعدةً السلّم.

يسمع ڤايس صوت بابٍ ينغلق. يعثر على الثياب في حقيبة، في إحدى زوايا الزنزانة. ثيابٌ قديمة، أكبر من مقاسه، لكنّها نظيفة نوعًا ما مع أنّها تفوح برائحة الغبار. ينزع عنه الغطاء ويدقّق في جسمه العاري تحت الظلام. بإمكانه أن يرى عظامه وأوتاره تحت الجلد حيث كان هناك في السابق شحومٌ بارتفاع إصبع. يلبس. ليس من السهل أن يلبس المرء بيد واحدة، أو أن يعقد أزرار البنطلون أو القميص بخمس أصابع. غير أنّه يمتنُّ لوجود الجورب والحذاء اللذين سيقيان قدميه البرد. ثمّة شيءٌ آخر في عمق الحقيبة. كتاب. يعرفه مباشرة من جلده الأسود ودمغة السلّم اللولبيّ المنقوشة باللون القرمزيّ على الغلاف.

يضع الكتاب في حضنه ويفتحه:

El Laberinto de los Espíritus III
Ariadna y el Teatro de las Sombras

Texto e ilustraciones de Víctor Mataix

متاهة الأرواح III
أريادنا ومسرح الظلال
النصّ والرسوم لِ فيكتور ماتايكس

متاهة الأرواح III

أريادنا ومسرح الظلال

النصّ والرسوم لِ فيكتور ماتايكس

يتصفّح الكتاب ويتوقّف عند الرسمة الأولى. يرى فيها هيكل مسرح قديم ومنهار، وعلى خشبته طفلة ترتدي ثيابًا بيضاء ونظراتها محطّمة. عرفها حتى تحت ضوء الشمعة.

- أريادنا... - غمغم.

يغمض عينيه ويتشبّث بقضبان الزنزانة بيدٍ واحدة.

ربّما للجحيم وجودٌ بالفعل.

(26)

كانت الشمس المخمليّة تصبغ الطرقات البريئة. وكانت أليثيا تتمشّى في الزحام المتجه إلى وسط المدينة وهي تستحضر مشهدًا قرأته في الصفحات الأخيرة من «أريادنا والأمير القرمزيّ»: أريادنا تصادف بائعًا متجوّلًا يبيع الأقنعة والأزهار الذابلة عند أعتاب مدينة الموتى، أكبر مقابر الجنوب. وقد جاء بها إلى هناك ترامٌ شبحيٌّ بلا سائق أو تذاكر، وعلى أحد جانبيه لافتة مكتوبٌ عليها:

القدر

البائع أعمى، لكنّه شعر بدنوّ أريادنا منه، فسألها إن كانت تريد شراء قناع. فالأقنعة التي يبيعها على عربته - شرح لها - مصنوعة من بقايا الأرواح الملعونة التي تسكن المقبرة ومفيدة في الاحتيال على القدر والبقاء على قيد الحياة، ربّما ليومٍ إضافيّ. تعترف له أريادنا بأنّها لا تعرف قدرها وأنّها متيقّنة من إضاعته عندما سقطت في برشلونة الشبحيّة التي يهيمن عليها الأمير القرمزيّ. فيبتسم بائع الأقنعة ويجيب بهذه الكلمات:

معظمنا، نحن البشر الفانين، لا نتوصّل إلى معرفة قدرنا الحقيقيّ؛ لأنّه بكلّ بساطة يدهسنا. وعندما نرفع رأسنا ونراه مبتعدًا على امتداد الطريق، يفوت الأوان، فنضطرّ إلى متابعة ما تبقّى من الرحلة على شفير ما يسمِّيه الحالمون «النضج». وما الأمل إلّا الإيمان بأنّ تلك اللحظة الفارقة لم تحن بعد، وأنّه ما يزال في وسعنا أن نرى قدرنا الحقيقيّ وهو يقترب وأن نقفز على متنه لاغتنام الفرصة في أن نكون ما نريد قبل أن تتلاشى إلى الأبد فيُحكَمَ علينا بحياةٍ فارغةٍ، نتحسُّر فيها على ما كان ينبغي أن يكون ولم يكن.

كانت أليثيا تتذكّر تلك الكلمات كما لو أنّها محفورة على جلدها. لا شيء يفاجئنا ويرعبنا أكثر ممّا نعرفه مسبقًا. في منتصف ذلك النهار، إذ أسندت يدها إلى باب مكتبة سيمبيري وأبناؤه القديمة، راودها انطباعٌ بأنّ تلك الحياة التي ينبغي أن تعاش كانت تلامسها فتساءلت إن كان قد فات الأوان أم ليس بعد.

وعند دخولها استقبلها رنينُ الجرس، وعطرُ الكتب الفوّاح من آلاف الصفحات التي تنتظر فرصتها، والضياءُ الغائم الذي تُنسَجُ بسحره الأحلامُ. كان كلّ شيء على حاله كما تذكره، بدءًا بلانهائيّة الرفوف الخشبيّة الباهتة وحتّى ذرّة الغبار الأخيرة العالقة في حُزَمِ النور المتسرّب من الواجهة. كلّ شيء، ما عداها هي.

ولجت إلى تلك الغرفة كما لو أنّها عائدةٌ إلى ذكرى مفقودة. وقالت في سرّها لوهلةٍ إنّ هذا المكان كان له أن يحتضن قدرها لولا أنّ الحرب انتزعت منها كلّ ما كانت تملكه، وأذّلتها وأهملتها في شوارع أرض ملعونة. حربٌ كانت قد وضعت أوزارها لتصنع منها دمية بين مئات العرائس التي تدار بالحبال، تؤدّي دورًا لم تعد تستطيع منه هروبًا. أدركت أنّ ذلك الإيهام الذي أوقد جمرات حدسها بين الحيطان الأربعة لمكتبة سيمبيري وأبناؤه كان هو الحياة التي سرقوها منها.

أيقظتها نظراتُ طفلٍ من سكرة خيالاتها. لا يبدو أنّه تعدَّى ربيعه الثاني أو الثالث. وكان في قفص اللعب الخشبيّ الأبيض بجوار المصطبة. نهض الطفل، ذو لفيفة الشعر الأشقر الناعم واللامع كأنّه من صُنع صائغ ذهب، وتشبّث بحافة القفص، وأمعن في النظر إليها بتركيزٍ يدرسها كما لو كانت أنموذجًا غرائبيًّا. فانصاعت أليثيا لإحدى ابتسامات الصداقة التي ترتسم على شفاه المرء دون حتى أن ينتبه. وبدا أنّ الطفل يقيِّم ذلك التعبير وهو يلاعب تمساحًا مطّاطيًّا. وبعد، قام بإطلاق الصاروخ ببراعة القوّات الجويّة وبهلوانيّتها، على مسار مجازيًّ ليهبط عند قدميها. فانحنت لتحمل التمساح وسمعت حينذاك صوتها.

- خوليان! حبًّا بالله! لا سبيل إلى تهدئ....

سمعت أليثيا خطواتها تدور حول المصطبة، ثمّ نهضت لتجدها قبالتها. بياتريز. بدت جميلةً من مسافة قريبة كما وصفتها تقارير الأغبياء والفضوليّين الذين - كما هو متوقّع - لم يتمكّنوا من الحديث عنها أكثر من ذلك. كانت مرصّعةً بتلك الأنوثة السعيدة والمستعجلة لمن أصبحت أمًّا قبل أن تتمّ أعوامها العشرين، لكنّ نظراتها كانت لامرأة أكبر من سنّها ضِعفًا، ثاقبة ومتحرّية. ليس بمقدور أحدٍ أن يفهم امرأةً إلّا امرأة. وفي تلك اللحظة الوجيزة التي سلّمتها أليثيا تمساح الصغير خوليان، فتلامست الأيدي وتقاطعت العيون، شعرت كلٌّ منهما بأنّها أمام ما يشبه المرآة العابرة للزمن.

دقّقت أليثيا في ذلك المخلوق وقالت في سرّها إنّها في حياة أخرى كان سيليق بها جدًّا أن تكون تلك المرأة الصغيرة ذات الملامح الصافية والملائكيّة التي لا بدّ وأنّها ألَّبت رغبات وتطلّعات مَن في الجوار، الصورة الحيّة للزوجة الكاملة التي توضع على دعايات الموضة. ومن جهتها، دقّقت بياتريز - التي حبلت بلا دنس - بوجه تلك المجهولة التي بدت انعكاسًا غامضًا لذاتها، بيا التي لم تكن لتستطيع أو تجرأ أن تكون.

- المعذرة من الطفل. - ارتجلت بيا - يبذل قصارى جهده كي يعجب الآخرون بالتماسيح قدر ما يعجبونه. لم يعجبه الجراء أو الدببة الصغار، مثل الأطفال الآخرين، لا...

- مؤشّرٌ على ذائقة جيّدة. - قالت أليثيا - فالأطفال الآخرون مبتذلون جميعهم، أليس كذلك؟

هزّ الطفل رأسه مرارًا، كما لو أنّه عثر أخيرًا على روحٍ لها معنى في هذا الكون. قطّبت بياتريز حاجبيها. كانت تقاسيم تلك المرأة تذكّرها بالساحرات المرسومات بالخطوط وشرّيرات الحكايات المبرزات بأسلوبٍ رفيع، اللواتي لطالما أعجبن خوليان. ولا بدّ أنّ ابنها فكّر في الشيء نفسه، لأنّه مدّ يديه نحوها كأنّه يرغب في أن تحمله بين ذراعيها.

- يبدو كأنّه حصل على كنز. - قالت بيا - ولا تظنّي أنّ خوليان يستميله أيّ أحد...

نظرت أليثيا إلى الطفل. لم يحدث مطلقًا أن حملت طفلًا صغيرًا بين ذراعيها. ولم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفيّة القيام بذلك. وقد أحسَّت بيا بارتباك المرأة فحملت خوليان بين يديها.

- أليس لديكِ أطفال؟ - سألتها.

نفت الزائرة برأسها.

من الوارد أنّكِ تلتهمينهم - فكّرت بياتريز بفورة لؤم. وما لبث خوليان يرنو إليها مذهولًا.

- خوليان، اسمه؟

- أجل.

دنت أليثيا من الطفل وانخفضت بحيث تصبح نظراتهما على المستوى نفسه. فابتسم مسحورًا. وإذ فوجئت بياتريز بردّة فعل ابنها، سمحت له بمدّ يده نحو وجه تلك المرأة. فداعب خوليان وجنتها وشفتيها. وفي غضون ذلك التواصل، ظنّت بيا أنّها لمحت في عيونها دموعًا، أو لعلّه انعكاس ضوء منتصف النهار. تنحّت المرأة بسرعة والتفتت.

كانت ترتدي ثيابًا راقية، وباهظة الثمن وفقًا لما استطاعت بيا أن تفهمه. هو نوع الملابس الذي كانت تقف أحيانًا لمشاهدته على واجهات المحلات الاستثنائيّة في برشلونة ثمّ تمضي وشأنها لتحلم بعينين مفتوحتين. وكان جسمها مسنونًا يتحرّك بأسلوب مسرحيّ.

شفتاها مرسومتان بلونٍ فاقعٍ لدرجة أنّها لا تجرؤ على التفاخر به على الملأ ولم تضعه إلا في مناسبات نادرة، من أجل دانيال فقط، عندما كان يبهرها بنبيذ الموسكاتيل ويطلب منها أن تقوم بما يسمِّيه «استعراض».

- يعجبني حذاؤكِ جدًّا. - قالت بيا.

التفتت المرأة ثانيةً وابتسمت لها مبرزةً أسنانها بين أحمر الشفاه.

وكان خوليان يحاول أن يصفّق، مشيرًا بكلّ وضوح أنّه كان معجبًا بكلّ شيء، من الحذاء ذي السعر الخارق وحتى العينين اللتين تُجريان تنويمًا مغناطيسيًّا كعيون الأفاعي.

- هل تبحثين عن شيء معيّن، حضرتكِ؟

- حسنًا، لا أدري. اضطررتُ إلى ترك كتبي كلّها تقريبًا عندما انتقلتُ والآن، بالعودة إلى برشلونة، أشعر بأنّي غريبة.

- هل حضرتكِ من هنا؟

- أجل، لكنّي أقمتُ في الخارج عدّة أعوام.

- في باريس؟

- باريس؟ لا.

- ظننتُ ذلك نظرًا إلى الثياب. والمظهر. تشبهين الباريسيّات.

تبادلت أليثيا نظرةً وخوليان الصغير، الذي ما زال مفتونًا بها ويومئ كأنّ حكاية النسب الباريسيّ كانت فكرته هو، لا فكرة والدته.

- هل تعرفين باريس، حضرتكِ؟ - سألتها أليثيا.

- لا. من الكتب فحسب. لكنّنا في العام المقبل سنحتفل بعيد زواجنا هناك.

- هذا زوج.

- أوه، لم يتعلّم ذلك بعد.

ضحكت بيا متوتّرةً. ثمّة شيءٌ في نظرات تلك المرأة يفكّ عقدة لسانها.

غمزت لها أليثيا بعينٍ متآمرة.

- هذا أفضل. فهناك كثير من الأشياء المهمّة التي لا يمكن تركها في أيدي الرجال.

- هل هذه زيارتكِ الأولى إلى المكتبة؟ - سألتها بيا تيمُّنًا بتغيير الموضوع.

- لا. في الحقيقة، كنت آتي إلى هنا غالبًا مع والديَّ في صغري.

لقد اشترت لي والدتي كتابي الأوّل من هنا... لكنّ هذا حدث منذ أعوام طويلة. قبل الحرب. ورغم ذلك، ما زلت أحتفظ من هذا المكان بذكرى طيّبة، وقلت لنفسي إنّه المكان المثاليّ للبدء في إعادة تكوين مكتبتي المفقودة.

انتعشت بياتريز في أعماقها حين قدَّرت الأرباح المتأتيّة من هذه الصفقة. إذ كانوا منذ مدّة يعانون قحطًا في المبيعات، لذا رنّت تلك الكلمات في أذنيها مثل موسيقى سماويّة.

- نحن هنا لتلبية كافّة رغباتكِ، لأنّنا في حال عدم توافر كتابٍ ما فبوسعنا تأمينه لكِ في غضون ساعات أو أيّام قليلة.

- هذا يسعدني. هل حضرتكِ صاحبة المكتبة؟

- أنا بيا. وهذه مكتبة والد زوجي، لكنّ العائلة كلّها تعمل فيها...

- حتى زوجكِ يعمل معكِ؟ يا لحسن حظّكِ...

- لا أعلم إن كنت أوافقكِ على هذه. - مازحتها بيا - هل حضرتكِ متزوّجة؟

- لا.

ابتلعت بيا ريقها. لقد زلّ لسانها مرّة أخرى. فذلك كان السؤال الشخصيّ الثالث الذي توجّهه لهذه الزبون الواعدة بلا أيّ داعي. قرأت أليثيا أفكارها وابتسمت.

- لا تشغلي بالًا يا بيا. اسمي أليثيا.

مدّت يدها فتصافحتا. وخوليان أيضًا، الذي لم يكن يفوّت فرصة، رفع يده ليرى ما الذي سيحدث. فصافحته أليثيا وابتسمت بيا.

- يداكِ تقولان إنّه لا بدّ أن يكون لديكِ أطفال.

عضّت لسانها ما إن تفوّهت بهذه العبارة.

«بيا، أرجوكِ أن تخرسي.» لم تبدُ أليثيا أنّها سمعت كلماتها الأخيرة، كانت هائمة في تمعُّن الرفوف الممتلئة بالكتب، ترفع يدها وبالكاد تلامس أضلاعها بالأنامل. انتهزت بيا أنّ المرأة موليةً ظهرها إليها، فتفحَّصتها بجدِّيّةٍ أكبر.

- أحيطكِ علمًا بأنّنا نقدِّم أسعارًا خاصّة للسلسلات...

- هل يمكنني أن أعيش هنا؟ - سألت أليثيا.

ضحكت بيا عن غير اقتناع كامل ونظرت إلى ابنها الذي كان من الواضح أنّه سيعطي المفاتيح إلى تلك المجهولة بلا نقاش.

- شتاينبك... - سمعتها تهمس.

- لدينا مجموعة جديدة فيها الكثير من رواياته. وصلت للتوّ...

أخذت أليثيا أحد الكتب وفتحته وقرأت منه بعض السطور لا على التعيين.

- كأنّني أقرأ الأنغام من مدوّنة موسيقيّة. - غمغمت.

فكّرت بيا أنّ المرأة تتحدّث مع نفسها مفتونةً بسحر الكتاب لتنساها وطفلَها. فتركتها وشأنها وسمحت لها بالتجوّل في المكتبة على هواها.

كانت أليثيا تختار كتابًا من هنا وآخر من هناك وتتركه على المصطبة، حيث تشكَّلَ برجٌ هائل من المجلّدات بعد ربع ساعة. - نقدِّم خدمة التوصيل إلى البيوت أيضًا.

- لا عليكِ يا بيا. سأرسل أحدًا لاستلامها بعد الظهر. لكنّي سآخذ هذا معي. لقد أقنعتني البطاقة التي تقول: توصية من فيرمين:

«عناقيد الغضب» للكاتب الفذّ خوانيتو شتاينبك، هي أشبه بسيمفونيةّ من الحروف لتخفيف حالات العته المتصلّب والحثّ على الوقاية من السحايا في حالات الإمساك الدماغيّ الناجم عن إفراط في اعتناق الشرائع المعتمدة من قِبل السذاجة الحكوميّة.

رفعت بيا عينيها إلى السماء ونزعت البطاقة عن الغلاف.

- المعذرة، فكرة «بطاقات التوصيف» هي إحدى ابتكارات فيرمين الجديدة. أحاول أن أتعقبَّها كلّها وأنزعها قبل أن يجدها الزبائن، لكنّه ما زال يفخّخها هنا وهناك...

ضحكت أليثيا. كانت ضحكتها جامدة، بلّوريّة.

- وهذا فيرمين، أحد الموظفين لديكم؟

هزّت بيا رأسها.

- شيء من هذا القبيل. يعرِّف نفسه بالمستشار الأدبيّ والمحقّق الببليوغرافيّ لمكتبة سيمبيري وأبناؤه.

- يبدو شخصيّة حقيقيّة.

- ليس لديكِ فكرة. أليس كذلك يا خوليان، أنّه لا مثيل للعمّ فيرمين؟

صفّق خوليان الصغير.

- إنّهما نسخة طبق الأصل. - فصّلت بيا - لا أعرف أيٌّ منهما أكثر استهتارًا...

أخذت بيا تتحقّق من أسعار الكتب وتدونّها في سجلّ الحسابات.

فلاحظت أليثيا أنّها تُظهِر أناقةً في ذلك لا تدع مجالًا للشكّ بمن ينظّم حسابات هذا البيت.

- الحساب، بعد الخصم الذي نقدِّمه...

- بلا خصم، أرجوكِ. ففي إنفاق النقود على الكتب متعةٌ لا أريد أن يقلِّصها عليَّ أحد.

- متأكدة؟

- متأكدة للغاية.

دفعت أليثيا الحساب وجهّزت بيا الطرد الذي سيأتي أحدهم في العصر لاستلامه.

- اقتنيتِ عددًا جيّدًا من الكنوز. - قالت بيا.

- آمل أن تكون الأولى في قائمة طويلة.

- سنكون هنا بانتظارك، تعلمين ذلك.

مدّت أليثيا يدها مرّة أخرى. فصافحتها بيا.

- تشرّفتُ بمعرفتكِ يا بيا. سأعود عاجلًا.

أومأت بيا مسرورةً، لكنّها أحسّت في تلك الكلمات ما يشبه التهديد.

-هذا بيتكِ. أيّ شيء تحتاجين إليه...

نفخت أليثيا قبلة وأرسلتها في الهواء إلى خوليان الولهان الذي ما زال في نشوته. نظرا إليها وهي تضع القفّازات كالهرّة وتتجه إلى المخرج بخطوات كعبيها اللذين يطرقان الأرض طرقًا. وفي تلك اللحظة تحديدًا، بينما كانت أليثيا خارجة، وصل دانيال. لاحظت بيا زوجها يسند الباب لخروجها وقد أصابه التبلُّد، وانفرج بابتسامةٍ يستحقّ عليها صفعة واحدة على الأقلّ. فرفعت عينيها إلى السماء وتنهّدت.

وكان خوليان بجانبها يهمهم مثلما اعتاد أن يفعل حين يُفتَتن بشيء ما، سواء أكان حكاية يسردها عليه فيرمين أم حمّامًا ساخنًا. - كلّكم متشابهون. - غمغمت بيا.

دخل دانيال إلى المكتبة واصطدم بنظرة بيا الجامدة التي كانت تثقب عظامه.

- مَن كانت تلك؟ - سألها.

(27)

لم تتوقّف إلا عندما وصلت إلى منعطف باب الملاك. هناك حيث استترت بزحمة الناس وتوقّفت عند إحدى واجهات دار خوربا لتمسح دموعها التي سالت على الخدّين. «تلك هي حياتي». نظرت إلى انعكاسها في الزجاج وجعلت الغلّ يستعر في وجدانها.

- غبيّة. - قالت لنفسها.

سلَّمت أمرها للطرقات ترجعها إلى البيت، فمضت في رحلتها المفضّلة منذ أعوام خلت ومشت عشرين دربًا خلال عشرين دقيقة.

هبطت من باب الملاك نحو الكاتدرائيّة، ومنها انعطفت إلى شارع دي لا باخا المحاذي لبقايا السور الرومانيّ، ونزلت حتّى شارع أفنيون باجتياز الحيّ اليهوديّ دي كال. لطالما أحبَّت الشوارع التي لا يتقاسمها الترام والسيّارات. هناك، في قلب برشلونة حيث لا تدخل السيّارات وأتباعها، تمنّت أليثيا أن يجري الزمن بشكلٍ دائريّ، فلو أنّها لم تغامر بعيدًا عن متاهة الأزقّة حيث تمرّ الشمس بالكاد على رؤوس أصابعها، لما كانت قد تقدّمت في السنّ بل كانت ستعود إلى زمانٍ متخفٍّ لتستعيد المسير الذي ما كان ينبغي لها أن تحيد عنه. ربّما لم يفُتْها زمانُها بعد. ربّما لا يزال هناك سببٌ لكي تواصل الحياة.

كانت أليثيا قبل الحرب، في صغرها، قد مشت في ذلك المسير مرّات كثيرة، ممسكة بأيدي والديها. كانت تذكر أنّها مرّت أمام واجهة مكتبة سيمبيري وأبناؤه مع والدتها، وتوقّفت هناك هنيهة لتتبادل النظرات مع طفلٍ مقهور يرمقها من الجانب الآخر للزجاج. دانيال، ربّما؟ كانت تذكر اليوم الذي أهدتها فيه والدتها أوّل كتابٍ قرأته أليثيا في حياتها، مجموعة قصائد وحكايات خياليّة لغوستابو أدولفو بيغوير.

كانت تذكر الليالي الكثيرة التي أمضتها في سهاد لإيمانها بأنّ السيد بيريث عازف الأرغون يتجوّل في منتصف الليل عند عتبة غرفتها، ولرغبتها في العودة إلى بازار الكتب المسحور حيث تنتظرها ألف حكاية وحكاية لتعيشها. ربّما كان لأليثيا في تلك الحياة الضائعة أن تكون آنذاك في الطرف الآخر من المصطبة، تقدِّم الكتب إلى الزبائن، وتدوّن العناوين والأسعار في سجلّ الحساب، وتحلم بالرحلة إلى باريس مع دانيال.

كلّما اقتربت من البيت، عاد إحساس الغلّ المتكدّر يراودها وهو يجرّها نحو غرفة روحها المظلمة، الغرفة التي كانت تعيش فيها بلا مرايا أو نوافذ. تخيّلت نفسها لوهلةٍ تعود على خطاها لتدخل المكتب من جديد وتلتقي تلك المرأة الخرافيّة وابتسامتها الملائكيّة الناعمة: بياتريز النقيّة. رأت نفسها تخنق تلك الفتاة وتصرعها على الحائط وتغرس أظفارها في جلدها الطريّ وتقرِّب وجهها من الوجه الذي يكشف عن روح صافية بينما تطلّ بيا على الهاوية المخفيّة في عيني أليثيا، في حين تلعق لها شفتيها وهي تتساءل تُرى أيُّ نكهةٍ لعسل السعادة هذا الذي يبارك حياة أولئك الذين لطالما قال لها لياندرو بأنّها لن تستطيع أن تكون واحدة منهم: الأناس العاديّون.

توقّفت عند تقاطع شارع أفنيون بشارع فرناندو، على مقربة من بوّابة البيت، وطأطأت رأسها. اجتاحها شعورٌ بالذنب. كانت تسمع لياندرو، في إحدى زوايا عقلها، يضحك ساخرًا بها. «عزيزتي أليثيا، يا ابنة الظلمات، أنتِ تدمِّرين نفسكِ بهذه الأحلام التي ترين نفسكِ فيها أميرة المنزل وهي تنتظر عودة البطل وتعتني بذريّته الطيّبة وتقفز فرحًا. أنتِ وأنا ما نحن عليه. وكلّما نظرنا إلى المرآة مرّاتٍ أقلّ، كان أفضل».

- هل أنتِ بخير يا آنسة أليثيا؟

فتحت عينيها لتجد نفسها أمام وجه مألوف، قطعة من الماضي.

- فرنانديتو؟

انبسطت ابتسامةٌ سعيدة على شفاه الوَلِهِ بها سابقًا. لقد حملت الأيّام معها فتًى مسكينًا متوتّر العقل متخبّط القلب، وأحلّت عوضًا عنه رجلًا ذا مهابة في مقتبل عمره. وعلى الرغم من مرور الزمن، ما زال شارد النظرة مثلما كان عليه يومَ ودّعها في محطة فرنسا.

- كم أنا فرِحٌ لرؤيتكِ ثانية يا آنسة أليثيا. ما زلتِ على حالكِ.

ماذا أقول؟ بل بتِّ أفضل حالًا.

- أنت الذي ينظر إليّ بعيون أفضل يا فرنانديتو. فمّن تغيَّر حقًّا هو أنت.

- هكذا يقولون لي. - اكّد الشابّ الذي بدا راضيًا عن تحسُّن صورته.

- أصبحتَ مفتول العضلات. - قالت أليثيا - لا أعلم إن كان ما يزال يحقّ لي أن أناديك فرنانديتو. فالآن تبدو لي الدون فرناندو.

تضرّج وجهه وأخفض عينيه.

- يحقّ لكِ أن تناديني كما تشائين يا آنسة أليثيا.

انحنت إليه وقبّلت خدّه الذي كان آخذًا بالتقشُّر. دُهِش فرناندو وظلّ متجمّدًا، ثمّ عانقها بقوّة في نوبةٍ عاصفة.

- أنا سعيدٌ لعودتكِ إلى الديار يا آنسة أليثيا. لقد اشتقنا إليكِ كثيرًا.

- هل لي أن أعرض عليك... - ارتجلت أليثيا - أما زلت تحبّ الحليب بالشوكولاتة؟

- انتقلتُ إلى القهوة المعدّلة بالرمّ.

- ذاك الذي لا ينتج التستسترون/ هرمون الذكور...

ضحك فرنانديتو. فعلى الرغم من جسده المكتنز بالعضلات، ونموّ لحيته وغلاظة صوته مؤخّرًا، ما زال يضحك كالأطفال. أخذت أليثيا بذراعه وجرّته إلى الغران كافيه حيث طلبت فنجان قهوة معدّلة بأجود أنواع الرمّ الكوبيّ، وكأسًا من نبيذ أليثيا. شربا نخب سنوات الغياب وراح فرنانديتو، الثمل بالرمّ وحضور أليثيا، يحدّثها أنّه يعمل من حين إلى حين محاسبًا في بقّالية الحيّ، وأنّه ارتبط بفتاة، اسمها كانديلا، بعد أن تعرّف عليها في دروس المبادئ الدينيّة في الكنيسة.

- خيارٌ واعد. - ارتجلت أليثيا - متى تتزوّج؟

- أتزوّج؟ هذه أحلام خالتي خيسوسا. فأنا تمكّنت من الحصول على قبلة من كانديلا بشقّ الأنفس. تعتقد أنّ القبلة حرام إذا لم يشهد عليها القسّ.

- إذا شهد القسّ على القبلة، تفقد نكهتها.

- لقد قلت لها ذلك. ثمّ إنّني بالأجر الزهيد الذي أتقاضاه من الدكّان، لا أستطيع توفير حتى فلس واحد من أجل الزواج. تصوّري أنّي وقّعتُ على ثمانٍ وأربعين كمبيالة من أجل شراء الدرّاجة الناريّة، الڤسبا...

- ألديك ڤسبا؟

- جوهرة. مستعملة ثلاث مرّات لكنّي طليتها فصارت مسرّةً للناظرين. سأصحبكِ بها يومًا ما. إلّا أنّ ما كلّفني الكثير، وسيكلّفني... أنّنا في العائلة نمرّ بضيق ماديّ منذ أن مرض والدي واضطر إلى ترك العمل في سيدا. تلك الأبخرة الأسيديّة. لقد اهترأت رئتاه، المسكين.

- يؤسفني جدًّا يا فرنانديتو.

- هذه هي الحياة. راتبي حتى الساعة هو المعيل الوحيد للبيت، وعليَّ أن أبحث عن عمل أفضل...

- ما الذي تهوى فعله؟

نظر إليها بابتسامة ملغّزة.

- أتعلمين ما الذي أهوى فعله على الدوام؟ أن أعمل معكِ.

- لكنّك حتّى لا تعرف طبيعة عملي يا فرنانديتو.

- لست غبيًّا كما أبدو يا آنسة أليثيا.

- لم أفكّر في أنّك غبيّ على الإطلاق.

- واهمٌ نعم، ساذجٌ ربّما. أيُّ شيء أقول ولا تعرفينه عنّي مسبقًا؟ لكنّي أدرك أنّكِ تعملين في شعبة الألغاز والفخاخ.

ابتسمت.

- أعتقد أنّه يمكن وصفه بذلك.

- وأنا لا أفشي الأسرار، ها؟ ألتزم الصمت.

نظرت أليثيا في عينيه. فمضغ فرنانديتو ريقه. لطالما سرَّعت الإطلالةُ على تلك الهاوية من خفقات قلبه.

- هل يسعدك حقًّا أن تعمل معي؟ - سألته أخيرًا.

جحظت عيناه.

- لا شيء في الدنيا يجعلني أسعد من العمل معكِ.

- ولا حتّى الزواج بالعزيزة كانديليتا؟

- لا تكوني شرّيرة. فأنتِ في بعض الأحيان تكونين شرّيرة كثيرًا يا آنسة أليثيا...

هزّت رأسها متقبّلةً التهمة.

- انظري، لا تظنّي أبدًا أنّني أتوهّم. فأنا أعرف أنّني لن أحبّ أحدًا مثلما أحببتكِ، لكنّ هذه مشكلتي أنا. لقد أدركت منذ زمن أنّك لن تكوني لتبادليني الحبّ أبدًا.

- فرنانديتو...

- دعيني أنهي كلامي، فنادرًا ما وجدتُني أتكلّم بصراحة. لا أريد أن أهمل أيّ تفصيل، لأنّي أعتقد أنّ الشجاعة لن تتملّكني أبدًا لمصارحتكِ بما أشعر.

هزّت رأسها بنعم.

- ما أردتُ قوله، وأعرف أنّه ليس من شأني، فلا تغضبي مني لأنّي أقول لكِ... الحال أنّه لا مشكلة عندي إن كنتِ لا تحبّينني لأنّي أحمق ومغفّل، ولكن سيتوجّب عليكِ أن تحبّي أحدًا ما ذات يوم، لأنّ الحياة قصيرة جدًّا وما أحقر أن تعيشيها هكذا... وحدانيّة.

طأطأت أليثيا رأسها.

- لا نختار من نحبّ يا فرنانديتو. ربّما لا أستطيع أن أحبّ أحدًا ولا أعرف كيف أجعل أحدًا يحبّني.

- لا أصدّق ذلك. أليس الرجل الضخم الذي يرافقكِ خطيبكِ؟

- بارغاس؟ كلا، مجرّد زميل مهنة. وصديق جيّد، على ما أظنّ.

- لعلّي أستطيع أن أكون كذلك أنا أيضًا.

- صديق أم زميل مهنة؟

- كلاهما معًا. إن أردتِ.

التزمت أليثيا الصمت طويلًا سارحة الفكر. وكان فرناندو يترقّب وينظر إليها بخشوع المتديّنين.

- وماذا لو كان العمل خطيرًا؟ - سألته أليثيا.

- هل هناك أخطر من حمل صناديق مليئة بالقوارير على سلالم هذا الحيّ؟

أومأت أليثيا بنعم.

- منذ أن عرفتكِ وأنا أعلم أنّكِ الخطر بعينه يا آنسة أليثيا. لا أطلب منكِ سوى أن تمنحيني فرصة. إن رأيتِ أنّني لا أساوي شيئًا، فافصليني. بلا مراعاة. ما رأيكِ؟

مدّ يده نحوها. فأمسكتها أليثيا، وبدل أن تصافحها قبّلتها كأنّها يد أميرة، وحملتها إلى خدّها. فتغيّر لون وجهه حتى صار بلون الدرّاقة الناضجة.

- موافقة. أسبوع على سبيل التجربة. إن وجدتَ العمل لا يناسبك بعد أيّام، نفسخ العقد.

- جديًّا؟

أكدّت برأسها.

- شكرًا جزيلًا. لن أخيِّب ظنّكِ. أقسِم لك.

- أعرف يا فرنانديتو. ليس لديّ شكوك حول هذا الأمر.

- هل هناك حاجة إلى التسلُّح؟ أقول ذلك لأنّ والدي ما زال يحتفظ ببندقيّة المليشيا...

- يكفي أن تتسلّح بالحذر.

- وممّ تتكوّن المهمّة.

.أن تكون عيوني؟

- سأكون ما تشائين.

- كم يدفعون لك أجرًا في البقّاليّة؟

- بؤسٌ وشركاه.

- سيكون راتبك الأسبوعيّ ضعف ما تتقاضاه أربع مرّات. إضافةً إلى الحوافز والمكافآت. وسأدفع لك القسط الشهريّ للقسبا. هذا مبدئيًّا. هل تراه منصفًا؟

أومأ فرنانديتو مفتونًا.

- تعلمين أنّي من أجلكِ مستعدٌّ للعمل بالمجّان. بل وأدفع من جيبي أيضًا.

هزّت رأسها.

- لقد ولّى زمان العمل بالمجّان يا فرنانديتو. مرحبًا بك في الرأسماليّة.

- ألا يقولون إنّها شيءٌ قبيح؟

- أسوأ من ذلك. وستعجبك حتّى الموت.

- متى أبدأ؟

- على الفور.

(28)

قبض بارغاس على معدته كما لو أنّ قرحةً انفتحت فيها على حين غرّة.

- ما الذي طلبته من ذلك الولد؟

- اسمه فرنانديتو. ولم يعد لديه من صفات الولد إلا القليل. وهو مكتنز البدن مثلك تقريبًا. ثمّ إنّ لديه قسبا.

- يا أمّ الربّ! ألا يكفيكِ أنّكِ عقَّدتِ حياتي؟ والآن تورّطين أبرياء في ألاعيبكِ؟

- هذا هو بالضبط. ما نحتاج إليه في هذه العملية هو شخص بريء.

- ظننتُ أنّ الغبيّ روبيرا يكفي لذلك. بالمناسبة، روبيرا ظلّ يلاحقني طوال الصباح. ألم يكلِّفوه بمراقبتكِ أنتِ؟

- لعلّه ليس غبيًّا كما تعتقد.

- وماذا عن فرنانديتو هذا؟ دماءٌ زكيّةٌ لحمّامكِ الشبيه بحمّام الكونتيسة باثوري؟

- ذائقتك القرائيّة تزداد رقيًّا يا بارغاس. ولكن، لا: فرنانديتو لن ينزف قطرة دم واحدة. على أنّه قد يقطر عرقًا.

- ويذرف دموعًا. لا تظنّي أنّي لم أره وهو ينظر إليكِ، بدت عيناه مثل حَمَلٍ مذبوح.

- متى رأيته؟

- عندما كنتِ تخدِّرينه في المقهى. كنتما مثل أفعى الكوبرا وصغير الأرنب.

- ظننتُ أنّ روبيرا وحدَه الذي يتجسّس عليّ.

- رأيتكما تدخلان المقهى بينما كنت عائدًا من متروبارنا.

هزّت أليثيا رأسها للتخفيف من حجم القصة، وكانت تستعدّ لصبّ النبيذ الأبيض في إحدى كؤوسها البلّوريّة الرقيقة.

- حدّثني كيف جرت الأمور هناك، وانسَ أمر فرنانديتو هذه اللحظة.

تأفّف بارغاس واستراح على الأريكة.

- من أين أبدأ؟

- حاولْ أن تبدأ من البداية.

لخّص بارغاس زيارته إلى شركة متروبارنا وانطباعاته عنها. أصغت إليه أليثيا بصمت، تجيء في الغرفة وتروح والكأس في يدها، وتهزّ رأسها من حين لآخر. وعند انتهاء التقرير، اقتربت من

النافذة، ارتشفت من الكأس بضع رشفات، والتفتت نحو رجل الأمن بتعبيرٍ في الوجه ضخّ في صدره القلق.

- لقد فكّرتُ كثيرًا يا بارغاس.

- فليدخلنا الربُّ في رحابه معترفين ومبلّغين.

- بكلّ ما اكتشفتَه اليوم عن صاحب الزيجة الموفّقة سانشيس وسائقه، وآثار كتب ماتايكس، والمحامي بريانس، وآل سيمبيري...

- ولا تنسي الرجل الخفيّ، زميلكِ سابقًا لومانا.

- لم أنسه. الحال أنّنا أنت وأنا لا نستطيع متابعة كلّ هذه الخيوط. وربطة الحبل تضيق.

- على أعناقنا؟

- أنت تعلم ما الذي أقصده. كلّ هذه الخيوط متشابكة بطريقة معيّنة. وكلّما سحبناها اقتربنا من العثور على مدخل.

- عندما تصبحين مجازيّةً، أضيع.

- نحن ننتظر خطوة خاطئة، هذا كلّ ما في الأمر.

- أهكذا تحلّين القضايا؟ بفضل الخطوات الخاطئة؟

.أن تترك الآخرين يرتكبون الأخطاء خيرٌ من التعويل على إصابة الهدف من الضربة الأولى.

- وماذا لو كنّا نحن من يُقدِم على الخطوة الخاطئة؟

- إذا كان لديك خطة أفضل، فكلّي آذانٌ صاغية.

رفع بارغاس يديه في إشارةٍ إلى هدنة.

- وفرناندينو هدا، ما وظيفته؟

- سيكون عيوننا حيث لا نستطيع أن نكون موجودين. لا أحد يعرفه أو يتوقّعه.

- أنتِ تتحوّلين إلى لياندرو.

- سأتظاهر بأنّي لم أسمع شيئًا يا بارغاس.

- تظاهري بما يحلو لكِ. كيف ستضحّين بالطير الصغير؟

- سيبدأ فرنانديتو بملاحقة سانشيس. تقاسُمُ المهام يرفع نسبة الإنتاج.

- هذا يبدو لي فخًّا. وماذا أفعل أنا؟

- ما زلت أفكّر.

- أنتِ تحاولين التخلّص منّي ثانيةً.

- لا تتفوّه بالترّهات. متى فعلتّ شيئًا كهذا؟

أطلق بارغاس خوارًا.

- وبينما تفكّرين، هل تخطر في باللكِ أشياء أخرى؟ - سألها.

- تخصيص الوقت والاهتمام بعائلة سيميبري. - ردّت أليثيا. في تلك اللحظة، قطع عليهما صوتُ عند باب الشقّة، كأنه حِمْلٌ ووقع على الأرض. ثمّ رنّ الجرس بعد قليل.

- هل تنتظرين زيارة؟ - سأل رجل الأمن.

- هلّا فتحتَ أنت؟

نهض بارغاس على مضض وذهب ليفتح الباب. فظهر فرنانديتو مسحُتّا ولا هثًا عند العتبة.

- مساء الخير. - قال - لقد أتيتُ بكتب الآنسة أليثيا.

مدّ يده للمصافحة، دلالةٌ على الثقة، فتجاهله بارغاس.

- أليثيا، جاء الولد موصّل الطلبات من أجلكِ.

- لا تفسد البهجة يا بارغاس. دعه يدخل.

نهضت أليثيا واقتربت من الباب.

- ادخل يا فرنانديتو. لا تشغل بالك به.

أشرق وجه الفتى عندما رآها. حمل علبة الكتب الضخمة ودخل البيت.

- بالإذن. أين أضعها؟

- هنا، أمام المكتبة.

قام فرنانديتو بما طُلِبَ منه وتنفّس بعمق وهو يمسح العرق الذي سال على جبينه.

- هل أتيت بها هكذا، بيديك؟

رفع كتفيه.

- حسنًا، بالدرّاجة الناريّة. مع أنّه لا يوجد مصعد هنا...

- أنت عنوان التفاني يا «فرنانديتو». - قال بارغاس - ليس معي الآن ميداليّة البسالة، وإلّا...

تجاهل فرنانديتو استهزاء بارغاس وركّز انتباهه على أليثيا.

- لم أفعل شيئًا يا آنسة أليثيا. فأنا معتاد على توصيل طلبات الدكّانة.

- لقد أصبحتَ قويًّا جدًّا. هيّا يا بارغاس، حاسبْه.

- ماذا؟

- دفعة للخدمات المقضيّة. وأعطه ثمن الوقود أيضًا.

- وهل أنا الذي يجب أن يدفع؟

- دبّرها من صندوق النفقات. فأنت أمين الخزانة. لا تعبَرْ بهذا الوجه.

- أيُّ وجه؟

- كما لو أنك أصبت بعدوى المسالك البوليّة. هيّا، أخرجْ محفظتك.

- فضلًا يا آنسة، إن كان هناك مشكلة... - قال فرنانديتو الذي لم يشعر بالأمان برؤية بارغاس عابسا.

- لا وجود لأيّ مشكلة. - قاطعته أليثيا - حضرة النقيب؟

تأفّف النقيب وأخرج محفظته. عدَّ ورقتين نقديّتين وأعطاهما لفرنانديتو.

- أكثر. - همست أليثيا.

- ماذا؟

- أعطه الضِعف على الأقلّ.

أخذ بارغاس ورقتين أخريين وأعطاهما له. وتقبَّلهما فرنانديتو مصعوقًا، وهو الذي لم ير كلّ هذا المبلغ معًا في حياته كلّها ربّما.

- لا تنفق كلّ المال على السكاكر. - غمغم بارغاس.

- لن تندمي يا آنسة أليثيا. شكرًا جزيلًا.

- حذار يا فتي، فأنا الذي دفع لك المال. - قال بارغاس.

- هل لي أن أطلب منك معروفًا؟ - سألته أليثيا.

- اطلبي ما تشائين.

- اذهب واشترِ لي علبة سجائر.

- أمريكيّةٌ شقراء؟

- أنت كنزي.

سارع فرنانديتو إلى هبوط السلالم. وبدا من الصوت الذي أحدثه أنّه كان ينزل واثبًا.

- كم هو شاطر، خادم المذبح هذا. - علّق بارغاس.

- أنت غيور. - قالت أليثيا.

- بالتحديد.

- واللوحة؟ - سألت أليثيا مشيرةً إلى اللوح الذي جاء به بارغاس.

- فكّرتُ أنّها ستبدو في غاية البهاء إن علّقتِها فوق أريكتكِ هذه.

- هل هي من صديقك العزيز الجديد، الرسّام المفضّل لدى سانشيس؟

أومأ بنعم.

- هل تعتقد أنّ سانشيس هو جامع الكتب الذي نبحث عنه؟ - سألت أليثيا.

شد بارغاس كتفيه.

- والسائق...؟

- مورغاذو. لقد اتصلتُ بالقسم المركزيّ لأستطلع المعلومات عنه. سأحصل على شيء ما في الغد.

- بم تفكّر يا بارغاس؟

- بأنكِ على حق ربّما. أقولها رغمًا عنّي. الربطة، أو الحبل يضيق.

- لا أراك مقتنعًا كليًّا.

- لست مقتنعًا. ثمّة شيء غير واضح.

- ما هو؟

- سأعرفه عندما أراه. ولكن، يتولّد لديّ انطباعٌ بأنّنا ننظر من الزاوية الخاطئة. لا تسأليني لماذا. هكذا قالت لي بطني.

- أعتقد ذلك أنا أيضًا. - وافقته أليثيا.

- هل ستخبرين لياندرو بذلك؟

- عليَّ أن أخبره بشيء ما.

- إن سمحتِ لي باقتراح، دعي فرنانديتو خارج نشرة الأخبار.

- لم أفكر في تضمينه فيها.

وبعد قليل، سمعا خطوات الفتى وهو يصعد السلّم بعجالة.

- هيّا، افتح له. وكن معه ألطف. لأنّه بحاجة إلى قدوة ذكوريّة راسخة إن أراد أن يصبح رجلًا بحقّ.

هزّ بارغاس راسه وفتح الباب. وكان فرنانديتو ينتظر مضطربًا، وعلبة السجائر بيده.

- ادخل يا صوص. كليوباترا بانتظار حضرتك.

هرع فرنانديتو لتسليم العلبة إلى أليثيا، ففتحتها مبتسمةً وحملت سيجارة إلى شفتيها. فتعجَّل الفتي لإخراج الولّاعة.

- هل تدخّن، فرنانديتو؟

- لا، لا.... سوى أنّي أستعملها مشعلًا، فنصف السلالم في هذا الحيّ مظلمة أكثر من فم ذئب.

- أرأيت يا بارغاس؟ أليس لفرناندو مقوّمات المحقّق؟

- بل إنّه مارلو المحتلم.

- لا تسمع لكلامه يا فرنانديتو. فعندما يشيخون، تُحمّض طباعُهم. إنّها كينين الشعر الأبيض.

- كيراتين. - صحّح بارغاس.

أومأت أليثيا لفرنانديتو بألّا يكترث لأمره.

- هل يمكنني أن أطلب منك معروفًا آخر يا فرنانديتو؟

- أنا هنا من أجل هذا.

- معروفٌ أكثر حساسيّةً. مهمّتك الأولى.

- كلّي آذان صاغية.

- أريد أن تذهب إلى شارع دي غراثيا، رقم 6.

نظر إليها بارغاس وقد توجَّسَ فجأةً. فأشارت إليه بألّا يقول شيئًا.

- هناك، يوجد مقرّ شركة اسمها متروبارنا.

- أعرفها.

- آه، حقًّا؟

- الشركة المستولية على نصف العقارات في الحيّ. يشترونها، يطردون سكانها القدامى بفلسين ويبيعونها بعشرةِ أضعاف.

- نصّابون. حسنًا، يتّضح انّ المدير العامّ اسمه سانشيس. اريدك أن تتعقّبه فورَ خروجه من المكتب، وأن تصبح ظلّه. تنقل إليّ أين يذهب، وماذا يفعل، ومع من يتحدّث... كلّ شيء. هل ستدبر أمرك بالفسبا؟

- إنّها ملكة الطرقات. حتى نوفولاري لا يستطيع أن يهرب مني.

- غدًا، في هذه الساعة، ستأتي وتروي عليّ ماذا اكتشفت.

شكوك؟

رفع بارغاس يده.

- أقصد فرنانديتو.

- كلّ شيء واضح، آنسة أليثيا.

- فاذهب إذن. وأهلًا بك في عالم الدسائس.

- لن أخيِّب ظنّكِ. ولا ظنّكم، حضرة النقيب.

انطلق فرنانديتو مسرعًا نحو مسيرة واعدة في عالم المؤامرات والألغاز. حدّق بارغاس، بفم مفتوحٍ من الدهشة، إلى أليثيا التي كانت تفني سيجارتها كالهرّة.

- هل جننتِ؟

تجاهلت السؤال. رفعت عينيها نحو النافذة وتأمّلت معطف الغيوم الزاحف من جهة البحر. كانت الشمس في المغيب تصبغ الدنيا باللون الأحمر، لكنّ هنالك شبكةً من زخارف سوداء تحوم كالدوّامة في عين الشمس، كثيفة وكدرة. لمحت وميضًا كهربائيًا ينبض بين السُّحُب، كأنّ ألعابًا ناريّة تنفجر في السماء.

- إعصار يقترب. - غمغم بارغاس خلف ظهرها.

- أنا جائعة. - صرّحت أليثيا وهي تلتفت نحوه.

بدا متفاجئا وأكثر.

- لم أتخيّل أن أسمع منكِ شيئًا كهذا على الإطلاق.

- ثمّه مرّةٌ أولى لأيّ شيء. هلّا دعوتَني على العشاء؟

- لا أعرف كيف. لقد أعطيتُ الولهان فيكِ كلّ ما أملك تقريبًا.

غدًا سأمرّ إلى البنك وأسحب بعض النقود.

- لا بأس بوجبة مقّبلات، تاباس.

- قولي أين.

- هل تعرف برشلونيتا؟

- بدأت أعتاد بما فيه الكفاية على برشلونة العاديّة.

- هل تروقك قنبلة جيّدة؟

- عفوًا؟

- حادّة. لا منفجرة.

- ولماذا يبدو لي الأمر واحدة من حيلكِ؟

(29)

نزلا سيرًا على الأقدام نحو الميناء تحت سماء تخدشها البروق.

وكانت سواري القوارب تهتاج مع الريح التي تهبّ من البحر بنكهة الكهرباء.

- سيكون الطوفان. - تنبَّأ بارغاس.

مشيا بمحاذاة المستودعات المصطفّة بمواجهة ورشات المرفأ، أبنية ضخمة مجوّفة تشبه الأسواق التي كانت تقام في ماضي الزمان.

- كان والدي يعمل هنا، في المستودعات. - قالت أليثيا.

ظلّ بارغاس صامتًا، بانتظار أن تضيف شيئًا آخر.

- ظننت أنّكِ يتيمة. - ارتجل في النهاية.

- لم أولد يتيمة.

- في ايّ سنٍّ فقدتِ والديكِ؟

عقدت أليثيا أزرار ياقة المعطف وأسرعت الخطى.

- حبّذا لو استعجلنا وإلّا تحمَّمنا تحت السيول. – اختصرت.

وكانت أوائلُ قطرات المطر تتساقط عندما وصلا إلى برشلونيتا.

قطراتٌ كبيرة ومنعزلة، كأنّها طلقات ناريّة من المياه تتفجّر على بلاط الطريق وترجم الترامات التي تنزلق على امتداد الشارع المحاذي لرصيف الميناء. لمح بارغاس قبالته حيًّا يغصّ بالدروب الضيّقة مثل عقدة على شبه جزيرة تلج البحر وتنافس في مظهرها مقبرةً كبيرة.

- تبدو جزيرة. – قال.

- لستَ بعيدًا عن هذا. إنّه حي الصيادين الآن.

- وفي السابق؟

- هل تريد درسًا في التاريخ؟

- لعلّي أهيّئ ذائقتي لقنابلكِ...

- في العصور الغابرة، كان كلُّ ما تراه أمامك بحرًا. - فصّلت أليثيا - ومع الوقت، شرعوا بتعمير مكسّرات الأمواج، فتشكّلت جزيرةٌ من الرواسب التي يخلّفها البحر بارتطامه بالعارضة شيئًا فشيئًا.

- وكيف تعرفين كلّ هذه الأشياء؟

- لأنّني أقرأ. عليك أن تجرّب ذلك يومًا ما. في أثناء حرب الخلافة، هدمت قوّات فيليب الخامس جزءًا كبيرًا من حيّ ريبيرا لتشييد حصن القلعة. وبعد الحرب، انتقل كثيرٌ من الناس الذين فقدوا بيوتهم اليسكنوا هنا.

- ألهذا السبب أنتم البرشلونيّين ميّالون إلى الملكيّة؟

- لهذا السبب ولأنّنا ضد النظام الحاكم، الذي يشجّع الريّ.

لحقتهما أولى غارات المطر الغاضبة إلى شارع ضيّق حيث تبرز فيه واجهة ما قد يبدو للوهلة الأولى مزيجًا من حانة ميناء ومطعم في نقطه استراحة. لم يكن ليفوز بأيّ مسابقة للفنون الجميلة، لكنّه كان يتضوّع برائحة توقظ الأحشاء. «القنبلة»، تقول اللافتة.

في الداخل مجموعة من الزبائن المشغولين بمباراة للعب الورق، أنهضوا أنظارهم قليلًا عندما رأوهما داخلَين. فأدرك بارغاس بأنّهم عرفوه رجلَ أمن ما إن وطأت قدمه المحلّ. نظر إليهما نادلٌ جلف الطباع من على المصطبة وأشار إلى طاولة في زاوية، بعيدًا عن نوعيّة الزبائن المعتادة.

- لا يبدو محلًا من محلاتكِ يا أليثيا.

- لا نأتي إلى هنا للتمتّع بالإطلالة، إنّما لالتهام القنابل.

- ولفعل شيء آخر، على ما أعتقد.

- حسنًا، في الجوار.

- في جوار ماذا؟

أخرجت أليثيا من حقيبة اليد قطعة ورقيّة ووضعتها على الطاولة.

عرف بارغاس العلامة التي نزعتها في الصباح من إحدى علب النقل المكتب المحامي بريانس.

- بجوار المستودع الذي وضع فيه بريانس كلّ وثائقه وأرشيفه آنيًا.

رفع عينيه إلى السماء.

- لا تكن متيبّسًا هكذا يا بارغاس. هل كنت تتوقّع أنّهم سيكونون على أهبّة الاستعداد للتعاون معنا؟ - كنت آمل ألّا أخرق القانون.

ثبت النادل الفظّ أمامهما ورماهما بنظرات استقصائيّة.

- أربع قنابل وبيرتان من فضلك. - أمرته أليثيا من دون أن تحيد عينيها عن بارغاس.

- إستريلا أم من البرميل؟

- استريلا.

- خبز وطماطم؟

- شريحتان. محمّصتان.

أومأ النادل وانصرف دون أن يبدي احتفاء بهما.

- لطالما تساءلتُ لماذا تضعون الطماطم في الخبز. - قال بارغاس - وأنا، لأنّ ما من أحد يفعلها.

- هل من مفاجآت أخرى أعددتِها لي، باستثناء اقتحام السكن؟

- هو مستودع عمليًّا. لا أعتقد أنّ أحدًا يسكنه. ما عدا الفئران والعناكب.

- فكيف نرفض إذن؟ ما الذي يدور في رأسكِ الجهنّميّة؟

- كنت أفكر في ذلك المغفّل الذي التقيتَ به، كاسكوس. موظف ڤايس في دار النشر أريادنا.

- العاشق المقهور.

- بابلو كاسكوس بويندیا. - نطقت أليثيا - خطيب بياتريز أغويلار سابقًا. لا أستطيع أن أمحوه من رأسي. ألا يبدو لك الأمر غريبًا؟

- ما الذي ليس بغريب في هذه القضيّة؟

- الوزير صاحب السلطة والنفوذ، ينبش في الخفاء شؤونَ عائلة من باعة الكتب في برشلونة...

- كنّا قد استقرّينا على أنّ اهتمامه نابعٌ من شكوكه في أنّ باعة الكتب هؤلاء يعرفون شيئًا عن دافيد مارتين، الذي كان يشكُّ فيه بأنّه وراء التهديدات وعمليّات الاغتيال التي تعرَّض لها. - أوجز بارغاس.

- أجل، ولكن ما شأن مارتين بعائلة سيمبيري؟ وما شأن العائلة بكلّ هذه القصة؟ - سألت أليثيا وسرحت قليلًا في أفكارها قبل أن تتابع - ثمّة شيءٌ ما هناك. في ذلك المكان. في تلك العائلة.

ألهذا قرّرتِ أن تزوري مكتبه سيمبيري وأبناؤه دون ان تُعلِميني؟

- كنت بحاجة إلى شيء جديد أقرأه.

- كان بإمكانكِ شراء القصص المصوّرة. الاقتراب من عائلة سيمبيري قبل الأوان قد يكون خطيرًا.

- هل تخشى على سلامة عائلة تبيع الكتب؟

- أخشى أن نوقظ الأرنب قبل أن نعرف أين تطأ أقدامنا.

- أعتقد أنّ الأمر يستحقّ المخاطرة.

- وقرّرتِ ذلك بشكلٍ أحاديّ.

- لقد أصبحتُ وبياتريز أغويلار صديقتين. - قالت أليثيا - فتاة جذّابة. ستغرم بها من النظرة الأولى.

- أليثيا...

ابتسمت بمكر. ووصل طبق القنابل والبيرة ليقطع المحادثة. نظر بارغاس إلى ذلك الاختراع العجيب، ما يشبه عجينة البطاطس، ملبَّسةً بدقيق الكعك ومحشوةً باللحم الحادّ.

- وكيف تؤكل؟

غزّت أليثيا الشركة بإحدى القنابل وغزتها بعضّة ضارية. فيما كان الإعصار يجلد الشارع بقوّة، وكان النادل قد أطلّ من الباب لرؤية السيول. تأمّل بارغاس أليثيا وهي تلتهم تلك المأدبة. كان فيها شيء لم يلاحظه من قبل.

- الظلام يحييكِ...

شربت أليثيا رشفة من البيرة ونظرت في عينيه.

- إنّني كائنٌ ليليّ.

- لا داعي للحلفان.

(30)

خلَّفَ الإعصار في مروره ضبابًا يفيض بشوارع برشلونة، ويلتصق بضوء أعمدة الإنارة. ولم يبق سوى قطرات قليلة تتساقط عندما خرجا إلى الطريق، بينما رعود العاصفة تتلاشى في البعيد. وكان العنوان الذي سلبته أليثيا في ذلك الصباح من إحدى علب مكتب فرناندو بريانس يشير إلى أنّ المستودع الذي اختاره المحامي ليحتفظ فيه بأثاثه وفهارسه وبقيّة أغراضه المتراكمة على مدى أعوام، كان موجودًا في أراضي بابور بارثينو، وهو معمل قديم لصناعة السخّانات والقاطرات مهجورٌ بعد الحرب الأهليّة. وصلا إلى أبواب المنشأة القديمة، بعد حوالي الدقيقتين من المشي في طرقات مقفرة يعبث فيها البرد. كان هناك آثار سكّة حديديّة تحت أقدامهما، ويبدو أنّ مسارها كان يمتدّ إلى داخل المبنى. وثمّة بوّابة حجريّة ضخمة، وعليها لافتة «بابور بارثينو» تهيمن على المدخل. تعقبه أرضٌ مهملة من المستودعات العملاقة والورشات المدمّرة التي ترسم أطلال مقبرة من الأعاجيب التي صعد نجمها في حقبة البخار.

- هل أنتِ متأكدة من أنّه هنا؟ - سألها بارغاس.

أومأت أليثيا وتقدَّمت. مشيا بمحاذاة مقطورة راسية في مستنقع واسع تزدهر فيه العربات اليدويّة والأنابيب وهيكل سخّانة محطّمة، اتخذها عشًّا سربٌ من النوارس. كانت الطيور متسمرةً، تنظر إليها بعيون متلألئة تحت الظلام. وهناك صفٌّ من الأوتاد تسند شبكة من الأسلاك التي تتدلّى منها مصابيحُ واهيةُ الضياء. كانت مستودعات المعمل قد رُقِّمت وعُنوِنَتْ بلافتات خشبيّة.

- مستودعنا رقم ثلاثة. - قالت أليثيا.

نظر بارغاس حوله. وجد قطّتين تتضوّران جوعًا وتموءان في الظلّ. كان الهواء بنكهة الكربون والكبريت. تجاوزا كشك مراقبة فارغًا.

- أليس من المنطقيّ أن يكون فيه حارس؟

- أعتقد أنّ المحامي بريانس يفضّل الحلول الاقتصاديّة. - أدلت أليثيا بملاحظتها.

- محامي القضايا الخاسرة. - تذكّر بارغاس - مَن وفَّرَ وجد...

اقتربا من مدخل المستودع المعنون بالرقم ثلاثة. ما تزال الآثار الحديثة لإطارات شاحنة النقل مميّزة في الوحل أمام بوّابة خشبيّة موصدة بقضبان حديديّة تحول دون الدخول. ثمّة بابٌ أصغر حجمًا منحوتٌ في البوابة الأمّ، وكان مغلقًا بسلسلة وقفل صدئ لا يتعدّى حجمه قبضة اليد.

- كيف حالنا مع القوة المفرطة؟ - سألت أليثيا.

- لا تنتظري منّي أن أفتحه بأسناني. - اعترض بارغاس.

- لا أدري. افعل شيئًا.

أخرج رجل الأمن مسدّسه الريفولفر وأدخل قصبته من مسافة قريبة جدًا في ثقب القفل.

- تنحي جانبًا. – أمرها.

ضغطت أليثيا على أذنيها بيديها. فحام دويُّ الرصاصة بين مباني المنشأة. أخرج المسدّس من القفل فسقط عند قدميه ساحبًا معه السلسلة. فدفع بارغاس الباب برفسة واحدة.

كانت الظلال في الداخل ممتدّة ومتشابكة بنتأ ما بينها حطامُ ألف بناية. وتتدلّى من السقف شبكةً من الأسلاك التي تحمل مصابيح صغيرة وعارية. اتّبع بارغاس آثار الدارة على الحيطان حتى وصل إلى المنظّم الكهربائيّ البارز من الجدار وكبس الزرّ المركزيّ. فأضيئت المصابيح برذاذ نور مصفرّ ومتذبذب ونتابع بطيء، كأنّها تنير معرضًا من الأشباح.

وكان التيّار يُصدِر طنينًا طفيفًا أشبَه بما يصدر عن غيمة من الحشرات المحلّقة في الظلام.

سارا في الممرّ الذي يقطع المستودع. وكان على الجانبين عدّة أقسام مغطّاة بشبكة معدنيّة. وعلى مدخل كلّ منها لافتةٌ مسجّلة برقم القسم، والمهلة المحدّدة لإفراغه بالشهر والعام، فضلا عن اسم أو كنية صاحب المؤسسة المالكة للأغراض المخزونة. وكان كلّ من تلك المقسّمات يستضيف عالمًا بأسره. لمحا في المجال الأوّل قلعة مكونة من مئات الآلات الكاتبة القديمة والآلات الحاسبة وصناديق المحاسبة. والمجال التالي يحتوي على ذخيرة هائلة من الصلبان وتماثيل القدّيسين والمنابر وحُجُرات الاعتراف.

- بهذه الأغراض يمكنهم بناء دير. - قالت أليثيا.

- ما زالت أمامكِ الفرصة سانحة...

اصطدما بدوَّارةٍ كبيرة ومفكّكة خلف ما تبدَّى لهما أنقاض معرض متنقِّل. وفي الطرف الآخر من الممرّ، ثمّة مجموعة من التوابيت وتركات الموتى من أذواق القرن التاسع عشر، بما فيها من سرادق زجاجيّ الجوانب، بداخله سريرٌ حريري ما زال محافظًا على آثار أحد الراحلين البارزين الذي نام عليه.

- يا إلهي.... من أين تأتي كلّ هذه الأغراض؟ - غمغم بارغاس.

- معظمها من ثروات لم يرثها أحد، من عائلات نبيلة كانت قد انهارت قبل الحرب، ومن مؤسسات طواها النسيان...

- هل أنتِ متأكدة من وجود أحدٍ يتذكّر أنّ كلّ هذا واقعٌ هنا؟

- ما يزال أحدهم يدفع الإيجار.

- منظرٌ يقشعرّ له البدن، في الحقيقة.

- برشلونه بيتٌ مسحور يا بارغاس. الحال أنّه لا يخطر في بالكم يا معشر السيّاح أن تنظروا ما خلف الستار. ها هو، إنّه هنا.

توقّفت أليثيا عند أحد الأقسام وأشارت إلى اللافتة.

عائلة وبريانس – بوراك

رقم 28887 -BC- 560 9-62

- هل أنتِ واثقةً من فعلها؟

- لم أكن أعتقد أنّك صعب الإرضاء يا بارغاس. سأتحمّل المسؤوليّة بنفسي.

- كما تريدين. عمّ نبحث بالضبط؟

- لا أدري. عن خيطٍ يصل ڤايس بسالغادو ودافيد مارتين وسيمبيري وبريانس ولائحة الأرقام الملغّزة وكتب ماتايكس، وسانشيس وسائقه عديم الوجه مؤخّرًا. إن وجدنا ذلك الخيط، عثرنا على ڤايس.

- وهل تعتقدين أنّ الخيط هنا؟

- لسنا متأكدين من أنّه ليس هنا.

كان القسم موصدًا بقفل بسيط من الخردة، تفكّك جرّاء الضربة الخامسة بكعب الريفولفر. لم تدخّر أليثيا الوقت وسرعان ما دلفت إلى الداخل.

- رائحة ميّت. - قال بارغاس.

- إنّها نسمات البحر. تعطّلت حاسّة الشمّ لديك بعد إقامة طويلة في مدريد.

أطلق بارغاس لعنةً وتبعها. كانت أكداس الصناديق الخشبيّة، المكسوّة بالستائر، تُشكّل ممرًا فيما يشبه الفِناء حيث أوقعت زوبعة هوجاء من أعالي عليائها رفاةَ أجيالٍ عديدة من سلالة بريانس.

- لا بدّ أنّ برياس هو الغيمة السوداء بين افراد عائلته. لست تاجر آثار، لكني أرى هنا ثروات هائلة. - ارتجل بارغاس.

- آمل إذن أن تسمح لك عفّتك القانونيّة بالصمود أمام رغبتك في سرقة منفضة فضيّة من جدّة بريانس...

أشار بارغاس إلى مهرجان الأواني، والمرايا، والكراسي، والكتب، والمنحوتات الخشبيّة، والحاويات، والخزانات، والمناضد، والأدراج، والدرّاجات، والألعاب، وعدّة التزلّج، والأحذية، والحقائب، واللوحات، والأوعية ومئة ألف أداة مكدّسة بعضها فوق بعض لتُشكّل خارطةً من الموزاييك المتغاير الأشبه بسرداب موتى أكثر من أيّ شيء آخر.

- من أيّ قرنٍ تودّين البدء؟

- من أرشيف بريانس. نحن بصدد البحث عن علبٍ كرتونيّة من الحجم المتوسّط. لا ينبغي أن يكون هذا صعبًا. من المحتمل أنّ الحمّالين آثروا إفراغ شحنات المحامي في أقرب حيّزٍ فارغ إلى المدخل. أيُّ غرضٍ لا تعتليه إصبعان من الغبار قد يكون هدفًا ممكنا.

هل تفضِّل البدء من اليمين أم من اليسار؟ أم إنّه سؤال غبيّ؟

بعد مرور عدّة دقائق من النبش وسط أدغال الأغراض التافهة التي كانت هناك قبل ولادة أيّ منهما أغلب الظنّ، عثرا على هرمٍ من العلب التي ما زالت عليها علامة شبيهة بتلك التي انتزعتها

أليثيا. تقدّم بارغاس إلى الأمام وأخذ يرتّبها في صفّ علبة بعد علبة بينما تفتحها أليثيا وتتحقّق من محتواها.

- أهذا ما كنتِ تبحثين عنه؟ - سألها.

- ما زلت لا أدري.

- خطّة محكمة. - غمغم النقيب.

استغرقا قرابة نصف الساعة في فصل العلب التي تحوي وثائق عن تلك الممتلئه بالكتب وأغراض المكتب. لم يكن الضياء العليل، الذي تغدقه المصابيح من السقف، كافيًا لمعاينة الوثائق بدقّة، فراح بارغاس يبحث عن شيء يستنار به. وعاد بعد قليل بشمعدانٍ نحاسيّ قديم وبقبضةٍ من الشموع الغليظة التي بدت أنّها لم تُستخدم يومًا.

- هل أنت متأكد من أنّها ليست أصابع ديناميت؟ - سألته.

وضع بارغاس شعلة ولاعته على بعد سنتمتر من الشمعة الأولى وأعطاها لها.

- هل تريدين نيل الشرف؟

شكّلت الشموع هالة ضياء وبدأت أليثيا بالتقصّي في الملفّات الناتئة من قمّة العلب ملفًا تلو آخر. وكان بارغاس يراقبها متوترًا.

- ماذا أفعل؟

- الملفّات مرتّبة وفق التاريخ. ابتداءً من يناير 1934. سأبحث أنا حسب التاريخ، وأنت حسب الأسماء. ابدأ من الملفّات الأخيرة وسنلتقي في الوسط.

- ولكن، عمَّ أبحث؟

- سانشيس، متروبارنا... أيّ شيء يسمح لنا بوصل بريانس ب....

- موافق. - اختصر بارغاس.

نبشا العلب مدّة عشرين دقيقةٍ يخيّم عليها الصمت، يتبادلان نظرات وإيماءاتٍ نافية من حين إلى حين.

- هنا لا يوجد شيء عن سانشيس ولا عن متروبارنا. - قال رجل الأمن - لقد بحثت في خمس سنوات ولم أعثر على شيء.

- تابع البحث. لعلّك تجد شيئًا تحت مسمّى المصرف العقاريّ.

- لا شيء عن أيّ مصرف. كلّهم زبائن فقراء معدمون، هذا إذا استخدمنا مصطلحًا قانونيًّا...

- تابع البحث.

أومأ بارغاس وغطس ثانية في محيط الوثائق والملفّات بينما تتعرّق الشموع وتخلّف عنقودًا من الدموع يقطر على طول الشمعدان. وبعد قليل، انتبه أنّ أليثيا كانت غارقة في صمتها ومتوقّفة

عن البحث. رفع أنظاره فوجدها متسمّرة بلا حراك، عيناها مثبّتتان على رزمة من الأضابير التي أخرجتها من إحدى العلب.

- ماذا هناك؟ - سألها.

أرته إضبارةً ضخمة.

- إيزابيلا خيسبرت... – قالت.

- سيمبيري و...؟

هزت أليثيا رأسها. وأظهرت على مرآه إضبارةً أخرى بعنوان:

«مونتويك 39-45». بدأت تفتّش بين الملفّات وتخرج منها.

- فالنتين مورغاذو...

- سائق سانشيس.

- سيمبيري/ مارتين...

- أرني.

فتحت أليشيا الإضبارة.

- أهذا هو صاحبنا دافيد مارتين؟

- يبدو كذلك...

توقف فيرمين.

- أليثيا؟

رفعت عينيها عن ملفّ دافيد مارتين.

- انظري هنا.

- قال النقيب.

كانت الإضبارة التي يريها لأليثيا سميكةً بحجم إصبعين على الأقلّ. وإذا قرات هذا الاسم على الغلاف، راودتها رعشةٌ وقلتت من بين شفتيها ابتسامة.

- فكتور ماتريكس...

- برأيي لقد حصلنا على ما فيه الكفاية. - قال بارغاس.

وحين كانت تغلق العلبة وقعت عيناها على ظرفٍ مصفرّ في العمق. أخذته وتفحّصته على ضوء الشمعة. ظرف بحجم A4. مدموغ بالشمع. نفخت عنه قشرة الغبار التي تغطّيه وقرأت الكلمة المخطوطة بالقلم، الوحيدة على الظرف.

إيزابيلا

- سنأخذ معنا كلّ شيء. - قالت - أغلق العلب وحاول أن تتركها كما وجدناها تقريبًا. قد تمرّ أيّام، وربما أسابيع، ريثما يحصل بريانس على مكتب جديد ويفطن إلى نقصٍ في أحد الملفّات.

وافق بارغاس، لكنّه قبل أن يرفع العبة الأولى عن الأرض توقّف على حين غرّة والتفت. نظرت إليه أليثيا. فهي أيضًا سمعت ما سمع.

خطوات. أصداء دوسٍ على طبقة الغبار التي تكسو أرض المستودع.

نفخت أليثيا على الشموع. وأخرج بارغاس الريفولفر. وارتسم طيفٌ على العتبة. رجلٌ محشوٌّ ببدلة مهترئة يراقبهما. كان يحمل قنديلًا وهراوة ترتجف في يده، ما يعني أنّ المسكين كان مرعوبًا أكثر من فأر الدكاكين.

- ماذا تفعلان هنا؟ - تلعثم الحارس - الدخول ممنوع بعد السابعة.

نهضت أليثيا ببطء وابتسمت له. ثمّة شيء في مظهرها لا بّد وأنّه جمّدَ أحشاءه، لأنّه تراجع خطوة إلى الخلف وأشهَرَ الهراوة بطريقة تهديديّة. فصوَّتَ بارغاس قصبة المسدّس في صدغه.

- إذا لكنتَ لا تفضِّل أن اسخدمه تحميلةً في الشرج، أرجوك ان تدع الهراوة.

ترك الحارس الهراوة تسقط من يده وتحجَّرَ في مكانه.

- من أنتما؟ - سأل.

- أصدقاء العائلة. - قالت أليثيا - كنّا قد نسينا بعض الأغراض.

هل في صحبتك أحدٌ آخر؟

- أنا الحارس الوحيد لكلّ المستودعات. لن تقتلني، أليس كذلك؟ لديّ زوجة وأطفال. ومعي صورة لهم في المحفظة...

أخذ بارغاس المحفظة من جيبه. وجعل النقود تسقط منها على الأرض، ودسَّها في معطفه.

- ما اسمك؟ - سألته أليثيا.

- بارتولوميه.

- يعجبني اسمك. اسم ذكوريٌّ للغاية.

كان الحارس يرتجف.

- اسمع يا بارتولوميه، سنتّفق على شيء: سننصرف إلى البيت، وأنت كذلك. وفي صباح الغد، قبل أن تجيء إلى هنا، اشترِ قفلين جديدين وركّبهما بدلًا عن قفل المدخل وقفل هذه الشبكة. وانسَ أنّك رأيتنا. ما رأيك بهذا الاتفاق؟

لقَّمَ بارغاس القادح. وابتلع بارتولوميه ريقه.

- ممتاز.

- وإن حَدَثَ وهاجمتك نوبةُ ضمير موجعة، أو سألك أحدٌ عن شيء، تذكّر أنّ المرتَّب الذي تتقاضاه لا يستحق كلّ هذا العذاب وأنّ عائلتك في حاجة إليك.

أومأ بارتولوميه. أبعد بارغاس إصبعه عن القادح وأنزل السلاح.

فابتسمت أليثيا للحارس كما لو أنّها صديقته.

- هيّا، اذهب إلى بيتك واشرب كأسًا من الكونياك الساخن.

وجمِّع نقودك.

- حاضر سيّدتي...

قرفص بارتولوميه وجمع الأوراق النقديّة القليلة التي كانت في المحفظة.

- لا تنسَ الهراوة.

أمسكها الرجل وثبّتها على حزامه.

- أيمكنني الانصراف؟

- لا أحد يستبقيك.

تردّد بارتولوميه لوهلةٍ ثم تراجع نحو المخرج. وقبل أن يختفي طيفه في الظلّ، نادته أليثيا.

- بارتولوميه؟

توقّفت خطوات الحارس.

- تذكَّر أنّ محفظتك في حيازتنا ونعرف أين تسكن. لا تجبرنا على زيارتك. فزميلي هذا تراوده نوباتُ صرعٍ مروَّعة. ليلة سعيدة.

ابتعدت خطاه المهرولة هربًا.

(31)

حمل ميغيل إلى بيتها ترموس القهوة المحضَّرة توًا لشخصين، وأبهجها بإناء من المعجنات الطازجة ذات الرائحة الزكيّة من الفرن عند الزاوية. تقاسمت وبارغاس الأضابير وجلسا على الأرض أحدهما بواجهة الأخر. التهمت أليثيا ثلاثة معجّنات بتسلسلٍ سريع، وملأت فنجان قهوة وأخذت ترتشف منه، وعيناها مسلّطتان على أولى الأضابير التي سحبًاها من ارشيف برياس. وبعد قليل، رفعت عينيها واشبهت انّ بارغاس يرمقها بحياء.

- ما بك؟ - سألته.

أشار إلى التنّورة التي رفعتها أليثيا كي تستطيع التربُّع وتسند ظهرها إلى الأريكة.

- لا تكن متصابيًا. آمل أنْ لن يكون هناك أكثر ممّا رأيته مسبقا.

افعل ما عليك فعله.

لم يردّ، لكنّه غيّر زاوية جلسته للحيلولة دون النظر إلى ذلك الخطّ المطرَّز على الجوارب، الذي كان يمنعه من تركيز انتباهه على النثر الممتع الطاغي على الملفّات القضائيّة والمذكّرات القانونية للمحامي نصير القضايا الخاسرة.

ولجا إلى قلب الليل بصمت، تحت قيادة القهوة والسكّر والمنظر الذي بدأ يتكشّف من تلك الوثائق. كانت أليثيا قد جلبت دفتر رسم بأبعاد كبيرة، وتخطط عليه بين الحين والآخر ما يشبه خريطةً من الملاحظات والتواريخ والأسماء والأسهم والدوائر. وكلّما وجد بارغاس ما يثير الاهتمام مرّره إليها. لم يكن من ضرورة لتعلّق بأيّ شيء، إذ تكتفي بإلقاء نظرة عليه وتومئ بصمت. كانت تبدو أنّها تمتلك قدرة خارقة للطبيعة في ترسيخ الصلات والروابط، لكأنّ دماغها بدور بسرعة تعادل مئة ضِعف أدمغة بقيّة البشر. حتّى إن بارغاس بدأ يدرك الطريقة التي يعمل بها عقلُ زميلته، فتجنّب النقاش فيها أو محاولة فهم منطقها الباطنيّ، واكتفى بأداء دور الفارز وتمرير المعطيات الجديدة إليها لكي يتسنىّ لها إكمال بناء خريطتها، وثيقة في إثر وثيقة.

- لا أدري السبب، لم أعد أستطيع الوقوف على قدميّ. - قال بارغاس في الثانية والنصف. كان قد انتهى من تفحُّص حصّته من الأضابير كاملةً وانتابه شعورٌ بأنّ الكافيين الذي حلّ مكان الدماء في عروقه قد فقد مفعوله. وضاقت عيناه ذرعًا.

- اذهب للنوم. - نصحته أليثيا - لقد تأخر الوقت.

- وأنتِ؟

- لست نعسانة.

- كيف يُعقل ذلك؟

- أنا والليل، أنت تعلم...

- هل يؤسفكِ إن استلقيتُ على الأريكة قليلًا؟

- كلّها لك، لكنّي قد أثير الضجّة قليلًا.

- لن يوقظني شيء، حتّى أوركسترا البلديّة.

أيقظته أجراس الكاتدرائيّة. فتح عينيه على ضباب كثيف يتمدّد في الهواء بنكهة القهوة والتبغ الأشقر. وكانت السماء فوق السطوح تزدهي بلون الخمر الطازج. أليثيا ما تزال جالسة على الأرض. السيجارة بين شفتيها، وقد نزعت عنها التنّورة والقميص ولم يكن عليها من شيء سوى لباس داخليّ أسود يبعث كل شيء ما عدا الطمأنينة. جرجر بارغاس نفسه إلى الحمّام ما استطاع، ووضع رأسه تحت الصنبور ثمّ نظر إلى نفسه في المرآة. وجد رداء من الحرير الأزرق معلّقًا على الباب فرماه إلى أليثيا.

- غطّي نفسك.

تلقّفته وهو يطير. نهضت ومطّت أطرافها، والتحفت الرداء.

- سأفتح النافذة قبل أن يأتي رجال الإطفاء لإنقاذنا. - قال بارغاس.

تغلغلت نسمة هواء منعشة في الغرفة سرعان ما بدّدت دوّامةَ الدخان مثل عفريتٍ يقع في فخّ تعويذة. نظر رجل الأمن إلى بقايا القهوة، والمعجّنات التي استحالت إلى سكّرٍ مسحوق، والمنفضتين المكتظّتين بأعقاب السجائر التي دُخِّنَتْ بشراهة.

- بشّريني بأنّ التعب لم يذهب سدى.

باستثناء مخلّفات المعركة، كانت أليثيا قد أعدَّت مخطّطًا بيانيًا بعشرات صفحات دفتر الرسم. وقد جمعتها وعلّقتها بعناية على الجدار، ما أنتج شكلًا يشبه الدائرة. اقترب بارغاس. كانت أليثيا تلعق شفتيها مثل قطٍّ هانئ.

خضّ النقيب الترموس ليرى إن تبقّت فيه بعض القهوة، وصبّ لنفسه نصف فنجان. وضع كرسيًّا أمام الرسم البيانيّ الذي صمّمته أليثيا وهز رأسه.

- أدهشيني.

ضمت الرداء الحرير على جسمها وعقدت شعرها على رقبتها.

- هل تريد الرواية الطويلة أم القصيرة؟

- ابدئي من الفهرس ثمّ نرى.

وقفت أليشيا عند مخطّطها، كأنّها معلّمة في مدرسة ابتدائيّة تتشبّه بال «جيشا» الفكتوريّة ذات العادات الليلية المريبة.

- قلعة مونتويك، ما بين عامي 1939 و1944. ماوريسيو ڤايس مديرُ السجن القلعة بعد أن عقد زواجًا بإيلينا سارمينتو، ابنة ووريثة أحد أكبر أصحاب المصانع وأكثرهم ثراءً وتقرُّبًا للنظام، ومنتسبٍ لحلقةٍ تجمع كبار المصرفيّين ورجال الأعمال والنبلاء، سمَّاها أحدهم «صليبيو

فرانكو»، إذ كانوا يدعمون القوميّين ويموّلون خزائنهم بشكلٍ كبير. من بينهم الدون ميغيل أنخل يوباش، مؤسس المصرف العقاريّ وصاحب أكبر الأسهم فيه، المصرف الذي نشأت منه شركة رؤوس الأموال متروبارنا التي زرتها في الأمس.

- كلّ هذه المعلومات موجودة هناك؟

- في ملاحظات المحامي برباس، أجل.

- تابعي.

- خلال الأعوام التي كان ڤايس فيها مديرًا لسجن مونتويك، يكون من بين السجناء والزبائن الذين يرافع عنهم فرناندو بريانس، بين الفينة والأخرى، التالية أسماؤهم: أوّلًا، سيباستيان سالغادو، المفترَض أنّه صاحب رسائل التهديد المبعوثة عبر البريد إلى ڤايس على مدى أعوام، يحصل على عفوٍ عجيب بدعمٍ من الوزير نفسه لإخراجه من السجن، فيستطيع البقاء حيًّا في العالم الخارجيّ قرابةَ ستة أسابيع. ثانيًا، فالنتين مورغانو، عريف سابق في الجيش الجمهوريّ يشمله العفو العامّ الذي صدر في 1945 بفضل قيامه ببطولة داخل السجن عندما، بحسب مدوّنات بريانس، ينقذ ضابطًا في فيلق القلعة كاد يموت بحادثة وقعت أثناء ترميم أحد الأسوار. يخرج من السجن، مستفيدًا من برامج الصفح والمصالحة التي نظّمتها جمعيّةٌ من الوجهاء ذوي الضمائر القذرة، فيعيّنوه متدرِّبًا في أحد مرائب عائلة يوباش، ليصبح سائقًا مع مرور الوقت. وعند وفاة المصرفيّ يوباش، ينتقل مورغاذو إلى خدمة ابنته فكتوريا التي ستعقد زواجًا مع صديقك سانشيس المدير العامّ لشركة متروبارنا.

- أما من مزيد؟

- هذه مجرّد بداية. ثالثًا، دافيد مارتين. كاتبٌ ملعون ومتّهم بجملة من الجرائم الغريبة التي وقعت خلال الحرب الأهليّة. يتمكّن مارتين من الفرار من البوليس عام 1930، متجهًا إلى فرنسا أغلب الظنّ. ولأسباب مبهمة، يعود في الخفاء إلى برشلونة لتقبض عليه الشرطة في منطقة بويغثيردا، عند جبال البيرينيه، بعد دخوله إسبانيا بقليل، عام 1939.

- ما علاقة دافيد مارتين بهذه القضيّة، ما عدا أنّه كان سجينًا في تلك الأعوام نفسها؟

- هذا ما يجعل القصّة مثيرة للاهتمام. مارتين هو الوحيد من بين أولئك السجناء الذي لم يكن زبونًا مباشرًا لدى بريانس. المحامي يتكفّل بقضيّته بناءً على طلب إيزابيلا خيسبرت.

- التي من سيمبيري وأبناؤه؟

- والدة دانيال سيمبيري، أجل. خيسبرت كنيتها قبل الزواج.

يُعتَقد أنها توفّيت بالكوليرا بعد نهاية الحرب بقليل عام 1939.

- يُعتَقد؟

- بحسب ملاحظات بريانس الشخصيّة، هناك أسبابٌ تحيل على الظنّ بأنّ إيزابيلا قُتِلَت. سُمِّمت، للدقّة.

- لا تقوليها...

- بالضبط، من قِبَلِ ماوريسيو ڤايس. بسبب هوسٍ مريض وشهوةٍ لم تلق جوابًا، أو هذا ما يفترضه بريانس الذي بطبيعة الحال لا يستطيع، أو لا يجرؤ، على إثبات شيء.

- ومارتين؟

- دافيد مارتين هو موضوع هوسٍ مرَضيّ آخر لڤايس، بالنسبة إلى الملاحظات نفسها.

- هل للوزير أهواءٌ أخرى؟

- على ما يبدو، كان ڤايس يريد إرغام مارتين، خلال فترة حبسه، على كتابة أعمالٍ سينشرها الوزير المستقبليّ باسمه إرضاءً لغروره وتطلُّعه للمجد الأدبيّ، أو أيًّا كان. ولكن، للأسف، بحسب بريانس، فإنّ دافيد مارتين رجلٌ مريض يفقد رشده شيئًا فشيئًا، يسمع أصواتا ويعتقد أنّه في تواصلٍ مع شخصيّة شيطانيّة من بنات أفكاره، كوريلي.

والحال أنّه بات يتعرّض لنوبات هذيان مفرطة، فقرّر ڤايس أن يعزله خلال عامه الأخير من الحياة في منفردة في قمّة أحد أبراج القلعة، وهذا ما يجعل المعتقلين يطلقون عليه لقب «سجين السماء».

- الاشياء تبدو هكذا لا ثقه بكِ يا أليثيا.

- عام 1941، يستنتج ڤايس أنّ خطّته لإجبار الكاتب لا تؤتي أكلها، فيأمر اثنين من زبانيته باقتياد مارتين إلى فيلا بجوار منتزه غويل وإعدامه فيها. وهناك يحدث شيء ما يمكّن مارتين من الفرار.

- دافيد مارتين ما يزال حيًا إذن؟

- لا ندري. أو بريانس على الأقلّ، لا يدري.

- لكنّه يشكّ في ذلك.

- ومن الوارد أنّ ڤايس أيضًا يشكّ في ذلك...

-... ويظنّ بأنّ مارتين هو الذي بعث رسائل التهديد وحاول اغتياله. انتقامًا.

- هذه فرضيّتي. - أكّدت أليثيا - لكنّها مجرّد تخمين.

- هل تبقّت معلومات أخرى؟

- تركت أفضلها للختام. – ابتسمت.

- هاتها.

- رابعًا، فكتور ماتيكس، مؤلّف سلسلة «متاهة الأرواح»، التي وجدنا منها نسخة، أنا وأنت، مخبّأة في مكتب الوزير. والتي بحسب ما تذكره ابنته مرثيديس، كانت آخر وثيقة يقرأها ڤايس قبل ليلة من اختفائه من على وجه الأرض.

- ما علاقة ماتايكس بأولئك الثلاثة؟

- يبدو أنّ ماتايكس كان صديقًا لدافيد مارتين، ورفيق دربه القديم في الثلاثينيات، عندما كان كلٌّ منهما يؤلّف روايات متسلسلة تحت اسم مستعار لمصلحة دار النشر باريدو وإسكوبياس. ملاحظات بريانس تفترض أنّ ماتايكس أيضًا وقع ضحيّة لخطّة شبيهة بالخطّة التي وضعها ڤايس لمارتين. ومن يدري، ربّما كان ڤايس يحاول تجنيد أقلام خفيّة تراكم عملًا أدبيًا يسمح له بتكوين اسم وشهرة في عالم الآداب. فمن الواضح أنّه كان يمقت رؤية نفسه في اداء دور سجّان النظام، كان يعوِّل كثيرًا على زيجة المنفعة ويتطلّع إلى طموحات أرقى.

- لا بدّ أن يكون هناك سبب آخر. ما مآل ماتايكس؟

- ماتايكس يدخل السجن في مطلع عام 1941 منقولًا من سجن موديلو. وبعد عام، إن أردت الاعتماد على التقارير الرسميّة، ينتحر في زنزانته. وأغلب الظنّ أنّهم أعدموه وألقوا جثّته في حفرة جماعيّة دون أن يتركوا منه أيّ أثر مكتوب.

- والهوس المرضيّ في هذه الحالة هو...؟

رفعت أليثيا كتفيها.

- في هذه الحالة، بريانس لا يدوّن افتراضات، لكنّي أسمح لنفسي بلفت انتباهك إلى أمرٍ ما، وهو أنّ ماوريسيو ڤايس حين يؤسّس دار النشر عام 1947، يطلق عليها اسم «أريادنا»، وهو اسم البطلة في سلسلة «متاهة الأرواح»...

تنهد بارغاس وفرك عينيه، محاولًا الإحكام على كلّ ما نقلت إليه أليثيا للتوّ...

- مصادفات كثيرة جدًّا. - قال في النهاية.

- أوافقك. - أجابت أليثيا.

- فلنرَ إن كنتُ قد فهمت. إن كانت كلّ هذه الصلات موجودة ونحن - أو أنتِ بالأحرى، تمكّنتِ من اكتشافها في ثلاثة أيّام، فكيف يُعقَل أن الشرطة وأجهزة الدولة العليا، وبعد عدّة أسابيع من التحقيقات والاستقصاءات، لم تتوصّل إلى شيء؟

عضت أليثيا شفتها السفلى.

- هذا بالضبط ما يقلقني.

- هل تظنين أنّهم لا يريدون العثور على ڤايس؟

فكّرت أليثيا بالسؤال قليلًا.

- لا أعتقد أنّهم قادرون على الحصول على هذا الترف. ڤايس اليس واحدًا يختفي ونقطة انتهى.

- فإذن؟

- ربّما يريدون أن يعرفوا مكانه فقط. وربّما لا يهمّهم الكشف عن الأسباب الحقيقيّة لاختفائه.

هزّ بارغاس رأسه وفرك عينيه مجدّدًا.

- هل تعتقدين أنّ مورغاذو وسالغادو ومارتين، السجناء الثلاثة الذين كانوا في قبضة ڤايس، جهّزوا خطّة للانتقام منه، وبذلك يثأرون لرفيقهم المغدور فكتور ماتايكس؟ أهذا ما تفكّرين به؟

شدّت أليثيا كتفيها.

- ربّما لا شأن لمورغاذو السائق. لعلّ مديره سانشيس هو المتورّط.

- ولماذا سيُقدِم سانشيس على خطوةٍ من هذا النوع؟ فهو من رجالات النظام، ومتزوّج بوريثة أكبر الثروات في البلد... إنّه نسخة مصغَّرة عن ڤايس. لماذا يُقحم رجلٌ مثله أنفه في ورطة كهذه؟

- لا أدري.

- وماذا عن لائحة الأرقام التي وجدناها في سيّارة ڤايس؟

- قد يكون لها أيّ سبب. وقد لا يكون لها أيّ شأن بكلّ هذا.

مصادفة. لقد قلت ذلك أنت أيضًا. ألا تذكر؟

- مصادفة أخرى؟ خلال عشرين عامًا من العمل في الشرطة تعرّضتُ لمصادفاتٍ حقيقيّة أقل ممّا التقيتُ بأناسٍ يقولون الحقيقيّة.

- لا أدري يا بارغاس. لا أعرف ما الذي تعنيه تلك الأرقام.

- أتعلمين ما الذي لا أراه منطقيًّا في كل هذا؟

هزّت أليثيا رأسها كأنّه تقرأ أفكاره.

- ڤايس. - أجابت.

- ڤايس. - أكّد بارغاس - بغض النظر عن إدارته سجن مونتويك، أو أيّ شيء آخر يفعله، سواء أكان تسميم إيزابيلا سيمبيري أم اغتيال أو محاولة اغتيال دافيد مارتين، ماتايكس ويعلم الله من غيرهم... ففي المحصّلة، نحن نتحدّث عن جزّارٍ وضيع، سجّانٍ موصول بأدنى مستويات النظام. يوجد عشرات الألوف مثله. تلتقين بهم كلّ يوم في الشارع. لديهم علاقات وصداقات ومعارف من المناصب العليا، هذا صحيح، لكنّهم في النهاية مجرّد لاعقي مؤخّرات. حثالة وخدم طموحون. فكيف يستطيع رجلٌ على هذه الشاكلة أن يصعد بأعوام قصيرة من مجاري القذارة إلى أعالي النظام؟

- سؤال جيد، أليس كذلك؟ - قالت أليثيا.

- افعلي ما يمكن لكي تستطيع رأسك المميّزة أن تجد الإجابة، فنعثر على القطعة الناقصة عسى أن تكتسب كلّ هذه الفوضى معنًى ما.

- وأنت، ألن تساعدني؟

- بتُّ أشكّ أنّ الأمر يناسبني. حدسي يخبرني أنّ العثور على مفتاح أحجيتكِ قد يكون أخطر من عدمه، وأنا أتطلّع إلى تقاعدٍ هانئ خلال بضعة أعوام لعلّي أعيد قراءة مسرحيّات لوبي دي فيغا من أوّلها إلى آخرها.

استرخت أليثيا على الأريكة، وحماستها تتقهقر. أنهى بارغاس فنجانه البارد وتنهّد. دنا من النافذة وسحب نفسًا عميقًا. ورنّت أجراس الكاتدرائيّة في البعيد مجدّدًا، فلاحظ النقيب أنّ الشمس تبدأ في مدّ خيوط ضوئها بين أبراج الحمام والأجراس.

- أسدي إليّ معروفًا. - قال - حتى هذه اللحظة، لا تنقلي أيّ كلمة من كلّ هذا إلى لياندرو أو أيّ أحد آخر.

- لست مجنونة. - اختصرت أليثيا أغلق النافذة واقترب منها وقد تبدّت معالم الإرهاق عليها.

- ألم يحن الوقت لتستلقي في تابوتكِ؟ - سألها - هيّا.

أمسك بيدها واقتادها إلى غرفة النوم. أزاح الغطاء وأشار لها بالاستلقاء تحته. فأسقطت أليثيا الرداء عند قدميها وانزلقت تحت الغطاء. غطّاها بارغاس إلى حدّ ذقنها ونظر إليها مبتسمًا.

- ألا تقرأ عليّ حكاية؟

- اذهبي للتنزّه.

حمل الرداء عن الأرض واتجه إلى الباب.

- هل تعتقد أنّهم نصبوا لنا فخًّا؟ - سألته أليثيا.

تمعَّن بكلماتها.

- لماذا تقولين ذلك؟

- لا أدري.

- نحن من ننصب الفخاخ لأنفسنا بأيدينا. والشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنّه عليكِ أن تستريحي.

دنا بارغاس من الباب.

- هل ستبقى هنا؟

هزّ رأسه بنعم.

- صباح الخير يا أليثيا. - قال وهو يغلق باب الغرفة.

(32)

لقد فقد ڤايس مفهوم الزمن. لا يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو هناك، أيّامًا أم أسابيع. لا يرى ضوء الشمس منذ عصريّةٍ بعيدة حين كان على شارع بايبذريرا بالسيّارة وبيثنتي بجواره. يده تؤلمه وكلّما حاول أن يدلّكها لا يجدها. يشعر بوخزات بين الأصابع التي لم يعد يملكها، وينتابه وجعٌ حادّ عند براجمه، كأنّ أحدًا يدكّ في عظامه مسامير حديد. ومنذ ساعات، أو أيّام، وخاصرته تؤلمه. لا يتمكّن من رؤية لون بوله الذي يصبّ في الدلو النحاسيّ، لكنّه يعتقد أنّه أغمق من المعتاد ومصبوغ بالدماء. وهي لم تعود ومارتين لا يظهر أبدًا. لا يفهم. ألم يكن هذا ما يريده؟ أن يراه يتفسّخ داخل زنزانة؟

السجّان عديم الوجه والاسم يظهر مرّة باليوم، أو هكذا يظنّ. لقد بدأ يعُدُّ الأيّام بناء على زياراته. يحمل إليه ماءً وطعامًا. الطعام نفسه دائمًا: خبز، حليبٌ زنخ وفي بعض الأحيان ما يشبه اللحم المشمَّع الذي يبذل جهدًا في مضغه لأنّ أسنانه بدأت تتهاوى. وقد سقط له سنّان. أحيانًا يمرّر لسانه على لثّته ويتذوّق طعم دمائه، ويشعر بأنّ أسنانه أضعف من أن تصمد أمام ضغط اللسان.

- أنا في حاجة إلى طبيب. - يقول عندما يأتيه السجّان بالطعام.

الرجل لا يتكلّم إلّا ما ندر. بالكاد ينظر إليه.

- منذ متى وأنا هنا؟ - يسأله ڤايس.

السجّان يتجاهل سؤاله.

- قل لها إنّني أريد التحدّث إليها. أن أشرح لها الحقيقة.

وذات مرّة، يستيقظ ليتكشف أنّ هناك أحدًا آخر في الزنزانة. إنّه السجّان، يمسك بيده شيئًا يلمع. لعلّها سكّين. لا يبدي ڤايس حيالها أيّ نوع من المقاومة. يشعر بوخزة على ردفه، وببرودة تنسلّ في جسمه.

مجرّد حقنة أخرى.

- إلى متى ستبقونني على قيد الحياة؟

ينهض السجّان ويتجه نحو المخرج. يتشبّث ڤايس بساقه، فيسدّد له بالأخرى ركلةً على البطن تقطع أنفاسه. فيقضي ساعات وهو منكمش على نفسه، يئنّ من الألم.

في تلك الليلة، يحلم بابنته مرثيديس ثانيةً عندما كانت صغيرة جدًّا. إنّهما في حديقة البيت في سوموسا غواس. يستوقف ڤايس أحد العاملين في البيت ليتحدّث معه فتضيع البنت من مجال رؤيته. وعندما يبحث عنها، يجد آثار خطواتها نحو بيت الدمي. يدخل المكان المظلم وينادي ابنته. فيجد ثيابها وبقعة من الدماء.

الدمى - التي تلعق شفاهها كالقطط - التهمت البنت.

(33)

حين استيقظ بارغاس من جديد، كان ضوء منتصف النهار يرشح من النوافذ. كانت الساعة على الحائط - وهي أداة من طراز القرن التاسع عشر لا بدّ أنّ أليثيا وجدتها في إحدى أسواق القطع القديمة - تشير إلى الثانية عشرة أو تكاد. سمع خطوات أنثويّة تطقطق في الصالة ففرك عينيه.

- لماذا لم توقظيني من قبل؟

- أحبّ أن أسمع شخيرك. كما لو أنّ لدي دبًّا صغيرًا.

نهض بارغاس وجلس على حافة الأريكة. حمل يديه إلى كليتيه ودلَّكَ الفقرات القطنيّة. كان لديه إحساسُ بأنّ أحدهم قد مرّر عموده الفقريّ في آلة لصنع السكاكر.

- إن أردتِ نصيحتي، لا تصبحي عجوزًا. فليس للأمر أيّ ميزة.

- فكّرت في ذلك مسبقًا. - ردّت أليثيا.

نهض النقيب ثانيةً، وهو يصارع الوخزات والانقراصات. كانت أليثيا، أمام مرآة الدُّرج، تمرّر الأحمر على شفتيها بسرعة. ترتدي معطفًا من الصوف الأسود الضيّق عند خصرها بفعل الحزام، وجوارب سوداء وحذاء بكعبين عاليين يسبّبان الدوار.

- هل انت ذاهبة إلى مكان ما؟

دارت حول نفسها دورة كاملة، كأنّها في استعراض أزياء، ونظرت إليه مبتسمةً.

- هل مظهري لائق؟

- من ستقتلين اليوم؟

- لديّ موعد مع سرخيو بيلاخوانا، الصحافيّ في جريدة الطليعة الذي حدّثني عنه برسلوه - الخبير بفكتور ماتايكس؟

- وأشياء أخرى، آمل ذلك.

- وهل لي أن أسألكِ كيف ربطتِ معه؟

- قلت له إنّه لديّ كتابًا لماتايكس وكنت أريد أن أريه إيّاه.

- ‹‹كنت أريد›› استخدامٌ فعليٌّ صحيح. أذكّركِ بأنّ الكتاب سُرِقَ منكِ وأنّه لم يعد موجودًا لديكِ.

- تفاصيل. من وفَّرَ وجد، على حدّ قولك. ثمّ إنيّ لدّي نفسي.

- يا أمّ الربّ المقدّسة...

وضعت أليثيا اللمسة الأخيرة على هندامها، قبّعة يتدلّى منها خمار يغّطي جزءًا من وجهها. وألقت نظرة أخيرة على المرآة.

- هل يمكنني أن أعرف مِن عند مَن أتيتِ بهذه الملابس؟

- من بالنثياغا.

- لا أقصد ذلك.

- أعرف. سأعود باكرًا- قالت وهي تمشي نحو الباب - هل يمكنني أن أستخدم حمّامكِ؟

- شرط ألّا تترك زغبًا في الحوض.

لم يكن تدبير اللقاء مع بيلاخوانا سهلًا كما وصفته لبارغاس. إذ اضطرت في الحقيقة إلى مواجهة سكرتيره في مقرّ الجريدة أولًا، ولم تنطلِ عليها الحكاية وكادت أن تصرفها. وبعد عدّة حيل، تمكّنت من التواصل مع بيلاخوانا الذي بدا على الهاتف أكثر تشكُّكًا من عالم رياضيّات مدعوٍّ إلى دردشة مع أساقفة.

- وتقولين حضرتِك أنّ لديكِ كتابًا لماتايكس؟ من سلسلة «متاهة الأرواح»؟

- «أريادنا والأمير القرمزيّ»..

- كنت أظنّ أنّه لم يتبقَّ منها أكثر من ثلاث نسخ.

- لا بدّ أنّ نسختي هي الرابعة.

- وتقولين إنّ غوستابو برسلوه من أرسلكِ إليّ؟

- أجل. قال لي إنّك كنت أحد أصدقائه الطيّبين.

انفجر بيلا خوانا ضاحكًا. كانت أليثيا تسمع الجلبة في مقرّ الجريدة من الطرف الآخر للخطّ.

- سأكون في مكتبة أكاديميّة الآداب الجميلة في برشلونة ابتداءً من منتصف النهار.-قال أخيرًا- هل تعرفينها؟

- سمعتُ عنها.

- اسألي عنّي في السكرتاريا. واحملي معكِ الكتاب.

(34)

متواريًا في ساحةٍ محتجبة بظلّ الكاتدرائيّة، ينهض الرواقُ الحجريّ الذي يُقرَأ على أقواسه العبارة التالية:

الأكاديميّة الملكيّة للآداب الجميلة في برشلونة.

كانت أليثيا قد سمعت الكثير عنها في بعض المناسبات، لكنّها مثل معظم مواطنيها، لم تكن تعلم شيئًا عن المؤسّسة التي تستضيفها جدرانُ ذلك المبنى، أحد آثار برشلونة القروسطيّة. كانت تعلم، أو تدرك، أنّ الأكاديمية أُنشِئت بفضل جهود حلقة ضّيقة من الحكماء والكتبة والمولعين بالآداب، الملزمين بحماية المعرفة والكلمة المكتوبة، وقد اتّحدوا في نهايات القرن الثامن عشر، بعزيمةٍ وإصرارٍ على تجاهل أنّ العالم الخارجيّ يعزّز صموده وقسوته إزاء غرائب مماثلة عامًا بعد عام.

كان طقس الأكاديميّة يتراوح ما بين العلوم الغيبيّة والمنتدى الأدبيّ، نبراسٌ تنويريٌّ موصد الأبواب لا تُفَتح إلا لقلّةٍ من المنتخبين يشاركون فيه ويشهدون عليه.

كان عطرُ الحجر وهالةُ غموض لا بدّ منها ترافق أليثيا وهي تجتاز العتبة المؤدّية إلى الفِناء الداخليّ، حيث هناك سلّمٌ يفضي إلى صالةٍ تقوم بمهام الاستقبال. اعترض طريقها رجلٌ له مظهر الكتب القديمة ومزاج مَن ظلَّ حيًّا في مطلع القرن الماضي، توجَّه إليها بنظرة تشكيك وسألها إن كانت «الآنسة» غريس.

- شخصيًّا.

- بدا لي ذلك. السيّد بيلاخوانا في المكتبة. - قال مشيرًا إلى الداخل - نطلب من الزوّار التزام الصمت.

- اطمئنّ يا سيّدي، لقد قدَّمت نذرًا هذا الصباح. - ردّت أليثيا.

لم يُدلِ ذلك الدماغ بابتسامة على النكتة فقرّرت أن تومئ له بالشكر وتنطلق في البحث عن المكتبة كما لو أنّها كانت تعرف أين تكون. إنّها الطريقة الأكثر فاعليّةً للولوج إلى أيّ مكانٍ محدود الدخول: أن تتصرّف كأنّك تعرف أين تذهب ولستَ في حاجة إلى إذنٍ أو إرشادات. لعبة الولوج هذه مشابهة للعبة الإغواء: مَن يطلبِ الإذنٍ يخسرْ قبل أن يبدأ.

تسكّعت أليثيا على هواها، تشبع فضولها في صالات مليئة بالتماثيل والممرّات البلاطيّة إلى أن اصطدمت بكائنٍ له ملامح الببليوفيليّ، حسن السلوك، قدَّم نفسه أنه بولونيو وتطوّع لاقتيادها عبرْ المكتبة.

- لم أركِ في هذه الأنحاء من قبل. - لاحظ بولونيو، الذي بدا أنّه بلا خبرة مع الجنس النسويّ إلّا بفضل أشعار بتراركا.

- هذا يوم سعدك إذن.

وجدت سرخيو بيلاخوانا صحبة ربّات الإلهام وما يقرب من خمسين ألف كتاب تشكّل العمق النثريّ لمكتبة الأكاديميّة. كان الصحافيّ جالسًا إلى إحدى الطاولات وأمامه قلعةٌ صغيرة من الأوراق التي تغصّ بالملاحظات والتصويبات، يعضعض طربوش قلم حبر سائل ويغمغم في سرِّه، يروِّض إيقاع جملةٍ تجمح منه ولا تهبط على الصفحة مثلما يريد. كان بيلاخوانا يمتلك سماحة المتأمّل وفتور المثقّف البريطانيّ إذا انتقل إلى الرخاء المتوسّطيّ. يرتدي بدلة من نسيج رماديّ، وربطة عنق تتخلّلها خطوط مذهّبة صغيرة وشالًا من لون الزعفران على الكتفين. تقدّمت أليثيا في الصالة وجعلت صدى خطواتها يعلن عن حضورها. أفاق بيلاخوانا من خيالاته وعبّر بنظرةٍ دبلوماسّية ولاسعة في آنٍ واحد.

- الآنسة غريس، أفترض. - قال وهو يغلق طربوش القلم وينهض باحترام.

- نادني باسمي أليثيا، أرجوك.

مدّت يدها فصافحها بيلاخوانا بابتسامةٍ على قدْرٍ من الإجلال والحشمة. وأشار لها بالجلوس. كانت عيناه الصغيرتان والثاقبتان ترمقانها بمزيجٍ من التشكُّك والفضول. أشارت أليثيا إلى الصفحات التي تغّطي الطاولة، ومازال بعضُها يحتفي بالحبر طازجًا.

- هل قاطعتك؟

- بل لقد انقذتِني. - ردّ بيلا خوانا.

- استقصاءٌ ببليوغرافيّ؟

- خطابي للانتساب إلى هذه المؤسسة.

- تهانينا.

- شكرًا. لا أودّ أن أبدو لكِ فظًّا يا آنسة غريس، أو أليثيا، لكني أنتظركِ؟ منذ بضعة أيّام، وأعتقد أنّه بإمكاننا تخطّي فصل الدردشة والمجاملات.

- هذا يعني أنّ الدون غوستابو برسلوه حدّثك عنّي؟

- بالتفاصيل، أحدّد. فلنقل إنّكِ ولّدتِ لديه انطباعًا عميقًا.

- هذا أحد اختصاصاتي.

- هكذا قيل لي. ففي الواقع، حتى بعض أصدقائك القدامى في قسم الشرطة المركزيّ يرسلون إليكِ أطيب التحيّات. لا تتعجّبي. فنحن الصحافيّين هكذا. نطرح أسئلة. عادةُ نكتسبها مع مرور الأعوام.

تخلّى بيلاخوانا عن أيّ إشارةٍ لابتسامة وما انفكّ يحدِّق إليها.

- من تكونين حضرتكِ؟ - سألها بلا مناورة.

فكّرت أليثيا بإمكانية الكذب، سواء عن لطفٍ أو سفاهة، لكنّ شيئًا ما في تلك النظرة أخطرها بأنّ الكذب سيكون خطأً تكتيكيًّا فادحًا.

- واحدة تريد اكتشاف الحقيقة فيما يخصّ فكتور ماتايكس.

- هذا النادي يشهد إقبالًا منقطع النظير مؤخّرًا. هل لي أن أسألكِ عن السبب؟

- أخشى أنّه ليس بوسعي الردّ على سؤالك هذا.

- بلا كذب، تقصدين.

هزّت رأسها مؤكّدة.

- لن أكذب، احترامًا لحضرتك.

انبسطت ابتسامته ثانيةً، لكنّها هذه المرّة تنفث سخرية.

- وتعتقدين أنّ التملُّق لحضرتي سيفيدكِ أكثر من الكذب عليّ.

قوّست حاجبيها واتخذت تعبيرًا أرقّ.

- لن توبِّخني إذا جرّبتُ على الأقل.

- أرى أنّ برسلوه لم يبالغ. إن كان ليس بمقدوركِ أن تقولي لي الحقيقة، فأخبريني بالسبب الذي يمنعكِ عن ذلك على الأقلّ.

- لأنّني قد أعرِّضك لمخاطر إن أنا أخبرتك.

- هذا يعني أنّكِ تحمينني.

- بشكلٍ أو بآخر، نعم.

- لذا عليَّ أن أكون ممتنًّا وأن أساعدكِ. أهذه هي الفكرة؟

- يسعدني أنّك بدأت ترى الأمور على طريقتي - أخشى أن أكون بحاجةٍ إلى دوافع أخرى. وحبّذا ألا تكون تجميليّة. اللحم ضعيف، لكنّ الحياء العامّ بعد قطع الشوط الأوّل من العمر يعوِّض ما فاته.

- هكذا يقولون. ما رأيك بشراكة لمصلحة متبادلة؟ أخبرني برسلوه بأنّك تعمل على كتابٍ حول ماتايكس وجيله الضائع.

- في تسميته «جيل» مبالغة ربّما. أمّا «ضائع» فهذا مجازٌ شعريّ يحتاج إلى إثبات.

- أتحدّث عن ماتا يكس، دافيد مارتين وآخرين...

قوّس بيلاخوانا حاجبيه.

- ماذا تعرفين عن دافيد مارتين؟

- أمورٌ أنا واثقة من أنّها ستنال اهتمامك.

- مثلًا؟

- مثلًا، تفاصيل ملفّات مارتين وماتايكس وسجناء آخرين اختفوا في سجن مونتويك ما بين 1940 و1945.

حافظ بيلاخوانا على ثبات نظرته. كانت عيناه تلمعان.

- هل تحدّثتِ مع المحامي بريانس؟

اكتفت أليثيا بإيماءةٍ مؤكّدة.

- ما أعرفه عن الرجل أنّه كتوم. - قال بيلاخوانا.

- هناك أساليب أخرى لاكتشاف الحقائق. - ألحَّت أليثيا.

- في الشرطة يقولون إنّ هذه واحدة من مقدراتكِ.

- يا للحسد ما أبشعه! - ردّت أليثيا.

- إنّه رياضتنا الوطنيّة. - أكّد بيلاخوانا الذي بدا مستمتعًا بهذه المنازلة الجدليّة الصغيرة رغمًا عنه.

- لكنّي لا أعتقد أنّ الاتصالَ بالشرطة للسؤال عني فكرةٌ جيّدة، خصوصًا بعد هذا اللقاء. أقول ذلك من أجل سلامتك.

- لستُ بليدًا إلى هذه الدرجة يا آنسة. لم أتّصل بنفسي، ولم يظهر اسمي عندهم. فكما ترين، أنا أيضًا أفعل الممكن لأحمي نفسي.

- يسعدني أن أسمع هذا. فالتدابير الوقائيّة لا تكفي في هذه الأيّام.

- ما يتّفق عليه الجميع أنّه لا ينبغي الوثوق بكِ.

- هذه أفضل نصيحة في أمكنة وأزمنة معيّنة.

- لن أعارضكِ. اسمعي يا أليثيا، ألا يوجد رابُط بين كلّ هذا ووزيرنا الفذّ الدون ماوريسيو ڤايس وماضيه كسجّان، ماضيه المنسيّ بأريحيّة؟ - سأل.

- ما الذي يجعلك تفكّر بذلك؟

- تعبير وجهكِ حينما ذكرتُ اسمه.

تردّدت لوهلة فأومأ بيلاخوانا مؤكّدًا شكوكه.

- وإن كان كذلك؟ - سألته.

- فلنقل إنّه يجعلني مهتّمًا أكثر فأكثر. ما طبيعة المبادلة التي تفكّرين بها؟.

- من طبيعة الآداب الجميله حصرًا. - ردّت أليثيا - أنت تخبرني عمّا تعرفه عن ماتايكس وأنا أعدك بالاطلاع على كلّ المعلومات المتوفّرة لدّي ما إن أحلّ القضيّة التي أشتغل عليها حاليًّا.

- وحتى تلك اللحظة؟

- امتناني الخالد وسرورك لأنّك أقدمت على الخطوة السليمة وساعدتَ أميرةً مسكينة واقعة في مأزق.

- حقًا. عليَّ أن أعترف بأنّكِ أكثر إقناعًا ممّن أتصّور أنه زميلكِ.

- أقرّ بيلا خوانا.

- عفوًا؟

- أقصد الرجل الذي جاءني منذ أسبوعين، وبالمناسبة لم أره ثانيةً. - قال - ألا تتبادلان المعلومات في وقت الاستراحة؟ أم إنّه منافس؟

- هل تذكر اسمه؟ لومانا؟

- ممكن. لم يعلق في ذاكرتي. العمر، كما سبق أن قلت لك.

- كيف كان مظهره؟ - سألت أليثيا.

- أقلّ إغراءً من مظهركِ كثيرًا.

- هل لديه ندبة على وجهه؟

أومأ بيلاخوانا وشحذ نظراته.

- هل أنتِ من شوّه وجهه؟

- لقد جرح نفسه بينما يحلق لحيته. لطالما كان غشيمًا. ماذا قلت للومانا؟

- ليس أكثر ممّا كان يعرفه مسبقًا.

- ردّ بيلاخوانا.

- هل ذكر اسم ڤايس؟

- ليس بالشكل الصريح، لكنّ اهتمامه بالسنوات التي قضاها ماتايكس في قلعه مونتويك، وصداقته بدافيد مارتين، كان واضحًا. لا داعي ليكون المرء وشقًا كي يستخرج الاستنتاجات.

- ولم تره ثانيةً ولم يعد يتحدّث إليك؟

هزّ بيلاخوانا رأسه.

- لومانا لحوحٌ جدًّا. - قالت أليثيا - كيف استطعتَ أن تزيحه عن كاهلك؟

- قلت له ما كان يودّ سماعه. أو ما كان يظنّ أنّه يودّ سماعه.

- وما هو؟

- كان يبدو مهتمًّا للغاية بالبيت الذي عاش فيه فكتور ماتايكس وعائلته حتى اعتقاله عام 1941، في شارع دي لاس أغواس، على سفوح بايبذريرا.

- ولماذا البيت؟

- سألني ماذا تعني عبارة «مدخل المتاهة». كان يريد معرفة إذا ما كانت تحيل على موقع موجود.
- قال بيلاخوانا.

- وحضرتك؟

- قلت له إنّ «المدخل» في روايات المتاهة هو المكان الذي‹‹ تسقط ››من خلاله أريادنا إلى العالم السفليّ لتصل إلى برشلونة الأخرى، هو البيت الذي تعيش فيه مع أبويها، وهو البيت نفسه الذي سكنت فيه عائلة ماتايكس. أعطيته العنوان والإرشادات للوصول إلى هناك. ليس أكثر ممّا كان باستطاعته الحصول عليه إذا ضيَّع ساعة للبحث في دائرة التسجيل العقاريّ. ربّما كان يتوقّع أن يجد فيه كنزًا، او شيئًا أفضل من الكنز. ما رأيكِ؟

- هل قال لك لومانا لأيّ جهة يعمل؟ - سألته.

- أبرز عليَّ شارةً. مثلما يحدث في الأفلام. لست خبيرًا، لكنّها بدت لي حقيقيّة. وحضرتكِ، أليس لديكِ إحدى تلك الشارات؟

نفت أليثيا برأسها.

- خسارة. كنت أظنّ أنّ امرأة فتّانة في خدمة النظام لا وجود لها إلا في إحدى روايات خوليان كاراكس.

- حضرتك قارئ لكاراكس؟

- كيف لا! إنّه قدّيس الروائيّين البرشلونّيين الملاعين وشفيعهم.

عليكما أن تتعارفا. فأنتِ عمليًا تبدين إحدى مخلوقاته.

تنّهدت أليثيا.

- المسألة مهمّة للغاية يا سيّد بيلاخوانا. حياة أشخاص كثر عرضةٌ للخطر.

- أعطني اسم واحد منهم. اسمه وكنيته، إن أمكن. لعلّي أحمل كلّ القضيّة على محمل الجدّ.

- لا يمكنني فعله. - قالت أليثيا.

- واضح. حرصًا على سلامتي، أتصوّر.

أومأت بنعم.

- حتى لو لم يقنعك ذلك.

شبك الصحافيّ يديه على حضنه ومطّ جذعه على الكرسيّ، هائمًا بأفكاره. فشعرت أليثيا بأنّه كان يفلت من بين يديها. حان الوقت لوضع المزيد من الطعم في السنّارة.

- منذ متى لم تر الوزير ڤايس في العلن؟ - ارتجلت.

فرد بيلاخوانا يديه. صحا اهتمامه من جديد، وبات أكثر حيويّة وازدهارًا.

- تابعي - ليس بهذه العجلة. الشرط هو أن تقول لي ما تعرفه عن ماتايكس، مقابل أن أقول لك ما أستطيع حالما أستطيع. وهو كثير جدًّا. لك مني كلمة شرف.

ضحك بيلا خوانا في نفسه لكنّه أومأ ببطء.

- بما فيهم ڤايس؟

- بما فيهم ڤايس. - كذبت أليثيا.

- أتصوّر أنّه من غير المجدي أن أطلب منكِ أن تريني الكتاب.

عرضت أليثيا أرقّ ابتسامة لديها.

- هل كذبتِ عليَّ بهذا الشأن أيضًا.

- في جزء منه. لقد كان لديَّ الكتاب منذ يومين، لكنّي فقدته.

- أفهم أنّكِ لم تنسيه في الترام.

نفت برأسها ثانيةّ.

- الشرط، واسمحي لي بالتعديل، هو التالي. - قال بيلاخوانا - أنتِ تقولين لي أين وجدتِ الكتاب وأنا أروي عليكِ ما تريدين معرفته.

كادت أليثيا تفتح فمها فإذا بالصحفيّ يرفع سبّابته بما يشبه التحذير.

- أعيدي على مسامعي فكرة الحرص على سلامتي كي أتمنّى لكِ حظًّا موفّقًا ونهارًا سعيدًا. من البديهيّ أنّ ما ستطلعينني عليه سيبقى بيننا...

فكّرت أليثيا مطوّلًا.

- هل تعدني بذلك؟

وضع بيلاخوانا يمناه على الأوراق التي يعمل عليها.

- أقسِم بخطاب انتسابي إلى الأكاديميّة الملكية للآداب الجميلة في برشلونة.

هزّت أليثيا رأسها في النهاية. نظرت حولها وتحقّقت من أنّهما بمفردهما في المكتبة. وكان الصحفيّ ينظر إليها مترقّبًا.

- لقد وجدته مخبّأ في المكتب الشخصيّ لماوريسيو ڤايس، في مكتب إقامته الخاصّة، منذ أسبوع.

- وهل لي أن أعرف ما الذي كنتِ تفعلينه هناك؟

انحنت أليثيا بجذعها نحوه.

- كنت أحقّق في اختفائه.

اشتعلت نظرة بيلاخوانا كالألعاب الناريّة.

- أقسمي لي بأنّي أمتلك حصريًّا حقّ نشر هذه القصّة وكلّ ما ينتج عنها.

- أقسِم بخطاب انتسابك إلى هذه المؤسسة.

كان بيلاخوانا يحدِّق إلى عينيها. لم يرفّ لها رمش. أخذ الصحافيّ عن الطاولة بعض الأوراق البيضاء وأعطاها لها، مع قلم الحبر أيضًا.

- خذي. - قال - أعتقد أنّكِ مهتمّة بتسجيل بعض الملاحظات...

(35)

- عرفتُ فكتور ماتايكس منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، في خريف 1928 للدقّة. كنت مبتدئًا في تلك الآونة وأعمل في جريدة «صوت الصناعة»، أرقّع هنا وهناك وأفعل كلّ ما يُطلَبُ منّي. وكان فكتور ماتايكس حينها يكتب الروايات المتسلسلة تحت عدّة أسماء مستعارة لمصلحة دار نشر باريدو وإسكوبياس الوغدين، اللذين اشتهرا بالاحتيال على الجميع، بدءًا من كُتّابهم وحتى موزّعي الورق والحبر. كانوا ينشرون أعمالًا لدافيد مارتين أيضًا، لاديسلاو بابونا، إنريك ماركيه وكل ذلك الجيل من الكتّاب الشباب والمتضوّرين جوعًا في برشلونة ما قبل الحرب. وعندما لم تكن الأجور المقدَّمة سلفًا التي يدفعها باريدو وإسكوبياس تكفي للوصول إلى آخر الشهر، الأمر الذي غالبًا ما حدث، كان ماتايكس يكتب مقالات حسب الطلب لمختلف الجرائد، بما فيها ‹‹صوت الصناعة»، من قصص قصيرة وحتى تقارير عجائبيّة حول رحلات إلى أماكن لم تطأها قدماه إطلاقًا. أذكر أحدها بعنوان «ألغاز بيزنطة»، وقد بدا لي حينذاك عملًا عظيمًا، والذي اختلقه ماتايكس من مخيّلته جملةً وتفصيلًا بلا توثيق ما عدا رسمة تحتوي بطاقات بريديّة قديمة لإسطنبول.

- وأنا التي كنت أصدّق كلّ شيء أقرأه في الجرائد. - قالت أليثيا.

- هذا يبدو واضحًا على وجهكِ. لكنّ ذلك الزمان كان مختلفًا، حينما كانت الأقلام تكذب في الصحافة بجودة عالية. الحال أنّني في أكثر من مرّة، اضطررتُ لقصّ نصوص ماتايكس عند الإخراج النهائيّ، وذلك للحاجة إلى ترك حيّزٍ لبعض الإعلانات الدعائيّة الواردة في اللحظات الأخيرة أو لإتاحة المجال المقالات طارئة يبعثها أحد أصدقاء مدير التحرير. وذات يوم جاء ماتايكس إلى مقّر الجريدة ليتقاضى أجوره من الاستكتاب، فاقترب منّي. ظننت أنه كان يريد الاحتجاج عليّ، لكنّه اكتفى بمدّ يده مصافحًا، وعرّف عن نفسه كما لو كنت لا أعرفه وشكرني لأنّني أنا الذي كنت أقصقص نصوصه عند الضرورة لا شخصٌ آخر. ‹‹لديك عينٌ ثاقبة بابيلاخوانا. كن حذرًا ففي هذه الأماكن لا يفوّتون الفرصة لإيذاء من هم مثلك»، قال لي.

كان ماتايكس موهوبًا بالأناقة. لا أتحدّث عن أناقة الملابس، مع أنّ هندامه لطالما كان منزّهًا عن النقد. إذ تمنحه بدلته ونظارته المدوّرة، وإطارها المعدنيّ الرقيق، مظهرًا يجعله يشبه بروست، ولكنْ بدون كعكة المادلين، إنّما بأذواقه والسلوك الذي يتعامل به مع الناس، والطريقة التي يتحدّث بها. ما جعل رؤساء التحرير المنتفخون يلقّبونه Rara avis/ الطير النادر. ثمّ إنّه كان سخيًّا، يصنع المعروف دون ان يُطلَبَ منه ودون أن ينتظر شيئًا بالمقابل. وفي الواقع، كان هو الذي أوصى بي لشغل وظيفة شاغرة في مقرّ تحرير جريدة الطليعة، وبفضله نجوتُ من صوت الصناعة. في ذلك الوقت لم يعد ماتايكس يكتب للصحف تقريبًا. لم يكن يحبّ ذلك البتّة، لكنّه كان يرى فيها مجرّد وسيلة لكسب قوت يومه في زمنٍ هزلتْ فيه الأبقار. وكانت إحدى رواياته المتسلسلة، التي تصدر عن باريدو وإسكوبياس، بعنوان «مدينة المرايا»، تحظى في تلك الأعوام بشعبيّة واسعة. أعتقد أنّه كان جنبًا إلى جنب مارتين يحملان على عاتقهما شؤون زريبة باريدو وإسكوبياس بأكملها، إذ كانا يعملان بلا توقُّف. لاسيّما مارتين الذي أهدر صحّته المترديّة ورشده

المتأرجح، وأحرق دماغه قبالة الآلة الكاتبة. أمّا ماتايكس، لأسباب عائليّة، كانت حالته المادّيّة أيسر بكثير.

- هل كان من أسرة نبيلة؟

- ليس كذلك بالضبط، لكنّ الحظّ حالفه - أو ربّما لا - هذا يعتمد على وجهة النظر: ورث ممتلكات أحد أعمامه، إرنستو. كان إرنستو شخصية غريبة الأطوار، يلقّبونه «إمبراطور قطع السّكر». وكان ماتايكس قريبه المفضّل، أو الوحيد الذي لا يكرهه من بين أفراد العائلة. وهكذا، بعد أن تزوّج، انتقل ماتايكس إلى فيلا مهيبة في شارع دي لاس أغواس، عند سفح بايبذريرا، التي أورثها له عمّه إرنستو إضافةً إلى بعض الأسهم في شركة لاستيراد المنتجات ممّا وراء المحيط، أسّسها بعد عودته من كوبا.

- هل العّم إرنستو كان هنديًّا، كما در جت تسمية أصحاب الثراء الفاحش في الأمريكيتين؟

- نموذجيّ. كان قد غادر برشلونة بعمر السابعة عشرة، يدٌ أمامه ويدٌ وراءه وأخرى تسرق من جيوب جاره. كان الحرس المدنيّ يبحث عنه ليهشّم ساقية، فتمكّن باعجوبة من التسلّل بصفة غير شرعيّة إلى سفينة تجاريّة متجهة إلى الهافانا.

- وكيف عاملته الأمريكّيتان؟

- أفضل بكثير مّما عاملهما هو. فبعد أكثر من أربعين عامًا، عاد العّم إرنستو إلى برشلونة على متن سفينة يمتلكها، ببدلة بيضاء صحبة زوجة اسكندنافيّة تصغره بثلاثين عامًا، استلمها للتوّ عبر البريد. وطوال تلك المدّة كلّها كسب امبراطور السكّر ثروات وخسرها، من ماله وأموال غيره، في تجارة السكر والأسلحة. وبفضل كتيبة دسمة من العاشقات والمغرمات، خلّف عددًا من أبناء الزنا كافيًا لاستيطان كلّ جزر الكاريبي، وقد ارتكب من الفظائع ما سيضمن له إقامةً لعشرة آلاف عامٍ في جّهنم بمقدرة ربّ العدل والحقّ إن كان موجودًا.

- إن كان موجودًا. - قالت أليثيا.

- بانعدام العدل، كانت هناك وخزة سخرية. السماء هكذا.

يقولون إنّ امبراطور السكّر، بعد عودته من كوبا بفترة وجيزة، بدأ يفقد رشده بسبب سمٌ في عشائه الاستوائيّ الأخير من تدبير طبّاخة خلاسيّة وحانقة ومترعة بالشرّ وأشياء أخرى يعلمها الله. كاد «الهنديّ» ينفجر رأسه في عليّة الفيلا التي شيّدها للتوّ، متيقنًّا بأنّ شيئًا ما يسكنها، شيئًا ينزلق من السقف وعلى الجدران ويفوح برائحة وكر ثعبان... شيءٌ ما يندسّ في غرفة نومه كلّ ليلة ويجثم بجانبه ليمتصّ روحه.

- مذهل. - قالت أليثيا - هل أنت من أعددت هذا السيناريو؟

- استلهمته من ماتايكس، الذي أدرج الأحدوثة، بلمسة فنيّة، في إحدى روايات «المتاهة».

- خسارة.

- الواقع لا يتجاوز التخييل أبدًا، التخييل ذا الجودة العالية على الأقلّ.

- والواقع في هذه المسألة...؟

- دنيويٌّ أكثر، أغلب الظنّ. كُشِفَ النقاب عن النظريّة الأكثر قابليّة للتصديق في يوم جنازة «الهنديّ» إرنستو تمامًا. كان حدثًا مهولًا، شهدته ألوفٌ مؤلّفة، وقد وقع في الكاتدرائيّة بحضور الأسقف والعمدة وكلّ أعيان المدينة ووجهاء مجالسها المدنيّة. ناهيك بأولئك الذي استدانوا أموالًا من العمّ إرنستو فجاءوا لكي يتأكدوا من أنّه توفّي فعلًا وليسوا مضطرين لإيفائه الديون. ولكن، كما قلت، در جت إشاعةٌ في ذلك اليوم تفيد بأنّ الشيء الوحيد الذي كان يندسّ حقيقةً تحت أغطية إمبراطور السكّر هي ابنة المربيّة، فتاة في السابعة عشرة من عمرها، مشبعة بالجسارة، واشتُهرت بعد بضعة أعوام كنجمة المراقص الليليّة في الباراليلو باسمها الفنيّ دوريس لابلاس، وأنّ ما كانت تمتصّه كلّ ليلة ليست روحه على نحوٍ دقيق.

- فماذا إذن، الانتحار؟

- إشرافٌ على الانتحار، أغلب الظنَ. كلّ شيء يدلّ على أن زوجته الجديدة الراضخة - ويقولون إن الشماليّات باردات - نفد صبرها بعد أن تحمَّلت أعوامًا من الزواج وضاق ذرعها بكميّة القرون التي رُكِّبَت لها: فقرّرت في ليلة القدّيس يوحنا أن تهشّم وجهه بطلقة ناريّة من بندقيّة الصيد التي كان «الهنديّ» يضعها بجوار السرير. أو فلنقل إنّ الأناركيين قد وصلوا.

- حكايةٌ مثاليّة.

- حيوات القدّيسين والمذنبين، نوعٌ برشلونيٌّ بامتياز. مهما كانت الرواية الموثوقة للأحداث، فإنّ الفيلا ظلّت مهجورة لأعوام، ولم تتراجع شهرتُها كبيتٍ للشعوذة واللعنات التي ما انفكّت تصاحبها منذ أن وضع «الهندي» الحجر الأساس إلى غاية انتقال ماتايكس وزوجته إليها بعد أن تزوّجا. جديٌر بالذكر أنّ البيت كان يعاني من عدّة مشاكل. ذات مرّة زرت ماتايكس فيه، فصحبني بجولةٍ فاخرة في ارجاء الفيلا، وكان المكان تقشعّر له الأبدان، بدني على الأقلّ، أنا الذي يفضِّل المسرحيّات الغنائيّة وقصص الحبّ الخفيفة. كان فيه سلالمُ لا تفضي إلى أيّ جهة، وممرٌّ محفوف بالمرايا المصفوفة بحيث إنّك عندما تمشين فيه يتولّد لديكِ انطباعٌ بأنّ أحدًا ما يلاحقكِ، وقبوٌ أنشأ فيه «الهنديّ» مسبحًا قاعُه من الفسيفساء التي تجسِّد وجه زوجته الأولى ليونور، في كوبا، الفتاة التي انتحرت في ربيعها التاسع عشر بغرس مشبك الشعر في قلبها إذ كانت على قناعة بأنّها حامل من أفعى.

- ما ألطفها. وهل أرسلتَ لومانا إلى هناك؟

أكّد بيلاخوانا بابتسامة لئيمة.

- هل رويتَ عليه كلّ هذه الحكاية عن الأرواح الشرّيرة الآتية من العالم الآخر وإلى آخره من غرائب البيت؟ لومانا قد يكون مؤمنًا بالخرافات وسريع التأثّر بمثل هذه الأشياء...

- لا يجوز أن أقوله لكِ، لكنّ هذا هو الانطباع الذي شكّلته عنه، ونظرًا إلى أنّ شخصيّته لم تنل استلطافي، آثرتُ ألا أقدِّم له معلوماتٍ غير مطلوبة سلفًا كي لا أفسد عليه المفاجأة.

- وهل حضرتك تؤمن بهذه الأشياء؟ الشعوذة واللعنات؟

- أنا أؤمن بالأدب. وفي بعض الأحيان أؤمن بفنّ الطبخ، خصوصًا إذا كان فيه رزٌّ لذيذ. وما تبقّى مجرّد خدائع وخِرَقٍ بالية، بحسب وجهات النظر. حدسي يخبّرني بأنّنا نتشابه في هذا الأمر، أنا وأنتِ. أقصد الإيمان بالأدب، لا بالطبخ.

- وما الذي حدث بعدئذ؟ - سألت أليثيا متلهّفةً للعودة إلى حكاية ماتايكس.

- في الحقيقة لم أسمع ماتايكس يومًا يشتكي من تطفُّل العالم الآخر أو شيء كهذا. برأيي أنّه كان يؤمن بتلك الترّهات بقدر إيمانه بالخطب السياسيّة التي حوّلت هذا البلد إلى بقبقه دجاج منذ ذلك الوقت. كان قد تزوّج توًّا بسوزانا التي أغرم بها حتى الهيام. وكان يعمل بلا هوادة في أحد المكاتب المطلّة على كلّ برشلونة. وكانت سوزانا مخلوقًا ضعيفًا، ووضعها الصحّي حسّاسٌ جدًّا. جلدها شفّافٌ أو يكاد، وإذا عانقها أحد أحسَّ بأنّه سيطحنها. كانت تتعب بسهولة، وتضطر أحيانًا إلى قضاء النهار بأكمله على السرير لأنّها لا تستطيع النهوض. ولطالما شغلت بال ماتايكس، لكنّه كان يحبها حبًّا جنونيًّا، وأعتقد أنّها كانت تبادله الحب ذاته. ذهبتُ لزيارتهما مرّتين مع أن البيت كئيب بما لا يناسب أذواقي كما أسلفتُ، وعليّ أن أقرّ بأنّني رأيتهما سعيدين، رغم كلّ شيء. في البداية على الأقلّ. فعندما كان ماتايكس يهبط إلى المدينة، على حدّ وصفه، كان غالبًا ما يمرّ بمقرّ جريدة الطليعة في شارع بيلايو لنخرج ونأكل أو نشرب فنجان قهوة.

كان يحدّثني دائمًا عن الرواية التي يعمل عليها، ويمرّر إليّ بعض الصفحات لكي أقرأها وأعطيه رأيي، مع أنّه لم يعر تعليقاتي اهتمامًا كبيرًا. كان يستخدمني كفأر تجارب، بشكل أو بآخر. أمّا هو فكان في تلك الفترة أشبه بمرتزق. يكتب بأسماء مستعارة متعدّدة، وبسعر محدّد للكلمة الواحدة. كانت صحّة سوزانا تتطّلب منه عناية طبّية مستمرة، فضلًا عن الأدوية، ولم يكن ماتايكس يسمح لها إلّا بزيارة أمهر الأخصائيّين. لا يعبأ لتدهور صحّته أيضًا بذلك العمل مقطوع الأجر.

كانت سوزانا تحلم بأنّها حبلت، في حين أنّ الأطباء قالوا لها غير مرّة إنّ الوضع معقد. ومكلف.

- لكن المعجزة تحقّقت.

- أجل. بعد عدّة إجهاضات وأعوام من الفقر المدقع، حبلت سوزانا ماتايكس في عام 1931. وكان هو يتخوّف من أنها ستخسر الجنين مرّة أخرى وربّما حياتها أيضًا. إلّا أنّ الأمور جرت على أحسن ما يرام في تلك المرّة. انت سوزانا لريد ابية لتسمّيها على اسم شقيقتها التي فارقت الحياة أيّام الطفولة.

- أريادنا.

- خلال الأعوام التي كانا يجرّبان فيها الحمل، طلبت سوزانا من فكتور بأن يبدأ بكتابة رواية جديدة، مختلفة عن كلّ ما سبقها حتى اللحظة. كتابٌ لن يكون لأيّ أحدٍ سوى للطفلة التي تحلم بها. حرفيًّا.

سوزانا كانت تقول إنّها رأتها في الحلم وتحدّثت إليها.

- أهذا هو جوهر كتب «المتاهة»؟

- أجل. بدأ ماتايكس بكتابة الحلقة الأولى من السلسلة بمغامرات أريادنا في برشلونة الخياليّة. أعتقد أنّه كان يكتبها من أجله، لا من أجل أريادنا فحسب. ولطالما بدت لي كتب المتاهة بمثابة إنذار، بمعنى أو بأخر.

- إنذارٌ ممَّ؟

- ممّا كان يقع. في تلك الفترة، ربّما كنتِ صبيّة حينها، أو طفلة، لكنّ الأعوام التي سبقت الحرب كان فيها الغليان حاضرًا بقوّة. من الممكن التكهُّن. كانت الحرب في الهواء.

- ها هو، خير عنوان لكتابك.

ابتسم بيلاخوانا.

- أتعتقد أنّ ماتايكس كان يتصوّر ما سيقع؟

- هو وكثيرون غيره. لا بّد للمرء أن يكون أعمى كي لا يرى. كان يتحدث في الأمر غالبًا. وذات مرّة سمعته يقول إنّه يفكّر في مغادرة إسبانيا، لكنّ زوجته سوزانا لم تشأ أن تترك برشلونة. كانت تظنّ أنّها إن هاجرت البلد فلن تحافظ على حملها. ثمّ فات الأوان.

- حدّثني عن دافيد مارتين. كنتَ تعرفه؟

رفع بيلاخوانا عينيه إلى السماء - مارين؟ نوعًا ما. التقيته مرتين او ثلاث. عرّفني عليه ما تايكس ذات يوم تواعدنا فيه للقاء في مقهى كاناليتاس. كانا صديقين وفّيين منذ الشباب، قبل أن يفقد مارتين بعضًا من رشده، لكنّ ماتايكس ما انفكّ يقدِّره جيّدًا. أمّا أنا في الحقيقة، فقد رأيتُ فيه أغرب شخصٍ عرفته على الإطلاق.

- بأيّ معنى؟

تردّد بيلاخوانا قليلًا قبل أن يردّ - كان دافيد مارتين رجلًا متألّقًا، وربّما كان كذلك أكثر من اللازم. ولكن، بحسب رأيي المتواضع، فإنّه غائبٌ كليًّا.

- غائب.

- بمعنى مجنون. ينبغي تقييده.

- ما الذي يجعلك تراه هكذا؟

- سمِّيه حدسًا. مارتين كان يسمع أصواتًا... ولا أحيل على ربّات الإلهام.

- تقصد أنّه كان يعاني الشيزوفرانيا؟

- ومن يدري. ما أعرفه أنّ ماتايكس كان منشغل البال عليه.

كثيرًا. ماتايكس كان هكذا، ينشغل باله على الجميع ما عدا نفسه.

وعلى ما يبدو أنّ مارتين وقع في ورطة ما، وكانا بالكاد يلتقيان.مارتين يفوت الجميع.

- ألم يكن لديه أسرة تساعده؟

- لم يكن لديه أحد. وإن كان هناك من أحد، فكان يفعل ما بوسعه لإبعاده عنه. رابطه الوحيد بالعالم يتجسّد في فتاةٍ استقدمها كمتمرّنة، تدعى إيزابيلا. وكان ماتايكس يعتقد أنّ إيزابيلا هي الوحيدة التي تبقي صديقه حيًّا وتحميه من نفسه. كان يقول إنّ الشيطان الحقيقيّ الوحيد هو دماغه، ودماغه يأكله حيًّا.

- الشيطان الحقيقيّ الوحيد؟ هل كان هناك شياطين أخرى؟

رفع بيلاخوانا كتفيه.

- لا أعرف كيف أفسّر لكِ الأمر دون أن أضحك.

- حاولْ.

- حسنًا، الحال أنّ ماتايكس روى لي ذات مرّة أنّ دافيد مارتين متيقّن من أنّه أمضى عقدًا مع ناشر غامض لتأليف ما يشبه النصّ المقدّس، كتوراة دين جديد. لا تنظري إليّ هكذا. بالنسبة إلى ماتايكس، كان مارتين يلتقي بين الحين والآخر بذلك الشخص، يدعى أندرياس كوريلي، ليتلقّى أوامره من العالم الآخر، أو شيء كهذا.

- وطبعًا كان ماتايكس يشكّ في وجود كوريلي هذا.

- لم يشكّ فحسب. بل لقد وضعه في لائحة الأشياء المستحيلة بين فأر الأسنان وبلدة الجنّيات. طلب مني أن أجري بحثًا في أوساط النشر لعلّنا نعثر على الناشر المزعوم. وأجريت البحث. قلبتُ عليه السماء والأرض وما بينهما.

- و...؟

- الكوريلي الوحيد الذي عثرت عليه كان مؤلّفًا موسيقيًّا من عصر الباروك، اسمه أركانجلو كوريلي. لعلّكِ تذكرين الاسم.

- ومن كان كوريلي الذي عمل مارتين لمصلحته، أو تخيَّلَ أنّه يعمل؟

- مارتين كان يعتقد أنّه أحد تلك الملائكة الساقطة، بمعنى. "Arcangelo" حمل الصحافيّ إصبعيه إلى جبينه باعتبارهما قرونًا، وابتسم متهكّمًا.

- إبليس؟

- بذيله وحوافره. مفستوفيليس بخيّاطٍ مكلف، جاء من العالم السفليّ بعقدٍ فاوستيّ وتاليف كتابٍ ملعون يؤسّس دينًا جديدًا يحرق العالم. كما قلت لكِ، مجنونُ ينبغي تقييده. وهكذا انتهت.

- تقصد سجن مونتويك؟

- هذا حدث لاحقًا. في بداية الثلاثينيّات، اضطرّ مارتين للفرار بجلده من برشلونة، بسبب نوبات الهذيان والتحالف الغريب مع شيطانه الأعرج، ولأنّ البوليس اتهمه بارتكاب سلسلة من الجرائم التي ظلّت معلّقة. ويبدو أنّه استطاع الخروج من البلد بأعجوبة. ولكن، تصوَّري كم كان مجنونًا:

لم يخطر في باله أن يعود إلى إسبانيا إلّا في ظلّ الحرب الأهليّة. اعتقلوه في بويغثيردا، بعد أن قطع جبال البيرينيه بقليل، وهكذا إلى قلعة مونتريك. مثل كثيرين. ومثل ماتريكس لاحقًا.

التقيا هناك بعد أعوام طويلة من الفراق... هل توجد نهاية مأساويّة أكثر من هذه...

- هل تعلم لماذا عاد؟ فحتى لو كان مختلًّا عقليًا، لا بد أنّه على دراية بأنّ عودته إلى برشلونة ستحيله إلى السجن عاجلًا أم آجلًا...

ابتسم بيلاخوانا.

- لماذا نرتكب أكبر الحماقات في هذه الحياة؟

- من أجل الحبّ، المال، أو النكاية...

- أنتِ رومانسيّة في العمق، عرفتُ ذلك.

- من أجل الحبّ إذن؟

- ومن يدري. لا أعرف ما الذي كان يتوقّع العثور عليه في مكانٍ كان نصف المواطنين فيه يقتلون النصف الآخر تحت شعارات واهية...

- من أجل إيزابيلا؟

- لا أدري. لم أعثر على هذه القطعة الناقصة من اللوحة بعد.

- أهي إيزابيلا نفسها التي تزوّجها بائع الكتب سيمبيري فيما بعد؟

نظر إليها مفاجئًا.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- فلنقل إنّ لديّ مصادري الخاصّة.

- والتي من الأفضل أن تشاركيني إيّاها.

- ما إن أستطيع. عهدٌ عليَّ. إذن، هل كانت إيزابيلا نفسها؟

- أجل، هي ذاتها. إيزابيلا خيسبرت، ابنة لصاحب دكّان لبيع المواد الغذائيّة الذي ما زال خلف سانتا ماريّا دل مار، والتي سيصير اسمها إيزابيلا سيمبيري.

- هل تظنّ أنّ إيزابيلا كانت مغرمة بدافيد مارتين؟

- أذكّرك بأنّها تزوّجت بائع الكتب سيمبيري، لا مارتين.

- هذا لا يدلّ على شيء. - ردّت أليثيا.

- لا أتصوّر ذلك.

- هل عرفتَها؟ إيزابيلا.

أكّد بيلاخوانا برأسه.

- حضرتُ زفافها.

- هل بدت لك سعيدة حينذاك؟

- كلّ العرائس يبدين سعيدات يوم زفافهنّ.

هذه المرّة كان على أليثيا أن تبتسم بلؤم.

- وكيف كانت؟

أخفض الصحافيّ أنظاره.

- تحدّثت معها مرّة أو اثنتين لا أكثر.

- لكنّك ذُهلتَ بها.

- أجل، إيزابيلا كانت مذهلة.

- وبعد؟

- بدت لي أحد أولئك الأشخاص الذين يجعلون هذا العالم المقرف مكانًا يستحقّ الزيارة.

- وهل شاركت بجنازتها؟

أومأ بيلاخوانا ببطء.

- هل صحيحٌ أنّها توفّيت بالكوليرا.

عَبَرَت غمامةٌ نظراتِ الصحافيّ.

- هكذا قالوا.

- لكنّك لا تصدِّق.

هزّ رأسه نافيًا.

- فلِمَ لا تقصّ عليّ بقيّة الحكاية؟

- في الحقيقة، إنّها حكاية مؤلمة أودّ أن أنساها.

- ألهذا تنهمك في تأليف كتاب عن تلك الحياة منذ أعوام طويلة؟ كتابٌ أتصوَّرُ أنّك لن تستطيع نشره، في هذا البلد على الأقلّ...

ابتسم بيلاخوانا بمرارة.

- أتعلمين ما الذي قاله لي دافيد مارتين في آخر مرّة التقينا؟ حدث ذلك ذات مساء كنّا نحن الثلاثة، هو وماتايكس وأنا، شربنا مزيدًا من الكؤوس في إل شمبانيت احتفالًا بإنجاز ماتايكس للكتاب الأول من سلسلة «متاهة الأرواح»..

نفت أليثيا برأسها.

- لا أدري لماذا، انحرفت المحادثة نحو المبدأ العامّ الأصيل بين الكاتب والكحول. قال لي مارتين جملة لم أنسها، وهو الذي كان قادرًا على تجرُّع حوض استحمام مليء بالخمر دون أن يفقد صوابه.

قال لي: «نحن نشرب لنتذكّر، ونكتب لننسى».

- لعلّه لم يكن مجنونًا كما يبدو.

أومأ بيلاخوانا بصمت، وقد نفذت الذكريات إلى وجهه.

- حدّثني إذن عمّا تحاول منذ أعوام أن تنساه. - قالت أليثيا.

- ولكن لا تقولي إنّي لم أنبّهكِ.

مقتطف من
المنسيّون فكتور ماتايكس ونهاية الجيل الضائع في برشلونة
تأليف سرخيو بيلاخوانا
(منشورات القدر، برشلونة، 1989)

هذا هو مستهلّ المقطع الأوّل من القصّة الهزليّة المشبعة بالسخرية، والمعنونة «الحبر والكبريت»، التي ألّفها فكتور ماتايكس عام 1933، مستوحاة أغلب الظنّ من المغامرات اليائسة التي خاضها صديقه وزميله دافيد مارتين:

لا داعي لأن يكون المرء غوته كي يعلم أنّ أيّ كاتب، يستحقّ هذا المسمَّى، سيلتقي مفستوفيليس الخاصّ به، عاجلًا أم آجلًا. الكُتَّاب الطيِّبون، إن كان لهم وجود، سيسلِّمونه أرواحهم. أمّا الآخرون فسيبيعونه أرواح المغفَّلين الذين يصادفونهم على قارعة الطريق.

فكتور ماتايكس، الذي كان يستحقّ مسمَّى الكاتب، وقد اكتسبه بجهوده الخاصّة، التقى مفستوفيليس الخاص به ذات يوم من عام 1937.

ولئن كان الرزق من الأدب يُعَدُّ بحدِّ ذاته تدريبًا على التوازن حتّى تلك اللحظة، فإنّ اندلاع الحرب الأهليّة حطَّمَ ما تبقّى من الآلة النشريّة المتهالكة التي وجد فيها ماتايكس ضالّته وقوت يومه. كانت الكتابة والنشر ما يزالان ممكنين، لكنّ الأنواع الجديدة السائدة تندرج في قائمة البروباغندا والقصص الساخرة وخطابات المديح، في خدمة القضايا المعظَّمة والمغمَّسة بالجعجعة والدماء. وجد ماتايكس نفسه، في غضون أشهر، مثل كثيرين، بلا أيّ وسيلة يقتات منها ليعيش ما عدا تصدُّق الآخرين والصدفة التي اعتادت أسهمها على الانحدار في تلك الآونة.

وكان ناشراه الأخيران، اللذان أوكل إليهما سلسلة روايات «متاهة الأرواح»، سيّدين ذكيّين يدعيان ريبيس وباذينس. وأمّا باذينس المعروف بكونه أكولًا وذوّاقة للحوم الفاخرة وثمار الأرض، كان قد انسحب مؤقّتًا إلى مزرعته في أمبورذان لزراعة الطماطم وتأمُّل أسرار الكمأة، ريثما يخمد جنون ذلك الزمان. كان الرجل قد ولد متفائلًا تثير القلاقلُ غثيانه، وآثر أن يعتقد بأنّ الصراع لن يدوم أكثر من شهرين أو ثلاثة، لتعود بعدها البلادُ إلى وضعها الطبيعي الموصوف بالفوضى والعبثيّة والذي كان فيه دومًا حيِّزٌ للأدب، والطعام اللذيذ والأعمال. أمّا ريبيس، الدارس الفذّ لبهلوانيّات السلطة والمسرح السياسيّ، فقد شاء أن يبقى في برشلونة ويُبقي أبواب المكتب مشرّعةً، وإن بالحدود الدُّنيا. انجرف إصدار الأعمال الأدبيّة إلى هاوية النسيان المبهم، فتركّزت أعمال النشر برمّتها آنذاك على طباعة المرافعات والقصص الساخرة والملاحم المثاليّة تمجيدًا وتعظيمًا لأبطال اللحظة الراهنة، الذين كانوا يتغيّرون بين أسبوع وآخر بسبب النزاعات الداخليّة والمؤشّرات على وجود حربٍ أهليّة عميقة داخل الحرب الأهليّة المعلنة التي تضرب المعسكر الجمهوريّ. كان أقلّ تفاؤلًا من شريكه الذي ما انفكّ يرسل إليه صناديق الخضروات والطماطم الباهرة، استشفَّ ريبيس أنّ تلك الأزمة ستدوم طويلًا وستنتهي نهاية مأساويّة.

ورغم كلّ ما سبق، ظلَّ ريبيس وباذينس يخصّصان من مدَّخراتهما راتبًا متواضعًا لماتايكس، كدفعات أولى لأعمالٍ قد تصدر في المستقبل. وكان ماتايكس يقبلها على مضض، على الرغم من تحفُّظاته؛ في حين يتجاهل ريبيس اعتراضه ويصرُّ على دفع المبلغ. وعندما تنزلق المحادثة بينهما إلى الذمّة والنزاهة كما هو متوقّع، أو إلى ما يسمّيها الناشر «ترَّهات مَن لم يذق طعم الجوع بعد»، ترتسم ابتسامه عريضة على وجه ريبيس ويؤكِّد لصديقه: «فكتور، لا تبكِ علينا، لأنّني سأفكّر في طريقةٍ تُلزمك يومًا ما بإيفاء كلِّ المبالغ التي ندفعها لك سلفًا».

وبفضل مساعدة ناشريه، كان يتسنّى لعائلة ماتايكس أن تمضغ شيئًا بأضراسها، الوضع الذي صار ميزةً في تلك الأيام. إذ إنّ معظم زملائه كانوا في حالةٍ أكثر تردِّيًا تنبئ بالانهيار. حتّى لقد انخرط بعضهم في الميليشيا بفورة شغفٍ ورومانسيّة. «هيّا لإبادة الفئران الفاشيّين في أوكارهم العفنة» - كانوا يردِّدون. وقد عيَّره كثيرون لأنّه لم ينضمَّ إليهم. كان كثيرٌ من الناس في تلك الحقبة يعتنقون ديانة الملصقات الدعائية التي تغطّي جدران المدينة، ويشكّلون وعيهم عليها. «مَن ليس مستعدًا للنضال من أجل حريّته، لا يستحقّها» - يقولون. وكان ماتايكس يخشى أن يكونوا محقّين، فينهشه الندم. هل كان عليه أن يهجر سوزانا وابنته أريادنا في الفيلا التي على التلّ لينطلق إلى مواجهة فيالق ما يسمّى بالمعسكر «القوميّ»؟ «لا أعلم عن أي قوميّة تتحدّث، لكنّها ليست قوميّتي»، قال لأحد الأصدقاء حين ذهب إلى المحطة ليودّعه، «وليست قوميّتك، حتّى لو لم تكن شجاعًا للدفاع عنها». عاد ماتايكس إلى البيت والعارُ يلهج في صدره. وعندما وصل، عانقته سوزانا وانفجرت بالبكاء وهي ترتجف. «لا تتركنا» - توسَّلت إليه - «وطنك هو نحن، أريادنا وأنا».

وكلّما اشتدّت رحى الحرب، اكتشف ماتايكس أنّه لم يعد قادرًا على الكتابة. كان يجلس طوال ساعاتٍ أمام الآلة الكاتبة فإذا به يكتب بعينيه السارحتين في الأفق خلف النافذة. ومع الوقت، أخذ يهبط إلى المدينة كلّ يوم تقريبًا، بحثًا عن فرصة، أو هربًا من نفسه. وكان معظم معارفه آنذاك يتسوّلون المعروف في السوق السوداء المهينة الموبوءة بالسخرة والعبوديّة المتزايدة في ظلّ الحرب. وقد درجت شائعة بين الأدباء الجوعى أنّ ماتايكس يتقاضى راتبًا غير مشروط من قِبَل ريبيس وباذينس. وقد سبق أن نبَّهه صديقه القديم مارتين: «الحسد غنغرينا الأدباء، تجعلنا نتعفّن أحياءً إلى أن يحصدنا النسيان بلا مراعاة». وسرعان ما أنكره معارفه خلال أشهر قليلة. وإذا ما رأوه من بعيد، غيّروا الرصيف وتهامسوا ما بينهم، وضحكوا مستهزئين. وكان الآخرون يمرّون بجانبه ويغضُّون الطرف.

أغرقت أولى سنوات الحرب برشلونة في سباتٍ غريب من التخوُّفات والتقلُّبات الداخليّة. وقد باء تمرُّد الفاشيّين بالفشل في المدينة في الأيّام الأولى التي عقبت الانقلاب، حتّى توهّم الكثيرون بأنّ الحرب ستبتعد، وأنّهم قد اعتادوا ذلك النوع من الاستفزازات التي يرتكبها جنرالات بلا قامة أو حياء، وأنّ الوضع سيعود إلى ما كان عليه من شططٍ متهيّج تمتاز به الحياة العامّة في هذا البلد.

لم يعد ماتايكس يصدِّق. وكان خائفًا. كان يعلم أنّ الحرب الأهلية ليست واحدة، إنّما تقع بتراكم نزاعات صغيرة أو كبيرة يحرِّض بعضُها بعضًا. وكانت ذاكرته الرسميّة هي دومًا من صنيع المؤرّخين المتمترسين في المعسكر الغالب أو ذاك المغلوب، لم يستقِ البتّة من أولئك العالقين بين

المعسكرين الذين نادرًا ما أشعلوا فتيل المحرقة. وقد قال مارتين مرارًا إنّ الناس في إسبانيا يحتقرون الخصم، لكنّهم يحقدون على من ينأى بنفسه ولا يتّبع مروحة أيٍّ من الطواحين. لم يصدِّقه ماتايكس حينها، لكنّه بدأ يفكّر في أنّ الغلطة الوحيدة التي لا تُغفر في إسبانيا هي البقاء على الحياد ورفض الانحياز لقطيعٍ أو لآخر. وحيثما وُجِدت قطعان أغنام، وصلت الذئاب الجائعة. لقد تعلّم ماتايكس كلّ هذا رغمًا عنه، وبدأ يشمّ رائحة الدماء في الهواء. سيكون هناك متّسعٌ من الوقت لإحياء الموتى وتأليف حكاية. أمّا الآن فقد حانت لحظة استلال السكاكين واقتراف الآثام. الحروب تلوِّث كلّ شيء، لكنّها تنظِّف الذاكرة.

في ذلك اليوم المصيريّ من عام 1937 الذي كان سيغيّر قدره، هبط ماتايكس إلى المدينة ليلتقي ريبيس. كان الناشر كلّما التقيا يدعوه لتناول الغداء في حانة بيلودرومو الكائنة قرب مكتب منشورات أوربي في الدياغونال. يمرّر له من تحت الطاولة ظرفًا فيه بعض المال ليسند به عائلته أسبوعين آخرين. وفي ذلك اليوم، وللمرّة الأولى، رفض ماتايكس الأعطية. هكذا يصف ماتايكس المشهد في «مذكّرات الظلمات»، وهي عبارة عن يوميّات على شكل رواية عن أيّام الحرب والسنوات التي أدّت به أخيرًا إلى السجن، مذكّراتٌ لم تصدر على الإطلاق، يظهر فيها الكاتب مجرّد شخصيّة بين شخصيات أخرى، يحكي قصّته راوٍ مهيمن من شأنه أن يمثّل القدر، وربّما لا:

كانت الواجهة الزجاجيّة لحانة بيلودرمو الكبيرة تنتصب حيث يفقد شارع مونتانير ميلانه النبيل على مقربة من الدياغونال. هناك حيث يبتهل الملاذ تحت أضواء حوض سمك وسقوف كاتدرائيّة مدنية، وتؤدّي دور صالةٍ أشبه بالهندباء لأولئك الثابتين على موقفهم بأنّ الحياة مستمرّة، وأنّ الغد أو الذي يليه سيكون يومًا مختلفًا. كان ريبيس يختار طاولة في الزاوية دائمًا، لتتسنّى له رؤية كلّ المحلّ ومراقبة الداخلين والخارجين.

- كلا يا سيّد ريبيس. لم أعد أستطيع أن أقبل صدقاتك.

- ليست صدقة، إنّه استثمار. اعلم أنّ باذينس وأنا على اقتناع تامٍّ بأنّك ستكون واحدًا من أكثر الأدباء مقروئيّة في أوروبا كلّها في الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة. وإلّا سأضطرّ للعمل خوريًّا بينما يستبدل باذينس الكمأة بالمرتديلا. أُقسِم على ذلك بطبق الحلزون اليوانيّ هذا.

- آهٍ منك ومن نكاتك.

- أسدِ إليّ معروفًا وخذ النقود.

- كلا.

- هناك ملايين من الإسبان وأنت الوحيد الذي أعرفه من بينهم لا يتلقّى نقودًا من تحت الطاولة.

- ما الذي تخبرك به كرتك الزجاجيّة بهذا الخصوص؟

- اسمع يا فكتور. بودّي أن آخذ منك كتابًا مقابل دفعة أولى، لكنّنا في هذه الأوقات لا نستطيع إصداره. وأنت تعلم ذلك.

- عليَّ أن أنتظر إذن.

- قد تمرّ سنوات. ففي هذا البلد ثمّة من لن يتوقّف عن سفك الدماء قبل أن يباد طرفٌ على يد الطرف الآخر. هنا عندما يفقد الناس صوابهم، الأمر الذي يحدث غالبًا، قد يطلقون النار حتّى على أقدامهم إذا ظنّوا أنّ جارهم سيعرج جرّاء ذلك. هذه القصة ستدوم طويلًا. اسمع منّي.

- فالأفضل أن نموت من الجوع على أن نحيا لنرى هذا.

- كلامٌ بطوليٌّ جدًا. اعذرني إن لم أذرف الدموع من شدّة التأثّر. أهذا ما تريده من أجل زوجتك وابنتك؟

أغمض ماتايكس عينيه وغرق في مصيبته.

- لا تقل ذلك.

- فلتكفّ أنت أوّلًا عن قول الترّهات. خذ النقود.

- سأعيدها لك كلّها. حتّى القرش الأخير.

- لم أشكّ يومًا في هذا. هيّا، كلْ فأنت لم تأكل شيئًا بعد.

واحمل معك هذا الخبز إلى البيت. بالمناسبة، عرّج إلى دار النشر. لديّ صندوق من الخضروات الشهيّة التي أرسلها باذينس من أمبورذان. هلّا حملتَ معك شيئًا منها فلقد صار مكتبي دكّانة بقالة.

- هل ستنصرف بهذه السرعة؟

- عليَّ أن أقوم ببعض الأشياء. اعتنِ بنفسك يا فكتور. واكتبْ، لأنّنا سنعود إلى النشر يومًا ما، سترى، وسيتوجّب عليك أن تجعلنا أثرياء.

انصرف الناشر وتركه وحيدًا إلى الطاولة. كان ماتايكس يعلم أنّه ما أتى إلّا ليسلِّمه النقود، وحالما تنتهي المهمّة سيفضِّل الذهاب ليجنِّبه الإحراج والمذلّة اللذين سيشعر بهما لأنّه ليس قادرًا على تحمُّل أعباء أسرته، أيْ مزيدًا من الشفقة. نظّف ماتايكس طبقه وكان يهمّ بوضع ما تبقى من الخبز في جيبه فإذا بظلٍّ يتمدّد على طاولته. رفع عينيه فوجد نفسه أمام رجلٍ شابّ يرتدي بقايا بدلة مهترئة. يحمل مجلّد ملفّات كتلك المتكدّسة في المحاكم ومكاتب العدل. تطغى على مظهره ملامح العجز والهوان، لا تدلّ على أنّه جاء من المباحث السياسيّة للقبض عليه.

- هل يؤسفك إن جلست معك؟

هزّ ماتايكس رأسه.

- أدعى بريانس. فرناندو بريانس. أنا محامٍ، مع أنّي لا أبدو كذلك.

- فكتور ماتايكس. كاتب، مع أنّي لا أبدو كذلك.

- يا لها من أوقات عصيبة، صحيح؟ مَن كان أحدًا ما لا يبدو كذلك، ومَن كان لا أحد حتّى الأمس القريب صار اليوم يشبه نفسه كثيرًا.

- محامٍ وفيلسوف على ما أرى.

- وكلّ ذلك بسعرٍ تنافسيّ جدًّا. - وافقه بريانس.

- كان بودّي أن أوكّلك للدفاع عن حبّي، لكنني أخشى عدم توافر المال لديّ.

- لا تقلق. الزبون موجود.

- فمن أكون أنا في هذه القصة إذن؟ - سأله ماتايكس.

- فنّانٌ محظوظ وقع اختيارُه بغية القيام بعملٍ مُربحٍ للغاية.

- ياه، حقًّا؟ ومن هو زبونك، إن كان لي أن أسأل؟

- رجلٌ غيورٌ على حميميّته.

- ومَن ليس كذلك؟

- من ليس لديه حميميّة.

- انس أمر الفيلسوف هذه اللحظة واستحضر المحامي. - اختصر ماتايكس - بم أستطيع مساعدتك، أنت أو زبونك؟

- زبوني رجلٌ في غاية الأهميّة، ولديه إرثٌ أكبر منه. إنّه أحد أولئك الرجال الذين يقال عنهم عادةً إنّهم يملكون كلّ شيء.

- أولئك الذين يريدون المزيد دائمًا.

- في هذه الحالة، «المزيد» يتطلّب خدمةً منك. - حدّد بريانس.

- أيُّ خدمةٍ بوسع الروائيّ تقديمها في زمن الحرب؟ قرّائي لا يريدون القراءة، يريدون أن يتقاتلوا ما بينهم.

- هل فكّرتَ يومًا في كتابة سيرة؟ - سأله المحامي.

- لا. أنا أكتب روايات.

- ثمّة من يبرهن أنّه ما من نوعٍ أدبيّ أكثر تخييلًا من أدب السيرة.

- باستثناءٍ وارد للسيرة الذاتيّة. - علّق ماتايكس.

- تحديدًا. أنت كروائيّ، تقرّ بأنّ الحكاية هي حكاية في لحظة الحقيقة.

- أنا كروائيّ لا أقرّ إلّا بالعربون. نقدًا إن أمكن.

- سنأتي إلى هذا. ولكن، فلنتناقش بالأمر نظريًّا على الأقلّ. الوقائع مكوّنة من كلمات، ولغة. أليس كذلك؟

تنهّد ماتايكس.

- كلّ شيء مكوّن من كلمات ولغة. - ردّ - بما فيها سفسطة المحامي.

- وماذا يكون الكاتب إلّا عاملًا للغة؟ - سأله بريانس.

- رجلٌ بلا آفاق مهنيّة عندما يكفّ الناس عن استخدام عقولهم ويبدؤون بالتفكير في أعضائهم السفلى، كي لا نقول أكثر.

- أرأيت؟ حتّى بالسخرية لديك لمسة أنيقة.

- لماذا لا تدخل بالمفيد يا سيّد بريانس؟

- لم يكن لزبوني نفسه أن يقول أفضل من ذلك.

- بما أنّنا في ذروة السخرية، إن كان زبونك مهمٌّ ومتنفِّذٌ إلى ذلك الحدّ، ألستَ محاميًا متواضعًا لتمثيله؟ بلا مؤاخذة.

- لا أؤاخذك. في الواقع أنت محقّ للغاية. أنا أمثِّله عن جهة غير مباشرة.

- فسّر أكثر. - قال ماتريكس.

- طُلِبَت منّي الخدمة من مكتب قانونيّ مرموق يمثِّل الزبون.

- يا لسعدك. ولماذا لا نرى في هذه الأرجاء ممثّلًا عن هذا المكتب رفيع المستوى؟

- لأنّه موجود في المنطقة المحتلّة من قِبَل القوميين. كلامي واضح، من الناحية التقنيّة. الزبون شخصيًّا في سويسرا، على ما أعتقد.

- عفوًا؟

- زبوني ومحاموه موجودون تحت ولاية الجنرال فرانكو ورعايته. - فسَّرَ بريانس.

نظر ماتايكس بارتياب إلى الطاولات المجاورة. لا يبدو أنّ أحدًا يسمعهما أو يعيرهما انتباهًا، لكنّ ذلك الزمان كان يقتات على الشكوك، وحتى الحيطان لها آذان.

- لا بدّ أنّها مزحة. - قال ماتايكس مخفضًا صوته.

- أؤكِّد لك أنّها ليست كذلك.

- أرجوك أن تنهض وتنصرف. سأتظاهر بأنّي لم أرك ولم أسمعك.

- صدّقني، إنّني أفهمك كليًّا يا سيّد ماتايكس. لكنّي لا أستطيع.

- لِمَ لا؟

- لأنّي إذا خرجتُ من هذا الباب دون تأكُّدٍ من أنّك ستلبّي الخدمة، لا أظنّ أنّني سأكون حيًّا في الغد. ولا حتّى أنت أو عائلتك.

هبط صمت طويل. أمسك ماتايكس بياقة قميص المحامي بريانس الذي كان ينظر إليه بحزنٍ عميق.

- هل أنت تقول الحقيقة... - غمغم، في سرِّه أكثر ممّا توجَّه إلى مخاطبه.

هزّ بريانس رأسه مؤكِّدًا. فتركه ماتايكس.

- ولماذا أنا بالذات؟

- زوجة الزبون قارئة نهمة لما تكتب. تقول إنّها معجبة بكتاباتك. لاسيّما قصص الحبّ. أمّا البقيّة، فلا تحبّها كثيرًا.

حمل الكاتب يديه إلى وجهه.

- إن كان ثمّة ما يؤاسيك، فالأجر ليس مسبوقًا على الإطلاق. - أردف بريانس.

نظر ماتايكس إليه من بين أصابعه.

- وكم سيدفعون لك؟

- سيتركونني أستمرّ بالتنفّس ويتحمّلون إيفاء ديوني، التي ليس بالقليلة. بشرط أن توافق حضرتك.

- وماذا لو لم أوافق؟

رفع بريانس كتفيه.

- يقال إنّ برشلونة هذه الأيّام فيها قتلة مأجورون بأسعار بخسة جدًّا.

- وكيف أتأكد... وكيف تتأكد أنت من صدق هذه التهديدات؟

طأطأ بريانس رأسه.

- عندما طرحتُ هذا السؤال، أرسلوا لي علبة تحتوي على الأذن اليسرى لشريكي في المكتب، خوسيد. قالوا لي إنّني سأستلم علبًا أخرى في كلّ يومٍ يمرّ بلا جواب. كما أسلفتُ، اليد العاملة الصارمة في هذه المدينة من أرخص الأسعار.

- ما اسم زبونك؟ - سأل ماتايكس.

- لا أعرف.

- فماذا تعرف إذن؟

- أعرف أنّ الناس الذين يعملون لمصلحته لا يمزحون.

- وهو؟

- أعرف أنّه مصرفيّ. مهمّ. أعرف، أو أستنتج، أنّه واحدٌ من مصرفيّين أو ثلاثة ممّن يموِّلون جيش الجنرال فرانكو. أعرف، أو ألمحوا لي، أنّه رجلٌ مغرورٌ وحسّاسٌ جدًّا على الحكم الذي سيقدِّمه التاريخُ في حقّه، وأنّ زوجته، كما قلت لك قارئة عظيمة ومتابعة لأعمالك، أقنعته بأنّه يحتاج إلى سيرةٍ تضخِّم نجاحاته وعظمته وإسهامه الجبّار لمصلحة إسبانيا والعالم.

- كلّ أبناء القحاب يحتاجون إلى سيرة، أشدّ أنواع الأدب كذبًا. - صرّح ماتايكس.

- لست أنا من سيجادلك في هذا يا سيّد ماتايكس. هل تريد سماع النبأ السارّ؟

- تقصد أنّنا سنبقى أحياء؟

- مئة ألف بيسيتاس مودعة في حسابٍ باسمك في المصرف الوطنيّ السويسريّ عند الموافقة على العمل، ومئة ألف أخرى عند إصدار العمل.

نظر إليه ماتايكس مشدوهًا.

- ريثما تهضم هذا الرقم، دعني أطلعك على الإجراءات. عند موافقتك وتوقيعك على العقد، ستبدأ بتلقّي العائدات عن طريق مكتبي كلّ خمسة عشر يومًا، وسيدوم ذلك حتّى يُنجَز العمل، من دون تقليص بالمجموع الكليّ لأجورك. وبالتالي، ستتلقّى عن طريقي أيضًا، وثيقةً يبدو أنّها موجودة أساسًا، تحتوي على النسخة الأوّليّة من سيرة زبوني.

- أهذا يعني أنّني لستُ أوّل من عُرِض عليه الأمر؟

رفع بريانس كتفيه مرّة أخرى.

- ما مآل الكاتب السابق؟ - سأل ماتايكس - هل أرسلوه هو أيضًا في علب؟

- لا أدري. يبدو أنّ عمله كان خاليًا من طلاوة الأسلوب وكياسة الذوق، بحسب زوجة الزبون.

- لا أفهم كيف تستطيع الممازحة على شيء من هذا القبيل.

- هذا أفضل من أن أرمي بنفسي تحت المترو. بكلّ حال، وبحسب ما فهمت، تلك الوثيقة أوّليّة جدًّا، وستفيدك كقاعدة توثيق أساسيّة. وظيفتك تتألّف في كتابة سيرة نموذجيّة عن الشخصيّة انطلاقًا من بياناته التي ستظهر عليك في تلك الصفحات. المهلة عام واحد لإنجاز ذلك. بعد مراجعة الزبون وإبداء تعليقاته، سيكون أمامك ستة أشهر أخرى لإدراج التغييرات المطلوبة، وإكمال النصّ على أتمّ وجه وتحضيره كمخطوطة صالحة للطباعة. واسمح لي بأن أقول لك: لا داعي للإمضاء على الكتاب، هذا أفضل شيء، لا أحد سيعرف أنّك أنت الذي كتبته. ففي الواقع، صمتك وصمتي شرطٌ ملزم وحتميّ لإبرام الاتفاق.

- وما السبب؟

- ربّما كان عليَّ أن أخبرك منذ البداية أنّ الكتاب هو سيرة ذاتيّة بالمحصلة. ستكتبه أنت بصفة الفاعل، وسيوقّع عليه زبوني باسمه.

- أتصوَّر أنّه حدَّدَ له عنوانًا.

- عنواني مبدأيّ. «أنا، XXXX. ذكريات مصرفيٍّ إسبانيّ». أعتقد أنّه من المسموح إبداء اقتراحات لبدائل.

وحينذاك، فعل ماتايكس ما لم يكن هو نفسه ولا بريانس يتوقّعانه: انفجر ضاحكًا. ضحك حتّى سالت دموعه، والتفت زبائن الحانة الينظروا إليهما شزرًا متسائلين كيف يمكن لأحدٍ أن يروقه الضحكُ هكذا وسط ضراوة ما يحدث. وحين استجمع رصانته، التقط نفسًا عميقًا ونظر إلى بريانس.

- هل أفهم أنّ هذا يعني أنّك موافق؟ - سأله المحامي والآمال تتراقص في عينيه.

- هل هناك بديل؟

- أن يطلقوا النار على رؤوسنا في الشارع غدًا أو بعد غد، أنت وأنا، وسيفعلون الأمر ذاته عاجلًا أم آجلًا مع عائلتي وعائلتك.

- أين عليَّ أن أوقِّع؟

بعد عدّة أيّام أمضاها بالقلق والتنجيم والأرق، ضاق ماتايكس ذرعًا بالحال وخرج لزيارة ناشره في مكتب منشورات أوربي. لم يكن ريبيس يكذب: كان المكتب يتضوّع فعلًا برائحة مزرعة أمبورذان. صناديق بأكملها محمَّلةٌ من معبد باذينس للخضروات كانت مصطفّة في الممرّات بين أكوام الكتب وسجلّات الفواتير المستحقّ دفعها. أصغى ريبيس بانتباه شديد للقصة وهو يتنشَّق حبّة طماطم ريّانة ويلهو بها.

- ما رأيك؟ - سأل ماتايكس في نهاية سرده.

- إلهي. أشعر بالجوع بمجرّد أن أشم عطره. - قال ريبيس.

- أقصد حكايتي لا الطماطم. - ألحَّ ماتايكس.

وضع ريبيس حبّة الطماطم على المكتب.

- لا مفرّ لديك سوى الموافقة. - أعرب عن رأيه.

- أنت تقول لي ذلك لأنّك تعرف أنّي لا أريد أن أسمع سوى ذلك.

- بل لأنّه يسعدني أن أراك حيًّا، ولأنّك مدينٌ لنا بالمال الذي نأمل أن تسدّه إلينا يومًا ما. هل تلقّيت الوثائق الأوليّة؟

- جزءٌ منها.

- فإذن؟

- مثيرةٌ للتقيّؤ.

- هل كنت تنتظر سوناتات شكسبير؟

- لا أعرف ما الذي كنت أنتظره.

- لعلّك وضعت فرضيّة ما على الأقلّ وبتَّ تعرف ما أنت بصدده.

- كوّنتُ فكرة. - قال ماتايكس.

كانت عينا ريبيس تلمعان.

- حدِّثني...

- ممّا قرأته، أظنّ أنّنا بصدد يوباش.

- ميغيل أنخل يوباش؟ القربان المبارك. «مصرفيُّ البارود»؟

- يبدو أنّه لا يروقه هذا اللقب.

- تبًّا له. إن كان لا يروقه، فليموِّل نشاطًا اجتماعيًّا لا حربًا.

- ماذا تعرف عنه، أنت الذي تعرف كلّ شيء عن الجميع؟ - سأل ماتايكس.

- لا أعرف إلّا عن أولئك الذين لهم قيمة.

- أفهم أنّ عالم المتملِّقين والفاسقين لا يثير اهتمامك.

تجاهل ريبيس ذلك السهم اللاذع، مفتونًا بتلك المكيدة رفيعة المستوى. أطلّ من باب مكتبه ونادى شخصًا موثوقًا، لاورا فرانكوني.

- لاورا، تعالي دقيقة واحدة لو سمحتِ...

وبينما كانا ينتظرانها، ظلَّ ريبيس يطوف مكتبه قلقًا. وبعد قليل، ظهرت لاورا فرانكوني عند العتبة، متجاوزةً صندوقين من البصل والكرّاث. وما إن رأت ماتايكس ابتسمت واقتربت منه وقبّلته. كانت لاورا، النحيلة والمتنشِّطة، أحد العقول المدبّرة التي تحرِّك تلك المؤسسة بيدٍ من حرير.

- ما رأيكِ بمعرض الخضروات والفواكه؟ - سألته - هل تحبّ الكوسا؟

- الصديق ماتايكس الحاضر هنا وقّع عقدًا للتوّ مع آلهة الحرب. - قال الناشر.

تنهّد الكاتب.

- لماذا لا تطلّ من النافذة وتفضحني على الملأ بمضخِّم الصوت؟

أغلقت لاورا فرانكوني باب المكتب ونظرت إليه مضطربة.

- حدِّثْها بما جرى. - قال ريبيس.

قدّم ماتايكس نسخة موجزة عن الأحداث، لأنّ لاورا كانت قادرة على ملء الفراغات ما بين السطور بمفردها. اكتفت في النهاية بوضع يدها على كتف ماتايكس، مكسورة النفس.

- فإذن، ابن القحبة يوباش قد وجد ناشرًا يُصدِر له هذا الهراء؟ - سأل ريبيس.

رمته لاورا بنظرة حادّة.

- كنت أريد أن أشير إلى احتماليّة صفقة. - فسَّر ريبيس - لا أعرف إن كان تأنيب الضمير ينفع في هذه الأوقات العصيبة.

- سأكون ممتنًّا على مساعدتك ونصيحتك. - ذكّره ماتايكس.

أمسكت لاورا بيده ونظرت في عينيه.

- خذ النقود. اكتب لذلك المغرور ما يريد وهاجرْ من هذا البلد نهائيًّا. أنصحك بالأرجنتين. أراضٍ رحبة ولحومٌ حتّى الموت.

نظر ماتايكس إلى ريبيس.

- آمين. - قال الناشر - لم أكن قادرًا على إبداء نصيحة أفضل من هذه.

- أمَا مِن اقتراحٍ لا يتضمّن اجتياز العالم ونفي عائلتي؟

- اسمع يا ماتايكس. مهما فعلتَ فأنت تخاطر بحياتك. إذا انتصر معسكر يوباش، المتقدِّم جدًّا والحال هذه، فحدسي يخبرني بأنّ وجودك سيكون مزعجًا حالما تنتهي الحاجة إلى خدماتك، وقد يفضِّلون إخفاءك. وإذا انتصر معسكر الجمهوريّين، وعرف أحدهم بأنّك تعاونت مع أحد مرابي فرانكو، فإنّي أراك في سجنٍ سرّيّ مجرّدًا من كلّ شيء.

- رهيب.

- نحن باستطاعتنا مساعدتك في الفرار. لدى باذينس صلاتٌ بشركة سفن تجاريّة، بإمكاننا أن نضعك على متن إحداها إلى مرسيليا أنت وعائلتك خلال أيّام قصيرة. وهناك، تتدبّر أمرك. لو كنتُ محلّك لأصغيتُ إلى كلام لاورا وهاجرتُ إلى الأمريكيّتين. الشماليّة أم الجنوبيّة، لا فرق. فالمهمّ أن يكون بينك وبين إسبانيا يابسةٌ ومحيط.

- سنأتي لزيارتك. - أشارت لاورا - إلّا إذا كنتَ مضطرًّا لضيافتنا جميعًا، نظرًا لما تؤول إليه البلاد...

- وسنحمل إليك طماطم وخضروات لتصنع منها مقبّلاتٍ إلى جانب المشويّات التي ستجهِّزها بغنيمة مئتي ألف بيسيتاس. - قال ريبيس.

تأفّف ماتايكس.

- زوجتي لا تريد مغادرة برشلونة.

- أستنتج أنّك لم تخبرها بأيّ سيء من كلّ هذا. - قال ريبيس.

نفي ماتايكس برأسه. فنظر كلٌّ من ريبيس ولاورا أحدهما بالآخر.

- وأنا أيضًا لا أودّ الذهاب إلى أيّ مكان. - قال الكاتب - فهذه دياري، بحلوها ومرّها. إنّها تسري في دمائي.

- المالاريا أيضًا تسري في الدماء، لكنّها ليست صحيّة دائمًا. - علّق ريبيس.

- هل لديك لقاحٌ من أجل برشلونة؟

- إنّني أفهمك جيّدًا. قد يحدث لي الأمر ذاته. مع أنّي لن أمانع أن أطوف العالم بجيوبٍ ممتلئة. لكنّك لست ملزمًا لاتخاذ القرار الآن. ما يزال أمامك عام ونصف لتفكّر في الموضوع. ستبقى الأمور معلّقة ما دامت الحرب مستمرّة وما دمت لم تسلِّم الكتاب بعد. افعل ما تفعله معنا، فأنت لا تحترم مواعيد التسليم أبدًا وتؤجِّلنا دائمًا إلى ما بعد العيد...

ربّتت لاورا على كتفه تعبيرًا عن مساندتها له. فما كان من ريبيس إلّا أن أمسك بأحلى الثمار البريّة وأنقاها ومدّها نحوه.

- أتريد حبّة طماطم؟

لم ينجُ من مخطوطة «مذكّرات الظلمات» إلّا جزءٌ واحد، لكن المؤشرات كلّها تدلّ على أن ماتايكس رضخ للظروف في النهاية. لا دلائل على تسليمه النسخة الأولى من السيرة الذاتية

لميغيل أنخل يوباش إلّا في وقت متأخر من عام 1939. وعندما وضعت الحرب أوزارها وفتحت كتائبُ فرانكو مدينةَ برشلونة فتح المظفَّرين، كان ماتايكس ما يزال منكبًّا على المراجعات والتعديلات التي طُلِبَت منه، أغلب الظنّ من جانب فيديريكا، زوجة يوباش، التي وفَّقت بين إيمانها بالفاشيّة وحساسيّتها الرفيعة للفنون والآداب. وبعد أن سلَّم النسخة النهائيّة من الكتاب، درس ماتايكس احتماليّة اتّباع نصيحة ناشريه بالهروب من البلد مع العائلة والأرباح، فاستقرّ على عدم الإصغاء للنصيحة وقرّر البقاء. ومردّ سبب اتخاذه ذلك القرار، الذي ما انفكّ يؤجّله، أنّ زوجته في نهاية عام 1939 حبلت من جديد بتلك التي ستكون ابنتهما الثانية.

كان يوباش قد عاد إلى إسبانيا ظافرًا في تلك الفترة، يتمتّع بأسمى آيات المجد والامتنان بين أعلى أقطاب النظام بفضل عمله ممِّولًا للحملة القوميّة. كثر الانتقام في تلك الأيّام، لكن المكافآت كثرت أيضًا. فكلّ أوساط الحياة الإسبانيّة تعيد هيكلة نفسها، وكثيرٌ هم الذين طواهم النسيان، في المنفى الداخليّ وفي البؤس، بينما ارتقى كثيرٌ من الخدم إلى مناصب عليا من السلطة والمكانة. ولم تسلم أيُّ زاوية من الحياة العامّة إلّا ورضخت لعمليّة تطهير واسعة بهمَّةٍ لا يعلى عليها. كان تبديل الجلد - وهي عادةٌ عميقة الجذور في شبه الجزيرة - يُبرِز حقيقة المعدن. لقد خلَّفت الحرب مئات آلاف الموتى، وما يفوقهم عددًا من منسيّين وملعونين. وقد غلب اليأس جزءًا كبيرًا من معارف ماتايكس القدامى وزملائه، الذين احتقروه في الماضي، وباتوا يطلبون مساعدته وعطفه وتوصياته. وانتهى المآل بأكثرهم إلى السجن، حيث قضوا فيه أعوامًا، بينما انطفأت القلّة القليلة ممّن تبقَّوا منهم. أُعدِمَ أحدُهم بلا محاكمة، وانتحر آخرون أو ماتوا جرّاء مرضٍ أو حزن.

وآخرون، أكثرهم ادّعاءً وانعدامًا للمواهب، بدّلوا جلودهم وقطعوا أشواطًا - بالعمل خدمًا وتملُّقًا للنظام بدوام كامل - لم يكونوا ليقطعوها بفضل جدارتهم. وغالبًا ما تكون السياسة ملاذًا للفنّانين العاديّين والفاشلين. هناك حيث بوسعهم أن يغتنوا ويحصلوا على السلطة التي تسمح لهم بالغطرسة ولاسيّما الانتقام من كلّ أولئك الذين حصلوا، بجهودهم ومواهبهم، على أشياء لم يكونوا قادرين حتّى على لمسها، فانتقموا منهم متذرّعين بالقداسة والتضحية ووصفوا فعلهم الشنيع هذا بخدمةٍ من أجل الوطن.

في صيف عام 1941، بعد أسبوعين من ولادة سونيا، البنت الثانية لسوزانا وفكتور ماتايكس، تحقَّقَ حدثٌ غير اعتياديّ. كانت العائلة تستمتع بيوم أحد هانئ ومشمس في الفيلا في شارع دي لاس أغواس، فإذا بهم يسمعون صوت اقتراب موكبٍ من السيّارات. نزل من الأولى أربعة رجال مسلَّحين ببدلات مزدوجة الصدر. خشي ماتايكس وقوع الأسوأ، لكنّه لاحظ أنّ السيّارة الثانية، مرسيدس من طراز سيّارة الجنرال فرانكو نفسها، ينزل منها رجلٌ ذو ملامح راقية صحبة سيّدة شقراء مدجّجة بالمجوهرات والملابس كأنّها آتية لحضور حفل تتويج ملكة. ميغيل أنخل يوباش وزوجته، فيديريكا.

شعر ماتايكس بالأرض تتزلزل تحت قدميه، وهو الذي لم يُطلع زوجته على حقيقة الكتاب الذي دفن في سبيله أكثر من عامٍ ونصف من حياته - الكتاب الذي أنقذ حياتها هي أيضًا. احتارت سوزانا وسألت من يكون هذا الزوج من الزوّار البارزين الذي يجتاز الحديقة. تكفَّلت السيّدة فيديريكا في الإجابة عنه، خلال تلك العصريّة. وبينما انعزل الرجلان في المكتب للتحدّث

بخصوصيّات رجّاليّة ما بين نخْب البراندي والسيجار (الذي جاء به الضيف كهديّة)، أصبحت السيّدة فيديريكا أعزّ صديقة لتلك المرأة الفقيرة ابنة الرعاع التي كانت بالكاد تقف على قدميها، إذ باتت أضعف حالًا بعد إنجاب ابنتها الثانية. وعلى الرغم من هذا، تركتها السيّدة فيديريكا تنهض وتذهب إلى المطبخ لإعداد الشاي الذي ترفّعت عن لمسه، والكعك اليابس الذي لم تكن لتطعمه لكلابها، وراقبت مشيتها العرجاء بينما ظلّت صحبة تينك الطفلتين، أريادنا والصغيرة سونيا، اللتين كانتا بشكلٍ منافٍ للعقل أجملَ شيء رأته في حياتها. فكيف من المعقول أنّ طفلتين بهذا الجمال، مفعمين بالنور والحياه، تولدان من ذينك المتضوِّرَين جوعًا؟ أجل، ربما كان لماتايكس موهبة، لكنّه كان وسيبقى خادمًا شأنه شأن بقيّة الفنّانين، ثمّ إنّه لم يكتب إلّا كتابًا واحدًا ذا قيمة، «بيت السرو»، وما تبقّى من كتاباته هراء خيّب آمالها بحبكاته المبهمة والكئيبة. وقد صارحته بذلك جهارًا عندما صافحته، إذ أحبطها استقباله الباهت، كما لو أنّه ليس مسرورًا برؤيتها. «أجمل كتابٍ ألّفته حقًّا هو الكتاب الأوّل فقط» - قالت له. كما أنّ زواجه بتلك الجلفة التي لا تعرف الكلام ولا الأزياء عزّز شكوكها. ماتايكس ساعدها لتزجية الوقت ليس إلّا، ولن يكون له شأنٌ بين الكبار أبدًا.

ورغمًا عمّا سبق، تحمّلت السيدة فيديريكا بأفضل ابتساماتها رفقةَ تلك المسكينة التي كادت تتجزّأ إلى أربعة أشخاص إرضاءً لها ولم تكفّ عن طرح الأسئلة على حياتها، كأنّها تتطلّع إلى فهمها. وكانت بالكاد تستمع إليها. عيناها لا تريان إلّا الطفلتين. فيما كانت أريادنا تنظر إليها بتوجُّس، كما يفعل كلّ الأطفال. وعندما سألتها: «أخبريني يا حلوتي، من أجمل برأيكِ، أنا أم والدتكِ؟»، هُرعت أريادنا للاحتماء خلف أمها.

حلَّ المساء عندما خرج يوباش وماتايكس من المكتب، وأعلن الدون ميغيل أنخل عن نهاية الزيارة المفاجئة. عانق ماتايكس وقبّل يد سوزانا. «أنتما زوجٌ رائع»، قال. رافق ماتايكس وزوجتُه ضيفيهما النبيلين إلى سيّارة المرسيدس بنز ونظرا إليهما يغادران مع موكب سيّارات المرافقة تحت السماء المشتعلة بالنجوم التي تَعِدُ بأفقٍ من السلام، والأمل ربّما.

وبعد أسبوع، قبل الفجر بقليل، ظهرت سيّارتان أخريان في بيت عائلة ماتايكس. كانتا سوداوين في تلك المرّة، وليس لهما رقم لوحة. نزل من الأولى رجلٌ يلتحف سترة مطريّة غامقة عرّف نفسه بالملازم خافيير فوميرو من فرقة التحقيقات المدنيّة. يرافقه رجلٌ بملابس لا يعني على أناقتها، ونظارة على عينيه وشعر مسرّحٍ يضفي عليه هالة بيروقراطيّ من مستوًى متوسّط. لم ينزل من السيّارة، ظلّ يراقب المشهد من المقعد الأماميّ بجوار السائق.

خرج ماتايكس لاستقبالهما. فانهال فوميرو بكعب الريفولفر على وجهه فحطّم فكّه وتركه يهوي أرضًا، حيث حمله رجلان وجرّاه نحو إحدى السيّارتين وهو يصيح. مسح فوميرو يديه من الدماء بسترته، ودخل البيت بحثًا عن سوزانا وابنتيها. وجدهنّ جزعاتٍ يرتجفن ويبكين داخل إحدى الخزانات. وعندما رفضت سوزانا تسليمه البنتين، لكمها فوميرو على معدتها. وحمل بذراعه الصغيرة سونيا وجرّ بيده أريادنا التي تبكي فزعًا. وكان فوميرو يخرج من الغرفة عندما انقضّت سوزانا على ظهره وغرست أظفارها في وجهه. فسلّم فوميرو البنتين إلى الرجل الواقف عند الباب، والتفت إليها دون أن يرفّ له رمش. أمسكها من عنقها وأسقطها أرضًا. وجثم فوقها ليهرس

جذعها وهو يحدِّق إلى عينيها. لم تعد سوزانا قادرة على التنفّس، ورأت ذلك المجهول الذي ينظر إليها مبتسمًا. رأته يُخرج من جيبه شفرة حلاقة ويفتحها. «سأمزِّق أمعاءكِ وأعلّقها زينةً على عنقكِ أيّتها القحبة الخرائيّة» - قال لها بكلّ هدوء.

وكان فوميرو قد نزع عنها ثيابها وبدأ يلهو بالشفرة حين انحنى إليه الرجل، البيروقراطيّ ذو الملامح الجامدة الذي كان في السيّارة، وأوقفه عند ذلك الحدّ.

«ليس لدينا وقت» - قال.

تركها الرجال هناك وانصرفوا. جرجرت سوزانا جسمها النازف على السلالم وسمعت هدير السيّارات تبتعد بين الأشجار حتّى فقدت الوعي.

المنسيّون

(1)

عندما أنهى بيلاخوانا قصّته، كانت عيناه تغرورقان بالدموع، وقد جفّ فمُه. أخفضت أليثيا أنظارها وحافظت على صمتها. وبعد قليل، غرغر الصحفيّ صوته وتوجَّه إليها بابتسامة واهنة.

- لم ترَ سوزانا زوجها وابنتيها من بعد إطلاقًا. أمضت شهرين تسأل عنهم في المخافر والمستشفيات وبيوت الإحسان. لا أحد عرف عنهم أيّ شيء. وذات يومٍ غالبها فيه اليأس، قرّرت أن تتصل بالسيّدة فيديريكا يوباش. فأجابها أحد الخدم ومرّر المكالمة إلى السكرتير.

شرحت له سوزانا ما جرى وقالت إنّ السيّدة وحدها قادرة على مساعدتها. إنّها صديقتي، قالت له.

- مسكينة. - غمغمت أليثيا.

- بعد أيّام، حملوها من الطريق ونقلوها إلى مستشفى الأمراض النفسية للإناث. وظلّت هناك عدّة سنوات. وقيل بعدئذ إنّها هربت. ومن يدري. ضاعت سوزانا إلى الأبد.

ساد صمتٌ طويل.

- وفكتور ماتايكس؟ - سألت أليثيا.

- المحامي بريانس، الذي أوكلته إيزابيلا خيسبرت من قبل بأن يحاول مساعدة دافيد مارتين، عرف من الأخير أنّ ماتايكس انتهى في قلعة مونتريك أيضًا. كان في زنزانة منفردة، بناء على أوامرٍ خاصّة من مدير السجن، الدون ماوريسيو ڤايس، ولم يكن يُسمَحُ له بالخروج إلى الباحة مع بقيّة المعتقلين ولا بتلقّي الزيارات أو أيّ شكلٍ من أشكال التواصل. وكان مارتين، الذي وُضِعَ في زنزانة منفردة غير مرّة، كان الوحيد القادر على التحدُّث مع ماتايكس، بتبادل بعض العبارات عبْر الممرّ. وهكذا علم بريانس بما وقع. أتصوّر أنّ المحامي عندئذ أنَّبه ضميره كثيرًا وأحسَّ بأنّه مذنبٌ جزئيًّا، لذا قرّر أن يساعد كلّ أولئك الشياطين المحبوسين هناك. مارتين، ماتايكس...

- محامي القضايا الخاسرة... - قالت أليثيا.

- لم يتسنَّ له إنقاذهم بطبيعة الحال. أُعدِمَ مارتين بأمرٍ من ڤايس، أو هكذا قيل. أمّا بخصوص ماتايكس، فلم يُعرَف عن مصيره شيء. وما يزال موته يشكّل لغزًا. إيزابيلا، التي أعتقد أن بريانس المسكين وقع في غرامها، مثل جميع الذين عرفوها، كانت قد سبقتهم بالرحيل، في ظروف أكثر من غامضة هي الأخرى. وبعد تلك الواقعة، ما عاد بريانس يرفع رأسه. إنّه رجلٌ طيّب، لكنّه يخاف، وفي المحصّلة ليس بيده حيلة.

- أتعتقد أنّ ماتايكس ما يزال هناك؟

- في القلعة؟ آمل ألّا يكون الربّ ظالمًا إلى هذه الدرجة وأن يكون قد توفَّاه منذ زمن.

أومأت أليثيا، في محاولةٍ لاستيعاب تلك الأنباء.

- وماذا عنكِ؟ - سأل بيلاخوانا - ما الذي تفكّرين بفعله؟

- ماذا تقصد؟

- هل تفكّرين في البقاء هكذا، راضية وهانئة، بعد كلّ ما رويته عليكِ؟

- يداي مكبَّلتان بقدر يدي بريانس. - قالت أليثيا - إن لم يكن أكثر منه.

- مريح.

- مع احترامي الشديد لك، أنت لا تعرف شيئًا عني.

- حدِّثيني إذن. ساعديني على إتمام القصّة. قولي لي ما الدي بوسعي فعله.

- هل لديك عائلة يا بيلاخوانا؟

- زوجة وأربعة أبناء.

- وهل تحبّهم؟

- أكثر من أيّ شيء في الدنيا. ولكن ما شأن هذا بذاك؟

- أتريدني أن أخبرك حقًّا ما الذي عليك فعله؟ جدّيًّا؟

أومأ بيلاخوانا.

- أَنهِ خطابك. انسَ ماتايكس. مارتين. ڤايس وكلّ ما رويته عليّ. وانسني أيضًا، انسَ أنّني مررتُ من هنا.

- لم يكن هذا اتّفاقنا. - اعترض بيلاخوانا - لقد خدعتِني.

- مرحبًا بك في النادي. - قالت أليثيا، وهي تمضي نحو المخرج.

(2)

بعد أن خرجت من الأكاديميّة في ساحة ريكاسينس بقليل، توقّفت أليثيا عند زاوية أحد الأزقّة وتقيّأت. تشبَّثت بأحجار الجدار الباردة وأغمضت عينيها، وهي تتحسّس عصارة المرارة على شفتيها. حاولت أن تتنفّس بعمق وتستعيد هيبتها، إلّا أنّ الغثيان اكتسحها من جديد وكادت تسقط على ركبتيها أرضًا، لولا أنّ أحدًا ما قد أسندها. التفتت أليثيا لتجد نفسها أمام وجه روبيرا المتحمّس والمرتبك، الجاسوس قيد التدريب، الذي كان يراقبها متأثّرًا.

- هل أنتِ على ما يرام، آنسة غريس؟

حاولت الـ سعيد أنفاسها.

- هل لي أن أعرف ما الذي تفعله هنا يا روبيرا؟

- حسنًا... لقد رأيتكِ من بعيد تترنّحين و... المعذرة.

- إنّي بخير. اذهب!

- أنتِ تبكين، يا آنسة.

رفعت أليثيا صوتها ودفعته بكلتا يديها.

- اغرب عن وجهي أيّها الأحمق!

تراجع روبيرا إلى الخلف وابتعد مسرعًا بنظرةٍ مكسورة، فاستندت أليثيا إلى الجدار. مسحت دموعها بيديها، واستأنفت المشي وهي تعضّ شفتيها بغضبٍ شديد.

وعلى طريق البيت، صادفت بائعًا متجوّلًا، فاشترت منه السكاكر بنكهة الكينا لتزيل عن مذاقها طعم القيء الحامض. صعدت السلالم ببطء وحينما وصلت إلى باب بيتها سمعت أصواتًا في الداخل. فظنّت أن فرنانديتو قد جاء بحثًا عن أوامر، أو لإيجاز ما خلُصت إليه مهمّتُه، وأنّه تصالح مع بارغاس. فتحت الباب فرأت بارغاس واقفًا بجوار النافذة. أمّا الجالس على الأريكة، وفنجان الشاي بيده، فكان لياندرو مونتالبو، يبتسم بكلّ هدوء، ظلّت أليثيا واقفة عند العتبة ممتقعة الوجه.

- وأنا الذي كنت أظنّ أنّكِ ستسرّين بلقائي. - قال لياندرو وهو ينهض.

تقدّمت أليثيا خطوتين، وهي تنزع عنها المعطف وتتبادل النظرات مع بارغاس.

- لم... لم أكن أعلم أنّك آتٍ. - غمغمت - لو كنت أعلم...

- قرّرتُ المجيء باللحظة الأخيرة. - قال لياندرو - لقد وصلت ليلة أمس، في وقت متأخّر جدًّا، لكنّني في الحقيقة لم أكن لأختار لحظة أفضل.

- هل أحضِّر لك شيئًا تشربه؟ - ارتجلت أليثيا.

أظهر لياندرو فنجان الشاي.

- لقد أعدَّ لي النقيب بارغاس من كلّ لطفه فنجان شايٍ لذيذ جدًّا.

- السيد مونتالبو وأنا قمنا بالتعليق على القضيّة بكامل تفاصيلها. - قال بارغاس.

- آه، جيّد...

- هيّا، أعطني قبلة يا أليثيا. أيّامٌ كثيرة لم أركِ فيها.

اقتربت منه ولثمت خدّيه بشفتيها. فتنبَّهت من بريقٍ في عينيه أنّه شم رائحة المرارة في ريح فمها.

- هل أنتِ بخير؟ - سألها.

- أجل. معدتي مضطربة بعض الشيء. لا أكثر.

- عليكِ بمزيدٍ من العناية بنفسك. فإذا كنتُ لا أراقبكِ، تهملين صحّتكِ.

أومأت أليثيا وابتسمت برقّة.

- هيّا، اجلسي. حدِّثيني. قال لي النقيب إنّ صباحكِ كان مليئًا بالمهام. زيارةٌ إلى صحفيّ، على ما أعتقد. أليس كذلك؟

- لقد تركني في النهاية بمفردي. من الوارد أنّه لم يكن لديه ما يحدِّثني به.

- انعدم حسن السلوك في هذا البلد.

- بارغاس أيضًا يقول ذلك. - لاحظت أليثيا.

- لحسن الحظّ ما زال هناك مَن يعمل بضمير، وهذا جيّد. مثلكما، فلقد استطعتما حلّ القضية عمليًّا.

- آه، حقًّا؟

نظرت أليثيا إلى بارغاس، فطأطأ رأسه.

-حسنًا قصّه متروبارنا، سانشيس وسانهه. ارى انّهم اصبحوا في قبضتنا، كما يقال. دربنا راسخٌ جدًّا.

- مسألة ظرفيّة محض. لا غير.

- أرأيت؟ ماذا قلت لك يا بارغاس؟ أليثيا لا ترضى على نتائجها أبدًا. إنّها تنشد الكمال دائمًا.

- بمعلّم مثلك... - أشار بارغاس.

أرادت أَليثيا أن تسأله عن سبب مجيئه إلى برشلونة فانفتح الباب على حين غرّة وظهر فرنانديتو في وسط الصالة، لاهث الأنفاس من صعود السلالم.

- آنسة أليثيا، لديّ أنباء طازجة! لن تصدَّقي ما توصّلتُ إليه!

- آمل أنّك سلّمتَ أغراضي لبيت الجيران عن طريق الخطأ. - قاطعته أليثيا وحدّقت في عينيه.

- هيه.

- قال لياندرو - ومن هذا الفتى المتحمّس؟ ألا تقدَّمينه - إنّه فرنانديتو، الفتى العامل في دكّانة البقالة.

ابتلع الفتي ريقه وأكّد برأسه.

- ها؟ ألم تجلب الأغراض؟ - سألته أليثيا بنبرةٍ حادّة.

فنظر إليها فرنانديتو حائرًا صامتًا.

- لقد قلت لك إنّي أريد الزيتون، والحليب، والخبز وقنّينتين من نبين بيرلاذا الأبيض. وزيت زيتون. ما الذي لم تفهمه من كلامي؟

فطن فرنانديتو إلى وجود ظرف طارئ في عيني أليثيا فهز رأسه نادمًا.

- المعذرة يا آنسة أليثيا. لقد حدث خطأ ما. مانولو قال إنّ أغراضك جاهزة ويأمل أن تعذريه. لن تتكرّر ثانيةً.

طقطقت أليثيا أصابعها مرارًا.

- نحرَّكْ إذن. ما الذي تنتظره؟

أومأ الفتى مجدّدًا وانصرف سريعًا.

- لا يمكن إلّا أن يعكّروا مزاجك. - ارتجلت أليثيا.

- لهذا أعيش في فندق. - قال لياندرو - كلّ شيء بمتناول الهاتف.

رسمت أليثيا على وجهها ابتسامة صافية وعادت بقرب لياندرو.

- وما الذي شرَّفنا بمغادرتك للراحة في فندق بالاس لنأتي إلى بيتي المتواضع؟

- بإمكاني القول إنّني اشتقت لدعاباتكِ، لكنّي في الحقيقة أحمل أنباء سارّة وسيّئة.

تبادلت أليشيا النظرات مع بارغاس، الذي اكتفى بهزّ رأسه.

- هلّا جلستِ! هذه الحكاية لن تروقكِ يا أليثيا، لكنّي أريدكِ أن تعلمي بأنّ الفكرة لم تكن فكرتي، ولم أتمكّن من اجتناب ذلك. انتبهت أنّ بارغاس يزداد انكفاءً على نفسه.

- اجتناب ماذا؟ - سألت.

وضع لياندرو الفنجان على الطاولة وسكت قليلًا، كما لو أنّه يتسلَّح بالشجاعة ليحيطها علمًا بالأنباء التي حملها معه.

- منذ ثلاثة أيّام، كشفت تحقيقات الشرطة أنّ الدون ماوريسيو ڤايس كان على تواصل هاتفيّ، في ثلاث مناسبات خلال الشهر الماضي، مع السيّد إغنائيو سانشيس، المدير العام لشركة متروبارنا.

وفي تلك الليلة نفسها، أثناء مداهمة مكتب الشركة في مدريد، عُثِرَ على وثائق تُثبِت عدّة عمليّات بيع وشراء الأسهم المصرف العقاري، الشركة الأم للمتروبارنا، بين مديرها السيّد إغنائيو سانشيس

والدون ماوريسيو ڤايس. بحسب الجهات المختصّة، فإنّ تلك العمليّات تُظهِرُ إجراءاتٍ مشبوهة وغير شرعيّة، ولا وجود لايّ أثر على الـ مصرف إسبانيا أحيط علما بها. وعندما سئل عن السبب أحد المسؤولين في المكتب المركزي، أنكر درايته بالأمر وشكك بأن تكون تلك الاتفاقيات مسجلة رسميًا.

- ولماذا لم تضعونا بصورة هذه المعلومات؟ - سألته أليثيا - ظننتُ أنّنا شركاء في التحقيقات.

- لا تلقي باللائمة على خيل دي بارتيرا ولا على الشرطة. ففي تلك اللحظة لم أكن أعلم أنّ تحقيقكما سيفضي بكما إلى سانشيس من جهة مختلفة. لا تنظري إلي هكذا. عندما أعلمني خيل دي بارتيرا بالمسألة، آثرتُ انتظار تأكيدات من الشرطة بأنّنا بصدد أمرٍ يهمّ القضيّة لا مجرّد شبهة ماليّة خارج اختصاصنا. ولو تقاطعت الخطوط بلحظة معيّنة، كنتُ سأخبرك طبعا. لكنكما سبقتماني.

- لا أستطيع فهم جوهر القصّة... الأسهم؟ - سألت أليثيا.

أدلى لياندرو بإشارة تطلب الصبر وتابع قضته.

- واصلت الشرطة استقصاءها، فوجدت دلائل أخرى على اتفاقات مشكوكٍ بأمرها بين سانشيس وماوريسيو ڤايس. يتعلّق معظمها بعمليّات بيع وشراء، مساهمات المصرف العقاريّ وسنداته، جرت طوال خمسة عشر عامًا تقريبًا من خلف ظهر الحكومة والأجهزة الإداريّة في الشركة. نحن نتحدّث عن أرقامٍ معتبرة. ملايين من البيسيتا. بناء على طلب من خيل دي بارتيرا، أو بالأحرى بناء على أمرٍ منه، انطلقتُ مساء البارحة إلى برشلونة، حيث تستعدّ الشرطة لإيقاف سانشيس بين اليوم والغد، بانتظار إثباتٍ بأنّ التمويل الناجم من مبيعٍ مشبوه لسندات ديون المصرف العقاريّ قد تمّ استخدامه من قِبَلِ ڤايس لإيفاء سلفة مسجّلة للحصول على أراضٍ وتشييد قصر مرثيديس، منزله الخاصّ في سوموساغواس. تقرير الخبراء في الشرطة يفترض أنّ قايس ابتزّ سانشيس طوال أعوام بغية الحصول على تمويل غير شرعيّ بالا حتلاس من ميزانيّة المصرف وشركاته التابعة. التمويل الذي كان على سانشيس أن يغطّيه باتفاقات وهميّة بين مؤسسات وهمية لإخفاء هويّة الحاصلين على تلك المبالغ.

- قلت إنّ ڤايس ابتزّ سانشيس. بماذا؟

- هذا ما نحاول إيضاحه في اللحظة الراهنة.

- هل أفهم منك أنّها مسألة ماليّة لا غير؟

- أليست أغلب القضايا هكذا؟ - ردّ لياندرو - بالطبع، لقد تدحرجت كرة الثلج هذا الصباح، عندما أحاطني النقيب بارغاس بنتائج تحقيقكما.

رمت أليشيا نظرةً أخرى إلى بارغاس.

- ومنذ قليل تحدّثتُ مع خيل دي بارتيرا وقارنًّا اكتشافاتكما باكتشافات الشرطة. وسرعان ما أخِذَت التدابير اللازمة. يؤسفني أن يقع هذا ولا تكونين شاهدة عليه. ولكن لم يكن لدينا وقت كثير.

ما انفكّت أليثيا ترمي لياندرو وبارغاس بنظراتٍ غاضبة.

- لقد فعل النقيب ما يتوجَّب عليه فعله يا أليثيا. - قال لياندرو - بل ويؤسفني أنّكما لم تحيطاني بآخر ما توصّلتما إليه، كما كنّا قد اتّفقنا مسبقًا. لكنّني أعرفكِ جيّدًا، وأعرف أنّ كتمانكِ ليس غدرًا، وأعرف أنك لا تحبيّن إثارة الشكوك قبل أن تتأكدي تمامًا. أنا أيضًا لا أحبّ ذلك، ولهذا لم أمنعكِ من المتابعة بتلك القصة حتى اتّضح لى أنّها مرتبطة بتحقيقاتنا. بصراحة، فوجئتُ أنا أيضًا بذلك. لم أكن أعلم أنّكما تتعقّبان أثر سانشيس. وكنت مثلكِ أنتظر شيئًا آخر. ففي ظروف مغايرة، كان يطيب لي أن أحصل على يومين إضافيّين للمضيّ في المسألة حتى النهاية قبل أن أتصرّف. ولسوء الحظّ، إنّها قضيّة حسّاسةٌ لا يمكننا أن نأخذ إزاءها ما شئنا من وقت.

- وماذا فعلوا بسانشيس؟

- إنّه في المخفر في هذه اللحظة، حيث يُقدّم إفادته منذ ساعتين.

حملت أليثيا يديها إلى صدغيها وأغمضت عينيها. نهض بارغاس وصب كاسًا من النبيذ الأبيض وأعطاها لأليثيا شاحبة الوجه مثل شاهدة قبر.

- أعرب خيل دي بارتيرا وكامل فريقه عن امتنانهم وطلبوا منّي حرفيًّا أن أتوجَّه بالتهنئة لكليكما على العمل الممتاز الذي قمتما به والخدمات الجليلة التي قدَّمتماها للوطن. - قال لياندرو.

- ولكن...

- أليثيا، أرجوكِ. كلا.

از دردت كأس النبيذ وأسندت رأسها إلى الحائط.

- قلتَ إنّك تحمل أخبارًا سارّة أيضا. - قالت أخيرًا. - تلك كانت الأنباء السارّة. - حدَّد لياندرو - أمّا السيّئة فهي عزلكِ أنتِ وبارغاس. سيتابع التحقيقات مسؤولٌ جديدٌ حصرًا، موكَّلٌ من وزير الداخليّة.

- من هو؟

زمّ لياندرو شفتيه. صبّ بارغاس لنفسه كأس نبيذ، وقد ظلَّ صامتًا طوال تلك المدّة. ونظر إليها بحزن.

- إندايا. - قال.

نظرت اليثيا إلى كليهما مضطرّبة.

- بحقّ السماء، من يكون إندايا هذا؟

(3)

كانت الزنزانة تنضح بروائح البول والكهرباء. لم يعرف سانشيس من قبل أنّ للكهرباء رائحة. رائحةً بنكهةٍ حديديّة ضاربة إلى الحلاوة، كتلك التي تفوح من الدم المراق. كان هواء الزنزانة متشرِّبًا كليًا بذلك النقيع الذي يقلب الأمعاء. كما أنّ طنين المولدة الكهربائيّة، في إحدى الزوايا، كان يرجرج المصباح المتراقص من على السقف، المصباح الذي يمنح ضياء مائجًا على الجدران الرطبة التي تكثر فيها الصدوع.

جاهد سانشيس لإبقاء عينيه مفتوحتين. لم يعد يحسّ بذراعيه وساقيه، إذ كان مقيّدًا على الكرسيّ الحديدِ بحبلٍ من حديدٍ متين كاد يكشط جلده.

- ماذا فعلتم بزوجتي؟

- زوجتك في البيت. بصحّةٍ جيّدة. لماذا تظنّ بنا ظنّ السوء؟

- لا أعرف من تكونون.

اكتسب الصوتُ وجهًا، ليجد سانشيس نفسه للمرّة الأولى أمام تلك النظرة الزجاجيّة والباترة، بحدقتين من أزرقَ شفّافٍ يجعل منهما حدقتين سائلتين. كان الوجه حادّ الزوايا، لكنّ ملامحه ودودة. إذ إنّ للوجه تقاسيم مغوية كتلك التي يتمتّع بها أبطال أفلام المستوى ب، أحد أولئك الرجال الذي تطوف حوله النساءُ النبيلات وينظرن إليه بطرف العين في الطريق، وتراودهنّ إثر ذلك سخونةٌ بين الفخذين. كان أنيق الهندام بشكلٍ خارق. وثمّة جوهرةً ذهبيّةٌ بوسام النسر الوطنيّ على كلٍّ من معصمي القميص الذي خرج من المصبغة توًّا.

- نحن القانون. - قال المخاطِب مبتسمًا كما لو كان صديقه الوفي.

- دعي اذهب وشأني إدل. فانا لم افعل سيئًا.

أومأ الرجل متفهِّمًا، وكان من قبل قد قرّب كرسيًّا وتموضع في وجه سانشيس. لاحظ الأخير أنّ الزنزانة فيها ثلاثة أشخاص آخرين، مصطفين في الظلّ إلى الحائط.

- اسمي إنداياً. يؤسفني أنّنا تعارفنا في ظروفٍ كهذه، لكنّي متيقّنٌ من أنّنا حضرتك وأنا سنصبح خير أصدقاء، لأنّ الأصدقاء يحترم بعضُهم بعضًا ولا وجود لأسرارٍ بينهم.

أشار إدايا إلى اثنين من رجاله، فاقتربا إلى الكرسيّ وشرعا بتمزيق ملابس سانشيس على ضرب المقصّ.

- كلّ ما أعرفه تقريبًا قد تعلّمته من رجلٍ عظيم. الملازم فرانشسكو خافيير فوميرو، الذي توجد شهادةٌ تثني على جهوده في هذا المبنى.

كان فوميرو من أولئك الرجال الذين لم يأخذوا حقَّهم من التقدير.

وأعتقد أنّ حضرتك، يا صديقي سانشيس، تفهم الأمر أكثر من أي أحد آخر، فلقد تعرَّضتَ للظلم نفسه، أليس كذلك؟

تلعثم سانشيس وكان يرتجف وهو يرى تمزيق ثيابه بالمقص.

- لا أعرف ما الذي...

رفع إندايا يده كما لو لم يكن بحاجة إلى تفسيرات.

- نحن هنا أصدقاء يا سانشيس. سبق وطمأنتك بذلك. لا سبب الإخفاء الأسرار بيننا. فالمواطن الإسبانيّ الشريف ليس لديه أسرار.

ولكن أحيانًا يستقرّ الشرّ في وجدان بعض الناس. فلنعترف بذلك. نحن أفضل بلد في العالم، لا أحد يجرؤ على الشكّ في هذا، لكنّ الحسد يدمًّرنا أحيانًا. وحضرتك تعرف جيّدًا. يقولون إنّك تزوّجت ابنة الكبير، وإنّك ما تزوجتها إلا في سبيل منفعة، وانك لا تستحقّ الإدارة العامّة، ويقولون، ويقولون... لكنّي كما قلت لك، أفهمك جيّدًا. وأفهم أنّ الرجل يغضب إذا ما سُكَّكَ بسرقه وقدره. لانّ الرجل الذي لديه خصيتان، يغضب. وأنت لديك خصيتان. انظر، ها هما. زوجٌ جميلٌ من الخصي.

- أرجوك، لا تؤذِني، لا...

نحوّل صوت سانشيس إلى ولولة عندما ثبت أحد الرجلين كماشة على خصيته.

- هيّا، لا تبلِ، لم نفعل بك شيئا بعد. انظر إلي، هيا. انظر في عيني.

رفع سانشيس عينيه وكان يبكي مثل طفل صغير. فابتسم له إندايا.

- اسمعني يا سانشيس. أنا صديق لك. سيبقى كل هذا بيننا. لا أسرار. ساعدني كي أرسلك إلى البيت عند زوجتك، فذلك هو المكان الذي يجب أن تكون فيه. ولا تبكِ. لا أحب أن أرى إسبانيا يبكي، اللعنة! لا يبكي هنا إلا من لديه ما يخفيه. لكننا لا نملك ما نخفيه، صحيح؟ هنا لا وجود لأسرار. لأنّنا صديق لصديق. ثمّ إنّي أعرف أن ماوريسيو ڤايس عندك. وأفهمك جيّدًا. ڤايس وغًا حقير. أجل، أجل.

لا شيء يمنعني لقولها. لقد رأيتُ الأوراق. أعرف أنّ ڤايس يجبرك على انتهاك القانون. وعلى بيع أسهم وهميّة. أنا في هذه الأمور لا أفقه شيئا. عالم الأموال أكبر منّي. ولكن حتى الجهلة الذين على شاكلتي بإمكانهم أن يروا كيف يرغمك ڤايس على السرقة من أجله. سأقولها لك بكل وضوح: ذاك الرجل، وزيرا أو أيّا كان، وغدٌ حقير. اسمعها متي، فهذه الأشياء تحديدًا لا أحد يضاهيني بفهمها، لأني ملزم بمصادفتها كل يوم. وأنت تعرف كيف يسير هذا البلد. المرء يساوي ما لديه من أصدقاء. إذا كان الأمر كذلك، فإنّ لڤايس أصدقاء كثيرين. من أولئك الذين يحكمون. ولكن لكل شيء حدود. تأتي لحظةٌ ينبغي أن يقال فيها كفى. وأنت أردت أن تحقق العدالة لنفسك بنفسك. أفهمك جيّداً. لكنّها علمه. فمن اجل هذا نحن موجودول. هذا هو عملنا.

الآن، لا همَّ لنا إلّا العثور على ذلك النذل ڤايس لتوضيح كلّ شيء.

بحيث يحقّ لك الذهاب إلى بيتك، عند زوجتك. كي نزجّ ڤايس بالسجن أخيرًا ونرغمه على الإجابة عما ارتكبه. وكي أذهب في إجازة، فقد حان دوري. وبإمكاننا أن نقول حينها إنّه لم يقع شيء هنا.

تفهمني، أليس كذلك؟

حاول سانشيس أن يقول شيئا، لكنّ أسنانه كانت تصطكّ بقوّةٍ لم يستطع على إثرها أن يلفظ كلمة واحدة مفهومة.

- ماذا تقول يا سانشيس؟ لن أفهم شيئا ممّا تقول ما لم تكفّ عن الارتعاش.

- أيُّ أسهم؟ - استطاع أن يقول بوضوح.

تنهَّد إندايا.

- لقد خيّبت أملي يا سانشيس. ظننت أنّنا بتنا صديقين.

والأصدقاء لا يسيء بعضُهم إلى بعض. لسنا على ما يرام. إنّي أسهَّل عليك الأمر لأنّني في العمق أفهم سبب ما أقدمتَ عليه. الأمر الذي لن يفهمه آخرون لو كانوا مكاني. أنا أعرف ماذا يعني أن يضطرّ الرجل إلى مواجهة أقذارٍ كهؤلاء الذين يظنّون أنّهم فوق الجميع. لذا سأعطيك فرصة أخرى. لأنّك نلت استلطافي. اقبلْ نصيحة من صديق: ينبغي للمرء أن يعرف متى لا يناسبه أداء دور الديك.

- لا أعرف عن أيّ أسهم تتحدّث؟ - تلعثم سانشيس.

- لا تتباكَ، تبًّا لك. ألا ترى أنّك تضعني في موقف محرج؟ عليَّ أن أخرج من هذه الغرفة بنتائج. نقطة. افهمني. المسألة بسيطة. عندما تولج الحياةُ خازوقَها في دبرك، فمن الحكمة أن تصبح لوطيًّا. والحياة يا صديقي توشك على إيلاج خازوقها في دبرك مثلما لم يحدث لأحدِ من قبل. فلا تصعِّبْها على نفسك. لقد جلس على كرسيّك رجالٌ أفحل منك بمئه مرّه ولم يقاوموا اكثر من ربع ساعه. وانت سيّدٌ رفيق. لا ترغمني على فعل ما لا أودّ فعله. وها أنا أعيدها للمرّة الأخيرة: قل لي أين حبستَ ڤايس ولن يحدث لك شيء. وستعود إلى زوجتك سالمًا هذا المساء.

- أرجوكم... لا تؤذوها... فهي ليست بخير. - توسَّل سانشيس.

تنهّد إندايا ودنا إليه ببطء حتى كاد الوجه يلتصق بالوجه.

- اسمع أيّها الملعون. - قال بنبرةٍ تفوق النبرة التي استخدمها حتى اللحظة جمودًا - إن لم تقل لي أين ڤايس، فسأقلي خصيتيك حتى أجعلك تتغوّط على أمّك العاهرة، ثم أذهب لآخذ زوجتك الحلوة وأسلخ لحمها عن عظمها بكمّاشاتِ كاوية، بلا عجالة، بحيث تعرف أنّ السببَ في كل مصيبتها هو الطفل الغنوج المتباكي الذي تزوَّجتْه.

أغمض سانشيس عينيه وناح. فرفع إندايا كتفيه واتّجه إلى المولَّدة الكهربائيّة.

- لقد جنيت على نفسك.

استنشق المصرفيُّ للمرّة الثانية تلك الرائحة الحديديّة، وشعر بالأرض تهتزّ تحت باطن قدميه. تذبذب ضوء المصباح مرّتين. ثمّ لما يعد هناك إلّا النار.

(4)

كان لياندرو يصغي إلى السمّاعة ويهزّ رأسه منذ ثلاثة أرباع الساعة على الهاتف. بينما ينظر بارغاس وأليثيا إليه، وقد أنهيا زجاجة النبيذ مناصفةً. وعندما نهضت أليثيا لتأتي بزجاجة أخرى، أوقفها بارغاس وتفي براسه. فبدات تسعل سيجارة تلو الأخرى، وانصارها تابته على لياندرو الذي ما انفكّ يصغي ويهزّ رأسه بهدوء - مفهوم. لا، طبعًا لا. أعي ذلك. أجل سيّدي. ولك أيضًا.

أطبق السمّاعة وتوجَّه إليهما بنظرةٍ ذابلة تشعّ بالاطمئنان والذعر على حدَّ سواء.

- كان خيل دي بارتيرا. لقد اعترف سانشيس. - قال في النهاية.

- اعترف؟ بماذا؟ - سألته أليثيا.

- الآن تكتمل القطع الناقصة في اللوحة. تبيّنوا أن القصة بدأت منذ عهد بعيد. على ما يبدو كان ڤايس قد تعرَّف على صاحب المصارف ميغيل أنخل يوباش بعد نهاية الحرب. كان ڤايس في تلك الآونة نجمًا صاعدًا في سماوات النظام، بعد أن أثبت ولاءه ووفاءه في إدارة سجن مونتويك، المَهمّة التي لم تكن تروقه كثيرًا. يبدو أنّ يوباش أحدَثَ جمعيّةً تهدف إلى مكافأة الأفراد الذين قدموا إسهامات استثنائية المصلحة القضيّة القوميّة، فسلَّم لڤايس حصّة من الأسهم في المصرف العقاريّ الذي أعيدَ تأسيسه ليشمل عدّة كيانات ماليّة انحلّت بعد الحرب.

- تتحدّث عن تجريد مِلكيّة وتقاسُم غنائم الحرب. - قاطعته أليثيا.

تنهد لياندرو محافظًا على صبره.

- حذار يا أليثيا. ليس لدى الجميع عقول منفتحة وقلوب متسامحة مثلي.

عضّت لسانها. وانتظر لياندور أن تذعن بأنظارها قبل أن يستكمل حديثه.

- في يناير عام 1949 كان ڤايس بانتظار استلام حصّة أسهم أخرى. هذا ما نصَّ عليه الاتفاق، الشقويّ. ولكنْ، عندما توفّي يوباس على نحوٍ غير متوقّع، بحادثة...

- أيُّ حادثة؟ - قاطعته أليثيا ثانيةً.

- حريقٌ التهم منزله حيث مات فيه مع زوجته أثناء نومهما. لا تقاطعيني يا أليثيا، أرجوك. كنتُ أقول: عندما توفّي يوباش، وقعت خلافات حول الوصيّة التي لم تشر إلى تلك الاتفاقات على ما يبدو.

تعقّدت المسألة لأنّ يوباش كان قد عيّن منفَذًا للوصيّة محاميًا شابًّا من المكتب الذي يمثّله.

- إغنائيو سانشيس. - قالت أليثيا.

رماها لياندرو بنظرة تحذير.

- أجل، إغنائيو سانشيس. إضافة إلى كونه منقّدًا للوصيّة، صار سانشيس وصيًّا شرعيًّا أيضًا على فكتوريا يوباش، ابنة الفقيدين، حتى بلغت سنّ الرشد. نعم طبعًا، وقبل أن تقاطعيني مجدّدًا،

عندما أتمّت عامها التاسع عشر تزوّجها، الأمر الذي أثار موجةً من الاغتياب وبوادر فضيحة معيّنة. يبدو أن الشائعات حامت حول علاقة غير شرعيّة أقامتها فكتوريا منذ سنّ المراهقة مع الرجل الذي سيصبح زوجها. قيل أيضًا إنّ سانشيس لم يكن سوى محدث نعمة طموح، طالما أنّ الوصيّة تعطي الجزء الأكبر من ميراث آل يوباش لفكتوريا، كما أنّ الفارق في العمر بينهما كبيرٌ بشكلٍ لافت. ناهيك بأنّ فكتوريا يوباش كانت تعاني من ماضٍ غير مستقّر من الناحية العاطفية. يقال إنّها هربت من البيت في أيّام المراهقة واختفت ستّة أشهر. لكننّا بصدد شائعات لا أكثر. أمّا الجوهريُّ في القضيّة فهو أنّ سانشيس، حين تسلَّمَ إدارة أسهم مصرف بوباش، رفض أن يعطي لڤايس حصّته التي حسب كلامه كان الفقيد قد وعده بها. حينها، وكما يقال بالعاميّة، اضطر ڤايس إلى الانكماش وابتلاع اللقمة المرّة. إلا أنه بعد أعوام، عندما عُيِّنَ وزيرًا وحصل على قسمه معتبره من السلطة، قرّر ان يرغم ساسيس على النار له عمّا يراه حقّه المشروع، بل وأكثر من ذلك. هدّده باتّهامه ضالعًا في «اختفاء» فكتوريا عام 1948 للتغطية على حملها عندما كانت قاصرًا وإخفائها في مصحّة كوستابرافا، التي أعتقد أنّها قرب منطقة سان فيليو دي غويشولس، حيث عثر عليها الحرس المدنيّ بعد خمسة أو ستة أشهر وهي تتسكّع عند الشاطئ، هائمة على وجهها تعاني من أعراض نقص التغذية. تدلّ كافّة المؤشّرات على أنّ سانشيس رضخ للوزير. وحوَّل إليه مبلغًا طائلًا، عْبر سلسلة من العمليّات غير القانونيّة، تحت مسمًّى أسهم المصرف العقاريّ وسنداته القابلة للتفاوض. ويبدو أنّ جزءًا كبيرًا من ثروة ڤايس آتية من هناك لا من والد زوجته، كما قيل في بعض الأحيان. لكنّ ڤايس كان يريد أكثر من ذلك. فما فتئ يضغط على سانشيس الذي لم يغفر له تناوله سيرة فكتوريا وقصة هروبها الصبياني والعبث بسمعتها بغية الوصول إلى غاياته. فطرق باب كثير من الجهات التقديم احتجاجه، لكنّهم أغلقوها في وجهه وقالوا له إنّ ڤايس بات رجلًا واسع النفوذ ومقرّبًا جدًا من رأس النظام، ولا يُنصَحُ بالمساس به. كما أنّ التوغّل في ذلك قد يعني التطرّق إلى قصّه الجمعيّة والمكافآت التي وُزِعَت في نهاية الحرب، ولم يكن أحدٌ يريد فتح تلك السيرة. فنصحوا سانشيس بأن ينسى القضيّة برمّتها.

- الأمر الذي لم يفعله.

- لا، طبعًا. لم ينسها بل وصمَّم على الانتقام أيضًا. وهكذا ارتكب الخطأ الحقيقيّ. أوكل بعض المحقّقين للنبش في ماضي ڤايس.

إلى أن عثروا على رغدٍ كان يتفسّخ في سجن مونتريك، سيباستيان سالغادو، فضلًا عن سلسلة من الفظائع المروَّعة والتجاوزات التي ارتكبها ڤايس خلال فترة إدارته السجن والأضرار التي ألحقها بحقّ عدد من السجناء وأهاليهم. اتَّضح وجود لائحة طويلة بالمرشّحين ليكونوا ابطالَ ثأرٍ مفترَض ضدّ ڤايس. الشيء الوحيد الذي كان ناقصًا هو قصةٌ مقنعة. ففكّر سانشيس بحبكة لينتقم من الوزير ويحجب مكيدته بمظهر الجريمة السياسّية أو الشخصيّة المبنية على ماضي ڤايس الغامض. فبادر إلى إرسال رسائل تهديديّة عن طريق سالغادو، الذي تواصل معه وعرض عليه مبلغًا سيتلقّاه بعد العفو الذي كانوا سيصادقون عليه، مقابل تواطئه في الدور الشبيه بالطُّعم. كان سانشيس يعلم أنّ الرسائل ستمرّ عبر الغربال وأنّ آثارها ستوصل إلى سالغادو. وقد عيّن سجينًا سابقًا في القلعة أيضًا، يدعى فالنتين مورغانو، الذي كانت لديه أسبابٌ وافرةِ لإضمار

الغلّ بحقّ ڤايس. أفرج عن مورغاذو عام 1947 لكنّه كان يُحمّل ڤايس المسؤوليّة عن وفاة زوجته بالمرض بينما كان حبيسًا.

عُيِّنَ مورغانو سائقًا لدى العائلة. دفع له سانشيس مبلغًا كبيرًا من المال، بمساعدة حارس سابق في السجن، يدعى بيبو، وأعطاه بيتًا في بيبلو سيكون المالك لشركة متروبارنا، بإيجار زهيد جدًا. وأمدّه بمعلوماتٍ عن عدّة سجناء ذاقوا العذاب على يدي ڤايس خلال تولّيه سجن مونتريك. أحدهم، دافيد مارتين، كاتبٌ يعاني جملةٌ من الاضطرابات الذهنيّة، وقد استحق من زملائه المساجين لقب سجين السماء. تبيّنَ أنّه المرشح المثالي للحبكة التي نسجها سانشيس. كان مارتين سيختفي في ظروف غامضة حينما أمر ڤايس اثنين من رجاله باقتياده وإعدامه في فيلا بجوار منتزه غويل. ومن المحتمل أنّ مارتين استطاع الفرار، ما جعل ڤايس يخشى عودة ذلك الرجل يومًا ما، الذي يبدو أنّه فقد صوابه تمامًا، بسبب عزله في إحدى منفردات أبراج القلعة. سيعود لينتقم منه لأنّه يرى فيه مجرمًا قتل امرأة تدعى إيزابيلا خيسبرت. هل ما زلتِ تتابعينني؟

أومأت أليثيا.

- كانت خطّة سانشيس تعتمد على إقناع ڤايس بوجود مؤامرة تهدف إلى فصح تجاوزانه وجرائمه المروعة بحق السجناء الذين قضوا تحت إدارته. أمّا اليد الخفية التي ستكون خلف كل هذا المشهد فهي يد مارتين وغيره من المعتقلين السابقين. كانوا يريدونه أن يفقد السيطرة على أعصابه فيرغمونه على الخروج من قوقعة الأمان التي أحاطه بها منصبه، كي يواجههم شخصيًا. فتلك هي الطريقة الوحيدة لإسكاتهم.

أن يقضي عليهم قبل أن يقضوا عليه.

- إلا أنها كانت مجرد خطة لإيقاعه في الفخ. - أشارت أليثيا.

- خطة محكمة، لأنّ الشرطة إذا حققت في الأمر ما كانت لتجد إلا دلائل على انتقام شخصي وقضيّة ماليّة كان ڤايس نفسه مستعدًا للتستُر عليها من جانبه. كان سالغادو الشخصيّة النموذجية لأداء دور المرأة الموهمة لاصطياد القبّرة، لأنه من السهل ربطه بسجناء آخرين ولاسيما دافيد مارتين، اليد الخفية المزعومة التي تعمل في الظل.

ورغم ذلك كله، حافظ ڤايس على برودة دمه طوال أعوام. لكنه بعد محاولة الاغتيال في أكاديمية الفنون الجميلة في مدريد عام 1956، التي أعدّها مورغانو، بدأت أعصابه تنهار. فعمل على إخراج سالغادو من الحبس لتعمّب خطاه، آملا أن يقوده إلى مارتين، فإذا بسالغادو يُزاح عن المشهد حين ظنّ أنه استعاد كنزه القديم الذي أخفاه في إحدى خزانات محطة الشمال قُبيل اعتقاله عام 1939. لم يعد منه فائدة، كما أنّ إسكاته قد يُخلّف سكة مسدودة. ثم إن ڤايس نفسه قد ارتكب أخطاء مهمّة وسوء تقدير، خلقت مسارات زائفة. أرغم بابلو كاسكوس، الموظف في إحدى مؤسساته، دار نشر أريادنا، على التواصل مع أحد أفراد عائلة سيمبيري، الذي كانت له علاقات تجمعه بهم، وبالأخص بياتريز أغويلار. عائلة سيبميري هم أصحاب مكتبة تبيع الكتب المستعملة. كان ڤايس يعتقد أنّ مارتين يستخدم المكتبة ملجًا. وقد يكون آل سيمبيري متورطين في ذلك، بما أنّ مارتين كان على علاقة بإيزابيلا حيسبرت، روجه صاحب المكتبة الراحلة ووالد

مديرها الحاليّ زوج بياتريز، دانيال سيمبيري. والآن أجل، بإمكانكِ مقاطعة حديثي وإلّا أصابتكِ مصيبة.

- وماذا عن كتب ماتايكس؟ أيُّ تفسيرٍ يحمله وجودُ الكتاب الذي عثرنا عليه في مكتب ڤايس، والذي كما أخبرتني ابنته مرثيديس كان آخر كتاب اطَّلع عليه قبل أن يختفي؟

- جزءٌ من الاستراتيجيّة نفسها. ماتايكس كان صديق مارتين وزميله وقد سُجِن في قلعة مونتريك. وكلّما تصاعدت الضغوط والتهديدات والأوهام بمؤامرة خفيّة واقتنع بها ڤايس، قرّر على إثرها أن يأتي إلى برشلونة شخصيًا مع رجله الموثوق، بيثينتي، ليواجه مَن كان يعتقد أنّه نمسيس خاضته، دافيد مارتين. تعتقد الشرطة، وأنا أوافقها الرأي، أنّ ڤايس كان يفكّر في الذهاب إلى لقاءٍ سرّيٍّ بمارتين بغية التخلُّص منه نهائيًا.

- لكنّ مارتين ميّتٌ منذ أعوام، مثل ما تايكس.

- بالضبط. كان بانتظاره في الحقيقة كلٌّ من سانشيس ومورغاذو.

- ألم يكن من الأنسب لڤايس أن يترك الشرطة تتولّى أمر دافيد مارتين؟

- أجل، لكنّ هذا كان سيعرِّضه لاحتمال أن يُلقي القبض على مارتين، الذي كان يظنّه حيًا، ما قد يدفعه لكشف معلومات حول وفاة إيزابيلا خيسبرت وكوارث أخرى من شأنها أن تزعزع سمعة ڤايس.

- هذا ممكن، أعتقد. وبعد؟

- حالما وقع ڤايس بين أيديهما، اقتاده سانشيس ومورغانو إلى مصنع كاستيس القديم في بويبلو نويبو، المصنع المقفل منذ أعوام، لكنه من أملاك الشركة العقارية مترو بارنا. اعترف سانشيس أنّه عذّبه الساعات ثمّ تخلّصا من الجثّة برميها في إحدى محارق المصنع. وبينما كنت اتحدّث مع خيل دي بارنيرا، ورده تاكيدٌ انّ الشرطة عثرت على بقايا عظام يُعتَقدُ أنّها لڤايس. طُلِبَ تصويرٌ شعاعيٌ لأسنان ڤايس للتحقُّق ممًّا إذا كانت البقايا للوزير حقًّا، الأمر الذي أتصوُّر أنّنا سنعرفه بين هذا المساء والغد.

- أهذا يعني أنّ القضيّة أغِلقت؟

أكّد لياندرو برأسه.

- بالجزء الذي يخصّنا، نعم. بقي أن يتأكدوا من عدم وجود متواطئين آخرين، وإلى أين تمتدّ مكائد الحبكة التي أعدَّها إغناثيو سانشيس.

- وهل هذا سيُعلّن على الصحافة؟

ابتسم لياندرو.

- لا طبعًا. في هذه اللحظات يُعقَدُ اجتماع في وزارة الداخليّة التقرير ماذا وكيف سيعلنون. لست على اطّلاعٍ بتفاصيل أخرى. هيمن صمتٌ ثقيل، تتخلّله رشفات لياندرو من فنجان الشاي، والذي ما أنفك ينظر إلى اليثيا.

- كلّ هذا خطأ. - غمغمت أخيرًا.

شد لياندرو كتفيه.

- ربّما، لكنّه لم يعد من اختصاصنا. انتهت الوظيفة التي طُلِبَت منا، ألا وهي الكشف عن مسارٍ يفضي إلى مخبأ ڤايس. وقد قدّمنا نتائج مثمرة.

- ليس صحيحًا. - اعترضت أليثيا.

- هذا ما يفكّر فيه أدمغةٌ أدهى وأرفع من دماغي، ومن دماغكِ بطبيعة الحال يا أليثيا. الخطأ كان ألّا نعرف متى علينا أن نتوقّف.

والآن لا يجدر بنا سوى التكتم وترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعيّ.

- السيّد مونتالبو محقٌّ يا أليثيا. - قال بارغاس - لم يعد هناك ما نفعله.

- وكأنّنا فعلنا ما فيه الكفاية. - ردّت أليثيا بنبرة فاترة.

هزّ لياندرو رأسه مستاء - هلّا سمحتَ لنا بحديثٍ على انفراد أيّها النقيب؟ - سأل الياندرو.

- طبعًا. - نهض بارغاس - في الحقيقة أردتُ أن أذهب إلى شقّتي في الجانب الآخر من الشارع لأتّصل بالقيادة وأنتظر الأوامر.

- أعتقد أنّها فكرة صائبة.

مرّ بارغاس بجانب أليثيا وتجنَّبَ النظر إليها. مدّ يده إلى لياندرو فصافحه بودّ.

- شكرًا جزيلًا على مساعدتك أيّها النقيب. ولأنّك اعتنيت بأليثيا أيضًا. إنّني مدينٌ لك وممتنّ. اطرق بابي متى احتجت.

أومأ بارغاس وانصرف باحترام. وحين باتا على انفراد، أوعز لياندرو لأليثيا بالجلوس بجانبه على الأريكة. فوافقت على مضض..

- رجلٌ عظيم، بارغاس.

- وله فمٌ أعظم منه.

- لا تكوني جائرةٌ بحقّه. لقد أثبت أنّه رجل أمن بارع. أعجبني.

- أعتقد أنّه أعزب.

- أليشيا، أليثيا...

أحاط بذراعه كتفيها وخصَّها بما يشبه العناق الأبويّ.

- هيّا، أطلقي نيرانكِ قبل أن تنفجري. - اقترح عليها - فرِّجي عمّا في صدركِ.

- كلّ هذا جبلٌ من الخراء. ضمّها إليها بمودّة.

- مواقق. إنّها فوضى عارمة. ليست تلك هي الطريقة التي اعتدنا أنتِ وأنا على مواجهة الأشياء، لكنّهم في الوزارة يزدادون احتقانًا.

وقصر الباردو قال كفى. وهكذا أفضل. لم يكن ليروقني إن قالوا إنّنا لم نحصل على النتائج.

- ولومانا؟ هل ظهر ثانيةً؟

- حتى اللحظة لا.

- غريب.

- أجل. لكنّها إحدى المسائل المعلَّقة التي ربما يجدون لها حلًا في الأيام المقبلة.

- ثمّة الكثير من المسائل المعلقة. - أوضحت أليثيا.

- ليست كثيرة. قصّة سانشيس متينة. موثّقة، وفيها أموالٌ كثيرة وخيانة شخصيّة. لدينا اعتراف وأدلّة تثبتها. كلّ شيء في السليم.

- ظاهريًّا.

- خيل دي بارتيرا، ووزير الداخليّة، وقصر الباردو يعتقدون أنّ القضيّة حُلَّت.

كادت أليشيا تبوح بشيء لكنّها آثرت السكوت.

- هذا ما كانتِ تبتغينه يا أليثيا. ألا تفهمين؟

- ما كنتُ أبتغيه؟ نظر إليها بعينين حزينتين.

- حرّيتكِ. خلاصكِ منّي، من لياندرو الشرّير، إلى الأبد. أن تختفي.

حدّقت في عينيه.

- هل تتكلّم جدّيًّا؟

- لقد أعطيتكِ وعدًا. هذا ما نصّ عليه اتفاقنا. القضيّة الأخيرة.

ومن ثمّ، حرّيتكِ. ماذا تظنّين أنّي أتيتُ لفعله في برشلونة؟ كان بإمكاني ان احلّ كلّ شيء عبر الهاتف دول الخروج من الفندق. تعلمين كم أفضّل عدم السفر.

- فما الذي جاء بك إذن؟

- كي أقرأها في وجهكِ. وكي أقول لكِ إنّي صديقكِ، وسأبقى كذلك أبدًا.

أمسك لياندرو بيدها وابتسم.

- أنتِ حرّة يا أليثيا. حرّةٌ إلى الأبد.

امتلأت عيناها بالدموع. وعانقته، رغمًا عنها.

- مهما حدث. - قال مرشدها - ومهما قرّرتِ أن تفعلي، اعلمي أنّني سأكون دومًا بجانبكِ. أيّ شيء تحتاجين إليه. بلا إكراهٍ أو إلزام.

لقد فوّضتني الوزارة بمنحكِ مكافأة وقدرها مئة وخمسون ألف بيسيتا ستنزل في حسابكِ آخر الأسبوع. أعرف أنكِ لن تكوني بحاجة إلى وأنّكِ لن تشتاقين إليّ، ولكنْ إن كنت لا أطلب الكثير، اتّصلي بي من حين لآخر، حتى لو بأعياد الميلاد فقط. هل ستفعلين؟

أومأت أليثيا. فقبَّلَ لياندرو جبينها ونهض.

- قطاري سينطلق خلال ساعة. من الأفضل أن أتّجه إلى المحطة مباشرة. لا داعي لتوديعي هناك. على الإطلاق. لا تروقني بعض المشاهد، تعلمين ذلك.

رافقتْه إلى الباب. وبينما كان خارجًا، التفت إليها وبدا لأوّل مرّة في حياته ضحيّة خجلٍ واحتراز.

- لم أقل لكِ يومًا ما سأقوله الآن، لأنّني لم أكن أعرف كيف أقوله ولا إن كان يحقّ لي، لكنّي أعتقد أنّ اللحظة مناسبة. لقد أحببتكِ وما زلت أحبّكِ كابنةٍ لي يا أليثيا. لعلّي لم أنجح في أن أكون أحسن الآباء، لكنّكِ كنتِ أكبر فرحة في حياتي. أريدكِ أن تكوني سعيدة. هذا هو آخر أمرٍ تتلقّينه منّي حقًّا.

(5)

كانت تودّ أن تصدَّقه. كانت تودّ أن تصدَّقه بذلك القلق الذي يزرع الشكّ بأنّ الحقيقة مؤذية وأنّ الجبناء يعيشون أطول من غيرهم وأفضل، في سجن أكاذيبهم على الأقلّ. أطلّت من النافذة لتنظر إلى لياندرو وهو متّجهٌ نحو السيّارة التي تنتظره عند الزاوية. كان السائق ذو النظارة الداكنة يبقي الباب مفتوحًا. إحدى تلك السيّارات السوداء والجبّارة، دبّابةٌ من زجاجٍ معتَّم ورقم لوحة ملغَّز، التي تراها أحيانًا تنخر زحمة السير مثل عربة الجنائز ويتنحّى الجميع عن طريقها لأنّهم يعلمون من دون أن يسألوا، بأنّها تحمل على متنها أشخاصًا غير عاديّين ومن الأفضل أن يفرّوا من أمامها. التفت لياندرو برهةً ورفع عينيه نحو نافذتها قبل أن يركب السيّارة. حيّاها بيده، وعندما حاولت أليثيا أنّ تبتلع ريقها اكتشفت أن فمها جافّ. كانت تودّ أن تصدَّقه.

قضت ساعةً تحرق سيجارةً تلو أخرى وتطوف في البيت مثل حيوانٍ في قفص. دنت من النافذة غير مرّة لتنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع، على أمل أن تلمح بارغاس في شقّته فوق الغران كافيه. لا أثر له. كان قد تسنّى له ما يشاء من الوقت ليتّصل بمدريد ويتلقّى(الأوامر». من الوارد أنّه خرج يتمشّى لينعش أفكاره في برشلونة التي كان سيغادرها عاجلًا. وآخر ما يطمح إليه في تلك اللحظة أن يكون صحبة أليثيا مجازفًا بأن تفقأ عينيه لأنّه أطلع لياندرو على كلّ شيء. «لم يكن أمامه خيارٌ آخر». كم تمنّت أن تصدَّق ذلك أيضًا.

وما إن غادر لياندرو، حتّى انتابتها وخزة في الخاصرة. تجاهلتها في البدء ثمّ باتت تحرَّض لها آلامًا صمّاء تنبض على إيقاع قلبها. كما لو أنّ أحدًا يحاول أن يغرس في خاصرتها خطّافًا ويثبّته بالمطرقة شيئًا فشيئًا. بإمكانها ان تتخيّل رأس الحديد وهو يحدس مينا العظام ويلج ببطء. ابتلعت نصف حبّة بكأس نبيذ أبيض واستلقت على الأريكة تنتظر مفعول الدواء. كانت تعلم أنّها أسرفت في الشرب. ليست بحاجة إلى نظرات بارغاس أو لياندرو لتذكيرها بذلك. كانت تشعر بالخمر في دمائها وريح فمها، لكنّه السبيل الوحيد لتهدئة روعها.

أغمضت عينيها وشرعت بتحليل الحكاية التي قصّها لياندرو. لقد علّمها بنفسه، عندما كانت ما تزال طفلة، أن تستمتع وتقرأ بذكاءٍ متوقّد دائمًا. «إنّ البلاغة الإنشائيَّة تتناسب مباشرة بذكاء مَن يتفوّه بها، مثلما تتناسب مصداقيتها بغباء من يتلقّاها» - كان قد قال لها ذات مرّة.

كان اعتراف سانشيس، بالنسخة التي نقلها خيل دي بارتيرا إلى الياندرو، متكاملًا من حيث المظهر، لاسيّما أنّه لا يُثبت كونه كذلك.

كان الاعتراف بشرح كلَّ ما وقع عمليًّا، لكنّه يترك بعض التساؤلات معلَّقةً، شأنه شأن كلّ التفسيرات المماثلة. الحقيقة ليست كاملة أبدًا ولا تتوافق مع كلّ التوقُّعات. الحقيقة تطرح الشكوك والتساؤلات دائمًا. وحدّه الكذبُ قابلٌ للتصديق مئة بالمئة، لأنّه لا يسعى لشرح الواقع، بل لإسماعنا ما نريد أن نسمعه ببساطة.

فعل الدواء مفعوله بعد خمس عشرة دقيقة، وخمد الألم رويدًا رويدًا إلى أن استحال تنمُّلًا لاسعًا كانت قد اعتادت على تجاهله.

مدّت يدها تحت الأريكة وأخرجت العلبة التي تحتوي على الوثائق المستَلَبة من مستودع المحامي بريانس. لم تتمالك نفسها من الابتسام وهي تفكّر بأنّ لياندرو من دون أن يعرف كان قد أمضى النهار جالسًا برد فيه المعظّمين على تلك المعلومات. ألقت نظرة خاطفة على الأضابير الموجودة في العلبة. كان معظمها، أو الجزء الذي يهمّها، مندرجًا في الرواية الرسميّة للقضيّة. نبشت في عمق العلبة، وأخرجت الطرف المعول إيرابي بخطّ اليد بلا إسارات اخرى. فتحته وأخرجت منه دفتر ملاحظات. فانزلقت من الصفحة الأولى بطاقة كرتونيّة. كانت صورة فوتوغرافيّة قديمة بدأت أطرافها بالتآكل. تُظهِرُ فتاةً شابّة صهباء ذات نظرة متّقدة تبتسم للعدسة والحياةُ أمامها. ذكّرها شيءٌ ما في ذلك الوجه بالشابّ الذي التقت به وهي تخرج من مكتبة سيمبيري وأبناؤه. قلبتها فحدّدت خطّ المحامي بريانس:

إيزابيلا

كانت لمسة بريانس وطريقته في إخفاء كنيتها تشيان بإخلاصٍ حميميّ. لم يكن ضمير محامي القضايا الخاسرة ينهش قلبه فحسب، بل رغبته أيضًا. تركت الصورة على الطاولة وألقت نظرة على الدفتر.

كلّ الصفحات مكتوبُة بخطّ اليد، بلمسةٍ نقيّة وبلّوريّة لا شكّ في أنثويّتها. فالنساء وحدَهنّ قادرات على الكاتبة بجلاء من دون التواري خلف تنميق لا جدوى منه. حين يكتبن لأنفسهنّ على الأقلّ، لا لأيّ أحد آخر. عادت أليثيا إلى الصفحة الأولى وهمَّتْ بالقراءة:

اسمي إيزابيلا خيسبرت وقد ولدت في برشلونة عام 1917.

عمري اثنان وعشرون عامًا وأعرف أنّي لن أتمّ الثالثة والعشرين أبدا.

أكتب هذه الصفحات متيقّنةً بأنّ أيّامي في الحياة معدودة، وأنّي سأترك عاجلًا أولئك الذين لهم فضلٌ علي في هذا العالم: ابني دانيال وزوجي خوان سيمبيري، أطيب رجلٍ عرفته. سأموت وأنا لا أستحقّ الثقة والحبّ والاخلاص الذين منحني إيّاه. أكتب لنفسي أنا، حاملًة معي أسرارًا ليست لي، وأنا موقنة بأن لا أحد سيقرأ هذه الصفحات. أكتب كي أتذكّر وأتشبّث بالحياة. طموحي الوحيد أن أتذكّر وأن أفهم مَن كنتُ ولماذا فعلتُ ما فعلتُ، ما دمتَ قادرة على ذلك، قبل أن يهجرني الوعي الذي اسعر أساسًا بانّه منهك. اكتب مع انّ الكتابه تؤلمني، لانّ الفقدان والعذاب هما كلّ ما يجعلني على قيد الحياة، ولأنّي أخاف من الموت. أكتب لكي أروي في هذه الصفحات ما لا أستطيع أن أرويه على مسامع من أحبّ، لئلا أجرحهم وأعرّض حياتهم للخطر. أكتب لأنّي ما دمتُ قادرة على التذكُّر سأبقى معهم لدقيقة أخرى...

هامت أليثيا مدّة ساعة في تلك الصفحات، لا تكترث للدنيا والوجع والريبة التي خلَّفتها زيارة لياندرو. لم يكن في تلك الساعة وجودٌ إلّا للحكاية التي تسردها تلك الكلمات التي عندما قلبت صفحتها الأخيرة عرفت بأنّها لن تنساها أبدًا. حين شارفت على النهاية وأغلقت اعترافات إيزابيلا على صدرها، كان الدمع يحجب مقلتيها ولم تتمكّن من صنع شيء إلّا أن سدّت فمها بكلتا اليدين لتكتم صيحةَ روع.

هكذا وجدها فرنانديتو بعد فترة، حينما طرق الباب مرارًا دون أن يلقى جوابًا، ففتحه ودخل ليجدها منكمشة على نفسها أرضًا، تجهش بالبكاء مثلما لم يرَ في حياته كلّها أحدًا يبكي. ولم يستطع فعل شيء إلّا أن جثم على ركبتيه بقربها وعانقها وهي ترتجف ألمًا كما لو أنّهم أضرموا النار في وجدانها.

(6)

يقال إنّ هناك مَن يولد سيّئ الحظّ. بعد أعوامٍ من حلمه بأنّه يأخذها بين ذراعيه، تحقَّقَ الحلم بأكثر المشاهد حزنًا لم يكن فرنانديتو قادرًا حتى على تخيُّله. أسندها وداعب رأسها برفق ريثما يهدأ روعها.

لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول أو يفعل. لم يرها هكذا يومًا. وفي الحقيقة لم يكن حتّى ليتصوّرها بهذا الشكل. ففي الحالات التي قدّسها فرنانديتو على المذبح المخصّص لشهواته الصبيانيّة، كانت أليثيا امرأة لا تُقهَر، منيعًة مثل قاطعة ماسيّة تشطر أيّ شيء. وعندما كفّت عن النشيج أخيرًا ورفعت رأسها، وجد فرنانديتو نفسه أمام نسخة عن أليثيا مكسورة، محمرّة العينين بابتسامة واهنة حتّى تخالها ستحطّم إلى ألف شظيّة في غضون ثانية.

- هل أنتِ أفضل الآن؟ - غمغم.

نظرت اليثيا في عينيه، وقبّلت شفتيه بلا مقدّمات. فشبّت النيران والحرائق في أنحاء جسمه، واستبدّت بلاهةً عامة في دماغه، فأوقفها.

- آنسة أليثيا، أعتقد أن ليس هذا ما تريدين فعله الآن. أنتِ مرتبكة.

طأطأت رأسها ولعقت شفتيها. وعرف فرنانديتو بأنّه سيذكر تلك الصورة إلى يوم وفاته.

- المعذرة يا فرنانديتو. - قالت وهي تنهض..

فنهض بدوره وأعطاها كرسيًّا جلست عليه.

- فليبقَ الأمر بيننا. موافق؟

- بالتأكيد. - قال وهو يفكّر بأنّه حتى لو فكّر في ذلك ما كان ليعرف ما الذي سيقوله ولمن.

نظرت اليثيا حولها فحطّت عينيها على صندوق مليء بالطعام والقناني وسط الصالة.

- إنّها الطلبيّة. - فسّر فرنانديتو - فكّرت أنه من الأفضل أن أعود محمّلًا بالأغراض، في حال بقي ذلك السيّد هنا.

فابتسمت أليثيا وهزّت رأسها.

- كم لك عندي؟

- هذه تقدمة من المؤسسة. لم يكن لدينا بيرالاذا، لكنّي أتيتكِ بنبيذ بريورانو الافخر وفقًا لشهادة مانولو، فأنا لا اقفه بالنبيذ. وبأيّ حال، إن أردتِ رأيي...

- لا يجب أن أشرب كثيرًا. أعرف. شكرًا فرنانديتو.

- هل لي أن أسألكِ ما الذي حدث؟

أعربت أليثيا عن لامبالاة.

- لست متأكدة.

- لكنّكِ بتّ أفضل حالًا، صحيح؟ قولي نعم.

- أفضل بكثير. الفضل لك.

اكتفى فرنانديتو بهزّ رأسه، متشكّكًا بتلك الكلمات.

- الحقيقة أنّي أتيتُ لأقصّ عليكِ ما اكتشفته. - قال.

رمته بنظرة استجوابيّة، وكانت مشتّتة الذهن.

- عن الرجل الذي قلتِ لي بأن ألاحقه. - أوضح فرنانديتو - سانشيس؟ - نسيتُ أمره. لسوء الحظ، أخشى أنا وصلنا متأخرين.

- هل تقولين ذلك نسبةً إلى حكاية اعتقاله؟

- هل رأيتهم وهم يعتقلونه؟

أومأ فرنانديتو.

- في الصباح الباكر، تموضعتُ قبالة مكتبه في شارع دي غرانيا، مثلما قلتِ لي. كان هناك عجوزٌ طيّب ولطيف، رسّام طريق. حين رآني أراقب المدخل قال لي أن أبلغ تحيّاته للنقيب بارغاس. هل هو أيضًا يعمل لمصلحت؟

- إنّه عميلٌ مستقلّ. فنّانون. ما الذي حدث؟

- عرفتُ سانشيس لأنّه خرج بهندام أنيق، وأكّد لي الرسّام أنّه الفرد المطلوب فعليًا. ركب سيّارة أجرة فتبعنه على الفسبا حتى بونانوبا. يقيم في بيت في شارع إيرادبير، من تلك البيوت المثيرة للدهشة. لا بدّ انّ لديه انفًا جيّدًا جدًّا للمشاريع، فالحيّ من ارفع المستويات، والبيت...

- لديه أنفٌ جيّد للزواج. - قالت أليثيا.

- حقًا. هنيئًا له. بأيّ حال، بعد أن وصلتُ بقليل، جاءت سيّارة وعربة شرطة ونزل منها فيلق كامل. كانوا سبعة رجال أو ثمانية. طوّقوا البيت في البدء ثمّ طرق أحدم الباب، وكان يرتدي ثياب الداندي.

- وأين كنتَ أنت أثناءها؟

- متواريًا. ثمّة فيلا قيد الإنشاء على الجانب الآخر من الطريق، حيث من السهل التخفّي فيها. وكما ترين، آخذ احتياطاتي.

- وبعد؟

- بعد عدّة دقائق، اقتادوا سانشيس مكبّلًا ومشمّر الساعدين. كان يحتجّ لكنّ أحد الرجال ضربه بالهراوة خلف ركبته وجوّره إلى العربة.

كنت سألحق بهم، لكنّي شعرت أنّ أحد رجال الشرطة، ذاك الأنيق، قد نظر نحو الفيلا ورآني. غادرت العربة على عجالة، لكنّ السيّارة ظلّت هناك، وقد ركنوها على بعد عشرين مترًا، عند المنعطف إلى شارع مارخينات، بحيث لا تُرى من جهة البيت. فقرّرت البقاء هناك، متخفّيًا. لا أحد يدري.

- حسنا فعلت. لا تكشف نفسك في حالات كهذه. إن فقدت آثارهم فلا بأس. خيرٌ من أن تفقد عنقك.

- هذا ما فكّرت فيه. والدي يقول دائمًا إنّ المرء يبدأ بفقد مؤخّرته ثمّ ينتهي به المطاف إلى فقد رأسه.

- كلامٌ حكيم - الحال أنّي بدأت أتوتّر، وفكّرت في الانصراف، فإذا بسيّارة أخرى تقترب من باب البيت. مرسيدس جبّارة. نزل منها رجلٌ غريب الأطوار.

- لماذا غريب الأطوار - كان يضع على وجهه ما يشبه القناع، كأنّ نصف وجهه ناقضٌ أو شيء كهذا.

- مورغاذو.

- أتعرفينه؟

- إنّه سائق سانشيس.

أومأ فرنانديتو، متحمّسًا من جديد لألغاز معبودته أليثيا.

- بدا لي ذلك. كانت ثيابه توحي بشيء كهذا. عمومًا، نزل من السيّارة ودخل البيت. وبعد قليل خرج ثانيةً، مع امرأة هذه المرّة.

- وكيف كانت تلك المرأة؟

- شابّة. مثلكِ.

- هل أبدو لك شابّة.

مضغ فرنانديتو ريقه.

- لا تربكيني. كانت شابة، كما قلت لكِ. لا تتعدّى الثلاثين عامًا، لكنّها ترتدي ملابس امرأة عجوز. سيّدة غنيّة. وبما أنّي لا أعرف من تكون، أعطيتها لقبًا تقنيًّا: ماريونا ريبول، مثل بطلة تلك الرواية...

- لستَ مخطئًا كثيرًا: اسمها فكتوريا يوباش، أو سانشيس. زوجة المصرفيّ الذي ألقي القبض عليه.

- كان وجهها يوحي بذلك. أولئك الخونة، يتزوّجون دومًا بنساء أصغر منهم سنًّا وأثرى منهم بكثير.

- الآن عرفتَ ما يجب عليك فعله.

- لست شاطرًا في هذه الأمور. عودةً إلى الأحداث: ركبا في المرسيدس. جلستْ في الأمام بجوار السائق. ما بدا لي غريبًا. وما إن تحرّكا، حتى تبعتهما سيّارة الشرطة.

- وأنت خلفهم.

- طبعًا.

- وإلى أيّ حدّ بقيتَ تتبعهم؟

- ليس بعيدًا جدًّا عن هناك. دخلت المرسيدس شوارع مختلفة، ضيّقة وأكابريّة، من تلك التي تتضوّع برائحة الكينا، حيث لا ترين إلّا مربّيات الأطفال وعمّال الحدائق يتنزّهون، حتى وصلتُ إلى شارع كواترو كامينوس ومن هناك إلى جادّة تيبيدابو، حيث لم يدهسني الترام الأزرق لأنّ الله لم يشأ.

- لا بدّ أن تضع الخوذة على رأسك.

- لديّ خوذة جنديّ أمريكيّ اشتريتها من سوق لوس إنكانتيس.

Private Fernandito» تليق بي جدًّا.

كتبتُ بالقلم العريض عليها الكلمة بالإنكليزيّة لا تعني «خاصّ» إنّما...

- هات المفيد يا فرنانديتو.

- المعذرة. تبعتهم في جادّة تيبيدابو، حتى الموقف الأخير للترام.

- هل كانوا ذاهبين إلى موقف القطار الجبليّ؟

- لا. السائق والسيّدة... يوباش، تابعا على الطريق المحاذية للموقف ثمّ دخلا بالسيّارة إلى البيت القائم على ذلك التلّ، فوق الجادّة تمامًا، البيت الذي يبدو قلعة خياليّة تظهر للعيان من جميع الجهات. لا بدّ أنّه أجمل بيت في برشلونة.

- هو كذلك. إل بينار، اسمه. - قالت أليثيا التي تذكر أنّها رأته ألف مرّة في صغرها، حينما كانت تخرج يوم الأحد من ميتم مدرسة ريباس، وكم تخيّلت أنّها تعيش فيه صحبة مكتبة لا نهاية لها وإطلالة ليليّة للمدينة تحت قدميها مثل سجّادة مسحورة بالأضواء. - وماذا عن رجال الشرطة؟

- كان في سيارة الشرطة بلطجيّان محترفان يتظاهران بالبراءة.

اقترب أحدهما من باب البيت ودخل الثاني إلى مطعم لابينتا لإجراء مكالمة. انتظرت قرابة الساعة ولم يتحقّق أيُّ حدث. وفي النهاية، عندما رماني أحدهما بنظرة لم تعجبني، عدت أدراجي لأروي عليكِ ما حدث وأنتظر أوامركِ.

- لقد قمت بعملٍ رائع يا فرنانديتو. لديك مؤهّلات.

- هل تعتقدين ذلك؟

- سأرَّفعك من «» فرنانديتو إلى «Corporal».

- وماذا يعني؟

- اذهب إلى القاموس يا فرنانديتو. فمن لا يتعلّم اللغات يتعطّل دماغه.

- ما أكثر الأشياء التي تعرفينها... ما توجيهاتكِ إذن؟

فكّرت أليثيا بضع ثوان.

- أريدك أن تغيّر ثيابك وتعتمر قبّعة جميلة. ثمّ تعود إلى هناك وتراقب. ولكن اركن الدرّاجة بعيدًا. لئلا يعرفك الشرطيّ الذي رآك.

- سأتركها قرب لاروتوندا وأصعد بالترام.

- خير فكرة. وحاولْ أن ترى ما الذي يحدث داخل البيت، دون أن تعرِّض نفسك للمخاطر. أبدًا. وما إن تشعر بأنّ أحدًا عرفك أو نظر إليك أكثر من اللازم، انجُ بجلدك. مفهوم؟

- كليًّا.

- عد إليّ بعد ساعتين أو ثلاث وحدّثني.

نهض فرنانديتو متأهبًا للعودة لتأدية واجبه.

- وماذا ستفعلين في الأثناء؟ - سألها.

ألمحت أليثيا بحركةٍ تدلّ على أنّها ستفعل أشياء كثيرة ولا شيء في الآن ذاته.

- لن ترتكبي حماقة، صحيح؟ - سألها.

- لماذا تقول ذلك؟

نظر إليها الفتى من عتبة الباب بنظرة متأسفة نوعًا ما.

- لا أدري.

تلك المرّة، نزل فرنانديتو السلالم بخطوات عاديّة، كما لو أنّ كلّ درجة تحمل نكهة الندم. وعندما ظلّت بمفردها، أعادت أليثيا دفتر إيزابيلا إلى الصندوق تحت الأريكة. وذهبت إلى الحمّام وغسلت وجهها بماء بارد. نزعت عنها ثيابها وفتحت الخزانة.

اختارت فستانًا أسود كان فرنانديتو سيعتبره خارجًا من إحدى خزائن ماريونا ريبول لقضاء سهرة على شرفة في مسرح المعهد. تذكّرت أنّها حين أتمّت عامها الثالث والعشرين، أيْ بنفس السنّ التي توفّيت فيها إيزابيلا خيسبرت، قال لها لياندرو إنّه سيهديها ما ترغب به. فطلبت منه ذلك الفستان، الذي ظلّت ترنو إليه منذ شهرين على واجهة أحد المحلات في شارع روسيون، إضافة إلى حذاء فرنسيّ من الشامواه يناسب الملبس. أنفق لياندرو ثروة دون أن يرفّ له رمش. وقالت لها البائعة، التي لم تكن تعرف أو تجرأ أن تسأله إن كانت أليثيا ابنته أم عشيقته، قالت لها إنّ قلّةً من النساء يسمحن لأنفسهنّ بثيابٍ فاخرة كتلك. وحين خرجا، اصطحبها لياندرو إلى العشاء في لابونيالاذا، حيث كانت كلّ الطاولات مشغولة تقريبًا من أولئك الذين تدفعنا الرأفة لتسميتهم رجال أعمال، وقد لعقوا شفاههم كالقطط الجائعة ما إن رأوها داخلة، ثمّ رموا لياندرو بنظرة

حسد. «ينظرون إليكِ هكذا لأنّهم يعتقدون أنّكِ عاهرة راقية» - قال لها لياندرو قبل أن يرفعا النخب.

ولم تعد إلى الفستان إلّا في عصر ذلك اليوم. ابتسمت أليثيا وهي ترسم شخصيّتها أمام المرآة، بتكحيل العينين وملامسة الشفتين بقلم الرصاص. «بالمحصّلة، هذا ما أنتِ عليه. عاهرةٌ راقية» - قالت لنفسها.

وعندما خرجت إلى الطريق، قرّرت أنّها ستتنزّه بلا غاية، مع أنّها كانت في الصميم تعرف أنّ فرنانديتو محقّ، وأنّها ربّما كانت مُقبلة على ارتكاب حماقة.

(7)

في ذلك المساء، خرجت أليثيا بلا مراعاة للحسّ السليم، تشكّك في الوجهة التي ستحملها إليها خطواتها. كانت المحلات في شارع فرناندو قد أضاءت أنوارها، فارتسمت خطوطٌ ملوّنة على بلاط الأرصفة. هالةٌ قرمزيّة تتبدّد في السماء لتُبرِز جانب المصاطب والسطوح. الناس يجيئون في حيواتهم ويذهبون، يبحثون عن المترو، شراء الحاجيّات أو النسيان. انضمّت أليثيا إلى موجة المارّة فوصلت إلى ساحة البلديّة، حيث اصطدمت بفوجٍ كبير من الراهبات اللواتي يمشين في طابور منظّم للغاية، كأنّهنّ قطيع بطريقٍ مهاجر. ابتسمت أليثيا، وإذّاك رأتها إحداهُنَّ فصلَّت بالتثليث. التحقت بسيل المشاة على امتداد شارع أبيسبو إلى أن تلاقت بمجموعة من السيّاح الحائرين، يتبعون مرشدًا يتحدّث بلهجةٍ تشبه الإنكليزيّة بقدر ما تشبه نشيد الخفافيش.

- «Senor, is this where they used to have the running of the bulls in times of the romans?»

- «Lles, dis is de cazdiral, mileidi, bat is unli oupen de flamenco sciou»[4].

تركت أليثيا السيّاحَ خلف ظهرها ومرّت تحت الجسر القوطيّ المهيب المصنوع من اللوح الجصّيّ لتنجذب مثلهم إلى سحر تلك القلعة ذات الطراز القروسطيّ، مع أنّ جزءًا كبيرًا من المشهد لا يكبرها إلّا بعشرة أعوام فقط. ياه ما أتقى التوهُّم وما أطيب معانقة الجهل. اجتازت الجسر، فوجدت مصوِّرًا يصطاد الظلال قد نصب كاميرا هاسلبليد رائعة ثلاثيّة الأرجل، وكان يدرس إمكانيّة التقاط صورة مذهلة من زاويةٍ صحيحة بمنظرٍ أخّاذ. رجلٌ رابط الجأش، ثاقب النظر، متمترسٌ خلف نظارة ضخمة ومربّعة تجعله أشبَه بسلحفاة عملاقة حكيمة وصبورة.

انتبه المصوّر إلى وجودها فنظر إليها بفضول.

- هل يطيب لكِ النظر من خلال العدسة، يا مدموازيل؟ - دعاها.

فأومأت أليثيا بملمحٍ خجول. وأظهر لها المصوّر كيفيّة ذلك.

أطلّت على عيني الفنّان وضحكت من شدّة تكامل اصطناع الظلال والرؤية التي أعدَّها، عبْر ابتكاره زاويةً كانت قد مرّت فيها مئة أو ألف مرّة في حياتها.

- العين ترى؛ الكاميرا تلاحظ. - فسّر المصوّر - ما رأيكِ؟

- أعجوبة. - أقرّت أليثيا.

- هذه ليست سوى عمليّة التأليف واختيار المنظر. أمّا السرّ فيكمن في الضوء. عليكِ أن تنظري وأنتِ تفكّرين بأنّ الإنارة ستكون سائلة. سيُلحَظُ الظلُّ من خلال عباءةٍ خفيفةٍ ومتلاشية، كما لو أنّ السماء تمطر نورًا...

من الجليّ أنّ المصوّر كان محترفًا، فتساءلت أليثيا أيُّ مصير سيُكتَب لتلك الصورة. قرأت السلحفاة ذات الضوء السحريّ أفكارها.

- الصورة من أجل كتاب. - شرح - ما اسم حضرتكِ؟

- أليثيا.

- لا ترتابي من طلبي، أودّ أن أصوِّركِ يا أليثيا.

- تصوِّرني أنا؟ لماذا؟

- لأنّكِ كائنٌ من نورٍ وظلّ، مثل هذه المدينة. ما رأيكِ؟

- الآن؟ هنا؟

- لا. ليس الآن. فملابسك اليوم ثقيلة عليكِ، ولن تسمح لكِ بأن تكوني ما أنتِ عليه حقيقةً. وهذا ما تلتقطه الآلة التصويريّة. آلتي على الأقلّ. أريد أن أصوِّركِ عندما تنزعين عن كاهلكِ هذا الثقل كي يتسنّى للضوء أن يلقاكِ كما أنتِ، لا كما أرادوكِ أن تكوني.

احمرّ وجهها لأوّل وآخر مرّة في حياتها. لم تشعر أنّها عارية من قبل مثلما شعرت بنفسها أمام نظرة تلك الشخصيّة الفريدة.

- فكّري في الأمر. - قال المصوِّر.

أخرج بطاقةً من جيبه وأعطاها لها وهو يبتسم.

فرانتسك كاتالا - روكا
مكتب تصوير منذ العام 1947
شارع بروفنثا 366. باخوس. برشلونة

أخذت أليشيا البطاقة وابتعدت على عجالة، لتترك المعلّم لفنّه وعينه المتفحِّصة. توارت في زحام الناس الذين يغزون أطراف الكاتدرائيّة وأسرعت الخطى. دخلت باب الملاك ولم تتوقّف إلا حينما وصلت إلى منعطف شارع سانتا آنا فلمحت واجهة مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

«ما زال أمامكِ وقتٌ كيلا تهدِّمي كلّ شيء. أكملي طريقكِ إلى الأمام».

تربَّصت عند الجانب الآخر من الشارع، في ظلّ ردهةٍ تساعدها على النظر إلى داخل المحلّ. كان ذلك الغروب الشتويّ، الأزرق والواجم، الذي يهبط على برشلونة، يدعو النفس لتحدّي البرد والخروج للتنزّه بلا غاية.

«اذهبي من هنا. ماذا تظنّين أنّكِ فاعلة؟» لمحت بيا وهي تخدم زبونًا. وكان بجانبها سيّدٌ ناضج، تكهّنت أليثيا أنّه والد زوجها، السيّد سيمبيري. كان الصغير خوليان جالسًا على المصطبة، مستندًا إلى صندوق الحساب، غارقًا في كتابٍ في حضنه يفوقه حجمًا. وفجأةً، يظهر دانيال من المستودع، حاملًا كومة من الكتب ليتركها على المصطبة. رفع خوليان عينيه ونظر إلى أبيه الذي عاث بشعره. فقال الطفل شيئًا ما فضحك دانيال قبل أن ينحني ويطبع قبلة على جبينه.

«لا يحقّ لكِ أن تكوني هنا. هذه ليست حياتكِ، وهذه ليست عائلتكِ. اذهبي بعيدًا واختبئي بالوكر الذي خرجتِ منه».

تأمّلت دانيال وهو يرتّب الكتب التي وضعها على المصطبة. كان يقسّمها إلى ثلاثة أعمدة، وكأنّه يلمسها بالكاد وهو ينفض الغبار عنها ويصفُّها بدقّة. تساءلت ما ملمس يديه وشفتيه على جلدها. وجاهدت لتشيح بأنظارها عنه وابتعدت بضع خطوات. أكان من واجبها، أو من حقّها، أن تبوح بما تعرف لمن عاش حياته بالتأكيد سعيدًا وآمنًا في جهله؟ إنّ السعادة - أو أكثر شيء يتطلّع إليه كلّ كائنٍ يفكِّر - هي سلام الروح، هي ما يتبخّر على امتداد الدرب الذي يحملنا من الإيمان إلى المعرفة.

«نظرة أخيرة. نظرة وداع. وداعًا إلى الأبد».

عادت إلى قبالة الواجهة دون أن تعي ما تفعل. كانت تهم بالانصراف فإذا بالصغير خوليان، كما لو أنّه استشعر وجودها، كان يرنو إليها. فتسمّرت أليثيا في مكانها وسط الشارع، بينما يمرّ الناس من حولها يتحاشونها كأنّها تمثال. نزل خوليان بلياقة لافه من على المصطبة مستعينًا بكرسيٍّ صغير كما لو كان سلَّمًا. ومن دون أن يلفت انتباه دانيال الذي يرتّب الكتب، أو بيا التي ما زالت تخدم الزبون، اجتاز الطفل المكتبة وذهب إلى الباب وفتحه. وظلَّ واقفًا عند العتبة ينظر إليها، وابتسامتُه تمتدّ من أذنه إلى الأذن الأخرى. هزّت أليثيا رأسها. فحاول الطفل أن يمشي تجاهها. وحينها انتبه دانيال إلى ما كان يحدث وارتسم اسم ابنه على شفتيه. التفتت بيا وهرعت إلى الشارع. وكان خوليان قد وصل إلى قدمي أليثيا وعانقها. فحملته بين ذراعيها فوجده أبواه على تلك الحال.

- آنسة غريس؟ - سألت بيا بنبرةٍ تهيم بين المفاجأة والتوجُّس.

تلاشت كل الطيبة والمودة التي استقبلتها بها يومَ عرفتها، آنذاك وقد رأت ابنها بين ذراعي امرأة غريبة. مدّت أليثيا إليها الطفل ومضغت ريقًا. فعانقت بيا صغيرها بقوّة وتنفّست الصعداء. وكان دانيال ينظر إليها بمزيجٍ من الانجذاب والعداء، تقدَّمَ خطوةً فصار بينها وبين عائلته.

- من تكونين حضرتكِ؟

- إنّها الآنسة غريس. - فسّرت بيا خلف ظهره - زبونٌ عندنا.

أومأ دانيال وجال طيفٌ من الشكّ على وجهه.

- متأسّفة جدًّا. لم أشأ إخافتكم هكذا. لا بدّ أنّ الطفل عرفني و...

كان خوليان ما يزال يتأمّل فيها، مسحورًا، غير آبهٍ لمخاوف أبويه.

وكي تتعقّد الأشياء أكثر، أطلّ السيّد سيمبيري من باب المكتبة.

- هل فاتني شيء؟

- لا شيء يا أبتِ. كاد خوليان يهرب منّا...

- الذنب ذنبي. - قالت أليثيا.

- وحضرتكِ؟

- أليثيا غريس.

- السيّدة ذات الطلبيّة؟ تفضّلي، ادخلي، فالبرد قارس في الخارج.

- أجل، في الحقيقة كنت سأغادر...

- قطعًا لا. ثمّ إنّي أراكِ صديقة عزيزة لحفيدي. لا تظنّي أنّ خوليان يرافق أيًّا كان. أبدًا.

أبقى السيّد سيمبيري الباب مفتوحًا لها ودعاها للدخول. تبادلت أليثيا ودانيال نظرة، فهزّ رأسه وبات أكثر اطمئنانًا.

- تفضّلي، ادخلي. - أكّدت بيا.

مدّ خوليان يده نحوها.

- كما ترين، الآن ليس أمامكِ خيارات. - قال الجدّ سيمبيري.

أومأت أليثيا ودخلت المكتبة. فغمرها عطرُ الكتب. أنزلت بيا طفلَها إلى الأرض. فأمسك بيد أليثيا واقتادها نحو المصطبة.

- لقد أغرم بكِ. - قال الجدّ - هل نحن نعرف بعضنا؟

- كنت في صغري غالبًا ما آتي إلى هنا، مع والدي.

حدّق إليها سيمبيري.

- غريس؟ خوان أنطونيو غريس؟

أكّدت أليثيا برأسها.

- يا إلهي! أكاد لا أصدِّق... كم عامٍ مضى ولم أره، هو وزوجته؟ كانا يأتيان في كلّ نهاية أسبوع تقريبًا... أخبريني، كيف حالهما؟

شعرت أليثيا بجفافٍ في فمها.

- لقد توفّيا. خلال الحرب.

تنهّد الجدّ سيمبيري.

- يؤسفني كثيرًا. لم أكن أعلم.

حاولت أليثيا أن تبتسم.

- لم يعد لديكِ أسرة، إذن؟

نفت أليثيا برأسها. فلاحظ دانيال بريقًا يتماوج في عينيها.

- أبي، لا تخضعِ الآنسة لاستجواب!

ظلّ الجدّ مقهور النفس.

- كان والدكِ رجلًا عظيمًا. وصديقًا عزيزًا.

- شكرًا. - غمغمت أليثيا بما تبقَّى لديها من صوت.

طغى صمت ثقيل، فأسعف دانيال الموقف.

- هل ترغبين بمشروب؟ اليوم هو عيد ميلاد والدي، ونقدِّم لجميع زبائننا كأسًا صغيرة من المشروب الذي يُعدِّه صديقنا فيرمين.

- لا أنصحكِ به. - همست لها بيا من الخلف.

- بالمناسبة، أين اختفى فيرمين؟ ألا يجدر به أن يكون قد عاد منذ مدّة. - سأل الجدّ.

- يجدر. - تدخّلت بيا - لقد أرسلته لشراء الشمبانيا للعشاء، ولكن بما أنّه لا يحبّ الذهاب إلى محلّ الدون ديونيسيو، فقد انطلق لا أدري إلى أيّ بؤرة من أرجاء بورني، يقول إنّ الدون ديونيسيو يعبِّئ خمر الكنيسة الفاسد بمياه غازيّة وقطرات من بول القطّ ليمنحه لونًا معقولًا. وأنا لا أطيق الجدال معه.

- لا تتوجّسي. - قال الجدّ متوجّهًا إلى أليثيا - صاحبنا فيرمين هو هكذا. كان ديونيسيو في شبابه منتميًا إلى كتائب فرانكو، الأمر الذي لا يمكن لفيرمين أن يغفره. يفضِّل أن يموت ظمآنًا على أن يشتري منه أي قنّينة.

- عيدًا سعيدًا. - ابتسمت أليثيا.

- اسمعي، أعرف أنّكِ سترفضين، ولكن... لِمَ لا تبقين معنا على العشاء؟ سنكون مجموعة كبيرة، و... يشرِّفني إذا انضمّت ابنة خوان أنطونيو غريس إلينا هذا المساء.

نظرت أليثيا إلى دانيال فابتسم لها واهنًا.

- شكرًا جزيلًا، ولكن...

أمسك خوليان يدها بقوّة.

- أترين كيف يلحُّ حفيدي... هيّا، سنكون في أجواء عائليّة.

أخفضت أليثيا أنظارها، وهزّت رأسها ببطء. شعرت بيد بيا على ظهرها وصوتها يهمس في أذنها.

- ابقي.

- لا أعرف ماذا أقول...

- لا تقولي أيّ شيء. خوليان، لِمَ لا تُظهِر للآنسة أليثيا كتابك الأوّل؟ سترين، سترين...

ومن دون أن يفكّر مرتين، هرع خوليان ليحضر دفترًا كان يخربش عليه رسوماتٍ وإشارات وكتابات لا معنى لها. أظهره لها متحمّسًا.

- روايته الأولى. - قال دانيال.

كان خوليان ينظر إليها مترقّبًا.

- ما أجمل وجهه.

صفّق الصغير مسرورًا بتلقّي النقد. وخصَّ لها الجدّ سيمبيري نظرة حزينة بدت كأنّها رافقته طوال حياته، وهو الذي كان في عمر والدها لو ظلّ حيًّا.

- مرحبًا بكِ في عائلة سيمبيري يا أليثيا.

(8)

كان الترام الأزرق يصعد شيئًا فشيئاً، طوفٌ صغيرٌ من نورٍ مذهّب يفتح الطريق كسفينةٍ تجتاز ضباب الليل. وكان فرنانديتو راكبًا في المقطورة الخلفيّة، وقد ركن الدرّاجة الناريّة قرب مبنى لاروتوندا، كما نصحته أليثيا. رأى الدرّاجة تتلاشى في البعيد وأطلّ برأسه لينظر إلى الجادّة الطويلة المؤلّفة من أبنية على جانبي المسار، قلاعٌ مسحورة ومهجورة في رحمة الغابات، نوافيرُ وحدائقُ مملوءة بالتماثيل لا يتنزّه فيها أحد. الورثة المعتَبرون لا يبقون في منازلهم أبدًا.

كان بيت «إل بينار» يتراءى في قمّة الجادّة. يُطلُّ بواجهته الكاتدرائيّة ما بين أشلاء الغيوم المنخفضة، ليرسم أبراجًا تتجلّى الشعوذة فيها، فضلًا عن الحواشي والأسقُف المسنّنة الرابضة على تلٍّ كأنّها معبدٌ يسمح بتأمّل برشلونة كلّها وجزءًا كبيرًا من الشاطئ الممتدّ من شمال المدينة إلى جنوبها. ففكّر فرنانديتو أنّ ذلك الرَّعن المرتفع قد يسمح برؤية جانبٍ من جزيرة مايوركا في أيّامٍ تصفو فيها السماء.لكنّ ذلك المساء كان يخيّم على البيت بعتمة كثيفة.

مضغ ريقه. بدأ ينتابه القلق من المهمّة التي أوكلتها إليه أليثيا. لا يكون المرء بطلًا إلّا عندما يراوده الشعور بالخوف؛ قالها أحد أعمامه الذي فقد عينه وذراعه في الحرب. مَن يرمي بنفسه في خضمّ المخاطر بلا خوفٍ يعتريه فما هو إلّا غبيّ. لم يعد فرنانديتو يميّز ما الذي كانت أليثيا تنتظره منه، أن يكون بطلًا أم ساذجًا. من الوارد أنّها تتوقّع تفاعلًا بسيطًا بين الصفتين. هذا ما خلُصَ إليه. الراتب كان لا يعلى عليه، صحيح، لكنّ الصورة التي رأى فيها أليثيا تبكي مقهورةً بين ذراعيه كانت كافية لإدخاله إلى الجحيم على رؤوس أصابعه، بل وقد يدفع تذكرة الدخول ولا يبالي.

تركه الترام عند قمّة الجادّة واختفى في الضباب مجدّدًا. كانت أضواؤه تتبدّد نحو النزلة في بخارٍ عجيب. الساحة الصغيرة مقفرة في تلك الساعة. ثمّة عمود إنارة وحدانيّ، بالكاد يضيء طيف سيّارتين سوداوين مركونتين قبالة مطعم لابينتا. الشرطة، فكّر فرنانديتو. سمع في تلك اللحظة هدير سيّارة تقترب فركض يبحث عن زاوية مظلمة بجانب موقف الترام الجبليّ. وبعد قليل، رأى أضواءها. سيّارةٌ من نوع فورد، توقّفت على بعد أمتار عن المكان الذي التجأ إليه.

نزل منها أحد الأفراد الذين رآهم في الصباح نفسه يعتقلون المصرفيَّ سانشيس من بيته في شارع إراديير. كان له ما يجعله مختلفًا عن الآخرين. هالةٌ أرستقراطيّة، بدا من رقيّ سلوكه أنّه سليل عائلة نبيلة. يرتدي ثياب جنتلمان الصالونات، من نوع الملابس التي توضع على واجهات المحلات في غاليس أو غونثالو كوميا، لا تتوافق مع الثياب المتواضعة والعاديّة التي يرتديها العملاء الآخرون الذين جاءوا معه. كان معصما قميصه متكاملين بالجواهر المشعّة تحت الظلام، ويبدو أنّه مكويٌّ عند أرقى مصبغة في المدينة. لكنّه حين مرّ تحت هالة النور، استطاع فرنانديتو أن يلاحظ بقعا داكنة على معصمي القميص. دماء.

توقّف رجل الشرطة والتفت نحو السيّارة. ظنّ فرنانديتو لوهلةٍ أنّه كشف أمره، فتشنّجت معدته حتى صارت بحجم كرة بلياردو. توجّه الرجل إلى السائق وابتسم له بودّ.

- لويس، سأبقى هنا بعض الوقت. بإمكانك أن تمضي إن أردت. تذكّرْ أن تنظّف المقعد الخلفيّ. سأخطِرك متى احتجت إليك.

- بأمرك، حضره النقيب إندايا.

أخرج إندايا سيجارة وأشعلها. تذوّقها بهدوء ونظر إلى السيّارة تبتعد إلى أسفل الجادّة. بدا أنّه محميٌّ بصفاءٍ غريب، كما لو أن لا وجود لشيء في الحياة من شأنه أن يقلقه أو يعترض طريقه أو ينغِّص عليه تلك اللحظة التي يعيشها متوحّدًا بنفسه. كان فرنانديتو يراقبه مدفونًا في الظلام، يخشى حتّى من التنفّس. إندايا يدخّن كممثّل سينمائيّ، كأنّه يجري تمرينًا على الأسلوب والمباهاة. أشاح ظهره واقترب من الإطلالة التي تتأمّل المدينة. وبعد قليل، رمى عقب السيجارة أرضًا، وهرسه بحدّ حذائه المطليّ ومشي بكلّ هدوء نحو مدخل البيت.

وما إن رأى أنّ إندايا يسير في الدرب المحاذي لبيت إل بينار، ويفقده من مجال البصر، حتى خرج فرنانديتو من مخبأه. كان جبينه مبللًا بالعرق. يا للآنسة أليثيا على أي بطلٍ جميل عثرت! أسرع خلف خطوات إندايا الذي دخل نطاق البيت مجتازًا القوس المفتوح في السور الحجريّ. كانت البوّابة محميّة بحاجزٍ حديديّ، ومكتوب على رأسها «إل بينار»، وتفضي إلى ما بدا أنّه دربٌ من العتبات تقطع الحديقة حتى تبلغ البيت. أطلّ فرنانديتو برأسه فلمح طيف إندايا يصعد العتبات بلا عجالة، مخلّفًا وراءه خيط دخان مائلٍ للزرقة.

انتظر أن يراه عند قمّة الدرب. تقدَّم نحوه عميلان، وبدا أنّهما يُعلِمانه بآخر المستجدّات. وبعد تبادلٍ وجيز، دخل إندايا البيت، متبوعًا بأحدهما، فيما ظلّ الآخر منتصبًا عند الأعتاب يراقب المدخل. درس فرنانديتو الخيارات المتوافرة لديه. لا يستطيع الاقتراب من ذلك الدرب دون أن يراه الرقيب. فصورة الدماء على معصمي قميص إندايا لا تشجِّع على التقدّم سنتمترًا أكثر من اللازم. تراجع خطوتين وتفحَّصَ السور المحيط بنطاق البيت. كان الشارع، الأشبه بزقاقٍ ضيّق متعرّج على سفح الجبل، كان مقفرًا. فسار فيه فرناندينو إلى أن تبدّت له الواجهة الخلفيّة للبيت، فتسلّق على السور بحذرٍ شديد. وهناك تمكّن من التشبّث بغصنٍ استعان به للعبور إلى الجانب المنخفض من الحديقة. فتبادر إلى ذهنه احتمال وجود كلابٍ تشمّ رائحة خطاه في غضون ثوانٍ، لكنّه في اللحظة نفسها لاحظ شيئًا يبعث القلق أكثر: لا وجود لأيّ صوت. حتى ورقات الشجر كانت ثابتة، لا وشوشة طيور ولا طنين حشرات. كان المكان ميّتًا.

إنّ علوَّ الفيلا فوق التلّ يوهم بأنّ هيكلها أقرب إلى الطريق ممّا هو عليه في الحقيقة. توجَّبَ عليه صعود المنحنى بين أشجارٍ ودروبٍ تعتليها الأجمات إلى أن بلغ الدرب الممهَّد الذي يصعد حتى المدخل الرئيس. وحين وصل إليه سار فيه لغاية الواجهة الخلفيّة. كلّ النوافذ معتمة، ما عدا اثنتين صغيرتين في زاوية مخفيّة بين البيت والجانب الأعلى للتلّ. تكهَّن فرناديتو أنّهما نافذتا المطبخ. فزحف حتى بلغهما، وأحاد وجهه عن الضياء المتسرّب من النافذة، واسترق النظر إلى الداخل.

عرفها مباشرة. المرأة التي رآها خارجةً من بيت المصرفيّ سانشيس رفقة السائق. كانت منهارة على كرسيّ، ثابتة بشكلٍ يثير الغرابة، ووجهها مائلٌ إلى جانبها، كما لو أنّها فاقدة الوعي. لكنّ عينيها مفتوحتان.

ولم ينتبه إلا حينذاك أنّها مكبّلة اليدين والقدمين بالكرسيّ. عَبَرَ ظلٌّ أمامها فأدرك الفتى أنّ إندايا والعميل قد دخلا. أمسك إندايا بكرسيّ وجلس قبالة المرأة التي فهم فرنانديتو أنّها زوجة سانشيس. تكلم إليها إندايا دقيقتين، لكنّ السيّدة سانشيس لم تعطِ إشارة إلى أنّها كانت تسمعه. نظراتها هائمة في مكان ما، تتصرّف كأنّ إندايا ليس موجودًا. وبعد قليل، أعرب رجل الشرطة عن لامبالاته. حطّ أصابعه بخفّة على ذقن زوجة المصرفيّ وبرم وجهها نحوه. كان إندايا يكلّمها مجدّدًا فإذا بالمرأة تبصق في وجهه. فانهال عليها الرجل بصفعة مدوّية أوقعتها أرضًا، وظلت هناك مستلقية ومربوطة بالكرسيّ. اقترب العميل الذي رافق إندايا، وانضمّ إليه الآخرُ الذي لم ينتبه فرنانديتو إلى وجوده لأنّه كان مستندًا إلى الجدار بجانب النافذة التي يتجسّس منها، اقتربا ورفعا الكرسيّ. نظّف إندايا وجهه من البصاق بيده ومسحها بقميص السيّدة سانشيس.

وبإيعازٍ منه، خرج العميلان من المطبخ. وعادا بعد قليل بالسائق الذي رآه فرنانديتو في الصباح يمرّ لاصطحاب زوجة المصرفيّ. أومأ إندايا لرجليه فألقياه بالإكراه على طاولة خشبيّة تشغل وسط المطبخ. ربطا يديه وقدميه بأرجل الطاولة الأربع. وفي الأثناء نزع إندايا سترته وطواها بعناية على أحد الكراسيّ. اقترب من الطاولة وانحنى نحو السائق، ونزع عنه القناع الذي يغطّي جزءًا من وجهه. كان القناع يخفي جرحًا فظيعًا شوَّه وجه الرجل من ذقنه إلى جبينه ويبيِّن اختفاءَ جزءٍ من عظام الفكّ والخدّ. وحين ثُبِّتَ السائقُ كليًّا، قرَّبَ العميلان كرسيّ زوجة سانشيس إلى الطاولة. قبض أحدهما بيديه على رأسها بحيث لا تتمكّن من إشاحة نظرها. أحسَّ فرنانديتو بالغثيان يجتاحه، وبرغوة القيء تداني شفتيه.

قرفص إندايا بجانب زوجة المصرفيّ وهمس بأذنها. لم تفتح فمها، وظلّ وجهها مسكونًّا بالغلّ. نهض الرجل. مدّ كفّه نحو أحد العميلين فمرّر له سلاحًا. ثمّ لقَّم المخزن بطلقة ناريّة وأسند القصبة على ركبة السائق اليمني تمامًا. نظر إلى المرأة برهةً، ينتظر أن تتكلّم، ثم رفع كتفيه لا مباليًا مرّة أخرى.

اجتاز دويّ الرصاص وصرخات السائق الزجاجَ والجدران الحجريّة. وتدفّقت غيمةٌ من دماء وعظم مهروس على وجه المرأة التي أخذت بالصياح. كان جسد السائق يتهيَّج كأنّه خاضع لصعقات كهربائيّة. التفتّ إندايا حول الطاولة، ولقّم المخزن برصاصة أخرى وأسند قصبة المسدّس على مفصل الركبة الأخرى. تفشّت بركةٌ من الدماء والبول على الطاولة، وسالت على الأرض. نظر إندايا إلى المرأة برهةً. أغمض فرنانديتو عينيه وسمع الدويّ الثاني. وحين تناهي الصراخ إليه، غلبه الغثيان فانكمش على نفسه. وصعد القيء إلى حلقه واندلق على صدره.

وكان يرتجف حين سمع الدويّ الثالث، فعاد يسترق النظر إلى النافذة. لم يعد السائق يصرخ. والمرأة على الكرسيّ، تلطّخ وجهُها بالدموع والدماء. وكانت تتلعثم. قرفص إندايا بجانبها مرّة أخرى وأصغى إليها وهو يداعب وجهها ويهزّ رأسه. وعندما بدا أنّه سمع ما كان يريد، نهض وأطلق الثالثة على السائق، من دون أن يتوجّه إليه بنظرة أخيرة. أعاد المسدّس للعميل واتجه نحو مغسلة في إحدى الزوايا لينظّف يديه. ثمّ ارتدى السترة والمعطف. حبس فرنانديتو أنفاسه وابتعد عن النافذة، وفرّ بجلده نحو الأجمات. حاول أن يجد طريق العودة عبر التلّ إلى أن وصل إلى الشجرة التي استعان بها ليقفز السور. كان يتصبّب عرقًا مثلما لم يكن من قبل. عرقٌ باردٌ

يحرق الجلد. يداه وساقاه ترتعشان بينما يتسلّق الجدار. وإذ قفز إلى الجهة الأخرى، وقع على وجهه وتقيّأ من جديد. وحين تيقّن أنّه أفرغ ما في بطنه، تدحرج إلى أسفل الطريق. مرّ أمام المدخل الذي رأى إندايا يدخل منه، وسمع أصواتًا تقترب. فأسرع الخطى وهرول نحو الساحة الصغيرة.

كان الترام ينتظر عند الموقف، كواحةٍ من نور في مفازة الظلام. لا ركّاب، ما عدا السائق ومراقب التذاكر، يدردشان ويتقاسمان ترموس القهوة صدًّا للبرد. صعد فرنانديتو متجاهلًا نظرة المراقب.

- هيه، يا فتي؟

نبش الفتى في جيب سترته وأعطاه بعض النقود. فسلّمه المراقب تذكرة.

- لن تتقيّأ هنا، أليس كذلك؟

نفي فرنانديتو برأسه. جلس في الأمام، بجانب نافذة، وأغمض عينيه. حاول أن يستنشق عميقًا ويستحضر صورة درّاجته الناريّة البيضاء وهي بانتظاره في آخر الجادّة. سمع صوتًا يخاطب المراقب. وما لبث الترام ينزلق بخفّة، حتى صعد راكبٌ آخر. سمع فرنانديتو خطواته تدنو. فشدَّ على أسنانه. ثمّ أحسَّ بتواصلٍ ما. يدٌ تحطّ على ركبته. فتح عينيه.

كان إندايا ينظر إليه بابتسامةٍ ودّيّة.

- هل أنت بخير؟

ظلّ فرنانديتو خَرِسًا. حاول أن يبقي أنظاره بعيدة عن النقاط الحمراء الصغيرة على ياقة قميص إندايا. وهزّ رأسه مؤكّدًا.

- هل أنت واثق؟

- أعتقد أنّي أسرفتُ بالشرب.

ابتسم إندايا متفهِّمًا. وبدأ الترام يهبط.

- عليك بالقليل من البيكربون مع عصير نصف ليمونة. هذا كان سرّي عندما كنت شابًّا. ثمّ إلى النوم.

- شكرًا. سأفعل ذلك حالما أصل إلى البيت. - قال فرنانديتو.

كان الترام يمضي ببطء مهيب، يلامس المنعرج على شكل الطُّعم الذي يتوّج الجادّة. استراح إندايا على المقعد المواجه لفرنانديتو دون أن تغادر الابتسامة وجهه.

- هل تسكن بعيدًا؟

نفى الفتى برأسه.

- لا. بمسافه عشرين دقيقة بالمترو.

تحسَّس إندايا معطفه وأخرج من جيبه الداخليّ ما بدا أنّه ظرفٌ ورقيّ صغير.

- أتودّ سُكَّرةً بنكهة الكينا؟

- لا داعي، شكرًا.

- هيّا، خذ واحدة. - شجّعه إندايا - ستفيدك.

تقبَّلَ فرنانديتو السّكَّرة وأخذ يزيل غلافها بأصابعه المرتجفة.

- ما اسمك؟

- ألبرتو. ألبرتو غارثيا.

وضع السّكَّرة في فمه. كان جوفه خاليًا من اللعاب، فدبقت الحبّة على لسانه. وبذل المستطاع ليدلي بابتسامة راضية.

- كيف هي؟ - سأله إندايا.

- لذيذة جدًّا. شكرًا جزيلًا. لها فوائدها حقًّا.

- سبق أن أخبرتك. قل لي يا ألبرتو غارثيا، هل لي بتفتيش بطاقتك؟

- عفوًا؟

- بطاقتك الشخصيّة.

مضغ فرنانديتو اللعاب الذي لم يكن موجودًا وأخذ ينبش في جيوبه.

- لا أدري.... يبدو أنّي تركتها في البيت.

- هل تعلّم أنّ الخروج بلا بطاقة شخصيّة ممنوع؟

- أجل يا سيّدي. والدي يذكّرني دومًا بذلك. وأنا كارثة.

- لا عليك. أفهمك. ولكن لا تنسَ البطاقة ثانية. أقول ذلك لمصلحتك.

- لن يحدث بعد.

وكان الترام حينها يدلف نحو الموقف الأخير. تراءت قبّة فندق لاروتوندا لفرنانديتو، ونقطةٌ بيضاء تلمع استجابةً لأضواء الترام. القسبا.

- قل لي يا ألبرتو. ما الذي كنت تفعله في الأنحاء في هذه الساعة من الليل؟

- أتيتُ لزيارة عمّي. فالمسكين مريضٌ جدًّا. يقول الأطبّاء إنّه لن يعيش طويلًا.

- يؤسفني.

أخرج إندايا سيجارة أخرى.

- لا تزعجك، أليس كذلك؟

هزّ فرنانديتو رأسه نافيًا، وبأفضل ابتسامة لديه. أشعل رجل الشرطة سيجارته. فصبغت جمرةُ التبغ حدقتيه بلونٍ نحاسيّ. فشعر الفتى أنّ تينك العينين تنغرسان في دماغه كالدبابيس. «قل

شيئا».

- وحضرتك؟ - باغته بالسؤال - ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟

ترك إندايا نهر الدخان يجري من بين شفتيه. واتّخذ ابتسامة الذئاب.

- أعمل. - قال.

أكملا الأمتار الأخيرة من الرحلة في صمت. وعندما توقّف الترام، نهض فرنانديتو وأومأ بتحيّة احترام للرجل، ومشي نحو آخر العربة. نزل واتجه إلى درّاجته دون أن يبدي عجالة. قرفص ليفتح القفل. وكان إندايا يرمقه بفتور من عتبة الترام.

- ظننت أنّك ستذهب لتستقلّ المترو وتعود إلى البيت. - قال.

- حسنًا، كنت أقصد أنّ البيت قريب. على بعد مواقف قليلة.

اعتمر فرنانديتو الخوذة، كما أوصته أليثيا، وثبّت الحزام. بهدوء، قال لنفسه. ثني قدم القسبا بدفعة صغيرة وسار بها على الرصيف مترًا يفصله عن المسلك. فتجلّى ظلّ إندايا أمامه وأحسَّ بيد رجل الشرطة تحطّ على كتفه. التفت. كان إندايا يبتسم بهيئةٍ أبويّة.

- انزل، هيّا، وأعطني المفتاح.

لم ينتبه إلى نفسه وهو يومئ مذعنًا ويسلّمه مفتاح الدرّاجة بيدٍ مرتجفة.

- أرى من الأفضل أن تأتي معي إلى المخفر، يا «ألبرتو».

(9)

كان الجدّ سيمبيري يعيش في شقّة صغيرة فوق المكتبة، تشرف على شارع سانتا آنا. لقد عاش آل سيمبيري دائمًا في تلك البناية، منذ أن تشكّلت ذاكرتهم الأُسَريّة. وقد ولد دانيال ونشأ في ذلك البيت قبل أن ينتقل إلى الطابق الأخير بعد زواجه ببيا. وربّما سيقيم خوليان يومًا ما في شقّة أخرى من العمارة نفسها. كانت عائلة سيمبيري تسافر بالكتب، لا بالخرائط. وبيت الجدّ متواضعٌ ومسحورٌ بالذكريات. ومثل كثيرٍ من البيوت في المدينة القديمة، يبدو البيت معتمًا ومصمِّمًا على الحفاظ على أثاثه العائد إلى القرن التاسع عشر، بطابعه البرشلونيّ الذي يقي الأبرياء شرّ أوهام الحاضر.

كانت أليثيا تراقب المشهد، وتصغي إلى كلمات الجدّ سيمبيري التي ما تزال طازجة الذاكرة، فلم تستطع إلّا أن تستشعر حضور إيزابيلا خيسبرت في تلك الغرفة نفسها. كانت تراها تدوس على الأرضيّة القرميد، وتتقاسم السرير مع السيّد سيمبيري في الغرفة الصغيرة التي تتراءى لها في السير عبر الممرّ. توقّفت أليثيا لحظةً بمرورها أمام الباب الموارب لتتخيَّل إيزابيلا التي كانت قد أنجبت دانيال على ذلك السرير، وتوفّيت عليه مسمومة بعد أربعة أعوام.

- هيّا، ادخلي يا أليثيا، سأقدِّمكِ للآخرين. - ألحَّت بيا خلف ظهرها وأغلقت باب غرفة النوم.

كانت بيا قد استطاعت بأعجوبة أن تضمّ طاولتين في وسط الصالة من أقصاها إلى أقصاها، وجزءًا من الممرّ أيضًا، كي ترتِّب جلسة أحد عشر مدعوًا للاحتفال بعيد ميلاد البطرق. ظلّ دانيال في الأسفل يغلق المكتبة بينما اصطحب والدُه وزوجتُه وابنُه الضيفةَ أليثيا عبر السلالم. هناك حيث كانت بانتظارهم برناردا زوجة فيرمين، التي فرشت الأغراض على الطاولة وكانت تُقلِّب بالمغرفة طبقَ اللحم المطبوخ والفوّاح برائحة الفردوس.

- تعالي يا برناردا كي أعرِّفكِ على الآنسة أليثيا غريس.

مسحت المرأة يديها بالمئزر وغمرتها في عناق.

- هل تعلمين متى يعود فيرمين؟ - سألتها بيا.

- آه يا سيّدة بيا، لقد صدّع ذلك اللعين رأسي بنبيذ البول الخفيف على حدّ وصفه. المعذرة يا آنسة أليثيا، أتحدّث عن زوجي العنيد أكثر من ثور مصارعة ولا يتفوّه إلّا بالأباطيل.

- حسنًا، إذا تأخّر أكثر من ذلك، أراني أشرب النخب بمياه الصنبور. - قالت بيا.

- على الإطلاق. - صرّحَ صوتٌ مسرحيُّ النبرة من عتبة صالة الطعام.

اتّضح أنّ صاحب تلك الحنجرة الرنّانة جارُ العائلة وصديقُها، الدون أناكليتو، أستاذٌ في المدرسة، وشاعرٌ في أوقات الفراغ على حدّ قول بيا. قبَّلَ يد أليثيا بحفاوةٍ لا بدّ أنّ زمانها ولّى منذ أيّام غليوم الثاني.

- عند قدميكِ، أيّتها الحسناء المجهوله. - هتف.

- لا تزعج ضيوفنا يا دون أناكليتو. - اختصرت عليه بيا - هل قلتَ إنّك أتيتَ بشيءٍ يُشرَب؟

أظهر الدون أناكليتو زجاجتين ملفوفتين بورق تغليف العلب.

- رجلٌ بعيدُ النظر يساوي رجلين. - قال - بما أنّني أتحسّس من الجدل المحتدم بين فيرمين وذلك العطّار المخلص للفاشيّة البائدة، آثرتُ أن آتي مزوّدًا بقنّينتين من اليانسون بغية إيجاد حلٍّ للشحّ الذي أصاب مشاريبكم الكحوليّة في الوقت الراهن.

- ليست من عادة المسيحيّين أن يشربوا النخب باليانسون. - ادّعت بيا.

الدون أناكليتو الذي وهب أليثيا عينيه، ابتسم بهيئة العارف بأمور الدنيا، ملمِّحًا إلى أنّ اعتباراتٍ كهذه لا تضايق إلّا أبناء الضواحي.

- تحت تأثير فينوس، سيكون النخب وثنيًا. - قال الأستاذ وهو يغمز بعينه لأليثيا - ألا أخبريني يا ربّة الوجه الصبوح، هلّا شرَّفتِني بالجلوس بجواري؟

دفعت بيا بأستاذ اللغة الدعيِّ إلى الطرف الآخر من الطاولة وأنقذت أليثيا من موقف محرج.

- اذهب يا دون أناكليتو، ولا تنقضّ على أليثيا ببلاغة أشعارك. - نبّهته - اجلس هناك في آخر الطاولة. وتصرَّفْ بسلوكٍ حسن. لدينا خوليان ولا ينقصنا أولاد.

أعرب الرجل عن لامبالاته وراح يهنِّئ صاحب الحفل بعيد ميلاده، بينما دخل مدعوّان آخران. كان الأوّل رجلًا نبيلًا ذا حضور رائق، أنيقًا ومتأنقًا جدًا، قدَّم نفسه على أنّه فيديريكو فلابيا، ساعاتيّ الحيّ، واختال بأسلوبه الرصين.

- يعجبني حذاؤكِ جدًّا. - قال لها - هلّا أخبرتني من اين اشتريته؟

- من محلّ سومون لبيع الأحذية، في شارع دي غراثيا. - أجابت أليثيا.

- بالتأكيد. لا يمكن أن يكون إلّا من هناك. اعذريني، سأذهب لتقديم التهاني لصديقي سيمبيري.

كان الدون فيديريكو مصحوبًا بفتاة مبتهجة، مرثيديتاس، التي كانت بكلّ وضوحٍ وجلاء مفتونة بأناقة الساعاتيّ، إلى درجة السذاجة. وحين قدَّمن أليثيا لها، نظرت إليها من أعلى إلى أسفل، تعاينها وهي متوجّسة. وبعد أن تبخترت بجمالها وأناقتها وأسلوبها، هرعت إلى جانب الدون فيديريكو لتبقيه بعيدًا عنها بقدر ما في وسع البشر في ذلك المجال المحدود. فإذا كانت الصالة تبدو مكتظّة، فإنّ القدرة على المناورة فيها بلغت أعلى مراحل الخطر حين دخل دانيال واضطرّ إلى الاندساس بين حشد المدعوّين. القادمة الأخيرة كانت شابّة لا تتجاوز العشرين عامًا، محاطة بهالة من النور وجمال تلك السنّ.

- وهذه صوفيا، قريبة دانيال. - فسّرت بيا.

- Piacere، signorina[5]. - قالت الفتاة.

- تحدّثي بالإسبانيّة يا صوفيا. - صحّحت لها بيا.

ثمّ أوضحت لأليثيا أنّ الفتاة من نابولي وكانت تقيم في بيت العمّ سيمبيري لأنّها تدرس في جامعة برشلونة.

- صوفيا ابنة خالة دانيال، ووالدته توفّيت منذ أعوام طويلة. - غمغمت بيا، وكان من الواضح أنّها لا تريد ذِكر اسم إيزابيلا.

لاحظت أليثيا أنّ الجد سيمبيري يعانق الفتاة بإخلاص وحزن يؤذيان العين. ولم تتأخّر في تحديد صورة فوتوغرافية مؤطّرة في الخزانة الزجاجيّة في صالة الطعام، التي تظهر فيها إيزابيلا بفستان العرس قرب السيّد سيمبيري الذي بدا شابًّا بمليون مرّة عمّا هو عليه آنذاك. ولاحظت بطرف عينها أنّه ينظر إلى الفتاة بإعجابٍ وكآبة حتّى اضطرت إلى أن تشيح أنظارها. هزّت بيا رأسها، إذ لم يفتها أنّ أليثيا ربطت الحالتين برؤية صورة زفاف سيمبيري.

- هذا الوضع لا يناسبه إطلاقًا. - قالت - مع أنّها فتاة طيّبة جدًّا، لكنّي آمل أن تعود إلى نابولي في أسرع وقت.

اكتفت أليثيا بهزّ رأسها.

- لِمَ لا تجلسون؟ - أمرتهم برناردا من المطبخ - صوفيا يا عزيزتي، تعالي إلى هنا وساعديني، أحتاج إلى يدٍ شابّة.

- دانيال، وماذا عن قالب الحلوى؟ - سألت بيا.

تأفّف ورفع عينيه إلى السماء.

- كدت أنساه... سأنزل حالًا.

انتبهت أليثيا أنّ الدون أناكليتو كان يحاول التقرّب باهتياجٍ إلى زاويتها، وفكّرت في اللحظة نفسها بخطّة للهرب. وعندما مرّ دانيال أمامها نحو الباب، لحقت به.

- سأرافقك. دعني أتقدَّم بالحلوى.

- ولكن...

- أصرُّ على ذلك.

رأتهما بيا يختفيان خلف الباب وظلّت هناك بنظرةٍ متأرجحة وجبينٍ عابس.

- كلّ شيء على ما يرام؟ - سألتها برناردا.

- طبعًا، بالتأكيد...

- أنا واثقة من أنّها قدّيسة. - غمغمت برناردا - لكنّي لا أريدها أن تجلس بجوار زوجي فيرمين، واسمحي لي بالتعليق، ولا بجوار دانيال العزيز، فهو رجلٌ طيّب ومبارك.

- لا تتفوّهي بالترّهات يا برناردا. عليها أن تجلس في مكان ما بالمحصِّلة.

- كما تشائين، فأنا أعرف ما أقول.

نزلا السلالم ببطء. وكان دانيال يفسح الطريق لها. وحين وصلا إلى الردهة، أسرع الخطى وأسند لها البوّابة مفتوحةً.

- الفرن قريبٌ من هنا، عند الزاوية تقريبًا. - قال كما لو أنّ الأمر لم يكن واضحًا، فشارة الفرن المنيرة ساطعة على بعد خطوتين.

وعندما دخلا، رفعت البائعة يديها إلى السماء معبِّرةً عن ارتياحها.

- لحسن الحظّ. ظننت أنّك لن تأتي فكان علينا أن نأكل قالب الحلوى.

انطفأ صوتها حين انتبهت إلى وجود أليثيا.

- بم أخدمكِ آنستي؟

- نحن معًا، شكرًا. - ردّت أليثيا.

استطاع ذلك التأكيد أن يقذف حاجبي الفرّانة إلى منتصف الواجهة وأن ينتزع منها نظرة تفيض باللؤم، انضمّت إليها المساعدتان اللتان أطلّتا من خلف المصطبة لرؤية الظاهرة.

- وما أدراكِ ما دانيال... - غمغمت إحداهنّ بنبرة إغواء - رغم أنّه كان يبدو غبيًّا.

- غلوريا، سدّي بوزكِ وأَخرجي قالب السيّد سيمبيري. - قاطعتها صاحبة الفرن، كأنّها تقول إنّ الاغتياب مقيَّدٌ عندها بالتسلسل الهرميّ.

كانت البائعة الأخرى - شبيهة الهرّة ومكتنزة البدن لكأنّها تمثِّل تفاقم عسر الهضم والتخمة من المعجنّات المقليّة والقشطة التي يحضِّرها الفرن - تنظر إليه بشماتة تتذوُّق حياءه.

- فيليسا، أليس لديكِ ما تفعلينه أفضل من الوقوف هكذا؟ - سألتها صاحبة المحلّ.

- لا.

وكان وجه دانيال عندئذ قد صار بلون المشمش الناضج، متلهِّفًا للخروج من هناك، بقالب الحلوى أو بدونه. لم يكفّ ثلاثيّ الفرّانات عن رمي أليثيا بنظراتٍ من شأنها أن تطهو المعجّنات المقليّة بثانية واحدة. ظهرت غلوريا أخيرًا بقالب الحلوى، الذي بدا تحفة فنيّة، وبادر ثالوث الحلويات إلى تغليفه بالورق ومن ثمّ تقديسه في علبة كبيرة زهريّة اللون.

- قشطة، فراولة والكثير من الشوكولاتة. - قالت الفرّانة - وقد وضعتُ الشموع في الداخل.

- والدي يعشق الشوكولاتة. - أوضح دانيال لأليثيا كما لو أنّ الأمر بحاجة إلى توضيح.

- حذار يا دانيال، فالشوكولاتة تحفِّز الحياء. - استفزّته غلوريا، اللئيمة.

- وتزيد التألُّق. - ألَّحت فيليسا.

- كم الثمن؟

سبقته أليثيا ووضعت ورقة نقديّة بقيمة خمسة وعشرين بيسيتا على المصطبة.

- وهي التي تدفع أيضًا... - غمغمت غلوريا.

أحصت صاحبةُ الفرنِ المرتجعَ بهدوء وأعطته لأليثيا عملةً عملة. أخذ دانيال علبة الحلوى واتجه نحو الباب.

- سلّمْ على بيا. - ارتجلت غلوريا.

رافقتهما ضحكات العاملات وهما خارجان، ونظراتهما المنقضّة عليهما مثل فواكه منقوعة في كوكا عيد الفصح.

- غدًا ستكونين شهيرة في الحيّ بأكمله. - تنبأ دانيال.

- آمل أنّي لم أعرّضك لمشاكل.

- لا تقلقي. فأنا أورِّط نفسي بالمشاكل بنفسي. لا تعيري انتباهًا لثلاثيّ ربّات الإلهام. فيرمين يقول إنّ حلوى المارينج أثّرت على عقولهنّ.

أفسح لها المجال لتصعد السلالم، وتركها تعبر سلمًّا كاملا قبل أن يتبعها. من الواضح أنّه لم يكن ينوي صعود طابقين وعيناه تجنحان إلى رقصة خاصرتيها.

لاقي وصول الحلوى احتفاءً بالتصفيق والهتافات المعهودة إبّان نصرٍ رياضيّ كبير. رفع دانيال العلبة عاليًا ليظهرها على مرأى الجمهور المحترم كما لو أنّها ميداليّة أولمبيّة ودخل بها إلى المطبخ. لاحظت أليثيا أنّ بيا حجزت لها مكانًا بين صوفيا وخوليان الصغير الذي كان جالسًا بجوار جدّه. شَغَلَتْ كرسيّها، على دراية بأنّ الحاضرين ينظرون إليها شزرًا. وحين عاد دانيال من المطبخ، جلس في الطرف الآخر من الطاولة، قرب بيا.

- هل أقدِّم الحساء أم ننتظر فيرمين؟ - سألت برناردا.

- الحساء الشعبيّ لا ينتظر الأبطال. - صرَّح الدون أناكليتو.

بدأت برناردا بسكب الحساء في الزبادي فإذا بفرقعةٍ خلف الباب وأصداء عدد من القناني تهبط مُحدِثةً صوت كشطٍ على الأرض. وبعد ثوانٍ، تجلّى فيرمين الظافر بقنّينتين من الشمبانيا كانتا من الناجين بأعجوبة.

- فيرمين، كدتَ تبقينا على نبيذ موسكاتيل الفاسد... - اعترض الدون أناكليتو.

- فليتخلَّصْ أصحابُ السعادة من هذا المشروب الرخيص الذي يدنِّس كؤوسكم، فلقد جاء منقذ الكروم ليثأر لأفواهكم بخمورٍ ستجعلكم تتبوّلون أزهارًا.

- فيرمين! - نبَّهته برناردا - ما أقذر لسانك!

- برعمة البنفسج، ولكن إن كان التبوّل عكس الريح على هذه الضفّة أمرًا طبيعيًّا ومحبَّبًا مثل...

تجمَّدت بلاغة فيرمين وفصاحة سخريته فجأة. كان ينظر إلى أليثيا متحجِّرًا كأنّه يرى شبحًا عائدًا من عالم الأموات. أمسك دانيال بذراعه وأجلسه على الكرسيّ بالقوّة.

- هيّا، قلنا إنّنا نودّ البدء بالعشاء. - أعلن السيّد سيمبيري. فحتّى هو، لم تمرّ عليه زلّة فيرمين دون أن يلاحظها.

سادت أجواء الضحك والممازحة ورقصة الكؤوس على العشاء.

لم يكفّ فيرمين عن النظر إلى أليثيا وهو يحمل الملعقة الفارغة بيده، وكان صموتًا مثل قبر. تظاهرت بأنّها لا تنتبه إليه، لكنّ الأمر وصل إلى حدّ إحراج بيا أيضًا. نكزه دانيال بمرفقه وهمس له شيئًا ما بعجالة. فارتشف من الحساء مشدودَ الأعصاب. ولحسن الحظّ أنَّ الدون أناكليتو كان موجودًا، لتعويض الخرس الذي أصاب المستشار الببليوغرافيّ لمكتبة سيمبيري وأبناؤه، فراح الأستاذ يعيش شبابًا جديدًا بفضل الشمبانيا، وسرعان ما أمطر الجميع بتحليله المعظّم والمعتاد لأوضاع البلد الراهنة.

كان الأستاذ يعتبر نفسه الوريث العاطفيّ والحامل الأساسيّ للشعلة الخالدة للدون ميغيل دي أونامونو، الذي يشاركه بعض الصفات الجسديّة وشجرة عائلة عريقة في شلمنقة. وكعادته، تصوَّرَ مشهدًا كارثيًّا يتنبّأ غرقًا وشيكًا لشبه الجزيرة الإيبيريّة في محيطات العار حالكة السواد. وكان فيرمين بطبيعة الحال يمثِّل نقيضه في الرياضة، ويحبّ أن يُفسِد عليه كلامه الفارغ ونقاشاته المرتجلة بسهامه المسمومة من قبيل «ضريبة الكلام الفارغ التي يدفعها المجتمع تتناسب طرديًّا مع ضريبة إيفاء الديون الفكريّة: فعندما نتحدّث بلا غاية سوى الهذر، فإنّنا نفكّر قليلًا ونفعل أقلّ». لكنّ فيرمين حينها ظلَّ ساكتًا، ما جعل الأستاذ يحاول استفزازه، وهو الذي أمسى بلا خصوم أو مجادلين.

-... لأنّ حكّام هذا البلد ما عادوا يعرفون ماذا يبتكرون لغسل أدمغة الناس. ألا يبدو لك يا فيرمين؟

رفع كتفيه بغير اكتراث.

- لا أفهم لماذا يرهقون أنفسهم كثيرًا. ففي معظم الحالات، تنغسل العقول بمضمضة سريعة.

- ها قد خرج علينا الأناركيّ. - تقدَّمت مرثيديتاس.

ابتسم الدون أناكليتو متلذّذًا برؤية نجاحه في إشعال فتيل النقاش، هوايته المفضّلة. تأفّف فيرمين.

- انظري يا مرثيديتاس، بما أنّه يتّضح لي بأنّك تبدئين قراءة الجريدة وتنهينها عند زاوية الأبراج، وبما أنّنا نحتفل بالعيد الفلكيّ لربّ المنزل...

- فيرمين، هلّا أعطيتني الخبز من فضلك؟ - قاطعته بيا لإنقاذ سلام الحفلة.

أومأ فيرمين وعاد القهقهرى. فأنقذهم الدون فيديريكو، الساعاتيّ، من ذلك الصمت المتوتّر.

- ها يا أليثيا، أخبرينا، ما مهنتكِ؟

نزلت مرثيديتاس إلى الميدان، إذ لم تكن ترى بعينٍ راضية الاهتمامَ والاحترام اللذين خصّصهما الجميع لتلك الضيفة المفاجئة.

- ولماذا على المرأة أن يكون لديها مهنة؟ ألا يكفيها الاعتناء بالبيت والزوج والأولاد، كما ربّانا آباؤنا؟

كاد فيرمين يردّ عليها فإذا ببرناردا تضع يدها على معصمه، فعضّ لسانه.

- حسنًا، ولكن الآنسة أليثيا عزباء. أليس كذلك؟ - ألحَّ الدون فيديريكو.

أكّدت أليثيا برأسها عزيزةَ النفس.

ألستِ مخطوبةً حتّى؟ - سألها الدون أناكليتو متعجّبًا.

فابتسمت بتواضع ونفت برأسها.

- هذه كارثة! دليلٌ دامغٌ على أنّ هذا البلد بات معدومًا من الشبّان الذين لهم قيمة. آهٍ لو كان عمري أقلّ بعشرين عامًا... - قال الدون أناكليتو.

- بل قل أقلَّ بخمسين عامًا. - حدّد فيرمين.

- الرجولة ليس لها عمر. - ردّ الدون أناكليتو.

- فلنفرِّق بين البطولة وعلم البول.

- فيرمين، بيننا قُصَّرٌ على الطاولة. - حذّره السيّد سيمبيري.

- إن كنت تقصد مرثيديتاس...

- عليك أن تغسل فمك وأفكارك بالكلور، وإلّا انتهيتَ في الجحيم. - صرّحت مرثيديتاس.

- تعلمين كم أوفِّر من نفقات التدفئة.

رفع الدون فيديريكو يديه لإنهاء النقاش.

- هيّا... لماذا لا تتركونها تتكلّم؟

هبط السكون ونظر الجميع إلى أليثيا.

- إذن. - دعاها الدون فيديريكو مجدّدًا - كنتِ ستخبريننا عن عملكِ...

نظرت أليثيا إلى الحاضرين، كانوا متعلّقين جميعهم بشفتيها.

- الحقيقة أنّ اليوم كان آخر يوم عمل لديّ. ولا أعرف ما الذي سأقوم به اعتبارًا من الآن.

- لا بدّ أنّك فكّرتِ في شيء ما. - ألحَّ السيد سيمبيري.

فطأطأت رأسها.

- فكّرت بأنّ الكتابة قد تستهويني. أو أن أجرِّبها على الأقلّ.

- شاطرة! - ابتهج بائع الكتب - ستكونين لافوريه خاصّتنا.

- من الأفضل أن تقول إنّها ستكون بارذو باثان خاصّتنا. - تدخَّل الدون أناكليتو، الذي كان يشارك الإحساس القوميّ المنتشر على نطاق واسع، ومفاده أنّ الأديب الحيّ لا يستحقّ أيّ تقدير، إلّا إذا كان في رمقه الأخير ويلاقي صعوبة في رفع جفنيه - ألا تشاركنا يا فيرمين؟

نظر فيرمين إليهم جميعهم ثمّ حطّ عينيه على أليثيا.

- بودّي أن أشارك يا صديقي، لا لشيء سوى لأنّ بارذو باثان إذا نظرت إلى نفسها في المرآة رأت كلبًا قصيرًا، أمّا ضيفتنا «الآنسة غريس» فلها ملامح أميرة الظلمات ولا يتّضح لي أنّها تنظر إلى نفسها في المرآة أبدًا.

هبط صمت عميق.

- وما معنى كلامك هذا، يا سيّد عليمبكلّشيء؟ - هاجمته مرثيديتاس.

أمسك دانيال بذراع فيرمين وجرّه إلى المطبخ.

- معناه أنّ الرجال لو كانت أدمغتهم أكبر من نصف أفواههم الرذيلة، كي لا نقول شيئًا آخر، لكان هذا العالم أفضل حالًا. - فرّجت صوفيا عمّا في صدرها، وهي التي ظلّت حتى اللحظة سارحة بين الغيوم أو شاردة في غمائم بلاد الفكر الذي لا يسكنه إلّا المراهقون والمتنوّرون.

نقل السيّد سيمبيري أنظاره إلى قريبته التي أرسلتها له الحياة لمباركة أعوامه الذهبيّة أو تعذيبها، والتي ظنّ مرارًا أنّه يرى فيها حبيبته إيزابيلا لجزءٍ من الثانية عبْر محيط الزمن.

- أهذا ما يُدرِّسونه الآن في كليّة الآداب؟ - سأل الدون أناكليتو.

رفعت صوفيا كتفيها وعادت إلى طوايا نسيانها.

- يا ربّاه، أيُّ حياةٍ تنتظرنا! - رجم الأستاذ بالغيب.

- لا تقلق يا دون أناكليتو. الحياة ستكون نفسها دومًا. - طمأنه السيّد سيمبيري - الحال أنّها لا تنتظر أحدًا وتمضي قُدُمًا ما إن تستطيع. ما رأيك بأن نشرب نخب الماضي، والمستقبل، ونخبنا نحن الذين بين فائتٍ وآت؟

رفع الصغير خوليان كأس الحليب بحماسة ليشارك النخب.

وفي الأثناء، كان دانيال قد حشر فيرمين في إحدى زوايا المطبخ، بعيدًا عن أعين الجلساء وأسماعهم.

- هل لي أن أعرف أيُّ حيوانٍ نطحك يا فيرمين؟ لا بد أنّه أكبر من بطيخة على الأقلّ.

- تلك المرأة ليست ما تقوله يا دانيال. قطٌّ تحوم حوله الشبهات.

- ومن هي إذن، إن كان لي أن أعرف؟

- لا أدري، لكنّي سأكتشف الخدعة التي تحبكها. إنّي أشمّها من هنا، مثل العطر الرخيص الذي وضعته مرثيديتاس لتقنع الساعاتيّ بأن يكفّ عن مثليّته.

- وكيف ستكتشفها؟

- بمساعدتك.

- لا تحدّثني بالأمر إطلاقًا. لا تقحمني في هذا.

- لا تغرينَّك عطور مصّاصة الدماء. إنّها ثعلبة ماكرة، بقدر ما أُدعى فيرمين.

- أذكرك بأنّ الثعلب ضيفة الشرف لعيد ميلاد والدي.

- آه، أما من أحد تساءل كيف وقعت هذه المصادفة المميّزة؟

- لا أدري. ولا يهمّني. فالمصادفات لا تُناقَش.

- هل يتحدث عقلُك الواعي أم غدّتك الجنسية؟

- يتحدّث الذوقُ العامّ، الذي حرموك منه يومَ انتزعوا إحساسك بالخجل.

ضحك فيرمين متهكّمًا.

- جديرٌ بالملاحظة أنّها احتالت على الوالد وابنه في الآن ذاته، بحضور زوجة الأخير بجسمها المزدهر.

- كفّ عن التفوه بالترّهات. سيسمعوننا.

- فليسمعوني. - هتف فيرمين بنبرة عالية - بقوّة ووضوح.

فيرمين، أتوسّل إليك. فلنحتفل بعيد ميلاد والدي بسلام.

زمّ فيرمين شفتيه وأهدابه.

- بشرط.

- موافق. ما هو؟

- أن تساعدني على كشف سرّها.

رفع دانيال عينيه إلى السماء وتنهّد.

- وما الذي تقترحه في سبيل ذلك؟ بنظم أبياتٍ إسكندريّةٍ أخرى؟

أخفض فيرمين صوته.

- لديّ خطّة...

وفى فيرمين بوعده، وتصرَّف بسلوك مثاليّ بقيّةَ العشاء. ضحك على نكات الدون أناكليتو، وعامل مرثيديتاس كما لو أنّها مدام كوري، ورمى أليثيا من حين لآخر بنظرات صبيّ الكنيسة. وعند النخب وتقطيع قالب الحلوى، سرد خطبة عاطفيّة كان قد حضَّرها مسبقًا احتفاءً بشخصيّة اليوم، وقد أثمرت بتصفيق وعناق حارّ لصاحب العلاقة.

- سيساعدني حفيدي على إطفاء الشموع، أليس كذلك يا خوليان؟ - قال بائع الكتب.

أطفأت بيا الأضواء، فأضيئت الوجوهُ عدّة لحظات بنور الشموع المترنّح.

- تمنَّ أمنية يا صديقي. - ذكّره الدون أناكليتو - حبّذا بأرملة مكتنزة ومتأجّجة.

سحبت برناردا كأس الأستاذ خلسةً وأبدلتها بكأس من المياه المعدنيّة، وقد نظرت إلى بيا فأومأت لها.

كانت أليثيا تتأمّل المشهد في نشوة ساحرة. تتظاهر بالصفاء الودود، لكنّ قلبها كان يخفق بشدّة. لم تحضر يومًا اجتماعًا كهذا. وكلّ حفلات الميلاد التي تذكرها قضتها مع لياندرو أو بمفردها. مختبئة في إحدى صالات السينما طبعًا، الصالة نفسها التي تنغلق فيها خلال رأس السنة لكي تلعن الهوس بقطع الفيلم وإضاءة الأنوار عشر دقائق عند منتصف الليل، ثمّ يُستَأنَف العرض، كما لو أنّه ليس من السخف أن يفعلوا شيئًا كهذا في صالة مقفرة، ليس فيها أكثر من ستّ أو سبع أرواحٍ وحدانيّة يقضون الليلة هناك، لا أحد ينتظرهم في أيّ مكان، ثمّ يذكّرونهم بمأساتهم جهارًا. لم تكن تعرف كيف تتفاعل مع ذلك الإحساس بالإخاء والحميميّة والمودّة، الذي تحيكه النكات والنقاشات. أمسك خوليان بيدها من تحت الطاولة وشدّ عليها بقوّة، كما لو أنّ طفلًا صغيرًا من بين جميع الحاضرين هناك وحدَه مَن فهم شعورها. ولو لم يكن من أجله، لكانت ستنفجر بالبكاء.

مع نهاية النخب الأخير، عندما قدَّمت برناردا الشاي والقهوة ووزّع الدون أناكليتو السيجار، نهضت أليثيا. فنظر إليها الجميع متفاجئين.

- أردت أن أشكركم على ترحابكم واستضافتكم. لاسيّما حضرتك، يا سيّد سيمبيري. كان والدي يُجلّكَ كثيرًا، وأعلم أنّه سيكون مسرورًا لو عرف أنّي شاركتكم هذه الأمسية الفريدة. ألف شكر.

نظروا إليها بما بدا لها شفقة، أو ربّما كانت ترى في عيون الآخرين ما يستعر في وجدانها. أعطت قبلة للصغير خوليان وسارت نحو الباب. فنهضت بيا عن الطاولة وتبعتها ومنديل الطعام ما زال في يدها.

- سأرافقكِ، أليثيا.

- لا، أرجوكِ. ابقي مع عائلتكِ.

وقبل أن تخرج، مرّت أمام الخزانة الزجاجيّة الصغيرة وألقت نظرة أخيرة على صورة إيزابيلا. تنفّست الصعداء واختفت نزولًا على السلالم. كانت تحتاج إلى الخروج من ذلك البيت قبل أن يأخذها الظنُّ بأنّه قد يصبح بيتها.

خلّفت مغادرة أليثيا موجة من الهمهمة بين الجلساء. وأجلس الجدّ سيمبيري حفيده في حضنه وتمعَّن فيه.

- هل وقعتَ في غرامها؟ - سأله.

- أعتقد أنّ الساعة قد حانت كي يخلد كازانوفا خاصّتنا إلى النوم. - قالت بيا.

- وقد أطبِّق النصيحة أنا أيضًا. - أضاف الدون أناكليتو وهو ينهض عن الطاولة - أكملوا احتفالكم أيّها الشبّان، فالحياة قصيرة...

وكاد دانيال يتنفّس الصعداء هو أيضًا فإذا بفيرمين يشدّ ذراعه وينهض.

- هيّا يا دانيال، نسينا أن نضع الصناديق في القبو.

- أيُّ صناديق؟

- تلك الصناديق.

فرّ الرجلان نحو الباب تحت أنظار بائع الكتب المتراوحة بين النعاس والدهشة.

- يتناقص فهمي لهذه العائلة يومًا بعد يوم. - قال.

- ظننت أنّني الوحيدة. - غمغمت صوفيا.

حين خرج من البوّابة، ألقى فيرمين نظرة إلى القناة الزرقاء التي تصنعها أعمدة الإنارة على امتداد شارع سانتا آنا، وأشار لدانيال بأن يتبعه.

- إلى أين نذهب في هذه الساعة؟

- لاصطياد مصّاصة الدماء.

- لا تحدّثني بالأمر إطلاقًا.

- هيّا، لا تتظاهر بأنّك مغفّل في حين تفلت تلك من بين أيدينا..

ودون أن ينتظر جوابًا، انطلق فيرمين مسرعًا نحو منعطف بات الملاك؛ حيث التجأ تحت شرفة دار خوربا ولمح السراب الليليّ المطوَّق بالسُّحُب المنخفضة التي تزحف بين السطوح. انضمّ دانيال إليه.

- ها هي هناك، مثل أفعى الجنّة.

- بحقِّ الربّ يا فيرمين، لا تُقحمني بهذا.

- اسمع، لقد كنتُ مهذّبًا. هل أنت رجلٌ صادق الوعد أم رعديد؟

لعن دانيال حظّه وانطلقا - حنينًا إلى سالف عهدهما بأداء دور المحقّق المتخفّي - لتعقُّب أثر أليثيا غريس.

(10)

تبعاها بمحاذاة جانب القناطر والأفاريز المؤدّي إلى شارع الكاتدرائيّة. هناك حيث انفتحت على ناظريهما الباحة الممتدّة أمام المعبد منذ أن سحقت الغاراتُ الجويّةُ الحيَّ القديمَ الذي كان يشغلها. وكان البلاط يتلألأ بسائل القمر، وطيفُ أليثيا يخلّف سرابًا من الظلّ في الهواء.

- هل انتبهتَ؟ - قال فيرمين بينما يراقبانها وهي تدلف شارع دي لا باخا.

- إلامَ؟

- إلى أنّهم يلاحقوننا؟

التفت دانيال وألقى نظرة على الظلمات الفضيّة التي تصبغ الطرقات.

- هناك، تحت قناطر محلّ الألعاب. هل تراه؟

- لا أرى شيئًا.

- جمرة سيجارة.

- فإذن؟

- يلاحقنا منذ أن خرجنا.

- ولماذا يجدر به أن يلاحقنا؟

- ربّما لا يلاحقنا نحن. ربّما يلاحقها هي.

- يبدو الأمرُ برمّته بلا معنى يا فيرمين.

- على العكس. يتّضح جليًّا أنّ الأمر بحاجة إلى الكثير من قولٍ وفعل.

تتبّعا أثر أليثيا على امتداد شارع. بانيوس بويبوس، الشبيه بوادٍ ضيّق وملتوٍ بين أبنية تبدو في عناقٍ سرابيّ.

- إلى أين ستذهب؟ - غمغم دانيال.

ولم يتأخّر الجواب. توقّفت أليثيا عند إحدى البوّابات في شارع أفنيون قبالة الغران كافيه. رأوها تدخل البناية. فتقدّما وبحثا عن ملاذٍ بعد بوّابتين.

- والآن؟

أجاب فيرمين بالإشارة إلى أقبية مانوال ألبارغاتيرا. فأدرك دانيال أنّ صديقه محقّ. كانوا يلاحقونهما أو يلاحقون أليثيا. ثمّة طيفٌ لرجلٍ هزيل، متدثّرًا بمعطف ومعتمرًا طاقيّة رخيصة، تحت أقواس مدخل محلّ الأحذية.

- يبدو صغير البنية على الأقلّ.

- وما شأن هذا؟

- إنها ميزةٌ في حال توجَّب عليك أن تتشاجر معه.

- ما أجمل ذلك! ولماذا يتعيَّن عليَّ أنا أن أتشاجر معه؟

- لأنّك أكثر منّي شبابًا، فالقوّة المفرطة هي المهمّة في العراك. ثمّ إنّي أتولّى الرؤية الاستراتيجيّة.

- ليس لديّ نيّة في العراك مع أحد.

- لا أفهم ما فائدة كلّ هذه التحفّظات يا دانيال. ففي الشتاء الماضي أظهرتَ حَمِيَّتَك القتاليّة عندما هشَّمتَ وجه المتملّق كاسكوس بوينديا في فندق الريتز. لا تظنَّنَّ أنّي نسيت.

- لم تكن أجمل لحظة عشتها. - أقرّ دانيال.

- لا تتأسَّف. أذكِّرك بأنّ ذلك القذر الرخيص كان يبعث رسائل غراميّة إلى زوجتك ليتقرَّب منها بناءً على أوامر من الحشرة ڤايس. أجل، أجل، الحشرة نفسه الذي تعقَّبتَ أثره في أرشيف المكتبة العامّة في الربيع الماضي، مع أنّك تظنّ أنّي لا أعرف.

طأطأ دانيال رأسه يائسًا.

- هل من أسرارٍ أخرى لا تعرفها؟

- ألم تتساءل لماذا لم يعد لڤايس أيُّ ظهور منذ أشهر؟

- أتساءل كلّ يوم. - اعترف دانيال.

- أو أين اختفت الغنيمة التي خبّأها سالغادو في محطة الشمال؟

أومأ دانيال.

- فمن يؤكّد لنا أنّ هذه الماكرة اللعينة لا تعمل لمصلحة ڤايس؟

أغمض دانيال عينيه.

- أفحمتني يا فيرمين. ماذا سنفعل؟

وصلتْ إلى باب البيت، فرأت خطًّا من الضوء تحت العتبة وشمَّتْ روائح سجائر بارغاس. دخلتْ دون أن تقول شيئًا وتركت حقيبتها ومعطفها على الطاولة في صالة الطعام. وكان بارغاس يدخِّن بصمت عند النافذة، موليًا ظهره إلى الباب. صبّت أليثيا كأسًا من النبيذ الأبيض وجلست على الأريكة. كان رجل الأمن في غيابها قد أخرج من تحت الأريكة علبةَ الوثائق المسلوبة من مخزن المحامي بريانس. فها هو دفتر إيزابيلا راقدٌ على الطاولة.

- أين كنتَ طوال اليوم؟ - سألته أليثيا أخيرًا.

- تجوّلتُ قليلًا. - قال بارغاس - في محاولة لتصفية ذهني.

- وهل نجحتَ؟

التفت ورماها بنظرة متشكِّكة.

- هل ستغفرين لي أنّي رويتُ كلّ شيء على مسمع لياندرو؟

شربت أليثيا رشفة من النبيذ ورفعت كتفيها.

- إن كنت تبحث عن كاهن اعتراف، فثمّة كنيسةٌ في الجوار على الطريق إلى لاس رامبلاس. أعتقد أنّهم يناوبون حتى منتصف الليل.

أخفض بارغاس أنظاره.

- إن كان هناك ما يعزّيكِ، فلقد تولَّدَ لديّ انطباعٌ بأنّ لياندرو كان على علمٍ مسبق بمعظم الأشياء التي رويتها عليه. كان بحاجة إلى تأكيد فقط.

- هذا يحدث دومًا مع لياندرو. - قالت - لا أحد يكشف له أيَّ شيء، إنّما يوضِّح له بعض التفاصيل.

تنهّد بارغاس قبل أن يتابع.

- لم يكن لديّ خيارات. كان يستشعر شيئًا ما. ولو لم أروِ له ما اكتشفناه، كان سيعرِّضك لمخاطر.

- لست مضطرًا للتبرير لي يا بارغاس. فما وقع قد وقع.

تكثَّف الصمت.

- وفرنانديتو؟ - سألته - ألم يعد؟

- ظننت أنه معكِ.

- هل هناك شيء آخر تخفيه عني يا بارغاس؟

- سانشيس...

- قل.

- لقد مات. سكتة قلبيّة ينما كانوا يسعفونه من المخفر إلى مستشفى كلينيكو. هذا ما قاله تقرير الطبيب الشرعيّ.

- أبناء العاهرة... - غمغمت أليثيا.

استرخى النقيب على الأريكة بجانبها. وتبادلا نظرة صامتة. ملأت كأسها ثانية وأعطتها له. فازدردها بارغاس برشفة واحدة.

- متى ستعود إلى مدريد؟

- أعطوني خمسة أيّام إجازة. - قال بارغاس - إضافةً إلى مكافأة من خمسة آلاف بيسيتا.

- هنيئًا. ربما يخطر على بالك أن نقوم برحلة إلى مونتسيرات.

فمن لا يرَ تمثال العذراء السمراء يجهل أيَّ فرصةٍ أضاع.

نظر إليها بحزن.

- قد لا تصدِّقينني، لكنّي سأفتقدكِ يا أليثيا.

- أصدِّقك بالتأكيد. ولكن لا تتوهَّمْ، فأنا لن أفتقدك.

ابتسم النقيب في سرّه.

- وأين كنتِ؟

- في زيارة إلى بيت سيمبيري.

- وكيف حدث ذلك؟

- حفلة عيد ميلاد. قصة طويلة.

هزّ رأسه، كما لو أنّ تلك الكلمات كانت تحمل معنى الحياة كلّها. أشارت أليثيا إلى دفتر إيزابيلا.

- هل قرأته بينما كنت تنتظرني؟

أكّد بارغاس برأسه.

- توفّيت إيزابيلا خيسبرت وهي على يقين بأنّ ڤايس اللعين قد سمَّمها. - قالت.

رفع يديه إلى وجهه وسرَّح شعره إلى الخلف. بدا أنّ كلَّ عامٍ من حياته يُثقِلُ على روحه.

- إنّني متعَب. - قال في النهاية - متعَبٌ من كلّ هذا الخراء.

- لِمَ لا تعود إلى الديار؟ - سألته - امنحها هذه السعادة. تقاعدْ وامضِ إلى بيتك الصغير في طليطلة لقراءة لوبي دي بيغا. ألم تكن هذه خطّتك؟

- وأفعل مثلكِ؟ أعيش من الأدب؟

- نصف البلد يعيش من الحكايات. لن ينهار بسبب شخصين.

- كيف هم عائلة سيمبيرى؟

- أناسٌ طيّبون.

- حقًّا. وأنتِ لستِ معتادة على ذلك، صحيح؟

-لا.

- كان يحدث لي الأمر ذاته أنا أيضًا. لا عليكِ، أزمةٌ وتمرّ. ماذا ستفعلين بدفتر إيزابيلا؟ هل ستعطينه لهم؟

- لا أدري. - أقرَّت أليثيا - ماذا ستفعل لو كنتَ مكاني؟

قيَّمَ بارغاس المسألة.

- أحرقه. - أوجز - الحال أنّه يؤذي الجميع. ويعرِّضهم للأهوال.

أومأت أليثيا.

- إلّا إذا...

- فكّري في الأمر جيّدًا قبل ذلك يا أليثيا.

- أعتقد أنّني فكّرتُ مسبقًا.

- ظننت أنّنا سننسى كلّ شيء ونكون سعيدَين. - قال.

- أنت وأنا لن نكون سعيدَين أبدًا، يا بارغاس.

- حسنًا، كيف أرفض إن كنتِ ترينها هكذا؟

- لست مضطرًا لمساعدتي رغمًا عنك. إنها مشكلتي.

ابتسم لها بارغاس.

- أنتِ مشكلتي، يا أليثيا. أو منقذتي، مع أنّ الفكرة قد لا تروقكِ.

- لم أنقذ أحدًا في حياتي.

- لا يفوت الأوان أبدًا للتجربة الأولى.

نهض وأخذ معطفها وأعطاه لها.

- ما رأيكِ؟ هل ندمِّر حياتنا إلى الأبد أم تفضِّلين قضاء العمر لتكتشفي في النهاية أنّكِ لستِ موهوبة من أجل الأدب، وأكتشف بدوري أنْ لا جدوى من قراءة لوبي دي بيغا إلّا على المسرح؟

ارتدت أليثيا المعطف.

- من أين تودّين البدء؟ - سألها.

- من مدخل المتاهة...

كان دانيال يموت من البرد في مخبئه خلف البوّابة، في حين انتبه أنّ فيرمين - الهيكل العظميّ الجبليّ الهزيل كالعصا والكائن الغضروفيّ الُمقطَّر - يبدو في منتهى السعادة مستمتعًا بدمدمة الأغاني الكوبيّة سون مونتونو ويُرقِّصُ خاصرتيه على الطريقة الاستوائيّة.

- لا أفهم كيف لا تتجمَّد يا فيرمين. البرد قارس.

فكّ فيرمين زرّين ليُظهِر بطانة أوراق الجرائد التي يضعها دومًا تحت ثيابه.

- علمٌ تطبيقيّ. - فسَّر - أدفِّئ نفسي بهذه البطانة وببعض الذكريات التي اخترتها بعناية من الحسناء التي عاشرتها في الهافانا أيّامَ شبابي. المعروفة مثل تيّار الخليج.

- يا أمَّ الربّ!...

فكَّر دانيال في المجازفة نحو أبواب الغران كافيه ليطلب فنجانًا من الكافيلاتي الساخن والمعدَّل بالقليل من الكونياك، فإذا به يسمع قعقعةً آتية من بوّابة بناية أليثيا. رأوها تخرج صحبة رجل

مكتنز يشبه الجنود المخيِّمين.

- انظر أيَّ طرزانٍ تزور هذه الماكرة. - قال فيرمين.

- كف عن تسميتها هكذا. اسمها أليثيا.

- سنرى إن كنتَ ستتجاوز مرحلة البلوغ في أحد هذه الأيّام – فأنت ربّ أسرة أساسًا.

- وماذا سنفعل بذاك الرجل؟

- الجاسوس؟ لا تقلق. إنّي أحضِّر خطّة محكمة في هذه اللحظة الراهنة...

انعطفت أليثيا والرجل الضخم، الواضح أنّه عنصر من قوى من، من شارع فرناندو باتجاه لاس رامبلاس. أمّا فيرمين ودانيال، بحسب الخطّة، مرّا بجانب الجاسوس، المدفون في ظلام زاوية، متظاهرين بأنّهما لم ينتبها إلى وجوده. وكان الشارع في تلك الساعة أكثر حيويّة من المعتاد، بفضل وصول بحّارةٍ بريطانيّين يبحثون عن تبادل ثقافيّ وعن بعض الصعاليك النازلين من الأحياء المرتفعة إلى قلب المدينة بحثًا عن الحشائش التي تجعلهم يهضمون رغباتهم الجنسيّة التي لا يمكن الاعتراف بها. تخفَّى فيرمين ودانيال بجموع المارّة إلى أن بلغا الأقواس المؤديّة إلى الساحة الملكيّة.

- دانيال، لقد تعارفنا هنا، هل تذكر؟ السنوات تمضي، لكنّ رائحة البول ما تزال تنبعث. إنّها برشلونة الخالدة، الأبديّة التي لا تختفي...

- لاتصبح رومانسيًّا الآن.

كان رجل الأمن وأليثيا يجتازان الساحة باتجاه المخرج إلى لاس رامبلاس.

- سيستقلّان سيّارة أجرة. - استنتج فيرمين - حان وقت تخفيف الحقيبة.

التفّا وانتبها أنّ الجاسوس كان واقفًا عند أقواس الساحة.

- وماذا تقترح؟ - سأل دانيال.

- بإمكانك أن تذهب إليه وتضربه بركبتك على منطقته الحسّاسة.

إنّه صغير البنية ولن يحاول الصمود في وجهك.

- هل من خطة بديلة؟

تنهّد فيرمين يائسًا. ولاحظ حينذاك وجود حارسٍ يخفر الساحة متكاسلًا، سارحًا يتأمّل سخاء فتحات الفساتين لنسوةٍ متمركزات عند مدخل نُزُلِ أمبوس موندوس.

- تأكّدْ من أنّ الملاك البريء والعملاق لن يضيعا من مجال بصرك. - أمره.

- وماذا ستفعل أنت؟

- انظر وتعلَّمْ من المعلِّم.

انطلق فيرمين مسرعًا نحو الحارس، وحيّاه بتحيّة عسكريّة وحفاوة لائقة.

- أيّها القائد. - قال له - إنّي مضطرٌ لأداء واجبي المقدّس في التبليغ عن جريمةٍ بحقّ الحشمة والأخلاق.

- أيّ جريمة؟

- هل ترى سموُّكَ ذلك الفاسق الهزيل الغامض المضطرب الذي يرتدي معطفًا جاء به من تصفيات المتاجر الكبرى؟ هناك، يتظاهر بأنّ الأمر لا يعنيه.

- ذاك الصغير؟

- ليس بصغير. يؤلمني إبلاغكم بأنّه تحت المعطف عارٍ مثلما ولدته أمّه وقد أظهر عصفوره على سيّدات، متفوّهًا بعبارات مشينة لا أجرؤ على ترديدها حتّى أمام صفٍّ من العاهرات.

أحكم الحارس قبضته على الهراوة.

- ماذا تقول يا رجل؟

- ما سمعتَ يا سيّدي. ها هو هناك، مثل خنزيرٍ يبحث عن فرص أخرى لعرض مفاسده.

- سيحصل على ما يستحقّه إذن.

أخرج الحارس الصفّارة وصوّب الهراوة نحو المشتبه به.

- أنت، هناك! قف!

انتبه الجاسوس أنّ الخناق يضيق عليه، فهمَّ بالركض والحارسُ وراءه. ابتهج فيرمين بحيلة التمويه، تاركًا المسؤول عن الأمن والذوق العامّ يطارد الفضوليّ النبيل، وسارع للعودة إلى دانيال الذي كان بانتظاره عند موقف التاكسي.

- أين هما؟

- ركبا سيّارة أجرة للتوّ. ها هما هناك.

دفع فيرمين بدانيال إلى السيّارة التالية. فنظر إليهما السائق بالمرآة، وكان فنّانًا في بهلوانيّات عود الأسنان.

- إلى بويبلو نويبو لا أذهب.

- ليس لديك فكرة. هل ترى سيّارة الأجرة تلك؟

- سيّارة ثيبريانو؟

- تلك بالتحديد. الحقْ بها ولا تضيّعها. مسألة حياة أو موت، وإكراميّة معتبرة.

شغَّلَ السائقُ العدّادَ وابتسم بسخرية.

- كنت أظنّ أنّ هذه الأمور لا تحدث إلا في الأفلام الأمريكيّة.

- دعواتك مستجابة. التصق بتلك السيّارة، ولكن بحذر.

(11)

عشرون دقيقة للوصول إلى المخفر، أحسَّ بها عشرين عامًا. كان فرنانديتو في المقعد الخلفيّ، بجوار إندايا الذي يدخّن بصمت، ويتوجّه إليه من حين إلى حين بابتسامة ودودة ومقولة «لا تقلق، اهدأ» التي كانت تجمِّد الدماء في عروقه. وكان على المقعدين الأماميّين عنصران من رجال إندايا. لم يفتح أيٌّ منهما فمه طوال الرحلة. كانت ليلة باردة، وعلى الرغم من الصقيع الذي يجتاح حُجرة السيّارة، شعر فرنانديتو بالعرق يسيل على ضلعه. كان ينظر إلى جريان المدينة من خلف النافذة لكأنَّها سرابٌ بعيد لم يكن ليعود إليه أبدًا. وكانت السيّارة تتقاطع بالمارّة والمراكب الأخرى على بعد أمتار، ولا يسبقها أحد. وعندما وصلوا إلى المنعطف بين شارع بالميس والغْران ڤيا، أغوته فكرة فتح الباب والفرار بجلده، بانتهاز التوقّف على الإشارة الحمراء، لكنّ جسده لم يطاوعه. وبعد بضع ثوان، وبينما كانت السيّارة تستأنف سيرها، انتبه أنّ الأبواب مقفلة بمنظومة أمان. ربّت إندايا على ركبته بمودّة.

- اهدأ يا ألبرتو، سيستغرق الأمر دقيقة واحدة.

وحين توقّفت السيّارة عند أبواب المخفر، اقترب عميلان يرتديان بزّة موحّدة كانا يراقبان المدخل. فتحا الباب لإندايا، وأنصتا إلى همسه بالتعليمات، فأمسكا بفرنانديتو كلٌّ من ذراع وجرّاه إلى الداخل. وكان العميل الراكب بجانب السائق، الذي لم ينزل، كان ينظر إلى فرنانديتو ويقول شيئًا لزميله على الدقّة ويبتسم.

لم يدخل إلى المخفر المركزيّ في شارع لايتانا من قبل إطلاقًا. كان فرنانديتو واحدًا من برشلونيّين كثر إذا وجدوا أنفسهم بالصدفة في ذلك الحيّ وتوجَّبَ عليهم المرور بجانب المبنى المشؤوم، غيّروا الرصيف وأسرعوا الخطى. بدا له المبنى من الداخل مثلما تخيَّله على الدوام قاتمًا وغائرًا. وما إن اختفت أضواء الشارع خلف ظهره، حتى وصلته رائحة نشادر غريبة. كان العميلان يسحبانه من ذراعيه، فشعر أنّ قدميه تستجيبان لمزيجٍ من السحل والخطوة المتثاقلة. تضاعفت الدهاليز والممرّات، وخُيِّلَ إلى الفتى أنّ وحشًا كاسرًا يلتهم أمعاءه. حامت في الفراغ أصداء أصوات وخطوات، وتخلّلَتِ الظلمةُ الرماديّة والباردة كلّ شيء. نظراتٌ خاطفة تحطّ عليه للحظة وسرعان ما تنزاح عنه بغير اهتمام. جرّاه عبْر سُلَّمٍ لم يفهم فرنانديتو إن كان صاعدًا أم هابطًا. المصابيح المتدليّة من السّقف تومض بين الفينة والأخرى، كما لو أنّها تتغذّى بالكهرباء من خلال قطَّارة. تجاوز بابًا استطاع أن يقرأ عليه عبارة «فرقة التحقيق المدنيّ» منقوشة على الزجاج المصقول.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ - تلعثم قائلًا.

تجاهل العميلان سؤاله كما تجاهل زميلهما وجوده طوال الرحلة، كأنّهما ينقلان صُرّة. اقتاداه عبْر قاعة معتمة مليئة بالمناضد الحديديّة التي لا تهيمن عليها سوى مصابيح مكتبيّة تبسط بقعة ضوء مُصفَرّ.

وفي آخر القاعة مكتبٌ، جدرانُه من زجاج. وفي داخله طاولة خشبيّة فاخرة وإليها كرسيّان. فتح أحد العميلين الباب وأشار له بالدخول.

- اجلس هناك. - قال له دون أن ينظر إلى عينيه - والزم الهدوء.

تقدَّم فرنانديتو بضع خطوات. وانغلق الباب خلف ظهره. جلس على أحد الكرسيّين بهدوء وشهق عميقًا. التفت برأسه ورأى أنّ العميلين جالسان إلى إحدى مناضد القاعة. قدَّم أحدهما سيجارة إلى الآخر. وكانا يبتسمان. «لحسن حظّك أنّك لست في زنزانة» - قال لنفسه.

قضى ساعة بأكملها، ولم تتح له الشجاعة خلالها إلّا إلى التنقُّل من كرسيٍّ إلى آخر، وذلك بعد أربعين دقيقة من اليأس. لم يعد قادرًا على الجلوس على أيٍّ من الكرسيّين اللذين يضيقان به مع كلّ دقيقه تمضي، فنهض وتسلَّحَ بشيءٍ لا يصل إلى مستوى الشجاعة بل كان أقرب إلى القلق، وحضَّرَ نفسه للطرق على الزجاج كي يفسِّر براءته بأعلى صوت، وأنّ الظروف الغامضة هي التي جاءت به إلى هناك، وكي يطالب العميلين اللذين يراقبانه بالسماح له بالخروج. فإذا ببابٍ من خلف ظهره ينفتح ليطلّ طيف إندايا في انعكاس الضوء.

- اعذرني على التأخير يا ألبرتو. استوقفتني مشكلة إداريّة بسيطة. هل قدّموا لك القهوة؟

لو كان فرنانديتو قادرًا على مضغ ريقه لفعلها منذ حين، لكنّ فمه كان بجفاف الرمل. جلس دون انتظار أوامر.

- لماذا أنا هنا؟ - سأل - لم أفعل شيئًا.

ابتسم إندايا بهدوءٍ يوحي أنّ اضطراب الفتى يولِّد في نفسه بعض الحنان.

- لم يقل أحد إنّك فعلتَ شيئًا يا ألبرتو. ألا تريد قهوة؟ أتحدّث جدّيًا.

- ما أريده هو السماح لي بالذهاب إلى البيت.

- طبعًا. حالًا.

أمسك إندايا بالهاتف الذي على الطاولة وقرَّبه منه. رفع السمّاعة وأعطاها له.

- هاك يا ألبرتو، اتّصل بوالدك ليأتيك ببطاقتك الشخصيّة ويرجع بك إلى البيت. فلا بدّ أن عائلتك قلقة عليك الآن.

(12)

تاجٌ من سُحُبٍ عابرة ينزلق على سفح الجبل. كشفت أضواء التاكسي أطياف قصورٍ راقية تنتأ ما بين الأشجار على جانبي الطريق الصاعدة نحو بايبذريرا.

- لا يمكنني التوغُّل أكثر في شارع دي لاس أغواس. - نبّههما السائق - فمنذ العام الماضي لا يسمحون بالدخول إلا لسكّان المنطقة ومراكب البلديّة. فما إن يدخل أحدنا ببوز السيّارة حتى يخرج عليه حارسٌ مختبئ خلف الأحراش، يحمل سجلّ المخالفات، مستعدًّا لإعطائك الوصفة. لكنّي أستطيع أن أنزِّلكما عند مدخل الـ...

أظهر بارغاس على ناظريه ورقة نقديّة بقيمة خمسين بيسيتا. فحطّت عليها عينا السائق مثل ذبابٍ على عسل.

- سيّدي، ليس لديّ المرتجع...

- إن انتظرتنا، فما من حاجة إلى المرتجع. ولتذهب البلديّة إلى الجحيم.

تأفّف السائق، لكنّه انصاع إلى منطق المال.

- قل آمين.

وعندما وصل إلى مدخل الطريق، سار ببطء على جزء غير ممهَّد يحاذي مدرج الجبال المحيطة ببرشلونة.

- هل أنتما متأكدان من أنّ البيت هنا؟

- تقدَّم إلى الأمام.

كان بيت ماتايكس القديم موجودًا على بعد ثلاثمئة متر تقريبًا عن مدخل الطريق. وبعد قليل، لامست أضواء السيّارة أحد طرفي الطريق ليظهر حاجزٌ محميٌّ بحرابٍ حديديّة. وخلفه يتراءى جانبٌ مسنّنٌ من الأفاريز والأبراج المتصاعدة من حطام حديقة متروكة لمصيرها منذ زمنٍ طويل.

- هنا. - قالت أليثيا.

ألقى السائق نظرة مستعجلة ثمّ نظر إليهما بالمرآة بحماسة خامدة.

- سيّدي، أعتقد أنّه ما من أحد يسكن هنا.

تجاهلت أليثيا كلامه ونزلت من السيّارة.

- أليس لديك مشعل؟ - سأله بارغاس.

- لا يستطيع العدّاد أن يتضمّن أجرة الخدمات الإضافية. أما زلنا نتحدّث عن خمسين بيسيتا؟

أخرج بارغاس عملة نقديّة أخرى وأظهرها له.

- ما اسمك؟ - سأله.

كان لمفعول النقود المخدّر من شأنه أن يُنقِّي نظرات السائق.

- ثيبريانو ريدرويخو كابيثاس، بخدمتك وخدمة نقابة السائقين العموميّين.

- ثيبريانو، هذه ليلة سعدك. هلّا أعطيت المشعل للآنسة، لئلا تتعثّر وتلوي كاحلها؟

انحنى السائق لينبش في صندوق الأغراض الفارغ وظهر ثانيةً بمشعلٍ ذي مقبض عالي الجودة. أخذه بارغاس ونزل من السيّارة، ليس قبل أن يقسم العملة نصفين ويسلِّم أحدهما للسائق.

- النصف الثاني عندما نعود.

تنهد ثيبريانو، متفحِّصًا نصف العملة كأنّه بصدد ورقة يانصيب فاقدة الصلاحيّة.

- هذا إذا عدتما... - غمغم.

كانت أليثيا قد توغّلت عبر الفتحة الضيّقة في الحاجز. وترنَّحَ طيفُها بين الأعشاب تحت درب القمر. أمّا بارغاس الذي كان أضخم منها مرّتين أو ثلاث، فتوجَّبَ عليه أن يملص من بين القضبان الصدئة لكي يتبعها. وفي الطرف الآخر من الحاجز، ينفتح دربٌ مبلَّطٌ يحاذي البيت حتى المدخل الرئيس القائم في الجانب الأماميّ. البلاط تحت قدمَيه معشَّقٌ بالورقات اليابسة. تبع بارغاس خطوات أليثيا عبر الحديقة إلى أن بلغ سياجًا معلّقًا على حافة المنحنى، يشرف على برشلونة بأكملها. وبعدها البحرُ المشتعل بضوء القمر على شكل طاولةٍ فضّيّه متأجّجة.

تأمّلت أليثيا واجهة الفيلا. فتشكَّلت على مرآها كلُّ الصور التي تخيَّلتها حين إصغائها إلى قصة بيلاخوانا. تخيَّلت البيت في أيّام عزّه، والشمس التي تلامس أحجار الجدار المغبرّة وتلثم حوض النافورة، التي كانت آنذاك جافّة ومتصدِّعة. لقد استحال بيت ماتايكس مدفنًا مهجورًا، تلهو الرياحُ بمصاريع نوافذه.

- صندوقٌ من أجود أنواع النبيذ الأبيض إذا أجَّلنا كلّ شيء إلى الغد وعدنا إلى هنا في وضح النهار. - اقترح بارغاس - صندوقان، إذا ألححتِ.

انتزعت المشعل من يده وتقدّمت نحو المدخل. الباب مفتوح. رفات قفل صدئ ترقد على العتبة. صوّبت أليثيا حزمة الضوء إلى قطع المعدن وقرفصت لمعاينتها. أمسكت بإحداها فبدت أنّها تشكِّل جزءًا من القفل الرئيسيّ ونظرت إليها عن كثب. فرأت أنّ المعدن متفجِّرٌ من الداخل.

- طلقة في المكبس. - أوضح بارغاس من خلفها - لصوصٌ من عيار ثقيل.

أسقطت أليثيا القطعة على الأرض ونهضت.

- هل تشمّين الرائحة التي أشمّها؟ - سألها.

فاكتفت بالإيماء. وولجت إلى البهو وتوقّفت عند أعتاب سلّم من رخامٍ أبيض يصعد في الظلمات. لامست حزمةُ الضوء العتمةَ التي تتكثّف على الأدراج. هيكلُ نجفة بلوريّة يتمايل من على السقف.

- لا أثق بهذه السلالم. - حذّر بارغاس.

صعدا ببطء، عتبة تلو أخرى. كان شعاع المشعل يمزّق الظلال على بُعد أربعة أو خمسة أمتار أمامهما قبل أن يتبدّد في هالةٍ صافية تغوص في عمق الظلام. الرائحة التي ترامت إليهما حين الدخول ما تزال هناك، وكلّما صعدا السلالم لسعت نسمةٌ باردة ورطبة وجهيهما وكأنّها آتية من الطابق الأعلى.

وصلا إلى مستراح الطابق الأوّل، فوجدا فسحةً ينطلق منها ممرٌّ واسع، محاطٌ بصفٍّ من النوافذ الداخليّة التي يتسرّب منها ضياء القمر. معظم الأبواب مخلوعة، والغرف خالية من الستائر والأثاث. مشيا في الممرّ باستقصاء تلك المجالات الميّتة. تغطّي البلاطَ قشرةُ غبار، مثل بساطٍ من رمادٍ يخشخش على وطأة أقدامهما. سلّطت أليثيا المشعل على آثار أقدام تتبدّد في الظلّ.

- جديدة. - غمغمت.

- من الوارد أنّ صعلوكًا، أو مخرِّبًا، تسلّل إلى البيت لعلّه يعثر على ما يسرقه. - قال بارغاس.

لم تعر أليثيا اهتمامًا لكلامه واتّبعت البصمات. فلفَّت بهما الطابق كلّه حتى أوصلتهما إلى الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة للفيلا. آثار الأقدام تختفي هناك. توقّفت أليثيا عند عتبة ما يجدر أن تكون الغرفة الرئيسيّة، غرفة نوم الزوجين ماتايكس. لا وجود لأيّ قطعة أثاث تقريبًا، فلقد سرق اللصوص حتّى ورق الجدران. السطح موشكٌ على التهدُّم، وجزءٌ كبير من السقف المقولب يرسم ما يشبه الكير المنبسط الذي يخطّط منظرًا زائفًا ويوهم بأنّ الغرفة أعمق ممّا هي عليه في الواقع. ففي آخرها يتبدّى الثقب الأسود للخزانة التي اختبأت بها زوجة ماتايكس لتحمي ابنتيها بلا جدوى. راود الغثيانُ أليثيا.

- لم يبقَ أيّ شيء هنا. - قال بارغاس.

سارت أليثيا عائدة باتجاه الفسحة عند السلالم. ولاحظت أنّ الرائحة الكريهة التي شمَّتها عند المدخل تتضّح أكثر هناك، لتصبح مثل نكهة عفنة تتصاعد من أحشاء البيت. اتجهت نحو المخرج فإذا بها تستشعر حركةً على يمينها فتوقّفت. اقتربت من عتبة الصالون ذي النوافذ الضخمة. هناك جزء من ألواح خشب الأرضيّة مخلوع، وثمّة بقايا نارٍ موقدة كيفما اتّفق تكشف عن قطعٍ متفحّمة من الكراسي وأضلاع الكتب المُسوَّدة.

في عمق الصالون تتراءى طاولة خشبيّة وخلفها تنفتح هاويةٌ ظلماء. وقف بارغاس بجوارها وأخرج المسدّس. اقتربا بخطوات في منتهى البطء، كلٌّ منهما من جانب. وحين وصلا إلى الحائط، فتح النقيب بابًا صغيرًا محفورًا في ألواح الجدار، وهزّ رأسه. سلّطت أليثيا حزمة الضوء نحو الداخل. سُلَّمٌ طويل ينزل نحو سراديب البيت. شعرت الفتاة بتيّار هواء آتٍ من الباطن، مشبعٍ برائحة الجيف. سدّت أنفها بيدها. فهزّ بارغاس رأسه ثانيةً وبادر بالنزول. فتبعته أليثيا ونزلا ببطء، يتحسّسان الجدران ويتفحّصان كلّ عتبة لئلا يُقدِما على خطوة خاطئة فيتدحرجا إلى العدم.

عندما وصلا إلى أسفل السلّم، وجدا ما بدا لهما للوهلة الأولى قبّة كبيرة تشغل كلّ قاعدة المكان. يحاذيها صفٌّ من النوافذ الأفقيّة الضخمة التي تتسرّب منها إبر الضوء الواهن لتبقى معلّقة في عفونة بخاريّة تتصاعد من الأرض. أرادت أليثيا التقدُّم فأوقفها بارغاس. وحينذاك أدركت أنّ ما حسِبَتْه أرضًا من قرميد كان ماءً في الواقع. هذا هو المسبح التحتانيّ الذي صُمِّمَ بناء على رغبة

«الهنديّ»، وقد فقد لونه الأخضر الزمرّدي وبات آنذاك مرآة سوداء. اقتربا من الحافة فسبرت أليثيا السطح بضوء المشعل. شباكٌ من حشائش مخضوضرة تتمايل تحت الماء. الرائحة الكريهة آتية من هناك. أشارت أليثيا إلى قاع المسبح.

- ثمّة شيء ما في أسفل. - قالت.

قرَّبت المشعل من السطح، فاكتسبت المياه بريقًا شبحيًا.

- هل تراه؟ - سألت.

ثمّة كتلة سوداء تتماوج في العمق، وتجرجر نفسها ببطء شديد. نظر بارغاس حوله فحدَّد عصا مذراة أو مكنسة لتنظيف المسبح. كانت أليافها منزوعة منذ أعوام طويلة، لكنّ عارضتها الحديديّة التي تحملها ما تزال في مكانها. أنزل بارغاس العصا في الماء وحاول بلوغ الكتلة السوداء. وعندما لامسها، دارت حول نفسها وتفتَّحت رويدًا رويدًا.

- حذار. - قال بارغاس.

شعر أنّ العارضة الحديديّة تلامس شيئًا متينًا، فشدّ عليها بقوّة. فبادر الظلُّ إلى الصعود من القاع. تراجعت أليثيا خطوتين. وقد أدرك بارغاس ماهيّة الشيء قبلها.

- تنحَّي. - غمغم.

أوّل شيء عرفته أليثيا هو الملبس، لأنّها كانت قد رافقته إلى ورشة خياطة في الغران ڤيا يومَ اشتراه. وجهه الذي لامس القاع كان أبيض مثل الجصّ، وعيناه تبدوان بيضتين من رخام مصقول، تتخلّلهما خطوط داكنة بشبكة شعيرات حول الحدقتين. الندبة على خدّه التي كانت قد خلَّفتها أليثيا بنفسها، أصبحت أثرًا بنفسجيًا مدموغًا بالنار. ورأسه محنيٌّ إلى جانبه، ليُظهِرَ الشقَّ العميق الذي جزَّ عنقه.

أغمضت أليثيا عينيها وشهقت رغمًا عنها. وأحسَّت بيد بارغاس على كتفها.

- إنّه لومانا. - استطاعت أن تقول.

وعندما فتحت عينيها كانت الجثّة تغرق، ثمّ ظلّت تتأرجح تحت الماء وتدور حول نفسها بذراعين مبسوطتين كالصليب. التفتت أليثيا نحو بارغاس الذي كان ينظر إليها متأسِّفًا.

- قال لي بيلاخوانا إنّه أرسله إلى هنا. - قالت أليثيا - لا بدّ أنّ أحدهم كان يلاحقه.

- أو لعلّه جابه ما لم يكن يتوقّعه.

- لا يمكننا أن نتركه هنا. هكذا.

هزّ بارغاس رأسه.

- سأتولّى المهمّة بنفسي. فلنذهب من هنا الآن.

أمسك بذراعها واقتادها برفق نحو السلالم.

- أليثيا، هذا الجسد موجود هنا منذ ما لا يقلّ عن أسبوعين أو ثلاثة. من قبل أن تأتي إلى برشلونة.

أغمضت عينيها وأومأت.

- هذا يعني أنّ الرجل الذي دخل بيتكِ وسرق منكِ الكتاب ليس لومانا.

- أعرف.

كانا يستعدّان للصعود فإذا ببارغاس يتسمّر في مكانه ويوقفها. ثمّة صوتُ لخطواتٍ تخشخش على أرضيّة الطابق الفوقيّ، وقد ترجرج صداه في قبّة المسبح. كان النقيب يصغي وقد جمدت ملامح وجهه.

- أكثر من شخص. - قال بصوت منخفض.

بدا لوهلةٍ أنّ الخطوات توقّفت ثمّ ابتعدت. أرادت أليثيا أن تطلّ على السلالم حينما تناهى إليها صوتُ ما في الأعلى. أحسّا بالسلالم تتهزهز بصدى صوتٍ ما، فتبادلا نظرة. أطفأت أليثيا المشعل، وتموضع كلٌّ منهما على جانبي الباب وتواريا في الظلّ. صوَّب بارغاس قصبة المسدّس نحو مرتقي السلالم وهيّأ القادح. اقتربت الخطوات. ثمّ أطلّ طيفُ بوجهه عند العتبة. وقبل أن يُقدِم على أيّ خطوة، زرع بارغاس فوّهة السلاح في صدغ ذلك المجهول، متأهّبًا لتهشيم رأسه.

(13)

لم ينجح فيرمين يومًا في الاعتياد على ملمس قصبة السلاح الناريّ على جلده، على الرغم من أنّه جرَّبها في مناسبات مختلفة. وقد شبَّهَ الملمسَ مرارًا بكعكة الفواكه ما قبل التغليف.

- فليكن واضحًا أنّنا جئنا لإحلال السلام. - استطاع أن يقول، مغمض العينين ورافع اليدين بما يدلّ على استسلام غير مشروط.

- فيرمين، أهذا أنت؟ - سألته أليثيا مذهولة.

وقبل أن يردّ بكلمة، أطلّ دانيال على العتبة وظلّ متحجِّرًا حينما رأى السلاح الذي ما زال بارغاس يصوِّبه على صديقه. تأفّف النقيب وأخفض مسدّسه فتنفَّسَ فيرمين الصعداء مهمومًا.

- هل يمكننا أن نعرف ما الذي تفعلانه هنا؟ - سألت أليثيا.

- انظر، انظر... قرأتْ أفكاري. - أجاب فيرمين.

واجهت أليثيا نظرات دانيال وفير مين الاتّهاميّة ودرست خياراتها.

- قلت لك يا دانيال. - أفرغ فيرمين همّه - انظر إليها وهي تحيك الشرور مثل اللاميا[6] الغدّارة.

- اللاميا؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ - سأل بارغاس.

- عدم المؤاخذة أيّها المدفعجيّ، لكنك لو استخدمتَ القاموس أكثر من المسدّس، لما اضطررتَ إلى طرح السؤال. - ردّ فيرمين.

تقدَّم النقيب خطوة فتراجع فيرمين خمسًا إلى الوراء. فإذا بأليثيا ترفع يديها بإشارة إلى هدنة.

- أعتقد أنّكِ مطالَبةُ لنا بتوضيح يا أليثيا. - قال دانيال.

حدَّقت في عينيه وهزّت رأسها لتشرق بنظرةٍ رقيقة قادرة على مسح أيّ شبهة عن العالم كله. نكز فيرمين دانيال بمرفقه.

- دانيال، حافظ على دورتك الدمويّة فوق عنقك، ولا تتركها تخدعك.

- لا أحد ينوي خداع أحد هنا يا فيرمين. - قالت أليثيا.

- قولي ذلك للجثّة العائمة. - غمغم فيرمين مشيرًا إلى مياه المسبح العكرة - هل هو أحد معارفكِ؟

- لكلّ هذا تفسير... - بادرت أليثيا.

- أليثيا... - حذّرها بارغاس.

لوَّحت يداها بالمصالحة واقتربت من فيرمين ودانيال.

- ولكن لسوء الحظّ، التفسير ليس بسيطًا.

- أعطِينا فرصة. فنحن لسنا غبيَّين إلى الدرجة التي نبدو عليها، الداعي على الأقلّ، لأنّ صديقي دانيال الحاضر هنا ما زال يكافح لتخطّي زهرة العمر.

- دعها تتكلم يا فيرمين. - قاطعه دانيال.

- لقد رأيتُ ألسنةً أقلّ تسميمًا في أفواه الأفاعي المحبوسة في حديقة الحيوانات.

- لِمَ لا نخرج من هنا أوّلًا ونذهب إلى مكانٍ يمكننا التحدّث فيه بهدوء؟ - اقترحت أليثيا.

هزّ بارغاس رأسه وأشار بوضوحٍ إلى عدم تقبُّله الاقتراح.

وكيف نتأكد من أنّه ليس فخًّا؟ - سألها فيرمين.

- لأنّ المكان ستختارانه أنتما. - أجابت أليثيا.

نظر كلٌّ من دانيال وفيرمين إلى وجه الآخر.

اجتازوا الحديقة عائدين إلى التاكسي حيث كان ثيبريانو غارقًا في سحابة دخان سجائر الثيلتاس ونقاشٍ إذاعيّ في منتهى العمق يتطرّق إلى المسائل المفتاحيّة التي تهمّ المواطنين حقًّا: بطولة دوريّ كرة القدم، ومآل إصابة كوبالا بإبهام قدمه اليسرى بالنظر إلى مباراة مدريد -برشلونة الأحد المقبل. جلس بارغاس في المقعد الأماميّ نظرًا إلى سطوة حجمه، بينما تراصّ الآخرون في الخلف كيفما استطاعوا.

- ألم تكونوا شخصين فقط؟ - قال السائقُ، متسائلًا ما إذا كان قد بالغ بتدخين السجائر.

فأجاب بارغاس بخوار. وغاصت أليثيا في ألغازها، فتوقَّع فيرمين أنها تحاول صوغ خرافةٍ مضاعفة لإبهاره بها. وبدا صديقه دانيال مشوّشًا من ملامسته الفخذ الأيمن للأنثى الداهية، فما عاد قادرًا على تشكيل أيّ فكرة أو كلمة. وبما أنّ فيرمين كان الوحيد الذي استطاع الحفاظ على إمكانيّاته وقدراته على التمييز، استلم زمام المبادرة وأملي على السائق أوامر الوجهة.

- اسمع يا معلّم، خذنا من فضلك إلى الرافال عند مدخل خان لويس.

استعاد فيرمين - بمجرّد أن ذكر مطعمه المفضّل في العالم المعروف بأسره، وملاذه الروحيّ في الأوقات العصيبة - استعاد حيويّته، وهو الذي كان ينتابه جوعُ شرسُ عندما يضطرّ إلى التعامل مع عناصر قوى الأمن المستعدّين لإطلاق النار على رأسه. تراجع ثيبريانو إلى الخلف حتى وصل إلى منفذ شارع بايبذريرا وباشر رحلة العودة نحو برشلونة التي تنتظر هناك مستلقية عند أقدام التلّ. وبينما كانوا يهبطون المنحدر نحو حيّ ساريا، تمعَّن فيرمين برقبة الرجل الجالس أمامه، الذي استعانت به أليثيا مرافقًا شخصيًّا ذا يدٍ ضاربة. كانت رائحة المباحث تنبعث منه، عميلُ أمنيٌّ من العيار الثقيل. ولا بدّ أنّ بارغاس تحسَّسَ نظرات فيرمين اللاسعة، فالتفت ورماه بإحدى نظراته التي ترتخي على إثرها أمعاءُ المنحوسين الذين ينتهي بهم المطاف إلى الحبس. بدا له الهزيل الذي تناديه أليثيا باسم فيرمين كأنّه خارجُ من إحدى الروايات المنسوبة إلى لاثاريو دي تورميس.

- لا يغرَّنكَ جسدي الشبيه بعود الخبز. - حذَّره فيرمين - فما تراه هو مجموع عضلات وغريزة قتاليّة. انظر إليَّ باعتباري نينجا بثيابٍ مدنيّة.

تظنّ أنّك رأيتَ العجب من خلال هذه المهنة، فإذا بالربّ يرسل لك هديّة لم تكن في الحسبان.

- فيرمين، أليس كذلك؟

- من السائل؟

- اسمي بارغاس.

- ملازم؟

- نقيب.

- آمل ألّا يكون لدى سموِّك اعتراضُ ذو طابعٍ دينيّ بما يخصّ الطعام اللذيذ والمطبخ الكاتالانيّ. - قال فيرمين.

- لا اعتراض. والحقيقة أنّني أتضوَّر جوعًا. هل يقدِّم طعامًا جيّدًا هذا الخان لويس؟

- بل عظيمًا. – ردّ فيرمين - كأفخاذ ريتا هيورث بجواربها الشبكيّة.

ضحك بارغاس.

- لقد أصبح هذان صديقين. - قالت أليثيا - وشائج البطن والرذيلة توحِّد الرجال.

- لا تعرها اهتمامًا يا فيرمين. أليثيا لا تأكل أبدًا، الأطعمة الأساسيّة على الأقل. - فسَّر بارغاس - تتغذى على امتصاص أرواح المغفّلين.

تبادل فيرمين وبارغاس ابتسامة متواطئة، رغمًا عنهما.

- هل سمعتَ يا دانيال؟ - ارتجل الأوّل - بإثباتٍ من الإدارة العامّة لجهاز الشرطة بصفة نقيب.

التفتت أليثيا ورأت دانيال ينظر إليها شزرًا.

- آذانُ صمّاء لكلامٍ ناشز. - قالت.

- لا تقلقي، لا أعتقد أنّه فهم شيئًا بعد قصّة المصّ. - قال فيرمين.

- لماذا لا تخرسون جميعكم لنكمل الرحلة بسلام؟ - أشار دانيال.

- الهرمونات. - عذره فيرمين - الفتى ما يزال في مرحلة النشوء.

وهكذا، انشغل كلٌّ في صمته تحت رحمة الراديو وحواريّاته البطوليّة عن دوري كرة القدم، إلى أن وصلت بهم التاكسي إلى خان لويس.

(14)

ترجَّلَ فيرمين من التاكسي كغريقٍ جائعٍ يصل الشاطئ بعد أسابيع من التشبُّث بخشبة. استقبله صاحب المطعم، صديقه القديم، بمعانقة واحتفى بدانيال أيضًا. لكنّه عندما رأى أليثيا وبارغاس، خصَّهما بنظرة متوجّسة. فهمس فيرمين شيئًا في أذنه تفهَّمه الرجلُ ودعاهم للدخول.

- اليوم تحديدًا كنّا نتحدّث عنك مع البروفسور ألبوركركي الذي جاء على الغداء، وتساءلنا في أيّ مغامرة علقت.

- لا شيء، مجرّد مكائد منزليّة من مستوى منحطّ. لم نعد مثلما كنّا في السابق. - قال فيرمين.

- بإمكانكم الجلوس إلى الطاولة في آخر الصالة إذا أردتم، فهكذا تنعمون بالهدوء...

جلسوا في زاوية الصالة. واتّخذ بارغاس بفطرته كرسيًّا يمكّنه من النظر إلى المدخل.

- ماذا تودّون؟ - سأل صاحبُ المطعم.

- فاجئنا يا صديقي. لقد تناولتُ عشائي، لكنّ عواطفي تدفعني إلى تلبية النداء. وحضرة النقيب يبدو من وجهه أنّه يتمتع بشهيّة سجّان.

أمّا هذان الشابّان، التافهان، فهات لهما مشروبًا غازيًّا أو فليتدبَّرا أمرهما.

- كأس نبيذ أبيض من أجلي لو سمحت. - قالت أليثيا.

- لديّ باناذيس فاخر جدّا.

أومأت بنعم.

- سآتيكِ معه ببعض المقبّلات الخفيفة. وإذا احتجتما إلى أيّ شيء آخر فأخبروني.

- الموافقة بالإجماع. - أعلن فيرمين.

انصرف صاحب المحلّ بالطلبيّة نحو المطبخ وتركهم صحبة صمت ثقيل.

- كنتِ تقولين، يا أليثيا؟ - دعاها فيرمين.

- ما سأخبركما به الآن يبقى سرًّا بيننا. - نبَّهت.

حدّق إليها دانيال وفيرمين.

- عليكما أن تعطياني كلمتكما. - ألحَّت أليثيا.

- الكلمة تُعطَى لمن اعطى كلمته. - قال فيرمين - وحضرتكِ، مع بالغ احترامي، لم تعطنا حتى اللحظة أيّ دليل يثبت أنّكِ صاحبة كلمة.

- فعليكما أن تثقا بي إذن.

نظر فيرمين إلى بارغاس. فرفع النقيب كتفيه.

- لا تنظر إليَّ. - قال - منذ عدّة أيّام قالت لي الشيء نفسه وها أنا ذا هنا.

بعد قليل، جاء النادل بإناءٍ ووضع وجبة التاباس والخبز على الطاولة. باشر فيرمين وبارغاس الهجوم بلا مراعاة لأليثيا التي تتذوّق نبيذها الأبيض بهدوء، ممسكة بسيجارة بين أصابعها. فيما أغرق دانيال أنظاره في الطاولة.

- كيف يبدو لك الطعام؟ - سأل فيرمين.

- استثنائيّ. - وافقه بارغاس - يحيي الموتى.

- جرّب هذه القطعة من الفريكاندو، وكن على يقين أنّك ستخرج من هنا وأنت تغنّي البيرولاي، النشيد الروحي للكاتالونيّين.

رمق دانيال ذينك الرجلين الغريبين اللذين لا يبدوان مختلفين كثيرًا، يلتهمان كل ما كان موجودًا على الطاولة مثل الأسُود المفترسة.

- كم مرّة بإمكانك أن تتعشّى يا فيرمين؟

- كلّما صادفتُ عشاء. - ردَّ - الشبّان الذين لم يعيشوا الحرب في الصفّ الأوّل لا يمكنهم أن يفهموا الأمر يا حضرة النقيب.

هزّ بارغاس رأسه موافقًا وهو يلعق أصابعه. وكانت أليثيا تراقب المشهد بنظرة ذابلة كمن ينتظر توقُّف الأمطار، أشارت إلى النادل ليأتيها بكأس نبيذ ثانية.

- ألا تخشين أن يصعد إلى رأسكِ لأنّ معدتك خاوية؟ - سألها فيرمين وهو ينظّف طبقه بقطعة خبز كبيرة.

- لا أخشى إذا صعد. - ردّت أليثيا - يكفيني ألّا ينزل.

وبعد القهوه وكؤوس المشروبات الروحيّة الخفيفة، تمطّط كلٌّ من فيرمين وبارغاس على الكرسيّ بهيئة راضية، وأطفأت أليثيا سيجارتها في المنفضة.

- لا أعلم ما الذي تريدونه، لكنّي كلّي آذانُ صاغية. - قال فيرمين.

تقدَّمت أليثيا بجذعها إلى الأمام وأخفضت صوتها.

- لا يخفى عليكما من يكون الوزير ماوريسيو ڤايس.

- صديق دانيال، قيل عن قال. - ابتسم فيرمين بلؤم - أمّا أنا فقد عدلتُ عنه.

- لعلّكما لاحظتما، أو انتبهتما، أنّه لا يخرج على العلن منذ فترة.

- الآن وقد أخبرتِنا بذلك... - وافقها فيرمين - الخبير بڤايس هنا هو دانيال، الذي يذهب إلى مكتبة الجامعة في أوقاته الفارغة ليحقّق في حياة ومعجزات الرجل العظيم، أحد المعارف القدامى للعائلة.

رمت أليثيا دانيال بنظرة.

- منذ ثلاثة أسابيع، اختفى ماوريسيو ڤايس من منزله في سوموساغواس دون أن يترك أثرًا. انطلق فجرًا مع كبير مرافقيه على متن سيّارةٍ عُثِرَ عليها مهجورة في برشلونة بعد أيّام. ومنذ ذلك الحين

لم يره أحد.

عاينت أليثيا موجة العواطف المتخبّطة التي اجتاحت نظرة دانيال.

- وفقًا لتحقيقات الشرطة، قد يكون ڤايس ضحيّة مؤامرة للانتقام من خديعة في اتفاقيّات مزعومة ومتعلّقة بأسهم أحد المصارف.

نظر إليها دانيال بحيرةٍ ونقمة متصاعدتين.

- حين تقولين «تحقيقات»، علام تحيلين؟ - تدخّل فيرمين.

- على الإدارة العامّة لجهاز الشرطة وقوًى أمنيّة أخرى.

- يبدو مظهر النقيب بارغاس منطقيًّا في الوظيفة، أمّا أنتِ ففي الحقيقة...

- أنا أعمل، أو بالأحرى كنت أعمل، لواحدة من تلك الجهات التي تعاونت مع الشرطة في هذه التحقيقات.

- أليس لهذه الجهة اسم؟ - سألها فيرمين متشكّكًا - فحضرتكِ لا تبدين حرسًا مدنيًّا.

- لا.

- مفهوم. وماذا عن المرحوم الذي سررنا برؤيته عائمًا هذا المساء؟

- زميل سابق لي.

- أفترض أنّ آلامكِ عليه هي التي عدمت شهيّتكِ.

- كلّ هذا محض أكاذيب. - قاطعهما دانيال.

- دانيال. - قالت أليثيا وحطّت يدها على يده بما ينمّ عن وفاق. فسحب يده وجابه تلك المرأة.

- فما الهدف من التظاهر بأنّكِ صديقة قديمة للعائلة، وزيارة المكتبة، وزوجتي، وابني، والتطفُّل على عائلتي؟

- المسألة معقّدة يا دانيال، اسمح لي أن...

- أليثيا؟ أم إنّكِ استلهمتِ الاسم من إحدى ذكريات والدي؟

بدأ فيرمين عندئذ يحدِّق إليها بنظرة مكثّفة، كما لو أنّه وجد نفسه أمام شبحٍ آتٍ من ماضيه.

- أجل. اسمي أليثيا غريس. لم أكذب بخصوص هويّتي.

- لكنّكِ كذبتِ بكلّ ما تبقّى. - ردّ دانيال.

كان بارغاس ملتزمًا الصمت، وقد ترك لأليثيا زمام المحادثة.

تنهّدت الفتاة وتبدّى على وجهها اضطرابُ مقنع وإحساسُ بالذنب شكَّ النقيبُ بعفويّتهما.

- خلال سير تحقيقاتنا، وجدنا أدلّة على أنّ ڤايس كانت له صلات بوالدتك، السيّدة إيزابيلا، وسجين سابق في سجن مونتويك يدعى دافيد مارتين. فكان السبب الذي دفعني لإجمالكم في

القضيّة هو حاجتي إلى إزالة كل الشكوك كي أطمئنّ بأنّ عائلة سيمبيري لا شأن لها بـ....

لم يتمالك دانيال نفسه وفرَّج عن ضحكة مريرة ونظر إليها باحتقارٍ عميق.

- لا بدّ أنّكِ تظنّين أنّي مغفّل. ولا بدّ أنّي كذلك حقًّا، لأنّي لم أفهم حتى الساعة من تكونين أنتِ، أليثيا أو أيًّا كان اسمكِ.

- دانيال أرجوك...

- لا تلمسيني.

نهض وسار نحو المخرج. تنهّدت أليثيا وأغرقت وجهها في يديها. بحثت عن أنظار فيرمين لعلَّه يؤازرها، لكنّ الرجل الهزيل كان ينظر إليها كما لو أنّها نشَّالة حقائب قُبِضَ عليه متلبِّسة.

- كمحاولة أولى، تبدو لي ضعيفة. - أعرب عن رأيه - أعتقد أنّكِ ما تزالين مطالَبة لنا بتوضيح، الآن قبل أيّ وقت مضى، نظرًا إلى الدلو الذي كنتِ ستدلقينه علينا. بصرف النظر عن التوضيح الذي أطالبكِ به شخصيًّا. إن كنتِ أليثيا غريس حقًّا.

ابتسمت محبطة.

- ألا تذكرني يا فيرمين؟

كان الرجل يتأمّلها باعتبارها رؤيا.

- لم أعد أعرف ماذا أذكر. هل عدتِ من مملكة الأموات؟

- بإمكاننا أن نقول ذلك.

- بأيّ هدف؟

- أحاول أن أحميكم ليس إلّا.

- لا يبدو لي...

نهضت أليثيا ونظرت إلى بارغاس الذي أومأ لها مؤكِّدًا.

- اذهبي إليه. - قال النقيب - سأتولّى أمر لومانا وأحيطكِ علمًا حالما أستطيع.

هزّت رأسها وغادرت بحثًا عن دانيال. ظلَّ فيرمين وبارغاس وحدهما، يتبادلان نظرات صامتة.

- أعتقد أنّك قسوتَ عليها. - قال النقيب.

- منذ متى تعرفها؟ - سأله فيرمين - منذ أيّام.

- فهل أنت قادر على تأكيد ما هي، كائنٌ حيٌّ أم شبح؟

- أظنّ أنّها تبدو كذلك فقط. - ردّ بارغاس.

- من حيث الشرب، فإنّها تشرب كالإسفنجة. هذا صحيح. - لاحظ فيرمين.

- ليس لديك فكرة.

- هل ترغب في فنجان قهوة معدَّلٍ بالويسكي قبل العودة إلى بيت الفظائع؟ - اقترح فير مين.

هزّ بارغاس رأسه بنعم.

- هل تحتاج إلى مرافقة ومساندة لوجستيّة بما يخصّ الجثّة؟

- أشكرك يا فيرمين، ولكن من الأفضل أن أتولّاها بمفردي.

- قل لي شيئًا إذن، ولا تتحايل عليّ أرجوك. فأتصوّر أنّ أمثالنا، حضرتك وأنا، خاضوا مصارعات مع الثيران حتى أُنِهكوا. هل يبدو لي فقط أم إنّ هذه القضية أسوأ ممّا تبدو حقًّا؟

تردّد بارغاس.

- أسوأ كثيرًا. - وافقه في النهاية.

- فعلًا. وذلك الخراء الذي يمشي على قدمين، ڤايس، أما يزال حيًّا أم إنّه يتناول القنَّبيط المسموم؟

نظر إليه بارغاس محطَّمًا، كما لو أنّ إرهاق تلك الأيّام جميعها انهار على رأسه فجأة.

- أمّا هذا يا صديقي، فأعتقد أنّه صار أقلّ الأشياء أهميّة...

(15)

كان طيف دانيال يتراءى في البعيد ظلًّا يلوذ بأعمدة الإنارة وأزقّة الرافال. أسرعت أليثيا خطاها ما استطاعت. ثمّ استيقظ ألم الخاصرة.

وكلّما جاهدت في تقليص المسافة التي تفصلها عن دانيال، انقطعت أنفاسُها وأحسَّت بإزميلٍ يخرط عظامها. وعندما وصل لاس رامبلاس، التفت ورآها فرماها بنظرة غيظ.

- دانيال، أرجوك، انتظرني. - نادته وهي تتمسّك بأحد أعمدة الإنارة.

تجاهلها ومضى مسرعًا خطاه. فجرجرت أليثيا نفسها خلفه، وكان العرق يغطّي جبينها، واستحالت خاصرتُها جرحًا مفتوحًا.

وبوصوله إلى المنعطف المؤدي إلى شارع سانتا آنا، نظر دانيال إلى الوراء. كانت أليثيا ما تزال هناك، تعرج بطريقةٍ تشتِّت الأذهان.

فتوقف ليراقبها ورآها ترفع يدًا، في محاولة لجذب انتباهه. هزّ دانيال رأسه. وكان يستأنف سيره حين رآها تسقط على الأرض، كما لو أنّ شيئًا ما في داخلها قد تحطَّم. انتظر قليلًا، ولمَّا تنهضْ أليثيا. اقترب منها متردّدًا ورآها تنكمش على نفسها. لمح وجهها تحت ضوء المصباح، يتصبَّب عرقًا ويتشنّج بتكشيره ألم. حدَّثته نفسه بأن يتركها لمصيرها، لكنّه اقترب بضع خطوات وقرفص بجانبها. كانت تنظر إليه بوجهٍ تحفره الدموع.

- هل تمثِّلين. - سألها.

مدّت يدها نحوه، فأمسكها وساعدها على النهوض. كان جسدها يرتعش ألمًا بين يديه فأحسَّ دانيال بوخز الندم.

- ما الذي أصابكِ؟

- جرحُ قديم. - لهثت أليثيا - أحتاج إلى الجلوس، من فضلك.

أحاط بخصرها واقتادها نحو مقهى بالقرب من مدخل شارع سانتا آنا، المقهى الذي يغلق أبوابه متأخّرًا. النادل يعرفه، أدرك دانيال أنّ نصف سكّان الحيّ في الصباح سيُعدِّون تقريرًا كاملًا عن ظهوره في منتصف الليل معانقًا أميرة جذّابة تثير الارتياب. ساعدها على الجلوس إلى طاولة بجوار المدخل.

- ماء. - همست.

اقترب دانيال من المصطبة وتوجّه إلى النادل.

- أعطني ماء يا مانويل.

- ماء فقط؟ - سأله وهو يغمز بعينه متآمرًا.

لم يكلِّف دانيال نفسه عناء التوضيح وعاد إلى الطاولة بقنّينة ماء وكأس. كانت أليثيا تحمل محفظة أدوية معدنيّة وتحاول أن تفتحها.

فأخذها عنها وفتحها. أخرجت منها حبّتين وابتلعتهما برشفة ماء سال على ذقنها حتى عنقها. كان دانيال ينظر إليها بقلق، حائرًا بما يتوجّب فعله. فتحت عينيها وحاولت أن تبتسم.

- سأتحسّن حالًا. - قالت.

- لعلّكِ إذا تناولتِ شيئًا، يسرع الدواء بمفعوله...

هزّت رأسها.

- كأس نبيذ أبيض لو سمحت.

- هل تقصدين أنّها فكرة حسنة أن تخلطي الكحول بتلك الحبّتين...؟

أومأت برأسها فذهب دانيال لتدبير النبيذ.

- مانويل، أعطني كأس نبيذ أبيض وشيئًا يؤكل.

- لديّ معجنات مقليّة تلعق أصابعك بعدها.

- أيّ شيء.

عاد إلى الطاولة، وألحَّ عليها حتى أكلت معجّنة ونصف مع النبيذ لكي تهضم تلك الحبّتين البيضاوين. بدت أنّها تستعيد وعيها شيئًا فشيئًا وتمكّن من الابتسام في وجهه كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

- يؤسفني أنّك رأيتني هكذا. - قالت.

- هل أنتِ أفضل؟

أومأت مع أنّ عينيها كانتا في حالة تفاوتٍ بلّوريّ وسائلٍ توحي بأنّها بعيدة عن الواقع نوعًا ما.

- هذا لن يغيِّر شيئًا. - حذّرها دانيال.

- أفهمك.

لاحظ أنّها تتحدّث ببطء كأنّها تجرّ الكلمات جرًّا.

- لماذا كذبتِ علينا؟

- لم أكذب.

- سمِّيه ما شئتِ.. لم تروي لي إلا جزءًا من الحقيقة. ما يعني أنّكِ كذبتِ.

- الحقيقة كاملةً، حتى أنا لا أعرفها يا دانيال. ليس بعد. وعلى الرغم من أنّي أريد، لن أستطيع كشفها لك.

كاد يصدِّقها، رغمًا عنه. ربّما هو أغبى ممّا يظنّ فيرمين.

- لكنّي سأكتشفها. - أضافت - سأصل إلى عمق تلك القصّة، وأؤكد لك أنّني لن أخفي عليك شيئًا.

- دعيني أساعدكِ. هذا يصبّ في مصلحتي أيضًا.

هزت رأسها.

- أعرف أنّ ماوريسيو ڤايس قتل والدتي. - فان دانيال - لديّ كامل الحقّ في أن أنظر إلى وجهه وأسأله لماذا. أكثر منكِ ومن بارغاس.

- هذا صحيح.

- دعيني أساعدكِ إذن.

ابتسمت له بحزن فأشاح عينيه.

- ستساعدني إذا بقيتَ في مأمن أنت وعائلتك. بارغاس وأنا سنتّبع هذا المسار وحدَنا. هناك آخرون غيرنا. أناسُ خطيرون جدًّا.

- لست خائفًا.

- هذا ما يقلقني يا دانيال. عليك أن تخاف. كثيرًا. دعني أصنع ما أحسن صنعه.

بحثت عن عينيه وأمسكت بيده.

- أُقسِم لك بحياتي أنّي سأعثر على ڤايس وستكون أنت وعائلتك في أمان.

- لا أريد أن أكون في أمان. أريد أن أعرف الحقيقة.

- ما تريده يا دانيال هو الثأر.

- هذا شأني. وإن كنتِ لا تريدين أن تروي لي ما يحدث فعلًا، فسأكتشفه بنفسي. أتحدّث جدّيًّا.

- أعرف. هلّا أسديتَ إليّ معروفًا؟

رفع دانيال كتفيه.

- أعطني أربعًا وعشرين ساعة. إن لم أتوصَّل إلى حلٍّ لهذه القضيّة خلال أربع وعشرين ساعة، أُقسِم لك بأغلى ما تملك أنّي سأروي لك ما أعرفه.

رمقها غير واثق ممّا تقول.

- أربعُ وعشرون ساعة. - وافق أخيرًا - أنا أيضًا أودّ أن أطلب منكِ معروفًا بالمقابل.

- اطلب ما تشاء.

- أخبريني لماذا قال فيرمين إنّكِ مطالبة له بتوضيح. توضيح بخصوص ماذا؟

طأطأت رأسها.

- منذ أعوام بعيدة، عندما كنت صغيرة، أنقذ فيرمين حياتي. وقع ذلك خلال الحرب.

- وهل يعرف هو ذلك؟

- إن لم يكن يعرف، فإنّه يظنّ على الأقلّ. لقد حسِبني متُّ.

- أهذه الإصابة منذ ذلك الحين؟

- أجل. - أجابت بنبرةٍ أرادت أن توحي من خلالها بأنّ تلك هي واحدة من إصابات كثيرة تخفيها.

- فيرمين أنقذ حياتي أيضًا. - قال دانيال - أكثر من مرّة.

ابتسمت.

- الحياة في بعض الأحيان تهدينا ملاكًا حارسًا.

همّت بالنهوض. التفّ دانيال حول الطاولة ليساعدها، لكنّها أوقفته.

- سأفعلها بمفردي. شكرًا.

- هل أنتِ واثقة من أنّ تلك الأدوية قد سبّبت لكِ...؟

- لا عليك. فأنا كبيرة. هيّا، سأرافقك إلى البوّابة. فهي على طريقي.

سارا إلى باب المكتبة القديمة. أخرج دانيال المفتاح. تبادلا نظرة صامتة.

- لقد وعدتِني. - قال لها.

فأكدّت برأسها.

- ليلة سعيدة، أليثيا.

ظلّت المرأة واقفة هناك ترمقه بتلك النظرة الزجاجيّة التي لم يعرف دانيال أن ينسبها إلى الأدوية أم إلى البئر العميقة خلف تينك العينين السوداوين. وعندما أراد الانصراف، وقفت أليثيا على رؤوس أصابعها ودنت بشفتيها من شفتيه. أشاح دانيال بوجهه فلثمت القبلةُ خدَّه. ودون أن تقول شيئًا، التفتت أليثيا وابتعدت حتى تبدّد طيفها في غمرة الظلّ.

رأتهما بيا من النافذة. رأتهما يخرجان من المقهى الذي في آخر الشارع ويقتربان من البوّابة بينما ترنّ أجراس منتصف الليل فوق سطوح المدينة القديمة. وعندما دنت أليثيا من دانيال وظلَّ هو واقفًا، هائمًا في عينيها، شعرت بيا بتشنُّجٍ في معدتها. لقد رأتها تقف على رؤوس أصابعها وتقبّل شفتيه. وأشاحت بأنظارها عند ذلك الحدّ.

عادت إلى غرفة النوم بخطوة متثاقلة. توقّفت برهةً أمام غرفة خوليان النائم قرير العين. ردَّت بابه وعادت إلى غرفتها. دلفت في الفراش وانتظرت سماع الباب. اجتازت خطواتُ دانيال الممرَّ بحذر.

ظلّت بيا في مكانها، مستلقية تحت الظلام تحملق بالسقف. شعرت به ينزع ثيابه قرب السرير ويرتدي ثياب النوم التي تركتها له على الكرسيّ.

أحسَّت بجسمه ينزلق تحت الأغطية. وعندما وجّهت أنظارها إليه، رأت أنّه يوليها ظهره.

- أين كنت؟ - سألته.

- مع فيرمين.

(16)

عرض إندايا عليه سيجارة، رفضها فرنانديتو.

- لا أدخِّن، شكرًا.

- رجلُ حكيم. ولهذا لا أفهم لماذا لا تتصل بوالدك كي يأتي ببطاقتك ويتّضح كلُّ شيء. أم إنّ لديك ما تخفيه؟

نفى الفتى برأسه. ابتسم إندايا بمودّة وتذكّر فرنانديتو كيف رآه منذ ساعتين يهشِّم ركبتي السائق بالمسدّس. ما تزال ياقة قميصه ملطّخة بالدماء القانية.

- لا أخفي شيئًا يا سيّدي.

- فإذن؟

دفع إندايا الهاتف نحوه.

- مكالمة واحدة وتحصل على حرّيتك.

مضغ فرنانديتو ريقًا.

- أودّ منك ألّا ترغمني على إجراء هذه المكالمة. لسببٍ وجيه.

- سببُ وجيه؟ وما هو يا صديقي ألبرتو؟

- والدي، والدي مريض.

- آه، حقًّا؟

- يعاني من مرض القلب. وقد تعرَّض لجلطة منذ شهرين وظلَّ في المستشفى عدّة أسابيع. هو الآن في البيت، يتماثل للشفاء، لكنّ وضعه ما يزال حسّاسًا.

- يؤسفني ذلك.

- والدي رجلُ طيّب، يا سيّدي. إنّه بطل الحرب.

- بطل الحرب؟

- لقد دخل برشلونة مع فيالق القوميّين. وظهر في صورة، خلال العرض في شارع دياغونال، على الصفحة الأولى من جريدة الطليعة.

وقد علَّقناها في صدر البيت. الثالث من الجهة اليمنى. بإمكانك أن تراه. وضعوه في الصفّ الأوّل نظرًا إلى بطولاته في معركة إبرو. كان برتبة عريف أوّل.

- لا بدّ أنكم جميعًا تفتخرون به.

- نحن كذلك، لكنّ المسكين لم يعد كما كان عليه بعدما وقع لوالدتي ما وقع.

- والدتك؟

- توفّيت منذ أربعة أعوام.

- خالص العزاء.

- شكرًا سيّدي. أتعلم ما كان آخر أمرٍ قالته والدتي لي قبل أن تفارق الحياة؟

- لا.

- اعتنِ بوالدك ولا تسبِّبْ له ما ينغِّصه.

- وهل أطعتها؟

أخفض فرنانديتو عينيه متألّمًا. وهزّ رأسه نافيًا.

- في الحقيقة لم أصبح الابن الذي تمنّته والدتي، ولا الابن الذي يستحقّه والدي. إنّني محطّمُ كما ترى.

- وأنا الذي كنت أظنّك فتًى كفؤًا.

- لا شيء من هذا. رصاصةُ طائشة، هذا ما أنا عليه. لا أصنع سوى ما يسبِّب المنغِّصات لوالدي المسكين، كما لو أنّ المشاكل تنقصه. ففي اليوم الذي لا يطردونني فيه من العمل، أتسكّع وأنسى بطاقتي الشخصيّة. كما ترى. الوالد بطل حرب، وابنه مستهتر.

در سه إندايا بتمعُّن.

- أستنتج من كلّ هذا أنّك إذا اتّصلت بوالدك وقلت له إنّنا أوقفناك في المخفر لأنّك نسيت بطاقتك، ستنغِّص عليه؟

- للمرّة الأخيرة، أعتقد. إن جاء به أحد الجيران على الكرسيّ المتحرّك، أظنّ أنّه سيموت خزيًا وألمًا من فضيحة ابنه.

تأمَّل إندايا المسألة.

- أستوعب ذلك يا ألبرتو. ولكن عليك أن تفهمني أنت أيضًا.

أنت تضعني في موقف محرج.

- أجل سيّدي. لقد كنت صبورًا معي بما فيه الكفاية، مع أنّي لا أستحقّ ذلك. لو كان الأمر عائدًا إليّ، لقلتُ لك بأن تضعني في زنزانة مع حثالة المجتمع كي أتلقَّن الدرس. لكنّي أتوسّل إليك أن تفكّر مرة أخرى من أجل والدي المسكين. سأكتب لك اسمه الآن، اسمه وكنيته وعنوانه، وبإمكانك أن تأتي في الغد لتسأل أيّ جارٍ من جيراننا. حبّذا لو أتيتَ في الصباح، حين يكون والدي نائمًا بفعل العلاج.

أخذ إندايا الورقة التي مدَّها فرنانديتو إليه.

- ألبرتو غارثيا سانتاماريا. شارع التجارة 37، الطابق الخامس.

- قرأ - وماذا لو رافقك عميلان الآن؟

- إذا رآني والدي عائدًا مع الشرطة، وهو الذي يقضي الليل سهرانًا ينظر من النافذة ويستمع إلى الراديو، فقد يطردني من المنزل، وأنا أستحقّ ذلك، ثمّ تصيبه سكتة دماغيّة.

- ولا نريد أن يقع هذا.

- لا، سيّدي.

- وكيف أعرف أنّك لا تخدعني؟

التفت فرنانديتو بحركة مهيبة يرنو إلى الصورة الرسميّة المعلّقة على الحائط للجنرال فرانكو.

- لأنّني أُقسِم على ذلك بالربّ والجنرال، فلأ متْ في هذه اللحظة إن كنت أكذب.

نظر إليه إندايا بفضول وباستلطاف عابر.

- أرى أنّك ما تزال حيًّا، ما يعني أنّك قلتَ الحقيقة.

- أجل، سيّدي.

- انظر يا ألبرتو. لقد نلت استلطافي، والحال أنّ الوقت تأخَّر وأنا متعب. سأعطيك فرصة. لا يجوز، لأنّ النظام هو النظام، لكنّي أنا أيضًا كنتُ ابنًا ولم أكن الأفضل. بإمكانك أن تذهب الآن.

نظر فرنانديتو إلى باب المكتب مذهولًا.

- بسرعة، قبل أن أغيّر فكرتي.

- شكرًا جزيلًا، سيّدي.

- اشكر والدك. واعمل على ألّا تكرّرها.

ودون أن يفكّر مرّتين، نهض فرنانديتو ومسح العرق عن جبينه وهو يخرج من المكتب. اجتاز الصالة الطويلة للفرقة المدنيّة، بلا عجالة، وحين مرّ أمام العميلين اللذين كانا يراقبانه صامتين، أدلى إليهما بتحيّة.

- ليلة سعيدة.

وصل إلى الممرّ، فأسرع الخطى واتّجه نحو السلالم المؤدّية إلى الطابق الأرضيّ. وعندما اجتاز البوّابة ووطئت قدمه شارع لايتانا، سمح لنفسه بتنفُّسٍ عميق، وحمد السماء والجحيم وكلَّ ما بينهما على حسن الطالع.

نظر إليه إندايا يقطع شارع لايتانا ويهمّ بالنزول. سمع خطوات العميلين خلف ظهره.

- أريدكما أن تعرفا من يكون، أين يسكن، ومن هم أصدقاؤه. - قال دون أن يلتفت.

(17)

خطَّ الضبابّ رطوبةً على الثياب في إغراقه طرقات بايبذريرا عندما نزل بارغاس من سيّارة الأجرة وسار نحو أضواء المقهى المجاور لموقف الترام الجبلي. كان المحلّ خاليًا من الزبائن في تلك الساعة، ولافتة «مغلق» معلّقةٌ على بابه. قرَّب رجل الأمن عينيه من الزجاج ونظر إلى الداخل. كان خلف المصطبة نادلُ ينظّف الكؤوس بالخرقة، لا رفيق له سوى راديو وكلب شبه أحول، لم يكن البرغوث ليمسّه حتّى لو مدفوع الأجر. طرق بارغاس على الزجاج ببراجم يده. رفع النادل أنظاره عن ملله. وجَّه نظرة خاطفة إليه وهزّ رأسه. فأخرج بارغاس بطاقته الأمنيّة وطرق على الزجاج مجدّدًا، وبقوّة أكبر. فتنهَّد النادل، والتفّ حول المصطبة وذهب إلى الباب. وجرجر الكلب نفسه، وقد أفاق من سباته، ليتبعه مثل مرافقة.

- شرطة. - أعلن بارغاس - أحتاج إلى استخدام الهاتف.

فتح النادل الباب وأدخله. وأشار إلى الهاتف بجوار المصطبة.

- بما أنّك دخلت، هل تشرب شيئًا؟

- قهوة بالحليب من فضلك.

وبينما كان النادل يُعِدُّ آلة القهوة، أمسك بارغاس بالهاتف وألَّف رقم قسم الشرطة المركزيّ. تموضع الكلب بقربه وراح يراقبه بعينين ناعستين وذيل يهتزّ بوتيرة منخفضة.

- شوسكو، لا تزعجِ السيّد. - حذّره النادل.

كان كلُّ من بارغاس وشوسكو يقيِّم أحدهما الآخر، ويقارن أعوام الخدمة والاستنزاف بأعوامه.

- كم عمر الكلب؟ - سأل الشرطيّ.

رفع النادل كتفيه.

- عندما سلَّموني المقهى، كان الكلب هنا من قبل، ولم يكن قادرًا حتى على الضراط. وقد مرَّ على ذلك عشر سنوات.

- ما عرقه؟

- مهجَّن.

استلقي شوسكو على جانبه وأظهر بطنه الزهريّة المنتوفة. سعل صوتُ على الخطّ.

- أعطني ليناريس. أنا بارغاس، من القيادة المركزيّة.

وبعد قليل، سمع طقطقةً وصوت ليناريس الذي يتخلّله بعض التهكُّم.

- ظننت أنّك في مدريد، تتلقّى الأوسمة يا بارغاس.

- بقيتُ أيّامًا إضافيّة، لعلّي أشاهد استعراضًا نمطيًّا للعمالقة والأقزام.

- لا تعوِّلْ كثيرًا، فالأماكن كلّها محجوزة هنا. ماذا تريد في هذه الساعة؟ لا تقل إنّ لديك أنباءً سيّئة.

- شيءُ كهذا. أنا في بايبذريرا، في المقهى المجاور للموقف الجبليّ.

- أحسن إطلالة على برشلونة كلّها.

- ممكن. لقد عثرتُ على جثّة منذ قليل في أحد البيوت في شارع دي لاس أغواس.

تمتَّعَ بارغاس بتأفُّف ليناريس.

- اللعنة. - هتف ليناريس - هل كان هناك من داعٍ؟

- ألا تسألني مَن الميّت؟

- ستخبرني باسمه.

- سأفعلها لو كنتُ أعرف.

- لعلَّك تخبرني عمَّا تبحث هذه الساعة في تلك القصور المرتفعة.

سياحة جبليّة؟

- كنت أربط خيوطًا محلولة. تعلم كيف تجري هذه الأمور.

- حقًّا. وأتصوَّر أنّك تنتظر مني أن أسحل قاضيًا من سريره الآن لانتزاع الجثّة.

- إن كان ذلك لا يثقل عليك.

تأفّف ليناريس ثانيةً. وسمعه بارغاس يصيح على أحدهم.

- أعطني ساعة، ساعة ونصف. وأرجوك ألَّا تعثر على جثث أخرى، إن كان ذلك لا يؤسفك.

- تحت أمرك.

أغلق بارغاس السمَّاعة وأشعل سيجارة. وكان فنجان القهوة بالحليب ينتظره على المصطبة. النادل ينظر إليه بفضولٍ عامّ.

- حضرتك لم تسمع أيّ شيء. - أنذره بارغاس.

- اطمئنّ. أنا أصمّ مثل شوسكو وأكثر.

- هل لي بمكالمة أخرى؟ - سأله رجل الأمن.

أبدى النادل موافقته، وحياده. فألّف بارغاس رقم الشقة في شارع أفنيون. انتظر رنّات كثيرة قبل أن يتلقّى الجواب. سمع أخيرًا غمغمة أنفاس على الطرف الآخر من الخطّ.

- أليثيا، هذا أنا. بارغاس.

- بارغاس؟

- لا تقولي لي إنّك نسيتِني بهذه السرعة.

ساد الصمّت. كان صوتّ أليثيا يبدو آتيًا من قلب حوض سمك.

- ظننت أنّه لياندرو. - قالت في النهاية جاهدةً في نطق الكلمات.

- تبدين غريبة. هل شربتِ؟

- عندما أشرب لا أبدو غريبة، يا بارغاس.

- ماذا تناولتِ؟

- كأس حليب ساخن قبل أن أتلو الصلوات وأخلد إلى النوم.

- وأين ذهبتِ؟ - سألها.

- شربتُ شيئا ما مع دانيال سيمبيري.

غرق بارغاس في صمت طويل.

- أعرف ما الذي أفعله يا بارغاس.

- إن كنتِ أنتِ من يقولها...

- أين أنت؟

- في بايبذريرا، بانتظار الشرطة والقاضي للكشف على الجثّة.

- وماذا قلت لهم؟

- قلت إنّي ذهبت إلى بيت ماتايكس محاولًا ربط خيوط محلولة فوجدت مفاجأة.

- وهل صدَّقوك؟

- لا، ولكن ما يزال لديّ أصدقاء طيّبون في القيادة.

- والجثّة، ماذا ستقول بشأنها؟

- سأقول إنّي لا أعرف صاحبها لأنّي لم أره من قبل. وهذا صحيح تقنيًا.

- هل أصدقاؤك يعلمون أنّك عُزِلتَ عن القضيّة؟

- من الوارد أنّهم عرفوا قبلي. فهنا مَن لا يركض يطير.

- سيصل النبأ إلى مدريد حالما تُحدَّدُ هويّة الجثّة. وسيعلم لياندرو.

- وهذا ما سيمنحنا بضع ساعات. - حَسَبَها بارغاس - إن كنّا محظوظين.

- هل قال لك فيرمين شيئًا ما؟ - سألته.

- جواهر وحِكَم. وأنّه سيكون بينكما محادثة.

- أعرف. هل أخبرك حول ماذا؟

- لقد أصبحنا صديقين، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. يبدو لي أنّ فيرمين يعتبركِ أمرًا متعلّقًا بماضيه.

- وماذا ستفعل الآن؟

- ما إن يتمّ القاضي المحضر، سأرافق الجثّة إلى المشرحة بحجّة أنّها متعلّقة بتحقيقاتي. أعرف الطبيب الشرعيّ منذ أعوامي التي قضيتها في ليغانيس. رجلُ صالح. وسأرى إن كنت سأكتشف شيئًا ما.

- ستضطر للبقاء هناك حتى يطلع الصبح على الأقلّ.

- على الأقلّ. سأغفو بقيلولة في المشرحة. لا بدّ أنّهم يعطونني طاولة تشريح. - مازحها بارغاس - فالأطبّاء الشرعيّون جميعهم يميلون إلى المزاح.

- كن حذرًا. واتصل بي حالما تستطيع.

- اطمئنّي. وحاولي أن تنامي قليلًا وتستريحي.

أغلق السمّاعة واقترب من المصطبة. أخذ قهوته التي فترت، وشربها برشفة واحدة.

- هل أصنع لك فنجانًا آخر؟

- حبّذا لو كان كافيلاتي.

- وما رأيك بكرواسان كي تهضم كلّ شيء؟ على حسابي. ففي الغد سأرمي كلّ ما تبقّى.

- حسنًا، شكرًا.

انتزع بارغاس قطعة من الكرواسان المتيبّس وتفحصها تحت الضوء، متسائلًا إن كان هضم شيء كهذا فكرة سديدة. كان شوسكو ينظر إليه، بذمّته الغذائيّة المعدومة التي يتفرّد بها أبناء نوعه، ويلعق شاربه مسبقًا. رمى بارغاس قطعة الكرواسان فالتقطها شوسكو وهي تطير. التهم المكافأة بشراهة وأهداه نباح امتنان أبديّ.

- حذار يا سيّدي، فإنّه سيبقى يلازمك دائمًا. – نبّه النادل.

نظر بارغاس إلى صديقه العزيز الجديد. وأعطاه بقيّة الكرواسان فابتلعها شوسكو بلقمة واحدة. وفكّر أنّ هذا العالم الحقير، حيث تشيخ فيه متألّمًا من كلّ الأشياء بما فيها الإرادة الطيّبة، فإنّ فتات المودّة أو العطف تُعتبَر منًّا من السماء.

أصبحت الدقائق التسعون الموعودة من قِبَلِ ليناريس ساعتين كاملتين. حين لمح بارغاس أضواء سيّارة الشرطة وشاحنة الموتى تقطع الضباب في الطريق الصاعد، دفع حسابه وأضاف إكراميّة سخيّة وخرج إلى الشارع ينتظر والسيجارة في يده. لم ينزل ليناريس. أخفض النافذة وأشار إليه بركوب السيّارة والجلوس بجواره في المقعد الخلفيّ. كان أحد رجاله يقود الدفّة. وثمّة رجلُ جلفُ ومحشوٌّ في معطف، بتعابير وجهٍ زُحَلِيَّة، في المقعد الأماميّ.

- معاليك. - حيّاه بارغاس.

لم يكلّف القاضي نفسه عناء التحيّة والتعريف بنفسه. فتوجّه ليناريس إلى صديقه بنظرة حادّة، وابتسامة تنمّ عن لامبالاة.

- أين سنذهب؟ - سأل.

- بالقرب من هنا. شارع دي لاس أغواس.

وبينما كانوا يهبطون نحو منفذ الطريق، نظر بارغاس إلى زميله القديم بطرف العين. لقد فعلت عشرون عامًا من الخدمة في الشرطة فعلها بليناريس، وأكثر من ذلك.

- تبدو بمظهر جيّد. - كذب.

ضحك ليناريس في سرّه. تلاقت نظرات بارغاس بنظرات القاضي في المرآة العاكسة.

- صديقان قديمان؟ - سأله القاضي.

- بارغاس ليس لديه أصدقاء. - قال ليناريس.

- رجلٌ حكيم. - استنتج القاضي.

اقتادهم بارغاس في خضمّ الظلال التي يعرضها الطريق حتى كشفت أضواء السيّارة الحاجز الحديديّ لبيت ماتايكس. وكانت شاحنة الموتى تتبعهم. نزلوا من السيّارة وتقدّمهم القاضي بضع خطوات لينظر إلى طيف الفيلا بين الأشجار.

- الجثّة في القبو. - قال بارغاس - في مسبح. لا بدّ أنّها هناك منذ أسبوعين أو ثلاثة.

- تبًّا. - قال أحد الموظّفين في المشرحة، وكان يبدو مبتدئًا.

اقترب القاضي من بارغاس ونظر إلى عينيه.

- ليناريس يقول إنّك اكتشفت الجثة خلال التحقيق.

- صحيح، معاليك.

- ولم نتمكّن من تحديد هويّته؟

- لا، معاليك.

نقل القاضي أنظاره إلى ليناريس الذي كان يفرك يديه اتقاءً للبرد.

اقترب منهم الموظّف الثاني، وكان يبدو أكثر خبرة وذا هيئة حازمة، وبحث عن نظرات بارغاس.

- هل هو قطعة واحدة أم أشلاء؟

- عفوًا؟

- الميّت.

- قطعة واحدة. أعتقد.

أومأ الموظف.

- مانولو. الصرّة الكبيرة. الرمح الطويل. وعارضتان. - أمرا تلميذَه.

وبعد نصف ساعة، بينما كان الموظفان يحملان الجثة إلى الشاحنة، والقاضي يعاين الوثائق على صندوق السيّارة الأماميّ، تحت ضوء المشعل الذي رفعه المرؤوس ليناريس، أحسَّ بارغاس بوجود زميله القديم بجانبه. كانا يراقبان عمل الموظّفين في وضع الجثة داخل الشاحنة، وقد بدت أثقل ممّا توقّعاه. ضربا ما يبدو أنّه الرأس بالهراوة مرّة أو اثنتين، وكانا يتشاجران ما بينهما ويجدّفان في نفسيهما.

- نحن لا شيء. - غمغم ليناريس - أهو أحد رجالنا؟

تأكّد بارغاس أنّ صوته بعيدٌ عن متناول القاضي.

- شيء من هذا القبيل. أحتاج إلى بعض الوقت.

طأطأ ليناريس رأسه.

- اثنتا عشرة ساعة، حدًّا أقصى. لا يمكنني أن أسمح لك أكثر من ذلك.

- إندايا... - قال بارغاس.

أكّد ليناريس برأسه.

- هل مانيرو في المشرحة؟

- بانتظارك. سبق وأعلمتُه بأنّك ستكون هناك.

ابتسم بارغاس بما يشبه الشكر.

- هل هناك شيء يجب أن أعرفه؟ - سأله ليناريس.

نفى الآخر برأسه.

- كيف حال مانويلا؟

- بدينة كجذع شجرة. مثل أمّها.

- المقاس الذي يعجبك.

أومأ ليناريس حازمًا.

- هل نسيتْني؟ - ارتجل بارغاس.

- لا تذكر اسمك، لكنّها ما تزال تسمّيك «ابن القحبة». بودّ.

عرض بارغاس سيجارتً لصديقه فرفضها.

- ما الذي أصابنا يا ليناريس؟

رفع كتفيه لامباليًا.

- إسبانيا، أفترض.

- كان من الممكن أن ننتهي في مآلٍ أسوأ. كأن يضعوننا في تلك الصرّة.
- اصبر بعض الوقت.

(18)

أدرك أنّهما يتبعانه دون أن ينظر إلى الخلف. عندما انعطف فرنانديتو ودخل شارع الكاتدرائيّة، التفت برأسه فرآهما. طيفان يتبعانه منذ خروجه من المخفر. أسرع الخطى وعدّل وجهته، محتميًا بظلال البوّابات حتى بلغ آخر الساحة. توقّف هناك برهةً تحت إفريز مقهى مغلق وتحقّق من أنّ الرجلين اللذين أرسلهما إندايا ما يزالان يتعقّبان أثره. لم يكن ينوي الإتيان بهما إلى بيته، ولا إلى بيت أليثيا، لذا قرّر أن يقتادهما بجولة سياحيّة في برشلونة الليليّة آملا أن يستدرجهما بحسن الحظ، أو بالتعب، أو بضربة معلّم.

استأنف المشي في وسط الطريق نحو بويرتافيريسا، مكشوفًا مثل هدفٍ في حقل رمي. وكان الطريق في تلك الساعة من الليل خاليًا تقريبًا، وفرنانديتو يمشي بلا عجالة، يصادف بعض التُّفَّه وعملاء المخابرات وجموع الأرواح الهائمة المعتادة التي لطالما خفرت شوارع برشلونة إلى ساعة متقدمة من الليل. وكلّما التفت بأنظاره إلى الخلف، وجد كلبَي إندايا هناك، يحافظان على المسافة نفسها حتى لو أسرع خطاه.

وبوصوله إلى لاس رامبلاس، درس إمكانيّة الركض ومحاولة التية في شوارع الرافال، لكنّه تصوّر أنّه بذلك يثّبت التهمة على نفسه، كما أنّ خبرة مطارديه تقلّص آمال نجاح هذه الخطوة. قرّر أن يواصل النزول في لاس رامبلاس والوصول إلى مدخل سوق بوكويريا. هناك موكب من الشاحنات المحتشدة عند أبوابها. وعددٌ كبير من الحمَّالين يعملون تحت أكاليل أضواء الإنارة في داخل السوق، يفرّغون الصناديق ويوزّعون البسطات لليوم التالي. ودون أن يفكّر مرّتين، توغل بين أكوام الصناديق. فتداخل طيفه بعشرات العمّال الذين يسيرون في ممرّات السوق. وما إن شعر أنّه في مأمن من مطارديه المتربّصين، حتى هرول نحو آخر السياج. إذ كانت قبّة السوق الضخمة تنفتح على مروره مثل كاتدرائيّة قدّستْها فنونُ الطعام الفاخر التي تجتمع فيه كلّ روائح الكون وألوانه في بازارٍ كبير يُخمِد شهيّة المدينة.

تجنَّبَ أكوام الفواكه والخضروات، وأكداس التوابل والمعلَّبات، والحاويات الممتلئة بقطع الثلج والمخلوقات الجيلاتينيّة التي ما تزال تتحرّك. ملص من بين جثث دامية معلّقة على الخطافات، وحظي بشتائم ونعرات اللحّامين والشيَّالين وباعة الفواكه الذين ينتعلون جزمات مطّاطيّة. وصل إلى آخر الهيكل الكبير، فوجد ساحة غارقة بأكوام الصناديق الخشبيّة الفارغة. ركض ليختبئ خلف برجٍ من الحاويات وضيَّقَ عينيه ليبصر المخرج الخلفيّ للسوق. مرّت قرابة الثلاثين ثانية ولمّا يظهرِ العميلان. التقط فرنانديتو نفسًا عميقًا وسمح لنفسه بابتسامة رضا. لكنّ الاستراحة امتدّت لثانية واحدة. انبثق العميلان من باب السوق وتوقّفا لمعاينة الساحة. فغاص فرنانديتو في الظلمة. وفرّ بجلده من زقاقٍ يحاذي المستشفى القديمة سانتا كريو باتجاه شارع كارمن.

وجد نفسه قبالتها ما إن انعطف عند الزاوية: شعر أشقر مصبوغ، تنّورة متبرّجة توشك على الانفجار، وجه عذراء مفعمة بالرحمة، وأحمر شفاه جهنّميّ.

- ها يا عزيزي. - نغَّمت بنبرة متزلِّفة - ألا ينبغي أن تكون في البيت تحضّر الحليب والشوكولاتة لتذهب إلى المدرسة؟

تفحَّص فرنانديتو العاهرةَ، واستجدى فيها وعدًا بالملاذ يطلّ على الردهة خلف ظهرها. كانت صفات المسكن تدعو إلى كلّ شيء ما عدا الدخول. هناك رجلٌ ذو بشرة ليمونيّة يؤدي مهام الناطور ويشغل كشكًا بأبعاد حُجرة اعتراف.

- كم؟ - ارتجل فرنانديتو وهو يخطف أبصاره نحو مدخل الزقاق.

- بحسب الخدمة. لديّ عرضٌ خاصّ هذا اليوم للأولاد والرُّضَّع، فالحلمة الواحدة...

- موافق. - اختصر الفتي.

أنهت العاهرة مرحلة التعريف ببضاعتها وأمسكت بذراعه وجرّته نحو السلالم. توقّف الزبون عند الخطوة الثالثة لينظر خلفه، لعله يتوجَّس من الرادار الكنسيّ الذي يحمله كلُّ غشيم في صدره أو بسبب الروائح المنبعثة من داخل البناية. وإذ خشيت بائعة الهوى من خسارة الزبون في ليليةِ قحط ٍ كتلك، أعطته دفعة ناريّة وهمست في أذنه، بأنفاسها الرطبة ودهاء فصاحتها، بأنّها تضمن نتائج ممتازة مع الفتية ذوي الميول الرخوة.

- هيّا أيّها العصفور الصغير، تعال كي آخذك بنزهة نهاية العام وأعدك بالشبع.

مرّا بجانب كشك المراقبة، فسلّمه الحاجب - دون أن يوقفه - العُدّة اللوجستية المكوّنة من الواقي والصابون وأدوات أخرى تُستَعمل عند الضرورة. لحق فرنانديتو بفينوس المستأجَرة وما انفكّ يخطف ابصاره إلى مدخل الردهه، وحين انعطف إلى السلالم ووصل إلى مستراح الطابق الأوّل المفتوح على ممرّ غائرٍ على جانبيه غرفٌ معطّرة بحمض المرياتيك، توجَّهت إليه الغاوية بنظرة مضطربة.

- أراك مستعجلًا كثيرًا. – قالت.

تنهّد فرنانديتو فبحثت عن ناظريه. لقد تخرَّجت من مدرسة الشوارع بشهادة في علم النفس بمراحل قسريّة؛ وعلّمتها التجربة في ذلك المجال أن الزبون إذا لم يسخن من شخصيّتها المغرية وبمجرّد إعطائه وعدًا بنكاح ممتع، فعليها أن تتوقّع أنّه سيتراجع حالما يدخل غرفتها القذرة التي تستخدمها مكتبًا. أو أن تنتظر ما هو أسوأ: أن تنتهي الوظيفة قبل أن يُخفض بنطلونه ويفر بجلده قبل أن تلبي توقعاته وتكسب نصيبها.

- اسمع يا عزيزي، العجلة ليست نصيحة جيّدة في هذه الأمور، ولاسيّما في عمرك، فما أكثر أولئك الذين نسوا كلّ شيء بمجرّد لمس هذين الثديين النضرين. عليك أن تتذوّق هذا الشيء كما لو أنّه حلوى القشطة. لقمة صغيرة تتلوها لقمة صغيرة.

تلعثم فرنانديتو بشيء ما قرّرت العاهرة اعتباره استسلامًا لبنود لحمها المتين الذي لا طائل من تحدّيه. كانت غرفتها في آخر الممرّ.

حصل الشابّ خلال الرحلة على فرصة تقييم همهمة الآهات والمعانقات التي تتسرّب من تحت الأبواب. وكان شيءٌ ما في وجهه يشي بضحالة جعبته الثقافية.

- أهي المرة الأولى؟ - سألته بائعة الهوى وهي تفتح الباب وتفسح له المجال للدخول.

فأومأ الفتى متلوّعًا.

- لا عليك، فالأغرار هم اختصاصي. لقد دخل عيادتي نصف سادة برشلونة كي يتعلّموا كيف يغيّرون حفاضاتهم بمفردهم. ادخل.

ألقي فرناندينو نطرة على ملجئة المؤقّت، كان اسوا ممّا توقّع. الغرفة أشبه بلائحة لأنواع الشقاء والنتانة المؤطرة برسمةٍ خضراء ملطّخة ببقع الرطوبة ذات الأصل المبهم. وكان ما يشبه الحمّام، المفتوح على غرفة النوم، مكوّنًا من مرحاض بلا غطاء ومغسلة مغبرّة اللون ونافذة صغيرة يتغلغل من خلالها ضياء رصاصيّ. وكان نظام الأنابيب يُصدِر أنغاما غريبة موزونة بالقرقعة والطقطقة التي توحي بكلّ شيء ما عدا عطور الرغبة. ثمّة دلوٌ ذو أبعاد معتَبَرة بجانب السرير، يلمّح إلى ألغاز من الأفضل عدم كشفها. أمّا السرير فيتكون من هيكل معدنيّ، وفراشٍ كان أبيض قبل خمسة عشر عامًا، ووسائد لعدّاد سرعة كبير.

- ربّما من الأجدر أن أذهب إلى البيت. - علق فرنانديتو.

- اطمئنّ يا فتى، فالآن يأتي الأجمل. ما إن تنزع بنطلونك، سيبدو لك المكان جناحًا زوجيًّا في فندق الريتز.

اقتادته نحو المخدع وأرغمته على الجلوس. وعندما استسلم الزبون جرّاء القوة المفرطة، قرفصت قبالته وابتسمت له برقّةٍ كادت تفسد مكياجها، وحزنٍ ينضح من عينيها. جنحت بأسلوبها إلى منحّي تجاريًّ كان من شأنه أن يدمِّر فتات القصيدة العشوائيّة التي أراد فرنانديتو أن يتخيّلها.

- لا فردوس بلا فلوس يا عزيزي.

أومأ فرنانديتو. نبش جيوبه وأخرج محفظته. فاحترقت عينا العاهرة بالقلق. أخذ النقود التي كانت لديه وأعطاها للمرأة دون أن يحصيها.

- هذا كلّ ما أملك. هل يناسبكِ؟

تركت النقود على الدُّرج ونظرت إلى عينيه بحنانٍ رقيق.

- اسمي ماتيلدا، ولكن بإمكانك أن تناديني كما تشاء.

- بم ينادونكِ؟

- بحسب الظرف. قحبة، ساقطة، خنزيرة؛ أو كلٌّ باسم زوجته أو أمّه... ذات مرّة ناداني طالبٌ تائب من معهد القساوسة بـ «Mater».

ظننت أنّه يريد استخدام الـ «Water»، ثمّ اكتشفتُ أنّها تعني «الأمّ» باللاتينية.

- أنا فرناندو، لكنّ الجميع ينادونني فرنانديتو.

- قل لي يا فرناندو، هل اختليت بامرأة من قبل؟

أومأ بقناعةٍ مشلولة. دلالةٌ سيّئة.

- هل تعرف ما ينبغي فعله؟

- في الحقيقة، ما أردتُ سوى قضاء بعض الوقت هنا. لا داعي الفعل شيء.

قطبت ماتيلدا جبينها. تلك الأساليب الملتوية هي الأسوأ. قرّرت أن تعدِّل الموقف، فانتقلت إلى فكّ حزامه وتنزيل بنطلونه. فأوقفها.

- لا تخف يا عزيزي.

- لست خائفاَ يا ماتيلدا. - قال فرنانديتو.

فتوقَّفت وحدّقت إليه.

- هل ثمة من يلاحقك؟

هز رأسه بنعم.

- حسنا. الشرطة؟

- أعتقد.

نهضت المرأة وجلست بجانبه.

- هل أنت واثق من عدم رغبتك في فعل شيء؟

- أريد البقاء هنا بعض الوقت لا أكثر. إن كان ذلك لا يزعجك. - ألا أعجبك؟

- لم أشأ قول هذا. أنت جذّابة للغاية.

قهقهت ماتيلدا.

- هل أنت مرتبط بفتاة تحبّها؟

لم يردّ.

- أنا واثقة من ذلك. هيّا. ما اسم خطيبتك؟

- ليست خطيبتي.

كانت ماتيلدا ترميه بنظرة استقصائيّة.

- اسمها أليثيا. - قال فرنانديتو.

حطّت يدُ المرأة على فخذه.

- أنا واثقة من أنّني أحسِنُ صنع أشياء لا تستطيع فعلها أليثيا خاصّتك.

أدرك فرنانديتو أنْ ليس لديه أدنى فكرة عن الأشياء التي تحسن أو لا تحسن أليثيا صنعها، على الرغم من أنّه فكّر فيها كثيرًا. كانت ماتيلدا ترمقه بفضول. استلقت على السرير وأمسكت يده.

نظر إليها تحت ضوء المصباح الواهن الذي يضفي عليها هالة مصفرّة، فإذا به يعي بأنّها أكثر شبابًا ممّا تصوَّر، من الوارد أنّها لا تكبره بأكثر من أربع أو خمس سنوات.

- إن أردت، بوسعي أن أعلّمك كيف تداعب فتاة.

سال لعاب الفتي.

- أعرف فعل ذلك. - قال بحيويّة مضمحلّة.

- ما من رجل يحسن مداعبة فتاة يا عزيزي. اسمع منّي. حتّى أكثرهم براعة، أصابعه مثل عرانيس الذرة. تعال، استلق بجانبي.

تردد فرنانديتو.

- انزع ثيابي. شيئًا فشيئًا. كلّما أبطأتَ في تعرية الفتاة، استحوذتَ عليها بسرعة أكبر. تخيَّل أنّني أليثيا. لا بدّ أنني أشبهها بعض الشيء.

كالبيضه لحبّه الكستناء، فكّر الفتي، رغم أنّ صورة اليثيا مستلقية بجواره على السرير وذراعاها مبسوطتان خلف ظهره شوَّشت عليه الرؤية. شدّ فرنانديتو قبضتيه لاحتواء ارتعاشه.

- لن تعرف أليثيا بما سيجري. فأنا أحفظ الأسرار. هيّا.

(19)

لا يبدو أنّ هذا المبنى الواجم قد تعرّضَ للشمس يومًا، إذ كان مدفونًا في زاوية مظلمة حيث يفقد شارعِ أوسبينال اسمه الجميل، محميًّا ببوّابة حديديّة تمنع الدخول، لا لافتاتٍ عليها ولا إرشاداتٍ تُمكِّنُ من التكهُّن بما تخفيه خلفها. توقّفت سيّارة الشرطة هناك. ونزل بارغاس وليناريس.

- أما يزال المسكين هنا؟ - سأل بارغاس.

- لا أعتقد أنّ السماء تمطر عليه عروضًا للذهاب إلى مكان آخر.

- قال ليناريس وهو يقرع الجرس.

انتظرا حوالي الدقيقة قبل أن ينفتح الباب نحو الداخل.

واستقبلتهما نظرةُ زاحفٍ لصاحبها ذي الملامح المكفهرّة الذي أفسح لهما المجال للدخول بطريقةٍ تخلو من المودّة.

- ظننتُ أنّك متّ. - سلّمَ على بارغاس إذ عرفه.

- وأنا أيضًا اشتقت إليك يا براوليو.

كان المحاربون القدامى يعرفون هذا القزم ذا الجلد المخشوشن لفرط استعمال الفورمالين، والخطوة المرتبكة التي توحي بالرتل العسكريّ. إنّه مساعدُ الطبيبِ الشرعيّ والروحُ المعذّبة الرسميّة في ذلك المكان. تؤكّد الألسنة الحاقدة أنّ براوليو يمضي قُدُمًا في سراديب المشرحه جاعلًا من القذاره فنًّا، ويشيخ بأسوأ الطرق على سريرٍ يعزوه العثّ، لا يملك إلّا لباسين يبدّل بينهما منذ أن دخل هذه المؤسسة في ظروف مأساويّة حين أتمّ عامه السادس عشر.

- الطبيب ينتظركما.

تبعه بارغاس وليناريس على امتداد ابتهالات الممرّات الرطبة والمصبوغة بظلمة مخضوضرة تفضي إلى قلب المشرحة. تقول الأسطورة السوداويّة أنّ براوليو وصل إلى هناك قبل ثلاثين عامًا خلت، بعد أن دهسه الترام قبالة سوق سان أنطونيو بينما كان يهرب من عمليّة سرقة صغيرة، أي المحاولة الفاشلة للاستحواذ على دجاجة هزيلة، وفي روايةٍ أخرى: حفنة ملابس داخليّة. اعتبره سائق سيّارة الإسعاف ميّتًا حينها، عندما رأى فوضى أشلائه المترابطة بعقدة مستحيلة. وبعد أن وضعه في العربة كما لو كان كيس نفايات، توقّف لتذوّق أنواع النبيذ مع أحد أصدقائه في حانةٍ من شارع التجارة، قبل أن يُسلِّمَ صرّة العظام الدامية إلى مشرحة قسم الشرطة في حيّ الرافال، الأقرب نسبيًّا من مشرحة مستشفى كلينيكو. وحين تهيّأ الطبيب الشرعيّ المعاين لغزِّ المبضع وتجريف أحشائه، جحظت عينا الميّت وبُعِثَ حيًّا بقفزة واحدة. عومل الحدثُ على أنّه معجزة النظام الصحيّ الوطنيّ، وتلقّى تغطية واسعة من قِبَلِ الصحافة المحليّة لأنّ الحدث قد وقع خلال الصيف، الفصل الذي تميل فيه الجرائد لنشر الغرائبيّات والعجائبيّات الخفيفة كي تساهم في

تقليص موجة القيظ التي لا تطاق. «على شفا الموت، يعود إلى الحياة بأعجوبة أثناء تشريحه» - هكذا عنونت إلنوتيثيرو أونيبرسال صفحتها الأولى.

بيد أنّ شهرة براوليو وأمجاده لم تعمّرا طويلًا واتّضح أنّها تلائم تفاهات العصر، إذ عُرِف أنّ المذكور أعلاه قبيحٌ دميم ويعاني من امتلاء غازات مزمن، نظرًا إلى أنّ أمعاء الغليظة ظلّت مضمومةً كأسنان المشط الثخينة؛ ما أرغم جمهورَ القرّاء على نسيانه سريعًا ليعيد تركيزه على حياة مغنّي الأغاني الهابطة ونجوم كرة القدم. لكنّ براوليو المسكين، الذي ذاق عسل الشهرة، لم يكن راضيًا بالعودة إلى عالم المغمورين المهان. ففكّر أن ينتحر بابتلاع معجّنات الصوم الفاسدة.

فإذا بلحظة تصوُّف تنقضُّ عليه وهو جالس على المرحاض بسبب النوبة الحادّة لالتهاب القولون، فرأى النور وأدرك أنّ الربّ - بأقداره الملغّزة - شاء له حياةً فريدة بين الظلمات في خدمة التصلّب الموتيّ وأخواته.

ومع السنوات والسأم، صاغت الثقافة الشعبيّة في قسم الشرطة روايةً مشوّشة حول صورة براوليو ومغامراته ومعجزاته، ففي انتقاله المنقطع ما بين العالمين لا بدّ أن تلبَّسته روحٌ شرّيرة ترفض النزول إلى الجحيم، إذ كانت تشعر بأوجها في برشلونة إبّان الثلاثينيّات، التي كانت بحسب الراسخين في العِلم تشبهه كثيرًا.

- وإلى متى تبقى أعزب يا براوليو؟ - سأله ليناريس - لا بدّ أنّك تجذب طابورًا من النساء برائحة النقانق العفنة التي تتميَّز بها.

- لديَّ من الحبيبات ما يزيد عن حاجتي. - ردَّ براوليو وهو يغمز بعينه ذات الجفن المتهدّل والبنفسجيّ الذي يبدو كالضمادة - وكلُّهنَّ راضيات.

- كفَّ عن التفوّه بالترّهات وآتني بالجثّة يا براوليو. - أمره صوتٌ ينبثق من الظلام.

وما إن سمع صوت معلّمه، انطلق براوليو كالصاروخ، فتراءى لبارغاس طيفُ الطبيب أندريس مانيرو، الطبيب الشرعيّ ورفيقه القديم على الشقاء. تقدَّم مانيرو ومدّ يده.

- ثمّة أشخاصٌ لا يسجّلون حضورهم إلّا في الجنائز، أمّا أنت فلا اراك حتّى في جنازة؛ لا نلتقي إلّا في حالة تشريح وأعياد مفروضه أخرى. - قال الطبيب.

- دليلٌ على أنّنا ما نزال أحياء.

- هذا صحيح بالنسبة إليك يا بارغاس، فأنت مثل الثور. متى التقينا آخر مرّة؟

- منذ خمسة أو ستة أعوام على الأقلّ.

أومأ مانيرو مبتسمًا. لاحظ بارغاس، رغم ضحالة الإضاءة في القاعة، أنّ صديقه القديم قد شاخ أكثر ممّا كان محتومًا عليه. ثمّ سُمِعَت خطوات براوليو المتخبّطة وهو يدفع المحفّة. كان الجسد مغطّى بستارٍ قد التصق عليه، حتى كاد يصير شفّافًا بفعل الرطوبة. اقترب مانيرو من المحفّة ورفع جانب الكفن الذي يغطّي الوجه. ومن دون أن يغيّر تعبير وجهه، أحاد نظره باتجاه بارغاس.

- براوليو، اتركنا.

قوّس المساعد حاجبيه مستاءً.

- الطبيب ليس بحاجة إليّ؟

- لا.

- لكنّي ظننتُ أنّه بإمكاني مساعدتك في...

- أسأتّ الظنَّ. اخرج قليلًا ودخِّن سيجارة.

رمى براولير نظرة حادّة إلى بارغاس، ولم يكن لديه شكٌّ بأنّه السبب في عدم مشاركته بالحفلة الوشيكة. فردَّها عليه بارغاس وغمز له بعين وأشار إلى المخرج.

- إلى الهواء يا براوليو. - أمره ليناريس - لقد سمعتَ الطبيب.

تحمَّمْ بماء ساخن، وحاولْ إن استطعتَ أن تفرك عورتك بالمطهِّر والحجر المحكاك. فمرّةٌ في السنة، حسنة. آه، أهديك القافية!

غادر براوليو والسخط بادٍ عليه، يعرج ويمضغ اللعنات. وما إن تخلَّصوا منه حتى أزال مانيرو الكفن كليًّا واضاء صفّ المصابيح المتدليّة من السقف. ضوءٌ شاحب، من بخارٍ وجليد، نَحَتَ أطراف الجسد.

تقدَّم ليناريس، ألقي نظرة خاطفة على الجثّة، وتنهَّد.

- رحماك يا ربّ...

أشاح أنظاره واقترب من بارغاس.

- هل هو مَن يبدو لي؟ - غمغم.

جابَهَ بارغاس نظراته دون أن يجيب.

- لا يمكنني التغطية على هذا. - قال ليناريس.

- أفهمك.

أخفض ليناريس عينيه وهزّ رأسه.

- هل بإمكاني أن أساعدك في شيء آخر؟

- بإمكانك أن تقطع ذيلي.

- لا ألاحقك.

- أحدهم يلاحقني. أحد رجالك.

حدَّق إليه ليناريس، بابتسامة ذاوية.

- لم أعيِّن أحدًا لملاحقتك.

- لا بدّ أنّه مُعيَّنٌ من مستويات عليا إذن.

هز ليناريس رأسه.

- لو كان أحدٌ يلاحقك لبلغني ذلك. سواء أكان من رجالي أم لا.

- إنّه شابّ، ومغفّلٌ نوعًا ما. صغير البنية. مبتدئ. روبيرا، اسمه.

- روبيرا الوحيد الذي لدينا في القيادة يعمل في الأرشيف، عمره ستّون عامًا، ولديه من شظايا الرشّاش في ساقيه ما يكفيه لافتتاح محلّ خردة. لا يمكن لهذا المسكين أن يلاحق ظلّه، حتى لو مدفوع الأجر.

قطّب بارغاس جبينه. وكان وجه ليناريس ينضح بالخيبة.

- قد أكون أشياء كثيرة يا بارغاس، لكنّي لست ممّن يطعنون رفاقهم بالظهر. – قال.

أراد بارغاس أن يردّ، لكنّ ليناريس رفع كفّه لإسكاته. فلقد كُسِرَت الثقة.

- لديك مهلة حتى آخر الصباح. بعدها، عليَّ أن أعدّ التقرير.

هذه الحكاية ستستغرق وقتًا طويلًا وقد تنجم عنها مشاكل. تعلم ذلك.

- قال وقد بلغ المخرج - ليلة سعيدة أيّها الطبيب.

كان براوليو متمرسًا في ظلّ الزقاق المحاذي للمشرحة، وقد شاهد طيف ليناريس وهو يبتعد في الليل. «سأقضي عليك أيّها الوغد» - قال في نفسه. كلّ أولئك الديكة الذين جاؤوا إلى الحياة لينتقصوا من كرامته، سينتهي بهم المطاف مثل الآخرين عاجلًا أم آجلًا: قطعة لحم منتفخة وراقدة على صفيحة رخاميّة، تحت رحمة الحديد المشحوذ جيّدًا ونزوات من يعرف استخدامه. وهو بنفسه سيكون لهم بالمرصاد لتوديعهم بما يلائمهم. لم تكن المرّة الأولى ولا الأخيرة. يخطئ من يظنّ أنّ في الموت نهايةً للمذلّة التي تفرضها علينا الحياة. هنالك قائمةٌ عريضة من التهكّم والإذلال تنتظر خلف الكواليس عندما يُسدَل الستار؛ وبراوليو العجوز الطيّب سيكون هناك لانتزاع بعض الذكريات وإضافتها إلى معرض غنائمه، لكي يتأكّد أنّهم لا يدخلون عالم الخلود إلّا بحصولهم على المكافأة التي يستحقّونها. كان قد أضمر الغلّ بحقّ ليناريس منذ مدّة طويلة. ولم ينسَ صديقه بارغاس أيضًا. لا شيء يحفظ الذاكرة مثل الحقد.

- سأفرّق لحمك عن عظمك مثل الخنزير المقدّد، وأصنع من خصيتيك حمّالة مفاتيح أيها الخراء.
- غمغم - سيحدث هذا أقرب ممّا تظن.

لا يملّ براوليو من الإصغاء إلى نفسه، بل اعتاد على ذلك، وكان حينها يبتسم في سرّه مبتهجًا، فقرر أن يحتفل بموهبته وحظّه وذلك بإشعال سيجارة، تصدّيًا للبرد الذي يتخلّل شارع أوسبيتال في تلك الساعة من الليل. تحسَّس جيوب معطفه، الذي ورثه من فقيدٍ ذي ميول تخريبيّة مرّ على شبّاك التذاكر قبل أسابيع في حالةٍ تشهد على أنّ قيادة الشرطة ما زال فيها فنّانون يتمتعون بخطىً متينة. كانت علبة الثيلتاس فارغة. أغرق يديه في جيبيه ولاحظ أنّ البخار يرشح من فمه. حَسَبَ أنّ ما سيتقاضاه من إندايا عندما سيخبره بما رأى، سيساعده على شراء أعواد كثيرة من

الثيلناس، بل وحتّى مرطبان فازلين ناعم، المعطّر الذي يبيعونه في محلّ خينارو الصينيّ للتنظيفات. إذ ينبغي معاملة بعض الزبائن باحترام كبير.

انتشله صدى خطوات في الظلام من قعر أفكاره المجترّة. ضيَّق عينيه فلمح طيفًا يتشكَّل بين ثنايا الضباب ويتقدّم نحوه. تراجع براوليو إلى الخلف حتى ارتطم بالبوّابة. لا يبدو الزائرُ أطول منه، لكنّ ملامحه تفصح عن هدوءٍ مريب وتصميمٍ اقشعرّ له شعره القليل المتدلّي على رقبته. توقّف قبالة براوليو وأمدَّه بعلبة سجائر مفتوحة.

- لا بدّ أنّك السيّد براوليو. – قال.

لم ينادِهِ أحدٌ بالسيّد في حياته كلّها، لكنّ براوليو اكتشف أنّ نبرة ذلك الرجل المجهول لا تعجبه.

- ومن تكون حضرتك؟ هل أرسلك إندايا؟

اكتفى الزائر بالابتسام ورفع علبة السجائر حتى بلغت مستوى وجه براوليو، فأخذ منها واحدة. أخرج المجهول ولّاعة بنزين، وأشعلها وقرّب لهيبها إليه.

- شكرًا. – غمغم.

- لا داعي للشكر. قل لي يا سيّد براوليو، من يوجد في الداخل؟

- أكوام من الجثث. ماذا تظنّ أنّه في الداخل؟

- أقصد الأحياء.

تردّد براوليو.

- أرسلك إندايا، أليس كذلك؟

اكتفى المجهول بالتحديق إليه دون أن يكفّ عن الابتسام. فمضغ براوليو ريقه.

- الطبيب الشرعيّ ورجل أمن من مدريد.

- بارغاس؟

هزّ رأسه بنعم.

- وما رأيك؟

- عفوا؟

- ما رأيك بالسيجارة؟

- راقية جدًّا. أهي مستوردة؟

- مثلها مثل كلّ الأشياء الجيّدة. المفاتيح بحوزتك، صحيحٌ يا براوليو؟

- المفاتيح؟

- مفاتيح المشرحة. أخشى أنّي سأحتاج إليها.

- لم يوصني إندايا بتسليم المفاتيح لأحد.

رفع المجهول كتفيه.

- تغييرٌ في الخطّة. - قال وهو يغلّ يديه بقفّازين في منتهى الهدوء.

- هيه، ماذا تفعل؟

ومض الحديدُ لأقلّ من ثانية. شعر براوليو بنصل السكّين - أشدّ أنواع البرد ضراوةً عرفها في حياته - يغزّ في أحشائه. لم يحسَّ بالألم في بادئ الأمر إلّا قليلًا، مجرّد حدسٍ بأقصى تجلّيات الصفاء والضعف كلّما أمعن النصل بتمزيق أمعائه. وعندما غرس المجهول سكّينه حتى المقبص ثانيةً في أسفل البطن، وسحبها بقوّة نحو الأعلى، شعر براوليو بذلك البرد يستحيل نارًا. خطّافٌ من حديدٍ مستعرٍ يفتح طريقه نحو القلب. فاض حلقه بالدماء، واختنقت صرخاته في حين كان المجهول يجرّه في الزقاق ويسلبه باقة المفاتيح المعلّقة بحزامه.

(20)

اجتاز الدهاليز المظلمة وولج الممرّ المؤدي إلى قاعة عمليّات التشريح. ثمّة هالةٌ خضراء تتسرّب من فجوات الباب. وكان صوت الرجلين يصل إلى هناك. يتحدّثان كصديقين قديمين، مخلّفين لحظات صمت لا تحتاج إلى تبرير، ويتمازحان كي يسليا عن العمل الذي تحت أيديهما. أنهضَ جسمه حتى الكوّة الزجاجيّة الملوّنة التي تعتلي الباب.

حدَّدَ طيف بارغاس، جالسًا على إحدى الصفائح الرخاميّة، وطيف الطبيب الشرعيّ، محنيًّا على الجثّة. استمع إلى الطبيب وهو يشرح نتائج عمله هو بالتفصيل. لم يتمالك نفسه من الابتسام على الفطنة التي كان الطبيب يحلّل بها تفاصيل اللحظات الأخيرة لحياة لومانا، ويثمّن براعة الذبح، والدقّة التي جرَّ بها شرايين ذلك الغشيم وقصبته الهوائيّة ليراه يموت على ركبتيه، والهلع يغلي في عينيه والدماء تسيل بغزارة بين اليدين. لقد اعتاد الكبار النبلاء على الاعتراف بالعمل المنجَز بإتمام.

وقد شرح الطبيب الطعنات التي غزَّها الرجلُ في جذع لومانا حين تشبَّث الأخيرُ بساقيه، محاولًا أن يمنعه من رفسه عند حافة المسبح، ولكن بلا جدوى. لا وجود للماء في الرئتين، فسّر الطبيب، دماءٌ فقط لا غير، ما يعني أنّ لومانا كان قد اختنق بدمائه قبل أن يغرقّ في المياه الآسنه. ذلك الطبيب رجلٌ خبير، محترفٌ ضليعٌ بمهنته، وما يريده علمُه إلّا احترامًا وتقديرًا. من النادر أن تعثر على مثيل له. ومن أجل تلك الأسباب، قرّر الرجل أن يوفَّر حياته.

أمّا بارغاس، فكان ثعلبا عجوزًا، يرمي بالأسئلة هنا وهناك ببصيرةٍ لافتة. لم ينكر ذلك، لكنّ تخبُّطه في المسألة كان جليّاَ، كما أنّه لن يخرج من زيارته للمشرحة بنتيجة كبرى، ما عدا تلك التفاصيل عن احتضار لومانا. وبينما كان يسترق السمع، فكّر في احتمال الانصراف والاستراحة بضع ساعات أو البحث عن عاهرة تدفّئ قدميه حتى الفجر.

فمن الواضح أنّ تحقيقات بارغاس ستسير به في سكّة مسدودة، وما من داعٍ للتدخُّل. ناهيك بأنّ الأوامر محدَّدة: عدم التقدُّم بأيّ نقلة إلّا إذا كان لا مناص منها. الأمر يؤسفه طبعًا؛ كان يتوق إلى مواجهة الأمنجيّ العجوز ليرى إن كان قادرًا على التشبُّث بالحياة. أولئك الذين يقاومون المحتومَ كانوا المفضَّلين عنده. أمّا تلك الشهيّة أليثيا، فقد ادّخر لها شرف الختام. سيأخذ ما يشاء من وقت في قتلها ويستمتع بالمكافأة بكلّ قواه. كان يعرف أنّ أليثيا لن تخيِّب ظنّه.

تريَّث نصف ساعة أخرى حتى فرغ الطبيبُ من فحوصاته وقدَّم لبارغاس كأسًا صغيرة من مشروب روحيّ كان يحتفظ به في خزانة الأدوات. وانتقلت المحادثة بينهما نحو مواضيع عامّة ودقيقة بين أصدقاء قدامى فرَّقتهم السُّبل، ودردشة سخيفة عن مرور الزمن، والذين رحلوا خلال المسير، وتفاهات أخرى عن الشيخوخة. غلبه الملل فاستعدّ للانصراف عن الإصغاء إليهما، فإذا هو يلاحظ أنّ بارغاس يُخرِجُ من جيبه قطعة ورقيّة ويعاينها تحت أضواء متدلّية من السقف.

انخفض الصوتان حتى استحالا همهمةً، فتوجَّبَ عليه أن يُلصِقَ أذنه بالباب كي يميِّزَ الكلمات.

أحسَّ الطبيب مانيرو بأنّ الباب يهتزّ بخفّة.

- براوليو، أهذا أنت؟

لم يحصل على جواب، فتنهّد الطبيب وهزّ رأسه.

- عندما لا أسمح له بالبقاء معي، يختبئ أحيانًا خلف الباب ويتنصَّت. - فسّر قائلًا.

- لا أدري كيف تستطيع تحمُّله. - قال بارغاس.

- أقول لنفسي إنّه من الأفضل أن يبقى هنا على أن يتسكّع في أرجاء المدينة. فهنا أراقبه على الأقلّ. المشروب لذيذ، ها؟

- ما هو؟ سائلٌ للتحنيط؟

- سائل التحنيط، أحتفظ به للمناسبات التي يتوجَّب عليّ فيها أن آتي بشيء ما، كحفلات الزفاف وأعياد المناولة لعائلة زوجتي. حدّثني عن القضيّة؟ ما الذي كان يفعله لومانا المسكين في مسبح فيلا في بايبذريرا؟

رفع بارغاس كتفيه.

- لا أدري.

- سأحاول بالأحياء إذن. ما الذي تفعله أنت في برشلونة؟ إن لم تخنّي الذاكرة، كنتَ قد أطلقتَ عهدًا بعدم العودة إلى هنا أبدًا.

- العهد الذي لا يُنكَث لا يستحقّ تلك التسمية.

- وهذا؟ كنت أحسَبك مهتمًّا بالأدب.

أشار مانيرو إلى لائحة الأرقام التي يحملها النقيب بيده.

- ومن يدري. أحتفظ بها منذ أيّام ولا أعرف حتى ما الذي تعنيه.

- هل لى بإلقاء نظرة؟

أمدّه بارغاس بالورقة وراح الطبيب الشرعيّ يفحصها وهو يرتشف من المشروب.

- كنت أفكّر أنّها أرقام حسابٍ مصرفيّ. - ارتجل بارغاس.

نفي الطبيب برأسه.

- لست متاكدًا من الجدول الأيمن، لكنّ الأرقام التي في الجدول الأيسر لا بدّ أن تكون شهادات. - قال.

- شهادات؟

- شهادات وفيات.

نظر إليه بارغاس مستفهمًا. أشار مانيرو إلى الجدول الأيسر.

- هل ترى الترقيم؟ يتَّبع النظام القديم. ولقد استحدثوا ترقيمًا جديدًا منذ أعوام. لكنّ هذه الأرقام ما تزال تعبّر عن رقم الإضبارة والسجلّ والصفحة. والأرقام الأخرى تضاف لاحقًا. نحن هنا نولّد أرقامًا كهذه كلّ يوم. حتى صديقك لومانا سيكون بحوزته رقمٌ يرافقه إلى أبد الآبدين.

ازدرد بارغاس الكأس رشفة واحدة وعاد يتفحَّص اللائحة كما لو كانت أحجية يعاركها منذ أعوام، وصار لها معنى على حين غرّة.

- والأرقام التي في الجدول الأيمن؟ تبدو متناسبة، لكنّ تسلسل الترقيم يختلف. هل يمكن أن تكون أرقام شهادات أيضا؟

ضيّق مانيرو عينيه ورفع كتفيه.

- يبدو ذلك، لكنّها ليست من قسمي.

فلتت تنهيدة من صدر بارغاس.

- هل تساعدك اللائحة بطريقة أو بأخرى؟ - سأله مانيرو بمزيدٍ من الاهتمام.

هزّ النقيب رأسه.

- أين يمكنني أن أجد الأضابير التي تتجاوب مع أرقام شهادات الوفيات هذه؟

- وأين يمكن أن تجدها؟ هناك حيث يبدأ كلّ شيء في هذه الحياة وينتهي: سجلُّ النفوس المدنيّ.

(21)

أنبأه خيط الضوء المتغلغل من نافذة الحمّام الصغيرة بطلوع الصباح. جلس فرنانديتو وسط السرير وألقي نظرة على ماتيلدا النائمة بجواره. داعب جسدها العاري بعينيه وابتسم. ففتحت عينيها ونظرت إليه بوجهٍ رائق.

- كيف الحال يا فنّان؟ هل اطمأنّ بالك قليلًا؟

- لعلّهما غادرا؟ - سأل الشابّ.

تمطّطت ماتيلدا وبحثت عن ثيابها المبعثرة عند أقدام السرير.

- لا أحد يدري. اخرج من النافذة المطلّة على الزقاق. سيأخذ بك إلى أحد بوّابات السوق.

- شكرًا.

- الشكر لك يا عزيزي. هل أنت أفضل حالًا؟

تضرَّج وجهه، لكنّه أكّد بهزّةٍ من رأسه بينما كان يرتدي ثيابه تحت الظلام. مدّت ماتيلدا يدها نحو علبة السجائر التي تركتْها على الدرج وأشعلت واحدة. راقبت فرنانديتو وهو يلبس بسرعة وارتعاد، واحتراس وحياء على الرغم من الحصّة التعليميّة التي تلقاها للتوّ. وعندما بات مستعدًّا، نظر إليها وأشار إلى النافذة.

- من هنا؟

أومأت ماتيلدا.

- ولكن توخَّ الحذر، لئلا تهشِّم وجهك. أريدك أن تعود لزيارتي كاملًا مكمّلًا. لأنّك ستعود، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. - كذب فرنانديتو - ما إن أستلم راتبي.

أطلَّ برأسه من النافذة وتفحَّص الفِناء الداخليّ المفتوح على الزقاق الضيّق الذي أحالت عليه ماتيلدا.

- حذار من السلّم، لأنّه مكسور قليلًا. من الأفضل أن تقفز فأنت شابّ.

- شكرا. ووداعًا.

- وداعًا يا عزيزي. حظًّا سعيدًا.

- لكِ أيضاّ. – أجاب.

وما كاد يلج النافذة حتى سمع صوتها يرنّ خلف ظهره.

- فرناندو؟

- نعم؟

- عامِلْها جيّدًا. حبيبتك. أيًا كان اسمها. عاملها جيدًا.

ما إن غادر المشرحة، أحسَّ بارغاس بالعودة إلى الحياة بعد فاصلٍ طويل قضاه في المطهر. اتّقدت روحه بفضل المشروب الذي قدّمه الطبيب مانيرو، ولاسيّماً بفضل الكشف عن معنى نصف أرقام تلك اللائحة. حتى كاد ينسى أنّه لم يغمض جفًا منذ ساعات طويلة. كان جسده يتغلّب على التعب، ولو توقَّف لحظةً للتفكير في ذلك لأدرك أنّ عظامه تؤلمه، وذاكرته توجعه على وجه الخصوص؛ غير أنّ فتات تلك المعلومات المستكشفة لوَّح له بإمكانيّة توضيح شيء ما، الأمر الذي أبقاه واقفًا على قدميه واثق الخطوة. خطر في باله أن يذهب إلى بيت أليثيا ليطلعها على المستجدّات، لكنّه لم يكن بعد واثقًا من أنّ لائحة أرقام شهادات الوفيات - التي حملها ڤايس معه في رحلته السريّة من مدريد - قد تفضي إلى نتيجة ملموسة. فقرّر أن يتأكّد منها أوّلًا. اتجه نحو ساحة ميديناثيلي، واحة النخيل والحدائق المستقطعة بين الأبنية المتهالكة وهبّات الضباب الآتيه من ورشات المرفأ، حيث ستفتح دائرة سجلّ النفوس المدنيّ في برشلونة أبوابها بعد قليل.

وفي مسيره توقَّفَ عند أوستال أمبوس موندوس في الساحة الملكيّة، المقهى الذي يقدّم الفطور والقهوة لأبناء الليل الذين يرسون فيه ليزوّدوا بالوجبة الأخيرة. جلس إلى المصطبة، وأشار إلى نادلٍ ملءُ وجهِهِ سالِفَان وشدق، وطلب شطيرة لحم مقدّد وبيرة وفنجان قهوة معدّلة بقطرة كونياك.

- لم يعد لديّ إلا من الكونياك باهظ الثمن. - نبَّهه النادل.

- فزوّدْها ضعفًا إذن. - رد بارغاس.

- إن كنتَ تريد أن تحتفل يا سيّدي، فما رأيك بسيجار روميو وخوليتا بدلًا من الحلوى. مستوردٌ من كوبا مباشرة. سُكّرةٌ من تلك التي تلفّها الحسناوات بين أفخاذهنّ...

- لا أمانع.

لطالما سمع بارغاس من يقول إنّ الفطور هو أهمّ وجبة في النهار، حتى يحين موعد الغداء على الأقلّ. فما بالك بسيجار فاخر في ختام الفطور؟ لا يمكن إلّا أن يجلب لك الحظّ السعيد. استأنف سيره مخلَفًا وراءه هالة من دخانٍ كاريبيّ، بمعدةٍ ممتلئة وروح متأججة بالأمل.

كانت السماء مصبوغة بلون الكهرمان، والضوء البخاريّ يتسيَّلُ على واجهات المباني، أوحى إليه بأنّ ذلك اليوم سيكون من تلك الأيام، المعدودة، التي يلتقي فيها بالحقيقة، أو بشيءٍ يشبهها بما فيه الكفاية.

مثلما سينشد الشاعرُ بعد أعوام، الشاعر الذي سيرتاد تلك الطرقات نفسها: قد يكون يومًا عظيمًا.

على بُعد خمسين مترًا من ورائه، كان المراقب يتّتبع أثره بلا هوادة، لائذًا بزاوية مظلّلة بتيجان بناية مهدومة. وعلى الرغم من السيجار الذي في يده، والمعدة الممتلئة والروح المشبعة بالآمال

الزائفة، بدا له بارغاس منتهيًّا أكثر من أيّ وقت مضى. وكان الاحترام الشحيح الذي خصَّه للنقيب يتبخَّر مثل حجاب الضباب الذي ما زال يزحف على الأرض تحت قدميه.

وقال لنفسه إنّه لم يره هكذا من قبل، لم يكن ليسمح للمشروب والرضا النفسيّ أن يشوِّشا عقله أو أن يجعلا جسمه صرّة عظام بلا قلب شجاع. لطالما سبَّب العُجَّزُ اشمئزازه. فإن كانوا يوشكون على التفسُّخ كالكلاب السقيمة، لا يجرؤون على القفز من نافذة أو الارتماء تحت المترو، فلماذا لا يطلق عليهم أحدٌ رصاصةَ الرحمة ويبعدهم عن التداول بما فيه مصلحة المجتمع؟ ابتسم المراقب، معجبًا كالعادة من ألمعيّة أفكاره. أمّا هو، فكان سيبقى شابًا أبد الدهر، لأنّه أذكى من الآخرين. لم يكن ليقترف أخطاءً كتلك التي تجعل من رجلٍ قويّ كبارغاس انعكاسا مأساويًّا لما كان يستطيع أن يصير. مثل ذاك المعتوه لومانا، الذي عاش حياة خرائيّة ومات جائمًا على ركبتيه، يشبك عنقه بيديه، بينما كان هو يتمعّن شعيرات عينيه كيف تتفجَّر تحت القرنيّة فيما تتّسع حدقتاه بمرآةٍ سوداء. بائسٌ آخر لم يفرّ بجلده قبل الأوان.

لم يكن خائفًا منه. لم يكن خائفًا ممّا استطاع أو ظنّ أنّه استطاع اكتشافه. عضّ على لسانه كي لا يضحك. تبقّى القليل. فعندما تنعدم الضرورة من ملاحقة النقيب وتُغلَقُ القضيّة نهائيًّا، سيلتفت أخيرًا للتمتّع بمكافأته: أليثيا. على انفراد، وبلا عجالة، تمامًا كما وعده المعلّم. سيأخذ ما طاب له من وقت ويستخدم ما شاء من مهارات ليُعلّم تلك القحبة المخمليّة أنها ليس لديها ما تعلّمه له. وقبل أن يرميها في هوّة النسيان الذي لن تخرج منه، سيعمل عليها حتى النهاية كي يعلّمها معنى الألم الحقيقيّ.

حين فتحت أليثيا عينيها، كانت النوافذ تلمع بضوء الفجر. ثنت رأسها وأغرقت وجهها في وسادة الأريكة. كانت ما تزال بملابس اليوم السابق، يعربد في فمها مذاق اللوز المرّ الذي تخلّفه الأدوية إذا امتزجت بالكحول. ثمّة شيء يطرق أذنيها. فتحت عينيها ما استطاعت فرأت علبة الحبوب على الطاولة، بجانب بقايا كأس النبيذ الأبيض الفاتر الذي تجرَّعته برشفة واحدة. حاولت أن تملأ الكأس ثانيةً، فاكتشفت أنّ القنّينة فارغة. راحت تمشي في الظلام نحو المطبخ، وحينها أدركت أنّ المطرقة على صدغيها لم تكن نبض قلبها ولا أثر الصداع الناجم عن الدواء؛ إنّما طرقٌ على الباب فعلًا. اتّكأت على كرسيّ في صالة الطعام وفركت عينيها. سمعت صوتًا من الطرف الآخر يردّد اسمها بإلحاح. جرّت نفسها إلى الباب وفتحته. فرنانديتو، بمظهر مَن ذهب حتى نهاية العالم وعاد، يرمقها متوجِّسًا أكثر من كونه مسرورًا.

- كم الساعة؟ - سألته.

- باكرٌ جدًّا. هل أنتِ بخير؟

هزّت رأسها بعينين شبه مغمضتين وعادت تترنّح صوب الأريكة.

أغلق فرنانديتو الباب وأمسك بها قبل أن تسقط في دربها وساعدها على الهبوط سالمة وغائمة على الوسائد.

- ما هذه الأشياء التي تتناولينها؟ - سألها متفحّصًا علبة الحبوب.

- أسبيرين.

- مخصَّصٌ للأحصنة.

- ما الذي تفعله هنا في هذه الساعة؟

- لقد كنتُ في بيت إل بينار هذه الليلة. لديّ ما أرويه لكِ.

تحسّست أليثيا الطاولة بحثًا عن السجائر. فأبعدها فرنانديتو دون أن تنتبه إليه.

- كلّي آذان صاغيه.

- لا يبدو. لِمَ لا تتحمَّمين بينما أعِدُّ القهوة؟

- هل رائحتي كريهة؟

- لا. ولكن قد تتحسّنين. هيّا، سأساعدكِ.

وقبل أن تعترض، رفعها عن الأريكة وحملها إلى الحمّام، حيث أجلسها على حافة الحوض وفتح الصنبور، يتلمّس حرارة الماء بيد ويمسك أليثيا باليد الأخرى لئلا تسقط.

- لستُ طفلًا رضيعا. – احتجّت.

- تبدين كذلك أحيانًا. هيّا، إلى الماء. إمّا تنزعين ملابسكِ بنفسكِ وإمّا نزعتُها عنكِ بنفسي.

- يحلو لك.

دفعتْهُ إلى الخارجِ وأغلقت الباب. رمتْ ثيابها أرضًا، قطعة إثر قطعة، كما لو أنّها تتخلّص من الحراشف الميّتة، ونظرت إلى المرأة.

- يا إلهي. – غمغمت.

وبعد ثانيتين ألقت بنفسها في الماء البارد الذي صعق جلدها بلا إيعاز وأعادها إلى عالم الأحياء. لم يتمالك فرنانديتو نفسه، وهو يُعِدُّ آلة صنع القهوة في المطبخ، فابتسم حينما سمع صرخةً آتية من الحمّام.

بعد ربع ساعة، أصغت أليثيا إلى حكاية أحداث الليلة السابقة وهي متدثّرة ببُرسُ أكبر من مقاسها، وشعرها ملفوف بمنشفة. وبينما كان فرنانديتو يفصّل ما حدث له، كانت ترتشف من فنجان القهوة السوداء الذي تحمله بين يديها. وعندما أنهى الشابّ حكايته، أنهت القهوة برشفة واحدة ونظرت إلى عينيه مباشرة.

- لم يكن عليّ أن أعرّضك للخطر بهذه الطريقة يا فرنانديتو.

- هذا اقلّ شيء. الرجل، إندايا، ليس لديه أيّ فكره عمَّن اكون.

لكنّي واثق من أنّه يعرف من تكونين يا أليثيا. أنتِ التي في خطر.

- وأين ذهبتَ بعد أن تواريت عن أعين العميلين؟

- وجدت ما يشبه النزل خلف سوق بوكويريا.

- ما يشبه النزل؟

- التفاصيل المشينة، نتركها ليوم آخر. ماذا نفعل الآن؟

نهضت أليثيا.

- أنت، لن تفعل شيئًا. لقد قمتَ بما فيه الكفاية.

- كيف، لا شيء؟ بعد كلّ ما جرى؟

اقتربت منه. كان فيه شيءٌ مختلف: طريقته في النظر إليها، وسلوكه في التعامل. اختارت عدم إثارة الموضوع، ستتركه لمناسبة، أفضل.

- ستنتظر هنا عودة بارغاس، وستقصّ عليه كلّ ما رويته لي تمامًا.

بالتفصيل.

- وأنتِ، إلى أين ستذهبين؟

أخرجت أليثيا المسدّس من الحقيبة التي كانت على الطاولة وتحقَّقت من جاهزيّة المخزن. وعندما رآها فرنانديتو والسلاح في يدها، عاد إلى حالته الطبيعيّة من الانبهار.

- أووووه...

(22)

في إحدى لحظات حبسه، بدأ ماوريسيو ڤايس يرى في الضوء مستهلًا للألم. أمّا في الظلام، كان باستطاعته أن يتخيَّل بأنّه ليس سجين تلك القضبان الصدئة، وأنّ جدران زنزاته لا ترشح بالرطوبة العفنة التي تنزلق كالعسل الأسود على الحجارة وتشكّل بركة مائجة تحت قدميه. في الظلام، لا يستطيع أن يرى نفسه خصوصًا.

لم تكن الظلمات التي يعيش فيها تنقشع إلّا مرّة في اليوم، حينما ينتأ خيط الضوء من أعلى السلالم، فيركِّز ڤايس أبصاره على الطيف الذي يتبدّى حاملًا معه القِدْر الصغيرة وما تحتويه من ماء قذر، إضافة إلى قطعة خبز يلتهمها في غضون ثوان. لقد تبدَّل السجّان، وظلّ التعامل على حاله. لم يكن الحارس الجديد يتوقّف لينظر إلى وجهه إطلاقًا، ولا يوجِّه إليه أيّ كلمة. كان يتجاهل أسئلته، وتوسُّلاته، وشتائمه ولعناته. يقتصر دوره على ترك الطعام والماء بجانب القضبان، وينصرف. ففي المرّة الأولى التي نزل فيها السجّان الجديد إلى هناك، تقيأ ما إن شمّ النتانة الآتية من الزنزانة والسجين. فصار منذئذ يأتي مغطّيًا فمه بمنديل، ولا يبقى إلّا ما يقتضيه الوقت. لم يعد ڤايس يشمّ الرائحة، ولم يعد يحسّ بالألم في ذراعه أو النبض الأبكم لتلك الخطوط الداكنة التي تنمو من اليد المبتورة مثل شبكة عروق سوداء. كان يتفسَّخ وهو حيّ، ولم يعد يكترث.

وقد بدأ يفكّر في اقتراب اليوم الذي لن ينزل فيه أحدٌ تلك العتبات، ولن ينفتح فيه ذلك الباب، وأنّه سيقضي ما تبقّى من حياته في الظلمات يرى بأمّ العين كيف يفسد جسمُه قطعة تلو أخرى ويلتهم نفسه.

كان قد شاهد طقوسًا مشابهة غير مرّة خلال إدارته سجن مونتويك.

تعتبر مسألةَ أيّام، إن كان الحظّ حليفًا. لقد بدأ يبني الخيالات على حالة الضعف والهذيان التي ستستبدّ به عندما يحرق احتضارُ الجوع الأوليّ كلَّ الجسور. أقسى ما كان يعانيه هو انعدام الماء. ربّما، حين يصبح اليأس والعذاب أشدّ إيلامًا، ويضطرّ لِلَعق الماء القذر المنزلق على الجدران، ربّما سيتوقف قلبه عن الخفقان. كان أحدُ الأطباء العاملين تحت إمرته في القلعة، قبل عشرين عامًا، يقول إنّ الرب يلبّي دعاء الاستغاثة قبل أبناء العاهرة. ولكنْ حتّى في هذا الأمر كانت الحياة قحبة كبيرة. ربّما سيرحمه الربّ في اللحظة الأخيرة؛ ربما كان البلاء الذي يستشري في شرايينه سيمنع عنه الأسوأ.

كان يحلم أنّه ميتٌ وأنه موجود في إحدى الصرر التي تُنقَلُ بها الجثث من زنازين قلعة مونتويك، فإذا به يسمع الباب ينفتح في الأعلى. جفل من نومه ليكتشف أنّ لسانه منتفخ وموجوع. حمل أصابعه إلى فمه فشعر بلثّته تنزف وأسنانه تتحرّك من ملامستها كما لو أنّها تغرق في طين هشّ.

- أنا عطشان. - صاح - ماء، أرجوك...

الخطوات هذه المرّة أثقل من سابقاتها. فللصوت في الأسفل مصداقيّة أكبر من الضوء. لقد استحال العالم إلى ألم، إلى تفسُّخٍ بطيء للجسد، إلى صدى الخطوات ومنظومة الأنابيب ما بين الجدران. انبثق الضوء في همهمةٍ بيضاء. واتَّبع ڤايس بحاسّة السمع مسارَ الخطوات التي تقترب. تراءى له طيفٌ واقف أسفل السلالم.

- ماء، أرجوك. - توسَّل.

جرّ نفسه إلى القضبان وشحذ بصره. فانقضّت عليه حزمة ضوء تعشي الأبصار كادت تحرق شبكيّة عينيه. مشعل. تراجع ڤايس وحجب عينيه باليد الوحيدة التي تبقّت لديه. ولم يستطع بذلك إلّا أن يحسّ بالضوء يسبر وجهه وجسمه المكسوّ بالأوساخ والدم المتيبّس والخِرَق البالية.

- انظر إليّ. - قال الصوت في النهاية.

نزع ڤايس يده عن عينيه وفتحهما ببطء شديد. تأخّرت حدقتاه عن التكيُّف مع الضوء المبهر. كان الوجه في الطرف الآخر من القضبان مختلفًا، لكنه بدا له مألوفًا ما أثار استغرابه.

- قلت لك أنْ تنظر إليّ.

أطاعه ڤايس. فحين يفقد المرء كرامته، يصبح تنفيذ الأوامر لديه أسهل من إعطائها. اقترب الزائر من القضبان وتفحَّصه بدقّة، وهو يحرِّك حزمة الضوء على أطرافه ووجهه الذابل. وحينذاك أدرك ڤايس لماذا تبدو له ملامح ذلك الوجه مألوفة.

- إندايا؟ - تلعثم - إندايا، أهذا أنت؟

أكد إندايا برأسه. وشعر ڤايس بأنّ السماء تنفتح وأنّه يتنفّس للمرّة الأولى منذ أيّام أو أسابيع. لا بدّ أنّه حلمٌ آخر. إذ كان والحال هذه أسيرًا لدى الظلمات، يفتتح محادثات مع منقذٍ جاء لتحريره. شحذ بصره مرّة أخرى وضحك. إنه إندايا. بلحمه وعظمه.

- الحمد لله، الحمد لله. - قال وهو يشهق - هذا أنا، ماوريسيو ڤايس. الوزير ڤايس... هذا أنا...

مدّ ذراعه نحو رجل الشرطة، باكيًا من الامتنان، غير آبه بالعار من أن يروه على تلك الشاكلة، عاريًا أو يكاد، مبتور اليد، وملطخا بالبول والغائط. تقدَّمَ إندايا خطوة.

- منذ متى وأنا هنا؟ - سأل ڤايس.

لم يُجب إندايا.

- هل ابنتي مرثيديس بخير؟

لم يُبدِ إندايا أيّ جواب. نهض ڤايس بمشقة، متكئًا على القضبان، حتى وصل إلى مستوى أنظاره. فنظر إليه رجل الشرطة ملؤه الجمود.

هل كان يحلم مجدّدًا؟

- إندايا؟

أخرج سيجارة وأشعلها. فشمَّ ڤايس رائحة التبغ، أوّل رائحة يشمُّها منذ ما بدت له أعوام. أطيب عطر شمَّه في حياته. ظنّ أنّ الـ السيجارة له إلى أن رأى إندايا يحملها إلى شفتيه ويمجُّ منها مجّة طويلة.

- إندايا، أخرجّني من هنا. - توسَّل إليه.

كانت عينا رجل الشرطة تلمعان من بين لوالب الدخان المتصاعدة من أصابعه.

- إندايا، هذه أوامر. أخرجْني من هنا.

ابتسم الرجل ومجَّ من سيجارته مرارا.

- لديك أصدقاء سيّئون. - قال أخيرًا.

- أين ابنتي؟ ماذا فعلتَ بها؟ - لا شيء. ليس بعد.

سمع ڤايس صوتا يتحوّل إلى صرخة يائسة ولم يدرك أنّ الصوت كان صوته. رمى إندايا السيجارة إلى داخل الزنزانة عند قدمي ڤايس.

ولم يتأثر عندما رآه السجينُ يعود أدراجه وينفجر في صباح ويضرب القضبان بما تبقّى لديه من قوّة خائرة، قبل أن يرتمي على ركبتيه مغمّيًا عليه. أُغلِقَ الباب في الأعلى مثل قبر، وتكثَّف الظلام من جديد، أشدّ بردًا من أيّ وقت مضى.

(23)

من بين كثير من المغامرات التي يخبِّئها قلبُ برشلونة، هناك أماكنَ منيعة وهاوياتٌ محجوبة، ودائرةُ النفوس للشجعان حصرًا. لمح بارغاس الواجهة البالية المغطّاة برواسب الدُّخان من بعيد، وتنهَّد. كان مظهر المبنى الأشبه بالضريح ذي الأبعاد العملاقة، إضافةً إلى النوافذ الضخمة، يحفِّزان في النفس العدول عن المداهمة. بعد أن اجتاز البوّابة الخشبيّة المهيبة التي تفصل بين النفوس والناس، كانت بانتظاره مصطبة جداريّة يقبع خلفها رجلٌ ضامر البنية ذو نظراتٍ شبيهة بنظرات البومة البيضاء، يراقب الحياة في مرورها من دون أيّ إشارة ترحيب. - صباح الخير. - قال بارغاس بنوايا مسالمة.

- من أين يأتي الخير ولمّا تحن ساعة الافتتاح بعد؟ ألم تر اللافتة على الشارع؟ تقول من الحادية عشرة حتى الواحدة، ومن الثلاثاء لغاية الجمعة. واليوم هو الاثنين، والساعة هي الثامنة وثلاث عشرة دقيقة صباحًا. ألا تعرف القراءة؟

عرف بارغاس كيف يجابه هذا الرجل، الذي كان طاغية صغيرًا أكثر من كونه موظّفًا بعقدٍ دائم واستمارةٍ وختمٍ رسميّ؛ فأزال عن وجهه التعبير الودود وزرع بطاقته التعريفيّة على بعد سنتمترين من أنف موظف الاستقبال. فابتلع الأخيرُ ريقه.

- حضرتك تعرف القراءة، هذا أكيد.

مضغ الرجل لعاب شهر كامل فضلا عن مزاجه الكدر.

- تحت أمرك أيّها النقيب. اعذرني على سوء الفهم. كيف بإمكاني أن أكون مفيدًا؟

- أريد أن أتحدّث مع الذي يحكم هنا، إن أمكن، لا مع أحمق مثلك.

سارع الموظف لرفع السماعة واستدعاء سيّدة تدعى لويسا.

- لا يهمّ. - غمغم على الهاتف - قل لها أن تأتي حالا.

أغلق السمّاعة، ورتَّب ملابسه، واستعاد وقاره ونظر إلى بارغاس.

- سكرتيرة المدير ستأتي لاستقبالك مباشرة. - أوضح.

جلس بارغاس على أحد المقاعد الخشبية دون أن يحيد عينيه عن الموظّف. وبعد دقيقتين ظهرت امرأة قصيرة القامة مضمومة الشعر، بنظّارة لا إطار لها، ونظرة خارقة، قوّست حاجبها واستنتجت ما وقع للتوّ من دون أيّ حاجة إلى ترجمة.

- لا تغضب من كارمونا، فلا طائل منه. اسمي لويسا ألكايني. بم يمكنني مساعدتك سيّدي؟

- اسمي بارغاس. من القيادة العليا في مدريد. أحتاج إلى التحقق من أرقام بعض الشهادات. أمرٌ في غاية الأهميّة.

- لا تقل إنّه مستعجلٌ أيضا، فهذا يجلب سوء الطالع هنا. أرني هذه الأرقام من فضلك.

أعطاها اللائحة. ألقت عليها السيّدة لويسا نظرة خاطفة وأومأت.

- التحقق من أرقام الدخول أم أرقام الخروج؟

- عفوًا.

- هذه شهادات وفيات، وتلك شهادات ولادات.

- هل أنتِ متأكدة؟

- أنا متأكدة دومًا. وما قصر القامة إلّا للتمويه.

كانت للويسا ابتسامة قطّة ماكرة.

- أودّ التحقّق من كليهما إن أمكن.

- كل شيء ممكن في عالم البيروقراطيّة الإسبانيّة العجيب. اتبعني من فضلك أيها الكولونيل. - دعته لويسا وهي تدفع بابا خلف المقعد.

- لست سوى نقيب.

- خسارة. بعد الفزع الذي ولَّدته في قلب كارمونا، ظننتُ أنك أعلى رتبة. ألا تحصلون على الرتب النبيلة بحسب طول القامة؟

- أنا أتقلّص منذ مدّة. عداد الكيلومترات.

- أفهمك، صدِّقْني. لقد دخلتُ إلى هنا وكنت أبدو مثل راقصة، وانظر إليّ الآن.

تبعها بارغاس على امتداد ممرّ لا تنتهي مخارجه.

- هل أتوهَّمُ أمْ إنّ هذا المبنى يبدو من الداخل اكبر ممّا يبدو من الخارج؟ - سأل.

- لست أوّل من لاحظ ذلك. المبنى ينمو ليلة بعد ليلة. أُشِيعَ عنه بأنه يتغذى على الموظّفين الزائدين عن الحاجة والمتمرّنين الذين يأتون للاطلاع على الأوراق وينامون في صالة القراءة. لو كنتُ محلّك لما قلَّصتُ الحراسة.

وصلا إلى آخر الممرّ، توقّفت لويسا أمام باب كبير ذي طابع كاردينالّي. كان أحدهم قد علّق على الأسكفة لافتةً تقول:

تخلَّ عن الصبر

يا مَن تغامر في اجتياز هذا الباب...

دفعت لويسا الباب وغمزت له بعين.

- مرحبًا بك في العالم الخرافيّ للأختام والطوابع الرخيصة.

خليّة نحل تسبِّب الدوار، مشيّدةٌ من رفوف وسلالم وفهارس، وممتدّة بمنظر فلورنسيّ تحت قبة من أقواسٍ مستدقَّة الرأس، فيما تقطر منظومة المصابيح ضوءًا غباريًّا مسدولًا كخيمة هرئة.

- يا أمَّ الربّ. - غمغم بارغاس - كيف السبيل للعثور على شيء ما هنا؟

- الفكرة هي أنّنا لا نعثر عليه، ولكن باستخدام قريحة حضرتنا ويدنا الخبيرة، فبالإمكان العثور حتى على حجر الفلاسفة هنا. أرني هذه اللائحة.

تبع رجل الأمن لويسا إلى حائط مليء بالأضابير يصعد إلى السماء. طقطقت الموظّفة بأصابعها فظهر عاملان يبدو أنّهما مجتهدان.

- أريد منكما أن تأتياني بسجّلات الفصول من 1 إلى 8ب من العام 1939 وحتى العام 1943، ومن 6ج إلى 14 من الحقبة ذاتها.

انطلق النفران بحثًا عن السلام ودعت لويسا النقيبَ للجلوس إلى إحدى طاولات الاستشارة في وسط الصالة.

- 1939؟ - سألها.

- ما تزال كل هذه الأضابير تتّبع نظام الترقيم القديم. تغيّر النظام في العام 1944 بإدخال الوثيقة الشخصيّة الوطنيّة. حضرتك محظوظ، لأنّ كثيرًا من أرشيف ما قبل الحرب فُقِدَ كلّيًّا، لكن الحقبة الممتدة ما بين 1939 و1999 محفوظة كلّها في فصلٍ وأُعِيدَ ترتيبُها منذ سنتين.

- ما يعني أنّ كلّ تلك الشهادات صدرت بعد الحرب بقليل؟ أومأت لويسا.

- النبش في الماضي، ها؟ - ألحّت الموظّفة - أحيّي شجاعتك، ولا أدري ماذا أقول عن حصافتك. فكثيرٌ من الناس لا تهتمّ ولا ترغب بالنبش في الماضي.

وبينما كانا ينتظران عودة المرؤوسين بالسجّلات المطلوبة، تفرَّغت لويسا لمعاينة بارغاس بفضول هوسيّ.

- منذ متى لم تغمض عينيك؟

نظر إلى ساعته.

- منذ ما يزيد عن أربع وعشرين ساعة.

- هل آتيك بفنجان قهوة؟ فهنا نحتاج إلى وقت طويل.

بعد ساعتين ونصف، أبحرت لويسا وموظّفاها في محيطٍ من الأوراق، وأكملت رحلة العبور لترسو عند بارغاس الذي كان يقف على قدميه بالكاد، وجاءته بجزيرة من المجّلدات. عاين المهمّة التي تنتظره وتنهّد.

- هل تقدّمين شرف الضيافة يا سيّدة لويسا؟

- بالتأكيد.

وبينما كان بارغاس يتجرّع فنجان القهوة الثالث، أمرت الموظفة مساعديها بالانصراف وأخذت ترتِّب السجّلات، بتشكيل مجموعتين تنموان شيئًا فشيئًا.

- ألا تسألينني ما حاجتي إلى كلّ هذا؟ - سألها بارغاس.

- هل يتوجَّبَ عليّ؟

ابتسم. وبعد قليل، تنفّست لويسا الصعداء.

- جيّد، لا بدّ أنّ كلّ ما تريده موجود. والآن سنرى اللائحة.

قارنت الأرقام واختارت المجلّدات التي تناسبها. وكلّما توغّلت في معاينتها، لاحظ بارغاس أنها تقطِّب حاجبها.

- ماذا هناك؟ - سألها.

- هل أنت واثق من أنّ هذه الأرقام صحيحة؟

- هي الأرقام التي لديّ... لماذا؟

رفعت عينيها عن الصفحات ونظرت إليه مذهولة.

- لا شيء. كلّهم أطفال.

- أطفال؟

- أطفال صغار. انظر.

وضعت السجلّات أمامه وشرعت بمقارنة الأرقام واحدًا واحدًا.

- هل ترى التواريخ؟

حاول النقيب أن يفك شيفرة هذه الفوضى. واقتادت لويسا نظراته برأس قلم الرصاص.

- الأرقام متناسبة. كلّ شهادة وفاة تماثلها شهادة ميلاد. صادرة في اليوم نفسه، من الموظف نفسه، من المكتب نفسه، وفي الساعة نفسها.

- وكيف استطعتِ معرفة ذلك؟

- من رمز الضبط. أترى؟

- وماذا يعني هذا؟

- لا أعرف.

- هل من الطبيعي أن يهتمّ الموظف نفسه بمعاملتين في الوقت نفسه؟

- لا. خصوصًا أن القسمين مختلفان.

- ما الذي قد ينجم عن شيء كهذا؟

- لا شأن للإجراءات. في الماضي كانت الشهادات تُحدَّد بالأقاليم. أمّا هذه، فجميعها صادرة من المقرّ المركزيّ.

- وهل هذا مخالف للقانون؟

- نوعًا ما. أكثر من ذلك: هذه المعاملات، إن كان ما يظهر هنا صحيحًا، فُحِصَت جميعها في اليوم نفسه.

- وهذا نادر.

- أكثر من كلب أخضر. لكنّ هذه مقدمّة ليس إلا.

نظر إليها بارغاس.

- كل الوفيات مصدّقةٌ من المستشفى العسكري. كم طفل يموت في مستشفى عسكريّ؟

- والولادات؟

- في مستشفى القلب المقدّس. كلها، بلا استثناء.

- قد تكون صدفة؟

- إن كنتَ رجلا مؤمنًا... وانظر إلى أعمار الأطفال. متناسبة أيضًا، انظر.

شحذ بارغاس أبصاره، لكنّ التعب كان يلتهم قدرته على الفهم.

- لكلّ شهادة وفاة هناك شهادة ميلاد. - أوضحت لويسا.

- لا أفهم.

- الأطفال. كلّ واحد منهم وُلِدَ في نفس اليوم الذي توفي فيه طفل آخر.

- هل يمكنكِ أن تعيريني كلّ هذه الوثائق؟

- ممنوعٌ أن تخرج الوثائق الأصليّة من هنا. ينبغي طلب نسخة وقد يستغرق الأمر شهرًا على الأقلّ، إذا حرّكتَ البحار والجبال.

- أما من وسيلة أسرع؟

- وسرّيّةً أكثر؟ - أكملت لويسا.

- أيضًا.

- تنحَّ جانبا.

أخذت الموظفة قلمًا وورقة، وسجّلت الأسماء والتواريخ وأرقام الشهادات ورموز ضبط كلّ معاملة، خلال نصف ساعة. كان بارغاس يتابع خطها النقيّ والمثاليّ، محاولا أن يجد مفتاحًا يكشف به معنى كلّ هذا. فإذا به يتوقف عند الأسماء التي دونتها لويسا توًّا، فيما كان بصره ينهار على قدر الكلمات والأرقام التي لا حصر لها.

- لحظة، لحظة. - قاطعها.

تنحَّت. نبش بارغاس بين الشهادات ووجد ما يبحث عنه.

- ماتايكس. - غمغم.

انحنت لويسا على الوثائق التي كان النقيب يتفحصها.

- طفلتان. توفّيتا في اليوم ذاته.... هل يلمِّح ذلك إلى شيء ما؟ - سألته.

انزلقت عينا بارغاس على أسفل الشهادات.

- ما هذا؟

- توقيع الموظف الذي صادق على المعاملة.

كان الإمضاء منمّقًا وأنيقًا، خطّ شخصٍ ضليع بالمظاهر والبروتوكول. شكَّلّ بارغاس الاسم على شفتيه بصمت، وأحسَّ الدماءّ تتجمّد في عروقه.

(24)

كان البيت يعبق برائحة أليثيا. عطرُها، حضورُها، والنكهةُ التي يخلِّفها ملمسُ جلدها. كان فرنانديتو جالسًا على الأريكة منذ أزليّةٍ ونصف، لا رفيق له سوى تلك النكهة، والقلق الذي بدأ يأكله حيًّا.

أليثيا، ومسدّسها، كانا قد خرجا منذ خمس عشرة دقيقة، لكنه اعتبر تلك المدّة أبديّة. لم يعد قادرًا على ضبط النفس أكثر من ذلك، فنهض وذهب ليفتح النوافذ المطلة على شارع أفنيون بحثًا عن الهواء المنعش.

ولعلَّ الحظّ يحالفه فيخرج ذلك الشذى الموتِّر ليبحث عن ضحيّة أخرى. ترك النسمة الباردة تصفِّي ذهنه وعاد إلى الداخل مصمِّمًا على الانتظار، كما طلبت منه أليثيا. ثمّ راح يتنقّل بين أرجاء الصالة، يقرأ عناوين الكتب على الرفوف، يتلمّس الأثاث في مروره، ويتفحَّص أغراضًا لم يلاحظها في الزيارات السابقة، متصوِّرًا أنّ أليثيا تقوم بالمسار نفسه وتتلمّس الأشياء نفسها. هذا سيّئ يا فرنانديتو، اجلس - حدّث نفسه.

كانت الكراسي ترفضه. وعندما بدا له أنّه ختم كلّ المسارات في الصالة، جازف نحو ممرٍّ يتراءى في آخره بابان. أحدهما باب الحمّام. والآخر لا بدّ أنّه باب غرفة النوم. استبدّ به احمرارٌ يتراوح بين الحرس والاضطراب والحياء، وقبل أن يصل بدربه إلى باب الحمّام عاد أدراجه إلى صالة الطعام. جلس على أحد الكراسي وانتظر. دقائقُ مائجةٌ تتفشّى بلا أي عزاء ما عدا تكتكة ساعة الحائط. أدرك أنّ الوقت ينساب بسرعةٍ تتعارض مع ضرورة مَن يعيشه.

نهض ثانيةً وذهب إلى النافذة. لا أثر لبارغاس. كان العالم يمضي بعيدًا وتافهًا تحته بخمسة طوابق. وجد نفسه في الممرّ من جديد، دون أن يدري كيف. أمام باب الحمّام. دخل ونظر إلى انعكاسه في المرآة. ثمّة أحمر شفاه على أحد الأرفف. أمسك به وعاينه. أحمرُ كالدماء. أعاده إلى مكانه وخرج، محمرّ الوجه. فظهر قبالته باب غرفة أليثيا. استطاع من على العتبة أن يرى أنّ السرير مرتَّب. هذا يعني أنّها لم تكن نائمة هناك. انقضَّت عليه ألف فكرة فأبادها جميعا قبل أن يتسنّى لأيٍّ منها أن تفتح فمها.

تقدَّم بضع خطوات وعينه على السرير. تخيَّلها هناك مستلقيةً فأشاح أنظاره. وتساءل كم رجل استلقى هناك بجانبها ليجوب تضاريس جسمها بيديه وشفتيه. اقترب من الخزانة وفتحها. كان الظلام يحرس ثياب أليثيا. تلمّس بأطراف أصابعه ثيابها المعلقة وأغلق الدفَّة. قبالة السرير، خزانة خشبيّة. فتح الدُّرج الأوّل فوجد ترسانة من الملابس الحريريّة والصوفيّة المطويّة بعناية فائقة. أسود، أحمر وأبيض. استغرق منه الأمر عدّة ثوانٍ ليفهم ما الذي كان يرى. ثياب أليثيا الداخليّة. مضغ ريقه. تجمّدت أصابعه على بُعد سنتمترين عن الأقمشة. فسحب يده كما لو أنّ تخاريم الملابس تحرقه وأغلق الدُّرج.

- يا لك من أحمق. - قال لنفسه.

أحمق أم لا، فتح الدُّرج الثاني. كان يحتوي على جوارب حريريَّة ومعدّات أخرى مخطّطة بدت أنها تسعى لإنهاضها، وسبَّبت له الدوار.

هز رأسه ببطء وأخذ يغلق الدّرج. وفي تلك اللحظة تحديدا، رنّ الهاتف مجلجلًا حتى ظنّ فرنانديتو أنّ قلبه ينفصل عن أحشائه وينطلق كالصاروخ ويخرج من فمه محلِّقًا ليتمزق في السقف. أغلق الدُّرج بقوّة وهرع إلى صالة الطعام، ووصل مقطوع الأنفاس. كان الهاتف يرنّ على وقْع مطرقة، متوعدًا، مثل جهاز إنذار الحريق.

اقترب منه ورآه يهتز ولم يدرِ ماذا عليه أن يفعل. وظلّ يرنّ بلا هوادة دقيقة أو أكثر. وعندما وضع الشاب يده المرتجفة على السمّاعة أخيرًا ورفعها، كُتِمَ الجرس. فسقطت السمّاعة من يده والتقط نفسًا عميقًا. جلس وأغمض عينيه. هناك شيءٌ ما يخفق في صدره. إنّه قلبه، ينبض كما لو أنّه في حلقه. فضحك على نفسه، ليجد في السخرية من تصرُّفه عزاءً. لو أن أليشيا رأته هكذا...

لم يكن بارعًا في تلك الأشياء، قال لنفسه. فكلّما عجَّلَ بالاستسلام للأمر الواقع كان ذلك أفضل. فأحداث تلك الليلة، وخبرته الوجيزة في خدمة أليثيا، أثبتت له بأن مستقبله ليس في عالم المؤامرات، بل في عالم التجارة والخدمة العامّة. حين تعود أليثيا، سيقدِّم لها استقالته. وخيرٌ له أن ينسى زيارته إلى معبد ثيابها الداخليّة أيضا. فكم من رجالٍ أحسن منه دمَّروا أنفسهم لأمور أتفه من تلك، قال لنفسه.

كان يستعيد رشده، غارقًا في تلك الأفكار البنّاءة، فإذا بالهاتف ينفجر مرّة أخرى بجواره، لكنّه رفع السمّاعة بسرعة وأجاب بما تبقّى له من صوت.

- مَن معي؟ - جلجل الصوت من الطرف الآخر للخط.

إنه بارغاس.

- أنا فرنانديتو.

- قل لأليثيا أن تأتي إلى الهاتف.

- الآنسة أليثيا خرجت.

- إلى أين ذهبت؟

- لا أدري.

جدّف بارغاس مهمهمًا.

- وأنت، ماذا تفعل هناك؟

- الآنسة أليشيا أمرتني بانتظارك لأروي لك ما حدث هذه الليلة.

- ماذا حدث؟

-أعتقد أنه من الأفضل أن أرويها لك شخصيًّا. أين حضرتك؟

- في دائرة النفوس. هل قالت أليثيا متى ستعود؟

- لم تقل شيئا. أخذت مسدّسًا وغادرت.

- مسدّس؟

- حسنًا، فعليًّا هو ريفولفر، مزوّد بمخزن دوّار...

- أعرفه جيّدًا. - اختصر بارغاس.

- هل ستأتي إلى هنا؟

- بعد قليل. سأمرّ إلى غرفتي وأتحمّم وأغيِّر ملابسي، فإنّي أبدو مقرفًا هكذا. ثمّ آتي.

- بانتظارك.

- هذا خيرٌ لك. آه، فرنانديتو؟

- تفضَّل.

- إيّاك أن أكتشف أنك لمستَ أشياء لا ينبغي لك لمسها.

كان الترام الأزرق يسير بسرعة السام. أسعف الوقتُ أليثيا للوصول في الأوان إلى الموقف، فقفزت على متن الترام بينما يتحضّر السائق للشروع بالصعود على جادّة تيبيدابو. العربة ممتلئة بمجموعة من التلاميذ، خارجين من مدرسة داخليّة بلا شكّ. كان يراقبهم خوريّان صارمان بما بدا لأليثيا أنهم في رحلة إلى المعبد الذي يعتلي الجبل.

كانت هي المرأة الوحيدة بين جميع الركّاب. وما إن جلست على المقعد الذي أتاحه لها تلميذٌ بتوجيهٍ من الخوريّ، حتى خمدت جلبةُ الفتية لدرجة أنها سمعت طقطقة أحشاء الفرقة، أو ربّما لم تكن سوى الهرمونات التي تتأجّج في عروقهم بلا وازع. قررت أليثيا أن تخفض أبصارها وأن تتظاهر بأنّها بمفردها. إذ كان الركاب، الذين قدّرت أنّ أعمارهم في حدود الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، يرمقونها بطرف العين كما لو أنّهم لم يروا من قبلُ مخلوقًا مشابهًا. أحدهم، أصهب الشعر، مغربلًا بالنمش، بوجهٍ أغبى من المعدَّل، كان جالسًا قبالتها وبدا أنّ تأثير وجودها توَّمهُ مغناطيسيًّا. وكانت نظرته عالقةً بوثوبٍ راسخ ما بين وجهها وركبتيها. رفعت أليثيا عينيها وجابهت نظرته عدّة ثوان. حتى بدا أنّ المسكين يختنق، فإذا بأحد الخوريّين يضربه بكفه على رقبته.

- مانوليتو، لا تغضبني. - أنذره.

أكملوا المشوار ما بين صمتٍ ونظرات خاطفة وبعض الضحكات الخافتة. «إنَّ رؤية المراهقين عن كثب خيرُ لقاحٍ يعالج الحنين إلى سنّ المراهقة» - فكّرت أليثيا.

وحين وصلت إلى الموقف الأخير، قرّرت أن تبقى جالسة ريثما يسوق الخوريّان التلاميذ كما لو أنّهم بهائم. نظرت إليهم يسيرون في طابور باتجاه محطّة الترام الجبليّ، يتبادلون الدفعات والضحكات المشينة. وكان أكثرهم اضطرابًا يلتفون لرؤيتها ويدلون بتعليقاتهم مع رفاقهم. انتظرت أليثيا أن يحجزهم الخوريّان جميعًا خلف سور الموقف، ونزلت. قطعت الساحة الصغيرة، مثبِّتةً أنظارها إلى الواجهة الرهيبة لدار إل بينار الذي يتوِّج التلّ المقابل. هناك سيّارتان

سوداوان مركونتان عند أبواب المطعم الموجود على مرمى حجر من موقف الترام، لابينتا. كانت أليثيا تعرفه جيّدًا لأنه المفضَّل لدى لياندرو في برشلونة كلّها، وقد اصطحبها إلى هناك في أكثر من مناسبة ليعلِّمها أصول التعامل الراقي وبروتوكولات الجلوس إلى المائدة. «الآنسة الراقية لا تمسك عدّة الطعام، إنما تلامسها». غلّت أليثيا يدها في الحقيبة، تحسّست الريفولفر ونزعت صمام الأمان.

كان لنطاق دار إلى بينار الواسع مدخلان. المدخل الرئيس، الذي تمرّ منه العربات، موجود في شارع مانويل أرنوس، على بعد ما يقرب من منه متر من الساحة باتِّباع الطريق المحاذي للتلّ باتجاه أقصى شمال شارع دي لاس أغواس. والمدخل الثاني عبارة عن بوّابة حديديّة تنفتح على درب من العتبات عبْر الحديقة، على بعد خطوات قليلة من موقف الترام. تحقّقت أليثيا ممّا توقّعته: البوّابة مغلقة. سارت بمحاذاة السور نحو المدخل الرئيس. هناك بيت آخر، من الوارد أنّه المسكن القديم لحرّاس الدار، وتبادَرَ إلى ذهنها أنّه مراقَب. وبنهاية الدورة حول التلّ، لاحظت وجود شخص واحد على الأقل، يراقب عند حدود الفيلا.

لعلّ لإندايا رجالًا آخرين في الداخل والخارج. توقّفت عند منتصف الطريق، وتخفَّت في زاوية لا يمكن لأحدٍ من المدخل الرئيس أن يراها، وعاينت السور. لم تتأخّر في العثور على النقطة التي استطاع فرنانديتو العبور من خلالها في الليلة السابقة. لكنّها لم تجد الفكرة عمليّةً في وضح النهار. ستحتاج إلى مساعدة بالطبع. عادت إلى الساحة، حيث كان الترام يهمّ بالهبوط. مشت نحو لابينتا ودخلت المطعم الذي كان مقفرًا في تلك الساعة، ولن تتجهَّزَ مطابخهُ قبل ساعات. اتجهت نحو مصطبة البار وجلست على كرسيٍّ طويل. فظهر نادلٌ من خلف ستار واقترب بابتسامة محترمة.

- كأس نبيذ أبيض لو سمحت.

- تفضيلات؟

- فاجئني.

أومأ النادل وصبّ لها كأسًا بيده الخبيرة دون أن ينظر إلى عينيها.

- هلّا سمحتَ لي باستخدام الهاتف؟

- بالتأكيد يا آنسة. إنّه هناك في الخلف، آخر المصطبة.

انتظرت أليثيا أن يختفي النادل مجدّدًا خلف الستار، وارتشفت من النبيذ وذهبت نحو الهاتف.

أطلّ فرنانديتو من النافذة، بحثًا عن قامة بارغاس بين المارّة الدين يصعدون شارع أفنيون، فإذا بالهاتف يرنّ مرة أخرى خلفه. لم يفكّر في الأمر هذه المرّة أيضا، ورفع السماعة.

- أين أنت؟ ألا يجدر بكَ أن تكون هنا؟

- عمّن تتحدّث؟ - سألته أليثيا من الطرف الآخر من الخطّ.

- المعذرة، ظننت أنّه النقيب بارغاس.

- هل رأيته؟

- لقد اتصل وقال إنه آتٍ.

- منذ متى؟

- منذ ربع ساعة. قال إنّه كان في دائرة النفوس.

مرّرت أليثيا بضع لحظات صامتة، فسّرها فرنانديتو على أنها إشارة ارتباك.

- هل قال ما الذي كان يفعله هناك؟

- لا. هل أنتِ بخير؟

- أنا بخير يا فرنانديتو. متى وصل بارغاس أخبرْه بما قلته لك ثمّ قل له إنّني أنتظره في المطعم المجاور لمحطّة الترام الجبليّ في تيبيدابو.

- بالقرب من إل بينار...

- قل له أن يأتي بسرعة.

- هل أنتِ بحاجة إلى مساعدة؟ هل تريدين مني أن آتي؟

- لا تفكّر حتّى مجرّد تفكير في المجيء. أريدك أن تنتظر وصول بارغاس وأن تقوم بما قلت لك. فهمتني؟

- أجل... آنسة أليثيا؟

أغلقت. كان فرنانديتو ينظر إلى السمّاعة التي بيده حين رأى بطرف عينه شيئًا ما. لاحظ وجود حركة خلف نوافذ غرفة بارغاس، في الجهة المقابلة من السارح. تخيَّل أنّ النقيب قد صعد بينما كان يتكلّم مع أليثيا على الهاتف. ذهب إلى النافذة لإلقاء نظرة ليتأكّد من ظنونه، لكنّه لمح بارغاس يمشي في الطريق مقتربًا من بوابة الغِران كافيه.

- حضرة النقيب! بارغاس! - نده بصوت عالٍ.

اختفى النقيب خلف بوّابة البناية. نظر فرنانديتو ثانية إلى النوافذ المقابلة، فتسنّى له رؤية شخص يرخي الستائر. فكّر في الاتصال بالرقم الذي أعطته له أليثيا، فإذا بهاجسٍ رهيب يجتاحه. ذهب إلى باب البيت وهبط السلالم بسرعة متزايدة.

(25)

أدخل بارغاس مفتاح غرفته بالقفل، فانتبه فورًا. انزلق المفتاح إلى الداخل بصعوبة، كما لو أنّه تعثّر بإحدى حوافّه؛ وحين برم المفتاح شعر أنّ الدافعة لا تبدي أيّ مقاومة تقريبًا. أحدهم خلع القفل. أخرج سلاحه ودفع الباب بقدمه شيئًا فشيئًا. كان الظلام مطبقًا على داخل الشقة، التي ليس فيها سوى غرفتين يفصل بينهما ستارٌ من خرز. الستائر مسدلة. تذكر أنه تركها مفتوحة. هيّأ قادح المسدّس. ثمّة طيفٌ يترقب جامدًا في الزاوية. رفع بارغاس السلاح وصوّب نحوه.

- لا تطلق النار، أرجوك! هذا أنا!

تقدم النقيب بضع خطوات فجاء الشخص باتجاهه رافع الذراعين.

- روبيرا؟ ما الذي تفعله هنا؟ كدت أهشِّم رأسك.

كان الجاسوس صغير البنية، الذي ما زال في معطفه الرخيص، ينظر إليه مرتجفًا.

- أخفض يديك. - قال بارغاس.

هزّ روبيرا راسه مرارًا وأذعن للأوامر - المعذرة أيّها النقيب. احترت بما عليّ فعله. كنت أريد انتظارك في الأسفل، في الشارع، لكنّهم كانوا يلاحقونني، أنا واثق ممّا أقول، فظننتُ أنّ...

- فرمل يا روبيرا فرمل! عمّ تتحدث؟

سحب روبيرا نفا طويلا ولوّح بيديه، كما لو أنه لا يعرف من أين يبدأ. أغلق بارغاس الباب واقتاده نحو أريكة.

- اجلس.

- حاضر سيّدي.

أخذ بارغاس كرسيًّا وجلس قبالته.

- ابدأ من البداية.

مضغ الآخر ريقه.

- أحمل إليك رسالة من الوكيل ليناريس.

- ليناريس؟

هر روبيرا رأسه مؤكّدًا.

- كان هو الذي أمرني بمراقبتك أنت والآنسة أليثيا. مع أنّي أؤكّد لك بأنّي اتّبعت التعليمات التي وجهتها لي وحافظت على المسافة المطلوبة كي لا أسبّب لك إزعاجًا. وقد رويت له القدْر اللازم لكتابة تقرير.

- ما الرسالة؟ - اختصر بارغاس.

- عندما وصل الوكيل ليناريس إلى مكتبه، تلّقى مكالمة. من مدريد. من أحد المناصب العليا. قال لي أن أقول لك بأنّك في خطر، ومن الأفضل أن تغادرا المدينة. أنت والآنسة أليثيا. وأمرني بأن أبحث عنك في المشرحة وأنقل إليك الرسالة. قالوا لي هناك إنّك اتجهت إلى دائرة النفوس.

- تابع - هل اكتشفتَ شيئا مهمًّا هناك؟ - سأله روبيرا.

- لا شيء يعنيك. ماذا لديك؟

- حسنًا، ذهبت إلى دائرة النفوس لكنّهم قالوا لي إنّك خرجت من هناك أيضًا، فأتيت إلى هنا مسرعًا لانتظارك. وفي تلك اللحظة اكتشفتُ أنّهم يراقبونك.

- ألم تكن تلك وظيفتك؟

- أحدٌ غيري.

- من؟

- لا أعرف.

- وكيف دخلت إلى هنا؟

- وجدت الباب مفتوحا. أعتقد أنهم خلعوا القفل. تحقّقتُ من عدم وجود أحد في الداخل، فأغلقت الباب خلفي وأسدلت الستائر بحيث لا يرى أحد أنّي أنتظرك هنا.

نظر إليه بارغاس طويلا بصمت.

- هل أخطأتُ في شيء؟ - سأله روبيرا متخوفًا.

- لماذا لم يتّصل بي ليناريس بالهاتف إلى المشرحة؟

- الوكيل قال إنّ هواتف القيادة ليست موثوقة.

- ولماذا لم يأتِ هو بشخصه؟

- لأنّه في اجتماع مع الضابط الموفد من الوزارة. ألايا أو شيء من هذا القبيل..

- إندايا.

أومأ روبيرا.

- هو ذاك.

وما زال يرتجف كجروٍ - هل يمكنك أن تعطيني كأس ماء، من فضلك؟ - توسَّل.

تردد النقيب برهة. اقترب من الُدرج وصبّ كأس ماء من إبريق نصف ممتلئ.

- والآنسة أليثيا؟ - سأله من خلف ظهره - أليست معك؟

شعر بارغاس بأنّ صوت روبيرا كان قريبًا جدًا، وعندما التفت والكأس في يده وجده على مقربة سنتمترات. لم يعد يرتجف وقد ذاب مظهره الفزع بقناعٍ صارم.

لم يرَ حدَّ السكين..

أحسَّ بوخزة وحشيّة على ضلعه، كما لو أنَه سدّد إليه ضربة بالمطرقة، وأدرك أنّ الحدَّ تغلغل فيه حتى ثَقَبَ الرئة. بدا له أنّ روبيرا يبتسم وحين حاول الإمساك بالريفولفر أعقب الطعنةَ بأخرى. انغرس النصل في عنقه حتى المقبض فترنّح بارغاس. تشوَّشت لديه الرؤية وتشبّث بالدُّرج. فجاءته الطعنة الثالثة في المعدة. فهوى على الأرض.

وطغى عليه الظلّ. بينما كان جسمه يستسلم للتشنّجات، انتزع روبيرا السلاح منه، ونظر إليه باهتمام شحيح ثمّ ألقاه على الأرض.

- خردة. - قال.

تاهت نظرات بارغاس في تينك العينين اللتين لا قاع لهما. تريّثَ روبيرا قليلًا ثم انهال عليه بطعنتين في البطن، يُبَرِّمُ السكّين في أحشائه.

بصق بارغاس دفقة من الدماء وحاول أن يصيب روبيرا، أو أيًّا كان اسم ذلك المخلوق الذي ينحره. فما استطاعت قبضتاه إلا أن تمس الوجه بالكاد. سحب روبيرا السكّين الملطّخة بالدماء وأظهرها على مرأى ضحيته.

- ابن القحبة. - تلعثم بارغاس.

- انظر إليّ جيدًا، ايها العجوز الخرائيّ. أريدك أن تموت وانت على دراية بأنّي لن أكون رحيمًا معها. سأجعلها تُحتَضر طويلًا، وأقسم أنّها ستلعنك لأنّك لن تكون حاضرًا وأنا أُريها كلَّ ما أحسن صنعه.

شعر بارغاس ببردٍ كثيفٍ يستبدّ به ويشلّ جوانحه. كان يتنفّس بالكاد فيما يخفق قلبه هائجًا. امتدّ بساطٌ سائلٌ ولزجٌ تحت جسده. وامتلأت مقلتاه بالدمع، واكتسحه خوفٌ لم يجرِّب مثله من قبل. نظّف قاتلُه حدَّ السكّين بياقة قميصه وأعاده إلى غمده. ظلّ هناك جالسًا القرفصاء، ينظر إلى عينيه ويستمتع باحتضاره.

- هل جاءك الموت؟ - سأله - ما الشعور الذي ينتاب الميّت؟ أغمض بارغاس عينيه واستحضر صورة أليثيا. وأسلم الروح بابتسامةٍ على شفتيه. وعندما لاحظ الرجلُ الذي عُرِفَ باسم روبيرا تلك الابتسامة، وقع في غيظٍ حميم، ولم يُشفَ غليله أنّه مات، فانهال على وجهه باللكمات حتّى برز اللحم الحيّ من براجم قبضتيه.

كان فرنانديتو يصغي متواريا عند العتبة؛ بعد أن هرع إلى السلالم ووصل باب بارغاس، وتوقف لحظة قبل أن يطرق. أوقفه صوت الطعنات الحادّة في الطرف الآخر. وصوتٌ يفوه بصيحات الغلّ تتخلله لكماتٌ تنهال على اللحم والعظم. حاول فرنانديتو أن يخلع الباب لكنّه لم ينجح. توقّفت اللكمات بعد قليل وسمع خطواتٍ تقترب. غلب الخوفُ العارَ فركض يختبئ عند السلالم. والتصق بجسمه على جدار المستراح في الطابق الأعلى، وسمع الباب ينفتح. خطواتٌ تشرع بالنزول. أطلّ فرنانديتو برأسه من فراغ السلالم ورأى ذلك الرجل قصير القامة ذا المعطف الأسود. تردّد لوهلةٍ ثمّ نزل بصمت إلى باب بارغاس. كان الباب مردودًا. أطل برأسه ورأى جسد

النقيب ملقيًّا على صفيحة سوداء لكأنّها مرآةٌ سائلة. ولم يدرك ماهيّتها إلا عندما داس عليها. تزحلق ووقع على وجهه بجانب الجسد. كان بارغاس - شاحبًا مثل تمثالٍ رخاميّ - كان ميّتًا. احتار بما يفعل للوهلة الأولى.

حتى إذا رأي سلاح رجل الأمن على الأرض، أخذه وهَبَّ لنزول السلالم.

(26)

تمدّد كفنُ الغيوم بسرعة من جهة البحر ليدفن برشلونة. التفتت أليثيا من مقعدها على مصطبة البار وسمعت صدى الرعد الأوّل. ورأت خطّ الظلّ الذي يتقدّم كلّيًا فوق المدينة. وأضاءت صعقةٌ كهربائيّة دوّامةَ السحاب، فهطلت أولى قطرات المطر بعد قليل لتضرب زجاج النوافذ الكبرى. وفي غضون دقيقتين بدأ الإعصار فعلًا، وغاص العالمُ في سرابٍ رمادي عَتِيّ رافقتها دوشةُ العاصفة عندما تركت المطعم واتجهت مرّة أخرى نحو السور الحجريّ المطوّق بدار إل بينار. وكان المطر في هطوله يشكّل حجابًا يشوّش الرؤية على بعد أمتار قليلة، ويقيها بستارٍ مموِّه يغطّي تحرُّكاتها. وبعد أن وصلت ثانية إلى مدخل الحديقة، تحقّقت أنّ واجهة البيت كانت بالكاد تُرى من هناك. لفّت مجدّدًا حول النطاق وتسلّقت السور من النقطة التي اختارتها مسبقًا. وقفزت إلى الطرف الآخر وهبطت على طبقة سميكة من أوراق الشجر التي بدأت تلين بفعل المطر ما سهَّل رسوَّها. اجتازت الحديقة محتميةً بالشجر حتى بلغت الدرب الرئيسيّ. تبعته إلى خلفيّة الفيلا، حيث وجدت نوافذ المطبخ التي تحدّث عنها فرنانديتو. كانت الأمطار تهطل بغزارة وتجلد واجهة البيت. أطلّت أليثيا إلى إحدى النوافذ واسترقت النظر إلى الداخل.

عرفت الطاولة الخشبيّة، الملطّخة ببقع قاتمة، التي رأى فرنانديتو كيف مات عليها فالنتين مورغاذو. لم يكن هناك أحد في مجال الرؤية. دوّى الإعصار فاهتزّت أركان البيت. وضربت أليثيا النافذة بأخمص الريفولفر فتهشّمَ الزجاج. ودخلت على جناح السرعة.

كان فرنانديتو يتبعه عن قرب. الرجل المجهول يمشي باطمئنان، كما لو أنّه لم يقتل للتوّ رجلًا بدمٍ بارد إنّما خرج لمجرّد التنزُّه. أضاء البرقُ الأوّل الطرقات، فركض الناس للاحتماء من المطر تحت قناطر الساحة الملكيّة. لم يسرع المجرم خطاه ولا ألمح عن نيّة للبحث عن ملاذ. تابع سيره ببطء باتجاه لاس رامبلاس. وعندما وصل، توقّف على حافة الرصيف. اقترب منه فرنانديتو ببطء وتأكد من أن ثيابه مبللة.

وكم تمنى أن يسحب سلاح بارغاس من جيبه ويطلق النار على ظهره.

ظلّ القاتل واقفًا هناك كما لو أنه أحسَّ بوجوده فكان بانتظاره. ثم همَّ بالمشي على حين غرّة وقطع لاس رامبلاس حتى منفذ شارع كوندي دل أسالتو باتجاه مركز الرافال.

لحق به فرنانديتو تاركًا بينهما مسافة كبيرة. رآه ينعطف ِشمالا إلى شارع لانكاستر. فركض إلى تلك النقطة، وأسعفه الوقت ليرى المجهولَ وهو يختفي في إحدى البوّابات في منتصف الكتلة السكنيّة.

تريثَّ قليلا ثم اقترب ببطء، يتمسّح بالجدران. كانت المياه الباردة والقذرة المتساقطة من تيجان المباني تقطر على وجهه وتنسلُّ في ياقة المعطف. توقف أمام المكان الذي رأى فيه القاتل يدخل. بدا له من مسافة بعيدة مدخل بناية، ففهم إذَّاك أنه بصدد قبو محلّ. ثمّة مصراعٌ نحاسيّ صدئ قابلٌ للبرم، وفيه بابٌ أصغر محفور في المعدن، بدا أنه موارب. ولافتة باهتة اللون:

معمل دمى الأزياء

الإخوة كورتيس

معدَّاتٌ للخياطة

وورشة إعداد الملابس

أنشئ عام 1909

من الجليّ أن الورشة مغلقة ومهجورة منذ أعوام. تردّد فرنانديتو. كانت كلُّ هواجسه تصيح به أنْ يبتعد عن هناك ويذهب للبحث عن مساعدة. فعاد أدراجه إلى أن وصل المنعطف تقريبًا فإذا بصورة جثة بارغاس ووجهه النازف توقفه. استدار وعاد إلى باب الورشة. أدخل أصابعه في فتحة الباب الصغير وفتحه عدّة سنتمترات.

كان الظلام مطبقًا على الداخل. فتح الباب كليًا بحيث إنّ الضوء الطفيف المتغلغل بين المطر يكشف بركة من ظلام. لاحظ أبعاد ما بدا له محلًّا كتلك المحلات التي يتذكّرها من طفولته. مصاطب خشبيّة كبيرة، خزائن زجاجيّة، ومجموعة من الكراسي المقلوبة. وكان المكان برمّته مكسوًّا بما خُيّلَ إليه في البدء ستائر حريريّة شفّافة، وبعد ثوانٍ من التردّد تبيّنَ أنّها شباك العناكب ليس إلّا. هناك دميتان عاريتان في إحدى الزوايا، ملفوفتان في عناقٍ، كما لو أن حشرة عملاقة جرّتهما حتى هناك لالتهامهما.

سمع فرنانديتو صدّى معدنيًا منبثقًا من أحشاء المحل. ضيّق حدقتيه ولاحظ ستارةً تحجب المستودع خلف المصطبة المتّشحة بالغبار. سار نحوها ببطء. ووصل إليها بلا أنفاس، وأزاحها بمعدّل شبر أو يكاد.

فانفتح ممرٌّ طويل أمامه. وأحسَّ فجأة بأنّ الضياء خلف ظهره ينطفئ فالتفت تمامًا ليرى كيف الريح، أو يدٌ خفيّة ربّما، تدفع الباب الصغير وتغلقه شيئًا فشيئًا.

كانت أليثيا تقطع المطبخ وأنظارها ثابتةٌ على بابٍ سمعت من خلفه صدى أصواتٍ يكبتها طرقُ المطر. ترامي إليها صوتُ خطوات من الجانب الآخر وصفقُ بابٍ ثقيل. فتوقّفت وترقّبت. وعاينت أبعاد المطبخ في الأثناء. المجمر، الأفران، والصفائح، بدا أنَّ الأغراض لم يمسسها أحد منذ فترة بعيدة. ما زالت المقالي والقدور والسكاكين والأغراض الأخرى معلّقة على مساطر مثَّبتةٍ على الجدار. وهناك مغسلة رخاميّة كبيرة تغصّ بالرواسب. أمّا الطاولة الخشبيّة فتشغل وسط المطبخ. لاحظت أليثيا القيود والأصفاد المربوطة بأرجل الطاولة، والدماء المتخثّرة على سطحها. فتساءلت ما الذي فعلوه بجسد سائق سانشيس، وإن كانت زوجته فكتوريا ما تزال حيّة.

اقتربت من الباب وألصقت عليه أذنها. بدت الأصوات آتية من غرفة قريبة. وكادت تفتح الباب سنتمترين لتلقي نظرة عندما تناهى إلى مسمعها مرّة أخرى ذلك الصوت الذي ظنّته للوهلة الأولى ارتطام الأمطار على النوافذ. تكتكةٌ معدنيّة خفيفة تتصاعد من أعماق البيت.

حبست أنفاسها لحظة وما زال الصوت يأتيها. شيء ما أو أحد ما، كان يضرب على الحائط أو على الأنابيب عند نقطة موصولة بالمطبخ.

اقتربت إلى فراغ رافعة الأحمال، حيث استطاعت أن تسمع الصوت بوضوح. كان آتيًا من أسفل. ثمّة شيء ما تحت المطبخ.

تعقّبت محيط المكان بتحسُّس الحيطان أو الضرب عليها ببراجم يدها. كلّ الجدران متينة. ثمّة باب معدنيّ في إحدى الزوايا. حرّكت قفله وفتحته. فوجدت غرفة بمساحة ستّة أمتار مربّعة تقريبًا، محاطة برفوف مغبرّة، من الوارد أنّها ركن مهملات قديم. لكنّ التكتكة كانت أوضح هناك. تقدّمت بضع خطوات فسمعت ارتجاجًا تحت قدميها.

ولاحظت خطًّا غامقًا كالصدع العموديّ في جدار آخر الغرفة. اقتربت وتلمَّسته. ضغطته بيدها فتراخى الجدار. وهكذا انقضّت عليها من الداخل رائحةُ نتانة حيوانيّة، وأوساخ وغائط. اجتاحها الغثيان فغطّت وجهها بيديها.

انفتح أمامها نفقٌ في جوف صخرة يهبط بانحناء 45 درجة. سلَّمٌ من عتبات غير متناسقة يتوه في الظلمات. وفجأة، توقّف الصوت.

تقدّمت أليثيا إلى العتبة الأولى وأصاخت السمع. بدا لها أنّها تسمع همهمة أنفاس. صوَّبت المسدّس أمامها ونزلت عتبة أخرى.

وجدت غرضا طولانيّ الشكل معلّقًا على دعامة معدنيّة على الجدار إلى جانبها. مشعل. أخذته وبرمت مقبضه فأضاء. وولجت حزمةُ الضوء في الظلام الكثيف والرطب المتصاعد من العمق السحيق.

- إندايا؟ أهذا أنت؟ لا تتركني هنا...

كان الصوت آتيا من أسفل النفق. صوتٌ مكسور ولا يبدو بشريًّا إلا بالكاد. نزلت أليثيا ببطء حتى لمحت القضبان. رفعت المشعل وسبرت به داخل الزنزانة. وعندما أدركت ما الذي كانت تراه، تجمَّدت دماؤها.

كان يبدو حيوانًا جريحًا، تغطّيه طبقة من الأوساخ والخِرَق. شعره مجعَّدٌ من هول القذارة، ولحيته كثّة تحجب وجهًا مصفرًّا ومخدَّشًا. جرّ الكائن نفسه إلى القضبان ومدّ يده إشارةً إلى التوسُّل. أخفضت أليثيا سلاحها ونظرت إليه مبهورةً. أسند السجين ذراعه الأخرى بين القضبان فلاحظت أليثيا أنّ يده ناقصة. كانت مبتورة بشكل همجيّ حتى المعصم، ومغطّاة بالقطران الجافّ. جِلدُ ذراعِه ضاربٌ إلى البنفسجيّ.

قاومت أليثيا الغثيان واقتربت من القضبان.

- ڤايس؟ - سألته مذهولةً - حضرتك ماوريسيو ڤايس؟

فتح السجين فمه محاولا أن ينطق كلمة، لكنّ الشيء الوحيد الذي استطاع التفوّه به كان أنينًا مخيفًا. تفحصت أليثيا قفل الزنزانة. قفلٌ من الحديد المطروق يشبك سلسلة حول القضبان. سمعت صوت خطوات تمشي خلف الجدران وأدركت أنّ الوقت ليس في مصلحتها. وكان ڤايس من الجانب الآخر ينظر إليها بعينين يُغرَورَقُ فيهما اليأسُ. أليثيا تعرف أنّها لن تستطيع إخراجه من هناك. حتّى لو افترضت أنّها قادرة على تحطيم القفل بطلقة ناريّة، فكرت بأنّ إندايا متبوعٌ بما

لا يقلّ عن رجلين أو ثلاثة في ذلك البيُت. كان عليها أن تترك ڤايس في الزنزانة وتذهب للبحث عن بارغاس. فبدا أنّ السجين قرأ أفكارها. مدَّ يده وحاول أن يمسك بها، لكنّه خائرُ القوى.

- لا تتركيني هنا. - قال بنبرة تتراوح ما بين التوسّل والأمر.

- سأعود بتعزيزات. - غمغمت أليثيا.

- كلا! - صاح ڤايس.

أمسكت بيده متجاهلة الاشمئزاز الذي أثاره فيها التواصلُ بصرّة العظام هذه التي قرّر أحدهم أن يتركها تتعفّن حتى الموت في تلك البؤرة.

- عليك ألّا تخبر أحدًا بأنّي كنت هنا.

- إن حاولتِ أن تغادري سأصرخ، أيّتها القحبة الخرائيّة، وسيضعونكِ معي هنا في الداخل. - هدّدها.

نظرت إلى عينيه وأحسَّت لوهلةٍ أنّها ترى في تلك الجثّة الحيّة ڤايس الحقيقيّ، أو ما تبقّى منه.

- إن فعلتَ ذلك، لن ترى ابنتك ثانيةً.

تراخي وجه ڤايس، وتبدّد كامل غضبه ويأسه في لحظة واحدة.

- لقد وعدتُ مرثيديس بأنّني سأعثر على والدها. - قالت أليثيا.

- هل هي حيّة؟

أكّدت برأسها.

أسند ڤايس جبينه على القضبان وبكي.

- لا تتركيهم يعثرون عليها ويؤذونها. - توسَّل.

- من! من ينوي إيذاء مرثيديس؟

- أرجوكِ...

سمعت أليثيا صوت الخطى من جديد فوق ذلك الجوف ونهضت. توجَّه إليها ڤايس بنظرة أخيرة، مكويّةً بالتسليم والأمل.

- اركضي! - انتحب.

(27)

ثبَّت فرنانديتو أنظاره على الباب الذي كان ينغلق ببطء إذ دفعته الريح. طوَّقه الظلام. وانحلّت هياكل الدمى وخزائن الزجاج في العتمة. وحين استحالت فتحة الباب إلى كوّة ضوء خافت، سحب فرنانديتو نفسًا عميقًا وقال لنفسه إنّه لحق بذلك الفرد إلى ملاذه لغايةٍ معيّنة. كانت أليشيا تعوِّل عليه. أحكم قبضته على الريفولفر واستدار نحو ممرّ الظلال الذي يغوص في أعماق الورشة.

- لست خائفًا. - غمغم.

تناهى إلى أذنيه صوتٌ طفيف. كان متيقّنًا أنّه ضحكة طفل. قريبٌ جدًا. على بعد أمتار من مكان وقوفه. سمع خطواتٍ تسحل بسرعة نحوه في الظلام واجتاحه الفزع. رفع السلاح وضغط على الزناد من دون أن يدري ما الذي كان يفعله. وكاد الدويُّ الصاخب يثقب طبلة أذنه، وانتفضت ذراعاه إلى أعلى، كأنّ أحدهم ضربه بالمطرقة على معصميه. أبلج ضوءٌ كبريتيّ متشنّج في الممرّ لجزء من الثانية، فرآه فرنانديتو. كان يتقدّم باتجاهه رافعًا سكّينه إلى أعلى، ساطع العينين، ملثّم الوجه بما بدا قناعًا مصنوعًا من جلد.

أطلق فرنانديتو النار ثانيةً، وثالثةً ورابعة، حتى انزلق الريفولفر من يده وسقط هو على ظهره. وظنّ لوهلة أن ذلك الشبح الشيطانيّ الذي رآه ينقضّ عليه كان بجانبه، وأنّه سيشعر ببرودة الحديد تنغرس في جلده قبل أن يقوى على التقاط أنفاسه. جرجر نفسه إلى الخلف، وعندما استعاد توازنه انطلق نحو الباب الصغير. فتحه بقوّة ووقع على وجهه على البلاط الفائض بالماء. نهض وهمَّ بالركض دون أن ينظر إلى الخلف، كأنّه روحٌ تلبَّسها الشيطان.

كان الجميع يناديه برنال. لم يكن ذاك اسمه الحقيقيّ، لكنّه لم يتكلّف عناء تصحيح اسمه لهم. يعمل منذ عدّة أيام تحت إمرة إندايا في تلك الفيلا التي تقشعرّ لها الأبدان. غير أنّه رأى ما فيه الكفاية ليدرك أنّه يفضل ألّا يعرف عنه ذلك السفّاح وزبانّيته أيّ شيء. لم يبق لديه إلّا شهران ليتقاعد بمكافأة بائسة لنهاية خدمة طوال حياةٍ أحرقها في الجهاز الأعلى للشرطة. كان حلمه في تلك المرحلة من المهزلة هو أن يموت وحيدًا منسيًّا في الغرفة المعتمة والرطبة التي يشغلها في نزلٍ في شارع خواكين كوستا. كان يفضِّل الموت كعاهرة عجوز على أن يتبختر بأوسمة الشرف والبطولة التي يلهث خلفها أولئك المتصابون الموفدون من وزارة الداخليّة. القادة الجدد، كلُّهم على الطراز نفسه، مستعدّون لتنظيف شوارع برشلونة من المستضعفين واليساريّين الصعاليك القادرين بالكاد على التبوُّل واقفين بعد أن قضوا نصف أعمارهم مختبئين أو محبوسين في سجونٍ تغصّ بالمعتقلين كخلايا نحل. هناك زمانٌ أن تموت منسيًّا أشرف من أن تعيش ممجّدًا.

كان المدعو برنال غارقًا في تلك الأفكار عندما فتح باب المطبخ. إندايا يصرّ على أن يناوبوا على مراقبة البيت دومًا، وكان الرجل ينفِّذ الأوامر حرفيًا. هذا اختصاصه. اكتفى بثلاث خطوات ليلاحظ أنّ شيئًا ما كان خارجًا عن المعتاد. نفحته نسمات رطبة على وجهه. رفع أنظاره نحو أقصى المطبخ، أظهر وميض البرق جانبًا مسنّنًا من الزجاج المكسور. ذهب إلى الزاوية وجلس القرفصاء عند شظايا الزجاج الساقطة من النافذة. ثمّة آثار خطوات مبعثرة على الغبار. أقدام

خفيفة الوطء وجلدة حذاء صغيرة مصحوبة ببصمة كعب. امرأة. عاين برنال المزيّف الوضع. نهض وذهب إلى ركن المهملات. ضغط على الجدار وفتح مدخل النفق. نزل بضع درجات إلى أن نصحته العفونة بالتوقّف. التفت وكاد يغلق المدخل عندما رأى المشعل المعلّق على الدعامة. كان يتمايل بخفّة. أغلق العميل الباب وعاد إلى المطبخ. ألقي نظرة خاطفة، وبعد أن فكّر قليلًا خلص إلى إزالة آثار الأقدام ودفع بقطع الزجاج إلى زاوية صغيرة في الظلّ. لن يكون هو الذي يقول لإندايا عندما يعود بأنّ أحدًا ما جاء بزيارة مفاجئة إلى البيت. فالمسكين الأخير الذي نقل إلى إندايا أنباءً سيّئة انتهت به الحال إلى تهشيم فكّه.

وكان أحدَ رجاله الموثوقين علاوة على ذلك. لن يعتمدوا عليه هو بالذات. فإذا شاء الحظّ، سيستلم قلادة صغيرة بعد سبعَة أسابيع، وكان يفكّر في رهنها لدفع تكاليف عاهرة مؤصّلة يودِّع من خلالها المتع الدنيويّة. فإن ظلَّ على قيد الحياة ستكون أمامه شيخوخةٌ رماديّة وملعونة وطويلة لينسى ما شاهده في تلك الأيّام الأخيرة في بيت إل بينار، ويوقن بأنّ كلَّ ما فعله باسم الواجب لا يخصّ إلا برنال الذي ليس هو والذي لم يشأ أن يكون إطلاقًا.

كانت أليثيا مختبئة في الحديقة، في الجانب الآخر من النافذة، تراقب العميل وهو يطوف المطبخ بهدوء ويتفقّد مدخل النفق، ولسببٍ لم تفهمه راح يمحو بصماتها. ألقى الرجل نظرة أخيرة وعاد نحو الباب. فأرادت أليثيا أن تنتهز هطول الأمطار العنيف، إذ لم تكن واثقة من أنّ العميل سينقل ما رآه إلى مدرائه، قرّرت أن تغامر في اجتياز الحديقة بسرعه فائقة، وهبوط المنحنى والتسلّق على السور. وكانت خلال الستّين ثانية التي استغرقتها في ذلك تنتظر اختراق الطلقة الناريّة للوح كتفها لكنّ ذلك لم يقع. قفزت إلى الطريق وركضت باتجاه الساحة حيث كان الترام الأزرق يباشر رحلته نزولًا تحت العاصفة.

وثبتْ إلى العربة وهي تتحرّك متجاهلة استياء مراقب التذاكر، واسترخت مبلّلةً على مقعد، ترتجف ولا تعلم السبب سواء أكان البرد أم الارتياح.

وجدته جالسًا تحت المطر، منكمشًا على نفسه عند أعتاب الردهة. اقتربت منه أليثيا باجتياز برك الماء التي تفيض بشارع أفنيون وتوقّفت أمامه. ففهمت من دون حاجة إلى أن ينطق الفتى بأيّ كلمة. رفع فرنانديتو وجهه ونظر إليها والدموع تموج بعينيه.

- أين بارغاس؟ - سألته.

طأطأ فرنانديتو رأسه.

- لا تصعدي. - قال لها.

صعدت أليثيا السلالم درجتين درجتين، متجاهلةً الألم الذي يصعق خاصرتها ويسفح ضلعها. وصلت إلى مستراح الطابق الرابع، وتوقّفت أمام الباب المردود لشقّة بارغاس. ثمّة رائحة حديديّة بمذاق حلوٍ تحوم في الأجواء. دفعت الباب ورأت الجسد الملقيّ فوق سطحٍ داكن ومتلألئ. فاجتاحها بردٌ حبس أنفاسها، فتمسّكت بإطار الباب. كانت ساقاها ترتجفان عندما دنت من الجثّة. عينا بارغاس مفتوحتان. ووجهه أشبه بقناعٍ شمعيّ محطّم بفعل اللكمات، بالكاد عرفتْه.

جلست القرفصاء إلى جانبه. داعبت خدّه. كان الجسد باردًا. تشوّشت رؤيتها بأدمع النقمة وأجهشت بالأنين.

ثمّة كرسيٌّ مقلوب بجانب الجثّة. سحبته أليثيا وجلست عليه تراقب الجسد بصمت مهيب. فيما كانت النيران تتمدّد في خاصرتها لتلسع عظامها. ضربت بقبضها مكانَ الإصابة القديمة، فأعماها الوجعُ بضع ثوانٍ، وكادت تسقط بفعله على الأرض. وما لبثت تضرب نفسها إلى أن تدخَّل فرنانديتو - الذي كان يراقب المشهد من عند العتبة - فأمسك ذراعها وأوقفها عمّا هي فيه. ثم عانقها حتى تسمَّرت. وتركها تنوح من الألم إلى أن استنفدت أنفاسها تقريبًا.

- ليس ذنبكِ. - ردّد على مسامعها.

وعندما توقّفت أليثيا عن الارتعاش، غطّى فرنانديتو الجثةَ بغطاءٍ وجده على الأريكة.

- نبِّشْ في جيوبه. - أمرته أليثيا.

تحرَّى الفتى في معطف النقيب وسترته. وجد محفظته، وبعض النقود، وقطعة ورقيّة تحتوي على لائحة أرقام، وبطاقة تقول:

ماريا لويسا ألكايني

نائبة أمين السرّ

إدارة الأرشيف والتوثيق

دائرة سجلّ النفوس المدنيّة في برشلونة

مدّ إليها ما عثر عليه من أغراض، فقلَّبت بينها. احتفظت باللائحة والبطاقة. وأعادت إليه ما تبقّى، مشيرةً إلى إرجاعه حيث وجده. كانت نظرتها ثابتةً على جسد بارغاس الراقد تحت الغطاء. انتظر فرنانديتو بضع دقائق قبل أن يقترب منها ثانيةً. - لا يمكننا البقاء هنا. - قال أخيرًا.

نظرت إليه، كأنّها لم تفهم أو لم تسمع كلامه.

- أعطيني يدكِ.

رفضت أليثيا عرض المساعدة وهمّت بالنهوض بمفردها. لاحظ فرنانديتو أثر الألم على وجهها. فأحاطها بذراعيه وساعدها على النهوض. وحين وقفت على قدميها، مشت أليثيا بضع خطوات محاولة التظاهر بأنّها لا تعرج.

- سأستطيع بمفردي. - قالت.

كان صوتها يتّسم بنبرة جليديّة. نظراتها جامدة لا تكشف عن أيّ عاطفة، ولا حتى عندما التفتت نحو بارغاس للمرّة الأخيرة. لقد أغلقت الأبواب وأقفلتها جميعًا، فكّر فرنانديتو.

- فلنذهب. - غمغمت وهي تعرج باتجاه المخرج.

أسندها إلى ذراعه واقتادها نحو السلالم.

جلسا إلى طاولة في قلب الغران كافيه. طلب فرنانديتو فنجانين كبيرين من الكافيلاتي وكأسًا من الكونياك التي صبّها في أحد الفنجانين. وأعطاه لأليثيا.

- اشربي. ستدفئين.

أخذته وارتشفت منه ببطء. كان المطر يخدش الزجاج ويرسم جداولَ تحجب المعطف الرماديّ الذي ساد المدينة. وعندما استعادت أليثيا لونها، روى لها فرنانديتو ما حدث.

- ما كان ينبغي أن تتبعه إلى ذلك المكان. - قالت.

- لم أشأ أن أتركه يلوذ بالفرار. - ردّ الفتي.

- هل أنت واثق من أنّك قتلته؟

- لا أدري. أطلقت عليه رصاصتين أو ثلاث بريفولفر النقيب بارغاس. لم يكن بعيدًا عني أكثر من مترين. كان الظلام دامسًا...

أسندت يدها على يده وأرسلت إليه ابتسامةً واهنة.

- إنّي بخير. - كذب.

- أما زال المسدّس معك؟

هزّ فرنانديتو رأسه.

- لقد سقط مني بينما كنت أهرب. ماذا سنفعل الآن؟

التزمت أليثيا الصمت بعض الوقت، تنظر إلى ما خلف الزجاج بشرود. كانت تشعر بألم خاصرتها ينبض على إيقاع قلبها.

- ألا تريدين أن تأخذي حبّةً من تلك الأدوية؟ - سألها.

- فيما بعد.

- بعد ماذا؟

حدَّقت أليثيا في عينيه.

- أحتاج منك أن تفعل شيئًا لأجلي.

أومأ فرنانديتو.

- مهما يكن.

نبشت في جيوبها وأعطته مفتاحًا.

- هذا مفتاح بيتي. خذه.

- لا أفهم.

- أريدك أن تصعد إلى البيت. تأكّدْ أنْ لا وجود لأحد في الداخل أوّلًا. إذا وجدت الباب مفتوحًا أو القفلَ مخلوعًا، فاركض بكلّ قوّتك حتى تصل إلى بيتك.

- ألن تأتي معي؟

- عندما تدخل صالة الطعام، ابحثْ تحت الأريكة. ستجد علبة تحوي أوراقًا ووثائق. فيها ظرفٌ يحتوي على دفتر. على الظرف مكتوبٌ «إيزابيلا». هل فهمت؟

أومأ فرنانديتو.

- إيزابيلا.

- أريدك أن تأخذ العلبة وتحملها معك. احتفظ بها. احتفظ بها - حيث لا أحد بوسعه العثور عليها. أيمكنك فعل هذا لأجلي؟

- أجل، كوني مطمئنّة، ولكن...

- لا تعترض. إذا وقع لي مكروه...

- لا تقولي ذلك.

- إذا وقع لي مكروه - أصرَّت أليثيا - لا تذهب إلى الشرطة. إن لم آتِ بنفسي لأخذ العلبة، فانتظرْ مرور أيّام ثمّ خذ تلك الوثائق إلى مكتبة سيمبيري، في شارع سانتا آنا. هل تعلم أين هي؟

- أعرفها...

- قبل أن تدخل، تأكّدْ أنّ المكتبة ليست مراقبة. إذا بادرك أدنى شكّ، أكملْ طريقك وانتظر فرصة أخرى. عندما تكون هناك، اسأل عن فيرمين روميرو دي توريس. أعد الاسم.

- فيرمين روميرو دي توريس.

- لا تثق بأيّ أحد غيره. لا يمكنك أن تثق بأيّ أحد غيره.

- أنتِ تثيرين قلقي يا آنسة أليثيا.

- إذا وقع لي مكروه، سلِّمه الوثائق. وقل له إنّها من طرفي. اروِ له ما حدث. وقل له إنّ مذكّرات إيزابيلا سيمبيري، والدة دانيال، بين هذه الوثائق.

- من هو دانيال؟

- قل لفيرمين إنّه ملزمٌ بقراءة الدفتر قبل أن يقرّر بنفسه أن يعطيه لدانيال أم لا. سيكون هو الحكَم.

أومأ فرنانديتو. وابتسمت أليثيا بمرارة. أمسكت يد الفتي وشدّت عليها. فحمل يدها إلى شفتيه ولثمها.

- يؤسفني أنّني ورّطتك بكلّ هذا يا فرنانديتو. وتركتك تتحمّل هذه المسؤوليّة... ليس من حقّي.

- بل إنّي سعيد لأنّكِ فعلتِها. لن أخيّب ظنّك.

- أعرف... طلبٌ أخير. إذا لم أعد...

- ستعودين.

- إذا لم أعد، لا تسأل عني في المستشفيات، ولا حتى في المخافر أو أيّ مكان آخر. عليك أن تعتاد فكرة أنّك لم تعرفني يومًا. انسني.

- لن أنساكِ أبدًا يا آنسة أليثيا. ماذا بوسعي أن أفعل؟ إنّني أحمق...

نهضت. كان من الواضح أنّ الألم يعتصرها، لكنّها ابتسمت لفرنانديتو كما لو أنّ ما يعتريها مجرّد غمٍّ عابر.

- ستبحثين عن ذلك الرجل، أليس كذلك؟

لم تردّ.

- من هو؟ - سألها.

استحضرت أليثيا الوصف الذي قدَّمه فرنانديتو لقاتل بارغاس.

- يسمّى نفسه روبيرا. - قالت - لكنّي لا أعرف من يكون.

- عمومًا، إذا كان ما يزال حيًّا فإنّه خطيرٌ للغاية.

نهض فرنانديتو مستعدًّا لحمايتها. لكنّها استبقته وهي تهز برأسها.

- ما أحتاج إليه هو أن تذهب إلى بيتي وتفعل ما طلبته منك.

- ولكن...

- لا تناقشني، وأَقسِمْ أنّك ستفعل تحديدًا ما طلبته منك.

تنهّد فرنانديتو.

- أُقسِم.

أشرقت أليثيا بإحدى ابتساماتها الفتّاكة، التي لطالما أفقدَتِ الفتى الرشدَ القليل الذي منحه له الربّ، ومشت وهي تعرج نحو المخرج. نظر إليها تبتعد تحت المطر، أضعف من أيّ وقت مضى. وانتظر حتى تغيب في الزحام، ثمّ وضع بعض النقود على الطاولة، وقطع الشارع نحو بناية أليثيا. وفي البهو التقى بالناطورة، خالته خيسوسا، التي كانت تحاول صدَّ الأمطار الفائضة بأرض البناية، بخرقةٍ ملفوفة بعصا ممسحة. وحين رأته داخلًا والمفتاح في يده، قطّبت جبينها باستياء. ففهم فرنانديتو أنّ الناطورة، صاحبة العين التحليليّة بما يخصّ الأقاويل، عين الصقر على أيّ شيء لا يخصّها، لا بدّ أنّها كانت حاضرة على المشهد القصير في الغران كافيه في الجهة المقابلة من الشارع، بما فيه تقبيل اليد.

- لا نتعلّم من الدرس أبدًا، ها يا فرنانديتو؟

- ليس الأمر كما يبدو يا خالة.

- ما يبدو، من الأفضل أن أبقى صامتة... ولكن، بما أنّي خالتك، والوحيدة التي ما تزال محافظة على الخُلُق السليم في العائلة كلّها، عليّ أن أقول لك ما ردّدته على مسمعك ألف مرّة.

- وهو أنّ الآنسة أليثيا ليست المرأة التي تناسبني. - ردّ فرنانديتو على ظهر قلب.

- وأنّها ستحطّم فؤادك يومًا ما، كما يقولون في الراديو. - أكملت خيسوسا.

لقد انقضى ذلك اليوم منذ زمان بعيد، لكنّ فرنانديتو آثر عدم الخوض في المسألة. اقتربت منه خيسوسا وابتسمت برقّة، وهي تقرص خدّه كأنّه لم يتجاوز عامه العاشر بعد.

- كلّ ما أريده هو ألا تتعذّب. والآنسة أليثيا، أعِزّها كما لو كانت أحد أفراد العائلة، لكنّها قنبلة متجوّلة: كلّما فكّرتَ أنّها لن تنفجر انفجرت لتقضي على كلّ ما يحيط بها. فليغفر لي الربّ أنّي تفوّهت بهذا الكلام.

- أعلم يا خالة، أعلم. لا تشغلي بالًا، فأنا أعرف ماذا أفعل.

- هكذا قال خالك يومَ اختنق.

انحنى فرنانديتو ليقبّل جبينها، وصعد السلالم. فتح باب شقّة أليثيا وتركه مفتوحًا بينما نفّذ التعليمات التي تلقّاها. وجد تحت الأريكة علبة كبيرة كما وصفتها له. فتحها وألقى نظرة خاطفة على كومة الوثائق التي ينتأ من بينها الظرفُ المعنون به «إيزابيلا».

لم يجرؤ على فتحه. أغلق العلبة وتساءل من يكون فيرمين روميرو دي توريس هذا الجدير بكلّ ثقة أليثيا والذي اعتمدت عليه كطوق نجاة أخير. تخيَّل تلك الفوضى وخلص إلى أنّ هنالك كثيرًا من الشخصيّات الأخرى في حياة أليثيا لا يعلم عنهم شيئًا، يؤدّون أدوارًا أهمّ من دوره بمراحل.

- وكنتَ تظنّ أنّك الوحيد؟

أخذ العلبة واتّجه نحو الباب. وقبل أن يخرج ويغلقه، ألقى نظرة أخيرة على الشقّة، موقنًا بأنّه لن يطأ فيها بقدميه بعد الآن. وفي البهو رأى أنّ الخالة ما تزال تحاول صدّ مياه المطر المتسرّب من تحت البوابة بضربات تلك الممسحة. فتوقّف برهة.

- جبان. - غمغم - ما كان ينبغي أن تتركها لمصيرها.

أوقفت خيسوسا التزاماتها ونظرت إليه متوجسة.

- ماذا تقول، يا عزيزي؟

تنهّد فرنانديتو.

- خالة؟ هلا طلبتُ منكِ معروفًا؟ - سألها.

- بالطبع. اطلب ما تشاء، بفمك الجميل هذا...

- أريدكِ أن تأخذي عنى هذه العلبة وتخفيها حيث لا يعثر عليها أحد. مهمّة جدًا. لا تقولي لأحد إنّها عندكِ. حتى للشرطة. في حال جاؤوا وسألوا. لا أحد.

تجهَّمت خيسوسا. ألقت نظرة على العلبة وصلَّت بالتثليث.

- آهٍ، آهٍ، آه... بم تورَّطتما؟

- لا مشكلة إلّا وكان لها حلّ.

- هذا ما كان خالك يقوله دائمًا.

- أعرف. هلّا أسديتِ إليّ هذا المعروف؟ الأمر في منتهى الأهمية.

أومأت خيسوسا رابطة الجأش.

- سأعود بعد قليل.

- أَقسِم على ذلك.

- بالتأكيد.

خرج فارًّا من الغمّ الذي استولى على نظرات الخالة خيسوسا، وجابَهَ الأمطار بخوفٍ يندلع في جسمه لدرجةٍ ما عاد يشعر فيها بالبرد الذي ينخر عظامه. وفي سيره نحو ما قد يكون يومه الأخير في حياته القصيرة، قال لنفسه إنّه بفضل أليشيا تعلَّمَ على الأقلّ أمرين مهمّين سيفيد منهما طوال عمره، إن كُتِبَ له أن يعيش ليروي ذلك. الأمر الأوّل هو الكذب. والثاني، وكان يشعر به بقوّة حينها، أنّ الحلفان مثل القلب تقريبًا: إذا تحطّم أوّل مرّة، استسهل صاحبُه أيّ مصيبة مقبلة.

(28)

توقَّفت أليثيا عند المنعطف إلى شارع لانكاستر وظلّت تنظر إلى مدخل معمل هياكل الدمى القديم مدّة دقيقتين. كان الباب الصغير الذي دخل منه فرناندو ما يزال مردودًا. والمبنى الذي يستضيف الورشة يبدو مثل جرحٍ حجريّ قاتم من طابقين، يعتليه سقفٌ محدودب. ونوافذ الطابق الأعلى مسدودةٌ بألواح خشبيّة وحجارة تبليط مطليّة بالقاذورات.

هناك صندوق اشتقاق كهربائي مشروخ وناتئ من الواجهة، وعقدة أسلاك هاتفيّة تبرز من فتحتين محفورتين في الحجارة بالمثقاب. بصرف النظر عن هذا التفصيل، كان المكان يولِّد في النفس شعورًا بالهجران، مثل معظم الورشات الصناعيّة القديمة التي بقيت في تلك المنطقة من الرافال.

اقتربت أليثيا محاذية جدار الواجهة لئلا يراها أحد من الداخل.

كانت الأمطار قد أفرغت الطرقات، فلم تجد مانعًا من إخراج سلاحها والاقتراب من الباب الصغير مصوِّبةً المسدّس نحو الداخل. دفعت الباب حتى انفتح كليًّا، ونظرت من خلال نفق الضوء النافذ نحو الردهة. دخلت والسلاح مرفوع، تمسكه بكلتا اليدين. في الداخل ينساب تيّارُ هواء خفيف، مشحون برائحة أنابيب قديمة وما بدا لها رائحة كيروسين، أو نوع آخر من المحروقات.

المدخل يفضي إلى ما كان يبدو المنطقة الصناعيّة للورشة.

مصطبة، جملة من الخزائن الزجاجيّة وهيكلان من الدمى الملفوفان برداء مبيَّض وشبه شفّاف. دارت أليثيا حول المصطبة واقتربت من مدخل المستودع، المحجوب بستارة من الخرز الخشبيّ. وكانت تجتازها حين ركلت بقدميها غرضًا معدنيًّا. ألقت نظرة سريعة على الأرض، من دون أن تُخفِضَ الريفولفر، فرأت سلاح بارغاس. حملته ووضعته في الجيب الأيسر من سترتها. أزاحت الستارة فوجدت أمامها ممرٌّ يغوص في أعماق البناية. ما زالت رائحة البارود تحوم في الهواء.

وثمّة خطٌّ من الانعكاسات الواهنة تتدلّى من السقف. تحسّست أليثيا الجدران حتى وجدت قاطع ضوء. برمته فأضاء إكليلًا من المصابيح مخفَّضة القدرة والمعلَّقة على سلكٍ بامتداد الممرّ. وكان السراب الأحمر المنبثق عن تلك المصابيح يعرض دهليزًا ضيّقًا يهبط بانحناء بسيط. وبات الحائط بعد مترين من المدخل ملطّخًا ببقع داكنة، كأنَّ دفقاتٍ من لوحة حمراء قطعت الممرّ. لا بدّ أن طلقة واحدة على الاقلّ من طلقات فرنانديتو أصابت هدفها. وربّما أكثر. فخطُّ الدماء يستمرّ على الأرض ويضيع في الممرّ. بعد قليل، وجدت السكّين التي حاول بها روبيرا الانقضاض على فرنانديتو. وكان نصلها ملطّخًا بالدماء، فأدركت أليثيا أنّها دماء بارغاس. تابعت سيرها ولم تتوقّف إلا حين لمحت هالة ضوء طيفيّ تأتي من نهاية النفق.

- روبيرا؟ - نادت.

ظلالٌ تتراقصُ وهمساتٌ تتجاذبُ في الظلام وتتهيَّج في آخر الممرّ. حاولت أليثيا أن تبلع ريقها، لكنّ فمها كان جافًّا. لم تلاحظ أنّها منذ دخلت في ذلك الممرّ لم تعد تشعر بألم الخاصرة أو

برودة ثيابها المبلّلة. لم تعد تشعر إلّا بالخوف.

قطعت المسافة المتبقّية إلى عمق الممرّ، متجاهلةً صوت جلدة حذائها الذي يدوس على أرضيّة رطبة ودبقة.

- روبيرا، أعلم أنّك مصاب. اخرج كي نتحدّث.

بدا لها وقْعُ صوتها هشًّا وفزعًا، لكنّ الوجهة التي سافر فيها أرشدتها إلى الطريق. وصلت إلى النهاية وتوقّفت. هناك غرفة كبيرة عالية السقف تنفتح على ناظريها. لاحظت بقايا طاولات العمل، والمعدَّات والآلات على جوانب المخزن. منورٌ من زجاج مصقول يحقن عمقَ الورشة بضوءٍ وهميّ وشاحب.

كانوا يتدلّون من السقف، مربوطين بحبالٍ توحي بأنّهم جثثٌ مشنوقة، ومعلَّقين على ارتفاع نصف متر عن الأرض. رجال، نساء وأطفال، هياكل دمى بأزياء فاخرة من سالف الزمان، تتراقص في الظلام مثل أرواح عالقة في مطهرٍ سرّيّ. كان منهم عشرات. بعضهم بوجوه متبسّمة ونظرات بلّوريّة، وآخرون لم تُنجَز هياكلُهم بعد. أحسّت أليثيا بنبض قلبها في حلقها. سحبت نفسًا عميقًا وتوغّلت ما بين قطيع الأشكال المعلَّقة. أذرعٌ وأيدٍ تلامس شعرها ووجهها بينما تقدّم ببطء.

كانت الأشكال تتماوج وتتأرجح عند مرورها.

كانت الأجساد الخشبيّة عندما تتلامس تُصدِر صديً ينتشر في أنحاء المخزن. وفي الخلفيّة يترامى إلى الأسماع صريرٌ ميكانيكيّ. تتكثّف رائحة الكيروسين كلّما تقدّمت أليثيا إلى عمق الورشة. خلَّفت وراء ظهرها غابة الأجساد المعلَّقة ولمحت آلةً ترتجّ وتنبعث منها خيوط بخار. مولِّدة. على أحد الجوانب ترتفع كومة من البقايا والقطع المهملة. رؤوس، أيدٍ وجذوع مفكوكة الأطراف تتشابك في عقدةٍ أرجعتها في الذاكرة إلى الجثث المكدّسة التي رأتها في الطرقات بعد القصف الجويّ إبان الحرب.

- روبيرا؟ - نادت مجددًا، لكي تسمع صوتها أكثر ممّا كانت تنتظر جوابًا.

كانت على يقين من أنّه يراقبها من إحدى الزوايا المظلمة. سبرت المخزن بأنظارها، في محاولةٍ لقراءة الثنايا التي تتبدّى في الظلمة. لم تر أيّ حركة. تراءى لها من خلف كومة بقايا الدمى بابٌ تتسرّب من تحته أسلاكٌ موصولة بالمولِّدة. وقد خطّط هبوبُ ضوء كهربائيّ حوافّه. تمنّت أليثيا أن تجد جسد روبيرا الميّت هناك، ملقيًّا على الأرض. اقتربت من الباب وفتحته بركلة من قدمها.

(29)

كانت الغرفة مثلّثة الأضلاع، جدرانها السوداء بلا نوافذ، أشبَه بمغارة. السقف مقسومٌ بصفٍّ من المصابيح العارية التي تقطر ضوءًا مصفرًّا وتُصدِر أزيزًا طفيفًا وحيويًّا، كأنَّ سربًا من الحشرات يتمسَّح بالحيطان. رصدت أليثيا كلَّ سنتمتر من المكان قبل ان تدخل. لا أثر لروبيرا.

هناك زاويةٌ يشغلها سريرٌ مطويّ وعليه غطاءان قديمان، فيما يؤدّي صندوقٌ خشبيٌّ مهام الدُّرج على الجانب. يهيمن عليه هاتفٌ أسود، وبعضُ الشموع ومرطبان زجاجيٌّ مليء بالنقود. تحت الفراش تنتأ حقيبةٌ قديمة، وحذاء ودلو. وبجانب السرير خزانة خشبيّة بأبعاد واسعة، وتحفةٌ كان من الممكن توقُّعها في مسكنٍ للأكابر لا في ورشة صناعيّة. دفّتا الخزانة ملحومتان بالمفاصل تقريبًا، لكنّ حيّزًا من سنتمترات قليلة يتخلّلهما. اقتربت أليثيا بحذر، مستعدّة لتفريغ مخزن الريفولفر. تخيّلت أنّ روبيرا في داخل الخزانة يبتسم منتظرًا أن تُخفِضَ سلاحها عندما تفتح الخزانة.

شدّت قبضتيها على المسدّس وركلت الباب بقدمها، فانفتح ببطء على حافته. الخزانة فارغة. فيها عارضة تحمل شمّاعات عارية. وفي الطبقة السفليّة علبةٌ كرتونيّة عليها كلمة واحدة:

سالغادو

أخرجتها فتبعثر محتواها عند قدميها. مجوهرات، ساعات، وأغراض نفيسة أخرى. رزمٌ من الأوراق النقديّة التي بدت خارج الاستعمال، مربوطة بخيوط. قضبانٌ صغيرة مذهَّبة، مصوغة على عجل وكيفما اتّفق. قرفصت أليثيا وتأمّلت الغنيمة، الثروة الصغيرة، فاستنتجت أنّه الكنز الذي أخفاه سيباستيان سالغادو - السجين السابق في قلعة مونتويك والمتهم الأوّل في اختفاء ڤايس - في خزانات التأمين في محطة الشمال، ولطالما حلم بأنّه يستعيد كنزه بعد أن حصل على حريّته بموجب العفو الذي دبَّره له الوزير بعد عقدين من الزمن. لم يستطع سالغادو استرداد ثمرة جرائمه وسرقاته. فعندما فتح الخزانة، وجد حقيبة فارغة وتوفّي وهو على يقين بأنّه أمسى لصًّا مسروقًا. كان أحدهم قد سبقه إلى هناك. أحدٌ ما على دراية بقصّة الغنيمة والرسائل مجهولة الهويّة التي تلقّاها ڤايس لأعوام. أحدٌ ما يحرِّك خيوط المسألة من زمن طويل قبل اختفاء الوزير.

تذبذبت الأضواء لحظةً فالتفتت أليثيا متوجسة. ورأته حينذاك.

كان يشغل جدارًا كاملًا، من الأرض حتى السقف. اقتربت ببطء، وحين أدركت ماذا كانت ترى، شعرت بأنّ ركبتيها تتهلهلان وذراعيها تتراخيان.

شكلٌ فسيفسائيّ مكوّنٌ من عشرات بل مئات الصور الفوتوغرافيّة، وقصاصات الجرائد والملاحظات. صُمِّمَ بدقّة لا يعلى عليها، وبدأبِ صائغ ذهب. كلّ الصور، بلا استثناء، صورٌ لأليثيا. عرفت صورًا تعود لبدايات التحاقها بالوحدة، إلى جانب صور أقدم كانت فيها طفلة صغيرة من سنوات ميتم ريباس. كانت المجموعة تشمل عشرات الصور الملتقطة من مسافةٍ وهي تمشي في طرقات مدريد أو برشلونة، عند مدخل فندق بالاس، جالسةً في أحد المقاهي

تتصفّح كتابًا، وهي تنزل عتبات المكتبة الوطنيّة، وهي تتسوّق في العاصمة، بل وحتّى وهي تتمشّى بجانب قصر الكريستال في منتزه ريتيرو. إحدى الصور تُظهِرُ باب غرفتها في نزل هسبانيا.

وجدت قصاصات جرائد تتحدّث عن قضايا كانت قد شاركت في حلّها، لكنّهم بالطبع لم يذكروا اسم أليثيا أو الوحدة، إنّما يعزون الفضل كلّه إلى الشرطة الوطنيّة أو الحرس المدنيّ. في أسفل الشكل الفسيفسائيّ طاولةٌ مُعدَّةً مثل مذبح الكنيسة، وجدت عليها أشياء من كلّ نوع ترتبط بها: لائحة بأسماء المطاعم التي تذكر بأنّها زارتها، ألواحٌ ورقيّة صغيرة كانت قد دوّنت عليها بعض الملاحظات، بطاقاتٌ تحتوي على إمضائها بخطّ يدها، كأسٌ بآثار أحمر شفتيها على الحوافّ، عقب سيجارة، بقايا تذكرة القطار من مدريد إلى برشلونة...

وعلى طرف الطاولة ثمّة إناءٌ زجاجيّ يحوي ما يشبه أغراض الموتى: بعض ثيابها الداخليّة التي لم تعد تجدها منذ الليلة التي دخل فيها أحدٌ أو شيءٌ ما بينها بينما كانت تحت تأثير الأدوية. جوربان ملقيّان بعناية على الطاولة ومثبَّتان بالدبابيس. وإلى جانبهما، كتابُ فكتور ماتايكس «متاهة الأرواح» الذي سُلِبَ من بيتها. تملَّكتها حاجةٌ إلى الهرب من ذلك المكان الكابوسيّ.

ولم تنتبه أنّه كان يظهر خلفها ببطء، من كومة الأجساد المتفكّكة خلف الباب: طيفٌ قاتم اللون. يتوجَّه نحوها.

(30)

عندما فهمتْ ما حدث، كان قد فات الأوان. أحسَّت بأنفاس تشهق خلف ظهرها، وعندما التفتت لم يسعفها الوقت لتصويب الريفولفر. اهتزّت أمعاؤها بفعل ضربة عنيفة. قطعت وخزة الخنجر الرفيع أنفاسها وأسقطتها على ركبتيها. فميَّزته بوضوح حينذاك وفهمت لماذا لم تلاحظه حينما دخل. كان يضع قناعًا أبيض يحجب وجهه. كان عاري الجسد، ويحمل في يده ما يشبه الإزميل الصناعيّ. حاولت أليثيا أن تطلق عليه النار، لكنّ روبيرا نخر يدها برأس المثقب المعدنيّ، فتدحرج المسدّس على الأرض. أمسك الرجل بعنقها وجرّها نحو السرير. رماها عليه وربض على ساقيها ليشلّ حركتها. أمسك يدها اليمني المصابة بوخزة الإزميل وانحنى ليقيّدها بحبلٍ حديديٍّ على قضبان السرير. وبينما كان يفعلها، سقط القناع فرأت أليثيا وجه روبيرا المصدوم على بعد سنتمترين عن وجهها. كانت عيناه زجاجيّتين، كما أنّ جانبًا من وجهه مشوّهٌ بحروقٍ أحدثتها طلقة ناريّة من مسافة قريبة. أذنه تنزف، وكان يرسم ابتسامة طفلٍ متلهِّفٍ لنزع أجنحة حشرة والتلذّذ باحتضارها.

- من أنت؟ - سألته.

حدّق إليها روبيرا مليًّا، يستمتع باللحظة.

- تظنّين أنّكِ ماكرة ولم تفهمي بعد من أكون؟ أنا أنتِ. أنا كلُّ ما كان عليكِ أن تكوني. كنت أقدّركِ في البدء. لكنّي أدركتُ أنّكِ ضعيفة ولم يعد لديّ ما أتعلّمه منكِ. فأنا أفضل منكِ. أنا أفضل ممّا كنتِ قادرة على أن تفعليه...

ترك روبيرا الإزميل على السرير. فخمَّنت أليثيا أنّها لو استطاعت أن تشغله ثانية واحدة، لتمكّنت من الوصول إلى الأداة بيدها اليسرى التي ظلت طليقة لتغرس حدّ الإزميل في عنقه أو عينه.

- لا تؤذني. - توسّلت - سأفعل ما تريد...

ضحك الرجل.

- عزيزتي، ما أريده تحديدًا هو إيذاؤكِ. إيذاؤكِ كثيرًا. أستحقّ هذه المكافأة...

شدَّها من شعرها على السرير ولعق شفتيها ووجهها. أغمضت أليثيا عينيها، تتحسَّس الغطاء بحثًا عن الإزميل. كانت يدا روبيرا تمشِّطان أنحاء جسمها لتتوقّفا عند الإصابة القديمة على خاصرتها. تمكّنت أليثيا من لمس المقبض عندما وشوش روبيرا في أذنها:

- افتحي عينيكِ يا قحبة. أريد أن أنظر جيّدًا إلى وجهكِ بينما تشعرين بها.

فتحت عينيها، موقنة بما كان سيحدث، ومتوسِّلة أن تفقد وعيها عند الضربة الأولى. عدَّل روبيرا جلسته ورفع قبضته عاليًا وانهال بكلّ ما أوتي من قوّة على خاصرتها المصابة. أصدرت أليثيا ولولةً مجلجلة.

نسيت رويبرا والغرفة والضوء والبرد الذي اكتسح أحشاءها. وما كان إلّا الألم آنذاك وحدَه يجوب عظامها مثل صعقة كهربائيّة أنستها مَن وأين تكون.

قهقه رويبرا وهو يرى جسدها مشدودًا كالسلك وعينيها تجحظان. رفع تنّورتها إلى أن كشف عن الندبة التي تغطّي وركها مثل شبكة عنكبوت سوداء، وراح يستكشف جلدها برؤوس أصابعه. انحنى ليقبِّل الجرح ثمّ عاد يضرب عليه حتّى كاد يحطِّم قبضته بعظام وركها. وفي النهاية، عندما لم يعد يصدر أيُّ صوت من حلق أليثيا، توقَّف. كانت غارقة في هاوية سحيقة من احتضارٍ وظلام، وقد تشنَّج جسمها. أمسك رويبرا بالإزميل وجاب بحدِّه شبكة الشعيرات الغامقة التي تتراءى تحت الجلد الشاحب لخاصرة أليثيا.

- انظري إليّ. - أمرها - أنا بديلكِ. وسأكون أفضل منكِ كثيرًا.

اعتبارًا من الآن، سأكون المفضَّل.

حدَّقت إليه أليثيا بنظرة تحدٍّ. فغمزها بعين.

- هذه هي أليثيا التي أهوى. - قال.

رآها تموت وهي تبتسم. لم ينتبه أنّها كانت تمسك بالريفولفر الذي وضعته في جيب سترتها الأيسر. وعندما باشر نبش الجرح بالإزميل، وضعت قصبة المسدّس على ذقنه.

- صبيّة متيقّظة. - غمغم.

وفي غضون ثانية واحدة، تذرّي وجه رويبرا غبارًا في غيمةٍ من دماءٍ وعظام. ثمّ أسقطته الطلقة التالية، من تلك المسافة القريبة، إلى الخلف. ارتمى الجسد العاري ميّتًا عند أقدام السرير بثقبٍ ساخن في الصدر، وما زال يشدّ بقبضته الإزميل. تركت أليثيا السلاح وتلوَّت لتخلّص يدها اليمنى المقيّدة بالسرير. ألقى الأدرينالين ثقله على الألم، لكنّها كانت على علم بأنّ تلك الراحة مؤقّتة، وأن الألم سيعود عاجلًا أم آجلًا ليفقدها وعيها. كان عليها أن تخرج من هناك باسرع وقت ممكن.

عدَّلت جلستها وتربّعت على السرير. حاولت أن تنهض، لكنّها اضطرت للانتظار بضع لحظات كي تستعيد سيطرتها على ساقيها، فيما كان الهوان المبهم يجتاح دواخلها. كانت تشعر بالبرد. البرد القارس. استطاعت أن تنهض في النهاية، وهي ترتعش، ووقفت على قدميها مستندة إلى الجدار. جسدها وملبسها ملطّخان بدماء رويبرا. لم تكن تحسّ بيدها اليمنى، ما عدا بنبضٍ أصمّ. عاينت الجرح الذي خلَّفه الإزميل. لم يكن يبشِّر بالخير.

وفي تلك اللحظة تمامًا، رنّ الهاتف بجانب السرير. فصاحت أليثيا فزعًا.

تركته يرنّ قرابة الدقيقة، تتمعّن فيه كما لو كان قنبلة توشك على الانفجار بين لحظة وأخرى. رفعت السمّاعة في النهاية وحملتها إلى أذنها. حبست أنفاسها واستمعت. كان الصمت الطويل يسود الطرف الآخر من الخطّ، ثمّ برزت أنفاسٌ هادئة بعد طنين المكالمة الخارجيّة.

- هل أنت هناك؟ - قال الصوت.

شعرت أليثيا بالسمَّاعة ترتجف في يدها.

كان صوت لياندرو.

انزلق الهاتف من يدها. اتجهت نحو الباب وهي تترنّح. توقفت لحظةً عند المعبد الذي شيّده روبيرا. شجّعها الغضب للذهاب إلى الورشة، لتأتي بأحد براميل الكيروسين المحاذية للمولِّدة، فسكبت محتواه على الأرض. وتفشّي السائل اللزج في الغرفة، محيطًا بجثة روبيرا ومُشكِّلًا مرآة سوداء تتصاعد منها خيوط البخار المتقزّح. وبمرورها بجانب المولِّدة، انتزعت منها سلكًا وتركته يقع على الأرض. وبينما كانت تجتاز غابة الدمى المتدلّية من السقف لتبلغ الممرّ المؤدّي إلى المخرج، سمعت الفرقعة خلف ظهرها. ارتجّت الأشكال التي تحيط بها بهبّة هواءٍ مباغتة عندما اندلعت الشرارة. ورافقها ضياءٌ متأجّجٌ وهي تسير بالممرّ. تقدّمت فيه مترنِّحةً ترتطم بالجدران كي تظلّ واقفة على قدميها. لم تشعر ببردٍ شديد كهذا من قبل.

توسّلت السماء أو الجحيم ألّا يتركها تموت في ذلك النفق، وأن يساعدها على بلوغ عتبة الضوء الذي يتبدّى في آخر الممرّ. بدا لها الهروب لا ينتهي. وتملّكها انطباعٌ بأنّها تصعد أمعاء وحشٍ ابتلعها وأنّها تتسلّق نحو فمه لئلا يلتهمها. كانت سخونة النيران خلفها تتوغّل في الممرّ لتمنحها دفئًا يهدِّئ روعَ عناق الجليد الذي يلفُّ بها. ولم تتوقّف إلا عندما اجتازت الردهة وخرجت إلى الهواء الطلق. استنشقت من جديد، وشعرت بالمطر يلامس جلدها. وتراءى لها طيفٌ يقترب منها على عجالة.

تراخت بين ذراعي فرنانديتو، فضمَّها إليه. ابتسمت له، لكنّ الفتي كان ينظر إليها مذعورًا. حملت يدها إلى بطنها، حيث تلقّت الضربة الأولى. كانت الدماء الفاترة تسيل بين أصابعها وتذوب بالمطر. لم تعد تشعر بالألم، إنّما بالبرد، البرد وحدَه، بردٌ يهامسها بأن تسلِّم أمرها، وتهدِّلَ جفنيها وتغطَّ في نومٍ أبديّ واعدٍ بالسلام والحقيقة. نظرت إلى عيني فرنانديتو وابتسمت له من جديد..

- لا تتركني أموت هنا. - غمغمت.

(31)

كنس الإعصارُ الشوارعَ من المارّة وجعل المكتبةَ يتيمةً من الزبائن.

أخذ فيرمين الطوفان بالحسبان، وقرّر أن يكرّس نهاره لمهامٍ إداريّة وانشغالات تأمّليّة. لم يكترث لهزيم الرعد وغزارة الأمطار، التي بدت حاسمةً أمرها خلف الزجاج، وشغَّلَ المذياع. راح يدوِّر مقبض الإشارة رويدًا رويدًا، متحلّيًا بالصبر كأنّه يغوي قفلَ خزنة، إلى أن التقط أنغام أوركسترا كبيرة تباشر عزف الألحان الأولى من أغنية «Siboney».

وعلى وقْع الطبول التمهيديّة، بدأ فيرمين يتراقص مع الإيقاع الكاريبيّ ويحضِّر نفسه لاستئناف العمل وتهيئة طبعة من ستّة أجزاء من «ألغاز باريس» ليوجين سو، مع دانيال برتبة مساعدٍ وغاسل صحون.

- كنت أرقص على هذه الأغنية مع رفيقتي الحسناء في تروبيكال الهافانا عندما كنت شابًا أُجيدُ لعبة هزّ الخصر. يا لها من ذكريات... ولو كنت موهوبًا للأدب بذلك القدْر من الجاذبيّة، لألّفتُ «ألغاز الهافانا». - صرَّح فيرمين.

- لقد انتصر الإيروس وخسر البارناسوس. - قالت بيا.

اتّجه فيرمين نحوها بذراعين منبسطتين، بخطواتٍ راقصة وخصرٍ متماوج على إيقاع السون مونتونو.

- سيّدة بيا، تعالى أعلِّمكِ الخطوات الأساسيّة لرقصة السون مونتونو، بما أنّ زوجكِ يرقص كما لو أنّه ينتعل قبقابًا من الإسمنت، وأنتِ لا تعرفين هوس الإيقاع الأفرو-كوبيّ. هيّا نستمتع...

ركضت بيا لتلوذ بالمستودع كي تنجز الحسابات وتضع مسافةً تفصلها عن فيرمين الذي كان يدمدم ويتأرجح.

- اسمع، زوجتك تسبِّب الضجر أحيانًا أكثر من لوائح السجلّ العقاريّ.

- لا تذكِّرْني! - ردّ دانيال.

- أسمع كلّ شيء. - حذّرهما صوت بيا من المستودع.

كان الاثنان يأملان أن تمضي الأمور على خير عندما سمعا فرملة سيّارة على الأرض المبلّلة. رفعا أنظارهما فإذا بسيّارة أجرة توقّفت للتوّ تحت العاصفة أمام واجهة مكتبة سيمبيري وأبناؤه. أبرقت السماء في الأعالي، وبدت السيّارة لوهلةٍ مثل عربة رصاصيّة فاخرة تنفث الدخان تحت المطر.

- كما قال القدماء، لا بدّ من وجود سائق تاكسي. - أعرب فيرمين.

حدث ما تبقّى بسرعة الكارثة. شابٌّ مبلّلٌ حتى العظام، يفترس الرعبُ وجهه، نزل من السيّارة ليرى لائحة «مغلق» على الباب، فإذا به يطرق على الزجاج بكلتا قبضتيه. نظر كلٌّ من فيرمين ودانيال

إلى الآخر.

- ثمّ يقولون إن الناس في هذا البلد لا رغبة لها بشراء الكتب.

ذهب دانيال إلى الباب وفتحه. حمل الشابّ يده إلى صدره، وقد بدا مقبلًا على الإغماء، والتقط نفسًا عميقًا وسأل وهو يصيح:

- من منكما فيرمين روميرو دي توريس؟

رفع فيرمين يده.

- ها أنا ذا، فيرمين ذو العضلات.

وثب فرنانديتو نحوه وأمسك بذراعه وشدّه.

- أنا بحاجة إليك. - توسَّل.

- اسمع يا فتى، لا تؤاخذني، لكنّي سمعتُ هذه الكلمة من إناثٍ جبّارات أكثر من مرّة، واستطعت أن أصمد.

- إنّها أليثيا. - لهث فرنانديتو - أعتقد أنّها ستموت عمّا قريب...

اصفرّ وجه فيرمين. رمى دانيال بنظرة متوجّسة، وانساق دون أن ينبس ببنت شفة إلى الطريق ثمّ إلى داخل التاكسي الذي انطلق كالصاروخ.

كانت بيا قد أطلّت برأسها من ستار المستودع ورأت المشهد.

نظرت إلى دانيال مرتبكة.

- ما الذي يجري؟

تنهّد زوجها مغمومًا.

- أنباءٌ سيّئة. - غمغم.

وما إن هبط فيرمين في قلب السيّارة، اصطدم بنظرة السائق.

- لم يكن ينقصنا إلّا حضرتك. إلى أين نذهب الآن؟

حاول فيرمين أن يتعرّف على محيطه. واستغرق بعض الوقت ليفهم أنّ الجسد ذا البشرة الشاحبة كالشمع، والنظرة التائهة، الراقدَ على المقعد الخلفيّ، كان جسد أليثيا. فرنانديتو يسند رأسها بيديه ويحاول أن يكبح دموع الفزع.

- سِرْ إلى الأمام. - أمر فيرمين السائقَ.

- ولكن إلى أين؟

- مبدئيًّا سِرْ إلى الأمام. وبسرعة قصوى.

ثمّ التفت إلى فرنانديتو.

- احترت بما عليَّ فعله. - تلعثم الفتي - لم تشأ أن آخذها إلى مستشفى أو طبيب و...

نظرت أليثيا إلى فيرمين، في لحظة صفاء عابرة، وابتسمت له بهوان.

- فيرمين، الذي يحاول إنقاذي دائمًا...

سمع صوتها المكسور، فتشنَّجت معدته وأعضاؤه المجاورة، وإذ تذكَّرَ أنّه على الفطور ابتلع كيسًا كاملًا من بسكويت الكاركوينيوليس الكاتالانيّ، بدا له الألم مضاعفًا. كانت أليثيا تتمايل ما بين الوعي والهاوية، لذا قرّر فيرمين أن يطلب شهادة الفتي الذي بدا مرعوبًا اكثر من الجميع.

- أنت، ما اسمك؟

- فرنانديتو.

- هل لي أن أعرف ما الذي حدث؟

قدَّم فرنانديتو موجزًا لما وقع خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، بعجالة وخلطٍ بالتفاصيل استدعى فيرمين إلى إيقافه عند ذلك الحدّ، وفضَّل إيجاد أولويّات عمليّة. تحسّس بطن أليثيا وتفحَّصَ أصابعها الملطّخة بالدماء.

- أيّها القبطان. - أوعز للسائق - إلى مستشفى أمّنا عذراء البحر. بسرعة. حلِّقْ!

- كان عليكم أن تستأجروا منطادًا. انظر إلى الزحمة.

- إن لم نصل إلى هناك في أقلّ من عشر دقائق، أحرقتُ لك هذه العربة. أعدك بذلك.

خار السائق وهرس دوّاسة الوقود. تقاطعت نظرته المرتابة بنظرة فيرمين في المرآة العاكسة.

- اسمع، ألست أنت ذات الرجل في المرة الماضية، الذي كاد يموت في سيّارتي منذ أعوام؟

- لا أعلم ما الذي يدفعني للموت هنا، إلّا إذا كان بسبب الرائحة الكريهة. أولى بي أن أرمي نفسي من جسر بايكاركا مع لاريخينتا المربوطة من العنق.

- بالنسبة إليّ...

- لا تتشاجرا. - صرخ فرنانديتو - فالآنسة أليثيا ستموت...

- اللعنة، اللعنة! - جدَّف السائق، وهو يملص من زحمة شارع لايتانا باتجاه برشلونيتا.

أخرج فيرمين من جيبه منديلًا وأعطاه لفرنانديتو.

- ضعه خارج النافذة. - أمره.

أومأ الشابّ وفعل. رفع فيرمين قميص أليثيا برفق فوجد على بطنها الثقب الذي خلّفه الإزميل. وكانت الدماء تتدفّق منه.

- رحماك يسوع ويوسف ومريم...

ضغط بيده على الجرح ونظر إلى الزحمة. كان السائق، باستثناء نعيقه، يقوم بتمارين بهلوانيّة مع السيّارات والحافلات والمارّة بسرعةٍ جنونية. حتى إنّ فيرمين بات يشعر بوجبة الفطور تتصاعد

إلى حلقه.

- من فضلك، الفكرة هي أن نصل أحياءً إلى المستشفى. فلدينا محتضر واحد وهذا يكفي.

- بالمعجزات، وحكماء الشرق. وإلّا تعال حضرتك واستلم الدفّة. - ردّ السائق - كيف الوضع في الخلف؟

- كان يمكن أن يكون أفضل.

داعب فيرمين وجه أليثيا وحاول أن ينعشها بطبطبةٍ ناعمة من كفّه على خدها. فتحت عينيها. كانت حدقتاها مشحونتين بالدماء من شدّة الضربات التي تلقَّتها.

- لا تنامي الآن يا أليثيا. ابذلي جهدًا وابقي يقظة. افعليها من أجلي. إن أردتِ، رويتُ على مسامعكِ نكاتًا قذرة وغنيّتُ لكِ أغنيات أنطونيو ماشين الناجحة.

عرضت عليه ابتسامةً محتضرة. لكنّها كانت تسمعه على الأقلّ.

- فكّري في الجنرال وهو يرتدي بدلة الصيد وقبّعة وجزمة...

كلّما فكّرتُ في هذه الصورة حلمتُ بالكوابيس ومنعتني من النوم.

- أشعر بالبرد. - غمغمت بصوتٍ ضعيف.

- لقد وصلنا تقريبا...

كان فرنانديتو يراقبها مرتاعًا.

- الذنب ذنبي. قالت إنّها لا تريد الذهاب إلى المستشفى، فخفتُ. تقول إنّهم قد يبحثون عنها هناك...

- في المستشفى أم في المقبرة. - اختصر فيرمين.

تلقّي فرنانديتو قسوة الردّ كأنّها صفعة. فتذكّر فيرمين أنّه مجرّد فتي صغير ومن الوارد أنّه أكثر الخائفين بين ركّاب تلك السيّارة.

- لا تقلق يا فرناندو. لقد فعلتَ ما كان ينبغي فعله. ففي لحظاتٍ عصيبة كهذه، كلّ الرجال يخافون.

تنهّد فرنانديتو، وكان الشعور بالذنب يستنزف وجدانه.

- إن وقع مكروه للآنسة أليثيا، أموت...

أمسكت يده وشدّت عليها بقدر استطاعتها.

- وماذا لو عثر عليها ذلك الرجل... إندايا؟ - همس الشابّ.

- حتى يسوع المسيح لن يعثر عليها. - قال فيرمين - دع هذا الأمر لي.

كانت أليثيا، بعينين مواربتين، تحاول متابعة الحوار.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ - سألت.

- إلى خان سولي، المطعم الذي يحضِّر أجود أنواع الجمبري بصلصة الثوم، تحيي الموتى. سترين كم تعجبكِ.

- لا تأخذني إلى المستشفى يا فيرمين...

- ومَن تحدَّثَ عن مستشفى؟ الناس تموت في المستشفيات... المستشفيات، أخطر الأماكن في العالم وفقًا للإحصائيات. اطمئنّي فنفسي لا تطاوعني لاقتياد قملة إلى المستشفى.

كان السائق قد اجتاح المسار المعاكس، بمحاولته اجتناب الزحمة الخانقة في الجانب السفليّ من شارع لايتانا. رأى فيرمين حافلةً تمرّ على بعد سنتمترين من النافذة.

- بابا، أهذا أنت؟ - نادت أليثيا - بابا، لا تتركني...

نطر فرنانديتو إلى فيرمين مذهولًا.

- لا تعر اهتمامًا يا فتى. فالمسكينة تهذي وتهلوس. وهو أمرٌ معتاد في الطباع الإسبانيّة. ها يا معلّم، كيف الوضع في الأمام؟

- إمّا أن نصل أحياءً أو نتحطّم على الطريق. - أجاب السائق.

- ها هو. حسّ الدعابة.

رأى فيرمين أنّهم كانوا يقتربون من شارع كولون بسرعة باخرة. ينتصب أمامهم حاجزٌ من ترامات وسيّارات وبشر متعدّدين على بعد خمس ثوانٍ عنهم. قبض السائق على الدفّة بقوة وكاد يتفوّه بشتيمة شنيعة. أمّا فيرمين فقد سلَّم أمره للإله الحظّ أو أيًّا كان مناوبًا حينها وابتسم بمرارة لفرنانديتو.

- شدّ الهمّة أيّها الغرّ.

لم يسبق لمركبةٍ بأربع عجلات أن اجتازت زحمة شارع كولون بذلك التهوّر. حصد مرورُها بلبلةً من المزامير والشتائم واللعنات. اتجه التاكسي نحو برشلونيتا من ذلك المفرق، حيث توغّل في شارع ضيّق كأنفاق الصرف الصحّيّ وكاد يصطدم بإصطبل درّاجات ناريّة مركونة بجانب الرصيف.

- أوليه. - هتف فيرمين مستحسنًا.

وأخيرًا تراءى لهم الشاطئ والبحر المتوسّط المصبوغ بلون الأرجوان. ولجت السيّارة مدخل المستشفى وتوقّفت أمام سيّارتي إسعاف مُصدِرةً أنينًا عميقًا من هدمٍ واستسلام. وتصاعد البخار من فتحات الصندوق الأماميّ.

- أنت فنّان. - أعلن فيرمين وهو يربِّت على كتف السائق - فرنانديتو، خذ اسم البطل ورقم رخصته، كي نرسل إليه سلّة مليئة بالنوغا واللحم المقدّد الأعياد الميلاد.

- يكفيني ألّا تركبوا سيّارتي مرّة أخرى.

بعد عشرين ثانية، قدم فريق من الممرّضين لنقل أليثيا من سيّارة الأجرة، ووضعوها على نقّالة وحملوها بسرعة نحو غرفة العمليّات بينما كان فيرمين يركض بجانبها ويضغط بيديه على الجرح.

- ستحتاجون إلى عدّة لترات من الدم. - نبَّههم - بإمكانكم أن تأخذوا مني ما تشاؤون، فقد تروني هزيلًا لكنّي أختزن موارد طبيعيّة أكثر من حوض أيغويستورتس.

- هل أنت من أقارب المريضة؟ - سأله أحد الموظّفين وقد اعترض طريقه عند مدخل قسم الجراحة.

- والدٌ مزعوم على مستوى التجربة.

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنّك ملزم بالتنحّي جانبًا وإلّا رأيتُني مضطرًا يا لسوء الحظّ أن أقذف خصيتيك إلى عنقك بركبتي. موافق؟

تنحّي الموظّف فرافق فيرمين أليثيا حتى انتزعوها من يديه، ورآها تهبط على سرير العمليّات الشفّاف كالشبح. كانت الممرّضات يقصصنَ ثيابها بالمقصّ، فظهر جسدها الجميل مغطّى بالكدمات والخدوش والجروح، كاشفًا عن تلك الإصابة التي يتدفّق منها الدم بلا توقّف.

تراءت لفيرمين علامة داكنة ترزح على خاصرتها وتتمدّد على سائر جسمها مثل شبكةٍ تنوي ابتلاعها. فشدَّ قبضتيه لئلا ترتجف يداه.

كانت أليثيا تبحث عنه بأنظارها، وعيناها تفيضان دمعًا، وابتسامةٌ باهتة على شفتيها. فتوسّل فيرمين إلى الشيطان الأعرج الذي لطالما أوكله الطلبات الصعبة، بألّا يحملها بعيدًا.

- ما زمرة دمك؟ - سأله صوتٌ بجانبه.

أطال فيرمين ذراعه، دون أن يحيد أنظاره عن أنظارها.

- O إيجابيّ، معطي عامّ، ولحم خنزير إيبيريّ.

(32)

لم يكن العِلم في تلك الأعوام قد توصَّلَ إلى الإجابة عن السؤال اللغز: لماذا لا ينساب الزمن داخل المستشفيات بذات سرعته الخارقة المعتادة. بعد أن أفرغ فيرمين ما بدا له قرابة البرميل من الدماء، التجأ صحبة فرنانديتو إلى صالة الانتظار المطلّة على الشاطئ. كانت النافذة تشرف على قلعة أكواخ الصفيح في سوموروسترو، القائمة بين بحرٍ وسماء موصدين بغيومٍ رصاصيّة. وفي البعيد ينتصب موزاييك الصلبان وتماثيل الملائكة وبانثيون مقبرة بويبلو نويفو، التي تقدِّمُ تذكيرًا كئيبًا للأرواح المنتظرة على المقاعد بغية إنزال عذاب الأوجاع الفَقَريّة على الأقارب والمعارف، لتوِّلدَ بذلك زبائن جدد بين الزوّار. كان فرنانديتو يرنو إلى المنظر بعينَي متّهم، بينما كان فيرمين، ذو التوجُّه الماديّ، يلتهم شطيرة عملاقة من النقانق التي استطاع تدبيرها من المطعم ويسقيها بيرة موريتث.

- لا أفهم كيف تطاوعك نفسك على الأكل في هذه الظروف يا فيرمين.

- بما أنّني تبرّعتُ بثمانين بالمئة من مجراي الدمويّ، وربّما الحصيلة الكليّة من كبدي، فأنا بحاجة إلى إعادة ترميم جسدي. مثل بروميثيوس، ولكنْ بلا طيور جارحة.

- بروميثيوس؟

- عليك أن تقرأ يا فرنانديتو، فالمراهقة لا تنحصر بالاستمناء كقرد المكاك فقط. ثمّ إنّي رجل أفعال، ولديَّ استقلابٌ سريع، فعليَّ أن أهضم من الأطعمة الجيّدة ما يعادل ثلاثة أضعاف وزني أسبوعيًّا كي أحافظ على هذا الجسد المكتنز ذي الصحّة المثاليّة.

- الآنسة أليثيا تكاد لا تأكل شيئًا، - ارتجل فرنانديتو - لكنّها في الشرب، تسرف كثيرًا...

- كلُّ امرئ يقارع شهواته. - أعرب فيرمين - فأنا مثلًا أشعر بالجوع منذ الحرب. أنت شابّ ولا يمكنك فهم هذا.

رمقه فرنانديتو مستسلمًا وهو يلتهم مأدبته. ثمّ ظهر رجلٌ أشبَه بمحامٍ يعمل في المقاطعة، عند مدخل الغرفة وغرغر صوته ليلفت الانتباه لوجوده.

- هل أنتما من أقارب المريضة؟

بحث فرنانديتو عن أنظار فيرمين، الذي اكتفى بحطّ يده على كتف الفتي، ملمِّحًا إلى أنّه من الآن فصاعدًا سيتولّى بشخصه دورَ المتحدّث.

- كلمة «أقارب» مجحفة بحقّ الرابط الذي يجمعنا بها. - قال فيرمين وهو ينفض فتات الخبز عن سترته.

- وما الكلمة التي تستخدمها لتعريف الرابط، إن كان لي أن أسأل؟

كان فرنانديتو يظنّ أنّه بدأ يتشرَّب علوم وفنون حياكة الأكاذيب إلى أن شاهد التمثيليّة التي أراد المعلّمُ، فيرمين روميرو دي توريس، مشكورًا أن يؤدّيها في عين المكان بينما كانت أليثيا غارقة في

ظلمات الجراحة. وما إن عرَّف الرجل نفسه مشرفًا على إدارة المستشفى، وأوضح نواياه بالتحقيق في الوقائع وطلب الوثائق، حتى انبرى فيرمين بقصيدةٍ مطوِّلةٍ ومعجونة بالمزركشات انبهر على إثرها الفتى. النقطة الأولى هي أنّه قدَّم نفسه باعتباره الرجل الثقة لحاكم برشلونة المدنيّ، المدلَّل عند النظام من بين حكّام المقاطعات.

- أيُّ توصيفٍ قليلٌ بحقّ المشاعر التي أودّ اطلاع سموّك عليها. - نغَّمَ قائلًا.

- إنّ إصابات الآنسة خطيرة بشكل استثنائيّ، وتحمل سمات عنف بما لا يخفى على أحد. القانون يجبرني على إعداد تقرير للشرطة...

- لا أنصحك بهذا، إلّا إذا كنَت تودّ العمل من الغد كموظّف مساعد في قسم الاستقبال في مستوصف الطريق الواقع خلف مسلخ كاستيفوييت.

- لم أفهم.

- بسيطة. اجلسْ وتمعَّنْ.

استهلّ فيرمين حكايته بأنّ أليثيا، التي سمّاها فيوليتا لوبلان، كانت عاهرةً من مستوى رفيع حتّى إنّ الحاكم وبعض أصدقائه الطرفاء في غرفة الصناعة الكاتالانيّة طلبوا خدماتها لإحياء حفلة صاخبة على نفقة رسوم العضويّة في المنظّمة النقابيّة.

- تعلم حضرتك كيف تجري هذه الأمور. كأسان من البراندي، وملابس داخليّة حريريّة، تكفي ليصبح الجميع متصابين بلا عقول. فالذكر الإيبيريّ فحلٌ للغاية، فما بالك بنسخة ساحليّة عنه.

ادّعى فيرمين أنّ الرجل العظيم، أثناء ممارسة ألعابٍ أدبيّة وإيروتيكيّة، استخدم يده الغليظة أكثر من اللازم فتعرَّضت فيوليتا الناعمة لتلك الجروح الخطيرة.

- الحال أنّ عاهرات أيّامنا هذه، مقاومتهنَّ ضعيفة. - اختتم كلامه.

- ولكن...

- فليبقَ سرًّا بيننا، ستكون فضيحة مجلجلة إذا تسرَّبَ خبر هذا الحادث. فكَّر بأنّ للسيّد الحاكم زوجة صالحة وثمانية أولاد، وخمسة نوّاب في خزائن التوفير وغالبيّة الأسهم في ثلاث شركات إنشاء مع أصهار وأعمام وأقارب عوائل مرموقة المكانة في إدارتنا الموقّرة، أو كما تسمّى بالقيادة الرشيدة لوطننا المفدّى.

- أعي ذلك، لكنّ القانون هو القانون، وعليَّ أن...

- عليك أن تحفظ إسبانيا وشرف أبنائها البارزين، مثلي ومثل مرافقي ميغيليتو الجالس هناك، وجهه كمن تغوَّطَ في سراويله من شدّة الخوف، وهو ابن المعموديّة من الدرجة الثانية للماركيز بيابردي دفعة واحدة. ميغيليتو، قل نعم.

أومأ فرنانديتو مرارًا.

- وماذا بوسعي أن أفعل؟ - اعترض المدير.

- انظر، أنا عمليٌّ في مثل هذه الحالات، صدِّقْني. ولطالما قمت بملء البيانات بأسماء مستوحاة من أعمال الكاتب القدير رامون ماريا دل باي انكلان، لأنّه أثبت أنّ الأقلام المكرّسة نادرًا ما توجد في قائمة القراءات الموصى بها من قِبَلِ القيادة العليا لجهاز الشرطة، وبهذا الشكل لا أحد سيفطن إلى الخديعة.

- ولكن كيف لي أن أقوم بهذه المخالفة؟

- دع لي مهمّة تصريف المعاملات. ركِّزْ على المنافع السخيّة التي ستتلقّاها على أدائك للواجب الوطنيّ بشجاعة لا يُكبَح لها جماح. هكذا تُنقَذُ إسبانيا، شيئًا فشيئًا كلّ يوم. نحن لسنا في روما، حيث قال شيبيون: «روما لا تكافئ الخونة». هنا نكافئ الخونة، وكيف لا.

كان وجه المدير يكتسب لونًا بنفسجيًا، ويبدو أنّه يتحدّى المستويات المعقولة لضغط الدم، هزّ رأسه واتّخذ تعبيرًا مهيبًا ينمّ عن استياء.

- وحضرتك، هل يمكن أن أعرف ما اسمك؟

- رايموندو لولو، بخدمتكم وخدمة إسبانيا. - ردّ فيرمين.

- هذا عار.

ركَّز فيرمين أنظاره في عينيه وأومأ برأسه.

- بالضبط. وماذا نفعل بعارنا سوي أن نكنسه تحت السجَّادة ونقبض الثمن؟

بعد ساعة، كان فيرمين وفرنانديتو ما يزالان في تلك الصالة ينتظران النتيجة من غرفة العمليّات. شرب الفتي، بناءً على طلب فيرمين، فنجانًا من الشوكولاتة الساخنة فاستعاد بعضًا من الهدوء والحيويّة.

- فيرمين، هل تعتقد أنّ القصة التي رويتها انطلت عليهم؟ ألم تبالغ في التفاصيل الرذيلة؟

- يا فرنانديتو، لقد زرعنا الشكّ، وهذا هو المهمّ. ففي ساعة الكذب، لا يجب أن نعوِّل على معقوليّة الخدعة، إنّما على طمع وغرور وغباء من يتلقّاها. لا يكذب المرء على الناس أبدًا؛ إنّما الناس هم مَن يكذبون على أنفسهم. فالكاذب البارع هو الذي يُقدِّم للأغبياء ما يودّون سماعه. هذا هو السرّ.

- ما تدّعيه خطير. - احتجّ فرنانديتو.

أبدى فيرمين لامبالاته.

- هذا يعتمد على الظرف. ففي مهزلة القردة التي ترتدي الحرير - أقصد هذا العالم الذي نعيش فيه - يُعَدُّ الزيفُ بمثابة الملاط الذي يوحِّد كلّ أجزاء الصورة. فالناس يعتادون على الكذب وترديد تلفيقات الآخرين، إمّا بسبب الخوف أو المنفعة أو لمجرِّد غباوتهم، حتى تؤول بهم الحال إلى فعل ذلك عندما يعتقدون أنّهم يقولون الحقيقة أيضًا. هذا هو داء عصرنا. الشخصُ الصادقُ والنزيهُ نوعٌ في طريقه إلى الانقراض، مثل البليزيوصورات أو مطربة الكوبليه، سواء أكان لهم وجود أم كانوا خرافةً مثل البراق.

- لا يمكن أن أقبل ما تقوله. غالبيّة الناس هم من الطيّبين والمهذّبين. الواقع أنّ تفاحةً فاسدةً تشوّه سمعه البقية. ليس لديّ شكوكٌ حول ذلك.

ربَّتَ فيرمين بمودّة على ركبته.

- هذا لأنّك ما تزال شابًّا، وغبيًّا بعض الشيء. حين يكون المرء في مقتبل العمر يرى العالم مثلما يجدر به أن يكون، أمّا حين يشيخ فيراه على حقيقته. ستشفى من هذا المرض عاجلًا أم آجلًا.

طأطأ فرنانديتو رأسه مهمومًا. وبينما كان يصارع الأقدار المباغتة، نظر فيرمين إلى الأفق، فلمح ممرّضتين ببزّة متناسقة وقامةٍ نضرة تقتربان على طول الممرّ. وكان من شأن حسن طلعتهما وهفيف مشيتهما أنْ يدغدغَ الجزءُ السفليّ من روحه. ونظرًا لانعدام أشياء أخرى أهمّ وأولي ينشغل بها في الانتظار، سدَّد إليهما نظرةً شعاعيّة خبيرة. وكانت إحداهما تبدو مبتدئة ولم يمرّ أكثر من تسعة عشر عامًا على عدّاد عمرها، رمته بنظرةٍ تقول بوضوح إنّ نكرةً مثله لن يذوق حلواها حتى بعد مرور ألف عام، ثمّ انفجرت ضاحكةً. أمّا الأخرى، وقد بدت أكثر إبحارًا في العلاقة مع السفهاء، خصَّته بنظرة رقابة.

- خنزير. - قالت.

- آه، أيُّ وجبةٍ ستأكلها الديدان... - تنهَّد فيرمين.

- لا أفهم كيف تطاوعك نفسك على التفكير في هذه الأشياء في حين أنّ الآنسة أليثيا عالقة بين الحياة والموت.

- هل أنت تتكلّم دائمًا بالبديهيّات أم إنّك تعلَّمت نظم الشعر بمشاهدة الجريدة السينمائية؟ - ردّ المستشار الببليوغرافيّ في مكتبة سيمبيري وأبناؤه.

ساد صمت طويل، كان فيرمين في خلاله يستكشف الحشوة القطنيّة المثبَّتة باللصاق بعد تبرُّعه بالدم، إلى أن لاحظ أنّ فرنانديتو ينظر إليه شزرًا، متخوّفًا من فتح فمه.

- ما بك الآن؟ - سأله - هل تريد أن تتبوّل؟

- أتساءل إن كنتَ تعرف أليثيا منذ أمد بعيد.

- يمكننا القول إنّنا صديقان قديمان.

- لكنَّ أليثيا لم تأتِ على ذكرك إطلاقًا. - لاحظ فرناناديتو.

- هذا لأنّنا لا نلتقي منذ ما يزيد على العشرين عامًا، وكان كلٌّ منّا يظنّ أنّ الآخر قد مات.

كان الفتى يرمقه مضطربًا.

- وأنت؟ ساذجٌ أُغرِمَ بسهولة ووقع في فخّ ملكة الليل أم إنّك مترّمتٌ خدوم؟

فكّر فرناناديتو قليلًا.

- الأولى التي ذكرتَها، على ما أعتقد.

- لا تخجلْ، هذه هي الحياة. الخطوة الأولى لمعرفة أنفسنا تكمن في تعلُّم التفريق بين لماذا نفعل الأشياء ولماذا نقول إنّنا نفعلها. ثمّ نحتاج إلى الكثير بعدئذ لنكفّ عن الحمق.

- أنت تتكلّم كالكتاب يا فيرمين.

- لو أنّ الكتب تتكلَّم، لما وجدتَ هذا العدد الكبير من الطرشان. ما ينبغي لك فعله يا فرنانديتو هو أن تبادر بمنع الآخرين من أن يكتبوا لك كلامك. استخدم رأسك الذي وضعه لك الربّ على عنقك، واكتب بنفسك ما توّد قوله، لأنّ الحياة مكتّظة بالنصّابين الجشعين الذين يملأون رأس الجمهور المحترم بالترّهات التي تناسبهم ليظلّوا راكبين على ظهر الحمار والجزرة في أيديهم. هل فهمت؟

- لا أعتقد.

- هي هكذا. ولكن بالمحصّلة، دعني أنتهز فرصة أنّ روعك قد هدأ، وأطلب منك أن تروي لي ثانيةً ما حدث. وهذه المرّة من البداية، وبالترتيب، وبلا أساليب بلاغيّة وطلائعيّة. هل ترى الأمر ممكنًا.

- سأجرّب.

- هيّا إذن.

لم يدَّخر فرنانديتو أيّ تفصيل هذه المرّة. أصغى إليه فيرمين حانقًا، يكمل أجزاء اللوحة التي بدأت ترتسم في ذهنه بالفرضيّات والتأمّلات.

- وأين هذه الوثائق ودفتر إيزابيلا التي تحدّثت عنها؟

- تركتها عند خالتي خيسوسا. ناطورة البناية التي تسكن فيها الآنسة أليثيا. محلّ ثقة.

- لا أشكّ في ذلك، ولكن علينا أن نجد مكانًا أكثر أمنًا. ففي أعراف الحبكة البوليسيّة تُقدِّم ناطورات المباني تسهيلات كثيرة، وليس التكتُّم أحدها.

- كما تشاء.

- وسأطلب منك أن يبقى كلّ ما رويته لي سرًّا بيننا. لا كلمة للسيّد دانيال سيمبيري.

- مفهوم. كما تشاء.

- هكذا تعجبني. قل لي، هل لديك بعض النقود؟

- فكّة، أعتقد...

مدّ فيرمين كفّه المفتوحة تحت أنف الشابّ، طلبًا للتمويل.

- عليَّ أن أجري مكالمة.

ردَّ دانيال عند الرنّة الأولى.

- حبًّا بالله يا فيرمين. أين أنت؟

- في أوسبيتال دل مار.

- في المستشفى؟ ما الذي حدث؟

- لقد حاولوا اغتيال أليثيا.

- ماذا؟ من؟ لماذا؟

- أرجوك أن تهدأ يا دانيال.

- كيف أهدأ؟

- هل بيا بجانبك؟

- طبعًا، ولكن...

- أعطني إيّاها.

صمت. همهمة جدال. وفي النهاية، صوت بيا الصافي على السمّاعة.

- قل لي يا فيرمين.

- ليس لديّ وقتٌ للدخول في التفاصيل، لكنّ أليثيا كانت على وشك الموت. إنّها في غرفة العمليّات هذه الساعة، ونحن بانتظار أن يقولوا لنا شيئًا ما.

- نحن؟

- أنا وشابٌّ يدعى فرنانديتو، يبدو أنّه يعمل لمصلحة أليثيا كمرؤوس ومُستَخدَم. أعرف أنّ الوضع غريب، ولكن أرجوكِ أن تتحمَّلي.

- إلام تحتاج يا فيرمين؟

- حاولتُ أن أجد حلًّا مؤقتًا بأسلوب بلاغيّ، لكنّي لا أظنّ أنّه بوسعنا البقاء هنا طويلًا. إن تخطّت أليثيا الأزمة، لا أعتقد أنّ المستشفى ستكون مكانًا آمنًا. قد يحاول أحد أن ينجز عمله.

- ما الذي تقترحه؟

- أن أنقلها بأقرب وقت ممكن إلى مكانٍ حيث لا يستطيع أحدٌ العثور عليها.

سكتت بيا طويلًا.

- هل يفكّر كلانا في الشيء ذاته؟

- العقول العظمى تتقاطع دومًا عند الأفكار العظمي.

- وكيف ترى أنّك ستخرجها من المستشفى ونقلها إلى هناك؟

- أخطّط لاستراتيجيّة في هذه اللحظة تمامًا.

- فليُدخِلنا الربُّ في رحابه معترِفين ومبلَّغين.

- امرأةٌ ضعيفة الإيمان.

- ما المطلوب منّي؟

- الحصول على خدمات الطبيب سولديبيلا. - أجاب فيرمين.

- الطبيب سولديبيلا أحيل إلى التقاعد، ولا يمارس عمله منذ عامين على أقلّ تقدير. أليس من الأفضل أن...؟

- نحن بحاجة إلى رجل موثوق. - ردّ فيرمين - ثم إنّ سولديبيلا بارزٌ ويعرف كلّ شيء. سيرحِّب بالأمر بكلّ تأكيد إن قلتِ له إنّني أنا الذي طلب منكِ ذلك.

- آخر مرّة سمعتُه فيها يتحدّث عنك كان يقول إنّك نذل، وقد ضاق ذرعًا منك لأنّك تقرص مؤخّرات ممرّضاته، وإنّه لا يودّ رؤيتك ثانيةً حتى لو كنتَ مرسومًا.

- مشكلةٌ وانقضت. إنه يقدِّرني كثيرًا.

- بتأكيدٍ منك أيضًا. هل تحتاج إلى شيء آخر؟

- أغذية لأسبوعين على الأقلّ من أجل مريضة كادت تموت بطعنة في بطنها، وطعنة على يدها، وقدْرٍ هائل من اللكمات من شأنها القضاء على ربَّاعٍ باسكيّ.

- يا إلهي... - غمغمت بيا.

- ركِّزي يا بيا. أغذية. والطبيب يعرف الضرورات.

- لن تروقه هذه الحكاية أبدًا.

- هنا توضَع على المحكّ كلٌّ من جاذبيّتكِ وقدرتكِ على الإقناع.

- أشار فيرمين.

- ما ألطفك. أتصوّر أنّنا سنكون بحاجة إلى ثياب نظيفة وأشياء من هذا القبيل.

- أشياء من هذا القبيل. أترك الأمر لتدابيركِ الموثوقة. هل دانيال ما يزال بقربكِ؟

- وأذنه ملتصقة بالسمّاعة. أتريد أن أرسله إليك؟

- لا. فليكن مطمئنًا وهادئًا. سأتّصل به حالما تردني معلومات أخرى.

- لن نتحرّك من هنا.

- ما أقوله دومًا: إن أردتَ أن تسير الأمور على ما يرام، ينبغي أن تتولّى القيادةَ امرأة.

- لا تتملَّقني يا فيرمين، فأنا أعرف ألاعيبك جيّدًا. هل توصي بشيء آخر؟

- توخّيا الحذر. لا أستغرب أن تكون المكتبة تحت المراقبة.

- هذا ما كان ينقصنا. مفهوم. فيرمين؟

- تفضّلي.

- هل أنت متأكد من أنّها امرأة ذات ثقة؟

- أليثيا؟

- إن كان ذلك اسمها الحقيقيّ...

- هو اسمها.

- وما تبقّى؟ هل هو حقيقيّ؟

تنهّد فيرمين.

- فلنمنحها فرصة أخرى. هل ستفعلينها من أجلي يا بيا؟

- بالتأكيد، كما تريد.

أغلق فيرمين السماعة وعاد إلى صالة الانتظار. كان فرنانديتو يرمقه متوتّرًا.

- مع من كنتَ تتحدّث؟

- مع الفطرة السليمة.

جلس فيرمين ولاحظ أنّ الفتى يذكِّره بدانيال في شبابه، وبات يحظى باستلطافه أيضًا.

- أنت رجلٌ طيب يا فرناندو. أليثيا ستكون فخورة بك.

- إن عاشت.

- ستعيش. سبق لي أن رأيتها عائدة من مملكة الموتى، ومَن يتعلِّم الحيلة لا ينسها. أتكلّم عن خبرة. العودة إلى الحياة تشبه ركوب الدرّاجة الهوائيّة أو فكّ حمّالة صدر امرأة بيدٍ واحدة. كلّ ذلك مرتبط بتعلّم الحيلة.

ابتسم فرنانديتو ابتسامة طفيفة.

- وكيف نقوم بذلك؟

- لا تقل لي إنّك لا تعرف ركوب درّاجة هوائيّة.

- أقصد فكّ حمّالة الصدر بيدٍ واحدة. - حدَّد فرنانديتو.

ربّت فيرمين على ركبته، وغمز بعينه إشارةً على التواطؤ.

- أنت وأنا، سيكون بيننا أحاديث مطوّلة...

شاءت الأقدار أن يطلّ الجرَّاح برأسه من عتبة صالة الانتظار، قبل أن يباشر فيرمين بتلقين فرنانديتو الدرس الأوّل من منهاجه الموجز حول حقيقة الحياة. تنفَّس الطبيب الصعداء، واسترخي على أحد الكراسي منهكًا.

(33)

كان الطبيب الجرّاح أحدَ أولئك الشباب الذين يفقدون شعرهم قبل بلوغهم الثلاثين من فرط التفكير. طويل القامة وهزيل البنية، بمظهرٍ جانبيٍّ كقلم الرصاص، ونظرة ذكيّة تمسح المشهد من خلف نظّارة كتلك التي كانت تُسمَّى في تلك الآونة «ترومان»، تمجيدًا للرئيس الأمريكيّ صاحب اليد الخفيفة التي ألقت قنابل ذريّة بحجم تنّين على إمبراطوريّة الشمس.

- استطعنا أن نجعل حالتها مستقرّة، وخيّطنا الجرح وراقبنا النزيف. لا عدوى حتى اللحظة، لكنّني أعطيتها مضادات حيويّة تحسُّبًا. الجرح كان أعمق ممّا يبدو. نجا شريانها الفخذيّ بأعجوبة، لكنّ عمليّة التخييط كانت معقدّة للغاية، وفي البدء لم تتحمّل. ستتحمَّل، لن تتحمّل، فهذا متعلّقٌ بانخفاض الالتهاب، وعدم نشوء عدوى، ومحالفة الحظّ لها. سيقول الربّ كلمته.

- هل ستنجو أيّها الطبيب؟

رفع الجرّاح كتفيه.

- كلّ شيء متعلّق بتطوّر الحالة في الأربع وعشرين ساعة القادمة. المريضة شابّة وقلبها قويّ. لو كانت أضعف لما خرجت حيّة من العمليّة. لكنّ هذا لا يعني أبدًا أنّها خرجت من النفق. فإذا تفشّت العدوى...

أومأ فيرمين، وهو يتشرَّب النشرة الطبيّة. كانت عينا الطبيب تنظران إليه بفضولٍ جراحيّ.

- هل لي أن أسألك عن سبب الجرح الكبير على خاصرتها اليمني؟

- إصابة قديمة منذ طفولتها. أثناء الحرب.

- حقًّا... لا بدّ أنّها تثير آلامًا رهيبة.

- لطالما عانت منها، وأحيانًا تضرّ بشخصيّتها أيضًا.

- إن خرجت حيّة، بإمكاني مساعدتها. ففي أيّامنا ثمّة طرائق لإعادة التكوين لم تكن معروفة قبل عشرين عامًا، وقد تنخفض آلامها. لا أحد يستحقّ أن يعيش هكذا.

- ستكون أوّل شيء أخبره لفيوليتا حالما تستيقظ.

- فيوليتا؟ - سأل الطبيب.

- المريضة. - حدّد فيرمين.

لم يكن الطبيب الجرّاح غبيًّا على الإطلاق. رمقه متوجّسًا.

- اسمع، أعرف أنّ الأمر لا يخصّني، ولا أدري ما الذي رويتماه للمغفّل كول، لكنّها تلقَّت ضربة همجيّة كادت تموت على إثرها من أحد ما. فمهما...

- أعرف. - قاطعه فيرمين - صدِّقني إن قلت لك إنّني أعي الموضوع برمّته. متى بإمكاننا إخراجها أيّها الطبيب؟

رفع الطبيب حاجبيه مبهورًا.

- إخراجها من هنا؟ سيتوجَّب على المريضة في أحسن الحالات أن تبقى شهرًا كاملًا في نقاهةٍ مطلقة. فيوليتا، أو أيًّا كان اسمها، لن تذهب إلى أيّ مكان، إلّا إذا كنت تودّ إعداد جنازة مهيبة تليق بها. وأنا جادٌّ فيما أقول.

درس فيرمين وجه الطبيب الجرّاح.

- وماذا لو نقلناها إلى مكان آخر؟

- لا بدّ أن يكون مستشفى. لكنّي لا أنصح بهذا الخيار.

أومأ فيرمين بجدّيّة.

- شكرًا أيّها الطبيب.

- لا شكر على واجب. بعد ساعتين، إن سارت الأمور كما يجب، سننقلها إلى القسم. وحتى ذلك الحين لا يمكنكما رؤيتها. أقول هذا في حال أردتما الخروج للتنفّس قليلًا. أو إذا كنتما مضطرين لتدبير شؤونكما، فهمتَ قصدي. حتى اللحظة، كما قلتُ، وضع المريضة مستقرّ والتشخيص إيجابيّ إلى حدّ ما.

- إلى حدٍّ ما؟

توجَّه إليه بابتسامة غامضة.

- إن أردتَ رأيي الشخصيّ لا رأي طبيبٍ جرّاح، فإنّ هذه الفتاة لا تريد أن تموت. هنالك أشخاصٌ ينجون بفضل غل محض أحيانًا.

هزّ فيرمين رأسه.

- النساء هكذا. يضعن شيئًا ما في رؤوسهنَّ و...

انتظر فيرمين أن يتركهما الطبيب وحدهما لكي يطلَّ برأسه من الممرّ ويعاين الوضع. انضمّ إليه فرنانديتو. ثمّة شخصان مهندمان ببدلة لا توحي بأنّهما من المجال الطبّيّ، يتقدّمان بهدوء من آخر الممرّ.

- انظر، ألا يبدوان من الغيلان؟

- ماذا قلت؟ - سأله فرنانديتو.

- رجال شرطة. هل تقرأ الصحف أم ماذا؟

- الآن فهمت. أجل يبدوان كذلك فعلًا.

خار فيرمين ودفع الفتي من جديد إلى صالة الانتظار.

- هل تعتقد أنّ المدير أوعز إلى الشرطة؟ - سأله.

- سيكون الأمر معقّدًا أكثر ممّا ظننت. لا وقت نضيّعه. عليك أن تعطيني يدك.

- سأعطيك يديَّ الاثنتين إن تطلَّب الأمر. قل.

- ستذهب إلى مكتبة سيمبيري وأبناؤه وتتكلّم مع بيا.

- بيا؟

- زوجة دانيال.

- وكيف أعرفها؟

- لا يمكن للعين أن تخطئها. هي الأكثر تيقّظًا من الجميع.

ناهيك بأنّها جوهرة، ولكن عفيفة، لا تأخذنَّك الأوهام...

- وماذا أقول لها؟

- إنّه ينبغي لنا القيام بمناورة الملكة قبل المتوقَّع.

- مناورة الملكة؟

- ستفهمك. ينبغي أن ترسل دانيال ليحيط إسحاق علمًا.

- إسحاق؟ ومن هذا إسحاق؟

تأفّف فيرمين وقد ضاق ذرعًا ببطء بديهة الفتي.

- إسحاق مونتوريول، مبتكر الغوّاصة. إسحاق وكفى. هل يلزم أن أكتبه لك؟

- لا، لقد سجّلتُ كلّ شيء.

- فهيّا إذن، ساقاك في ظهرك فقد تأخّر الوقت.

- وأنت، إلى أين ستذهب؟

غمز فيرمين بعين.

- لا تُكسَبُ الحربُ بلا جنود مشاة...

(34)

كانت العاصفة تبتعد حين غادر فيرمين المستشفى وتوغَّل في الشاطئ باتجاه سومورروسترو. الريح تهبّ من الشرق، تهيِّجُ أمواجًا تتكسّر عند الشطّ على بعد أمتار من قلعة الأكواخ المنبسطة على مدّ النظر، بجوار أسوار مقبرة بوبيلو نويفو. حتّى الأموات كانوا ينعمون بإقامةٍ أفضل من شرذمة الأرواح التي لا اسم لها في حياتها المتردّية على شاطئ البحر، قال فيرمين في سرّه.

استقبلته جوقة من النظرات المتوجّسة وهو يدخل الزقاق الأوّل الذي تنفرش الأكواخ على جانبيه. أولادٌ بثياب رثّة، امرأة بدينة مكفهرّة الوجه بسبب الشقاء، ورجالٌ شاخوا قبل الأوان، يرمقونه وهو يمرّ بجانبهم. وبعد قليل، جاء قبالته أربعة صبية يتمتّعون بملامح حادّة وأحاطوا به واعترضوا طريقه.

- هل ضعتَ يا غاجي؟

- أبحث عن أرماندو. - قال فيرمين دون أن تظهر عليه مظاهر القلق أو الفزع.

كان لأحدهم وجهٌ موصومٌ بندبة تشقّ جبينه وخدّه. تقدَّم إليه بابتسامة تهديديّة ونظر إلى عينيه بما ينمّ عن تحدٍّ. فجابَهَ فيرمين نظراته.

- أرماندو. - ردّد - أنا صديقه.

قيَّمَ الفتى خصمه، الذي كان بوسعه أن يصفّيه بصفعة واحدة، وابتسم أخيرًا.

- ألستَ أنت الميّت؟ - سأله.

- غيّرتُ فكرتي في اللحظة الأخيرة. - أجاب فيرمين.

- عند الشاطئ. - قال الفتى وهو يشير برأسه.

شكره فيرمين فأفسحوا له الطريق. سار بالزقاق نحو مئة متر، وقد تجاهله سكّان المكان. ثمّ انعطف الطريقُ صوب البحر، وسمع فيرمين أصوات وضحكات صبيانيّة آتية من الشاطئ. فمشى وفهم سبب تجمُّع الأطفال على الشطّ.

كانت العاصفة قد قذفت سفينة شحن قديمة إلى هناك، وظلّت عالقة على بعد أمتار عن الشاطئ. كان هيكلها مائلًا على جانبه الأيسر، فيما تنتأ العارضة واللوالب من بين الزبد. وقد أفرغ الموج عددًا لا بأس به من الحمولة، فكانت الاعراض تعوم مع المدّ. سربُ نوارس يحلِّق بين بقايا الغرق بينما يحاول طاقم السفينة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكان الأولاد يحتفلون فرحًا بالكارثة. في البعيد، ثمّة غابة شاسعة من الورش والمصانع ترزح تحت سماء تتناثر بالسُّحُب التي تتحرّك حاملةً معها أصداء الرعود ووميض العاصفة.

- فيرمين. - قال صوتٌ رخيم ورائقٌ بجانبه.

التفت فوجد نفسه أمام أرماندو، أمير الغجر وإمبراطور ذلك العالم المنسيّ. كان يرتدي بدلة سوداء في منتهى الأناقة، ويحمل بيديه حذاءه الملمَّع. وقد شمّر بنطلونه ليمشي على الرمال الرطبة وينظر إلى الأولاد وهم يلعبون بين الأمواج. أشار إلى مشهد الغرق وأومأ.

- مصائبُ قومٍ عند قوم فوائدُ. - أفصح - فما الذي جاء بك إلى هذه الأرجاء يا صديقي، مصائب أم فوائد؟

- يأس.

- ليس بنصيحة جيّدة.

- لكنّه مقنع جدًّا.

ابتسم أرماندو وهزّ برأسه. أشعل سيجارة ومدّ العلبة إلى فيرمين، الذي رفض العرض.

- قالوا لي إنّهم رأوك خارجًا من مستشفى دل مار. - قال أرماندو.

- لديك عيونٌ في كلّ مكان.

- أظنّ أنّ ما تحتاج إليه الآن هو الأيدي، لا العيون. بم يمكنني مساعدتك؟

- بإنقاذ حياة.

- حياتك؟

- حياتي، سبق لك أن أنقذتها وأنا ممتنٌّ لك يا أرماندو. أمّا الحياة التي أتيتُك قاصدًا إنقاذها، فكان عليَّ أن أنقذها بنفسي منذ اعوام بعيدة. لقد ائتمنها القدَر بين يديّ فخنتُ الأمانة.

- القدر يعرفنا أكثر ممّا نعرف أنفسنا يا فيرمين. لا أظنّ أنّك خنتَ أحدًا. لكنّي أفهم أنّه ينبغي القيام بذلك على وجه السرعة. أعطني التفاصيل.

- قد يكون الأمر معقّدًا. وخطيرًا.

- لو كان بسيطًا وآمنًا، فأنا على ثقة أنّك لن تهينني بالمجيء لطلب مساعدتي. ما اسمها؟

- أليثيا.

- حبّ؟

- دَيْن.

قرفص إندايا بجانب الجسد ورفع عنه الغطاء.

- أهذا هو؟ - سأل.

وإذ لم يرده جوابٌ، التفت. كان ليناريس خلف ظهره ينظر إلى جثة بارغاس كمن تلقّى لطمات قويّة.

- أهذا هو أم لا؟ - ألحّ إندايا.

أكدّ ليناريس برأسه، وأغمض عينيه للحظة. أعاد إندايا الغطاء على وجه النقيب الميّت ونهض. طاف في أرجاء الغرفة بهدوء، يعاين الثياب والأغراض المبعثرة من دون أن يلفت انتباهه شيء. وإضافة إلى ليناريس، كان هناك اثنان من رجال إندايا يترقّبان بصمتٍ وصبر.

- قالوا لي إنّ بارغاس، قبل أن يعود إلى هنا، كان في المشرحة معك. - قال إندايا - هلّا حدّثتني؟

- ليلة أمس، عثر النقيب بارغاس على جثّة واتّصل بي لإعداد تقرير.

- هل قال بأيّ ظرف ٍعثر عليها؟

- في أثناء تحقيقٍ كان يجريه. لم يقدِّم أيّ تفاصيل.

- وحضرتك لم تسأله؟

- فكّرتُ أنّ بارغاس سيزوّدني بمعلومات مفصّلة عندما تحين اللحظة.

- هل كنت تثق به إلى هذه الدرجة؟ - سأله إندايا.

- كما أثق بنفسي. - ردّ ليناريس.

- توافُقٌ مثيرٌ للاهتمام. ما من أفضل من وجود أصدقاء مخلصين في القيادة. قل لي، هل استطعتم تحديد هويّة الجثّة؟

تردّد ليناريس برهةً.

- كان بارغاس يشكّ أنّها لرجلٍ يدعي ريكاردو لومانا. ربّما تعرفه. زميلٌ لك، على ما أعتقد.

- ليس زميلي. ولكن، أجل، ربّما أعرفه. هل أعلمتَ الجهات المختصّة بالوقائع؟

- لا.

- ولماذا؟

- كنت أنتظر تأكيدًا من الطبيب الشرعيّ.

- لكنّك كنت تفكّر في ذلك.

- طبعًا.

- طبعًا. وفي الأثناء، هل تحدّثت مع أحد في المخفر عن شكوك بارغاس حول هويّة لومانا؟

- لا.

- لا؟ - ألحَّ إندايا - ولا مع أيّ موظّف عندك؟

- لا.

باستثنائك أنت والطبيب الشرعيّ والقاضي وعمّال المشرحة الذين جاؤوا معك، هل من أحد آخر على علمٍ بالعثور على الجثّة؟

- لا. إلام تلمّح؟

غمز له إندايا.

- لا شيء. أصدِّقك. وهل تعلم إلى أين اتّجه بارغاس بعد خروجه من المشرحة؟

نفي ليناريس برأسه.

- إلى دائرة النفوس. - قال إندايا.

قطَّب ليناريس جبينه.

- لم تكن تعلم؟

- لا. - ردّ الأخر - لماذا كان عليَّ أن أعلم بذلك؟

- ألم يخبرك بارغاس؟

- لا.

- متأكد؟ ألم يتّصل بك من دائرة النفوس ليسألك عن شيء ما؟

جابه ليناريس نظراته. فابتسم إنديا مستمتعًا باللعبة.

- لا.

- هل يذكّرك اسم رويبرا بشيء؟

- كنية شائعة بما فيه الكفاية.

- حتى في المخفر؟

- أعتقد أنّ هناك شخصًا بهذا الاسم. يعمل في الأرشيف وسيحال إلى التقاعد عمّا قريب.

- هل سألك أحدٌ ما عنه مؤخّرًا؟

نفي ليناريس برأسه مرّة أخرى.

- هل يمكنني أن أعرف عمّا نتحدّث؟

- عن جريمة، يا صديقي ليناريس. جريمةٌ بحقّ أحد رجالنا، بل أفضلهم. من كان ليفعل شيئًا من هذا النوع؟

- محترفٌ بطبيعة الحال.

- هل أنت واثق؟ بالنسبة إليّ تبدو فعلة نشّال.

- نشّال؟

أومأ إندايا مقتنعًا.

- هذا الحيّ ليس موثوقًا، والله أعلم بقدرة هؤلاء الكاتالانيّين على سرقة سراويل ساخنة لأمٍّ ترقد على فراش الموت. النشل يسري في دمائهم.

- ليس لأيّ نشّالٍ رديء أدنى فرصة للصمود في وجه بارغاس. - استدلَّ ليناريس - حضرتك تعرفه مثلي جيّدًا. وهذه ليست صنيعة أحد الهواة.

توجَّه إليه إندايا بنظرة مطوّلة وهادئة.

- هيّا يا ليناريس. يوجد نشّالون محترفون. أناسٌ قساة، لا ضمير يؤنّبهم. أنت تعلم. ثمّ إنّ صديقك بارغاس لم يعد كسابق عهده، فلنعترف بذلك. العمر والشيخوخة.

- هذا ما يجدر للتحقيقات أن تقرّره.

- للأسف، التحقيقات لن تُجرَي.

- لأنّك أنت من يقول ذلك. - فرَّغ ليناريس عمّا يضيق بصدره.

ابتسم إندايا مبتهجًا.

- ليس لأنّني أنا من يقول ذلك، لا. فأنا لا أحد. ولكن، إن كنتَ تعرف ما الذي يناسبك، لن تنتظر أن يقولها لك أحدٌ آخر.

عضّ ليناريس لسانه.

- هذه لا أقبلها. لا منك ولا من غيرك.

- لقد قمت بمسيرة مهنيّة ناجحة يا ليناريس. لن يسخر أحدنا من الآخر. فأنت لم تصل إلى ما وصلت إليه بتأدية دور أبطال القصص المصوّرة. الأبطال يسقطون في منتصف الطريق. لا تتغابَ الآن وأنت على بعد دقيقتين من تقاعدٍ ذهبيّ. فالأحوال تتغيّر. وأنت تعرف أنّني أقول ذلك لمصلحتك.

توجّه إليه ليناريس بنظرة احتقار.

- ما أعرفه هو أنّك ابن قحبة، ولا أكترث لأيٍّ من أولئك الحقراء الذين تعمل لمصلحتهم. - قال ليناريس - هذه القصّة لن تنتهي هنا. اتّصل بمن تريد.

رفع الآخر كتفيه. استدار ليناريس واتجه نحو المخرج. تلاقت أنظار إندايا بعيني أحد رجاله فأومأ له. وانطلق العميل متعقّبًا ليناريس. اقترب العميل الثاني فنظر إليه إندايا بتعبيرٍ استقصائيّ.

- أما من أثر لتلك المنيوكة؟

- في المخزن ثمّة جسد واحد لا غير. لا أثر لها. ولقد فتّشنا الشقّة في الجهة المقابلة من الشارع. لا شيء. لم يرها أيٌّ من الجيران، كما أنّ الناطورة أكّدت أنّها التقتها للمرّة الأخيرة في الأمس وهي خارجة.

- هل تقول الحقيقة؟

- أعتقد ذلك، ولكن إن أردتم نعذّبها قليلًا.

- لا داعي. راقبوا المستشفيات والمستوصفات. فإن نُقِلَت إلى أحدها، ستكون مسجّلةً باسم زائف. لا يمكن لها أن تذهب بعيدًا جدًّا.

- وماذا لو اتّصلوا من مدريد؟

- لا تنبسوا بأيّ كلمة قبل أن نعثر عليها. أريد أقلّ ضجّة ممكنة.

- حاضر سيّدي.

(35)

كان ذلك أجملَ حلمٍ في حياتها. استيقظت أليثيا في غرفةٍ جدرانُها بيضاء، تفوح فيها رائحة الكافور. همهمة أصوات بعيدة تغدو وتجيء في موجةِ همس. أوّلُ ما تبادر إلى ذهنها هو غياب الألم. للمرّة الأولى منذ عشرين عامًا. اختفى كليًّا، آخذًا معه العالمَ التي اعتادت عليه طوال حياتها تقريبًا. وحلَّ مكانَه مجالٌ يسافر فيه الضوء عبْر الهواء مثل سائل مكثّف يشتبك بجزيئات الغبار التي تحوم في الوسط مُشكِّلًا ومضات قزحيّة. ضحكت أليثيا. صار بوسعها أن تتنفّس وتحسّ بجسمها وهو في حالة نقاهة. كانت تشعر بخلوِّ عظامها من سكرة الموت، وأنّ روحها تحرّرت من تلك الكمّاشة المعدنيّة التي لطالما قيّدتها. انحنى وجه ملاك عليها ونظر إلى عينيها. كان الملاك طويل القامة، برداءٍ أبيض، بلا أجنحة. وكان بلا شعر تقريبًا، لكنّه يحمل حقنة بين يديه. وعندما سألته عمّا إذا كانت ميّتة وإذا كان ذلك المكان هو الجحيم، ابتسم الملاك وأجاب بأنّ الموضوع متعلّق بوجهة النظر، لكنّه طمأنها.

أحسَّت بوخزة خفيفة، وتيّار سعادةٍ سائلةٍ تتفشّى في شرايينها مخلِّفةً شعورًا بالسلام الدافئ. ظهر من خلف الملاك شيطانٌ طريف، هزيل البنية، ذو أنف ضخم كان من شأنه أن يوحي بمسرحيّات كوميديّة لموليير ومقاطع بطوليّة لثربانتس.

- أليثيا، سنذهب إلى البيت. - أعلن الشيطان بصوتٍ استغربت أنّه مألوف.

وكان يرافقه روحٌ ذو شعرٍ حالك السواد، وتقاسيم وجه مثاليّة حتّى إنّ أليثيا اجتاحتها رغبةٌ عارمة بتقبيل شفتيه، وتمرير أصابعها بين فروة شعره الأسطوريّة، والوقوع في غرامه ولو لفترة وجيزة، تكفي لتجعلها تصدِّق أنّها كانت مستيقظة وأنها التقت أخيرًا بالسعادة التي ضاعت منها في الطريق بغفلةٍ من أمرها.

- هل لي أن أداعبك؟ - سألته.

تردّد الأمير الغامض، لا بدّ أنّه أميرٌ على أقلّ تقدير. نظر إلى الشيطان الطريف، فألمح له الأخير بألّا يحمل كلامها محمل الجدّ.

- هذا بسبب دمائي التي تدور في شرايينها، وقد أفقدتْها الحياء مؤقّتًا وجعلتها امرأة مبتهجة وسهلة المراس. لا تعرْها انتباهًا.

بإيعازٍ من الأمير، ظهرت فرقة من الأقزام، سوى أنّهم لم يكونوا أقزامًا، يرتدون جميعهم ألبسة بيضاء. رفعها أربعةٌ من على السرير ممسكين بالشرشف من تحتها ووضعوها على نقّالة. أمسك الأمير بيدها وشدّ عليها. يبدو جليًّا أنّه والدٌ رائع، فكّرت أليثيا. بإثباتٍ من يده الحنونة وملمسها المخمليّ.

- هل تودّ أن تنجب ابنًا؟ - سألت.

- لديَّ ثمانية عشر ابنًا، يا روحي. - ردّ الأمير.

- نامي يا أليثيا، فأنتِ تسوِّدين وجهي. - قال لها الشيطان.

لكنّها لم تنم. بل تابعت الحلم، يدًا بيد فارسها الجميل، على متن تلك النقّالة السحريّة؛ تسير بها عددًا لا يحصى من الممرّات المخطّطة بصفوف من الأضواء البيضاء. أبحروا عبْر المصاعد والأنفاق والغرف المسحورة بالنحيب والشكوى، إلى أن شعرت أليثيا بأنّ الهواء يبرد وأنّ السقوف الشاحبة تنازلت عن دورها لقبّةٍ من غيوم محمرَّةٍ بفعل شمسٍ قطنيّة. وضع الشيطان عليها غطاءً، فيما نفَّذ الأقزام توجيهات الأمير وحملوها على متن عربةٍ لا يتناسب مظهرُها مع الحكاية الخرافيّة، فلا جيادٌ تجرُّها ولا زخارفُ تكتنف هيكلها. إنّما رسالةٌ ملغّزة على الجانب تقول:

لحومٌ مجفّفة

لابونديروسا

بيع بالجملة وتوصيل إلى المنازل

كان الأمير يغلق أبواب العربة عندما سمعت أليثيا أصواتًا، أحدٌ ما يصيح: «قف!» ويصرخ متوعِّدًا. ظلّت وحيدة عدّة دقائق بينما كان أبطالها يواجهون دسيسة شعبيّة، فلقد امتلأ الجوّ بأصداء مؤكّدة للصفعات وضرب العصيّ. وحين عاد الشيطان بقربها، كان شعره منتصبًا وشفته مشقوقة وابتسامته ظافرة. بدأت العربة تتخبّط، وتولَّدَ لدى أليثيا انطباعٌ غريب بأنّ المركبة تنبعث منها رائحة النقانق، النقانق الفاسدة.

استغرق العبور أبديّة كاملة. سلكوا شوارعَ ودروبًا، وفتلوا في خريطة المتاهة، وعندما انفتحت أبواب العربة، وخرجت بالنقّالة التي يحملها الأقزام، وقد كبروا وباتوا رجالًا عاديّين، لاحظت أليثيا أنّ العربة تحوّلت إلى شاحنة صغيرة بأعجوبة، وأنّهم كانوا في درب ضيّق ومعتم مثل فتحةٍ في السراب. قال لها الشيطان - وقد أخذت ملامح فيرمين ترتسم على وجهه بشكلٍ لا لبس فيه - إنّها باتت في مأمن. حملوها أمام بوّابة خشبيّة عملاقة، يطلّ منها رجلٌ خفيف الشعر، ثاقب النظرات، يتلفّت يمينًا وشمالًا ويهمس: «ادخلوا!».

- آنَ لي أن أودعكم. - صرَّح الأمير.

- أعطني قبلة على الأقلّ. - قالت له أليثيا.

رفع فيرمين عينيه إلى السماء وتوجَّه إلى الفارس النبيل:

- أعطها هذه القبلة وخلِّصْنا.

قبَّلها الأمير ارماندو بكل ما أوتي من غموص. كانت لسقنيه نكهه القرفة، يعرف كيف يقبِّل امرأة بطبيعة الحال، يقبِّلها بفنّيّة وسجيّة وخبرة فنانٍ معتزٍّ بعمله. سلَّمت أليثيا نفسها لرعشةٍ هيَّجت زوايا من جسمها كانت قد نسيتها، وأغمضت عينيها لتلجم دمعها.

- شكرًا. - غمغمت.

- لا أصدِّق. - قال فيرمين - كأنّ عمركِ خمسة عشر عامًا. لحسن الحظّ أنّ والدكِ ليس هنا ليرى هذا المشهد.

انفتحت البوّابة بميكانيكيّةٍ مهيبة. فدخلوا إلى ممرٍّ ملكيّ تسكنه رسوماتٌ لمخلوقات خياليّة تتجلّى وتتلاشى على ضوء القنديل الزيتيّ الذي يحمله حارس المكان. وكان الهواء يتضوّع برائحة الورق والسحر، وعندما أفضى الممرّ إلى طاقٍ كبير، رأت أليثيا أكثر الأماكن إذهالًا في حياتها، أو ربما كانت تتذكّره من أحلامها.

متاهةٌ بتصميمٍ يثير الهذيان، تتصاعد نحو قبّة بلّوريّة هائلة. وكان ضوء القمر ينسكب من الأعلى ليتشعّب إلى ألف شعاع، ويُبرِز هندسةً مستحيلة لمعجزةٍ قوامُها كلُّ الكتب وكلّ الحكايات وكلّ الأحلام في العالم. عرفت أليثيا المكان الذي لطالما حلمت به ومدّت ذراعها لتلمسه، وهي تخشى أن يتبدّد عن ناظريها. ظهر إلى جانبها وجه دانيال وبيا.

- أين أنا؟ ما هذا المكان؟

جثا بجوارها إسحاق مونفورت، الحارس الذي فتح الأبواب والذي تذكّرته أليثيا بعد أعوام طويلة. داعب وجهها وقال لها:

- أهلًا بكِ من جديد في مقبرة الكتب المنسيّة يا أليثيا.

(36)

بدأ ڤايس يشكّ في أنّه قد تخيَّلها. كانت الصور تتبدّد، ولم يعد متأكدًا من أنّه لم يحلم بتلك المرأة التي نزلت السلالم حتى باب زنزانته وسألته إذا كان هو الوزير ڤايس بعينه. كان يشكّ في ذلك أحيانًا. ربّما حلم بها ليس إلّا. ربّما كانت مجرّد ضحيّة أخرى من أولئك الذين تفسّخوا في زنازين قلعة مونتويك. وفي لحظات الهذيان وصل إلى يقين بأنّها كانت سجّانه لا كما هي في الحقيقة. بدا له أنّه يتذكّر حادثة مشابهة. ميتخانس، كان اسمه. ميتخانس، السيناريست الأشهر في حقبة الجمهوريّة والذي كان ڤايس يضمر له احتقارًا لا حدود له لأنّه حصل من الحياة على كلّ ما كان ماوريسيو يرغب فيه ولم يتمكّن من الحصول عليه. مينخانس، مثل الآخرين الذين كانوا محطَّ حسده، أنهى عمره في القلعة، دون أن يعرف حتى من يكون، في الزنزانة رقم 19.

لكن ڤايس كان يعرف من يكون لأنّه يتذكّر. فكما قال له الممسوس دافيد مارتين ذات مرّة: هويّتنا ذاكرتنا. لذا كان يعلم أنّ تلك المرأة، مهما كان اسمها، قد نزلت إليه وأنّها ستعود لتحرّره من هناك يومًا ما، هي أو أحدٌ غيرها. لأنّه ليس مثل ميتخانس أو أولئك البؤساء الذين ماتوا تحت إدارته. هو ماوريسيو ڤايس، ما كان ليموت في مكانٍ كهذا. إنّه مدينٌ لابنته مرثيديس، لأنّها هي التي أبقته حيًّا طوال تلك الأعوام. وربّما من أجل هذا كان كلّما سمع باب القبو ينفتح والخطوات تهبط، رفع عينيه الممتلئين بالأمل. سيكون ذلك يوم القدر حتمًا.

لا بدّ أنّ الساعة في قلب الليل. لقد تعلّم كيف يميّز الوقت من خلال البرد. أدرك أنّ هنالك شيئًا مختلفًا لأنهم لا ينزلون إليه في الليل أبدًا. سمع الباب ينفتح، والخطوات المتثاقلة تنزل. بلا عجالة. تشكَّلَ طيفٌ في الظلمات. يحمل إناءً فوَّاحًا بألذّ النكهات التي شمَّها في حياته. وضع إندايا الإناء على الأرض وأشعل شمعة وثبَّتها على شمعدان.

- صباح الخير أيّها الوزير. - قال - لقد أتيتك بالفطور.

قرّب الإناء من القضبان ورفع الغطاء عن الطبق. كانت الأعجوبة على شكل شريحة لحم سميكة وغارقة في صلصة الفليفلة الدسمة، بجانب بطاطس مشويّة بالفرن وخضروات مقليّة. شعر ڤايس باللعاب يفيض في فمه، وبغصَّةٍ في معدته.

- طهي معتدل. - قال إندايا - على ذوقك.

كان في الإناء سلّة خبز، وعدّة طعام فضيّة، ومنديلٌ من الكتان. أمّا النبيذ، فكان من نخب ريوخا الممتاز، في كأس من زجاج مورانو.

- إنّه لَيومٌ عظيم أيّها الوزير. تستحقّه فعلًا.

دفع الإناء تحت القضبان. تجاهل ڤايس أدوات الطعام والمنديل، وانقضّ على قطعة اللحم بيده. حملها إلى فمه ذي الأسنان المتكسّرة وشرع بالتهامها بضراوة لم يكن يتوقّعها من نفسه. ابتلع قطعة اللحم والبطاطس والخبز. ولعق الطبق حتى بات لامعًا، وازدرد النبيذ اللذيذ حتى آخر قطرة. كان إندايا يراقبه بهدوء، متبسِّما بمودّة، وهو يتذوّق سيجارته.

- أعتذر منك لأنّي طلبتُ الحلوى لكنّهم لم يجلبوها.

أزاح ڤايس الإناء وتمسّك بالقضبان، عيناه تركّزان على إندايا.

- أراك متفاجئًا أيّها الوزير. لا أعرف إن كان استغرابك عائدًا إلى قائمة الطعام الاحتفاليّة أم لأنك كنتَ تنتظر شخصا آخر.

تراجعت شهيّةُ المادية. واسترخي ڤايس من جديد في عمق الزنزانة. ظلّ إندايا واقفًا هناك عدّة لحظات، يتصفّح جريدة وينهي سيجارته. وفي النهاية، رمى العقب أرضًا وطوى الجريدة. رأى أنّ ڤايس يركز أنظاره عليها.

- لعلّك ترغب في القراءة؟ أديبٌ مثلك لا بدّ أن يشتاق إلى القراءة.

- من فضلك. - ترجّاه الوزير.

- كيف لا! - قال إندايا واقترب من القضبان.

مدّ ڤايس يده المتبقّية، والرجاءُ يرسم وجهه.

- في الواقع، هناك أنباء سارّة اليوم. والحقّ يقال، حين قرأت الجريدة هذا الصباح فكّرتُ في أنّك تستحق احتفالًا كما يشاء الربّ.

رمي إندايا الجريدة إلى داخل الزنزانة واتّجه نحو السلالم.

- كلّها لك. بإمكانك الاستعانة بالشمعة أيضًا.

انقض ڤايس على الجريدة وأمسك بها. كانت أوراقها مبعثرة عندما رماها إندايا، فبذل الوزير جهدًا في ترتيبها بيدٍ واحدة. وعندما نجح في ذلك، قرّب الشمعة وأخذ يمرّر أنظاره على الصفحة الأولى.

عجزت عيناه بادئ الأمر عن استعادة قدراتها على فكّ الحروف. لكن الشيء الذي سرعان ما عرفه هو صورة على كامل الصفحة. صورةٌ فوتوغرافية، التُقِطَتْ في قصر الباردو، تُظهِره أمام جداريّة عظيمة، ببدلة زرقاء مخطّطة كان قد اشتراها من لندن قبل ثلاث سنوات. كانت تلك الصورةَ الرسميّة الأخيرة التي نشرتها الوزارة عن ماوريسيو ڤايس. تبدَّت الكلمات شيئًا فشيئًا، مثل سرابٍ تحت الماء.

أحداث الساعة

رحيل إسبانيٍّ عظيم

الوزير

ماوريسيو ڤايس

إثر حادث سير أليم

الجنرال فرانكو يعلن حدادًا وطنيًّا لثلاثة أيّام

«كان نبراسًا لامعًا في فلك إسبانيا الحديثة والحرّة والعظيمة، التي بُعِثَت إلى المجد من رماد الحرب. كان يجسّد القيم العليا للحركة، ويرفع من شأن أدب اللغة الإسبانيّة وثقافتها إلى أعلى المراتب.» (وكالة / تحرير) مدريد، 9 يناير 1960

استيقظت إسبانيا اليوم مفجوعة برمّتها على نبأ حزين برحيل أحد أبنائها الأوفياء، الدون ماوريسيو ڤايس ي إشيباريا، وزير التربية الوطنيّة.

وقعت المأساة هذه الليلة عندما تحطّمت المركبة التي كان السيّد الوزير على متنها، رفقة السائق مرافقه الشخصيّ، عند الكيلومتر رقم أربعة من شارع سوموساغواس، حيث كان عائدًا إلى مسكنه الخاصّ، بعد اجتماع دام إلى ساعة متأخّرة، مع أعضاء آخرين من الحكومة في قصر الباردو. وبحسب التقارير الأوّليّة، وقع الحادث عندما انفجر أحد إطارات شاحنة صهريج تسير على الجانب المعاكس من الطريق. فَقَدَ السائق السيطرة فحَاد إلى الجهة المقابلة، فتشتّت تركيز سائق الوزير الذي كان يقود بسرعة كبيرة. كانت الشاحنة تنقل حينذاك حمولة ضخمة من المحروقات، فأدّى الاصطدام إلى انفجار كبير سبَّبَ الهلع لسكّان المنطقة، فأعلموا السلطات بالحادث مباشرةً. وتوفّي الوزير ڤايس وسائقه على الفور.

أمّا سائق الصهريج، روسيندو م. س.، المولود في ألكوبينداس، فقد توفّي قبل أن تتمكّن وحدة الإسعاف من إنعاشه. أدّى التصادم إلى اندلاع حريق ذي أبعاد كبيرة، ما يدلّ على أنّ جسد الوزير وجسد سائقه تعرَّضا للتفحُّم.

هذا وقد دعت الحكومة في صباح هذا اليوم نفسه إلى عقد اجتماع وزاريّ طارئ، وصرّح قائد الدولة بأنّه سيتلو بيانًا رسميًّا في منتصف النهار من قصر الباردو.

ماوريسيو ڤايس البالغ من العمر تسعة وخمسين عامًا، كرَّس ما يزيد على عقدين من حياته في خدمة النظام. تيتَّم الأدبُ الإسبانيّ جرّاء رحيله، بسبب عمله في قيادة الوزارة من جهة، ومسيرته المتألّقة كناشر وكاتبٍ وأكاديميّ من جهة أخرى. كما أنّ قياداتٍ كبيرةً من مختلف المؤسسات العامّة، وأبرز الأقلامِ في آدابنا وثقافتنا، توجَّهوا هذا الصباح إلى الوزارة للتعبير عن بالغ حزنهم، وتقديم شهادات التقدير والاحترام بحق الدون ماوريسيو الذي كان له أثرٌ كبير في نفوس جميع من عرفوه.

الدون ماوريسيو ڤايس ترك وراءه زوجة وابنة. وقد أكّدت مصادرُ في الحكومة أنّ جثمان الفقيد سيكون بانتظار الراغبين بإلقاء تحيّة الوداع على هذا الإسبانيّ الشامل، ابتداءً من الساعة الخامسة عصر هذا اليوم في قصر الشرق. وننوّه أن إدارة هذه الجريده والعاملين فيها يتقدَّمون بالتعبير عن خالص الأسى والحزن العميق لرحيل الدون ماوريسيو ڤايس، الذي أثَّرت وفاته بقلوب الجميع، لأنّه كان مثالًا حيًّا عن الرفعة التي يتطلَّع إليها كلُّ مواطن في هذه الأمّة.

يحيا فرانكو!

تحيا إسبانيا!

الدون ماوريسيو ڤايس، حاضر!

حَمَلُ الله[7]

يناير 1960

(1)

استيقظت فكتوريا سانشيس بين شراشف كتّانيّة ومكويّة ومعطّرة بروائح المنظّفات. كانت ترتدي ثياب نوم حريريّة مفصَّلَةٌ على مقاسها تمامًا. وضعت يدها إلى وجهها فلاحظت أنّ جلدها يتضوَّع برائحة منظّفات الجسد، وأنّ شعرها نظيف، مع أنّها لا تتذكّر أنّها غسلته. بل لم تكن تذكر شيئًا.

أنهضت جذعها إلى أن أسندت ظهرها إلى مسندٍ مغطًّى بالمخمل، وحاولت أن تفهم أين تكون. كان السرير، أو المرقد الكبير ذو الوسائد التي تُرغِّبُ النفسَ بالغفو، يتوسّط غرفة رحبة فيها أثاثٌ بطرازٍ أنيق وفاخر. يتغلغل الضوء الخافت من نافذة ضخمة تحجبها ستائر بيضاء، ليكشف عن دُرجٍ تعتليه مزهريّةٌ بورود نضرة. وإلى جانبها ثمّة منضدة مزوّدة بمرآة. الجدران مكسوّة بورقٍ نافرٍ، ومزيّنة بلوحات مائيّة تستعرض مشاهد رعويّة بإطاراتٍ مبهرجة. أزاحت الشرشف وجلست على حافة السرير. كانت السجّادة تحت قدميها بألوانٍ فاتحة تتناسب كليًّا مع بقيّة الغرفة. لكنَّ السيناريو بشكله العامّ، والمعدّ بذوقٍ مهنيّ ويدٍ خبيرة، يوحي بالدفء والحياد في الآن ذاته. فتساءلت فكتوريا ما إذا كان المكانُ هو الجحيم بعينه.

أغمضت عينيها وحاولت أن تفهم كيف وصلت إلى هناك. آخرُ شيء تذكره هو بيت إل بينار. عادت إليها الصور بتسلسل بطيء. المطبخ. كانت مقيّدة، يداها وقدماها، بحبلٍ حديديّ على كرسيّ. وكان إندايا يجلس القرفصاء بجوارها ويستجوبها. بصقت في وجهه. فانهال عليها بلطمةٍ عنيفة أردتها أرضًا. عدَّل أحد رجاله الكرسيّ. وحمل نفران آخران مورغاذو وربطاه على طاولة. طرح عليها إندايا مزيدًا من الأسئلة. وظلّت محافظةً على صمتها. ثمّ أخذ رجل الشرطة مسدّسًا وهشَّم ركبة مورغاذو بطلقةٍ ناريّة من مسافة قريبة جدًّا. وكانت صرخات السائق تذبح قلبها. لم تسمع رجلًا يصرخ من الألم بهذا الشكل إطلاقًا. عاد إندايا بكلّ هدوء لاستجوابها. أصابها الخرسُ وأرعشها الهلعُ. رفع إندايا كتفيه، والتف حول الطاولة وأسند قصبة مسدّس الريفولفر على ركبة السائق الثانية. كان أحد رجاله يثبِّت رأسها بحيث لا تتمكّن من إشاحة عينيها. «انظري ما الذي يحدث لمن يُصدِّع أيري، يا قحبة». ضغط إندايا على الزناد. فانتفضت غيمةٌ من دماء وعظام مسحوقة على وجهها. كان جسد مورغاذو يتشنَّج كأنّه تعرّض لموجة توتُّرٍ عالٍ، لكنّه لم يعد يُصدِرُ من فمه أيّ صوت. أغمضت فكتوريا عينيها، وسمعت الطلقة الثالثة بعد قليل.

انقضّ عليها الغثيان بغتة فسقطت عن السرير. رأت بابًا مردودًا يؤدّي إلى الحمّام. جثمت على ركبتيها أمام المرحاض وتقيّأت عصارة مرارتها. توالي الهيعُ حتى لم يعد في جوفها لعابٌ تفرّغه، فاستندت إلى الجدار، جالسة على الأرض تلهث أنفاسها. نظرت حولها. كان الحمّام تحفة فنيّة من الرخام الزهريّ، دافئًا بشكل جيّد. وهناك سمّاعة مثبَّتة بالجدار تسيل منها دندنةٌ فرقة موسيقيّة تعزف مقطوعة هادئة لباخ بأداء عذب.

استعادت فكتوريا أنفاسها ونهضت بالاتكاء على الجدار. كانت تعاني الدوار. اقتربت من المغسلة وفتحت الصنبور. غسلت وجهها وانتزعت النكهة الحامضة والكريهة من فمها. تجفّفت بمنشفة

ناعمة ومحشوّة وألقتها عند قدميها. عادت إلى الغرفة تترنّح واسترخت على السرير. حاولت أن تمحو من ذهنها تلك الصور، لكنّ وجه إندايا الملطّخ بالدماء بدا أنّه مدموغٌ بكيٍّ النار في شبكيّة عينيها. تمعّنت فكتوريا في ذلك المكان الغريب التي استيقظت بين جدرانه. لم تكن تعرف منذ متى جاءت هناك. إن كان هو الجحيم، ويستحقّ هذه التسمية، فإنّ له مظهرَ فندق فاخر. غفت مجدّدًا بعد قليل، متوسّلة ألّا تستيقظ أبدًا.

(2)

عندما فتحت عينيها ثانيةً، أعشاها ضوء الشمس من خلف الستائر. هناك رائحة قهوة. أنهضت فكتوريا جذعها فوجدت عند أقدام السرير خفًّا وإزارًا حريريًا من لون ثيابها. سمعت صوتًا من خلف باب بدا أنّه يفضي إلى غرفة أخرى من الجناح. فاقتربت منه وتنصّتت. قرقعةٌ خفيفة لمعلقة صغيرة في فنجان خزفيّ. فتحت الباب.

كان هناك ممرٌّ قصيرٌ يؤدّي إلى صالة بيضويّة، تتوسّطه مائدة مُعَدَّةٌ لشخصين: فطورٌ وإبريق عصير برتقال، سلّة خبز محمّص وكرواسان، تنويعة من المربَّيات، قشطة، زبدة، بيضٌ مخفوق، لحم مجفّف ومقمَّر، فطرٌ مقليّ، قهوة، شاي، حليب ولونان من قطع السكّر. كان يبعث رائحة شهيّة، ما سيَّل لعابَها في فمها رغمًا عنها.

رجلٌ متوسّط العمر، متوسّط القامة، متوسّط الصلع ومتوسّط التوسُّط، كان جالسًا إلى الطاولة. نهض حين رآها داخلة وابتسم لها بمودّة، ودعاها للجلوس إلى الكرسيّ المقابل له. كان يرتدي بدلة سوداء ويتميّز باصفرار مَن يعيش وحدانيًّا. ولو أنّها صادفته في الطريق، لما أعارته اهتمامًا، بل كان ستظنُّه موظفًا في الوزارة من مستوى متوسّط، أو كاتب عدل في المقاطعة قَدِمَ إلى العاصمة لزيارة متحف البرادو وارتياد المسارح.

غير أنها عندما توقَّفت لمعاينته بدقّة انتبهت إلى عينيه الفاتحتين الثاقبتين البلوريّتين. كانت نظرته تبدو متوقّدة بحساباتٍ سرمديّة، يراقبها دون أن يرفّ له رمش من خلف عدستين تضخّمان حجم عينيه.

وإطارهما المصنوع من السيلوليد سميكٌ لدرجةٍ تمدُّه بملامح خنثويّة بشكل غير اعتياديّ.

- صباح الخير يا أريادنا. - قال - تفضّلي بالجلوس.

نظرت فكتوريا حولها. أمسكت بشمعدانٍ وجدته على أحد الأرفف وأشهرته متوعِّدة. لكنَّ الرجل لم يقلق، بل رفع غطاء أحد الأواني وتنشَّق الرائحة.

- يبدو رائعًا. لا بدّ أنّ شهيّتكِ مفتوحة.

لم يُدلِ الرجل بما ينمّ عن مهاجمتها، إلا أن فكتوريا ما زالت ترفع الشمعدان إلى أعلى - لا أعتقد أنّكِ بحاجة إليه يا أريادنا. - قال بنبرة هادئة.

- لا أدعى أريادنا. اسمي فكتوريا. فكتوريا سانشيس.

- اجلسي أرجوكِ. فأنتِ في مأمنٍ هنا، ولا وجود لما يستدعي خشيتكِ.

هامت فكتوريا في تلك النظرة المخدِّرة. وعاودتها رائحة الفطور الزكيّة. فأدركت أنّ الألم الفظيع الذي يعتصر أحشاءها كان مجرَّد جوع. أخفضت الشمعدان ووضعته على الرفّ. اقتربت ببطء من الطاولة. جلست دون أن تحيد أنظارها عن الرجل الذي انتظرها لتجلس ليهمّ بصبّ فنجان من الكافيلاتي لها.

- قولي، كم ملعقة من السكّر. أنا أحبّه حلوًا للغاية، مع أنّ الطبيب يقول إنّ ذلك يضرّ بي.

نظرت إليه وهو يحضِّر الفنجان.

- لماذا تناديني أريادنا؟

- لأنه اسمكِ الحقيقي. أريادنا ماتايكس. أليس كذلك؟ ولكن، إن كنت تفضِّلين، سأناديكِ فكتوريا. أنا لياندرو.

نهض لياندرو عن الكرسيّ ومدّ يده مصافحًا. فلم تصافحه. فعاد للجلوس بكلّ احترام.

- بيض مخفوق؟ لقد تذوُّقته. ليس مسمومًا. آمل ذلك.

تمنّت فكتوريا أن يكفّ الرجل عن التبسُّم بتلك الطريقة التي تُشعِرها بالذنب لأنها لم تبادله الودّ بالودّ.

- أمزح. بطبيعة الحال، لا وجود لأيّ سمّ. بيض ولحم؟

فوجئت فكتوريا بأنّها تومئ بنعم. ابتسم لياندرو راضيًا وقدّم لها الطبق، ورشّ نثرة ملح وفلفل فوق خليط البيض الساخن. كان مضيِّفُها يتصرّف بلمسة طبّاخ محترف.

- إن كنتِ تفضِّلين شيئًا آخر، طلبناه. فخدمة المطبخ هنا ممتازة.

- هذا جيّد، شكرًا.

وكادت تعضّ لسانها وهي تلفظ كلمة «شكرًا». شكرًا على ماذا؟ ولمن؟

- الكرواسان في منتهى اللذّة. ذوقيه. إنّه الأفضل في المدينة.

- أين أنا؟

- نحن في فندق بالاس.

قطبت فكتوريا جبينها.

- في مدريد؟

أومأ لياندرو ومدَّ إليها سلّة المعجّنات. فتردّدت.

- لقد خرجت للتوّ من الفرن. خذي منها واحدة وإلّا أكلتُها جميعًا. عليَّ أن أحافظ على الحمية.

مدّت فكتوريا يدها لناحد حبّة كرواسان، وهكذا لمحت آثار وخزات على ساعدها.

- توجَّبَ علينا أن نهدِّئ من روعكِ. يؤسفني ذلك. بعد ما حصل في إل بينار...

ردَّت فكتوريا ذراعها على حين غرّة.

- كيف وصلتُ إلى هنا؟ ومن تكون حضرتك؟

- أنا صديقكِ يا أريادنا. لا تتخوَّفي. أنتِ في مأمنٍ هنا. لن يستطيع ذلك الرجل، إندايا، أن يؤذيكِ ثانية. لن يكون في وسع أحد إيذاؤكِ أبدًا. أعدكِ بذلك.

- أين إغناثيو، زوجي؟ ماذا فعلوا به؟

نظر إليها لياندرو بحنان وابتسم بمرارة.

- هيّا، كلي شيئًا ما لاستعادة قواكِ أوّلًا. بعدها، سأروي لكِ ما حدث، وسأجيب عن كلّ تساؤلاتكِ. لكِ مني كلمة شرف. ثقي بي وكوني مطمئنّة.

كان صوت لياندرو معسولًا، ينشئ جمًلا بعمران مطمئن. كان يختار كلماته مثلما يمزج العطّار ضروب العبق التي يجهّز بها تركيباته المختلفة. أحسّت فكتوريا، رغمًا عنها، أنّها كانت تهدأ رويدًا رويدًا، وأنّ الخوف الذي استبدّ بها كان يتلاشى. الطعام الساخن واللذيذ، الأجواء الدافئة بفعل المدفأة، وحضور لياندرو المريح وسلوكه الأبويّ، كان يأخذها إلى حالةٍ من الراحة والتسليم. «عسى أن يكون كلّ هذا حقيقة».

- هل كنتُ محقًّا أم لا؟ أقصد بما يخصّ الكرواسان.

أومأت فكتوريا بحياء. نظّف لياندرو شفتيه بالمنديل، وطواه بهدوء وقرع جرسًا فظهر نادلٌ سحب الفطورَ دون أن ينظر إلى فكتوريا أو ينبس ببنتِ شفة. وحين عادا على انفراد، اتّخذ لياندرو تعبيرًا ينصح بالأسف وعقد يديه على حضنه وطأطأ رأسه.

- أخشى أن يكون لديّ أنباء سيّئة يا أريادنا. زوجكِ إغنائيو، لقد مات. يؤسفني جدًّا، جدًّا. لم يسعفنا الوقت لإنقاذه.

شعرت فكتوريا أنّ الدمع يملأ مقلتيها. دموع النقمة، لأنّها كانت تعلم أن إغنائيو قد مات، من دون حاجة إلى أحدٍ كي يخبرها بذلك. زمّت شفتيها ونظرت إلى لياندرو، الذي بدا ساعيًا لتقييم وضعها النفسيّ - قل لي الحقيقة. - استطاعت أن تنطق.

أومأ لياندرو مرارًا.

- لن يكون سهلًا، لكنّي أطلب منكِ أن تصغي إليّ. ثمّ اطرحي ما شئتِ من أسئلة. وقبل ذلك، أرغب أن أريكِ شيئًا ما.

نهض لياندرو واتّجه إلى إحدى زوايا الصالة ليأخذ جريدة مطويّة على طاولة الشاي الصغيرة. وعاد إلى الطاولة وأعطى الجريدة لفكتوريا.

- افتحيها.

أخذتها من دون أن تفهم. فتحتها لتعاين الصفحة الأولى.

أحداث الساعة

رحيل إسبانيٍّ عظيم

الوزير

ماوريسيو ڤايس

إثر حادث سير أليم

شهقت فكتوريا مصعوقه. وسقطت الجريدة من بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء وانهارت أعصابها. فاقترب منها لياندرو، بأقصى ما لديه من الرقّة. وتركته فكتوريا يضمّها إليه ولاذت بين ذراعي ذلك الرجل المجهول، ترتجف مثل طفلة صغيرة. جعلها تسند رأسها على صدره وداعب شعرها بعذوبة، بينما كانت تذرف الدموع وتفرّج عن ألمٍ متراكمٍ طوال حياتها.

(3)

- لقد بدأنا تحقيقاتنا حول ڤايس منذ زمن بعيد. افتتحنا القضيّة بعد أن وصلنا تقريرٌ من مفوضيّة الرقابة في مصرف إسبانيا، تكشف فيه عن عمليّات مشبوهة في تحويلات ما عُرِفَ بالجمعيّة الماليّة للمصالحة الوطنيّة، التي يرأسها ميغيل أنخل يوباش، والدكِ... بل ينبغي أن أقول إنّه كان ينتحل صفة والدكِ. وكنّا منذ أمد طويل نشكّ في أنّ الجمعيّة ليست سوى غطاء بلبوسٍ حكوميّ لتقاسُمِ كلِّ ما صودِرَ، أو نُهِبَ خلال الحرب وبعدها، بين عدّة أشخاص. وكما تفعل الحروب دومًا، دمَّرت هذه الحربُ البلادَ، وأثرت قلّة قليلة ممّن كانوا في الأصل أثرياء قبل اندلاعها. لهذا السبب تقوم الحروب. وفي قضيّتنا هذه، استُخدمت الجمعيّة أيضًا لدفع أجور الأفضال، والخيانات، والخدمات، ولشراء صمت أحدهم وتواطئه. كانت آليّةً استغلّها كثيرون للتسلُّق. ومن بينهم، ماوريسيو ڤايس. نعرف ما فعله ڤايس، يا أريادنا. ما فعله بحقّكِ وحقّ عائلتكِ. لكنّه ليس كافيًا. نحن بحاجة إلى مساعدتكِ للوصول إلى جذور هذه القضية.

- وما الغاية من ذلك؟ لقد مات ڤايس.

لإحلال العدالة. ڤايس مات، أجل، ولكن هنالك مئات الأشخاص الذين تدمَّرت حياتُهم بسببه ما يزالون أحياء ويستحقّون العدالة.

كانت فكتوريا تنظر إليه غير واثقة.

- أهذا ما تبحثون عنه؟ العدالة؟

- نبحث عن الحقيقة.

- ومن أنتم بالضبط؟

- نحن مجموعة من المواطنين، أقسموا على خدمة هذا البلد لكي تصبح إسبانيا وطنًا أكثر عدلًا ونزاهةً وانفتاحًا.

ضحكت فكتوريا. وكان لياندرو ينظر إليها بجديّة.

- لا أتوقّع أن تصدّقيني. ليس بعد. لكنّي سأثبت لكِ أنّنا نحن الذين يحاولون تغيير الأشياء من داخل النظام، إذ لا توجد طريقة أخرى لتغييرها. نريد أن يولد هذا الوطن من جديد لإعادته إلى أصحابه. نحن الذين يجازفون بأرواحهم للحيلولة دون أن يتكرّر ما وقع لكِ ولشقيقتكِ، وما وقع لأبويكِ؛ نجازف بأرواحنا كي ينال مَن ارتكب تلك الجرائم عقابهم؛ كي تظهر الحقيقة. لا عدالة بلا حقيقة، ولا سلام بلا عدالة. نحن أولئك الذين يريدون التغيير والدفع باتجاه التقدّم. نحن الذين ضاقوا ذرعًا بدولةٍ لا تخدم إلّا قلّة من المنتفعين، الذين استغلّوا مؤسّسات الدولة لتحصين امتيازاتهم على حساب العمّال والطبقة المتوسّطة. لا لأنّنا أبطال، بل لأنّ أحدًا ما عليه أن يفعلها. ولا وجود لأحد آخر. لهذا نحتاج إلى مساعدتكِ. لأنّنا إذا اتّحدنا، سيكون ذلك ممكنًا.

نظر كلٌّ منهما إلى جليسه خلال صمت طويل.

- وماذا لو كنتُ لا أريد مساعدتكم؟

رفع كتفيه لا مباليًا.

- لا أحد بإمكانه إرغامكِ. حين تقرّرين أنّكِ لا تريدين الانضمام إلينا، وأنّكِ لا تكترثين للظلم الذي ينزل على من قاسى مصيركِ ذاته؛ فلن أجبركِ أنا على القيام بما لا تريدين فعله. لكِ القرار. ڤايس مات. أسهل خيارٍ يتّخذه أحدٌ في مثل وضعكِ هو أن يترك كلّ شيء وراء ظهره ويبدأ حياة جديدة. ومن يدري، ربّما أفعل الأمر ذاته لو كنتُ في محلّكِ. لكنّي أعتقد أنّكِ لستِ من هذا النوع من الأشخاص. أعتقد أنّكِ في العمق لا تهتمّين بالانتقام، إنّما بالعدالة والحقيقة. مثلنا وأكثر. أعتقد أنّكِ تريدين أن ينال المذنبون عقابًا على جرائمهم، وأن يتسنّى للضحايا استعادة وجودهم، متيقّنين بأنّ مَن خسر حياته لم يخسرها بلا جدوى. لكنّ القرار عائدٌ إليكِ. لن أستبقيكِ. ها هو الباب. بإمكانكِ المغادرة متى أردتِ. السبب الوحيد الذي دفعنا للإتيان بكِ إلى هذا المكان هو أن تكوني في مأمنٍ ونجاة. بوسعنا أن نحميكِ هنا ريثما نتوصّل إلى حلّ هذه القضيّة. الأمر متعلّقٌ بكِ.

رمت فكتوريا أنظارها إلى الباب. صبّ لياندرو فنجانًا آخر من القهوة، وأذاب فيها خمس قطع من السكّر وتذوَّقها بهدوء.

- عندما تقرّرين، ستأتي سيّارة لاصطحابكِ إلى حيث تشائين. لنا تريني بعدها ثانيةً، ولن تصلكِ أخبارنا البتّة. ما عليكِ سوى أن تطلبي ذلك.

شعرت فكتوريا بتشنُّجاتٍ في بطنها..

- لستِ ملزمة باتخاذ القرار فورًا. أعرف ما الذي مررتِ به، وأعرف أنّكِ مضطربة. وأنّكِ لا تثقين بي ولا بأيّ أحد آخر. أفهمكِ كليًّا. لو كنتُ مكانكِ لما فعلتُها. ولكن ليس لديكِ ما تخسرينه إذا أعطيتِنا فرصة. يومٌ إضافيّ. أو سويعات. بإمكانكِ أن تنصرفي في اللحظة التي تريدينها، ومن دون تقديم أيّ مبرّرات. لكنّي آمل، وأرجو، ألّا تفعليها. وأن تعطينا هذه الفرصة لمساعدة الآخرين أيضًا.

أحسّت فكتوريا بيديها ترتجفان. ابتسم لها لياندرو برهافةٍ لا حدود لها.

- أرجوكِ...

عند ذلك الحدّ، أومأت موافقةً ودمعها يسيل.

(4)

في غضون نصف ساعة، أعاد لياندرو تركيب ما استطاعوا اكتشافه.

- أحاول منذ مدّة أن أعيد تكوين الأحداث المختلفة. سألخِّص لكِ ما نعرفه، أو ما نظنّ أنّنا نعرفه. سترين أنّ هنالك فجوات كثيرة، وأنّنا نخطئ حول بعض النقاط بالتأكيد. أو كثير من النقاط. هناك حيث ستدخلين أنتِ في اللعبة. سأخبركِ بما أعتقد أنّه قد حدث فعلًا، وأنت تصحّحين إن أخطأت. موافقة؟

كان صوت لياندرو قادرًا على الهدهدة، وباعثًا على الاستسلام. تمنّت فكتوريا أن تغمض عينيها وأن تعيش لفترة طويلة في أحضان ذلك الصوت، وفي تلك الكلمات المخمليّة التي تكتسب دلالة بغضّ النظر عن معناها.

- موافقة؟ - أجابت - سأحاول.

ابتسم الرجل بامتنانٍ ودفءٍ جعلاها تشعر أنّها في مأمنٍ عن كلّ ما قد يحيق بها من خطورة خلف تلك الجدران. روى لها لياندرو بوتيرة بطيئة حكايةً كانت تعرفها حقّ المعرفة. بدأت الحكاية عندما كانت صغيرة، حين تعرَّف والدها على رجلٍ يدعى ميغيل أنخل يوباش، المصرفيّ المتنفِّذ الذي كانت زوجتُه قارئةً معتادةً لكتب والدها. اقنعته بأن يرغمه على توقيع عقد لكتابة سيرة ذاتيّة مزعومة من أجل المصرفيّ مقابل مبلغ معتبر من المال.

وافق والدها على المهمّة، وكان يمرّ في ضائقة ماديّة. وذات يوم بعد أن وضعت الحرب أوزارها، يأتي المصرفيّ وزوجته في زيارة غير متوقّعة إلى البيت الذي كان ماتايكس يعيش فيه مع عائلته، بالقرب من شارع دي لاس أغواس في بايبذريرا. السيّدة يوباش، التي تصغر زوجها بسنوات كثيرة، كانت تتّسم بذلك الجمال الذي لا يُرى إلا على صفحات المجلّات. لم تشأ أن تفسد جسمها الرائع بإنجاب طفل إلى هذا العالم، لكنّها أُعجِبت بالطفلتين، أو بفكرة الاستيلاء عليهما لكي يربِّيهما الخدم فيما بعد، مثلما هي الحال مع القطط المرافقة وفودكا مارتيني. قضى الزوجان يوباش النهار مع أسرة ماتايكس. وكان أبواها في تلك الآونة قد أهداها شقيقة صغيرة، اسمها سونيا، تخطّت مرحلة الرضاعة بقليل. وعند الوداع، قبَّلت السيدة يوباش الطفلتين وصرَّحت بأنّهما رائعتان. بعد أيّام، قَدِمَ رجالٌ مسلحون إلى بيتهم في بايبذريرا. أوقفوا أباها وحبسوه في سجن مونتويك، وخطفوها هي وشقيقتها، تاركين أمّهما بنزيف خطير وقد ظنّوا أنها ماتت.

- الكلام سليم حتى الآن؟ - سأل لياندرو.

فأومأت فكتوريا، وهي تمسح دموع الغلّ.

في تلك الليلة نفسها، فصل أولئك الرجالُ بينهما، ولم تر شقيقتَها سونيا منذئذ. قالوا لها إذا كانت لا تريد أن يقتلوا أختها، فعليها أن تنسى أبويها، لأنّهما كانا مجرمين، وأنّ اسمها اعتبارًا من تلك اللحظة لم يعد أريادنا ماتايكس إنّما فكتوريا يوباش. وشرحوا لها بأنّ أبويها الجديدين هما الدون ميغيل أنخل يوباش وزوجته فيديريكا، وأنها كانت محظوظة جدًّا. ستعيش معهما في بيتٍ هو

الأجمل في برشلونة كلّها، الفيلا المسمّاة إل بينار. هناك حيث سيكون تحت إمرتها خدمٌ، وستحصل على كلّ ما تشتهي. كان عمر أريادنا عشرة أعوام.

- ابتداءً من هنا، تختلط الأمور. - أشار لياندرو.

ثم أوضح أنّهم اكتشفوا أنّ فكتور ماتايكس أُعدِمَ في قلعة مونتويك، مثل الكثيرين غيره، بأمرٍ من مدير السجن حينها، ماوريسيو ڤايس، حتى لو أنّ التقرير الرسمي يقول إنّه انتحر. يدّعي لياندرو أنّ ڤايس باع أريادنا ليوباش مقابل أفضالٍ ستبارك صعوده درجات النظام إضافةً إلى حزمة أسهم في مصرفٍ تمّ تأسيسه مؤخّرًا عن طريق الاستحواذ على ثروة مئات المساجين الذين صُودِرت أملاكهم، وأُعدِمَ الكثيرُ منهم بعد نهاية الحرب بفترة وجيزة.

- هل تعلمين ما الذي حلَّ بوالدتكِ؟

أومأت فكتوريا بنعم وهي تزمُّ شفتيها.

روي لياندرو أنّ والدتها سوزانا، بحسب علمهم، استطاعت في اليوم التالي لخطف زوجها وابنتيها أن تستنهض بعضًا من قواها، الترتكب خطأً بتبليغ الشرطة عمّا حصل. سرعان ما أوقفوها وأدخلوها مستشفى الأمراض العقليّة في أورتا، حيث عُزِلت في زنزانة منفردة، وأخضعوها طوال خمسة أعوام للعلاج بالصعق الكهربائيّ، حتى قرّروا أن يرموها في أحد الميادين الريفيّة عند تخوم برشلونة، نظرًا إلى أنّها لم تعد تذكر حتى اسمها.

- أم أنّهم ظنّوا هكذا.

فسَّر لياندرو أنّ والدتها سوزانا صمدت في طرقات برشلونة بالتسوُّل والتحاف السماء والنبش في القمامة، على أمل التمكُّن من استرداد ابنتيها يومًا ما. وكان لذلك الأمل الفضل الأكبر لبقائها على قيد الحياة. بعد أعوام، وجدت سوزانا جريدةً فيها صورةٌ لماوريسيو ڤايس وعائلته، بين أكياس القمامة، في إحدى حارات الرافال. بات آنذاك رجلًا مهمًّا للغاية تاركًا خلف ظهره ماضية كمدير سجن. وكانت الصورة تُظهره صحبة طفلة، مرثيديس.

- وما كانت مرثيديس سوى شقيقتكِ الصغيرة، سونيا. وقد استطاعت والدتكِ التعرُّف عليها لأنّ البنت ولدت بعلامة فارقة لم تنسها الأمُّ يومًا.

- علامةٌ على شكل نجمة عند أسفل العنق. - قالت فكتوريا لا إراديًّا.

ابتسم لياندرو وأومأ مؤكّدًا.

- زوجة ڤايس تعاني من مرض مزمن يمنعها من الإنجاب. قرّر ڤايس أن يتبنّى شقيقتكِ باعتبارها ابنته. وسمّاها مرثيديس، على اسم والدته. تمكّنت والدتكِ من سرقة ما استطاعت، فأمَّنت بعض النقود للسفر إلى مدريد بالقطار. وحين وصلت إلى هناك، قضت شهورًا وهي تتجسّس على باحات المدارس في المدينة بأسرها، أملًا في العثور على شقيقتكِ. وقد كوَّنت لنفسها هويّة جديدة. كانت تسكن غرفة بائسة في نزل في حيّ شويكا، تعمل في المساء خيّاطةً في ورشة، وتجوب مدارس مدريد خلال النهار. وذات صباح، عندما فقدت الأمل، عثرت عليها. رأتها من مسافة بعيدة، وأدركت أنّها بصدد ابنتها. فأخذت تتردّد إلى هناك كلّ يوم. تقترب من حاجز الباحة

وتحاول لفت انتباهها. لم تشأ إخافتها. وحين انتبهت أنّ مرثيديس لم تعد تذكرها، كادت والدتكِ تنتحر. لكنّها لم تستسلم. وما فتئت تتردّد إلى المدرسة كلّ صباح أملًا برؤيتها، وإن لبضع ثوانٍ، عسى أن تقترب من الحاجز وتتحدّث إليها. وفي أحد الأيّام قرّرت أن تروي لها الحقيقة. ففوجئت بمرافقي ڤايس يطوّقون حاجز المدرسة وهي تتكلّم معها. هشَّموا رأسها بطلقة ناريّة على مرأى شقيقتكِ. أتريدين أن نتوقّف عند هذا الحد؟

هزت فكتوريا رأسها نافية.

تابع لياندرو حكايته عن كيف نشأت فكتوريا في سجن إل بينار الذهبيّ. مع مرور الوقت، دُعِيَ ميغيل أنخل يوباش من قِبَلِ الجنرال لتزعُّم مجموعة من المصرفيّين والوجهاء والأعيان الذين موَّلوا جيشه فائتمنهم على تنظيم البنية الاقتصاديّة للدولة. كان يوباش قد غادر برشلونة ونقل عائلته إلى القصر الكبير في مدريد، الذي لطالما كرهته فكتوريا، وقد هربت منه لتختفي عدّة أشهر حتى وجدوها في ظروف غامضة عند شاطئ إحدى البلدات على بُعد قرابة المئة كيلومتر شمال برشلونة، سان فيليو دي غويشولس.

- هذه إحدى أكبر الفجوات في اللوحة التي أعدنا تركيبها. - قال لياندرو - لا أحد يعلم أين كنتِ خلال تلك الأشهر ومع من. ما نعرفه هو أنّه، بعد عودتكِ إلى مدريد بفترة قصيرة، ذات ليلة من العام 1948، شب حريقٌ في قصر يوباش أحاله إلى رماد، على إثره توفِّي المصرفيُّ وزوجتُه فيديريكا.

بحث لياندرو عن أنظارها، لكنّ فكتوريا لم تفتح فمها.

- أفهم أنّ الحديث بهذه الأشياء صعبٌ ومؤلم، ولكنْ من المهمّ أن نعرف ما الذي حدث خلال تلك الأشهر التي اختفيتِ فيها.

زمّت شفتيها فأومأ لياندرو محافظًا على صبره.

- لا ضرورة أن تتحدّثي به الآن.

تابع الرجل حكايته.

باتت فكتوريا يوباش، اليتيمة ووريثة الثروة الكبيرة، تحت وصاية محامٍ شابّ يدعى إغناثيو سانشيس الذي عُيِّنَ منفِّذًا لوصية يوباش. كان سانشيس رجلًا لامعًا وضعه المصرفيُّ تحت جناحه منذ كان شابًّا. كان يتيمًا وقد درس بمنحة ماليّة من مؤسّسة يوباش. قيل إنّه في الحقيقة ابنًا غير شرعيّ للمصرفيّ، ثمرة علاقة غير قانونيّة بممثّلة شهيرة في عصرها.

ولطالما شعرت الصغيرة فكتوريا بوثاقٍ مميز به. وكان كلاهما محاطين بالفخفخة والرغد وكلّ ما تؤمِّنه إمبراطورية يوباش، ومع ذلك كانا يشعران بأنّهما وحيدان في العالم. وغالبًا ما كان إغناثيو سانشيس يزور بيت يوباش لتصريف بعض الأعمال مع المصرفيّ في الحديقة. وكانت فكتوريا تتلصّص عليه من نوافذ العليّة. وذات يوم فاجأها وهي تسبح في المسبح، وباح لها بأنّه لم يعرف أبويه إطلاقًا، وأنّه قد نشأ في ميتم في لاناباتا. وابتداءً من تلك اللحظة، وكلّما زار سانشيس ذلك البيت، ما عادت فكتوريا تختبئ بل تنزل لتسلِّم عليه.

غير أنّ إغناثيو لم يرق للسيدة يوباش، فمنعتها من التحدّث معه، وغالبًا ما وصفته بالفقير البائس. كانت السيّدة يوباش تقضي على الملل بملاقاة عشّاقها الشبّان في أفخر فنادق مدريد، أو بالنوم بعد السُّكر في غرفتها في الطابق الثالث. لم تعرف مطلقًا أن فكتوريا والمحامي الشابّ قد أصبحا خير صديقَين، يتشاركان كتبًا وصداقةً لا أحد في العالم كلّه، بما فيه السيّد يوباش، كان قادرًا على تصوُّرها.

- ذات يوم قلت له إنّنا متشابهان. - تدخّلت فكتوريا.

بعد الرحيل المأساوي ليوباش وزوجته جرّاء الحريق، أصبح إغناثيو الوصي الشرعيّ عليها إلى أن دخلت سنّ الرشد فأمسى زوجها. شاعت الكثير من الأقاويل بطبيعة الحال. وصفه بعضُهم بأنه أكبر زواج منفعة في القرن كلّه. ابتسمت فكتوريا بمرارة حين سماعها تلك الكلمات.

- إغناثيو سانشيس لم يكن زوجًا بالنسبة إليكِ، بالمعنى الذي اعتقده الجميع على الأقلّ. - قال لياندرو - لقد كان رجلًا شهمًا اكتشف الحقيقة وتزوَّجكِ ليحميكِ.

- أنا كنت أحبّه.

- وهو كان يحبّكِ. لقد ضحّى بحياته من أجلكِ.

غرقت فكتوريا في صمت عميق.

- لقد عملتِ على مدى أعوام على إحلال العدالة بنفسكِ، بمساعدة زوجكِ إغناثيو وفالنتين مورغاذو، الذي كان في السجن مع والدكِ ثم وظّفه زوجكِ سائقًا. تعاونتم على إعداد خطّة لإيقاع ڤايس في الفخّ، ونجحتم في اصطياده. الشيء الذي لم تكونوا على علم به هو أنّ أحدًا ما كان يراقبكم؛ ولم يكن ليسمح بكشف الحقيقة.

- ألهذا قتلوا ڤايس؟

أكّد لياندرو بإيماءة حاسمة.

- إندايا؟ - سألته.

هزّ رأسه.

- إندايا مجرّد بيدق. نحن نبحث عمّن يحرّك الخيوط.

- من؟ - سألت.

- أعتقد أنّكِ تعرفينه.

هزّت رأسها نافية ومشوّشة.

- ربّما لستِ واعية الآن.

- لو كنت أعرفه لانتهى بي المطاف إلى زنزانة ڤايس نفسها.

- ربّما نستطيع اكتشافه معًا. بتعاونكِ ووسائلنا. فلقد عانيتِ وغامرتِ بحياتكِ كثيرًا. حان دورنا الآن. لأنكِ أنتِ وشقيقتكِ لستما الوحيدتين. تعلمين. هناك الكثير الكثير منكما. كثيرون لا

يعلمون أنّ حياتهم كذبة، وأنّهم حُرِمُوا من كلّ شيء...

أومأت فكتوريا.

- كيف اكتشفتم الأمر؟ كيف توصّلتم إلى أنّكِ وشقيقتكِ لستما الوحيدتين؟

- تدبَّرنا لائحة أرقام معاملات. أرقام شهادات ميلاد وشهادات وفيات فبركها ڤايس.

- لمن؟ - سأل لياندرو.

- ابناء سجناء زُجَّ بهم في قلعة مونتويك بعد الحرب، عندما كان هو مديرًا للسجن. جميعهم رحلوا. كان ڤايس بسجن الآباء ويقتلهم أوّلًا، ثمّ يستولي على الأبناء. وكان يوثِّق شهادة وفاة مع شهادة ميلاد زائفة، بهويّة جديدة للأطفال، ثمّ يبيعهم للعوائل شديدة الارتباط بالنظام، مقابل نفوذ وسلطة ومال. خطة محكمة، لأنّ الآباء الجدد حين يشترون الأبناء المخطوفين يصبحون متواطئين في الجريمة وعليهم أن يسكتوا عنها ويتستّروا عليها إلى الأبد.

- هل تعلمين عدد الحالات التي من هذا النوع؟

- لا. كان إغناثيو يشكّ في أنّ الأعداد قد وصلت إلى مئة.

- نحن بصدد عمليّة معقّدة جدًّا. لم يكن لڤايس القدرة على القيام بكلّ شيء بمفرده....

- إغناثيو كان يفكّر في وجود متواطئ مع ڤايس، متواطئٌ أو أكثر.

- موافق. لا بل أكاد أجزم أن ڤايس كان مجرّد أداة في العمليّة. إذ كان لديه الإمكانيّة للوصول، والفرصة والطمع الكافي لفعل ما فعل. لكنّي لا أستطيع أن أصدِّق بأنّه أعدَّ خطَّة معقّدة إلى هذا الحدّ.

- حتى إغناثيو كان يقول ذلك.

- ثمة أحدٌ آخر، لم نتوصّل إليه بعد، هو العقل المدبّر لكلّ هذه العمليّة.

- اليد السوداء. - قالت فكتوريا.

- عفوًا؟

ابتسمت بهوان.

- هذه تنحدر من قصةٍ كان والدي يرويها لي عندما كنت صغيرة. اليد السوداء. الشرُّ الذي يقف دومًا في الظلّ، ويحرِّك الخيوط في الخفاء...

- عليك أن تساعدينا بالعثور عليه يا أريادنا.

- هل تعتقد أنّ إندايا بعمل تحت إمره شريك ڤايس؟

- الأمر الأرجح، أجل.

- هذا يعني أنّ الشخص إيّاه لا بدّ أن يكون من داخل النظام. شخصٌ ذو سطوة.

أومأ لياندرو.

- لهذا يتحتّم علينا العمل برويّة وحرص شديدين. إن أردنا القبض عليه، فمن الضروريّ أن نعرف الحقيقة كلّها أوّلًا، مع الأسماء والتواريخ والتفاصيل، وأن نعرف من كان على علم بهذه المسألة، ومن تورَّط فيها. لا يمكننا أن نصل إلى الرأس إلّا إذا اكتشفنا من يعرف كلّ هذا.

- وأنا، ما الذي يمكنني فعله؟

- كما قلت لكِ، أن تساعدينا في إعادة بناء حكايتكِ. أنا على يقين أنّنا سنعثر على عقل الخطّة إذا تعاونَّا معًا على إرساء جميع القطع الناقصة للوحة. وحتى ذلك الحين، لن تكوني في أمان. لذا عليكِ البقاء هنا وتكليفنا بحمايتكِ. هل ستفعلين؟

تردّدت فكتوريا، لكنّها وافقت في النهاية. مدّ لياندرو جذعه إلى الأمام وأخذ يديها بين يديه.

- أريدكِ أن تعرفي أنّي ممتنٌّ لكِ على شجاعتكِ وبراعتكِ لولاكِ، لولا كفاحكِ وتضحياتكِ، لما كان ما نحاول فعله الآن ممكنًا.

- كلّ ما أريده هو إحلال العدالة، لا غير. لقد فكّرتُ طوال حياتي أنّني أريد الانتقام. ولكنْ ليس للانتقام وجود. الشيء المهمّ الوحيد هو الحقيقة.

لثم لياندرو جبينها. كانت قبلة بسيطة وأبويّة، تفيض بالرعاية والنبل، خفّفت عنها شعورها بالوحدة، لبضع ثوانٍ على الأقلّ.

- اعتقد أنّنا انجزنا الكثير لهذا اليوم عليكِ أن تستريحي. فهناك مهمّة صعبة بانتظارنا.

- هل ستغادر؟ - سألته.

- لا تخافي. سأكون قريبًا جدًّا. عليكِ أن تعلمي بأنّكِ تحت الرقابة والحماية. سأطلب منكِ الإذن بأن نغلق هذا الباب. لا لاحتجازكِ، إما لمنع دخول مَن هو عازمٌ على إيذائكِ. هل ستسمحين لنا بذلك؟

- أجل.

- إن احتجتي إلى أيّ شيء، ما عليكِ سوى قرع هذا الجرس، وسيأتيكِ أحدُهم في غضون ثوان. أيَّ شيء.

- يسعدني أن يكون لديّ شيءٌ أقرأه. هل من الممكن الحصول على كتاب من تأليف والدي؟

- بالطبع. سأطلب منهم أن يأتوكِ به. ولكن الآن حاولي أن تستريحي وتنامي.

- لا أعلم إن كنت سأستطيع النوم.

- بإمكاننا مساعدتكِ إن أردت...

- هل ستعطونني المهدِّئات ثانيةً؟

- إنها مساعدةٌ ليس إلّا. ستجعلكِ تشعرين أحسن حالًا. ولكن فقط إن كنتِ تريدين.

- موافقة.

- سأعود صباح الغد. وسنبدأ إعادة تركيب كلّ ما حدث خطوة خطوة.

- كم سأبقى من الوقت هنا؟

- ليس كثيرًا. عدّة أيّام. أسبوع حدًّا أقصى. إلى أن نعرف مَن وراء كلّ هذا. لن تكوني في مأمن في أيّ مكان آخر ما لم نلقِ القبض على المذنب. إندايا ورجاله يبحثون عنكِ. استطعنا إنقاذكِ من إل بينار، لكنّ هذا الرجل لا يستسلم. لن يستسلم أبدًا.

- كيف حدث ذلك...؟ لا أذكر.

- كنتِ فاقدة الوعي. وقد خسرنا اثنين من رجالنا لإخراجكِ من هناك.

- وڤايس؟

- وصلنا متأخّرين. لا تفكّري في الأمر الآن. استريحي يا أريادنا.

- أريادنا. - ردَّدت - شكرًا.

- بل الشكر لكِ. - قال لياندرو متجهًا نحو الباب.

وما إن بقيت وحيدة، حتى اجتاحها إعياءٌ وفراغٌ لم تستطع تفسيرهما. ما من أيّ ساعة في الغرفة كلّها. اقتربت من الستائر لإزاحتها، فاكتشفت أنّ النوافذ موصدة ومغطّاة من الخارج بورقٍ أبيض شبه شفّاف، يمرِّر الضوء لكنّه يحجب الرؤية كلّيًا.

أخذت تذهب وتجيء في أرجاء الغرفة بلا غاية، تناضل كي لا تقرع ذلك الجرس الذي تركه لياندرو على طاولة الصالة. وفي النهاية، عادت إلى غرفة النوم، بعد أن أنهكها اكتشاف أبعاد الجناح. جلست إلى المنضدة الصغيرة وعاينت انعكاسها في المرآة. ابتسمت.

- الحقيقة. - سمعت نفسها تقول.

(5)

كان لياندرو يدقّق في الوجه الشاحب والمهموم من الجانب الآخر للمرآة. كانت أريادنا تفوح بعطر الأرواح المحطَّمة التي هامت وسط الطريق موقنةً بأنّها تتجه إلى مكان ما. ولطالما كان لياندرو مسحورًا بالفكرة التي تقول إنّك إذا عرفتَ قراءة الزمن ولغة العيون فإنّك تستطيع أن تحدِّد في وجهٍ ما ملامحَ الطفل الذي كان عليه صاحبُه، وتستطيع أن تتذوّق اللحظة التي غرست الحياةُ سهمها المسموم في قلبه، وكيف بدأت روحه تذبل وتشيخ. فالناس إمّا مثل عرائس الماريونيت أو مثل ألعاب الزنبرك، لدى جميعهم آليّةٌ مخفيّة تسمح بتحريك خيوطهم وإطلاقهم نحو الوجهة المنشودة. المتعة، أو لعلّها مجرّد القدرة على الوقوف على القدمين، تأتي من ذلك الإذعان تحديدًا، من الرغبة الملحّة التي تقهرهم عاجلًا أم آجلًا فتُخضِعُهم لإرادته لتلقّي مباركته، يتبرّعون بأرواحهم مقابل أن يمنحهم ابتسامة استحسان أو نظرة تملأ قلوبهم بالإيمان ولو قليلًا.

كان إندايا جالسًا بجواره، يتمعّن فيها بارتياب.

- أعتقد أنّنا نضيّع وقتنا يا سيّدي. - قال - اسمح لي بقضاء ساعة واحدة معها، لأجعلَنَّها تنطق بكلّ ما تعرف.

- لقد قضيت كثيرًا من الساعات بلا نتيجة. لا تُحَلُّ كلّ المسائل بمجزرة. قم أنت بواجبك ودعني أقوم بواجبي.

- حاضر سيّدي.

بعد قليل، دخل الطبيب إلى المشهد. كان لياندرو قد اختاره بدقّة متناهية. صفاء وجهه يوحي بطبيب العائلة، ودودٌ في الستينات من عمره، بنظّارة وشاربٍ يليقان بحكيمٍ كان من الممكن أن يكون عمًّا أو جدًّا حلوًا كالعسل، حتى المتظاهرات بالعفّة كُنَّ لينزعن ثيابهنّ أمامه دون أن يشعرن بالحرج، ويتركن يديه الدافئتين تطبطبان على عوراتهنّ بينما يرفعن عيونهن إلى السماء ويهمسن في سرّهنّ: «إلهي ما أنعم هاتين اليدين».

الطبيب لم يكن طبيبًا، لكن لا أحد كان ليقول ذلك إذا رآه بمئزره الرماديّ وحقيبته وساقه العرجاء كالجنديّ القديم. كان كيميائيًّا. أحد أفضل الكيميائيّين. رآه لياندرو يساعد أريادنا على الاستلقاء على السرير، ويكشف عن ذراعها ويبحث عن الوريد. كانت الحقنة صغيرة والإبرة ناعمة لدرجة أنّها لم تشعر بها. ابتسم لياندرو في نفسه وهو يشاهد نظرة أريادنا تذوب وجسمها يتراخى. وفي غضون ثوان غطّت في نومٍ كيميائيٍّ سيبقيها هناك ما لا يقلّ عن ستّ عشرة ساعة، وربّما أكثر بما أنّها امرأة ذات بنية ضعيفة. كانت ستعوم في هدوء خالٍ من الأحلام، في حالةٍ من التأرجح والمتعة المطلقة التي ستغرس براثنها في أحشائها وشرايينها ودماغها. يومًا بعد يوم.

- ألن يقتلها؟ - سأل إندايا.

- ليس بالجرعة المناسبة. - أجاب لياندرو - حتى اللحظة على الأقلّ.

أرجع الطبيب أدواته إلى الحقيبة، وغطّى أريادنا وخرج من غرفة النوم. وبمروره قبالة المرآة، أومأ بإشارة على الإقرار، بكلّ ما أوتي من إجلال واحترام. كان لياندرو يسمع أنفاس إندايا نافدة الصبر خلف ظهره.

- هل تريد شيئًا؟ - سأله.

- لا سيّدي.

- أشكرك إذن لأنّك أتيت بها سالمة وغانمة، ولكن ليس لديك ما تفعله هنا. عد إلى برشلونة وابحث عن أليثيا غريس.

- أغلب الظنّ أنها ماتت، سيّدي...

التفت لياندرو.

- أليثيا حيّة.

- مع كامل احترامي، كيف عرفتَ ذلك؟

نظر إليه لياندرو كمن ينظر إلى بهيمه في حظيرة، محدودة الذكاء.

- لأنّي أعرف.

(6)

فتحت أليثيا عينيها على نور الشموع الخافت. أوّلُ أمرٍ لاحظته هو أنّها ظمآنة أكثر من كونها ميّتة. والأمر الثاني هو وجه رجلٍ ذي لحية وشعر أبيضانٍ، جالسًا بجوارها يحدِّق إليها من خلف عدستين مدوَّرتين وصغيرتين. كانت ملامحه تذكِّرها عمومًا بصورة الربّ التي رأتها في أحد الكتيّبات الدينيّة خلال الأعوام التي قضتها في الميتم.

- هل حضرتك من السماء؟ - سألته أليثيا.

- لا تتوهّمي. أنا من ماتاذيبيرا.

أمسك الطبيب سولديبيا معصمها، وتحسّس نبضها وهو ينظر إلى ساعته.

- كيف تشعرين؟ - سألها.

- عطشانة جدًّا.

- أعرف. - قال سولديبيا، دون أن يشير إلى إعطائها شيئًا تشربه.

- أين أنا؟

- سؤالٌ وجيه.

أزاح الطبيب الغطاء، وأحسّت أليثيا بيديه على حوضها.

- هل تشعرين بالضغط؟

أومأت بنعم.

- ألم؟

- عطش.

- أعرف. ولكن عليكِ أن تنتظري.

وقبل أن يغطّيها ثانيةً، حطَّ أنظاره على الندبة التي تعانق خاصرتها. فقرأت أليثيا الذعر المتواري في عينيه.

- سأعطيكِ شيئا ما من أجل هذا، ولكن تمهَّلي. فما زلتِ ضعيفة.

- إنّني معتادة على الألم أيّها الطبيب.

تنهّد سولديبيا وغطّاها.

- هل سأموت؟

- ليس اليوم. أعرف أنّ الأمر سيبدو لكِ هراء، ولكن حاولي أن تستريحي وتسترخي.

- كما لو أنّي في إجازة.

- شيء كهذا. جرِّبيه على الأقلّ.

نهض الطبيب وسمعت أليثيا همهمة من بعض كلمات. خطواتٌ تقترب، دائرةٌ من أطيافٍ تتشكّل حول السرير. عرفت فيرمين، دانيال وبيا. ومعهم رجلٌ خفيف الشعر ذو نظرة نسر، بدا أنَّها تعرفه منذ بداية حياتها، لكنّها لم تتمكّن من تحديد هويّته. تهامس فيرمين والطبيب سولديبيا. دانيال يبتسم بمعنويّاتٍ عالية. أليثيا بجواره تحدِّق في عينيها بتعبيرٍ يشي بانعدام الثقة. قرفص فيرمين بجانبها وحطّ يده على جبينها.

- كدتِ تموتين بين يديّ لمرّتين وقد ضقتُ ذرعًا بهذا. وجهكِ يوحي بالموت، صحيح، ولكن بخصوص ما تبقّى أراكِ زهرة. بم تشعرين؟

- بالعطش.

- لا أستطيع أن أشرح الأمر. لقد تجرَّعتِ ما لا يقلّ عن ثمانين بالمئة من دورتي الدمويّة.

- لا يمكنكِ أن تشربي طالما لم تطرحي التخدير كليًّا. - قال الطبيب.

- إنّها لعبة أولاد، سترين. - قال فيرمين - التخدير يُطرَحُ مثل سنوات الدراسة الدينيّة: بخدش الحياء ولو قليلًا.

رماه سولديبيا بنظرة كبريتيّة.

- حاول ألّا ترهِقَ المريضة بالتفوّه بالعبارات النابية، من بعد إذنك.

- سأصمت كقبر. - صرَّح فيرمين، وهو يلوِّح بإشارة الصليب.

خار الطبيب سولديبيا.

- سأعود صباح الغد. من الأفضل أن تتناوبوا بقربها حتى ذلك الحين. ما إن تلاحظوا أعراض حمّى أو التهاب أو عدوى، أخبروني فورًا. مهما كانت الساعة. من سيقوم بالمناوبة الأولى؟ لست أنا يا فيرمين، فلقد رأيتك قادمًا.

تقدّمت بيا.

- سأبقى أنا. - قالت بنبرةٍ لا تدعو إلى النقاش أبدًا - فيرمين، لقد تركتُ خوليان مع صوفيا، لكنّي لا أثق بها لأنّها تتصرّف كما يحلو لها. اتّصلتُ ببرناردا وطلبتُ منها أن تذهب إلى البيت لتراقب الطفل. بإمكانكما استخدام غرفة النوم. تركتُ أغطية نظيفة في الدُّرج، وبرناردا تعرف أين تجد أيَّ غرض. دانيال سينام على الأريكة.

رمى دانيال زوجته بنظرة لكنّه لم يجرؤ على فتح فمه.

- اطمئنّي. سأُنيِّمُ ولي العهد كما لو كان زغيبة. قطرة كونياك مع قليل من العسل في الحليب مثل يد قدّيس.

- إيّاك أن يخطر في بالك أن تُسكِرَ ابني. واسدِ إليّ معروفًا بعدم التكلّم معه بالسياسة، لأنّه يكرِّر كلّ شيء.

- بأمركِ. مرسومٌ بتعتيم إعلاميّ إلى أجلٍ غير مسمّى.

- بيا، تذكَّري حقنة المضادات الحيويّة. كلّ أربع ساعات. - قال الطبيب.

توجّه فيرمين بابتسامة ناصعة إلى أليثيا.

- لا تخافي، فالسيّدة بيا تحقن الإبر بيدٍ ملائكيّة، حتى لو رأيتِها اليوم صارمة كرقيب. فبما أنّ والدها مصابٌ بالسكّري، وهو الذي لا تملك نفسه من الحلاوة شيئًا، فقد اعتادت بيا على الحقن بخفّةٍ يبصم على براعتها البعوضُ النمرُ في وادي النيل، أو أيًّا كان اسم الحشرات في تلك المنطقة. لقد تعلَّمت الحقن منذ صغرها إذ لم يكن أيُّ فرد من عائلتها يجرؤ على ذلك، وها هي الآن تحقن الجميع، من بينهم أنا، واعلمي أنّني مريضٌ صعب، لأنّ لي ردفين فولاذيّين وألوي الإبرة بسبب التشنّج العضليّ.

- فيرمين! - زعقت بيا.

أدّى تحيّة عسكريّة وغمز بعينه لأليثيا.

- خيرًا، يا مصّاصة الدماء العزيزة، سأتركِ في عهدة أفضلنا. حاولي ألّا تعضّي أحدًا. سأعود غدًا. أطيعي السيّدة بيا بكلّ ما تقول، وحاولي ألّا تموتي إن أمكن لكِ ذلك.

- سأفعل ما بوسعي. شكرًا لك على كلّ شيء يا فيرمين. مرّةً أخرى.

- لا تذكِّريني. تعال معي يا دانيال، فالظهور بوجهٍ مذهول لا يسرِّع الشفاء.

غادر فيرمين وهو يجرّ وراءه دانيال.

- كلّ شيء واضح إذن. - قال الطبيب - والآن، كيف الخروج من هنا؟

- سأرافقك. - تطوَّع الحارس.

بقيتا بمفردهما. أخذت بيا كرسيًّا وجلست بجانب أليثيا. نظرت الواحدة إلى الأخرى بصمت. ارتجلت أليثيا ابتسامه تنمّ عن امتنان. وكانت بيا ترمقها بنظرةٍ منيعة. وبعد قليل، أطلّ الحارس من عتبة الغرفة وعاين الوضع.

- سيّدة بياتريز، تعلمين أين تجدينني في حال احتجتِ إلى أيّ شيء. تركتُ لكِ الأغطية والأدوية وإرشادات الطبيب على الرفّ.

- شكرًا يا إسحاق. ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة. وليلة سعيدة يا أليثيا. - قال الحارس.

ابتعدت خطواته على امتداد الممرّ.

- يبدو أنّ الجميع يعرفني هنا. - قالت أليثيا.

- أجل، يبدو ذلك. لسوء الحظّ لا أحد يعرف حقيقتكِ جيّدًا.

أشرقت أليثيا بابتسامة أخرى. لم تبادلها بيا الابتسامة بمثلها، إذ ساد بينهما صمتٌ طويل وكثيف. طافت أليثيا بأنظارها على الجدران المغطّاة بالكتب من الأرض حتى السقف. كانت تعلم أنّ عيني بيا مثبَّتين عليها.

- هل يمكن أن أعرف ما الذي يضحككِ؟ - سألتها بيا.

- ترّهات. لقد حلمتُ بأنّني أقبّل رجلًا في منتهى الوسامة ولا أعلم من يكون.

- هل هي عادةٌ لديكِ أن تقبّلي رجالًا لا تعرفينهم، أم إنّها لحظاتٌ عابرة لا تراودكِ إلا تحت تأثير التخدير؟

كانت نبرة صوتها بتّارة كالسكّين، وقد ندمت بيا على كلماتها ما إن تفوّهت بها.

- أنا آسفة. - غمغمت.

- لا تأسفي. فأنا أستحقّ. - قالت أليثيا.

- سأعطيكِ المضاد الحيويّ بعد ثلاث ساعات تقريبًا، لِمَ لا تحاولين النوم قليلًا كما أوصاكِ الطبيب؟

- لا أستطيع النوم يخيفني. - أجابت أليثيا.

- كنت أظنّ أنه ما من شيء قادر على إخافتكِ.

- أمثّل جيّدًا.

كادت بيا تقول شيئًا ما لكنّها عضّت لسانها.

- بيا؟

- ماذا؟

- أعرف أنّه لا يحقّ لي أن أطلب منك الغفران ولكن...

- لا تفكّري في الأمر الآن. لا ينبغي أن تطلبي مني غفرانًا على شيء.

- وهل إن طلبتُه منكِ غفرتِ لي؟

- صديقكِ فيرمين يقول دومًا: «من يطلب المغفرة فليذهب إلى الاعتراف في الكنيسة أو فليشترِ كلبًا». وهذه أوّل مرّة، رغمًا عنّي، أراه محقًّا.

- فيرمين رجلٌ حكيم.

- لديه لحظاته. ولكن لا تصارحيه بهذا وإلّا أصبح من الصعب تحمُّله. نامي الآن.

- هل لي أن أمسك يدكِ؟ - سألتها أليثيا.

تردّدت بيا قليلًا لكنّها وافقت في النهاية وأخذت بيد أليثيا. وما لبث الصمت يسودهما حتى أغمضت أليثيا عينيها وبدأت تتنفّس ببطء. نظرت بيا إلى ذلك الكائن الغريب الذي يبعث في نفسها خوفًا منه وتعاطفًا معه في الآن ذاته. فعندما وصلوا، كانت أليثيا ما تزال تهذي وعاينها

الطبيب وساعدتها أليثيا على نزعِ ملابسها. فنُقِشَت في ذهنها صورة تلك الإصابة الرهيبة التي تعضّ خاصرتها.

- دانيال رجلٌ محظوظ. - همهمت أليثيا.

- هل تتملّقينني؟

- بزوجة وأم. لن أجرؤ أبدًا.

- ظننت أنّكِ نائمة. - قالت بيا.

- وأنا أيضًا.

- هل تؤلمكِ؟

- تقصدين الإصابة؟

لم تردّ بيا. كانت أليثيا مغمضة العينين.

- قليلًا. - تابعت أليثيا - التخديرُ يهدِّئ الألم.

- كيف أُصِبتِ؟

- حدث ذلك خلال الحرب. إبّان القصف.

- يؤسفني.

عبّرت أليثيا عن لامبالاتها.

- أفيد منها بإفزاع الطالبين القرب منّي.

- أتصوَّر أنّهم كثر.

- لا أحد منهم يستحقّ العناء. الرجال المميّزون يُغرمون بامرأة مثلكِ. أمّا أنا فيريدونني لإشباع مخيّلتهم فقط.

- إن كان هدفكِ أن أتعاطف معكِ، فهيهات!

ابتسمت أليثيا.

- لا تظنّي أنّهم لا يشبعون مخيّلتهم بي أيضًا. - ارتجلت بيا وهي تبتسم في سرّها.

- ليس لديّ أدنى شكّ في هذا.

- لماذا الرجال أغبياء إلى هذه الدرجة أحيانًا؟ - سألت بيا.

- الرجال؟ ومن يدري. ربّما لأنّ الطبيعة أمٌّ، لكنّها أمٌّ قاسية، تجبلهم بالغباوة منذ ولادتهم. لكنّ بعضهم لا بأس بهم.

- حتى برناردا تقول ذلك. - وافقت بيا.

- وماذا عن زوجكِ دانيال؟ - سألت أليثيا.

نظرت بيا بلؤم.

- ما به زوجي دانيال؟

- لا شيء. يبدو رجلًا طيّبًا. روحٌ صافية.

- لا تتوهّمي، فلديه جانبٌ مظلم.

- بسبب ما حدث لأمّه، إيزابيلا؟

- ما الذي تعرفينه عن إيزابيلا؟

- القليل.

- كنتِ تكذبين بشكل أفضل بلا تخدير.

- هل يمكنني أن أثق بكِ؟

- لا يبدو لي أنّ لديك خيارات أخرى. المسألة هي أن أثق أنا بكِ.

- هل تشكّين؟

- بعمق.

- هناك أشياء عن إيزابيلا، عن ماضيها... - بادرت أليثيا - أعتقد أنّ لدانيال الحقّ في معرفتها، ولكن ربّما بالمحصّلة من الأفضل ألّا يعرفها أبدًا.

- أليثيا؟

فتحت عينيها لتجد نفسها أمام وجه بيا على بعد شبر عن وجهها. وشعرت بأنّها تشدّ على يدها بقوّة.

- نعم.

- سأطلب منكِ شيئًا. سأطلبه منكِ مرّة واحدة فقط.

- تفضّلي - إيّاكِ أن يخطر في بالكِ إيذاء دانيال أو عائلتي.

جابهت أليثيا تلك النظرة التي بدت لها ذات سطوة لم تستطع أن تتنفّس حيالها.

- أقْسِمي على ذلك.

مضغت أليثيا ريقها.

- أقسم لكِ.

هزّت بيا رأسها ومطّت جذعها على الكرسيّ. رأتها أليثيا تغمض عينيها.

- بيا؟

- ماذا تريدين الآن؟

- أريد أن أخبركِ بشيء... تلك الأمسية، عندما رافقتُ دانيال إلى بوّابة البناية...
- اخرسي ونامي.

(7)

كانت عاصفة اليوم السابق قد صبغت برشلونة بالأزرق الكهربائيّ الذي لا يصادف وقوعُه إلا في بعض الصباحات الشتويّة. طردت الشمسُ الغيومَ ركلًا، وحلَّ ضوءٌ نقيٌّ في الأجواء، ضوءٌ سائلٌ يستحقّ أن يُعبَّأ بالقوارير. وكان السيّد سيمبيري، الذي استيقظ بأبَّهة التفاؤل، قد تجرَّعَ فنجان قهوة سوداء - مخالفًا توجيهات الطبيب - بنكهة المجد والتمرّد، وقرّر تخليد ذلك اليوم.

- اليومَ سنحقّق مبيعات أكثر من مرقص الطاحونة في أعياد الصوم الكبير. - أعلن - سترون.

وبينما كان ينزع لافتة «مغلق» من على باب المكتبة، لاحظ أنّ فيرمين ودانيال يتوشوشان في إحدى الزوايا.

- ماذا تخطّطان؟

التفت كلاهما وتوجّها إليه بتلك النظرة البليدة التي تفصح المؤامرات في بداياتها. بدا أنّهما لم يغمضا عينًا منذ أسبوع، وكانا يرتديان ملابس اليوم الماضي ذاتها، إن لم تخن الذاكرةُ بائعَ الكتب.

- كنّا نقول إنّك في كلّ يومٍ يمضي تبدو أكثر شبابًا وبسالة. - قال فيرمين - من يدري كم فتاة ناضجة تركع عند قدميك.

وقبل أن تتاح لبائع الكتب فرصة الردّ، سمع رنين الجرس المعلّق على الباب. رجلٌ نبيلٌ ذو هندام أنيق ونظرة بلوريّة، دنا من المصطبة بابتسامة صافية.

- صباح الخير يا سيّدي، بم يمكننا أن نخدمك؟

نزع الزائر قفّازيه بغير عجالة.

- آمل أنّه بإمكانكم الإجابة عن بعض الأسئلة. - قال إندايا - شرطة.

قوّس بائع الكتب حاجبيه ورمى بنظرة إلى دانيال الذي بدا قد اصفرّ وجهه حتى اتّسم باللون الحيويّ للورق المصقول المخصّص لطباعة مجموعات الأعمال الكاملة للأدباء الكلاسيكيّين العالميّين.

- تفضّل.

ابتسم إندايا باحترام وأخرج صورة ووضعها على المصطبة.

- تفضَّلوا بالاقتراب وإلقاء نظرة هنا لو سمحتم...

اجتمع الثلاثة خلف المصطبة وتفحّصوا الصورة. تظهر فيها أليثيا شابّةً بخمس سنوات أقلّ، تبتسم للعدسة وتستعير ملامح بريئة لم يكن لينخدع بها طفلٌ رضيع.

- هل تعرفون هذه الآنسة؟

أخذ السيّد سيمبيري الصورة ودرسها بعناية. رفع كتفيه محايدًا ومرّرها إلى دانيال الذي كرّر الحركة ذاتها. جاء دور فيرمين أخيرًا، فرفع الصورة على انعكاس الضوء كما لو أنّه يعاين عملة ورقيّة مزيّفه، وهزّ رأسه نافيًا وأعادها إلى إندايا.

- أخشى أنّنا لا نعرف هذا الشخص. - قال بائع الكتب.

- لعلَّها توحي بملامح عاهرة صغيرة، لكنّها لا تذكِّرني بأحد. - أكّد فيرمين.

- لا؟ هل أنتم واثقون؟ أنكر الثلاثة معًا.

- لستم واثقين أم لم تروها من قبل؟

- نعم ولا. - قال دانيال.

- مفهوم.

- هل لي أن أسأل حضرتك عنها؟ - قال البائع.

- تدعى أليثيا غريس، وهي مطلوبة للعدالة. لقد ارتكبت في الأيّام الأخيرة ثلاث جرائم قتل، على حدّ ما استطعنا معرفته. آخرها كانت البارحة، نقيبٌ في الشرطة، يدعى بارغاس. إنّها خطيرة للغاية ومن الوارد أنّها تتنقّل مسلَّحةً. رآها أحدهم في الحيّ في الأيّام الأخيرة وصرّح بعضهم أنّها دخلت إلى المكتبة. إحدى العاملات في الفرن عند الزاوية تؤكّد أنّها رأتها صحبة أحد الموظّفين في هذه المكتبة.

- لعلّها مخطئة. - قال السيّد سيمبيري.

- وارد. هل يعمل أحدٌ غيركم في المكتبة؟

- زوجة ابني.

- ربّما تذكرها.

- سأسألها.

- إن تذكّرتم شيئًا، أنتم أو زوجة ابنكم، أرجو منكم الاتصال بي على هذا الرقم. في أيّ ساعة. إندايا.

- بالتأكيد.

أومأ رجل الشرطة باحترام واتجه نحو المخرج.

- شكرًا لكم على المساعدة. نهارًا سعيدًا.

طغى الصمت عليهم خلف المصطبة، ينظرون إلى إندايا يقطع الشارع على مهل ويتوقّف عند المقهى المقابل. اقترب منه شخصٌ متدثّر بمعطف أسود، ودردشا قرابة دقيقة. أومأ الرجل واتجه إندايا إلى أسفل الشارع. رمى الرجل ذو المعطف الأسود المكتبةَ بنظراته ودخل المقهى. شغل طاولة بجانب النافذة وظلّ يراقب من هناك.

- هل يمكنني أن أعرف ما الذي يحدث؟ - سأل السيّد سيمبيري.

- الأمر معقّد. - جازف فيرمين قائلًا.

وفي تلك اللحظة، لمح بائع الكتب قريبته صوفيا، عائدةً بعد اصطحاب خوليان إلى المنتزه. كانت ابتسامتها تمتدّ من أذنٍ إلى أخرى.

- ومن كان هذا الرجل القدير الذي خرج توًّا؟ - سألت من عند الباب - ما الذي يحدث؟ هل توفّي أحد؟

انعقد مجلس الكرادلة في المستودع. وتسلّم فيرمين إدارة الأزمة بشموخٍ لا يضاهى.

- صوفيا، أعرف أنّ عقولكم أنتم المراهقين تبقى أرضًا بورًا ريثما يتلاشى زلزال الهرمونات، ولكن إذا جاءكِ هذا الوغد الذي رأيتِه خارجًا للتو من المكتبة، أو أيّ شخص آخر، مستخدمًا ذريعة معيّنة، وسألكِ إن رأيتِ أو عرفتِ أو سمعتِ أو لديكِ أدنى فكرة عن وجود الآنسة أليثيا غريس، فعليكِ أن تكذبي عليه بفضائلكِ النابوليتانيّة التي وهبها لكِ الربّ، ستقولين له لا لم أرها حتى في الرسوم، وستفعلينها بتعبير يجعل وجهكِ مثل حبّة الشمندر، مثل وجه جارتكِ مرثيديتاس. وإلّا أُقسِم لكِ، مع أنّي لست بوالدكِ ولا وليّ أمركِ، أنّي سأدخلكِ دير الراهبات الاحتجازيّ ولن تخرجي منه إلا حينما يبدو لكِ خيل روبلس جميلًا. فهمتِ؟

أومأت صوفيا متأسّفة.

- والآن اذهبي إلى المصطبة وتظاهري بأنّكِ تقومين بشيء ذي أهميّة.

وما إن تخلّصوا من صوفيا، حتى جابَهَ السيّد سيمبيري ابنَه وفيرمين.

- ما زلت أنتظر أن تشرحا لي ما الذي يحدث.

- هل تناولت دواء الضغط؟

- مع القهوة.

- يا لها من فكرة عظيمة. لا ينقصك إلّا أن تبتلع عبوة ديناميت باعتبارها قطعة بسكويت وسنكون على ما يرام.

- لا تغيِّر الموضوع يا فيرمين.

أشار إلى دانيال.

- سأهتمّ بالأمر. اخرج وتصرَّف على أنّك أنا.

- وماذا يعني هذا؟

- يعني ألّا تتصرّف بطريقة غبيّة. فهؤلاء البراعم يراقبون المكان وينتظرون أن نُقدِم على خطوة خاطئة.

- كنت أفكّر في الذهاب لتحرير بيا...

- تحرير بيا؟ - سأل السيّد سيمبيري - ممَّ تحرّرها؟

- من أشياء كثيرة. - قاطعه فيرمين - دانيال، لا تتحرّك من هنا.

أنا من سيذهب، فلي باعٌ طويلٌ في الجوسسة العسكريّة، كما أنّي أملص كالأنقليس. هيّا، اذهب. لئلا يبدو أنّنا نتآمر على شيء ما هنا.

اجتاز دانيال ستارة المستودع على مضض، وتركهما على انفراد.

- والآن! - سأل السيّد سيمبيري - هلّا أخبرتني ما الذي يحدث هنا؟

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه فيرمين.

- هل لك رغبة بحبّة سوغوس؟

(8)

بدا له النهار أبديًّا. قضى دانيال الساعة بانتظار عودة بيا تاركًا والده يتعامل مع معظم الزبائن. وقد فرَّ فيرمين بعد أن قصَّ على مسامع السيّد سيمبيري واحدة من تلفيقاته الرهيبة والمهجّنة التي تعتمد على إظهار أنصاف الحقائق، بغية طمأنة هواجسه وتساؤلاته، بضع ساعات على الأقلّ.

- يجدر بنا أن نتصرّف بشكل أكثر من طبيعيّ يا دانيال. - قال له قبل أن ينسلّ من المستودع عبْر نافذة صغيرة تطلّ على باحة كنيسة سانتا آنا، كيلا يراه العميل الذي زرعه إندايا هناك لمراقبة المكتبة.

- ومتى كنّا طبيعيّين؟

- لا تؤدِّ دور الفيلسوف الوجوديّ الآن. حين أرى الميدان خاليًا، سأهرب لأناوب مكان بيا.

وصلت بيا أخيرًا حوالي منتصف النهار، عندما كاد دانيال يشيب شعره وقد قضم أظفاره حتّى مرفقيه.

- أطلعني فيرمين على كلّ شيء. - قالت.

- هل وصل بلا مشاكل؟

- توقَّف في الطريق ليشتري الحلوى التي لا يستطيع مقاومتها، قال إنّهم يسمّونها «أثداء الراهبة»، والنبيذ الأبيض.

- نبيذ أبيض؟

- من أجل أليثيا. منعه عنها الطبيب.

- وكيف حالها؟

- مستقرّة. يقول الطبيب إنّها ما تزال ضعيفة، ولكن لا التهابات ولا حمّى.

- هل قال شيئًا آخر؟ - ألحَّ دانيال.

- حول ماذا؟

- لماذا لديَّ انطباعٌ بأنّ الجميع يخفي عنّي شيئًا ما؟

داعبت بيا وجهه.

- لا أحد يخفي عنك شيئًا يا دانيال. وخوليان؟

- في الحضانة. رافقته صوفيا.

- سأذهب لاستعادته بنفسي بعد الظهر. ينبغي الحفاظ على المظهر الطبيعيّ، أعرف. ووالدك؟

- هناك في الخلف، يزبد غضبًا.

أخفضت بيا صوتها.

- ما الذي رويتماه له؟

- خدَّره فيرمين بإحدى قصائده البطوليّة.

- حقًّا. سأذهب إلى سوق بوكويريا لشراء بعض الأغراض. هل ترغب بشيء؟

- حياة طبيعيّة.

في منتصف الظهيرة، تركه والده وحيدًا في المكتبة. لم تعد بيا بعد، وقد اشتعل دانيال قلقًا وتعكَّر مزاجه إذ شعر بأنّه مخدوع، فقرّر الصعود إلى البيت متذرّعًا بحاجته إلى غفوة قصيرة. كان منذ أيّام يهجس بأنّ أليثيا وفيرمين يخفيان عنه شيئًا ما. وآنذاك انضمّت إليهما بيا أيضًا على ما يبدو. قضى ساعتين يحلّل المسألة، يفكّ عزقاتها وينهش روحه. لقد علمته التجربة أنّه من الأولى له في هذه الحالات أن يتصرّف كالأبله ويتظاهر بأنّه لم يكتشف أيّ شيء. بالمحصّلة، كان هذا هو الدور الذي سلّموه إيّاه في المسرحيّة. لا أحد يتوقّع من دانيال الطيّب، اليتيم المسكين، المراهق الدائم ذي الضمير النقيّ، أن يدرك حقيقة الأشياء. لذا كان الآخرون موجودين، كأنّهم حاضرون دومًا لإعطائه الإجابات الجاهزة، بل وحتى التساؤلات. لا يبدو أنّ أحدًا منهم قد انتبه إلى أنّ دانيال لم يعد يرتدي البنطلون القصير منذ أعوام. لا بل حتى خوليان الصغير كان ينظر إليه بطرف العين أحيانًا ويضحك، كما لو أنّ والده ما جاء إلى الدنيا إلّا للقيام بدور المغفّل الذي يندهش حينما يكشف الآخرون الألغاز على مرآه.

«حتى أنا قد أسخر من نفسي لو استطعت» - كان دانيال يفكّر. فمنذ زمن ليس ببعيد كان قادرًا على الاستهزاء بظلّه نفسه، ومساندة فيرمين في انتقاداته اللاذعة، وتقمُّص شخصيّة الساذج الأبديّ المستوحاة من ملاكه الدونكيخوتيّ الحافظ. كان دورًا رائعًا أشعره بأفضل حال حينما أدّاه. وكان سيستمرّ بكلّ سرور على الظهور بشخص دانيال الذي يراه جميع مَن حوله، لا دانيال الذي ينتهز نوم بيا وخوليان ليلًا لكي ينزل تحت الظلام إلى المكتبة ويلتجئ إلى مستودعها ويزيح السخّانة القديمة المعطّلة التي تخفي وراءها إطارًا من الجصّ ينفتح بدفعة يد.

هناك حيث أخفى، تحت شبرين من الكتب القديمة والمغبّرة، صندوقًا فيه ألبوم صور مليء بقصاصات الجرائد حول ماوريسيو ڤايس التي اقتطعها طوال زياراته إلى أرشيف المكتبة الجامعيّة. كانت حياة الوزير الشخصيّة مسجّلة على تلك الصفحات، عامًا بعد عام. كان دانيال يعرف كلّ تلك المقالات والبيانات الصحفيّة جيّدًا. آخرها أشدّ إيلامًا، ألا وهو نبأ رحيله بحادث مروريّ.

لقد فلت منه ڤايس، الرجل الذي حرمه أمّه.

كان دانيال قد تعلّم أن يكره ذلك الوجه الذي لا يبتغي إلّا أن تُلتَقط له الصور بوضعيّات شامخة. تعلَّمَ أنّنا لا نعرف من نكون ما لم نُضمِر الكراهية. وإذا حقدنا بحقّ، وسلّمنا أمرنا للغل الذي يستعر في صدورنا، ويُتلِفُ فتاتَ الطيبة التي كنّا نظنّ واهمين أنّنا نمتلكها، فعلينا أن نحتفظ بذلك سرًّا. ابتسم دانيال بمرارة. لم يكن لأحد أن يراه قادرًا على الحفاظ على س. لم يستطع أن يحتفظ بسرّ على الإطلاق. حتى عندما كان صغيرًا، في الطفولة التي يكون فيها حفظ الأسرار فنًّا

وطريقةً لوضع مسافة تفصلنا عن الدنيا وفراغها. لم يكن حتى فيرمين وبيا يعرفان بأنّه يخفي ذلك الملفّ هناك حيث يلوذ أحيانًا لإذكاء جذوة الضغينة التي نمت في وجدانه منذ أن عرف أنّ العظيم ماوريسيو ڤايس، الذي علَّق النظام عليه آماله، كان قد سمّم والدته. كلّها افتراءات، كانوا يقولون له. لا أحد بوسعه التأكّد ممّا حدث بالفعل. لكنّ دانيال كان قد خلَّف شكوكه وراءه ليعيش في عالمٍ من اليقين.

وأسوأ أوجه ذلك اليقين، الأصعب على التصوُّر، هو أنّه من المستحيل إحلال العدالة.

لن يأتي أبدًا ذلك اليوم الذي حلم به وسمّم به روحه، اليوم الذي يلتقي فيه بماوريسيو ڤايس. كان سينظر إليه في عينيه بحيث يرى فيهما انعكاس الحقد الذي يضمره له. ثمّ كان سيأخذ ذلك السلاح الذي اشتراه من أحد المهرّبين الذي يقوم بأعماله أحيانًا في خان تونس. كان دانيال قد خبّأ السلاح بمجموعة من الخِرق في عمق الصندوق. سلاحٌ قديم، من زمان الحرب، لكنّ ذخائره جديده وقد علّمه المهرّب كيفيّة استخدامه.

«أطلق النار أوّلًا على الساقين، تحت الركبتين. وانتظر. ستراه يجرجر نفسه. فأطلق على بطنه. وانتظر. سيتلوّى. ثمّ أطلق رصاصة أخرى على الجانب الأيمن من صدره. وانتظر. انتظر أن تمتلئ رئتيه بالدماء وأن يختنق بخرائه. حينها فقط، عندما يبدو أنّه قد مات، أفرغ الطلقات الثلاث المتبقّية في رأسه. طلقة في الرقبة، والأخرى في الصدغ، والأخيرة تحت الذقن. ثمّ ارمِ السلاح في نهر بيسوس، بجانب الشاطئ، كي يسحبه التيّار بمجراه».

ولعلّ التيّار كان سيسحب معه إلى الأبد كلًّا من الحقد والألم اللذين كانا يتعفّنان في طوايا نفسه.

- دانيال؟

رفع عينيه ورأى بيا. لم ينتبه لدخولها.

- دانيال، هل أنت بخير؟

أكّد برأسه.

- وجهك أبيض. هل أنت واثق من أنّك بخير؟

- بألف خير. سوى أنّي متعب بعض الشيء، لأنّي لم أنم. لا غير.

انبسط وجه دانيال بابتسامته الرقيقة، تلك التي كان يحملها معه منذ سنوات المدرسة والتي كان الجميع في الحيّ يعرفه بها. دانيال سيمبيري الطيّب، النجل الذي تتمنّاه كل أم صالحة لابنتها. الرجل الذي ليس في قلبه ظلام.

- اشتريتُ لك البرتقال. آمل ألا يراها فيرمين، وإلّا أكلها جميعًا بلقمة واحدة، مثلما حدث في المرة الأخيرة.

- شكرًا.

- دانيال، ما بك! ألن تبوح لي: هل بسبب قصة أليثيا! أم من رجل الشرطة؟

- لا شيء. أنا قلقٌ نوعًا ما. وهذا طبيعيّ. لكنّنا قد تورّطنا في الماضي بمآزق أسوأ. وسننجو هذه المرّة أيضا.

لم يكن دانيال قد كذب عليها في حياته. نظرت إليه بيا في عينيه. كان تتخوَّف ممّا تراه فيهما منذ أشهر. اقتربت منه وعانقته. فتركها دانيال تشبكه بذراعيها، لكنّه لم يقل شيئًا، كما لو أنّه ليس هناك.

انسحبت بيا ببطء. تركت حقيبة الأغراض على الطاولة وأخفضت أنظارها.

- سأذهب لاستعادة خوليان.

- سأنتظركما هنا.

(9)

توجَّب على أليثيا أن تنتظر ثلاثة أيّام قبل أن تستطيع النهوض عن السرير من دون مساعدة من أحد. منذ وصلت هناك، بدا لها أنّ الزمن قد توقّف. كانت تقضي معظم وقتها متأرجحة ما بين اليقظة والنوم، دون أن تخرج من الغرفة التي أنزلوها فيها. هناك حيث يوجد مجمرٌ يوقده إسحاق ساعات قليلة، وظلامٌ طفيف بالكاد يجرحه ضياءُ شمعة أو مصباح الزيت. وكان الدواء الذي تركه الطبيب سولديبيا لها لتخفيف الألم كان يغرقها في سبات مائج تصحو منه من حين لآخر لتجد أمامها فيرمين أو دانيال يحرصان عليها. المال لا يصنع السعادة، لكنّ الكيمياء تضعنا على مقربة منها أحيانًا.

حين كان وعيها الشحيح يساعدها على معرفة من وأين هي، تحاول أن تنطق كلمة ما. وكان الجواب حاضرًا على معظم تساؤلاتها قبل أن تطرحها. لا، لن يعثر عليكِ أحدٌ هنا. لا، العدوى التي تخشينها لم تتحقّق والطبيب يعتقد أنّ أوضاعكِ تتحسّن حتى لو أنكِ ما زلتِ ضعيفة. أجل، فرنانديتو سالمٌ وغانم. السيّد سيمبيري عرض عليه عملًا بدوام جزئيّ لتوصيل الطلبيّات والإتيان بمجموعة كتب تمّ شراؤها من مكتبات خاصّة. كان غالبًا ما يسأل عنها لكنّه في الحقيقة - على حدّ زعم فيرمين - تقلّص اهتمامه بها منذ أن صادف صوفيا في المكتبة وقد نجح في مهمّة كانت تبدو مستحيلة: تحطيم الرقم القياسي لطبعه الصبيانيّ. ابتهجت أليثيا من أجله. فما دام سيتعذّب شاء أم أبى، فليفعلها من أجل من يستحقّ ذلك على الأقلّ.

- إنّ هذا الفتى سهل الوقوع في الحبّ. - قال فيرمين - لا بدّ أنّه سيعاني كالكلاب في هذه الحياة.

- عانى مَن يعجزْ عن الوقوع في الحبّ. - ردّت أليثيا.

- أرى أنّ هذا الدواء يذهب بعقلكِ الصغير يا أليثيا. ما إن تمسكين بالغيتار وتبدئين بغناء الأغاني الدينيّة، سأضطرّ إلى الطلب من الطبيب أن يخفض لكِ الجرعة إلى مستوى حبّة أسبيرين للأطفال.

- لا تحرمني من الأشياء الجيّدة القليلة المتبقّية لديّ.

- كم بإمكانكِ أن تكوني فاسدة، يا إلهي...

لم تكن تعبأ بفضيلة الفساد. كان ينقصها كؤوس نبيذها الأبيض وسجائرها المستوردة وحيّز عزلتها. فالأدوية تساعدها على الانبهار ما يكفي لتمضي الأيّام مع تلك الرفقة الدافئة للأشخاص الطيّبين الذين تآمروا لإنقاذ حياتها وكانوا يبدون قلقين على صحّتها أكثر منها. كانت في بعض الأحيان عندما تهبط في ذلك البلسم الكيميائيّ، تقول لنفسها إنّها يجب أن تمسَّ القاع وتبقى هناك في سبات أبديّ. لكنّها تصحو عاجلًا أم آجلًا وتتذكّر أنّ الموت لا يستحقّه إلّا من صفّى جميع حساباته.

استيقظت أكثر من مرّة بين الظلمات ووجدت فيرمين جالسًا على كرسيٍّ قبالتها، سارح الأفكار.

- فيرمين، كم الساعة؟

- ساعة الساحرات. أيْ ساعتكِ.

- ألا تنام أبدًا؟

- القيلولة لا تناسبني إطلاقًا. اختصاصي هو الأرق، أتفنّن به.

سأعوّض كلّ ما فاتني من نومٍ حين أموت.

كان فيرمين يرمقها بمزيج من الرقّة والارتياب الذي بات يؤلّب غيظها.

- ألم تغفر لي بعد، يا فيرمين؟

- ذكِّريني ما الذي عليَّ أن أغفره لك... يفوتني في هذه اللحظة.

تنهّدت أليثيا.

- لقد تركتكَ متيقّنًا من أنّني قد متّ في تلك الليلة خلال القصف.

وتركتك تعيش حياتك بشعورٍ بالذنب لأنّك خذلتَ وعدك الذي قطعته لي ولوالديّ. وحين عدتُ إلى برشلونة، وعرفتني في محطة فرنسا تظاهرتُ بأنّي لم أعرفك، وتركتكَ تتوهّم أنّك جننت أو أنّك رأيتَ شبحًا...

- آه، هذا إذن.

توجّه إليها بابتسامة حادّة لكنّ عينيه كانتا تلمعان بالدموع على ضوء الشموع.

- والآن، ألن تغفر لي؟

- سأفكّر.

- أنا بحاجة إلى مسامحتك. لا أريد أن أموت حاملةً هذا العبء.

نظر كلاهما إلى عيني الآخر تحت الصمت.

- أنتِ ممثلة سيّئة.

- أنا ممثلة ممتازة. الحال أنّني أنسى الدور، بسبب هذه القذارات التي يعطيني إيّاها الطبيب.

- اعلمي أنّكِ لا تثيرين تعاطفي.

- لا أريد منك شفقة يا فيرمين. لا منك ولا من غيرك.

- تفضِّلين أن يخافوا منكِ.

ابتسمت فبرزت أسنانها.

- حسنٌ، أنتِ لا تخيفينني حتّى. - قال.

- لأنّك لا تعرفني كثيرًا.

- كان أداؤكِ؟ يعجبني أكثر، حين كنتِ محتضرة يائسة.

- ستغفر لي إذن؟

- ما الذي يهمّكِ؟

- لا يطيب لي أن أفكّر أنّك بسببي تهب حياتك لإنقاذ الأشخاص كالملاك الحارس، كدانيال أو عائلته.

- أنا مستشارٌ ببليوغرافيّ لمكتبة سيمبيري وأبناؤه. أمّا الصفات الملائكيّة فأنتِ من يختلقها.

- ألستَ تعتقد بأنّك إذا أنقذت شخصًا جديرًا، فكأنّك أنقذت العالم كلّه، أو أن يبقى فيه شيءٌ من الطيبة على الأقلّ؟

- ومن قال لكِ إنّكِ شخصٌ جدير؟

- أتحدّث عن عائلة سيمبيري.

- وأنتِ يا عزيزتي أليثيا، ألستِ تفعلين الشيء ذاته في المحصّلة؟

- أنا لا أعتقد أنّ في هذا العالم أيَّ شيء يستحقّ الإنقاذ يا فيرمين.

- ليس صحيحًا. سوى أنّكِ تخشين أن تجدي في العالم شيئًا يستحقّ الإنقاذ.

- أو أنت على العكس.

خار فيرمين وغلّ يده في جيب السترة بحثًا عن السكاكر.

- من الأفضل ألّا تصيبنا المرارة. - ختم قائلًا - تابعي أنتِ بعدميّتكِ وأنا بسكاكر السوغوس.

- قيمتان راسختان.

- أينما كانتا.

- هيّا، أعطني قبلة الليلة السعيدة يا فيرمين.

- عدنا إلى موضوع القبلات!

- على الخدّ.

تردّد فيرمين لكنّه مدّ جذعه ولثم جبينها بشفتيه.

- والآن نامي أرجوكِ، أيها الشيطان المغوي.

أغمضت أليثيا عينيها وابتسمت.

- أودّك كثيرًا يا فيرمين.

عندما سمعته يبكي في صمت، مدّت يدها بحثًا عن يده، وهكذا ناما يدًا بيد على دفء شمعةٍ تنطفئ.

(10)

كان إسحاق مونفورت، حارس ذلك المكان، يأتيها مرّتين أو ثلاث في اليوم بإناء فيه كأس من الحليب وقطع من الخبز المحمّص مع الزبدة والمربّى وبعض الفواكه أو قطعة حلوى من فرن إسكريبا، من تلك التي يشتريها لنفسه يوم الأحد، إذ كانت لديه أذواق أخرى إضافة إلى الأدب والحياة الزاهدة، لا سيّما إذا احتوت على حبوب الصنوبر والقشطة. وبعد كثير من الإلحاح، صار إسحاق يأتيها بجرائد الأيّام السابقة، على الرغم من أنّ الطبيب سولديبيا لم ير الأمر بعين الارتياح. استطاعت أليثيا هكذا أن تقرأ كلّ ما نشرته الصحافة عن موت ماوريسيو ڤايس، وشعرت بدمائها تغلي من جديد. «هذا ما أنقذكِ، يا أليثيا» - فكّرت.

كان إسحاق رجلًا هزيل البنية، ذا ملامح جارحة لكنّه رقيق الطباع. وكان يشعر بنقطة ضعف تجاه أليثيا يحاول إخفاءها بمشقّة. يقول إنّها تذكّره بابنته الراحلة، نوريا. كان في جعبته دائمًا صورتان لها: تظهر في الأولى امرأة بملامح غامضة ونظرة حزينة؛ وفي الأخرى طفلة مبتسمة تعانق رجلًا عرفت أليثيا أنّه إسحاق حين كان شابًّا قبل عقود.

- رحلت من دون أن تعرف كم كنت أحبّها. - يقول.

وفي بعض الأحيان، عندما يأتيها بإناء الطعام، وتتمكّن أليثيا بالكاد من هضم لقمتين أو ثلاث، كان إسحاق يغطس في بئر الذكريات ويشرع في التحدّث عن نوريا وحسراته. وأليثيا تصغي إليه. كانت تعتقد أنّ العجوز لم يشارك آلامه مع أحد، وأنّ العناية الإلهيّة شاءت أن ترسل إليه تلك المرأة المجهولة، التي تشبه الشخص الأحَبَّ إلى قلبه، آنذاك وقد فات الأوان وما عاد بيده حيلة، بحيث يجد عزاءه في محاولة إنقاذها ومنحها الحنان الذي لم تكن تستحقّه. وكم مرّة أجهش العجوز بالبكاء وهو يتحدّث عن ابنته وقد هزمته الذكريات. كان ينصرف حينها ولا يعود أبدًا. فالألم الأصدق هو الذي نعيشه بمفردنا. وكانت أليثيا تبتهج في سرّها حين يحمل إسحاق حزنه العميق إلى إحدى الزوايا ليحترق فيه، لأنّ رؤية المسنّين يبكون تسبّب لها ألمًا لم تستطع تحمُّله يومًا.

كان الجميع يتناوبون على العناية بها ومؤانستها. يحلو لدانيال أن يقرأ لها صفحات من كتب يأتي بها من المتاهة، لاسيّما كتب مؤلّفٍ يدعى خوليان كاراكس، الذي كان يحظى لديه بأفضليّة مميّزة. وكانت أليثيا ترى كتابة كاراكس انسيابيّة كالموسيقى ولذيذة كحلوى الشوكولاتة. فاللحظات التي تقضيها في الإصغاء إلى الصفحات التي يقرأها عليها دانيال كانت تُعدُها بالضياع في غابة من الكلمات والصور التي لا تتمنّى أن تخرج منها أبدًا. وكانت الرواية المفضّلة لديها هي تلك الرواية القصيرة وعنوانها «لا أحد»، التي استطاعت أن تحفظ مقطعها الأخير عن ظهر قلب لتهمس به كلّما حاولت التصالح مع النعاس:

في الحرب أسّس ثروة، وفي الحبّ خسر كلّ شيء. كان مكتوبًا عليه أنّه لم يولد ليكون سعيدًا وأنّه لن يصل أبدًا لتذوُّق الثمار التي حملها ذلك الربيع المتأخّر إلى قلبه. عرف أنّه سيعيش بقيّة أيّامه في خريف العزلة الأبديّ، بلا رفيق أو ذكريات ما عدا الرغبة والندم. عرف أنّه إذا تساءل أحدهم

عمّن شيّد ذلك البيت وعاش فيه قبل أن يستحيل أطلالًا مسحورة، فإنّ الناس الذين عرفوه وكانوا على علمٍ بمجريات قصته الملعونة سيطأطئون رؤوسهم ويقولون بصوتٍ خافتٍ متوسّلين أن تضيع كلماتُهم في مهبّ الريح: لا أحد.

وسرعان ما اكتشفت أنّها لا تستطيع التحدّث بشأن خوليان كاراكس مع أحد، خصوصًا مع إسحاق. فلعائلة سيمبيري حكاية مع كاراكس. وقد رأت أليثيا أنّه من الأنسب عدم النبش في ظلال العائلة. إسحاق، تحديدًا، لم يكن يطيق سماع ذلك الاسم وإلّا تضرّج وجهه غضبًا لأنّ ابنته نوريا (بحسب ما روى دانيال) كانت مغرمة بكاراكس.

وكان العجوز يعتقد أنّ كلّ المآسي التي أصابت ابنته المسكينة واقتادتها إلى ميْتةٍ كارثيّة كانت بسبب كاراكاس. عُرِفَ حينذاك أنّ شخصًا غريب الأطوار حاول أن يحرق كلّ النسخ المتوافرة من كتبه، ولو أنّ الحارس لم يُقسِم على صون كلّ الكتب تنفيذًا لمهامه، فإنّ خوليان كان ليعوِّل على حماسته في التعاون على ذلك.

- من الأفضل عدم ذكر كاراكس مع إسحاق. - قال دانيال - بل من الأفضل عدم ذكره مع أحد.

وحدَها بيا من بين الجميع كانت تراها كما هي، بلا حاجز أو إحراج. كانت تحمّمها وتلبسها الثياب وتسرّح لها شعرها وتعطيها الأدوية وتأمرها بنظرة ناهية توطّد العلاقة بينهما دون حاجة إلى الكلام. كانت ستعتني بها وتساعدها على الشفاء بغية أن تخرج من حياتهم بأقرب وقت ممكن، وأن تختفي إلى الأبد قبل أن يتسنّى لها إيذاؤهم.

بيا هي المرأة التي تطمح أليثيا أن تكون مثلها، لكنّها كانت تدرك استحالة ذلك في كلّ يوم يمضي. بيا التي تتحدث قليلًا وتلح أقلّ، تفهمها أكثر من الجميع. لم تكن أليثيا معتادة على الميول إلى العناق والمجاملات، لكنّها شعرت غير مرّة بدافعٍ إلى معانقتها. وكانت تصدّ عن ذلك في آخر لحظة لحسن الحظّ. يكفيها أن تتقاطع نظراتهما لتعي أنّ الأمر ليس بعرض سينمائيّ لرواية «نساء صغيرات» وأنّ هنالك واجبًا كان على كليهما أن ينجزاه.

- أعتقد أنّكِ ستخلّصين مني بوقت قريب. - تقول أليثيا.

لكنّ بيا لا تأكل الطُّعم. لم تكن تشتكي إطلاقًا. ولم تكن تؤنّبها. كانت تغيّر ضماداتها بعنايةٍ فائقة، وتدهن الجرح القديم ببلسم طلبَ الطبيبُ سولديبيا إعداده من صيدلانيّة الموثوق، ليسكّن الألم دون أن يسمّم الدماء. وحين كانت تقوم بذلك، لم تكن تبدي تعاطفًا أو شفقة. فباستثناء لياندرو، كانت بيا هي الشخص الوحيد الذي لم تكتشف أليثيا في عينيه رعبًا أو جزعًا عندما يراها عاريه ويعاين الجروح التي هشّمت جزءًا من جسمها أثناء الحرب.

أمّا الموضوع الوحيد الذي يلتقيان فيه بطريقة سلميّة لا تشوبها ظلال الشكّ فكان الصغير خوليان. جرت دردشاتهما الطويلة والهادئة عادةً حين كانت بيا تغسلها بالصابونة وأباريق المياه الفاتر التي يعدّها إسحاق على فرن صغير في غرفةٍ يستخدمها كمطبخ ومكتب وغرفة نوم. كانت بيا تعشق ابنها الذي يتظاهر بأنّه كبير، وتتحدث عنه بمودّة لم تكن أليثيا قادرة على فهمها وكانت تعلم ذلك.

- قبل يومين أفهمنا أنّه عندمِا يكبر سيتزوّجكِ.

- أتخيّل أنّكِ كأمٍّ صالحة حذّرتِه من وجود فتيات شريرات لا يناسبنه أبدًا.

- ولا بدّ أنّكِ ملكتهنّ.

- هكذا قالت كلُّ حمواتي الافتراضيّات. ومعهنّ حقّ.

- في هذه الحالات، الحقّ أقلّ الأمور أهميّة. فأنا أعيش محاطة بالذكور وأعرف منذ زمن أنّ أغلبيّتهم الساحقة محصَّنون عن المنطق. الشيء الوحيد الذي يتعلّمون منه، وحتى في هذه الحالة لا يمكننا التعميم، هو قانون الجاذبيّة. لا يصحون إلّا عندما يسقطون ويتلقَّون الخبطة.

- هذه المقولة تبدو لي من صنع فيرمين.

- كلّ شيء يلتصق به، وأراه منذ أعوام طويلة يتفوّه بالجواهر النفيسة.

- وماذا يقول خوليان أيضًا؟

- آخر طرائفه أنّه يريد أن يصبح روائيًّا.

- سابق عصره.

- ليس لديكِ فكرة.

- هل سيكون لديكِ آخرون؟

- من الأبناء؟ لا أدري. يسرنّي ألّا يكبر خوليان وحيدًا. وأن تكون لديه شقيقة صغيرة...

- امرأة أخرى في العائلة.

- فيرمين يقول إنّ هذا يساعد على إذابة هرمون التستسترون الذي يبلِّد القبيلة. ما عدا هرموناته، التي برأيه لا تذوب حتى في زيت التربنتين.

- وما رأي دانيال؟

ظلّت بيا صامتة ثمّ رفعت كتفيها.

- دانيال يتحدّث أقلّ في كلّ يوم يمضي.

مرّت الأسابيع وأحسّت أليثيا بأنّها تستعيد قواها شيئًا فشيئًا. وكان الطبيب سولديبيا يزورها مرّتين في اليوم. لم يكن رجلًا كثير الكلام، وكان القليل من كلامه مكرّسًا للآخرين. وقد فاجأته أليثيا غير مرّة وهو ينظر إليها خلسة، لعلّه يتساءل مَن هذا المخلوق ولم يكن متأكدًا من أنّه يريد الحصول على إجابة.

- لديكِ جروح قديمة كثيرة. بعضها خطير. لا بدّ لكِ من التفكير جديًّا في تغيير عاداتكِ.

- لا تخش من أجلي أيّها الطبيب. لديّ حيواتٌ أكثر من قطّ.

- لست طبيبًا بيطريًّا، لكنّ النظرية تقول إنّ القطّ لديه سبع حيوات فقط، ويبدو لي أنّكِ تستنفدين مدّخراتكِ.

- حياة واحدة إضافيّة ستكفيني.

- حدسي يخبّرني بأنّكِ لن تكرّسيها لأعمال خيريّة.

- كلّ شيء يتعلّق بوجهات النظر.

- لا أعرف ما الذي يقلقني أكثر، عافيتكِ أم روحكِ.

- فضلًا عن كونك طبيبًا، فأنت قسّيسٌ أيضًا. حضرتك مرشَّحٌ ممتاز للزواج.

- في عمري تختلط الفوارق بين الطبّ والدين. لكنّي أعتقد أنّني شابٌّ كثيرًا للزواج بكِ. كيف حال الآلام؟ آلام الخاصرة، أقصد.

- البلسم يساعد.

- لكنّه ليس كالذي كنتِ تستعملينه في السابق.

- لا. - أقرّت أليثيا.

- إلى كم وصلتِ بالجرعات؟

- إلى أربعمئة ملليغرام. وأحيانًا أكثر.

- ربّاه! لا يمكنكِ أن تأخذي منها كثيرًا. تعلمين، أليس كذلك؟

- أعطني سببًا وجيهًا.

- اسألي كبدكِ، إن كنتما ما تزالان تتحادثان.

- إن منعتَ عني النبيذ الأبيض، بوسعي أن أدعوك لشرب كأس والتحدّث بهذا الشأن معه.

- أنتِ عنيدة جدًّا.

- نتّفق نحن الثلاثة على هذا.

كان الجميع، بنسبٍ متفاوتة، قد بدأوا بالتخطيط لجنازتها، لكنّ أليثيا كانت تعلم أنّها خرجت من المطهر، حتى لو بإذنٍ لنهاية الأسبوع فقط. كانت واثقة من ذلك لأنّها استعادت رؤيتها الظلاميّة للعالم وفقدت تقديرها للمشاهد العاطفيّة والحسّاسة التي اتّسمت بها الأيّام الأخيرة. عاد إليها المزاج العكر القديم ليصبغ الأشياء بطابعه، ومعه صعقات الألم عند الخاصرة التي تنخر عظامها لتذكّرها بأنّ دورها كغادة الكاميليا كان يوشك على الانتهاء.

استأنفت الأيّام إيقاعها الاعتياديّ، وباتت الساعات التي تمضي ببطء شديد موسومةً بالوقت الضائع. وكان فيرمين أكثر الحاضرين إبداءً لإحباطه منها، يبدِّل دوره من نوّاحةٍ مبتدئة إلى قارئ أفكار هاوٍ.

- أذكِّركِ بما يقوله الشاعر من أنّ الانتقام طبقٌ يؤكَل باردًا. - كان يقول وهو يلمح الأرواح الشريرة التي تهيِّجها.

- لا بدّ أنّه أخطأ بين الانتقام وحساء الثوم الأبيض، فعادةً ما كان الشعراء جياعًا ولا يفقهون شيئًا بفنّ الطبخ.

- قولي لي إنّكِ لا تفكِّرين في ارتكاب حماقة.

- لا أفكّر في ارتكاب حماقة.

- أريدكِ أن تؤكّدي لي ذلك.

- آتني بكاتب العدل كي نوثّق الأمر رسميًّا.

- لقد ضقت ذرعًا بما فيه الكفاية من دانيال وميوله الإجراميّة التي نزع إليها مؤخّرًا. هل من المعقول أن أجده يخبّئ مسدّسًا؟ يا أمَّ الربّ! لقد كان المخاط يسيل من أنفه منذ يومين، والآن أجده يخبّئ مسدّسًا كما لو أنّه من أزلام المنظمة الأناركيّة.

- ما الذي فعلته بالمسدّس؟ - سألته أليثيا بابتسامةٍ اقشعرّ منها بدن فيرمين.

- وماذا بوسعي أن أفعل؟ خبّأته من جديد. حيث لا أحد بإمكانه العثور عليه، واضح.

- هلّا أعطيته لي! - همست بنبرة مغوية.

- ولا كلمة في هذا الموضوع. بدأتُ أفهمكِ. لا يسرّني أن أعطيكِ حتى مسدّسًا مائيًّا لأنّكِ قادرة على ملئه بالأسيد الكبريتيّ.

- ليس لديك فكرة عمّا أنا قادرة على فعله. - أوجزت.

نظر إليها مرتاعًا.

- أتصوّر ذلك. المرأة التمساح.

وسّعت أليثيا ابتسامتها البريئة على وجهها ثانيةً.

- لا أنت ولا دانيال تعرفان استخدام السلاح. أعطني إيّاه قبل أن تتأذّيا.

- وهكذا تكونين أنتِ من يؤذي أحدًا آخر؟

- فلنقل إنّي أعدك بعدم إيذاء أحدٍ لا يستحقّ الأذى.

- آه، جيّد، إن كان ما تقولينه صحيحًا أعطيتكِ رشّاشًا وقذيفة مدفعيّة. هل في بالكِ عيار معيّن؟

- أنا جادّة في كلامي يا فيرمين.

- لهذا السبب تحديدًا. ما عليكِ فعله هو التماثل للشفاء.

- الشيء الوحيد الذي سيشفيني هو القيام بما عليّ فعله. وهذه هي الطريقة الوحيدة لضمان الأمان لجميعكم. تعلم ذلك.

- أليثيا، يؤسفني أن أقول لكِ بأنّني كلّما استمعتُ إلى أحاديثكِ قلّ إعجابي بنبرة كلامكِ ومضمونه.

- آتني بالسلاح. وإلّا تدبَّرتُ مسدّسًا بنفسي.

- لكي تموتي مرّة أخرى في التاكسي، وهذه المرّة ستموتين حقًّا؟

أم لكي أجدكِ مرميّة في أحد الأزقّة؟ أو في زنزانةٍ يبطش بكِ السفّاحون ويمزّقونكِ إربًا من باب التسلية؟

- أهذا ما يقلقك؟ أن يعذبوني أو يقتلوني؟

- نسيتُ قول ذلك. أجل. اسمعي، فليبقَ بيننا، ولا تحمليها بمحملٍ شخصيّ، لكنّي سئمتُ من ذهابكِ هنا وهناك لتموتي. كيف لي أن أنجب طفلًا لهذا العالم وأصبح والدًا صالحًا ما لم أكن قادرًا على إنقاذ أوّل طفل بتّ مسؤولًا عنه؟

- لم أعد طفلة ولست بمسؤول عني يا فيرمين. ثمّ إنّك أساسيٌّ في بقائي على قيد الحياة، وقد أنقذتني مرّتين.

- الثالثة ثابتة.

- لن تكون هناك ثالثة.

- ولن يكون هناك سلاح. أفكّر في تحطيمه اليوم قبل الغد.

سأفكّك قطعه وأنثرها عند ورشات الميناء، لعلّ الأسماك التي تطفو على السطح تأكلها، فهي تتغذّى على القذارات.

- لا يمكنك أن تمنع المحتوم يا فيرمين.

- بل إنّ هذا أحد اختصاصاتي. فضلًا عن الرقص المتعانق. انتهى النقاش. لا يهمّني إن نظرتِ إليّ بعينيكِ الشبيهتين بعينَي النمر، فأنتِ لا تخيفينني. لستُ فرنانديتو ولا أحد أولئك السُّذَّج الذين تحتالين عليهم بقوة الجوارب السوداء.

- أنت الوحيد الذي بإمكانه مساعدتي، فيرمين. الآن تحديدًا، فالدماء نفسها تسري في عروق كلينا.

- سيدوم هذا بقدر ما يدوم الخنزير في احتفالات القدّيس مارتينو.

- لا تكن هكذا. ساعدني على الخروج من برشلونة وأمِّنْ لي سلاحًا. سأتكفّل بما تبقّى. أنت تعرف جيّدًا أنّ هذا ما يناسبني. ولو كانت بيا هنا لقالت إنّي محقّة.

- اطلبي منها المسدّس إذن، سنرى ماذا تقول لكِ.

- بيا لا تثق بي.

- أوه، حقًّا.... وما السبب؟

- إنّنا نضيّع وقتًا ثمينًا يا فيرمين. ما قولك؟

- أقول اذهبي إلى الخراء، لا إلى الجحيم لأنّه مكانٌ تذهبين إليه بكلّ سرور.

- ليس من اللائق أن تتحدّث هكذا مع آنسة.

- أنتِ آنسة بقدر ما أنا لاعب كرة السلّة. اشربي رشفة وعودي إلى قبركِ للقضاء على الملل قبل اقتراف آثام أخرى.

عندما كان فيرمين يتعب من مناقشتها، كان يتركها وحيدة. فتأكل أليثيا شيئًا ما صحبة إسحاق، وتستمع إلى قصصه عن نوريا، وعندما يغادر الحارس تصبُّ لنفسها كأس نبيد أبيض (إذ اكتشفت قبل يومين المكان الذي يخبّئ فيه إسحاق القناني التي منعها عنها الطبيب) وتخرج من الغرفة. كانت تعبر الممر حتى الطاق الكبير، حيث تقف هناك في هالة الضوء الليليّ المتسرّب كالشلال من أعلى القبّة، وتتأمل أعجوبة متاهة الكتب.

ثمّ تستعين بالمصباح لتتوغّل في الممرّات والأنفاق. كانت تصعد الهيكل العملاق وهي تعرج، مرورًا بصالات لا على التعيين، وأقسامٍ وجسورٍ تفضي إلى قاعات مخبّأة تقطعها السلالم اللولبيّة أو المماشي المعلّقة التي تشكّل أقواسًا ودعائم. وعلى طول المسير، تتلمّس مئات آلاف الكتب التي تنتظر أن تلتقي بقارئها. وكانت أحيانًا تغفو على أحد كراسي الصالات التي تصادفها أثناء سيرها. وتسلك مسارًا مختلفًا كلّ يوم.

لمقبرة الكتب المنسية هندسةٌ مميّزة ويبدو من شبه المستحيل أن تمرّ بالمكان نفسه مرّتين. لقد تاهت فيها أكثر من مرّة، واستغرقت وقتًا للعودة إلى الطريق الصحيح الذي ينزل بها نحو المخرج. ذات ليلة، عندما كان نسيم الفجر يهمّ في الإنارة من الأعلى، ظهرت على تاج المتاهة فوجدت نفسها في المكان نفسه الذي هبطت فيه بعد أن سقطت من القبّة المحطّمة في تلك الليلة من القصف الجويّ عام 1938. أطلّت على الفراغ، فتراءى لها طيف إسحاق مونفورت الهزيل في أسفل المتاهة. وظلّ الحارس هناك إلى أن وصلت إليه.

- ظننت أنّي الوحيد الذي يعاني الأرق. - قال إسحاق.

- النوم يناسب الحالمين.

- حضَّرتُ مشروب البابونج، لأنّه يصالحني مع النعاس. هل تريدين فنجانًا؟

- إذا أضفنا إليه قطرةً من شيء ما.

- لم يتبقّ لديّ سوى قنّينه براندي قديم لا أجرؤ على استخدامه حتى من أجل تصريف الأنابيب.

- لا مشكلة بالنسبة إليّ.

- وماذا سيقول الطبيب سولديبيا؟

- كما يقول كلّ الأطبّاء: ما لا يسبّب الموت، يُسَمِّن.

- لا بأس إن سمنتِ قليلًا.

- الخطّة موضوعة في الأجندة.

تبعت الحارسَ إلى غرفته وجلست إلى الطاولة بينما كان يعدّ مشروب البابونج. وبعد أن تنشَّقَ قنّينة البراندي سكب منها قطرتين أو ثلاث في الفنجانين.

- لا بأس به. - قالت أليثيا وهي تتذوّق الكوكتيل.

شربا البابونج بصمت وسلام، كأنّهما صديقان قديمان لا حاجة لهما إلى الكلام للاستمتاع بالصحبة.

- مظهركِ يتحسّن. - قال إسحاق أخيرًا - أتصوّر أنّ هذا يعني أنّكِ ستتركيننا قريبًا.

- لا أصنع خيرًا لأحدٍ إذا بقيتُ هنا يا إسحاق.

- لا مشكلة بالمكان. - أكّد.

- لو لم تكن لديّ قضايا معلّقة، لما وجدتُ مكانًا آخر في العالم أفضل عندي من هذا.

- أنتِ مدعوّة للعودة متى أردتِ، حتى لو أنّ حدسي يقول لي إنّكِ حين تذهبين من هنا لن تعودي.

اكتفت أليثيا بالابتسام.

- ستحتاجين إلى ثياب جديدة وباقي ما تبقّى. يقول فيرمين إنّ بيته مراقَب، لذا لا أعتقد أنّه من الصائب أخذ أيّ شيء من هناك. هنا لديّ بعض أغراض نوريا وربّما تناسب مقاسكِ. - قال العجوز.

- لا أودّ أن...

- تشرّفينني إن تقبّلتِ أغراض ابنتي. وأعتقد أنّ ذلك سيسرُّ نوريا أيضًا. ثمّ إنّي أرى أنّ لكما المقاس نفسه.

اتجه إسحاق إلى خزانة وأخرج منها حقيبةً وجرَّها إلى الطاولة. فتحها فألقت أليثيا نظرة على ما بداخلها. ملابس، حذاء، كتب وأشياء أخرى أثّرت فيها حزنًا كبيرًا بمجرّد رؤيتها. مع أنّها لم تتعرّف على نوريا مونفورت على الإطلاق، فلقد بدأت تعتاد على حضورها الذي يسحر ذلك المكان، والإصغاء إلى والدها وهو يتحدّث عنها كما لو أنّها ما تزال بجانبه. اقتصرت أليثيا على هزّ رأسها، لم تجد أيّ كلامٍ بحقّ ما رأته من غرق حياة كاملة في حقيبة قديمة يحتفظ بها عجوز مسكين لإنقاذ ذكرى ابنته المتوفاة.

- الأغراض عالية الجودة. - قالت أليثيا، التي كانت عيناها ثاقبتين بما يخصّ الطرازات والأقمشة.

- كانت ابنتي تنفق كلّ ما لديها على الكتب والملابس. ولطالما قالت والدتها إنّها تبدو ممثّلة سينمائيّة. لو أنّكِ رأيتها. كانت تسرُّ كلَّ من يراها...

أزاحت أليثيا بعض الثياب الموجودة في الحقيبة ولاحظت وجود شيء يبرز من بين الطوايا. بدا أنّه تمثال أبيض صغير لا يتعدّى ارتفاعه عشرة سنتمترات. أخذته وتفحّصته تحت ضوء المصباح. كان من الجصّ الأبيض على شكل ملاكٍ بأجنحة منبسطة.

- لم أره منذ أعوام طويلة. لم أكن أعلم أنّ نوريا قد احتفظت به.

كان أحد ألعابها المفضّلة، منذ أن كانت طفلة. - فسَّر إسحاق - أذكر اليوم الذي اشتريناه فيه من معرض سانتا لوثيا، قرب الكاتدرائيّة.

كان جذع التمثال يبدو مثقوبًا ومفرَّغًا. مرّرت عليه أصابعها فانفتحت فيه نافذة صغيرة فرأت أليثيا ما بداخله: جوفٌ مخبّأ.

- كانت نوريا تحبّ ان تترك لي رسائل سريّه في قلب الملاك.

كانت تخبّئه في البيت وينبغي أن أجده. لعبةٌ كنّا نلعبها معًا.

- جميل جدًا. - قالت أليثيا.

- خذيه.

- لا، إطلاقًا...

- أرجوكِ. لقد مرّ وقتٌ طويل على هذا الملاك لم يسلِّم فيه رسائل. ستحسنين استخدامه.

وهكذا نامت أليثيا، للمرّة الأولى، وهي تحتضن ملاكًا حافظًا تسأله إن كان سيتسنّى لها الخروج من هناك قريبًا لتترك تلك الأرواح الصافية وتشرع في الرحلة التي تنتظرها: رحلة العودة إلى قلب الظلمات.

- لكنّك لن تستطيع مرافقتي إلى هناك. - همست في أذن الملاك.

(11)

كان لياندرو يصل على الموعد بدقّة، عند الثامنة والنصف من كلّ صباح. وينتظرها في الصالة أمام طاولة مفروشة بالفطور الجاهز ومزهريّة ملأى بالورود اليانعة دومًا. في حين تكون أريادنا ماتايكس قد استيقظت قبل ساعة. والمكلَّف بإيقاظها هو الطبيب، الذي بات يدخل غرفتها من دون استئذان أو طرق على الباب. تصحبه ممرّضةٌ لم تسمع أريادنا صوتَها على الإطلاق. الأمر الأوّل هو حقنة الصباح، التي تسمح لها بفتح عينيها لتتذكّر أين تكون. ثمّ تنهضها الممرّضة، تنزع لها ملابسها، وتأخذها إلى الحمّام وتبقيها تحت الدوش عشر دقائق. ثمّ تُلبِسُها ثيابًا كانت تذكرها أو تظنّ أنّها اشترتها في إحدى المناسبات. وفي كلّ يوم تختار لها ثوبًا جديدًا. وفيما يقيس الطبيب ضغط معصمها، تسرِّح الممرّضة لها شعرها وتزيّنها، لأنّ لياندرو يحبّ أن يراها جميلة ذات مظهر لائق. وعندما تجلس إلى الطاولة معه، يعود العالم إلى مكانه.

- هل كانت ليلتكِ هانئة؟

- ما الذي ترغمونني على تعاطيه؟

- مسكِّن خفيف، سبق أن أخبرتكِ. إن شئتِ، بوسعي أن أقول للطبيب أن يتوقّف عن هذا العلاج.

- كلا. كلا. أرجوك.

- كما تشائين. هل تودّين تناول شيء ما؟

- لست جائعة.

- عصير برتقال على الأقلّ.

كانت أريادنا أحيانًا تتقيّأ الطعام أو يجتاحها غثيانٌ عميق يُفقِدَها وعيها لتسقط عن الكرسيّ. وكلّما وقع ذلك، رنّ لياندرو الجرس ليصل أحدهم في غضون ثوانٍ فيرفعها عن الأرض ويعيدها إلى الكرسيّ. وفي تلك الحالات، كان الطبيب قد اعتاد أن يعطيها حقنة تقتادها إلى حالة هدوء جليديٍّ ترغب فيها لدرجة أنّها تتظاهر بالإغماء كي تحصل على جرعة أخرى. لم تعد قادرة على عدّ الأيّام التي وجدت نفسها فيها هناك. لا حيلة لها لقياس الزمن إلّا بالفاصل بين حقنة وأخرى، بلسم النعاس الخالي من الوعي واليقظة. فقدت وزنها وصارت الثياب فضفاضة عليها. وعندما تنظر إلى نفسها في مرآة الحمّام تتساءل من هذه المرأة يا تُرى. كانت ترغب على الدوام أن ينهي لياندرو جلسة اليوم ويعود الطبيب بحقيبته الصغيرة السحريّة وجرعات النسيان. فتلك اللحظات التي تشعر فيها بتوقُّد الدماء حتى انعدام الوعي كانت أكثر اللحظات شبهًا بالسعادة التي تذكّر أنّها جرّبتها في حياتها كلّها.

- كيف تشعرين هذا الصباح يا أريادنا؟

- بخير.

- فكّرتُ أنّنا اليوم قد نتحدّث عن الأشهر التي اختفيتِ فيها، إن كان يروق لكِ.

- لقد تحدّثنا عنها قبل أمس. وما قبله أيضًا.

- أجل ولكنّي أرى أنّنا نحصل على تفاصيل جديدة في كلّ مرّة.

هكذا هي الذاكرة. يحلو لها أن تخدعنا.

- ما الذي تريد أن تعرفه؟

- يسعدني أن نعود إلى اليوم الذي هربتِ فيه من البيت. أتذكرين؟

- إنّي متعبة.

- اصمدي قليلًا. سيأتي الطبيب باكرًا وسيعطيكِ منشّطًا لتشعري بأنّكِ أفضل حالًا.

- ألا يمكنه أن يأتي الآن؟

- نتحدّث أوّلًا، ثمّ تحصلين على دوائكِ.

أومأت أريادنا. كان المنوال يتكرّر كلّ يوم. لم تعد تذكر ما الذي روته من عدمه. لا فرق. إذ لم يعد هناك معنى لإخفاء أيّ شيء عليه. لقد بات الجميع في عداد الموتى. ولن تتمكّن من الخروج من هناك أبدًا.

- كان ذلك قبل عيد ميلادي بيوم. - بدأت - نظّمت عائلة يوباش حفلة من أجلي. دُعيَت إليها رفيقاتي في المدرسة كلّهنّ.

- صديقاتكِ؟

- لم يكُنَّ صديقاتي. إنّما صحبة مأجورة، مثلما كان كلّ شيء في ذلك البيت.

- وهل قرّرتِ في ذلك المساء أن تهربي؟

- أجل.

- لكنَّ أحدًا ما ساعدكِ، أليس كذلك؟

- أجل.

- فلنتحدّث عن هذا الرجل. دافيد مارتين، صحيح؟

- دافيد.

- كيف عرفتِه؟

- كان صديقًا لوالدي. وكانا يعملان معًا.

- هل ألّفا كتابًا معًا؟

- مسلسلات إذاعيّة. ألّفا مسلسلًا بعنوان «أوركيديا الجليد». حكاية ملغّزة تدور أحداثها في برشلونة القرن التاسع عشر. لم يسمح لي والدي بالاستماع إليها، كان يقول إنّها لا تناسب

الأطفال، لكنّي كنت أذهب خلسة إلى المذياع الذي في صالة البيت في بايبذريرا وأستمع إليها بصوتٍ خفيض جدًّا.

- وفقًا لمعلوماتي، فإنّ دافيد مارتين دخل السجن عام 1939، ألقي القبض عليه حين كان يحاول اجتياز الحدود للعودة إلى برشلونة في نهاية الحرب. قضى فترة من الزمن سجينًا في قلعة مونتويك، حيث كان والدكِ أيضًا، ثمّ أُعلِنَ عن وفاته حوالي نهاية العام 1941. أنتِ تحدّثينني عن العام 1948، أي بعد سنوات. هل أنتِ واثقة من أنّه هو الذي ساعدكِ على الهرب؟

- هو بعينه.

- ألا يمكن أن يكون رجلًا آخر قد انتحل هويّته؟ فأنتِ في نهاية المطاف لم تريه منذ أعوام بعيدة.

- هو بعينه.

- حسنًا. كيف حدث أن التقيتما من جديد؟

- كانت مربّيتي السيّدة مانويلا تأخذني كلّ يوم سبت إلى منتزه ريتيرو. في قصر الكريستال، الذي كان مكاني المفضّل.

- والمفضّل لديّ أيضًا. هل التقيتِ بمارتين هناك؟

- أجل. رأيته عدّة مرّات. من مسافة بعيدة.

- هل تعتقدين أنّها محض صدفة؟

- لا.

- متى تحدّثتِ إليه أوّلَ مرّة؟

- كانت السيّدة مانويلا تحمل دومًا في حقيبتها قنّينة يانسون.

وغالبًا ما كانت تغفو.

- فاقترب دافيد إذن؟

- أجل.

- وماذا كان يقول لكِ؟

- لا أذكر.

- أعرف أنّها صعبة يا أريادنا. ولكن، ابذلي جهدًا.

- أريد الدواء.

- قولي لي أوّلًا عمّا كان مارتين يحدّثكِ.

- كان يحدّثني عن والدي. عن الفترة التي قضياها في السجن معًا. حدّثه والدي عنّا. عمّا وقع لنا. أظنّ أنّهما تعاهدا. من يخرج من السجن أوّلًا يساعد عائلة الآخر.

- لكنّ دافيد مارتين كان بلا عائلة.

- كان لديه شخصٌ يودّه كثيرًا.

- هل أخبركِ كيف استطاع الهرب من القلعة؟

- أوعز ڤايس إلى اثنين من رجاله لاقتياده إلى فيلا قرب منتزه غويل لقتله. كانوا يقتلون الناس هناك ويدفنونهم في الحديقة.

- وما الذي حدث؟

- قال دافيد إنّ في ذلك البيت رجلًا ساعده على الهرب.

- متواطئ؟

- كان يسمّيه ربّ العمل.

- ربّ العمل؟

- له اسم أجنبيّ. إيطاليّ. أذكره لأنّه على اسم مؤلف موسيقيّ شهير كان والداي يحبّان مقطوعاته كثيرًا.

- أتذكرينه؟

- كوريلي. كان يدعى أندرياس كوريلي.

- هذا الاسم لا يظهر في أيٍّ من تقاريري.

- لأنّه ليس موجودًا.

- لا أفهمكِ.

- دافيد لم يكن على ما يرام. كان يتخيّل أشياء. وأشخاصًا.

- هل تقصدين أنّ دافيد مارتين كان يتخيّل أندرياس كوريلي هذا؟

- أجل.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- لأنّي أعرف ذلك. دافيد فقد رشده، أو ما تبقّى من رشده، في السجن. كان مريضًا للغاية ولم يكن يعي ذلك.

- تحيلين عليه دائمًا باسمه، دافيد.

- كنّا صديقين.

- عشيقين؟

- صديقين.

- ماذا قال لكِ يومها؟

- قال إنّه يحاول الوصول إلى ماوريسيو ڤايس منذ ثلاثة أعوام.

- لينتقم منه؟

- لقد قتل ڤايس الشخص الذي أحبَّه كثيرًا.

- إيزابيلا.

- أجل، إيزابيلا.

- هل قال لكِ كيف قتلها ڤايس حسب اعتقاده؟

- سمّمها.

- وما الذي دفعه للبحث عنكِ؟

- ليصون العهد الذي قطعه لوالدي.

- فقط؟

- ولأنّه كان يظنّ أنّني إذا سهّلتُ له دخول بيت والديّ، لا بدّ أنّ ڤايس سيأتي إلينا عاجلًا أم آجلًا، وهكذا يتسنّى له قتله. كان ڤايس غالبًا ما يأتي لزيارة يوباش. تجمعهما بعض الأعمال. أسهم البنك. وإلّا من المستحيل الوصول إلى ڤايس، لأنّه كان محاطًا بالمرافقة أو الحماية على مدار الساعة.

- لكنّ ذلك لم يحدث.

- لا.

- لماذا؟

- لأنّي قلت له إنّه لو حاول فعلها لقتلوه.

- لا بدّ أنّه تصوَّر هذا مسبقًا. هناك سبب آخر.

- سبب آخر؟

- سبب آخر قلتِه له جعله يغيّر الخطّة.

- أحتاج إلى الدواء. أرجوك.

- قولي لي ما الذي قلتِه لدافيد مارتين ما جعله يغيّر فكرته، ولماذا تخلّى عن خطّة الانتقام من ڤايس التي حملته للمجيء إلى مدريد، ولماذا قرّر أن يساعدكِ على الهرب.

- أرجوك...

- تحمّلي قليلًا يا أريادنا. سنعطيكِ دواءكِ وستستريحين.

- قلت له الحقيقة. أنّني كنت حاملًا.

- لم أفهم. حامل؟ ممّن؟

- من يوباش.

- من والدكِ؟

- لم يكن والدي.

- ميغيل أنخل يوباش، المصرفيّ. الرجل الذي تبنّاكِ.

- الرجل الذي اشتراني.

- كيف حدث ذلك؟

- كان يأتي إلى غرفتي في كثيرٍ من الليالي، ثملًا. يقول لي إنّ زوجته لا تحبّه، وإنّ لديها عشّاقًا، وإنّه ما عاد يربطه بها أيّ شيء. كان يبدأ بالبكاء. ثمّ يغتصبني. وحين يتعب يلقي باللائمة عليّ، ويقول إنّي كنت أغويه، لأنّني عاهرة مثل والدتي. كان يضربني ويحذّرني إذا تفوّهتُ بشيء ممّا حدث لأيّ شخص كان سيقتل شقيقتي، لأنّه كان يعرف أين تكون وبإمكانه أن يدفنها حيّة بمكالمة هاتفية واحدة.

- وماذا فعل دافيد مارتين حين أخبرتِه بذلك؟

- سرق سيّارة وأخذني بعيدًا. أنا في حاجة إلى الدواء، أرجوك...

- بالتأكيد. فورًا. شكرًا يا أريادنا. شكرًا على صراحتكِ.

(12)

- في أيّ يومٍ نحن؟

- الثلاثاء.

- البارحة أيضًا كان ثلاثاء.

- ثلاثاء جديد. حدّثيني عن هربكِ مع دافيد مارتين.

- كانت لدى دافيد سيّارة. سرقها وأخفاها في مرأب في كارابانشيل. وفي ذلك اليوم قال لي إنّه سيأخذني من أحد مداخل المنتزه عند منتصف نهار السبت اللاحق. ما إن تغفو السيّدة مانويلا، عليَّ أن أركض لألاقيه عند المدخل المواجه لباب ألكالا.

- وهل حدث ذلك؟

- ركبنا السيّارة واختبأنا في المرأب حتى المساء.

- الشرطة اتّهمت مربّيتكِ بالتواطؤ في الخطف. استجوبوها مدّة ثمانٍ وأربعين ساعة ثمّ عُثِرَ عليها عند جانب شارعٍ بورغوس. هشّموا ساقيها وأطلقوا النار على رقبتها.

- لا تأملْ منّي أن أتألّم.

- هل كانت تعلم أنّ يوباش يعتدي عليكِ؟

- كانت الوحيدة التي رويتُ لها ما حدث.

- وماذا قالت لكِ؟

- قالت إنّه ينبغي لي السكوت التامّ. وإنّ الرجال المهمّين لديهم احتياجاتهم وإنّي مع مرور الأيّام سأدرك كم كان يوباش يحبّني.

- وماذا حدث في ذلك المساء؟

- دافيد وأنا ركبنا السيّارة وقضينا الليل على الطريق.

- أين كنتما متّجهين؟

- سافرنا مدّة يومين. كنا ننتظر حلول الظلام لكي نتوغّل في طرقات الضواحي أو دروب الريف. كان دافيد يجعلني أستلقي على المقعد الخلفيّ، ويغطّيني لئلا يروني حين نتوقّف في محطّات الاستراحة. وكنت أغفو أحيانًا وعندما أستيقظ أسمعه يتحدّث كما لو أنّ هناك مَن يجلس على المقعد الأماميّ بجانبه.

- مع كوريلي؟

- أجل.

- ألم تتخوّفي من الأمر؟

- كنت أشفق عليه.

- إلى أين أخذكِ؟

- إلى مكانٍ عند جبال البيريني حيث كان قد اختبأ بضعة أيّام عندما عاد إلى إسبانيا في نهاية الحرب. بولبير. قريبٌ جدًّا من بلدة تدعى بويغثريدا، على الحدود مع فرنسا تقريبًا. هناك حيث يوجد بيت كبير مهجور استُخدِمَ كمستشفى أثناء الحرب. برج ريمي، أعتقد أنّه يسمّى كذلك. قضينا فيه عدّة أسابيع.

- هل أخبركِ لماذا ذهب بكِ إلى هناك؟

- قال إنّه مكانٌ آمن. وكان لديه صديق قديم من هناك التقى به أثناء عبوره الحدود. كاتبٌ محليّ ساعدنا على توفير الغذاء والثياب، ألفونس بروسيل. لولاه لمتنا بردًا وجوعًا.

- لا بدّ أنّه اختار المكان لأسباب أخرى.

- كانت تلك البلدة تحمل ذكريات كثيرة بالنسبة إليه. لم يحدّثني عمّا حدث له فيها، لكنّي أعرف أنّ لها معنًى خاصًّا في قلبه. دافيد كان يعيش في الماضي. وعندما حانت أتعس لحظات الشتاء، نصحنا ألفونس بالمغادرة وأعطانا بعض النقود لمتابعة الرحلة. إذ بدأ أهالي البلدة يتهامسون في أمرنا. وكان دافيد يعرف مكانًا على الشاطئ حيث كان لواحدٍ من أصدقائه القدامى، الثريّ بيدرو ڤيدال، بيتٌ قد يكون مخبأ جيّدًا، حتى قدوم الصيف على الأقلّ. دافيد كان يعرف البيت جيّدًا. أعتقد أنّه نزل فيه سابقًا.

- في البلدة حيث عثروا عليكِ بعد أشهر؟ سان فيليو دي غويشولس؟

- كان البيت على بعد كيلومترين عن البلدة، في منطقة تدعى ساغارو، بجانب خليج سانت يول.

- أعرفها.

- كان البيت قائمًا بين الصخور الشاطئيّه، في مكانٍ يسمّونه «ممشى الدائرة». لا وجود لأحدٍ فيه خلال الشتاء. يشبه الحيّ السكنيّ لبيوتٍ صيفيّة كبيرة، من أملاك العوائل الثريّة في برشلونة وخيرونا.

- هل قضيتما الشتاء فيه؟

- أجل. حتى أقبل الربيع.

- كنتِ وحيدةً عندما عثروا عليكِ. لم يكن مارتين معكِ. فما الذي حلّ به؟

- لا أودّ التحدث بالأمر.

- هل تريدين استراحة قصيرة؟ بإمكاني أن أخبر الطبيب ليأتيكِ بشيء ما.

- أريد أن أخرج من هنا.

- سبق أن تحدّثنا بالأمر يا أريادنا. أنتِ هنا في مأمن. محميّة.

- من حضرتك؟

- أنا لياندرو. تعلمين ذلك. صديقكِ.

- ليس لديّ أصدقاء.

- أعصابكِ مشدودة. أرى من الأفضل أن نتوقّف اليوم عند هذا الحدّ. استريحي. سأقول للطبيب أن يأتي حالًا.

كان يوم ثلاثاء أيضًا، في الجناح في فندق بالاس.

- تبدين بخير هذا الصباح يا أريادنا.

- رأسي يؤلمني جدًّا.

- بسبب الطقس. ينخفض الضغط. يحدث لي الأمر ذاته. خذي هذا وسيختفي الصداع.

- ما هذا؟

- أسبيرين. لا أكثر. بالمناسبة، لقد تحقّقنا ممّا رويتِه لي عن منزل ساغارو. كان بالفعل من أملاك الدون بيدرو بيدال، أحد أفراد أهمّ الأُسَر في برشلونة. ووفقًا لما اطّلعنا عليه، كان السيّد بمثابة المرشد لدافيد مارتين. يقول ملفّ الشرطة إنّ دافيد مارتين قتله في بيته في بيدرالببس عام 1930 لأنّ بيدال تزوّج المرأة التي كان مارتين يحبّها، تدعى كريستينا.

- هذا كذب. بيدال انتحر.

- أهذا ما رواه لكِ دافيد مارتين؟ يبدو أنّه في الحقيقة رجلٌ انتقاميٌّ إلى حدٍّ كبير. ڤايس، بيدال... الناس يرتكبون أفعالًا جنونيّة بدافع الغيرة.

- دافيد كان يحبّ إيزابيلا.

- هذا ما رويتِه لي. لكنّه لا يتطابق مع الوثائق. ما الذي كان يجمعه بإيزابيلا؟

- كانت متدرّبة عنده.

- لم أكن أعلم أنّ الروائيّين لديهم متدرّبون.

- إيزابيلا كانت عنيدة جدًّا.

- أهذا ما أخبركِ به مارتين؟

- كان يتحدّث عنها كثيرًا. ذكراها تبقيه على قيد الحياة.

- لكنّ إيزابيلا توفّيت قبل عشرة أعوام تقريبًا منذئذ.

- كان ينسى أمرها أحيانًا. وهذا ما أعاده إلى هناك.

- إلى منزل ساغارو؟

- لقد قضى دافيد بعض الوقت هناك. معها.

- أتعلمين متى حدث ذلك؟

- قبل الحرب تمامًا. قبل أن يضطر للهروب إلى فرنسا.

- ألهذا السبب عاد إلى إسبانيا رغم علمه بأنّه مطلوب؟ من أجل إيزابيلا؟

- أعتقد ذلك.

- حدثيني عن فترتكما هناك. ماذا كنتما تفعلان؟

- كان دافيد مريضًا للغاية. عندما وصلنا إلى ذلك البيت، كان يميّز بمشقّة بين الواقع وما يتوهّم أنّه يراه ويسمعه. فالبيت بالنسبة إليه مليء بالذكريات. أظنّ أنّه عاد إلى هناك تحديدًا لكي يموت.

- دافيد مارتين ميّتٌ إذن؟

- ماذا تعتقد حضرتك؟

- أخبريني الحقيقة. ماذا فعلتِ خلال تلك الأشهر؟

- اعتنيتُ به.

- كنت أظنّ أنّه هو الذي عليه أن يعتني بكِ.

- لم يكن قادرًا حينها على الاعتناء بأحد، ولا بنفسه حتى.

- أريادنا، هل أنتِ من قتل دافيد مارتين؟

(13)

- تدهورت حالة دافيد بعد أقلّ من شهر من وصولنا. كنت خارجة لشراء ما نأكله. بعض الفلاحين كانوا يأتون يوميًّا بعرباتهم إلى مكان قريب من الشاطئ، حانة البحر. وكان دافيد في البدء هو الذي يذهب إلى هناك، أو يتجه إلى البلدة بحثًا عن الغذاء، لكنّه لم يعد قادرًا على الخروج من البيت. كان يعاني من صداع رهيب في الرأس، والحمّى والغثيان... تكاد لا تمرّ ليلة إلا وتجوّل في أنحاء المنزل وهو يهذي. كان يتوهّم أن كوريلي جاء يبحث عنه.

- هل رأيتِ كوريلي يومًا؟

- كوريلي ليس له وجود. كان عباره عن شبحٍ لا يعيش إلّا في مخيّلة دافيد.

- وكيف تكونين متأكدة من ذلك؟

- كان آل بيدال قد شيّدوا رصيفًا خشبيًّا صغيرًا يتوغّل في البحر من المرسى الموجود تحت البيت. وكان دافيد غالبًا ما ينزل إلى هناك ويجلس عند رأس الرصيف، يرنو إلى البحر. وهناك يجري محادثاته المتخيّلة مع كوريلي. كنت أنزل إلى المرسى بعض الأحيان وأجلس بقربه. لم يكن دافيد ينتبه لوجودي. أسمعه يتحدث مع كوريلي، كما كان يفعل في السيّارة عندما هربنا من مدريد. ثمّ يصحو من نشوته ويبتسم لي. ذات يوم، بدأت السماء تمطر، وحين أمسكت بيده للعودة به إلى البيت عانقني باكيًا وناداني إيزابيلا. واعتبارًا من تلك اللحظة لم يعد يعرفني، وعاش آخر شهرين من عمره متيقّنًا من أنّه يسكن مع إيزابيلا.

- لا بدّ أنّكِ قاسيتِ كثيرًا.

- لا. فالأشهر التي قضيتها بالاعتناء به كانت أسعد أيّام حياتي، وأتعسها.

- وكيف مات دافيد مارتين، يا أريادنا؟

- في إحدى الليالي سألته عن كوريلي، لأنّني كنت خائفة جدًا. فقال لي إنّ كوريلي روحٌ سوداء. أستخدم كلماته. لقد اتّفق معه دافيد على تأليف كتاب بناءً على طلبه، لكنّه نكث الاتفاق ومزّق الكتاب قبل أن يصل إلى يدي كوريلي.

- ما نوع الكتاب؟

- لا أعلم جيّدًا. ما يشبه النصّ الدينيّ. أو شيء كهذا. كان دافيد يسمّيه «النور الأبديّ».

- فظنَّ دافيد أنّ كوريلي يريد الانتقام منه؟

- تمامًا.

- كيف يا أريادنا؟

- ما همّك أنت؟ ليس للأمر أيّ شأن بڤايس ولا بأيّ شيء آخر.

- كل الأشياء مترابطة يا أريادنا. ساعديني، أرجوكِ.

- كان دافيد مقتنعًا بأنّ الجنين الذي في رحمي شخصٌ عرفه في السابق وأضاعه.

- هل قال مَن؟

- كان يسمّيها كريستينا. لم يكن يتحدّث عنها. لكنّه إذا فعلها تشنَّجَ صوتُه من الحسرة والشعور بالذنب.

- كريستينا كانت زوجة بيدرو بيدال. والشرطة اتّهمته بوفاتها أيضًا. تأكّدوا أنّه أغرقها في بحيرة بويغثيردا، قريبًا جدًّا من البيت الريفيّ عند جبال البيريني حيث اصطحبكِ.

- كذب.

- ربّما. ولكنّكِ تقولين إنّه كلّما تحدّث عنها أبدى شعورًا بالذنب...

- دافيد كان رجلًا طيّبًا.

- لكنّكِ بعظمة لسانكِ قلتِ لي إنّه فقد رشده كليًّا، وإنّه كان يتخيّل أشياء وأشخاصًا ليس لهم وجود، وإنّه كان يظنّكِ المتدرّبة سابقًا، إيزابيلا التي توفّيت عشرة أعوام قبل ذلك... ألم ينتابكِ الخوف على حياتكِ؟ على حياة طفلكِ؟

- لا.

- لا تقولي لي إنّكِ لم تفكّري البتّة في تركه في ذلك البيت والفرار بجلدكِ.

- لا.

- موافق. فماذا حدث بعد ذلك إذن؟

(14)

- حدث ذلك في أواخر مارس، على ما أعتقد. تحسّن وضع دافيد نسبيًّا قبل أيّام. إذ وجد قاربًا خشبيًّا في عنبر مسقوف عند أسفل صخور الشاطئ، وكان في كلّ صباح تقريبًا يخرج باكرًا ليجدِّف ويتوغّل في البحر. مضى على حملي سبعة أشهر وكنت أقضي الأيّام بالقراءة.

كان البيت عبارة عن مكتبة ضخمة، تحتوي على نسخٍ من معظم روايات الكاتب المفضّل لدى دافيد، روائيّ لم أسمع باسمه سابقًا، خوليان كاراكس. كنّا في وقت المغيب نشعل المدفأة في الصالون وأقرأ على مسمعه بصوت عال. قرأنا جميع رواياته. وقد قضينا آخر أسبوعين في قراءة رواية كاراكس الأخيرة «ظلّ الريح».

- لا أعرفها.

- يكاد لا يعرفها أحد. يعتقدون أنّهم قرأوها لكنّ هذا غير صحيح. ذات ليلة، أنهينا قراءة الكتاب في ساعة متأخرة. ذهبتُ للنوم وبعد ساعتين شعرت بالتشنّجات الأولى.

- ما زال هناك شهران...

- بدأت حينها أشعر بألم رهيب، كما لو أنّني أتلقّى طعنات في البطن. اجتاحني الهلع. ندهتُ دافيد بصيحات فزعة. وعندما أزاح الأغطية ليحملني بين ذراعيه ويأخذني إلى الطبيب، وجدها مبلّلة بالدماء.

- يؤسفني ذلك.

- يوسف الجميع.

- هل وصلتما إلى الطبيب؟

- لا.

- والطفل؟

- كانت طفلة. وقد ولدت ميّتة.

- يؤسفني جدًّا يا أريادنا. ربّما من الأفضل أن نتوقّف الآن ونتّصل بالطبيب ليعطيكِ شيئًا ما.

- لا. لا أريد التوقّف الآن.

- موافق. ما الذي حدث إذن؟

- دافيد...

- بهدوء، خذي وقتكِ بالكلام.

- دافيد أخذ الجثّة بين ذراعيه وراح يصرخ مثل حيوان جريح. كان جلد الطفلة ضاربًا إلى الزرقة حتّى بدت دميةً محطّمة. حاولت النهوض ومعانقتهما، لكنّي كنت ضعيفة جدًّا. وعند الفجر،

حينما أشرق الأفق، أخذ دافيد الطفلة ونظر إليّ للمرّة الأخيرة وطلب مني المعذرة. ثمّ خرج. جرجرت نفسي إلى النافذة. رأيته ينزل العتبات بين الصخور إلى المرسى. كان القارب مربوطًا من طرفه. صعد عليه وقد لفّ جسد الطفلة بقطعة قماش بالية، وراح يجدِّف باتجاه البحر المفتوح، وما انفكّ ينظر نحوي. رفعت يدي، أملًا أن يراني ويعود. لكنّه ما لبث يجدِّف إلى أن توقّف على بعد مئة متر عن الشاطئ تقريبًا. كانت الشمس تصعد فوق البحر الذي بدا بحيرةً من نار. رأيت طيف دافيد ينهض ويحمل شيئًا من قاع القارب. وجعل يضرب العارضة مرارًا. ولم تكد تمرّ خمس دقائق إلّا وغرق المركب. ظلّ دافيد متسمّرًا هناك بلا حراك، والطفلة بين ذراعيه، وما فتئ ينظر صوبي إلى أن ابتلعهما البحر إلى الأبد.

- وماذا فعلتِ حينذاك؟

- كنتُ قد نزفت دمًا كثيرًا فاستبدّ بي الضعف. قضيتُ يومين أعاني الحمّى، موقنة بأنّ كلّ ما رأيته مجرد كابوس وأنّ دافيد سيدخل من ذلك الباب بين لحظه وأخرى. ومع الوقت، عندما بتّ قادره على النهوض والمشي، بدأت أتردّد إلى الشاطئ كلّ يوم. وأنتظر.

- تنتظرين ماذا؟

- أن يعودا. لربّما تظنّ حضرتك أنّني كنت مجنونة مثل دافيد.

- إطلاقًا. لا أفكّر في هذا.

- انتبه الفلاحون الذي يأتون بعرباتهم إلى هناك كلّ يوم، انتبهوا إلى الوضع واقتربوا يسألونني إن كنت بخير وأعطوني بعض الطعام. قالوا لي إنّ وجهي مصفرّ بشكل خطير وتطوّعوا لنقلي إلى مستشفى سان فيليو. ولا بدّ أنّ الحرس المدنيّ علم بالأمر عن طريقهم. عثرت عليَّ إحدى وحداتهم بينما كنت نائمة عند الشاطئ وحملوني إلى المستشفى. كنت أعاني من انخفاض شديد بدرجة الحرارة، وأعراض التهاب القصبات والنزيف الداخليّ. ولو لم أدخل المستشفى لكنت سأموت في أقلّ من اثنتي عشرة ساعة. لم أقل لهم من أكون، لكنّهم اكتشفوا ذلك بسهولة. فكانت الأوامر بالبحث عني، مرفقة بصورتي، قد وصلت إلى كلّ مخافر البلد وثكناته. أنزلوني في المستشفى وبقيت فيها مدّة أسبوعين.

- هل جاء والداكِ لزيارتكِ؟

- ليسا بوالديَّ.

- أقصد يوباش وزوجته.

- لا. عندما خرجت من المستشفى، جاء شرطيّان وسيارة إسعاف وعادوا بي إلى قصر يوباش في مدريد.

- وماذا قال يوباش وزوجته عندما رأوكِ؟

- السيّدة، لأنّها كانت تحبّ أن أناديها هكذا، بصقت في وجهي ونعتتني بالعاهرة الخرائيّة، عديمة الامتنان. يوباش استدعاني إلى مكتبه. وطوال كلّ الوقت الذي قضيته هناك، لم يتكلّف برفع عينيه عن المكتب. قال إنّه يفكر في تسجيلي بمدرسة داخليّة قرب الإسكوريال وستتسنّى لي

العودة إلى البيت في أيّام أعياد الميلادّ شرط أنّ أتصرّف بسلوكٍ حسن. وفي اليوم التالي اقتادني إلى هناك.

- وكم من الوقت بقيتِ فيها؟

- ثلاثة أسابيع.

- فترة قصيرة، ما السبب؟

- اكتشفت إدارة المدرسة أنّي رويتُ ما حدث لإحدى رفيقاتي في السكن، آنا ماريّا.

- ماذا رويتِ لها؟

- كلّ شيء.

- بما فيها قصة اختطاف الأطفال؟

- كلّ شيء.

- وهل صدَّقتكِ؟

- أجل. فلقد حدث لها شيء من هذا القبيل أيضًا. كلّ الفتيات في المدرسة تقريبًا لهنَّ قصة مشابهة.

- وماذا حدث بعدها؟

- وجدوها مشنوقة في عليّة المدرسة بعد أيّام. كان عمرها ستّة عشر عامًا.

- انتحار؟

- ماذا تعتقد حضرتك؟

- وما الذي فعلوه بكِ؟

- أعادوني إلى بيت يوباش.

- و؟

- وضربني يوباش وحبسني في غرفتي. وهدّدني إن لفّقتُ أكاذيبَ جديدة بحقّه فكان سيحبسني في مستشفى المجانين بقيّة عمري.

- وماذا قلتِ له؟

- لا شيء. في تلك الليلة نفسها، وبينما كانوا نيامًا، ملصتُ من غرفتي وقفلتُ باب غرفة نوم يوباش وزوجته في الطابق الثالث. ثمّ نزلت إلى المطابخ وفتحت صنبور جرّة الغاز. وكان في المخزن براميل الكيروسين من أجل المولِّدة الكهربائيّة. مررتُ على امتداد الطابق الأوّل وأنا أرشّ الأرض والجدران بالكيروسين. ثمّ أشعلتُ النار بالستائر وخرجتُ إلى الحديقة.

- لم تهربي؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنّي أردتُ أن أراهما يحترقان.

- أتفهَّم.

- لا أعتقد أنّك تتفّهم. لكنّي قد رويتُ لك الحقيقة. فهّلا أجبَتني الآن عن سؤال؟

- بالتأكيد.

- أين شقيقتي؟

(15)

- شقيقتكِ الآن تدعى مرثيديس وهي في مكان آمن.

- مثل هذا؟

- لا.

- أريد أن أراها.

- قريبًا. حدّثيني أولًا عن زوجكِ، إغناثيو سانشيس. لا أستطيع أن أفهم كيف أنّ ميغيل أنخل يوباش - الذي تحت تصرُّفه أفضل المكاتب القانونية في البلد - عيّن منفّذًا للوصيّة شابًّا واعدًا لكنّه قليل الخبرة مثل سانشيس. ألم يخطر في بالكِ أن تسألي عن السبب؟

- أليس واضحًا؟

- لا.

- إغناثيو هو ابن يوباش. أنجبته له إحدى ممثّلات مسارح الباراليلو التي كان يتردّد إليها في شبابه. دولوريس ريباس، كان اسمها. وبما أنّ السيّدة لم تكن تريد أن تنجب أولادًا كي لا تفقد رشاقتها، أبقاه يوباش سرًّيًا. دفع له نفقات الدراسة وتأكّد أنّه سيحصل على فرص معيّنة للعمل في مكتب محاماة، اتّجه إليه لاحقًا.

- وهل كان سانشيس يعلم ذلك؟ يعلم أنّ يوباش هو والده الحقيقيّ؟

- طبعًا.

- ألهذا تزوّجكِ؟

- تزوّجني ليحميني. كان صديقي الوحيد. كان الرجل الوحيد الذي يتمتّع بالنزاهة والشهامة من بين جميع الذين عرفتهم.

- فكانت زيجة وهميّة إذن؟

- كانت أكثر زيجة حقيقيّة رأيتها في حياتي؛ ولكن، إن كنت تقصد ذلك الأمر، فكلا، لم يمسّني إطلاقًا.

- متى بدأتِ تحيكين خطّة انتقامكِ؟

- إغناثيو، بفضل صلاحيّاته بالوصول إلى كلّ وثائق يوباش، استطاع بسهولة أن يصل إلى أسرار ڤايس. وكانت الفكرة فكرته. فبعد أن نبش في تاريخ والدي الحقيقيّ، فكتور ماتايكس، توصّلنا إلى مجموعة من رفاقه في السجن، من دافيد مارتين إلى سيباستيان سالغادو، ومورغاذو الذي عيّنه سائقًا ومرافقًا. لكنّنا تحدثنا في هذا سابقًا... أليس كذلك؟

- لا يهمّ.. هل هو الذي فكّر أيضًا في استخدام شبح دافيد مارتين لإرعاب ڤايس؟

- هذه كانت فكرتي.

- من كان يكتب الرسائل الممضيّة من سالغادو التي كنتم ترسلونها إلى ڤايس؟

- أنا.

- ما الذي حدث في نوفمبر عام 1956 في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدريد؟

- لم نحصل بوساطة الرسائل على النتيجة المنشودة. فكانت الفكرة هي أن نضخِّم الرعب في صدر ڤايس لكي نجعله يصدِّق بوجود مؤامرة دبّرها دافيد مارتين لينتقم منه ويكشف حقائق ماضيه.

- ما الغاية من ذلك؟

- كي نتمكن من دفعه للإقدام على خطوة خاطئة، فيعودَ إلى برشلونة لمواجهة مارتين.

- الأمر الذي حصلتم عليه.

- أجل، ولكن كنا مضطرّين للضغط عليه أكثر.

- ألهذا كانت محاولة الاغتيال في العام 1956؟

- من بين أساليب أخرى.

- من أعدَّها؟

- مورغاذو. لم يكن عليه أن يقتله، سوى أن يُرهِبَه ويقنعه بأنّه ليس في مأمن حتى لو كان في وكره، وأنّه لن يكون في أمان ما لم يذهب شخصيًّا إلى برشلونة لإخراس مارتين مرّة واحدة وإلى الأبد.

- لكنه لم يكن ليجده إطلاقًا، لأنّ مارتين كان ميّتًا.

- بالضبط.

- وما أساليب الضغط الأخرى التي استخدمتموها للضغط عليه؟

- رشا إغناثيو أحد أفراد طاقم الخدمة في بيت ڤايس لكي يُدخِلَ إلى مكتبه أحد كتب والدي، «أريادنا والأمير القرمزيّ»، أثناء الحفلة التنكّريّة في فيلا مرثيديس. وكان في الكتاب رسالة ولائحة بأرقام المعاملات المزيّفة التي استطعنا تتبُّعها حتى تلك اللحظة. وكانت آخر ما استلمه. فلم يعد قادرًا على الصمود.

- لماذا لم تتوجّهوا إلى الشرطة أو الصحافة؟

- لا تُضحِكْني أرجوك.

- أودّ العودة إلى موضوع اللائحة.

- سبق وأخبرتك بكلّ ما أعرفه. لماذا تعتبر اللائحة ذات أهميّة؟

- نحن بصدد الوصول إلى جذور هذه القضيّة. لكي يتسنّى لنا إحلال العدالة. لكي نعثر على المهندس الحقيقيّ لكلّ هذا الكابوس التي عشتِه أنتِ والكثيرون مثلكِ.

- شريك ڤايس؟

- تمامًا. هذا ما يجعلني أصرّ.

- ما الذي تريد معرفته؟

- أسألكِ أن تبذلي جهدًا وتحاولي أن تتذكّري. اللائحة: هل قلتِ إنّها تتضمّن أرقامًا فقط؟ ليس فيها أسماء الأطفال؟

- لا. أرقامٌ فقط.

- هل تذكرين كم رقمًا؟ على سبيل التقدير.

.لا بدّ أنّها قرابة الأربعين رقمًا.

- كيف استطعم تدبُّر هذه الأرقام؟ ما الذي جعلكم تفكّرون في وجود حالات أخرى لأطفال محطوفين من آبائهم المقتولين بآمرٍ من ڤايس؟

- مورغاذو. عندما بدأ فالنتين بالعمل لدى العائلة، روى لنا أنّه سمع عن عوائل مختفية بأكملها. كثير من رفاقه القدامى في السجن الذين ماتوا في القلعة. زوجاتهم وأبناؤهم، اختفوا دون أن يتركوا أثرًا. فطلب من إغناثيو أن يقدِّم له لائحة بأسمائهم وعيّن المحامي بريانس لكي يحقّق بشكلٍ سريّ في دائرة النفوس عمّا حدث لكلّ تلك العوائل. وما من أسهل من الحصول على شهادات الوفيات. وعندما انتبه أنّ كلّها مسجّلة في اليوم نفسه، خامره الشكّ وتحقَّقّ من شهادات الميلاد التي بالتاريخ نفسه.

- يا له من عبقريّ، هذا المحامي بريانس. لم تكن الفكرة لتخطر في بال الجميع...

- وهكذا فكّرنا أنّه لا بدّ من وجود حالات كثيرة مماثلة، إن كان ڤايس قد فعل ما فعل. في سجونٍ أخرى. مع عوائل لا نعرفها، من البلد برمّته. مئات. وربّما آلاف.

- هل تحدّثتم بشأن هذه الشكوك مع أحد؟

- لا.

- ولم تتمكّنوا من التحقّق حول حالات أخرى.

- كان إغناثيو ينوي فعلها. لكنّه أُلقِيَ القبض عليه.

- وما الذي حلَّ باللائحة الأصليّة؟

- احتفظ بها ذلك الرجل، إندايا.

- هل هناك نسخٌ منها؟

نفت فكتوريا برأسها.

- أنتِ، أو زوجكِ، ألم تنسخا منها نسخة واحدة على الأقلّ؟

احترازًا؟

- النسخ الموجودة، كانت لدينا في البيت. وجدها إندايا ومزّقها مباشرة. وكان يعي ما يفعل. لم يكن يهمّه شيء سوى أن يعرف أين أخفينا ڤايس.

- هل أنتِ متأكّدة؟

- كليًّا. قلت لك أكثر من مرّة.

- أعرف، أعرف. ومع هذا، لسببٍ ما، لا أستطيع أن أصدِّق كلّ ما رويتِه لي. هل كذبتِ عليَّ يا أريادنا؟ قولي الحقيقة.

- قلت لك الحقيقة. ما لستُ متأكّدةً منه هو أنّك أنت أيضًا قلت لي الحقيقة.

حطّت نظرات لياندرو الخالية من أي تعبير عليها، كما لو أنّه انتبه لوجودها توًّا. ابتسم ابتسامة طفيفة وتقدَّم بجذعه.

- لم أفهم ما الذي تقصدين يا أريادنا.

شعرت بأنّ عينيه تمتلئان بالدموع. فانزلقت الكلمات من شفتيها قبل أن تدرك أنّها تقولها.

- أمّا أنا فأعتقد أنّك فهمتَ قصدي. حضرتك كنتَ في السيّارة، أليس كذلك؟ في اليوم الذي جاؤوا فيه لاعتقال والدي واختطافي أنا وشقيقتي. حضرتك شريك ڤايس... اليد السوداء.

نظر إليها لياندرو بأسف.

- أعتقد أنّكِ تخلطين بيني وبين شخص آخر، يا أريادنا.

- لماذا؟ - سألته بصوت مبحوح.

نهض لياندرو عن الكرسي واقترب منها.

- لقد كنتِ شجاعة جدًّا يا أريادنا. شكرًا على مساعدتكِ. لا أريدكِ أن تقلقي من أيّ شيء. حصل لي الشرف بمعرفتكِ. رفعت أريادنا وجهها ووجدت نفسها أمام ابتسامة لياندرو؛ ابتسامةٌ أشبه ببلسم السلام والرحمة. تمنّت أن تتوه فيها ولا تستيقظ أبدًا. انحنى لياندرو ولثم جبينها.

كانت شفتاه باردتين.

في تلك الليلة، بينما كانت جرعة الطبيب السحريّة تشق طريقها للمرّة الأخيرة في شرايينها، حلمت أريادنا بالأمير القرمزيّ صاحب الحكايات التي ألّفها والدُها من أجلها، وتذكّرت.

لقد مضت أعوامٌ كثيرة، وما كانت تستحضر وجه والديها أو شقيقتها إلّا بجهدٍ جهيد. ولا تتمكّن من تذكُّرهم إلّا في الأحلام.

أحلامٌ كانت تأخذها دومًا إلى اليوم الذي جاء فيه الرجال لاعتقال والدها واختطافها وشقيقتها، تاركين والدتها تُحتَضر في البيت الكائن في بايبذريرا.

حلمت في تلك الليلة مجدّدًا بهدير السيّارة التي تدنو من وسط الغابة. تذكّرت أصداء صوت والدها في الحديقة. أطلّت من نافذة غرفتها فرأت العربة السوداء للأمير القرمزيّ تتوقّف أمام النافورة. انفتحت نافذة العربة واستحال الضوءُ ظلًّا.

أحسّت أريادنا بملمس الشفاه الجليديّة على جلدها، والصوتِ الصموت يتغلغل عبْر الجدران مثل سمٍّ قاتل. تمنّت أن تركض لتختبئ مع شقيقتها في داخل إحدى الخزانات، لكنّ نظرة الأمير القرمزيّ كانت ترى كلّ شيء وتعرف كلّ شيء. انطوت على نفسها في الظلام، وسمعت خطوات مهندس كلّ الكوابيس تقترب منها ببطء.

(16)

سبقه عطرُ الكولونيا اللاذعة والتبغ الأشقر. سمع ڤايس خطواته تنزل السلالم، لكنّه رفض أن يبدي له أيّ علامة عن الرضا. فاللامبالاة هي خطّ الدفاع الأخير في المعارك الخاسرة.

- أعرف أنّك مستيقظ. - قال إندايا أخيرًا - لا ترغمني على دلق دلوٍ من الماء البارد عليك.

فتح ڤايس عينيه في غيهب السجن. كان دخان السيجارة يتبدّى في العتمة ويرسم أشكالًا مائجة في الهواء. وكان بريق الجمرة يشتعل في عيني إندايا.

- ماذا تريد؟

- فكّرتُ في أن ندردش قليلًا.

- ليس لديّ ما أقول.

- هل لك رغبة في التدخين؟ يقال إنّه يُقصّر الأعمار.

رفع ڤايس كتفيه لامباليًا. ابتسم إندايا، وأشعل سيجارة ومدّها نحوه من بين القضبان. تقبَّلها ڤايس بإصبعين ترتجفان ومجَّ منها.

- عمَّ تريدنا أن نتحدّث؟

- عن اللائحة. - أجاب إندايا.

- لا أعلم عن أيّ لائحة تتحدّث.

- تلك التي وجدتها في كتابٍ في مكتب بيتك. تلك التي كانت بحوزتك في المساء الذي احتجزوك فيه. تلك التي تحتوي على ما يقارب أربعين رقمًا عن شهادات وفيات ومواليد. أنت تعلم عن «أيّ» لائحة أتحدّث.

- ليست معي. أهذا ما يبحث عنه لياندرو؟ ألستَ تعمل لمصلحته؟

جلس إدايا على عتبات السلالم وتوجّه إليه بنظرة محايدة.

- هل نسختَها؟

نفي ڤايس برأسه.

- متأكد؟ فكّر جيّدًا.

- ربّما لديّ منها نسخة واحدة.

- أين؟

- كانت مع بيثنتي. مرافقي. قبل أن نصل إلى برشلونة، توقّفنا في استراحة. طلبتُ منه أن يشتري دفترًا ونسختُ الأرقام بحيث تبقى لديه نسخة، في حال حدوث شيء ما يضطرّنا إلى الافتراق. لدى

بيثنتي رجلٌ ثقة في المدينة، كان سيطلب منه أن يجد تلك المعاملات ويمزّقها حالما نتخلّص من مارتين ونكتشف إلى مَن مرّر تلك المعلومات. هذه كانت الخطّة.

- وأين تلك النسخة الآن؟

- لا أدري. كانت بحوزة بيثنتي. لا أعلم ما الذي فعلتموه بجثّته.

- هل توجد نسخ أخرى، عدا تلك التي مع بيثنتي؟

- لا.

- هل أنت متأكد؟

- أجل.

- تعلم أنّني سأبقيك هنا إلى أجلٍ غير معروف، إذا كذبت عليّ أو أخفيت عنّي شيئًا.

- لست أكذب.

أومأ إندايا وغرق في صمت طويل. خشي ڤايس أن يغادر ويتركه مجددًا بمفرده لاثنتي عشرة ساعة أو أكثر. لقد انتهت به الحال إلى اعتبار زيارات إندايا القصيرة أنسَه الوحيد خلال النهار.

- لماذا لم تقتلوني بعد؟

ابتسم إندايا، كما لو كان ينتظر ذلك السؤال الذي أعدَّ له إجابة مثاليّة ودقيقة.

- لأنّك لا تستحقّ الموت.

- هل لياندرو يكرهني إلى هذه الدرجة؟

- السيد مونتالبو لا يكره أحدًا.

- وما الذي عليَّ فعله كي أستحقّ الموت؟

نظر إليه إندايا مستغربًا.

- بحسب خبرتي، أولئك الذين يتفاخرون برغبتهم في الموت ينهارون في الدقيقة الأخيرة، حين يرون أنياب الذئب ويتوسّلون كالأطفال.

- الآذان.

- ماذا؟

- المقولة. تتحدّث عن «آذان» الذئب، لا عن أنيابه.

- أنسى دائمًا أنّنا نستضيف قامةً أدبيّة قديرة.

- أهذا ما أنا عليه؟ ضيفٌ لدى لياندرو؟

- أنت لم تعد شيئًا. وعندما يأتيك الذئب، لأنّه سيأتيك حتمًا، سيفعلها بأنيابه.

- إنّي مستعدّ.

- لاّ ألومك. ولا تفكّر أنّني لا أفهم وضعك وما تمرّ فيه.

- السفّاح الحنون.

- من يخطئ تحم حوله الشبهات. أرأيت أنّي أنا أيضًا أعرف الأمثال؟ سأعرض عليك اتفاقًا. بيني وبينك. إن تصرَّفتَ جيّدًا وساعدتني، قتلتك بنفسي. ستكون عمليّة نظيفة. طلقة في الرقبة. لن تشعر بها حتى. ما رأيك؟

- ماذا عليَّ أن افعل؟

- اقترب. أريد أن أريك شيئًا.

اقترب ڤايس من قضبان الزنزانة. كان إندايا يبحث عن شيء في داخل سترته، فتمنّى ڤايس لوهلة أن يكون مسدّسًا وأن يطلق النار على رأسه فورًا. لكنّه أخرج صورة فوتوغرافيّة.

- أعرف أنّ أحدًا ما دخل إلى هنا. أريدك أن تنظر إلى هذه الصورة جيّدًا وتقول لي إن كان هو الشخص الذي رأيتَه.

أبرز إندايا الصورة عليه. فأومأ ڤايس.

- من هي؟

- كانت تدعى أليثيا غريس.

- كانت تدعى؟ هل ماتت؟

- أجل، مع أنّها لا تعرف ذلك بعد. - ردَّ إندايا وهو يعيد الصورة إلى محلّها.

- هلّا أعطيتها لي؟

قوَّس إندايا حاجبيه متفاجئًا.

- لم أكن أعرف أنّك عاطفيّ.

- أرجوك.

- ينقصك الحضور النسائيّ، ها؟

ابتسم إندايا مظهرًا شهامته، ورمى الصورة إلى داخل الزنزانة باحتقار.

- كلّها لك. الحقّ يقال، هي جوهرة، وإنْ على طريقتها. هكذا سيتسنّى لك النظر إليها كلّ ليلة لتستمني بكلتا اليدين. عفوًا، بيدٍ واحدة.

نظر إليه ڤايس وعيناه خاليتان من أيّ تعبير.

- واظب على حسن السلوك كي تجمِّع النقاط. سأحجز لك طلقة برأس مجوَّف كهديّة وداع ومكافأة على خدماتك الجليلة التي قدَّمتها من أجل الوطن.

انتظر ڤايس أن يختفي سجَّانه على السلالم، فجلس القرفصاء ليحمل الصورة.

(17)

عرفت أريادنا أنّ ذلك كان اليوم الذي ستموت فيه. عرفت الأمر ما إن استيقظت في جناح فندق بالاس وفتحت عينيها لتكتشف أنّ أحد أزلام لياندرو، بينما كانت نائمة، ترك لها على المكتب طردًا ملفوفًا بشريط. أزاحت الشرشف وترنّحت إلى الطاولة. كانت العلبة كبيرة، بيضاء، ومكتوبٌ عليها بحروفٍ مذهّبة «بيرتيغاث». وتحت الشريط ظرفٌ واسمُها مكتوب عليه بخطّ اليد. وعندما فتحته، وجدت فيه بطاقة صغيرة تقول:

عزيزتي أريادنا

اليوم بإمكانكِ الذهاب إلى شقيقتكِ. فكّرتُ بأنّه سيسعدكِ أن تظهري بمظهر جميل وأن تحتفلي بأنّ العدالة ستسود في النهاية ولم يعد هناك ما تخشينه من أحد. آمل أن يعجبكِ. لقد اخترته خصوصًا لأجلكِ.

بكلّ ودّ

لياندرو

تلمّست أريادنا أطراف الطرد قبل أن تفتحه. تخيّلت لوهلةٍ أنّ ثعبانًا سامًّا يتلوّى في الداخل، متأهّبًا للانقضاض على عنقها ما إن ترفع الغطاء. ابتسمت. كان المحتوى مغلّفًا بورق الحرير. نزعت طبقة منه فوجدت طقمًا متكاملًا من الملابس الداخليّة من الحرير الأبيض، بما فيها الجوارب. وتحتها فستانٌ من قطن عاجيّ اللون، وحذاء وحقيبة يد متجانسان، وشال. كان لياندرو يرسلها إلى الموت وهي ترتدي ثياب عذراء.

تحمّمت بمفردها، من دون مساعدة الممرّضة. ثمّ ارتدت الملابس بلا عجالة، الملابس التي اختارها لياندرو لتقضي بها اليوم الأخير من حياتها، ونظرت إلى نفسها في المرآة. ما كان ينقصها إلا تابوتٌ أبيض وصليبٌ بين يديها. جلست تنتظر، متسائلة كم من العذارى البيضاوات تطهَّرن في تلك الزنزانة الفاخرة قبلها، وكم من الطرود التي تحتوي على أروع منتجات بيرتيغاث طلبها لياندرو ليودِّع صباياه بقبلة على جباههنّ.

لم تنتظر كثيرًا. إذ لم تمرّ نصف ساعة حتى سمعت صوت مفتاح يتغلغل في القفل. ارتخى الباب ليظهر من خلفه الطبيب الطيّب، بملامحه الودودة كأنّه طبيب عائلة منذ زمن بعيد، وابتسامة وديعة ومشفقة ما انفكّت ترتسم على وجهه، وحقيبة الأعاجيب بيده.

- صباح الخير أريادنا. كيف حالكِ هذا الصباح؟

- بخير. شكرًا أيّها الطبيب.

اقترب الطبيب ببطء وترك الحقيبة على الطاولة.

- أراكِ أنيقة وجميلة. قالوا لي إنّه يومٌ عظيم بالنسبة إليكِ.

- أجل. سألتقي بعائلتي اليوم.

- جيّد جدًّا. العائلة هي أهمّ شيء في الحياة. طلب مني السيّد لياندرو أن أبلغكِ اعتذاره الشديد لأنّه لن يستطيع المجيء لتوديعكِ شخصيًّا. أرغمه أمرٌ طارئ على التغيّب مؤقتاً. سأقول له إنّكِ مبهرة.

- شكرًا.

- هل أعطيكِ منشطًا يعدّل مزاجكِ قليلًا؟

مدّت أريادنا ذراعها العارية بإذعان. ابتسم الطبيب وفتح الحقيبة السوداء وأخرج محفظة جلديّة بسطها على الطاولة. عرفت أريادنا مجموعة القوارير المرقّمة والمربوطة بالمطّاط، وعلبة الحقن المعدنيّة. انحنى الطبيب عليها وأمسك ذراعها برفق.

- بالإذن.

بدأ يتحسّس جلدها الذي بات مرتعًا لأثر الوخزات والكدمات التي خلّفتها إبرٌ لا حصر لها. وبينما كان يستكشف ساعدها ومعصمها والفراغ بين براجم يدها، ويطبطب بخفّة على الجلد بإصبعه، كان يتبسَّم لها. نظرت أريادنا في عينيه وأرخت أهداب فستانها لتبرز فخذيها على ناظريه. هناك أيضًا ثمّة آثار وخز، لكنّها أخفّ.

- بإمكانك أن تحقنني هنا، إن أردت.

تظاهر الطبيب بتواضع لا حدود له وأومأ متعففًا.

- شكرًا. أعتقد أنّ هذا أفضل.

حدّقت إليه وهو يحضِّر الحقنة. اختار القارورة رقم تسعة. لم تره يختار تلك القارورة في السابق أبدًا. وعندما جهزت الحقنة، بحث الطبيب عن وخزة في الجانب الداخليّ لفخذها الأيسر، تمامًا حيث ينتهي الجورب الحرير الذي دشَّنته للتوّ.

- قد تؤلمكِ في البداية قليلًا، وقد تشعرين بالبرد. لكنّها مسألة ثوانٍ قصيرة.

لاحظت أريادنا كيف يركِّز الطبيب نظرته ويقرِّب الحقنة من جلدها. وحين بات رأس الإبرة على بعد سنتمتر من فخذها، تكلّمت.

- لم تعقِّمني اليوم بالكحول أيّها الطبيب.

فوجئ الرجل وأنهض نظرته قليلًا ثمّ ابتسم مشتّت الذهن.

- هل لديك بنات أيها الطبيب؟

- اثنتان، فليباركهما الربّ. السيّد لياندرو عرَّابهما.

حدث الأمر في غضون ثانية. قبل أن ينهي الطبيب تلك الكلمات ويعود إلى وظيفته، أمسكت أريادنا يدها بقوّة وغرست حقنة في حلقه. فاضت نظرات الطبيب الطيّب بالارتباك. وارتخت ذراعاه وبدأ يرتجف والحقنة مغروسة في عنقه. صُبغَ المحلول الموجود في الأسطوانة بلون دمائه. جابهت أريادنا نظراته، وأمسكت بالحقنة وفرَّغت محتواها في الوريد. فتح الطبيب فمه

دون أن يقدر على التفوّه بأيّ صوت وسقط أرضًا على ركبتيه. فعادت أريادنا للجلوس لتشاهده وهو يموت. استغرق الأمر دقيقتين أو ثلاث.

ثم انحنت عليه واستخرجت الحقنة ونظّفت الدماء على ياقة سترته. وأعادتها إلى العلبة المعدنيّة، ووضعت القارورة رقم تسعة في مكانها وأغلقت المحفظة الجلديّة. قرفصت بجانب الجسد. نبشت في جيوبه فوجدت محفظة أخرجت منها عشرات الأوراق النقديّة من فئة المئة بيسيتا. ارتدت السترة الراقية والقبّعة المناسبة للفستان. وفي النهاية أخذت المفاتيح التي تركها الطبيب على الطاولة، والمحفظة التي تحتوي القوارير والحقنة ووضعتها في حقيبتها البيضاء. عقدت الشال على رأسها، وتأبّطت المحفظة، وفتحت الباب وخرجت من الغرفة.

كان صالون الجناح مقفرًا. مزهريّة بورود بيضاء راقدة على الطاولة التي تقاسمت عليها الفطور مع لياندرو مرّات كثيرة. اقتربت من الباب. كان مقفلًا. جرّبت مفاتيح الطبيب واحدًا واحدًا حتى وجدت المفتاح الصحيح. الممرّ، رواقٌ واسع مفروش بالسّجاد وعلى جانبيه لوحاتٌ وتماثيل، يُذكِّر بسفينة ركّاب راقية. وكان مقفرًا. أصداء موسيقى خلفيّة وهمهمة مكنسة كهربائيّة في داخل جناح قريب. سارت أريادنا ببطء.

عبرت أمام باب مفتوح حيث توقّفت عنده عربة التنظيفات ورأت نادلة تجمع المناشف. وعندما وصلت إلى ردهة المصاعد تلاقت بثنائيّ ناضج يرتديان ثياب سهرة قطعا حديثهما عندما انتبها إلى وجودها.

- صباح الخير. - قالت أريادنا.

اكتفى الثنائيّ بإيماءة قصيرة وركّزا أنظارهما على الأرض. وانتظر جميعُهم في صمت. وحين انفتحت أبواب المصعد أخيرًا، أفسح الرجل الدخول لأريادنا فتلقّى نظرة فولاذيّة من صاحبته. وبدأوا الهبوط. كانت السيّدة تتفحّصها خلسةً، تحدّد مقاساتها وتعاين ملابسها بنظرة طير جارح. ابتسمت لها أريادنا بودّ، فبادلتها السيّدة ابتسامةً باردة.

- تشبهين إيبيتا. - قالت.

كانت النبرة الباترة لا تدع مجالًا للشكوك بأنّ التشبيه يخلو من المجاملة. اقتصرت أريادنا على طأطأة رأسها بتواضع. وحين انفتحت الأبواب على ردهة الطابق الأول، تجمّد الثنائيّ حتى خرجت من المصعد.

- من الوارد أنّها قحبة من مستوى رفيع. - سمعت الرجل يغمغم خلف ظهرها.

كان بهو الفندق مكتظًّا بالناس. لمحت أريادنا على بعد أمتار محلًّا لبيع الأغراض النفيسة والتجأت إليه. وإذ رأتها البائعة داخلةً، نظرت إليها من أعلى إلى أسفل تقيِّمُ سعر الفستان الذي ترتديه، فابتسمت لها كأنّها صديقة قديمة. تركت أريادنا المحلّ بعد خمس دقائق تزدهي بنظارة شمسيّة تغطّي نصف وجهها، كما أنّها أشعلت شفتيها بأحمر شفاه فاقع هو الأبهى من كلّ الأنواع التي وجدتها هناك. فما بين العذراء والعاهرة الراقية مستحضرُ تجميل ليس إلّا.

نزلت الأعتاب التي تؤدّي إلى المخرج بكلّ تلك الأبّهة. غلّت يديها بقفّازين وشعرت بالضيوف والخدم والعاملين يسبرون كلّ سنتمتر من جسمها بنظرة شعاعيّة. على رِسْلِكِ، قالت لنفسها. دنت من المخرج وتوقّفت، ففتح البوّاب لها الباب الكبير ونظر إليها بمزيجٍ من الشهوة والتواطؤ.

- تاكسي يا حلوة؟

(18)

إنَّ حياةً كاملةً كرَّسها الطبيب سولديبيا في الطبّ علَّمته أنّ العادةَ أصعبُ الأمراض معالجةً. في آخر تلك الظهيرة، كما في كلّ الأوقات مذ خطر في ذهنه لسوء الحظّ أن يغلق عيادته ليستسلم إلى ثاني أعتى المصائب التي عرفها الإنسان، التقاعُد، أطلّ الطبيب الطيّب بأنفه من شرفة شقّته في شارع بويرتا فييريسا ورأى أنّ النهار، ككلّ الأشياء في العالم تقريبًا، كان يمرّ في طور الانحدار.

كانت الطرقات تتكلّل بأعمدة الإنارة، والسماء تتأجّج بنفس الصبغة الحمراء التي تتفرّد بها الكوكتيلات المباركة في كاسا بواداس، والتي كان الطبيب من حين لآخر يكافئ بها كبده من أجل حياة تبشيريّة بالأمثلة. كانت تلك علامة. تسلّح الطبيب بالمعطف والشال والحقيبة الصغيرة، ثمّ اعتمر قبّعةً تليق بسادة برشلونة، وخرج متّجهًا إلى موعده اليوميّ مع ذلك الشبح الغريب المسمَّى أليثيا غريس التي وضعتها مكائدُ فيرمين وعائلة سيمبيري بين يديه. والتي كان الطبيب يشعر حيالها بفضولٍ لا حدود له، وضعفٍ يجعله ينسى في أثناء لياليه الطويلة المؤرِّقة أنّه لم يضع يده على أنثى بوضع صحّيٍّ جيّد منذ ثلاثين عامًا.

كان يمشي في لاس رامبلاس لا مباليًا بضجّة المدينة، يفكّر بيقينه أنّ الآنسة غريس - لحسن حظّها وسوء حظّه - تعافت من جروحها بسرعةٍ لم يكن ينسبها إلى براعته الطبيّة، إنّما إلى الشرّ المركَّز الذي يسري في عروق ذلك الكائن الظلّيّ. باختصار، كان متأسّفًا لأنّه سيتوجّب عليه إخلاء سبيلها.

كان بوسعه طبعًا أن يحاول إقناعها بالمرور إلى مكتبه من حين إلى حين لتخضع لما يسمّيها المحترفون «زيارة فحص»، لكنّه كان يعلم أنّ محاولةً كهذه ستؤتي أُكلُها بقدر إقناع نمر البنغالا الذي تحرّر للتوّ من قفصه بالعودة صباح كلّ يوم أحد قبل الصلاة لاحتساء طبق الحليب المخصّص له. ومن المحتمل أنّ ما يناسب الجميع، ما عدا أليثيا طبعًا، هي أن تختفي الفتاة من حياتهم بأقرب وقت ممكن. كان يكفيه أن ينظر في عينيها للتوصّل إلى ذلك التشخيص، والتيقُّن من أنّها أكثر امرأة موثوقة من بين جميع اللواتي عالجهنّ خلال مسيرته الطويلة.

كان الطبيب العجوز غارقًا في التعاسة من ضرورة توديع مَن كان واثقًا أنّها ستكون آخر مرضاه، وهو يدخل في نفق شارع أركو المعتم، حتّى أنّه لم ينتبه أنّ بين الظلال الرابضة عليه ثمّة ظلٌّ يفوح برائحة مميّزة للكولونيا الثاقبة والتبغ الأشقر المستورد.

وقد تعلَّمَ في ذلك الأسبوع أن يعثر على هذا المكان الذي حلف بأنّه لن يكشف سرّه حتى للروح القدس، وإلّا جاءه فيرمين كلّ يوم إلى بيته في ساعة العصريّة ليروي له النكات اللاذعة. من الأفضل أن تأتي بمفردك أيّها الطبيب، قالوا له. أسباب أمنيّة، أضافت عائلة سيمبيري، التي لم يكن يتخيّل أبدًا أنّهم قادرون على التورُّط بدسائس بيزنطيّة من هذا العيار. يقضي المرء حياته في نبش أحشاء الأشخاص، ليدرك فيما بعد أنّه لا يعرفهم حقّ المعرفة. الحياة - مثل التهاب الزائدة الدوديّة - لغز.

وهكذا شاردًا في خواطره، ومستعدًّا لأداء واجبه في الغرق مجدّدًا في بيت الألغاز الذي يسمّيه جميعهم مقبرة الكتب المنسيّة، صعد الطبيب سولديبيا عتبة المبنى القديم وأمسك بالمقبض الذي على شكل الشيطان ليطرق على البوابة. ولم يكد يؤدّي الطرقة الأولى حتّى تمظهر بجانبه ظلٌّ كان قد لحق به منذ أن خرج من بيته. وأسند قصبة الريفولفر إلى صدغه.

- مساء الخير، أيّها الطبيب. - قال إندايا.

كان إسحاق يرمق أليثيا بنظرة تشي بالارتياب. هو الذي لا يميل إلى التصنُّع كثيرًا، لاحظ بقليلٍ من التوجُّس منذ أيّام أنّ شيئًا ما يشبه المودّة تجاه الفتاة ينمو في وجدانه خلال الأسابيع الأخيرة. عزا السبب للأعوام، التي كلّما مرَّت أرخت عنده كلّ شيء. فحضور أليثيا في تلك الآونة أرغمه على إعادة تفحُّص العزلة التي اختارها بين الكتب. إذ رآها تتحسّن من الإصابات وتعود إلى الحياة، شعر إسحاق بأنّ ذكرى نوريا تُبعَثُ فيه من جديد، ذكراها التي لم تتلاش مع مرور الوقت إنّما تصلَّبت إلى أن وصلت أليثيا لتنكأ فيه جراحًا لم يكن يظنّ أصلًا أنّه يملكها.

- لماذا تنظر إليّ هكذا يا إسحاق؟

- لأنّي عجوزٌ غبيّ.

ابتسمت أليثيا. كان قد لاحظ أنّ ابتسامتها تُبرِز أسنانها وتكشف عن طبعٍ لئيم.

- غبيٌّ يصبح عجوزًا، أم عجوزٌ يتغابى؟

- لا تسخري مني، أليثيا، حتى لو كنت أستحقّ ذلك.

نظرت إليه برقّة ما جعله يخفض أنظاره، وعندما تحرّرت أليثيا من ذلك الستار الغامض، وإن لبضع لحظات، ذكَّرته بنوريا كثيرًا لدرجة أن انعقد لسانه وانقطعت أنفاسه.

- ماذا لديك؟

أظهر الحارس العجور محفظة خشبيّة.

- أهي لأجلي؟

- هديّة الوداع.

- أتريد التخلص منّي هكذا؟

- لا.

- ألأنّك تفكّر في أنّي سأغادر عمّا قريب؟

- هل أخطئ؟

لم تردّ، لكنّها تقبَّلت المحفظة.

- افتحيها.

وجدت فيها ريشة قلم حبر مع مقبض من خشب الماغنو وقارورة حبر أزرق تتلألأ على ضوء المصباح.

- هل كان لنوريا؟

أومأ إسحاق.

- كانت الهديّة التي أتيتها بها حين أتمّت ثمانية عشر عامًا.

تفحَّصت أليثيا ريشة القلم، قطعةً فضيّة حقيقيّة.

- منذ أعوام لا يكتب به أحد. - قال إسحاق.

- لماذا لا تكتب به أنت؟

- ليس لديّ ما أكتبه.

كانت أليثيا تحاول التحقّق من صحة ذلك التأكيد فإذا بأصداء طرقتين جامدتين تنتشر في المبنى. وبعد فاصل من خمس ثوان، تبعتها أصداء طرقتين أخريين.

- الطبيب. - قالت أليثيا - لقد تعلّم الشيفرة.

- ومن قال إنّ الكلب العجوز لا يستطيع تعلُّم حيل جديدة؟

أخذ الحارس أحد مصابيح الزيت واتجه نحو الممرّ المفضي إلى المدخل.

- جرِّبي القلم، هيّا. - قال - تمّه اوراق بيضاء.

سار إسحاق في الممر الطويل المنحني المؤدّي إلى المدخلِ والمصباحُ في يده. لم يكن يستعمله إلّا إذا ذهب لاستقبال أحدهم. فهو كان يعرف المكان بعينين مغمضتين ويفضِّل أن يمشي في أعماقه تحت السراب الذي يحوم فيه دومًا. توقَّف أمام البوّابة، وضع المصباح على الأرض وأمسك بكلتا يديه بالمزلاج الذي يحرّك منظومة الأقفال. لاحظ أن العمليّة باتت تتعبه أكثر من ذي قبل، إذ شعر بضيقٍ في صدره وهو يدوِّرها لم يجرّبه سابقًا. ربّما كانت أيّامه حارسًا معدودة.

كانت منظومة الأقفال، القديمة بِقدَمِ المكان نفسه، تتكوّن من آليّة معقّدة من النوابض والروافع والبكرات والمسنّنات التي تستغرق ما بين عشر وخمس عشرة ثانية لتفكّك كلّ نقاط الإرساء. وما إن تراخت البوّابة، سحب إسحاق العارضة التي تشغّل نظام الأثقال وتسمح بتحريك الصفيحة الخشبيّة الثقيلة والمرصَّعة بنفخة واحدة. رفع المصباح ليستقبل الطبيب وتنحّى قليلًا ليفسح له المجال للدخول. فتشكّل طيف الطبيب سولديبيا عند العتبة.

- دقيقٌ في مواعيدك دائمًا أيّها الطبيب. - بادر إسحاق.

وبعد ثانية سقط جسد الطبيب على وجهه نحو الداخل واعترض العتبةَ شخصٌ شرس الخلق وطويل القامة.

- من...؟

صوّب إندايا الريفولفر بين عينيه وأزاح جسد سولديبيا بركلة من قدمه.

- أغلقِ الباب.

غطَّست أليثيا ريشة القلم بالمحبرة وزلَّقتها على الورقة لتشكيل خطّ أزرق متألّق. كتبت اسمها وحدّقت إلى الحبر يجفّ ببطء. وسرعان ما اختفت متعة الصفحة البيضاء، التي تقدِّم في البدء ألغازًا ووعودًا. فما إن تُكتَبُ الكلماتُ الأولى، ننتبه أنّ الكتابة مثل الحياة، تستوي فيهما المسافة بين الغايات والنتائج بالبراءة التي نرسم بها الغاية ونتقبَّل بها النتيجة. كانت تتهيّأ لكتابة جملة تذكُرها من أحد كتبها المفضّلة عندما توقّفت ووجّهت أنظارها إلى الباب. تركت القلم على الورقة وتفحَّصت الصمت.

فأدركت في اللحظة نفسها أنّ شيئًا ما كان قد خرج عن السيطرة. غياب الغمغمة المعتادة بين الأصدقاء القدامى كإسحاق وسولديبيا؛ أصداء خطوات غير واثقة وغير منتظمة، والصمت المسموم الذي اقشعرّ منه زغبُ رقبتها. نظرت حولها ولعنت حظّها. فلطالما تصوَّرت أنّها ستموت بطريقة أخرى.

(19)

في ظروفٍ مغايرة، كان إندايا سيقتل العجوز بطلقٍ ناريّ ما إن تسنّى له الدخول إلى المبنى، لكنّه لم يشأ أن تستنفر أليثيا. ظلّ الطبيب سولديبيا راقدًا على الأرض بعد أن تلقَّى ضربةً على رقبته أردته أرضًا. بحسب الخبرة، لا داعي للقلق من جانبه لنصف ساعة على الأقلّ.

- أين هي؟ - قال للحارس هامسًا.

- من؟

ضربه على وجهه بالمسدّس وسمع عظمةً تتكسّر. وقع إسحاق على ركبتيه ثمّ سقط جانبًا وهو يئنّ. قرفص إندايا وأمسك بعنقه وخضَّه.

- أين هي؟ - ردَّد.

كانت الدماء تتدفق من أنف العجوز بغزارة. صوَّب إندايا قصبة السلاح على ذقنه وحدّق في عينيه. فبصق إسحاق في وجهه. «أعجبتني شجاعته» - قال إندايا في نفسه.

- هيّا يا جدّاه، لا تتظارف، فقد انقضى عليك زمان البطولة. أين أليثيا غريس؟

- لا أعرف عمّن تتحدّث.

ابتسم إندايا.

- هل تريدني أن أهشّم ساقيك يا جدّي؟ فعظم الفخذ في عمرك لا يتجبَّر أبدًا...

لم يفتح إسحاق فمه. أمسكه إندايا من رقبته وجرّه نحو الداخل.

سار في ممرّ واسع يشكِّل منحنى، وتراءى من خلفه ضياءٌ متبدّد. كانت الجدران مكسوّة برسومٍ لمشاهد خياليّة. تساءل إندايا أيُّ مكانٍ هذا. وحين وصل نهاية الممرّ، وجد نفسه تحت طاقٍ عملاقٍ يتصاعد نحو اللانهاية. أخفض مسدّسه من هول ما رأي، وترك العجوز يسقط كأنّه ثقلٌ ميّت.

ظنّ أنّه بصدد رؤيا، مشهدٌ حُلُميٌّ يحوم في غيمةٍ من ضوءٍ سرابيّ. متاهةٌ شاسعة تتشابك حول نفسها وتتضخّم في عقدةٍ من أنفاق وأروقة وأقواس وجسور. بدا أنّ هيكل المبنى يتفجَّر من التراب نفسه ليرتقي نحو هندسةٍ مستحيلة تصل إلى قبّة كبيرة من بلّورٍ أغبش تتوِّج الطاق. ابتسم إندايا في قلبه. لقد اكتشف مدينة محظورة في قاع ظلمات مبني عتيق من برشلونة، قوامها كتبٌ وكلمات، سيشعل فيها النار حالما يمزّق أشلاء أليثيا غريس الشهيّة. إنّه يوم سعده.

جرجر إسحاق نفسه على الأرض مخلّفًا بقعًا من الدماء. كان يريد أن يرفع صوته، لكنّه لم يتمكّن إلّا من لفظ الأنين وكان بالكاد يحافظ على وعيه. سمع خطوات إندايا تقترب منه مجدّدًا، وأحسَّ به يدوس كتفيه بقدمه ليسوِّيه بالأرض.

- لا تهرب يا جدّي.

أمسكه من معصمه وجرّه إلى أحد العمودين اللذين يرفعان الطاق. كان العمود محاطًا بمجموعة أنابيب رفيعة مثبّتة بالحجر عبْر الكمّاشات. أخرج إندايا الأصفاد، وربط أحدها بأنبوب وقفل الآخرَ حول معصم إسحاق حتى شعر بأنّ القيد ينهش لحمه. فأفلت إسحاق صرخةً بكماء.

- أليثيا لم تعد هنا. - قال لاهثًا - إنّك تضيّع وقتك...

تجاهله إندايا وراح يسبر الظلمات. تراءى له في إحدى الزوايا طرفُ بابٍ يتسرّب من خلاله ضوء شمعة. قبض رجل الشرطة مسدّسه بجمع يديه واقترب متمسَّحًا بالجدار. فقد أكّد له القلقُ المستعر في عينَي العجوز أنّه على الطريق الصحيح.

دخل الغرفة مشهرًا سلاحه. وجد في الوسط سريرًا وأغطيته على الجانب، وعند الجدار دُرجٌ تعتليه أدوية وأغراض أخرى. نظر إندايا إلى الزوايا والمناطق الغارقة في الظلّ قبل أن يتوغّل في الغرفة. كان الهواء يتضوّع برائحة الكحول والشمع وشيء حلو وطحينيٍّ سَيَّلَ لعابه. اقترب من طاولة صغيرة بجانب السرير عليها شمعة. ووجد محبرة مفتوحة ورزمة أوراق. قرأ على الأولى ما كُتِبَ بخطٍّ منمّق ومائل:

أليثيا

ابتسم إندايا وعاد إلى عتبة الغرفة. وجّه أنظاره إلى العجوز الذي ما انفكّ يصارع القيود التي تربطه بالأنابيب. وهناك، عند مدخل متاهة الكتب، استشعر باختلاجٍ طفيفٍ للظلال، كما لو أنّ قطرةً من المطر تصيب سطح مستنقع راكد، مخلِّفةً تموُّجاتٍ تتمدّدُ على الماء. وإذ مرّ بجانب إسحاق، حمل مصباح الزيت عن الأرض دون أن يكلّف نفسه النظر إلى الحارس. سيكون هناك وقتٌ لتصفية الحسابات معه.

بلغ أعتاب الهيكل الأكبر، توقّف برهةً يتمعَّن في كاتدرائيّة الكتب الناهضة أمامه، فبصق على جانبه. ثمّ تحقّق من امتلاء المخزن، وجهوزيّة الطلقة في القصبة، وولج إلى المتاهة متتبِّعًا عطر أليثيا وصدى خطواتها.

(20)

كان النفق ينحني بميلان صاعد يتوغّل في قلب الهيكل ويضيق كلّما تقدَّم فيه إندايا. جدرانه تغصّ بأضلاع الكتب من العمق حتى القمّة. والسقف مقسّمٌ إلى مربّعات بأغلفة جلديّة قديمة ما زال بالإمكان قراءة عناوين الكتب عليها. بعد قليل، بلغ مستراحًا ثمانيّ الزوايا في وسطه طاولة مفروشة بالكتب المفتوحة، ومساند قراءة ومصباحٌ يتلألأ فيه ضوء ذهبيّ واهن. تنفتح من هناك عدّة ممرّات باتجاهات متعاكسة، بعضها تهبط وأخرى تصعد الهيكل. توقّف إندايا ليصغي إلى الصوت المتفتّق عن المتاهة، ما يشبه همهمة الأخشاب المعتَّقة والأوراق التي تبدو في حراكٍ مسترسلٍ وملحوظٍ بالكاد. قرّر أن يدخل أحد الممرّات النازلة، متصوّرًا أنّ أليثيا تبحث عن مخرج على أمل أن يتوه هو ما يسمح لها بكسب مزيد من الوقت للهرب. هذا ما كان سيفعله لو وُضِعَ محلّها. لكنّه قبل أن يدخل الممرّ بثانية، رآه. كتابٌ نافرٌ من أحد الرفوف، كأنَّ أحدًا سحبه قليلًا قبل أن يقع. اقترب منه وقرأ عنوانه على الغلاف.

آليس عبْر المرآة

لويس كارول

- الطفلة ترغب في اللعب! - سأل بصوت مرتفع.

ضاع صوته في عقدة الأنفاق والصالات ولم يلق جوابًا. دفع إندايا الكتاب إلى الحائط وأكمل سيره في الممرّ الذي يبدأ بصعدةٍ متتالية لتشكِّل سلّمًا تحت قدمَيه كلَّ أربع أو خمس خطوات. وكلّما توغّل في المتاهة، تولَّد لديه انطباعٌ بأنّه يتقدّم في أحشاء كائنٍ خرافيّ، كحوت اللوياثان المكوّن من الكلمات على درايةٍ مطلقة بوجوده وبكلّ خطوة يخطوها. رفع المصباح بقدر ما يسمح له الطاق وتابع سيره. توقّف فجأة بعد عشرة أمتار إذ اصطدم بشكل ملاك له نظرة كلب. وقبل جزء من الثانية على ضغطه الزناد، تبيّن أنّ الشكل شمعيّ يحمل بين يديه - الكبيرتين بحجم كمّاشة - كتابًا لم يسمع به من قبل.

الفردوس المفقود

جون ملتون

كان الملاك يراقب قاعة بيضويّة أوسع من سابقتها بضِعف. القاعة محاطة بخزائن زجاجيّة صغيرة، وأرفف مائلة ومحاريب تشكِّل دهليزًا من الكتب. تنهّد إندايا.

- أليثيا؟ - نادي - كفّي عن التصابي واخرجي. أريد أن أتكلّم معكِ لا أكثر. محترفٌ لمحترف.

قطع إندايا القاعة وألقي نظرة على الممرّات المتشعبة من هناك.

ومرّة أخرى، بجانب المنعطف حيث يختفي الضوء الخافت، ثمّة كتابٌ نافر من رفّ أحد الممرّات. شدَّ إندايا على أسنانه ممتعضًا. إن كانت عاهرة لياندرو تودّ لعب لعبة القطّ والفأر، فإنّها ستنال مفاجأة حياتها.

- جنيتِ على نفسكِ. - قال وهو يلج الممرّ الصاعد بميلانٍ متتالٍ.

هذه المرّة، ترفَّع عن رؤية الكتاب الذي اختارته أليثيا في حيلتها لترك آثارٍ لها نحو قلب المتاهة. وخلال عشرين دقيقة، صعد إندايا تلك المنشأة المسرحيّة العملاقة. اجتاز قاعاتٍ وأسوجةً معلّقة بين الأقواس والمماشي التي رأى من خلالها أنّه صعد أكثر بكثير ممّا كان يتوقّع. بدا له شخص إسحاق، المقيّد بالأنابيب في الأسفل، صغيرًا جدًّا. وحين رفع أنظاره نحو القبّة، ما زال الهيكل شامخًا في ارتقائه وتشابكه في عقدةٍ تزداد إعجازًا. وكلّما فكّر في أنّه أضاع الأثر رأى بطرف العين ضلع كتاب نافر من أحد الرفوف عند مدخل نفق جديد يقتاده إلى قاعة أخرى، يتشعّب بعدها المسير مرّة أخرى في لوحة فسيفسائيّة مستحيلة.

كانت طبيعة المتاهة تتغيّر كلما ارتقى نحو القمّة. كما أنّ عقدة الشبكة، التي تتفاقم نزواتها، كانت تستفيد من الأقواس والقناديل لتسرِّب عبرها أحزمةً من الضوء البخاريّ. وكانت فتنة المرايا المعلّقة عند الزوايا تستحكم بالسراب الحائم في الداخل. وكلُّ صالة جديدة يدخلها يجدها مسكونةً بما يفوق سابقتها من تماثيل ولوحات وأغراض بالكاد يفهم ماهيّتها. بدت بعض التماثيل كالروبوتات التي لم تكتمل بعد، ومنحوتاتٌ أخرى من الجصّ أو الورق المعجون تتدلّى من السقف أو مركَّبةً على الجدران مثل مخلوقات غيبيّة في أضرحة مصنوعة من الكتب. استبدّ بإندايا إحساسٌ غريب من مزيج الدوار والقلق، وسرعان ما لاحظ أنّ السلاح ينزلق من بين أصابعه المبتلّة بالعرق.

- أليثيا، إن لم تخرجي، سأحرق كومة الخراء هذه لأراكِ تتحمّصين وأنتِ حيّة. أهذا ما تريدين؟

سمع صوتًا خلف ظهره فالتفت. ثمّة غرضٌ ظنّه في البدء كرة بحجم قبضة اليد تتدحرج على عتبات أحد الممرّات. انحني ليحملها. رأسُ دمية ذات ابتسامة مربكة وعينين بلوريّتين. وبعد ثانية، امتلأت الأجواء برنين ذي نغم معدنيّ يوحي بترنيمة النوم.

- يا ابنة العاهرة. - غمغم.

انتفض ليصعد السلالم بقلبٍ يخفق في صدغيه. اقتاده صدى الموسيقى إلى صالة دائريّة تنفتح في عمقها على سياجٍ يعانق حزمة ضوء كبيرة. ومن الجهة الأخرى تتراءى صفيحة القبّة الزجاجيّة فأدرك إندايا أنّه بلغ القمّة. كانت الموسيقي آتية من عمق الصالة. على جانبي العتبة، ثمّة تماثيل صغيرة بيضاء مكدّسة بين الكتب مثل جثث محنّطة ومتروكة لمصيرها. كانت الأرض تعجّ بالكتب المفتوحة التي داسها إندايا ليصل إلى الجانب الآخر من الصالة. حيث خزانة صغيرة عند الحائط لكأنّها تحفة قديمة. والموسيقى تصدر من داخلها. فتح إندايا بابها برفق.

علبةٌ مصنوعة من المرايا تصدر رنينًا في أسفل الخزانة. وفي داخلها تمثال ملاك صغير مبسوط الجناحين، يدور ببطء في نشوة مخدِّرة. بدأت الأنغام تنخفض تدريجيًّا كلّما خفَّ شحن الآليّة. وظلَّ الملاكُ معلّقًا بما يشبه الطيران. وحينذاك انتبه إندايا إلى الانعكاس في إحدى صفائح مرايا العلبة النغميّة.

تحرّك أحد التماثيل التي بدت له جثثًا من الجصّ عندما دخل. أصابت إندايا القشعريرة على رقبته. التفت بسرعة وأطلق ثلاث رصاصات على الطيف الذي تشكَّل في حزمة الضوء. فتمزَّقت

طبقات الورق والجصّ التي يتشكّل منها التمثال وخلّفت غيمةً من الغبار المتأرجح في الهواء. أخفض إندايا سلاحه عدّة سنتمترات وضيَّق حدقتَيه. فلم يشعر إلّا آنذاك باهتزاز الهواء الطفيف بجانبه. التفت، وهيّأ قادح الريفولفر من جديد، فتبدّى له بريق نظرة غامضة وفتّاكة تتجلّى في الظلّ.

اخترق رأسُ ريشة القلم شبكيّة عينه واجتاز دماغه حتى استقرّ في عظم جمجمته. سقط إندايا في اللحظة نفسها مثل دمية الماريونيت إذا انقطعت حبالها. ورقد الجسد المرتعش على الكتب. قرفصت أليثيا وانتزعت منه السلاح الذي ما زال في يده ونقلت الجسد بدفعٍ من قدميها إلى السياج. ثمّ دفعته عن الحافة بركلة واحدة، ورأته يسقط في الهاوية وهو حيٌّ، وينسحق على الأرضيّة الحجريّة بدويٍّ أصمَّ وارتطامٍ لزج.

(21)

رآها إسحاق تخرج من المتاهة. كانت تعرج قليلًا وتحمل سلاحًا بعفويّةٍ جمَّدت دماءه. شاهدها تقترب إلى المكان الذي انسحق فيه إندايا على الأرضيّة الرخاميّة. كانت أليثيا حافية القدمين، لكنّها لم تتردّد وداست بركة الدماء المنتشرة حول الجثّة. انحنت على الجسد ونبشت في جيوبه. أخرجت محفظة وعاينتها. سحبت منها رزمة أوراق نقديّة وأسقطت ما تبقّى. تحسّست جيوب سترته فوجدت مفاتيح. أخذتها. وبعد أن تمعّنت في الجثّة قليلًا بكلّ برود، أمسكت أليثيا بشيءٍ مغروس في وجه إندايا وانتزعته بقوّة. فعرف إسحاق ريشة القلم الذي أهداه لها قبل أقلّ من ساعة.

اقتربت منه ببطء. قرفصت بجانبه وفكّت قيوده. بحث إسحاق عن نظراتها، ولم يدرك بأنّه يرتعش وعيناه تمتلئان بالدموع. فنظرت إليه بعينين خاليتين من أيّ تعبير، كما لو أنّها أرادت إظهار حقيقتها لذلك العجوز المسكين الذي توهَّمَ أنّه رأى فيها تجليًّا لابنته الراحلة. نظّفت أليثيا الريشة بثنايا قميصها الفضفاض وأعطتها له.

- لا يمكنني أن أكون مثلها أبدًا يا إسحاق.

مسح الحارس دموعه وقد انعقد لسانه. مدّت أليثيا يدها نحوه وأعانته على النهوض. ثمّ اتّجهت نحو الحمّام الصغير بجانب غرفة الحارس. وسمع إسحاق هدير المياه.

وبعد قليل، ظهر الطبيب سولديبيا، وهو يترنّح. أشار إليه إسحاق بيده فاقترب.

- ما الذي حدث؟ من كان ذلك الرجل؟

أشار إسحاق برأسه إلى جمع الأشلاء المطبوع على الأرض على بعد عشرين مترًا.

- يا أمَّ الربّ... - غمغم الطبيب - والآنسة...؟

ظهرت أليثيا من الحمّام ملفوفةً بمنشفة. رأوها تدخل غرفة إسحاق. فتوجّه الطبيب إلى الحارس بنظرة استجوابيّة. رفع إسحاق كتفيه. اقترب سولديبيا من باب الغرفة وأطلَّ برأسه. كانت أليثيا ترتدي بعضًا من ثياب نوريا مونفورت.

- هل أنتِ بخير؟ - سألها.

- بألف خير. - ردَّت أليثيا دون أن تشيح بصرها عن المرآة.

ركن الطبيب انبهاره، وارتخى على كرسيّ يراقبها بصمت بينما كانت تستكشف أغراض ابنة إسحاق وتختار مستحضرات التجميل. تجلت بعناية، ورسمت حدود شفتيها وعينيها بدقّة لتبني كعادتها شخصيّةً تتناسب مع أفعالها التي كان ذلك الجسد المهمَل قادرًا على تأديتها، والذي اعتاد الطبيب أن يعتني به في الأسابيع الأخيرة. وعندما تلاقت نظراته بنظرات الفتاة في المرآة، غمزت له أليثيا.

- حالما أنصرف من هنا، عليكم أن تستدعوا فيرمين. قولوا له إنّه ينبغي إخفاء الجثّة. وأن يذهب من جهتي إلى المحنِّط في الساحة الملكيّة. سيجد لديه المنتجات الكيميائيّة اللازمة.

نهضت أليثيا ودارت حول نفسها تُقيِّم مظهرها في المرآة. وبعد أن وضعت السلاح والنقود، المسلوبة من إندايا، في حقيبة سوداء، اتجهت نحو الباب.

- من أنتِ؟ - سألها الطبيب وهي تمرّ بجانبه.

- الشيطان. - أجابت أليثيا.

(22)

ما إن رأى فيرمين دخول الطبيب الطيّب من باب المكتبة، عرف أنّ موسم الهلع قد بدأ. كان سولديبيا يبدي إشاراتٍ لا شكّ فيها بأنّه تلقّى في عرض وجهه لطمةً مُحكمةً بطريقة احترافيّة. وكان دانيال وبيا خلف المصطبة يحاولان تسوية حسابات الشهر، ففوجئا بمظهره وهرعا لمساعدته.

- ما الذي حدث أيّها الطبيب؟

أصدر الطبيب تأفُّفًا لا إراديًّا مثل منطاد مرجوم بالرشّاش، وطأطأ رأسه منهارًا.

- دانيال، هات قنّينة الكونياك البطوليّ التي خبّأها والدك خلف الكتب المدرسيّة لتربية الروح الوطنيّة. - أمره فيرمين.

رافقت بيا الطبيبَ إلى كرسيٍّ وساعدته على الجلوس.

- هل أنت بخير؟ من فعل بك ذلك؟

- أجل، ولست متأكدًا. - أجاب - بهذا الترتيب.

- وأليثيا؟ - سألته بيا.

- في الحقيقة لا أقلق بشأنها...

تنهّد فيرمين.

- هل طارت؟ - سأله.

- ملفوفةً بغيمة كبريت. - ردّ الطبيب.

أعطاه دانيال كأسًا من الكونياك التي لم يبد الطبيب حياله أيَّ مقاومة. وازدرد منه برشفة واحدة لعلَّ الخلطة تفعل فعلها الخيميائيّ.

- مزيدًا، لو سمحت.

- وإسحاق؟ - سأل فيرمين.

- ظلَّ يتأمّل.

انحني فيرمين بجانب الطبيب وبحث عن أنظاره.

- هيّا فخامتك، أخبرنا ما الذي حدث، وحاولْ ألّا تجود علينا بمُطوَّلاتٍ أدبيّة.

عند نهاية قصّته، ارتشف الطبيب كأسًا أخرى، بما يشبه النداء. وكانت بيا ودانيال وفيرمين قد أحاطوا به متحفِّظين. مرّ صمتٌ احترازيّ، حتى فتح دانيال النقاش.

- إلى أين قد ذهبت؟

- لإصلاح الخطايا، أتصوَّر. - ردّ فيرمين.

- أرجو من حضراتكم أن تتكلّموا بالمسيحيّة، لأنّ ملفّ ألغاز عائلة سيمبيري لم يكن مُدرجًا في منهاج الكليّة. - أشار الطبيب.

- صدِّقني، أنصحك بالذهاب إلى بيتك، وابتلاع شريحة لحم على الطريقة الباسكيّة، وترك وظيفة حلّ هذه المعضلة علينا. - اقترح فيرمين.

أومأ الطبيب.

- هل عليَّ انتظار رماةٍ آخرين؟ - سأل - أقول هذا كي أجهِّز نفسي.

- حتى الساعة، لا داعي لذلك. - أجاب فيرمين - ولكن لا بأس بالتغيُّب عن المدينة لأسبوعين تقضيهما في مستوصف الينابيع الساخنة في مونغات، رفقة أرملةٍ بركانيّة، والعمل على طرح الكحول من الكلى أو بعض الأجساد العالقة في المسالك البوليّة.

- للمرّة الأولى، لا أخالفك. - وافقه الطبيب.

- دانيال، لِمَ لا ترافق الطبيب إلى بيته وتتأكد بنفسك أنّه وصل قطعة واحدة؟ - اقترح فيرمين.

- لماذا أنا بالذات؟ - اعترض دانيال - هل تريد أن تنحِّيني مرّة أخرى؟

- سأرسل ابنك خوليان إن كنتَ تفضِّل، مع أن هذه المهمّة تتطلّب شخصًا أكثر جدارة وقد أجرى المناولة الأولى على الأقلّ.

أومأ دانيال ممتعضًا. شعر فيرمين أنّ نظرات بيا تنغرس في رقبته، لكنّه آثر أن يتجاهلها في تلك اللحظة العصيبة. وقبل أن يودِّع الطبيب، صبَّ له كأس كونياك أخيرة. وإذ رأى أنّ القنّينة لم تعد تحتوي من المشروب أكثر من مقدار إصبع، فضَّل أن يجترعها برشفة واحدة. وما إن تخلّص من دانيال والطبيب، استرخى فيرمين على الكرسيّ ورفع يديه إلى وجهه.

- وماذا عمّا قاله الطبيب حول المحنِّط وإخفاء جثّة؟ - سألته بيا.

- ضرورةٌ مشينة ولسوء الحظّ ينبغي حلُّها. - أجاب فيرمين - أحد أسوأ صفتين لأليثيا أنّها لا تحيد عن طريقها أبدًا.

- وما الصفة الأخرى؟

- أنّها لا تغفر. هل قالت لكِ في هذه الأيّام شيئًا يلمِّح إلى ما يدور في رأسها؟ فكِّري جيّدًا.

تردّدت بيا، لكنّها نفت في النهاية. أومأ فيرمين ببطء ونهض. أخذ معطفه عن المشجب وتجهَّزَ لعبور مساء شتويّ لا يُنبِئ برياحٍ مسالمة.

- من الأفضل أن أذهب إلى المحنِّط إذن. ستخطر في بالي فكرة على الطريق...

- فيرمين؟ - نادته بيا قبل أن يصل إلى الباب.

توقّف في مكانه لكنّه لم يجرؤ على الالتفات.

- ثمّة شيء لم تروِهِ لنا أليثيا، أليس كذلك؟

- أظنّ أنّها أشياء كثيرة، يا سيّدة بيا. وأعتقد أنّها لم تفعل ذلك إلّا لمصلحتنا.

- ولكن هناك شيء يخصّ دانيال. شيء قد يؤذيه جدًّا.

التفت فيرمين حينذاك وابتسم بمرارة.

- ولهذا أنتِ وأنا موجودان، صحيح؟ لنمنع حصول شيء من هذا النوع.

حدّقت إليه بيا طويلًا.

- توخَّ الحذر يا فيرمين.

رأته ينطلق في زرقة غروبٍ يتوعّد بإسقاط ندف الثلج. وظلّت تراقب الناس الذين يسيرون في شارع سانتا آنا متدثّرين بالشالات والجُبب. كان شيء ما يخبّرها بأنّ الشتاء، الشتاء الحقيقيّ، انقضّ عليهم للتوّ من دون سابق إنذار. وأنّه هذه المرّة سيخلّف آثارًا مزمنة.

(23)

كان فرناندينو مستلقيًا على السرير في غرفته، سارح النظرات إلى شبّاك المنور. الغرفة، أو ركن المهملات كما يسمّيها الجميع، يحدّها جدار عن المغسلة، ولطالما ذكّرته بمشاهد عن غوّاصات رآها في العروض الصباحيّة لسينما كابيتول، لكنّها كانت أضيق وأقلّ ترحابًا. وعلى الرغم من هذا كان فرنانديتو، في عصر ذلك اليوم، في سابع سماء بفضل وبسبب مناورات هرمونيّة كان يظنّها روحيّةً وصوفيّة. الحبّ، ذو الجلالة والتنّورة الفتّانة، طرق بابه. لم يطرق بابه عمليًّا، إنّما ظهر أمام ناظريه، لكنّه فكّر أنّ القدر - مثل ألم الأسنان - لا يتركك في حال سبيلك إذا طرق بابك مرّتين. لاسيّما فيما يخصّ عذابات الغرام.

وكان التجلّي الذي استطاع أن يطرد شبح أليثيا الشرّير إلى الأبد، والسحر الذي فتن روحه في بداية مراهقته، قد حصل منذ أيّام. فالحبّ، وإنْ كان مُحبَطًا، يقود إلى حبٍّ آخر. هكذا كانت تقول أغاني البوليرو التي رغم شديد حلاوتها المماثلة لمعجّنات القشطة، فإنّها كانت محقّة على الإطلاق في علوم الحبّ. اقتاده حبُّه الأبله والواهم للآنسة أليثيا، في ذلك الفصل من المخاطر والمناوشات، إلى التعرُّف على عائلة سيمبيري والحصول على فرصة عملٍ عرضها عليه بائع الكتب الطيّب. ومن هناك عَبَرَ إلى الجنّة بمناسبة لطيفة.

حدث الأمر ذات صباحٍ قَدِمَ فيه إلى المكتبة لإنجاز مهامه في المحاسبة. وكانت هناك فتاةٌ ذات جاذبيّة مربكة ولكنة سلسة تطوف في أنحاء المحلّ. تجيب على اسم صوفيا، بحسب نبرة المحادثة عند آل سيمبيري. علم فرنانديتو، بعد أبحاث مضنية، أنّ البنت قريبةٌ للسيّد سيمبيري وابنة خالة دانيال. يبدو أنّ والدة دانيال، إيزابيلا، تنحدر من أصول نابوليتانيّة، وأنّ صوفيا المولودة في نابولي كانت تقضي فترةً مع عائلة سيمبيري للدراسة في جامعة برشلونة، وكانت تتقن الإسبانيّة. كلُّ هذه تفاصيل تقنيّة، بطبيعة الحال.

تكرَّست نسبةُ ثمانين بالمئة من الكتلة الدماغيّة لفرنانديتو، كيلا نتحدّث عن أحشاء أخرى وصغري، تكرّست لتأمّل صوفيا وعشقها. لا بدّ أنّ الفتاة في حدود التاسعة عشرة، عامًا أكثر أو عامًا أقلّ. وقد جادت عليها الطبيعة، بقسوتها الهائلة تجاه الصبية الخجولين في تلك السنّ، بجملة من الانتفاخات والتثنيّات والغنج في المشي، ما قاد فرناندينو المتأمّل إلى حالةٍ أشبه بالسكتة التنفّسيّة. عيناها، شفتاها، وأسنانها البيضاء ولسانها الزهريّ الذي يتبدّى كلّما ابتسمت، كانت تشوّش فرنانديتو المسكين، وتجعله يقضي ساعاتٍ عديدة وهو يتخيّل أصابعه تداعب ذلك الفم الشبيه بعصر النهضة، ويلمس عنقها الناصع نزولًا صوب وادي الفردوس المتضخّم - تحت الكنزات الصوفيّة المتأجّجة التي تزدهي بها الفتاة - والذي يثبت أنّ الطليان أساتذة في فنّ العمارة على الدوام.

أغمض فرنانديتو عينيه ونسي صخب الراديو في صالة الطعام وصباح الجيران، ليتخيّل صوفيا مستلقية وذابلة على سرير من أزهار، أو أيّ نبتة أخرى لها بتلات عند الحاجة، تعرض نفسها عليه وهي في أرقِّ مواسم ربيعها، حتّى يأتي بيده العازمة والخبيرة بفتح كلّ الأقفال والمغاليق والألغاز

الأخرى للأنوثة الخالدة، فيقطف أوراقها بالقبلات، أو بالعضّات، لينتهي بإغراق وجهه في تلك الساقية المثاليّة التي لا مثيل لها والتي أحسنَتِ السماء في اختيار موقعها ما بين السُّرّة والحالب عند كلّ امرأة. غفا فرنانديتو حينذاك، متيقّنًا من أنّ الربّ مولانا إذا عاقبه في تلك اللحظة بصاعقة فتّاكة على خياله القذر، فإنّ ذلك عمومًا يستحقّ العناء.

ونظرًا إلى انعدام الصاعقة المطهِّرة، رنّ الهاتف. اقتربت خطواتُ مدحلةٍ في الممرّ، وانفتح بابُ ركن المهملات على حين غرّة ليكشف عن جسد والده المكتنز، بثيابه الداخليّة وسراويله وشطيرة النقانق في يده، ليقول له:

- انهض أيّها التنبل. المكالمة لك.

هاجر الجثّة ليجرجر نفسه إلى آخر الممرّ. كان الهاتف في زاوية ضيّقة، تحت مجسّمٍ بلاستيكيّ للمسيح اشترته والدته من مونتسيرات، والذي كانت عيناه تلمعان كلّما كُبِسَ على زرّ الضوء، وتهيمان في وميض خارق للمألوف كلَّف فرنانديتو كوابيسَ كثيرة على امتداد أعوام. ما إن رفع السمّاعة، حتى أطلّ شقيقه فولخنثيو ليمارس موهبته الكبرى في التنصُّت والتظارُف.

- فرنانديتو؟ - سأله الصوت.

- أجل؟

- أنا أليثيا.

شعر بغصّةٍ في فؤاده.

- هل تستطيع أن تتحدّث؟ - سألته.

رمى فرنانديتو شقيقه بفردة النعل على وجهه، فلاذ في غرفته.

- أجل. هل أنتِ بخير؟ أين أنتِ؟

- اسمعني جيّدًا، فرنانديتو. عليَّ أن أتغيَّب بعض الوقت.

- هذا لا ينبئ بالخير.

- أطلب منك معروفًا. أمرٌ مهم.

- ما تشائين.

- هل ما تزال لديك الأوراق التي كانت في تلك العلبة التي قلت لك أن تأخذها من بيتي؟

- أجل. وهي في مكان آمن.

- أريدك أن تبحث فيها عن دفتر مكتوب بخطّ اليد وعنوانه «إيزابيلا» على الغلاف.

- لا أعرف أيّ دفتر هو. فأنا لم أفتح العلبة. إياكِ أن تظنّي بي.

- أعرف أنّك أمين. ما أطلبه منك هو أن تعطيه لدانيال سيمبيري.

له حصرًا. مفهوم؟

- أجل...

- قل له إنّي قلت لك أن تسلّمه له شخصيًّا. لأنّ الدفتر له، لا لأيّ أحدٍ آخر.

- أجل يا آنسة أليثيا. أين أنتِ؟

- لا يهمّ.

- هل أنتِ في خطر؟

- لا تقلق بشأني، فرنانديتو.

- بالتأكيد لا أقلق...

- شكرًا لك على كلّ شيء.

- هذا يبدو وداعًا.

- كلانا يعرف أنّ المبتذلين وحدهم مَن يقولون وداعًا.

- لا يمكن أن تكوني مبتذلة أبدًا. مهما حاولتِ.

- أنت صديقٌ وفيّ يا فرنانديتو. ورجلٌ شهم. صوفيا امرأةٌ محظوظة.

تضرّج وجهه كالجمر.

- كيف عرفتِ...؟

- إنّي سعيدة لأنّك وجدتَ أخيرًا من تستحقّك.

- لا امرأة ستكون مثلكِ، آنسة أليثيا.

- ستفعل ما طلبته منك؟

- كوني على اطمئنان.

- أودّك كثيرًا، فرنانديتو. احتفظ بمفاتيح الشقّة. إنّه بيتك. وكن سعيدًا. وانسني.

وقبل أن يفتح فمه للردّ، أنهت أليثيا المكالمة. مضغ فرنانديتو ريقًا، وأغلق السمّاعة بدوره وهو يمسح دموعه.

(24)

خرجت أليثيا من كابينة الهاتف. كانت سيّارة الأجرة تنتظرها على بعد أمتار. أخفض السائق نافذته وكان يدخّن سيجارة سارح البال. وحين رآها عائدة، تهيَّأ لرمي العقب.

- هل نذهب؟

- لحظة واحدة. أَنهِ السيجارة.

- سيغلقون الأبواب خلال عشر دقائق... - قال السائق.

- خلال عشر دقائق سنكون قد خرجنا. - ردّت أليثيا.

صعدت السيّارة التلَّ إلى أن وصلت قبالة الغابة الضخمة المكوّنة من الأضرحة والصلبان والملائكة والغراغيل التي تغطّي سفح الجبل. كان الغروب يجرّ كفنًا من سُحُبٍ حمراء فوق مقبرة مونتويك. وكانت ستارةٌ من ندف الثلج تتمايل في الريح لتنثر بقعًا من البلّور على مرورها. توغّلت أليثيا في الدرب وصعدت عتبات حجريّة تقودها إلى سياجٍ مسكون بالقبور والمنحوتات التي تجسِّد شخوصًا غرائبيّة. وهناك تنتصب شاهدةٌ محنيّة على الجانب، بانعكاس ضوء البحر المتوسّط.

إيزابيلا سيمبيري

1939 – 1917

قرفصت أليثيا أمام القبر وحطّت يدها على الشاهدة. تذكّرت الوجهَ الذي رأته في الصور في بيت السيّد سيمبيري والصورة التي احتفظ بها المحامي بريانس من زبونته القديمة، وربّما حبيبته التي لم يصارحها بحبّه. تذكّرت الكلمات التي قرأتها في الدفتر وأدركت أنّها لم يسبق لها أن كانت قريبة من شخصٍ ما في حياتها كقربها من تلك المرأة الراقدة بجانبها، مع أنّها لم تعرفها شخصيًّا.

- لعلّ الأفضل ألّا يعرف دانيال الحقيقة، وألّا يجد وسيلةً للعثور على ڤايس ليشفي غليله بالانتقام. لكنّي لا أستطيع أن أقرّر نيابةً عنه. – قالت – اعذريني.

فتحت أليثيا المعطف الذي أخذته من الحارس العجوز وأخرجت من جيبها التمثال المنحوت الذي أهداه لها. تمعّنت بذلك الملاك الصغير ذي الجناحين المنبسطين الذي اشتراه إسحاق من أجل ابنته نوريا في إحدى الأسواق الصغيرة التي تبيع مجسّمات الميلاد المعظّم قبل سنوات كثيرة، والذي أخفت في داخله رسائل وأسرار لوالدها. فتحته وتأمّلت العنوان الذي كتبته على بطاقة ورقيّة صغيرة في طريقها إلى المقبرة.

ماوريسيو ڤايس

إل بينار

شارع مانويل آرنوس

برشلونة

كوَّرت البطاقة وأدخلتها في جوف الملاك. أغلقت الغطاء ووضعت التمثال أسفل الشاهدة بين أواني الأزهار المتيبّسة.

- فليقرّر القدر. - غمغمت.

عندما عادت إلى التاكسي، كان السائق ينتظرها متكئًا على السيّارة. فتح لها الباب وجلس إلى دفّة القيادة. رمقها من خلال المرآة وانتظر. بدت أليثيا تائهة في نفسها. رآها تفتح الحقيبة وتُخرِج علبة حبوب بيضاء. أخذت منها حفنة ومضغتها. فمرّر إليها السائق مطرةً كان يحتفظ بها تحت المقعد الجانبيّ. شربت أليثيا. ورفعت أنظارها أخيرًا.

- والآن؟ - سألها السائق.

أرته رزمة من النقود.

- ألفا بيسيتا على الأقلّ. - ارتجل.

- ثلاثة آلاف. - حدّدت أليثيا - كلّها لك إن وصلنا إلى مدريد قبل الفجر.

(25)

توقّف فرنانديتو في الجانب الآخر من الشارع ونظر إلى دانيال من خلال واجهة المكتبة. كان الثلج يتساقط عندما خرج من البيت، وبدت الطرقات خالية من المارّة إلا قليلًا. راقبه بضع دقائق، ليتأكد ممّا إذا كان بمفرده. وحين اقترب من الباب ليضع لافتة «مغلق»، ظهر الفتى من الظلّ وتموضع أمامه بابتسامة جامدة على وجهه. نظر إليه دانيال متفاجئًا وفتح الباب.

- فرنانديتو؟ إن كنتَ تبحث عن صوفيا، فإنّها ستبقى هذا المساء عند إحدى صديقاتها في ساريا. عليهما إنهاء واجبات و...

- لا. كنت أبحث عنك.

- عني أنا؟

أومأ فرنانديتو.

- ادخل.

- هل أنت بمفردك؟

نظر إليه دانيال مستغربًا. دخل الفتى إلى المكتبة وانتظر ان يغلق سيمبيري الباب.

- تفضَّل.

- لديَّ غرضٌ من قِبَلِ الآنسة أليثيا لك.

- هل تعلم أين هي؟

- لا.

- فما الغرض إذن؟

تردّد فرنانديتو برهةً ثم أخرج من جيب سترته الداخليّ دفتر مدرسة. وأعطاه له. أخذه دانيال، مبتسمًا لسذاجة مظهر تلك الهالة من اللغز. وما إن قرأ الكلمة على غلاف الدفتر، تبدّدت ابتسامته.

- حسنٌ... - قال فرنانديتو - سأذهب. ليلة سعيدة، سيّد دانيال.

أومأ دانيال دون أن يرفع ناظريه عن الدفتر. وحين غادر الفتى، أطفأ الأضواء ولاذ بالمستودع الخلفيّ. جلس إلى الطاولة القديمة التي كانت لجدّه، وأضاء المصباح وأغلق عينيه بضع ثوان. شعر بنبض قلبه يتسارع ويديه ترتجفان. كانت أجراس الكاتدرائيّة في البعيد ترنّ عندما فتح الدفتر وباشر القراءة.

اسمي إيزابيلا خيسبرت وقد ولدت في برشلونة عام 1917. عمري اثنان وعشرون عامًا وأعرف أنّي لن أتمّ الثالثة والعشرين أبدًا. أكتب هذه الصفحات متيقّنةً بأنّ أيّامي في الحياة معدودة، وأنّي

سأترك عاجلًا أولئك الذين لهم فضلٌ عليّ في هذا العالم: ابني دانيال وزوجي خوان سيمبيري، أطيب رجلٍ عرفته. سأموت وأنا لا أستحقّ الثقة والحبّ والإخلاص الذي منحني إيّاه. أكتب لنفسي أنا، حاملةً معي أسرارًا ليست لي، وأنا موقنة بأن لا أحد سيقرأ هذه الصفحات. أكتب كي أتذكّر وأتشبّث بالحياة. طموحي الوحيد أن أتذكّر وأن أفهم مَن كنتُ ولماذا فعلتُ ما فعلتُ، ما دمتُ قادرة على ذلك، قبل أن يهجرني الوعي الذي أشعر أساسًا بأنّه منهك. أكتب مع أنّ الكتابة تؤلمني، لأنّ الفقدان والعذاب هما كلّ ما يجعلني على قيد الحياة، ولأنّي أخاف من الموت. أكتب لكي أروي في هذه الصفحات ما لا أستطيع أن أرويه على مسامع من أحبّ، لئلا أجرحهم وأعرّض حياتهم للخطر. أكتب لأنّي ما دمتُ قادرة على التذكّر سأبقى معهم لدقيقة أخرى...

دفتر إزابيلا

1939

اسمي إيزابيلا خيسبرت وقد ولدت في برشلونة عام 1917.

عمري اثنان وعشرون عاما وأعرف أني لن أتم الثالثة والعشرين أبدا. أكتب هذه الصفحات متيقنة بان أيامي في الحياة معدودة، وأني سأترك عاجلا أولئك الذين لهم فضل علي في هذا العالم: ابني دانيال وزوجي خوان سيمبيري، أطيب رجل عرفته. سأموت وأنا لا أستحق الثقة والحب والإخلاص الذي منحني إياه. أكتب لنفسي أنا، حاملة معي أسرارا ليست لي، وأنا موقنة بأن لا أحد سيقرأ هذه الصفحات. أكتب كي أتذكر وأتشبث بالحياة. طموحي الوحيد أن أتذكر وأن أفهم من كنت ولماذا فعلت ما فعلت، ما دمت قادرة على ذلك، قبل أن يهجرني الوعي الذي أشعر أساسا بأنه منهك. أكتب مع أن الكتابة تؤلمني، لان الفقدان والعذاب هما كل ما يجعلني على قيد الحياة، ولأني أخاف من الموت. أكتب لكي أروي في هذه الصفحات ما لا أستطيع أن أرويه على مسامع من أحبّ، لئلا أجرحهم وأعرّض حياتهم للخطر. أكتب لأني ما دمت قادرة على التذكر سأبقي معهم لدقيقة أخرى...

(1)

إنّ صورة جسدي الذي يتشوّه في مرآة غرفة النوم هذه، تجعلني لا أصدِّق بسهولة، ولكنّي ذات مرّة، ومنذ زمن بعيد، كنتُ طفلة. كان لدى عائلتي دكّانه لبيع الأغذية بجانب كاتدرائيّة سانتا ماريا دل مار، وكان بيتنا خلف الدكّانة. هناك حيث كان لدينا فِناءٌ نرى من خلاله الكاتدرائيّة برمّتها. حين كنت صغيرة، كنت أحبُّ أن أتخيَّلها قلعةً مسحورة تخرج في كلّ ليلة للمشي في طرقات برشلونة وتعود عند الفجر لتنام تحت الشمس. تنحدر عائلة والدي، آل خيسبرت، من سلالة عريقة من تجّار برشلونة؛ أمّا عائلة والدتي، آل فيرّاتيني، فتنحدر من سلالة بحّارةٍ وصيّادين نابوليتانيّين. فورثتُ طابع جدّتي من أمّي، جدّتي التي كانت امرأة ذات طبيعة بركانيّة، وكانوا يسمّونها «ڤيزوڤيا» على اسم بركان نابولي. كنّا ثلاث شقيقات، مع أنّ والدي كان يؤكّد أنّ لديه ابنتين وحمارة. لقد وودتُ والدي كثيرًا، على الرغم من التعاسة التي أحاطني بها. كان رجلًا طيّبًا يحسن التعامل مع الموادّ الغذائيّة لا مع البنات الصغيرات. ولطالما قال خوريُّ العائلة إنّ جميع البشر يأتون إلى هذه الدنيا لغايةٍ معيّنة، وإنّ غايتي هي الاعتراض. إذ كانت شقيقتاي الكبريان أرقَّ منّي كثيرًا. غايتهما واضحة: زيجةٌ موفَّقة وارتقاءٌ في الحياة وفقًا لما تقتضيه أصول الأخلاق الاجتماعيّة. أمّا أنا، لسوء حظّ والديَّ المسكينين، فقد أعلنتُ التمرُّد في سنّ الثامنة، وصرَّحتُ بأنّي لن أتزوَّج أبدًا، وأنّي لن أرتدي المئزر حتى لو وقفتُ أمام كتيبة إعدام، وأنّي أريد أن أصبح كاتبة وغوَّاصة (في تلك الآونة أمدَّني جول فيرن بأفكار متخبّطة عن هذا الموضوع). وكان والدي يلقي اللائمة على الأخوات برونتي، اللواتي كنتُ غالبًا ما أستشهد بهنّ بإجلال. كان يظنّ أنّهنّ جماعة سريّة من الراهبات التحرّريات، اللواتي تخندقن بجوار بوّابة كنيسة سانتا مادرونا، وفقدن صوابهنّ أثناء اضطرابات الأسبوع المأساويّ، وبتن يدخِّنَّ الأفيون ويرقصن متراصّاتٍ بعضهنّ على بعض بعد منتصف الليل. «لن يحدث لها شيءٌ كهذا لو أنّنا أدخلناها دير الأخوات التيريزيّات» - كان يشتكي. أعترف أنّي لم أنجح في أن أكون الابنة التي رغب بها والداي، ولا الفتاة التي يتوقّعها هذا العالم الذي ولدتُ فيه. أو بالأحرى، عليَّ أن أقول إنّي لم أشأ. فلقد كنت دائمًا أفعل خلاف ما يقوله الجميع، والداي، وأساتذتي، في الوقت الذي يضيقون فيه ذرعًا من كلامي ومن الشجار معي.

لم يكن اللعب مع بقيّة البنات يستهويني؛ إذ كان اختصاصي هو قطع أعناق الدمى بالمقلاع. وكنت أفضِّل اللعب مع الأولاد، الذين من السهل قيادتهم، وكانوا سرعان ما يكتشفون أنّي أفوز عليهم دائمًا، وهكذا بدأتُ ألعب وحيدةً. أعتقد أنّه منذئذٍ باغتني الشعور بالاستبعاد والانفصال عن الآخرين. وكنت في ذلك أشبه والدتي التي اعتادت أن تردّد أنّنا جميعًا وحيدون في النهاية، لاسيّما الإناث منّا. كانت والدتي امرأة حزينة لم أتوافق معها على الإطلاق، ربّما لأنّها كانت الوحيدة التي تفهمني قليلًا. توفّيت عندما كنت طفلة. فتزوَّجَ والدي من أرملة من بلد الوليد، لم أستلطفها البتّة، فعندما نتواجد بمفردنا كانت تناديني بالعاهرة الصغيرة.

ولم أدرك أنّي أحنّ إلى والدتي إلّا حين ماتت. ولعلّ هذا ما دفعني لارتياد المكتبة الجامعيّة؛ لأنّ والدتي قبل رحيلها أمَّنت لي بطاقة اشتراك دون أن تخبر والدي بذلك، إذ كان يعتقد أنّني يجب أن

أدرس المبادئ الدينيّة فقط وأن أقرأ حياة القدّيسين. أمّا زوجة والدي فكانت تكره الكتب. وكانت تشعر بالإهانة بمجرّد وجود كتاب بقربها، فتعمد إلى إخفاء الكتب في قاع الخزانة لئلا تشوّه منظر البيت.

وفي المكتبة تغيَّرت حياتي. لم أمسّ الكتب الدينيّة حتى عن طريق الخطأ، ولم أقرأ من حياة القدّيسين إلّا حياة القدّيسة تيريزا التي قرأتها بمتعة حقيقيّة. فحياتها محبوكةٌ بتلك النشوة الغامضة التي تقود إلى حبّ الإله، وكنت أربطها بأفعالٍ لا يمكنني الاعتراف بها ولا أجرؤ على قصِّها حتى لهذه الصفحات. وفي المكتبة، قرأتُ كلَّ الكتب التي سمحوا لي بقراءتها، وأيضًا تلك التي نهاني أحدهم عن قراءتها. السيّدة لورينا، أمينة المكتبة الحكيمة التي كانت تتجوّل في تلك الأنحاء بعد الظهر، كانت تُعِدَّ لي دائمًا كومة من الكتب التي تصفها بـ«الكتب التي يتوجَّب على كلِّ فتاةٍ قراءتها، والتي يرفض الجميع أن يقرأنها». كانت السيدة لورينا تقول إنّ مستوى الهمجيّة في مجتمعٍ ما يُقاس بالمسافة التي يسعى هذا المجتمع لفرضِها بين النساء والكتب. «لا شيء يُرهِب الرجال الأفظاظ أكثر من امرأة تجيد القراءة والكتابة والتفكير، بل وترتدي ما يُبرِزُ ركبتيها أيضًا». زجّوا بها في سجن الإناث، خلال الحرب، وقيل إنّها انتحرت مشنوقة في زنزانتها.

لقد عرفتُ منذ البدء أنّي أريد أن أحيا بين الكتب، وبدأتُ أحلم أنّ قصصي ستُجمَعُ يومًا ما في واحدٍ من الكتب التي أقدِّسها كثيرًا. لقد علَّمتني الكتب أن أفكِّر، وأن أشعر، وأن أعيش ألف حياة. لا أخجل من الإقرار بأنّي - كما تنبّأت السيّدة لورينا - بدأتُ أشعر في لحظةٍ ما بالحبّ تجاه الشبّان. كثيرًا. بإمكاني أن أروي عن مشاعري في هذه الصفحات، وبإمكاني أن أضحك من ارتجاف ساقيّ حين كنت أرى بعض الحمّالين يشحنون الصناديق في سوق بورني وينظرون إليّ بابتسامةٍ جائعة، فيما أجسادُهم مرصَّعةٌ بالعرق وجلودُهم ضاربةٌ إلى الاسمرار حتّى خِلت أنّها بنكهة الملح. «ما الذي أهوى فعله بكِ يا حلوة» - قال لي أحدهم ذات مرّة، قبل أن يحبسني والدي في البيت مدّة أسبوع، كرَّستُه لشطحات خيالي حول ما كان يهوى فعله بي ذلك الشجاع وشعرت أني مثل القدّيسة تيريزا بعض الشيء.

الحقّ يقال، لم يكن الفتية الذين في عمري يهمّونني كثيرًا، لا بل كانوا يخافون منّي لأنّي غلبتهم في كلّ شيء، ما عدا في منافساتهم على القدرة على التبوُّل أبعد من الآخرين في وجه الريح. فأنا مثل جميع الفتيات اللواتي في عمري، سواء اعترفن بهذا أم لا، كنت أستهوي الشبّان الأكبر سنًّا، خصوصًا أولئك الذين ينتمون إلى الفصيلة المحدّده من قِبَلِ جميع الأمّهات في العالم، ألا وهي: «الرجال الذين يناسبونكِ». لم أكن أتدبَّر أمري أو أنتهز الفرصة جيّدًا، في البداية على الأقلّ، لكنّي سرعان ما بتّ أفهم متى أنال إعجابهم. تبيَّنَ أنّ معظم الفتيان هم على خلاف ما تُظهِرهم الكتبُ؛ إذ كانوا بسطاء، ويبدو ذلك جليًّا من الوهلة الأولى. أتصوَّر أنّني لم أكن يومًا تلك الفتاة التي توصَفُ بالفتاة الطيّبة. مَن منّا تريد أن تكون فتاةً طيّبة بكامل إرادتها وعفويّتها؟ أنا، لا. كنت أحاصر الفتية الذين ينالون إعجابي خلف بوّابة إحدى البنايات، وآمرهم أن يقبِّلوني. وبما أنّ أغلبهم كانوا يموتون خوفًا أو لا يعرفون من أين يبدأون، فكنت أبادر بنفسي إلى تقبيلهم. وصلت فعلاتي إلى آذان خوريّ الحيّ، فاعتقد أنّه من الضروريّ الإسراع مباشرةً إلى طرد الأرواح الشرّيرة التي خلَّفت آثار مَسٍّ لا ريب فيه. أصيبت زوجة والدي بأزمة عصبيّة مدّة شهر، ثمرةً للعار الذي جئتُها به. وبعد تلك الحادثة، قالت إنّي لن أصير في المستقبل إلّا راقصة في الملاهي أو أن ينتهي

بي المطاف «في الشارع»، تعبيرها المفضّل. «وحينها لن يرغب بكِ أحد، أيّتها العاهرة الصغيرة». أمّا والدي، الذي ضاق ذرعًا بتصرُّفاتي، فباشر بإجراء المعاملات ليسجِّلني في مدرسة داخليّة دينيّة في منتهى التشدُّد والتزمُّت. إلّا أنّ سمعتي سبقتني، وما إن عرفوا أمري حتّى رفضوا قبولي خشية أن أسبِّب العدوى للتلميذات الأخريات. أكتب كلَّ هذا بلا خجلٍ لأنّني أعتقد أنّي كنت بريئة جدًّا في مراهقتي. جرحتُ قلوب بعض الشبّان، لكنّي لم أفعلها عمدًا أو خبثًا، وكنت أفكّر حينها أنّه ما من أحد سيجرح قلبي.

لم تفقد زوجة والدي الأمل، وهي التي أعلنت نفسها مؤمنة مخلصة لعذراء لورد، وكانت تتوسّل إليها بلا هوادة كي أعقل، أو يدهسني الترام لإزالتي عن وجهها إلى الأبد. وكان خلاصي، وفقًا لنصائح الخوريّ، يمرّ عبْر توجيه غرائزي المتهيّجة إلى الرشد الكاثوليكيّ والرسوليّ. أعدَّوا خطّة عاجلة لتزويجي بالحسنى أو بالإكراه من ابن الفرّان وزوجته اللذين كان مخبزهما في آخر شارع فلاساديرس، بيثنتيت، الذي بدا لوالديَّ صالحًا للزواج، كان بيثنتيت حلوَ الروح كالسكّر المسحوق، ورقيقًا وطريًّا مثل الكرواسان الذي تصنعه والدته. كنت سآكله في باكر الصباح، وكان المسكين يعلم ذلك. إلّا أنّ كلًّا من العائلتين تطلَّعت إلى هذا الزواج كمن يضرب عصفورين بحجرة واحدة. تأمين الولد، وإعادة العاهرة الصغيرة إلى جادّة الصواب.

كان بيثنتيت يعشقني، فليباركه الربُّ من بين الفرّانين. كان يعتبرني أجمل وأنقى شيء في الوجود، يا للمسكين. وكلّما مررتُ بجانبه نظر إليّ كالحمل المذبوح، يحلم بمأدبة زفافنا في مطعم سيتي بويرتاس، ورحلة العرس على متن النوارس حتى كاسر الأمواج المقابل للميناء. وبطبيعة الحال، ما كان مني إلّا أن جعلته تعيسًا. لسوء حظّ كلّ الذين اسمهم بيثنتيت في العالم، وهُم ليسوا قلّة، فإنّ قلب الفتاة مثل بسطة المفرقعات تحت شمس الصيف. بيثنتيت المسكين، كم تعذَّبَ بسببي! قالوا لي إنّه في نهاية المطاف تزوَّج بابنة عمّه، قريبته من الدرجة الثانية، من ريبول، قبل أن تصبح عانسًا، إذ كانت لا تجد بدًّا من الزواج حتى بتمثال الجنديّ المجهول إن كان في ذلك نجاتُها من الدير. وهكذا واظبا على إنجاب الأطفال والمعجّنات إلى هذا العالم. فانظر ماذا أضاع.

وكما كان متوقّعًا، لم أشعر بأيّ ذنب. وآلت بي الأمور إلى ما كان والدي يخشاه على الدوام، أكثر من احتمال أن تعيش حماته ڤيزوڤيا عنده. كان أشنع كوابيسه - بما أنّ الكتب سمّمت دماغي المحموم - أن أقع في غرام أسوأ الكائنات، وأشدّها جحودًا وقسوةً وهمجيّة على وجه الأرض والكون بأسره؛ المخلوق الذي كانت غايته الأساسيّة في الحياة، فضلًا عن إرضاء غروره، هي إتعاس المساكين الذين يرتكبون خطأ فادحًا في إبداء مودّتهم تجاهه: كاتب. للدقّة. لا شاعر؛ فهذا النوع بالنسبة إلى والدي شبيهٌ بما يسمِّيه بالحالم المسالم، الذي من الممكن إقناعه بالذهاب للبحث عن عمل مشرِّف في دكّانة خضروات وتخصيص أمسيات الأحد بعد العودة من الصلاة لكتابة الأشعار. كلا. كان يقصد النوع الأسوأ من الفصيلة كلّها: روائيّ. لا صلاح لهؤلاء، بل إنّهم غيرُ مُرحَّبٍ بهم حتّى في جهنَّم.

الكاتب الوحيد الذي له وجود حقيقيّ، بلحمٍ وعظمٍ، في محيطي كان رجلًا غريب الأطوار إلى حدٍّ ما، كي لا نغلط في حقّه، يتجوّل في الحيّ. كشفت تحقيقاتي أنّه يعيش في فيلا سيّئة السمعة على بعد أمتار من مخبز عائلة بيثنتيت في شارع فلاساديرس. فالعجائز، والموظّفون في السجلّ

العقاريّ، والحارس الليليّ سوبونشيو الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة في الحيّ، كانوا يقولون إنّ المسكن مسحور، وإنّ ساكنه يبدو مختلًّا بعض الشيء. وكان اسمه دافيد مارتين.

لم أكن قد رأيته من قبل، يُفتَرض أنّه لا يخرج إلّا في الليل لارتياد الأماكن والأوساط التي لا تناسب الآنسات أو الأشخاص المحترمين. لكنّي لم أعبأ بهذا أو ذاك، فأعددتُ خطّةً لكي تتصادم مصائرنا مثل قطارين خارجين عن السيطرة. ولم يكن يعلم ذلك، دافيد مارتين الروائيّ الوحيد الذي يعيش على بُعد خمسة شوارع من بيتي، لكنّ حياته سرعان ما كانت ستتغيّر. نحو الأفضل. فالسماء أو الجحيم سيرسل إليه ما كان في حاجة إليه تمامًا لإصلاح حياته المنحلّة: متمرِّنة، إيزابيلا العظمي.

(2)

لن أخوض في كيف أصبحتُ المتمرّنة الرسميّة عند دافيد مارتين، فهي قصّة طويلة ومسهبة. ولأنّي عرفتُه جيّدًا، لا أتعجَّب إن كان دافيد نفسه قد ترك للقصّة ملخَّصًا بخطّ يده. وبكلّ تأكيد لا يمكن أن تكون شخصيّتي هي البطلة فيه. بأيّ حال، وعلى الرغم من مقاومته الفولاذيّة، نجحتُ في الانسلال إلى بيته، إلى حياته الغريبة، إلى ضميره الذي كان مسحورًا أيضًا. ولعلَّه القدر، أو الواقع أنّ دافيد مارتين كان ذا روح معذَّبة، يجهل أنّه في حاجة إليّ بقدر ما كنتُ في حاجةٍ إليه. أرواحٌ هائمة تتلاقى في منتصف الليل، كتبتُ في تلك الآونة مسوَّدة قصيدة ميلودراميّة من باب التمرُّن، أنّ مرشدي الجديد معرَّضٌ لخطورة الإصابة بمرض السّكَّريّ. وكان كذلك حقًّا.

وفي كثير من الأحيان فكّرتُ أنّ دافيد مارتين كان الصديق الأوّل والحقيقيّ لي في هذه الحياة بعد السيّدة لورينا. كان يكبرني بضِعف أعوامي، ويبدو لي أحيانًا أنّه عاش مئة حياة قبل أن يعرفني، لكنّي حين كان يرفض صحبتي أو حين نتشاجر من أجل ترّهات، كنتُ أشعر أنّني قريبة منه لدرجة أنّني أستوعب رغمًا عنّي - مثلما كان يسخر في بعض المناسبات - أن «الجحيم يخلقهم فتتآلف قلوبهم». كان دافيد، مثل جميع الأشخاص الطيّبين، يتخندق خلف التهكُّم والجلافة، لكنّه كان معي صبورًا وكريمًا على الرغم من محاولاته إخفاء ذلك، وعلى الرغم من سهامه اللّاذعة التي كان يرميها إليّ (ليست أكثر من تلك التي كنت أرميه بها، لنكن منصفين).

علَّمني دافيد مارتين أشياء كثيرة: إنشاء جملة، تشبيه اللغة وأساليبها بأوركسترا تواجه صفحة بيضاء، تحليل النصّ وتحديد شكله والغاية منه... علّمني القراءة والكتابة من جديد، ولكنْ هذه المرّة آخذةً بالعلم بما أقوم به، ولماذا أقوم به وإلى أين أنوي الوصول. وكيف، على وجه التحديد. لم يكن يتعب من التكرار على مسامعي أنّ الأدب لا يحتوي إلّا على موضوع واحد حقيقيّ: لا ما نرويه، إنّما كيف نرويه. أمّا ما تبقّى، على حدّ وصفه، فكان مجرَّد ديكور. كان يقول لي أيضًا إنّ الكتابة مهنةٌ ينبغي تعلُّمها ولكنْ من المستحيل تعليمها. «من يعجز عن فهم هذا المبدأ، فمن الأفضل أن يكرّس نفسه لشيء آخر، ففي هذه الحياة ثمّة أشياء كثيرة يجدر فعلها». كان رأيه أنّ حظوظي في أن أصبح كاتبة أقلّ من حظوظ إسبانيا في أن تصبح أمّة واعية. لكنّه وُلدَ متشائمًا، أو كما يفضِّل تسمية نفسه «الواقعيّ العارف»، وهكذا آمنتُ بمؤهلاتي وعزمتُ العقد على معاندته.

تعلَّمتُ على يديه أن أتقبَّل نفسي كما أنا، وأن أفكّر بما يعود بالنفع عليّ بل وأن أحبَّ نفسي قليلًا. وأصبحنا صديقين، صديقين وفيّين، في الفترة التي قضيتها في بيته المسحور. دافيد مارتين كان رجلًا وحدانيًّا يحرق الجسور التي تصله بالعالم دون أن يعي ذلك، أو ربّما كان يفعلها بشكلٍ مدروس لأنّه يظنّ أنّه ما من شيء مفيد سيعبرها. روحه محطَّمة، مثل بطاقةٍ مفكّكة يحملها في صدره منذ نعومة أظفاره ولم يتمكّن من إعادة تركيبها يومًا. بدأتُ أتظاهر بأنّي أكرهه، ثمّ أخفيتُ إعجابي به وبذلتُ قصارى جهدي كي لا ينتبه أنّه يثير الشفقة في قلبي، الأمر الذي كان يغضبه كثيرًا. وكلّما حاول إبعادي - وقد حاول مرارًا - شعرتُ أنّي قريبة منه. لم أعد أعانده على كلّ شيء، وما أردتُ سوى أن أرعاه. المضحك في صداقتنا أنّني دخلتُ حياته باعتباري متمرّنة، أو ورطة،

لكنّه كان يبدو أنّه ينتظرني طوال حياته. ربّما لأنقذه من نفسه وممّا كان يحبسه في داخله وينهشه حيًّا.

نقعُ في الحبّ عندما لا ندرك أنّنا نحبّ. ولقد وقعتُ في غرام ذلك الرجل المقهور ذي التعاسة العميقة قبل أن أفكّر في أنّه يعجبني. كان يخشى عليَّ من نفسه، وهو الذي يقرأ أفكاري كما لو كنتُ كتابًا مفتوحًا بين يديه. وكانت فكرة أن أباشر العمل في مكتبة سيمبيري وأبناؤه فكرتَه، المكتبة التي كان زبونًا دائمًا لها. وكانت فكرته أيضًا أن يقنع خوان بالتودُّد إليّ، حتى شاءت الأقدار أن يصبح زوجي إذ كان حينها سيمبيري «الابن» فقط. في تلك الفترة، كان خوان خجولًا بقدر ما كان دافيد وقحًا. كما الليل للنهار، بمعنى ما، وهذا صحيح جدًّا لأنّ قلب دافيد كان مسكونًا بالليل على الدوام.

بدأتُ حينذاك أستوعب أنّني لن أصبح كاتبة أبدًا، ولا حتى غوَّاصة، وأنّ الأخوات برونتي كان عليهنَّ أن ينتظرن امرأةً أنقى وأنعم منّي لتحظى بميراثهنّ. وبدأتُ أستوعب أيضًا أنّ دافيد مريض. لقد انفتحت في دواخله هاويةٌ سحيقة؛ وبعد حياةٍ أمضاها في الصراع للحفاظ على رشده، تبيَّنَ أنّه حين دخلتُ حياته كان قد خسر معركته مع نفسه وأوشك على فقدان صوابه، كأنّ صوابه رملٌ يحاول إمساكه بيديه. لو أنّي أطعت الحسّ السليم، لهربتُ راكضةً، لكنّي والحال هذه فقدتُ الرغبة في المعاندة بين جدران العزلة.

مع الوقت، قيل الكثير عن دافيد مارتين، ونُسبِت إليه جرائم فظيعة. أعتقد أنّي عرفته أكثر من أيّ أحدٍ آخر، وسأبقى موقنة بأنّ الجرائم الوحيدة التي ارتكبها دافيد مارتين فعلًا كانت بحقّ نفسه. ولهذا السبب ساعدته على الهروب من برشلونة، بعد أن اتّهمته الشرطة بمقتل المدافع عنه، بيدرو بيدال، وزوجته كريستينا التي كان يظنّ أنّه يحبّها على غرار الطريقة الغبيّة والجنونيّة التي يقع فيها بعض الرجال حين يتوهّمون بأنّهم مغرمون بنساءٍ لا يستطيعون التفريق بينهنّ وبين السراب. لذا صلّيتُ ألّا يعود أبدًا إلى هذه المدينة وأن يجد السلام في مكان بعيد، وأن أستطيع أن أنساه، وأن أقنع نفسي مع مرور الوقت بأنّني استطعت. إنّ الربَّ لا يستجيب لنا إلّا عندما نسأله ما لا حاجة بنا إليه.

أمضيت الأعوام الأربعة اللاحقة في محاولة نسيان دافيد مارتين، ظنًّا منّي أنّي كدت أفعلها. وإذ هجرتُ أحلامي في أن أصبح كاتبة، عشتُ فعليًّا حلمي بأن أحيا بين الكتب والكلمات. فكنت أعمل في مكتبة سيمبيري وأبناؤه، حيث بات خوان ينادي «السيّد سيمبيري» بعد وفاة أبيه. كانت خطوبتنا من النوع الدارج قبل الحرب: غزلٌ معتدل، لثم الخدود، نزهاتٌ في ظهيرة يوم الأحد، ومعانقاتٌ خاطفة تحت خيم أعياد الشكر عندما يتغيّب الأهل. لا وجود لسيقان ترتجف، ولم يكن ثمّة داعٍ لذلك. إذ لا يمكن أن نعيش حياتنا كلّها كما لو كنّا في السادسة عشرة من العمر.

استغرق خوان أبديّة بحالها ليقترح عليّ الزواج، ووافق والدي في غضون ثلاث دقائق، ممتنًّا للقدّيسة ريتا محقِّقة الأمنيات المستحيلة، وهو يتخيَّل ما يصعب تخيُّله: أن يرى ابنته بفستان الزفاف تنحني أمام خوريٍّ وتطيع ما يقول. يا لبرشلونة، مدينة المعجزات. عندما قلت له نعم، كنت مقتنعة بأنّه أفضل رجلٍ عرفته، وأنّي لا أستحقّه، وأنّي عشقته لا بالقلب فحسب إنّما بالعقل أيضًا. كانت موافَقةً ناضجة. كم شعرت أنّني حكيمة! لا بدّ أنّ والدتي فخورة بي. فكلّ

الكتب التي قرأتها عادت بالنفع ولو لمرّة واحدة. وافقتُ عليه وأنا على يقين من أنّي لا أرغب في شيء من الحياة إلّا أن أجعله سعيدًا وأن أبني أسرةً معه. وظننتُ في البدء أنّ الأمور تسير في ذلك المنحى. كنت ما أزال ساذجة.

(3)

الآمال في يد الناس، والمصائرُ يفرضها الشيطان. كان الزفاف سيُجري في كنيسة سانتا آنا، في الساحة الصغيرة خلف المكتبة تمامًا. وُجِّهتِ الدعوات، وطُلِبَتِ المقبّلات، واشتُرِيَتِ الأزهار وحُجِزَتِ السيّارة التي ستأتي بالعروس إلى عتبة الكنيسة. كنت أقول لنفسي كلّ يوم إنّني متحمّسة وإنّي سأنال السعادة أخيرًا. أذكر يوم جمعة من شهر مارس، تحديدًا قبل الزفاف بشهر، كنتُ قد بقيتُ في المكتبة بمفردي، إذ ذهب خوان إلى تيانا لتسليم طلبيّة لأحد الزبائن المهمّين. سمعتُ رنين الجرس المعلّق على الباب، وعندما رفعتُ عينيَّ رأيتُه. لم يكن قد تغيَّر كثيرًا.

كان دافيد مارتين من أولئك الرجال الذين لا يشيخون، أو أنّهم يشيخون في دواخلهم فقط. كان لأيِّ أحدٍ أن يقول، مازحًا، إنّ هذا الرجل لا بدّ وأنّه أمضى عقدًا مع الشيطان. الكلّ ما عداي أنا. لأنّي كنت أعرف أنّه في أوهام روحه كان مقتنعًا أنّ الأمر كذلك حقًّا، رغم أنّ شيطانه الخاصّ كان شخصيّة خياليّة يعيش في أعماق دماغه باسم أندرياس كوريلي، الناشر الباريسيّ والمشؤوم حتى ليبدو خارجًا من قلم دافيد نفسه. كان دافيد في سرّه متيقّنًا من أنّ كوريلي كلّفه بتأليف كتاب ملعون، النصّ المؤسّس لديانة متشدّدة جديدة، قوامها الغلّ والتدمير، تهدف إلى إحراق العالم بالنار إلى أبد الآبدين. كان دافيد يحمل في صدره هذا وأشكالًا أخرى من الهذيان، مؤمنًا بأنّ شيطانه الأدبيّ يلاحقه لأنّه وهو العبقريّ لم تخطر في باله فكرة أفضل من أن يخذله ويمزّق الاتّفاق ويهدم «مطرقة الساحرات» خاصّته في اللحظة الأخيرة، ربما لأنّ الطيبة النورانيّة التي تتحلّى بها المتمرّنة التي لا تطاق أظهرت له النورَ وخطايا مخطّطاته. ولهذا كنتُ أنا موجودة، إيزابيلا العظمي، مع أنّي من حيث الإيمان لا أومن حتّى ببطاقات اليانصيب، لكنّي فكّرتُ أنّ عطور جاذبيّتي الشابّة، إضافةً إلى إقناعه بالكفّ عن تنفُّس هواء برشلونة السيّئ لبعض الوقت (ناهيك بأنّه مطلوب لدى الشرطة) قد يكفي لإشفائه من لوثته وجنونه. ما إن نظرتُ في عينيه، عرفتُ أنّ أربعة أعوام من التشرُّد في عوالمَ لستُ أدريها لم تشفِهِ البتّة. ابتسم لي وقال إنّه اشتاق إليّ، فتفجَّرت روحي وانفجرتُ باكيةً ولعنتُ حظّي. وحين لامس خدّي بيده أدركتُ أنّي ما زلت مغرمة به، دوريان غراي خاصّتي، مجنوني المفضَّل، الرجل الوحيد الذي تمنّيتُ أن يفعل بي ما يشاء.

لا أذكر كلامنا. ما تزال تلك اللحظة مشوّشة في ذاكرتي. أعتقد أنّ كلَّ ما بنيتُه في مخيّلتي خلال سنوات غيابه تهاوى على رأسي في غضون خمس ثوان، وعندما استطعتُ الخروج من بين الأنقاض لم أتمكّن إلّا من كتابة بطاقة لخوان، تركتُها على سجّل الحسابات.

عليَّ أن أرحل. اعذرني يا حبيبي.

إيزابيلا

كنت أعرف أنّ الشرطة ما زالت تبحث عنه، إذ ما مرَّ شهرٌ إلّا ودخل المكتبة أحدُ رجال المباحث يسألنا إن كنّا قد حصلنا على أخبار الهارب. تركتُ المكتبة، وذراعي تشبك ذراع دافيد، وسحبتُه إلى محطة الشمال. كان يبدو متحمّسًا لأنّه عاد إلى برشلونة، وينظر إلى أيّ شيء بحنينٍ محتضرٍ

وبراءةِ طفل. أمّا أنا فكدت أموت خوفًا، ولا أفكّر سوى في مكانٍ أخبِّئه فيه. سألته إن كان هناك ملاذٌ يؤويه ولا يجده أحدٌ فيه ولا يخطر في بال أحد أن يبحث عنه.

- صالة المئة في قصر البلديّة. - قال.

- أتحدث جديًا يا دافيد.

لطالما كنت امرأة تبتكر أعظم الحلول، وفي ذلك اليوم خطر في ذهني أحد أدقِّ الحلول. كان دافيد قد حدّثني ذات مرّة أنّ صديقه ومرشده القديم، الدون بيدرو بيدال، لديه بيتٌ قريب من البحر في زاوية بعيدة من كوستا برافا يدعى ساغارو. وقد أفاد الرجل في عصره الذهبيّ من البيت كمجزرة، المؤسسة الكبرى للبرجوازيّة الكاتالانيّة، أو المكان الذي تُقتاد إليه الآنسات والمومس ومرشَّحاتٍ أخريات للحبّ القصير لإمتاع البشاشة التقليديّة للنبلاء المتناسلين من أرقى العائلات بغية عدم تلطيخ الرابط الزوجيّ الطاهر.

بيدال، الذي كانت لديه أماكن متعدّدة لقضاء تلك الضرورات في أرجاء مدينة برشلونة، لطالما دعا دافيد لاستخدام ملجئه المواجه للبحر كيفما شاء، لأنّه هو وأقاربه يستخدمونه في فصل الصيف فقط، ولفترة لا تتعدّى الأسبوعين حدًّا أقصى. كان المفتاح مخبَّأ دومًا تحت صخرة بالقرب من المدخل. وبالنقود التي أخذتها من خزنة المكتبة، اشتريتُ تذكرتين إلى خيرونا، ومنها تذكرتين إلى سان فيليو دي غويشولس، البلدة التي تبعد كيلومترين عن خليج سان بول، حيث يوجد مخدع ساغارو. لم يعارضني دافيد. أسند رأسه على كتفي طوال الرحلة وغفا.

- لم أنم منذ أعوام. - قال.

وصلنا في المساء، بالثياب التي كانت علينا. وانتهزنا غطاء الليل، فلم نستقلّ عربة من المحطة، بل مشينا سيرًا على الأقدام حتى الفيلا.

وجدنا المفتاح في مكانه. وكان البيت مغلقًا منذ أعوام. فتحتُ كلّ النوافذ على مصاريعها وتركتها على تلك الحال حتى طلع الفجر على البحر والصخور الشاطئيّة. نام دافيد مثل طفل طوال الليل، وعندما لامست الشمسُ وجهه فتح عينيه ونهض واقترب منّي. عانقني بشدّة، وحين سألته لماذا عاد، قال إنّه أدرك أنه كان يحبّني.

ليس لك الحق في أن تحبّني. = قلت له.

بعد أعوام من الخمود، نشط بركانُ فيزوفيا التي كانت دومًا في داخلي. صرختُ في وجهه وتفجّر كلُّ غضبي وكلّ حزني الذي اعتصر وجداني وكلّ الرغبة التي تركني فيها وسافر. قلت له إنّ تعرُّفي عليه كان أسوأ شيء حدث لي في الحياة. قلت له إنّي أكرهه وإنّي لا أريد أن أراه بعدها أبدًا، وإنّي آمل أن يبقى في ذلك البيت لكي يتعفَّن فيه إلى الأبد.

أومأ دافيد وطأطأ رأسه. أتصوّر أنّني قبَّلتُه حينذاك، لأنّي كنت أنا دائمًا مَن عليها أن تبادر بالقبلات، وسحقتُ ما تبقّى من عمري في لحظةٍ واحدة. الخوريّ الذي أشرف على طفولتي كان مخطئًا. لم يكن الاعتراضُ الغاية من مجيئي إلى الدنيا، بل اقتراف الأخطاء. ففي ذلك الصباح، بين ذراعيه، ارتكب أسوأ خطأ في حياتي.

(4)

نحن لا ندرك الفراغَ الذي خلَّفه مرورُ الزمن فينا إلّا عندما نحياه حقًّا. ناهيك بالأيّام المحروقة، فإنّ الحياة في بعض أحيانها ليست أكثر من لحظة واحدة، يوم، أسبوع أو شهر. فأنت تعلم أنّك حي لأنك تشعر بالألم، لأنّ كلَّ شيء يكتسب أهميّة على حين غرّة، ولأنّ تلك اللحظة الموجزة حينما تنتهي تصبح بقيّةُ عمرك عبارةً عن ذكرياتٍ تحاول عبثًا أن تعود إليها حتى الرمق الأخير. بالنسبة إليّ، فإنّ تلك اللحظة كانت الأسابيعَ الثلاثة الدسمة التي قضيتها في تلك الفيلا قبالة البحر برفقة دافيد. بل أقول إنّي كنت برفقة دافيد والظلال التي كان يخفيها في قلبه والتي كانت تتعايش معنا، لكنّ الأمر في تلك اللحظة لم يكن مهمًّا. فكنت مستعدّة لمرافقته إلى الجحيم لو طلب مني ذلك، وأعتقد أنّي بحسب طريقتي ذهبتُ إلى الجحيم فعلًا.

عند أسفل الصخور الشاطئيّة، كان هنالك عنبرٌ مسقوف فيه قاربان ورصيفٌ خشبيّ يشقّ البحر. وكان دافيد في كلّ صباح، يجلس على رأس الرصيف، عند الفجر، يتأمّل شروق الشمس. كنت أنضمّ إليه أحيانًا ونسبح قليلًا في المرسى التي تشكِّله الصخور. كنّا في شهر مارس والمياه ما تزال باردة، لكنّنا سرعان ما نركض إلى البيت لنجلس أمام نار الموقد. ثم نتنزّه طويلًا على الدرب المحاذي للصخور والمؤدّي إلى شاطئ مقفر يسمِّيه أهل المنطقة ساكونكا. ثمّة قرية للغجر في الغاب خلف الشاطئ، كان دافيد يقصد إليها لشراء الأغذية. يعود إلى البيت، ويطبخ، ثمّ نتعشّى عند المغيب ونحن نستمع إلى الأسطوانات القديمة التي تركها بيدال. وفي كثير من الأمسيات، بعد أن تغرب الشمس، تهبّ ريحٌ بحريّة قويّة، تصفر بين الأشجار وتصفق المصاريع. فكنّا نغلق النوافذ ونشعل الشموع في البيت كلّه. ثمّ أبسط الأغطية أمام جمر النار وآخذ دافيد من يده. فعلى الرغم من أنّه كان يكبرني ضِعف أعوامي وكان قد عاش حياة لا أستطيع حتّى تخيُّلها، فإنه كان خجولًا معي، لذا يتوجَّب عليَّ أن أقود يديه لينزع ملابسي ببطء، كما أحبّ. أتصوَّر أنّ الحياء ينتابني وأنا أكتب هذه الكلمات وأستحضر تلك الذكريات، لكني لم أعد أعبأ بالحشمة أو الحياء. فذكريات تلك الليالي، ويديه وشفتيه التي تستكشف جلدي، والسعادة والمتعة اللتين عشتُهما بين تلك الحيطان الأربعة، هي أجمل الذكريات التي سأحملها معي، فضلًا عن ولادة دانيال والسنوات التي رأيته فيها يكبر إلى جانبي.

والآن أعرف أنّ الغاية الحقيقيّة من مجيئي إلى الدنيا، الغاية التي لم يتوقّعها أحد، أنا على رأسهم، هي أن أحبل بدانيال أثناء الأسابيع التي أمضيتها مع دافيد. وأعرف أن العالم سيحكم عليَّ ويدينني لأنّني أحببتُ ذلك الرجل، وحبلتُ منه عن طريق الحرام وبالخفاء، ولأنّني كذبتُ. إلا أنّ العقاب، سواء انا عادلًا ام ظالمًا، لم يسطر طويلًا.

ففي الحياة لا أحد يحصل على السعادة بالمجّان، ولو للحظة واحدة.

ذات صباح، بينما كان دافيد نازلًا إلى الرصيف، ارتديتُ ثيابي وذهبتُ إلى حانة البحر؛ محلٌّ عند أطراف خليج سان بول. اتّصلتُ من هناك بخوان. بعد أسبوعين ونصف من اختفائي.

- أين أنتِ؟ هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ في أمان؟ - سألني.

- أجل.

- هل ستعودين؟

- لا أعرف. لا أعرف شيئًا يا خوان.

- إنني أحبّكِ حبًّا عظيمًّا يا إيزابيلا. وسأبقى أحبّكِ إلى الأبد.

حتى إن لم تعودي.

- ألا تسألني إن كنتُ أحبّك؟

- لستِ ملزمة لتوضيح أيّ شيء فوق إرادتكِ. سأنتظركِ. إلى الأبد.

انغرست كلماته في قلبي مثل خنجر. عدتُ إلى البيت باكية.

وعانقني دافيد الذي كان ينتظر على باب الفيلا.

- لا يمكنني البقاء معك هنا يا دافيد.

- أعرف.

وبعد يومين، جاءنا أحد غجر الشاطئ ليخبرنا بأنّ الحرس المدنيّ سأل عن رجل وفتاة رآهما شهودٌ عيان في المنطقة. كان معهم صورة لدافيد، يقولون إنّهم يبحثون عنه لارتكابه جرائم. فكانت تلك هي الليلة الأخيرة التي قضيناها معًا. وفي اليوم التالي، عندما استيقظتُ بين الأغطية بجانب الموقد، كان دافيد قد غادر من قبل. ترك بطاقة يقول إلى فيها أن أعود إلى برشلونة، وأن أتزوج خوان سيمبيري وأنّه سيكون سعيدًا لكلينا. كنتُ قد اعترفتُ له في الليلة السابقة أنّ خوان طلب يدي للزواج وأنّني وافقت. وحتى هذه الساعة لا أفهم لماذا قلت له ذلك.

لعلّي كنتُ أريد الابتعاد عنه أم أنّي أملتُ أن يطلب مني أن أرافقه في هبوطه إلى الجحيم. لقد قرّر عني. وحين قلت له إنّه لا يحق له أن يحبّني، صدَّقني.

أدركتُ أنّه لا جدوى من انتظاره. لن يعود في ذلك اليوم ولا فيما يليه. نظّفتُ البيت، وأعدتُ تغطية الأثاث وأغلقتُ جميع النوافذ.

تركتُ المفتاح تحت الصخرة وسرتُ نحو المحطّة.

عرفتُ أنني حبلتُ بابنه ما إن صعدتُ القطار في سان فيليو.

اتّصلتُ بخوان من المحطة قبل أن أنطلق، فجاء لاستقبالي. عانقني ولم يشأ أن يعرف أين كنت. ولم أجرؤ حتى على النظر في عينيه..

- أنا لا أستحقّ حبك. - قلت له.

- لا تتفوّهي بترّهات.

كنتُ جبانة وخائفة. خفتُ على نفسي. وعلى الجنين الذي أحمله في بطني. تزوّجتُ خوان سيمبيري بعد أسبوع، في كنيسة سانتا آنا، في اليوم المحدّد. قضينا ليلة الزفاف في فندق فوندا

أوروبا. وحين استيقظتُ في اليوم التالي، سمعت خوانُ يبكي في الحمّام. كم كانت الحياة جميلة لو أنّنا نستطيع أن نحبَّ من يستحقّ الحبّ.

وُلِدَ دانيال سيمبيري خيسبرت، ابني، بعد تسعة أشهر.

(5)

لم أستطع أن أفهم جيّدًا لماذا قرر دافيد العودة إلى برشلونة في آخر أيّام الحرب. ففي الصباح الذي اختفى فيه من منزل ساغارو، فكّرتُ أنّي لن أراه بعدها يوما. وعندما ولد دانيال، تركتُ خلفي الفتاةَ التي كنتُ عليها وذكرياتِ الأيّام التي قضيناها معًا. وعشتُ هذه السنوات بلا أيّ أفقٍ سوى أن أعتني بدانيال، وأن أكون له أمًّا مثلما ينبغي وأن أحميه من العالم الذي تعلّمتُ أن أراه بنفس العيون التي كان يراه بها دافيد. عالم الظلام والحقد والجشع والبؤس والكراهية. عالمٌ كلُّ شيءٍ فيه زائفٌ والكلُّ يكذبون. عالمٌ لا يستحقّ أن نعيش فيه، إلّا أنّ ابني ولد فيه ولا بدّ أن أحفظه منه. لم أشأ أن يعلم دافيد بوجود دانيال. ففي اليوم الذي ولد فيه ابني، أقسمتُ لنفسي أنّه لن يعلم أبدًا عن أبيه، لأنّ والده الحقيقيّ، الرجل الذي كرَّسَ له حياته وأنشأه معي، هو خوان سيميبيري، أفضل أبٍ قد يحصل عليه ابني. فعلتُها على يقينٍ من أنّ دانيال، إذا اكتشف الحقيقة، أو شكّ فيها يومًا ما، فإنّه لن يغفرها لي إطلاقًا. وعلى الرغم من هذا كلّه، كنتُ سأفعلها دائمًا. لم يكن على دافيد مارتين أن يعود إلى برشلونة مرّة أخرى. وفي أعماق روحي أعتقد أنّه ما عاد إلّا لأنّه استشعر الحقيقة. ولعلّ هذا هو العقاب الحقيقيّ الذي أنزلَهُ بحقّه الشيطانُ الذي يسكن روحه. فما إن قطع الحدود، حتّى أدان كلينا.

ألقي القبض عليه منذ عدّة أشهرٍ بينما كان يجتاز جبال البيريني، ونقلوه إلى برشلونة حيث أُعيدَ افتتاحُ قضيته بالتّهم المتعلّقة. وأُضيفَت إليها تهم التمرّد والخيانة ومن يدري كم من تهم سخيفة أخرى. واحتُجِزَ في سجن موديلو مع آلاف المعتَقَلين. في هذه الأيّام، في المدن الإسبانيّة الكبرى، ولا سيّما في برشلونة، تُرتَكَبُ الجرائمُ ويُعتَقَلُ الناس بأرقامٍ فلكيّة. تمّ تعطيل القانون الذي يحرِّم الثأر والانتقام، وسحق الخصوم. هذه هي النزعة القوميّة العظمى. وكما كان متوقّعًا، خرج صليبيّو النظام الجدد والأوباش من تحت التراب، وركضوا لاحتلال مواقع في المنظومة الجديدة للهيمنة على المجتمع الجديد. وقد تخطّى معظمهم الخطوط الفاصلة، وبدّلوا انتماءاتهم غير مرّة، بحسب ما يناسب مصالحهم واطماعهم. لا أحد شهد الحرب بأم العين يصدِّق إلى الآن أنّ البشر أفضل من الحيوانات الأخرى.

قد يقول قائلٌ إن الأمور لم تكن لتجري بأسوأ ممّا جرت، لكنّ الهمجيّة لن تهبط إلى مستوى أحطّ من هذا حين تنفلت الأمور. ففي تلك الأثناء، ظهر من الأفق رجلٌ بدا أنّه ما جاء إلى العالم إلّا لتجسيد روح الزمان والمكان. أتصوّر أنّ أمثاله كثرٌ، أولئك الذين ينجون دومًا عندما يغرق كل شيء اسمه ماوريسيو ڤايس، وشأنه شأن الرجال العظماء في الأزمنة البائسة: هو السيّد لا أحد.

(6)

أتصوّر أنّ الصحافة في هذا البلد ستتوجّه بأسمى آيات الثناء للدون ماوريسيو ڤايس يوما مّا، وستتغنّى بأمجاده طولًا وعرضًا. فبلادنا خصبةٌ بشخصيّاتٍ على شاكلته، لن ينقصهم تَبَعٌ من المتملّقين الذين يسجدون لِلَمْلمة الفتات الذي يتساقط من طاولاتهم عندما يبلغون القمّة. حتّى الساعة، قبل وصول تلك اللحظة التي ستصل حتمًا، فإن ماوريسيو ڤايس واحدٌ من كثيرين، طَموحٌ واعد. عرفتُ عنه أشياء كثيرة في هذه الأشهر الأخيرة. أعرف أنّه استهلّ مشواره مثل كثيرٍ من أدباء المقاهي والمنتديات. رجلٌ عاديّ، بلا موهبة أو صنعة، وكان كالعادة يكافئ بؤسه بغرورٍ لا حدود له وقلقٍ رهيبٍ تجاه الاعتراف به. عندما أدرك أنّ مؤهلاته لن تعود عليه أبدًا بالمال أو بالمكانة التي يطمح إليها مقتنعًا أنّه يستحقّها، قرّر أن يبدأ مسيرته بالدسائس، جامعًا حوله شلّة من الحثالة التي تشبهه، يتبادل معهم المرابح ويستبعد عنها مَن يحسدهم.

أجل، أكتب بسخطٍ وحقد، وأخجل من هذا لأنّي لم أعد أعرف، ولا عاد يهمّني، إن كانت كلماتي منصفة أم لا، وإن كنت أدين أبرياء، وإن كان الغلّ والألم أعميا بصيرتي. تعلّمتُ في هذه الفترة الأخيرة أن أضمر الكراهية، ويفزعني أنّني سأموت بهذه المرارة في قلبي.

سمعتُ اسمه للمرّة الأولى بعد أن عرفتُ بإلقاء القبض على دافيد واعتقاله. كان ماوريسيو ڤايس جروًا في النظام الجديد، نصيرًا وفيًا صنع اسمه بالزواج من ابنة أحد المتسلّطين في الجوقة المصرفيّة والصناعيّة التي أيدت الفرانكيّين وساندتهم. بدأ ڤايس متطلّعًا في الأدب، لكنّ نجاحه الأكبر كان في إغواء امرأة تعيسة واقتيادها إلى مذبح الكنيسة، امرأة ولدت بمرض قاسٍ كان يهدم عظامها ويشلّها على كرسيّ متنقّل مذ كانت مراهقة. وريثة غنيّة ومن المستحيل أن يتزوّجها أحد. فرصةٌ ذهبيّة.

لا بدّ أنّ ڤايس كان يتوقّع أن توصله تلك النقلة النوعيّة إلى أعلى البارناسوس الوطنيّ، نحو تفويضٍ مرموق في الجامعة أو في أيّ منصبٍ فخريّ آخر في دائرة الفنون والثقافة الإسبانيّة. لكنّه لم يُدرِج في حساباته أنّه كان واحدًا من بين ألوف: فعندنا بات من الجليّ أيّ فرقةٍ ستفوز الحرب، ظهر اللاهثون للالتحاق بالطابور إلى المجد وتفتَّحوا كالأزهار الناضجة.

حان موعد تقاسم الغنيمة والمكافآت، وحصل ڤايس على نصيبه، مع درسٍ حول قواعد اللعبة. النظام ليس بحاجةٍ إلى شعراء، إنّما إلى سجّانين ومستجوِبين. وهكذا، خلافًا لتوقّعاته، حصل على وظيفةٍ اعتبرها مسيئة بحقّه وأدنى من مستواه الفكريّ: مدير السجن في قلعة مونتويك. ومن الواضح أنّ رجلًا مثل ڤايس ما كان ليهدر الفرصة، وعرف كيف يستفيد من وجهة القدر هذه ليحصل على مكتسبات ويجهّز نفسه للصعود التالي. وفي أثناء ذلك، كان يسجن ويبيد ويفعل ما يحلو له بأيّ خصم موجود على لائحته الطويلة، سواء أكان الخصم حقيقيًّا أم متخيَّلًا. فكيف انتهى المطاف بدافيد إلى ذلك السجن! لم أتمكّن من فهم الأمر، لكنه لم يكن الوحيد. ولسببٍ ما، كان تركيز ڤايس عليه هوسيًّا ومجنونًا.

ما إن عرف أنّ دافيد كان من بين المعتقلين في سجن موديلو، حتّى طلب نقله إلى قلعة مونتويك، ولم يهنأ إلا حين رآه خلف قضبان إحدى زنازينه. وكان زوجي خوان يعرف محاميًا شابًّا، زبون المكتبة، يدعى فرناندو بريانس. فذهبتُ إليه لعلّه ينوِّرني بما أستطيع فعله لمساعدة دافيد. لم يكن لدينا مدّخرات بطبيعة الحال، لكن بريانس رجل شهمٌ وأصبح صديقًا لي في تلك الأوقات الحرجة، وتطوَّع للعمل بلا مقابل.

كانت لديه صلات بسجن مونتويك، مع أحد الحرّاس خصوصًا، اسمه بيبو. استطاع من خلاله أن يكتشف أنّ ڤايس لديه ما يشبه الخطّة بحقّ دافيد. كان يعرف أعماله، ومع أنّه لم يتوانَ عن وصفه بـ «أسوأ كاتب في العالم» أقنعه بكتابة ومراجعة مخطوطة باسمه، سعيًا منه لترسيخ سمعته الأدبيّة، بفضل منصبه الجديد في النظام. لا يمكنني إلّا أن أتخيَّل ردّة فعل دافيد.

جرّب بريانس شتّى الطرق، لكن التهم التي أُلقيت على دافيد كانت خطيرة جدًّا. ولم يبق إلّا التوسُّل إلى ڤايس عدم إخضاع دافيد لتلك المعاملة التي كان الجميع يتخيّلها. لم أطع نصائح بريانس، وذهبتُ إلى ڤايس. الآن أعرف أنّني ارتكبتُ خطأً، خطأً فادحًا. وإذ اعتبرني ڤايس نقطة أخرى من موضوع حقده، دافيد مارتين، أصبح بذلك هدفًا جديدًا لمطامعه.

تعلَّم ڤايس بسرعة، كالكثيرين مثله، أن يستغلّ قلق أهالي المعتقلين الذين تحت تصرُّفه. ولطالما حذّرني بريانس من ذلك. وحين أحسَّ خوان بأنّ علاقتي بدافيد وإخلاصي له يتجاوزان الصداقة النبيلة، بات ينظر إلى زياراتي لڤايس بعين الريبة. «فكّري في ابنكِ، - كان يقول لي، وكان محقًّا، لكني كنت أنانيّة. لم أستطع أن أترك دافيد في ذلك المكان ما دام بوسعي فعل شيء ما. لم تعد مسألة كرامة. لا أحد يعيش حربًا أهلية ويبقى لديه ذرّة كرامةٍ يتفاخر بها. كان خطأي أنّي لم أفهم أن ڤايس لا يريد التسلُّط عليّ وإهانتي. إنما كان يريد أن يدمِّرني، لأنّه أدرك في المحصِّلة أنّها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها ليَّ ذراع دافيد وإيذاءه.

عادت سذاجتي التي حاولتُ إغواءه بها وبالًا علينا. لا يهّم كم حاولتُ التزلُّف إليه، والتظاهر بأنّي أحترمه وأهاب جانبه، وأن أذلَّ نفسي أمامه متوسِّلةً إليه أن يرحم سجينه. كلُّ ما كنت أقوم به كان مجرّد حطب للنار التي تستعر في صدر ڤايس. أعرف الآن أنّني إذ نويتُ مساعدة دافيد كنتُ أحكم عليه.

وعندما فهمتُ ذلك كان قد فات الأوان. كان ڤايس يملّ من عمله، ومن نفسه، ومن بطء الأقدار التي تحمله نحو المجد، فما كان منه إلّا أن يملأ وقته بالخيالات. ومن بينها أنّه أغرم بي. أردتُ أن أصدِّق بأنّ ڤايس قد يُظهِرُ شهامته ونبله، إن أنا أقنعته بمستقبلٍ لخيالاته تلك. إلّا أنّه ضاق ذرعًا بي أيضًا. يئستُ وهدّدته بأنّي سأفضحه وسأعمِّم حقيقته والوقاحة التي وصل إليها. فسخر مني ومن سذاجتي، وأراد أن يعاقبني. لكي يجرح دافيد ويسدِّد إليه الضربة القاضية.

منذ أسبوع ونصف تحديدًا، أعطاني ڤايس موعدًا في مقهى الأوبرا في لاس رامبلاس. ذهبتُ إلى اللقاء دون أن أخبر أحدًا، حتى زوجي.

كنت على قناعة أنّها ستكون الفرصة الأخيرة المتبقيّة لي. وكنت مخطئة. ففي مساء ذلك اليوم نفسه، أدركتُ أنّ شيئًا ما كان يحدث.

أيقظتني نوبة غثيان في قلب الليل. رأيتُ في المرآة أن عينيَّ مصفرَّتان، وثمّة بقعٌ على الجلد حول عنقي وصدري. وعند الفجر تقيّأت دمًا.

وحينها بدأ الألم. ألمٌ بارد، كسكّينٍ تمزِّق الأحشاء من الداخل وتشقّ طريقًا لها. اجتاحتني الحمّى، وعجزتُ عن هضم الطعام أو السوائل تساقطت ضفائر شعري. وبتُّ أشعر أنّ عضلات جسمي تتجوَّف، ما يجعلني أصرخ من الألم. ونزفت الدماء من جلدي وعينيَّ وفمي.

لم يستطع الأطبّاء والمستشفيات فعل شيء. يعتقد خوان أنّني أصبتُ بمرض وأنّ ثمّة أملًا. ليس بوسعه تخيُّل أنّه يفقدني، وليس بوسعي تقبُّل أنّي سأتركه وحيدًا هو وابني دانيال، الذي لم أكن له أمًّا حقيقيّة حين سمحتُ لأهوائي، ورغبتي في إنقاذ مَن ظننتُ أنّه حبيب عمري، تندرج قبل واجبي.
أعلم أن ماوريسيو ڤايس قد سمّمني في ذلك المساء في مقهى الأوبرا. أعلم أنّه فعلها لإيذاء دافيد. أعلم أنّ أيّامي في الحياة معدودة. لقد حدث كلّ شيء بسرعة رهيبة. عزائي الوحيد يكمن في صبغة الأفيون، التي تسكّن الألم في الأحشاء، وهذا الدفتر الذي أردت أن أسطّر فيه اعترافاتي بخطاياي وغباوتي. بريانس الذي يأتي لزيارتي كلَّ يوم، يعلم أنّي أكتب لكي أبقى حيّة، لاحتواء النار التي تنهشني.

طلبتُ منه أن يمزّق هذه الصفحات حالما أموت، وألّا يقرأها. لا يجب أن يقرأ أحدٌ ما كتبته هنا. لا يجب أن يعرف أحدٌ الحقيقة، لأنّي تعَّلمتُ أنّ الحقيقة في هذا العالم لا تأتي إلّا بالأذى، وأنّ الربّ يحبُّ ويساعد مّن يكذب.

لم يعد لديَّ أحدٌ أرجوه. لقد تخليّتُ عن كلّ ما آمنتُ به. وفي بعض الأحيان لا أذكر من أكون، ولولا قراءة صفحات هذا الدفتر مرارًا لما فهمتُ ما الذي يحدث. سأكتب حتّى النهاية. لكي أتذكّر. لكي أحاول البقاء على قيد الحياة. يسعدني أن أعانق ابني دانيال لكي يعرف أنّني لن أتركه مهما حدث. وأنّي إلى جانبه سأبقى. وأنّي أحبه. ربّاهُ اغفر لي، ودعني أعيش يومًا آخر لكي يتسنّى لي أن أغمر دانيال وأن أقول له كم أحبُّه...

في تلك الليلة، كما في ليالٍ كثيرة، كان فيرمين قد خرج ليمشي في شوارع برشلونة المقفرة والمبتلّة بالندى. بات ريميخو، حارس الحيّ ليلًا، يعرفه جيّدًا، ولطالما سأله عن أسبابه أرقه. تعلّمَ هذه الكلمة من برنامجٍ إذاعيّ للسيِّدات، كان يصغي إليه في الخفاء، لأنّه وجد نفسه في كلّ الآلام التي يتحدّثن عنها، بما فيها ذلك الذي يتمّ ذكره بمصطلح معيّن أثار فضوله كثيرًا، سنّ اليأس، الذي يُعالَج برأيه بحكِّ العورة بحجر الاستحمام.

- لماذا يسمّونه أرقًا في حين يقصدون «الضمير»؟ - يا لك من متعبِّد يا فيرمين. لو كان لديَّ امرأة مثل زوجتك، تنتظرني ساخنةً تحت اللحاف، لكنتُ الوحيد الذي لا ينام. تغطَّ جيّدًا، فالشتاء في هذا العام قد وصل متأخّرًا، لكنّه يبدو سيّئ النيّة.

بعد ساعة من مقارعة تلك الريح الباترة التي تجلد الشوارع بندف الثلج، اقتنع بتوجيه خطواته نحو المكتبة. كان لديه عملٌ مؤجَّل وقد تعلّمَ أن يستثمر تلك اللحظات وحيدًا في المكتبة، قبل أن تطلع الشمس أو ينزل دانيال ليفتح المحلّ. ولج الممرّ الأزرق الذي يرسم شارع سانتا آنا

وتراءى له من مسافة بعيدة ضياءٌ خافتٌ يلمع خلف الواجهة. اقترب بحذر، يصغي إلى صدى خطواته، وتوقّف على بعد أمتار، محتميًا من الريح بإحدى البوّابات. الوقت ما زال باكرًا حتى بالنسبة إلى دانيال، فكّر. ربّما أرق الضمير كان مرضًا معديًا.

كان يفاضل ما بين العودة إلى البيت وإيقاظ برناردا بإثباتٍ دامغ على فحولته الإيبيريّة، وبين دخول المكتبة ومقاطعه دانيال، أيًّا كان ما يفعله (بل ليتأكّد أنّه لا يخفى أسلحة ناريّة أو أدوات قاطعة)، فإذا به يلمح صديقه يخرج من المكتبة إلى الطريق. اختبأ جيّدًا خلف البوّابة حتى أحسَّ بوخزات في كليتيه، ورأى دانيال يقفل الباب ويتجه نحو باب الملاك. كان مشمِّرًا عن ساعديه يتأبّط شيئًا ما، كتابًا أو دفترًا.

تنهّد فيرمين. هذا لا ينبئ بخير. على برناردًا أن تنتظر كثيرا لتحصل على ما تستحقّه.

تبعه حوالي نصف ساعة في عقدة الشوارع الهابطة نحو الميناء. لم يضطرّ إلى تنبيه أو تخفٍّ، لأنّ دانيال كان يبدو غارقًا في أفكاره ولم يكن ليلاحظ أنّ أحدًا يلاحقه حتى لو كان ينتعل حذاء يصلح للرقص النقريّ. كان فيرمين يرتجف بردًا ويندم لأنّه حشا سترته بالصحيفة الرياضيّة، ذات الورق النفيذ الذي لا يمكن التعويل عليه في حالات كتلك، على عكس الورق المصفَّح بالملحقات الإعلانية لجريدة الطليعة. فكاد ينادي صديقه الذي يتقدّم مسحورًا غير آبهٍ بالضباب والثلج الناعم المتجمّد الذي يتراكم على جسمه.

وفي النهاية، انفتح أمامهما شارع كولون، ثمّ المستودعات العجائبيّة، وسواري السفن والضباب الذي يهيمن على ورش الميناء.

عبر دانيال الشارع وحاذى ترامًا متوقّفًا ينتظر طلوع الفجر. توغّل في الممرّات الضيّقة بين المستودعات والمخازن الضخمة التي تستضيف شتّى أنواع الحمولات، وبلغ سدّ الورشة حيث كان بعض الصيّادين يحضِّرون شباكهم وعدَّتهم للخروج إلى البحر، وكانوا قد أشعلوا نارًا في برميل ديزل فارغ كي يتدفّأوا. اقترب دانيال منهم، وحين رأوه تنحّوا عن طريقه. لا بدّ أنّهم لمحوا في وجهه ما لا يشجِّع على النقاش.

تعجَّلَ فيرمين واقترب، فرأى أنّ دانيال يسلِّم للنار ذلك الدفتر الذي كان تحت ذراعه.

وعندما وصل إلى صديقه، ابتسم له من الجانب الآخر للبرميل. كانت عينا دانيال تلمعان على وهج اللهيب.

- إن كنتَ ترغب بالحصول على مرض ذات الرئة، فأحيطك علمًا بأنّ القطب الشماليّ هو في الجانب المعاكس. - ارتجل فيرمين.

تجاهل دانيال كلماته وظلّ يحدّق إلى النار تلتهم الصفحات، فتتجعّد بين السنة اللهب، كأنّ يدًا خفيَّة تتصفّحها واحدةً تلو الأخرى.

- لا بدّ أنّ بيا قلقة عليك يا دانيال. لِمَ لا نعود؟

رفع دانيال عينيه ونظر إلى فيرمين بلا أيّ تعبير من عينيه، كما لو أنّه لم يره من قبل.

- دانيال؟

- أين هو؟ - سأله بصوتٍ باردٍ بلا نبرة.

- عفوًا؟

- المسدّس. ما الذي فعلتَ به يا فيرمين؟

- أعطيتُه لراهبات الصدقة.

ارتسمت شفتا دانيال بابتسامة متجمّدة. اقترب فيرمين وأحاطه بذراعه، ولم يشعر أبدًا بأنّه سيفقده إلى الأبد كما شعر حينذاك.

- فلنذهب إلى البيت يا دانيال. أرجوك.

أومأ في النهاية، واستأنفا طريق العودة ببطء وصمتٍ مطبق.

طلع الفجر عندما سمعت بيا باب البيت ينفتح، وخطوات دانيال عند المدخل. كانت جالسة منذ ساعات على الأريكة في صالة الطعام تلتحف أحد الأغطية. تشكّلَ طيفُ دانيال في الممرّ. وكأنّه لم ينتبه لوجودها، فاتّجه مباشرة إلى غرفة نوم خوليان، التي كانت في الطرف الخلفيّ من البيت وتطلّ على ساحة كنيسة سانتا آنا. نهضت بيا وتبعته.

فرأته واقفًا عند عتبة العرقة، يراقب الصغير النائم قرير العين. حطّت يدها على كتفه.

- أين كنت؟ - غمغمت.

التفت ونظر إلى عينيها.

- متى سينتهي كلُّ هذا يا دانيال؟

- قريبًا. - قال لها - قريبًا.

أنقذني[8]

مدريد

يناير1960

(1)

في فجرٍ رماديّ وفولاذيّ، توغلت أريادنا في الدرب الطويل الذي تحدُّ جانبيه أشجارُ السرو. كانت تحمل باقة من الأزهار التي اشترتها عند أبواب مقبرةٍ على طريقها. الصمتُ مطبق. لا زقزقة عصفور ولا هبَّة ريح تحرِّك الأوراق اليابسة التي تغطّي البِلاط. لا رفيق لها سوى صدى خطواتها، أريادنا تتابع مسيرها حتّى الحاجز الكبير الذي يذود عن مدخل المبنى، تُتوِّجُهُ عبارة:

قصر مرثيديس

كان مبني ماوريسيو ڤايس يظهر خلف موئل الحدائق والأحراج.

أبراجٌ وشرفاتٌ تنبثق من سماء الرماد. وكانت أريادنا نقطةً بيضاء تعبر الظلال، حتى لمحت شكل البيت الذي يتراءى بين تماثيل وأسوجة ونوافير. بدا لها مثل غولٍ خرافيٍّ جرجر نفسه ليختبئ في إحدى زوايا الغابة، جريحًا في رمقه الأخير. البوّابة مردودة. دخلت أريادنا.

تبدّى لها، أثناء سيرها، أثرٌ لسكّة قطار تجوب الحدائق لتحدد نطاق القصر. وهناك مجسم قطار، بمقطورةٍ بخاريّة وعربتين، متوقّفٌ بين الأجمات. تقدَّمت في الدرب الحجريّ المفضي إلى المسكن الكبير. كانت النوافير جافّة، وقد اسودَّت ملائكتُها الصخريّة وعذاراها الرخاميّة. أغصان الأشجار مكتظّة بما لا حصر له من الخادرات البيضاء، التي تتفتّق كالنعوش الصغيرة المنسوجة بخيوط السُّكّر. حشدٌ من العناكب تتدلّى بخيوطها المعلّقة في الهواء. عبرت اريا ذا الجسر فوق المسبح البيضويّ الكبير. كانت مياهه مخضوضرة ومكسوّة بحاجبٍ رقيق من الطحالب المتلألئة، ومليئة بجثث طيور صغيرة لكأنَّها هابطة من السماء بفعل لعنةٍ ما. وفي الخلف مرائبُ السيّارات خاويةٌ، وأكشاك الخدم غارقةٌ في الظلّ.

صعدت أريادنا عتبات المسكن الكبير. طرقت ثلاث مرّات على الباب حتى أدركت أنّه كان مفتوحًا أيضًا. التفتت إلى الخلف وتنشَّقت رائحة الهجران والخراب التي يتنفَّسها المكانُ. فما إن سقط الإمبراطور ومملكته، هجر الخدمُ القصرَ. دفعت أريادنا الباب وولجت البيت الذي تفوح فيه رائحة النسيان والردى. ثمّة ظلامٌ مخمليّ يربض على شبكة الممرّات والسلالم التي انفتحت أمامها. ظلت هناك بلا حراك، مثل شبحٍ أبيض على أبواب المطهر، تتمعن الألق الفقيد الذي كان ماوريسيو ڤايس قد عاش فيه أيّام عزّه.

ترامي إلى مسمعها أنينٌ خافتٌ وبعيدٌ يشبه نواح حيوانٍ يحتضر، من الطابق الأوّل. صعدت السلالم على مهل. كانت الجدران تُظهِر حوافّ لوحاتٍ منهوبة. وعلى جانبي السلالم ثمّة منصّات فارغة ما زالت قواعدُها تُبرِز آثار تماثيل ومنحوتات تعرَّضت للسطو. حين وصلت إلى الطابق الأوّل، توقّفت وسمعت الأنين مرّة أخرى. حدّدت مصدره: الغرفة التي في آخر الممرّ. توجّهت إليها بخطوة حذرة. الباب مردود. ورائحة التعفُّن التي تعربد في الداخل، هبَّت ولعقت وجهها.

اجتازت أريادنا الظلمات التي تضغط الغرفة واقتربت من سرير مزوّد بسرادق بدا لها عربة جنائز. وهناك ترسانة من الآلات والأدوات، المفكوكة والمكدّسة عند الحائط، ترقد بسلام على أحد

جانبي المرقد. السجّادةُ يعتليها الجيرُ وأسطوانات الأكسجين المهملة.

تخطّت أريادنا تلك العراقيل وأزاحت الستارة المحيطة بالسرير فوجدت شكلًا منكمشًا على نفسه، كما لو أنّ عظامه قد انحلّت في سائل مائج، وانشدّ جلده كأنّه تعرَّض لتشريحٍ مؤلمٍ مرارًا. كانت عينا ذلك الكائن جاحظتين من وجهٍ عظميّ ومحقونتين بالدماء، تنظران إليها بارتياب. برز من حلقه مجدّدًا ذلك الأنينُ المتراوح ما بين الحشرجة والبكاء. السيّدة ڤايس، كان قد تساقط شعرُها، وأظفارُها وجزءٌ كبير من أسنانها.

رمقتها أريادنا بنظرةٍ تخلو من الشفقة. جلست على حافة السرير وانحنت إليها.

- أين شقيقتي؟ - سألتها.

حاولت زوجة ڤايس أن تلفظ كلمةً ما. تناست أريادنا تلك الرائحة العفنة المنبعثة منها ودنت بوجهها إلى شفتيها.

- اقتليني. - سمعتُها تتوسَّل.

(2)

كانت مرثيديس مختبئة في بيت الدمى خاصّتها، وقد رأتها تقطع حاجز الفيلا. بلباسها الأبيض الشبحيّ، تتقدّم ببطء بخطّ مستقيم وباقةُ الأزهار في يدها. ابتسمت مرثيديس. كانت تنتظره منذ أيّام. وقد حلمت به غير مرّة: الموت. الموت الذي يرتدي ثيابًا راقية، من علامة بيرتيغاث، يزور قصر مرثيديس أخيرًا قبل أن يبتلعها الجحيم ويترك بديلًا عنها أرضًا موحشة وقاحلة لا ينبت فيها المرج ولا تهبّ عليها الريح.

تمركزت عند إحدى نوافذ جناح الدمى، حيث انتقلت إلى هناك بعد أن هجر الخدمُ البيت، ما إن انتشر خبر وفاة أبيها. حاولت السيّدة ماريانا، سكرتيره الوزير، أن تمنعهم في البدء، لكنّ رجالًا قد وصلوا في المساء، يرتدون ثيابًا سوداء واقتادوها معهم. سمعت مرثيديس حينها إطلاق رصاص خلف مرأب السيّارات، ولم تشأ أن تذهب لترى ما حدث. ثمّ نهبوا اللوحات والتماثيل والأثاث والملابس وأطقم المائدة وكلَّ ما يمكن نهبه، على مدار عدّة ليال. كانوا يأتون عند المغيب مثل قطيع ضباع جائعة. استولوا على السيّارات وهدموا جدران الصالونات بحثًا عن كنوز سريّة لم يعثروا عليها. وبعد أن فرغ البيت من محتواه، انصرفوا ولم يعودوا.

وذات يوم، رأت سيّارتين للشرطة تصلان إلى المكان. كانوا صحبة بعض مرافقة أبيها الذين ما زالت تذكرهم. فكّرت لوهلةٍ في الذهاب إليهم لقصّ كلّ ما حدث على مسامعهم، لكنّها إذ رأتهم صاعدين إلى مكتب أبيها أعلى البرج لنهبه، عادت للاختباء بين الدمى.

هناك حيث لن يعثر عليها أحد بين مئات الأجساد التي تحدِّق إلى الفراغ بأعين بلوريّة. وكانت السيّدة متروكة لمصيرها بعد أن نزعوا عنها الأدوات الطبيّة التي تبقيها في حالةٍ من عذاب أبديّ. كانت تنوح منذ أيّام، لكنها لم تمت بعد. لغاية ذلك اليوم.

في ذلك اليوم، زار الموت قصر مرثيديس وكانت الفتاة سترث حطام البيت لها وحدَها. كانت تعلم أنّ الجميع يكذب عليها. لأنها تؤمن بأن أباها ما يزال حيًّا وفي مكان آمن، وسيعود إليها في أقرب وقت. كانت تعلم ذلك لأنّ أليثيا وعدتها بذلك. وعدتها بأنّها ستجد الها أباها.

وحين رأت الموت يصعد عتبات مدخل البيت ويدخل، استبدّ بها الشكّ. لعلّها قد أخطأت. لعلَّ ذلك الطيف الأبيض الذي ظنّت أنّه يد القدر ما كان سوى أليثيا، التي عادت لتبحث عنها وتصحبها إلى حيث أبيها. فهذا الأمر الوحيد الذي له معنى. كانت تعلم أنّ أليثيا لن تتخلّى عنها أبدًا.

خرجت من جناح الدمى واتّجهت نحو المسكن الكبير. وعندما دخلت، سمعت أصوات خطىً في الطابق الأعلى فركضت على السلالم لتراها تدخل غرفة السيّدة في اللحظة ذاتها. وكانت الرائحة الكريهة التي تستبيح الممرّ فظيعةً لا تطاق. سدّت فمها وأنفها بيدها واقتربت من عتبة الغرفة. الطيف الأبيض ينحني كالملاك على مرقد السيّدة. حبست مرثيديس أنفاسها. أمسك الطيف بإحدى الوسائد وضغطها على وجه السيّدة بشدّة فارتجَّ الجسدُ إلى أن بات جثّة هامدة.

التفت الطيف رويدًا رويدًا فاستشعرت مرثيديس بردًا يجتاحها لم تشعر به من قبل. لقد أخطأت. تلك ليست أليثيا.

اقترب الموت بلباسه الأبيض ببطء وهو يبتسم. قدَّم لها وردة حمراء، تقبَّلتها مرثيديس بيدين مرتعشتين. سألتْها:

- هل تعلمين من أكون؟

أومأت مرثيديس. عانقها الموت بحنانٍ ورفقٍ لا ينضبان. وتركتها مرثيديس تداعبها، بينما كانت تلجم دموعها.

- ششْش. - همس الموت - لن يفرِّقَ أحدٌ بيننا بعد الآن. لن يؤذينا أحد. سنبقى معًا إلى الأبد. مع بابا وماما. معًا إلى الأبد. أنتِ وأنا...

(3)

استيقظت أليثيا على المقعد الخلفيّ لسيّارة الأجرة. نهضت وانتبهت أنّها بمفردها. كان الزجاج محتجبًا ببخارٍ مكثّف. مسحته بكمِّ قميصها ورأت أنّ التاكسي توقّف في استراحة. كان عمود الإنارة يسلّط حزمة مصفرَّة من الضوء ترتجف كلّما مرّت الشاحنات بسرعة خارقة على الطريق. وفي البعيد فجرٌ رصاصيٌ يتمدّد ليردم السماءَ دون أن يترك لها فسحة. فركت يديها وأخفضت النافذة. فلفحتها نسمة متجمّدة اختطفت منها النعاس. واخترقت صعقةٌ ألم حوضها. فأنَّت وأمسكت بخاصرتها. فاستحال الألم نبضًا أصمَّ، ينذر بما سوف يحدث.

الحكمة تقول لها أن تتناول حبّة أو اثنتين قبل أن يتصاعد الألم، لكنّها أرادت أن تبقى متيقّظة. لا بديل عن هذا. ظهر شخص السائق بعد قليل من مقهى الاستراحة، حاملًا كوبَين من الورق وكيسًا صغيرًا مبقَّعًا بالدهن. حيّاها بيده ولفّ حول السيّارة بخطىً سريعة.

- صباح الخير. - قال وهو يجلس إلى الدفّة - البرد قارسٌ لدرجة مرعبة. أتيتكِ بشيء يشبه الفطور. محليّ لا قارّي / كونتيننتال. لكنّه طازج على الأقلّ. كافيلاتي وأصابع التشورو التي لا بأس بمظهرها.

وطلبتُ من النادل إضافة قطرة كونياك إلى القهوة لتعديل المزاج.

- شكرًا. أخبرني لاحقًا كم عليَّ أن أحاسبك من أجل الفطور.

- كلّ الأجر مشمولٌ بحساب التاكسي، المنامة أيضًا. هيّا، كلي شيئًا. ستتحسّنين.

تناولا الفطور بصمت داخل السيّارة. لم تكن أليثيا جائعة، لكنّها كانت تعلم أنّها بحاجة إلى أكل شيء ما. كلّما مرّت إحدى تلك الشاحنات ذات الحِمل الثقيل، ارتجّت المرآة العاكسة واهتزّت السيّارة بأكملها.

- أين نحن؟

- على بعد عشرة كيلومترات عن مدريد. أحد سائقي الطلبيّات قال لي إنّ مداخل الطرق الوطنيّة من جهة الشرق تخضع لمراقبة الحرس المدني، لذا فكّرت أن نقوم بدوره لندخل من طريق كاسا دي كامبو او مونكلوا. - قال السائق.

- ولماذا علينا أن نفعل ذلك؟

- لا أدري. فكّرتُ أنّ سيّارة أجرة من برشلونة تدخل مدريد في السابعة صباحًا، قد تلفت الانتباه. حبًّا بالروايات البوليسيّة، لا أكثر.

كما أنّنا أنتِ وأنا نشكّلُ ثنائيًّا غريبًا نوعًا ما، لا تؤاخذيني. فأنتِ التي تحكم هنا.

أنهت أليثيا الكافيلاتي برشفة واحدة. كان الكونياك حارقًا كالبنزين، لكنّه أمدَّ عظامها ببعض الدفء. وكان السائق ينظر إليها خلسة. لم تعره أليثيا انتباهًا حتى تلك اللحظة. كان أكثر شبابًا

ممّا يبدو، بشعره الأصهب وبشرته الناصعة. وكان يضع نظارة معقودة الإطار على الأنف بشريط عازل، وما زال يحتفظ بنظرة مراهقين.

- ما اسمك؟ - سألت أليثيا.

- أنا؟

- لا. التاكسي.

- إرنستو. اسمي إرنستو.

- هل تثق بي يا إرنستو؟ - سألته.

- هل حضرتكِ ثقة؟

- إلى حدٍّ ما.

- حقًّا. هل يؤسفكِ أن أطرح سؤالًا ذا طابع شخصيّ؟ - قال إرنستو - إن كنتِ تفضِّلين عدم الإجابة، فلكِ ذلك.

- أطلِق.

- هذا هو المقصود تمامًا. قبل ساعات، حين كنا خارجين من غوادالاخارا، سلكنا منعطفًا ضيّقًا فسقطت كلّ أغراضكِ من الحقيبة على المقعد. وبما أنكِ كنتِ نائمة، لم أشأ إزعاجكِ، فأعدتُ كلّ شيء..

تنهّدت أليثيا وهزّت رأسها.

- ورأيت المسدّس.

- حسنٌ، أجل. لا يبدو مائيًّا، مع أنّي في الحقيقة لست ضليعًا بهذه الأشياء.

- بإمكانك أن تتركني هنا إن كان هذا يطمئنك. أدفع لك ما اتّفقنا عليه وأطلب من أحد أصدقائك، سوّاقي الشاحنات، أن يوصلني بطريقه إلى مدريد. لا بدّ أن أحدهم سيتطوع.

- لا شكّ في ذلك، لكنّي هكذا لن أشعر بالطمأنينة.

- لا تقلق بشأني. سأتدبّر أمري.

- لا، سأكون قلقًا على سائق الشاحنة بالأحرى لا عليكِ. اسمعي ما سأقول. سأوصلكِ أنا، مثلما اتّفقنا، ولن نتحدّث في الأمر إطلاقًا. شغّل إرنستو المحرّك ووضع يديه على الدفّة.

- أين نذهب؟

استقبلتهما مدينةٌ مدفونة تحت الضباب. موجةٌ ضخمة من الضباب تزحف على الأبراج والقبب التي تكلّل تيجان الغران فيا. ستائرُ من بخارٍ رصاصيّ تكنس بلاط الشوارع وتعانق السيّارات والحافلات التي تحاول أن تشقّ طريقها بأضواء تخدش الظلام بمشقّة. كانت أزمة السير تتقدّم ببطء، وكيفما اتّفق، وأطياف المارّة تشبه الأشباح المتجمّدة على الأرصفة.

وبمرورها أمام فندق هسبانيا، مكان إقامتها الرسميّ في الأعوام الثلاثة المنصرمة، رفعت أليثيا عينيها لتنظر إلى ما كانت نافذتُها.

توغلت السيارة في مركز المدينة تحت كفن الظلّ حتى برزت نافورة نبتونو قبالتهما.

- والآن؟ - سأل السائق.

- تابع إلى لوبي دي بيغا، در إلى اليمين ثمّ اصعد إلى دوكوي دي ميديناشيلي، فهو الطريق الأوّل. - أجابت.

- ألا ينبغي الذهاب إلى فندق بالاس؟

- سنأتيه من الخلف. من مدخل المطابخ.

أومأ السائق ونفّذ التعليمات. كانت الشوارع خاوية إلا قليلًا.

فندق بالاس يحتلّ كتلة عمرانيّة بأكملها على شكل شبه منحرف، بما يقدر بحجم مدينة بحدّ ذاته. لفّت السيّارة محيطه إلى أن قالت أليثيا للسائق أن يركن عند إحدى الزوايا، تمامًا خلف مركبةٍ يفرِّغ منها بعضُ العمّال صناديقَ خبز وفواكه وأغذية أخرى.

حنى إرنستو رأسه وألقى نظرة على الواجهة الشامخة.

- تفضَّل. هذا ما وعدتك به. - قالت أليثيا.

التفت السائق فرأى رزمة أوراق نقديّة في يد أليثيا.

- ألا تفضِّلين أن أنتظركِ؟

لم تردّ.

- لأنّكِ ستعودين، أليس كذلك؟

- خذ النقود.

تردّد السائق.

- أنت تضيِّع وقتي. خذ النقود.

تقبَّلَ إرنستو المال.

- أحصها.

- أثق بكِ.

- كما تشاء.

نظر إليها وهي تخرج غرضًا من حقيبتها وتضعه في سترتها. فراهَنَ أنه ليس بأحمر الشفاه.

- اسمعي، هذه القصّة لا تعجبني. لِمَ لا نذهب من هنا؟

- أنت ستذهب طبعا يا إرنستو. عد إلى برشلونة وانسَ أنّك رأيتني.

شعر السائق بتشنُّج في بطنه. حطت أليثيا يدها على كتفه، وشدَّت عليها بمودّة وابتسمت له. وفي غضون ثوانٍ، رآها إرنستو تختفي في داخل فندق بالاس.

(4)

كانت الطوابق السفلي من الفندق العظيم تتحضَّر منذ تلك الساعة المبكرة لإعداد أوّل دورة من الفطور بوتيرة عالية. جيشٌ من الطبّاخين، وغاسلي الصحون، والنُّدُل وأتباعهم، يغدو ويجيء بين المطابخ والأنفاق بدفع العربات وحمل الأواني. حاذت أليثيا القرقعة المشحونة بعبق القهوة واللذائذ الكثيرة، تتلقى نظرات متفاجئة لكن أصحابها منشغلون بما هو أهمّ من التّوقف عند نزيلة تائهة بما لا يدع مجالًا للشكّ، أو بالأحرى محظيّة رفيعة المستوى تفر بجلدها بعد أن أنهت مناوبتها. وإنّ الإتيكيت في كل الفنادق العظيمة يتضمن فنّ التخفّي، فلعبت أليثيا تلك الورقة بلا تمهُّلٍ حتى وصلت منطقة مصاعد الخدم.

دخلت المصعد الأوّل الذي تشاركته مع نادلة تحمل المناشف والصوابين وكانت تمسحها بنظرة من رأسها إلى قدميها بمزيجٍ من الفضول والحسد. ابتسمت لها أليثيا بمودّة، تلميحًا إلى أنَّ كلتيهما على الجانب نفسه من الطريق.

- في هذا الوقت الباكر؟ - سألتها النادلة.

- من يستيقظ باكرًا، يساعده الربّ.

أومأت النادلة على استحياء. وخرجت عند الطابق الرابع. وحين انغلقت الأبواب، واستأنف المصعد ارتقاءه حتى الطابق الأخير، أخرجت أليثيا باقة المفاتيح من جيبها وبحثت عن المفتاح المذهَّب الذي أعطاه لها لياندرو قبل سنتين. «هذا هو المفتاح الشامل. يفتح جميع أبواب الغرف في الفندق. بما فيها غرفتي. أحسني استعماله. لا تدخلي أبدًا إلى مكانٍ لا تعلمين ما الذي ينتظركِ فيه». فتح مصعد الخدم أبوابه على ممرّ صغير خفيٍّ بجانب خزائن أدوات التنظيف والغسيل. سارت أليثيا فيه بخطوات رشيقة وفتحت الباب المؤدّي إلى الممرّ الرئيس الذي يدور حول الطابق دورة كاملة.

فتحته بمقدار سنتمترات. كان جناح لياندرو في إحدى الزوايا المشرفة على ساحة نبتونو. اتّجهت إليه بهدوء. صادفت أحد النزلاء الذي كان من المفترض أنّه عائد إلى غرفته بعد الفطور. ابتسم لها، فبادلته الابتسامة. انعطفت في الممرّ، فرأت باب جناح لياندرو. لا وجود لأيٍّ من طاقم مرافقته في الخارج. كان لياندرو يمقت ذلك النوع من الحفاوة ويعطي أولويّة للتكتُّم وانعدام الميلودراما. لكنّ أليثيا تعرف أنّ اثنين من رجاله على الأقلّ لا بدّ أنّهما في الأنحاء، أو في غرفةٍ على مقربة، أو يتجولان في الفندق حينذاك. فحسبت أنّ لديها ما بين الخمس والعشر دقائق في أحسن الأحوال.

توقّفت أمام الباب ونظرت إلى الجانبين. أدخلت المفتاح بحرص ودوَّرته في القفل برفق. فانفتح الباب وانسلَّت أليثيا إلى الداخل. أغلقته خلف ظهرها وظلّت مستندة إليه بضع ثوان. هناك مدخلٌ صغير يفضي إلى ممرّ قصير، ينفتح على الصالة البيضوية الموجودة تحت قبة أحد الأبراج. كان لياندرو يعيش هناك منذ أن تشكّلت ذاكرتها عليه. دلفت إلى الصالة ووضعت يدها على السلاح المثبّت على حزامها. ما زال الظلام سائدًا. باب غرفة النوم مردود، ما يفسح المجال

لجانبٍ من الضوء. سمعت أليثيا خرير مياه وصفيرا تعرفه حق المعرفة. عبرت الصالة وفتحت الباب كلّيًّا. كان السرير خاليا ومبعثر الشراشف. وعلى الشمال، باب الحمام. كان مفتوحًا. تنبعث من داخله هالة بخار معطَّرٍ بالصابون. توقّفت أليثيا عند العتبة.

كان لياندرو يحلق لحيته بعناية عند المرآة، موليًا ظهره للباب.

يغطّي جسمه ببرنس قرمزيّ وينتعل خفًّا من اللون ذاته. وحوضُ الاستحمام، ممتلئًا وساخنًا، ينتظر بجانبه. هناك مذياعٌ يهمس الألحان التي كان لياندرو يدمدمها. تقاطعت نظراتهما في المرآة، فابتسم لياندرو بدفء دون أن يتفاجأ البتّة.

- كنت أنتظركِ منذ أيّامٍ. لا بدّ أنّكِ انتبهتِ أنّني أوعزتُ للشباب بالانسحاب من نقاط المراقبة.

- شكرا.

التفت لياندرو ومسح الرغوة التي على وجهه بمنشفة.

- فعلتُ ذلك لمصلحتكِ. أعرف أنّ العمل الجماعيّ لم يعجبكِ يومًا. هل تناولتِ الفطور؟ هل آمرهم أن يأتوكِ بشيء؟

نفت أليثيا برأسها. أخرجت المسدّس وصوَّبت إلى بطنه. سكب لياندرو قليلًا من دهن ما بعد الحلاقة ومسَّدَ به وجهه.

- أفترض أنّه سلاح إندايا المسكين. حركةٌ ذكيّة. أتصوَّر أنّه لا جدوى من السؤال عن أين بوسعنا العثور عليه. أقول هذا لأنّ المسكين كان لديه زوجة وأولاد، لا أكثر.

- ابحث عنه في علبة طعام للقطط.

- يا لطبعكِ الخارج عن المألوف يا أليثيا. هلّا جلسنا؟

- هنا ممتاز.

استند لياندرو إلى رف المغسلة.

- كما تشائين. تفضّلي.

تردّدت أليثيا برهةً. أبسط ما يمكن فعله هو أن تطلق عليه النار في اللحظة ذاتها. أن تفرِّغ المخزن وتحاول الخروج حيّة من هناك. إذا حالفها قليلٌ من الحظِ، كان بوسعها الوصول إلى سلالم الخدم. ومن يدري، لعلّها ستتمكّن من رؤية البهو قبل أن يسفكوا دمها. كان لياندرو كعادته يقرأ أفكارها، فتظاهر بنظرة شفقة وودّ أبويّ وهو يهزّ رأسه بحركة متثاقلة.

- ما كان ينبغي لكِ أن تتركيني إطلاقًا. - قال - لا يمكنكِ أن تخيّلي كم آذيتِني بخيانتكِ.

- لم أخنك يومًا.

- رجاءً يا أليثيا. تعلمين أنّكِ كنتِ المفضّلة لديّ على الدوام.

أنتِ رائعتي. أنتم وأنا خُلِقَ واحِدنا للآخر. نحن الفريق المتكامل.

- ألهذا أرسلتّ ذلك الوحش ليقتلني؟

- روبيرا؟

- أهذا اسمه؟

- أحيانًا. كان يُفتَرض أن يكون بديلك. أرسلتُه ببساطة كي يتعلّم منكِ ويُراقبَكِ. كان يقدِّركِ كثيرًا. ويدرسكِ منذ عامين. بكلّ ملفّ.

بكلّ قضيّة. وكان يقول إنّكِ الأفضل. الخطأ الذي ارتكبتُه هو أنّني اعتقدتُ أنّ بإمكانه أن يأخذ مكانكِ. والآن فهمتُ؛ لا أحد بإمكانه أن يكون بديلًا عنكِ.

- حتّى لومانا؟

- ريكاردو لم يفهم وظيفته جيّدًا على الإطلاق. كان يبدأ بإصدار أحكام قيمة وينبش حيث لا ينبغي له النبش، ولم يكن ناجحًا إلا باستعمال القوّة المفرطة. لقد خلط ولاءاته. وفي هذا المجال مَن لا يتبيَّن ولاءاته جيّدًا يمُت عاجلًا.

- وما ولاءاتك أنت؟

هزّ لياندرو رأسه.

- لِمَ لا تعودين إليّ يا أليثيا؟ من بوسعه أن يعتني بكِ أكثر منّي؟ أعرفكِ كما لو كنتِ لحمًا من لحمي. يكفيني أن أنظر إليكِ لأفهم أنّ الألم ينهشكِ حيّة في هذه اللحظة، لكنّكِ رفضتِ أن تتناولي أيّ شيء يبقيكِ بهمّة عالية. أنظر في عينيكِ وأرى أنّكِ خائفة. خائفةٌ منّي. وهذا يؤلمني. كثيرًا.

- إن أردتَ حبّة، أو المرطبان بأكمله، فهو لك.

ابتسم لياندرو بحزن وهو يهزّ رأسه.

- أعترف أنّي أخطأت. وأطلب منكِ السماح. أهذا ما تريدين؟ إن كان هناك داع، فأنا مستعدّ للسجود لكِ. لا أخجل من هذا. لقد أصابتني خيانتكِ لي بمقتل وأعمت بصيرتي. أنا الذي لطالما علّمتكِ عدم اتّخاذ أي قرار تحت تأثير الحقد والألم والخوف. أترين، أنا بشرٌ أيضًا يا أليثيا.

- أكاد أنفجر باكيةً.

ابتسم لياندرو بلؤم.

- أترين أنّنا في العمق متشابهان؟ أين ستكونين أفضل حالًا إن لم يكن إلى جانبي؟ لديَّ مشاريع عظيمة لكلينا. ففي الأسابيع الأخيرة، فكّرتُ جيّدًا وأدركتُ لماذا أردتِ أن تتركي كلّ هذا. بل أكثر من ذلك: أدركتُ أنّي أنا أيضًا أريد أن أترك كلّ شيء. لقد تعبتُ من حلّ مشاكل المغفّلين والأغبياء. أنتِ وأنا مدعوَّان لما هو أعظم من هذه السخافات.

- آه، حقًّا؟

- بالتأكيد. هل كنتِ تظنّين انّنا سنظلّ نستميت بالنبش في قذارات الآخرين؟ كفى. عيناي تتطلّعان لما هو أهمّ. أنا أيضًا سأتخلّى عن هذا العمل. وأريدكِ بجانبي. فلولاكِ لا أستطيع فعلها. تعلمين عمّا أتحدث، أليس كذلك؟

- ليس لديّ أدنى فكرة.

- أتحدّث عن السياسة. هذا البلد سيتغيّر. عاجلًا أم آجلًا. لن يبقى الجنرال حاكمًا متحكّمًا إلى الأبد. هناك حاجة إلى ضخّ دماء جديدة. إلى أناس لديهم أفكار خلاقة. أناسٌ تعرف إدارة الواقع.

- مثل حضرتك.

- مثلكِ ومثلي. أنتِ وأنا، جنبًا إلى جنب، بوسعنا القيام بأشياء عظيمة في هذا البلد.

- كقتل الأبرياء واختطاف أبنائهم لبيعهم؟

تنهّد لياندرو مستاءً.

- لا تكوني ساذجة، أليثيا. كان ذاك زمانًا مختلفًا.

- أكانت تلك فكرتك أم فكرة ڤايس؟

- من يهتمّ لذلك؟

- أنا.

- لم تكن فكرة أحد. الأمور جرت على هذا النحو، ببساطة: تولّعَ يوباش وزوجته ببنات ماتايكس. فرأى ڤايس في الموضوع فرصة. ثمّ تلتها عمليّة أخرى، وأخرى. كانت تلك حقبة الفرص. وما من عرض بلا طلب. اقتصر دوري على القيام بما يجب فعله لأتأكّد أنّ الأمور لن تفلت من بين يديه.

- يبدو أنّه لم ينجح في ذلك.

- ڤايس رجلٌ طمّاع. والطمّاعون، لسوء الحظ، لا يعرفون متى يجدر بهم التوقُّف عن استغلال مناصبهم، فيضغطون على الأشياء حتى يُفسدونها. وهكذا يسقطون، عاجلًا أم آجلًا.

- فهو ما زال حيًّا إذن؟

- أليثيا... ما الذي تريدينه منّي؟

- الحقيقة.

ابتسم لياندرو.

- الحقيقة؟ أنتِ وأنا نعرف أنّها ليست موجودة. الحقيقة هي اتّفاقٌ يقتضي ألّا يتعايش الأبرياء مع الواقع.

- لم آتِ إلى هنا كي تخرج عليَّ بكتاب الاقتباسات.

تجهّمت نظرات لياندرو.

- كلا. لقد أتيتِ للنبش حيث تعرفين أنّه لا ينبغي لكِ النبش. كالعادة. تعقّدين المسائل كلّها. هذه هي طريقتكِ بتدبير الأمور. ولهذا تركتِني. لهذا غدرتِ بي. لهذا تأتين الآن هنا لتحدّثيني عن الحقيقة. لأنكِ تريدين أن أقول لكِ أجل أنتِ أحسن منّي، وأحسن من كلّ هذا.

- لست أحسن من أحد.

- بلى. لهذا كنتِ المفضّلة عندي دائمًا. لهذا أريدكِ إلى جانبي من جديد. لأنّ هذا البلد يحتاج إلى أناسٍ مثلكِ ومثلي. أناسٌ يعرفون كيف يسيطرون عليه. يعرفون كيف يبقونه هادئًا وساكنًا لئلا يستحيل كلُّ شيء إلى مجمع فئران تعيش لتغذّي أحقادها وأطماعها وضغائنها البائسة، كي يأكل بعضُهم بعضًا. تعلمين أنّي محقّ. وأنّ هذا البلد، بالرغم من أنّهم يحمّلوننا وزر كلّ مصائبه، فإنّه لولانا لذهب إلى الجحيم. ما قولكِ؟

حدَّق لياندرو في عينيها طويلًا ثمّ اتجه إلى حوض الاستحمام حين لم يحصل على جواب. أولاها ظهره وأنزل عنه البرنس. رأته أليثيا عاريًا، ناصعًا مثل بطن سمكة. تمسّك الرجل بالعارضة الذهبيّة النافرة من الجدار الرخاميّ وهبط في الحوض شيئًا فشيئًا. وعندما استلقى في الماء، والبخار يداعب وجهه، فتح عينيه وأرسل إليها نظرة مكتئبة.

- كان على الزمان أن يكون غير ذلك يا أليثيا، لكنّنا أبناء عصرنا. وهذا أفضل، في المحصّلة. كنت أعلم منذ البداية أنّ حياتي ستنتهي على يديكِ.

أنزلت أليثيا السلاح.

- ماذا تنتظرين؟

- لن أقتلك.

- فما الذي جئتِ لتفعليه إذن؟

- لا أعرف.

- تعرفين بالتأكيد.

مدّ لياندرو ذراعه نحو الهاتف المعلّق على حائط الحوض. فصوّبت أليثيا السلاح نحوه ثانيةً.

- ماذا تفعل؟

- تعلمين كيف تجري هذه الأمور يا أليثيا... سنترال. أجل. صلني بوزير الداخليّة. خيل دي بارتيرا. أجل. لياندرو مونتالبو. سأنتظر. شكرا.

- أغلق السمّاعة فورًا. أرجوك.

- لا أستطيع. لم تكن المهمّة إنقاذ ڤايس. بل العثور عليه وإسكاته لئلا تخرج هذه الحكاية الحزينة إلى النور. وكنّا كالعادة قاب قوسين أو أدنى من تنفيذ المهمّة بنجاح. لكنّكِ لم تصغي إليّ. ولهذا يجب عليّ الآن، رغمًا عنّي، أن أعطي أمرًا بقتل جميع أولئك الذين ورّطتِهم بمغامرتكِ. دانيال سيمبيري، زوجته وكلّ أفراد عائلته، على ذاك الأبله الذي يعمل عندهم، وأولئك الذين خطرت في بالكِ الفكرة المشؤومة أثناء حملتكِ التحريريّة بأن تقصّي عليهم ما لا ينبغي أن يعرفوه

إطلاقًا. أنتِ من أراد ذلك. ولحسن الحظّ فقد أوصلتِنا إليهم جميعًا. كالعادة، حتى لوّ لم تفعليها عمدًا، فأنتِ الأحسن. سنترال؟ أجل. سيّدي الوزير. لكم أيضًا. حقًّا. وردتني معلومات...

طلقةٌ واحدة. انزلقت السمّاعة من يده وسقطت أرضًا إلى جانب الحوض. حنى لياندرو رأسه وتوجَّه إليها بنظرة مسمومة بالمودّة والرغبة. وتمدّدت غيمةٌ قرمزيّة في الماء، لتحجب انعكاس جسمه. ظلّت أليثيا متسمِّرةً تنظر إليه ينزف دمًا عند كلّ نبضة، إلى أن توسَّعت حدقتاه وتجمّدت ابتسامته بتكشيرةٍ ساخرة.

- سأنتظركِ. - همس لياندرو - لا تتأخّري.

وانزلق جسمه شيئًا فشيئًا حتى غرق وجه لياندرو مونتالبو بعينيه المفتوحتين تحت المياه الدامية.

(5)

حملت أليثيا السمّاعة من على الأرض ووضعتها على أذنها. لا يوجد خطّ. لم يتّصل لياندرو بأحد. أخرجت علبة الدواء وابتلعت حبّتين بعد أن مضغتهما برشفة براندي باهظ الثمن كان لياندرو يحتفظ به في خزانة الصالة. وقبل أن تترك الجناح، نظّفت سلاح إندايا بعناية وتركته يسقط على السجادة.

بدا لها الطريق نحو ممرّ الخدم بلا نهاية. المصاعد مشغولة. قرّرت نزول السلالم بأقصى سرعة ممكنة. قطعت عقدة الممرّات المحيطة بالمطابخ ثانيةً إلى أن دخلت آخر جزء يقودها إلى المخرج، وهي تلهج باحتمال أن يغدر بها أحدهم بطلقة في الظهر بين لحظة وأخرى لتهوي على وجهها وتموت مثل فأر في سراديب فندق البالاس، بلاط الأمير القرمزيّ. وعندما خرجت إلى الشارع، لامست ندفُ الثلج وجهَها. توقّفت برهةً لتعوّض أنفاسها، فإذا هي تلمح السائق، حيث تركها تمامًا. وما إن رآها إرنستو حتى ركض نحوها واقتادها من ذراعها إلى السيّارة بلا أيّ كلمة. أجلسها على المقعد الأماميّ وسارع للجلوس إلى الدفّة.

كانت الصافرات تدوّي في البعيد حين شغّل المحرّك واتّجه التاكسي نحو شارع سان خيرونيمو. وبمروره بجانب المدخل الرئيس للبالاس، أحصي إرنستو ما لا يقلّ عن ثلاث سيّارات سوداء متوقّفة هناك، وعدّة رجال يسرعون نحو داخل الفندق، يصدّون عنهم كلَّ من صادف وجودُه في طريقهم. تابع إرنستو القيادة بهدوء، أسرع قليلًا حتى غاص في زحمة السير الهابطة نحو ريكوليتوس. وهناك، وسط حشدٍ من السيّارات والحافلات والترامات التي تجرجر عرباتها تحت الضباب، تنفَّسَ السّائقُ الصعداء وجازف بالنظر إلى أليثيا للمرّة الأولى. كان وجهها محفورًا بالدموع، وشفتاها ترتعشان.

- شكرًا لأنّك انتظرتني. - قالت.

- هل أنتِ بخير؟

لم تجب.

- هل تعود إلى الديار؟ - سألها إرنستو.

هزّت المرأة رأسها.

- ليس بعد. ما زال لديَّ محطّة أخيرة...

(6)

توقّفت السيّارة عند الحاجز. أطفأ إرنستو المحرّك ونظر إلى طيف قصر مرثيديس الناتئ بين الأشجار. أليثيا أيضًا كانت تنظر إلى الفيلا دون أن تنبس ببنت شفة. ظلّا هناك لدقيقة، تاركين للصمت الذي يغمر ذلك المكان المجال لهبوطٍ بطيء.

- يبدو أن لا أحد فيه. - قال سائق الأجرة.

فتحت أليثيا باب السيّارة.

- هل آتي معك؟ - قال إرنستو.

- انتظرني هنا.

- لن أذهب إلى أيّ مكان.

نزلت أليثيا من السيّارة واقتربت من الحاجز. وقبل أن تدخل، التفتت برهةً لتنظر إلى إرنستو الذي ابتسم لها وحيّاها بيده، وهو يموت خوفًا. ثمّ انسلّت بين القضبان واتّجهت إلى البيت بين الحدائق. وعلى امتداد الدرب، تراءى لها طيف القطار البخاريّ بين الأشجار. اجتازت حديقة التماثيل. لا صوت إلّا صدى خطواتها على مداس الأوراق اليابسة. لم تجد أيّ أثر للحياة سوى جمهرة من العناكب السوداء المتدليّة من الخادرات المعلّقة على أوراق الشجر، وأخرى تسرع في طابور حول قدميها.

وعندما وصلت العتبات ولاحظت أن الباب مفتوح، توقّفت. نظرت حولها فرأت مرائب السيّارة خاوية. كانت فيلا مرثيديس ترزح تحت أجواء الاضطراب والفقدان والوحشة، كما لو أنّ جميع الذين عاشوا في ذلك المكان قد رحلوا في قلب الليل، هاربين من لعنة محقَّقة. صعدت العتبات ببطء حتى وصلت الباب ودخلت.

- مرثيديس؟ -نادت.

تاه صدى صوتها في ابتهالات الصالونات والممرّات المقفرة. مروحةٌ من دهاليز مظلمة تنفتح على الجانبين. اقتربت أليثيا من قوس صالة رقص واسعة. كانت الأوراق اليابسة قد اجتاحت المكان، تدفعها الرياح. الستائر تتمايل مع التيّار، وجموعُ الحشرات التي زحفت من الحديقة كانت آنذاك تستبيح البلاط الرخاميّ الأبيض.

- مرثيديس؟ - نادت مجدّدًا.

تاه صوتها مرّة أخرى في بواطن البيت. فأحسَّت برائحة مقزّزة تأتي من أعلى السلالم فصعدت. قادها الأثر إلى الغرفة التي في آخر الممرّ. فدخلتها، لكنّها توقّفت في منتصف الطريق. رأت جيشًا من العناكب السوداء يغطّي جثة السيّدة ڤايس. وقد باشرت العناكبُ التهامها.

عادت أليثيا إلى الممرّ راكضةً وفتحت إحدى النوافذ المشرفة على الفِناء الداخليّ لتتنفّس هواءً منعشًا. وعندما أطلّت برأسها، لاحظت أن كلّ النوافذ المشرفة على ذلك الفِناء مغلقة عدا واحدة

في آخر الطابق الثالث. فمشت من جديد نحو السلالم الرئيسيّة وصعدت إلى الطابق الثالث. هناك ممرٌّ طويل يغوص في الظلمات. وفي آخره بابٌ أبيض مزدوج، مردود.

- مرثيديس، أنا أليثيا. هل أنتِ هناك؟ - نادت.

تقدّمت ببطء، ترمي أنظارها إلى الحنايا خلف الستائر، والظلال التي ترتسم بين الأبواب على جانبي الممرّ. وعندما وصلت إلى العمق، أسندت يديها إلى الباب وتوقّفت.

- مرثيديس؟

دفعت الباب.

كانت الجدران مطليّة بالأزرق وتزدهي بكوكبة من اللوحات المستلهمة من الخرافات والأساطير. قلعة، عربة، أميرة وكلّ أنواع المخلوقات العرائبيّة في سماء من نجوم مرصّعة بالفضّة على قبّة السقف. ففهمت أليثيا أنها غرفة ألعاب، جنّة أطفال حيث بإمكانهم العثور على كلّ الألعاب التي يتمنّاها كلّ طفل. وكانت الشقيقتان تنتظرانها في آخر الغرفة.

المرقد أبيض ومتوجٌ بمسندٍ خشبيّ مزوّق على شكل ملاك منبسط الجناحين يراقب الغرفة بورع لا حدود له. أريادنا ومرثيديس بلباس أبيض، مستلقيتان على السرير، يدًا بيد، بينما تمسك كلٌّ منهما بيدها الأخرى زهرةً تغفو على صدرها. ثمّة حافظة حُقَن وقوارير زجاجيّة ترقد على الدُّرج من جانب أريادنا.

شعرت أليثيا بارتجافٍ يقصف ساقيها، فجلست على كرسيّ. لا تعلم كم أمضت من الوقت هناك، دقيقةً أم ساعة. لا تذكر إلّا أنّها نزلت السلالم ووصلت إلى الطابق الأرضيّ فاقتادتها خطواتها إلى صالة الرقص. اتجهت نحو الموقد. وجدت على الرفّ علبة أعواد ثقاب طويلة. أشعلت عودًا وأخذت تمرّره على محيط البيت لتحرق الأقمشة والستائر. وبعد قليل شعرت أنّ اللهيب يزأر خلف ظهرها فغادرت بيت الموت ذاك. قطعت الحديقة ثانيةً دون أن تنظر إلى الخلف، بينما كان قصر مرثيديس يحترق، وعمودُ الدخان الأسود يتصاعد نحو السماء.

إلى الفردوس

برشلونة

فبراير 1960

(1)

مثل كلّ أيّام الأحد منذ بات أرملَ، قبل أكثر من عشرين عامًا، كان خوان سيمبيري يستيقظ باكرًا، يحضِّر قهوةً مكثّفة ولذيذة ويرتدي طقمًا وقبّعة كأنّه من سادة برشلونة، لينزل إلى كنيسة سانتا آنا. لم يكن بائع الكتب متديّنًا على الإطلاق، إلّا إذا اعتبرنا الدون أليخاندرو دومًا عضوًا أسقفيًا بارزًا في تقويم القدّيسين. كان سيمبيري يحبّ أن يجلس في المقعد الأخير لحضور ذلك الطقس بصمت. ينهض ويجلس احترامًا عندما يشير إليه القسّ، لكنّه لا يشارك في التراتيل والصلوات ولا في دورة المناولة. منذ توفّيت إيزابيلا، بَهُتت علاقته مع الربّ، إذ لم يرتادا المنتديات الحيويّة نفسها.

وكان القسّ يرحِّب به دومًا، وهو على دراية من قناعاته، أو انعدامها. كان يذكِّره بأنّ الكنيسة هي بيته، مهما كانت معتقداته. «كلُّ امرئ يعيش إيمانه على طريقته» يقول له «ولكن لا تنسب هذا الكلام إليّ، وإلّا أرسلوني في مهمّة ليروا إن كان ثعبان الأناكوندا يأكلني أم لا». وكان بائع الكتب يجيب بأنّه ليس مؤمنًا، إلّا أنّه في الكنيسة يشعر بقربه من إيزابيلا، ربّما لأنّه تزوّجها تحت قبّة تلك الكنيسة نفسها، ثمّ أقام جنَّازها هناك أيضًا بعد خمس سنوات من زواجهما، ولم يعش أوقاتًا سعيدة كما عاشها في تلك السنوات الخمس.

في صباح يوم الأحد ذاك، جلس سيمبيري كالعادة في المقعد الأخير يصغي إلى الخطبة ويتأمّل أهالي الحيّ الصباحيّين: تشكيلة من المتعفّفات والمذنبين، والوحدانيّين، والمصابين بالأرق، والمتفائلين والمتقاعدين عن الأمل، يجتمعون للتوسُّل إلى الربّ أن يتذكّرهم ويتذكّر حيواتهم الفانية، في صمته السرمديّ. رأي سيمبيري أنفاس الخوريّ ترسم أدعية من بخار في الهواء. وكان الحاضرون يسعون إلى التقرّب من موقد البوتان الوحيد الذي تسمح به ميزانيّة الكنيسة التي على الرغم من مسابقة العذراء والقدّيسين التي أطلقتها الأكشاك، لم تحقِّق المعجزة.

وكان الخوريّ يتهيّأ لتناول خبز القربان ويشرب النبيذ، الذي لم يكن ليرفضه في ذلك البرد، فإذا بسيمبيري يرى بطرف العين شخصًا ينساب على طول المقعد ليجلس بجانبه. التفت فوجد نفسه أمام ابنه دانيال الذي لم يره في كنيسة منذ يوم زفافه. ما كان ينقصه سوى أن يرى فيرمين يحمل كتيّبًا دينيًّا ليتأكّد من أنّ المنبّه قد تعطّل في الواقع وأن كلّ ذلك جزءٌ من نومة هانئة في يوم أحد شتويّ.

- هل أنت بخير؟ - سأله خوان.

أومأ دانيال بابتسامة وديعة وتوجّه بأنظاره إلى الخوريّ الذي بدأ بتوزيع المناولة على المؤمنين بينما كان عازف الأرغن - أستاذ موسيقى يعزف في عدّة كنائس محليّة وزبونٌ معتاد في المكتبة - يفعل ما بوسعه.

- بالحُكم على الجرائم المرتكبة بحقّ خوان سيباستيان باخ، فإنّ المايسترو كليمينتي هذا الصباح لا بدّ أنّ أصابعه متجمّدة. - أضاف بائع الكتب.

أكتفي دانيال بهزّ رأسه ثانيةً. دقّق سيمبيري في ابنه، الذي كان منذ أيّام سارحًا في أفكاره. دانيال يحمل في رأسه عالمًا من الفقدان والصمت لم يفلح والده في دخوله يومًا. وغالبًا ما تذكّر بائعُ الكتب ما وقع في ذلك الفجر منذ خمسة عشر عامًا، حين استيقظ دانيال وهو يصيح بأنّه لم يعد يذكر وجه أمّه. اقتاده حينذاك للمرّة الأولى إلى مقبرة الكتب المنسيّة، ربّما كان يأمل أن يسدَّ ذلك المكانُ وما يعنيه الفراغَ الذي خلّفه الرحيلُ في حياة كلٍّ منهما. رآه يكبر ويصبح رجلًا، ويتزوّج وينجب ابنًا، ومع ذلك كان يستيقظ في كلّ صباح متخوفًا من أجله ومتمنّيًا لو أن إيزابيلا إلى جانبه، لتقول له أشياء ما كان هو قادرًا على قولها. فالأب لا يرى أبدًا أنّ ابنه يكبر، إنّما يبقى في نظره الطفلَ الذي كان ينظر إليه بقدسيّة متيقّنًا من أنّه يمتلك إجابات على كلّ ألغاز الكون.

ورغم هذا، وتحت نور الكنيسة، بعيدًا عن الربّ والعالم، نظر بائع الكتب إلى ابنه وفكّر للمرّة الأولى أن الزمن بدأ يمرّ عليه أيضًا، وأنّه لم يعد يرى فيه الطفل الذي كان يعيش كي يتذكّر وجه والدته التي لن تعود أبدًا. بحث سيمبيري عن كلماتٍ توحي لابنه بأنّه يفهمه، وأنّه ليس وحيدًا، لكنّه جزء من ذلك الظلّ المسموم الذي يهيمن عليه. التفت دانيال نحو والده فقرأ الأخير في عينيه غضبًا ونقمة لم ير مثلهما حتى في أعين الكبار الذين حكمت عليهم الحياة بالشقاء.

- دانيال... - همس.

فعانقه ابنه بقوّة، ليمنعه من الكلام، ويغمره كما لو أنّه يخشى أن ينتزعه شيءٌ ما من بين يديه. لم يكن بائع الكتب قادرًا على رؤية وجه دانيال، لكنّه فهم أنّ ابنه كان يبكي في صمت. فصلّى لأجله، للمرّة الأولى منذ أن تركتهما إيزابيلا.

(2)

أنزلتهم الحافلة عند أبواب مقبرة مونتويك قبل منتصف النهار بقليل. حمل دانيال ابنَه خوليان بين ذراعيه وأفسح المجال لنزول بيا. لم يأتيا بالطفل إلى هذا المكان من قبل. كانت الشمس الباردة قد احرقت الغيوم، وعرضت السماءُ صفيحةً من أزرق مشعّ لا يتناسب مع المشهد. اجتازوا أبواب مدينة الموتى وبدأوا بالصعود. كانت الطريق التي تصعد سفح الجبل محاذية للجانب القديم من المقبرة، وقد شُيِّدت في أواخر القرن التاسع عشر، وعلى جانبيها نواويس وأضرحة بعمرانٍ ميلودراميّ، تستحضر ملائكةً وأطيافًا من مشاهد بابليّة رهيبة لتسطِّر أمجاد كبار الأثرياء والعوائل المرموقة في المدينة.

وكانت بيا تكره مدينة الموتى تلك. كانت تكره زيارة ذلك المكان الذي لا ترى فيه إلّا تمثيليّة وبائيّة للموت ومحاولة لإقناع الزوّار المذعورين بأنّ حَسَبَ ونَسَبَ الأشخاص المهمّين يحافظان على هيبتهما حتى في الأبديّة المظلمة. كانت تأسف من فكرة أنّ جيشًا من المعماريّين والنحّاتين والحرفيّين باعوا مواهبهم لإنشاء مدفنة بكلّ هذه الأبّهة وإسكانها بالتماثيل. مدفنةٌ فيها أرواحُ الموتِ تنحني لتقبيل جباه الأطفال الذين عاشوا قبل اكتشاف البنسلين، وفيها أشباحُ الصبايا ضحايا المؤامرات يرقدن بتعاسةٍ أبديّة، بينما الملائكةُ المفجوعون مستلقون على شواهد من مرمر ويبكون رحيل «هنديٍّ» سفّاح بنى ثروته وأسّس مجده بالإتجار بالعبيد أو السكّر النازف في جزر الكاريبي. في برشلونة، حتى الموتُ يرتدي ملابس احتفال. كانت بيا تمقت ذلك المكان، لكنّها لم تكن تجرؤ على البوح بذلك لدانيال.

كان الصغير خوليان يتأمّل كلّ ذلك الكرنفال الدانتويّ بعينين جاحظتين كالأطباق. يشير بإصبعه إلى المنحوتات العجائبيّة وهياكل البانثيون المتاهيّة بمزيجٍ من الرهبة والانبهار.

- إنّها مجرّد تماثيل، يا خوليان. - قالت له أمّه - لا يمكنها إيذاؤك أبدًا لأنّ هذا المكان لا يحتوي على شيء.

وما إن تفوّهت بتلك العبارة، حتى اعتراها الندم. لم يُبدِ دانيال أيّ إشارة على أنّه سمع كلامها. ولم يكن قد فتح فمه تقريبًا منذ عاد إلى البيت فجرًا دون أن يقدِّم أيّ تفسير عن أين كان. استلقى صامتًا بجانبها على السرير، لكنّه لم ينم دقيقة واحدة.

وفي الصباح الباكر، حين سألته بيا عمّا به، نظر إليها دون أن يقول شيئًا. ثمَّ نزع عنها ثيابها بعنف. وأخذها إليه بقوّة، دون أن ينظر إلى وجهها، مثبِّتًا ذراعيها فوق رأسها بيد ومُفرِّجًا فخذيها باليد الأخرى بلا أيّ مراعاة.

- دانيال، أنت تؤلمني. توقَّف، أرجوك. توقَّف.

تجاهل اعتراضها وأولج بها بضراوة لم تعهدها، إلى أن خلَّصت يديها وغرست أظفارها في ظهره. عوى دانيال من الوجع فدفعته بيا عنها بكل قوّتها. وما إن تحرّرت منه، قفزت عن السرير وسترت

جسمها بثوب النوم. أرادت أن تصيح، لكنها لجمت دموعها. تقوقع دانيال على السرير وتحاشي نظراتها. التقطت بيا نفسًا عميقًا.

- إيّاك أن تفعل شيئًا كهذا ثانيةً يا دانيال. أبدًا. هل فهمتَني؟ انظر إلى وجهي وأجب.

رفع وجهه وهزّ رأسه. انغلقت بيا في الحمّام حتى سمعت صفق باب البيت. ولم يعد دانيال إلا بعد ساعة. وكان قد اشترى أزهارًا.

- لا أريد أزهارًا.

- فكّرتُ في الذهاب لزيارة والدتي. - قال.

كان خوليان جالسًا إلى الطاولة يحمل فنجان الحليب، ويراقب أبويه. فطن أنّ شيئا ما ليس على ما يرام. بالإمكان خداع العالم بأسره، إلّا خوليان، فكّرت بيا.

- سنأتي معك إذن. - قالت.

- لا داعي.

- قلتُ إنّنا سنأتي معك.

وعندما وصلوا إلى أسفل التلّ المطلّ على البحر، توقّفت بيا عند السياج. كانت تعلم أنّ دانيال يريد زيارة قبر والدته بمفرده. حاول أن يمرّر إليها الصغير، لكنّه أبى أن يترك ذراعي والده.

- خذه معك. سأنتظركما هنا.

(3)

جلس دانيال القرفصاء أمام الشاهدة وترك الأزهار على القبر. لامس الأحرف المنقوشة على الحجر.

إيزابيلا سيمبيري

1939–1917

ظلّ هناك بعينين مغمضتين إلى أن تأتأ خوليان بنبرته الغامضة التي يستعملها حين تجول في رأسه فكرةٌ ما.

- ما بك يا خوليان؟

كان ابنه يشير إلى شيء ما عند أسفل الشاهدة. لاحظ دانيال مجسّمًا صغيرًا ينتأ بين بتلات الورود اليابسة في ظلِّ إناءٍ زجاجيّ. بدا تمثالًا من الجصّ. تيقَّنَ دانيال أنّه لم يره هناك في آخر زيارة قام بها لقبر والدته. حمله وتفحَّصه. ملاك.

كان خوليان ينظر إلى التمثال الصغير مفتونًا، فانحنى وحاول انتزاعه من أبيه. وهكذا انزلق الملاك من يديه ووقع على الرخام وتحطَّم. وحينذاك انتبه دانيال إلى شيء يبرز من بين الحطام. ورقة مجعّدة. تركها خوليان أرضًا وحمل التمثال. فبسطها دانيال وعرف خطّ أليثيا.

ماوريسيو ڤايس

إلى بينار

شارع مانويل آرنوس

برشلونة

نظر خوليان إليه باهتمام. وضع دانيال الورقة في جيبه وتوجَّه إليه بابتسامة لا يبدو أنّها أقنعت الصغير، الذي كان ينظر إلى والده بتلك الطريقة حين يستلقي على الأريكة مريضَ الحمَّى. ترك دانيال زهرة بيضاء على الشاهدة وحمل خوليان بين ذراعيه.

كانت بيا تنتظرهما أسفل التلّ. وعندما تلاقت بهما، ضمَّها دانيال صامتًا. كان يريد أن يسألها المعذرة عمّا بدر منه في الصباح، وعن كلّ شيء، لكنّه لم يعثر على كلمات. فجرحته بيا بنظرتها.

- هل أنت بخير، دانيال؟

اختبأ خلف تلك الابتسامة التي لم تقنع خوليان، ولا بيا أيضًا.

- أحبّكِ. - قال.

في المساء، بعد أن أودعا خوليان في سريره، مارسا الحبَّ برفق تحت الظلام. جاب دانيال جسمَها بشفتيه كما لو كان يخشى أنّه لن يتمكّن من فعلها ثانيةً. ثم تعانقا تحت الأغطية، وهمست بيا

في أذنه.

- أودّ إنجاب طفل آخر. بل طفلة. هل يسرّك ذلك؟

أومأ دانيال وقبّل جبينها. وظلّ يداعبها حتى غفت. انتظر أن تصبح أنفاسها أعمق وأبطأ، ثمّ نهض بحذر وجمع ثيابه وارتداها في صالة الطعام. وقبل أن يخرج، توقّف برهةً أمام غرفة خوليان وواربَ الباب. كان ابنه نائمًا قرير العين، يحتضن تمساحًا مخمليًّا أهداه له فيرمين وكان أكبر منه حجمًا. سمّاه خوليان «كارليتوس» وكان يأبى أن ينام إلّا معه، رغم كلّ محاولات بيا لاستبداله بشيء أكثر ليونة. قاوم دانيال رغبته في دخول الغرفة وتقبيل ابنه. إذ إنّ خوليان خفيف النعاس، ولديه رادار يرصد تحرُّكات أبويه في المنزل. وعندما أغلق باب الشقّة، تساءل إن كان سيراه ثانيةً.

(4)

ركب الترام الليليّ الذي ينطلق من ساحة كاتالونيا بينما كان يباشر انزلاقه على السكّة. كان في الداخل ما لا يزيد على ستّة ركّاب يموتون بردًا ويتهزهزون من رجرجة الترام بعيون مواربة ولامبالاة تجاه العالم. لا أحد كان سيذكر أنّه رآه.

جاب الترام المدينةَ في غضون نصف ساعة دون أن يلتقي بأيّ وسيلة نقل أخرى تقريبًا. كان يتابع طريقه عند المواقف المقفرة مخلّفًا حزمة من الوميض الأزرق على الأسلاك ورائحة كهرباء وخشب محروق. وبين الفينة والأخرى، يصحو أحد الركّاب من موته فيترنّح حتى المخرج الخلفيّ وينزل من دون انتظار توقّف العربة كليًّا. وفي آخر جزء من الصعود، بين تقاطع شارع أوغوستا بشارع بالميس وحتى جادّة تيبيدابو، لم يكن لدانيال من رفيق سوى مراقب التذاكر السباتيّ الذي كان غافيًا مستندًا إلى كرسيّ طولانيّ في ذيل الترام، والسائق الذي كان رجلًا صغير البنية لا يوحدّه شيء بالعالم إلا سيجارة تنفث رِيَشَ الدخان المصفرّ والفوّاح برائحة البنزين.

وبوصولهم إلى الموقف الأخير، زفر السائق إلى الخارج نفخة دخان على سبيل الاحتفال، وقرع الجرس. فنزل دانيال تاركًا خلف ظهره فقاعة الضوء المذهَّب التي تكتنف الترام. أشرف على جادّة تيبيدابو وتسلسل القصور والأبنية التي تصعد حنايا الجبل. وكانت فيلا إلى بينار تتربّع على القمّة مثل حارسٍ صموت يراقب المدينة. شعر دانيال بتسارع النبض. رتَّب معطفه وأخذ يمشي.

وبمروره أمام الرقم 32 رفع عينيه لينظر إلى البوّابة القديمة لبيت آل ألدايا فانقضتّ عليه الذكريات. في تلك الفيلا القديمة، كان قد وجد حياته وكاد يفقدها منذ أزلٍ بعيد. بالتأكيد، لو كان فيرمين بجانبه، لعلَّق بعبارة ساخرة على أنّ تلك الجادّة كانت ترسم مصيره، وأنّ الغبيّ وحدَه مَن بوسعه أن يرتكب ما كان يجول في ذهنه آنذاك وزوجتُه وابنُه ينامان آخر ليلة سلامٍ لهما على الأرض. ربّما كان يجدر به أن يصحبه معه. فيرمين قد يصنع المستحيل لمنعه من ارتكاب حماقة. فيرمين قد يقف عائقًا بينه وبين واجبه، أي رغبته الغامضة بالانتقام. لذا كان يعلم أنّه في تلك الليلة لا بدّ أن يواجه مصيره بمفرده.

عندما وصل إلى الساحة التي تتوّج الجادّة، اختبأ دانيال في الظلّ، وسار على الطريق المحاذية للتلّ الذي يكلِّله قصر إلى بينار عابسًا شرسًا. كان يبدو من البعيد معلّقًا في السماء. ولا يمكن إلّا لمن يقترب منه أن يكتشف ضخامة النطاق الذي يطوِّقه وعظمة سلالم الهيكل الكاتدرائي. كان المبنى عبارة عن جبلٍ تحوَّلَ إلى حديقة، محاطًا بسور يحاذي الشارع. المدخل الرئيس مراقبٌ من فيلا منفصلة يتوِّجها برجٌ هي الأخرى. يحرسها حاجزٌ شبكيّ عائد إلى حقبةٍ كان التعدين فيها ما يزال فنًّا. وفي الأسفل، هناك مدخلٌ ثانٍ، بوّابة حجريّة نافرة عن السور، تحمل لافتةً تصرّح عن اسم البيت، وخلفها يتراءى مرقىً طويلٌ عبْر سلالم متاهيّة بين الحدائق. كان الحاجز يبدو منيعًا مثل البوّابة الرئيسة. استنتج دانيال أنّه لا بديل وحيد عن تسلُّق السور والقفز إلى الداخل وبلوغ البيت من خلال الغابة، موقنًا بأنّ لا أحد سيراه. تساءل إن كان هناك كلاب أو حرّاس متخفّون. لم يلاحظ وجود أيّ ضوء من الخارج. كان إل بينار يفوح بأجواء مأتميّة قوامها العزلة والهجران.

بعد دقيقتين من التمعُّن، قرّر أن يعني السور من نقطةٍ تبدو محميّة بالأشجار. كان الحجر رطبًا ولزجًا، ما تطلَّبَ أكثر من محاولة للوصول إلى قمّته والقفز إلى الجانب الآخر. وما إن هبط على إبر الصنوبر والأغصان المتساقطة، حتى شعر بأنّ الحرارة من حوله تنخفض، كما لو أنّه ولج سردابًا. هَمَّ بصعود التلّ بحذر، متوقِّمًا كلَّ بضعة أمتار ليصغي إلى حفيف الأوراق. وبعد قليل، التقى بدربٍ مبلَّط آتٍ من مدخل المكان يفضي إلى الباحة المحيطة بالبيت. فسار على الدرب حتي برزت أمامه الواجهة. نظر حوله. كان الصمت والظلام الكثيفان يطوِّقانه. لا دلائل على وجود أيّ أحد في المكان.

البيت غارق في الظلّ، النوافذ معتمة، لا صوت إلّا صدى خطواته والريح التي تتمسّح بالأشجار. بل حتّى تحت ضوء القمر الواهن كان جليًّا أنّ إل بينار مهجور منذ أعوام. نظر دانيال إلى البيت مشتَّتَ الذهن. كان ينتظر حرّاسًا، كلابًا أو أيّ نوع من الحراسة المسلّحة. ولعلّه في سرّه كان يتمنّى ذلك. أن يجد أحدًا قادرًا على إيقافه أو راغبًا بذلك. ولكن، لا أحد.

اقترب من إحدى النوافذ الكبيرة وقرّب وجهه من الزجاج المشروخ. تراءى له في الداخل مجالٌ معتم. دار حول المبنى ووصل إلى ما يشبه الفِناء المؤدي إلى ممرّ مغلق بمجموعة أبواب زجاجيّة. شحذ أبصاره نحو الداخل فلم يرَ ضوءًا أو حركة. أمسك بحجرة وضرب بها زجاج إحدى تلك الأبواب. أدخل يده في الثقب وفتح الباب من الداخل. عانقته رائحة البيت كأنّها روحٌ عجوزٌ شرّيرةٌ تنتظره على أحرّ من الجمر. تقدَّمَ بضع خطوات وانتبه أنّه كان يرتجف وأنّه ما زال يحمل الحجرة. فلم يتركها.

كان الممر يأخذه إلى غرفة مستطيلة لا بدّ أنّها في زمانها كانت قاعة حفلات.. اجتازها ووصل إلى صالة كبيرة النوافذ المعشّقة بالأرابيسك لتشرف على برشلونة كلّها. ياه، ما أبعدها المدينة! بدأ يستكشف البيت فشعر أنّه يتجول في أرجاء سفينة غارقة. الأثاث مكسوٌّ بكفنٍ من الظلمات المبيضَّة، الجدران مفحَّمة، الستائر مهترئة أو ساقطة على الأرض. وجد في وسط البيت باحة داخليّة تتصاعد إلى سقف مهشّمٍ تتسرّب منه حزم الضوء كأنها سيوفٌ من بخار. سمع رفرفة جناح وخشخشة في الأعلى. ثمّة سلالم رخاميّة فاخرة، على الجانب، تناسب مسرح أوبرا أكثر من بيت خاصّ. يحاذيها محراب قديم. يتبدّى في ظلامه وجه المسيح المصلوب، مشتعلًا بدموع دمائه ونظراته الاتّهاميّة. وخلف أبواب الغرف المغلقة، ثمّة بوّابة مفتوحة تبدو غارقة في أعماق البيت. اقترب دانيال وتوقّف. داعب تيّارُ هواء طفيفٌ وجهه، حاملًا معه رائحة. شمع.

تقدّم بضع خطوات على امتداد ممرّ ليجد سلالم متدنّية المظهر، ففكّر أنّها في الماضي كانت مخصّصة للخدم. ووجد غرفة بعدها بأمتار، غرفة واسعة تتوسّطها طاولة خشبيّة كبيرة وكراسيٌّ مقلوبة. لا بدّ أنّه المطبخ. رائحة الشمع آتية من هناك. ضياءٌ خافتٌ ومتذبذب برسم أطراف الجدران. لاحظ دانيال أنّ الطاولة ملطّخة ببقع مسودّة تتمدّد آثارها لتوسِّخ البلاط كبركةِ ظلٍّ سائل. دماء.

- مَن هناك؟ - قال صوتٌ بدا أنّه خائفٌ أكثر من دانيال نفسه.

توقّف وبحث عن ملاذ في الظلمة. سمع خطواتٍ تقترب ببطء شديد.

- مَن هناك؟

شدَّ دانيال على الحجرة وحبس أنفاسه. شخصٌ يحمل شمعة بيد وغرضًا لامعًا بالأخرى ويقترب. توقّف فجأة، كأنّه أحسَّ بوجوده. درس دانيال ظلّ الشخص: يحمل مسدّسًا بيد مرتجفة. تقدّم بضع خطوات فرأى دانيال اليد التي تحمل المسدّس تمرّ أمامه عند العتبة التي كان يختبئ خلفها.

فتحوَّل خوفه إلى غضب، وقبل أن يعي ما كان يفعل، رماه بالحجرة بكلّ قوّته فأصابت يده. سمع عظامًا تتكسّر مصحوبة بصرخة. سقط السلاح على الأرض فانقضّ دانيال على الرجل، مفرّغًا عليه كلّ الغلّ الذي يتّقد في صدره. لكمه بقبضتيه العاريتين على وجهه وجذعه. كان الشخص يحاول تغطية وجهه بذراعيه، يصرخ مثل حيوانٍ وَقَعَ فريسةَ الهلع. شكَّلت الشمعة الساقطة بركة من الشمع الذي تأججت ناره. وبذلك الضوء المذهّب، انكشف وجهٌ مرعوبٌ لرجلٍ ضعيف. كفَّ دانيال حائرًا. كان الرجل يلهث أنفاسه بصعوبة، ينظر إليه بوجه نازف، دون أن يفهم شيئًا. أمسك دانيال بالمسدس وضغط قصبته على إحدى عينيه. فتأوَّه الرجل.

- لا تقتلني، أرجوك... - توسَّل إليه.

- أين ڤايس؟

ما زالت أنظار الرجل توحي بعدم فهمه.

- أين ڤايس؟ - ردَّد دانيال، وهو يسمع في صوته نبرة حديديّة ومشحونة بالحقد لم يعرفها.

- مَن ڤايس؟ - تلعثم الرجل.

تهيَّأ دانيال للطمه بأخمص المسدس على وجهه فأغمض الآخر عينيه مرتجفًا. أدرك دانيال أنّه يضرب رجلًا عجوزًا. فتراجع وجلس مستندًا بظهره إلى الحائط. تنفّس بعمق وحاول أن يستعيد السيطرة على أعصابه. كان الرجل قد انكمش على نفسه يتباكي.

- مَن حضرتك؟ - تمكّن دانيال من التكلّم بعد تنهيدة - لن أقتلك. أريد أن أعرف فقط مَن أنت وأين ڤايس.

- الحارس. - كان يئنّ - أنا الحارس.

- وماذا تفعل هنا؟

- قالوا لي إنّهم سيعودون. وأن أُطعِمه وأن أنتظرهم.

- تطعم مَن؟

أعرب العجوز عن عدم معرفته.

- ڤايس؟

- لا أعرف ما اسمه. تركوا لي هذا المسدّس وقالوا لي أن أقتله ما لم يعودوا خلال ثلاثة أيّام، ثمّ أرميه في البئر. لكنّي لست مجرمًا...

- متى حدث ذلك؟

- لا أدري. منذ أيام.

- مَن قال لك إنه سيعود؟

- ضابطٌ في الشرطة. لم يقل لي اسمه. أعطاني نقودًا. إنّها لك، إن أردت.

هزّ دانيال رأسه.

- أين ذلك الرجل، ڤايس؟

- في الأسفل... - قال مشيرًا إلى باب معدنيّ في آخر المطبخ.

- أعطني المفاتيح.

- هل جئتَ أنت لتقتله؟

- المفاتيح.

نبش العجوز في جيوبه ومدّ إليه باقة من المفاتيح.

- هل أنت معهم؟ مع الشرطة؟ لقد فعلتُ كلَّ ما أملوه عليّ، لكنّي لم أستطع قتله...

- ما اسمك؟

- مانويل. مانويل ريكويخو.

- عد إلى بيتك يا مانويل.

- ليس لديّ بيت... أعيشُ في كوخ، في الخلف، في الغابة.

- انصرف من هنا.

أومأ الرجل. ونهض بمشقّة مستعينًا بالطاولة ليقف على قدميه.

- لم أكن أريد إيذاءك. - قال دانيال - ظننتُ أنّك شخصٌ آخر.

تحاشى العجوز نظراته وجرجر نفسه نحو المخرج.

- ستسدي إليه معروفًا. - قال.

(5)

خلف الباب المعدنيّ غرفةٌ وجد فيها دانيال عدّة رفوف تحتوي على معلّبات. وفي الجدار العميق فتحةٌ يتبدّى منها نفقٌ محفور بالصخر يهبط بميلانٍ كبير. ما إن خطى بعد العتبة، حتّى هاجمته رائحة نتانة تصعد من عمق السرداب. رائحة حيوان، وقذارة، ودماء، وخوف. غطّى وجهه بيده واستبصر الظلام. لاحظ وجود مشعل معلّق على الحائط. أشعله وسلّط حزمة الضوء باتجاه النفق. هناك سلّمٌ محفور في الصخر يضيع في هاويةٍ مظلمة.

نزل ببطء. كانت الجدران ترشح رطوبةً، والأرض زلقة. حسَبَ أنّه نزل قرابة عشرة أمتار حين رأي نهاية السلّم. هناك حيث يتّسع النفق وينفتح على جوف كبير بحجم غرفة. هناك حيث الرائحة الكريهة كثيفة تخنق الحواسّ. كنسَ الظلامَ بضوء المشعل فرأى القضبان التي تقسم الغرفة إلى نصفين. سبر عمق الزنزانة بالضوء، دون أن يفهم الوضع. كانت خاوية. أستوعب أنّه أخطأ حين سمع أنفاسًا محطّمة ولاحظ صرّةً من الظلّ تتحوّل إلى شكل هيكلٍ عظميّ يزحف نحو الضوء. ثمّة شيء مسجون هناك، شيءٌ بالكاد يوحي أنّه بشري.

عينان أحرقتهما العتمة، عينال لاتريان، محجوبتان بعباءه بيضاء. عينان تبحثان عنه. الشكل، أو بالأحرى كومة الخِرَق الملتفّة بصرّة عظام مكسوّة بالدم المتخثّر والأوساخ والبول، تشبّثَ بالقضبان وحاول النهوض. كانت له يدٌ واحدة فقط. والأخرى مبتورة ومتقيّحة ومكويّة بالنار. التصق المخلوق الغريب بالقضبان كأنّه يودّ أن يشمَّ زائره. ابتسم فجأة ففهم دانيال أنّه رأى المسدس الذي يحمله بيده.

بحث دانيال ما بين المفاتيح حتى وجد المفتاح الذي يفتح القفل. فتح الزنزانة. كان المخلوق في الداخل ينظر إليه، مترقّبًا. عرف فيه دانيال انعكاسًا شاحبًا للرجل الذي تعلَّمَ أن يحقد عليه في الأعوام الأخيرة. لم يبق شيء من هيبته الملكيّة، وهيئته الشامخة، وحضوره المتعجرف. شيءٌ ما، أو أحدٌ ما، استأصل منه كلَّ ما يمكن استئصاله من كائنٍ بشري، ولم يترك له سوى زفرة الظلام والنسيان. رفع دانيال السلاح وصوّبه إلى وجهه. فضحك ڤايس من كلّ قلبه.

- أنت قتلتَ أمّي.

هزّ ڤايس رأسه مرارًا وتشبّث بركبتيه متوسّلًا. بحث عن السلاح بيده الوحيدة وحمله إلى جبينه.

- اقلتني، أرجوك. أرجوك. - توسَّل إليه باكيًا.

هيّأ دانيال القادح. أغمض ڤايس عينيه وضغط وجهه بقوّة على فوّهة المسدّس.

- انظر إليّ، يا ابن القحبة.

فتح ڤايس عينيه.

- قل لي لماذا.

ابتسم ڤايس دون أن يفهم. لقد فقد كثيرًا من أسنانه وكانت لثّتُه نازفة. أشاح دانيال نظراته وأحسَّ بالغثيان يصعد حلقه. أغمض عينيه واستحضر وجه حوليال النائم في غرفته. أبعد السلاح وفتح المخزن. فتساقطت الطلقات على الأرض الموحلة وأبعد عنه ڤايس.

نظر إليه، في البدء مشوّشًا ثم هلعًا، وراح يجمع الطلقات واحدة تلو الأخرى، ليعطيها له بيدٍ مرتعشة. رمى دانيال السلاح إلى آخر الزنزانة وأمسك بعنق ڤايس. لمعت بارقة أمل في عيني الوزير. أمسكه دانيال بقوّة وجرّه خارج الزنزانة. وعندما وصل به إلى المطبخ، رفس الباب وخرج وڤايس يترنّح خلفه. لم ينظر إليه، لم يوجّه إليه أيّ كلمة. اكتفي بجرّه في دروب الحديقة حتى وصلا إلى البوّابة الحديديّة. ثمّ بحث عن المفتاح في باقة مفاتيح الحارس وفتحها.

بدأ ڤايس يئنّ مذعورًا. رماه دانيال على قارعة الطريق. فسقط الرجل أرضًا وأمسكه من ذراعه ثانيةً، ليرغمه على النهوض. خطا ڤايس وتوقّف. ركله دانيال وأجبره على المتابعة. وظل يدفعه إلى الساحة حيث كان الترام الأزرق ينتظر. كان الفجر يطلع، والسماء تتشكّل بشبكة حمراء ترتفع فوق برشلونة وتشعل البحر في البعيد. جثا ڤايس على ركبتيه أمام دانيال يتوسّل إليه.

- أنت حرّ. - قال دانيال - هيّا، اذهب.

ابتعد الدون ماوريسيو ڤايس، نجم عصره، يعرج إلى أسفل الجادّة. ظلّ دانيال هناك إلى أن اختلط طيف الرجل بالفجر الرماديّ.

بحث عن ملاذ في الترام الخاوي. ركب وجلس في آخر العربة. أسند رأسه إلى الزجاج وأغمض عينيه. ثمّ استسلم للنعاس، وعندما أيقظه المراقب كانت الشمس في العلا تكنس الغيوم لتتضوَّع برشلونة برائحة النظافة الفوّاحة.

- إلى أين ذاهبٌ يا سيّد؟ - سأله المراقب.

- إلى البيت. - قال دانيال - ذاهبٌ إلى البيت.

وبعد قليل، بدأ الترام يهبط، وسلَّمَ دانيال أنظاره للمدى الذي يرتسم اسفل الجادّة الكبيرة، يشعر بأنّ الحقد انفضّ عن روحه، وأنّه للمرّة الأولى منذ أعوام بعيدة يستيقظ على ذكرى سترافقه بقيّة عمره: وجه أمّه، شابّةً تجاوزها بالعمر حقًّا.

- إيزابيلا. - همهم في سرّه - آهٍ كم تمنّيتُ أن أعرفكِ...

(6)

يقال إنّهم رأوه عند مدخل المترو وإنّه نزل السلالم يبحث عن الأنفاق كما لو أنّه عائدٌ من الجحيم. يقال إنّ الناس حين رأوا ثيابه الرثّة وشمّوا رائحته المقزّزة، تنحّوا عنه وتظاهروا بأنّهم لم يروه. يقال إنّه ركب أحد القطارات وبحث عن ملاذ في إحدى زوايا العربة. لم يقترب منه أحد، لم ينظر إليه أحد، ولم يقرّ أحد بأنّه رآه.

يقال إنّ الرجل الخفيّ كان يبكي ويصرخ في عربة المترو، متوسّلًا أن يشفق عليه أحدٌ ويقتله، ولكنْ لا أحد أراد أن تتلاقي نظراته بنظرات بقايا الإنسان ذاك. يقال إنّه تسكّع طوال النهار في أنفاق المترو، من قطار إلى آخر، وانتظر على الرصيف أن تحمله عربة أخرى عبْر شبكة الأنفاق المخفيّة تحت متاهة برشلونة، ومن نفق إلى آخر، ثمّ آخر، فآخر، لا يصل به إلى أيّ مكان.

يقال إنّه في نهاية ذلك المساء، توقّف أحد القطارات اللعينة عند الموقف الأخير، وعندما رفض الصعلوك أن ينزل، وأبى الانصياع الأوامر المراقب ومدير المحطّة، اتصل هذان بالشرطة. وحين وصل رجال الشرطة، دخلوا إلى العربة واقتربوا من المتسوّل الذي لم يستجب الأوامرهم البتّة. اقترب منه أحدهم أكثر حينها، وقد سدّ أنفه وفمه بيده. دفعه برفق بقصبة السلاح. يقال إنّ الجسد هوى على الأرض هامدًا وانفتحت الخِرَقُ التي تغطّيه لتكشف عمّا بدا جثّة قد قطعت شوطًا في التفسُّخ.

لم يكن في جعبته سبيلٌ لتحديد هويّته سوى صورة يحملها في يده، لامرأةٍ شابّة مجهولة الهويّة. احتفظ أحد رجال الشرطة بصورة وجه أليثيا غريس، وظلت لديه أعوامًا في خزانته في الثكنة، معتقدًا أنّها الموت الذي ترك بطاقته في يد ذلك الشيطان المسكين قبل أن يزجَّ به في سجنه الأبديّ.

حمل موظّفو الجنائز الجثّة، ونقلوها إلى المشرحة التي ينتهي فيها كلّ المعدمين والجثث مجهولة الهويّة والأرواح المهجورة التي تخلّفها المدينةُ وراء ظهرها كلّ يوم. وعند المغيب، وضعه موظّفان في صرّة قماشيّة تنبعث منها روائح كثيرٍ من الأجساد التي احتوتها في رحلتها الأخيرة، وقذفا الصرّة في صندوق الشاحنة. وصعدا الشارع المحاذي لقلعة مونتويك، التي تشرف على بحرٍ من نار وعلى آلافٍ من ملائكة مدينة الموتى وأشباحها، التي بدت أنّها تجمّعت لتبصق في وجهه آخرَ شتائمها على الطريق إلى الحفرة الجماعيّة حيث أرسل إليها الصعلوكُ، الرجلُ الخفيُّ، في حياة أخرى، كثيرًا من الأرواح البريئة، التي كان بالكاد يذكر أسماءها.

وصلا إلى حافة الحفرة، الهاوية الشاسعة المكوّنة من الأجساد المكسوّة بالكلس، فتح الموظّفان الصرّة وأفرغاها من الدون ماوريسيو ڤايس الذي تدحرج على السفح حتى وصل إلى قاع الجثث. يقال إنّه سقط على ظهره وعيناه مفتوحتان، وأنّ آخرَ ما رآه الموظّفان قبل أن ينصرفا من هناك هو طيرٌ أسود يحطّ على الجسد ويفقأ عينيه بالمنقار، بينما كانت أجراس برشلونة كلّها ترنّ في البعيد.

برشلونة

23 ابريل 1960
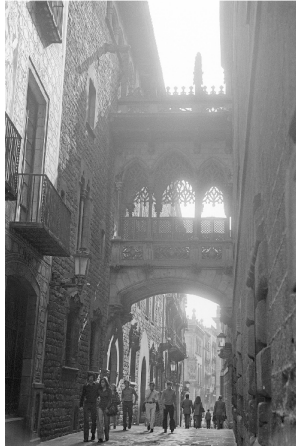
(1)

حان اليوم الموعود.

قبل الفجر بقليل، استيقظ فيرمين متحمّسًا. كان في غليانه قد أردى برناردا محطَّمةً لمدّة أسبوع بفضل إحدى هجماته الغراميّة الصباحيّة التي تَهزهزَ على إثرها أثاثُ غرفة النوم فأثارت موجة احتجاج عارمة من قِبَل الجيران على الجانب الآخر من الحائط.

- هذا بسبب البدر. - اعتذر فيما بعد من الجارة، وهو يحيِّيها من النافذة المطلّة على الغرفة المخصّصة للغسيل. - لا أعرف ما الذي يحدث لي. أتحوَّل.

- أجل، ولكنْ بدلًا من أن تتحوّل إلى ذئب، فإنّك تتحوّل إلى خنزير. حاول أن تضبط أعصابك، فهنا يعيش أطفالٌ لم يتهيّأوا للمناولة الأولى بعد.

كان فيرمين في كلّ مرّةٍ يلبّي فيها نداء المولِّد البدائيّ الموجود في داخله، ينتابه جوع النمور. حضَّرَ عجّةً من أربع بيضات مخفوقة بالجبن واللحم المجفّف، والتهمها مع نصف رغيف وقنّينة شمبانيا صغيرة. ثمّ كلَّل هذا النجاح بكأس من مشروب الأوروخو ليشعر بالرضا، وارتدى ثيابًا مناسبة لمواجهة نهارٍ معقَّد كما تقول التوقّعات.

- هل لي أن أعرف لماذا ارتديت ملابس غطّاس؟ - سألته برناردا من عتبة المطبخ.

- تحسُّبًا. في الحقيقة ما هي إلّا سترة مطريّة مبطّنة مستنسخة من علامة ABC التي لا تسمح بتسريب حتّى المياه المقدّسة. بسبب ما يضعونه فيها من الحبر. يبدو أنَّ إعصارًا عاتيًا سيأتي.

- اليوم، في عيد القدّيس جوردي؟

- لا يمكن التنبّؤ بمشيئة الربّ، لكنه اعتاد على تكدير مزاجنا كلّما تسنَّت له الفرصة.

- فيرمين، في هذا البيت لا تجديفَ بالإله.

- عذرًا يا حبيبتي. سأتناول الآن الحبّة المضادّة لمبدأ اللاأدريّة، وسأتخلّص من تأثيره سريعًا.

فيرمين لم يكذب. كانوا يتنبّأون منذ مدّة بقدوم يومٍ مشحونٍ بالأهوال التوراتيّة التي ستستبيح برشلونة، مدينة الكتب والأزهار، في أجمل أيّام أعيادها. وقد أجمع الخبراء كلّهم على ذلك: مرصد الطقس الوطنيّ؛ إذاعة برشلونة؛ صحيفة الطليعة؛ والحرس المدنيّ. وكانت آخر القطرات ما قبل الطوفان العظيم قد سكبتها العرَّافةُ الشهيرة مدام كارمانيولا. كانت تلك الأفعى ذائعةَ الصيت لأمرين. أولّهما أنّ مظهرها شبيه بجنيّةٍ ذات تقاسيم حادّة توحي بسيّدٍ مكتنز البنية من كورنيا، كوكوفاتي بروتولي، وقد عاد إلى الحياة بحُلَّة أنثويّة مُشعرة بعد أن أمضى حياته كاتبًا في العدل ليكتشف في نهاية المطاف أنّه مولعٌ بارتداء ملابس عاهرة بدينة وهزهزة خصره على الإيقاع الشهوانيّ للمصفِّقين في رقصات الفلامنكو. والأمر الثاني تنبّؤاتها الطقسيّة التي لا تخطئ أبدًا. وباستثناء الجودة والتقنيّة، فإنّ الجميع كان موافقًا على هذا: يوم القدّيس جوردي يُنذِرُ بطقسٍ كارثيّ.

- ربّما كان من الأفضل عدم إخراج المصاطب إلى الطريق.

- قطعًا، قطعًا. إنّ الدون ميغيل دي ثربانتس وزميله الدون غييرمو دي شكسبير لم يموتا في اليوم نفسه 23 أبريل اعتباطًا. فإن كان كلاهما قد أسلم الروح بتلك الدقّة، فإنّنا نحن باعة الكتب لن نخشى شيئًا ولن نتقاعس. اليومَ سنخرج لتوحيد الحب والقرّاء حتى لو قرّر الجنرال إسبارتيرو أن يقصفنا من قلعة مونتريك.

- ستأتيني بزهرة على الأقلّ؟

- سآتيكِ بعربة مليئة بأكثرها نضارة وعبقًا يا برعمي.

- تذكّرْ أن تقدّم زهرة للسيّدة بيا، لأنّ دانياليتو كارثة ولا شكّ أنّه سينسى الأمر في اللحظة الأخيرة.

- إنّي أغيّر حفاضات هذا الفتى منذ أعوام، فلن أغفل اليوم عن هذه التفاصيل الاستراتيجيّة.

- عدني أنّك لن تتبلّل.

- إن تبلّلتُ عدتُ أكثر خصوبةً وإثمارًا.

- آه يا إلهي، سننتهي في الجحيم.

- وهذا سببٌ إضافيّ لننتهي في الجحيم بخدمةٍ جيّدة.

وبعد شحنة قبلات وقرصات على المؤخّرة وعناق مع حبيبته برناردا، خرج فيرمين متيقّنًا أنّ اللحظة الأخيرة ستأتي حاملة معها معجزة لتشرقَ شمسٌ تليق بلوحات سورولا.

وفي طريقه، سرق الجريدة من الناطورة، الثرثارة والمؤيّدة للحزب الحاكم، وتأكّد من آخر التنبؤات. كانوا يترقّبون برقًا ورعدًا وصواعق وأعاصيرَ بَرَدٍ بحجم حبّة الكستناء وعواصفَ زوبعيّة ستقتلع ما لا يقلّ عن مليون كتاب وزهرة قد تهبط فوق الماء لتشكّلَ جزيرة باراتاريا(9) هناك حيث المدى يفقد اسمه الجميل.

- سنرى. - علق فيرمين وهو يعطي الجريدة لأحد البؤساء الذي كان يقضي وقته مسحوقا على كرسيّ بجانب الكشك في شارع كاناليتاس.

لم يكن وحدَه مَن يتمتّع بذلك الحدس. فالبرشلونيّ هو الكائن الذي لا يهدر أيّ فرصة لمعارضة الأسماء المكرّسة مثل خرائط الطقس ومنطق أرسطو. وبالفعل، في ذلك الصباح المستهلّ بسماءٍ لونُها كأبواق الموت، كان جميع باعة الكتب في المدينة قد استيقظوا باكرًا جدًّا، واستعدّوا لإخراج مصاطبهم إلى الطرقات ومواجهة الزوابع والأعاصير. وحين رأى فيرمين انتشار روح التضامن والانتماء في أرجاء لاس رامبلاس، شعر بأنّ المتفائلين سينتصرون في ذلك اليوم.

- هكذا يعجبني! بتصميمٍ وإصرار. فحتّى لو أمطرت رماحًا وحرابًا لن تُثنَى عزيمتنا.

وكذا فعل باعة الأزهار، مدجّجين بمحيطٍ من الورود الحمراء. في التاسعة تمامًا، كانت طرقات وسط برشلونة تزدهي بأبهى رونق لها احتفاءً بيوم الكتاب، أملًا ألّا تفزع تلك التنبؤاتُ المشؤومةُ

العشاقَ والقرّاءَ وسائرَ الهائمين، لعلهم يتّحدوا على الموعد في الثالث والعشرين من أبريل من كلّ سنة منذ العام 1930 لإحياء ما كان فيرمين يسمّيها أحلى حفلة في العالم المعروف. وفي التاسعة والرابعة والعشرين دقيقة، على خلاف جميع التوقّعات، حصلت المعجزة.

(2)

اكتسحت شمس الصحاري ستائر ودفّات غرفة النوم وصفعت وجه دانيال. فتح عينيه فشاهد المعجزة لا يُصدِّق ما يرى. كانت بيا بجانبه راقدة على السرير، موليةً ظهرها العاري إليه. لعق ظهرها من أعلاه إلى أدناه، فاستيقظت ضاحكة واستدارت إليه بقلبة واحدة. عانقها دانيال وقبَّل شفتيها ببطء، كأنّه يبتغي أن يشربَ حبيبتَه. ثم أزاح الشرشف واستمتع بتأملٍ رغيد وهو يلامس بطها بأنامله حتى شبكت يده بين فخذيها ولعقت شفتيه بشهوة.

- إنّه يوم القدّيس جوردي. ستتأخّر.

- لا بدّ أنّ فيرمين قد فتح المكتبة.

- خمس عشرة دقيقة. - أمهلته بيا.

- ثلاثون. - ردّ دانيال.

فكانت الحصيلة خمسًا وأربعين دقيقة، أكثر أو أقلّ.

أخذت الشوارع تنتعش بالناس عند الضحى. شمسٌ راقيةٌ وسماءٌ مشعّة أثّثت المدينة بينما كان آلاف البرشلونيّين يخرجون للتنزّه بين مئات البسطات والمصاطب التي تعرض الكتب على الأرصفة ومناطق سير المشاة في الطرقات. كان السيّد سيمبيري قد قرّر أن يضع مصطبته أمام المكتبة، وسط شارع سانتا آنا. وهناك عدّة طاولات مفروشة بكتبٍ تتألّق تحت الشمس. وفي الخلف، كان فريق سيمبيري كاملًا، يساعدون القرّاء، ويحضرون الطرود أو ينظرون إلى الزحام ببساطة. قاد فيرمين التشكيلة، بعد أن نزع السترة المطريّة وشمَّرَ عن ساعديه.

وبجانبه دانيال وبيا تراقب الحسابات والصندوق.

- وماذا عن الطوفان المتوقَّع؟ - سأل دانيال وهو يهمّ بالعمل.

- اتّجه إلى تونس، حيث هناك حاجةٌ أكبر إليه. اسمع يا دانيال، لك وجهٌ ماكرٌ هذا الصباح... من المعروف أنّ الربيع يبدِّل الدماء...

كان السيّد سيمبيري جالسًا يقترح العناوين على الحائرين المتردّدين، صحبة الدون أناكليتو الذي لطالما انضم إليها كوحدة مؤازرة نظرًا إلى براعته في تغليف الكتب. أمّا صوفيا فكانت تبهر الفتيان الذين يقتربون من المصطبة لينظروا إليها فينتهي بهم الوضع إلى شراء شيء ما. فرنانديتو بجانبها يشتعل من الغيرة، والفخر نوعًا ما. بل حتّى ساعاتيُّ الحيّ الدول فيديريكو، وعشيقته المناوبة مرثيديتاس، تطوّعا للمساعدة.

وكان أكثر المستمتعين هو الصغير خوليان الذي ينظر بلذّة إلى مشهد الناس وهم يحملون الكتب والأزهار بين أيديهم. كان قد تسلّق أحد الصناديق بالقرب من والدته، ليساعدها في إحصاء النقود ويبتلع بلا هوادة احتياطيّ سكاكر السوغوس التي وجدها في جيوب سترة فيرمين. وفي لحظة معيّنة، حوالي منتصف النهار، نظر إليه دانيال وابتسم. لقد مرّ وقتٌ طويل لم ير فيه خوليان

والده بهذا المزاج المعتدل. لعلّ ظِلَّ الحزن الذي رافقه ردحًا من الزمن كان ينقشع آنذاك مثل غيوم العاصفة التي تحدَّثَ بشأنها الجميع ولم يرها أحد. في بعض الأحيان، تهمل الآلهةُ الأناس الطيّبين، وتضيع أقدارُهم على طول الطريق، لكنّهم يحظون بقليل من السعد في الحياة.

(3)

كانت ترتدي ثيابًا سوداء من رأسها حتّى قدميها، وتحجب عينيها بنظارة شمسيّة ينعكس عليها المشهد في شارع سانتا آنا وهو يغصّ بالناس. تقدّمت أليثيا بضع خطوات ولاذت في ظلّ رواق. ومن هناك راحت تعاين خلسً عائلة سيمبيري وهم يبيعون الكتب ويتحادثون مع المارة ويستمتعون بالنهار مثلما لم تكن هي قادرة على فعلها.

ابتسمت وهي ترى فيرمين ينتزع كتبًا من أيدي القراء ويستبدلها بأخرى؛ دانيال وبيا يتلامسان ويتبادلان نظراتٍ بلغةٍ تملا قلب أليثيا بالغيرة وهي على دراية بأنّها لا تستحقّ ذلك الاهتمام؛ فرنانديتو مسحورًا بصوفيا، والجدُّ سيمبيري يشاهد عائلته وأصدقاءه راضيًا. كان يسعدها لو اقتربت منهم وسلَّمت عليهم، كي تقول لهم إنّه ما عاد هناك ما يخشونه. كي تشكرهم لأنّهم سمحوا لها أن يتلاقي دربها بدربهم وإنْ لأجلٍ قصير. كان أكثر ما سيسعدها أن تكون واحدة منهم، إلّا أنّها ستكتفي بحمل تلك الذكريات معها لتتأكّد من أنّها كانت محظوظة. وإذ همّت بالانصراف، انتبهت إلى نظرةٍ تُوقِفُ الزمن.

كان الصغير خوليان يحدِّق إليها، بابتسامة حزينة على وجهه، كما لو أنّه قرأ أفكارها. رفع الطفل يده وحيّاها، لسان حاله يقول وداعًا.

بادلته أليثيا التحيّة. واختفت في غضون ثانية.

- على من تسلِّم يا عزيزي؟ - سألت بيا وهي ترى ابنها يركِّز أنظاره إلى الزحام مفتونًا.

نظر خوليان إلى والدته وأمسك يدها. وكان فيرمين قد اقترب منهما ليتزوَّد بمدَّخراته من السوغوس، ظنًّا منه - يا لسذاجته - أنّ السكاكر ما تزال في السترة، فوجد الجيوب خاوية. التفت نحو خوليان ليؤنِّبه، فلاحظ تعابير الطفل واتّبع نظراته الأسيرة.

أليثيا.

أحسَّ بها في غيابها، دون الحاجة إلى رؤيتها، فحمد السماءَ - أو أيًّا كان مَن حمل تلك السُّحُب نحو مراعٍ أخرى - أنّها أرجعتها إليه ولو لمرّة واحدة. ربّما، بعد كلّ ما حصل، كانت برناردا محقّة: في هذا العالم الحقير، بعض الأشياء تنتهي أحيانًا مثلما ينبغي لها أن تنتهي.

أخذ سترته وانحنى إلى بيا التي كانت تضع في الصندوق ثمن سلسلة أرثر كانون دويل من شابٍّ يضع عدستين كالتيليسكوب.

- ها يا قائدة، لقد سرق الفتى كلّ مؤونتي، وأشعر أنّ السكر ينخفض في دمي بعد أن أصغيتُ إلى خطبة الباسيوناريا المناضلة. وبما أنّ جميع الحاضرين هنا أكفّاء لمتابعة المهمّة، ما عدا الغبية مرثيديتاس بطبيعة الحال، فإنّي ساذهب للبحث عن محلّ حلويات رفيع الجوده لتدبير التموين، وبمروري سأشتري زهرة لبرناردا.

- حجزتً أزهارًا من بائع ورود الكنيسة. - ردّت بيا.

- قولي لي ما الذي لا تفكِّرين فيه سلفًا...

رأته بيا يمضي وقطّبت جبينها.

- أين ذهب فيرمين؟ - سألها دانيال.

- الله أعلم...

(4)

وجدها عند آخر رصيف الميناء، جالسة على حقيبة. كانت تدخّن تحت الشمس وتنظر إلى الطاقم ينقلون الحاويات والصناديق إلى تلك الباخرة التي تصبغ مياه المرفأ باللون الأبيض. جلس فيرمين بجانبها.

وبقيا في صمتٍ بعض الوقت، يتمتعان بالصحبة التي لا تحتاج إلى كلمات.

- حقيبة كبيرة. - قال أخيرًا - وأنا الذي ظننتُ أنّكِ من بين كل النساء وحدَكِ القادرة على السفر خفيفةً.

- أن يترك المرء خلف ظهره ذكريات قبيحة أسهل عليه من ترك حذاء جيّد.

- أنا لديّ حذاء واحد فقط...

- أنت زاهد.

- من جمع أغراضكِ؟ فرنانديتو؟ يا له من وغد... يتعلّم التكتّم بسرعة فائقة...

- جعلتُه يُقسِمُ على عدم فتح فمه.

- بم رشوتِه؟ بقبلة ساخنة؟

- ليس لفرناندينو قبلات إلا لصوفيا، وهذا هو السليم. أعطيته مفاتيح بيتي، كي يسكن هناك.

- سنترك هذه المعلومة الصغيرة بعيدًا عن متناول السيد سيمبيري، فهو وليّ أمر القاصرة.

- فكرة صائبة.

نظرت إليه أليثيا طويلًا. وتاه فيرمين في تينك العينين السنوّريّتين، العميقتين والمبهمتين. هاويةٌ من غموضٍ سحيق. أمسكت أليثيا يده وقبّلتها.

- أين كنتِ؟ - سألها.

- بين هنا وهناك. أربط خيوطًا محلولة.

- على عنق مَن؟

وجّهت إليه ابتسامة متجمّدة.

- كانت هناك أشياء عليَّ فعلها. وإغلاق ملفّاتها. قمتُ بعملي.

- ظننتُ أنَّكِ قد استقلتِ.

- أردت أن يكون سطح المكتب نظيفًا ومرتَّبًا ليس إلا. - قالت - لا يعجبني ترك الأشياء على أنصاف حلولها.

- ألم تفكّري في توديعنا؟

- تعلم أنّي لا أحبّ لحظات الوداع يا فيرمين.

- من الرائع أن أعرف أنّكِ حيّة ولم تخسري أيًّا من أطرافكِ.

- هل شككت في ذلك يومًا؟

- مررتُ بلحظات ضعف. إنّه العمر. فالمرء يخاف كلّما بات يرى آذان الذئب، كما يقال. يسمّونها قناعة.

- كنت أفكر في إرسال بطاقة مصوّرة إليك.

- من أين؟

- لم أقرر بعد.

- يبدو لي أنّ سفينة الركّاب هذه ليست متجهة إلى شاطئ الشمس.

نفت أليثيا برأسها.

- لا. سأذهب أبعد من ذلك بقليل.

- توقعت. أراكِ كبيرة جدًّا. هل سمحتِ لي بسؤال؟

- شرط ألّا يُعنى بالمكان الذي سأتّجه إليه.

- هل عائلة سيمبيري في أمان؟ دانيال، بيا، الجدّ، خوليان؟

- الآن، نعم.

- وإلى أي دركٍ أسفل من الجحيم توجَّبَ عليكِ الهبوط لتتأكّدي من أنّ الأبرياء سيتسنّى لهم العيش بسلام، أو بتجاهل تامّ على الأقلّ؟

- إلى الجحيم الذي كان محتومًا عليَّ منذ الأساس، يا فيرمين.

- لهذه السجائر رائحة زكيّة. تبدو غالية الثمن. وهذا طبيعيّ.

فلطالما أعجبتكِ الأشياء الأغلى والأرقى. أنا رجل قتال، وأميل إلى توفير الموارد.

- أتريد واحدة؟

- لِمَ لا؟ في انعدام السوغوس، لا بدّ لي من شيء أطعمه للوحش الذي في داخلي. في الحقيقة لا أدخّن منذ أيّام الحرب، عندما كانت السجائر تُصنَعُ من تكرير بقاياها وأعشاب ضارّة مشبعة بالبول. لا بدّ أنّ النوعيّة تحسّنَت الآن.

أشعلت أليثيا سيجارة وأعطتها له. فأعجب فيرمين بأثر أحمر الشفاه على العقب قبل أن يمجّ منها.

- هل تفكّرين فعلًا في أن تقصّي عليَّ ما حدث؟

- هل توّد معرفته حقًّا يا فيرمين؟

- لديَّ هوسٌ في معرفة الحقيقة دومًا. لا تتخيّلين عدد الخيبات التي نشعر بها. نعيش جيّدًا كلما ذُهِلنا.

- إنّها حكاية طويلة، ولديَّ باخرةٌ ستنطلق يا فيرمين.

- لا بد أنّ هناك وقتا لإنارة جهل رجل مسكين وغبيّ، قبل أن تُرفع المرساة.

- هل أنت متأكد من رغبتك في معرفة ما جرى؟

- لقد خُلِقتُ هكذا.

خلال ما يقرب من ساعة، قضت عليه أليثيا كلّ ما كانت تذكره، منذ أيّامها في الميتم وحياة الشوارع وحتى مباشرتها العمل تحت إمرة لياندرو مونتالبو. حدّثته عن أعوام الخدمة، وكيف آلت بها الأقدار أن تتوهّم بأنّها فقدت روحها على الطريق، روحها التي لم تشكّ يومًا في أنّها ما زالت تحتفظ بها في إحدى طوايا نفسها، وكيف قرّرت عدم متابعة العمل لمصلحة لياندرو.

- قضيّة ڤايس كانت بالنسبة إليّ بمثابة جواز سفر نحو الحريّة، مهمّتي الأخيرة.

- لكن شيئًا من هذا القبيل لا وجود له، أليس كذلك؟

- بالطبع ليس له وجود. فالمرء حرٌّ حيث يجهل الحقيقة.

روت له لقاءها في فندق بالاس مع خيل دي بارتيرا، والوظيفة التي كُلِّفتْ بها، وزميلها الذي أجبِرَت عليه، النقيب بارغاس: الذي كان سيساعدها في العثور على الأجزاء الناقصة لاستقصاءٍ لا يفضي إلى أيّ نتيجة.

- كان خطئي أنّني لم أَعِ أنّ تلك الوظيفة خدعة. منذ البداية. لا أحد كان يريد حقًا أن يعثر على ڤايس. لقد كسب أعداءًا كُثُرًا. وقد اقترف كثيرًا من الأخطاء. حطَّمَ قواعد اللعبة مستغلاًّ امتيازاته ومربكًا سلامة أعوانه. وعندما عادت حلقة جرائمه للبحث عنه، تركوه وحيدًا.

كان ڤايس يؤمن بوجود مؤامرة تستهدف حياته، ولم يكن واهمًا بالمطلق. لكنّه أراق كثيرًا من الدماء خلال مسيرته لدرجة أنّه ما عاد يعرف من أين سيدهمه الخطر. وظلَّ طوال أعوام يعتقد أنّ أشباح الماضي عادت لتصفية حساباتها معه. سالغادو، زميلك السابق في الزنزانة؛ سجين السماء، دافيد مارتين، وآخرون كُثُر. ما لم يتوقّعه هو أنّ مَن أراد الإجهاز عليه كانوا أصدقاءه وحُماته. ففي السلطة، لا يتلقّى المرء الطعنات من الأمام أبدًا، إنّما بالظهر دومًا، في أثناء العناق. لا أحد تحت القبة كان يريد إنقاذه. أرادوا أن يتأكدوا من أنه سيختفي إلى الأبد وأن تُمحَى آثاره إلى الأبد. هناك أيادٍ كثيرةٌ متورّطة.

بارغاس وأنا كنا مجرّد أدوات. لكنّ ذلك لم يشفع لنا، فكانوا يريدون أن يتخلّصوا منّا نحن أيضًا في النهاية.

- إلّا أنّ أليثيا عزيزتي لديها حيوات أكثر من قطّ، واستطاعت أن تحتال على القدر مرّة أخرى...

- على شعرة. أعتقد أنّني استنفدت كلّ الحيوات المتبقّية لديّ يا فيرمين. لقد حان الوقت لكي أخرج من المشهد أنا أيضًا.

- هل يمكنني أن أقول لكِ بأنّني سأفتقدكِ؟

- إذا أصبحتَ رومانسياً الآن، رميتُك في الماء.

أطلقت الباخرة صافرتها فانتشر صداها في كل أرجاء المرفأ.

نهضت أليثيا.

- أيمكنني مساعدتكِ في حمل الحقيبة؟ أعدكِ بأن أبقى على اليابسة. فالإبحار يعود بي إلى ذكريات بشعة.

رافقها إلى الجسر الذي كان آخر الركّاب يصعدون عليه. أخرجت أليثيا التذكرة، وبفضل إكراميّة سخيّة استدعى العريفُ ملّاحًا صغيرًا ليحمل أغراض السيّدة إلى الكابينة.

- هل ستعودين إلى برشلونة يومًا ما؟ هذه المدينة ساحرة، كما تعلمين: تنسلُّ تحت الجلد ولا تخرج منكِ أبدًا...

- عليك أن تعتني بي يا فيرمين. وعليك أن تعتني ببيا ودانيال والسيّد سيمبيري، وبرناردا، وفرنانديتو وصوفيا، وبالأخصّ عليك أن تعتني بنفسك وبالصغير خوليان، الذي سيخلّدنا جميعًا ذات يوم.

- هذا يعجبني. أن أصبح خالدًا، الآن بالتحديد وقد بدأتُ أهترئ.

عانقته أليثيا بشدّة وقبّلت خدّه. ففهم فيرمين أنّها كانت تبكي ولم يشأ أن ينظر إلى وجهها. فليس على أيٍّ منهما أن يفقد كرامته في اللحظة التي يفترقان فيها.

- آمل ألّا يخطر في بالك أن تبقى هنا لتودّعني من على الرصيف.

- حذّرته أليثيا.

- اطمئنّي.

أخفض فيرمين أنظاره وسمع خطواتها تضيع على الجسر. التفت دون أن يرفع عينيه عن الأرض ومشى ويداه في جيبيه.

وجده عند أوّل الرصيف. كان دانيال جالسًا على الحافة متأرجح الساقين. تبادلا نظرة وتنهّد فيرمين. جلس بجانبه.

- ظننتُ أنّك لم تعد تريد الحديث عنها. - قال فيرمين.

- هذا بسبب عطرها الجديد. بالإمكان تتبُّعه حتى في سوق السمك. ما الذي روته لك؟

- أليثيا؟ حكايات لا تساعد على النوم.

- لعلّك تودّ مشاركتها.

- في يوم آخر. لديّ خبرة مع الأرق ولا أنصحك به.

أبدى دانيال لامبالاته.

- أخشى أن يصلني الإنذار متأخّرًا. - قال.

دوّت صافرة الباخرة حتى ملأ صداها المرفأ. أشار دانيال برأسه إلى الباخرة التي تباشر الانفصال عن الرصيف.

- هذه من تلك التي تسافر إلى الأمريكيّتين.

أومأ فيرمين.

- فيرمين، هل تذكر عندما كنا نأتي لنجلس هنا، منذ أعوام، ونتذّوق العالم على ضرب المطارق؟

- كان هذا يحدث عندما كنّا نرى أنه ما زال بالإمكان إصلاحه.

- أنا ما زلت أرى ذلك.

- لأنّك ما تزال شابًّا طيّبًا، حتى لو كنتَ تحلق لحيتك.

بقيا هناك يراقبان الباخرة التي تمخر انعكاسَ برشلونة كلها على مياه الميناء وتُبَدِّدُ أغرب أعاجيب الدنيا بزبد أبيض. لم ينزع فيرمين ناظريه حتى تاهت الباخرة - التي يرافقها سرب نوارس - في السراب الضبابيّ الذي يكتنف منفذ الميناء. كان دانيال ينظر إليه، شاردًا.

- هل أنت بخير، فيرمين؟

- مثل ثور وحشيّ.

- حسنٌ، لا أعتقد أني رأيتك حزينًا هكذا من قبل.

- هذا يعني أنّه ينبغي لك الذهاب لمعاينة بصرك.

الم يلحّ دانيال.

- ما قولك؟ هل ننصرف؟ ما رأيك إن دعوتك لشرب شيء منعش في إل شمبانييت؟

- شكرًا، دانيال، لكنّي اليوم لست في وارد الشرب.

- ألا تذكر يا فيرمين؟ الحياة تنتظرنا!

ابتسم له فيرمين، فلاحظ دانيال للمرّة الأولى أن شعر صديقه القديم بات رماديًّا.

- هذا ينطبق عليك يا دانيال. أمّا أنا فلم يعد في انتظاري إلّا الذكريات.

شدّ دانيال على ذراعه بمودّة، وتركه وحيدًا مع ذكرياته وضميره.

- لا تتأخّر. - قال له.

1964

كلما سأله ابنُه نيكولاس ماذا عليه أن يفعل كي يصبح صحفياً بارعًا، أجاب بيلاخوانا بالمقولة نفسها.

- الصحفي البارع مثل الفيل: لديه أنف جيّد، وأذنان جيّدتان، وذاكرة جيّدة على وجه الخصوص. لا ينسى.

- والنابان؟

- عليه أن يعتني بهما جيّدًا، فهناك مسلّحون يهاجمونه دومًا بغية انتزاعهما.

في ذلك الصباح، كالعادة، رافق بيلاخوانا ابنه الأصغر إلى المدرسة قبل أن يتمشّى نحو مقرّ صحيفة الطليعة. تفيده النزهة بالتفكير وترتيب الأفكار قبل أن ينغمس في أدغال الصحافة ويصارع مواضيع اليوم. عندما وصل إلى المقرّ في شارع بيلايو، جاءه خينارو، الخادم الذي يحاول إقناع مدير التحرير منذ خمسة عشر عامًا بتعيينه متمرّنًا في الصفحة الرياضيّة، على أمل أن يحظى أخيرًا بدخول منصّة الشرف في مباريات البرشا، تطلُّعه الأكبر في حياته كلّها.

- سيحدث هذا يومَ تتعلّم القراءة والكتابة يا خينارو، فلم تعد المعجزات ممكنة حتّى في فاطمة. وعليه، فإن لم تتعجّل في تنظيف الأرض، لن يسمحوا لك بالاقتراب إلى المنصّة حتى في تصفيات الأشبال. - يقول له المدير ماريانو كارولو دائمًا.

ما إن رآه يدخل من الباب، حتى اقترب منه خينارو بتعبيرٍ حذر.

- سيد بيلا حوانا، الرقيب من الوزارة بانتظارك هنا... – غمم.

- مجدّدًا؟ أليس لدى هؤلاء عملٌ أسوأ من هذا؟

ألقى بيلاخوانا نظرة إلى صالة التحرير وحدّد رقيبه المفضّل بشخصه الذي لا تخطئه عين. رجلٌ مدهن الشعر، بقامةٍ كحبّة الإجاص يتموضع كالحارس بجانب طاولته.

- آه، بالمناسبة، لقد وصلك طرد. - قال خينارو - لا أعتقد أنّه قنبلة، لأنه وقع من بين يدي على الأرض وما زلنا أحياء.

أخذ بيلاخوانا الطرد وقرّر أن يعود أدراجه ليلغي زيارة الرقيب المنحوس الذي يحاول منذ أسابيع أن يقبض عليه متلبّسًا لتوبيخه بسبب مقالةٍ كتبها حول الإخوة ماركس. صاحبنا كان يظنّ أنّ بيلاخوانا يدافع عن الماسونيّة العالميّة.

دخل إلى مقهى في أعماق ظلال شارع تيبرس، الذي كان الصحفيّون وراقصات الملاهي وحثالة أقصى شمال حيّ الرافال يسمّونه «المقهى النتن». طلب فنجان قهوة والتجأ إلى طاولة في العمق الذي لم يتسرّب إليه شعاعُ شمس في السنوات السبعين الأخيرة. وهناك عاين الطرد. كان عبارة عن ظرفٍ ضخم ومغلّف بالملصق الذي كُتِبَ عليه اسمه والعنوان «جريدة الطليعة». وكان الختم البريديّ، الذي امّحى نصفه في الجلبة، يشير إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة. المرسل:

بجانب أحرف الاسم الأولى رسمٌ مطابقٌ للسلّم الحلزونيّ المنقوش على كلّ أغلفة روايات فيكتور ماتايكس من سلسلة «متاهة الأرواح». فتح الظرف وأخرج حزمة وثائق مربوطة بخيط. وتحت العقدة، ثمّة بطاقة معنونة بفندق ألغونكوين في نيويورك، تقول:

الصحفي البارع يستطيع العثور على الحكاية

التي لا بد أن تُحكى...

قطّب بيلاخوانا حاجبيه وحلّ عقدة الخيط. فاندلقت على الطاولة كومة الأوراق التي يحتويها الظرف، وحاول أن يفكّ شيفرة كلّ هذه الفوضى المبعثرة، المكوّنة من لوائح وقصاصات جرائد وصور فوتوغرافيّة وملاحظات دُوّنت بخطّ اليد. استغرق دقيقتين لكي يفهم ما الذي تحت ناظريه.

- يا إلهي.... - غمغم.

في ظهيرة ذلك اليوم، أعلم بيلاخوانا الإدارةَ أنّه قد أصيب بفايروس مُعدٍ وخطير يحوّل الجهاز الهضمي إلى حقل ألغام، لذا كان سيتغيّب طوال الأسبوع، إلا إذا أراد طاقم الجريدة بأسره أن يحجّ إلى الحمّام لحظة بلحظة. وفي يوم الخميس، كان المدير ماريانو كارولو قد فطن إلى شيء غامض، فجاءه يزوره في بيته حاملًا معه لفافة من ورق الحمّام.

- الرجل النبيه يعادل رجلين.

تنهّد بيلاخوانا وأدخله. تقدَّم المدير في الشقة حتى الصالة. وإذ رأى حائطًا بأكمله مكسوًّا بالأوراق، دنا وألقى نظرة تفقّديّة سريعة.

- أهذا الشيء هو ما يبدو عليه؟ - سأل بعد قليل.

- فلنقل إنها مجرّد بداية.

- وما مصدرك؟

- لا أعرف من أين أبدأ.

- صحيح. ولكن، هل هو موثوق، على الأقل؟

- أعتقد ذلك.

- أتصوّر أنّك تعي أنّنا إذا نشرنا شيئًا من هذا، أغلقوا الجريدة فورًا. وأنّنا أنت وأنا سينتهي بنا المطاف لإعطاء دروس في العروض في ثيرو موريانو. وأنّ ناشرنا العزيز سيضطرّ للذهاب إلى المنفى في بلدر جبليّ وعرٍ يصعب اقتحامه.

- أعي ذلك.

توجّه إليه كارولو بنظرة مهمومة وهو يدلّك بطنه. فمنذ تولّى إدارة الجريدة، باتت القرحة الجلديّة تباغته حتّى في المنام.

- كان يناسبني جدًّا أن أكون نويل كوارد بنسخته الكاتالانيّة...

- الحقيقة هي أنّني لا أعرف ماذا أفعل. - قال بيلاخوانا.

- هل تعرف كيف تواصِل؟

- لديّ مسار، أجل.

- سأقول إنّك تحضِّرُ سلسلة من التقارير الصحفيّة حول الاهتمامات السريّة - ولكنّها ممتازة - للجنرال الأكبر عن جانبه ككاتب سينمائيّ لا يُعرَفُ عنه الكثير.

- الجانب الذي خسرته هوليوود...

- يا له من عنوان عظيم. ضعني في مجريات الأحداث. لديك أسبوعان.

قضى بيلاخوانا بقيّة الأسبوع يحلّل الوثائق ويرتِّبها في جدول بيانيّ على شكل شجرة. وكلّما تمعَّنها، تولَّد لَدَيْه انطباعٌ بأنّ الشجرةَ مجرَّدُ واحدة من أشجار كثيرة، وأنّ ما ينتظره خلف تلك الجدران الأربعة غابةٌ مليئة بتلك الأشجار. وما إن هضم الوثائق وتطبيقاتها، حتى باتت المسألة هي مواصلة المسار من عدمه.

كانت أليثيا تُظهر له كلَّ الأجزاء الناقصة من اللوحة تقريبًا.

وانطلاقا من هناك، سيعتمد كلُّ شيء عليه وحدَه. ثم حسم أمره بعد ليلتين من الأرق. الخطوة الأولى هي دائرة سجلّ النفوس المدنيّ، المبنى الجوفيّ الراسي قباله الميناء، الشبيه بالمطهر المكوّن من الأرشيف والبيروقراطيّين الذين جاءوا إلى الدنيا لينصهروا في تعايشٍ مثاليّ. أمضى في دائرة النفوس عدّة أيّام غارقًا في دوّامة من المعاملات دون أن يعثر على شيء. وما لبث يهجس بأنّ المسار الذي حددته أليثيا كان زائفًا، حتى اصطدم في اليوم الرابع بآذنٍ عجوز يوشك على الإحالة إلى التقاعد: كان يعيش متشبّثًا بمذياع، ليستمع بشراهة إلى مباريات الدوري والبرامج العاطفيّة، متمركزًا في غرفة صغيرة مليئة بالمماسح وأدوات التبديل. وكانت حشود الموظّفين الجدد تعتبره مرجعيّةً كما لو كان متوشلخ(10)، لأنه الوحيد الذي واكب آخر حملة تطهير إداريّ. أمّا القادة الجدد، الأكثر رقيًّا وتجهيزًا من أسلافهم، فكانوا غامضين أكثر منهم أضعافًا، وما من بينهم أحدٌ قادر على أن يفسِّر لبيلاخوانا عدم استطاعته - رغم جهوده الحثيثة - العثور على شهادات مواليد ووفيات في مدينة برشلونة سابقة للعام 1944.

- لأنّها عائدة إلى ما قبل تغيير الأنظمة. - هذا ما يستطيعون قوله.

وفي النهاية، وبينما كان متوشلخ يمرّر الممسحة تحت قدميه حين كان يحاول الإبحار بين المعاملات وصناديق الإضابير، أشفق عليه كثيرًا.

- هلّا أخبرتني عما تبحث أيّها المؤمن؟

- بتّ أظنّ أنّني أبحث عن الكفن المقدّس.

وبفضل الإكراميّة السخيّة، والإقصاء الذي يولِّد التعاضد، أعلمه ---- متوشلخ أنه لم يكن في الحقيقة يبحث عن وثائق، إنّما عن شخص.

- السيّدة ماريا لويسا. هي التي كانت تنظِّم الأشياء هنا في سالف الزمان. ولكن، واحسرتاه!

أدّت محاولات البحث عن السيّدة ماريا لويسا به إلى الطريق المسدود ذاته.

- هذه السيّدة أُحِيلت إلى التقاعد. - أعلمه المدير الجديد بنبرةٍ توحي بأنّ الرجل الحكيم هو الذي ينسى هذا الأمر ويذهب للتنزّه في برشلونيتا.

استغرق أسبوعين كي يعثر عليها. كانت ماريا لويسا ألكايني تسكن في شقّةٍ صغيرة من الطابق العلويّ لبنايةٍ لا مصاعد فيها ولا آمال، قرب الساحة الملكيّة، محاطة بأبراج الحمام والشرفات التي لم تُنجَز بعد وصناديق الوثائق المكدّسة على الأرض حتّى السقف. ولم تكن سنوات التقاعد عطوفةً عليها. بدت له المرأة التي فتحت الباب عجوزًا.

- حضرتكِ السيّدة ماريا لويسا ألكايني؟

- من حضرتك؟

كان بيلاخوانا قد توقّع السؤال وحضَّرَ له إجابةً يعوِّلُ عليها لتفتح له ذلك الباب، وإن لبضع دقائق.

- اسمي سرخيو بيلاخوانا، صحفيٌّ في جريدة الطليعة. أرسلتني صديقة من طرف أحد معارفكِ القدامى. نقيبٌ يدعى بارغاس. هل تذكرينه؟

أطلقت المرأة تنهيدة عميقة واستدارت، تاركة الباب مفتوحًا خلف ظهرها. كانت تعيش وحيدةً في ذلك الوكر، وتموت من السرطان، والنسيان. وتدخِّن بإشعال سيجارة تلو الأخرى كما لو أنَّ السجائر ألعابٌ ناريّة للاحتفال بيوم القدّيس يوحنا. وعندما تسعل تبدو على وشك أن تبصق روحها أشلاءً.

- لم يعد يهمّ. - برّرت - اجلس. إن وجدتَ مكانًا.

في ذلك المساء، روت ماريا لويسا عليه أنّ نقيبًا من قوى الأمن يدعى بارغاس قدِمَ إلى دائرة النفوس، عندما كانت لا تزال السكرتيرة العامّة.

- رجلٌ وسيم، من أولئك الذين ما عادت الأرحامُ تنجب مثلهم.

أظهر عليها بارغاس لائحة أرقام لشهادات مواليد ووفيات بدت جميعها متناسبة. اللائحة نفسها التي تلقّاها بيلاخوانا بعد أعوام، مُنضَّدةً على الآلة الكاتبة بوضوح.

- تذكرين إذن؟

- أذكر طبعًا.

- هل تعلمين أين بوسعي أن أجد سجّلات المعاملات السابقة للعام 1944؟

أشعلت لويسا سيجارة أخرى، ومجّت منها، ففكر بيلاخوانا أنّها ستقتلها. ثمّ برز وجهها من بين سحابة دخانٍ تُوهِمُ بأنَّ شيئًا ما قد انفجر في داخلها. وأشارت له بأن يتبعها.

- ساعدني. - قالت وهي تدلّ على جبل من الصناديق المكدّسة في إحدى خزائن المطبخ - السجلّان السفليّان. لقد أتيتُ بهما إلى البيت لئلا يشملهما الإتلاف. كنت أظن أن بارغاس

سيعود يومًا ما، إذا سمحت الأقدار، ليبحث عني أيضا. بعد خمس سنوات، أتصوَّر أنَّ النقيب الطيّب قد سبقني إلى الجنّة.

شرحت ماريا لويسا أنّها في ذلك اليوم، ما إن خرج بارغاس من دائرة النفوس، بدأت تربط الخيوط المحلولة. نبشت في تلك المعاملات، فاكتشفت أرقامًا أخرى لا تعدّ ولا تحصى وجميعُها متناسبة، وقضايا تمّ التلاعب في مجرياتها بما لا يدع مجالًا للشكّ.

- مئات الأطفال. اختُطِفوا من آبائهم، الذين من المفترض أنّهم قُتِلُوا أو سُجِنوا حتّى تفسَّخُوا أحياءًا. هذا ما استطعت أنا بمفردي أن أتوصّل إليه في أيّام قليلة. حملتُ معي إلى البيت كلّ ما تمكّنتُ من حمله، حين بدأوا يسألون عن بارغاس وزيارته، وتخيّلتُ ما وقع له.

هذا ما استطعتُ إنقاذه. بعد أسبوع من زيارة بارغاس إلى دائرة النفوس، تمّ التبليغ عن حريق في قسم الأرشيف. وضاعت كلُّ الوثائق السابقة للعام 1944. اتُّهِمتُ بالوقوف وراء الكارثة، وأُقِلتُ من عملي بعد يومين. ولو عرفوا أنني احتفظتُ بكلّ هذه المعاملات في البيت، الله أعلم ما كانوا بي فاعلين. لكنّهم ظنّوا أنّ الحريق التهم الأرشيف برمّته. إنّ الماضي لا يتلاشى، مهما حاول الأغبياءُ نسيانَه والمحتالون تزييفَه لبيعه ثانيةً على أنَّه جديد.

- ماذا فعلتِ خلال كلّ هذه السنوات؟

- موت. في هذا البلد، يقتلون الأناسَ الطيّبين شيئًا فشيئًا. أمّا الموت السريع، فيخصِّصونه للسفلة. يقتلون الأشخاص الذين على شاكلتي بالإهمال، يغلقون علينا كلّ الأبواب ويتظاهرون بأنّنا لسنا موجودين. لقد عملتُ في بيع بطاقات اليانصيب في الخفاء في أنفاق المترو مدّة عامين، إلى أن وصلهم الخبر ومنعوني حتى من ممارسة عمل كهذا. ولم أتمكّن من إيجاد أيّ شيء آخر. ومن يومها وأنا أعيش على صدقة الجيران.

- أليس لديكِ عائلة؟

- كان لديّ ابن، لكنّهم قالوا له إنّ والدته يساريّة حقيرة، ولم أعد أراه منذ أعوام.

كانت ماريا لويسا تنظر إليه بابتسامة صعبة على الفهم.

- هل يمكنني أن أفعل شيئا من أجلكِ، يا سيّدة ماريا لويسا؟

- يمكنك أن تروي الحقيقة.

تنهّد بيلاخوانا.

- ساكول صريحًا معكِ، لست متأكّدًا من استطاعتي على ذلك.

- هل لديك أولاد؟

- أربعة.

تاه بيلاخوانا في نظرات تلك المحتضرة. لا يوجد مكانٌ يختبئ فيه منها.

- افعلها من أجلهم. اروِ الحقيقة من أجلهم. متى استطعتَ وكيفما استطعت. ولكن، لا تتركنا للموت. فنحن كُثُر. لا بدّ أن ينطق أحدٌ باسمنا.

أومأ بيلاخوانا. مدّت ماريا لويسا يدها إليه فشدَّ عليها.

- سأفعل ما بوسعي. - قال.

في ليلة اليوم نفسه، بينما كان يغطي ابنه نيكولاس، ظلَّ الولد يحدِّق إلى أبيه مدركًا أن الأفكار التي تجول في رأسه كانت تسبح في فلكٍ بعيد جدًّا في جغرافيا السماء.

- بابا؟

- نعم.

- سؤالٌ يليق بالفيلة.

- هات.

- لماذا أصبحت صحفياًّ؟ ماما تقول إنّ جدّي كان يريد منك أن تكون شيئًا آخرًا.

- جدّك كان يريد مني أن أصبح محاميًّا.

- ولم تطعه؟

- في بعض الحالات، يجب ألّا يطيع الولد أباه. فليكن واضحًا، الكلام لا يشملك، لا الآن ولا في المستقبل القريب.

- ولماذا؟

- لأنّ هناك بعض الآباء، وأبوك ليس من ضمنهم، يخطئون في تقييم ما الأنسب لأولادهم.

- أقصد لماذا كنت تريد أن تصبح صحفياًّ.

رفع بيلاخوانا كتفيه.

- طمعًا بالراتب المليونيّ والمواعيد المحددّة.

ضحك نيكولاس.

- لا. أنا جادٌّ في سؤالي. لماذا؟

- لا أعرف يا نيكو. لقد حدث ذلك منذ أعوام بعيدة. عندما يشيخ المرء، يرى أنّ بعض الأشياء أحيانًا تفتقد وضوحها الذي كانت عليه في البداية.

- لكنَّ الفيل لا ينسى. للفيل ذاكرةٌ قويّة. حتى لو أرادوا انتزاع نابيه.

.أعتقد ذلك.

- فماذا إذن؟

أومأ بيلاخوانا مستسلمًا.

- كي أروي الحقيقة. لهذا أصبحتُ صحفياً.

قيَّم نيكو تلك الإجابة المتسامية، هائمًا في أفكاره.

- وما الحقيقة؟

أطفأ بيلاخوانا الضوء وقبّل جبين ابنه.

- هذا السؤال، اطرحه على أمّك.

ليس للحكاية بدايةٌ ولا نهاية، إنّما مداخل.

الحكاية متاهةٌ لا حدود لها مكوّنةً من كلماتٍ وصورٍ وأفكارٍ وأرواحٍ تتّحد لتكشف لنا الحقيقة الخافية عنّا نحن أنفسنا. الحكاية، في صميمها، محادثةٌ بين من يرويها ومَن يسمعها. فالراوي لا يعوّل إلا على قدراته التي تمدُّهُ بها الصنعة، والقارئ لا يقرأ إلّا ما كان مكتوبًا في وجدانه أساسًا.

هذه هي القاعدة الذهبية التي تنبني عليها كلّ فنون الورق والحبر.

فعندما تنطفئ الأضواء، وتصمت الموسيقى، وتفرغ الخشبة، لا شيء يحافظ على قيمته سوى السراب الذي يبقى مطبوعًا في مسرح المخيّلة الذي يحمله كلّ قارئ في ذهنه. والأملُ الذي يحمله كلُّ صانعِ حكاياتٍ في قلبه: أن يكون القارئُ قد فتح صدره لأحد مخلوقاته الورقيّة وقد منحها جزءًا من ذاته لتخليدها، وإنْ لبضع دقائق.

أقول هذا بإجلالٍ قد لا تستحقه المناسبة، وربّما من الأفضل الهبوط على سطح الصفحة، والطلب من صديقنا القارئ أن يرافقنا إلى نهاية هذه الحكاية، ويساعدنا في العثور على أصعب شيء يتحتَّمُ إيجادُه على الراوي المسكين العالق في متاهته التي صنعها بيديه: المَخرج.

مقدّمة

متاهة الأرواح

(مقبرة الكتب المنسية، الكتاب الرابع)،

لِ إخوليان كاراكس، منشورات النور، باريس، 1992

الطبعة بإشراف إميل دو روزييه كاستيلين

کتاب خولیان

(1)

لطالما كنتُ متأكدًا أنّي سأنتهي من سرد هذه الحكاية يومًا ما.

حكاية عائلتي وبرشلونة المسحورة بالكتب والذكريات والأسرار التي نشأتُ فيها وظلَّت تلاحقني طوال حياتي، وذلك على الرغم من أنّي كنت لا أستبعد أن تكون مجرّد حلمٍ من ورق.

لقد حاول والدي، دانيال سيمبيري، أن يكتبها قبلي، وقد وضع فيها شبابه كلّه تقريبًا. فكان بائع الكتب الطيّب، على مدى أعوام، كلّما سكن الليل ينسلُّ على رؤوس أصابعه، ظنًّا منه أنّ والدتي تحت رحمة مورفيوس إله الأحلام، فينزل إلى المكتبة لينغلق على نفسه في المستودع على ضوء قنديل. هناك حيث يحمل بقبضته قلم حبر رخيصًا ويصارع حتى الفجر في منازلةٍ لا تنتهي ضد مئات الصفحات.

لم تؤنّبه والدتي يومًا على ذلك، وقد تظاهرت بأنّها لا تنتبه إلى الأمر، مثلما يتمّ تجاهُلُ أشياء كثيرة بين اثنين للحفاظ على زواجهما في مياه هادئة. وكان هوسه بشغل بالها بقدر ما شغل بالي، إذ بدأتُ أتخوّفُ من أنّ أبي سيفقد صوابه مثل الدون كيخوته، لا لفرط القراءة بل على العكس لفرط الكتابة. وكانت والدتي تعلم أنّه مضطرّ إلى إنجاز تلك المهمّة بمفرده، لا إرضاءًا لطموحاته الأدبيّة، بل لأنّ مقارعة الكلمات كانت وسيلته الوحيدة لاكتشاف حقيقته واستعادة ذاكرته وروح والدته التي فقدها عندما كان في عامه الرابع.

أذكر ذات يوم استيقظتُ فيه جفلًا قُبَيلَ الفجر. كان قلبي يخفق على إيقاع غاضب، وكدتُ أختنق. كنت قد حلمت بأنّ والدي يتلاشى في الضباب وأنّه يضيع مني إلى الأبد. ولم تكن المرّة الأولى. قفزتُ من على السرير ونزلتُ إلى المكتبة راكضًا. فوجدته في المستودع، ما زال جسمه متماسكًا، ومحاصرًا بمحيطٍ من الأوراق المجعّدة تحت قدميه. أصابعه ملطّخة بالحبر، وعيناه محمرّتان. كان قد وضع الصورة القديمة لإيزابيلا، وهي في سنّ الثامنة عشرة، على سطح المكتب؛ وكان الجميع يعلم أنّه يحملها دوما في جعبته لأنّه يخاف من نسيان وجهها.

- لا أستطيع. - غمغم - لا أستطيع أن أعيد لها الحياة.

لجمتُ دموعي ونظرتُ في عينيه.

- سأفعلها نيابةً عنك. - قلت له - أعدك بذلك.

عانقني والدي، وهو الذي كانت ابتسامته تصحو عندما يرى نوبات السموِّ التي تعصف بي. وعندما تركني ورأى أنّي ما أزال هناك وأنّي جادّ في كلامي، أعطاني قلمه.

- ستحتاج إليه. فأنا لم أعد أعرف من أيّ طرفٍ يكتب.

تفحَّصتُ ذلك الغرض الذي يشي بتطلُّعات متواضعة، وهززتُ رأسي نافيًا.

- سأكتب على الآلة الكاتبة. - صرّحتُ - على آلة أندروود، خيار المحترفين.

كنت قد رأيتُ العبارة «خيار المحترفين» على دعاية إعلانيّة في الجريدة، فأذهلتني. مَن قال إنّه يكفي الحصول على ذلك الماموث الذي يضاهي قاطرة بخارية حجمًا ووزنًا لكي يتحوّل مخربشُ آخر الأسبوع إلى كاتبٍ محترف؟! لا بدّ أنّ تصريحي عن نواياي قد فاجأ والدي.

- تريد أن تصبح كاتبًا محترفًا الآن؟ بالأندروود وباقي ما تبقى؟

«كما يسرُّني امتلاك مكتبٍ في قمّة إحدى ناطحات السحاب القوطيّة، والسجائر المستوردة، وكأس مارتيني دراي في يدي، وحسناء متبرّجة بأحمر شفاهٍ فاقع ولا ترتدي إلا ثيابًا حميميّة، تجلس في حضني» - كان الفصُّ الأيسر من دماغي يشور عليّ. هكذا كنت حينها أتخيّل المحترفين، على الأقلّ أولئك الذين يكتبون الروايات البوليسيّة التي كانت تجرِّدني النعاسَ والروح وأشياء أخرى. بغضّ النظر عن الآمال العظمى، لم تفتني اللفتة الساخرة في نبرة والدي المحبَّبة. فلو كان يسعى إلى الحطّ من موهبتي، لتخاصمنا.

- أجل. - أجبتُ بصرامة - مثل خوليان كاراكس.

خذ هذه! - قلت في نفسي.

قوّس والدي حاجبيه. لقد آلمته الضربة.

- وكيف عرفتَ بالأداة التي كان كاراكس يكتب بها؟ لن أسألك كيف عرفت مَن يكون.

اتّخذتُ تلك النظرة الغامضة التي ابتكرتها للإيحاء بأنّي أعلم أكثر مما يتوقّعه الجميع.

- أعرف القصّة. - شدَّدتُ.

كان اسم خوليان كاراكس يُتَداولُ في البيت بالهمس خلف أبواب مغلقة ونظرات محجوبة بعيدًا عن متناول الأطفال، كما لو أنّه كتلك الأدوية التي تظهر على ملصقها جمجمةٌ وعظمتان متصالبتان. وكان والداي يشكّكان بأنّني منذ عامي التاسع كنت قد اكتشفتُ أنّهما أخفيا - في الدُّرج الأخير من خزانة صالة الجلوس، الذي كنت أصل إليه بفضل كرسيٍّ وصندوقٍ خشبيٍّ، خلف علبتين من بسكويت كامبرودون (اللتين مسحتُهما عن بكرة أبيهما) وقنّينة كبيرة من نبيذ الموسكاتيل، الذي كاد يودي بي في غيبوبة إيثيليّة وأنا في نعومة أظفاري - مجموعة من روايات خوليان كاراكس التي أصدرها صديق العائلة، الدون غوستابو برسلوه.

وعندما أتممتُ عامي العاشر، كنت قد قرأت المجموعة كلّها مرّتين. ومع أنّي لم أفهم كلّ شيء بطبيعة الحال، فإنّي سُحِرتُ بذلك النثر السلس والمصقول بنورٍ أضرَمَ مخيِّلتي بالصور والعوالم والشخصيّات التي لن أنساها ما حييت. وإذ وصلتُ إلى هذا المستوى من التسمّم الحسّيّ، اتّضح لي جليًّا أنّي أتطلّع لتعلُّم ما كان كاراكس يفعله وأنّي أتوق لأن أصير خليفته الأجدر في فنون حكاية القصص.

لكنّي فطنتُ أنّه من الواجب أن أكتشف أوّلًا مَن يكون ولماذا سعى والداي على الدوام ألّا أعرف عنه شيئًا.

ولحسن الحظّ، كان عمّي الفخريّ، فيرمين روميرو دي توريس، لا يشارك والديَّ تلك السياسة الإعلاميّة. لم يعدْ فيرمين في تلك الآونة يعمل في المكتبة. كان غالبًا ما يزورها، إلّا أنّ هالةً من

الغموض لطالما أَضفِيَت علّى مشاغله الجديدة، ٓالتي لم يكن هو نفسه وأيُّ فرد من عائلتي يبتغي إيضاحها. بكلّ حال، من الجليّ أنّ عمله الجديد، أيًّا كان، يمنحه وقتًا كبيرًا للقراءة. ومن بين قراءاته مؤخّرًا، عّدةُ كتبٍ عن الأنثروبولوجيا حذت به إلى تكوين نظريّات تأمّليّة، وتطبيقاتٍ يدّعي أنّها تساعده على تجنُّب المغص الكلويّ وتُسَهِّلُ طرح الحصى التي بحجم حبّة الزعرور عبْر المسالك البوليّة (بحسب المصدر!).

بالنسبة إلى هذه النظريّات الخاصّة، تُثبِت الأدلّةُ الشرعيّة المتراكمة عبْر القرون أنّ البشريّة، بعد آلاف السنين من التطوّر المزعوم، لم تحصل على شيء أكثر من تساقط بعض شعر الجسد، وإتقان صناعة السراويل، وتطوير بلطة الصوّان. ثمّ يستخلص من هذه الفرضيّة جزءًا ثانيًا من المبرهنة بلا روابط منطقيّة، يدّعي فيها ما يلي: ما لم ينجح هذا التطوُّر السخيف في ملاحظته ولا حتّى بالمنظار هو أنّنا كلّما أفرطنا في إخفاء شيءٍ ما عن الطفل، ازداد به اهتمامًا ودأب على البحث عنه، سواء أكان قطعة حلوى أم صورة لراقصاتٍ خليعات يتمتّعن بجاذبيّة عالية.

- ولا بأس في هذا، لأنّه في اليوم الذي ستنطفئ فيه شعلة التوق إلى المعرفة، ويرضى الشبّانُ بالقمامة الملفوفة بالبهرج التي يبيعها لهم تجّار اللحظة، سواء أكانت مجسَّمات أدوات منزليّة كهربائيّة أم مبولة تعمل على البطّاريّات، ويصبحون عاجزين عن استيعاب أيّ شيء أبعد من أنوفهم، فإنّنا سنعود بالتالي إلى حقبة الحلزون..

- هذا apocaliptico كارثيّ. - كنت أضحك متفاخرًا بكلمةٍ تعلُّمتها من فيرمين والتي كلّما ذكرتُها أمامه كافأني بحبّة سوغوس.

- هذا ما يعجبني. فما دام هناك فتيةٌ ببناطيل قصيرة قادرون على نطق الكلمات ذات المدّ ما قبل قبل الأخير، فهناك أمل.

وربّما بتأثيرات فيرمين الشرّيرة، أو الحيل التي تعلُّمتها من روايات المغامرة التي كنت ألتهمها كما لو أنّها ملبَّس اللوز، سرعان ما تبدّد لغز هويّة خوليان كاراكس والسبب الذي دفع والديَّ على تسميتي باسمه، وذلك بفضل شغفي بربط الخيوط المحلولة، ورصد المحادثات الخاطفة، والنبش في الدروج المحظورة، وبالأخصّ قراءة كلّ الصفحات التي كان والدي يظنّ أنها تنتهي في السلّة. وحيثما عجزت مواهبي في الاستقصاء والاستدلال، وصل فيرمين بطروحاته الإعلاميّة التي تلمِّح لي عن المفاتيح الضروريّة لحلّ اللغز وربط مختلف الخطوط الروائيّة للحكاية بعضها ببعض.

في ذلك الصباح، كما لو أنّ أبي ينقصه المزيد من الانشغالات، تلقَّى نبأ مزدوجًا، بأن ابنه ذا العشر سنوات كان يريد أن يصبح أديبًا محترفًا، وأنّه على علم بكلّ الأسرار التي حاول أن يخفيها عنه منذ زمن بعيد، ربّما استحياءً منه لا أكثر. أُقرُّ على شرفه بأنّه امتصّ الصدمة جيّدًا، وبدل أن يصيح ويهدّد بحبسي في مدرسة داخليّة او إرسالي إلى العمل في المناجم، اكتفى المسكين بالنظر إليّ حائرًا بما يقول.

- ظننت أنّك كنت تريد أن تصبح بائع كتب، مثلي، مثل جدّك، ومثل جدّي قبله ومثل كلّ سلالة سيمبيري منذ أمدٍ غير معلوم...

وإذ رأيت أنّني باغتُّه على غفلة منه، قرّرتُ أن أحدِّد موقعي تمامًا.

- سأصبح كاتبًا. روائيًّا. دفعةً واحدة. هكذا تُقال، على ما أعتقد.

نطقتُ تلك العبارة على إيقاع ساخر، لكنّ والدي من الواضح أنّه لم يقدر النكتة. شبك ذراعيه، ومطّ جسمه على الكرسيّ وعاينني بحذر. الولد يبدي سلوكًا منحرفًا لا يروقه. ‹‹أهلًا بك في نادي الأبوّة - فكّرتُ - ما تنجبون الأولاد إلّا لهذا».

- هكذا تقول أمّك دومًا، لكنّي كنت أظنّ أنّها تُعَّيرني.

نقطة أخرى لمصلحتي. في اليوم الذي ستخطئ فيه السيّدة والدتي، سيوافق يومُ القيامة الأوَّلَ من أبريل. وبما أنّ والدي ميّالٌ إلى التسليم منذ ولادته، فكان غالبًا ما يحذو إلى مسلكٍ تأنيبيّ، فخشيتُ حينها من اقتراب خطبة رادعة.

- أنا أيضًا في عمرك كنت أفكّر أنّي ولدتُ لأكون كاتبًا. - بادر.

كنت أراه مندفعا كالنيزك المضطرم باللهب. لا بدَّ أن أوقفه عند حدّه فورًا، وإلا تحوَّلت تلك الخطبة إلى موعظة حول الأخطار الناجمة عن تكريس الحياة للأدب، الذي يُكنُّ لأتباعه الأوفياء إخلاصًا كإخلاص السرعوف لشريكته. سمعتُ هذا التأكيد على لسان كثيرٍ من الكُتّاب الجوعى ممّن يزورون المكتبة، الذين ينبغي أن تصدِّقهم كي لا يترتّب عليك أن تدعوهم إلى الطعام. وقبل أن تأخذه الحَميَّة، وجّهتُ نظرة دراماتيكيّة إلى مذبحة الأوراق المبعثرة على الأرض ثمّ حطّت عيناي على والدي دون أن أقول شيئًا.

كما يقول فيرمين: ارتكاب الأخطاء يليق بالحكماء. – وافق.- فأدركتُ أنّه يستغلّ حجّتي المضادّة ليبني منها جسرًا لفرضيّته الأساسيّة، وهي أنّ دماءنا نحن آل سيمبيري ليست دماء كَتبة، وأنّه بإمكاننا أن نقدِّم خدمة جليلة للأدب عن طريق بيع الكتب دون أن نعرِّض أنفسنا للخراب المطلق في الهاوية الظلماء. ونظرًا إلى أنّني كنت أفكّر أنّ الرجل الطيّب محقٌّ أكثر من قدّيس، انتقلتُ إلى الهجوم.

ففي المبارزة البلاغيّة، لا يجدر بك أن تتنازل عن زمام المبادرة، لاسيّما إذا كانت الغلبة للخصم.

- ما يقوله فير مين هو أنّ الحكماء يعترفون بأخطائهم إذا أخطأوا أحيانًا، أمّا الأغبياء فيخطئون دومًا وينكرون ذلك، ويظنّون أنّهم محقون. وهذا ما يُطلِقُ عليه فيرمين مصطلح «المبدأ الأرخميديّ للغباوة التناقليّة»..

- آه، حقًّا؟

- أجل. بالنسبة إليه، الغبيّ هو حيوانٌ لا يعرف كيف يغيّر فكرته ولا يستطيع. - أطلقتُ.

- أراك بتَّ مُلِمًّا بالفلسفة والعلوم الفيرمينيّة.

- أليس على حقّ؟ - فيرمين يعاني من شططٍ في ولعه بالحديث خارج المنصّة.

- وماذا يعني هذا؟

- التبوُّل خارج الإناء.

- حسنٌ، ذات مرّة، بينما كان يتبوّل خارج المنصّة، قال لي من بين ما قاله إنّ هناك شيئًا يجب أن تريني إيّاه منذ مدّة بعيدة.

وجد والدي نفسه مشتّتًا في تلك اللحظة. تبخَّرَت كلّ نواياه بإلقاء الخطب، وكان آنذاك يترنّح ولا يعلم من أين ستأتيه الضربة التالية.

- ما الشيء الذي قاله لك؟

- شيءٌ يخص الكتب. والأموات.

- الأموات؟

- لستُ أدري عن أيّ مقبرة. فكّرتُ أنّه يقصد الأموات.

كانت نظريّتي تتطلّع أن يكون الأمر مقترنًا بكاراكس، الذي كان في معاييري الشخصيّة يربط بين الكتب والأموات بإتقان. عاين والدي المسألة. لمعت عيناه لوهلةٍ مثل كلّ مرّة تخطر في باله فكرة.

- أتصوّر أنّ فيرمين محقّ في هذا الأمر. - أقرّ.

تنشَّقتُ عبق عطر النصر الذي يفوح من مكانٍ ما.

- هيّا، اصعد إلى البيت وارتدِ ثيابك. - قال والدي - ولكنْ لا توقظ أمّك.

- هل سنذهب إلى مكان ما؟

- إنّه سرّ. سأريك شيئًا غيَّرَ حياتي، وقد يغيّر حياتك أيضًا.

شعرتُ أنّني خسرتُ المبادرة وأنّ وضعي على رقعة الشطرنج يتزعزع.

- في هذه الساعة؟

ابتسم والدي مجدّدًا وغمز لي بعين.

- ثمّة أشياء لا نستطيع رؤيتها إلا في الظلام.

(2)

فجرَ ذلك اليوم، اقتادني والدي للمرّة الأولى في زيارةٍ إلى مقبرة الكتب المنسيّة. حدث الأمر في خريف العام 1966 وكانت الأمطار الناعمة قد صبغت شوارع لاس رامبلاس ببركِ مياهٍ صغيرة تتلألأ عند مرورنا كدموع النحاس. رافقنا الضباب الخفيف الذي لطالما حلمتُ به، لكنّه تشتّت حالما دخلنا شارع قوس المسرح. اتّسعت قبالتنا فتحة من ظلالٍ وسرعان ما برز منها مبنًى كبيرٌ وقد اسودَّت أحجاره. طرق والدي على البوّابة بالمقبض الذي على شكل شيطان صغير. ثم فوجئتُ بما رأيت: فتح لنا فيرمين روميرو دي توريس. ابتسم بمكر حين رآني.

- حانت الساعة. - قال - فالكثير من الألغاز والخفايا كادت تسبّب لي القرحة.

- أهنا تعمل الآن يا فير مين؟ - سألته مفتونًا - أهذه مكتبة؟

- شيء كهذا، مع أنّها شحيحة الموارد فيما يتعلّق بالقصص المصوّرة... هيّا، ادخلا.

اقتادنا فيرمين عبْر ممرٍّ ملتو تزدهي جدرانه برسومٍ لملائكة ومخلوقات أسطوريّة. عليّ أن أقول إنّني حينذاك كنتُ في نشوة. لم أكن أعلم أنّي سأرى العجب العجاب بعد قليل.

أفضى بنا الممرّ إلى عتبة طاقٍ كبير ينصاعد نحو اللانهاية تحت شلاّلٍ من نورٍ مذهل. رفعتُ أنظاري فتمظهر أمام عينيّ هيكلٌ متاهيٌّ كأنّه يبرز من غور السراب. كان البرج يتعالى في لولبٍ متواصل كالشعاب المرجانيّة التي غرقت عليها كلُّ مكتبات الأرض. تقدّمتُ ببطءٍ فاغرَ الفاه، باتّجاه تلك القلعة المشيّدة بكلّ الكتب التي أُلِّفَتْ منذ الأزل. وشعرتُ أنّني أدخل في صفحات إحدي حكايات خوليان كاراكس، وخشيتُ أن أجرؤ على خطوة أخرى فتتلاشى اللحظة هباء منثورًا لأصحو من الحلم في غرفتي. ظهر والدي بجانبي. نظرتُ إليه وأمسكتُ بيده، لا لشيء سوى لأمتلئ يقينًا بأنّي كنت يقظًا وأنّ المكان واقعيّ. فابتسم.

- أهلًا بك في مقبرة الكتب المنسيّة يا خوليان.

استغرقتُ بعض الوقت لأخفض نبض قلبي وأعود إلى قانون الجاذبيّة. وحينما هدأ روعي، همس لي والدي بين الظلمات.

- هذا المكان سرٌّ يا خوليان. إنّه معبدٌ حرَمٌ حفيّ. كلّ كتاب او مجلّد هنا تعيش فيه روحٌ ما. روح من ألّفه وأرواح من قرأوه وأرواح من عاشوا وحلموا بفضله. وفي كلّ مرّة يغيرٌّ الكتابُ صاحبَه، أو تلمس نظراتٌ جديدة صفحاته، تستحوذ الروح على قوّة إضافيّة. عندما جاء بي جدّك إلى هنا للمرّة الأولى منذ سنوات بعيدة، كان هذا المكان قديمًا مثلما تراه الآن، وربّما كان بِقِدَم المدينة نفسها. لا أحد يعلم كم عمره بدقّة أو من الذي بناه. وكلّ ما يسعنى قوله لك هو ما قاله لى جدّك:

عندما تتلاشى إحدى المكتبات، وعندما يغلق أحدُ محلّات الكتب أبوابه، وعندما بضيع كتابٌ ما في غياهب النسيان، نحن، الأمناء على هذا المكان، نجد له طريقة كي يصل إلى هنا. كلّ الكتب التي لم يعد يذكرها أحد، أو التي يختفي أثرها بفعل الزمن، تعيش هنا إلى الأبد في هذا المكان، بانتظار اليوم الذي تعود فيه إلى يدي قارئ جديد، وروح جديدة. نحن نبيع الكتب ونشتريها في

المحلّ، لكنّها في الحقيقة ليس عليها سلطان. كلّ كتاب هنا كان أفضل صديق لشخص ما. أمّا الآن فليس لهم غيرنا يا خوليان. هل ترى أنّك قادر على كتمان السرّ؟

تاهت نظراتي في زوايا ذلك المكان الشاسع وفي سحر أنواره الخارق. أومأتُ بالقبول فابتسم والدي. أعطاني فيرمين كأس ماء وحدّق إليّ - هل الفتى على علم بالقواعد؟

- كنت على وشك أن أقولها عليه.

شرح لي والدي تفاصيل القواعد والمسؤوليّات التي يجدر بكلّ منتسب جديد إلى الجماعة السرّيّة لمقبرة الكتب المنسيّة أن يحترمها، بما فيها ميزة تبنّي كتابٍ ما والمحافظة عليه إلى الأبد.

وبينما كنت أصغي إليه، راودني شكٌّ حول وجود سبب آخر دفع والدي لاختبار ذلك اليوم تحديدًا ليفجّر عقلي وناظريَّ بتلك الرؤية.

لعلّ بائع الكتب الطيّب التجأ إلى آخر ذخيرته، وأَمِلَ في أنّ رؤية تلك المدينة المسكونة بمئات آلاف الكتب المهملة، والحيوات الكثيرة، والأفكار والأكوان المنسيّة، كان من شأنها أن تُشكّل رمزًا عن المستقبل الذي ينتظرني إن أنا صمّمتُ على نجاحي يومًا ما في كسب القوت من خلال الأدب. وإن كان ذلك ما قصده فعلًا، فإنّ الرؤية حفّزت في ذهني تأثيرًا معاكسًا. إذ إنّ نزعتي التي كانت حتى تلك اللحظة مجرّد تخيُّلات صبيانيّة، نُقِشَت في قلبي منذئذ، ولم يكن لأيّ حجّة يقولها والدي، أو غيُره، أن تغيِّر فكرتي.

أتصوّر أنّ القدر اختار نيابة عنّي.

خرجتُ من رحلتي القاريّة الطويلة بين ممرّات المتاهة بكتابٍ عنوانُه «الرداء القرمزيّ»، رواية تنتمي إلى سلسلة مدينة الملاعين» لكاتبٍ يدعى دافيد مارتين، الذي لم أسمع به من قبل. عليَّ أن أقول إنّ الكتاب هو الذي اختارني، فحين حطّت أنظاري على غلافه انتابني إحساسُ غريب بأنّه هناك ينتظرني منذ زمن طويل، كأنّه كان يعرف أنّني سأصادفه في ذلك الفجر.

وعندما رآني والدي خارجًا من الهيكل ورأي الكتاب الذي بين يدي، شحب وجهه. بدا لوهلةٍ أنّه على وشك السقوط قتيلًا.

- أين وجدته؟ - تلعثم.

- على طاولة في إحدى الصالات... كان واقفًا، كما لو أن أحدهم تركه هناك لكي أعثر عليه.

تبادل فيرمين ووالدي نظرةً حادّة.

- هل هناك مشكلة؟ - سألتُ - هل أنتقي كتابًا غيره؟

هزّ والدي رأسه نافيًا.

- إنّه القدر. - غمغم فيرمين.

ابتسمتُ مبهجًا. كال كنت ما فكّرتُ فيه انا ايضًا، مع اني لم اكن أعرف السبب.

قضيت بقيّة النهار منتشيًا في قراءة المغامرات التي يرويها دافيد مارتين، مستمتعًا بكلّ مشهد كما لو كنت أتمعّن في لوحة كبيرة. فكلّما استكشفتُها اكتشفتُ تفاصيلَ وجزئيّاتٍ مهمّة. انشغل والدي بدوره في ألعاب خياله، على الرغم من أنّ قلقه لم يكن يبدو قلقًا أدبيًّا بالمطلق.

مثلما يحدث لكثيرٍ من الرجال، كان والدي آنذاك قد بدأ يهجس في أنّه لم يعد شابًّا، وغالبًا ما كان يعود لزيارة مشاهدَ من شبابه الأوّل بحثًا عن إجابات على تساؤلاتٍ لم يفهمها جيّدًا بعد.

- ما الذي ينتاب بابا؟ - سألتُ والدتي.

- لا شيء. سوى أنّه يكبر.

- ألم يتخطَّ مرحلة النموّ بعد؟

تنهّدت والدتي محافظةً على صبرها.

- أنتم الرجال هكذا.

- أنا سأكبر بسرعة، كي لا ينشغل بالك عليّ.

ابتسمت والدتي.

- لا شيء يستدعي العجلة يا خوليان. دع هذا الأمر للحياة.

في إحدى رحلاته الغامضة إلى مركز سُرَّته، عاد والدي من مكتب البريد محمّلًا بطرد صغير قادم من باريس. كان يحتوي على كتاب بعنوان «ملاك الضباب». أيُّ شيء متعلّق بالملائكة والضباب يثير اهتمامي، فقرّرتُ أن أتحرّى في الأمر، مدفوعًا بوجه والدي عندما فتح الطرد ونظر إلى غلاف الكتاب. كشفت أبحاثي أنّ الرواية من تأليف كاتب يدعى بوريس لوران، والذي كما علمتُ لاحقًا لم يكن سوى اسم مستعار لخوليان كاراكس شخصيًّا. وكان في الكتاب إهداءٌ أبكي والدتي، التي كان دمعها عزيزًا، فاقنعتْ والدي أنّ القدر يوحد بينا جميعًا في مكانٍ ما لا ينوي الإفصاح عنه؛ لكنّي فهمتُ أنّها كانت تلمّح إلى طلب مزيد من الرفق والاهتمام.

أعترف أنّني كنت أكبر المتفاجئين. إذ كنت لسببٍ غامضٍ أعتقد أنّ خوليان كاراكس ميّت منذ فترة بعيدة (الحقبة التاريخيّة التي تشمل جميع الأحداث التي وقعت قبل ولادتي). وكنت قد فكّرتُ دائمًا أنّ كاراكس صار واحدًا من أشباح الماضي الكثيرة التي ما زالت سجينةً في القصر المسحور: أي الذاكرة الرسميّة لعائلتي. وعندما أدركتُ أنّي مخطئ وأنّ كاراكس حيٌّ يُرزَق وكان يكتب في باريس، جاءني الوحي.

تلمَّستُ صفحات «ملاك الضباب»، فخطر في بالي ما يجب عليَّ فعله. وهكذا ولدت الخطّة التي كانت ستسمح لي بتحقيق ذلك القدر الذي - لمرّة واحدة وحيدة - قرّر أن يقوم بزيارة إلى المنزل، والذي كان من شأنه بعد سنواتٍ طويلة أن ينير هذا الكتاب.

(3)

وتمضي الحياة على سرعة الباخرة، متراوحة ما بين تجليَّات وخرافات، كعادتها، دون أن تولي اهتمامًا بنا جميعًا نحن الذين نسافر متشبّثين بأطرافها. لقد عشتُ طفولتين: الأولى تقليديّة نسبيًّا، إن كان لهذا الأمر وجود، تلك التي يراها الآخرون؛ والثانية متخيَّلة، تلك التي عشتها أنا. وطّدتُ بعض الصداقات الجيّدة، معظمها مع الكتب. كنت أضجر في المدرسة، فاعتدتُ أن أبحر في الحصص بين مقاعد الآباء اليسوعيّين، ورأسي سارحٌ بين الغيوم، وما زلت أواظب على هذه العادة حتى الساعة. حالفني الحظ ببعض الأساتذة البارعين، الذين كرّسوا لي من صبرهم وارتأوا في النهاية أنّ طبعي المختلف عن الآخرين ليس بالضرورة شرًّا ينبغي مكافحته. فلا بدّ من وجود عيّنة من كلّ الأشياء في هذا العالم، بما فيها أمثال خوليان سيمبيري.

ومن الوارد أنّي تعلّمتُ القسط الأكبر من هذه الحياة من خلال القراءة ما بين الجدران الأربعة للمكتبة، أو بزيارة المكتبات العامّة لدواعٍ شخصية، أو بالإصغاء إلى فيرمين الذي كانت لديه نظريّة جديدة على الدوام، فضلًا عن بعضٍ النصائح أو المواعظ العمليّة، التي تعادل كلّ سنوات التعليم المدرسيّ.

- في المدرسة، يقولون إنّي غريب الأطوار. - اعترفت لفيرمين ذات يوم.

- هذا جيّد. عليك أن تقلق يومَ يقولون إنّك طبيعيّ.

لم يوجّه إليَّ أحدٌ هذه التهمة، سواء عن حسن نيّة أم سوئها.

أتصوَّر أنّ مراهقتي تمنح أشياء أكثر من الاهتمام البيوغرافيّ، لأنّني عشت جزءًا منها على الأقلّ خارج رأسي. فأحلامي الورقيّة وطموحاتي في أن أصير فارس القلم، من دون أن أفني في الالتزام، اكتسبت قوّة. على أنّها قوة معدَّلة بجرعة معيّنة من الواقعيّة التي اكتسبتها مع مرور الوقت الذي رأيتُ فيه كيف تجري الأمور في العالم.

وفي منتصف الطريق، أدركتُ مسبقًا أنّ أحلامي تتكوّن من أشياء مستحيلة، ولكنّي لو فرَّطتُ بها قبل الدخول إلى ساحة المعركة لما استطعتُ أن أفوز الحرب.

ودأبتُ على الإيمان بأنّ آلهة البارناسوس سيشفقون على حالي يومًا ما وسيسمحون لي بتعلُّم فن سرد الحكايات. وفي الأثناء، كنت أعمد إلى احتكار الذخيرة الخام ريثما يحين اليوم الذي أفتتح فيه مصنعي مصنعَ الاحلام والكوابيس. ورحت أجمع شيئًا فشيئًا، بالحسنى أم بغيرها – ولكنْ بمنطقٍ مدروس – كلّ الأشياء المتعلّقة بتاريخ عائلتي، وأسرارها الكثيرة والألف وألف حبكة التي تشكِّل العالم الصغير لآل سيمبيري، العالمَ الخياليّ الذي قرّرت أن أسمّيه «مقبرة الكتب المنسيّة»..

وبغضّ النظر عمّا كان من الممكن اكتشافه حول عائلتي وما كان يرفض الانكشاف من تلقاء نفسه، فإنّ ولعي في تلك الآونة كان يتركّز على أمرين: الأوّل سحريٌّ وأثيريٌّ يتمثّل بالقراءة؛ والثاني دنيويٌّ ومتوقَّعٌ يتمثّل بالغراميّات الشبابيّة أمّا فيما يخصّ طموحاتي الأدبيّة، فكانت نجاحاتي تتراوح ما بين الضئيل والمعدوم. ففي تلك السنوات شرعتُ بكتابة مئة رواية مقيتة ماتت على

الطريق، ومئات القصص والأعمال المسرحيّة والسيناريوهات الإذاعيّة، بل وحتّى القصائد التي لم أقرأها على أحد، حرصًا على سلامته. كان يكفي أن أقرأها بنفسي كي أتأكّد من أنّه ما زال أمامي الكثير كي أتعلّمه وأن مستواي يتحسّن بطء شديد على الرغم من الرغبة والحماسة. كنت أعيد قراءة روايات كاراكس بلا هوادة، وروايات ألوف الكُتّاب التي استعرتها من مكتبة والديَّ. وكنت أجتهد في تفكيكها كما لو أنّها مذياع أو محرّك رولز رويز، أملًا أن تساعدني هذه الطريقة على اكتشاف آليّة بناء الرواية وكيفيّة عملها والغاية منها.

قرأتُ في إحدى الجرائد مقالًا يتطرّق إلى مهندسين يابانيّين يطبّقون مبدأ يُدعى «الهندسة العكسيّة». يبدو أنّ هؤلاء المجتهدين يفكّكون إحدى الآلات حتّى القطعة الأخيرة، ويحلّلون وظيفة كلّ قطعة على حدة، ويدرسون الحركة الديناميكيّة للمجموع والمشروع الداخليّ للآلة بغية استنتاج الرياضيّات التي يُبني على أساسها نظامُ التشغيل. وكان شقيق والدتي مهندسًا يعمل في ألمانيا، لذا قلت لنفسي إنّ جيناتي لا بدّ أن تحتوي على شيء يسمح لي بتطبيق الهندسة العكسيّة على كتابٍ ما او حكاية.

فتبيَّنتُ مع كلّ يومٍ يمضي أنْ لا صلة للأدب الرفيع كليًّا بالخرافات المبتذلة من قبيل ‹‹الوحي» أو «لديك شيءٌ ترويه». للأدب صلاتٌ عديدة بهندسة اللغة وعمران السرد ورسم الحبكة، فضلًا عن الدمغات وألوان الإنشاء، والصورة الفوتوغرافيّة المتولِّدة من الصورة الذهنيّة، والموسيقى التي بإمكانها خلق أوركسترا من الكلمات.

وكان انشغالي الثاني العظيم، أو الأوّل بالأحرى، ينصبّ على الكوميديا، وأحيانًا يلامس حدود المهزلة. مررتُ بفترةٍ كنت أُغرَم فيها كلَّ أسبوعٍ، الأمر الذي - نظرًا إلى الأعوام - لا أنصح به.

أُغرَم بنظرة، بصوت، وبالأخصّ بكلّ ما كان ملتحمًا ومتماسكًا تحت الثياب المصنوعة من الصوف الناعم التي كانت الفتيات يرتدينه في زماني.

- ما تمرُّ به ليس حبًّا، إنّما شهوة. - حدَّدَ فيرمين - وفي عمرك، من المستحيل كيميائيًّا أن تميّز الفرق. أمّنا الطبيعة تحتاج إلى هذه الحيل لتزويد الكوكب بالسكّان، لذا تستعمل كلَّ طاقتها في حقن شرايين الشبّان بالهرمونات والغباء معًا، لتأمين وقودٍ بشريّ يتكاثر كالأرانب بينما تضحّي بنفسها باسم ما يفرضه أصحاب المصارف والكهنة والحالمون بالثورة، الذين يحتاجون إلى المثاليّين ومصائب أخرى لمنع العالم من التطوُّر وإبقائه على وضعه الراهن دومًا.

- ولكن يا فيرمين، ما شأن كلّ هذا بعذابات القلب؟

- إيّاك وأغاني البوليرو العاطفيّة، فنحن يعرف بعضنا بعضًا.

القلب شِلوٌ يضخّ دماءً، لا سوناتات. وبالاستعانة بقليلٍ من الحظّ، يصل بعضٌ من ذلك التدفّق إلى الرأس، لكنّ أغلبه ينتهي في البطن، وفي حالتك ينتهي في العضو التناسليّ الذي يستغلّ شرودك كي يتولّى مهام القشرة المخيّة إلى أن تتمّ ربيعك الخامس والعشرين. دع الكتلة الخصويّة بعيدًا عن الدقّة كي تصل سالمًا إلى المرفأ. كن غبيًّا تَرَ أنّ الحياة مرّت دون أن تحقّق حضرتُك أيَّ فائدة.

- آمين.

بين مغامرات في ظلال الردهات، واستكشافات محظوظة نسبيًّا تحت القمصان والتنانير في آخر صفٍّ من إحدى صالات السينما المحليّة، وحفلات صغيرة في لابالوما ونزهات عند رصيف الميناء يدًا بيد مع عشيقات في نهاية الأسبوع؛ هكذا كنت أقضي ساعات الفراغ.

لن أدخل في التفاصيل، وذلك لانعدام المواقف المهمّة التي تستحقّ الذكر قبل أن أبلغ عامي السابع عشر، حيث اصطدمتُ وجهًا لوجه بكائنة تدعى فالنتينا. في مصير كلِّ قبطان يستحقّ هذه الرتبة، جبلٌ جليديّ. وأنا، كان جبلي الجليديّ يدعى فالنتينا. كانت تكبرني بثلاثة أعوام (وبحسب التأثيرات العمليّة بدا الفرق عشرة أعوام) وتركتني في حالة إغماءٍ تخشُّبيٍّ طوال أشهر.

تعرّفتُ عليها ذات مساء خريفيٍّ دخلتُ فيه المكتبة الفرنسيّة في شارع دي غراثيا احتماءً من المطر. كانت موليةً إليّ ظهرها، فدعاني شيءٌ ما إلى التقرّب لإلقاء نظرة خاطفة عليها. كانت تتصفّح رواية لخوليان كاراكس، «ظلّ الريح»، وما كنتُ لأدنو منها وأفتح فمي إلّا لأنّي في تلك الفترة كنت أشعر أنّي لا أُقهَر.

- أنا أيضًا قرأتُ هذا الكتاب. - قلت، بقريحةٍ تبرهن على نظريّات فيرمين عن جهاز الدوران بلا أيّ شكّ.

نظرت إليّ بعينين زمرّديتين تبتران كالسكّين، ورمشت بجفنيها ببطء حتّى ظننتُ أنّ الزمن قد توقّف.

- خيرٌ لك. - قالت.

وضعت الكتاب على الرفت، استدارت وسارت نحو المخرج.

بقي متسما هناك بضع ثوان، شاحب الوجه. وعندما استعدتُ حركتي، اخذت الكتاب من الرفّ وحملته إلى المحاسب، دفعتُ ثمنه وخرجتُ إلى الطريق راكضًا متينا ألّا يكون جبلي الجليديّ قد غرق في المياه إلى الأبد.

كانت السماء قد صُبِغَت بلون الفولاذ، وتساقطت حبّات المطر الشبيهة باللآلئ. بَلَغتُها بينما كانت تنتظر إشارة المرور لتقطع شارع روسييون لامباليةً بالمطر.

- أهناك ضرورةٌ لأنادي الشرطة؟ - سألت دون أن تحيد أنظارها عمًّا أمامها.

- لا آمل ذلك. أنا خوليان.

تأفّفت فالنتينا. التفتت وحدَّقت إليّ مجدّدًا بتينك العينين الخارقتين. ابتسمتُ كالمغفّل وأعطيتُها الكتاب. قوّست حاجبًا، وبعد أن تردّدت برهةً، أخذته.

- خوليان آخر؟ هل أنتما منتسبان إلى جماعة سريّة أو شيء كهذا؟

- لقد سمَّاني والداي هكذا على شرف مؤلّف هذا الكتاب، إذ كان صديقًا لهما. إنّه أفضل كتاب قرأته.

ومثلما يحدث في تلك المواقف، حدّدت السينوغرافيا مصيري.

دمغ البرقُ واجهات شارع غراثيا باللون الفضيّ، وزحفت همهمةُ العاصفة على المدينة بهيئةٍ لا تُطمئن أبدًا. أنارت إشارة المرور ضوءها الأخضر. وقبل أن تصرفني أو تستنجد بشرطيّ، أطلقتُ رصاصتي الأخيرة.

- عشر دقائق. فنجان قهوة. إن لم تجرِ الأمور على قدمٍ وساق خلال عشر دقائق، أعدكِ بأنّي سأتجزّأ ولن تريني بعدها أبدًا.

نظرت إليّ فالنتينا، حائرةً تكتم ابتسامتها. الذنب كلّه يقع على المطر.

- حسنٌ. - قالت.

وانا الدي طننتُ أنّ حياتي تغيّرت في اليوم الذي قرّرتُ فيه ان أصبح كاتبًا.

كانت فالنتينا تسكن وحيدةً في شقّة فوق عليّة الطابق الأخير لبنايةٍ في شارع بروبنثا. إطلالةٌ على برشلونة كلّها، الأمر الذي نادرًا ما اهتممتُ به لأنّي كنت أفضّل النظر إليها في مختلف أشواط عريها الذي كنت أحاول أن أقودها إليه دائمًا. والدتها هولنديّة ووالدها كان محاميًا برشلونيًّا مرموقًا حتّى إنّ شهرة اسمه كانت قد وصلت إلى مسامعي أنا.

عندما توفّي، قرّرت والدتها أن تعود إلى ديارها، لكنّ فالنتينا التي كانت راشدة حينذاك أبت ألّا تبارح برشلونة. كانت تتقن خمس لغات وتعمل في مكتب المحاماة الذي أنشأه والدها، تعمل بترجمة المرافعات وشهادات القضايا المليونيّة بين المؤسّسات الكبرى والعوائل التي لديها شرفة محجوزة في مسرح المعهد للأوبرا منذ أربعة أجيال.

وحين سألتها ما الذي تريد فعله في الحياة، أعادت إليّ تلك النظرة التي لطالما جرّدتني من أسلحتي وأجابت: «السفر»!

كانت فالنتينا أوّل شخصٍ سمحتُ له بقراءة محاولاتي المتواضعة.

كانت تميل إلى تخصيص رقّتها وظواهر حنانها لأتفه جزء من علاقتنا.

فكلّما أرادت أن تعطيني رأيها في خطواتي الأدبيّة الأولى، قالت إنّي لم أرث من خوليان كاراكس إلّا اسمه. وبما أنّي في العمق كنت أوافقها الرأي، لم أمتعض. ورغم شكوكي بوجود أحد قادر على تفهُّم المشروع الذي أخطّط له طوال سنوات، أتيتُها ذات يومٍ شعرتُ فيه بجاهزّيتي لتلقّي الصفعات، ورويتُ لها ما كنت أفكّر في فعله حالما أتمّ ثمانية عشرَ عامًا.

- آمل ألّا يكون أن تطلب يدي للزواج. - قالت فالنتينا.

أتصوّر أنّه كان ينبغي أن أتعلّمَ تأويل العلامات التي يشير بها لي القدر، لأنّ كلّ مشاهدي العظمى مع فالنتينا دائمًا ما بدأت بالمطر الذي يتعقّب خطاي أو يجلد زجاج النوافذ. ولم يكن ذلك المشهد مختلفًا كثيرًا.

- ما المشروع؟ - سألتني أخيرًا.

- أن أكتب حكاية عائلتي.

كنا مرتبطين منذ عام تقريبًا، إن كان قضاء العصريّات، بين شراشف بيتها الذي بين السحاب، يُسمّى ارتباطًا. ورغم أنّي حفظتُ تضاريس جلدها عن ظهر قلب، لم أكن قادرًا على قراءة صمتها.

- وبعد؟ - سألت.

- هل يبدو لكِ ذلك قليلًا؟

- كلّ الناس لديهم عائلات. وكلّ عائلة لديها حكاية.

مع فالنتينا ينبغي بذل قصارى الجهود للحصول على الأشياء. أيًّا تكن. التفتت وأولت إليّ ظهرها المبهر العاري، فما كان منّي إلّا أن نطقتُ الفكرة، التي كنت أدور حولها منذ سنوات، بصوتٍ عالٍ وللمرّة الأولى. لم يكن الاستعراض متألّقًا، لكنّي أردت سماع الفكرة من شفتيّ كي أمنحها الثقة.

كان لدّي نقطةٌ أبدأ منها: عنوان، «مقبرة الكتب المنسيّة». وكنت أحمل معي دائمًا دفترًا أبيض، وقد كتبتُ على غلافه بأحرف طولانيّة وخطّ منمّق:[11]

مقبرة الكتب المنسيّة

روايةٌ بأربعة أجزاء

لِ خوليان سيمبيري

ذات يوم، فاجأني فيرمين والقلمُ في يدي، يتمعّن متبلّدًا في الصفحة الأولى من الدفتر. عاين الغلاف، وبعد أن تفوّه بلفظةٍ يمكن وصفها بالتقاطع ما بين الخوار والجشأة، قال:

- يا لتعاستهم اولئك الذين أحلامُهم من الورق والحبر مصنوعة، أولئك لهم مطهرُ العبث والأوهام خالدين فيه.

- ألتمس الصفح، هلا تفضّلتَ سعادتكم بترجمة عظيم الكَلِمِ هذا إلى المسيحيّة؟ - سألته.

- لا بّد أنّ الغباء يجعل منّي توراتيًا. - ردّ فيرمين - أنتَ من يريد أن يكون شاعريًّا. فالتقطِ المغزى إذن.

كنت قد حسَبتُ أنّ ذلك العمل العظيم، الناجم عن مخيّلتي الفتيّة المحمومة، سيبلغ أبعادًا شيطانيّة وكتلة ضخمة تُقدَّرُ بخمسة عشر كليو.

الحكاية، مثلما حلمتُ بها، ستكون مقسّمة إلى أربع حلقات متّصلة ومنفصلة في آن معًا، ما يجعل منها مداخل متعدّدة إلى متاهة الحكايات. وكلّما توغَّلَ القارئ في تلك الصفحات، كان سيشعر أنّ السرد بشبه دمية الماتريوشكا التي تؤدّي كلُّ حبكةٍ وشخصيّةٍ فيها إلى حبكةٍ وشخصيّة أخرى، وتلك إلى أخرى، وهكذا دواليك.

- تبدو كتوجيهات لعبة تركيب السيّارات والقطارات الكهربائيّة.

- قالت فالنتينا حبيبتي الغالية، المبتذلة دومًا.

- فيها شيء من لعبة التركيب حقًّا. - اعترفتُ.

حاولتُ أن أبيعها، بلا حياء، ذلك التصريحَ عن نواياي بالفم الملآن، لأنّه حرفيًّا ما كتبتُه في سنّ السادسة عشرة، مقتنعًا بأنّني قد أنجزتُ نصف العمل. ناهيك أنّي نسختُ تلك الفكرة بكلّ وقاحة من الرواية التي أهديتُها إلى فالنتينا في يوم تعارفنا، رواية «ظلّ الريح»..

- ولكن، ألم يفعلها كاراكس قبلك؟ - سألتني.

- كلّ شيء في الحياة قام به أحدٌ ما من قبل. الأشياء التي تستحقّ العناء، على الأقلّ. - قلت - الحيلة تكمن في محاولة القيام بها بشكل أفضل.

- وفي هذه اللحظة تأتي أنت، بتواضع مرحلة الشباب.

كنتُ قد اعتدتُ مسبقًا علي دلاء الماء البارد من جبلي الجليديّ، فتابعتُ عرضي بعزيمة جنديٍّ يخرج من خندقه ويتقدّم صارخًا بأعلى صوته في وجه الرشّاش.

بحسب مشروعي غير القابل للفشل، فإنّ الجزء الأوّل سيتركّز على حكاية قارئ، في هذه الحالة سيكون والدي، وعلى اكتشافه في صباه العالمَ من الكتب، وعلى امتداد حياته، عبْر كتابٍ تلغيزيٍّ ألّفه كاتبٌ مجهول يتخفّى وراء لغزٍ عصِّي على الحلّ، من تلك الألغاز التي تسِّيل اللعاب. كان من شأن هذا كلّه أن يولِّدَ فرصةً لبناء روايةٍ تجمع في ضربة واحدة كلّ الأنواع الأدبيّة المعروفة وغير المعروفة حتى اللحظة.

- وقد تفيد بعلاج الإنفلونزا والزكام. - اقترحت فالنتينا.

أمّا الجزء الثاني، فسيكون متشرِّبًا بالذوق المقيت والوبائيّ والمشؤوم بغية تحريض القرّاء ضدّ عاداتهم الجيّدة. سيتناول المصائب الشنيعة والوجوديّة التي ألمَّتْ بروائيٍّ ملعون، كتحيّة ثناء إلى دافيد مارتين الذي سيتحدّث بلسانه كيف فقد عقله وكيف اقتادنا إلى الدرك الأسفل من جنونه ليصبح راويًا أقلَّ موثوقيّة من أمير الجحيم الذي سيسجّل حضوره أيضًا في تلك الصفحات. أو ربّما لا، لأنّ كلّ شيء سيكون في لعبةٍ سيتحتّم على القارئ أن يكمل أجزاءها الناقصة ويقرّر أيَّ كتابٍ سيقرأ.

- وماذا لو خذلك الجميع عند المذبح ورفضوا الدخول في هذه اللعبة؟

- تستحقّ العناء بكلّ حال. - أجبتُ - واحدٌ على الأقلّ يدخلها.

- الكتابة من تخصُّص المتفائلين. - علَّقت فالنتينا.

وانطلاقًا من فرضيّة أنّ القارئ ظلَّ حيًّا بعد الجزءين السابقين ولم يختر عربةً أخرى تأخذه إلى النهايات السعيدة، سيأتي الجزء الثالث لإنقاذه من عذاب القبر ليسرد عليه حكايه الشخصيّة المميّزة التي تمثِّل الضمير الرسميّ للملحمة كلّها، أيْ عمّي فيرمين روميرو دي توريس.

ستُبّيِنُ لنا حكايته، المكتوبة على نمط أدب الصعلكة، كيف صار فيرمين ما هو عليه، بينما سنتعرّف على الخطوط التي تصل أجزاء المتاهة بعضها ببعض من خلال قراءة مآسي فيرمين المتعدّدة في أشدّ سنوات القرن العشرين ظلامًا.

- في هذا الجزء سنضحك كثيرًا على الأقلّ.

- قيامة فيرمين. - وافقتُها.

- وكيف تنتهي هذه الفظاعة؟

- بألعابٍ ناريّة، وأوركسترا ضخمة وقوالب مسرحيّة عملاقة بسرعة خارقة.

أمّا رابع أجزاء السلسلة، فسيكون مذهلًا بطريقة مروِّعة ومعَّطرًا بعبق الأجزاء السابقة. سيقتادنا أخيرًا إلى قلب اللغز ليكشف لنا بقيّة الألغاز المتعلّقة به بفضل ملاك الظلمات خاصّتي، أليثيا غريس.

سيكون في الملحمة أخبارٌ وأسْرار، وألف دهليز يتسنّى للقارئ من خلالها أن يستكشف الحبكة الشبيه بالمشكال الذي يعكس سرابًا نظريا متعدّد الوجهات كالذي رأيته مع والدي في قلب مقبرة الكتب المنسيّة.

- وأنت، ألن تكون موجودا؟ - سألتني فالنتينا.

- سيكون ظهوري محدودًا ومحصورًا في النهاية فقط.

- يا لك من متواضع.

توقّعتُ الوبال الذي سيمطر عليَّ ما إن سمعتُ تلك النبرة.

- ما لم أفهمه هو لماذا تتحدّث عن هذه الحكاية بدلًا من أن تنكبَّ على كتابتها وكفى.

كنتُ قد طرحتُ على نفسي هذا السؤال حوالي ثلاثة آلاف مرّة في الأعوام الأخيرة - لأن الحديث عنها يساعدني على تخيُّلها بشكل أفضل. لا سيّما أنّني لا أعرف كيف أفعلها. من هنا يولد مشروعي.

التفتت فالنتينا ونظرت إليّ حائرةً.

- ظننتُ أنّ المشروع هو هذا.

- هذا طموح ليس إلّا. أما المشروع شيءٌ آخر.

- وما هو؟

- أن يكتبها خوليان كاراكس نيابةً عنّي. - كشفتُ.

حدّقت إليّ فالنتينا بتلك النظرة الخارقة التي تحفر نفق تهوية داخل الروح..

- ولماذا عليه أن يفعلها؟

- لأنّها في المحصلة حكايته، وحكاية عائلتي.

- ظننتُ أنّ كاراكس مقيم في باريس.

أومأتُ بنعم. ضّيقتْ عينيها. قاهرةٌ وذكيّة، حبيبتي فالنتينا.

- هذا يعني أنّ مشروعك هو الذهاب إلى باريس، والبحث عن خوليان كاراكس، إذا فترضنا أنّه ما زال حياً، وإقناعه بأن ينوب عنك الكتابة رواية من ثلاثة آلاف صفحة عن تلك الحكاية التي يبدو

أنّها مهمّة جَدًّا بالنسبة إليك.

- تقريبًا. - اعترفتُ.

ابتسمتُ لها، مستعدًّا لتلقّي اللطمة. كانت ستقول لي إنّني واهِّم، مضلَّلٌ وساذج. كنت قد هيّأت نفسي لامتصاص أيّ ضربة ما عدا تلك التي انهالت عليَّ بها، والتي كنتُ أستحقّها بطبيعة الحال.

- أنت جبان. – قالت.

نهضتْ ولملمت ثيابها وارتدت أمام النافذة. ثمّ أشعلت سيجارة، دون أن تنظر إليّ، وتركت نظراتها تهيم في أفق سطوح منطقة الإينسنش تحت المطر.

- اودّ ان أبقى بمفردي. - قالت.

بعد خمسة أيّام، صعدتُ السلالم التي تفضي إلى عليّة فالنتينا، فوجدتُ الباب مفتوحًا والغرفة خاوية، وثمّة كرسيٌّ أمام النافذة، عليه ظرفٌ يحمل اسمي. فتحتُه. فوجدتُ فيه عشرين ألف فرنك فرنسيّ وبطاقة تقول:12

Bon voyage et bonne chance

رحلةً موفَّقة وحظًّا سعيدًا

ف.

كان المطر يهطل عندما خرجتُ إلى الشارع.

بعد ثلاثة أسابيع، جمعنا ذات مساء كلًّا من قرّاء المكتبة وزبائنها للاحتفال بإصدار الرواية الأولى لأحد أصدقاء العائلة الطيّبين، البروفسور ألبوركركي، فطرأ حدثٌ مهيب كان يتوقّعه الجميع منذ زمن وكان من شأنه أن يغيّر تاريخ البلاد، أو أن يردّها إلى الحاضر على الأقلّ.

عند ساعة الإغلاق تقريبًا، دخل الدون فيدريكو، ساعاتيُّ الحيّ، إلى المكتبة متوتّرًا وبين يديه جهازٌ تَبَيَّنَ أنه تلفازٌ محمول اشتراه من أندورا. نصبه على المصطبة وتوجَّهَ إلينا جميعًا بنظرة إجلال.

- بسرعة. - قال - فأنا في حاجة وصلة(13).

- انت والجميع في هذا البلد، والا ما وصل احدُ إلى أيّ مكان.

-مازحه فيرمين.

كان شيء ما في ملامح الدون فيدريكو يوحي بأنّه لم يكن في وارد الهراء. قام البروفسور ألبركركي، الذي حَدَسَ بخطورة الموضوع، وساعده على إيصال التلفاز، فأضاءه الساعاتيّ انبثقت شاشةٌ بضجيجٍ رماديّ، وعرضت هالة من الضوء المتذبذب على المكتبة كلّها.

تو جَّسَ من الجلبة فأطلّ من المستودع ورمانا جميعًا بنظرة استجوابيّة. رفع فيرمين كتفيه.

- انتبهوا جميعًا. - أمرنا الدون فيدريكو.

وبينما كان الساعاتيّ يوجّه لواقط الإشارة ويحاول توليف البرنامج، احتشدنا شيئًا فشيئًا أمام التلفاز كما لو كنّا إزاء طقسٍ دينيّ.

بدأ البروفسور ألبر كركي وفير مين يرتّبان الكراسي. وسرعان ما وجدنا أنفسنا نحتشد بتلك القاعة المرتجلة بانتظار ما لا يعلمه أحد، أنا ووالداي وجدّي وفيرمين والدون أناكليتو (الذي كان عائدًا من نزهته المسائيّة، وحين رأى الضوء اعتقد أننا وهبنا أنفسنا لصرعة اليويو فدخل لإشباع فضوله) وفرنانديتو وصوفيا ومرثيديتاس والزبائن الذين جاءوا على شرف البروفسور ألبركركي.

- هل لديَّ وقتٌ للتبوّل وشراء الفشار؟ - سأل فيرمين.

- لو كنتُ مكانك لحصرتُها. - نبّهه البروفسور - يبدو لي أننا نترقّب حدثًا جللًا.

وفي النهاية قلب الدون فيدريكو اللواقط فاستحالت نافذة الكهرباء السكونيّة إلى مربّعٍ كئيب من اللونين الأبيض والأسود المجيدين والمخمليّين اللذين كان التلفزيون الإسبانيّ يبثّهما في ذلك الزمان. ظهر وجه رجلٍ مفجوعٍ وباكٍ، بدا نتيجةَ مزجٍ بين محامي المقاطعة والميكي ماوس. رفع الدون فيدريكو الصوتَ.

- مات فرانكو. - أعلن مجهشًا بالبكاء، رئيس الوزراء في تلك الحقبة، أرياس نابارو.

هبط من السماء، او من مكانٍ ما، صمتٌ مهيبٌ بُقدَّرُ وزنه بالأطنان. ولو كانت ساعة الحائط تعمل حينها، لتوقَّفَ الرقّاص في المنتصف. تلت النبأ أحداثٌ وقعت في اللحظة نفسها تقريبًا:

مرثيديتاس انفجرت باكيةً. جدّي، شحب وجهه مثل حلوى المرينغا، لعلّه خشي أن يسمع بين الفينة والأخرى هديرَ الدبّابات على شارع الدياغونال واندلاعَ حربٍ جديدة. الدون أنا كليتو، الذي كان مولعًا بالسخرية والأشعار، خَرِسَ خرسةً واحدة وراودته رؤىً لأديرة محترقة واحتفالات أخرى. والداي تبادلا نظراتٍ مضطربة. البروفسور ألبركركي، الذي لم يكن مدخّنًا، طلب سيجارة من الساعاتي وأشعلها.

فرنانديتو وصوفيا، غريبان عن الأجواء العامّة، ابتسما باستحياءٍ من بلاد الجنّيّات وواظبا على تبادل العواطف. أحد القرّاء صلّى بالتثليث وخرج راكضًا ومذعورًا.

بحثتُ بعينيَّ عن راشدٍ ما زال محافظًا على أعصابه، فصادفتُ فيرمين الذي كان يتابع خطاب رئيس الوزراء باهتمامٍ باهت وهدوءٍ مطلق. فجلستُ بجواره.

- انظر إليه كم يبدو بريئًا يتباكي كطفلٍ لم يكسر أيَّ طبقٍ في حياته. إلّا أنّ هذا الرجل، هو بعينه، وقَّعَ على إعداماتٍ أكثر من الملك آتيلا. - قال.

- وما الذي سيحدث الآن؟ - سألته مرتبكًا. ابتسم فيرمين بصفاء وربَّت على كتفي. أعطاني حبّة سوغوس، وفتح حبّته التي كانت بنكهة الليمون ومصَّها مستمتعًا.

- كن مطمئنًّا، فهنا لن يحدث شيء. سوى بعض المناوشات والتمثيليّات والانشقاقات بالجملة، لبعض الوقت. أجل، ولكن لا أكثر من ذلك. إن حالفنا الحظّ، سيسقط أحد المحتالين سقطةً قاتلة، لكنّ الذين يمسكون بالخيوط لن يتركوا المسألة تتفاقم. فالأمر لا يستحقّ.

سيكون هناك دخانٌ كثيف وحفلة شواء، قد يتفحَّم اكثرُها. ستُحَطَّمُ أرقامٌ قياسيّة في تبديل الرايات بسرعاتٍ أولمبيّة، وسنرى أبطالًا يخرجون من تحت الأريكة. هذا ما هو متعارَفٌ عليه في حالاتٍ كهذه.

سيصيبنا ما يشبه الإمساك المزمن. سيكلِّفنا جهدًا كبيرًا، لكنّ البراز سيخرج، أو الجزء غير المهضوم على الأقلّ. إلا أن الدماء لن تراق أنهارا، سترى. وذلك لسبب بسيط: لأنّ مشهد الفوضى لن يناسب أحدًا. ففي المحصّلة، كلُّ هذا أشبه بسوق صغيرة من المنافع المقنَّعة بشكلٍ جيد نسبيًّا لاستهلاك الغباء الشعبيّ. فإذا استثنيا بعض العرائس المتحركة، لا أهمية إلا لأولئك الذين يحكمون، ويمتلكون مفاتيح الخزنة، وكيف سيتقاسمون أموال الآخرين. في حال اتّجهوا لتقاسم الكعكة، سيبيّضون كلّ شيء، ونحن في حاجة ماسّة إلى هذا. سيظهر خبثاء جدد، وطغاة جدد، وجوقة من الأبرياء بلا ذاكرة يملأون الساحات مستعدّين لتصديق ما يريدون أن يسمعوه أو ما يحتاجون إلى سماعه. سيتبعون أوّل عازف مزمارٍ يلتقونه، سيسحرهم ويعدهم بجنّةٍ ترقيعيّة. هكذا هي الأمور يا خوليانيتو، بعظمتها وأهوالها، وفوائدها التي ليست قليلة. هناك مَن استبق النقلة وانصرف بعيدًا، مثل صديقتنا أليثيا؛ وهناك مَن هم مثلنا يظلّون عالقين في الطين لانعدام مكانٍ أفضل يلتجئون إليه. ولكنْ لا تخشَ على السيرك، فقد حان وقت المهرّجين، لأن البهلوانّيين سيتأخرون قليلًا للظهور على المنصّة. من الوارد أنّ هذا أفضل ما قد يقع لنا. أنا، شخصًّا، متفائل.

- وكيف عرفت أن أليثيا انصرفت بعيدًا جدًّا؟

ابتسم فيرمين بلؤم.

- أصبتني.

- ما الذي أخفيته عنّي؟

أمسك بذراعي وانفرد بي في زاوية.

- سأرويه لك في يوم آخر. اليوم حدادٌ وطنيّ.

- ولكن...

تركني هناك وعاد إلى الاجتماع الذي ما زال رازحًا تحت نبأ رحيل مَن كان قائدًا للدولة في العقود الأربعة الأخيرة.

- هل نشرب النخب؟ - سأله الدون أناكليتو.

استنكر فيرمين برأسه.

- أنا لا أشرب النخب على وفاة أحد. - قال - لا أعلم عنكم، لكنّي سأذهب إلى البيت عند عزيزتي برناردا، وإن شاء الله سأحاول أن أمنحها ابنًا آخر. أنصحكم بفعل الشيء ذاته، وفقًا لما تسمح به الضرورة اللوجستيّة. وإلّا فاقرأوا كتابًا جيّدًا، كالرواية التي ألّفها صديقنا الطيّب البوركركي، الحاضر هنا. فغدًا سيكون يومًا جديدًا.

وجاء اليوم الجديد، وتلاه يومٌ جديد آخر، وهكذا انقضت أشهرٌ تملَّص فيها فيرمين من وعده مستخدمًا كلّ قدراته، ولم يفصح لي بخصوص تلميحاته عن أليثيا غريس. وإذ كان حدسي يخبّرني أنّه سيروي لي ذلك الجزء حين تأتي الفرصة المناسبة، استعدتُ الفرنكات التي تركتها لي فالنتينا، واشتريتُ تذكرة إلى باريس. حدث ذلك عام1976 عندما أتممتُ عامي التاسع عشر.

كان والداي يجهلان الغاية الحقيقيّة من رحلتي، التي عزوتُها لرغبتي في رؤية العالم، مع أنّ والدتي خامرها الشكّ بنواياي. لم أتمكّن يومًا من إخفاء الحقيقة عنها؛ ليس لدّي أسرارٌ أخفيها عنها، كما قلت لوالدي ذات مّرة. كانت والدتي على علم بقصّتي مع فالنتينا، وطموحاتي التي ساندتْها دومًا، خصوصًا في أوقات الإحباط إذ أقسمتُ على التخلي عن أحلامي لانعدام الموهبة أو القدرة.

- لا أحد ينجح ما لم يفشل أوّلًا. - قالت لي.

كنت أعرف أن والدي كال ممتعضًا مع أنّه لم يشأ أن يصارحني.

لم يكن يرى رحلتي إلى باريس بعين الارتياح. بالنسبة إليه، كان ينبغي لي أن أصفّي ذهني وأهّم بالقيام بما يتوجّب علي مهما يكن. إن أردتُ أن أصبح كاتبًا، فمن الأفضل أن أجلس وأشرع بالكتابة جدّيًّا. وإن أردتُ أن أصبح بائع كتب، أو مربّي ببغاوات، أو أيًّا كان، فعليَّ أن أفعل ذلك.

لم أعرف كيف أشرح له أنّ ما عليَّ فعله هو الذهاب إلى باريس والبحث عن كاراكس، لأنّي كنت أعلم أنّ ذلك لم يكن له أيّ معنى.

لم تكن لديّ حججٌ للدفاع عن الفكرة، كنت أشعر بها ليس إلّا. فلم يشأ أن يرافقني إلى المحطّة، متعذّرًا بالذهاب إلى فيك للقاء زميله المميّز، السيّد كوستا، عميد النقابة وأمهر العاملين في قطاع الكتاب القديم. لكنّي حين وصلتُ إلى محطة فرنسا، وجدتُ والدتي جالسة على مقعد عند رصيف السكّة.

- اشتريتُ لك قفّازين. يقولون إنّ البرد في باريس قارس.

عانقتها.

- هل أنتِ أيضًا تعتقدين أنّي أخطئ؟

نفت أمّي برأسها.

- على المرء أن يقترف أخطاءه، لا أخطاء الآخرين. افعل ما عليك فعله، وعد بسرعة. أو متى استطعت.

في باريس وجدتُ العالم. سمحت لي مواردي الشحيحة باستئجار عليّة بحجم منفضة على قمّة بناية عند زاوية شارع سوفلو، التي كانت معادلًا عمرانيًّا لإحدى معزوفات باغانيني. وكان برج المراقبة خاصّتي معلقا فوق ساحة بانثيون. فكنت أرى من هناك كلّ الحيّ اللاتينيّ، وشرفات السوربون والضفة الأخرى لنهر السين.

أعتقد أنني أستأجرتُ تلك العليّة لأنها تذكّرني بفالنتينا. فحين أطللتُ للمرّة الأولى على طبقة العليّات والمداخن المحيطة بغرفتي على السطح، شعرتُ أنّي أكثر رجل محظوظ في الكوكب.

قضيتُ الأيّام الأولى بالتنقّل في عالم عجائبيّ مكوّنٍ من مقاهٍ ومكتبات وطرقات مليئة بالأبنية والمتاحف والناس الذين يتنفسّون الحريّة التي أعشتْ بصَر غرٍّ مسكينٍ مثلي، قادم من العصر الحجريّ بمجموعة جنادب تصر صر في رأسه.

أعانتني مدينة الأنوار على هبوطٍ مريح. ففي صولاتي وجولاتي، فتحتُ نقاشاتٍ عديدة بفرنسيِّة معكرونيّةٍ ولغة الجسد، مع شبّان وعُجَّزٍ ومخلوقات من عالم آخر. ولم ينقصني وجود حسناوات بتنانير قصيرة يسخرن مني برقّة ويقلن لي إنّني tres adorable / محبوبٌ جدًّا مع أنّني حامضٌ أكثر من فاكهة حامضة. وسرعان ما بدأتُ أفكّر أنّ الكون - الذي لم يكن سوى جزء صغير من باريس - كان مليئًا بالفالنتينات.

فخلال أسبوعي الثاني كباريسيٍّ بالتبنّي، رافقتني إحداهنّ من دون بذل مجهود كبير، وجاءت تستمتع بالمنظر من عليّتي البوهيميّة. وسرعان ما اكتشفتُ أن باريس ليست برشلونة، وأنّ قواعد اللعبة تختلف هناك اختلافا كليًّا.

- كم خسر فيرمين لأنّه لم يتعلم الفرنسيّة...

- Qui est Fermin / من هو فيرمين؟

استغرقتُ كثيرًا من الوقت لأصحو من سحر باريس وعجائبها.

وبفضل إحدى الفالنتيات اللواتي تعرّفت عليهنّ - اسمها باسكال، صهباء تشبه جان سيبرغ بتسريحة شعرها وملامحها - وجدتُ عملًا بنصف دوام كنادلٍ. كنت أعمل في فترة الصباح ومنتصف النهار في مقهىً قبالة الجامعة، كونتوار دو بانثيون، وأتناول فيه طعامي مجّانًا عند نهاية الدوام. كان صاحب المقهى رجلًا لطيفًا، يستغرب كيف لا أهتمّ بمصارعه الثيران والفلامنكو على الرغم من أنّي إسبانيّ. سألني هل جئت إلى باريس للدراسة أم لبناء ثروة ومجد أم لتحسين مستواي باللغة الفرنسيّة، الذي كان بحاجة إلى جراحة قلب مفتوح أو إعادة زرع دماغ أكثر من حاجته إلى تحسين.

- جئت أبحث عن رجل. - اعترفتُ.

- وأنا الذي كنت أظنّك معجبًا بالنساء. يبدو جليًّا أنّ فرانكو قد مات. يومان بلا دكتاتور وأصبحتم يا شعب إسبانيا مزدوجين جنسيًّا.

خيرٌ لكم. ينبغي أن نعيش الحياة فهي قصيرة. Vive la difference / يحيا الاختلاف!

فرويتُ عليه أنّني جئت إلى باريس لسببٍ معيّن، لا لكي أهرب من نفسي. وفي اليوم التالي، بدأتُ بحثي عن خوليان كاراكس. شرعتُ بالتجوّل بين كلّ المكتبات التي تنير أرصفة جادّة سان جرمان، أسأل عنه. وكانت باسكال، التي صرت صديقًا لها مع أنّها أوضحت أنّ علاقتنا تحت الشراشف ليس لها مستقبل (يبدو أنّني كنت trop doux / رقيقًا جدًا بالنسبة إلى أذواقها)، كانت تعمل مصحِّحة للمخطوطات في إحدى دور النشر، ولديها معارفها في الوسط الأدبيّ الباريسيّ. كانت في كلّ جمعة ترتاد منتدىً أدبيًّا في أحد المقاهي التي يقصد إليها أدباء ومترجمون وناشرون وباعة كتب وكلّ المخلوقات النباتيّة والحيوانية التي تسكن أدغال الكتب وضواحيها. كان الجمهور

يتغيّر وفقًا للأسابيع، إلّا أنّ القاعدة الثابتة هي أن يسرف المرء في الشرب والتدخين، ويخوض نقاشات محتدمة عن الكتب والأفكار، وينقضَّ على وريد المخاطَب كما لو أنّ حياة الأخير مِلكٌ لحياة الأوّل. أمّا أنا فكنت أصغي إليهم وأغرق في سحابةٍ مهلوِسةٍ من الدخان بينما أحاول زلق يدي تحت تنوّرة باسكال التي كانت ترى هذه العادة تصنُّمًا gauche / يساريًّا وbourgeoise / برجوازيًّا وجلفًا.

حظيتُ هناك باللقاء ببعض مترجمي كاراكس، الذين جاؤوا إلى المدينة لحضور مؤتمر حول الترجمة انعقد في السوربون. الروائيّة البريطانيّة، لوثيا هير غريفس، التي نشأت في مايوركا وعادت إلى لندن من أجل علاقة عاطفية، قالت لي إنّها لم تعد تتلقّى أخبار كاراكس منذ مدّة طويلة. المترجم الألمانيّ، رجلٌ نبيلٌ من زوريخ، كان يفضِّل خطوط عرض معتدلة ويتنقّل في باريس بدرّاجة هوائيّة قابلة للطيّ، الهيير بيتر شفارزنبلد، يعتقد أنّ كاراكس آنذاك قد وهب نفسه حصريًّا لتأليف السوناتات على البيانو واتّخذ اسمًا مستعارًا جديدًا. المترجم الإيطاليّ، السنيور برونو أربايني، اعترف لي بأنّه سمع منذ أعوام كثيرًا من الشائعات تدّعي أنّ روايةً جديدة لكاراكس كانت ستصدر قريبًا، لكنّه لا يصدِّق ذلك. في المحصّلة، لا أحد منهم كانت لديه معلومة ملموسة تفيد بمعرفة مكان خوليان كاراكس أو مصيره.

في أحد تلك اللقاءات، تعرّفتُ بالصدفة على سيّدٍ حادّ الذكاء يدعى فرانسوا ماسبيرو، كان في السابق بائع كتب وناشرًا أيضًا، وكان حينذاك يترجم روايات بألمعيّة فذّة. ماسبيروهو مرشد باسكال عندما وصلتْ إلى باريس، فدبَّرت لنا لقاءً لفنجان قهوة في لي دو ماغو، حيث استطعتُ أن أسرد عليه الخطوط العامّة لفكرتي.

- إنّه مشروعٌ طموح يا فتى، لكنّه معقّد كثيرًا...

بعد أيّام، صادفتُ المسيو ماسبيرو في الحيّ. قال لي إنّه يودّ أن يعرِّفني على سيّدة ألمانيّة ذات طابع فولاذيّ ودماغٍ متسارع، تعيش بين باريس وبرلين، وتتحدّث لغاتٍ أكثر ممّا بوسعي أن أعدّدها، وتخصِّصُ من وقتها لاكتشاف العجائب والأسرار الأدبيّة التي تجمعها فيما بعد في عدّة دور نشر أوروبيّة. كان اسمها ميشي شتراوسمان.

- لعلّها تعرف شيئًا عن كاراكس...

وكانت باسكال قد اعترفت لي أنّها تريد أن تصبح مثلها حينما تكبر، وحذّرتني من أنّ الفراولين شتراو سمان ليست زهرة رقيقة، وأنّها تكره إضاعة وقتها. حضَّر المسيو ماسبيرو اللقاء وجمعنا نحن الأربعة على طاولة في أحد مقاهي الماريه، ليس ببعيدٍ عمّا كان بيت فكتور هوغو.

- الفراولين شتراوسمان خبيرة بأعمال كاراكس. - قال ماسبيرو على سبيل التقديم - اروِ لها ما قلته لي.

فعلتُ. فكان الردّ الأوّليُّ نظرة تثقب أجود أنواع حلوى السوفليه.

- هل أنت أحمق؟ - سألتني السيّدة شتراوسمان بإسبانيّةٍ متقنة.

- عمليًّا. - اعترفتُ.

بعد قليل، رقّ قلبُ الفالكيريّة، واعترفتْ بأنّها قستْ عليَّ أكثر ممّا ينبغي. وأكّدت لي أنّها، كالآخرين، لم يردها أيُّ خبرٍ عن كاراكس منذ وقت طويل، رغمًا عنها.

- خوليان لا يكتب منذ زمن. - قالت لي - ولا يردّ على الرسائل. أتمنّى لك حظًّا سعيدًا بفكرتك هذه، ولكن...

- هل لديكِ عنوان بوسعي اللجوء إليه؟

هزّت الفراولين شتراوسمان رأسها نافية.

- حاولْ عن طريق كوريغان وكوليثيو. حيث كنتُ أرسل له البريد، وحيث فقدتُ أثره منذ أعوام.

تكفَّلت باسكال بإفادتي بأنّ المدام كوريغان والسنيور تومازو كوليتشو هما الوكيلان الأدبيّان لخوليان كاراكس لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، وتكفّلت أيضًا بتدبير لقاء معهما.

كان مكتب المدام كوريغان في شارع رين. تقول الأسطورة التي تدور في الوسط الأدبيّ إنّها حوَّلت المكتب مع مرور الوقت إلى حديقة راقية لأزهار الأوركيديا. ونصحتني باسكال أن أحمل إليها باقة جديدة لمجموعتها عربونَ ثناء. كانت باسكال صديقة لفريق كوريغان، الرباعيّ الأدبيّ المكوّن من نساءٍ ينحدرن من جنسيّات مختلفة ويعملن تحت أوامر السيّدة، اللواتي دبَّرن لي بمعرفتهنّ موعدًا مع وكيلة كاراكس.

حضرتُ إلى مكتبها، والإناءُ في يدي. فظنَّ رباعيُّ الفريق (هيلد، كلاوديا، نورما وتونيا) أنّي موصل الطلبيّات لدى بائع الأزهار عند زاوية الطريق. ثمّ ما إن فتحتُ فمي حتّى انكشفت هويّتي. تجاوزنا الالتباس، فاقتدني إلى المكتب التي تنتظرني فيه المدام كوريغان.

وحين دخلتُ لمحتُ خزانة زجاجيّة تحتوي على الأعمال الكاملة لخوليان كاراكس، وحديقة بيئيّة من النوع الأعظم. أصغت إليّ السيّدة بصبرٍ جميل وهي تتذوّق سيجارةً نثرت في الغرفة شباكًا متراقصة.

- في الحقيقة، سمعتُ خوليان يتحدّث عن دانيال وبيا بعض المرّات. - قالت - لكنّ ذلك انقضى عليه زمنٌ طويل. ومنذ أمد بعيد لا أتلقّى أخبارًا عن خوليان. كان في السابق غالبًا ما يزورني ولكن...

- هل مَرِض؟

- أتصوّر أنه بإمكاننا أن نقول هذا.

- بم؟

- بالتعاسة.

- لعلّ السنيور كوليتشو يعرف شيئًا عنه؟

- أشكّ في ذلك. فأنا أتواصل مع تومازو كلّ أسبوع بمسائل العمل، وعلى حدّ علمي فإنّ أخبار خوليان انقطعت عنه أيضًا منذ ما لا يقل عن ثلاث سنوات. ولكن، جرِّبْ. وأخبرني إن اكتشفتَ شيئًا.

كان زميلها السيّد تومازو يعيش في عوّامة على نهر السين، مليئة بالكتب وراسية على بعد نصف كيلومتر شرقًا عن إيل دو لا سيتي، رفقة زوجته إيلين، المحرّرة التي استقبلتني عند رصيف المرفأ بابتسامة دافئة.

- لا بدّ أنّك الفتى القادم من برشلونة. - قالت.

- شخصيًّا.

- اصعد على المتن. تومازو يقرأ مخطوطة مملّة، وسيسعده أن نقطعها عليه.

كان للسنيور كوليتشو مظهر أسد البحر. يعتمر قبعّة قبطان، وشعره فضّيّ، لكنّه حافظَ ببراعةٍ على نظرة مليئة بالصبيانيّة المشاكسة. وبعد أن أصغي إلى قصّتي، ظلّ يفكّر بعض الوقت قبل أن يتكلّم.

- اسمع يا فتى. في باريس هناك شيئان يستحيل العثور عليهما.

الأوّل هو البيتزا اللذيذة. والثاني هو خوليان كاراكس.

- فلنقل إنّي أتنازل عن البيتزا وأرضى بكاراكس. - ارتجلتُ.

- لا تتنازلْ أبدًا عن بيتزا لذيذة. - نصحني - ما الذي يجعلك تفكّر أنّ خوليان يودّ التحدّث معك، إذا افترضنا أنّه ما يزال حيًّا؟

- هل من الممكن أن يكون قد مات؟

توجَّه إليّ السنيور تومازو بنظرة مشبعة بالتعاسة.

- الناس يموتون، لاسيّما أولئك الذين من الأفضل أن يبقوا أحياء. لعلَّ الربّ يريد أن يفسح المجال لكميّة كبيرة من أبناء القحبة الذين يستمتع في تتبيل العالم بهم من دون رحمة...

- أحتاج أن أصدِّق أنّ كاراكس حيّ. - أجبت.

فابتسم تومازو كوليتشو.

- تحدّثْ مع روزبيه.

إميل دو روزبيه كان المحرّر لأعمال خوليان كاراكس على مدى سنوات. شاعرٌ وكاتبٌ في أوقات الفراغ، وقد حقّق مسيرة مهنيّة ناجحة كمحرّر في أغلب دور النشر الباريسيّة، وكان خلال ذلك قد أصدر أيضًا - سواء بالإسبانيّة أم بترجمته إلى الفرنسيّة - أعمالًا لعدّة أدباء إسبان حظرهم النظام أو نفاهم، كما فعل الأمر ذاته مع أدباء لافتين من أمريكا الجنوبيّة. شرح لي السيّد تومازو أنّ روزبيه منذ وقت قصير قد تولّى إدارة النشر في دار نشر صغيرة، تنشر أعمالًا مترجمة حصرًا، واسمها منشورات النور. لم تكن مكاتبها بعيدة، فمشيتُ.

لم يكن لدى السيد إميل دو روزبيه وقت فراغ كبير، لكنّه كان لطيفًا ودعاني إلى الغداء في مقهى خلف دار النشر، في شارع التّين، واستمع إليّ.

- تعجبني فكرة كتابك. - قال، ربّما مجاملةً أو اهتمامًا حقيقيًّا - مقبرة الكتب المنسيّة. عنوانٌ رائع.

- هذا الشيء الوحيد الذي لديّ. - اعترفتُ - أحتاج إلى المسيو كاراكس لإنجاز ما تبقّى.

- على حدّ علمي، فإنّ خوليان قد انسحب. أصدَرَ رواية منذ مدّة تحت اسم مستعار، ليس من إصداري، ثمّ لا شيء. صمتٌ مطلق. - هل تعتقد أنّه ما يزال في باريس؟

- يفاجئني. كنت سأسمع أو أعرف عنه شيئًا ما. في الشهر الماضي رأيتُ ناشرته السابقة في هولندا، صديقتي نيلليك، وقالت لي إنّ أحدًا ما في أمستردام حدّثها أنّ كاراكس توجَّه نحو الأمريكيّتين منذ عامين ومات أثناء الرحلة. وبعد أيّام، حدّثها شخصٌ آخر أنّ كاراكس قد رسا على اليابسة وأنّه الآن يكتب مسلسلات تلفزيونيّة تحت اسم مستعار. فاختر الخبريّة التي نالت إعجابك.

لا بّد أنّ روزبيه لمس الإحباط الذي عصف بوجهي بعد أن كنت قد ضربتُ في دروبٍ عمياء يومًا بعد يوم بلا جدوى.

- هل تريد نصيحتي؟ - سأل.

- أرجوك.

- نصيحة عمليّة، أعطيها لكلّ الكتَّاب في أوّل الطريق إذا سألوني عمّا يجب فعله. إن أردتَ أن تصبح كاتبًا، فاكتبْ. إن كانت لديك حكاية ترويها، فاروِها. أو حاولْ.

- لو كان يكفي أن تكون لدينا حكاية نرويها كي نصبح أدباء، لأصبح الجميع روائيّين.

- تخيّلْ أيُّ رعبٍ هذا، عالمٌ مليء بالروائّيين. إنّها نهاية الزمان.

- مازحني روزبيه.

- لعلّ آخر أمر يحتاج إليه العالم هو روائيٌ جديد.

- دع العالم يقرّر ذلك. - نصحني روزبيه مجددًّا - وإن فشلتَ فلا تقلق. خيرٌ لك، وفق كلّ الإحصائيّات. أمّا إذا استطعتَ يومًا ما أن تحبس على الورق باحترافٍ وجودةٍ شيئًا مشابهًا لما حدّثتني به، فتعال إليّ. ربّما أكون مهتمًّا.

- وحتى تلك اللحظة؟

- حتى تلك اللحظة، أنسَ أمر كاراكس.

- آل سيمبيري لا ينسون أبدًا. إنّه مرضٌ وراثيّ.

- في هذه الحالة، أشفق عليك.

- فمدّني بالإحسان إذن.

تردّد روزبيه.

- كان لخوليان صديقٌ وفي. صديقه الأفضل على ما أعتقد. يدعى جان ريموند دو بلانو. لم يكن له أيّ شأنٍ بأوساطنا العابثة. كان رجلًا ذكيًا ومعافى. لا جنادب تصر صر في رأسه. إن كان هنالك مَن يعرف شيئًا عن خوليان، فإنّه هو.

- وأين بوسعي العثور عليه؟

- في مقابر تحت الأرض.

توجَّبَ عليَّ أن أبدأ من هناك. وإذ كان الأمر متعلّقًا بكاراكس، فمن المحتّم أن يتعلّق الأمل الوحيد في تعقُّب خطاه على هذه الأرض بالمرور بأحد السيناريوهات التي تبدو مستوحاةً من إحدى رواياته:

سراديب باريس.

كان جان ريموند دو بلانو رجلًا ضخمًا قويَّ الحضور، مهيب الجانب من الوهلة الأولى، لكنّه سرعان ما يتعامل بسلوك ودود يميل إلى الممازحة. كان يعمل في المكاتب التجاريّة للمؤسّسة التي تدير سراديب باريس، متخصّصًا في صيانتها واستثماراتها السياحيّة وكلّ ما كان له صلة بذلك الطرف العجيب من العالم الآخر.

- أهلًا بك في عالم الموت أيّها الصوص. - قال وصافح يدي فطقطقت عظامها - بم يمكنني مساعدتك؟

- أتساءل إن كان بوسعك أن تساعدني في العثور على صديقٍ لك.

- هل هو حيّ؟ - ضحك - لم يعد لديّ ثقة كبيرة بالأحياء.

- خوليان كاراكس.

وما إن نطقتُ ذلك الاسم، حتّى قطّب المسيو بلانو جبينه، وامّحت طلّته الودودة وتقدَّم بجذعه مهدّدًا بطريقة دفاعيّة، فثبَّتني إلى الحائط.

- من أنت بحقّ السماء؟

- خوليان سيمبيري. سمّاني والداي هكذا على شرف المسيو كاراكس.

- بالنسبة إليّ، كما لو أنّهما سمَّياك على شرف مبتكر المبولة العموميّة.

خشيتُ على وحدة جسمي فحاولتُ الرجوع إلى الخلف. فمنعني الجدار الذي قد يكون موصولًا بالسراديب. رأيتُني مصندقًا هناك إلى الأبد بين مئة ألف جمجمة.

- لقد عرف والداي كاراكس. دانيال وبيا. - قلت بهدف المصالحة.

انقضّت عليّ نظرة بلانو بضع ثوان. حسَبتُ أنّه قد يهشّم وجهي بنسبة خمسين بالمئة. فيما بدت الخمسون بالمئة الأخرى غامضة.

- انت ابن دانيال وبيا تريز؟

أومأتُ.

- أصحاب مكتبة سيمبيري؟

أومأتُ ثانيةً.

- أثبت لي ذلك.

وعلى مدى ساعة تقريبًا، ردّدتُ على مسامعه ما رويته لوكلاء كاراكس السابقين ومحرّر أعماله. أصغى إليّ بلانو باهتمام، وبدا لي أنّ عداءه يخمد كلّما استرسلتُ بقصّتي، بما لا يخلو من هبوب الحزن على نظراته. وفي النهاية، أخرج سيجارًا من سترته وأشعله، فشكّلَ غيمة من دخانٍ كادت تدفن باريس برمّتها.

- هل تعلم كيف تعارفنا، خوليان وأنا؟

نفيتُ برأسي.

- حين كنت شابًا، كنت أعمل معه في دار نشر رديئة. حدث ذلك قبل أن أفهم أنّ للموت مستقبلًا واعدًا أكثر من الأدب. كنت أعمل في القطاع التجاريّ، وأتجوّل لأبيع تلك السخافات التي كانوا ينشرونها.

وكان خوليان يعمل معهم بالمقطوعيّة، يؤلّف روايات رعب من أجلنا.

كم سيجارًا كهذا دخّنّا معًا في المقهى تحت دار النشر، ننظر إلى الصبايا يمشين في الشارع في منتصف الليل. يا له من زمانٍ ولّى. إيّاك أن تتغابى وتصبح عجوزًا، فالشيخوخة لا تأتي بنبلٍ ولا معرفة ولا أيّ شيء قميء يستحقّ العناء.

- هل تعرف أين بوسعي أن أجده؟

رفع بلانو كتفيه.

- لقد غادر خوليان باريس منذ زمن.

- هل تعرف إلى أين ذهب؟

- لم يقل.

- ولكن لديك فكرة.

- أنت ثعلب.

- أين هو؟ - ألححتُ.

- أين نختبئ حين تدهمنا الشيخوخة؟

- لا أدري.

- لن تجد خوليان إذن.

- في الذكريات؟ - ارتجلتُ.

وجّه إليّ ابتسامةً جرحتها الكآبة.

- هل تقصد أنّه عاد إلى برشلونة؟ - سألته.

- ليس إلى برشلونة، بل إلى ما كان يحبّه.

- لم أفهم.

- ولا أنا. ليس لوقت طويل على الأقلّ. لقد استغرق حياته بأكملها ليفهم ما الذي أحبَّه أكثر من أيّ شيء آخر.

أصغيتُ إلى حكايات كاراكس على امتداد سنوات طويلة، ورغم هذا كنت أشعر بالضياع مثل اليوم الذي وصلتُ فيه إلى باريس.

- لو كنتَ مَن تدّعي أنّك هو، فعليك أن تعرف أين كاراكس. - قال بلانو - كما أنّك تقول إنّ الأدب دوَّخَ رأسك بلطمةٍ عاتية، مع أنّي لا أصدّق أنّك غبيّ إلى هذه الدرجة.

مضغتُ ريقي.

- أعتقد أنّي فهمت ماذا تقصد. أو مَن.

- فأنت تعرف ما عليك فعله.

في ذلك المساء ودّعتُ باريس، وباسكال، ومسيرتي الباهرة في مجال الإطعام، وعشّي الذي بين الغيوم، واتّجهتُ نحو محطة أوسترليتز. انفقتُ كلَّ ما في جعبتي لشراء تذكرة في الدرجة الثالثة وركبتُ قطار الليل إلى برشلونة. وصلتُ عند الفجر، بعد أن نجوتُ من الرحلة بفضل ثنائيٍّ من المتقاعدين، الآتيين من ليون لزيارة ابنتهما.

أحسنا عليَّ بتقاسُم طعامهما اللذيذ الذي اشترياه عصر ذلك اليوم من سوق موفتار؛ وفي المقابل رويتُ لهما قصّتي.

- Bonne chance / حظًّا سعيدًا. - قالا لي وهما ينزلان - Cherchez la femme / ابحث عن المرأة...

بعد عودتي، بتُّ أرى كلّ شيء صغيرًا ومغلقًا ورماديًّا، على مدى أيّام. لقد علقت أنوارُ باريس في ذاكرتي، وصار العالم كبيرًا وبعيدًا بغمضة عين.

- ها، هل رأيتَ إيمانويل؟ - سألني فيرمين.

- سيناريو عظيم. - أجبت.

- كما توقّعت. سيعجب بيللي ويلدر وشركاه... قل لي إذن، هل التقيتَ بشبح الرواية؟

ابتسم فيرمين كشيطان صغير. كان عليّ أن أتوقّع أنّه يعرف جيّدًا سبب ذهابي إلى باريس.

- ليس بالضبط. - اعترفتُ.

- يعني أنّه ليس لديك حديث دسم ترويه لي.

- ظننتُ أنّك أنت الذي لديه حديث دسم ترويه لي. ألا تذكر؟

- عليك أن تحلّ لغزك أولا، ثمّ نتناقش.

- هذا ظلم.

- أهلًا بك في كوكب الأرض. - ردّ فيرمين - هيّا، أذهلني. قل شيئًا بالفرنسيّة. Bonjour , ohlala ليس لها قيمة.

- Cherchez la femme - ردّدتُ.

قطّب فيرمين جبينه.

- المبدأ الاعتياديّ في كل مكيدة تستحقّ هذه التسمية...- ارتجل.

Voila... - كان قبر نوريا مونفورت يقع على رعنٍ محاطٍ بالأشجار، في الجزء القديم من مقبرة مونتويك، بإطلالةٍ على البحر، ليس ببعيد عن مدفن إيزابيلا. هناك حيث وجدتُ خوليان كاراكس، في إحدى عصريّات صيف العام 1977، بعد أن نبشتُ بلا جدوى كلّ زوايا برشلونة التي أخذت تتبدّد مع مرور الوقت. كان قد ترك أزهارًا عند الشاهدة وجلس على أحد المقاعد الحجريّة قبالة القبر. وظلّ هناك قرابة الساعة، يتحدّث مع نفسه. ولم أجرؤ على قطع حديثه.

ثمّ وجدتُه ثانية في ذات المكان في اليوم التالي، واليوم الذي تلاه. كان خوليان كاراكس قد أدرك متأخّرًا أن الشخص الذي أحبَّه أكثر من أيّ شيء آخر في الدنيا، تلك المرأة التي ضحّت بحياتها من أجله، لم تعد بإمكانها سماع صوته. فكان يذهب إلى هناك كلّ يوم، ويجلس قبالة القبر يتحدّث إليها ويقضي ما تّبقى له من حياة برفقتها.

وكان هو الذي اقترب منّي ذات يوم، وما انفكّ ينظر إليّ صامتًا.

نمت بشرته التي فقدها في الحريق، فمنحته وجهًا لا يشي بعمرٍ أو تعبيرٍ معيّن، وقد أخفاها بلحية ناعمة وقبّعة عريضة الحوافّ.

- من أنت؟ - سألني بصوتٍ يخلو من الحدّة.

- اسمي خوليان سيمبيري. ابن دانيال وبيا.

هزّ رأسه ببطء.

- هل هما بخير؟

- أجل.

- هل يعلمان أنّك هنا؟

- لا احد يعلم.

- وهل لي أن أسألك لماذا أنت هنا؟

لم أعرف من أين أبدأ.

- هلّا قبلتَ دعوتي على فنجان قهوة؟

- لا أشرب القهوة. - قال - ولكن بإمكانك أن تدعوني على الجيلاتون فضح تعبير وجهي ذهولي.

- عندما كنت شابًّا، لم يكن للجيلاتو وجود تقريبًا. لقد اكتشفته في وقت متأخّر، مثل أشياء كثيرة أخرى...

وكان هكذا أن جلستُ إلى طاولة في أحد مقاهي الساحة الملكيّة مع خوليان كاراكس، أثناء غروبٍ صيفيّ بطيء، بعد أن حلمتُ بتلك اللحظة مذ كنت صغيرًا وقلبتُ باريس وبرشلونة في البحث عنه. قدَّمتُ له جيلاتو بنكهة الفراولة ورقاقة الحلوى. فيما طلبتُ لنفسي مشروب الليمون البارد، لأنّ القيظ المحمَّل بالرطوبة بات لا يطاق في إحراقه صيفَ برشلونة كأنّه لعنة.

- بم يمكنني مساعدتك يا سيّد سيمبيري؟

- إن قلتُ لك حاجتي ستظنّ أنّي غبيّ - لديّ انطباعٌ بأنّك تبحث عنّي منذ وقت طويل. لذا سأظنّ أنّك غبيّ إن لم تفصح عن حاجتك بعد أن التقيتني أخيرًا.

تجرّعتُ نصف المشروب برشفة واحدة، كي أستجمع قواي، ورويتُ له فكرتي. أصغى إليّ باهتمام، دون أن يبدي استياءً أو تحفظًا.

- فكرة عبقريّة. - قال في نهاية خطابي.

- لا تسخر منّي.

- لن يخطر في بالي حتّى. أقول لك ما أفكّر فيه حقًّا.

- وفيمَ تفكّر أيضًا؟

- في أنّ هذه الحكاية، عليك أن تكتبها بنفسك. فهي حكايتك.

هززتُ رأسي متثاقلًا.

- لا أعرف كيف أفعلها. لست كاتبًا.

- اشترِ أندروود.

- لم أكن أعلم أنّهم روّجوا هذه الدعاية في فرنسا أيضًا.

- لقد روّجوها في كلّ مكان. لا تثق بالدعاية. بإمكانك أن تشتري أوليفيتي إن أردت.

ابتسمتُ. كنت على الأقلّ أتشارك مع كاراكس حسَّ الدعابة.

- دعني أريك...

- كيفيّة الكتابة؟

- عليك أن تتعلمها بنفسك. - ردّ - فالكتابة مهنةٌ نتعلّمها، ولا نستطيع تعليمها. في اليوم الذي ستعي فيه معنى هذا الكلام ستتعلّم كيف تصبح كاتبًا.

فكّ أزرار سترته الكتّانيّة السوداء وأخرج غرضًا لا معًا. وضعه على الطاولة ودفعه نحوي.

- خذه. - بادر.

قلم. أكثر قلمٍ خياليّ رأيته في حياتي. سلطان كل أقلام مونبلان.

كان متوّجًا بريشة ذهبيّة وبلاتينيّة؛ ولو كنت ما أزال طفلًا لظننتُ أنّ تلك الريشة ينبوعٌ لروائع الأعمال الأدبيّة.

- يقال إنّه في الأصل لفيكتور هوغو، مع أنّي أرى في هذا التأكيد اعتبارًا مجازيًّا بحت.

- هل كانت أقلام الحبر دارجة على أيّام فيكتور هوغو؟ - سألتُ.

- اختُرِعَ أوّل قلم حبر سائل عام 1827 على يد الرومانيّ بيتراك بوينارو. إلّا أنّه ابتداءً من ثمانينّات القرن التاسع عشر أتقنوا صنعه فدخل الأسواق من أوسع الأبواب.

- يعني أنّه قد يكون لفيكتور هوغو.

- إن بذلتَ أنت جهدًا... بوسعنا أن نقول إنّه انتقل من يد المسيو هوغو إلى يد صديقي العزيز المحترم دانيال سيمبيري. ومع الوقت، تلاقى دربه بدربي واحتفظتُ به خلال تلك الأعوام بانتظار اليوم الذي يأتي فيه رجلٌ، رجلٌ مثلك، ليحصل عليه. وقد حانت الساعة.

استنكرتُ بشدّة، ودفعتُ القلم نحو يديه.

- على الإطلاق. لا يمكنني تقبُّل الهديّة. إنه مُلكك.

- القلم ليس مُلكًا لأحد. إنّه روحٌ حرّة تلازم المرء ما دام في حاجة إليها.

- قالتها شخصيّةٌ في إحدى رواياتك.

- يلومونني دائمًا أنّني أكرّر نفسي. إنّه داءٌ يصيب كلّ الروائيّين.

- لم أصب به أبدًا. دليلٌ على أنّي لست بروائيّ.

- دع الأيّام تحكم. خذ القلم.

- كلا.

رفع كتفيه لامباليًا وأعاد القلم إلى مكانه.

- هذا لأنك لست مستعدًّا بعد. فالقلم مثل القطّ: يتبع من يُطعِمه.

وكما يأتي، يغادر.

- ما رأيك باقتراحي؟

تناول كاراكس آخر لقمة من الجيلاتو.

- فلنتّفق على شيء. سنكتب الرواية بأربع أيدٍ. ستضع فيها عنفوان الشباب منك، وأضع فيها حيل الثعلب العجوز منّي.

تجمّدتُ في مكاني.

- هل أنت جادٌّ فيما تقول؟

نهمض عن الطاولة وربَّت على كتفي.

- شكرًا على الجيلاتو. المّرة القادمة سيكون لقاؤنا على حسابي.

وكان هناك مرّة قادمة ومرّات أخرى كثيرة. لم يطلب كاراكس خلالها إلا الجيلات بنكهة الفراولة، سواء في الصيف أم في الشتاء، لكنّه لم يكن يأكل رقاقة الحلوى. كنت أحمل إليه الصفحات التي كتبتُها، وكان يدقّق فيها، ويشير هنا ويشطب هناك ويعيد الكتابة أحيانًا.

- لست متأكدًا من أنّ هذه البداية هي المناسِبة. - أقول.

- ليس للحكاية بداية ولا نهاية، إنّما مداخل.

كان كاراكس في كلّ لقاءاتنا يقرأ كلّ صفحاتي بعناية. يستلّ قلمه ويدوّن ملاحظاتٍ يستخدمها لاحقًا ليشرح لي بصبر جميلٍ مكامن أخطائي، التي كانت كثيرة. نقطةً بنقطة، كان يشير إلى العوائق، ويفصح عن أسبابها ويشرح لي بالتفصيل كيف أصحّحها. كان تحليله شديد الدقّة بشكل استثنائيّ. وكلّما تبيَّنَ لي خطأ ارتكبته، لفت انتباهي إلى خمسة عشر خطأ آخر لم أكن أشكّ فيها البتّة. كان يفكّك كلّ كلمة وجملة ومقطع، ويعيد تركيبها كأنّه صائغ ذهب يعمل بالعدسات. يفعلها بانسياب كما لو كان مهندسًا يشرح لمتدرّب كيفيّة تشغيل محرّك احتراق أو آلة بخاريّة. وأحيانًا يناقشني بالتعابير والأفكار التي كنتُ أظنّ أنها الوحيدة التي نجت في ذلك النهار، والتي كنتُ في معظمها قد نسختُها عنه.

- لا تحاولْ أن تقلّدني. فإنّ تقليد كاتب آخر هو أشبَه بالعكّازة.

تفيدك كي تتعلّم وكي تجد أسلوبك الخاصّ، لكنّها تناسب المبتدئين.

- وماذا أنا سوى مبتدئ؟

لم أعرف أين كان يقضي لياليه وأوقاته التي لا يتقاسمها معي. لم يبح لي بذلك وما تجرّأتُ على السؤال. كنا نلتقي دائمًا في مقاهي المدينة القديمة وحاناتها. شرطه الوحيد أن يأتوه بجيلاتو الفراولة.

كنت أعلم أنّه يذهب كلّ عصر إلى موعده مع نوريا مونفورت. وعندما قرأ للمرّة الأولى الجزءَ الذي تظهر فيه شخصيّتُها، ابتسم بحزنٍ ما زال يجتاحني إلى الآن. لقد فقد خوليان كاراكس غدده الدمعيّة في الحريق الذي شوّهه، ولم يعد يستطيع البكاء، لكنّي لم أعرف رجلًا آخر يتنفّس ظلال الفقدان مثله.

أريد أن أفكّر أنّنا بتنا صديقين عزيزين. من جانبي على الأقلّ، لم أتعرّف على صديق أفضل منه إطلاقًا، وأعتقد أنّني لن أعرف مثله في المستقبل. لعلّ مردّ ذلك المودّة التي كنَّها لوالديّ، أو ربّما لأنّ عمليّة بناء الماضي الفريدة من نوعها تلك كانت تساعده على التصالح مع آلامه التي استنزفت حياته، أو ببساطة لأنّه كان يرى فيَّ شيئًا من ذاته.

فوقف إلى جانبي يقتاد خطواتي وقلمي طوال تلك الأعوام التي استغرقتها في كتابة تلك الروايات الأربع، بالتصحيح تارة وبالشطب وإعادة الكتابة تارة أخرى حتّى النهاية.

- ما الكتابة إلّا إعادة الكتابة. - يذكّرني دومًا - نحن نكتب من أجل أنفسنا، ونعيد الكتابة من أجل الآخرين.

وبطبيعة الحال، كانت لديَّ حياة بمعزل عن التخييل الأدبيّ. لقد حدثت أشياء كثيرة في تلك الأعوام التي كرّستها لكتابة وإعادة كتابة كلّ صفحة من الملحمة. وقد وفيتُ بعهدي ألّا أتَّبع خطى والدي إلى قيادة المكتبة (ففي المحصّلة، كان هو ووالدتي يكفيان ويزيدان لتصريف الأمور). وجدتُ عملًا في وكالة إعلانيّة كان مقرّها - لسخرية القدر - يقع في 32 جادّة تبيدابو، في الفيلا القديمة لآل ألدايا حيث حبلت بي والدتي في ليلةٍ عاصفةٍ بعيدة عام 1955.

لم تكن أعمالي في المجال الدعائيّ تبدو لي خالدة، إلّا أنّي فوجئت بالراتب المتأتّي منها، إذ كان يتضخّم شهرًا بعد شهر، وكانت أسهمي كمرتزق للكلمات والتشابيه في تصاعد مستمرّ. مرّت السنوات وكنت خلالها أبلي بلاء حسنًا في مجال الإعلانات المتلفزة والإذاعيّة والصحافيّة، على شرف السيّارات الفارهة التي تُسيِّلُ لعاب المدراء الواعدين لتولّي المصارف التي تعمل دومًا على تحقيق أحلام المدَّخِرين الصغار. كما عملتُ على إعلانات الأدوات كهربائيّة منزليّة تضمن السعادة؛ وعطورٍ تناجي حياة الطيش الجسديّ؛ وأنماط الحياة التحرريّة المتكاثرة في إسبانيا الجديدة التي بعد غياب النظام القديم - أو تضليله المكشوف على الأقلّ - كانت تدخل عصر الحداثة على سرعة المال، وتنمو على وتيرة مؤشّرات البورصة التي تبدو جبالُ الألب أشبَه بالتلال الصغيرة مقارنةً بها. وحين عرف والدي بالمبالغ التي كنت أتقاضاها، سألني إن كان عملي قانونيًّا.

- قانونيٌّ نعم. أخلاقيّ، فهذا موضوعٌ آخر.

أمّا فيرمين فلم يكن متحفّظًا على ازدهاري، بل كان مسرورا.

- ما دمتَ لم تركب عقلك ولم تضيّع البوصلة، فاصنع أموالًا الآن وأنت شابّ، لأنّ الأموال مفيدة في هذه الأحوال تحديدًا. فما بالك بأعزب ذهبيّ مثلك. كميّة الفتيات الخارقات اللواتي تصادفونهنّ في مجال الدعايات، حيث كلّ شيء جميل ومتألّق... كم كان سيسعدني لو أنّي تذوّقتُ هذا النعيم في حقبة ما بعد الحرب الخرائيّة التي تحتَّمت علينا، ففي زماني حتّى العذارى كان لديهنّ شوارب. ادخلْ بها! وتمتّع بوقتك الآن، فهذه أيّامك. أطلقْ لنفسك العنان، فهمتَ قصدي، وتعرَّفْ على كلّ ما يمكنك التعرّف عليه، وتذكّرْ أن تقفز من القطار قبل فوات الأوان، فبعض المهن لا تناسب إلّا الذين في مقتبل العمر. إلّا إذا أصبحتَ صاحب الأسهم الكبرى في المنطقة، لكنّي لا أراك هكذا.

فكلانا يعلم أنّ لديك مسائلَ عالقةً في الأدب الذي لا يعد أصحابَه بالثراء. ومن الجنون ان تبقى في مصنع الأسلحة هذا بعد أن تتخطّى الثلاثين من عمرك.

كنت في سرّي أخجل من عملي، ومن المبالغ الفاحشة التي يدفعونها لي. أو ربّما كنت أحبّ أن أفكّر بهذه الطريقة. ففي الحقيقة كنت أتقاضى راتبي الفلكيّ بكلّ سرور وأنتفه نتفًا ما إن يهبط في حسابي البنكيّ - لا شيء يستدعي الشعور بالخزي. - كان كاراكس يعلّق - بل على العكس، إنّها مهنة عبقريّة وستمنحك فرصة مناسبة إذا عرفتَ كيف تلعب أوراقك. ستساعدك على شراء حريّتك وبعض الوقت الذي ستخصّصه لتصير ما أنت عليه حقًّا، حالما تقرّر اعتزالها.

- ومن أنا حقًّا؟ مبتكر دعايات إعلانيّة للمشروبات الغازية وبطاقات الائتمان والسيّارات الفارهة؟

- ستكون ما تعتقد أنّك هو.

لم أكن مهتمًّا جدًّا بكينونتي بقدر اهتمامي بما يراني عليه كاراكس، أو بما يراني قادرًا أن أكون. وكنت أواظب على العمل على كتابنا، كما كان يحلو له أن يسمّيه. أصبح ذلك المشروع حياتي الثانية، عالمًا كنت أعلّق على أبوابه زيّ التنكّر الذي أعيش به حياتي، لكي أملأ القلم أو الأندرووِد حبرًا وأغرق في حكايةٍ هي بالنسبة إليّ أكثر واقعيّة من وجودي الدنيويّ الرغيد أضعافًا.

لقد غيّرت تلك السنوات أحوالنا جميعًا. فبعد مدّة من استضافته لأليثيا غريس، أعلن إسحاق مونفورت أنّ ساعة إحالته إلى التقاعد قد دقّت، واقترح على فيرمين أن يأخذ مكانه في حراسة مقبرة الكتب المنسيّة.

- لقد حان الوقت لتنصيب وغد على سدّة الحكم. - قال.

طلب فيرمين الإذن من برناردا، فوافقت على الانتقال إلى السكن في طابق أرضيّ بجوار مقبرة الكتب المنسيّة. وقد فتح فيه فيرمين مدخلا سريًا يقوده إلى دهاليز المبنى وحوّل غرف إسحاق القديمة إلى مكتبه الجديد.

اغتنمتُ فرصة عملي في تلك الفترة على دعاية إشهاريّة لعلامة أدوات كهربائيّة يابانيّة معروفة، فأهديته تلفازًا ملوّنًا جبّارًا من النوع الذي بات يُعرف حينذاك «alta gama». فيرمين الذي كان يعتقد أنّ التلفاز بمثابة المسيح الدجّال، عدّل حُكمه بعد أن اكتشف أنّه يبثّ أفلام أورسون ويلز -‹‹ ذاك المحتال، كم هو لبيب››، كان يقول - وكيم نوفاك على وجه الخصوص، التي كان ثدياها المدبّبان ما يزالان يغذّيان آماله بمستقبل البشريّة.

أمّا والداي، بعد عدّة أعوام من الاضطراب الذي كاد يودي بزواجهما كما تخيّلت، تخطّيا الأزمة التي لم يشأ أيٌّ منهما توضيح أسبابها لي. وفاجآ الجميع وأتياني بشقيقة سمّياها إيزابيلا. واستطاع جدّي سيمبيري أن يحملها بين ذراعيه قبل أن يموت بعد أيّام بذبحة قلبيّة صاعقة باغتته بينما كان يحمل صندوقًا يحتوي على الأعمال الكاملة لأليخاندرو دوما. دفنّاه بجانب إيزابيلا وبرفقة نسخة عن «كونت مونتكريستو». وقد شاخ والدي فجأة بعد رحيل والده، ولم يعد مثلما كان. ‹‹كنت أظنّ أنّ جدّك سيعيش إلى الأبد» - قال لي يومَ وجدتُه يذرف الدموع متخفّيًا في مستودع المكتبة.

تزوّج فرنانديتو وصوفيا، كما توقّع الجميع، وانتقلا إلى شقّة أليثيا غريس في شارع أفنيون. هناك حيث تخرَّجَ فرنانديتو على السرير وفي السرّ بعد أن طبّق على صوفيا كلّ التعاليم التي لقّنتُه إيّاها ماتيلدا في السابق. ومع الوقت، قرّرت صوفيا أن تفتتح مكتبة صغيرة لها متخصّصة بأدب الأطفال، وسمّتها «سيمبيري الصغيرة». ودخل ####### فرنا ندينو إلى العمل في مخزن كبير، ليصبح مع الأعوام مدير القسم في المكتبة.

عام 1981، بعد محاولة الانقلاب العسكريّ الفاشلة التي كادت تعيد إسبانيا إلى العصر الحجريّ أو ما هو أسوأ، أصدر سرخيو بيلاخوانا سلسلة مقالات في جريدة الطليعة، وكشف من خلالها عن قضيّة اختطاف مئات الأبناء من آبائهم الذين كان معظمهم معتقلين سياسيّين في سجون

برشلونة أثناء الأعوام الأولى ممّا بعد الحرب، ولقوا مصرعهم لإخفاء الأدلّة. أحدثت الفضيحة ضجّة مزلزلة ونكأت جراحًا كان يجهلها الكثيرون، في حين أراد آخرون التعتيم عليها. أدّت تلك المقالات إلى فتح سلسلة من التحقيقات ما تزال جارية حتى يومنا هذا، فنجم عنها محيّط شاسعٌ من الوثائق والتبليغات والمحاكمات المدنيّة والجزائيّة. فتجرّأ كثيرٌمن الناس إلى التقدّم خطوةً لتدبير الوثائق والشهود عن تلك الأعوام المظلمة في تاريخ البلاد، والتي ما زالت دفينةً حتى تلك اللحظة.

قد يتساءل صديقنا القارئ عمّا إذا كان الخارق خوليان سيمبيري، في خضمّ هذه المعمعة، لا يفعل شيئًا سوى العمل مرتزقًا في الصناعة الدعائيّة نهارًا، والأدب الطاهر البتول ليلًا. ليس هكذا بالضبط. فلقد تحوّل العمل على كتابة الروايات الأربع مع كاراكس، من نزهة في الجنّة إلى غولٍ يلتهم كلّ ما تطاله يداه، أيْ أنا. لا بدّ أنّ هذا الغول – الذي دخل حياتي ضيفًا وما عاد يخرج منها - قد تعلَّمَ كيف يتعايش مع الأشباح الأخرى لأيّامي. فعلى شرف جدّي الآخر، دافيد مارتين، أنا أيضًا أشرفتُ على تلك الهاوية الموجودة في قرارة نفْس كلّ كاتب، وتشبّثتُ بشفيرها برؤوس أصابعي عام 1982، عادت فالنتينا من ظلماتها وظهرت على مرآي في مشهدٍ كان كاراكس ليوقّع عليه بكلّ سرور. حدث ذات مساء أنّ دماغي ##### بدأ يسيخ ويتحوّل إلى سائلٍ يتسرّب من أذنيّ. التجأتُ إلى المكتبة الفرنسيّة، موقع الخطيئة الأصليّة، وكنت أتسكّع بين الطاولات التي تستعرض الثقافة المعاصرة، فرأيتها ثانيةً. وقفتُ متسمّرًا في مكاني، كأنّي تحوّلتُ إلى تمثال من ملح، حتّى حرّكت أنظارها ورأتني.

ابتسمت لي فهربتُ راكضًا.

بلغتني عند إشارة مرور شارع روسييون. كانت قد اشترت لي كتابًا، وحينما أخذته دون أن أرى ما هو، أسندت يدها على ذراعي.

- عشر دقائق؟ - سألتني.

وطبعًا، لم تتأخّر الأمطار عن الهطول. لكنّ ذلك أسوأ ما جرى.

فبعد أن أمضينا ثلاثة أشهر، بين لقاءات خاطفة في أحد بيوتها المطلّة على نصف الكرة الشماليّ، انتقلنا للعيش معًا. أو بالأحرى جاءت فالنتينا لتسكن عندي، لأني حينذاك كنت أقيم في بيت كبير التطلّعات في منطقة ساريا، ولديّ مجالٌ واسع، وفراغٌ كبير أيضًا. بقيت فالنتينا هذه المرّة عامين وثلاثة أشهر ويوم واحد. لكنّها بدل أن تحطّم قلبي - الأمر الذي فعلته عمومًا - تركت لي أحلى هديّة أتلقّاها: ابنة.

سمّيناها أليثيا سيمبيري في أغسطس عام 1982. وفي العام اللاحق، بعد سلسلة من الصولات والجولات التي لم أفهمها، رحلت فالنتينا ثانيةً، إلى غير رجعة هذه المرّة. بقينا أليثيا وأنا معًا، لكنّنا لم نكن وحيدين، لأنّ أليثيا أنقذت حياتي وعلّمتني أنّه لا معنى لما أفعله ما لم يكن لأجلها. وخلال الأعوام التي عملتُ فيها لإنجاز تلك الكتب اللعينة، لا لشيء سوى للتخلُّص من همِّها، ظلّت أليثيا بجانبي وأعادت إليّ ما كنت معتادًا على عدم الإيمان بوجوده: الوحي.

حظيتُ بصحبة عابرة، ومشاريع لإيجاد أمٍّ تتبنّى أليثيا، وأرواح كريمة كنت دائمًا ما أبتعد عنها. وكانت طفلتي تقول لي دومًا إنّها لا تحبّ أن تراني وحيدًا، فأجيب بأنّي لست كذلك.

- لديَّ أنتِ. - اقول لها.

كان لديَّ أليثيا وجميع الظلال العالقة بين الواقع والتخييل. عام 1991، بعد أن ظننتُ أنّي إن لم أفعلها فورًا، وألقي بنفسي من القطار، كنت سأخسر القليل الذي تبقّى لي من الروح. فاعتزلتُ مسيرتي الباهرةُ في صناعة الدعايات الفاخرة إلى الأبد، وكرّستُ ما تبقّى من السنة لإنجاز الروايات.

وعند ذلك الحدّ، بات من المستحيل تجاهلُ صحّة خوليان كاراكس المتردّية. لقد اعتدتُ أن أراه بلا عُمر، ومن الصعب أن يحدث له مكروه. اعتدتُ أن أنظر إليه كما ينظر المرء إلى أبيه، شخصًا لن يتركك أبدًا. ‹‹كنت أظنّ أنّه سيعيش إلى الأبد»..

لم يعد كاراكس يطلب الجيلاتو بالفراولة خلال لقاءاتنا. وعندما ألتمس نصيحة منه، يكتفي بتصحيحات وإلغاءات طفيفة. ويقول إنّي بتّ قادرًا على الطيران بمفردي، وإنّي حصلتُ على الأندروود خاصّتي وإنّي لم أعد بحاجة إليه. واستغرقتُ وقتًا طويلًا لأفهم الأمر، لكنّي في النهاية لم أعد أستطيع أن أخدع نفسي وأتجاهل أنّ ذلك الحزن الرهيب - الذي لطالما حمله في صدره - يعود ليسدِّد إليه الضربة القاضية.

ذات ليلة، حلمتُ بأنّي أضعته في الضباب. خرجتُ أبحث عنه في قلب الليل. ومررتُ بكلّ الأماكن التي التقينا فيها طوال تلك السنوات.

وجدتُه مستلقيًا على قبر نوريا مونفورت فجرَ الخامس والعشرين من سبتمبر عام 1991. وفي يده محفظة القلم الذي كان لوالدي، وبطاقة:

خوليان،

إنّني فخورٌ بأنّي كنتُ صديقك، وفخورٌ بكلّ ما تعلّمتُه منك.

يؤسفني ألّا أكون بجانبك لرؤيتك ظافرًا وحاصلًا على ما لم أستطع الحصول عليه، لكنّي سأطمئن إذا عرفتُ يقينًا انّك لم تعد بحاجه إليّ، كما لم تكن كذلك من قبل، وقد تبذل جهدًا في فهم الأمر في البداية. سأذهب للقاء المرأة التي ما كان ينبغي لي أن أهجرها. اعتنِ بوالديك وبكلّ شخصيّات حكايتنا. اروِ للعالم قصصنا، ولا تنسَ أبدًا أنّنا موجودون طالما يذكرنا الآخرون.

صديقك،

خوليان كاراكس

في ذلك اليوم، علمتُ أنّ الفراغ المجاور لقبر نوريا مونفورت كان تابعًا لبلديّة برشلونة، كما قيل لي. ناهيك بأنّ جشع الضرائب في المؤسّسات الإسبانيّة لا يلين أبدًا. وهكذا، بعد مباحثات طويلة، توصّلنا إلى رقمٍ فلكيّ دفعتُه مباشرة. فشعرتُ لأوّل مرّة بأنّي أُحسِنُ إنفاق الأموال الطائلة التي جنينها من دعايات السيّارات الرياضيّة البطوليّة وشمبانيا أعياد الميلاد، تلك الدعايات المكتظة بالراقصات أكثر من العقل الباطن لروسبي بيركيلي.

ودفنّا معلّمي، خوليان كاراكس، في يوم سبت من أواخر سبتمبر.

كانت ابنتي أليثيا معي. عندما رأت القبرين واحدًا بجانب الآخر، شدّت على يدي وقالت لي بأن أطمئنّ، فصديقي آنذاك لم يعد وحيدًا.

يصعب عليّ الحديث عن كاراكس. أتساءل أحيانًا إذا ما كنت قد ورثتُ لوثةً من جدّي الآخر، البائس دافيد مارتين، فابتكرتُ كاراكس مثلما ابتكر هو المسيو كوريلي، ليتسنّى له سرد أشياء لم تقع أساسًا.

بعد أسبوعين من الجنازة، بعثتُ للمدام كوريغان والسنيور كوليتشو في باريس لأخبرهما عن رحيله. وسألتُهما في رسالتي أن يتفضّلا بنقل الخبر إلى صديقه جان ريموند وإلى مَن يرونه مناسبًا. فأجابت السيّدة كوريغان، تشكرني على رسالتي وتقول لي إنّ كارا كس قبل وفاته بقليل كتب لها يحدّثها عن المخطوطة التي كنّا نعمل عليها طوال أعوام.

وطلبت مني أن أرسلها إليها حالما تكتمل. لقد علّمني كاراكس أنّ الكتاب لا ينتهي أبدًا لكنه لحسن الحظّ يقرّر أن يتركنا لئلا نقضي الأبديّة كلّها في إعادة كتابته والعمل عليه.

أواخر العام 1992، نسختُ الكتاب الذي وصل إلى قرابة ألفي صفحة مخطوطة، وهذه المرّة نعم، بتنضيدٍ على الأندروود، وأرسلته إلى وكلاء كاراكس. وبدأتُ العمل على تأليف رواية جديدة متّبعًا بذلك نصيحة معلّمي مرّة أخرى. ‹‹من الأفضل أحيانًا أن تشغِّل دماغك وتستهلكه بدلًا من أن نتركه يستريح، بحيث ينتابه الضجر فيلتفت إلى نهشك حيًّا».

وأمضيتُ الأشهر بين كتابة تلك الرواية التي ليس لها عنوان، وبين نزهات مطوّلة في أرجاء برشلونة مع أليثيا التي بدأت تتوق لمعرفة كلّ شيء.

- هل الكتاب الجديد عن فالنتينا؟

لم تكن تحيل عليها بصفة الأمّ، إنّما باسمها فقط.

- لا. إنّه عنك.

- كاذب.

تعلّمتُ في تلك النزهات أن أعيد اكتشاف المدينة من خلال عيني ابنتي، ففهمتُ أنّ برشلونة الظلاميّة التي عاش فيها والداي كانت تصفو رويدًا رويدًا، في غفلةٍ منّا. ذلك العالم الذي تخيّلتُ أنّي أذكره، تَحوّلَ آنذاك إلى مشهدٍ معطّر ومليء بالسجّاد من أجل السيّاح والأناس الطيّبين المولعين بالشمس والشاطئ، أولئك الذين مهما تمعّنوا يرفضون رؤية مغيب حقبةٍ كانت تنهار لا بل تتلاشى في ستارةٍ من غبارٍ ما زلنا نتنفّسه في الهواء.

وما انفكّ ظلّ كاراكس يلا حقني أينما رحت. كانت والدتي غالبًا ما تأتي إليّ حاملةً معها الصغيرة إيزابيلا كي تُظهِرَ لها ابنتي كتبها وألعابها التي كانت على كثرتها ليس بينها أيّ دمية. كانت ابنتي تكره الدمى وتهشّم رؤوسها بالمقلاع في باحة المدرسة. والدتي تسألني إن كنتُ بخير، وهي تعلم يقينًا أنّ الجواب لا؛ وتسألني إن تلقّيتُ أخبارًا عن فالنتينا، وتعلم أنّ الجواب لا.

لم أشأ أن أروي لها أيّ شيء بخصوص كاراكس والألغاز وفترات الصمت التي عشتها طوال تلك السنوات. حدسي كان يخبرني بأنّها تتصوَّر ما حدث، إذ ليس لديّ أسرارٌ أخفيها عن أميّ عدا تلك التي تتظاهر بقبولها.

- والدك مشتاقٌ إليك. - تقول لي - عليك أن تمرّ إلى المكتبة غالبًا. حتّى فيرمين سألني قبل أيّام إن كنتَ قد أصبحتَ راهبًا معتكفًا.

- كنت مشغولًا في محاولة إتمام كتاب.

- طوال خمسة عشر عامًا؟

- اتّضح لي أنّ الأمر أصعب ممّا كنتُ أتوقّع.

- هل بإمكاني أن أقرأه؟

- لست متأكدًّا إن كان سينال إعجابك. في الحقيقة، لا أعلم إن كان إصدارُه فكرةً صائبة.

- هلّا أخبرتني عمّا يتحدّث؟ - عنّا. عنّا جميعًا. حكاية العائلة.

نظرت إليّ والدتي بصمت.

- ربّما ينبغي أن أتلفه. - اقترحتُ.

- الحكاية حكايتك. لك أن تفعل بها ما تراه مناسبًا. الآن وقد رحل جدّك تغيّرت الأشياء. لا أعتقد أن أسرارنا ستهمّ أحدًا ما.

- وبابا؟

- من الوارد أنّه الشخص الأنسب لقراءته. لا تظنَّ أنّنا لم نتكهَّن بما كنتَ تفعله. لسنا أغبياء إلى هذا الحدّ.

- هل تأذنين لي إذن؟

- لستَ بحاجة إلى إذنٍ منّي. أمّا إذا أردت إذنًا من والدك، فعليك أن تسأله شخصيًّا.

ذهبتُ لزيارته في صباحٍ باكر، عندما علمتُ أنّه يكون بمفرده في المكتبة في ذلك الوقت. أخفى تعبير المفاجأة حين رآني. سألته عن أحوال العمل، فأجاب على مضض أنّ حسابات سيمبيري وأبناؤه في الحضيض، وقد تلقّى عروضًا لبيع المكتبة وتحويلها إلى دكّانة لأغراض سياحيّة كبيع مجسّمات الساغرادا فاميليا وقمصان البرشا.

- حذّرني فيرمين أنّه في حال وافقتُ سيحرق نفسه قبالة المكتبة مثل رهبان البونزو.

- يا لها من ورطة. - أشرتُ.

- إنّه مشتاقٌ إليك. - قال لي بتلك النبرة التي يستخدمها لينسب للآخرين مشاعرَ كان يفرض الاعتراف برؤيتها في نفسه - وأنت، كيف حالك؟ والدتك تقول لي إنّك تركت الدعايات لتلتفت إلى الكتابة فقط.

متى بإمكاننا أن نعرض شيئًا للبيع في هذه المكتبة؟

- هل حدّثتك عن نوع الكتاب؟

- من البديهيّ أنك غيّرتَ الأسماء وعدّلتَ بعض التفاصيل المشينة، كي لا تفضح الجيران على الأقلّ.

- واضح. الوحيد الذي يظهر بكامل مساوئه هو فيرمين. لا بّد أنّه سيوافق على ذلك. سيكون لديه معجبون أكثر من كورذوبيس.

- هل نهيِّئ للكتاب مكانًا في الواجهة؟

رفعتُ كتفيّ.

- تلقّيتُ هذا الصباح رسالة من وكيلين أدبيّين كنتُ قد أرسلتُ إليهما المخطوطة. وهي عبارة عن اربع روايات. ثمّة محرّرٌ في باريس، إميل دو روزبيه، مهتمٌّ لإصدارها. كما أنّ محرّرة ألمانيّة، ميشي شتراوسمان قدمت عرضا لنيل الحقوق. وبالنسبة إلى الوكيلين، هناك عروض قادمة، مع أني مضطر لتعديل مليون شيء قبل ذلك. فرضتُ شرطين: الأوّل هو حصولي على موافقة والدَّي وعائلتي لسرد هذه القصّة. والثاني أن تصدر الرواية باسم خوليان كاراكس.

طأطأ والدي رأسه.

- كيف حال كاراكس؟ - سألني.

- في سلام.

هزّ رأسه.

- هل تأذن لي؟

- هل تذكر ذلك اليوم، حين كنتَ صغيرًا ووعدتني بأنّك ستروي الحكاية نيابةً عنّي؟

- أجل.

- لم أشكَّ يومًا واحدًا طوال تلك المدّة في أنّك ستفعلها. إنّي فخورٌ بك يا ولدي.

عانقني والدي مثلما لم يفعل منذ طفولتي.

عرّجتُ إلى فيرمين في مكتبه في مقبرة الكتب المنسيّة في أغسطس 1992، يوم افتتاح دورة الألعاب الأولمبيّة. كانت برشلونة تزدهي بالأنوار، ونسيمُ التفاؤل ينعش أجواءها بالأمل الذي لم أشعر به من قبل، وربّما لن أراه ثانيةً في طرقات مدينتي. ما إن وصلتُ، ابتسم فيرمين وأدّى تحيّة عسكريّة. رأيته متقدّمًا في السنّ كثيرًا، لكنّي لم أفصح له عن ذلك.

- ظننتكَ ميّتًا. - صرّح.

- على وشك. امّا أنت، تبدو لي كالثور.

- بفضل السوغوس التي ملأتني بالسّكّر.

- هذا هو السبب إذن.

- قالت لي العصفورة إنّك ستجعلنا شهيرين. - ارتجل فيرمين.

- أنت تحديدًا. عندما يقدّمون لك عروضًا لتكون بطل إحدى الدعايات، لا تتردّد في استشارتي. فما زلت أفهم بهذا الأمر.

- أعتقد أنّي سأوافق على دعايات السراويل الداخليّة الرجّالية حصرًا.

- ردّ فيرمين.

- أهذا يعني أني حصلتُ على إذنك؟

- بل لك مباركني الشاملة urbi et orbi / للمدينة والعالمين.

لكنّي لا أظنّ أنّك أتيت هنا لهذا فقط.

- لماذا تنسب إليّ دوافع غيبيّة يا فيرمين؟

- لأنّ عقلك أعوج مثل النابض. أقولها مديحًا.

- فلماذا جئتُ إلى هنا، برأيك؟

- لعلّك تريد أن تصغي إلى كلماتي الراقية، أو لتصفية حساب كان معلّقًا بيننا منذ زمن.

- أيّ حساب من بين حسابات كثيرة؟

اقتادني فيرمين إلى غرفةٍ كان يُبقيها مقفلةً لحمايتها من حملات ذرّيته المتعدّدين. ودعاني للجلوس على ديوان الأدميرال الذي اشتراه من سوق العجائب. وجلس على كرسيّ بجانبي. أخذ علبة كرتونيّة ووضعها على ركبتيه.

- هل تذكر أليثيا؟ - قال - سؤالٌ شكليّ.

شعرتُ بغصّة عند الفؤاد.

- أهي حيّة؟ هل عرفتَ شيئًا عنها؟

فتح العلبة وأخرج مجموعة رسائل.

- لم اقل لك إطلاقًا، لأنّي فكّرت أنّ في إخفاء الأمر خيرًا للجميع، لكنّ أليثيا عادت إلى برشلونة عام 1960 قبل أن تغادر نهائيًّا.

في يوم القدّيس جوردي، 23 أبريل. عادت لتودّعني، على طريقتها.

- أذكر ذلك اليوم جيّدًا. كنتُ صغيرًا حينها.

- وما زلت.

تبادلنا نظرة صامتة.

- إلى أين سافرت؟

- ودّعتها عند رصيف الميناء، ورأيتها تصعد على متن سفينة متّجهة إلى أمريكا. ومنذ ذلك الوقت، وأنا أتلقّى رسالة بلا مرسِل في كلّ أعياد الميلاد.

أعطاني فيرمين الكومة التي تحتوي على أكثر من ثلاثين رسالة.

واحدة بالسنة.

- بإمكانك أن تفتح الظروف.

كان كلُّ ظرفٍ منها يحتوي على صورة فوتوغرافيّة. ودمغةُ البريد تشير إلى أنّ كلَّ ظرفٍ كان مرسَلًا من مكان مختلف: نيويورك، بوسطن، واشنطن العاصمة، سياتل، دنفر، سانتا في، بورتلاند، فيلادلفيا، كي ويست، نيو أورليانز، سانتا مونيكا، شيكاغو، سان فرانسيسكو...

نظرتُ إلى فيرمين، مشدوهًا. كان يدمدم النشيد الأمريكيّ الذي بدا على شفتيه أشبَه بالساردانا الشعبيّة. كلّ صورة كانت مُلتَقَطة والشمسُ في الوراء، وهناك ظلٌّ أو طيفٌ لامرأةٍ تبرز أمام خلفيّةٍ من المنتزهات أو ناطحات السحاب أو الشواطئ أو الصحاري أو الغابات.

- أهذا كلّ شيء؟ - سألتُ - أما من بطاقة؟ أو شيء آخر؟

نفى فيرمين برأسه.

- لا شيء لغاية الرسالة الأخيرة. وقد وصلتني في أعياد الميلاد المنصرمة.

قطّبتُ جبيني.

- وكيف عرفت أنّها الأخيرة؟

أعطاني الظرف.

يشير الطابع البريديّ أنّها مرسَلة من مونتيري في كاليفورنيا.

أخرجتُ الصورة وتهتُ فيها. للمرّة الأولى لا تظهر كظلّ. كانت أليثيا غريس هناك حقًّا، بعد ثلاثين عامًا، تنظر إلى العدسة وتبتسم ممّا بدا لي أجمل مكان في العالم، شبه جزيرة صخريّةٍ تتداخل فيها الغابات الشبحيّة بالبحر ما بين ضباب المحيط الهادي. وبجانبها لافتةٌ تقول:

بوينت لوبوس. قلبتُ الصورة فرأيتُ خطّ يد أليثيا.

نهاية المشوار. لقد استحقّ العناء. أجدِّد شكري لك لأنّك أنقذت حياتي يا فيرمين، مرّةً واثنتين وأكثر. أنقذ نفسك أنت أيضًا، وقل الخوليان أن يخلِّدنا جميعًا، لأننا لطالما عوَّلنا على ذلك.

خالص المودّة

أليثيا

امتلأت عيناي بالدموع. تمنّيتُ أن تكون أليثيا قد وجدت سلامها ولاقت مصيرها في ذلك المكان الشبيه بالحلم بعيدًا عن مدينتنا برشلونة.

- هل بإمكاني الاحتفاظ بها؟ - قلت بصوت مبحوح.

- إنّها لك.

عرفتُ حينذاك أنّي وجدتُ القطعة الناقصة من حكايتي أخيرًا.

عرفتُ أنّني اعتبارًا من تلك اللحظة، سأكون على موعدٍ مع الحياة، والتخييل الأدبيّ أيضا، إذا حالفني الحظّ.

خاتمة

يرشلونة

9 أغسطس 1992

رجلٌ شابّ، تتخلل بعضُ الخُصل البيضاء شعرَه، يمشي في شوارعِ برشلونة ذات الظلال، تحت قمرٍ منثورٍ على لاس رامبلاس دي سانتا مونيكا مثل شريطٍ فضّيٍ يقتاد خطواته. يمسك بيد طفلةٍ في سنواتها العشر، نظراتها ثملةٌ باللغز الذي وعَدَها به والدُها عند المغيب، الوعد باصطحابها إلى «مقبرة الكتب المنسيّة»..

- أليثيا، إيّاكِ أن تخبري أحدًا بما سترينه هذه الليلة. كائنًا مَن كان.

- سيكون سرًّنا إذن. - تقول بهمسات صوتها.

يتنهَّد والدها، محتميًا بتلك الابتسامة الحزينة التي تلازمه طوال حياته.

- بالتأكيد. سيكون سرًّنا إلى الأبد.

وها إنَّ السماءَ تشتعل بضوءٍ منهمرٍ كالصفصاف، والألعاب الناريّة الحفل اختتام الأولمبياد تُجمِّدُ لحظةَ الليل في برشلونة التي لن تعود أبدًا.

وبعد قليل، يتلاشى طيفُهما كالبخار، ويمتزج الوالد وابنتُه بالزحامِ الذي يفيض في لاس رامبلاس، وتذوبُ أصداءُ خطواتهما إلى الأبد في متاهة الأرواح.

شعار «مقبرة الكتب المنسيّة» مستوحى من صورة
من داخل كاتدرائيّة الساغرادا فاميليا في برشلونة
بعدسة فرانثسك كاتالا-روكا

هذا الكتاب

يصل بنا كارلوس زافون إلى محطّته الأخيرة من ملحمة «مقبرة الكتب المنسيّة». **متاهة الأرواح** هي الحلقة الرابعة بعد **سجين السماء** و**لعبة الملاك** و**ظلّ الريح**. روايةٌ متوقّدة، لا تقلّ عن سابقاتها من حيث الحماسة والإثارة والتشويق. تعود بنا مرّة أخرى إلى تلك الأزقّة الضيّقة التي يكتنفها غموضٌ مريب ولغزٌ عصيب، ما بين برشلونة الزاهية ونقيضها اللعين، لتغدو المدينة مثل دوائر الجحيم يحوي بعضُها بعضًا. نقابل فيها وجوهًا جديدة، تنضمّ إلى الشخصيّات السابقة وتتفاعل معها. وبدلًا من إرشادنا إلى ختمةٍ نهائيّةٍ للرباعيّة، تنفتح الصفحات على سيناريوهات مختلفة. فتّسع لتشمل أمكنة أخرى، وتتعمّق في الحديث عن أزمنةٍ مهّدت للحرب والمأساة وما تبعها من أعوام التسلُّط والقهر والجور. **متاهة الأرواح**، متاهة النهايات. لعبةٌ أتقنها الروائيّ الذي كلّما لملم الأوراق بعثرها. حبكةٌ تعلّق بها القارئ الذي كلّما استشفّ احتمالًا واردًا لنهايةٍ معقولة، فوجئ بالسرد ينعطف به إلى رؤية مغايرة. يُقدّم لنا زافون أنموذجًا مميّزًا على مرونة الرواية وقدرتها على السلاسة والتكثيف، كما يحتفي بعالم الكتب وفنون صوغ الحكاية، والعلاقة السحريّة التي تتوطّد ما بين الأدب والحياة.

الغلاف : سكينة صلوّن
ISBN 978-9922605623
9 789922 605623